السعوديون والحل الإسلامي..

مصدر الشرعية للنظام السعودي

محمد جلال كشك

الإهــــداء

إلى :

عبد الرحمن الجبرتي وابن بشر .. حفظا التاريخ فحفظهما ..

الطبعة الأولى
١٤٠١ هـ ــ ١٩٨١ م

وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضعِفُواْ فيِ ٱلْأَرْضِ
وَنجْعَلَهُم أئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ ..

الصف والتصميم والطباعة ـ شركة مودي جرافيك بلندن
Moody Graphics & Trans. Centre Ltd.,
49 St. James's Street. London SW1A 1ES.
Tel. : 499 6264/7 Telex : 262391 Moodys G

خطبة الكتاب

حديث « الحل الاسلامي » ، هو حديث الساعة داخل العالم الاسلامي وخارجه ، هو القضية التي تشغل بال الذين يرجون ، والذين يخشون ، بعد ما فشلت كل الحلول البديلة ، وبعد ما ثبتت قدرة هذا الحل على استقطاب ، أو حتى استنبات مؤمنين هم وحدهم الذين بقوا في الساحة يطالبون ويستشهدون في سبيل التغيير .

بعد ما بدا أن كل القوى قد تآكلت أو استكانت ، رهبة من موجة القمع التي فاقت أحلك عصور الاستبداد التي عرفتها أمتنا ، أو رغبة في ذلك المال المتدفق كالسيل المدمر يخنق الأصوات ، ويفتت الارادات ويعمي العيون ..

سكتت كل الأصوات ، وبقي أنصار « الحل الاسلامي » وحدهم في الساحة ، وهم الذين تعرضوا لكافة أشكال التنكيل والقهر والحصار والتشويه ، وفشل ذلك كله ، في اقتلاعهم أو تشكيكهم في صوابية « الحل الاسلامي » .. وكل يوم يمر ، يثبت ليس فقط أنهم وحدهم يمتلكون الطاقة الاستشهادية ويرفعون راية التغيير ، بل وأيضا أنهم وحدهم يمثلون التيار الثوري ، الذي استطاع التخلص من آثار الغزو الفكري والتعلق بأوهام الاعتماد على قوة خارجية ، التيار الذي استطاع تخطي الطائفية والشوفينية وأوحال الحاضر العربي ..

ولكن « الحل الاسلامي » ليس شعارا جديدا يطرح للتجربة ، بل هو الشعار المطروح منذ بداية الهزيمة أمام العالم الخارجي ، أو أمام الغزوة الصليبية الأوروبية .

وقد شهد التاريخ الحديث للعالم العربي في القرون الثلاثة الماضية عدة

محاولات حاولت طرح الحل الاسلامي ، وبعضها نجح في إقامة دولة تحت شعاره ، ولكنها جميعا سقطت أو أُجهضت تحت تأثير عوامل شتى تجب دراستها والاستفادة منها بهدف توفير أفضل الظروف لنجاح المحاولات المعاصرة .

والدارس لتاريخ الحركات الإسلامية ، يجدها جميعا قد تجنبت دراسة التجارب السابقة وتحليل أسباب فشلها ، أسباب عجزها عن تكرار التجربة الخالدة ، أو اكتشاف الصيغة الإسلامية للحل العصري المطلوب . ولم يعد يفيد القفز فوق هذه المشكلة ، والاكتفاء بترديد شعار ؛ « صالح لكل زمان ومكان » فإن من شروط هذه الصلاحية ، توفر الرجال الذين يستطيعون تحديد أبعاد التغير في الزمان ، ومدى اختلاف المكان ، ومن ثم استنباط « الحل الإسلامي » الخاص بالزمان المعين ، والمكان الخاص ..

ولا شك أن أولى المحاولات ، هي المحاولة السعودية التي بدأت في القرن الثامن عشر ، واستطاعت أن تتجدد في مطلع القرن العشرين . فقد كانت الوهابية ، هي أقوى وأبرز طرح للحل الإسلامي ، في ظروف الهزيمة الشاملة للمسلمين أمام الغزوة الأوروبية . التي لم يكن احتلالها العسكري هو أخطر أسلحتها . بل محاولة اقناع المسلمين بأن « الإسلام » قد انتهى عصره . وأن « التغريب » هو حتمية التاريخ . فاستطاع « السعوديون » بدعوة محمد بن عبد الوهاب تأخير التغريب مائة عام ، رغم هزيمتهم . كما استطاعوا أن يطرحوا أول وأكمل ثورة عربية ، وذلك بطرحها في صيغتها الشرعية ، أعني « **العروبة الملتحمة بالإسلام ، لا المتمردة ، ولا المتآمرة ، على الإسلام** » .

جاء « محمد بن عبد الوهاب » في وقت ، كانت الأمة الإسلامية . مع تسليمها بالهزيمة المادية ، متشبثة باقتناعها بتفوقها الفكري والروحي ، وأن هذا التفوق « المادي » لخصمها هو ظاهرة مخالفة لقوانين الطبيعة أو « انقلاب المطبوع واختلال الموضوع » كما كان المؤرخون يؤرخون انتصارات الفرنجة المتتابعة ، وكانت التفسيرات تنطلق من ايمان مطلق بصوابية الحل الإسلامي ، ومن ثم فكل ما نزل بنا سببه الانحراف عن هذا الحل ، وكل المطلوب هو حفنة من المؤمنين تجدد أمر هذا الدين ، فيعيد التاريخ سيرته أو قل يستأنف مسيرته ، بعد « النكسة » أو الخلل الذي أصاب هذه المسيرة بما كسبت أيدي المسلمين .

وفعلا جاءت الوهابية* تؤكد هذا الاقتناع ، إذ استطاع رجال لا ينتمون لعزوة قبلية ، ولا إلى دولة غنية ، ولا إلى خلفية حضارية ، أن ينفضوا غبار التاريخ عن بيئتهم ومجتمعهم ووطنهم ، وأن يشغلوا العالم بالمسألة السعودية والحل الإسلامي .

ثم كانت هزيمتهم .. وانحدار دولتهم بمعدل أسرع من معدل تألقهم ، وظن الجميع أن التجربة قد طويت . والوهابية قد اتخذت مكانها في كتب الفقه ، وعاد « السعوديون » إلى عالم التيه والنسيان ، تطوف « بقاياهم » في فيافي وجزر الخليج ...

ومر قرن على التجربة الأولى .. كان قرنا حاسما في تاريخ الإسلام والعرب ، فلم يقتصر الأمر على استمرار الزحف الغربي على بلاد المسلمين ، وتتابع هزيمة المسلمين ، وسقوط بلادهم في قبضة العدو التاريخي والديني ، وإنما الأخطر من ذلك ، أن الشك بدأ يغزو الطبقة المثقفة المسلمة في صوابية وجدية الحل الإسلامي ذاته . فقد تزايدت القناعة بوجود خطأ ما في « الدواء » . ودب الشك في صحة قناعة الأسلاف ، بشعار « صالح لكل زمان ومكان » ، وبدأ البحث عن صيغة تحفظ أرض المسلمين وحياتهم ، ولو بتضحية الحل الإسلامي ، أو حتى التخلي عن الاسلام ـ كما حدث ـ في تركيا الكمالية .. أو كما حاول « محمد علي » في القرن التاسع عشر وفشل .

وقد تأكد هذا الاتجاه في مطلع القرن العشرين ، وبدا أن باب التغريب قد فُتح على مصراعيه ، وبدأ الشعراء والفقهاء يندبون الإسلام ، وينذرون بقيام الساعة .. وإذا بالسعوديين يهبون مرة أخرى بقيادة عبد العزيز ، فيطرحون الحل الإسلامي وينتصرون ، بل يكون نصرهم هو النصر الوحيد على الساحة العربية ، إن لم نقل في العالم الثالث حتى النصف الثاني من القرن العشرين ، فهم وحدهم نجحوا في إقامة كيان مستقل خارج السيطرة المباشرة للاستعمارية الغربية . وبينما أدت كل الحركات العربية التي نفت الاسلام ، إلى السقوط في التبعية والتجزئة ، نجحت عروبة السعوديين المسلمة في تحقيق التحرر

---

* انظر شرحنا لدعوة محمد بن عبد الوهاب ، فهي ليست مذهبا ، ولا طريقة كالمهدية أو السنوسية .. الخ بل دعوة لتصحيح الممارسات الإسلامية ، ولذا فتعبير الوهابية ، أو الحركة الوهابية .. الخ هي مجرد اصطلاحات لتقريب المعنى ومن باب : خطأ شائع أفضل من صواب مجهول .

والوحدة .

وهكذا تجدد الأمل في صلاحية الحل الإسلامي ، أو قل ضعفت حجة أنصار التغريب ... فكلهم فشلوا ونجح أنصار الحل الإسلامي ، مهما قيل عن حجم انتصارهم . ولعل ذلك يفسر إنحسار موجة الكمالية ، التي دبر الغرب ، أو تمنى ، أن تكتسح العالم الإسلامي في العشرينات والثلاثينات .. بل وعادت أكثر من قوة « علمانية » إلى الإسلام بفضل الإنتصار السعودي . وانتشرت أكثر من حركة تقتبس تجربة « الإخوان » السعودية .

ولكن التجربة تنقسم على نفسها ، وتقع مأساة الإخوان ، ويعلو صوت الشامتين الذين زعموا أن الحل الإسلامي مجرد سراب ، محتوم الفشل ، قصير العمر .. وأنه مجرد طاقة استشهادية ، سرعان ما تتبدد إذا ما واجهت مسئوليات البناء الحضاري ..

فرك الشامتون أيديهم وهم يقولون : ها هو الحل الإسلامي يُطرح في المرتين ، على يد السعوديين ، وفي نفس الأرض التي أثمرته أول مرة ، فملأ الدنيا إشعاعه ، وأعطى البشرية أزهى عصورها ، وأقرب النظم للكمال .. وها هو يفشل في المرتين .. فلماذا تبددون جهود شعوبنا في محاولة ثالثة .؟

ويتساءل المسلمون في حيرة : أين الخطأ ؟.. كيف تبقى بيضة الرخ ، حية ، مئات السنين ، حتى إذا وجدت الحاضنة المؤمنة ، فقست رخا حقيقيا فيه ملامح الرخ المنشود ، ولكنه رخ عقيم ، بل ويموت في ريعان الشباب ، إن لم نقل في نضارة الصبا ؟!

هل العيب في البيضة أم في الحاضنة .. أم أُشكل علينا الأمر وتشابه البيض علينا .

لقد ثارت هذه الاسئلة في خاطري ، فور انفجار الثورة الإيرانية الإسلامية . إذ اعتبرتها ، على الفور ـ ولا أنكر حرفا ، مهما حدث ـ اعتبرتها إحدى صيغ البحث عن الحل الإسلامي ، إحدى صيغ المقاومة الاسلامية لأخطر محاولة للتغريب كانت تجري في عهد وريث قورش المجوسي ، إحدى صور الرفض الإسلامي للقهر الغربي وذل المستغربين ، إحدى صور الإصرار على أن الدواء هو الإسلام ، وأن النظم التي تتنكر لجذورها ، وترتبط بأعداء تاريخها وحضارتها ، فتعيش حياة هؤلاء الأعداء ، وترتبط بهم ، بل وتحمل هؤلاء الغرباء عن دينها

وقومها على أعناق الأغلبية المسلمة ، مصيرها هو السقوط تحت ضربات تلك الأغلبية ، التي لا يمكن أن تصبر على غربة حكامها ، وقهر أذنابهم وقواديهم غير المسلمين ...

وقد اندهش البعض وقتها ، لأنني كتبت في نفس الوقت ، وفي نفس المجلة ،* أمجد إسلامية الجماهير في إيران ، وأشيد بالتجربة الوهابية ، بدون مناسبة ظاهرة ، إلا أنني تعمدت ذلك ، لا من باب التوازن ، ودفع الشبهات ، فقد كنت على يقين أن ذلك الموقف لن يرضي أولئك ولا هؤلاء ، وهو ما حدث ، وانما أردت أن تكون الثورة الإيرانية منطلقا للتخلص من الطائفية ، وذلك بأن نضع في مسار واحد : جهود السعوديين وكفاح الشيعة الوطني ، فكلها حلقات مترابطة متكاملة في مسلسل المقاومة الإسلامية للغزو الغربي الصليبي بشقيه الإمبريالي والشيوعي ...

وبصرف النظر عن التطورات ، فلا مجال للشك في أن الثورة الإيرانية ـ في حد ذاتها ـ قد فجرت بعنف قضية الحل الإسلامي ، وستؤثر سلبا وايجابا على مناقشات ومستقبل هذه القضية .

من هنا رأيت أن أستكمل دراستي عن الحل الإسلامي ، التي بدأتها عام ١٩٦٦ بكتاب « القومية والغزو الفكري » ثم بكتاب « ودخلت الخيل الأزهر » وأخيرا دراستي عن « الحركة المهدية في السودان » .. ولا شك أن الظاهرة السعودية ، هي الأعرق والأشمل والأغنى بالوقائع ، مما يسهل ويصعب معاً مهمة الدارس و المحلل .

غير أن المشكلة الرئيسية في الكتابة عن التجربة الوهابية ، أو الظاهرة السعودية ، هي أنها لا يمكن أن تعالج كظاهرة تاريخية مثل المهدية أو تجربة محمد علي أو الدولة العثمانية ... لأن الظاهرة السعودية استطاعت أن تحقق الاستمرار التاريخي بعكس كل توقعات الخصوم وتمنياتهم ؛ من العثمانيين الذين ظنوا أنهم قد دفنوا الرسالة وصفوا البيت السعودي ، عندما دمر جندهم الدرعية وأصبح باشاواتهم يخلعون من شاءوا من آل سعود ويعينون من شاءوا . وأمراء البيت ما بين المنافي والمشانق .. ثم زال ملك آل عثمان ، وبقي بيت آل سعود ، ووقف

---

* مجلة الحوادث ـ عام ١٩٧٩ .

عميده يشير بإصبعه الى آخر احفاد السلاطين اللاجيء في مملكة آل سعود ، ويذكر التاريخ بعداوة آل عثمان .

وهكذا ظن « بيلي » وهو يرى فيصل بن تركي ، أعمى ، نصف مشلول ، على حافة القبر ، والبيت السعودي ، كما وصفه الكولونيل البريطاني (بيلي) « يحمل عوامل فنائة في داخله » . ولكن بقي البيت وأزدهر ، وكان حظ « بيلي » من الشهرة ، هو ما كتبه عن هذا البيت ، الذي لو زال ، كما تنبأ ، لما عرف الناس بيلي !

وهكذا ظن الجميع ، عندما كان آل سعود لاجئين مشردين ، مرفوضين ، بين قبائل وإمارات الخليج ، ولا أحد يدري أن في رحالهم الملك الذي سيكون أكبر من كل من استضاف ومن أبى أن يضيفهم ..

بل في عنفوان مجد عبد العزيز ، عندما قامت ثورة الإخوان ، توقع الإنجليز أنها نهاية البيت السعودي* .. ومنذ وفاة عبد العزيز والإنجليز ثم الأميركان ، وغيرهم من أهل اليمين واليسار ، يتوقعون ويحاولون إسقاط البيت السعودي وخابت آمالهم ، لأن البيت السعودي ، لا يخُلع ولا يقلب ، بل ينتحر ... بتخليه عن الرسالة .

الظاهرة السعودية أصبحت ملكا للتاريخ ، وضربت بجذورها عميقا في مجتمعها وشعبها بحيث يستحيل اقتلاعها ، مهما جفت فروع ..وتساقطت أوراق . فقد أثبتت قدرة غير عادية على البقاء والتجدد ، وهي قادرة ـ إن شاءت ـ على فرض نفسها مرة أخرى على واقعها والعالم والتاريخ .

هذه الاستمرارية ـ كما قلت ـ توقع الكاتب أو المحلل في أحد مكروهين:

إما منافقة السعوديين بادعاء أن الواقع هو الاستمرار للحل الاسلامي الذي طرحه محمد عبد الوهاب ، وجدده ابن سعود ..! وهو قول لا يتفق مع الحقيقة أو المنهاج العلمي ولا يُرضي السعوديين ، ولا يخدم الجهود الرامية لاكتشاف أخطاء

---

* بل وقبل وفاته كانت كل تقارير الانجليز والأمريكيين تتوقع تمزق المملكة على يد الورثة . وان كان نائب القنصل الأمريكي في عدن قد فاقهم فتوقع انهيار المملكة وانسحاب ابن سعود إلى نجد إذا ساء موسم حج عام ١٩٣٣ . بل وأعلن فخورا أن توقعاته قد صدقت !

انظر تقرير (W. N. Walmsle) بتاريخ ١٩٣٣/٤/١٢ والذي جاء فيه بالحرف الواحد : « إن القنصلية التي تنبأت منذ زمن ببداية سقوط ابن سعود كشخصية عالمية ، وانسحابه إلى نجد إذا فشل موسم حج ١٩٣٣ ، تشعر الآن أن نبؤتها قد تدعمت بقوة » .

التجارب الماضية . والسعوديون لهم دين في عنق كل مسلم ، يستحقون من أجله أن تقال عنهم ولهم كلمة الحق . ولآل سعود دين في عنق العرب والمسلمين ، يفرض ان تقال كلمة الحق في تاريخهم ، وما قدموه من تضحيات في سبيل عزة العرب والمسلمين ، وهذا يعني أن تنقد أخطاء التجربتين بكل وضوح وصراحة ... انطلاقا من التسليم بأن الحل الإسلامي المنشود لا يزال أمنية ومطلبا ، ويكفي السعوديين فخرا أنهم حاولوا مرتين ، وأبقوا السؤال حيا في ضمير العرب والمسلمين .

ولم تقتصر اخطاء هذا الفريق من المؤرخين على هذا الموقف ، بل انزلقوا إلى تشويه حركة « الاخوان » وكيل الاتهامات لها ، في محاولة للاعتذار عن الدولة السعودية ، والقفز فوق السؤال الحرج ، وهو « لماذا وقعت مأساة الإخوان » .. لماذا كان الخلاف بينهم وبين عبد العزيز محتوما ، ولا يتحمل أي من الطرفين مسئولية القصد الجنائي فيه .. لماذا كانت الأزمة تكمن داخل التجربة ، كما تكمن البذرة داخل الثمرة !..

والحق أنني بقدر ما تكشفت لي ـ خلال الدراسة ـ عظمة وجسامة التضحيات التي قدمها السعوديون دفاعا عن الحل الإسلامي والعرب .. وبقدر ما سيطر علي سحر عبد العزيز ، فوقفت مدهوشا أمام عبقريته ، بقدر ما تمزقت نفسي أمام الجانب الآخر من الصورة : « فيصل الدويش » و« سلطان بن بجاد » ، أعني مأساة حركة الإخوان التي هي مأساة الحل الإسلامي ، التي تضاعفت مراراتها ـ كما قلت ـ بما ارتكبه المؤرخون ضدها وهي أهم حركة إسلامية منذ ابن تاشفين ، والتي تعتبر بحق ، كما قال عبد العزيز نفسه : « أنقى حركة دينية في وقتها » . وهي بلا شك من أعظم انجازات عبد العزيز وفشله الأكبر في نفس الوقت .

وكيف لا أتمزق حزنا وألما ، وأنا أرى عبد العزيز يقول عن حركة الإخوان « إنها أنقى حركة دينية » بل ويرفض أن تقال كلمة سوء واحدة فيهم حتى بعد قتاله لهم .. ثم يموت « عبد العزيز » ويظهر « بولس » فيلقب نفسه بشاعر آل سعود .. ليقول في الاخوان :

حسبوا الحقد والتعصب دينا	أي دين يبقى مع البغضاء
يا غلاة الإخوان ضيقتم الدين	وزغتم عن منهج الحنفاء
ما رأيتم منها سوى الكبت	والحقد وإبداء نقمة وازدراء

وانتقاصا من الشوارب والشوب وميلا لغزوة وعداء
قد عرفناكم جنود مليك فمتى صرتم جنود السماء !!*
كان صعقا لابن الدويش وسلطان بجاد و« **عصبة الخبثاء** »
شهداء للجهل ! كم من غبي مات من أجل فكرة **جوفاء**
عبثا تطلب الشراب طهوراً إن يك **الخبث** من كيان الإناء **

والله يشهد ان عبد العزيز ما سعى ولا أراد تلك النهاية المؤسفة للاخوان كما سنثبت بالدليل والحجة .

لذلك فقد أفردت في القسم الثاني من هذه الدراسة ، فصلا مطولا عن حركة الإخوان وأزمتها ونهايتها ، أعتقد انه الأول من نوعه ، إذ أنني لم أهتم بمظهر الخلاف على السلطة ، بل بجذور الأزمة الحقيقية ، لماذا انفجرت الثورة الاسلامية ـ من الداخل ـ لماذا كان على عبد العزيز أن يختار بناء الدولة ، ولماذا أراد الاخوان الاستمرار في الثورة ...

وان كنت قد رجحت بعقلي موقف عبد العزيز ، فإن قلبي وآمالي مع طموح الإخوان الخيالي وقتها .

المكروه الثاني الذي يقع فيه المؤرخون والمعلقون على الظاهرة السعودية بحكم استمراريتها ، هو تشويه الماضي بدافع كراهيتهم للحاضر .. مثل التنكر والافتراء على الحركة الوهابية ، أو التطاول على الملك عبد العزيز بطرح تفسير زائف للتاريخ يزعم أنه كان في إطار المخطط البريطاني للمنطقة .

ومأساة التاريخ العربي أنه كلما جاءت أمة لعنت من قبلها ، وأن المعاصرين يعيشون خلافات الماضي ، وأحقاد الحاضر تنسحب على الماضي ، وتدمر المستقبل ! بينما نرى البلاشفة الروس ينحنون بركتهم لمسلكية « إيفان الرهيب » وفتوحات « كاترين » و« بطرس الأكبر » ، والشيوعيون في ألمانيا الشرقية أعادوا تمثال الملك فريدريك شاكرين له انتصاراته في القرن الثامن عشر !.. ولا يمكن أن يكون فرنسيا مخلصا من يتهم نابليون بالعمالة ، ولا ألمانيا من يلعن بسمارك .

مؤسسو الاوطان لا يمكن أن يكونوا عملاء .. وفرق بين نقد الأخطاء

---

* كأن عبد العزيز الملك قائدهم لا علاقة له بالسماء ؟!.

** أليس هذا طعنا صريحا في « الإناء » الذي لوث الإخوان ؟! والعياذ بالله !

والتشكيك في التاريخ كله .

لم يكن جزعي على سمعة العملاق ، بل على تاريخ السعوديين ، أولئك الذين جاهدوا وضحوا من أجل تطبيق الحل الإسلامي ، وتحرير وتوحيد وطنهم ، جزعت أن يتهموا اليوم بالغفلة ، والانقياد وراء من ضللهم ! وهو ما لا يتفق مع الحقيقة ولا التاريخ .

فقد كان « عبد العزيز » عملاقا وطنيا عربيا مسلما ، وقام بانجاز وطني عربي إسلامي ، يفوق أي إنجاز من نوعه إلى ما قبل تحرير الجزائر ...

رأيت أنني يجب أن أقول شهادتي للتاريخ وللحق ، وأنا أعرف أنني ـ كعادتي ـ سأغضب الطرفين .

ولكن الله سبحانه وتعالى علمنا ألا تزر وازرة وزر أخرى . وألا يجرمنا شنئان قوم على ألا نعدل . ويكفي عبد العزيز ، أنه إمتلك من الإخلاص والصدق مع النفس ، ما جعله يقول إنه أدى دوره والباقي على ورثته . وأنه عانى الألم بل حتى الندم من عجزه عن السيطرة على الأحداث والتطورات في أواخر عمره ، وإن كان عذره أنها ظاهرة عامة لم يستطع أي مجتمع إسلامي النجاة منها ، وأنه عاش ومات لم تحط بنزاهته ولا تقواه شبهة واحدة .

وأسمح لنفسي بادعاء النجاح في تجنب المكروهين ، فقد حرصت على ألا يكون لهذا الكتاب أية صلة بالظروف والأوضاع القائمة ، وهو ما سيلمسه القارىء من الشكل والمحتوى .. كذلك فإن اعجابي بإخلاص وإنجازات السعوديين التاريخية ، لم يحل دون ممارستي حق نقد الأخطاء بكل الموضوعية الممكنة .

وقد اخترت « السعوديين » كتسمية في هذه الدراسة ، مع أني استخدمت تعبير « الوهابيين » في الدراسة السريعة التي نشرتها في مجلة « الحوادث » إلا أن اختيار « السعوديين » هذه المرة لم يكن اعتباطا ، ولا يعني أي افتئات على دور الوهابية ، ولا أزعم أنه استجابة لتعاليمها الصحيحة ، فقد كان الشيخ وآله يرفضون دائما ، وصف حركتهم « بالوهابية » لأن الشيخ رضي الله عنه ، كما قال أكثر من مرة ، لم يأت بمذهب جديد ، ينسب له ، وينتسب إليه الناس . والشيخ كان له من الوعي والتجرد ونكران الذات ، ما جعله يبايع بالإمارة لآل سعود بنفس راضية واعية بأن هذه البيعة تعني قبول التمايز بين الأمير والفقيه ،

هذا التمايز الذي بدأ في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان يهتف : « قضية ولا أبا حسن لها » و « هلك عمر لولا علي » .

والحكم يعني السياسة ، وهذه الدراسة ، سياسية بالدرجة الأولى ، ومن ثم فالتسمية الأجدر - في رأيي - هي « السعوديون » . ومرة أخرى فإن السعوديين يبدأ تاريخهم بالوهابية ، بل حتى يمكن القول بأن السعودي هو الوهابي ، أما قبل ذلك فهو خارج التاريخ . فدعوة الشيخ هي التي أعطت آل سعود الذين أيدوها ، بُعدا جديدا رفعهم فوق كل أمراء الجزيرة ، بذلك الدور التاريخي الذي قاموا به باسم الوهابية . وأيضا فان تأييد آل سعود ، هو الذي جعل حظ الشيخ أكبر من كل المصلحين الذين سبقوه ، حتى أستاذه ابن تيميه الذي نجح في تعبئة المقاومة ضد التتار فانتهى إلى السجن .

وقد قسمنا هذه الدراسة إلى جزئين ، الجزء الأول من ظهور محمد بن عبد الوهاب إلى خروج آل سعود من الرياض ، وهي المرحلة التي اختار فيها السعوديون ، الثورة الدائمة ، أي الاصرار على استمرارية الثورة ولو كان الثمن سقوط الدولة ذاتها ، وهزيمة الثورة في عقر دارها . وقد فسرنا سبب انهيارها بالعجز عن تخطي حدود الجزيرة ، رغم توفر النية . والجزء الثاني وهو يغطي الفترة من ١٩٠٢ الى ١٩٣٢ وهي المرحلة التي اختار فيها عبد العزيز بناء دولة الدعوة في وطن واحد ، أو تجربة الحل الإسلامي ، في الإطار الجغرافي ، الذي اعتقد أنه غاية الممكن في ظل قدراته المتاحة ، وظروف العالم الإسلامي وقتها ، مع تمسكه بعالمية الدعوة والإصرار على نشرها ، ولكن عندما تحين الظروف ، وبدون مخاطرة بما تحقق من مكاسب مع مراعاة التفوق الساحق (وقتها) للقوى المعادية .

وهذه هي نقطة الخلاف مع الإخوان الذين تمسكوا بشعار الثورة الدائمة ، وأن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم .

ومن هنا رأينا أن الخلاف هو تعارض اجتهادين لفريقين من المؤمنين وليس مؤامرة

ومع أن القسم الأول من هذا الكتاب يعالج التجربة الأولى ، إلا أنني أحببت أن أستهله بلمحة سريعة عن شخصية ومكونات الملك عبد العزيز ، من ناحية ، للربط بين الجزئين ، ومن ناحية أخرى ، لأن الجزء الثاني يهتم بتحليل المواقف أكثر من السرد التاريخي أو الوصف الشخصي ، وليتعطف القارىء

علينا بحلمه ، إذا لمس إعجابي الشديد بعبد العزيز ، فلا يتسرع في حكمه حتى يقرأ الكتاب بجزئيه فيفهم سر الإعجاب ، سببا وهدفا !.. وقد ناقشت في القسم الأول :

ـ خصائص الدعوة الوهابية ، وبالذات العنصر الحركي فيها الذي جعل حظها أكبر من كل الدعوات المماثلة ، لأنه أعطاها قوة الدفع التي مكنتها من تحريك التاريخ .

ـ كما ناقشت حقيقة موقف الدولة السعودية من الشيعة ، وما راج من أكاذيب وأساطير حول هذا الموقف ، ضمن مخطط تقسيم المسلمين وعزل الدولة السعودية أو محاصرتها .

ـ حقيقة موقف المصريين من حروب محمد علي في السعودية .

ـ العلاقات السعودية ـ البريطانية .

ـ كيف ولماذا انهارت التجربة في عهد عبد الله بن سعود .

ـ الدور الذي لعبته هذه التجربة في منع « التغريب » وتجديد الثقة في الحل الإسلامي .

ـ أما القسم الثاني ، فيناقش هذه القضايا من زاوية علاقتها بعبد العزيز آل سعود :

ـ آل الرشيد أو الوهابية بدون آل سعود ، أو بدون حركة !

ـ آل الصباح وموقفهم الخاص من الدين والانجليز .

ـ الانجليز وعلاقتهم الفريدة بعبد العزيز ، أو الصداقة من طرف واحد كما سميناها .

ـ الأتراك : التناقض المأساوي الذي سيطر على علاقتهم بالعرب ، وكيف كان عبد العزيز وحده الذي استطاع أن يثور على الترك دون أن يتحول إلى مخلب قط للاستعمارية الأوروبية .

ـ الأشراف وصراعهم مع السعوديين .

ـ حكاية المؤتمر الإسلامي والسر خلف دعوة ابن سعود لهذا المؤتمر ثم التخلي عنه .

ـ الإخوان ... ظهورهم ... انتصاراتهم ... انشقاقهم ... هزيمتهم .

وإذا كنت أقول إنني اهتممت بالتحليل أكثر من التأريخ إلا أنني لم أهمل

واقعة تاريخية مهمة ، بل استطعت بفضل الله ، أن اكتشف من الوثائق والحقائق ما لم يسبقنا إليه مؤرخ كما استطعت أن أكشف الأخطاء الفاحشة التي وقع فيها أهل الاستسهال ، مثل الجاهل الأكبر« بنوا ميشان » الذي كان لي الفضل في أن أكون أول من نبه الى الإهانة التي يشكلها كتابه لمعلومات وثقافة العرب !

وقد أفردت في نهاية الدراسة قسما خاصا للتعليق على أشهر الكتب التي تناولت تاريخ السعودية .

والله من وراء القصد ...

محمد جلال كشك

٥ رمضان ١٤٠١
٦ يوليو ١٩٨١

ماكلين فيرجينا ـ الولايات المتحدة .

تمهيد

الرجل والتاريخ

« متى اتفق العلماء والأمراء على أن يستر
كل منهم على الآخر ، فيمنح الأمير الرواتب ،
والعلماء يدلسون ويتملقون ،
ضاعت أمورنا ، وفقدنا ، والعياذ بالله ،
الآخرة والأولى » .

عبد العزيز آل سعود



الملك عبد العزيز

خلال السبعة وثلاثين عاما التي انقضت منذ وفاة الامام فيصل بن تركي ، إلى دخول حفيده عبد العزيز بن عبد الرحمن مدينة الرياض ، كانت المنطقة من المحيط للخليج ، قد شهدت تغيرات أساسية ــ بدت وقتها ــ حاسمة ونهائية ، توجت تطورات استغرقت أكثر من ألف سنة . فقد سقطت مصر بعد أن دكت مدفعية الأسطول البريطاني قلاعها وأنهت امتدادها العربي ، وفككت مصانعها ، وأغلقت مدارسها وحلت جيشها ، واحتلتها القوات البريطانية والهندية ، وتحولت بذلك إلى مستعمرة ، وانتهت الأسطورة أو الحلم الذي أثاره « محمد علي » باصلاحاته وفتوحاته .. وأصبح خديوي مصر لا يزيد في وزنه الدولي عن شيخ المحمرة أو أم القوين ، وفشلت أشهر وأنجح محاولة للتغريب في العالمين الاسلامي والعربي ، وقبل مصر بسنتين ، وفي نفس العام ، الذي يرجح مولد عبد العزيز فيه ، كانت تونس قد سقطت في يد الاستعمار الفرنسي ، بعد أن تحطمت المقاومة في الجزائر التي بدأ غزوها قبل نصف قرن .. وتم احتلال السودان ، ونبش قبر المهدي ، وحرقت جثته ، وأرسلت جمجمته إلى لندن ، عقابا ونكالا وترويعاً لكل من يفكر في الثورة أو مقاومة « الباشا » الانجليزي ، وأيضاً ، كانت ، ضربة لكل الحركات الاسلامية التي مثلتها « المهدية » .. فقد انتصر « الكفار » ومثلوا بجثة المهدي المنتظر .. وسقط ، مرة أخرى ، الحل الاسلامي !

وفي نفس الشهر الذي كانت راية « الكفار » الانجليز نابشي القبور ترفع في الخرطوم وجنودها يقتحمون المسجد ، ويعلن « ألن مورهيد » أن « المسيحية سجلت نصرا جديدا على الاسلام في معركة السيطرة على النيل » في نفس الشهر الذي وقعت فيه حكومة مصر الخاضعة للاحتلال ، معاهدة تسليم السودان للانجليز ، وقعت الكويت معاهدة حماية دخلت بها تحت العباءة البريطانية، وقبلها البحرين، وساحل عمان، وسلطنة مسقط ، وشيخ المحمرة ، أو عربستان .. واتسعت محمية عدن لتشمل كل الساحل الجنوبي للجزيرة ، واحتلت إيطاليا إريتريا ، وضرب الصومال وقتل زعيم ثورته وأطلق عليه لقب المجنون ! وأصبحت بريطانيا صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في منطقة الخليج وشرق الجزيرة .

ولا يمكن القول بأن مجرى التاريخ قد تغير بميلاد أو حتى ظهور عبد العزيز في الرياض ، أبداً .. فقد بدا لعدة سنوات تالية ، وكأن هذا هو المجرى النهائي الذي اختاره التاريخ ، وأن الصراع قد حسم نهائياً لصالح المسيحية الغربية .. لصالح سيطرتها المادية ، وسيادة مفاهيمها وقيمها .. إذ تتابع سقوط الدول العربية في قبضة الاستعمار الأوروبي ، سقطت الدولة العربية الوحيدة المستقلة وهي المغرب .. تقاسمتها فرنسا وأسبانيا ، وتبعتها ليبيا ، هجمت عليها إيطاليا في غزوة جمعت كل

بشاعة وحقد وطغيان الصليبية الاستعمارية الأوروبية .

ولد عبد العزيز سنة مؤتمر برلين الذي تم فيه تقسيم الدولة العثمانية بكل الفجور الممكن ، وتم تقسيم إيران في عام ١٩٠٧ بين روسيا وبريطانيا ، وبدأت الدول الأوروبية تتصرف في الغريم العثماني المسلم ، تصرفها في زنوج إفريقيا وبؤساء الهند ، فاجتمع إدوارد السابع ملك بريطانيا مع قيصر روسيا في بحر البلطيق ، « وبعد الاجتماع فوجيء الأتراك بالسير إدوار غراي وزير خارجية بريطانيا يعلن في مجلس العموم البريطاني قرار تعيين حاكم أوروبي لمقدونيا ، وتخفيض الجيش التركي في هذا الاقليم العثماني دون أن يكون لتركيا صاحبة السيادة على الاقليم أي دخل أو حتى مشاورة وسبق علم بالقرار »[1] .. ودخل قرار طرد « الاسلام » من أوروبا مرحلة التنفيذ النهائي بطرد السلطة العثمانية من الولايات الأوروبية ، وإبادة السكان المسلمين هناك إما بالقتل أو إجبارهم على الهجرة أو تبادل السكان أو تنصيرهم .. وصل ذلك المخطط ذروته في ظل الاتحاديين ، وعشية الحرب العالمية الأولى ، بحرب البلقان وما سبقها وتلاها من قرارات ومعاهدات أخرجت تركيا نهائيا من أوروبا باستثناء الشاطيء الأوروبي لاسطمبول . وجاء الدور على القسم العربي أو ما تبقى منه في الحرب العالمية الأولى ، فأعلنت الحماية على مصر ، وأصبحت « رسمياً » كمشيخات ساحل عمان ، واقتسم الانجليز والفرنسيون واليهود ، العراق والشام .. وكانوا ينقلون الأقاليم والمدن في مساومات ومفاوضات أشبه بمساومات البورصة !

في رقعة واحدة من العالم الاسلامي ، كان يبدو أن التاريخ يسير في الاتجاه المضاد .. وأن شخصية عجيبة ، ليست من عالم العرب المقهورين المستذلين ، قد أمسكت بقرني ذلك الثور المزعوم الذي يحمل الكرة الأرضية ، فأجبرته على أن يدور في الاتجاه المضاد .. شخصية وظفت التاريخ في بلاطها ، فأصبحت كل الاحداث لصالحه ، وكل الوقائع : الانتصارات والهزائم ، التوفيق والفشل ، الاخلاص والخيانة ، الوفاق الدولي ، والصراع العالمي .. كله يعمل لصالح عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ، الذي سيعرف بابن سعود* ، وفي اتجاه الهدف الذي حدده لنفسه ، أو قل فرض عليه بحكم البيت الذي أصبح عميده .

---

* « ابن سعود » لقب يختص به القائم بالأمر من آل سعود ـ على الأقل حتى ولاية الملك الراحل سعود ـ وقد ورد في تقرير بريطاني نص يقول : « عبد الرحمن الفيصل هو والد الشخص الذي يعرف عادة بابن سعود » . وهذا يدل على أن اللقب « رتبة » وليس اسما عائليا ، وإلا لكان أبوه « ابن سعود » أيضاً .[2] ونقل الزركلي عن عبد العزيز أنه كان يكره تسميته « بابن سعود » ويفضل عليها آل سعود .[3]

ولذلك اخطأ « جون حبيب » عندما برر استخدامه هذه التسمية بأن عبد العزيز كان يتحدث عن نفسه « بابن سعود » .

انظر « حركة الاخوان في نجد » The Ikhwan Movement of Najd

The university of Michigan

اما استخدامنا نحن لهذه التسمية احيانا فهو من باب الاستسهال او الخطأ الشائع

رجل عرف كل القوانين التي تتحكم في موقعه الجغرافي والبشري والتاريخي ، فاستطاع أن يوظف هذه القوانين لمصلحته . وعى لعبة الأمم والتفوق الساحق لبريطانيا ، وانهيار الدولة العثمانية ، فاستفاد من هذا الواقع ، دون أن يسقط في خطيئة التحول إلى أداة لبريطانيا ، بل بدا في أكثر من مرة ، وكأنه يوظف الامبراطورية البريطانية لخدمة أهدافه . ذلك لأنه كان يتمتع بصفتين نادرتين وضروريتين في بناة الدول ومحركي التاريخ . الأولى ، هي القدرة على فهم حركة التاريخ ، ومن ثم ربط مصلحته بالقوى الصاعدة المنتصرة ، فيصبح شريكها في النصر ، وليس عميلا ولا أداة ، بل ويفرض على خصومه المحالفات الخاطئة ، مع القوى المنهارة فيسقطون معها .. والميزة الثانية هي قدرة عجيبة على إقناع الآخرين بأن مصلحتهم هي في تبني مصلحته هو ، فيعملون على تحقيق أهداف عبد العزيز ، وهم على قناعة تامة ، بأنهم يحققون أهدافهم هم ! ثم موهبة شخصية ، أجمعت كل المصادر على تأكيدها ، وهي تمتعه بطاقة الشموس الكبيرة ، أعني القدرة على إدخال أي كائن يقترب منه في فلكه ، ليتحول إلى كوكب يدور سعيداً حول ابن سعود أو كما قيل ، لم يجتمع أحد بابن سعود ، إلا وخرج مبهوراً ، وبتعبير شيخ القبيلة : « قالوا عنك سحار يا عبد العزيز والله صح ! سحرتني يا عبد العزيز »[1]م .

ولو راجعنا تاريخ العلاقات السعودية ــ البريطانية في عهد عبد العزيز ، لما وجدنا واقعة واحدة ، يمكن أن يصنف بها ابن سعود ، أو الدولة السعودية كأداة في خدمة الامبراطورية البريطانية ، ولا وجدنا موقفا ، تطوع فيه عبد العزيز ، أو أرغم ، على التضحية بمصلحة بلاده في سبيل مصلحة بريطانية ، بل على العكس يمكن أن نحصي ــ وسنفعل ــ العديد من المواقف ، التي استفاد فيها عبد العزيز من قوة بريطانيا لتنفيذ برنامجه ، والعديد أيضا من المواقف التي فاجأ فيها بريطانيا ، بتنفيذ مصالحه على حساب تخطيطها ومصالحها .

وفي اللحظة المناسبة تماما استطاع أن يتخلص من الصداقة البريطانية ، ليبدأ علاقة جديدة مع القوة الصاعدة في السياسة الدولية ، وهي الولايات المتحدة الامريكية . حتى قيل فيه انه شهد نهاية امبراطوريتين واستفاد من سقوطهما أكثر من أي حاكم آخر .[2]م

وإذا كان من الصعب القول بأن عبد العزيز قد استفاد من صداقته مع الولايات المتحدة لتحقيق كل أهدافه ، فلا شك أنه استفاد منها ، وأفاد بلاده بأكثر مما استطاع أي حاكم في العالم الثالث ، الاستفادة من صداقة دولة كبرى ، وخاصة الولايات المتحدة التي اشتهرت بالاضرار بأصدقائها ! إلا أن الأكثر صعوبة ، هو إثبات واقعة واحدة ، تشير إلى نجاح الولايات المتحدة في تسخير صداقة عبد العزيز لخدمة مصلحة أمريكية أو هدف أميركي يتعارض مع مصالح وأهداف ابن سعود .

ولا عجب فهو الذي ، في عام ١٩١٥ ، ولم يك شيئاً مذكوراً ، استطاع أن يفرض على بريطانيا ، النص في معاهدته معها ، على عدم قبول أية نصيحه منها ، إذا كانت

تتعارض مع مصلحته !

ويمكن أن نفهم وعيه السياسي من نقده لسياسة عمه عبد الله بن فيصل ، التي وصفها بأنها كانت السبب في زوال ملكهم ، عندما قال : « من الخطأ المراهنة على الجواد الخاسر وخاصة إذا كنت ضعيفاً »[٤] ويمكن القول انه لم يدخل معركة خاسرة في حياته ، ولا استطاع العدو أن يجره إلى معركة خاسرة .*

لا يجري وراء أوهام ، ولا يخطيء تقدير قوته ، ولا يحارب طواحين الهواء ، وليس في تاريخه مغامرة طائشة أو استجابة لاغراء غير محسوب العوامل والنتائج** . يعرف متى يتحدى ، وكيف يتراجع ، دون السقوط في مخاطرة لمجرد الشعار ، ودون أن يفرط

---

* إلا مرة واحدة هي معركة فلسطين ، وعذره أن خيوطها لم تكن في يده ، ولا حتى خيوطها العربية ، فلا التدبير تدبيره ، ولا القرار قراره . كما يمكن الاشارة أيضا إلى المعركة الخاسرة مع العجمان التي جره إليها ابن صباح ولكنه استفاد منها تبرئة ذمته من صداقة ابن صباح .

** خلال اضطرابات ١٩٣٦ عرض نوري السعيد اتحاد العراق مع السعودية ، ولكن الملك لم يهتم « لأنه يعلم علم اليقين أن العراق لا يبرم أمراً بغير مشورة البريطانيين ، ومادام الانجليز لم يفاتحوه بأمر خطير كهذا ، فانه لا يشغل باله بالتفكير فيه »[٥] .

وقال حافظ وهبة : « حاول بعض السوريين أن يستغلوه ، فطلبوا منه ترشيح ابنه الأمير فيصل لعرش سورية ، فملأوا جيوبهم بالمال . ولكن الملك عبد العزيز كان لا يفوته أن هذا كله دجل ، وأن الفرنسيين لن يخرجوا من سورية إلا بالقوة »[٦] .

وقد يظن التناقض في كلام وهبة : فما دام يعتبرهم دجالين فلماذا يملأ جيوبهم بالمال ؟ إلا أن حافظ وهبة نفسه روى قصة قبل هذه تفسر هذا التناقض ، فقد تحدث عن رسالة بعث بها « أحد كبار السوريين يستحثه على غزو سورية » وقد نشرت في هذه الفترة رسائل مماثلة في جريدة القبلة ، وأشار إليها الملك في حديثه مع الريحاني كجزء من الحملة الهاشمية عليه . وكانت هذه المطالبة تلقى قبولا في أوساط الأشراف ، كنوع من الدعاية ضد ابن سعود الذي ـ بزعمهم ـ يترك الكفرة يحكمون سورية ، ويركز حربه ضد الدولة المسلمة في الحجاز !! ولذلك نشروا هذه الرسائل في « القبلة » التي كان يحررها الملك حسين بنفسه ، وقد انجرف في هذه الدعوة بعض السوريين المخلصين ، الذين كانوا يتلمسون النجدة من أية جهة . وقد علق الملك على رسالة الذي دعاه لغزو سورية بقوله : « إن كاتبها لا يعيش في هذا العالم ، فهو لا يعرف وسائل مواصلاتنا ، ولا وسائل تموويننا ، ولا من أين نشتري أسلحتنا » . فلعله أعطى السوريين ليواجه دعاية وتحريضات الهاشميين ، وليس من أجل عرش سورية . وكان كاتب الرسالة (م . م بتاريخ ١٢ صفر الخير ١٣٤٣ ـ سبتمبر ١٩٢٤) قد قال في رسالته : « إن الشريف وأولاده ينفقون آلاف الجنيهات في كل شهر لتكتب الجرائد عن الامام وأهل نجد أنهم قساة لا دين لهم إلا الغزو » . والأدلة على رفضه المغامرات أو المراهنة على الجياد الخاسرة ، أكثر من أن تحصى ، منها رفضه الدعوة لدعم حركة الكيلاني في العراق ، ويقينه من اللحظة الأولى بحتمية فشلها ، بحكم ظروف الحرب ورجحان كفة الانجليز . كما رفض الانحياز للألمان ، بل عندما حاول سفيره فؤاد حمزة خلال الحرب العالمية الثانية أن يغريه بأن يصبح « ملك العرب » الألماني ـ كما كان حسين « ملك العرب » البريطاني ، في الحرب العالمية الأولى ـ غضب ونقله من منصبه ليبعده هو عن الألمان . كما رفض إغراء النصر السهل الذي أحرزه على اليمن . واشتد في نهي ابنه فيصل عن الاستمرار في الزحف .

في مبدأ أو حق من حقوقه الأساسية : « لا نتنازل عن شيء من حقوق أجدادنا . أما إذا قال الانجليز نبغي هذا منك وجاؤوني بأمر مختوم ، فأنا ابن سعود ، أسلم لهم ، ولكن في أول فرصة أسعى لاسترجاع حقوقي المهضومة » .[٧] ولكنه أيضاً يعرف متى يقول : « لو ملأت بريطانيا البحر بالبوارج من لندن إلى جدة ، فلن يتغير موقفي* » . ويعرف متى يستحيل التراجع ، فعندما هدده اللورد كرزن وطالبه بتسليم خرمة للملك حسين عام ١٩١٩ .. ورغم خطورة وضعه في هذا الوقت ، إذ كان يعتمد على الدعم المالي البريطاني ، وهو محاصر من ابن الرشيد والشريف ، إلا أنه رفض الانسحاب أو بتعبير دائرة المعارف البريطانية : « لم يعبأ الملك عبد العزيز بتحذير كرزن[٨] ».

لأن هذا التنازل لم يكن خطوة للوراء من أجل خطوتين للأمام ، ولا مناورة ، بل التفريط في إنجاز وطني ، ومصادرة للمستقبل لأن خرمة وتربة هما مفاتيح المسألة الحجازية من الجانب النجدي .

ويرى بعض المؤرخين ، أن عبد العزيز تعلم لعبة الأمم أو التوازن الدولي ، في الكويت ، عندما رأى بوارج بريطانيا تبطل مفعول الفرمان العثماني وتثبت ابن صباح على عرشه ، والحقيقة أن ابن سعود وعى مغزى الحادثة ، ولكن بمفهوم مخالف تماماً للعبة التوازن التي مارسها ابن صباح وغيره من شيوخ الخليج ، فالكل بما فيهم عبد العزيز أدركوا الحجم الحقيقي للقوى الموجودة في الخليج ، ووعوا ليس فقط العجز العسكري للدولة العثمانية ، بل وفساد رأيها وضعف حيلتها ، كما لمسوا تأثير القوى العالمية على القوى المحلية ، ولكن عبد العزيز وحده أدرك بعداً آخر كان هو البعد الحاسم ، وهو أن القوة الذاتية ، وحدها هي القادرة على تحجيم تأثيرات هذه القوى العالمية ، ومنع السقوط في درك التبعية لهذه القوى ، كما حدث لكل شيوخ وسلاطين الخليج والجزيرة ، ونجا هو وحده ، لأنه امتلك أكبر قوة ذاتية في العالم العربي كله : « الاخوان » ..

لأنه قرر أن يوظف التناقض العالمي لصالح البيت السعودي ، رافضا بكل قوة ، ونجاح ، أن يتحول إلى مجرد بيدق في لعبة الكبار ، ربما لأنه ورث رسالة ، وقناعة لا حد لها بأحقيته في الملك ، أو كما قال جده فيصل ـ الذي كان الوصول اليه مغامرة ـ « إننا نشعر بالسيادة بكل خلية من خلايا جسدنا ! » فهو لم يكن مضطراً لشراء استمراره الشخصي في الحكم بتنازل في السيادة ، ومن هنا كان حرصه على امتلاك القوة الذاتية ، القادرة على تغيير الواقع المحلي ، ولو ضد المعادلات الدولية . بل لاجبار هذه المعادلات على أن تتعدل لتلائم الواقع الذي فرضته قوة ابن سعود ، أو على الأقل ـ في الظروف الحرجة ـ إقناع هذه المعادلات بخطر المغامرة ضده .

فهناك خلاف جوهري بين لعبة التوازن التي لجأ اليها مشايخ الجزيرة ، ودبلوماسية الاستفادة من التناقضات العالمية التي مارسها عبد العزيز . الأولى ـ كما

---

* حادثة لجوء الكيلاني

قلنا – فرضت نفسها على كيانات غير طبيعية – بلا رسالة ولا هدف ، ولا مبرر لوجودها ، ولا طاقة ذاتية ، ومن ثم فهي لا تستطيع البقاء إلا بتعديل مسارها بين القوى الكبرى ، فتتعادل عليها قوى الجذب ، فتبقيها معلقة في الفضاء تدور حول نفسها أو حول حاكمها الذي يجيد ضبط زاوية انحرافه أو توازنه على حبل الوفاق الى أن يسقط هو وكيانه في النهاية في مدار إحدى القوى الكبرى . وهو ما حدث للجميع ، لكل الذين حاولوا الاستعانة ببريطانيا ضد تركيا ، أو ضد جيرانهم ، أو لحل خلاف عائلي على الحكم ، أو لضرب شعوبهم ، كلهم انتهت مساوماتهم في سوق النخاسة الدولية باسترقاقهم . أما السياسة السعودية التي طرحها ابن سعود فكانت تستهدف بناء القوة الذاتية ، وتحقيق الوحدة الاقليمية ، وتنفيذ الرسالة المتوارثة .. أو محاولة تطبيق الحل الاسلامي ..

الاتجاه الأول ، هو حماية الكيان المفتعل ، ومن ثم مقاومة الاتجاه الطبيعي وميل الجماهير نحو الاتحاد ، مما يفضي بالقوى الحاكمة إلى مزيد من الارتباط والتفريط في السيادة ، ثمنا لحماية الأجنبي لها من شعبها وضد تيار التاريخ الوحدوي ، وزيادة عزلتها فزيادة خضوعها .

أما ابن سعود فكان مع التاريخ .. مع الجماهير ، فلم يفرط في سيادته ، ولا احتاج يوما لحمايته ضد العرب أو ضد شعبه .

كان شيخ البحرين يلعب لعبة الحرباية ، لحفظ استقلال الجزيرة ، برفع علم فارس من ناحية البحر ، وعلم تركيا من ناحية البر ، فانتهى بالخضوع لراية بريطانيا وحدها . وشيخ الكويت يفاوض الانجليز سراً ، ويقسم للمقيم البريطاني « أنه قطع كل صلة بتركيا » . ويقول للأتراك « انه مازال يرفع الراية التركية » فانتهى بأن كبل الكويت بقيود الاستعمار البريطاني ستين عاما . أما ابن سعود فلم يرفع لا راية إنجليزية ولا تركية ، بل راية السعوديين التي لم تتغير خلال ثلاثة قرون : « لا إله إلا الله » .

رفض أن تكون علاقته مع حكومة الهند ، فهو ليس كشيوخ الخليج ، ورفض أن يسمح بوجود قنصل بريطاني في بلاده ،* في وقت كان الجيش المصري يشرف عليه السردار البريطاني ، والسودان له حاكم عام بريطاني ، وجيش العراق تديره بعثة عسكرية بريطانية ، والأردن جهازه الاداري بالكامل في يد البريطانيين وجيشه إنجليزي ، وفي سوريا ولبنان جندرمه ضباطها فرنسيون ، والجزائر جزء من فرنسا ، والمغرب وتونس تحت الحماية ، وليبيا قطعة من ايطاليا . أما عبد العزيز فلم يكن في جيشه بريطاني واحد ، بل كان جنوده يبصقون في اتجاه فيلبي ، ويعتبرون الأوعية التي يشرب منها نجسة !

---

* وسط الميجور ديكسون المندوب السامي في العراق ، الريحاني لاقناع ابن سعود بقبول قنصل بريطاني في القطيف ، « لأن ابن سعود لا يقبل قناصل في بلاده »[٩] .

ممثلو الامبراطورية الذين عملوا في الجزيرة في تلك الفترة ، لقبوا بـ « صانعي الملوك » ! أو « المربية » للعربي الجالس على العرش .١٠ لورنس مزقت سياط الألم ضميره ، لأنه غرر بالعرب القاصرين ! يقصد ملوك وزعماء الثورة العربية ! جيل النهضة في أكثر البلدان العربية تقدما واطلاعا على السياسة العالمية . ولكن ما من موظف بريطاني استطاع أن يهمس بمثل هذا الادعاء عن البدوي الذي لم يخرج من صحراء الجزيرة ، إلا بعد أن أصبح شخصية عالمية .. فلا أحد علمه ، ولا أحد خدعه ، بل يستطيع المؤرخ أن يقول مطمئنا ، إن العكس هو الذي حدث ، عبد العزيز هو الذي « طبق » ممثلي الامبراطورية البريطانية ، أول ممثل جعله يكتب من التقارير ما يحتار المؤرخ في تفسيره .. حتى ليكاد يقول انها مدفوعة الأجر من ابن سعود !! وذلك لتحيزها الصارخ لوجهة النظر السعودية ، وقد تورط شكسبير في انبهاره وتحيزه لابن سعود حتى كاد أن يفقد منصبه ، ثم قتل تحت راية ابن سعود .

والثاني شهد لعبد العزيز بأنه لم يخطيء قط !

والثالث . استقال من خدمة حكومته ، وأتهم بأنه متحيز لدرجة العمالة لابن سعود ، وانتهى به المطاف موظفا عنده يجلس بين حاشية الملك وسماره ، ويصرخ فيه الملك : « اخرس » فيخرس « سعادة الصاحب » وينسحب فلا يعود لمجلس الملك حتى يأذن له* .

جاء ابن سعود في الفصل الأخير من التراجيديا العثمانية ، عندما تكالبت عليها كل القوى لتصفيتها ، وكان قدره وتاريخه ومستقبله وواقعه . يحتم عليه الصدام معها ، فهو ابن أول بيت عربي نزع السيادة العثمانية ، ودعا إلى استقلال العرب . والأتراك يحتلون أكثر من رقعة في وطنه ، ويدعمون ، بكل قواهم ، البيت المعادي الذي يسيطر على بقية هذا الوطن .. وتركيا يحكمها نظام متخلف هو حقا عدو نفسه ، وعدو المسلمين الذين حمل مسئوليتهم فبددهم ومزقهم شر ممزق ! ثم سقط هذا النظام في يد عصابة من يهود الدونمة ، واليهود الصرحاء من الصهيونيين ، وعملاء شتى الامبرياليات الأوروبية من موسكو إلى برلين وروما ولندن . ومع ذلك ، ولكي تزداد القضية تعقيدا ، فهذه التركيا هي الدولة الاسلامية الكبرى ، المعترف بها دوليا ، وهي ضحية مؤامرات الدول الغربية الاستعمارية ، التي تستهدف استعمار ما بقي من العالم الاسلامي ، والعربي خاصة ، فهي لا تعادي الدولة العثمانية ، حبا في تقدمها أوشفقة على العرب ، بل لافتراس ما بيدها .. فكيف يستطيع العربي الثائر أن يطعن السلطة العثمانية ، ويزيلها دون أن يتحول إلى مخلب قط للاستعمار ، ودون أن تسقط بلاده التي استخلصها من يد الذئب العجوز ، في فم السباع وابناء آوى الأوروبيين الأشد قسوة وضراوة .. فلا يفوز هذا العربي إلا بتلطيخ يديه بدم الدولة الاسلامية ، وحمل تهمة

---

* وأول مبعوث أمريكي عمل في السعودية صار يكتب التقارير له ضد حكومته وما كنا لنعلم لولا خيانة موظف درزي نقل التقرير للأمريكيين .

تسليم بلاد العرب للاستعمار ؟ ! أو أن يسقط في الخطأ الأكبر فيرجح الاستعمار الأوروبي على السيادة العثمانية ؟!٣م

عبد العزيز .. وحده* من بين كل الذين ثاروا على الدولة العثمانية وحاربوها ، وانتصروا عليها إستطاع أن يحقق هذا الدور المستحيل ، فلم يضرب الدولة العثمانية من الظهر أبداً ، أي وهي منشغلة في حرب مع « عدو » أجنبي .

فشلت كل محاولات الانجليز معه ، لينضم إلى الطاعنين في ظهر العثماني الجريح ، رفض واستطاع أن يقنع الانجليز ـ بمنطقه العجيب ـ أن مصلحتهم هي في عدم انضمامه إليهم . قال لشكسبير : « نحن متهمون بالدعوة الى مذهب خامس ، فقيامي معكم ورفع رايتي المنقوش عليها « لا إله إلا الله » إلى جانب رايتكم ، أمر غير نافع لي ولا لكم »[١١] .. والحقيقة هي ما قاله لكوكس رئيس شكسبير : « لن يقول الناس عني إنني ثرت على دولة تحمل اسم الخلافة في محنتها »[١٢] .. فاضطر شكسبير أن يقاتل هو تحت راية « لا إله إلا الله » وضد ابن الرشيد في سبيل « الامبراطورية » السعودية !! وأقصى ما وصلت إليه الامبراطورية البريطانية ، التي خلعت خديوي مصر ، ووضعت كبرى الدول العربية تحت الحماية ببلاغ من دار المندوب السامي** ، كل ما وصلت إليه مع عبد العزيز ، الذي كان يرهن سيفه ويقترض ألفي جنيه ، هو وعد منه بالحياد !

هو وحده الذي خرج بحصة عربية إسلامية مستقلة من تركة الدولة العثمانية ، وكأنه كان ضمن القوى العظمى في الحرب العالمية الأولى !.. حمى إستقلال ما فاز به ، دون أن يلطخ يده بجريمة طعن الدولة من الظهر ، وهي الدولة التي كانت تستحق الموت فعلا ، ودون أن يحمل شبهة خدمة المصالح الامبريالية . واستطاع حقا أن يكون كما قال لممثل بريطانيا : « أنا مسلم أولا وعربي ثانيا » .

كان مجرى التاريخ ، هو تقسيم الوطن العربي إلى دويلات أو كيانات لا أصل لها من التاريخ أو الجغرافيا ، فاستطاع وحده أن يعكس مجرى الأحداث ، ويقيم أول وأبقى وحدة عربية ، بالارادة العربية المنفردة ، لا بقرار من مؤتمر أوروبي ، ولا باتفاقية سايكس ـ بيكو ، ولا بموجب خريطة رسمها القناصل في القاهرة أو بوشهر .. بل بقرار عربي من عاصمة عربية ، تتويجا لحقيقة عربية أنجزتها سيوف العرب .

كان الاتجاه العام هو سقوط الحل الاسلامي ، فدولة الخلافة ، ألقت بالخلافة والطربوش ولغة الاسلام ، بل وبالاسلام في الدردنيل لتصبح بالعلمانية ، دولة أوروبية وتتخلص نهائيا من كل روابطها الشرقية ، بل من كل تاريخها ، لأنها في زعم أتاتورك ومناصريه ، هي قيود التخلف والرجعية ، وعوامل التأخر والضعف أمام أوروبا .. وفي

---

* يقتضي الانصاف القول بأن الامام يحيى حميد الدين ، اتخذ نفس الموقف ، إلا أن يحيى لم يكن يواجه ضغطا بريطانيا للاشتراك في الحرب ، وكان في بلاده قوة تركية لابد ان يحسب الامام حسابها .

** أعلنت الحماية على مصر ١٨ ديسمبر ١٩١٤ .

العالم العربي قوي التيار العلماني وقامت أحزاب وحركات تستبعد الاسلام وتطالب بالتغريب . باعتبار أن الاسلام قد هزم هزيمة ساحقة ، سواء على صعيد المواجهة الحضارية ، بهزيمة الخلافة* وسقوط العالم الاسلامي من المحيط للمحيط تحت سيطرة أوروبا غير المسلمة . وأصبح كفر أتاتورك أعظم أمجاد الأتراك ، والحل العبقري لجميع مشاكل المسلمين ! وليس قبل ثلاثين سنة ، حتى يكتشف بعض المسلمين ، أن أتاتورك أخرج تركيا ليس فقط من تاريخها ، بل ومن المستقبل ، وحول رجل أوروبا الذي ظل مريضا ثلاثة قرون الى متسول الشرق الأوسط ، وواحدة من أكثر دوله تخلفا . واستبدادا .. وإن كان البعض لا يستحي ، حتى الآن ، من الاشادة بالكمالية ، مما يوضح ، ليس فقط غباء اولؤم هذا البعض ، بل أيضا قوة الدعاية التي انطلقت وقتها من أعداء الحل الاسلامي ، ومازال صداها يعشش في أذهان بقايا ذلك الجيل ، حتى اليوم !

في الحرب العالمية سقط « وهم » التضامن الاسلامي ، والمسلمون الهنود يفتحون العراق ويقتلون علماء النجف ومسلمي بغداد ، والسنغاليون المسلمون يسحقون ثورة مسلمي سوريا ، بل حتى الجزائريون والمغاربة اشتركوا في فتح بلاد الشام للاستعمار الفرنسي . ثم ثار شريف مكة على خليفة اسطمبول . سقطت القناعة التي سادت قرونا ، بأنه مهما كان استبداد الحكم فلا يمكن أن يتدخل في الأحوال الشخصية والعبادات للمسلمين .. فقد استطاع أتاتورك هذا ، أن يمنع الشعب التركي من أداء فريضة الحج ، ومن الآذان بالعربية وحول مسجد أيا صوفيا ، أكبر نصر إسلامي بعد فتح القدس . إلى متحف ، وفرض عليهم قوانين أحوال شخصية يعتبرها المسلم التركي « غير إسلامية » . وفعل البلاشفة نفس الشيء ، على نحو أكثر صراحة ، مع أحفاد الامام البخاري والطبري وابن سينا ..

روى « محمد أسد » أنه خلال زيارته للعواصم الاسلامية الخاضعة للحكم الروسي مثل سمرقند وبخارى وطشقند ، الأقدم في تاريخ الاسلام من تاريخ موسكو في أوروبا والنصرانية ـ شاهد « صورا ضخمة لشاب بروليتاري يركل بحذائه ، رجلا مضحكا ذا لحية بيضاء مرتديا ثيابا فضفاضة خارجا من سماء ملبدة بالغيوم ، وكتب تحت الصورة « هكذا طرد عمال الاتحاد السوفيتي ، الله من عليائه » .

الناشر : « الجمعية اللادينية في جمهوريات الاتحاد السوفيتي الاشتراكية .. » .

وقالوا له في طشقند وبخاري مسقط رأس الامام البخاري : « إن جواسيس الشرطة الروسية يدونون اسم كل شخص يدخل إلى المسجد »[١٣] .

---

* هزيمة الخلافة لم تحدث في عام ١٩٢٤ بالغائها ، بل قبل ذلك بعشر سنوات عندما فشل « نداء الجهاد » في تحريك العالم الاسلامي ، بل وقبل ذلك بست سنوات عندما استولى على الحكم في تركيا جماعة الاتحاديين الذين كانت دعوتهم تتضمن رفض الخلافة ، وإن اضطروا للابقاء عليها فترة لأسباب سياسية .

ولم يكن حال مسلمي الاتحاد السوفيتي بأسوأ من حال مسلمي البلقان ورودس وقبرص وكريت الذين استئصلوا دينيا وجسديا ولم يحدث ذلك في عام ٧٠ قبل الميلاد بل في القرن العشرين .. ومع أغتباط ودعم الديموقراطيات الغربية ، والقيصرية الروسية .

أصفر وأحدث استعمار أوروبي مزق قرآن المسلمين ورمى علماءهم من الطائرات ولم يجد أية مقاومة من « الأمة الاسلامية »[٤]م ! روى محمد أسد : « أن الجنرال الايطالي حشد كل من تبقى على قيد الحياة من الأهالي ، أمام قبر السيد محمد المهدي ، وأمام أعينهم مزق نسخة من القرآن ثم رماها على الأرض وداس عليها بحذائه صائحا : « دعوا نبيكم البدوي يساعدكم الآن إذا استطاع » ثم « أمر بقطع النخيل في الواحة ، وردم آبارها وإحراق كل ما كان في مكتبة السيد أحمد من كتب ، وفي اليوم التالي أصدر أمره بوضع بعض شيوخنا وعلمائنا في طائرة ، حلقت بهم ورمتهم من علو شاهق »[١٤] واكتفى مشايخنا بالزهو بصدق حديث : « يعود الاسلام غريبا .... » مؤكدين أنه قد تحقق ! وكذلك حديث : « تتداعى عليكم الأمم كتداعي الجياع إلى القصاع ، قالوا : عن قلة يارسول الله ، قال : لا ولكن غثاء كغثاء السيل » وفي الجوامع كان النحيب يعلو كل أسبوع : « اللهم ارفع مقتك وغضبك ، اللهم لا تسلط علينا من لا يرحمنا ولا يخشاك » ، « اللهم لا نسألك رد القضاء ، ولكن نسألك اللطف فيه » وكلها دعوات غير مستجابة ، لأن الله هو القائل « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »* .

عبد العزيز وحده ، بدا ظاهرة مخالفة لقوانين التاريخ !.. وحده كان يطرح الحل الاسلامي ، وينتصر .. وحده كان يرفع شعارات اعتقد البعض أنها أصبحت في ذمة التاريخ ، وفقدت مفعولها ، فاذا بها في معسكر عبد العزيز تفعل الأعاجيب ، وتثبت أنها وحدها التي استطاعت أن تحقق إنجازا هو الذي بقي ، بينما تلاشت أوهام وأحلام الذين تخلوا عن الاسلام في مطلع القرن العشرين بأمل النجاة من الاسترقاق الأوروبي او تحقيق التقدم المادي .

تحت راية عبد العزيز التي تحمل شعار التوحيد الاسلامي ، رأى الناس جيشا ، إن لم يكن جيش الصحابة ، فهو يحاول جهده أن يعيد سيرتهم ، وينتصر ! بينما الهزيمة على كل الجبهات . ها هو زعيم استطاع هو وقومه ان يغيروا ما بأنفسهم ، فغير الله ما بهم وسلطهم على من لا يخشون الله .. وهذا يعني أن « الحل الاسلامي » ممكن ، بل وفعال .. وقد أشار حافظ وهبه في رسالته التي بعث بها إلى عبد العزيز إلى الآمال التي أطلقها سلطان نجد في صدور المسلمين : « كم يكون سروري وسرور قومي إذا سمعنا أن الامام ابن سعود نهض نهضة جديدة بالاسلام وبالعرب فأرجعهم الى سابق مجدهم . إن العالم الاسلامي يحتاج إلى زعيم مصلح ، يرشده إلى نهج الحق ، وإن المسلمين الأحرار ، وإن كانوا قلة اليوم ، فسيكونون قوة غدا . لقد خاب أمل المسلمين في الأتراك ، كما خاب أملهم في شريف مكة ، فلعل المسلمين ، يجدون في عظمتكم ما

---

* وقد روى فيلبي أن عبد العزيز قال له إن هذه الآية هي شعاره .

يحقق أملهم »* .

وكيف لا يحرك عبد العزيز أشجان المسلمين ، ويثير أمالهم ، وهم يسمعون الأساطير عن سلوك جنده ، وقضاته ، ويسمعونه يتحدث متجها إلى مكة بعد « الفتح » فيقول : « إني مسافر إلى مكة ، لا للتسلط عليها ، بل لرفع المظالم والمغارم التي أرهقت كاهل العباد ، إني مسافر إلى حرم الله لبسط أحكام الشريعة ، وتأييدها ، فلن يكون بعد اليوم سلطان إلا للشرع ، الذي يجب أن تطأطيء له جميع الرؤوس » .

وهو ليس إسلام متصوفة ، أو دراويش ، ولا حتى إسلام محافظ ، بل ثورة كاملة تهاجم الملوك والزعماء وتحرض الشعوب على الثورة عليهم ، وهو يدعو إلى تطهير السلوك والمفاهيم ، والأخذ بالمدنية ، ويواجه المسلمين بأن العيب فيهم : « من المسائل التي يجب أن نعمل بها ، وتعد في طليعة خدمة الدين الحنيف ، هي تطهير الاسلام من الأدران والخرافات التي علقت بالدين وهو منها بريء ، وأنما الصقها به أناس نفعيون يبتغون من وراء ذلك النفع المادي »[١٦] .

« الحقيقة المرة التي يجب أن نعترف بها : هي أننا نحن المسلمين°م لا نحب بعضنا بعضا ، بل نكيد لبعضنا حتى عند الاعداء ، ولا نجد في ذلك غضاضة في أنفسنا . إنك لا تجد رابطة بين المسلمين تشد أزرهم ، ولا ألفة تدفع عنهم العاديات ، فالملك عدو الملك ، والتاجر عدو التاجر وهلم جرا »[١٧] .

« إن المسلمين متفرقون اليوم طرائق بسبب إهمالهم العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، ومن خطل الرأي الذهاب إلى أن الأجانب هم سبب هذه التفرقة ، وهذه المصائب . إن سبب بلايانا من أنفسنا لا من جانب الأجانب ، **والله إني لا أخشى الأجانب بقدر ما أخشى المسلمين ، إني أخاف من المسلمين أكثر مما أخاف من الأجانب ، فالمسلمون هم بلاء أنفسهم** ، يأتي أجنبي إلى بلد ما ، فيه المئات ، بل الألوف ، بل الملايين من المسلمين ، فيعمل عمله بمفرده ، فهل يعقل أن فردا في مقدوره أن يؤثر على ملايين من الناس ، إذا لم يكن له بين هذه الملايين أعوان يساعدونه ويمدونه بآرائهم . وأعمالهم ؟ كلا ثم كلا .. فهؤلاء الأعوان هم **سبب بليتنا ومصيبتنا** . أجل إن هؤلاء الأعوان هم أعداء الله وأعداء أنفسهم ، إذا فاللوم والعتاب واقع على المسلمين وحدهم ، لا على الأجانب . إن البناء المتين الصلب لا يؤثر فيه شيء ، مهما حاول الهدامون هدمه ، إذا لم تحدث فيه ثغرة تدخل فيها المعاول ، كذلك المسلمون لو كانوا متحدين متفقين لما كان في مقدور أحد تفريق صفوفهم وتفريق كلمتهم .

« في بلاد العرب والاسلام ، أناس يساعدون الأجنبي على الاضرار بجزيرة العرب والاسلام ، وضربها في الصميم وإلحاق الأذى بنا ، ولكن لن يتم لهم ذلك إن شاء الله ، وفينا عرق ينبض . أجل **إن المسلمين هم مصدر البلاء الذي أصابهم ، وأكثر ذلك يأتي عن طريق بعض الملوك والأمراء وعلماء السوء . أولئك هم الذين يسعون إلى**

---

* وهي الرسالة التي بعث بها اليه من البحرين والتحق على إثرها بخدمته .[١٥]

مصالحهم الخاصة ومنافعهم الذاتية فيدوسون في سبيلها كل شيء يعترضهم في الطريق ، إن هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة وينامون على الوثير من الفراش لا يفكرون إلا في أنفسهم ، ولم يحسبوا لله حسابا »* .

هذه ليست كلمات ملك أو سلطان ، بل ثائر مسلم . إن الحديث عن كنز الذهب والفضة جعل أباذر أمة وحده في صدر الاسلام .. فما بالك بملك منتصر ينادي بالحل الاسلامي ، وبهذه المنطلقات الثورية .. في عصر أجاد هو وصف حال المسلمين فيه ؟!

وقد كرر عبد العزيز نفس الموقف ، مواجهة المسلمين بأنهم هم سبب الفشل ، وعليهم أن يطهروا صفوفهم ويتحدوا ، لا أن يكتفوا بلعن الشيطان الذي يفرقهم فقال :** « أما الادعاء بأن الأجانب سبب هذه الفرقة وهذا التخاذل ، فما هو بصحيح ، لأن المسلمين والعرب ، إذا كانوا في منعة من التعاضد والتكاتف ، فليس هناك من قوة في مقدورها مهاجمتهم وإذلالهم » . إن مصائبنا من أنفسنا لأننا نحن أعداء أنفسنا ، والأغيار لم يقدروا على إذلالنا إلا بعد أن رأوا منا العداوة لبعضنا ، فاللوم واقع علينا لا محالة » .

« المسلمون ينقصهم معرفة الزعماء والأشخاص ونفسياتهم ، فان هنالك أشخاصا من المسلمين يتظاهرون بالغيرة والتضحية ، وهم في حقيقة الأمر على عكس ذلك ، يتظاهرون بالغيرة ويسعون في الخفاء لتنفيذ مآربهم الشخصية والتجسس على أحوال اخوانهم . وهذا امر يؤسف له ، لأن الأضرار التي لحقت المسلمين والعرب جاءت عن هذه الطريقة » .

ومن العبث البحث عن من كان يقصد الملك بكلماته القاسية هذه ، لأنه كما قيل ، كلامه لا ينطبق على أحد بعينه ، ولذا فهو ينطبق على الجميع !

« فريق من المسلمين ينقمون علي لأنني أدعو لعبادة الله عبادة خالصة ، ولأنهم يريدون أن أرتكب المنهيات فآمر باقامتها في البلاد »[19]

وقد اتخذ الموقف « الثوري » الاسلامي التقليدي من قضية « العصرنة » أو التحديث وهو القناعة بتفوق قيم الاسلام ، وتخلف المجتمع الاسلامي ، وتخلف الانتاج والعلم في هذا المجتمع ، ومن ثم فنحن كسائر الحضارات نحتاج لنقل العلم أو التكنولوجيا التي هي ميراث مشترك للجنس البشري كله ، ولا دخل فيها للأيدلوجيات ، مع الحفاظ على أيدلوجيتنا ، بل وللحفاظ على أيدلوجيتنا وقيمنا .. قال عبد العزيز :

« أما التمدن الذي فيه حفظ ديننا وأعراضنا وشرفنا ، فمرحباً به وأهلا ، وأما التمدن الذي يؤذينا في ديننا وأعراضنا فوالله لن نرضخ له ولن نعمل به ولو قطعت منا الرقاب »[20] . و « إني أرى كثيراً من الناس ينقمون على ابن سعود ، والحقيقة ما نقموا علينا إلا لاتباعنا كتاب الله وسنة رسوله ، ومنهم من عاب علينا التمسك بالدين ،

---

* الاربعاء ٣٠ ذي القعدة ١٣٥١ ــ مارس ١٩٣٣. ١٨

** موسم الحج ١٥ ذي الحجة ١٣٥١ ــ أبريل ١٩٣٣ .

وعدم الأخذ بالأعمال العصرية ، فأما الدين فوالله لا أغير شيئا مما أنزل الله على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أتبع إلا ما جاء به ، وليغضب علينا من شاء . وأما الأمور العصرية التي تعيننا وتفيدنا ، ويبيحها دين الاسلام فنحن نأخذها ، ونعمل بها ، ونسعى في تعميمها ، ولا مدنية أحسن ولا أفضل من مدنية الاسلام »*.

« المدنية الصحيحة هي التقدم والرقي ، والتقدم لا يكون إلا بالعلم والعمل ، إن حالة المسلمين اليوم لا تسر ، وإن الحالة التي هم عليها لا يقرها الاسلام ، يجب على المسلمين أن يتدبروا موقفهم جيدا ، ويعملوا لتطهير قلوبهم من الأدران التي علقت بها فالموقف دقيق »** .

وهو كمنتصر لا يأخذ موقف المعتذر عن الحل الاسلامي ، بل يهاجم دعاة التغريب ، ويثبت فشلهم . داعيا لتطبيق الحل الاسلامي :

« يقولون إن المسلمين في تأخر ، وبحثوا ليجدوا طريقة لتقدم المسلمين ، فما وجدوا طريقة أمامهم إلا أن يقلدوا الأوروبيين ، ولكنهم لم يقلدوا الأوروبيين فيما كان سبب قوتهم ومنعتهم ، بل قلدوهم في مالا يسوغ في دينهم ، فقد مضى على هؤلاء عشرات السنين ، وهم يدعون الناس بالسر والعلانية ، بالقول والعمل لتقليد الأوروبيين ولكن من منهم عمل إلى اليوم إبرة أو صنع طيارة ، أو بندقاً أو مدفعاً ؟ لقد قلدوهم ولكن في غير ما يعود عليهم بالنفع ، قلدوهم فيما يخالف ما ينتسب إيه المسلم ، وقلدوا ملاحدتهم في الاعراض عن دين الله . لقد أصبح الاسلام على ألسنتهم ، في الأيام الأخيرة من الألفاظ الممجوجة ، التي تنبو عنها أسماعهم ، فاذا دعوا ، دعوا إلى الأخوة الانسانية . أما الاسلام فهم بعيدون عنه .. فاذا أقسموا ، أقسموا بشرف الانسانية ، ومنهم من يريد ان يؤاخى من لا تجمعه بالمسلمين جامعة ولا تربطه بهم صلة » .

« إن الله قد جعل المسلمين فريقين .. الفريق الأول : المجاهدون الذين يرابطون للدفاع عن حوزة الدين ، والفريق الآخر الذين يشتغلون بالصناعة والزراعة وغيرها . فاذا سرنا نحن المسلمون على هذا المنوال ، فهناك الرقي والحضارة والتمدن ، أما إدعاء اولئك المتفرنجين من المسلمين أن التمسك بحبل الدين يرجع بنا القهقري إلى الوراء ، فهو ادعاء باطل وقول مكذوب ، لأن الدين لا يمنع الناس عن تعلم الصناعات وما شاكلها ، بل هو يحث عليها في مواضع كثيرة من محكم آياته »[٢١] . « أولئك الذين يزمرون ويطبلون لحضارة الغرب ومدنيته ، ويريدون منا أن ننزل عندها فنتمثلها في بلادنا وبين أقوامنا ، فاننا نسوق إليهم الحديث بتوجيه أنظارهم إلى هذه الأزمة الخانقة***. وإلى هذا التبلبل السياسي ، وإلى هذه الفوضى الاجتماعية السائدة في تلك البلاد ، فان نظرة واحدة لمن يتدبر في هذه الأوضاع السائدة في هذه الأيام يلمس

---

* ١٦ محرم ١٣٥١ _ ٢٣ _ ٥ _ ١٩٣٢

** خطابه يوم ٧ _ ١٢ _ ١٣٤٥ _ يونيه ١٩٢٧

*** يشير إلى الأزمة العالمية ١٩٢٩ _ ١٩٣٣

فساد تلك النظريات المتسلطة على عقول السذج من المسلمين ومن العرب » .
أما المسائل الصناعية والزراعية ، فان أوامر الله تعالى ، ونبيه ، صريحة بالأخذ بها ، وكذلك في أعمال رجال السلف الصالح أكبر دليل على العناية بها والأخذ بأسبابها ، ولذلك فالقول بأن الصناعة والزراعة من نتائج الحضارة الغربية وحدها ليس بصحيح ، وكذلك الطيارات والدبابات والمدافع والاعتاد الحربية ، التي تدافع بها الأمم عن نفسها وتذود بها عن حياضها هي من الأعمال الصناعية أيضا . كذلك يمكنني القول إنه لا يوجد في الدنيا مدنية تسعد البشر وتكفل راحتهم أحسن من مدنية الاسلام » * .

والمصادر التي وصفت رحلة الملك الأولى من الرياض إلى مكة ، وتناقلتها صحافة العالم الاسلامي ، جددت أحلام العودة لمجد وفضائل القرون الأولى للحضارة الاسلامية ، فقد كانت رحلة شبيهة برحلات سلاطين الجهاد ، أو جيش المرابطين ؛ الجند في تسبيح وتهليل ، وتسابق على التضحية والفداء ، وإيثار المسلم لأخيه المسلم ، والقيادات تقسم وقتها ما بين تلاوة القرآن ، وتفسير الحديث ، أو قراءة التاريخ العربي ، وشعر العرب .. والأعداء في سكر ورقص وتدخين ، وابن شريفهم يدهش لرؤية الاخوان يصلون خلال المعركة !٢٢

فلا عجب إذ انهارت كل دعايات الأعداء ، وانفجرت الفرحة الاسلامية العامة ، وتجدد الأمل في الحل الاسلامي ، خاصة وأن هذه الشعارات لا تنطلق من جماعة منعزلة ، تحولت إلى ظاهرة هزلية ومادة للتفكه في صحافة العلمانيين ، ولا حتى من لاجئين أو منفيين في باريس ولندن . ولا من جمعية سرية مطاردة . بل من قائد يسير من نصر إلى نصر ، وذاع صيته بأنه قهر بريطانيا ، بالقضاء على أخلص أصدقائها ! وها هو يتحمل مسئولية العرب والمسلمين في جميع أنحاء العالم .

ففي خطابه في جدة** . جعل أهم قضية تعنيه في علاقته مع الدول الأجنبية ، هي سلامة وأوضاع العرب والمسلمين الخاضعين لحكم هذه الدول :

« ثم إن لنا على الدول حقاً فوق هذا كله ، وهو أهم شيء يهمنا مراعاته ، وذلك أن لنا في الديار النائية والقصية إخوانا من المسلمين ومن العرب .. نطلب مراعاتهم وحفظ حقوقهم . ولي الأمل الوطيد في أن الحكومات المحترمة ذات العلاقة بالبلاد الاسلامية

---

* قال تقرير القنصلية الأمريكية في بيروت : « لفت انتباهنا الى خطاب الملك عبد العزيز ، مترجم السفارة وهو مسيحي سوري قائلا : « إن هذا الخطاب يثبت أن العرب في نظرتهم للشئون الدولية ، لم يتقدموا على ما كانوا عليه منذ ١٣ قرنا » . وعلق القنصل الأمريكي جورج براندت : « إن الخطاب جاء على طريقة أئمة المسلمين في الماضي ، أي إعلان الكمال المطلق للاسلام وتفوقه . والتأكيد على أخوة المسلمين ، وكراهة الأوروبيين ، ولا يعبر عن أي رأي حديث ، وهو ـ على كل حال ـ الخطاب المنتظر من ابن سعود في مواجهة شعب تلك البلاد ، المتعصب دينيا ، وعند عودته من إخماد ثورة » .

** يناير ١٩٢٦

والعربية لا تدخر وسعاً في أداء ما للعرب والمسلمين من الحقوق المشروعة في بلادهم . » * .

كان مسلما عربيا ، لم تقم في ذهنه شبهة تناقض مزعوم بين الاسلام والعروبة . ولا حاول أن يتجنب الفاظ القومية ، كما يفعل المسحورون اليوم فهو يقول : « الحمد لله الذي حفظ لنا ديننا وعروبتنا وقوميتنا »** ويقول بالفم المليان « أنا مسلم عربي رأست قومي بعد مصاعب طويلة » *** .

هو الاسلامي الداعية للحل الاسلامي ، واجه الأتراك وقاتلهم باسم العروبة ، ودفاعا عن العرب ، وكان يقال في مجالسه ان الأتراك من نسل إبليس لأنهم من أولاد التتار[٢٣] .. وحملاته على الأتراك معروفة ومشهورة ، ومعظمها يدور حول ما أنزلوه بالعرب من أضرار ، بل يفتخر ويعتز بانتصار العرب على الفرس المجوس « كانت العرب قبيل ظهور الاسلام ذليلة خاضعة لسلطان الفرس ، ولما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم ، أخضع العرب الفرس لسلطانهم . وقد تم لهم ذلك لتمسكهم بكلمة التوحيد وهي « لا إله إلا الله **** » . وهو المعتز بجزيرة العرب الذي باختيارها اسما للمملكة التي أسسها ، كان أول من وضع « العربية » في اسم الدولة[٦]م .. وإن كان بمفهوم آخر غير مفهوم الستينات ، وهو أحد الأركان المؤسسة للجامعة العربية ، وقد روى العقاد عنه قصة أومثالا ضربه عن أهمية الجامعة العربية ، وأن مصلحة العرب في الحفاظ عليها ، وأن الذين يغررون بالعرب بطرح شعارات مزايدة بالزعم أن تحطيم الجامعة يحقق مكاسب أفضل ، مثل جامعة الشعوب ، أو الوحدة الاندماجية .. الخ إنما يريدون هدم حصن العرب ليتمكنوا منهم ، ولكن المثال بقلم العقاد وعن عبد العزيز أجمل ، ويغني عن أي تعليق .. قال عبد العزيز كما روى العقاد :

« كان في إحدى الممالك منار من حجر المغناطيس ، يكشف البحار ، وينزع الحديد من كل سفينة قادمة ، فاستحال غزو هذه المملكة ، واشتدت شوكتها ، فاحتال اعداؤها عليها ليضربوها من الداخل ، بأن أرسلوا جاسوسا تنكر في هيئة درويش أو ناسك من الصالحين ، فتن المملكة بصلاحه ومعجزاته في كشف الكنوز التي يكون هو قد خبأها . حتى وثقوا به وآمنوا بكراماته ، فلما اطمأن إلى ثقتهم جاءهم يوما برؤيا زعم أنه رآها ، ولكنه يخشى على المدينة نتائجها ، ولا يريد أن يفصح . فألحوا عليه ، وهو يتمنع ليزيدهم اغراء ، حتى بلغ بهم الشوق حدا شل كل تفكير ، فقال : لقد رأيت في المنام أن

---

* وبعد نصف قرن لم نعدل حتى في اللفظ فما زلنا نطلب « الحقوق المشروعة » للفلسطينيين في بلادهم . ولكن لو التزمنا بشعاره هذا ، اي ربط علاقتنا بالدول على ضوء موقفها من المسلمين والعرب . أكان يجري ما جرى في فلسطين وافغانستان ؟

** خطاب عيد الأضحى ١٣٦٥ ـ نوفمبر ١٩٤٦

*** خطابه يوم الجمعة ٥ ذو الحجة ١٣٥١ ـ مارس ١٩٣٣

**** من خطابه ذو القعدة ١٣٤٥ ـ ١٩٢٧[٢٤]

تحت هذا المنار كنزا يكفيكم الدنيا ويغنيكم أبد الدهر ، ولكن لا سبيل اليه إلا بهدم المنار ، وانا احذركم من هدمه . وكما توقع ، لم يبالوا بتحذيره ، فقد ملك الأمل في الكنز الموعود تفكيرهم ، وأثار أطماعهم ، فتدافعوا لهدم المنار ، وإنتهت بذلك عزتهم وسيادتهم وما أصابوا غنى » .

وهو الحاكم العربي الوحيد الذي أحاط به مستشارون من معظم الجنسيات العربية ، وكان ديوانه أول وآخر مجلس حكم منذ الدولة العباسية وجد فيه المصري والسوري واللبناني والليبي والعراقي والفلسطيني[٧م] ، وكانت لهم جميعا مزاياهم ، وخدموه باخلاص ، إلا فيما ندر وفي أواخر أيامه ، وهم كأي تجمع عربي ، كانوا يعانون من الحساسيات الاقليمية ، والمزاحمة فيما بينهم ، ولكنه استطاع أن يكون منهم مجموعة متناسقة تعمل وفق إرادته ، وفي إطار ما يخطط ، لم يستطع مستشار مهما كانت مكانته ، ومهما بالغ في الظن بأهمية نفسه ، أن يفرض عليه خطأ سياسيا لا يرضاه ، أو أن يزج به في قضية إقليمية على هوى المستشار ، حتى أن حافظ وهبه كان يفتخر أو يعتذر بأنه في مصر وطني يعادي الانجليز ، أما في بلاط عبد العزيز فيعمل باخلاص لتدعيم صداقة السعودية وبريطانيا .

وهكذا الرجل العظيم يدير رجاله ، ولا يديره المستشارون ، ولكن لا يجوز أن نفهم من ذلك أنهم كانوا إمعات ، أو تمثلهم الصورة البشعة التي نقلها العطار عن يوسف ياسين إذ نسب إليه قوله : « كنا بوسطجية ننقل عبقرية عبد العزيز » ! بالعكس كان يتخير الرجال الذين يملكون استقلالية الرأي ، والقدرة على تقديم المشورة الحقيقية ، لا أن يحيط نفسه ببني « وي وي »* كما كان الجزائريون يقولون عن نواب وموظفي الجهاز الاستعماري من الجزائريين . ففرق بين المستشار والخادم ، وهو كان يحذر من دولة الخدم الذين كما تؤكد خبرة التاريخ ، ينقلبون إلى مستبدين بالسلطة ، على نحو تفوق نتائجه ما تخوفه الحاكم من المستشار الحر ، ومعروف تحذيره لأولاده ومعاونيه من سيطرة الخدم ، وضربه المثل بدولة عمه عبد الله بن فيصل الذي أساء خدمه معاملة الناس ، فانفضوا من حوله »**. وكتب إلى صهره السديري : « وتدري الخدام إذا صار لهم مدخل بالأمر دوروا مصالحهم وعفاناتهم. وهذا كله شيء بطال »***.

---

* وي : تعني نعم بالفرنسية . كما نقول نحن : « جماعة : موافقون موافقون » أو .Yes men أي الذين لا يعارضون الحاكم أبدا .

** حافظ وهبة .

*** برقية رقم ٢٨٤٣ بتاريخ ١٣٥٥/٥/١٦ ـ أغسطس ١٩٣٦ ـ من تسجيل خاص يحتفظ به الأديب الفاضل الشيخ عبد الله السديري رئيس مجلس إدارة جريدة « الجزيرة » . ومعروف سيطرة المساعدين الخصوصين على المسئولين والسياسيين ، فليس المقصود هنا أي موقف طبقي ، بل التحذير من إخضاع السلطة للعواطف الشخصية والشهوات الرخيصة والعقليات المحدودة ، كما حدث في أواخر خلافة العباسيين ، وفي حالة الملك فاروق ، بل ورئيس وزراء بريطانيا الذي خضع لسكرتيرته .

وسنقدم أمثلة من معارضة مستشاريه وخاصة المصري الذي كان أحيانا يتجاوز حده في النقد والمعارضة ، مما يثير رعب بعض المؤرخين بعد نصف قرن فلا يصدقون ، روايات المستشار ، لولا أنها نشرت في حياة عبد العزيز . كما كان يحترم مسئولياتهم . وقد أبدى دهشته من تجاهل الملك حسين لوزير خارجيته . بابرام المعاهدات من غير علمه*. ولم تكن دهشته مصطنعة ، ولا لاثارة وزير خارجية العدو ، فهو نفسه يصدر أمره لوكيله في الكويت النفيسي .. بأن يحول جميع المراسلات التي تصل من الشيخ أحمد الجابر (حاكم الكويت) ، أو ديكسون (المقيم البريطاني) ، إلى ممثله السياسي حافظ وهبه ، ويأمره ـ أي حافظ : « فتكسره (أي تفتحه) وتشرف عليه ، لتعلمنا برأيك فيه . ونعرف خطتك التي تمشي عليها »[٢٥] . كما أشرنا في غير هذا الموضع إلى عرض رده على الحكومة البريطانية على مستشاره ، وكتابته بخطه أنه أخذ بنصيحة المستشار وكتب الرد كما اقترح المستشار .

كان عبد العزيز ، أقوى فرد ظهر في الأمة العربية خلال المائة عام الماضية ، يؤمن بأن الفرد لا يبني دولة ، ولا يقرر مصير أمة ، وكان يعرف أن الامبراطوريات والدول الكبرى لم تقم بفضل زعيم موهوب ، بل مجموعة الرجال الأكفاء على جميع المستويات ، وهذا ما جعله يحرص على كسب كل كفاءة ، وضمها إلى دولته ، ولا حاجة للاستنتاج ، فقد قالها صراحة لكلايتون . « إن الامبراطورية البريطانية بلغت ما بلغته برجال مثل كلايتون » فأراد الجنرال أن يرد التحية ، معبراً في نفس الوقت عن المخاوف التي كانت تساور المعنيين الانجليز من امتداد حركة عبد العزيز فقال : « إن ما ذكرته صحيح ، ولكن ملك بريطانيا الواسع لم يؤسس إلا في مئات السنين ، ولكن ألا يصح لنا نحن الانجليز ، أن نعجب بك ، فأنت في ثلاثين سنة قد أسست ملكا واسعا ، وإذا استمر لك هذا الفتح ، وهذا التقدم ، فأظن أنه في نصف المدة التي أسسنا فيها ملكنا ، تؤسس أنت إمبراطورية مثل أو أكبر من إمبراطوريتنا . وهذا ليس ببعيد فان أسلافكم العرب قد شيدوا إمبراطورية عظيمة في مدة قصيرة جدا لم يعرف التاريخ مثلها » فرد الملك : « هذه وإن كانت أمنية العرب ، ولكنني لا أعتقد في نفسي القدرة على تحقيق ذلك ، وكل ما أتمناه أن يجعل الله من رجالنا من يماثلكم في الاخلاص والتضحية لبلادهم »[٢٦] .

قال : « أريد رجالا يعملون بصدق وعلم وإخلاص ، حتى إذا أشكل علي أمر من الأمور ، رجعت إليهم في حله ، وعملت بمشورتهم ، فتكون ذمتي سالمة ، والمسئولية عليهم . وأريد الصراحة في القول »[٢٧] .

وكان ابن سعود يؤمن باستمرارية الحركة التي قادها ، وعالمية رسالتها حتى وإن إضطر هو إلى الاكتفاء بما حققه جيله ، ولذلك قال لبروكلمان : « إذا وفق الله أولادي ، كما وفقني ، فسوف يتولون مقدرات مائة مليون مسلم[٢٨] » .

---

* انظر فصل الأشراف .

وإن كان لم يترك خلفه المؤسسات التي تكفل هذه الاستمرارية ، كما هو الحال في الامبراطورية البريطانية ، فان تصوره للدولة ولهذه المؤسسات ، أو النظام الذي يمكن أن تزدهر فيه الحركة ، وتستمر الطاقة القادرة على نشرها ، تصور واضح وناضج إلى حد بعيد .

فهو يحذر من إفساد النظام للمثقفين ، برشوتهم ، فيخونوا رسالتهم بالسكوت على خطايا النظام ، وهو يحذر من خضوع الحاكمين لعواطفهم نحو الأمراء الصغار وشهوة هؤلاء لاستغلال الملك الذي لا يعرفون الثمن الذي دفع لاقامته ..!

قال في أول خطاب له بعد مبايعته ملكا على الحجاز (٨ يناير ١٩٢٦ ــ ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٤٤) :

« متى اتفق العلماء والأمراء على أن يستر كل منهم على الآخر ، فيمنح الأمير الرواتب ، والعلماء يدلسون ويتملقون ، ضاعت أمور الناس ، وفقدنا ، والعياذ بالله ، الآخرة والأولى » .

وقال :

« لا يفسد الملك إلا الملوك وأحفادهم ، وخدامهم والعلماء وأعوانهم ، وإني والله لا أود أن أكون منهم »* .

وكان دائم الالحاح على هذه النقطة .. « الحقيقة أن من أسباب خراب المسلمين وتخاذلهم ، تقهقر الأمراء والعلماء . فالأمراء يبحثون عن منافعهم ، والعلماء يذلون لهم ولا يبالون في النصيحة والارشاد » . « إن الأمراء يفتشون على المناصب والمراتب ، والعلماء يعملون على نيل المآرب ، ولكن هؤلاء وأولئك قد ضلوا الطريق »[٢٩] .

يمكن القول بأن عبد العزيز هو تجسيد لحلم « المستبد العادل » الذي انتظره المسلمون من أيام الأفغاني ، أو منذ نحت هذا التعبير العجيب في الفقه السياسي الاسلامي ، وهو الفرد الذي سيطر على التاريخ ولعب ــ في رأي فيلبي ــ دور كرومويل في بريطانيا ، ووصفه المعلقون بأنه بسمارك .. أعني انه كان أحق الحكام ، بادعاء صلاحية الحكم المطلق ، وأجدرهم بالعذر في رفض الشورى ، ولكن عبد العزيز ــ كما قلنا ــ وإن لم تسمح له الظروف ببناء النظام أو المؤسسات التي كان يتطلع إليها ، إلا أنه ترك نصوصا واضحة الدلالة عن إيمانه بحتمية ومشروعية وفائدة النظام الديموقراطي ، ولا مجال للتشكيك في جدية وصدق كلماته ، فما كانت هناك قوة خارجية تفرض عليه هذا القول ، فالحكم من حوله مطلق في كل البلدان الاسلامية والعربية . والرأي العام في السعودية لم يكن يأبه كثيرا بتلك القضايا وقتها ، بعدما وفر له ابن سعود الأمن والعدل ، وهما البنية الأساسية للحياة الاجتماعية .

---

* ونصه على الأحفاد دون الأبناء إشارة واضحة لاستيعابه لمقدمة ابن خلدون حيث تحدث عن الجيل الثالث الذي يبدد الملك .

خطابه يوم ٩ ذي الحجة سنة ١٣٤٩ ــ ابريل ١٩٣١

كان ابن سعود صادقا في قناعاته ، صادقا في كلماته ، لم يحاول أن يدجل باسم الاسلام والتراث ، ليسلب الشورى معناها الحقيقي ، بادعاء أن الانتخاب والبرلمان بضاعة مستوردة ! بل تؤكد خطبه وممارساته ، أنه يقصد « بالشورى » المطلوبة ، نظاما قريبا من النظام الديموقراطي المتعارف عليه ، والذي يقوم على التمثيل بالانتخاب ، باعتباره أفضل صيغة اكتشفت ــ حتى الآن ــ لتطبيق الشورى في عصرنا الحاضر ، الذي يختلف جوهريا عن عصر الخلفاء الراشدين والصحابة ، بل هو يفسر تقدم الغرب « الكافر » بهذه الديموقراطية عندهم ، إلا أنه لا يسقط في مستنقع الانبهار والتبعية فيدعي أن الديموقراطية أو تمثيل الشعب أو المساواة مجرد مخترعات غربية* ، بل يردها للاسلام ويجد جذورها ، بل تكاملها ، أوضح في الاسلام . ولكن القضية هي قوانين التقدم والتخلف ، أما جوهر حضارتنا فهو أكثر تقدما .. يقول :

« يدعي البعض أن الحرية من أوضاع الأوروبيين ، والحقيقة أن القرآن الكريم قد جاء بالحرية التامة الكافلة لحقوق الناس جميعا . وجاء بالاخاء والمساواة المطلقة التي لم تحلم بها أمة من الأمم »[٣٠] .

لم يقل ذلك ، ثم تقاضى المسلمين الجزية ثمنا لثنائه على الاسلام ! ويترك الناس حيارى والحكام سكارى ، لا يعرفون ماهية هذه الحرية الكاملة التي جاء بها الاسلام ؟! أو يخترع لهم مسخا بحجة « ينبع من تراثنا » ! بل يقول :[٣١] « كان السلف الصالح يسير على هذا الطريق في أعمالهم فقد كان أمرهم شورى بينهم ، وكان أمرهم ما كان ، وكانوا على ضعف فصاروا إلى قوة » .

« إن الناس الذين لا نشك أن الله عالم بقلوبهم ، وأنهم أعداء بعضهم لبعض كما قال الله تعالى (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) فقد بلغوا بالشورى مراتب عالية في الدنيا ، ونحن المسلمون أمرنا الله بالمشورة ، والمشورة لها أساس ، وهو النصح بالتزام الحق » .

واضح أنه يقف في الطرف النقيض من الدجالين ، الذين ما زالوا يرددون على مسامع شعوبهم المقهورة أن الديموقراطية هي سبب فساد الغرب ، ومجلبة للصراع والانشقاق ، « وحزب تابع للشرق وحزب تابع للغرب .. إلخ » بل يقول إنها كانت السبب في تقدم الذين تفرقت قلوبهم بالكفر . والمسلمون أولى منهم بالديموقراطية ، لا القول بأننا « أسمى » من أن نحتاج إلى الديموقراطية كما يقول مفتي الشيطان المستبد !

يقول رحمة الله عليه :

« أما السير على غير المشورة ، فهو مجلبة للنقص والهوى ، هوى النفس ، ونحن

---

* وهكذا نرى أن كلا النقيضين يلتقيان في تجريد حضارتنا من الديموقراطية ؛ المستبد الذي يرفض الديموقراطية بحجة أنها مستوردة ، والمستغرب الذليل الذي يرفض الشرق والاسلام بحجة أن الديموقراطية غريبة عليه .

نريد من المشورة ، أن نجمع بين السنة ، وبين ما أمرنا الله به في قوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وأعظم القوى التناصح والبقية الصالحة ، لأن كل شيء أساسه الاخلاص والنصح » .

وهو أول حاكم عربي – كما سنرى – لجأ إلى أسلوب المؤتمرات العامة ، لمناقشة القضايا العامة للدولة والخلافات الداخلية ، قبله كان الملوك يصدر عنهم « نطق ملكي كريم » كأن مجرد نطقهم هو الحدث الأكبر !! .

وإذا كانت المؤتمرات الحزبية والشعبية قد تفشت من بعده ، فقد بقي فضله أنه كان يبيح المعارضة والمناقشة فيها ، ويطلب من المؤتمرين أن يواجهوه باعتراضاتهم ، ومازال الشوط بعيدا حتى نرى ذلك في مؤتمراتنا .

وكانت له جمعية عمومية ، تضم كافة القيادات يعقدها كلما واجهت الحركة موقفا خطيرا أو أرادت اتخاذ قرار مصيري .

وقد مارس عبد العزيز مبدأ الانتخاب ، وحث عليه ، وشرح للمواطنين الأسلوب الصحيح لممارسته فقال : بمناسبة انتهاء دورة مجلس الشورى ١٣٤٦ (١٩٢٧)

« دعونا لانتخاب أعضاء مجلس الشورى الجديد ، فالواجب يقضي ألا ينقاد الانسان ، في مثل هذه الحال إلى قلبه ، لأن القلب يكون دائما ميالا للهوى . يجب أن تنتخبوا الأكفاء من اهل الخبرة ، بحيث إذا قام هذا المجلس على أساس قويم تجني البلاد منه فوائد جزيلة . يجب أن تنتخبوا من تعتقدون فيهم الاخلاص في العمل والمقدرة في الدفاع عن حقوق الأهلين ؛ لأن الحكومة تأخذ حقها على كل حال* ، أما الأهلون فهؤلاء أعضاء مجلس الشورى هم الذين سيكونون وكلاء عن الشعب . فاذا أحسنتم اختيارهم وانتقاءهم أحسن هؤلاء الدفاع عن حقوقكم ، فأحسنتم بذلك للبلاد والعباد » .

واضح أنه يعي تماما ويقبل دور المجلس النيابي كما هو معروف في النظم الديموقراطية ، دون محاولة لاختراع فلسفة أو نظرية خاصة تغطي استبداد الحكومة ، بالطعن في مبدأ الانتخابات ، والزعم بأنه لا يمكن أن يأتي « بوكلاء » مخلصين واعين للشعب . أو تكليف الأعضاء بكل المهام الخرافية ، إلا الدفاع عن حقوق الشعب ، أو قبول وكالتهم عن الشعب التي أقرها ابن سعود بدون أي ادعاء ! وبعض النظم « الثورية » رفضت تسمية أعضاء مجالسها الهزيلة ، بالنواب ، لأنهم لا ينوبون عن الشعب ، وإنما نائب الشعب الأوحد هو الزعيم الذي استحق الوصاية على شعبه بقيادته من هزيمة إلى كارثة إلى فقر إلى خراب شامل !!

أما عبد العزيز فيوحد دولة من الخليج للبحر ويقول : في افتتاح مجلس الشورى :

---

* تأمل عمق فهمه لدور البرلمانات . فهو يقول إن الحكومة تمارس سلطاتها وتأخذ حقها بالديموقراطية أو بغيرها . ولذا فان الديموقراطية أو البرلمان هو أداة الشعب لنيل حقوقه . ولم يقل : « إن حقوق الشعب في يد أمينة » .. وهو يعني يده الكريمة ، ولو قالها لكان أقرب قائل للصدق !

« إن أمامكم اليوم أعمالا كثيرة من موازنة لدوائر الحكومة ، ونظم من أجل مشاريع عامة ، والأمة تنتظر منكم ما هو المأمول في هممكم » « لقد أمرت ألا يسن نظام في البلاد ويجري العمل به قبل أن يعرض على مجلسكم من قبل النيابة العامة ، وتنقحونه بمنتهى حرية الرأي » « إنكم تعلمون أن أساس نظامنا وأحكامنا هو الشرع الاسلامي ، وانتم في تلك الدائرة أحرار في سن كل نظام وإقرار العمل الذي ترونه موافقا لصالح البلاد ، على شرط أن لا يكون ذلك مخالفا للشريعة الاسلامية » .

فهو مجلس تشريعي كامل الصلاحيات ، يقرر ميزانية الدوائر الحكومية ، ويصدق على المشاريع العامة ، وله حق التشريع ، وتعديل القوانين ووقف العمل بما تسنه الحكومة ، بشرط واحد ، ألا يكون ذلك مخالفا للنظام العام للدولة أو الدستور الذي ارتضته . وهذا مبدأ عام وأساسي في كل النظم الديموقراطية ، بل وهناك محاكم خاصة في تلك النظم تنظر في مدى انطباق تشريع المجلس النيابي على الدستور ، ويمكنها أن تحكم ببطلانه إذا وجدته مخالفا للدستور .

ولم يكن ابن سعود ينفر من كلمة « الشعب » ويظن أنها لابد أن تكون مقترنة بالثورة والشر ! .. بل كان كثير الحديث عن الشعب ، كثير الحب للشعب ، شديد الحرص على الاتصال بشعبه . واذا كان أساتذة الديموقراطية ، يعددون من مقوماتها الأساسية حق مخاطبة السلطات ، فان الديموقراطية العربية تضيف إلى هذا الحق حق الاتصال المباشر ، فهذا الاتصال ومخاطبة السلطات يمنع ظلم الرعية ، ويمنع أيضا تشويه المفسدين لصورة الحكم وحقيقة الحاكم ، هذا اذا كان صالحا ..!

وكل هذه الحقائق يعيها ابن سعود « البدوي » ، كما كان يعيره خصومه ، والعبقري كما شهد له التاريخ . قال :

« إن التباعد بين الراعي والرعية ، يدع مجالا للنفعيين فيجعلون الحق باطلا ، ويصورون الباطل حقا ، حيث إذا لم تكن هناك صلة بين ولاة الأمور والأهلين ، وجاء أي شخص من أرباب المقاصد السيئة ، وقال لولاة الأمور : إن المسألة الفلانية كيت وكيت فمن أين يعلم ولاة الأمور ، أن الأمر على الضد من ذلك ، وأن هذا النفعي قد قلب الحقائق ! .. أما إذا اختلط الشعب مع ولاة الأمور ، فان هؤلاء النفعيين الدساسين يخشون من مخاطبة امرائهم بعكس الواقع ، ويخافون من أن ينكشف الغطاء فتعرف نياتهم السيئة٨م . إن بعض الشياطين هم من خدمة ولاة الأمور الذين يخافون على مراتبهم وكراسيهم ، وجل ما يرمون إليه هو قضاء مآربهم بأية واسطة كانت ، فاختلاط الرعية بالحكام يقضي على أولئك من جهة ، ويسهل الأمور ويحل المشكلات من جهة ثانية » .

وعلة الشرق هي في العبارة الشائعة التي نسمعها عن كل حاكم للناس فيه بقية أمل ، وهي قولهم : « الحاكم طيب وصالح ولكن الذين حوله هم الأشرار ، أو يمنعون عنه الحقائق » !

إذا كان صالحا حقا فليعمل بنصيحة عبد العزيز ، يفتح بابه للناس ، فلا يبقى حوله

إلا المخلص .. أما إذا طوق نفسه بالفاسدين ، وجعلهم حاجزاً بينه وبين الناس والمخلصين من القيادات ، فلا يلومن إلا نفسه ! ..

يقول عبد العزيز مخاطبا القيادات :

« إننا في أشد الحاجة إلى الاجتماع والاتصال بكم لتكونوا على علم تام بما عندنا ، ونكون على علم تام بما عندكم ، وأود أن يكون هذا الاتصال مباشرة وفي مجلسي لتحملوا إلينا مطالب شعبنا ورغباته ، وتحملوا إلى شعبنا أعمالنا ونوايانا . إني أود أن يكون الاتصال بالشعب وثيقا دائما ، لأن هذا أدعى لتنفيذ رغبات الشعب . لذلك سيكون مجلسي مفتوحا لحضور من يريد الحضور ، وأنا أود أن أجتمع بكم دائما لأكون على اتصال تام بمطالب شعبنا و هذه غايتي من وراء هذا الاتصال »* .

وفي أواخر أيامه ، عندما آذنت شمس العظمة بالمغيب ، اتخذ إجراء يكفل مبدأ « مخاطبة السلطات » ، لم تصل إليه أعرق الدول في إعلان هذا المبدأ ، وهو جعل هذه المخاطبة على نفقة الدولة ، فقد أصدر منشوراً علق في أماكن التجمع يقول :

« من عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود إلى شعب الجزيرة العربية :

على كل فرد من رعيتنا يحس أن ظلما وقع عليه ، أن يتقدم إلينا بالشكوى ، وعلى كل من يتقدم بالشكوى أن يبعث بها بطريق البرق أو البريد المجاني على نفقتنا . وعلى كل موظف بالبريد أو البرق ، أن يتقبل الشكاوى من رعيتنا ، ولو كانت موجهة ضد أولادي أو أحفادي أو أهل بيتي .. وليعلم كل موظف يحاول أن يثني أحد أفراد الرعية عن تقديم شكواه ، مهما تكن قيمتها ، أو حاول التأثير عليه ، ليخفف من لهجتها ، أننا سنوقع عليه العقاب الشديد » .٣٣

ولم يكن المنشور للدعاية ، فقد أشفعه ، أو سبقه بمنشور إداري للمشرفين على البريد يقول : « كل شكاية ترفع لنا عن طريق البرق أو البريد ، من أي شخص كان ، يجب أن ترسل لنا بنصها ، ولا يجوز تأخيرها ، ولا أخبار المشتكى منه ، سواء أكان أميرا أو وزيرا أو أدنى من ذلك أو أكبر » .

وقد أوصى ولي عهده الملك الراحل سعوداً عند تسميته وليا للعهد فقال : « عليك أن تجد وتجتهد في النظر في شئون الذين سيوليك الله أمرهم ، بالنصح ، سرا وعلانية ، والعدل في المحب والمبغض ، وتحكيم الشريعة في الدقيق والجليل ، والقيام بخدمتها باطنا وظاهرا . وينبغي ألا تأخذك في الله لومة لائم .

« عليك أن تنظر في أمر المسلمين عامة ، وفي أمر أسرتك خاصة ، اجعل كبيرهم والدا ، ومتوسطهم أخا ، وصغيرهم ولدا ، وهن نفسك لرضاهم ، وامح زلتهم ، وأقل عثرتهم ، وانصح لهم ، واقض لوازمهم بقدر إمكانك ، فاذا فهمت وصيتي هذه ، ولازمت الصدق والاخلاص في العمل فأبشر بالخير » .

« أوصيك بعلماء المسلمين خيرا . احرص على توقيرهم ومجالستهم وأخذ

---

* اجتماعه بالقيادات ــ الأربعاء ١٣٥٥/١/٢٣ ــ ١٩٣٦/٤/١٩ م٣٢

نصيحتهم . واحرص على تعلم العلم ، لأن الناس ليسوا بشيء إلا بالله ثم بالعلم ومعرفة هذه العقيدة . احفظ الله يحفظك » .

وهذه كما قال : « مقدمة نصيحتي إليك ، والباقي يصلك إن شاء الله في غير هذا »* .

ولا أظن أنه نقل عن ملك قول في احترام العلم وتهيب العلماء مثل قول عبد العزيز ، أنه كلما رأى الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ « تصبب العرق من إبطي »٣٥ من هيبة العلم واحترام العالم .

وأحيا عبد العزيز تقليدا قديما في بلاط آل سعود ، وهو حلقة الدرس التي تقام بحضور الامام ـ الملك ، وهي عادة قديمة في التاريخ العربي من أيام المأمون . وقد سمع الزركلي في مجلس عبد العزيز هذا ثلاثة كتب من التراث ، ليس بين ملوك ورؤساء العرب اليوم ، ثلاثة يستطيعون الزعم بأنهم سمعوا بها فضلا عن قراءتها ، وعافاهم الله جميعا من مناقشتها كما كان يفعل عبد العزيز : « وهذه الكتب هي : تفسير القرطبي . البداية والنهاية لابن كثير . الآداب الشرعية لابن مفلح** » !

تلفت مرة في مجلسه فضحك ..وكان في ضيافته شيخ قبائل الرولة ففسر عبد العزيز ضحكته قائلا : هل ترى هؤلاء الجالسين حولك ما منهم إلا من حاربته ، ورد البدوي : « سيفك طويل يابو تركي ! » .

ولكن عبد العزيز لم يكن يفكر تفكير البدوي القيصري . أعني زيادة أبهة الملك باستعراض أسرى البلاد المقهورة على يد قيصر روما ، وإنما كان عبد العزيز يتصرف بفهم ذكي للحديث الشريف : خياركم في الجاهلية ، خياركم في الاسلام .. وهذا هو شعار كل ثورة أو حرب أهلية أو حركة وحدة وطنية ، ودولة عبد العزيز قامت على ذلك كله ، فهي تجمع بين الثورة والحرب الأهلية ، وإزالة الكيانات بتوحيدها في كيان وطني واحد ، لابد أن تنتقل اليه الولاءات الصغرى ، هذه الولاءات التي كانت في وقتها ، أي قبل الحرب الوطنية وقيام الوحدة ، مشروعة وطبيعية . والحرب الاهلية تتطلب النسيان فور الانتصار ، وتقبل شعار لا غالب ولا مغلوب ، حتى لا تبقى ثارات تتحول إلى انشقاقات في الوحدة الوطنية .. والاسلام يجب ما قبله .. فمن سقط في عملية التحول سقط ، ولكن باب التوبة والانتماء يظل مفتوحا ، وإلا فان الثورة التي بدأت بأقلية تتمتع بتصويت التاريخ لصالحها ، ستبقى أقلية حتى وهي في السلطة ، وتصبح ثوريتها امتيازا موروثا ومن ثم تتحول إلى أداة قمع للأغلبية ، والوحدة الوطنية تتطلب وتعني نسيان الروح الاقليمية والقبلية ، وهذا لا يمكن تحقيقه إذا ما استمرت

---

* ١٣/٥/١٩٣٣ ــ ١٨ محرم ٣٤١٣٥٢ ،

** ويقول الزركلي سألت عالم آل سعود الأمير عبد الله بن عبد الرحمن عن مبدأ عادة الدرس هذه فقال أنها قديمة تناقلناها عن أسلافنا .

وهذا صحيح فوصف المجلس في عهد عبد العزيز يطابق وصف مجلس سعود الكبير

المحاسبة والعقاب والتمييز على الولاءات والمواقف السابقة .

ومن ثم كانت السياسة التي اتبعها عبد العزيز هي وحدها القادرة على تحقيق هذه الأهداف والتحام تلك الأجزاء وشفاء الجراح وخلق المواطنية السعودية ، وقد نجح في ذلك نجاحا مثاليا ، لم تستطعه ثورات بعده بنصف قرن ، حتى وإن قيل إن الثروة النفطية أذابت التحوصلات وخلقت مصلحة وطنية عامة ، فان ابن سعود كان واعيا بأهمية الانفتاح الوطني ، كان يدعو الله أن يعز الاسلام بمن يعجب بهم من خصومه الذين يقاتلونه . ولم يتردد في استخدام أي « عائد » من الذين حاربوه ، حتى قيل إنه ما من شخص عادى ابن سعود وبقي حيا إلا سخره الله يوما لطاعة آل سعود ، والبعض يعتبرها كرامة ، ولكنها أيضا ثمرة سياسته ، ووعيه بأنه ظاهرة جديدة وعميقة تحتاج لوقت حتى تفهم ، ويؤمن بها ، وأن المثل والسلوك والاقناع هي الطريقة لكسب المعارضين ـ لا الترويع أو القتل والخطف .. والدليل على أنها كانت سياسة واعية ، وليست مجرد نبل أو كرم أخلاق .. هو رده على عبد الحميد الخطيب ، الذي أراد أن يفلسف موقفه معتذرا عن معاداة عبد العزيز فقال :

« إن الملك حسين عندما جاء للحجاز حارب كل تجديد حتى أنه لم يسمح للناس بركوب السيارات ، وأبى عليهم استعمال ساعات اليد ، والأكل على الكراسي ، فقلنا إذا كان هذا حظ البلاد من الحسين ، فكيف يكون حظها من ابن سعود وهو الذي تربى في الصحراء ، لا شك أنه سيحول عاصمة الحجاز إلى قرية من قرى نجد ، وأيد ظنوننا ما سمعناه عن أعمال أتباعكم من الغطغط بالاضافة إلى مارسخ في أذهاننا عن الوهابية ، ومبادئها بفعل الدعاية السابقة من عهد العثمانيين » .

فقاطعه الملك : « لا تحاول يا بني ان تعتذر عن الماضي ، وتبرير موقفكم فيه ، فاني أقدر لكم ـ على كل حال ـ ثباتكم مع معزبيكم .* فمن انضم إلينا بسهولة ، لا يبعد أن يتخلى عنا بسهولة ، ومن ثبت مع غيرنا يثبت معنا أيضا إلى النهاية ، ولو لم أكن أعتقد أنه لم يبق لديكم أدنى أمل في الهاشميين لما وثقت بكم » .٣٦

وهو رد يتضمن مفاهيم تحتاج الى وقفة :

أولا : الاخلاص والنفاق أو الغدر صفات منفصلة عن الظرف العام ، بل هي أخلاقيات ثابتة في الفرد ، فمن تعود الاخلاص لقيادته ، قاتل معها إلى النهاية ، فاذا ما تبدلت قناعته ، استمر بنفس الاخلاص مع القيادة الجديدة .

ثانيا وهو الأهم : عدم الركون إلى الاعتبارات الشخصية ، بل لابد لكسب هذه

---

* معزب هو الرئيس بلهجة الخليج أو صاحب العمل وأصلا في استخراج اللؤلؤ . وهو يقصد هنا « الهاشميين » ولكن تأمل تخيره هذا اللفظ بالذات .

العناصر والاطمئنان إليها من تحطيم كل أمل في عودة النظام القديم .*

كانت لديه قدرة ساحرة على إحتواء الآخرين ، من شتى الثقافات والانتماءات والخلفيات ، أخضع البدو بشهامته وسخائه ورجولته ، بل فحولته التي تفتن العربي الأصيل ، وبايعه الريحاني اللبناني المسيحي الأمريكي الجنسية ، وفيلبي الملحد ممثل الامبراطورية ، وتلاميذ محمد عبده والأفغاني في العالم العربي ، وعشاق الخلافة من مسلمي الهند ، وثوار ليبيا ، والوفديون في مصر ، والوطنيون في سوريا والعراق ، كلهم بايعوه زعيما للعالم العربي واعتبروه المنقذ الوحيد للعالم الاسلامي !

فور رؤيته قال الريحاني : « إنه أكبر رجل في العالم العربي » وقال شيخ قبيلة : « أنت سحار يا عبد العزيز .. صدقوا والله فقد سحرتني » .. ولم ينم اللبناني القادم من امريكا حتى كان قد كتب في يومياته ، « لقد قابلت أمراء العرب كلهم ، فما وجدت فيهم أكبر من هذا الرجل ، لست مجازفا أو مبالغا في ما أقول . فهو حقا كبير . كبير في مصافحته ، وفي ابتسامته ، وفي كلامه ، وفي نظراته ، وفي ضربه الأرض بعصاه . رجل يعرف نفسه ، ويثق بعد الله بنفسه . « حنا العرب » الرجل فيه أكبر من السلطان ، إني سعيد لأني زرت ابن سعود بعد ان زرتهم كلهم . هو حقا مسك الختام » .٣٧

« عربي** تجسمت فيه فضائل العرب إلى حد يندر في غير الملوك الذين زينت آثارهم شعرنا وتاريخنا » . « له من السنين سبع وأربعون ، وله في التاريخ ـ تاريخ نجد الحديث ـ مجد إذا قيس بالأعوام تجاوز السبع والأربعين والمئة » .٣٨

وقال فيلبي إن معرفته « لا تقدر بثمن » .. وقال تقرير بريطاني : « عند فيلبي الهاشميون دائما على خطأ وابن سعود على حق » وأبرق ويلسون من بغداد عام ١٩١٨ إلى ابن سعود : « ما من محام كان يستطيع الدفاع عن وجهة نظرك مثلما فعل فيلبى »٣٩ واستمر فيلبي يمدح عبد العزيز في كل اجتماع بريطاني حتى ضاق « هوجارت » ذرعا فقال له : « ولكن مهما يكن فلابد أن توافقني على أن عبد العزيز لايزال مجرد بشر . أليس كذلك » ؟!٤٠

وعقب أول لقاء بين عبد العزيز والبعثة البريطانية ـ التي ضمت فيلبي ـ كتبت البعثة في تقريرها : « إن ابن سعود لا يكل ولا يمل من عقد الاجتماعات ، وسماع الشكاوى والالتماسات ، والفصل في الخصومات ، ومناقشة زواره ـ لا يتوقف عن العمل إلا لأداء الصلاة ـ من الفجر إلى ساعة متأخرة من الليل ، ولم يروه مسترخيا مرحا إلا مرتين ، مرة في عرس عائلي دعاهم إليه ، ومرة لحفل فروسية اشترك فيه هو وأولاده وقد زارهم زيارة خاصة في البيت الذي نزلوا فيه ، وتلطف فلم يعلق على بقايا

---

* وهو يتفق بذلك ـ دون سابق معرفة ـ مع قول لينين إنه لابد لكسب البورجوازية الصغيرة للثورة من تحطيم كل أمل لديها في عودة النظام القديم .!

** وكتب في تقريره السري للقنصلية الأمريكية : « عبد العزيز هو كرومويل العرب والحسين هو الملك شارل المسكين » (الذي أعدمه كرومويل المتطهر) .

رائحة الدخان التي كانت بالغرفة أما بقية وقته فكان مشغولا باستمرار ، ويبدو أن لديه قدرة على الاكتفاء بنوم ساعات محدودة .» وقالوا إنه « متحدث لا يفهم طرق التفكير الغربية ، ولكنه مساوم عنيد ، وخبير في شئون القبائل ابتداء من مابين النهرين إلى الحجاز » .[41]

سير برسي كوكس مؤدب ومعين السلاطين والملوك لما وصل إلى ابن سعود قال : « عبد العزيز لم يخطىء قط » .

وجاء في تقرير لقسم الشرق الأدنى في وزارة الخارجية الأمريكية بتاريخ ٢٥ أكتوبر ١٩٢٨ « إن كل الذين قابلتهم من الذين أتيحت لهم الفرصة للأتصال بابن سعود ، عبروا عن تأثرهم البالغ به . وقد أخبرني مرة الصحفي الأمريكي وليم . ت . ايلي أن ابن سعود أحد العظماء القلائل الذين قابلهم أما التقرير الذي أعده نفس القسم بتاريخ ١٩٣١/١/١٤ لطلب الاعتراف بالمملكة فقد جاء فيه أن ابن سعود « هو أهم عنصر في العالم العربي اليوم » و « عند بعض المراقبين أعظم عربي منذ محمد » .

وهذه من مبالغات الأمريكيين ! أما المستر « ميرفن ماكدونل » وهو من رجال كلايتون وعمل في مصر والسودان وتفاوض مع عبد العزيز حول قضايا الحدود ، فقد ضيقها كثيرا عندما قال « ابن سعود هو أعظم عربي خلال نصف القرن الماضي »(!) .
وقال إن « شخصيته تنطق بكرامة تفوق كل الزعماء العرب » . (تقرير المفوضية الأمريكية ـ مصر ـ ١٩٣٠/٨/٣٠) .

وقال هيكل باشا زعيم الأحرار الدستوريين في مصر والكاتب المؤرخ ، إنه سمع عن ابن سعود من رجال الصحافة الأوروبية والأمريكية ، وسماه هيكل « نابليـون العرب »* .

أما العقاد الذي لمع اسمه لأول مرة ، عندما دخل السجن بتهمة العيب في الذات الملكية المصرية ، تحول بسحر عبد العزيز إلى مداح الملوك على طريقة شعراء العصر المملوكي ..!

قال العقاد :

« أسد العرين يخوض غيل الماء ... يابحر راضك قاهـر الصحراء
لم يقترن بالبحـر عيـد جلوسه ... إلا لعمـــر زاخــر ونماء
يـــوم من البشرى يردد ذكره ... ركب السنين وجيرة البيداء**

---

* الحق أن له الكثير من إنجازات نابليون . إلا أنه يشبه أكثر بسمارك أوغاريبالدي ، لأنه موحد ومنشىء أمة ودولة ، وليس إمبراطورية كنابليون ولم يبدأ من دولة موحدة مثل نابليون . ولكنه يبز هؤلاء جميعا في أنه لم يرتكز على حضارة مثل حضارة أوروبا في ألمانيا أو إيطاليا أو فرنسا ، بل من القفر جاء ، وبرجال وإمكانيات القفر بنى دولته . كذلك لا يمكن القول إن عبد العزيز عصامي مثل نابليون فهو وريث بيت ملك !
** من شعره عندما كان في بعثة الشرف المرافقة للملك في زيارته لمصر عام ١٩٤٦.[42]

حتى أحمد حسين زعيم مصر الفتاة ، جاء المملكة في عام ١٩٤٨ انقلابيا متطرفا ، وعاد منها اشتراكيا أكثر تطرفاً ، ولكنه ألف كتابا في الاشادة بعبد العزيز ، وقيل وقتها إنه قبض وأصدر بالمال السعودي « جريدة الاشتراكية » التي لعبت الدور الأول في التمهيد لثورة ١٩٥١ في مصر ، التي انتهت بالانقلاب العسكري الذي اطاح بفاروق وحزب احمد حسين معا .. المهم أن هذا الاشتراكي الثوري الذي قدم عنقه لحبل المشنقة في كفاحه ضد ملكية فاروق ، كتب عن عبد العزيز : « وهذا هو شأن الملك عبد العزيز دائما ، نفاذ إلى القلوب قادر على اصطناع الرجال » . وقال « بعد ما عرفت من أمر هذا الرجل الفذ ما عرفت ، أصبحت أهيم به كما يهيم الناس بالأبطال، ولقد كتبت عنه في « مصر الفتاة » صفحات توشك أن تتقد من الحرارة ، حرارة الحب والاعجاب »* .

« أعجبت بابن سعود إلى الحد الذي جعل حديثي عنه يتهم ، خاصة بعد أن عرف الخاص والعام أنه يشملني دائما بعطفه ورعايته ويحبوني بكرمه وبره » .

وأخيرا فان الكاتب أو قل الصحفي الكبير « محمد التابعي » ، قد قرأ عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بمناسبة زيارة الملك عبد العزيز لمصر !..

« أقرأ في هذه الأيام كتابين في وقت واحد : أحدهما عن تاريخ أسرة سعود ، والآخر عن تاريخ الأسرة الهاشمية . وقد جاء في الكتاب الأول أن الجزيرة العربية كانت صحراء جرداء يقطنها قوم قساة غلاظ الأكباد يقاتلون بعضهم بعضا ، إلا أنهم كانوا عشاق حرية وذوي همة ونخوة ، ثم جاء محمد عليه الصلاة والسلام في أوائل القرن السابع بعد الميلاد يبشر بالاسلام[9]م .... الخ ».

وغنى له « علي محمود طه » :

فان تذكر الأوطان والأهل عندنا ... فما مصر إلا موطن لك ثاني

ومـــا هي إلا أمـــة عربية ... موحـــدة في فكرة ولسان[43]

ما من شخصية يهم الدولة السعودية موقفها ، قابلت عبد العزيز ، وخرجت ضده ! أليست ظاهرة تستحق التأمل والدراسة إن شخصية تاريخية مثله ، لم يؤلف ضدها إلا كتاب واحد ، اضطر مؤلفه وورثته إلى إخفاء سوأته بحذف الأجزاء التي تعرضت لعبد العزيز ، بل إن الناشر الانجليزي رفض أن ينشر هذا الجزء لأنه « لو نشر فلن يقبل في العالم المتمدين » المؤمن بابن سعود ...

في جميع لقاءاته كان تفوقه الساحق يتجلى واضحا ، حتى إذا حاول المحاور أن يجره إلى ما يتوهم أنه خارج محيطه وقدراته ، أو يتصور أنه قضية محرجة . تعينه في ذلك هيبة نادرة ، وحضور بديهة[10]م ، وثقافة ، وخاصة في التراث ، وذكاء لماح ، ثم صراحة

---

* وهذه المقالات كتبت في عام ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥ ، وكان حزب مصر الفتاة على علاقة طيبة بالقصر المصري ، ورغم عداء الملك فؤاد للسعودية ، فان ذلك لم يمنع أحمد حسين من التعبير عن هيامه بعبد العزيز .

مع النفس وثقة بها ، فهو لا يحاول أن يخفي أفكاره أو أهدافه لأنه لا يستحي منها ..

عندما جاء فيلبي « ممثلا لدولة عظمى » يحمل لقب « سعادة الصاحب » .. كان لايزال ممتلئاً بغرور الأوروبي المولود في القرن التاسع عشر ، وفي الهند (سيلان) ورغم أنه كان من الملحدين ، إلا أنه كان متأثرا بادعاءات العلمانيين الصليبيين في الغرب ، وحاول أن يمارس ألاعيبه على « المتخلفين » في الرياض ، بعد أن حسب ظهور الهلال وبداية رمضان ...الخ . وكان اللقاء في شهر رمضان الذي تصادف مع يونيه ١٩١٨ ، أي في شدة الحر وطول النهار ، وظن انه يستطيع إحراج الملك بذلك السؤال السخيف الذي لم تكف جمعيات التبشير عن طرحه في المجتمعات الاسلامية ، مثل سؤال الربا* الذي يظهر مرة كل سنة في بلد إسلامي !

قال فيلبي للملك : « ماذا تفعل إذا كنت في القطب الشمالي حيث الشمس لا تغرب ستة شهور » . في البداية نظر إلي شزرا متحفزا ظانا أنني أحاول التطاول على الاسلام ، فلما تبين أنني جاد ، تلا الأحاديث التي تحدد الصيام من الشروق إلى الغروب ، وأضاف « ولكن إذا وجد مسلم صادق الايمان في مكان لا تغرب فيه الشمس ، فان عليه صيام اثنتي عشرة ساعة من الأربع والعشرين ، ويعتبر ال ١٢ ساعة الأخرى كأنها ليل » .٤٤

ولم تعجب الفتوى فيلبي الذي عز عليه أن السلطان البدوي أثبت تفوقه العقلي على خريج « كمبرديج » ! بل وأثبت أنه أكثر مرونة ، وأكثر حرية واطمئنانا وألفة في التعامل مع النص الديني .

ولما توسع فيلبي في ألاعيبه : « هل تعرف أنك تستطيع الذهاب إلى أمريكا سواء سافرت شرقا أو غربا ..؟ هل ذكر الله أمريكا في القرآن »، أنهى الملك هذا الهذر قائلا : « والله ؟!.. على أية حال أنا لا أشغل بالي بهذه الأمور ، فلدي ما يكفي من مسئولية حكم هذه البلاد بما يرضي الله حتى تأتي ساعتي ، فلا شيء يفرق الانسان عن الحيوان ، إلا الايمان بالله والعالم الآخر ، أما ماعدا ذلك فالانسان والحيوان سواء » .

ولم يكن الملك بفلسفته هذه واعظا ، ولا حتى معرضا بالحاد فيلبي ، بل منتقداً للعلم المادي كله ، فاذا كان هدف الانسان من هذه العلوم ، هو صراع البقاء ، أو حفظ النوع ، أو زيادة حصته في الطبيعة ، فان هذا هو هدف الحيوان بالمعرفة المتاحة له ، ويبقى الفارق كميا مهما كانت ضخامته ، أما التمييز الحقيقي الذي ينفرد به الانسان فهو الايمان بحياة أخرى ، الوعي بوجوده ، ومن ثم التطلع لاستمرار هذا الوجود .. الايمان بوجود آخر لا يحتاج للصراع من أجل البقاء ، ولا يخضع للطبيعة ، ولا يدخل

---

* مرة كل سنة يبعث أحد المتصلين بجمعية تبشيرية بسؤال إلى الصحافة الاسلامية يقول فيه : « أفيدونا أفادكم الله عن مسلم وضع ماله في بنك دون فائدة ، وأخذ البنك هذه الفائدة التي تنازل عنها المسلم بحكم دينه ، فبنى بها كنيسة !! ».

معها في صراع .. وماعدا ذلك فاننا لا نبعد كثيرا عن المرحلة الحيوانية ، سواء طرنا بالريش أم بصاروخ ، ونهشنا اللحم من الفريسة مباشرة أو بعد طهيها في أفران الميكروويف ، فمازلنا نجوع ونأكل ما يأكله الحيوان ، ولا نجد وسيلة أفضل من وسيلته في التخلص مما يتجمع في بطوننا !..

كيف أوتي عبد العزيز هذه القدرة على تلخيص كل فلسفة الأديان في تلك العبارات السهلة ؟

ولما أراد « الأستاذ » الريحاني أن يستعرض معلوماته في الأدب العربي فقال للسلطان إن بيت الشعر المنقوش على باب القصر :

لسنا وإن أحسابنا كرمت — يوما على الأحساب نتكل

يحتاج للبيت الثاني* ..

رد الملك على الفور برد لا يتضمن فقط معرفة البيت الثاني بل وأنه ترك عن عمد ولنظرة أعمق من علم الريحاني ، قال الملك :

يا أستاذ نحن :

نبني كما كانت أوائلنا — تبني ونفعل **فوق** ما فعلوا

وأردفها . بان شاء الله .

ولما مد رجله خلال حديثه مع الريحاني ، وأراد الريحاني أن يظهر علمه بالتراث فقال : لعل ذلك لا يشير إلى حادثة أبي حنيفة** ، رد الملك على الفور ضاحكا ونافيا ، مدللا ليس فقط على معرفة القصة ، بل وسرعة تذكرها بمجرد الاشارة ..

وكانت الصرعة الثانية للريحاني ، عندما حدث السلطان عن الوحدة العربية ، فبادره : « من هم العرب ؟ نحن العرب ، وقد دعوتهم جميعا للائتلاف فلم يجيبوا » ، وكتب الصحفي الريحاني على لسان السلطان ، ما ظن أنه يرضيه ، ويروج له بين الجماهير العربية ، التي تعودت أن تنام على تغني زعمائها بفضائلهم وتضحياتهم في سبيل الأمة . إلا عبدَ العزيز فقد رفض أن يضلل أو أن يتملق غرائز الجماهير .

كان الريحاني قد قابل الشريف حسين الذي أكد له أنه لا يسعى لزعامة العرب (ولكنها تأتيه منقادة تجرر أذيالها !) وأنه يقبل من يختاره العرب ، فظن الريحاني أن

---

* البيت الثاني : نبني كما كانت أوائلنا — تبني ونفعل مثلما فعلوا .

** لما بدأ الريحاني يعرض أسئلته ، قال السلطان : « الأمر يطول .. أتسمح لي بأن أمد رجلي . وكان ، رحمة الله عليه ، يحب أن يمد رجله المصابة من جرح قديم . وهنا قال الريحاني :
– وهل في ذلك إشارة إلى قصة الامام أبي حنيفة !..

والقصة هي عن رجل كان يحضر صامتاً مجلس الامام أبي حنيفة ، الذي كان يشكو من علة في رجله تجعله يمدها ، ولكن منذ أن جاء هذا الرجل بهيبته الواضحة ، وعمامته الكبيرة ، استحى أبو حنيفة ، وطوى رجله إكراما للرجل ، فلما تكلم هذا الرجل وسأل سؤالا بدا منه سخافة عقله وتفاهة شأنه – في رأي أبي حنيفة – رد عليه أبو حنيفة : عندئذ يمد أبو حنيفة رجله . « أي لا داعي للتوقير والاحترام لمن يسأل سؤالا كهذا » .

كله عند العرب صابون ، وكتب على لسان ابن سعود شيئا مماثلا وهو : « يقبل ابن سعود الزعامة والبيعة ملكا على البلاد العربية كلها لاعتقاده أنه أهل لها ويستطيع تعزيزها . وإذا بايع العرب غيره فهو يقبل ذلك ولا يتحول عن فكرته » .

فرفض ابن سعود النص على الفور ، وحذف الجملة الثانية التي تنسب إليه قبول زعامة غيره قائلا : أسأت فهمنا يا أستاذ .. نحن نعرف أنفسنا ولا نقبل الرئاسة من غيرنا »[٤٥] .

وبهت الأمريكي اللبناني .. بهت بالعظمة .. بالثقة بالنفس .. بالصدق مع النفس ومع العرب .

ولم يلبث الأستاذ الأمريكي أن تحول إلى تلميذ في حضرة السلطان البدوي ، فعندما اقترح الأستاذ مطالبة المندوب السامي البريطاني باجبار العرب على الوحدة ، ووقف التدخل في شئونهم* . رد السلطان بوضوح : « الانجليز لا يقبلون هذا ولا ذاك بل إن تدخلهم يعقد الأمور » . والمسئولية يتحملها كل من المتدخل الانجليزي والمستجيب العربي لهذا التدخل » !

فسأله وما الحل ..؟

رد رداً لا يمكن أن نضيف إليه حرفاً :

« عسى أن يعلمنا فنعقل ، ويؤدبهم فيعدلوا » .

العرب هم الضحية والجاني على نفسه بجهله ، فاذا وعى العربي مصالحه ، إذا تعلم ، فسيدافع عن هذه المصالح ويسد الثغرة التي ينفذ منها الاستعمار .

أما الانجليز .. فهم الاستعمار المغتصب الظالم ، فعسى أن يؤدبهم الله ، أي يضعفهم ، مما يضطرهم إلى العدل .. لأن قانون الغاب لا يتمسك به إلا القوى .

وهذا هو الحل الوحيد الذي أكدته أحداث التاريخ . وعي الشعوب المستضعفة ، وضعف الاستعمار الباغي .. فلا خداع للنفس ، ولا سفسطة كتلك التي يرددها المثقفون العاجزون ، عن الأمل في أن يحسن الاستعمار معاملتنا مقابل ثقتنا فيه ، والتجائنا إلى رحابه أو الادعاء أن الاستعمار ــ مهما كان اسمه ــ له مصلحة في استقرار العرب ، أو وجود أمة عربية قوية متقدمة موالية بالحلال !

إن ابن سعود بهذا التحليل يستحق ــ لو كان يقبل ــ أن يصنف راديكاليا ثوريا ..! ولاحظ اختياره للألفاظ فهو لم يقل عن الانجليز يهديهم أو يعقلهم أو يلين قلوبهم بل يؤدبهم ، وهو ما حدث في الحرب العالمية الثانية وبثورات الشعوب .. أما العرب فقد دعا لهم بالعقل ، بالتعلم من تجاربهم وليس ذلك على الله بمستحيل !

عندما تحرج اللبناني المسيحي من إثارة قضية الأقليات ، وحرية العقيدة حرضه

---

* ربما كان ذلك يعزز الرواية القائلة بأن الريحاني كان مكلفا بجس النبض لمشروع بريطاني لاقامة اتحاد فيدرالي في الجزيرة . وان كانت التقارير التي كشفتها الوثائق التي أفرج عنها حديثا تؤكد أنه كان في مهمة أمريكية أو على الأقل منسقة مع وزارة الخارجية الأمريكية .

ابن سعود على السؤال ، فلما طرحه ، كان الجواب ، هو التطبيق المتسامح للتعايش بين مختلف الأديان ، وإدراك ضروريات السياسة وحكمة التعدد ، أو على الأقل قبول الأمر الواقع بحتمية التعدد . ضرب له مثلا بالشيعة في الأحساء ، وقدرهم بثلاثين ألفا ، وقال إنهم « يعيشون آمنين لا يتعرض لهم أحد » ولكن من المصلحة أن لا يتحدوا الشعور العام ، وخاصة في تلك السنوات « فنحن نسألهم ألا يكثروا من المظاهرات في احتفالاتهم » .

وعنده حق كرجل دولة ، فكل الحكومات تخشى المظاهرات ، لأنها فرصة الطائفيين والمتعصبين والمندسين لاثارة المتاعب والاحتكاكات ، وقال : « السياسة غير الدين ، شرط ألا نرتكب في السياسة ما لا يحلله الدين . فاذا كان الدين يجيز أمرا ، فان السياسة التي نتخذها لتحقيقه حلال »[٤٦] .

وقد فسر « حافظ وهبه » عبارة ابن سعود التي قالها للريحاني وهي : « في الحرب كل شيء يجوز » بأنه – أي عبد العزيز – كان يأخذ بسياسة : « الغاية تبرر الواسطة » . وفي اعتقادي أنه لا يمكن استنتاج ذلك من عبارة الملك ، لأن شعار الغاية تبرر الواسطة ، شعار قابل للمط ، وكفيل باغراق كل من سقط فيه ، والذين رفعوه لتبرير وسائلهم ، سرعان ما نسوا غاياتهم ، أو تحولت هذه الغايات بدورها إلى وسائل ! والغاية الشريفة – في الغالب – تتحقق بوسائل شريفة ، ولكن كما قال الملك : إن السياسة غير الدين ، شرط عدم مخالفة الدين ، كذلك فقد حدد الاباحة في حالة واحدة ، هي الحرب .. فمادمنا قد لجأنا للدم ، وقبلنا مبدأ قتل النفس البشرية وسلب مالها فلا أظن أن خط المباح والممنوع يمكن رؤيته عندئذ بالعين المجردة ، وإن كان الاسلام قد وضع – حتى للقتل – قواعده الانسانية .. والمثل الفرنسي يقول : كل شيء مباح في الحب والحرب .

على أية حال لا « وهبه » ولا غيره قدم لنا شاهدا واحدا على أن عبد العزيز مارس شعار الغاية تبرر الواسطة بالمفهوم الميكافيللي .. في السلم ، أو السياسة وشئون الحكم .

بالعكس يمكن أن نسجل ، له بعض المواقف التي اتخذها ، رغم إدراكه وجه الخطأ فيها ، لمجرد أن الانسحاب يخل بالشرف ، مثل مواقفه من ابن صباح وحرب فلسطين .

من شعاراته : كل شيء يأتي في وقته ... ولكن لابد من الاعتماد على الجهد الذاتي .

قال للريحاني : « يكفي الرئيس ويلسن أنه أعلن حق تقرير المصير ، ولكن البعض يريد أن توضع اللقمة في فمه ، يكفي أمريكا أنها أعلنت حق تقرير المصير ، وما قاله ويلسون للشعوب الصغيرة ، والعاقل هو من سعى وانتفع . ومال إلى من كان بجانبه وقال : « هل تريدني أن أطعمك بيدي ، أن أضع اللقمة في فمك ؟ » !

استطاع في العشرينات أن يكتشف خواء الحضارة الأوروبية ، وأنها لم تعد أكثر من قوة عسكرية فقال : « أوروبا باب كبير من حديد لا شيء بداخله » .

في أوائل عام ١٩٥٢ وضع مشروع تسوية مصرية – بريطانية ، أثبت فيه بعد نظر

وجرأة نادرة .. أو توفر معلومات لم تكن متاحة للمصريين فقد اقترح إعطاء السودانيين حق تقرير المصير : أما السودان ، فيترك الخيار لأهله ، يستفتون فيه استفتاء حرا خالصا من كل شائبة »* .

ولم يكن هناك سياسي مصري ولا سوداني** ، يجرؤ ـ وقتها ـ على طرح هذا الشعار بعدما صدرت مراسيم وحدة وادي النيل وحمل فاروق لقب ملك مصر والسودان . مما جعل المخرج الوحيد هو إلغاء الملكية .

أرسل له الملك فاروق يطلب وساطته في الأزمة مع بريطانيا عام ١٩٥١ـ١٩٥٢ فقال للرسول ؛ لا فائدة ما لم يتفاهم الملك مع الوفد وتكون هناك وحدة وطنية في مصر*** .

وموقفه من ثورة اليمن او الانقلاب في عام ١٩٤٨ قد يفسره البعض بأنه وفاء أو التزام بالتعهدات التي أعطاها للامام عقب الصلح المشرف بينهما . ربما يكون ذلك كله في الحسبان ، ولكن قبل ذلك فهو موقف يدل على بعد نظر وبصيرة سياسية ، وترفع عن الخفة في معالجة قضايا الأمة العربية ، بالجري وراء سراب « الضم » فبعد مقتل الامام يحيى ، الذي حارب عبد العزيز ، حوصر ابنه الامام أحمد وهو المتهم بتدبير محاولة اغتيال عبد العزيز في الحرم . وتولى عبد الله الوزير الحكم ، وبدأت القبائل تتحرك نحو صنعاء . فطلب ابن الوزير النجدة من عبد العزيز ، بما في ذلك إرسال قوات سعودية وطائرات إلى اليمن . ولو كان سياسيا سوقيا لاهتبل الفرصة ليجفف دموع فيلبي ! ويضع اليمن تحت حمايته ،" فهذا نظام بلا قواعد ، ولكنه حكومة على أية حال وتطلب رسميا دخول القوات السعودية ، وستظل بحاجة إليها لزمن طويل .. فلماذا لا ننتهز الفرصة ؟

عبد العزيز السياسي المحنك رفض الدخول في عش الزنابير**** ، رفض أن يقر مبدأ قلب النظم العربية ، والاستعانة بالجيران . لم يكن موقفه منطلقا من تضامن رجعي ، أو دعم « الشرعية » فقد كان نظام فاروق أولى بدعمه ، وتأييد استمراره ، ولكنه بالعكس إتخذ موقفا ودياً من الانقلاب العسكري في مصر منذ اليوم الأول .. وكانت علاقته طيبة مع مجلس الثورة وخاصة « محمد نجيب » مع استمرار عطفه الشخصي

---

* ٥ ربيع الثاني ١٣٧١ ـ فبراير ١٩٥٢

** حتى التيار الانفصالي في السودان لم يكن يطالب بالاستفتاء الحر لأنه كان يتوقع ألا تكون النتيجة لصالحه .

*** وروي عنه انه كان ينصح الملك فاروق قائلا : « قوتان في مصر يجب أن تكسبهما : الأزهر والجيش فأنت لا تستطيع قهرهما ولا الحكم بدونهما فاحرص على كسبهما » .

ورحم الله الجميع فقد استفز فاروق الأزهر وخسر الجيش فسقط ..

**** كان المرحوم محمد أحمد النعمان يسمي اليمن : «عش الزنابير» ، تعريضا بخطأ الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الذي سقط في إغراء طلب النجدة من حكومة السلال بعد ١٤ سنة من رفض عبد العزيز طلب ابن الوزير .

على فاروق . فلم يكن موقفه عن حب لآل حميد الدين ، ولا باسم تضامن نادي الملوك ، بل لاقرار مبدأ في السياسة السعودية وهو رفض التدخل في الشئون الداخلية ، سد باب النفوذ الأجنبي الذي يمكن أن يأتي بحجة طلب السلطة الانقلابية ، غير المدعومة بالأغلبية الشعبية ، أو القوة القبلية القادرة على فرض النظام . ولو استجاب عبد العزيز لاغراء السيطرة على حكومة ابن الوزير الضعيفة ، لما ظلا وحدهما في الساحة بل سرعان ما كانت الرياح ستهب إلى منطقة الصراع ، ويكون ابن سعود قد فتح الباب للقوى الأجنبية ، وبالتالي فتح ثغرة للمشاكل والمخاطر في جنوب مملكته . ولكن ابن سعود سد ذلك كله بدعم السلطة القادرة على حماية استقلال اليمن ، ومهما قيل في نوعية حكم هذه السلطة ، فلم يكن ذلك أبشع مما جرى بعد ثورة اليمن التي كان حظها أسوأ فاستجابت مصر لطلب دعمها ، فغرقت اليمن ومازالت ، في الدم . مما يؤكد ، كل يوم ، حكمة عبد العزيز وبعد نظره السياسي .

وإذا كان قد قيل إن عبد العزيز لم يخطىء سياسياً قط وأنه لم يخسر ولا قضية ، ولا فقد شبراً من مملكته .* فيجب أن نقف وقفة سريعة عند قضية فلسطين ، وإن كان مكانها في الجزء الثالث من هذه الدراسة باذن الله إلا أنه لا بأس من بعض ملاحظات ، فهذه هي القضية التي قهرت عبد العزيز ، وملأت قلبه بالحزن ، بل هي القضية الوحيدة التي تصدى لها وهزم فيها ومات وهو مهزوم ، وضاعف من قهره أنه اضطر لأول مرة في حياته أن يخوض حرباً يعرف أنها خاسرة وأن يجر إلى معركة ضد كل حساباته ، ولا يتوفر لعسكره فيها ما اعتاد أن يوفره لمعاركه من ضمانات . إذ فرض عليه التحرك في إطار العمل العربي المطعون في إخلاصه ، المشكوك في قدراته . ومنذ اللحظة الأولى كان يعرف أنه يواجه بريطانيا ، كما واجهها في أكثر من موقع قبل فلسطين وبعد فلسطين ، ولكنه في كل المواجهات الأخرى ، كان يعرف كيف يتفادى الصدام مع الانجليز ، بل ويجعل الطعنة تنفذ من خلالهم لتصيب الخصم الذي يحتمي بهم ، ويفرض على الانجليز قبول هذه النتيجة بل والتظاهر بأنها لمصلحتهم ! إلا هذه المرة لم تستطع يده ان تصل أبدا لليهود ولا أن يحيد الانجليز ، لأن الانجليز كانوا جادين كل الجد ، وملتزمين إلى أقصى حدود الالتزام بحماية اليهود إلى أن اشتد عودهم ، فلما انسحبت بريطانيا كان الوقت متأخرا . كذلك لم يستطع أن يجمع موقفا عربيا في الاتجاه الذي يريده ، لأن العرب كانوا يخضعون للاستعمار وتوجيهاته خضوعا مباشرا ، ولأن قواهم كانت ممزقة .. بالاضافة إلى أن بريطانيا عندما انسحبت من فلسطين لم تكن هي القوة الكبرى المؤثرة في الأحداث ، فلما بدأت المواجهة مع الولايات المتحدة ، وكان عبد العزيز قد امتلك أخيرا سلاح المال ، شاءت الظروف أن يأتي هذا المال عبر أنبوب النفط الذي تتحكم فيه الولايات المتحدة بالذات ، صديقة إسرائيل رقم

* حتى البوريمي مات وهي معلقة .

واحد . ولا داعي لاضاعة الوقت في إدانة أو تبرئة موقف السعودية من قضية قطع النفط . فنحن لم نستطع استخدام سلاح النفط ـ حتى اليوم ـ بالصورة التي كان يتخيلها العرب ، رغم مرور ثلاثين سنة ، وثلاث هزائم ونصف انتصار ، واستقلال عشرين دولة . فان كنا قد قطعناه ، فهذا يثبت أن عبد العزيز كان إذا أذكى منا جميعا ، لأنه عرف أن قطع النفط لا يفيد١٢م وإلا فبماذا أفادنا إن كنا قد قطعناه فعلا ؟!

النفط بالصيغة التي وجد بها ، وبحالة الدول العربية في عام ١٩٤٨ كان سلاحا وهميا ، تماما كما لو قال أحدهم لماذا لم يغلق الملك فاروق قناة السويس وإغلاقها في ذلك الوقت (عام ١٩٤٨) كان يصيب العالم بضرر أفدح من قطع النفط ، فضلا عن أنه كان يقطع نفط السعودية تقريبا !

ولا حاجة أيضا لاثبات اهتمام عبد العزيز بقضية فلسطين ، وأنه بالطبع لا يتحمل أية مسئولية في ظروف صدور وعد بلفور ، وقد رفض الانضمام لعصبة الأمم ، وبالتالي لم يرتبط بأي شكل من الأشكال بقراراتها ، وفي مقدمتها الانتداب البريطاني على فلسطين ، الذي يتضمن وعد بلفور .١٣م وفي عنفوان معركته ضد الاخوان ، لم يفته أن يتابع أحداث فلسطين وأن يبرق لملك بريطانيا مستنكرا اعتداءات اليهود* ، كما أبرق متضامنا مع اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري ـ الفلسطيني بالقاهرة ، وللمجلس الاسلامي الأعلى في فلسطين . ولسنا نذهب بعيداً إذا قلنا إن ضمن أهداف تفجير ثورة الاخوان من جانب الانجليز كانت الخشية من انتقالهم شخصيا أو نموذجهم إلى مقاومة اليهود والانتداب البريطاني ، في فلسطين ، خاصة وأن المقاومة في فلسطين كانت في تلك المرحلة تحت قيادة دينية .**

لم يكن عبد العزيز يتحرك في قضية فلسطين ، تحت ضغط الجماهير ، كما هو الحال مع سائر الحكومات العربية إلى يومنا هذا ، بل كان هو الذي يحرض الجماهير للضغط عليه ، وقد أعطانا الشيخ ، عبد الله بن عبد العزيز السديري وثيقة نادرة هي برقية بعث بها عبد العزيز إلى أمراء المناطق ومن بينهم والد الشيخ عبد الله وهي : ٣١٥٧/ في ٨ جمادي الأول ١٣٥٦ ـ أغسطس ١٩٣٧ « لابد عندكم خبر من الجرايد والاذاعات عن مشكلة فلسطين بين اليهود والعرب وقبل يومين أصدر الانجليز قرارا بأن تكون فلسطين ثلاثة أقسام ، قسم لليهود وقسم للعرب وقسم يكون للانتداب . وهذا لا شك قرار مضر بالاسلام والعرب ، عاجلا أو آجلا . ووجود حكومة يهودية في بلاد العرب ضرر ظاهر لا يقبل السكوت عليه ، وهذا أمر مخل علينا ، فأنت تقوم بالمسألة وتتكلم مع إنسان طالب علم وتصير كأن المسألة منك أنت ، وإن هذا أمر بلغك وأنه مجزعك ، وأنك تبغي تكتب لنا عنه أنت وأهل الجوف ، وتروي بالمسألة عالم ،

---

* اكتوبر ١٩٢٩ ـ وقد رد عليه ملك بريطانيا في ديسمبر ١٩٢٩ .

** حركة عز الدين القسام .

وتستلحق عقلاء وكبار أهل الجوف ، وتكلم معهم وتقول لهم بأنكم تكتبون لعبد العزيز احتجاجا على القرار الذي صدر ، وأنه أمر مخل بالدين والعروبة ويطلبون منا أننا نقوم بالمسألة ونعاضد أهل فلسطين ولابد عندكم من يعرف يكتب في مثل هذه المسائل ، واكتبوا إقرارات الاحتجاج مفتوحة ممضاة بأسماء كبار أهل الجوف وعلمائهم . واحرص أنه لا يصير لنا واسطة في المسألة . قف . ثم بعد ذلك خلي يصير شهامة وتحمس لأهل فلسطين في البلاد والبرقيات تكون تصلنا بكرة » !

ولا أظن أنني أستطيع أن أضيف شيئا بعد هذه البرقية ، حتى موعد الجزء الثالث من هذه الدراسة إلا الرسالة التالية والتي وجهها عبد العزيز إلى الرئيس الأمريكي روزفلت وفيها يتضح أن عبد العزيز يحاور الأمريكيين عن فلسطين منذ عام ١٩٣٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ملك المملكة العربية السعودية
الى صاحب الفخامة الرئيس فرانكلين روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأميركية

يا صاحب الفخامة ؛

في هذا المعترك العالمي العظيم الذي قامت فيه الأمم تهدر دماءها وتبذل فيه ثرواتها دفاعا عن حرياتها واستقلالها . في هذا المعترك الذي اعلنت فيه المبادىء السامية التي يكافح عنها الحلفاء في ميثاق الأطلانطيك . في هذا الصراع الذي أهاب زعماء كل بلد بشعوبهم وحلفائهم واصدقائهم ان يكونوا عونا لهم في هذا النزاع الحياتي . راعني وراع المسلمين والعرب ما شاع من انتهاز فئة من اليهود الصهيونيين هذه الأزمة الخانقة وقيامهم بدعاية واسعة النطاق أرادوا بها السعي لتضليل الرأي العام الأميركي من جهة والضغط على دول الحلفاء في موقفهم الحرج من جهة ثانية ليحملوا بذلك دول الحلفاء على الخروج على مبادىء الحق والعدل والانصاف التي أعلنوها وقاتلوا من أجلها وهي حريات الشعوب واستقلالها يريدون بعملهم هذا أن يحملوا الحلفاء على مساعدتهم في القضاء على الشعب العربي الآمن المطمئن في فلسطين من آلاف السنين يريدون اخراج هذا الشعب الكريم من موطنه وان يحل اليهود من كل الآفاق في هذا الموطن الاسلامي العربي المقدس . وأي ظلم فادح فاضح لا قدر الله أن يكون من نتائج هذا الصراع العالمي أن يأتي الحلفاء في آخر هذا الصراع ليكللوا ظفرهم المقبل بهذا الجور من اخراج هذا الشعب العربي من موطنه في فلسطين وينزلوا مكانه شذاذ آفاق من اليهود لا تربطهم في هذا الموطن أي رابطة صلة غير دعوى خيالية لا أصل لها في نظر الحق والعدل إلا ما يحيكوه من وجوه مملوءة بالخداع والغش منتهزين بذلك هذه الفرصة الحرجة للحلفاء ومنتهزين فرصة جهل الشعب الأميركي حقيقة قضية العرب عامة وقضيتهم في فلسطين خاصة .

لقد سبق أن كتبت لفخامتكم بتاريخ ٧ شوال سنة ١٣٥٧ الموافق ١٩ نوفمبر ١٩٣٨

كتابا وضحت فيه حقيقة الأمر بين العرب واليهود في فلسطين ولابد أن فخامتكم اذا رجعتم لذلك الكتاب ستجدون منه أنه لا يوجد أي حق لليهود في مطالبتهم بفلسطين وأن كل ما يطلبونه فيها ليس إلا اعتداء وعدواناً لم يسجل التاريخ له مثيلا في تاريخ البشرية . ففلسطين العربية منذ التاريخ الأقدم وموقعها في وسط البلاد العربية والتي لم يسكنها اليهود الا حقبة من الزمن كان أكثر مدة تاريخهم فيها مملوءا بالمجازر والمآسي ، ثم أجلوا عنها وجلوا منها منذ حقب من الزمن ـ هؤلاء القوم يراد اليوم أن يعيدوا سيرتهم الأولى فيعتدى بذلك على الآمنين المطمئنين تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا من كل ما يدعيه اليهود في فلسطين ديناً ودنيا .

وكنت بعد كتابي المشار اليه لفخامتكم ، اعتقد ، ولا أزال اعتقد ، أن حق العرب في فلسطين أصبح واضحا لدى فخامتكم ، لأني لم ألاحظ في جوابكم الكريم لي بتاريخ ٩ يناير سنة ١٩٣٩ أن فخامتكم لاحظتم أي ملاحظة على الحقائق التي ذكرتها في ذلك الكتاب وكنت أرغب أن لا أشغل فخامتكم ورجال دولتكم في هذا الظرف العصيب بهذه القضية ولكن ما تواترت به الانباء عن عدم تورع هذه الفئة من الصهيونيين في اثارة هذه القضية الظالمة الخاطئة هو الذي جعلني أن أذكر فخامتكم بحقوق المسلمين والعرب في ذلك البلد المقدس لتعملوا على منع هذا الظلم وليكون بياننا لفخامتكم مساعدا على ايضاح حق العرب في فلسطين للشعب الأميركي بأسره ليعلم الشعب الأميركي الذي يراد تضليله من طرف الصهيونية اليهودية بما لها من وسائل الدعاية الواسعة الحقيقة الواقعة فيعمل في نصرة العرب المظلومين ويكلل جهاده الحاضر باقامة قسطاس الحق والعدل في سائر المواطن من العالم . اننا لو تركنا جانبا العداوة الدينية القائمة بين المسلمين واليهود من أول نشأة الاسلام بأسباب ما كاده اليهود للاسلام والمسلمين ونبيهم من أول يوم لو تركنا ذلك جانبا ونظرنا لقضية اليهود من الوجهة الانسانية البحتة لوجدنا الأمر كما ذكرته لفخامتكم في كتابي السابق من أن فلسطين باعتراف سائر من عرف فلسطين من ابناء البشر لا تستطيع أن تحل قضية اليهود العالمية ولو فرضنا أن أحكام الظلم طبقت على فلسطين بكل معانيها بمعنى أنه لو فرضنا أن قتل أبناء فلسطين العرب عن بكرة أبيهم رجالا ونساء وأطفالا وأخذت أراضيهم وسلمت كلها لليهود فان ذلك لا يمكن أن يحل المشكلة اليهودية ولا يمكن ان يؤمن أرضا كافية يسكنها اليهود فلماذا يراد القيام بهذا الظلم الفرد الفذ في تاريخ البشرية بدون وصول الى نتيجة ترضي الساعين في هذا القتل أنفسهم ونعني بهم اليهود .

لقد ذكرت لفخامتكم في كتابي السابق أنه اذا نظر للموضوع من وجهته الانسانية فان فلسطين البلد الصغير قد زج فيها من اليهود الى ما قبل الحرب العالمية الحاضرة ما يقرب من اربعمائة ألف فصارت نسبتهم فيها بعد ما كانت في آخر الحرب العالمية الماضية سبعة في المائة صارت قبل الحرب العامة الحاضرة تسعة وعشرين في المائة وهذه الزيادة لاتزال مستمرة ولا ندري الى أي حد ستنتهي اليه وأصبح ما يملكونه الى ما قبل الحرب العامة الحاضرة مليونا وثلاثمائة واثنان وثلاثون دونما من أصل سبعة ملايين

دونم وهو كل ما هو قابل للزراعة في فلسطين جميعها .

اننا لا نريد ولا نطالب في سحق اليهود ولكننا نطالب أن لا يمحى العرب من أرض فلسطين من أجل اسكان اليهود فيها . ان أرض العالم لن تضيق على اليهود فاذا تحمل كل بلد من بلدان الحلفاء الآن في الوقت الحاضر عشر ما تحملته فلسطين أمكن حل قضية اليهود وأمكن حل قضية اسكانهم وكل ما نرجوه في هذا الموقف الحاضر هو مساعدة فخامتكم لايقاف سيل هذه الهجرة ايقافا تاما بايجاد أماكن لليهود غير فلسطين يأوون اليها . ومنع بيع الأراضي لليهود في فلسطين منعا تاما مطلقا ثم ينظر فيما بعد بين العرب والحلفاء لتأمين حياة من يمكن أن تتحمله فلسطين من اليهود المقيمين فيها الآن بشرط أن يقيموا في فلسطين اقامة هدوء وسكينة وأن لا يخلقوا المشاغبات بين العرب والحلفاء فيها .

اني أكتب هذا الرجاء لفخامتكم وأنا على يقين بأنكم ستتقبلون هذا الرجاء من صديق يشعر بتقديركم للصداقة كما يشعر بتقديركم للحق والعدل والانصاف وكما أشعر بأن الشعب الأميركي من أقصى أمانيه أن يخرج من هذا المعترك ظافرا بنصر المبادىء التي يحارب من أجلها وهي حرية الشعوب واعطاء كل شعب حقه لأنه ـ لا سمح الله ـ لو أعطي اليهود بغيتهم في فلسطين لظلت فلسطين مقرا لفتن دائمة ـ كما حصل في الماضي ـ تسبب المتاعب للحلفاء عامة ولحكومة بريطانيا الصديقة خاصة واليهود بما أوتوا من قوة في المال والعلم قادرون على ايقاع الشقاق بين العرب والحلفاء في كل وقت وحين كما كانوا سببا في كثير من المشاكل التي وقعت من قبل .

وكل ما نحرص عليه هو أن يسود العدل والحق سائر الحلول التي ستحل بها قضايا الشعوب والأمم بعد هذه الحرب وان تكون علاقات العرب على الدوام مع الحلفاء على أحسن حال واقواه وامتنه . وفي الختام أرجو ان تتقبلوا فائق تحياتي .

حرر في مخيمنا بروضة خريم في اليوم الخامس والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة اثنين وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية الموافق لليوم الثلاثين من شهر ابريل سنة ثلاث وأربعين بعد التسعمائة والألف ميلادية .

صديقكم
عبد العزيز
السعود



صورة أخذت للملك عبد العزيز عقب إعلانه سلطاناً لنجد في أوائل العقد الخامس من عمره .

هيبة الملك أولا ..

سنوضح في الحديث عن أسباب انهيار الدولة السعودية الأولى ، الدور الذي لعبه انشقاق البيت السعودي في التعجيل بهذا الانهيار ، وقد بدأ الشقاق في عصر عبد الله بن سعود ، ثم تأكد بصراع الاخوة والأعمام وأولاد الأعمام حتى وصل إلى ذروة المأساة بعد وفاة فيصل بن تركي . بعكس البداية حيث كانت السلطة مركزة في يد القائم بالأمر ، وانتقالها لا خلاف عليه . أما هنا فنشير إلى أن من عوامل انتصار عبد العزيز ، أنه لم يواجه أي خلاف داخل بيته ، فقد حسم الامر بعبقريته السياسية ، والشعور بالسيادة الذي تنطق به كل تصرفاته .

والده الامام عبد الرحمن ، كما يحلو للمؤرخين مجاملته بلقب الامامة ، الذي لم يعترف له به الكثيرون حتى في الفترة القصيرة التي حكم فيها مدينة الرياض . كان لينا وقاطعا كالسيف ، دبر مباغتة السبهان ، وقاتل قدر طاقته لينفخ الحياة في بيت فقد الحيوية ، ومزقته الهزيمة ، وفقدان الرسالة والقائد . ثم نفض يديه مقتنعا بأن الظرف أكبر من الرجال ، ولطالما نهى إبنه عن محاولة إسترداد الملك حتى كان هذا خلافهم الوحيد والدائم في الكويت . هذا الشيخ كان يتمتع بنظرة صائبة ، وفهم شديد الوعي أو شديد الواقعية لمعنى السلطة ، إذ لما فتح عبد العزيز الرياض ، في عملية تحمل مسئوليتها كاملة ؛ قرارا وتنفيذا ، بادر أبوه بالتنازل له عن الامارة وكان ذلك قرارا موفقا من جميع الوجوه ، إذ لم يكن من حسن التدبير أن تعود الراية لاسم هزم وشرد ، بل من مصلحة القضية والبيت المالك أن يطرح اسم جديد ، وجه جديد ، بلا هزيمة ، بل يبدأ تاريخه بنصر كالأعجوبة .

والنقطة الثانية والأهم ، هي أنه لو قبل « عبد الرحمن » عرض ابنه وتولى عبد الرحمن أو استأنف إمارته ، لأصبح كل أولاده شركاء لعبد العزيز في الميراث ، ومن ثم ينفتح باب الصراع التقليدي بين الاخوة .. ولكن التأكيد على أنه انتصار عبد العزيز الخاص ، له وحده ، لا يشاركه فيه أحد ، فهو الذي صمم وهو الذي نفذ وهو الذي انتصر ، وبالتالي أصبحت الامامة والقيادة والامارة له وحده . هذا المبدأ الذي أقر في اللحظات الأولى من المسيرة العزيزية ، وعلى يد صاحب الحق في الملك ، أنهى أي احتمال لمنازعة الأشقاء ، وجعلهم جميعا يلتفون حول **القائد** عبد العزيز ، وليس **الشريك** في

ميراث عبد الرحمن .. الذي أدرك أنها دولة عبد العزيز .. وتراجع إلى الظل ،مقدما كل ما يستطيع لدعم هذه الدولة .. ولا سبيل للحكم على نوايا عبد العزيز اليوم .. هل كان حقا يريد أن يسلم الملك لأبيه ؟ وهو من نعرف ثقته بنفسه ، وإيمانه بأن القيادة تبدأ بالتصدي للقيادة ، وليس الاستحياء من طلب الملك ، والذي لم يخامره الشك لحظة واحدة في أنه ولد ليسود ويحكم ؟! وهو القائل « نحن نعرف أنفسنا ولا نقبل الرئاسة في غيرنا » ؟ أغلب الظن أنه أراد بعرض الملك على أبيه ، طرح القضية للنقاش ، فلو كان جادا لما احتاج الأمر لعرض الامارة على الأمير فعلا الذي لم يخطر ببال أحد أنه سيكون للرياض أمير غيره !.. فأراد عبد العزيز أن يحسم القضية من البداية ، لكي يتفرغ لمقاتلة أعداء البيت السعودي ، الذي لا يجوز له أن يدخل هذه المعارك وهو منقسم على نفسه .

على اية حال فهم الوالد المقصود ، وتنازل .. وقبل عبد العزيز التنازل ، كما قبل ان يكون سكنه هو قصر الامارة ، وللشيخ ماشاء ، ذلك أن هيبة الحكم عند عبد العزيز مقدمة على أي اعتبار .

وعلاقته بأبيه طبيعية من مثل هذا الابن ، وفي هذه الأسرة ، وفي إطار التقاليد العربية ، والتربية الاسلامية ، وسنلاحظ أنه في قضايا الملك لا تتحكم فيه العواطف . ولكنه لا ينسى آداب السلوك فحتى في اللقاء الحاسم الذي جرؤ فيه لأول وآخر مرة على معارضة أبيه وإملاء رأيه عليه ، وذلك بالخروج في مغامرة الرياض الثانية ، فرش عباءته لأبيه وأجلسه عليها ..وما أن تم فتح الرياض ، وحسمت قضية الملك ، سنجده الابن البار بأبيه الذي يحول كل المكاتبات إليه . وكان الشيخ حكيما ، فلم يكن يفتح خطابا واحدا مما يحيله عليه ابنه ، بل يعيدها إليه كما هي ، وقال لمن سأله تبرير ذلك : هذا رجل موفق . خالفناه كثيرا ، ثم تبين أن الحق معه فلا جدوى من مناقشته ! قد تكون هذه قناعة الامام المتقاعد ، ولكنها تدل أيضا على أن الامام الحاكم مع كل التوقير اللازم لأبيه ، كان يخالفه إذا ما اقتنع أن مصلحة الدولة تتطلب ذلك .

وهذه العلاقة الخاصة بين الوالد والابن ..مكنت عبد العزيز من مواصلة حروبه بعيدا عن العاصمة ، وهو مطمئن تمام الاطمئنان ، لأن أباه يدير العاصمة وشئون الدولة أثناء غيابه ، ومامن وكيل يمكن الاطمئنان إليه أكثر من الوالد .. فحتى الابن يمكن ان ينقلب على أبيه ويتعجل السلطة ، إلا الأب ، هو وحده الذي يتمنى لابنه مستقبلا ومجدا وحظا أفضل مما تمنى لنفسه .. ولعل هذه الحالة لم يكن لها شبيه ، إلا قيام سعود الكبير بالحروب ، في ظل والده عبد العزيز بن محمد ، مع فارق ، هو أن عبد العزيز كان الامام والحاكم . إلا أن هذه العلاقة كانت تثير دهشة المراقبين الاجانب فقد تحدث محمد أسد عما سماه « الأطوار الغريبة » قال :

« الامام عبد الرحمن كان رجلا لطيفا وتقيا ، ولم يكن قطعا شخصية بارزة مثل ماكان ابنه عبد العزيز ، كما أنه لم يلعب دورا مهما واحدا طيلة حياته المديدة ومع ذلك فان ابن سعود حتى بعد أن انشأ ملكا لنفسه بجهوده الخاصة ، وأصبح حاكم البلاد

غير منازع ، كان يسلك حيال أبيه سلوكا متواضعا إلى أبعد حدود التواضع ، حتى أنه لم يكن ليسمح لنفسه مطلقا بأن يطأ أرض غرفة من غرف القصر إذا كان عبد الرحمن (أبوه) في الغرفة التي تحتها . ولا يجلس أبدا في حضرة الشيخ إلا اذا دعاه إلى ذلك علانية . إنني لا ازال أذكر الحرج الذي سببه لي هذا التواضع الملكي يوما في الرياض (حوالي ديسمبر ١٩٢٧) كنت أقوم بزيارتي المعتادة إلى والد الملك في جناحه بالقصر الملكي ، وكنا جالسين على الوسائد على الأرض ، وكان الشيخ مسترسلا في الكلام في إحدى المسائل الدينية المحببة إليه . وفجأة دخل إلى الغرفة أحد الخدم وأعلن « الشيوخ »* (وهو لقب الحاكم في الجزيرة) وفي اللحظة التالية كان ابن سعود يقف عند عتبة الباب ، وقد أردت ، طبعا ، أن انهض ولكن الامام عبد الرحمن أمسكني من معصمي وأجلسني ، كأنما يقول : « أنت ضيفي انا » وشعرت بارتباك عظيم لا أستطيع له وصفا ، لاضطراري للبقاء جالسا بينما ترك الملك بعد أن سلم على أبيه ، واقفا عند الباب منتظر الاذن بالدخول إلى الغرفة ، واستمر الامام عبد الرحمن في الحديث : وبعد بضع دقائق رفع بصره ، وأومأ إلى ابنه بهزة من رأسه قائلا : « اقترب ياولدي واجلس »[٤٧]

كذلك دهش فيلبي وسجل أنه عندما ذهبوا إلى الرياض ، فاجتمع الامام عبد الرحمن بالبعثة وظل يتحدث معهم ، وهم يظنونه عبد العزيز فلما فرغ من حديثه قال لهم : حديثكم مع الابن عبد العزيز ، الذي تقدم عندئذ حيث كان منزويا في ركن الغرفة ، في انتظار الاذن من أبيه بمحادثة الوفد البريطاني !

ورواية يوسف ياسين عن الوداع الأخير بين الملك وأبيه ، قبل سفر الملك إلى الحجاز ، في أواخر سنة ١٣٤٦ ـ ١٩٢٨ ، لا تخلو من دهشة من جانب يوسف ياسين ..

« فدخل على أبيه يودعه ، وكان يخشى أن يكون هذا الوداع هو الأخير ، فكان يقبل يديه ويسأله : « هل أنت راض عني ؟ فيجيبه الامام ، وهو جلد صبور :** لا شك .. فيعود إلى يديه يقبلهما ، ويعيد السؤال : والدي هل أنت راض عني ؟ فيجيبه : لا شك في ذلك .. ومازال يكرر السؤال ، ووالده يجيبه من داخل صدره برضاه ، حتى شفى نفسه . »

وللمرأة دور كبير في حياته ، هناك أمه ، وقصتها أغرب من الخيال ، وتعد خير شاهد على عظمة النظام الاسلامي في إباحة الطلاق والزواج مرة ثانية لعلاج الارتباطات

---

* قال لنا الأمير مساعد بن عبد الرحمن ، إن لقب « الشيوخ » مستورد من خارج نجد . ونحن نؤيد ذلك ، وقلنا في إحدى دراساتنا مرة ، إنه ينحدر من عهد القرامطة حيث كان الحكم لمجلس قيادة ، يتحدثون عنه بالجمع . وروى الأمير مساعد عن أخيه الملك عبد العزيز أنه جلس على ركبتيه ممسكا بلجام الفرس حتى صعد أبوه على كتفه ليمتطي صهوة الفرس . فكانت نادرة لم يسبقه اليها أحد في مركزه في بروالده .

** الزركلي عن يوسف ياسين من « أم القرى » ١٨ محرم ١٣٤٧ ـ يوليو ١٩٢٨ .

الفاشلة ، فقد تزوجها رجل عادي فلم تنجب ، وحملها الزوج مسؤولية هذا العقم فطلقها وتزوجت عبد الرحمن بن فيصل ، فولدت سيد جيله !

ثم عمته التي يقال إنها حملته الرسالة ، ولقنته وهو طفل مسئولياته في إعادة ملك آل سعود ، وفي نشر الاسلام .. وليس كالمرأة في الحفاظ على الأسرة والدين والوطن . **وما من بيت ملك يقوى ويزدهر إلا إذا كانت أميراته واعيات بمسئوليات الملك .**

وكان عبد العزيز يعتز بأخته « نورة » ويهتف باسمها في الحروب ، أو مواقف النخوة فيقول : « أنا أخو نورة » . وقد ظلت مستشارته الأولى في شئون بيته ومدبرة قصره حتى وفاتها عام ١٩٥٠ .٤٨

ويبدو أن « جوهرة » أم الملك خالد والأمير محمد ، كانت قصة الحب الأولى في حياته . وقال محمد أسد ، الذي اختصه ابن سعود بقصة حبه مع الملكة جوهرة ، إنها كانت حب ابن سعود الأعظم ، وحتى الآن بعد مضي ١٣ سنة على وفاتها (توفيت ١٩١٩) لا يذكرها الملك إلا وتقف الغصة في حلقه ، وقد احتفظ بحبه الحقيقي لها وحدها ، من دون نسائه جميعا . وكان ينظم لها الأشعار الغرامية ، ومرة في إحدى لحظات انبساطه قال لي : « كلما أظلمت الدنيا في عيني ، ولم أتبين طريقي للخروج من المتاعب والأخطار ، التي تحيط بي ، كنت أجلس وأنظم قصيدة لجوهرة ، وعندما أفرغ منها كنت أشعر أن الدنيا تتفتح لي فاعرف ما كان علي أن أفعل » .

وقال أسد نقلا عن الملك :

« كنا على مرأى من الهفوف . ومن الرابية التي كنت جالسا عليها ، استطعت أن أرى بوضوح أسوار القلعة الحصينة التي كانت تشرف على البلدة . كان فؤادي مثقلا بالحيرة ، كنت أوازن بين فوائد هذا العمل وأخطاره . لقد شعرت بالملل وبالشوق إلى السلام والحنين إلى البيت . وعندما فكرت في البيت رأيت وجه زوجتي جوهرة ماثلا أمام عيني .. وبدأت أفكر في بعض الأبيات التي يمكن أن أقولها لو كانت حينذاك إلى جانبي . ودون أن اشعر وجدتني منشغلا بنظم قصيدة لها ، ناسيا بالكلية أين كنت ، ومبلغ الخطورة في القرار الذي كان علي أن أتخذه . وحالما أصبحت القصيدة جاهزة في فكري كتبتها على ورقة ووضعتها في مظروف ختمته وناديت واحدا من سعاتي وأمرته قائلا : خذ أسرع ذلولين وسلم هذا إلى أم محمد » .٤٩

وهذا من باب تفاءلوا ولا تتطيروا . فسنرى في الفصل الخاص بالأحساء ، أن قرار الاستيلاء عليها ، قد اتخذ بحسابات سياسية واعية ، لا دخل فيها للعواطف ، وفشلت كل إنذارات بريطانيا في صده عنه ، ولكن القلب الدافىء يحتاج لعناصر غير مادية لحظة تنفيذ القرار العقلي .

وقد توفيت الملكة جوهرة بعد زواج دام ٢٤ سنة ، وماتت ميتة رومنطيقية ، انفلونزا حادة ، انتزعتها من قمة الحياة والحب في أقل من ٢٤ ساعة ، فلا شيخوخة تطفىء لوعة الفراق ، وتخبو معها الحياة شيئا فشيئا فتهيىء النفس للمصير المحتوم ، ولا مرض طويل يجعل الموت إحدى الراحتين .. بل ضربة صاعقة ... ضاعف من مرارتها

أنها جاءت في سنوات عجاف ، سنوات حصار الأسد وهو في قمة قوته ... كان قد ضرب الأشراف ضربة قاصمة كان يمكن أن تكون القاضية ، لولا تدخل الانجليز الذي كبل يديه ، وأجبره على التخلي عن انتصاره . ثم بدأوا يزرعون الأشراف من حوله لتطويقه ، بل والتفكير في دعم ابن رشيد لموازنته وتطويقه شمالا ، وبدا الموقف مستحيل الحل تماما كوفاة جوهرة ، غير مفهوم ، ولا سبيل لدفعه ، والصبر عليه مطلوب مهما يكن مريرا . فما الحل من ١٩١٩ الى ١٩٢١ .. الانجليز يدعمون الأشراف ..وعبد العزيز لا يستطيع قهر بريطانيا ... ؟!

لتكن إذا سنوات تأمل وانتظار* ، وشعر في جوهرة .. والحزن العميق السامي ، وانتظار الزمن .. فهو خير دواء يأتي بالنسيان ويعلم الصبر في الأحزان الشخصية ، ويتيح الفرصة لمن يرقبها ، ولن تفلت الفرصة من عبد العزيز .. ولن يقتل الحزن صاحب رسالة وطالب ملك ..

وقد كان ...

كان يتمتع بفحولة لم تعرف لرجل من قبله ولا بعده ، ولكنها لم تشغله عن الملك ، بل لعلها كانت إحدى الوسائل الفعالة لتثبيت هذا الملك ، ولا استطاعت أن تفرض نفسها على سلوكه ومواقفه ، ووعيه الشديد بمسئوليته كطالب ملك ، ثم صاحب رسالة ، ومؤسس دولة . قيل انه عندما راهق في الكويت سمع أن بعض أصدقائه يستفيدون من الجو الخاص في الكويت ، بتصريف الكبت الجنسي مع بعض الفتيات ، فأراد مشاركتهم ، ولكن صديقا واعيا بمسئوليات الملك منعه بشدة ، فاستغرب عبد العزيز ذلك وقال له : « ولماذا تفعل أنت ذلك إذا كنت تراه معيبا ؟! »

فرد ذلك الصديق النادر : « هو لا يعيبني .. ولكن أنت عبد العزيز آل سعود .. أنت طالب ملك .. لا يجوز لك يا عبد العزيز ما يجوز لنا .. »

ولا أظن أن في تاريخ العرب الحديث رجلا عرف أعباء الملك ومتطلباته ووفى بهذه الالتزامات أكثر من عبد العزيز ..

قال فلبي : إن عبد العزيز لم يكن يستطيع أن يختم القرآن أكثر من ٤ مرات في رمضان كل سنة ، بسبب مشاغل الدولة ! وفي رمضان ينام ساعة بعد الفجر ، وساعتين ونصف بعد الضحى ، وساعة بعد صلاة العصر ، وثلاث ساعات على الأكثر في الليل . وقد عود نفسه طوال حياته على نوم ساعات قليلة تقسم على فترات .٥٠ »

وقال شاعره يصفه :

فلا شاربا خمرا ولا سامعا غنى إذا نقرت أوتاره للترنم٥١

وبالطبع فان تعاليم الاسلام ، والمناخ الوهابي الذي تربى فيه عبد العزيز ، كانت تمنعه من شرب الخمر أو الغناء والترنم ، أو حتى التدخين ، إلا أن التقشف أيضا ، على مستوى القيادة ، مطلب أساسي في كل حركات التحرير الناجحة ، لأن الثورة على

---

* وتصفية آل العايض وإدخال الأدارسة في الفلك السعودي

القهر والتمزق والتخلف ، ودعوة الناس للاستشهاد لا تتفق والاستمتاع ، بل لابد من التطهر والتقشف في القيادة ، حتى يكون من حقها مطالبة الجماهير بالتضحية ، ويكون بوسعها خلق روح الاستشهاد في نفوس الملايين . وإبقاء شعلة الثورة مستمرة* ، ولم يعرف التاريخ ثورة ، أو دولة بنيت على يد قيادة مترفة ، تسكر وتترنم وتحضر مجالس الطرب ، خاصة وأن الغناء والشرب في شرقنا يقترن بالترف والاسترخاء ، إن لم نقل بنوع من الانحلال والتفسخ ، فمن الخطأ المقارنة الساذجة والقول بأنهم في الغرب يسكرون ويغنون ويحاربون لأن المهم هو المناخ الاجتماعي والنفسي .

والتقشف كان ضروريا لأن الدولة كانت تعاني فقرا حادا ، وصل في إحدى المرات إلى مارواه بنفسه : « لقد بلغ بى الفقر حدا جعلني أرهن سيفي المرصع بالجواهر الذي أعطاه لي الشيخ مبارك . ولم أكن أستطيع أن أشتري حتى سجادة لشدادي . فكنت استعيض عنها بأكياس فارغة . »

وعندما استولى ابن سعود على الأحساء ، لم يكن أحد يعرف أنها تضم أضخم مستودع للنفط في العالم وأنها ستدر يوما ما ، نصف مليار ريال في اليوم الواحد ، ولكن حتى بعدما اكتشف النفط . وتصاعدت إيراداته بسرعة الصواريخ ، لا أظن ان أبن سعود ، أو أحدا بعده قد فرح فرحته يوم فتح الأحساء ، عندما تقدم محمد أفندي مدير مالية الأحساء ، في الادارة التركية ، يزف للملك نبأ وجود عشرة الاف ريال في القصر ، أصبحت من حق الغازي . فاتح الأحساء .. ويقول عبد العزيز : فنزلت عن فرسي ، وسجدت لله شكرا ، إذ ملكني يوما من الأيام عشرة الاف ريال »٥٣

وحتى عام ١٩٣٩ كانت ميزانية المملكة لا تتجاوز مليوني جنيه مصري ، أوما يعادل عشرة ملايين دولار بجنيهات مصر .**

والتقشف أو رفض مظاهر الحضارة الغربية من الخمر والغناء والدخان ، كان نوعا من الرفض الثوري ، والعزة القومية ، أو استعلاء المجاهد ويكفي أن نتأمل حرص فيلبي على اخفاء آثار الدخان في غرفته كلما زاره عبد العزيز ، واغتباط اللجنة البريطانية ، لأن عبد العزيز لم يعلق على بقايا الدخان في جو الغرفة . ونقارن ذلك بشرب الانجليز الخمر في مجلس الملك فيصل ملك العراق والذي انتهى بأن وضع الانجليزي حذاءه في وجه صاحب الجلالة ملك العراق ! سنجد أن هذا الذي يسميه البعض شكليات ، كان وجها من وجوه الكرامة الوطنية . وكان عبد العزيز واعيا بذلك عندما اشترط قبل الاجتماع بالملك فيصل أن لا يكون في المجلس موسيقى أوشرب دخان . وقد

---

* في برقية له لأحد أمراء الاقاليم برقم (٣٢٧٤) بتاريخ ٩ جمادى الأولى ١٣٤٦ ــ يوليو ١٩٢٧ ، قال :

« بلغنا أنكم مرسلين خوياكم ينشدون لكم صقرا من الكويت فتعجبنا من ذلك فهل الحجاز وبلادنا كلها ما انتم واجدين فيها شيء ؟ أو قصدكم تفتحون بابا للناس ؟ »٥٢

** قبل أسعار عهد الكرامة والرخاء .

أبلغ السفير البريطاني بالشرطين في كتاب خاص ، ولكن لسبب ما أشعل الملك فيصل سيجارة فقال عبد العزيز : « أردت أن تقول شربت الدخان بحضور عبد العزيز ! » . وكأن صاحب الجلالة ملك العراق مراهق يتحدى أباه او ناظر المدرسة . وهكذا فالمرء حيث يضع نفسه .

هذا العبقري الفذ ، كان بحاجة إلى جسد من حجم خاص ، ليطيق حمل هذه الطاقة الجبارة التي تفوق قدرة العصبة من الرجال ، وقد أعطته الطبيعة أكبر وعاء ممكن ، ورغم ذلك كانت طاقته أكبر . كان لعبد العزيز جسد عملاق ، أثار دهشة كل من رآه ، حتى بمقاييس العمالقة في نجد ، وصفه ضاري آلرشيد فقال :

« هو رجل مديد القامة ،١٤م حتى أنه لم يكن في نجد اليوم أطول منه ، وهو مع ذلك متناسب الأعضاء ، حسن الوجه ، أبيض ، وشعره أسـود ، خفيـف اللحيـة والعارضين ، وهو جواد محبوب ، ذو رأفة في عشيرته وممالكه » ..٥٤

هذا العملاق كان يتمتع بقوة خارقة في السيطرة على جسده الكبير : ففي شرخ الشباب ، وعندما اقتحم بيت عجلان ، كان عليه أن ينتظر للفجر حتى يقوم بالخطوة التالية ، وهي ساعات تتوتر فيها أعصاب أشجع الشجعان ، ويفر النوم من كل عين ، فهو داخل بيت عدوه ، في مدينة يسيطر عليها هذا العدو ، وعلى مرمى السهم من الحصن . وصرخة امرأة ، ولو من الرعب ، يمكن أن توقظ المدينة كلها ، وتثيرها ضد هذا المجهول عند الحريم . صرخة واحدة ، أو اشتباه حارس ، او غلطة من أحد المرافقين ، يمكن أن تضع حداً لحياته ومغامراته . والقضية التي خاطر في سبيلها . ولكن لأنه لا يمكن فعل شيء حتى الفجر . والانتظار يرهق الجسد ويتلف الأعصاب ، ومعركة الفجر تحتاج لطاقته كاملة . إذا لابد من النوم .

ليتمرد الجسد لتصرخ الاعصاب محتجة ، ولكنه قرار عقلي . واذا قرر عقل ابن سعود ، فلابد ان يطيع الجسد !

وقد كان .. ونام .. !

وهذا في اعتقادي أشجع عمل قام به في مغامرة ليلة المصمك أو فتح الرياض ! وقد فعلها مرة أخرى عندما أغلق أبواب قصر ابن عقيل عليه هو وجنده ونام ، وابن رشيد يزحف بخمسة عشر ألف جندي من الأتراك والعرب بمدافعهم .

وعندما حانت لحظة المغيب ، ووصل الجسد الى نهايته المحتومة ، كما هو الحال مع كل الكائنات الحية ، انقلب الوضع ، فبعدما كانت المشكلة هي كبح الجسد المتفجر بالقوة ، أصبحت عند الغروب ، هي مقاومة فتور هذا الجسد وضعفه . وقد ظل العقل الشامخ مسيطرا في الحالتين .

في أواخر عهده كان قد مل الناس ، وأثقلته السنون ، فكان يغفو في المجلس ، ولكن عقله يظل متيقظا حساسا لكل ما يهم الدولة ، وقد روى فيلبي أنه بعد ما أثار المشاكل للدولة السعودية برحلته إلى الربع الخالي .. كان يهمس في المجلس ، والملك في غفوة ، عن اعتزامه القيام برحلة مماثلة ، وإذا بصوت عبد العزيز المدوي يأتي ، وكأنه من

عالم آخر صائحا : لا .. لن تسافر يافيلبي .. ثم عاد إلى اغفاءاته .٥٥

وعندما تأخر حامل المقعد ، رفض ان يحمل على أعناق الرجال ، وأذهل الجميع بالمشي من السيارة إلى حيث مجلسه ، ولو كانت من غيره لاعتبرت معجزة ، ولكنه لم يكن يمزح عندما سمى المقعد ذي العجلات « بالحصان » فكان إذا أراده قال : « هاتوا الحصان » . أي المقعد الذي أهداه له روزفلت لما صعب عليه المشي . فهو فارس وإن خذلته ساقاه ، وإذا غاب « الحصان » فليس أمام الساقين إلا الامتثال ، لأن الذي حمل التاريخ لا يجوز أن تحمله الرجال ..٥٦ نعم لا يليق مع أبهة وهيبة الملك ، وعبد العزيز لا يتهاون شعرة في هيبة الملك ، ولا حتى مع جسده .

وقد عثرنا على تقرير أمريكي يروي قصة جديرة بأن تروى عن الجمع بين العدل وهيبة الملك ، وفن كسب المعارضين .

فقد زعم التقرير أن الشيخ « ابو باز » (هكذا) وكان واعظا في الخرج ، خطب يحرض ضد الملك الذي كان قد استقدم خبراء أمريكيين لتطوير الزراعة في المنطقة وهذا هو الهم الدائم لعبد العزيز من أيام محمد أسد ، فلما تفجر النفط لم ينس الملك الزراعة ، بل حاول أن يوظف مال النفط في الزراعة ، ولكن الشيخ « باز » رأى الأمريكيين يسقون ويزرعون ، فهب يحرض ضد الملك « الذي خان الأمانة وباع الوطن للأجنبي ، وقد رأيت بعيني الأمريكان يستولون على الأرض ويزرعونها في الخرج ، ويسخرون العمال السعوديين ويشقون الطرق ، ويستعملون الماء النفيس كما يحلو لهم .. فهل من حق الملك أن يبيع بلادنا وميراث أجدادنا للمشركين » ! (ديسمبر ١٩٤٤ - محرم ١٣٦٤) .

ويمضي التقرير « وهنا أرسل الملك يطلب إحضار الشيخ في سيارة خاصة ، ولكن الأمر لم ينفذ فأرسلوا له سيارة نقل ، وقد رفض الشيخ أن يركبها مصرا على أن يعامل باحترام . فاستجاب الملك وأرسل له السيارة الخاصة . وعندما جاء الشيخ « أبو باز » استقبله الملك محاطا بالأمراء ورجال البلاط والمستشارين والحرس ، والعلماء ، وأعضاء محكمة الشرع العليا .

وهنا قال الملك « إذا كان لديك ما تعترض عليه فقله علانية ، لأن الاسلام يطلب مواجهة الحاكم لا توجيه الاتهامات من خلف ظهره » . ووقف الشيخ في مواجهة هذا الحشد الملكي وقال إن الملك يبيع البلاد والناس للكفار ، وهذا يخالف التزاماته كحاكم مسلم وحامي الحرمين والمشاعر .

« وقد تركه الملك يتكلم بدون أن يقاطعه ، فلما سكت كرر عليه الملك السؤال : هل قلت كل ما عندك ؟ فأجاب بالايجاب » .

عندها نزل الملك عن العرش ، وتقدم فوقف إلى جانبه قائلا : « أنا لست الآن إلا مجرد مسلم أطلب أن يحكم بيننا بالشرع ، أنا عبد العزيز أطلب من القضاة والعلماء أن يفصلوا فيما بيننا » ..

« ثم التفت للعلماء وقال : « أفتوني .. هل استخدم النبي غير المسلمين من أهل

الكتاب والمشركين ؟ ثم استعرض الملك الحالات التي وردت في السيرة » ..

« فرد العلماء بالاجماع .. إن الملك صادق فيما قال .. فعاد الملك يسأل : « فهل خرجت أنا على الشرع ، اذا تبعت سنة رسول الله ، واستخدمت خبراء أجانب للعمل لحسابي تحت توجيهاتي لزيادة موارد البلاد ، ويستخرجون لصالحنا المعادن والنفط والماء وما سخره الله من خير لبلادنا ؟ »

« فرد العلماء أنه لم يخطىء » .

هنا انتهى دور العدل ، وحكم القضاء بتجني الشيخ ، وجاء دور هيبة الملك .. ونستمر في النقل من التقرير الأمريكي :

« هنا اعتلى الملك العرش ، واسترجع لقب الملك وسأل الشيخ : « هل رضيت » ؟ » .

قال الشيخ : إنه يطيع قرار العلماء ولكن لم يطمئن قلبي !

قال الملك : « لقد احتكمت للشرع ، وقرر علماء الشرع أنني على حق وانت المخطىء .. فاذا لم تعتذر خلال ٢٤ ساعة فسأقطع عنقك » . وأخذ الشيخ تحت الحراسة ، وانفض المجلس .

« وبعد أن اعطى الدرس علنا ، عرفنا أن الملك استدعى الشيخ الى مجلسه الخاص ، وتحدث معه متلطفا وشرح له أن مسلكه يسيء الى دينهما ودنياهما . وأغدق عليه الهدايا وبعثه مكرما معززا الى منزله » .

هذا والله هو الملك ، سيف المعز وعدل عمر وذهب الرشيد .

وهناك روايات كالأساطير ، ولكنها غير مستغربة من محارب مثله ، مات وفي جسده ٤٣ طعنة . وأشهر تلك الأساطير حادثة انفجار حزام الرصاص في بطنه . عندما نزل عن صهوة جواده ليقبل جثة اخيه سعد ، فأصابه المتربصون بطلقة فجرت خمس رصاصات كانت في حزامه وشقت بطنه بجرح طوله ١٥ سنتيمترا ، ولكنه كتم الأمر طوال الليل . وعندما عرض إصابته على مرافقيه قال لهما : لو علم أحد بها قتلتكما . ودخل الأحساء راكبا ، وجلس في القصر ، وخطب وتزوج في تلك الليلة ، لكي لا تتحول الهزيمة إلى كارثة باشاعة إصابته أوموته . وحادثة دخوله القصر وزواجه ثابتة ، ولكن قد يظن البعض أن الجرح مبالغة مما اعتاد الناس روايته عن الأبطال .. لولا أنه وقع في يدنا تقرير بريطاني هذا نصه :

« من القيادة العسكرية بالبصرة إلى القائد العام في مصر ، وصورة إلى سكرتير حكومة الهند :

« بتاريخ ١٩ ديسمبر الساعة السادسة صباحا ، بالاشارة إلى المذكرة بتاريخ ٤ ديسمبر ١٩١٥ ، من الوكيل السياسي في البحرين إلى المقيم السياسي في البصرة ، أفاد طبيب ابن سعود ، الذي بعثت بمعلوماته تلغرافيا إليكم ، أبلغني ان ابن سعود جرح جرحا خطيرا في قتال ليلي فاشل ، قتل فيه أخوه ، كما جرح مرة ثانية في القتال

التالي » .*

ولنا إذا أن نصدق حادثة الرصاصة التي أصابته في فخذه ، فلم تصدر منه همسة ولا حركة ، يعرف منها الجالسون حوله ، هل أصيب أم أخطاته الطلقة ؟!

قال عن نفسه « لست أشجع الناس ، ولكن إذا كانت المعركة ذات بال وسيعقبها أمر فاصل ، وعزيزة المسلمين في خطر ، فاني اتي من الأعمال بما لا يأتيه غيري في المعركة » .٥٧

وهو يعرف الشجاعة بانها الخوف من الخوف ! ويحرص دائما على نفي الادعاء بالشجاعة كفضيلة في حد ذاتها . قال : « بعض الناس يصفني بالشجاعة . وما الشجاعة ؟ .. كنت في بعض أسفاري مع اثنين من اصحابي ، أحدهما فيصل الدويش ، وخرجت علينا خيل ، فهلع قلبي ، ولكني تجلدت خوفا من العار ، ومالبث صاحباي أن هربا فتبعتهما ، ولو هربت قبلهما لفضحاني بين العرب » .

وهذه هي الشجاعة التي تسمو على اللامبالاة أو التهور .. أن تعرف وتعي وتخشى الخطر المادي ، ولكنك تخشى الخطر المعنوي اكثر ، فتؤثر المخاطرة على النجاة ..

وزعم مترجم الديوان الملكي في كتابه الطريف أن الملك كان لديه جمل مخصوص كأنه « كاديلاك » يعرف نوعية الارض التي يسير عليها فيضبط ويغير سرعته ، فلا يكاد يهتز الملك فوقه !٥٨ وهذا بالطبع من وهم أو لطف المؤلف ، فالسر هو في ثبات وخبرة الفارس لا الجمل !

---

* تاريخ التقرير ٢٠ ديسمبر ١٩١٥ . وهكذا حاول عبد العزيز أن يكتمها فبلغها طبيبه للانجليز !

وككل شخصيات التاريخ الاسطورية ، فان الحديث عنه ، أو تحليل تجربته ، يعكس في الغالب تصورات الكاتب ، وموقفه من القضايا التي أثارها ومثلها عبد العزيز ، وتمنيات المعلق لأسلوب معالجتها .

وأبرز صفة في عبد العزيز أنه جاء يجدد الأمل في الحل الاسلامي ، وهو كما نعرف ، قضية أعقد من ذنب الضب ، احتار في تفسيرها العلماء ، ومن ثم فقد علق الجيل المعاصر لعبد العزيز والأجيال التي تلته ، الآمال والملام على عبد العزيز .. قال محمد أسد :

« أثار وصول ابن سعود الى الحكم الأمل في العالم العربي ، أن قد جاء أخيرا زعيم وقائد عربي ، يخلص الأمة العربية كلها من عبوديتها ، وتطلعت إليه جماعات إسلامية عديدة من غير العرب ، لإحياء الفكرة الاسلامية بأكمل معانيها ، وذلك باقامة دولة تكون فيها الكلمة العليا لروح القرآن وحده » .[59] ومن ثم فقد هرع إليه كل مجتهد ، بتصوره الخاص للحل ، بمفهومه عن الاسلام والعروبة ثم طالب عبد العزيز بتنفيذ تصوره الخاص[15]م هذا ، واعتبر المخالفة انحرافا !! ولم يجرؤ أحد على طرح السؤال : لماذا فشل عبد العزيز ، ومن قبله سعود الكبير ، ومن بعدهما كل المجتهدين في إقامة الدولة الحلم ، لماذا لم يجددا شباب الاسلام ويحلا مشكلة المسلمين في العالم أجمع ، لماذا انتهى الاخوان ، أعظم ظاهرة إسلامية في القرن العشرين هذه النهاية ؟! لسنا نتحدث عن مؤرخي الاسترزاق والتطبيل ، بل حتى كتابات المعلقين الجادين ، اكتفت بالتفسير التكنولوجي في تعليل سقوط التجربة الأولى في عهد الدولة السعودية الأولى ، فقالوا إن مدفعية العثمانيين هزمت إسلام السعوديين ، وما دروا أنهم بهذا التفسير ، يقضون على كل مبرر للحل الاسلامي ، إذ يفترض أن هذا الحل مطلوب لتمكين المسلمين المتخلفين تكنولوجيا من الانتصار على « المشركين » المتقدمين !

ولما جاء عبد العزيز يثبت خطأ هذا التفسير ، ويحقق النصر بالمتخلفين المسلمين ، واكتشف الحل العبقري ، الذي كان بلا نزاع أكبر إنجازاته وأكبر فشل في تجربته ، ألا وهو مشروع « الهجر » أو اليثربيات ، معسكرات جيش التحرير الاخواني ، التي أعطته القوة الذاتية التي قهر بها المعادلات الدولية ، واكتسح بهم كل النتوءات والمعوقات المتحجرة ، أو التي أفرزها النفوذ الأجنبي وسنوات التمزق ، هفت قلوب المعذبين إلى جيش الخلاص الاسلامي السعودي . ووصل ابن سعود إلى الذروة التي وصل اليها سعود الكبير ، وكان لابد أن يخرج من رحم العروبة أو يقتل داخله ، ولكن كما تنبأ التقرير البريطاني ، لم يكن هناك من عدو خارجي يستطيع تنفيذ مهمة القتل هذه وإنهاء التجربة بالهجوم عليها من الخارج ، فكان أن تفجرت داخل الرحم بالثورة الاخوانية .. وشاء حظ ابن سعود ، الذي لا نصفه بأنه الحسن ، أن ينتصر على

الاخوان ، ليس هذا فحسب ، بل وأن تحدث مصادفة جيولوجية ، تجعل الجزيرة العربية لأول مرة في تاريخها قادرة على إقامة كيان موحد له اكتفاؤه الذاتي ، ومن ثم فهو قادر على الانكماش أو الانطواء على النفس .. وهكذا امكن قيام الدولة بدون الحاجة الى الانتشار بالرسالة .

هنا تخبط المؤرخون : فريق المرتزقة ، انهالوا على حركة الاخوان سبا ولوما وتشنيعا وتشهيرا ، بل حتى فكرة « الهجر » نفسها شوهت عن عمد أو جهل لتصبح مراكز توطين للبدو ومشاريع زراعية !..

والفريق الآخر اختص بلومه عبد العزيز ، فهو في زعمهم : « لم يكن بمستوى المرحلة » ، وينسون أنه هو الذي أوجد المرحلة . وهو « غرر بالاخـوان ، أو استخدمهم » . فلما قضى حاجته منهم قضى عليهم ! وهو قول لا يستند إلى منطق ولا إلى وقائع .

وبالنسبة للآثار التي أحدثها تدفق المال في صحراء مجدبة ليس فيها أية مصارف طبيعية لثروة لا تأتي من عملية انتاج صحية ، بل في شكل شيكات مصرفية ، فتقتصر مهمة المجتمع على إنفاقها ، دون أي دخل في انتاجها ! وفي دولة تفتقر إلى المؤسسات الاقتصادية ، والتنظيمات الاجتماعية والدستورية التي تحدد ما هو الفارق بين المال الخاص والمال العام . كان لابد أن تقع بعض التصرفات الشاذة ، وأن تنشأ بعض أوضاع أطلق عليها « الفساد » . وهنا فزع الحالمون « بالحل الاسلامي » أو قل أسقط في يدهم .. كيف لم تستطع الدولة الاسلامية مقاومة الانحراف والفساد ؟ وردد بعضهم كلمة « عبد الرحمن بن عوف » رضي الله عنه ، : « امتحنا بالضراء فصبرنا ، وامتحنا بالسراء فلم نصبر ، وفتنتها أشد » .

ولن نناقش هنا مرحلة النفط ، فهذه مكانها الجزء الثالث من هذه الدراسة . ولكن نستعرض في عجالة بعض التفاسير التي حاولت تحميل ابن سعود وحده « مسئولية ما جرى ، لتتفادى أو لتتهرب من مسئولية تحليل أزمة الحل الاسلامي ذاته .

استنتج محمد أسد أن ابن سعود لم يحقق آمال العرب والمسلمين ، « فبينما زادت قوته وتوطدت ، اتضح أن ابن سعود لم يكن اكثر من ملك ، يهدف إلى ما هو ليس اسمى وأرفع من أهداف الكثيرين من الحكام المطلقي السلطة من قبله في الشرق » !

« صحيح أنه أنشأ حالة من الأمن العام في مملكته الواسعة الأطراف لم تعرف في بلاد العرب منذ عهد الخلفاء الأولين من ألف سنة ، ولكنه إنما حقق ذلك ، بخلاف الخلفاء الأولين عن طريق قوانين صارمة ، وتدابير تأديبية قاسية ، وليس عن طريق بث الشعور بالمسئولية المدنية في شعبه » .

« لقد أرسل قبضة من الشباب إلى الخارج ليدرسوا الطب واللاسلكي ، ولكنه لم يفعل شيئا كيما يرسخ في نفوس شعبه ، ككل ، الرغبة في التعلم .. إنه يتكلم دائما — ودلائل الاقتناع كلها بادية في حديثه — عن عظمة طريقة الحياة الاسلامية ، ولكنه لم يفعل شيئا بسبيل بنيان مجتمع تقدمي عادل تستطيع فيه تلك الطريقة في الحياة أن تعبر

عن نفسها تعبيراً ثقافيا . وعندما سئل مرة لماذا لم يحاول أن يقيم دولته على أساس أقل شخصية ليتمكن أبناؤه من أن يرثوا بناء حكوميا منظما ، أجاب : « لقد أسست مملكتي بسيفي وجهودي فليبذل ابنائي جهودهم الخاصة من بعدي » .

ويمكن القول إن هذه الجملة تحمل الاجابة ، على كل النتائج والأحكام المتسرعة التي طرحها « محمد أسد » تحت تأثير تحليل ساذج ، مبعثه تلك الحماسة التي تلازم المؤمنين الجدد . وما أشار إليه هو نفسه ، من آمال فجرها وصول ابن سعود للحكم ، بأن يكون هو المهدي المنتظر الذي يحل بعصاه أو بسيفه السحري أزمة العالم الاسلامي التي بلغ عمرها أكثر من ثمانية قرون !

لقد بنى ابن سعود مملكته بجهده وسيفه ، أي أنه لم يرث دولة قائمة ، وفي بلاد كانت الفوضى واختلال الأمن أبرز ملامحها ، ومن ثم كان من الطبيعي أن يعطي مهمة تحقيق الأمن الأولوية على إقامة المؤسسات ، وأن تأخذ الدولة الصيغة الشخصية ، كما هو الحال في كل التجارب المماثلة من كرومويل إلى نابليون وستالين إلى ماو بل حتى إلى بن بللا وبومدين .. مع الفوارق طبعا .. أما بناء المؤسسات ، فهو كما قال ؛ مسئولية الأجيال التي تتسلم منه الدولة أو الوطن الموحد .. ولم يكن من السهل قيام المؤسسات في ظل العملاق ، خاصة وأن التجربة الاسلامية خالية من تراث يمكن الاستفادة منه ، كما استفاد من تراث التربية العقائدية وروح الجهاد في إنشاء الهجر .. ولكن ما هي المؤسسات التي يمكن اقتباسها من عهد الخلفاء الراشدين ؟ .. سوى هذا التراث الخالد من عدل الحاكم وعبقريته ونزاهة القضاء وأمن الرعية .. وكل هذا حاول عبد العزيز تقليده ، ولكنه لا يندرج في باب المؤسسات الثابتة التي تكفل الاستمرارية ، وتحدد السلطات وتمنع التجاوزات .. والحق أن الرجل حاول إقامة مؤسسات ، بل يكفيه أنه لم يزعم ابدأ وجود هذه المؤسسات ، ولا اخترع مؤسسات وهمية ، تبقى قيدأ على حركة التاريخ ، وتشل قدرة الأجيال من بعده . بل اعترف بأنه لم يفعل وأنه يترك ذلك للجيل التالي .. ! والثابت تاريخيا أنه كلف اللجنة الوطنية التي بايعته ملكا على المملكة العربية السعودية بوضع النظام الأساسي للدولة ونظام توارث العرش ، ولكنها لم تفعل .. وهذا ما سنتعرض له في الجزء الثاني .

وإذا كان محمد أسد ، قد أخطأ التحليل تحت تأثير الأحلام التي أثارها « ابن سعود » فلا شك أنه أخطأ التعبير ، وأساء التفسير ، عندما قفز بسذاجة من حادثة مبتسرة إلى استنتاج « عدم تبصر الملك وافتقاره إلى النظر الاداري » وهي عبارات لا تليق في الحديث عن مؤسس دولة ، فضلا عن هذا العبقري الذي اخترقت بصيرته التاريخ ، واستطاع أن يكون ما وصفه ماسينون بأنه « أدق تنظيم اجتماعي وعسكري في العالم العربي » . والذي تزخر مؤلفات « محمد أسد » نفسه بحديث عبقريته .

والحادثة هي أن « محمد أسد » كان قد رجع من رحلة في الصحراء ، فقال للامام إن وادي بيشة فيه إمكانيات زراعية تمكنه أن يصبح مصدراً عظيما للقمح ، وأن يمون الحجاز كله : « وأرهف الملك أذنيه ، وسألني قائلا : وكم يلزم من الوقت كي يصبح

وادي بيشه كذلك ، ولما لم أكن خبيرا ، فقد تجرأت على القول بأنه يمكن ان يصبح الانتاج فيه كاملا في مدة تتراوح بين خمس سنوات وعشر .. » .

ويزعم أن ابن سعود هتف : « عشر سنوات ! إنها مدة طويلة من الزمن نحن البدو لا نعرف إلا شيئا واحدا هو .. ما نحصل عليه نأكله . أما الخطط والمشاريع لعشر سنوات فشيء يطول أمره علينا » . ويقول إنه هو وشكيب أرسلان ، الذي كان حاضرا ، حدقا النظر في ذهول . « ومنذ ذلك الحين بدأت أسأل نفسي .. هل ابن سعود رجل عظيم .. أم مجرد رجل ذي بأس وذكاء شديدين لم يطمح قط إلى اكثر من القوة الذاتية ؟ »[٦٠] .

ولسنا نكذب « محمد أسد » في الواقعة ، ولكننا نعارض استنتاجه ، فالحادثة كانت على حد قوله عام ١٩٢٨ ، في وقت كانت المملكة تدخل في ضائقة مالية شديدة ، والاخوان على بداية الثورة ، أو حتى كانت قد انفجرت بالفعل . والدولة تواجه أخطر أيامها وأقساها ، وتبحث عن إغاثة عاجلة ، فالمزاج ليس منشرحا للحديث عن تشكيل لجان واستدعاء خبراء ، وعشر سنوات عجاف حتى ينبت وادي بيشة ! فكان هذا التعليق الانفعالي من روح المناسبة ، أما إيمان ابن سعود بالتخطيط ، فالأدلة عليه تثبت أن التبصر وبعد النظر الاداري لم يدفنا في وادي بيشه !

لقد رأينا أن الطلب الوحيد الذي تقدم به الامام فيصل لضيفه الثقيل الكولونيل بيلي* . هو مضخات لري الصحراء . وقد بذل ابن سعود ، كل جهد ممكن لتوفير المياه في الصحراء ، لولا سوء الحظ الذي فجر النفط بدلا من الماء فتغير اتجاه الأحداث والأفكار والمشاريع . وعندما اكتشف ، أو بالأحرى استطاع كنيث إدوارد الوصول إلى الماء ، وجاء الملك لمشاهدة البئر : « كانت عيناه مغرورقتين بالدموع . فضرب على كتفي وقال بصوت مضطرب من الانفعال لقد قمت يا إدوارد بعمل عظيم . ابق هنا خمسة عشر عاما فنقهر الصحراء » . فهذه خطة لـ ١٥ سنة وليست خمسة ولا عشرة فقط ، كما أراد أسد . وابن سعود هو الذي انشأ وزارة الزراعة وطلب من الخبراء التخطيط لها لسنوات عديدة مقبلة .

وهو الذي تعهد خط السكة الحديدية من الدمام إلى الرياض حتى تم في خمس سنوات ، وكان يتمنى لو مده إلى جدة . وبذل كل جهد ممكن ليعيد سكة حديد الحجاز** ، لولا رفض الحلفاء مطالبه ، وجمود ودسائس هيئة الوقف ، والقوى التي لا تريد ارتباط

---

* قال فيلبي : « إن الاعتقاد بفائدة الطلمبات المائية كان قويا في ذهن ابن سعود ووالده بل وجده »[٦١] مشيرا إلى طلب فيصل بن تركي من بيلي .

** قال تويتشل : « حاول ابن سعود أن يحصل على تعويضات من الحلفاء لاصلاح سكة حديد الحجاز باعتبار مسئوليتهم في تدميرها ، ولكنه لم ينجح ، كما حاول أن يقيم محلها « أوتو ستراد » دولي ، ولكن لجنة الوقف الذي يمتلك السكة الحديد رفضت »[٦٢] .

العالم العربي . وقد مر ربع قرن على وفاته ولم تعد السكة التي نسفها العرب ولا أظن أنها تعود .

وفي عام ١٩٤٠ في أحلك سنوات الحرب العالمية الثانية والضائقة تعتصر المملكة ، إذ لم يكن لها من مورد إلا معونة تقل عن نصف مليون جنيه من بريطانيا ، كان لديه من التبصر وبعد النظر ما جعله يطلب من تويتشل أن « يجد عدداً من الشركات الأمريكية لمسح الامكانيات المائية في نجد ، كما عبر عن رغبته في الحصول على مضخات وآلات زراعية »[٦٣] .

أما حافظ وهبه فقد انتقد ابن سعود في التعليم والكرم والعفو عن المختلسين . قال : إن التعليم في عهده كان « أقل بكثير مما كان ينتظره الناس من رجل عظيم مثله[٦٤] » . والجملة توحي وكأن عبد العزيز هو المسئول عن التقصير ، مع أن خبرة حافظ وهبه وما رواه من حوادث مقاومة الشعب والشيوخ للتعليم ، كانت تفرض عليه أن ينقح عبارته فيقول « إن التعليم ما كان يمكن أن يحقق حتى هذا القدر البسيط في عصره ، إلا بفضل « رجل عظيم مثله » ، بذل كل جهد ممكن ، إلا الدخول في حرب اهلية ، أو الصدام الدموي مع قيادات شعبه الدينية ، والاجتماعية ، لفرض تعليم الرسم والجغرافيا في المدارس . وماذا يستطيع الحاكم لنشر الايمان بالتعليم إلا أن يبتعث طليعة للدراسة في الخارج ؟ !

حافظ وهبه كتب هذا الكلام والسعودية خارجة من أزمة الاخوان ، وأزمة ابن رفاده ، مقدمة على حرب اليمن ، مع الأزمة العالمية التي خنقت البادية ، وزعزعت رضاهم بالنظام الجديد ، وطحنت أهل الحجاز . لم يكن ينقص عبد العزيز إلا فتح جبهة أخرى بالقتال من أجل التعليم لكسب إعجاب المستشار القادم من بلد نسبة الأمية فيه كانت في حدود التسعين بالمائة ، رغم تعاقب الرجال العظام عليها !... ولو عاش وهبه لرأى أن فتح مدرسة ، في القصيم ، بعد ثلاثين سنة من كتابه هذا احتاج لحشد قوى الدولة ومفاوضات وتحايل على الأهالي ..

على أية حال بعد ٤ صفحات فقط من هذا النقد اعترف حافظ وهبه بأنه « واجب علينا أن نقول إن الملك عبد العزيز لولا ما يحيط به من الصعوبات من جهة استعداد شعبه ، لسار ببلاده خطوات واسعة في سبيل نشر الثقافة وتعميم التعليم ، وهو يفضل السير التدريجي على قدر استعداد الأمة . ولهذه الاعتبارات فان الحالة العلمية في الحجاز ونجد أقل مما يجب أن تكون »[٦٥] .

وقائمة النقد التي كالها حافظ وهبه ، يتصدرها ـ بالطبع ـ موقف عبد العزيز من المال العام ، إذ نقل عنه قوله : « إن كنز المال لا ينفع ، فهل أفادت عبد الحميد خزائنه ، وما ادخره من المال ؟ وهل أفادت خزائن ابن الرشيد ؟ » .. وذهب وهبه إلى القول : « وأعتقد أن الملك قد غير فكره في هذه الأزمة التي اخذت بالخناق ، وأصبح يعتقد في المال وفائدة ادخاره لوقت الشدة » .

ولا تناقض بين ادخار المال للأزمات ، وكراهية اكتنازه حتى يضطرب أمر الملك دون

ان يوظف المال في مهمته الرئيسية وهي حفظ الدولة وتوفير استقرار الملك .
كان كرم عبد العزيز عنصرا سياسيا أجاد استخدامه ، على نحو لا يقل اهمية عن السيف والاقناع . والقصة التي يرويها حافظ وهبه نفسه ، عن تمييز الملك في عطائه ، بين من لا يخشى خيانتهم ، وبين غير المضمون الولاء ، فأعطى الثاني اكثر ، رغم أن مكانة الأول كانت أكبر ، دليل على أن كرمه لم يكن عشوائيا ، أو إسرافا ، أو حالة كما قيل في ابن عمار الذي يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما ، بل خطرات من وساوسه !
أما أهم نقطة في نقد حافظ وهبه وغيره ، فهي الفساد المالي ، وهي قضية رغم خطورتها ، لا نعتبرها القضية الأساسية ، في عصر عبد العزيز ، بل هي نتيجة لسبب ما لم يحاول أحد الغوص في أعماق التجربة ، بل والتاريخ لاكتشافه .
قال حافظ وهبه : إن عبد العزيز حاكم بعض الموظفين المختلسين ، وأدينوا ، ولكنه عفا عنهم ، وترك لهم الأموال المختلسة ، وانتقد وهبه ذلك الموقف فقال : « وهذا خطأ عظيم فانه إن جاز العفو عن العقوبة ، فانه لا يجوز بحال أن يترك ما بأيديهم من مال اختلسوه ، كما لا يجوز اعادتهم إلى مناصبهم » .
« لقد كان هذا العفو تشجيعا مباشرا للصوص والمختلسين والمرتشين ، فاذا كان هذا جائزا في حكومة لا تدين بالشريعة الاسلامية ، فانه كثير على دولة دينية ، تستمد نظامها وأحكامها من كتاب الله وسنة نبيه ، وأحكام أئمة المسلمين » . وقد استند الملك سعود إلى هذا التصرف في العفو عن المختلسين عام ١٩٥٤ » .
كذلك يشير وهبه إلى سكوت الملك عن اختلاس ذهب المعونة البريطانية والأمريكية* و « بيعه جهارا في أسواق القاهرة خلال الحرب » .

وكتب فيلبي في كتابه الذي شرع فيه في حياة الملك ، ولم يفرغ منه إلا بعد وفاته ، كتب ينعى الظاهرة كلها ، ويعلن اغتباطه بانتصار المدنية الغربية ، على تجربة الحل الاسلامي ، فقد ثبت في زعمه « أن سحر مدنية الغرب لا يقاوم ، وأن العرب قد اختاروا طريقهم مهتدين بنجمة الغرب » . وقال إن الملك الراحل ، قد عاش حتى رأى الذهب يصدأ في يديه ، والنفط يجتاح كل الحواجز من الدين والأخلاق ، وإن كان الفساد لم يصل أبدا إلى الملك الذي ظل محتفظا ببساطة معيشته ، ولم يخرج من بلده إلا في رحلات سياسية معدودة . ورغم أنه لم يدرك حجم التغيير الذي وقع ، إلا انه كان يلوم نفسه ، ويبكي أحيانا ، وترتعش شفتاه وهو ينتقد ما يجري » . وكتب فيلبي أيضا ، لزوجته : « إنه لأمر محزن ان يشهد المرء إنتشار التفسخ في دولة كان لها عظمتها الخاصة عندما كانت فقيرة » ، ويقول إن الملك « كان منزعجا في آخر أيامه من مظاهر الاسراف التي اجتاحت الجميع ، وإن آخر كلماته مع فيلبي هي الاستشهاد بالآية

---

* لعل ما فعله عبد الله سليمان من أعاجيب خلال سنوات الأزمة العالمية ، لابقاء جهاز الدولة يعمل رغم جفاف الموارد ، كان شفيعه في سنوات الرخاء عندما تناثرت الأقاويل حول سمعته المالية . (انظر كتاب توحيد الجزيرة لمحمد المانع حول حيل السليمان في توفير المال للدولة) .

الكريمة : « واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وإن الله عنده أجر عظيم » ٦٦.
ويقول « إنه أصبح يستحيل التعرف على ملامح النظام القديم في ظل الأوضاع الراهنة » .

ولا جدال في أنها ظاهرة خطيرة ، ولكن هل من العدل ، أو من المفيد وضع المسئولية « كلها » على عاتق ابن سعود ، الذي كان يبكي من العجز عن وقف هذه الظاهرة ؟!
عبد العزيز حاكم المختلسين ، وقضاؤه أدانهم ، وهذا دليل على احترام المال العام ، والتأكيد على صيانته ومعاقبة « مختلسه » ، ولكنه في نفس الوقت عفا عنهم ، والأخطر من ذلك ترك لهم المال المختلس ، وهو أمر لا يجوز ، لا في دولة دينية ، ولا دولة ملحدة .
وكنا نتمنى لو أن وهبه ، بما رواه عن شجاعته الشخصية ، وغيرته ، واعتراضاته في مواجهة مليكه أكثر من مرة ، كنا نتمنى ألا يتركنا في هذا الموقف المحير ، نتمنى لو سأل « الامام » تفسيرا لهذا القرار . فهذه هي مهمة المؤرخ المعاصر ومسئولية المستشار المحب .

فالاختلاس سرقة ، إن قيل إنه لا ينطبق عليه حد القطع ، فهو من الفساد الذي أفتى مفتي السعودية بجواز وصول العقوبة فيه إلى حد الاعدام ، وهو سم يدمر الدولة ويشل أجهزتها ، وتفرقة في حقوق الناس ، لأن المختلس لابد أن يدفع ثمن ما يختلسه ، إما في شكل محاباة أو تستر وخيانة لمسئوليات منصبه .

والامام الذي يقطع ولاته أصابع من جس جوال أرز أو بن لا يعرف صاحبه ، كيف وجد الفتوى التي تجيز احتفاظ المختلس بما اختلس ، بل وإعادته الى منصبه ؟! ومن قبل حاكم ، ألد خصومه لا يستطيع الهمس بأنه كان شريكا أو ضحية إبتزازما ، يجبره على هذا الفعل !
لابد من تفسير ..
لابد من ظروف أملت هذا الموقف ، ولكن لا الذين دافعوا ولا الذين انتقدوا حاولوا اكتشاف هذه الدوافع ، ومعرفة حيثيات الفتوى ، فظلموا الرجل وظلموا التاريخ .
هناك خطأ ما في التصور العربي للمال العام وحقوق الأمير عليه وقد أورد وهبه قصتين للدلالة على فلسفة الحكم في العالم العربي ، ولكنهما يدلان أيضا على نظرة العرب للمال العام وحق الحاكم في التصرف فيه ، أو ما يعتبره العالم كله « فسادا » .
ذكر وهبه أن الشيخ جابر حاكم الكويت قال له : « إن الحاكم يجب أن تكون يده مطلقة في كل شيء .. في المال والأرواح » .

وروى أيضا عن أحد مشايخ البدو الذي زار حافظ وهبه عام ١٣٥١ - ١٩٣٢ ، وسأله عن أوروبا وملوكها ، فلما أكد له وهبه أن ملوك أوروبا لا يملكون التصرف في الخزانة العامة ، أو قتل معارضيهم قال الشيخ : « ليس هؤلاء ملوكا . إن من لا تطلق يده في الخزانة ، ومن تكف يده عن قتل الناس ليس بملك » .

والبدوي يمدح فيقال عنه « نهاب وهاب » ، والبدوي لا يعتبر أخذ المال العام سرقة ، لأن الناس شركاء فيه ، وقد اختلف أبو ذر ومعاوية هل يقال مال الله أم مال المسلمين ،

ولم يقل أحدهما مال الدولة . ولا عرف أن أبا ذر رفض عطاءه ، ولا أحداً من الصحابة والتابعين رفض عطية رسول الله أو خليفته . أما السرقة فهي أخذ المال الخاص والغلول هو اخفاء حق بيت المال ، والخيانة هي اختلاس المتصرف في المال ، ولكن الأمير إذا اعطى من مال الدولة فهو حلال ، والفرق بين ذلك والفساد يرجع لضمير الحاكم والمحكومين ، فاما أن يكون العطاء والأكل بالحق أو الرشوة والأختلاس . وليس البدو وحدهم على هذا الفهم . فالعالم العربي حتى اليوم ، يتقبل ببساطة تجاوزات الحاكم المالية ، وإثراء عائلته ، ولا أحد يصدق أن رئيس الدولة يعيش بمرتبه ، ولكن لا أحد يرفض ذلك أيضا ، ومازلنا نقول : « طباخ السم لابد أن يذوقه » ، « والشجرة التي لا تظلل أهلها تستحق حرقها » ، « والأقربون أولى بالشفعة » . بل إن الحضارة الاسلامية حافلة بصور يمكن وصفها بالتناقض ، فعمر بن عبد العزيز كان يطفىء الشمعة لأنها مال عام ، إذا ما بدأ جليسه يتحدث في قضايا خاصة ، ولكنه كان خليفة أمويا ، وقد قام حكم بني أمية تحت قميص عثمان رضي الله عنه . وكلنا نعرف أن ذاالنورين (لقب عثمان) أعطى خمس خراج افريقيا لأحد أقربائه ، وقال ان رسول الله كان يصل الرحم ، وقد وصلت رحمي ، وكان رسول الله يعطي من يسأله من الخمس المخصص للدولة أو المال العام ، وكان يعطي هذا السائل حتى يرضى ، وحتى تحول في قلبه من البغض الى الحب ، وكذلك أعطى ابن عفان ، وكان الذي أخذ « بالمصادفة » قريبه .. فما الخطأ ؟..

وحتى لو أخذنا برأي جماعة المسلمين ، ونحن نميل إلى ذلك ، في تبرئة عثمان رضي الله عنه ، وأنه أعطى ما أعطى من ماله الخاص ، فالتاريخ حافل بعطايا أمير المؤمنين ، وسداده لديون كبار المسلمين ، وملئه فم الشاعر ذهبا أو درا ، وكله من الخزانة العامة ولم يستنكر ذلك إلا في حالات نادرة .

والدين خول الحاكم إنفاق المال العام في أوجه عديدة ، منها إعطاء ذوي القربى ، بل جعل المال العام لهؤلاء : « واعلموا إنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول **ولذي القربى** واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير »*

قد يقال إن إعطاء القائم بالأمر المال جائز ، والحكم فيه لضميره ، وتقديرات مجتمعه ، وحتى استيلاء ابن عباس على ما في بيت المال عندما ترك منصبه ، وسكوت علي بن ابي طالب ، كرم الله وجهه ، قيل فيه إنه « تأول » .. ولكن مد الموظف يده إلى المال العام بدون إذن ولي الأمر .. ما هو الموقف منه ؟ .. وكيف يعفو الحاكم عنه ؟

سأتأول بدوري .. وأنا أعرف ما سيثيره تأولي علي من ثائرة ، ولكن دفاعي يرتكز على ٣ نقاط :

الاولى : هي أن الذين سينبرون للرد أو سيزعجهم ما سأقول ، عليهم أولا أن يجدوا

---

* سورة الانفال .

تفسيرا لما سأورده من نصوص .

والنقطة الثانية أنني لا أبرر الاختلاس ولا أدافع عنه ، وإنما أحاول أن أثير التفكير في جوهر الفلسفة العربية من المال العام ، وتحديد من هو السارق والسارقة في تنفيذ حد القطع ...

النقطة الثالثة والأهم ، أنني لا أعتبر الفساد المالي ، هو القضية الرئيسية التي نعالجها في هذه الدراسة ، أو التي يجوز أن نقف عندها ، دون أن ننفذ إلى جوهر المشكلة ... لماذا لم ينجح الحل الاسلامي في العصر الحديث كما نجح من قبل ؟..

لنتأول إذن :

عندما ورد أبو سفيان من الشام بعد زيارة ابنه معاوية ، قال له عمر بن الخطاب ، « هيا .. ماذا أعطاك » فقال « لم يعطني شيئا » . فامسكه عمر بن الخطاب في مجلسه ، وأخذ خاتم أبي سفيان فبعث به مع رسول إلى « هند » ام معاوية وزوجة أبي سفيان ، يقول : أبو سفيان يطلب كيسي المال اللذين جاء بهما من الشام ، والدليل خاتمه هذا » .. وعاد الرسول ، كما تؤكد كتب التاريخ المعتمدة ، يحمل كيسين ثقيلين من الدنانير والدراهم ، فأمر بهما عمر فطرحا في بيت المال !

ولم أجد في جميع كتب السير تعليقا إلا أن هذا الفعل اعتبر من أدلة فراسة عمر الذي عرف .. أن معاوية أعطى أباه ، وحدد الكمية في كيسين !

ولكن الحادثة أخطر من ذلك :

١ ــ معاوية اختلس من المال العام ، وأعطى أباه الذي قبل ، وإلا لو كان من مال معاوية الخاص ، لما كان أبوسفيان بالذي ينكر أو يخشى مصارحة ابن الخطاب : نعم أعطاني ابني من حر ماله .. فمالك وما لنا ؟!

ولكنه أنكر ..

٢ ــ عمر بن الخطاب صادر المال دون اعتراض من الصحابة أو أبي سفيان ، وعمر لا يصادر مال الناس ، إلا بتهمة وإدانة .

٣ ــ ومع ذلك لا عزل عمر معاوية المتصرف في المال العام بالدليل القاطع ، ولا سجنه هو أو أباه ..

ألا يسع أبو تركي ما وسع أبو حفص ؟! سيقال ولكن أبا تركي ترك لهم المال .. بينما صادره أبو حفص ..

نتأول مرة اخرى ..

من الأمثلة التي تضرب على عدل عمر بن الخطاب أنه كان يقاسم الولاة فيما حققوه من ثروات خلال ولايتهم ، حتى قاسمهم في الحذاء !...

ومرة أخرى لو كان مالا خاصا مشروعا لما كان لعمر عليه من سلطان ، ولكنه مال مشبوه ولذلك صادر نصفه .. وأيضا ترك نصفه المشبوه للوالي ! لماذا ؟!

ولن نمل من تكرار القول بأننا لا ندافع عن الاختلاس ، ولا نتصور إطلاق يد الموظف العام ولا حتى أمير المؤمنين في المال العام ، ولكننا نرى أن القضية أعمق من

الصيغة التي طرحت بها .

ننتقل الى النقطة الأخيرة ، وهي لماذا لم يحقق ابن سعود الأمل الذي علقه عليه المسلمون والعرب ، أي الحل النهائي للمشكلة الاسلامية ؟! وكتابنا هذا كله ، هو محاولة للاجابة على هذا السؤال ، أو بصيغة أكثر تواضعا ، طرح المزيد من الأسئلة . بدراستنا للتجربة السعودية من ظهور محمد بن عبد الوهاب ، في ظل حضارة هزمت ماديا ، ولكنها مازالت متمسكة بشموخ عقيدتها ، لا يخامرها أدنى شك في صوابية الحل الاسلامي ، فقط إذا ما طبق !

وكانت الدولة السعودية الأولى .. وظن بناتها أنهم طبقوا الحل الاسلامي ولكنهم فشلوا وتراجعوا بل تآكلوا حتى تحولوا إلى لاجئين .. ولكن دون أن يدب الفساد إلى دولتهم أو ينتقد سلوكهم الديني والخلقي .

ثم جاءت تجربة عبد العزيز ، في ظل الهزيمة الشاملة المادية والمعنوية من المحيط إلى المحيط ، إذ ساد الشك قيادات العالم الاسلامي ، في جدية الحل الاسلامي ، أو على الأقل في إمكانية تطبيقه ، فاذا بعبد العزيز يطرح هذه الامكانية طرحا عنيفا ، ولكن سرعان ما تتقلص التجربة ، وتكون الصدمة بحجم الأمل الذي أطلقته التجربة في شبابها ..

وقد زعم فيلبي أن الوهابية في المرحلة الأولى فقدت زخمها عندما توسعت فوق طاقتها فانهزمت .. وهكذا خسروا الارض والحركة . بينما كان عبد العزيز أكثر ذكاء في نظر فيلبي ! لأنه قاد حركة الوهابيين حتى بنوا مملكة في حدود معقولة ، ثم تخلص منهم في الوقت المناسب ، دون أن يخسر شبرأ واحدأ من أرضه ، « فقد استخدم نفس الشعارات في تكوين الأرطاوية والغطغط وحركة الاخوان ، وتخير الوقت المناسب تماما لفتح الحجاز ، ولكن كان عليه أن يقتل فرنكشتاين قبل أن يقتله »[٦٧] .

وهذا بالطبع تبسيط افرنكي للظاهرة ، فالوهابية الأولى فشلت لعكس السبب الذي ذكره فيلبي ليس لأنها توسعت ، بل لانها لم تتوسع كما يجب . والسؤال الذي قفز فوقه فيلبي هو لماذا فقدت الزخم ؟ لماذا أصبحت الأرض أوسع من الطاقة .. بينما فتح المسلمون الاوائل مصر والشام والعراق وفارس وظلت الطاقة أكبر من الأرض لأكثر من قرن ؟!

أما عبد العزيز فلم يخلق فرنكشتاين ليضطر إلى قتله ، هذا رأي فيلبي في الاخوان ، وما لاقاه منهم من احتقار وازدراء . عبد العزيز كرر نفس تجربة محمد بن عبد الوهاب ، تكوين المؤمن القوي ، وانتهى إلى نفس المأزق .. اختناق الحركة في الحدود الدولية .. ولأنها لم تقتل من الخارج ، فقد تمزقت من الداخل . لولا أن جاءته المعجزة الجيوليوجية كما قلنا .. فاختفت الحركة وبقيت الدولة .

وإذا كان السعوديون لم ينجحوا ، فلا أحد : لا محمد أسد ، ولا غيره من المنتقدين ، نجح في طرح الحل الحاسم والدواء الشافي الذي نبحث عنه حتى الان ، منذ مقتل عثمان في رأي البعض ، أو حتى منذ سقوط الأندلس ، ووصول البرتغاليين إلى

بحر الحجاز في رأي الغالبية .

هذه ـ بالذات ـ ليست غلطة آل سعود ، ولا يمكن تفسيرها ببساطة بأنها نتيجة تقصير منهم ، أو أن آل سعود بخلوا بجهد كان متاحا ومعروفا ، وسهل البذل ! ولا لأن ابن سعود كان « يفتقر إلى العظمة الداخلية » ! إنها قضية أكبر من كل جهودنا ، ومن كل الاجتهادات التي طرحت حتى الآن ، ولقد شرق المؤلفون والباحثون وغربوا ، وماتوا قبل ان يكتشفوا حجر الفلاسفة هذا .. أعني القادر على تفجير حركة تخلق قيادة قادرة على الاستمرار دون انحراف حتى يتم تحرير المسلمين .. أما الأخطاء التاكتيكية ، والانحرافات في السلوك ، فاللوم فيها واجب ، وتتحمله القيادات المختلفة .

وإذا كان « السعوديون » ينالون النصيب الأكبر من النقد واللوم ، مع أنه لا يمكن القول بأنهم أكثر تسامحا في الأخلاقيات من سائر الشعوب الاسلامية ،* فلأنهم مطالبون بشكل أو بآخر بالحفاظ على مثاليات الوهابية ، ومن هنا كانت القسوة في محاسبتهم ، والمبالغة في تحميلهم المسئولية ، لأنهم هم الذين حملوا مسئولية الحل الاسلامي ، وجربوه ، ونجحوا فيه قدر طاقتهم في بلادهم . ويكفيهم فخرا أنهم لم يكفوا خلال أكثر من قرنين عن إذكاء حماسة المسلمين لتجربة الحل الاسلامي ، وإثارة النقاش حوله .

ومن ثم فلابد لفهم الظاهرة السعودية من دراستها كوحدة متكاملة منذ أن طرحها محمد بن عبد الوهاب على التاريخ وعلى الواقعين العربي والاسلامي .

---

* وقد يقال إن القوى المعادية للاسلام ولسياسات عبد العزيز ، وبعض مواقف الدولة السعودية من بعده ، هي التي تكمن خلف حملة التركيز على أخطاء السعوديين وحدهم . وهذا صحيح ، ولكنه لا ينفي أن بعض السعوديين أو المحسوبين عليهم ، يعطون خصمهم المادة التي يستخدمها ضدهم بل ضد السعودية والاسلام .

الـملاحق

تمهيد

١ م ـ ويمكن القول إن عبد العزيز كان يتبع في السياسة الدولية ، أسلوب إسرائيل أو اليهود ، وهو فن محالفة القوة العالمية الأقوى ، وجر خصمها لمحالفة الطرف الأضعف في المعادلة الدولية ، فتضمن لنفسها الدعم العالمي الأكثر فعالية .

٢ م ـ في الحرب العالمية الأولى راهن بعض العرب على تركيا فخسروا وراهن الأخرون على الشرف البريطاني ، والتحرير الأنجلو ـ فرنسي ، فكانت خسارتهم أبشع ، وراهن هو على أطماع بريطانيا ومصالحها الامبراطورية ، معتمدا بالدرجة الأولى على قوته الذاتية فكسب . وفي أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات راهن الادريسي وإمام اليمن على إيطاليا فخسرا .. وراهن هو على مخاوف بريطانيا من النفوذ الايطالي فكسب . وفي الحرب العالمية الثانية راهن البعض على المانيا وإيطاليا ، مثل شاه إيران وفاروق والكيلاني وأمين الحسيني وعزيز المصري ، وفيلبي وفؤاد حمزه ، فخسروا جميعا . وراهن هو على الحلفاء ... وأخيرا راهن الهاشميون في العراق على بريطانيا ، وراهن هو على تصاعد الدور الامريكي ..

٣ م ـ وهو ما سقط فيه دعاة القومية في ساحل الشام وقد روى مؤلف كتاب « الرمال المتحركة » أنه عندما زار دمشق سنة ١٩١١ : « فجأه خفض أحدهم (الشباب السوري) صوته وسألني هامسا : متى سيأتي البريطانيون لتحرير بلادنا من الترك ؟ فدهشت (الماجور البريطاني اندهش) وقلت له ماذا تعني بتحرير بلادكم ؟ قال نحن نفضل الموت على البقاء تحت حكم الترك وقد حان وقت الخلاص » .

٤ م ـ لقد كان حال المسلمين عشية الهزيمة الشاملة في مطلع القرن العشرين .. هي أرجوزة عبد الوهاب عزام في نعي المقاتلين الليبيين أبطال آخر مقاومة عربية ـ إسلامية للغزوة الأوروبية التي بدأت في القرن الخامس عشر من الأندلس والتي يقول فيها :

« سلاحهم عزيمـة الجهاد — وقوتهم ما سلبـوا الأعادي
يصابرون الاكبد الصوادي — ويأكلون الجوع في البوادي
قد يئسوا يأسا من الامداد — إلا ثبات القلـب في الجلاد
ونصرة الرحمن للعباد »

٥ م ـ لم يكن يمارس التدين بالاسلوب المتشنج ، أو الاهتمام بالشكليات والمظهرية ، ولكنه أيضا لم يكن ليثير معركة حول هذه الشكليات بدعوى التقدم ، فاذا كان التمسك بالشكليات باسم التدين ، تخلفا وتعصبا ، فان الأسوأ هو حصر التقدم في إزالة هذه الشكليات ، وتناسي الجوهر أو الأساسيات ..

ففي ٢١ يوليو ١٩٥٠ ، الموافق ٤ شوال ١٣٦٩ ، مر خمسون عاما على فتح الرياض ، واقترح السوريون والانجليز الاعداد للاحتفال بالذكرى على طريقة « اليوبيل الذهبي » للملكة فيكتوريا . ولكن المشايخ تدخلوا ومنعوا الاحتفال ، واستجاب لهم الملك .

وقد كتب يوسف ياسين للزركلي رسالة ذات مغزى قال فيها : « إن الالغاء كان بأمر ملكي ، نزولا

على رأي علماء نجد ، لأنهم رأوا ابتداعا في تسمية أيام بأيام العيد ، لم ينزل الله بها سلطانا . فافهم عافاك الله » ..

وفهم عافاه الله !

وعندما احتج فيصل الدويش على طول ثوب « الامام » أعطاه المقص وتركه يقص ما يتجاوز حد الدين .. ولكن لما هدد الدويش النظام قص رقبته . وتدخل قبل ذلك في بيان العلماء ليحذف مايسيء لمشاعر الشيعة ويمس الوحدة الوطنية .

٦ م ـ زعم سعودي متجنس من أصل شامي ، أن السوريين هم الذين وضعوا كلمة « عربية » في اسم المملكة ، فهم كانوا حملة لواء العروبة في ذلك الوقت ! وقد رفضت هذا التفسير الذي لا أساس له من الواقع ، فعبد العزيز لم يكن بحاجة لمعلم سوري حتى يعرف العروبة ، وقد دافع عنها وتكلم باسمها منذ حواره مع الباشا التركي في العراق (الكمالي وهو من أصل سوري !) وخطب باسمها في الكويت (١٩١٦) . والقوميون العرب « لم يبدأوا في وضع كلمة « العربية » للتعريف إلا في الخمسينات ، وعندما أصبحت التسمية عملا حزبيا ، ممزقا للوحدة العربية ، يثير الشك في العروبة أكثر مما يؤكدها !.. أو كما يقول المثل الشامي « كثرة الدق تفك اللحام » .. والا فهل يعقل ان تحتاج اليمن أم العرب إلى تعريفها « بالعربية » !..

وفي اعتقادي الشخصي أن كلمة « العربية » في جملة « المملكة العربية السعودية » هي تعبير جغرافي وليس سياسيا ، فهي ترجمة « Arabia » التي عرفت بها الجزيرة العربية ، وهي حل شديد التوفيق لمشكلة التعريف الجغرافي لمملكة ابن سعود ، فقد كان الاسم الشائع بعد ضم الحجاز هو « الجزيرة العربية » (انظر منشور الشكوى المجانية في « تمهيد ») فلما تقرر اتخاذ اسم رسمي ، حذفت الجزيرة وهذا طبيعي ، وأضيفت « المملكة » ثم السعودية . وقد فهم المسئولون السعوديون هذه الحقيقة وفهمها الأجانب ، ولذلك فان اسم المملكة لم يترجم إلى اللغة الانجليزية بعبارة :

The Arabian Kingdom of Saudia

ولا

The Arabian Saudi Kingdom

ولا

The Saudia Arab Kingdom

ولا

The Arab Kingdom of Saudia

وإنما

The Kingdom of Saudi Arabia

وقد كتبت السفارة الأمريكية في لندن اسم المملكة هكذا :

Arabian Saudian Kingdom

ثم تداركت خطأها فأبرقت لوزارة خارجيتها تقول إن صحة الأسم هي :

Kingdom of Saudi Arabia.

٧ م ـ أحصى فهد المارك جنسيات مستشاري الملك كالاتي :

مصر	سوريا	لبنان	ليبيا	العراق	فلسطين
١	٤	٥	١	١	٣

ولم تكن سياسته في احاطة نفسه بالكفاءات العربية ، لاتلقى معارضة من مواطنيه ، كما يتبادر للذهن ، باعتبار قلة الثروة وقتها ، وإن الحس الاقليمي قد نما في سنوات النفط وعروبة الخمسينات والستينات .. بل كانت هناك معارضة ، فقد روى الشيخ حافظ وهبه أن الملك في « أيامنا الأولى قبل دخول الحجاز ، وفي السنين الأولى من دخوله ، كان يشركنا معه في كل ما عنده من فاخر الطعام ، وكثيرا ما كانت تضيق صدور خدامه النجديين ، بما كان يؤثرنا به ، ويشركنا فيه ، فقد كانوا يعتبروننا أجانب » .

ولكن دولة عبد العزيز لم تكن توجهها أحقاد الخدم .

٨ م ـ ولعل حادثة الشريف حسين عدنان والعتيقي خير دليل على أهمية توفير حق مخاطبة السلطات في منع الظلم بل والمساعدة على كشف المتآمرين على النظام :

« ففي أواخر عام ١٣٤٦ (١٩٢٨) قرر بعض أهالي الحجاز ، التقدم بشكوى جماعية ضد أطباء الصحة ولكن العتيقي عبد العزيز ، والشريف حسين عدنان وكانا يعملان كمستشارين للأمير فيصل نائب الملك في الحجاز ، قررا منع وصول الشكوى للملك ، وانتهزا فرصة غياب الامير فيصل فاتصلا بالشخص الذي وضعت الشكوى عنده تمهيدا لارسالها للملك ، وطالباه بتسليمها ، لهما ، فلما رفض أمرا بسجنه » ، ولكن أصدقاءه استخدموا « حق الشكوى » ، فأبرقوا للملك « الذي أمر بالتحقيق وفصل الموظفين ، ووضعهما تحت المراقبة فتبين أنهما مشتركان في مؤامرة على النظام . وقد ضبطا بالجرم المشهود ، وأبعدا عن البلاد » .

(رواها الخطيب في كتابه الامام العادل .)

٩ م ـ والمقال حافل بالمعلومات « القيمة » من هذا النوع ، والتي تدل على خطأ قراءة كتابين في وقت واحد حتى اذا كانت الضرورة تحتم التوازن بين الرياض ، وعمان وبغداد من أجل توزيع « آخر ساعة » . وهذا بعض من معلومات التابعي : « وأطلقوا على محمد بن سعود » اسم سعود الكبير (!) ، واستطاع محمد علي أن يغزو نجداً ويستولي على عاصمتها « الرياض » (!) ولكن الجنود الأتراك ملوا الاقامة في هذه الصحراء الموحشة ، ومن ثم تركوا فيها بعض الحاميات وعادوا الى بلادهم تاركين العرب وشأنهم إلى أن كان صباح أحد أيام شهر نوفمبر (؟) من عام ١٨٨٠ ، عندما رزق الله أحد أحفاد سعود الأكبر (اذا كان المقصود محمد بن سعود يبقى صح يا تابعي أما سعود الكبير أو الأكبر فليس جدا لعبد العزيز ولا لعبد الرحمن) وجعل وفقا لحسابه فتح الرياض سنة ١٩٠٥ (عندما بلغ ابن سعود الخامسة والعشرين) (!).

« عبد الرحمن كان شديد التقي والورع بدليل انه فرض على ابنه الصلاة وصيام شهر رمضان (!) كما علمه ركوب الحصان بدون لجام أو ركاب ، والمشي على رمال الصحراء في وضح الشمس » !

وبالمناسبة فقد قال محمد شفيق مصطفى في كتابه « في قلب نجد والحجاز » تحت عنوان « عقائد النجديين في الحياة والخلود » : « ومما يستحق الذكر أن أهل نجد يعتقدون أن النجدي ، إنما خلق لعبادة الله وطاعة شريعته وأن أجله محدود وأن هناك بعثا بعد الحياة الدنيا » !

(انظر مجلة الداره عدد مارس ١٩٨٠)

وله عذره فتقارير القنصل الأمريكي في عدن بعد فتح الحجاز تؤكد ان السعوديين يهدمون القبور لأنهم لا يؤمنون بحياة بعد الموت !٢١/١٠/٢٤ إلا أن تقرير نفس القنصلية عن سقوط حايل أكثر فكاهة ودلالة على الجهل الأمريكي فقد جاء بالتقرير « السلطانان ابن رشيد وابن سعود وهما شقيقان وخالهما هو شريف مكة . ولكن ذلك لم يحل دون تقاتلهما وعداوتهما للشريف . ابن رشيد مال للترك بينما حالف ابن سعود البريطانيين . والخلاف الوحيد بينهما أن شعب ابن رشيد سني مثل الترك

وأهل الحجاز . بينما شعب ابن سعود فهم شيعة وأحيانا يطلق عليهم « الوهابيون » وعقيدتهم هي عقيدة الطائفة الفارسية وحدودهم هي الحدود الغربية للطائفة . والامام وشعبه في الجنوب (اليمن) هم الطائفة الوحيدة التي تعتنق نفس المبدأ في غرب الجزيرة » (١٧ فبراير ١٩٢٢) .
وهكذا من معرفة الأمريكان بالصحابة يصلون على عنتر !

١٠ م ــ ومن سرعة البديهة ، واستحضار التاريخ في لحظة خاطفة ، قصته العجيبة مع الأهرام في مصر ، وكان قد شارف على السبعين من عمره ولكنه فور رؤية الأهرام ، ومعرفته أنها كانت قبورا للفراعنة أذهل مرافقيه بسؤال : وماذا كان موقف الصحابة عندما فتحوا مصر من هذه القبور ؟ لماذا تركوها ؟!

وهو سؤال لم يخطر على بال أحد من قبله ، ولا أدري هل توقع فعلا أن يقوم الصحابة بهدم الأهرام انسجاما مع تعاليم الاسلام كما فهمها الوهابيون ؟ أم كان سؤال تقريعيا تعليميا لمرافقيه ومن تركهم خلفه من شيوخ الاخوان ؟ فاذا كان الصحابة قد تركوا قبرا بحجم الهرم ولم يروا في ذلك شركا ولا بدعة ؟! أفلا يسع الاخوان ما وسع الصحابة ؟

ولما حلف الملك فيصل بن الحسين ، برأس عبد العزيز . قال الملك على الفور : لا .. لا تقسم برأسي ، ولكن قل : والله . وفيها ما فيها من تعريض ، ولكن من قيلت له ، لا يستطيع الاعتراض على دعوته للقسم بالله .

ومثل ذلك تعليقاته السريعة الفورية . فقد روي أن أحد معاونيه أنجب بنتا فلما سأله : ماذا سميتها ؟ وقال : « نجوى » ، رد على الفور : صدق الله العظيم « أن النجوى من الشيطان » .

ولما تدخل فيلبي بثقل ظله المعروف وقال له عن مقعد كان الملك قد أعجب به : « هذا عرش » .. وتصادف ان اهتز المقعد فغادره الملك على الفور قائلا : « لا أحب عرشا يهتز » !

وقد روى لنا الشيخ عبد الله السديري قصة عميقة الدلالة قال :

دعي الملك إلى حفل غداء عند الموظف المختص بتنفيذ عطايا الملك للذين يأتون للديوان في طلب المساعدة ، وشاء حظ الداعي أن ينصب المائدة في الطابق الثاني ، وكان ارتفاع منزل في ذلك العهد هو دليل الثراء الفاحش ، فأخذ عبد العزيز يصعد درجات السلم وكلما صعد درجة يقول : « مالك سنع » « مالك سنع » . وسط دهشة مرافقيه ، فلما استقر به المجلس سألوه التفسير فقال : هذا (يقصد صاحب الدار) يعرض علينا مطالب الناس فنأمر لهم بمبالغ يأخذها لنفسه ويقول لصاحب الحاجة « مالك سنع » (أي لم يأمر الملك بتسنيعك أي لم يأمر لك بشيء) فهذا البنيان من حقوق الذين قال لهم « مالك سنع » !

١١ م ــ بعد توقيع اتفاقية الطائف بين عبد العزيز وابن الوزير والتي أنهت حرب اليمن وأعادت الحديدة لليمن ، سمع بكاء خارج الخيمة الملكية ، فتساءل الملك : من هذا الذي يبكي ؟! قالوا : عبد الله فيلبي .. يبكي قائلا : « هل تتاح لأحد فرصة ضم اليمن ويتركها ؟ ! ضيعت ملك أجدادك ياعبد العزيز ! »

فناداه الملك وقال له : أولا ، آبائي وأجدادي لم يملكوا اليمن ، ولا استطاع أحد أن يوفر الأمن والاستقرار فيها فمن يحكم اليمن بزيودها ومشاكلها ؟ وسترى ما سيجري فيها !

ثانيا ، ان حربي هذه لم تكن لضم اليمن بل لانهاء المطالب والمشاكل اليمنية في عسير ونجران وجيزان وكل الاراضي السعودية التي لم تعترف بها اليمن وهذا ما حققناه .

١٢ م ــ في موسم حج (٦ ذي الحجة ١٣٦٤ ــ ديسمبر ١٩٤٥) قال :

إن كل كلام لا يتبعه فعل فهو باطل .. إن مسألة فلسطين هي أهم ما يشغل أفكار المسلمين والعرب في هذه الايام . وهي المسألة التي يجب أن تكون موضوع عناية الجميع ومدار اهتمامهم ، ومع أنني لا أحب كثرة الكلام وأفضل على الدعاية العمل في الصمت المستمر ، فانني أقول بصراحة : إن السكوت عن قضية فلسطين لا يوافق المصلحة وقد سبق لي أن تكلمت مع أركان الحكومة البريطانية كما تحدثت مطولا مع الرئيس روزفلت ، وذكرت بكل صراحة الحيف الذي أصاب إخواننا عرب فلسطين والاعنات والقهر اللذين أخضعوا لهما . وطلبت وطالبت من الرئيس الراحل (روزفلت) إنصاف عرب فلسطين إن لم يكن بالمساعدات الفعلية ، فعلى الاقل بالوقوف على الحياد ، وعدم مساعدة اليهود عليهم . لأنه ما من شك في أن الحركة الصهيونية تجند الأنصار والاتباع بالدعايات الواسعة في كل بلاد العالم بينما العرب ليس لهم من يعضدهم إلا الله ثم حقوقهم الصريحة في اوطانهم ، وإن الحق والعدل والانصاف يقضي بعدم إعانة اليهود على العرب .

« إنني لا أخشى من اليهود .. فاذا كنا متمسكين بمعتقدنا عاملين بأوامر ديننا فاننا باذن الله ومشيئته لا نخشى اليهود ولا نبالي بهم . إن الصهيونيين باذلون أقصى ما عندهم من جهود للتأثير على الحكومة البريطانية والرأي العام البريطاني لتبديل السياسة البريطانية بما يوافق منافعهم ».

ثم اقترح أن يعمل العرب على تحييد الانجليز في المعركة ، إذ ليس من صالحهم أن يقاتلوا بريطانيا ، ولا في قدرتهم » .

كما كرر نفس المعنى أكثر من مرة في الثلاثينات.

وروى الزركلي عن ظافر القاسمي نقيب المحامين في دمشق ما يلي :

« بعد انقضاء المعركة الاولى ، بين العرب واسرائيل ، في فلسطين سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٨) أوفد رئيس الجمهورية السورية (شكري القوتلي) إلى الملك عبد العزيز ، مندوبا عنه ، هو أمين سره محسن البرازي ، فقابل الملك في الرياض ، وأخبره أن شكري بك يرى للحد من مساعدة الأميركيين لاسرائيل أن يقطع البترول عن أميركا . فانتفض عبد العزيز وقال : يالله ! البترول منحة من الله ! كانت أمي حين تدعو لي تقول : اللهم ملكه مافوق الارض وما تحتها ! وهل تحتها إلا البترول ؟ قل لشكري : لا تعلم عبد العزيز الوطنية ! نضالنا في القضية ونحن أغنياء ، خير لها من نضالنا ونحن فقراء » .

وهذه بالطبع رواية فيها العنعنة ، ويمكن ان تكون مزجا بين ما قيل فعلا ، حول أيهما أفضل المقاومة بالنفط أم بالفقر .. وبين الرواية التي كان عبد العزيز يحب ان يحكيها بعد اكتشاف النفط ، وهي دعاء سيدات القصر له بأن يملك ما فوق الارض وما تحت الارض ، ودهشته وقتها من صيغة الدعاء .. فقد كان يتساءل : وماذا تحت الارض ..؟! حتى جاء النفط فاثبت ان باطن الارض افضل من ظاهرها ، كما أكد حكمة العجائز وصدق دعواتهن .

وقد ناقشنا في غير هذا الموضع مسألة قطع النفط وإن كنا سنتناولها بالتفصيل في الجزء الثاني من هذه الدراسة باذن الله . إلا انني اطلعت على ٣ وثائق تثبت قرار السعودية بقطع النفط في الحروب الثلاث وها هي الوثائق :

الوثيقة الأولى

١٤٨١ ـ س ـ ١١   سري ومستعجل جدا

حضرة المكرم ممثل شركة الزيت العربية الأمريكية المحترم ؛

بعد التحية .؛

كلفت أن أشعركم بأن لا تقوم شركتكم ببيع أي شيء من الزيت الخام أو مشتقاته من انتاج المملكة العربية السعودية إلى كل من بريطانيا وفرنسا أن تمتنعوا كذلك عن تزويد بواخر هاتين الدولتين بالوقود أو طياراتها اعتبارا من لحظة تسلمكم لهذا الكتاب الذي أرجو أن تشعرونا باستلامه في

الحال . وتقليدا تحياتنا ..

المدير العام
عبد الله حمود الطريق

١٣٧٦/٤/٣
١٩٥٦/١١/٦

الوثيقة الثانية

وزارة البترول والثروة المعدنية
مكتب الوزير

١٣٨٧/١/٢٩
١٩٦٧/٦/٧

المكرم شركة الزيت العربية الأمريكية

تنفيذا لقرار مجلس الوزراء المنعقد ليلة البارحة اعتمدوا عدم شحن البترول إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو المملكة المتحدة واحرصوا على دقة تنفيذ ذلك وستكون شركتكم مسئولة مسئولية جسيمة لو تسربت قطرة من بترولنا إلى أراضي أي من الدولتين المذكورتين ..

أ ـ ز . ى ـ أ . م

وزير البترول والثروة المعدنية
أحمد زكي يماني

الوثيقة الثالثة

المكرم ممثل شركة الزيت العربية المحدودة ـ الرياض المحترم ؛

بعد التحية .؛

تعزيزا لمحادثاتكم مع المسئولين في هذه الوزارة حول تنفيذ قرار حكومة صاحب الجلالة القاضي بايقاف تصدير البترول للولايات المتحدة الأمريكية فان على شركتكم اتباع ما يلي بكل دقة :

١ ـ اعتبارا من تاريخ صدور القرار المذكور في ٢٤ رمضان ١٣٣٩ ـ ٢٠ أكتوبر ١٩٧٣ ، يوقف تصدير الزيت الخام والمنتجات المكررة للولايات المتحدة الأمريكية بطريق مباشر لها أو لقواتها المسلحة أو بطريق غير مباشر عن طريق الدول التي تستورد الزيت العربي السعودي وتقوم باعادة تصديره كزيت خام أو متنجات مكررة مثل البحرين ، ترينيداد ، كندا ، ألبهاما ، جوام ، جزر الأنتير ، بورتوريكو ، أو أية جهة أخرى .

٢ ـ بالاضافة إلى نسبة التخفيض المنصوص عليها بكتابنا رقم ٧٥٤ ـ ز بتاريخ ١٣٩٣/٩/٢٥ هـ فان على شركتكم أن تخفض انتاجها بما يعادل كمية الصادرات للولايات المتحدة بطريق مباشر أو غير مباشر خلال شهر سبتمبر ١٩٧٣ .

راجين التقيد التام بتنفيذ قرار الحكومة هذا بكل دقة وستكون شركتكم مسئولة مسئولية تامة عن ذلك .

وتقبلوا تحياتنا ،

وزير البترول والثروة المعدنية
أحمد زكي يماني

١٣ م ـ أورد عبد الغفور عطار رواية عن محاولة الانجليز دس مادة في معاهدة ١٩٢٦ ، تتضمن

الاعتراف بوعد بلفور . ولكن ابن سعود أدرك مقصد المفاوضين البريطانيين . وقال عطار أنه دار نقاش بين ابن سعود والمفاوض البريطاني ، « وأسقط في يد المفاوض البريطاني ، وتمت المعاهدة بين بريطانيا وابن سعود دون أن تكون فيها مادة أو فقرة عن ذلك الشيء الذي أرادته » .

وهو حديث حسن ولكنه غير مسند !

١٤ م – هذا العملاق . أحس بالحرج في بلاد « ليليبوت » فالكويتيون لم يعرف عنهم طول القامة ، ولا الشموخ المعتاد في النجديين ، والذي تجلى في تكوين وشخصية ابن سعود . لذلك كان يبدو شاذا بينهم ، بل انتقدوه ، كما فعل اقزام ليليبوت مع غاليفر ، حتى قال لمحمد أسد : « كنت اضطر الى خفض رأسي وكتفي عندما أمشي بين غرف القصر أو في شوارع الكويت . كيما أبدو أقصر مما أنا في الحقيقية »!

١٥ م – بينما ينتقده « محمد أسد » لأنه لم يعد عهد الخلفاء الراشدين ! نجد مستشرقا آخر يقارنه بمصطفى كمال الذي ألغى الاسلام ، وقطع جذور تركيا أو قل محا الصفحة الحضارية الوحيدة في تاريخ الاتراك ! إن ابن سعود هو الرد على التحدي الذي أثاره مصطفى كمال ، ولا تجوز مقارنته به . ولكن ابن سعود كبطل تاريخي يحاول كل معسكر أن يجنده في صفوفه ولو تاريخيا .

المحاولة الأولى

من محمد بن عبد الوهاب
إلى عبد الرحمن الفيصل

١٧٤٥ ـ ١٨٨٥

١١٥٨ ـ ١٣٠٢

« إن الوهابية كانت أكثر ثورية .. من أن تعيش » !



.. هكذا كان المحمل يأتي لمكة .. فهل كان سعود الكبير يقبل ذلك ؟!

١ ______ نفي وإثبات ! ..

الدارس لتاريخ الدعوة الوهابية ، قد يقف مدهوشا أمام النتائج السياسية التي اثارتها أو حققتها هذه الدعوة ، رغم أنها لم تطرح أبدا ، في بدايتها ، مطلبا واحدا يمكن أن يوصف بالمطلب السياسي . بل إن قراءة كتب محمد بن عبد الوهاب ومنشوراته تعطي انطباعا وكأنه يعيش خارج التاريخ ، فليس له من تعليق على حدث معاصر خارج محيطه ، بل يناقش قضايا فقهية سبق بحثها وصدرت فيها إجابات حاسمة .. قبل مولده بقرون عديدة ، بل حتى العلاقة بين رجل الدعوة ، محمد بن عبد الوهاب ، ورجل الملك أو السياسة عبد العزيز بن محمد بن سعود ، بدأت بطلب من الأخير ، بعث به إلى الفقيه ، يسأله فيه ، تفسير سورة الفاتحة !.. كيف يمكن أن يثير تفسير الفاتحة ، ما أثاره لقاء الرجلين ؟

ما من أحد يزعم أن محمد بن عبد الوهاب ، قد أتى بجديد في تفسير الفاتحة ، ولا في كل ما طرحه من آراء في التوحيد ، وهو نفسه كان ينفي بشدة أن يكون مبتدعا ، ورغم ذلك أثارت تفاسيره ، أو دعوته ، انتباه الناس من حوله ، وأدخلتهم في جدل حول آراءه هذه ، حتى تحولت إلى أبرز قضية سياسية في العالم الاسلامي ، أو على الاقل في الوطن العربي منه ، لأكثر من قرنين ؟

لقد ترك الشيخ ١٩ مؤلفا لا يمكن أن نصنف واحدا منها تحت مادة « السياسة » ! .. واستعراض بعض أسمائها ، يعزز الدهشة من قدرة هذه المؤلفات على إحداث تأثير سياسي وعسكري بهذا الحجم ، مثل : « كتاب التوحيد » ، « كشف الشبهات » ، « تفسير سورة الفاتحة » « شروط الصلاة وأركانها » ، « كتاب المستفيد في حكم تارك التوحيد » ... إلخ .

وعندما عقدت المناظرة بين وفد علماء نجد وعلماء مكة (١١ رجب ١٢٢١ ـ سبتمبر ١٨٠٦) لم يطرح أي خلاف سياسي بل كانت الأسئلة والأجوبة تدور حول قضايا من هذا النوع :

« ما قولك في من دعا نبيا او وليا واستغاث به في تفريج الكربات ؟ »

« من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولم يصل ولم يزك هل يكون مؤمنا ؟ ! »

« ما قولك في البناء على القبور ؟ »

من يصدق أنه حول هذه القضايا قامت الحرب ، وتحركت الدولة العثمانية ؟ وعبر محمد علي البحر الأحمر ، واضطرب الوضع في الجزيرة العربية لأكثر من مائة سنة ؟

كذلك فان رسالة[1] « عبد العزيز بن محمد » المؤسس الحقيقي للدولة السعودية ـ الوهابية إلى : « من يراه من العلماء والقضاة في الحرمين والشام ومصر والعراق وسائر علماء الشرق والمغرب . » . والتي تستغرق ٢٦ صفحة من الحجم الكبير المطبوع ، أو أكثر من ٦ آلاف كلمة ، ليس فيها قضية سياسية واحدة ، ولا تتضمن مطلبا سياسيا واحدا .. ونستطيع أن نتخيل غيظ السلطان وصدره الأعظم وولاته في العراق والشام ومصر ، وعبد العزيز الأول ، يقلق منامهم ، ويفسد عليهم لذة الخمول والكسل الحضاري ، ليحدثهم عن القبور والشفاعة ، ويشرح لأمير المؤمنين والمفتي الأعظم معنى لا إله إلا الله ! ومشروعية الدعاء للنبي والموتى .. إلخ ، وإن كانت الرسالة تؤكد تفوق عبد العزيز والمعنى الخاص لحركة عبد الوهاب ، في كونها حركة بعث عربي ، فما من حاكم قبل عبد العزيز ، أو معاصر له في كل الوطن العربي ، كان يستطيع تحرير مثل هذه الرسالة ، ليس فقط من ناحية مادتها الدينية ، بل أساسا من ناحية سلامة الأسلوب وفصاحته ، وبعده عن التخلف اللغوي الذي كان ينعكس حتى في كتابات علماء الأزهر وقتها ، كما نرى في كتابات الجبرتي والشرقاوي وغيرهما من علماء الأزهر ! ودعنا من المماليك والأتراك الذين كانوا يحكمون العالم العربي ، ولا يكاد أحدهم ينطق بجملة عربية إلا الشهادتين ، أو ما يتلوه في صلاته بغير فهم . وستضرب هذه الحركة العربية على يد الالباني الذي لم يتكلم العربية حتى مات .

من كان يستطيع التنبؤ بأن قطع شجرة يتبرك بها البدو في واحة مجهولة ، يصعب العثور عليها ولو بالأقمار الصناعية ! سيكون المفجر لثورة عربية ، وللصدام العربي ـ التركي ، وبداية أحداث ستشغل بال واهتمام كل من يعنيه الاسلام والعروبة ؟ !

والجواب على ذلك السؤال : أعني التأثير السياسي لدعوة تبدو بعيدة كل البعد عن السياسة ، هو جواب من شقين :

الشق الأول يكمن في طبيعة الاسلام ، تلك الخاصية التي انفرد بها بين الأديان ، فجعلت الدين محور حياة الناس ، او بالأحرى ، جعلت حياة الناس محور اهتمام الدين . فالاسلام جاء من اجل سعادة الانسان في هذه الدنيا ، ومن أجل المزيد من إسعاد هذا الانسان ، بهدايته إلى الفوز في الاخرة .*

الانسان هو غاية الغايات في الدعوة الاسلامية ، وإذا كان الاسلام قد اهتم بمصيره

---

* كل الأديان تدخلت في حياة الناس ، وعالجت قضية السلطة ، وغرقت في الصراع عليها ، من الكاهن البوذي والساحر الافريقي إلى بابا روما ، بل وتذهب المدرسة المادية في تفسيرها المتطرف ، إلى أن الأديان ليست إلا إحدى وسائل الصراع على السلطة ، إلا أن الاسلام دين الفطرة ، وضع القضية وضعها الصحيح ، وبوضوح وصراحة ، فهو دين ودنيا ، رسالة وخلافة أو سلطة .. هو الانسان بشقيه الميتافيزيقي ، والمادي .. ومن ثم كان أول مبحث في كتب الفقه . هو « السلطة » أو الامامة .

في الاخرة ، فانه أيضا ، كان أكثر الاديان ، اهتماما بحياته الفانية هنا .. ولذا قال المستشرقون والمعلقون إنه ما من كتاب ديني ، قد جمع قضايا دنيوية مثل القرآن .

وإذا كان الاسلام لم يقل بقسمة العالم بين الله وقيصر ، فهو قد فصل تمام الفصل بين الالوهية والقيصرية ، وكان بذلك منطقيا ، مستقبليا ، ديموقراطيا ، انسانيا .. لانه مادام يفرض تعاليمه على حياة الناس ابتداء من قضايا السلطة ، إلى آداب المعاشرة الزوجية ، فلابد من التمييز بين اللاهوت والناسوت ، بين العصمة المستمدة من الحق المطلق ، وبين التجربة والخطأ ، الانسانيين . كان لابد أن يفصل الاسلام ، وإلا استحالت تعاليمه إلى قيد يشل حركة التطور ، ويفرض على المؤمنين به أحد خيارين :

فاما رفض الدين استجابة لضرورات الحياة ..

واما رفض الحياة رضوخا لتفاسير رجل الدين ـ السلطان ..

ولأن الحل الثاني مستحيل ، فان الواقع يفرض الحل الأول ، اي تعديل نصوص الدين وأحكامه بين فترة وأخرى استجابة لتطورات الحياة ، مع ما في ذلك من تشكيك في مصداقية الدين ، وإغراء بالتعديل والتبديل وفقا للشهوات والرغبات والاجتهادات الوقتية .

تجنب الاسلام هذا المأزق ، بالفصل الكامل بين اللاهوت والناسوت ، بدأ الفصل في العقيدة ، في السماء ، بالتوحيد المطلق ، ومن ثم لم تقم معركة على الأرض بين الدين والدنيا ، ولم تكن هناك حاجة للتمييز بين رجل الدين ورجل الحكم .. فالاسلام دين ودنيا .. صحيح ، ولكن لأنه وصل بالتوحيد الى ذروته ، بمعنى أنه ينفي أية صفة بشرية عن الله عز وجل ، وبالتالي فقد نفى شبهة الألوهية عن أي بشر كائنا من كان .. ومن ثم لم يعد هناك خوف من أن تخضع قوانين الدنيا لاجتهادات رجل الدين ، لأنه بالايمان بالصفة البشرية لكل الناس ، وضعت القاعدة الأولى والأساسية للمساواة بين البشر ، فليس لأحد صفة أو امتياز يرفعه فوق سائر البشر ، وقد يقال إن هناك تمايزا وطبقات .. الخ ، ولكنها كلها امتيازات مكتسبة في إطار النظام الدنيوي ، فهي قابلة للنقد ، والمزاحمة ، بل والرفض والالغاء ، بعكس الامتياز الالهي الذي لا يقبل المناقشة ولا المزاحمة .. أو الاعتراض والالغاء .

والشواهد عديدة على حرص رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على تأكيد أنه بشر يخطىء ويصيب ، وأن العصمة والصواب المطلق هو ما نزل به الوحي من الله سبحانه وتعالى ، أما أي اجتهاد بشري ، بما في ذلك اجتهادات الرسول نفسه ، فقابلة للمناقشة ، من تأبير النخل ، إلى إختيار معسكر الجيش في غزوة بدر ..[١م]

ثم إن الوحي ينقطع بوفاة رسول الله ، ولا تنتقل أية خاصية من خصائص النبوة لبشر من بعده ، وهكذا لا يبقى للمسلمين إلا تلك التعاليم أو المنهاج الاسلامي ، ليديروا شئونهم ، فيما بينهم ، بلا امتياز مسبق أو موروث ، فالتوحيد هو قاعدة الفكر الاسلامي ، ومن ثم القوة المحركة والموجهة لفلسفة ونظام المجتمع الاسلامي . فنقطة

الانطلاق ، هي تحرير الانسان من عبودية الانسان ، وعبودية الأوهام ، وعبودية الكائنات والطبيعة ، فهو حر مطلق ، منذ لحظة تسليمه بالعبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى ، أو بقبوله شرح الشيخ لمعنى : « لا إله إلا الله .. نفي وإثبات ! »*.. وطرح هذا الفهم وقبوله ، يقود إلى رفض الاستكانة لاستبداد السلطة ، أي يطرح تلقائيا قضية السلطة وهي أهم القضايا السياسية ، أو القضية الرئيسية في كل ثورة كما قيل .

ودعوة « محمد بن عبد الوهاب » ، هي تعبير عن فهم صحيح ، لهذه الفلسفة الاسلامية ، التي ظلت متاحة لكل مجتهد ، رغم قرون التخلف ، وما حملته هذه القرون من تحريفات ، وطرحته من تشويهات ، فقد بقي التراث مكتوبا مفهوما لمن اراد الفهم ، ولكن الممارسة بعدت كثيراً عن سمو تلك المفاهيم ، لأن « التوحيد » ، وما يفرضه من تبعات إنسانية ، أهمها الثورة على كل محاولة لاستعباد الانسان المحكوم ، أو انتقاص مساواته التامة مع الانسان الحاكم ، هي مهمة ثقيلة الحمل على النفس الانسانية ، بل وتشكل حتى اليوم ، تحديا ثقيل الوطأة ، عظيم التبعات ، للاتجاه العام الذي تسير فيه النظم الاجتماعية والسياسية ، نحو تركيز السلطة ، وتحجيم الفرد العادي ، وتقليل مساهمته في صنع القرارات ، لذلك كانت فترات تألق هذا المفهوم الاسلامي ، قصيرة ونادرة ، ولكنها مع قصرها ، ترفع الانسان إلى المستوى الجدير بمن خلقه الله في أحسن تقويم ، وتبهر الوجود ، وتعجز المحللين عن تفسير روعة الانجاز الذي يحققه هذا الانسان ، الذي فجرت طاقاته دعوة التوحيد .. إلا أنها سرعان ما تخبو تحت تأثير القوى الاجتماعية ، « وانحطاط الانسان عن جوهره » فينجذب إلى أرض الغرائز ، ولا يبقى من مفهوم التوحيد ، إلا فلسفته النظرية ، فتلعب دور الملهم والحافز على الثورة والرفض ، داعية إلى التحرير والانطلاق .. وهكذا تبقى الفرصة متاحة ، حتى يتمكن عقل متميز ، مجتهد ، من العودة للأصول ، واكتشاف المنابع ، وتجديد الحماسة لهذه المبادىء ، ومهما يكن عمر التجربة ، فانها تدفع بالانسانية إلى مستوى جديد ، وترسخ في مفاهيم تحرر الانسان ، ما يصعب ، إن لم نقل يستحيل اقتلاعه أو التراجع عنه .

« فالسلفيون » بالمفهوم الصحيح ، كانوا دائما ـ الأكثر ثورية ، ويكفي أن نسترجع أسماء الأئمة الذين استندت الحركة الوهابية لتعاليمهم ، لنجد أنهم رغم ما زعمه المغرضون ، أو أصحاب النظرة السطحية ، من أنهم محافظون ، او سلفيون ، فقد كانوا هم خصوم السلطة ، المدافعون عن حرية الانسان المسلم ، وحرية الوطن المسلم ..

ابن حنبل ، مثلا ، كان هو الثوري ، هو التقدمي ، هو المدافع عن حرية الفكر ، وليس المعتزلة ، كما يدعي كل الذين يصنفون أنصار السنة ، كرجعيين ، وكل من خرج على الجماعة كثوري !

---

* أي نفي الألوهية عن غير الله وإثباتها لله سبحانه وتعالى وحده .

ابن حنبل ، رفض تدخل السلطة لفرض فكرة معينة على الناس ، وتحدى هذه السلطة ، ودخل السجن وعذب متمسكا بحقه وحق كل مواطن في حرية التفكير ، ولم يقل أبدا إن الارض تدور ولكن مادام البابا قال لا .. فهي لا تدور » ! .. بل عارض أمير المؤمنين حتى النهاية ، بينما استعان المعتزلة بشرطة أمير المؤمنين ، وسيفه وسجونه لفرض منطقهم او وجهة نظرهم في قضية فكرية بحتة .

وابن تيمية* كان بطل مقاومة الغزو التتري ، واستعان خصومه ، من المتصوفين والمتكلمين ، عليه بالسلطان ، شاهرين ضده سلاح « أمن الدولة » فدخل السجن أربع مرات ومات فيه ..

هذه هي حياة الأئمة السلفيين « المحافظين » الذين اقتدى بهم « محمد بن عبد الوهاب » . حياة أقل ما توصف به أنها ضد النظام القائم في عصرهم ، ضد رقابة السلطة على الفكر ، ضد تدخل السلطة في ضمائر الناس ، والأصل في ذلك ، أنهم دعوا إلى العودة إلى منابع أكثر الفلسفات تحررأ وثورية ، أكثر الدعوات إيمانا بانسانية الانسان .. وإذا استرجعنا تاريخ المقاومة الوطنية ضد الاستعمار الأجنبي ، فسنجد أبرز الوجوه بين القيادات الوطنية ، قيادات إسلامية « سلفية » من لجنة الأزهر الثورية التي قاومت نابليون ثم الأمير عبد القادر إلى الملا محمد مرورا بعمر المختار وأحمد السنوسي والمهدي في السودان .. كل هذا الزخم السياسي ، هو مجرد نتيجة من نتائج « التوحيد » .. وهكذا كان أول كتاب « لمحمد بن عبد الوهاب » عن التوحيد ..

وقد قيل ، ويقال ، إنه لم يأت فيه بجديد ، وأن الفكر الاسلامي ، قد تناول هذه القضية من الناحية الفلسفية ، بما لا مجال فيه لمستزيد ، وهذا صحيح ، ولكن المهم هو المنطلق ، فقد قدم « محمد بن عبد الوهاب » قضية التوحيد على كل القضايا ، وجعلها نقطة البدء في الاسلام ، وبالتالي نقطة البدء في دعوته .. فهو يكتب لصديق بعث إليه : رسالة في التوحيد « فيها كلام من أحسن الكلام » ولكنه لا يقبل منه هذا الكلام ، بل يعنفه لانه قال : « واجب على كل ذكر وأنثى ، النظر في الوجود ثم معرفة العقيدة ، ثم علم التوحيد » . يرفض هذا التسلسل الذي يبدو مغريا للمثقفين ، إذ يجعل الوصول للتوحيد نتيجة دراسة وتأمل للوجود كظاهرة وقوانين ، ثم تأمل العقائد من خلال معرفة العقيدة ، ومن ثم الوصول إلى الحقيقة . لا .. هذا منطق فلاسفة ، وليس منطق حركة ثورية تريد تجنيد مؤمنين للقيام بتحرير الانسان ، ولذلك يقرعه « محمد بن عبد الوهاب » قائلا : « وهذا خطأ ، وهو من علم الكلام الذي أجمع السلف على ذمه — وإنما الذي أتت به الرسل هو أن أول واجب هو التوحيد وليس النظر في الوجود ، ولا معرفة العقيدة ، كما ذكرته أنت في الأوراق » .[٢]

وقد صدم « محمد بن عبد الوهاب » معاصريه ، باخلاصه ، وفهمه الكامل لمعنى

---

* وقد سمي كذلك نسبة إلى والدته وهي السيدة تيمية وكانت عالمة .. ولعل ذلك يعطي فكرة أخرى عن موقف السلفيين من المرأة ومساهمتها في الحياة العامة ، والتشرف بالنسبة إليها ..

التوحيد ، الأمر الذي قاده ، إلى محاولة تطهير الفكر الاسلامي والسلوك الاسلامي ، من الشوائب التي لحقت بهما ، ولم يكتف بالتصدي لعبادة « شمسان » أو الأحجار والأخشاب ، بل كان لديه من الشجاعة والوعي ، مع دفعه إلى التصدي لما نسب إلى رسول الله ، صلوات الله عليه ، من صفات او قدرات ، يتنزه عنها الاسلام ، وقد حرص القرآن على تأكيد بشريته ، على نحو عجزت العقلية الغربية عن فهمه ، وهي ـ أي تلك العقلية ـ التي حملت حتى اليوم ، تراث الرجال ـ الآلهة ، من فلسفة الاغريق . ولذلك فهم يسمون المسلمين : « محمديين » . وقد أشار أكثر من محلل ، إلى أن التطور الذي حدث في تصور المسلمين لشخصية الرسول ، كان من تأثير الفلسفة والممارسة المسيحية ، في الأجيال المسلمة ، التي بعدت عن شموخ الدعوة وسموها وبساطتها في نفس الوقت . وكما قلنا ، فان العقل البشري القديم العهد بالوثنية ، أقرب إلى قبول فكرة الا له المتجسد في شخص انسان ، لأن صورة الانسان أسهل في التخيل والتصور ، والتعامل ، وأسهل في الاستدعاء والحضور عند الحاجة ، أو حتى للتعبير عن الحب والايمان ، من تلك « الماهية » غير المحددة الصورة ، أو المكان التي يؤمن بها العقل الاسلامي ..

ومن المعروف أن المسيحي ، يذكر المسيح في يومه مائة مرة ، وقد لا يذكر الله مرة واحدة .. وهو إذا دعا أو اشتكى أو حتى تعثر في طريقه يهتف « يامسيح » ! ولا يقول يارب ! ..

ولذا ما كان « محمد بن عبد الوهاب » ليكون صادقا مع نفسه إذا ما انتقد التشفع ببنت الأمير أو الشجرة ، وسكت على التشفع برسول الله ، أو نسبة خصائص غير بشرية إليه ... ومن هنا كان استنكاره لقول البوصيري في البردة :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
ان لم تكن في معادي آخذا بيدي فضلا ، وإلا فقل يازلـة القدم !
ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا الموقف « الوهابي » هو الموقف الصحيح إسلاميا ، فرسول الله قال لفاطمة إنه لا يملك لها من الله شيئا ، فما بالك بالبوصيري .

والبوصيري وأمثاله ، قد انطلقوا في هذا السبيل ، للعوامل التي ذكرناها ، أي النزوع البشري لتجسيد الاله ، وتقديس البطل ، وأيضا للخلاف الذي أثاره معاوية والذي أدمى قلوب المسلمين ، وخاصة عندما تحول إلى اضطهاد آل البيت ، حتى أصبح إظهار حب رسول الله والتغني بصفاته التي أنعم الله بها عليه ، والتي نزهه عنها ، تعبيرا عن ألم الضمير المسلم لما ينزل بأهله من ضيم وظلم .

وهذا العامل قد اختفى ، فلم يعد هناك أمويون أو عباسيون يضطهدون آل البيت رضوان الله عليهم ، ووافق « محمد بن عبد الوهاب » على حقوق « الأشراف » وتميزهم بلبس اللون الأخضر ، لأنها عادة « أحدثت قديما تمييزاً لأهل البيت ، لئلا

يظلمهم أحد ، ويقصر في حقهم من لا يعرفهم .* وقد أوجب الله لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على الناس حقوقا ، فلا يجوز لمسلم أن يسقط حقهم ، ويظن أنه من التوحيد ، بل هو من الغلو » .[٣]

فهو ليس ضد اكرام واحترام أهل البيت ، ولكنه ضد ادعاء أي صفة ميتافيزيقية ، غير بشرية لرسول الله أو آله ، أي مشاركة لله سبحانه وتعالى في ادارة الكون ، وتوجيه أحداثه أو التحكم في قوانينه ، فهو ضد : « الاعتقاد في الأنبياء أو الأولياء الصالحين ، وجعلهم وسائط بينه وبين الله ، ومثل الطيران في الهواء ، والمشي على الماء »[٤] وهو بالطبع ضد أي دعوى بالحق الالهي للأشراف في الحكم ، أو العصمة لأحد منهم .

وقد اصطدم الوهابيون بسبب هذا الموقف بمؤسسات كاملة ، سبقت ظهورهم بقرون وهي الطرق الصوفية ، ومحترفي تجارة الولاية والكرامات ، ومستثمري قبور الأولياء والصالحين ، كما اصطدموا مع العادات المتأصلة في المجتمعات الزراعية ، وهي عبادة الموتى ، وإبراز القبور . وأيضا اصطدموا بالشيعة . وهذه القضية ، وأعني موقفهم من الشيعة ، قد تعرضت لتشويه كبير ، ضمن سياسة تطويق الحركة الوهابية والسعودية ، أو بفعل الاستسهال في التحليل والنقل . فالهجوم على البصرة وكربلاء ، لم يكن موجها ضد الشيعة ، وإن أصاب الشيعة منه الضرر الكبير ، ولا هدم الوهابيون قبور آل البيت وحدهم ، بل إن أبرز قبرين هدما في الغزوتين هما قبرا طلحة والزبير ، وهما ـ رضي الله عنهما ـ ليسا بأثيرين عند الشيعة !

لقد كان « محمد بن عبد الوهاب » شديد الحرص على توضيح أنه يخص الرافضة : « إن أول من أدخل الشرك في هذه الأمة ، هم الرافضة الذين يدعون عليا وغيره ، ويطلبون منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات » .[٥]

« الرافضة من أبعد الناس عن هذا المذهب وأهله »[٦] .

« والغلو في عدي بن مسافر أو غيره ، بل الغلو في علي بن أبي طالب ، بل الغلو في المسيح ونحوه . فكل من غلا في نبي ، أو صحابي ، أو رجل صالح ، وجعل فيه نوعا من الألوهية ، فهذا كافر ، ومن سب الصحابة واقترن بسببه دعوى أن عليا إله أو نبي ، أو أن جبريل غلط ، فلاشك في كفر من توقف في تكفيره » .[٧]

فهو ضد الرافضة ، ولا أظن أن شيعيا من الشيعة الجعفرية أو الامامية ، يخالف الشيخ في حرف مما قاله ، ولا هم يندرجون في دائرة تعريفه ، فهم لا ينسبون ألوهية لسيدنا علي ، ولا يتهمون جبريل بالخطأ ، ومن ثم فكل ما قيل عن عداء الوهابية للشيعة هو من باب الدس ، رغم وجود خلاف بالطبع ، هو الخلاف العام بين السنة والشيعة ـ في بعض التفاصيل ـ حتى وإن اعتبرها الطرفان جوهرية ، وخاصة قضية الامامة .. أما ماعدا ذلك فهو كما قلنا من باب الدس ، ثم من أخطاء المتعصبين غير العارفين

---

* وإن كان الملك عبد العزيز قد رأى أن ثوب الأشراف هو لمن كانت أفعاله أقرب لرسول الله ، فقال للشريف الذي حاربه : « لقد خلعت ثوب جدك ولبسته أنا بأفعالك وأفعالي » .

بالفوارق العميقة التي تميز بين الشيعة المعروفين في مجتمعاتنا ، والذين لاشك في صحة إسلامهم ، بل وفضل بعضهم ، وبين الحركات العديدة المتطرفة التي أطلقت على نفسها أو أطلق عليها تسميات أدرجها البعض في باب التشيع*.. وسنناقش حادثة كربلاء بالتفصيل في موضعها . وإن كان يجدر القول بأن غالبية « المدينة » من أتباع الشيخ ، والأجيال التي تلته لم تفرق ، ولا كان لديها من الثقافة ما يجعلها تفرق فاعتبرت كل شيعي رافضيا ، مما كان له آثاره التعسة ، ولكن ذلك نتيجة من نتائج التخلف وليس من العدل تحميل السعوديين أو الوهابيين مسئوليته .

فالطابع السياسي للحركة الوهابية ، متوفر لمجرد إنتمائها للفكر الاسلامي الصحيح ودعوتها للتوحيد ، ولكن لماذا انفردت هذه الدعوة بذلك الأثر السياسي وتميزت عن الدعوات السلفية التي سبقتها أو تلتها ، مع أن الفكر التوحيدي ، ورفض الأولياء أو التمسح بالقبور ، آراء موجودة ـ كما قلنا ـ في الفكر الاسلامي ، وأشار إليها ودافع عنها أكثر من عالم في كل قرن وفي أكثر من بلد ، ودعوة التوحيد التي نادى بها الشيخ تقبلها العلماء في شتى بلدان العالم الاسلامي ، أو قل لم يستطع أحد منهم ان يرفضها ، بل على العكس ركز خصومها على اتهامها بأنه « لا جديد فيها » واهتموا بمناقشة الشكليات ، وافتراء الاتهامات ، بينما أعلن أكثر من عالم وفقيه أو حتى مستشرق ، انطباقها على مبادىء الاسلام الصحيحة .

وقد كان ابن سند صادقا ، وسيء النية في نفس الوقت ، عندما قال : « إن خطاب « سعود » في مكة لم يأت بجديد لا يعرفه عوام أهل مكة » .

كذلك ذهب ابن بشر إلى أن الشريف غالب ، وافق على أفكار الشيخ لولا أن الحاشية حذرته بأن الوهابيين إنما يريدون ملكه وليس ضميره ، « فارتعش قلبه وطار »[٩] .

ومحمد بن عبد الوهاب ، اهتم اهتماما كبيرا ، هو وورثته من بعده ، بتأكيد أنه لا جديد في دعوته ، وأنه لم يأت بمذهب خامس** ، وهذا صحيح بالطبع ، وإن كان الحرص على نفي تهمة المذهب الخامس « أمر مبالغ فيه ، لأن المذاهب في حد ذاتها ، ليست أديانا منزلة ، وإنما هي اجتهادات » « وهم رجال ونحن رجال » ..

لقد ظل هذا الحرص على نفي شبهة المذهبية الجديدة ، يلازم رجال الحركة ، في

---

* وفي رسالة إلى عبد الله بن سحيم نجده يحدد الفرق الشيعية التي يعاديها وهي : « غلاة الرافضة الذين حرقهم علي ، وكذلك الذين يقذفون عائشة ويكذبون القرآن . وكذلك الذين يزعمون أن جبريل غلط ، وغير هؤلاء ممن أجمع العلماء على كفرهم » .[٨]

** وبعدما يقرب من قرن ونصف قرن من وفاة الشيخ سيجد الملك عبد العزيز نفسه مضطرا للتأكيد على أن : « عقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ، وما كان عليه السلف الصالح ، ونحن نحترم الأئمة الأربعة ، ولا فرق عندنا بين الأئمة : مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة ، وكلهم محترمون في نظرنا »

(٢٠ ذي القعدة ١٣٥١ ـ مارس ١٩٣٣)

المسجد والدولة . إلى حد اتقاء كلمة « الوهابية » والاصرار على أن « محمد بن عبد الوهاب » ليس أكثر من تلميذ أو فقيه من فقهاء المذهب الحنبلي « المعترف » به ؟ فلماذا انفرد هو بذلك الأثر الذي أحدثه ، وبتلك القدرة على تفجير طاقات غيرت تاريخ المنطقة ؟

هنا ننتقل إلى الشق الثاني ، العنصر الذاتي في الدعوة ، فنقول إنه عنصر « الحركية » : فقد خلق « محمد بن عبد الوهاب » « حركة » وليست مذهبا أو فلسفة . وانفرد قادة البيت السعودي بادراك عنصر الحركية هذا فتبنوه ونموه ، وهكذا أصبحت دعوة « محمد بن عبد الوهاب » حركة رفض وبعث وتجديد .. حركة تحرير ، فهو لم يكتب بحثا فكريا في التوحيد ، بل أصدر بيانا طرحه للمناقشة والجدل ، بكل عنف وإصرار بل وإلحاح الحركات العقائدية ، ففجر أطر المجتمع من حوله .

الحركة الوهابية ، هي حركة أيدلوجية فيها كل العنف الفكري ، الذي هو في الحقيقة ، تعبير عن الرفض الشامل للواقعين الاجتماعي والسياسي ، وكل الحركات الأيدلوجية ، ذات المضمون السياسي والاجتماعي ، تبدأ بطرح قفاز الجدل ، وتدعو خصومها لمقارعة الحجة بالحجة ، وهي إذ ترفض واقعهم ، وتتحدى تفكيرهم الموروث ، ونمط حياتهم ، وتسخر من منطقهم ، إنما تستفزهم للاحتكام إلى السيف ، أو السلطة ، فتصبح المقاومة أو الثورة مشروعة .. بل ودفاعا عن حرية الجدل ! ..

فتحرش « الشيخ » بمعاصريه من العلماء ، أو الفكر الرسمي السائد واضح ، واستفزازهم* للجدل يلاحظ في معظم رسائله .

« وهذا الكتاب لا تكتمه عن صاحب الكتاب ، بل أعرضه عليه ، فان تاب وأقر** ورجع إلى الله فعسى ، وإن زعم أن له حجة ، ولو في كلمة واحدة ، أو أن في كلامي مجازفة ، فاطلب الدليل ، فان أشكل شيء عليك فراجعني فيه حتى تعرف كلامي وكلامه » .[10]

وهذا التصدي للقيادات الفكرية التقليدية ، والاستعلاء عليها صفة أساسية في الحركات العقائدية التي تريد قلب هذه القيادات والنفاذ إلى العامة ، أو تحرير العامة من سيطرة القيادات التقليدية ، ونلمس هذا الاستعلاء أو الزهو الحركي في قوله : « فمن زعم من علماء « العارض » أنه عرف معنى « لا إله إلا الله » أو عرف معنى الاسلام قبل هذا الوقت أو زعم عن مشايخه عن أحد عرف ذلك ، فقد كذب ، وافترى ،

---

* وتلاحظ « حنبلية » الحركة ، وهي ظاهرة معروفة في كل الحركات الثورية العقائدية ، في رفضه مثلا قول كاتب الرسالة له : « لا أراك الله مكروها » فاعلم أن هذه الكلمة تضاد التوحيد ، لأن التوحيد لا يعرفه إلا من عرف الجاهلية ، والجاهلية هي المكروه فمن لم يعلم المكروه لم يعلم الحق ، فمعناها « لا علمت خيرا فهى جملة عامية جاهلة ولا ينبغي لأهل العلم أن يقتدوا بالجهال » . من رسالته إلى ابن عباد .

** رسالته إلى عبد الله بن سحيم .

ولبس على الناس ، ومدح نفسه بما ليس فيه . فاتقوا الله عباد الله ولا تكبروا على ربكم ولا نبيكم ، واحمدوه سبحانه الذي من عليكم ، ويسر لكم من يعرفكم بدين نبيكم صلى الله عليه وسلم ».[١١]

لابد لمن يريد تحريك الجماهير للثورة وخلع النظام المتوارث من إعلان ، بل الزهو ، باكتشافه للحقيقة ، وتأكيد أنه هو وحده يطرح التفسير الوحيد الصحيح لهذه الحقيقة ! وإذا كانت القيادات الفكرية في عصور الانحطاط قد حرصت على أن يكون فكرها للخاصة ، فان ما تميز به « محمد بن عبد الوهاب » كقائد حركي ، هو حرصه على الوصول للعامة ، ووضعه هؤلاء العامة في تناقض مع قياداتهم ، بجر هذه القيادات إلى معارك استطاع بها أن يشكك العامة في صوابيتهم ، ووضع نفسه وحركته فوق كل القيادات المعاصرة ، باعلان أنه وحده وحركته ، يمتلكان المعرفة والصوابية ، وألزم هذه القيادات بالاعتراف بخطأ ممارساتها ، وصدق ما يدعو إليه . « فلا ينكر هذا إلا أعمى القلب ».[١٢] فكان من الطبيعي أن يتساءل العامة : « إذا كان هذا هو الحق ، فلأي شيء لم تنهونا عن عبادة « شمسان » وأمثاله ، فتعذروا : إنكم ما سألتمونا ! .. قالوا : وإن لم نسألكم ؟ كيف نشرك بالله عندكم ولا تنصحونا ؟ » ولا شك أن هذا الحوار بين العامة والقيادات ، واعتراف أو اعتذار القيادات ينسف شرعيتها ويسقط كل ثقة في علمها وإخلاصها ..

والشيخ لا يكتب أبحاثا فقهية ، تناقش في مجالس الخاصة والعلماء ، بل منشورات ، ويخلق حول توزيعها الخلايا الحركية : « فهذا الكتاب كل أهل بلد ينسخون منه نسخة ويجعلونها عندهم ، ثم يرسلونه »[١٣] وهو حريص على قراءة الفكر السائد ، فيطلب الكتب من الأمصار ،* وهي أول ما يبحث عنه هو وتلاميذه ، عندما يفتحون بلدا ، أو حتى وهم في المنافي ، ليستفيد منها ويرد عليها وهو قارىء ممتاز ، ألم بمعظم الفكر الديني المتاح في عصره ،** يقرأ ويرد حتى في الليل وعلى السراج ، ولا ينتظر إلى الصباح ، لكي لا يبيت داعيته في شك أو يتعرض لغسيل مخ من الخصوم.***

وإذا كان من الخطأ الفاحش الحديث عن « محمد بن عبد الوهاب » وكأنه المهدي المنتظر أو عقد مقارنات مفتعلة بين تاريخه وتاريخ الرسول صلوات الله عليه !****

---

* « وتعرف حرصي على الكتب ».[١٤]

** وفي رسائله عبارات تدل على قراءات في المنطق مثل وصفه أحد معارضيه « بأنه جاهل الجهل المركب » (سليمان بن سحيم) .

*** « هذا ما تيسر كتابته عجلا على السراج في الليل ».[١٥]

**** مثل البدء في الحديث عنه باستعراض سيرة الرسول لخلق مطابقة (أنظر أمين سعيد ص ٣٨/٣٩) أو تسمية تاريخه « سيرة » الامام محمد بن عبد الوهاب . والسيرة لفظ اختص به تاريخ الرسول صلوات الله عليه .

فمن الخطأ أيضا تصور عبد الوهاب ، داعية إلى التمسك بكل تراث الأسلاف ، أو أنه كان ضد الاجتهاد ، باعتباره كان ضد « البدع » ، وكانت أشنع تهمة يوجهها الوهابيون لخصومهم هي « الابتداع » .. إلا أنه كقائد حركة ثورية ، رفض منطق التخلف الذي ساد عصره ، ومنطق العجز الذي أقفل باب الاجتهاد .

ورغم كل ما يقال عن قفل باب الاجتهاد ، فان حقيقة موقف العلماء من هذه القضية ، يشوبه الغموض والتشويه الاستشراقي الجاهل أو المغرض .. أو المتعمد ، ذلك أن العلماء يعرفون أن الاجتهاد خاصية تفرد بها الاسلام عن كل الأديان ، بل وعن كثير من الحركات الفكرية غير المنزلة ، وما من دين ، ولا مذهب فكري معاصر ، سوى الاسلام ، يفرض أجرا للمجتهد المخطىء ، فهو يثيب على الخطأ ، مع أن أقصى ما وصلت إليه الدعوة الليبرالية في مطالبها هو المناداة « بحق الخطأ » لضمان حرية الفكر وعدم المعاقبة على الاجتهادات الخاطئة ، أما الاسلام فقد تجاوز ذلك في تحريضه على حرية التفكير ، وحمايته لهذه الحرية ، فقرر مكافأة المجتهد المخطيء !

ولكن الاجتهاد أي التشريع للناس على ضوء القرآن والسنة ، يتطلب عدة شروط منها حرية المجتهد ، فلا اجتهاد ولا فكر لمن لا يملك حرية القول ، حرية المعارضة . فلما تولى السلطة حكام لا يحترمون المباديء الأساسية للفكر الاسلامي ، ولا يؤمنون بحق المعارضة ، واستطاعوا بالمال والسيف ، تطويع بعض المتفقهين لاصدار فتاوى تسبغ الشرعية على نزواتهم وشهواتهم ، أو حتى اجتهاداتهم كحكام ، وعجزت الأمة عن أن تطبق عليهم دعوة عمر بن الخطاب : « من لي برعية إذا انحرف فيهم الحاكم قتلوه .. » قيل : « هلا قلت خلعوه يا أمير المؤمنين ! قال لا .. القتل أنكل لمن بعده » .. ! عندما نسي معنى الجهاد وأصيبت المجتمعات الاسلامية بأعراض التحلل أو التقدم الحضاري ، وانقسم المجتمع إلى مدنيين وعسكريين ، بل وقامت السلطة على السيف الذي يحتكره حديثو عهد بالاسلام غرباء على الروح العربية ، والفهم العربي ، عندها لجأ العلماء المخلصون ، إلى وسيلة العاجز وهي « سد الذريعة » باعلان قفل باب الاجتهاد ، لكي يمنعوا السلطة المستبدة من إجبارهم على مخالفة ضميرهم ، ويمنعوا الفقهاء المنافقين من « تحليل » ظلم السلطة وفجورها .. فقفل باب الاجتهاد ، في البداية ، لم يكن دعوة رجعية ، كما صورها المستشرقون ، والتابعون لهم بجهالة ، بل كان إحدى صور الرفض السلبي . أما العامة فقد ذهبوا إلى القول بأنهم بسبب تخلفهم وجهلهم ، لا يستطيعون فهم القرآن ، ولا التعامل مع المنابع الأصيلة للفكر الاسلامي ، بل لابد لهم من شروح المختصين ، أو اللجوء إلى « شيوخهم » ليرشدوهم إلى الحلال والحرام ، ويعفونهم من مخاطر الخوض في العقيدة والفلسفة ...

وقد رفض محمد بن عبد الوهاب التبريرين ، أولا لأنه طرح دعوته بالمفهوم الاسلامي الأصيل ، وهو اعتبار « الجهاد » بديهية ، لا يمكن تصور دعوة إسلامية بدونه .. ومن هنا فقد حرر نفسه من خوف السلطة ، فكان من حقه أن يجتهد .. ورفض قولهم : « القرآن لا يجوز العمل به لنا ولأمثالنا ولا بكلام الرسول ، ولا بكلام

المتقدمين ولا نطيع إلا ما ذكره المتأخرون » ،* « فجزمتم أنه لا ينتفع بكلام الله وكلام رسوله إلا المجتهد ، معترفين بالعجز عن ذلك ».**

فهو لا يقتصر على رفض قدسية فكر المتأخرين وحدهم ، بل ويدعو إلى حرية المناقشة حتى لفكر الائمة الأربعة ، وهو في ذلك أقرب فهما ليس فقط إلى روح الاسلام وتعاليمه التي رفضت الكهنوت ، وأعطت بل حضت كل مسلم على أن يقرأ القرآن ويتفقه في الدين ورفضت قيام كنيسة أو كنيس ، يتولى فيه الحبر الأعظم ، وحده ، تفسير أو تحديد الحق المطلق ، بل إنه أيضا أقرب لفهم وتعاليم هؤلاء الأئمة الذين دعا الناس لمناقشتهم ، ورفض ما قد يتعارض من تعاليم تلاميذهم مع القرآن والسنة .. فالامام أحمد بن حنبل « لما رأى بعضهم يكتب كلامه أنكر عليه ، وقال تكتب رأيا لعلي قد أرجع عنه غدا .. اطلب العلم كما طلبناه »

كل مسلم عالم ، وكل مسلم فقيه ، أو بالأحرى كل مسلم مطالب بأن يكون كذلك « فاذا كان هذا كلام أحمد (بن حنبل) في كتب نتمنى الآن أن نراها ، فكيف بكتب قد أقر أهلها على أنفسهم أنهم ليسوا من أهل العلم .. ولعل بعضهم مات وهو لا يعرف ما دين الاسلام الذي بعث الله به رسوله ».[١٦]

« فاذا قال جاهل هل أنت أعلم بالحديث من الشافعي ؟ قلت أنا لم أخالف الشافعي من غير إمام اتبعته . بل اتبعت من هو مثل الشافعي أو أعلم منه ».[١٧]

« ولا خلاف بيني وبينكم ، إن أهل العلم إذا أجمعوا وجب إتباعهم ، وإنما الشأن إذا اختلفوا ، هل يجب علي أن أقبل الحق ممن جاء به ، وأرد المسألة إلى الله ورسوله مقتديا بأهل العلم ، أو أنتحل بعضهم ، من غير حجة ، وأزعم أن الصواب قوله ».[١٨]

فهو لا يدعو « إلى مذهب صوفي ، أو فقيه ، أو متكلم ، أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم » ، « أدعو إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التي أوصى بها أمته وآخرهم ، وأرجو أني لا أرد الحق إذا أتاني بل أشهد الله وملائكته وجميع خلقه . إن أتانا منكم كلمة من الحق ، لأقبلنها على الرأس والعين ولأضربن الجدار بكل ما خالفها من أقوال الحمقى » .

ولكنه كثوري يرفض القول بأن الحق مع الأغلبية دائما ، لأن الثورة تبدأ أقلية ، والتاريخ كتبه هذا الفرد الشاذ الذي يأخذ مسارا مخالفا للاتجاه العام . ولذا فهو يقول : « ولعلك تنجو من الهوة الكبيرة التي هلك فيها أكثر الناس ، وهي الاقتداء بالأكثر وبالسواد والنفرة من الأقل » وذلك في تفسيره لحديث « فطوبى للغرباء » « أي الذين يصلحون عند فساد الناس » .[١٩] فالشاذ عنده هو « ما » خالف الحق ، وليس « من » أو « ما » خالف الاغلبية . وبدلا من القول بشعار « الرجل القوي أغلبية » أو « الأغلبية التاريخية » كما يقول النازيون والشيوعيون ، يقول ابن عبد الوهاب منذ ما

---

* كتابه إلى شريف مكة أحمد بن سعيد ١١٨٢

** رسالة إلى الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف من علماء الحسا

يزيد على القرنين إن الحق هو الاغلبية والجماعة :

« فان كان الناس كلهم على باطل إلا واحداً فهم الشاذون . وقد شذ الناس كلهم في زمن أحمد بن حنبل إلا نفرا يسيرا فكانوا هم الجماعة ، وكانت القضاة يومئذ والمفتون والخليفة واتباعهم كلهم الشاذون وكان الامام وحده هو الجماعة . ولما لم تحمل عقول الناس ذلك . قالوا للخليفة يا أمير المؤمنين : أتكون أنت وقضاتك وولاتك والفقهاء والمفتون على باطل وأحمد وحده على حق ؟ فلم يتسع علمه لذلك فأخذه بالسياط والعقوبة » .

وهكذا فتح الشيخ باب الاجتهاد على مصراعيه ، وكتب إلى الشريف غالب يقول : « فان كانت المسألة إجماعا فلا كلام ، وإن كانت مسألة اجتهاد ، فمعلومكم أنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد » .

لا شك أنه كان أكثر تقدمية وانفتاحا من المتكلم عن شيوخ مكة ، بل وأكثر قربا لروح الاسلام في الحوار المشهور بين علماء الوهابية وعلماء مكة . فقد قال الشيخ الحنفي المذهب ، أنا لا أقبل إلا ما قاله إمامي أبو حنيفة لأنني مقلد له فيما قاله ، ولا أقبل أن تقول لي قال الرسول أو قال ذو الجلالة ، لأن أبا حنيفة أعلم مني ومنك بقولهما* » !

وهكذا نرى أننا نظلم الشيخ ونظلم دعوته ، بل نظلم السلفية والسلفيين عندما نتحدث عنهم بالمفهوم السوقي الشائع ، بينما فلسفته وتاريخه وما ترتب على دعوته ، يؤكد أنها كانت ثورة على الواقع ، دعوة للرفض ، دعوة لتحرير الانسان المسلم ، بتحرير الفكر الاسلامي ، وإسقاط الكهنوتية عن كل الفكر البشري في عصره ، بل وما سبقه من عصور ... دعوة للتحرر من التخلف الذي أخفى جوهر الدعوة الاسلامية .**

ولقد قلنا مرة إن السلفية هي الثورة الأصيلة ، لأن الثورة في حقيقتها هي رفض الواقع لأنه غير جدير بميراث الأجداد ، أما الذين يبدأون برفض أجدادهم ، والتسليم بأن تاريخهم كان خطأ أو عارا ، وأن التاريخ هو قاطرة تسير دائما للأمام ، فحاضرهم أفضل من ماضيهم لا لشيء إلا لأنه جاء بعده في الزمن ، فهم لا يثورون ، وثوريتهم كاذبة ، لأنها بلا أصول بلا تاريخ تعتز به وتدعو الجماهير إلى الارتفاع لمستواه ..

فالثورة تبدأ بالاعتزاز بالتراث ، وجعله قاعدة البناء الحضاري المطلوب ، لاهدمه ، ولا النوم تحت أنقاضه .

---

* وإن كان لم يقع في الخطأ الذي ارتكبه من قلدوه ، فهو لم يزعم بامكانية ظهور جيل صحابة ، بل قال: إنه لا يلزم أن يفهم المسلم المعاصر كلام الله ورسوله مثل فهم أبي بكر رضي الله عنه ، ولكنه دعا إلى العودة إلى الينابيع وتخطي فكر عصور الانحطاط والتخلف .

** استشهاده بالقول المنسوب إلى حذيفة :

« إن هذا الدين قد استضاء ، استضاءة هذه ، ثم أخذ كفا من تراب ، فجعل يذروه على الحصاة حتى واراها ثم قال : والذي نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفنون هذا الدين كما دفنت هذه الحصاة ».٢٠ أي تحت تراب التخلف والجمود .

والقناعة بامتلاك نظرة جديدة للوجود ، وحقائقه ، أو امتلاك الفكر الصائب ، يخلق شعورا بالتفوق ويعطي رغبة في الاستشهاد لنصرة الحق ، وحماسة لقهر الباطل والتحرش به ، والاصرار على هداية الناس لما فيه صالحهم ، وما يصاحب ذلك من سلوك حفل تاريخ البشرية ، بالانتقادات والاعتذارات عنه ، مما نجده مسجلا في محاورات خصوم وأنصار التحولات التاريخية الحاسمة ، وقد قال الشيخ في إحدى رسائله معترفا : « أنا في بعض الحدة »[21] .

والحق أنها كانت حدة أكثر من المعتاد في الدعاة ، وقد ظلت ملازمة لتلاميذه وحركته ، بل وتضاعفت ، وتفسير ذلك يسير ، فالتحديات التي واجهت الدعوة ، كانت أكبر من الطاقة التي فجرتها ، وأكبر من طاقات المجتمع الذي ظهرت فيه ، وارتبط مصيرها بامكانياته وإذا كانت قد استطاعت أن تبقى حية لأكثر من قرنين ، وأن تستمر في تفجير طاقة الايمان في نفوس بدو نجد طوال هذه السنين ، فذلك دليل أصالتها ، وصدق انتمائها للدعوة التي فجرت في نفس المكان طاقة غيرت مجرى التاريخ إلى ماشاء الله من قرون ، ولكن ظروف القرن الثامن عشر في الجزيرة العربية ، والتفوق الساحق للتكنولوجيا الغربية ، في القرن التاسع عشر ، وتخلف المجتمع النجدي ، وعجزه عن إنجاب جيل كذلك الجيل الذي حمل الدعوة في قرنها الأول . كل هذا زاد من عصبية الداعين ، وزاد من تصلب قشرة الرفض ، وقلصها إلى كثير من الشكليات . مما أدى إلى مصادمات وإحباطات كثيرة سنتعرض لها .

غير أن الشيخ وإن اعترف بالحدة في أسلوبه ، فقد نصح الدعاة : « إن بعض أهل الدين ينكر منكرا وهو مصيب ، لكن يخطىء في تغليظ الأمور إلى شيء يوجب الفرقة بين الاخوان . وأهل العلم يقولون الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يحتاج إلى ثلاث : أن يعرف ما يأمر به وينهي عنه ، ويكون رفيقا فيما يأمر به وينهى عنه ، صابرا على ما جاءه من الأذى »[22] « فلما أغلظوا الكلام صار فيه اختلاف بين أهل الدين فصار فيه مضرة على الدين والدنيا ، والجامع لهذا كله إذا صدر المنكر من أمير أو غيره ينصح برفق ، خفية ، ما يعلم أحد ، فان وافق وإلا أرسل له رجلا يقبل منه خفيه ، فان لم يفعل ، فيمكن الانكار ظاهرا ».*

وهذا بالطبع عن الأمراء الذين انضموا للحركة ، فهو يقر المعارضة الداخلية ، ولكن مع حفظ كرامة السلطة الثورية ، لأن النصيحة العلنية ، قد تتحول إلى مزايدة ، أو تطلع للزعامة ، ومخاطبة غرائز الجماهير ، ولكن مادام الجميع في إطار الطاعة للحركة فالأفضل طبعا نصح الأمير وتنبيهه للخطأ ، على انفراد ، أو النقد الداخلي ، إلا إذا كان القصد هو تجميع رأي عام ضد الأمير !...

---

* وقد أشار الملك عبد العزيز لهذه الفكرة في خطابه بعد فتح الحجاز عندما قال : « من رأى مني شيئا مخالفا ، فليوضحه لي وليرشدني إلى الطريق الحق ، ولكن كما قال « عمر بن الخطاب » لمن أراد أن ينصحه : « فليكن ذلك بيني وبينك » .

وكما أشرنا إلى ارتباط الدين والدنيا في التصور الاسلامي ، فان الشيخ وأنصاره ، بفهمهم هذا التصور ، واستيعابه من منابعه الأصلية ، لم يقم شك في أذهانهم ، ولو لحظة واحدة ، بأن الدعوة تستهدف صلاح الدنيا ، بل إن صلاح الدنيا بالدين هو المدخل لصلاح الآخرة ، فدعوته للايمان بما يطرحه من تفسير ، كانت تعني الاصطدام بالوضع القائم والاسلام هو « التوحيد والجهاد ».. ولذلك كان الحديث منذ اللحظة الأولى عن الفتح والغنيمة ، وامتداد رقعة السلطة بانتشار الدعوة ، « فان كنت تريد الرفعة والجاه ، لك بذلك مالا يحصل بغيره من الأمور بأضعاف مضاعفة »[٢٣] . « لعل الله يفتح عليك الفتوحات ، فيعوضك من الغنائم ما هو خير من الخراج ».[٢٤]

وجميع المصادر تشير إلى أنه لم يكن يعد الأمير بجنات عرضها السموات والأرض ، فهذه وعد بها الرحمن عباده ، وإنما كان يبشر بملك في الدنيا باسم الاسلام وفي خدمة الاسلام، وإن اختلفت الروايات، من «لعل الله يملكك نجدا وأعرابها» أو «الجزيرة العربية وأطرافها » أو « بلاد العرب ».. ولكنها ـ أي الروايات تجمع على أن الدعوة في فهم الداعية ، وفهم المستجيبين ، والمعارضين ، كانت تعني « الخروج » أو السعي لنشرها بنشر سلطان المؤمنين بها ، والشيخ بدأ ظهوره العلني بممارسة أعمال السلطة ، من هدم القباب ، وقطع الاشجار ، بل ورجم الزانية... وكان ينتزع الاعتراف بقيادته عندما يطلب من الأمراء مبايعته . ومن ثم كان الصدام مع السلطات القائمة محتوما . ومع أن السلطان العثماني كان بعيدا عن نجد ، ليس له فيها أكثر من وجود اسمي ، إلا أن الصدام معه كان قضية وقت ليس إلا .. فهو أمير المؤمنين وسلطان المسلمين ، وحامي العقيدة ، وهو يمثل ويعتمد على نظام يقوم على كل ما يعارضه الشيخ ابن عبد الوهاب ، وهو ـ أي السلطان ـ المسئول نظريا ، والمهتم بالطبع ، ببقاء الأوضاع السياسية في الجزيرة على ما هي عليه ، ومنع أية محاولة للتغيير ، خاصة إذا اتخذت شكل الدعوة العامة ، دعوة لا تتقيد بمطالب أسرية أو قبلية أو إقليمية ، بل يوجه أصحابها البيانات والمنشورات للمسئولين بلا تمييز . ولذلك فمن السذاجة القول بأن السلطان لم يكن ليصطدم بآل سعود ، إذا لم يتحرشوا به ، برسالة سعود الشهيرة ، وبمنع حج القافلة التي كانت أم السلطان فيها ، على ما قيل .. بل كان ـ في رأي أصحاب هذا القول ـ سيبارك استيلاء السعوديين على الحجاز ! وهذه الفرضية ، تجرد الوهابية، والبيت السعودي، من أية رسالة، وتجعل تاريخهما مجرد مغامرة لجماعة ساعية للسلطة أخطأت التكتيك !

فالحركة الوهابية ، والدولة السعودية كانتا تحديا للسلطنة ، وللدولة العثمانية ، إذ كانتا تعبيرا عن المقاومة العربية ، بشكل خاص ، ومقاومة الشرق بشكل عام ، للمصير الذي كان ينحدر إليه الشرق والمسلمون أمام تفوق أوروبا ، هذا المصير الذي اشتركت في صنعه عوامل عديدة ، وعبر قرون سابقة على ظهور الدولة العثمانية ، ولكن مسئوليته في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، كانت تتمثل في فساد وعجز السلطنة العثمانية ، باعتبارها قد حملت مسئولية الدفاع عن الجزء الأكبر من

العالم الاسلامي ، وكل العالم العربي تقريبا ، باستثناء المغرب ، ولكن هذه السلطنة فشلت فشلا مزريا في حمل هذه الرسالة ، بل وتحولت الى « ثلاجة » تحتفظ فيها أوروبا الصليبية ، بالدول ، أو الشعوب العربية والاسلامية ، مجمدة محنطة ، بعيدة عن متناول أيدي المنافسين الاوربيين ، أو المصلحين من أبنائها ،حتى يحين الوقت ، فتلتهم منها الدول الاوروبية ، ما شاءت ، تحت سمع وبصر ، وأخيرا مباركة الدولة العثمانية أو الدولة الحارسة ، التي تكررت مهزلة منحها « الاستقلال » للدولة الاسلامية أو العربية عندما يتم احتلال هذا البلد بقوات الغرب المسيحي ، أي في لحظة الفقدان التام للاستقلال ، وبعد أن يكون الحكم العثماني قد سلبها القدرة ، أو حتى « حق » مقاومة هذا الاحتلال !

فكل تحرك لبناء قوة ذاتية عربية ــ إسلامية ، هو تحرك مضاد للاتجاه الأوروبي ، الذي كان يهدف لابقاء التخلف الاسلامي ، كقاعدة لازدهار ونمو وتوسع الحضارة الأوروبية القائمة على استعمار الشرق ، باعتبار أن الاسلام كان الطرف المعني في الشرق ، ومركز المقاومة الوطنية التي يحسب حسابها ، ورغم أن الدولة العثمانية ، كانت هي المستهدفة بهذا المخطط ، إلا أنها كانت تشكل العنصر الأساسي في فرض هذا التخلف واستمراره ، لذا فان محاولة بناء القوة الذاتية ، كانت تصطدم بالسلطة العثمانية أولا ... ومن ثم كان لا بد لمن أراد مواجهة أوروبا ، أن يحطم القشرة العثمانية المتخلفة ، قبل أن يتمكن من بناء قوة ذاتية تحمي أرض الاسلام . تماما كما كان على أوروبا ، أن تنفذ من هذه القشرة العثمانية ، لتنتزع الدول الاسلامية ، واحدة بعد الأخرى، فكان المسلم الوطني «ثائرا» على «الدولة» والاستعماري الصليبي «معاديا» للدولة ! وهذه الازدواجية ، أو الدور المعقد للدولة العثمانية ، وعلاقتها بالدول العربية ، هو الذي فرض التناقض المأساوي على حركات البعث في الامبراطورية ، وهو الذي فرض على معظم القيادات المخلصة ، مواقف متناقضة حائرة ، وأتاح المجال لاطلاق شتى الاتهامات والافتراضات . وأدى إلى إختلاف الوطنيين ، وخاصة ابتداء من النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، حول طبيعة الانقاذ المطلوب ؛ هل يكون بتقوية الرابطة العثمانية ، باعتبارها الدولة الاسلامية الكبرى ، والوحيدة المعترف باستقلالها ، وعالميتها ، وحرمة ممتلكاتها ولو شكليا ؟ أم المبادرة بالخروج من أسر تخلفها وعجزها ، وحمل مسئولية المصير على النطاق الاقليمي أو القومي ؟! أو حتى بتصحيح الوضع الاسلامي كله ، بتنفيذ قانون ابن خلدون بنقل الخلافة للأقدر على حماية بيضة الاسلام ؟!..

ومن هو ؟...

هذا الخلاف ــ الذي سيظل قائما إلى أن يعلن الأتراك استقالتهم من المهمة وخروجهم من دائرة المتحاورين نهائيا ، بالغاء الخلافة ، واعتزال الاسلام ــ لم يكن بارزا في عصر الوهابية الاولى ، بل كانت الحقيقة التي تفرض نفسها على العرب ، هي عجز الدولة العثمانية عن حمايتهم ، وعجزها عن تخطي منحدر التخلف ، بينما كان

هذا التخطي ممكنا وقتها لأن الفارق التكنولوجي لم يكن قد وصل إلى فارق نوعي كهذا الذي نراه اليوم . وقد استطاعت اليابان بتوفر النية والولاء القومي ، والاعتزاز بالدين القومي ، والقيادة الصالحة ، استطاعت أن تتخطى هذا الحاجز ، وتنضم إلى نادي الدول الصناعية القادرة على حماية سيادتها ، واستطاعت روسيا رغم تخلفها بالاعتماد على الضخامة العددية والمساحة ، وتوفر قيادة مخلصة ، مهما كانت عيوبها ، استطاعت أن تستثمر التدين الوطني الروسي في حماية سلامة أراضيها ، ثم التوسع على حساب أراضي المسلمين ، الذين بقوا وحدهم نهبا مشاعا ، يتدهورون إلي حضيض التخلف والضياع ... والسبب ـ كما يراه الجميع ـ هو تخلف الدولة العثمانية ، ومن ثم كانت الثورة عليها مشروعة ومطلوبة ، إذا ما كانت منبعثة من قوة ذاتية ، وبهدف بناء هذه القوة لحماية الوطن والاسلام .

فالدولة السعودية ، أو الثورة الوهابية كانت ضد التخلف العثماني ، كانت محاولة للافلات من السفينة العثمانية الغارقة ، والتي لم يبق بها إلا طابور انكشاري يعترض طريق كل من يحاول سد خروق السفينة .

ولقد وصف المؤرخ « توينبي » الكارثة التي كانت تواجه العالم الاسلامي فقال : « في أقل من قرن ، لم يقتصر الأمر على الاحداق بالعالم الاسلامي ، بل أمكن تطويقه تماما ، ووضع الطوق حول رقبة الفريسة ... وانقض الجانبان أوروبا الغربية وروسيا على فريسة عاجزة عجزا واضحا .. وبالنسبة للجانب الاسلامي ، أصبح الموقف هو محاولة الافلات من ذلك المأزق العصيب ». وصحيح أن الانتفاضة العثمانية، قد صدت الغزوة الأوروبية ، وأبقتها أكثر من ثلاثة قرون بعيدة عن العالم العربي ، أو قلب العالم الاسلامي ، إلا أنها كانت انتفاضة عسكرية ، وليست بعثا حضاريا ، إنتصرت فيها روح الجهاد الاسلامية ، ولم تنتصر روحه الحضارية ، بل ربما كانت هذه الانتفاضة ، هي عامل من أهم عوامل الهزيمة الشاملة ، فقد أخفت حقيقة وخطورة التحدي ، بل أعطت إطمئنانا كاذبا ، وخدرا لذيذا لأمة كانت تغالب النعاس ، فزعة من هجمات الأوروبيين ، فجاء النصر العثماني ، يغريها بالنوم ، فأمة محمد بخير ، وادعوا للسلطان بالنصر فقد رد العثمانيون ، البرابرة الفرنجة ، على أعقابهم . ومن ثم زال الشعور بالتحدي في ذات الوقت الذي وصل فيه التحدي إلى ذروته ، ودخل أخطر مراحله . وضع المسلمون مصيرهم في يد الأستانة ، وأعتبروا الدفاع عن أرضهم مسئولية الدولة التي كانت أول دولة إسلامية ، منذ العصر العباسي الأول ، تحاول أن تحكم بشكل أقرب ما يكون للمركزية ، أو بصيغة الامبراطوريات الحديثة .. ونسى المسلمون العثمانيون ، العالم الاسلامي الهائل خارج نطاق السلطنة ، ووقفوا متفرجين غير معنيين ، ومماللكه وشعوبه تتساقط واحدة بعد الأخرى في قبضة العدو ، حتى أحكم الطوق ، ودب الوهن في القلب ، وتعفن الجهاز العثماني ، بينما زادت اتكالية الشعوب العربية ، فقد عزلهم العثمانيون عن مهام الدفاع أو البناء الحضاري ، واكتفوا منهم بقراءة البخاري لنصر الاسطول العثماني ، وتمويل الخزينة المثقوبة ، والصبر على

فسوق جند السلطان وفحش ولاته ... فلما بدأ غزو الوطن العربي ، واستصرخ العرب السلطنة ، اكتشفوا أنها أعجز من أن ترد هذا التحدي ،بل واكتشفوا أنها أصبحت القيد الذي يشل قدرتهم على المقاومة ، ويسهل الغزو الأجنبي .

لقد عجزت الدولة العثمانية ، عن تمثل القيم الحضارية للاسلام ، وربما لأن مفتي السلطان سليم ، غلبت عليه عصبيته التركية ، فأفتى برفض اقتراح السلطان ـ بعد أن فتح العالم العربي ـ بتعريب الدولة ، ولم تكن هناك أية خلفية حضارية أو ثقافية باللغة التركية ، وسد المفتي الطريق على استيعاب التراث العربي . واندفع العثمانيون في غزو أوروبا ، في وقت كانت فيه مؤخرة العالم الاسلامي مكشوفة ، وتدخل ـ فيما سميناه ـ بالاغفاءة الحضارية ، وفي لحظة البعث الأوروبي ، ومن ثم لم تظفر السلطنة بفترة سلام إمبراطوري تمكنها من تدعيم مواقعها وبناء حضارتها وتمثل أو هضم أو تدجين القوميات والأجناس العديدة التي خضعت لسيطرتها العسكرية . فسرعان ما تحركت هذه العناصر ضد السلطنة ، مدعومة بضربات ومؤامرات الدول الأوروبية ، وبالذات روسيا التي استأنفت الصراع التاريخي بين كنيسة بيزنطة ، والاسلام . والتهمت روسيا كل آسيا الاسلامية ، بينما ظل العثمانيون يتشبثون بوجودهم في أوروبا ، وهي عقدة تركية مستعصية . أدت بهم إلى خسارة أوروبا وآسيا معا .

لم يحس أحد في القاهرة ولا مكة ولا حتى الآستانة بسقوط بخارى وسمرقند والقوقاز ، مع أنها أعرق في تاريخ الاسلام وحضارته من بلغراد وسالونيك والآستانة ذاتها ، وشعوبها مسلمة مائة بالمائة منذ القرن الأول الهجري ... ولكن هذه العواصم تنبهت مذعورة على مدفعية الأساطيل الأوروبية عند الشواطىء العربية ... وبدأ الحديث عن « انقلاب المطبوع » والبحث عن تفسير لظاهرة انتصار الكفار على المؤمنين .٢م أو اختلال الناموس كما قالوا !

وطرح السؤال بعنف : ما العمل ؟ كيف نواجه هذا التحدي ؟ وكانت أول إجابة طرحت في العالم العربي ، ومازالت آثارها حية إلى اليوم ، هي المنهج السعودي ، الذي طرحه « محمد بن عبد الوهاب » وتبناه « محمد بن سعود » وهو « لا ينتصر آخر هذا الدين إلا بما انتصر به أوله » .

فاجأ ابن عبد الوهاب الجميع باعلان أنه لا خطأ في الناموس .. لا خطأ في قوانين الكون ، فالكفار لم يهزموا المؤمنين ، بل هزموا كفارا عادوا للشرك فخسروا الدين والدنيا !

والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف تنطلق الاجابة على التحدي، من نجد، الأبعد مكانا عن كل تلك العمليات ، والتي لم تتعرض مباشرة لأي غزو ، بل والأكثر تخلفا من سائر العالم العربي .. إن لم نقل الاسلامي ؟! وكيف تكون هذه الدعوة هي الاجابة وهي التي لم تشر في كتاباتها الأولى الى وضع العالم الاسلامي السياسي ، ولا تعرضت للوضع السياسي في أي بلد ، ولا بدا عليها الاهتمام بمصير تلك البلدان التي تتهاوى في قبضة عدوها الحضاري والقومي ؟!

هناك عوامل عديدة ، معظمها غير منظور ، ولا محسوب ، تتحكم في ظاهرة الاستجابة للتحدي ، وعملية نشوء وانهيار الحضارات ، ودائما لا تنطبق حسابات المنظرين ، على حركة التاريخ ، وخاصة في ظهور الحضارة الوريثة ، لأن من عوامل فناء حضارة المنظرين عنصر الغفلة عن البديل الذي ينمو ، فلم يكن أحد يتوقع في القرن السادس الميلادي أن تظهر الحضارة الجديدة في جزيرة العرب لتقوض حضارة الفرس وتزيل بيزنطة من شرق وجنوب البحر الابيض ، ولا كان من المتوقع أن تنطلق الاستجابة الاسلامية للتحدي الأوروبي من صحراء المغرب ثم من قبيلة مجهولة هائمة في آسيا الصغرى ، فتبقي الأولى الاسلام في الأندلس ثلاثة قرون ، وتتحول الثانية إلى امبراطورية باسم شيخها تعيش خمسة قرون في قلب أوروبا . ولا كان ماركس وانجلز يتصوران أن حلمهما بالثورة الشيوعية سيتحقق على يد الموجيك الروس في أكثر بلدان أوروبا تخلفا ، وأقلها حظا من النظام الرأسمالي « الملعون » ، ولا كان أحد يراهن في القرن السابع عشر على أن الدولة الآسيوية الوحيدة التي ستستجيب للتحدي الغربي هي اليابان . وكان ستالين ينظر للثورة في الهند فقامت في الصين لسوء حظه وحظ وطنه !

وقد قال توينبي إن الاستجابة الحضارية للتحدي ، تكون أنجح ما تكون إذا ما انطلقت من أقل المجتمعات تأثرا بالحضارة السائدة والزائلة .

كذلك لا يجوز الحكم على أهداف أية حركة بشعاراتها ، أو موقعها الجغرافي بل من النتائج التي تترتب عليها ، ونحن إذ نصف « الوهابية » بأنها أول استجابة للتحدي الذي خيم على العالم الاسلامي ، فلأنها أول حركة تعلن أن هناك خطأ في المجتمع الاسلامي يجب إصلاحه ، وهي أول حركة تقول إن الحل هو في العودة إلى الاسلام ، وليس بتخطيه ، أو البحث عن حل عصري . ثم هي أول حركة تجرب ذلك فعلا وتثبت نجاحه ، فأعطت زخما وقناعة طوال القرنين التاليين ، ومازالت ، وكل الثورات الاسلامية في القرنين التاسع عشر والعشرين ضد الغزو الأوروبي ستحمل في طياتها بذرة وهابية ، وحجة وأمل بتحقيق ما حققه السعوديون في جزيرة العرب .

كان قلب الجزيرة أو نجد ، مهد الجنس العربي ، أو مطبخ العروبة ، قد هوى إلى أعماق التخلف ، حتى قيل إن نجدا خرجت من تاريخ الانسانية عشرة قرون .

الأرض التي قيل فيها أكثر من ثلثي الشعر الجاهلي ، حتى أصبحت الأحجار فيها وبقايا الخيام ، مشهورة ومعروفة ، وذات تاريخ ينبض بالحياة ! الأرض التي احتل رجالها مركز الصدارة في كل أخبار وأساطير ومكارم ومباذل وشهامة وقسوة ونبل وعربدة التاريخ العربي قبل الاسلام . ثم كان رجالها هم القوة الأساسية التي نشرت الاسلام من الصين إلى جنوب فرنسا .. هذا القلب ـ الذي احتل رجاله المسرح العالمي لأكثر من قرن ، وفرضوا لغتهم وتعابيرهم وأذواقهم على العالم العربي حتى اليوم ـ توقف عن الخفقان بالأمجاد والنبل ، وغاب في ظلمات النسيان ، وخرج نهائيا ـ كما بدا ـ من التاريخ العربي والاسلامي ، ولم تعد قبائلها تذكر إلا في أساطير الرعب التي

يعود بها الحجاج الدين يضطرهم حظهم العاثر إلى عبور نجد .. أو المغامرون والمكتشفون الذين يجتازون المجاهل ، ليعودوا بغريب الحديث عن غرائب المخلوقات !

أما من الناحية الدينية ، فقد كان التخلف رهيبا عجيبا ، سواء أصحت الروايات بأن بعض القبائل لم يصلها الاسلام قط قبل « محمد بن عبد الوهاب » ، كما يزعم تقرير « لويس بيلي » المقيم البريطاني في الخليج .. أو كان التفسير الأقرب للتصور ، هو أن استمرار التخلف والعزلة ، أنسى هذه القبائل مباديء الاسلام ، وجعلها ترتد إلى وثنية قديمة ، أو تستحدث وثنية جديدة ، أكثر تخلفا . المهم أن الفهم الصحيح للاسلام قد انحصر في عدة أفراد من الذين كانت لهم اتصالات بالعالم الاسلامي ، وحفظوا بعض التراث المكتوب.*

ومن الخطأ القول أن المجتمع النجدي ، « **عاد** » للجاهلية الأولى لأن الجاهلية الأولى ، كانت عصر الزخم ، عنفوان الطبيعة البكر ، أو الماء قبل الشلال** ، الطاقة التي لم تستهلك بعد ، والتي تزمجر من فورانها بالقوة والفتوة ، والتعطش للعطاء والابداع . العذراء التي تتفجر شبابا وجمالا قبيل ميلاد الحضارة الجديدة . أما تخلف الجاهلية الثانية التي ارتد إليها العالم الاسلامي عامة ، وتلك المناطق المحرومة من أسباب الحضارة المادية ، فكان تخلف التآكل والتعفن أو الاحتضار .. الماء بعد الشلال ، وبعد توليد الكهرباء منه ، وبعد استهلاكه في الري ، حيث يتجمع في مصرف عطن تسد طريقه حتى الطحالب ! ويكفي للدلالة على خطأ القول بأنهم « عادوا » للجاهلية الاولى ، مقارنة التراث الأدبي الذي أنتجه النجديون في الألف سنة السابقة على الاسلام ، وما أنتجوه ، أو بالأحرى ما عجزوا عنه خلال الجاهلية الثانية ، أو مقارنة تقبل بدو نجد للحضارة وتفاعلهم معها ، بل وقهرها وإدارتها في صدر الاسلام .. وموقفهم من التكنولوجيا في مطلع المحاولة الثانية في عصر عبد العزيز آل سعود .

عاد البدو إلى المهنة الرئيسية ـ عندما افتقدوا كل مقومات الحضارة ـ وهي الحصول على القوت ، بانتزاعه بالقوة ممن يملكه ، عاد مبدأ تبادل الثروة ، وفقا لقانون الأقوى الذي لا يملك يأخذ من المالك الذي لا يقوى على حماية ما يملك ، وإذا كان « الغزو » في الجاهلية الأولى ـ كما قيل ـ هو رياضة النبلاء العرب ، كالصيد والقنص عند الأرستوقراطية الأوروبية ، فانه في الجاهلية الثانية قد انحط الى عمليات نهب ، تتسم أحيانا بالوحشية ، وتخلو غالبا من مظاهر النبل ، إلا فيما ندر .. وقد ذكر نيبور : « أنه ما من قبيلة تعيش بسلام مع غيرها من القبائل ، حتى أن جزيرة البحرين التي كانت تضم فيما مضى ثلاثمائة وخمس وستين مدينة وقرية ، لم يبق فيها سوى

---

* وإن كان الشيخ حافظ وهبة يؤكد استمرارية التخلف فيقول « إن علماء نجد في عصر الشيخ كانوا أكثر إحاطة بالسنة وعلما بالشريعة ، وأوسع مدارك وأبعد نظرا في فهمهم للأحكام » من علماء نجد في عصر وهبة .

** التعبير لمالك بن نبي

مدينة واحدة محصنة وأربعين أو خمسين قرية ، بينما دمرت الحروب المستمرة بقية المدن والقرى »[٢٥].

ورغم التحفظ الواجب على دعاية الوهابيين ، الذين يبالغون في تصوير حجم الهداية التي تمت على أيديهم ، من خلال المبالغة في تصوير « الجاهلية » شأنهم في ذلك شأن كل الحركات الاصلاحية[٣م] ، إلا أن الوقائع التي حفظها التاريخ بشهادة المعاصرين ، تؤكد أن نجداً قد بعدت كثيرا عن مفاهيم الاسلام ، بل حتى ممارسته ، والقصص التي يوردها المؤرخون عن قطع الشيخ لأشجار ، وهدم أوثان ، تبدو لنا وكأننا نعيش مرة أخرى ، تاريخ البعثة المحمدية ، وليس أواخر القرن الثاني عشر لتلك الرسالة التي حطمت هذه الأوثان وقطعت نفس الأشجار . أو كما قال محمد أسد : « كان عرب نجد أكثر بعداً عن الاسلام من أية مجموعة أخرى في العالم الاسلامي » . ويقول دارفيو مبعوث الملك لويس الرابع عشر :

« إن البدو متدينون ولا ريب ، ويأتون في أغلب الأحيان على ذكر الله ، ولكنهم لا يقرنون ذكره إلا بالقليل من الدين ، لأن أحداً لم يلقنهم إياه » أما لويس بيلي المقيم البريطاني في الخليج والذي قام برحلة إلى الرياض عام ١٨٦٥[٥] ، فيورد رأياً يجب أن يؤخذ بتحفظ شديد من ناحية الزعم بأن الاسلام لم يصل إلى تلك المناطق ، وإن كانت دلالته واضحة في تأكيد اندثار تعاليم الاسلام قبل ظهور الوهابية ، فهو يقول إن الصلبية (غجر الصحراء) لم يتحولوا إلى الاسلام ، وإن كان قد ذكر لهم عبادات اسلامية واضحة مثل صوم رمضان ، إلا أنه زعم أنهم يصلون ثلاث مرات فقط ، ثم ينتقل إلى القول : « أستطيع أن أقول ، إن الدين الاسلامي لم يقبل من قبائل وسط الجزيرة ككل ، وأن بعض هذه القبائل تحول من الوثنية إلى الوهابية ، دون المرور على مرحلة الاسلام ! وقد تم ذلك خلال القرن الماضي أو حتى في النصف الثاني للقرن الماضي ، وعلى سبيل المثال أكد لي مصدر عربي ثقة أن أهالي الحوطة وسدير قد تحولوا بواسطة المرحوم الأمير فيصل* من الوثنية الى الوهابية مباشرة خلال الأربعين سنة الأخيرة ، وأنه لا تزال هناك أوثان محفورة في قمة الجبل من بقايا المعبد الذي كان يتعبد فيه أهل الحوطة** ، الذين مازالوا ــ كما أكد لي هذا المصدر ــ يحمون حرمة هذه المعابد ضد الغريب . ويوجد معبد مشابه في مدينة جلاجل*** ، وأن قبيلة « المرة » تهدد باعتناق دين « السيد »**** في نجران » .

---

* ابن تركي وهو جد الملك عبد العزيز .

** رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب لأهل سدير والحوطة وحواره معهم كمسلمين تكذب هذا القول .

*** ومما يذكر أن « جلاجل » هذه هي مسقط رأس الشيخ المؤرخ « عثمان بن بشر » صاحب أهم مرجع عن تاريخ الوهابية والدولة السعودية الأولى والجانب الأكبر من الثانية . وهو كتاب : « عنوان المجد في تاريخ نجد » .

**** مذهب قريب من الاسماعيلية تحدث عنه فيلبي بالتفصيل .

ومهما تكن نسبة المبالغة في هذه الأقاويل ، فان مظاهر الوثنية كانت قد تفشت في كافة أنحاء العالم الاسلامي ، ليس فقط في الاعتقاد بالمشايخ والأولياء ، وأصحاب الطرق ، بل حتى في الأعتقاد ببركة أحجار وأشجار ، وكان في مصر شجرة اسمها « أم الشعور » يتبرك بها العامة ويعتقدون بوجود روح داخلها ، وكان العامة يعلقون قطعة من ثيابهم ، أو ثياب غرمائهم في مسامير بوابة المتولي ، طلبا للمعاونة أو التنكيل بالخصوم . كما كان العامة في مصر يوجهون شكاويهم كتابة للامام الشافعي المتوفي قبل أكثر من عشرة قرون ! ويعتقدون أنه يقرأها ، ويقضي فيها .. فهو « قاضي الشريعة » كما يلقبه العامة في مصر .

وأورد الشيخ في مجال انتقاده لعلماء الشام « فيا عجبا من رجل يدعي العلم ، وجاء من الشام يحمل كتبا » .. وأورد الشيخ عدة مآخذ ، خلاف اتهام الشوام بعبادة ابن عربي « جاعلين على قبره صنما يعبدونه » ! « ومسجد يقال له مسجد الكف الذي فيه تمثال كف يقال إنه كف علي بن أبي طالب » .

ولكن نجدا لم تكن تخلو من علماء يعرفون التوحيد ، ويدافعون عنه في كتاباتهم ويستنكرون فعل العامة ، ومن سايرهم من العلماء والأمراء ، وقد ذكر الشيخ أنه استفاد من دراسة عالم من علماء الأحساء في التوحيد . وعندما بدأ الشيخ دعوته ، لاقى استجابة من بعضهم ، ودخل في جدل مع البعض الآخر ، يدل على سعة معرفة هؤلاء المعارضين ، « ووجد الشيخ في الأحساء فحول العلماء منهم عبد الله بن فيروز ، ووجد عنده من كتب شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم ما سر به ، وأثنى على عبد الله هذا ، بمعرفته بعقيدة الامام أحمد ».[٢٦]

إذا كان محمد بن عبد الوهاب من ناحية العقيدة ليس بمبتدع ، فهو من الناحية السياسية ، مجدد ومبتدع ومبدع ، لقد استطاع أن يوقف حركة التاريخ ، ويلوي عنق الأحداث التي كانت تدفع العالم الاسلامي دفعا إلى التغريب . فمع الهزيمة الشاملة التي أصابت العالم الاسلامي أمام الغزو الأوروبي الذي كاد أن يشبه القدر المحتوم .. كان الظن أو اتجاه الأحداث ، هو خضوع العالم الاسلامي للقانون الحضاري العام ، وهو فناء المهزوم بالاندماج في حضارة المنتصر .

فجاء الشيخ من أعماق نجد يعلن أن الاسلام هو الطريق، وأن المشكلة ليست في العقيدة ، بل في الانحراف عنها ، وأن العودة إلى جوهرها الصافي كفيل باعطاء المسلمين القدرة على مواجهة التحدي الأوروبي وقهره .. صحيح أنه لم يواجه قوة أوروبية بشكل مباشر وشامل ، لا هو ولا خلفاؤه ، فقد شغلتهم حروبهم مع الرافضين المسلمين والعرب، إلا أن انتصاراتهم، على التخلف، وقدرتهم على خلق المحارب الذي يكاد ألا يقهر عززت حجة الرافضين لمنطق الهزيمة ، وأبقت الفرضية مطروحة إلى اليوم ، وهي اكتساب القوة المادية ، بنفس الأسلوب الذي اكتسبها به أجدادنا المسلمون الأوائل ..

وتلك هي أهمية الدعوة الوهابية في المرحلتين ، الأولى في عهد عبد العزيز ـ سعود والثانية في النصف الأول من عهد عبد العزيز ، فقد جرت المحاولتان في مناخ الهزيمة الشاملة للعالم الاسلامي ، فضربتا المثل على إمكانية النصر بالاسلام ، وإمكانية أن يكون الحل الشامل لمشكلة العالم الاسلامي مستمداً ومطابقا للحل الجزئي الذي جرب ونجح في أشد مناطق هذا العالم تخلفا وفقرا في الامكانيات المادية .. وفي نفس الوقت عجزت المحاولتان عن تقديم الحل الشامل والجذري للمشكلة ، ومن ثم فقد أبقتا الجدل مستمرا ، إذ منعتا التاريخ من أن يحسمه في اتجاه رفض الحل الاسلامي ، ولكنهما لم تعطيا أنصار هذا الحل الحجة الحاسمة ولا المنهاج ، فقد فشلت التجربتان في إجبار التاريخ على الاستجابة لهذا الاختيار .. ومازلنا في نفس الوضع .

فحركة البعث الاسلامي والجامعة الاسلامية ، ودعاة الاصلاح الديني ، وانتفاضات المهديين والسنوسيين ، ليست كلها إلا استجابة متفاوتة الفهم والوضوح ، لذلك الجواب الذي طرحه السعوديون : العودة للاسلام تحرر المسلمين من الهزيمة

المطبقة . وساعد الحل السعودي ، على البقاء في الساحة ، رغم هزيمة الدولة السعودية الأولى ، أن السعوديين اصطدموا بالاجابة المضادة للتحدي ، والتي كان « محمد علي » أول من أطلقها وهي : التغريب ، أو الحصول على سر قوة الغرب بتقليده ، فلا يفل الحديد إلا الحديد ، ومادامت أوروبا هزمتنا بالمصنع والمدفع ، والبنطلون ، فلنمتلك ذلك كله .. لنمتلك تكنولوجيا الغرب ، ولو تخلينا عن الاسلام ، أو على الاقل بحصر الدين في المسجد والبيت ، وهكذا بدا أن الحوار الدامي دار بين إسلام بلا تكنولوجيا ، وتكنولوجيا بلا إسلام ! وما كاد القرن التاسع عشر يتم عقده الثالث ، حتى بدا أن الحل الثاني هو الذي انتصر ، فقد هزم السعوديون ، وطويت رايتهم ـ كما بدا وقتها ـ وانتصر محمد علي في كل غزواته ، حتى أصبحت رايته ترفرف من جبال طوروس إلى أعماق السودان ، ومن ليبيا إلى البحرين وعدن ..

ولكن هزيمة تكنولوجيا محمد علي أمام تكنولوجيا الغرب ، الأكثر تفوقا ، ولو لمجرد أنها هي الأصل ، كشفت سطحية هذا الانتصار ، الذي تقلص ثم زال ثم انقلب إلى هزيمة شاملة انتهت باحتلال مصر قبل انقضاء أربعين سنة على وصول « محمد علي » لذروة إنجازاته . بينما بدأت في هذا التاريخ بالذات بميلاد عبد العزيز دورة جديدة من دورات البعث أو الحل السعودي . فيشتد الجدل من جديد : هل يتحقق التحديث بالاسلام أم بالتغريب .

ففي لحظة سقوط الدول العربية كلها تحت الاحتلال الغربي وتداعي الدول الأوروبية لاقتسامها كما يتداعى الجياع إلى القصاع . واقتران هذه الهزيمة الساحقة برفض الصيغة الاسلامية ، وانتعاش شعار العلمانية والتغريب ، واقتباس كل شكليات النظم الأوروبية المنتصرة ، عندما بدا أن صفحة الحل الاسلامي قد طويت للأبد ، هبت جموع الاخوان تحت الراية السعودية بقيادة عبد العزيز محققة النصر الوحيد الذي تحقق في العالمين الاسلامي والعربي حتى منتصف القرن العشرين .

ومرة أخرى لا تخلو الساحة لدعاة نبذ الاسلام ، دعاة التغريب ، بل تنكشف واقعيتهم الانهزامية ، أمام عظمة الانتصار الاسلامي ، الذي تحقق في نفس الأرض التي شهدت مولد الحضارة الاسلامية ، وشهدت المحاولة الأولى والتي هي الأقل عددا ، والأفقر في الموارد ..

إذا كان الوهابيون ـ السعوديون ـ لم يستطيعوا تكرار الفتح الاسلامي ، كما يقول طه حسين ، فقد استطاعوا أن يبرهنوا على إمكانية تحقيقه ، أو على الأقل استطاعوا أن يدعموا حجة الرافضين للحل التغريبي ..

استكمل الشيخ دراساته ، ومنطقه ، وحججه ، وطرح حركية الدعوة ، بدعوة أمير العيينة ، بلدة الشيخ ، فاستجاب الأمير ، ثم خاف عندما اكتشف أنها ليست بيعة شيخ طريقة ، أو توبة على يد أحد الصالحين ، بل : « الهدم الهدم ، والدم الدم .. » أي أنه بقبول تفسير الشيخ لشهادة « لا إله إلا الله » « نفي وإثبات » ، وسورة الفاتحة « إياك نعبد وإياك نستعين » ... إنما ينضم لحركة ثورية ، وهذا البعد بالذات هو ما

لفت أنظار البيت السعودي ..
والمؤرخون يؤرخون توجس أمير العيينة بحادثة رجم الزانية ، التي كانت السبب في ثورة أهل الحسا ، وإنذار شيخ بني خالد لعامله على العيينة عثمان بن معمر ، بزجر الشيخ ثم طرده ، وقيل حتى التآمر على قتله ، ولا جديد بالطبع في رجم الزانية ، فالرسول رجم الزاني والزانية ، ولكن الذي يستحق التعليق هنا ، هو أن حوادث الرجم ، تكاد تكون متشابهة في التاريخ الاسلامي ، أعني تطوع خاطىء أو خاطئة ، بالاعتراف وطلب الطهارة ، من ولي الأمر ، فهي أو هو لا يقول عاقبني ، بل طهرني . وقد قيل إن حكم الرجم في الاسلام ، هو من العقوبات النظرية ، لاستحالة تطبيقه بالشروط التي وضعها العدل الاسلامي ، وأهمها شهادة أربعة عدول بأنهم رأوا فعل الزنا بوضوح كامل ، يكاد لا يتاح لأحد إلا في حفلات الجنس الجماعي ، ويتعرض هؤلاء الشهود ، إذا اختلفت شهادتهم ، أو تراجع أحدهم ، لعقوبة مماثلة تقريبا لعقوبة المتهم نفسه إذا ثبتت عليه التهمة ! فالزاني غير المحصن ، أي غير المتزوج ، عقوبته الجلد مائة جلدة ، وعقوبة الشاهد المطعون في شهادته ، ثمانون جلدة . ولذلك يجمع المؤرخون على أن عقوبة الزنا لم تطبق ، قط ، بشهادة الشهود ، وإنما بالاعتراف ، وفي مراحل بعينها ، يبلغ فيها الايمان ذروته ، فيتطوع الخاطىء أو الخاطئة ، بطلب العقوبة ، لاقتناعهما بوجود قيادة تمثل الدين الصحيح ، تمثل الطهر الذي تحن اليه كل الضمائر، وتطمح إليه النفوس الخاطئة ، ولا يجوز أن يدنس هذا الزمان الطاهر بخطيئة هذا الفرد التائب ، فلا أحد يعترف بالزنا لحاكم فاسق تلوك الناس سيرته .. فهذا الاعتراف لا يحدث ، كما قلنا ، إلا في زمن يتوهج فيه الحس الديني إلى مستوى الاستشهاد والتوبة العلنية حيث تغمر الفرحة الجميع ، ويتسابقون للهداية والطهر ، ولو كان الثمن هو الميتة القاسية للجسد الخاطىء من أجل طهارة الروح والموقف والتاريخ ..

فهذه المرأة التي جاءت تتوب أو تستشهد بأقسى عقوبة فرضت على الانسان ، تعكس حالة الوجد الاستشهادي التي أطلقها « محمد بن عبد الوهاب » في البدو ، والتي تفسر فتوحاتهم . فحكاية المرأة الخاطئة ، هي مؤشر لايمان الرجل المتطهر ، الذي صنعته دعوة الشيخ ، فانطلق يطوي الصحراء لاعادة الناس إلى الدين الحق ، فلا يجوز أن تقف العين العاجزة عند « قسوة » العقوبة ، فالشيخ اقتداء برسول الله ، استخدم معها ، كل الدفوع القانونية لوقف التنفيذ ، أو دفعها إلى سحب اعترافها ، ولكن جذوة الايمان التي أطلقها في نفس الخاطئة ، كانت أقوى حتى من رحمته الاسلامية .

وإذا صح أن رجم الزانية كان السبب في غضبة أمير المنطقة ، وقراره بابعاد الشيخ، فلا أعتقد أن السبب هو معارضته الحكم، حتى ولو لم يكن قد طبق قط في المنطقة من قبل ، ولكن في اعتقادي ، أن الأمير تخوف ــ عن حق ــ من أمرين : إقدام الشيخ على ممارسة ما يعتبر من صميم سلطة القائم بالأمر ، وهو تطبيق الحدود في

الكبائر . والثاني هو ما عبرت عنه الحادثة من إيمان العامة ، بل والخاصة ، بمكانة الشيخ كسلطة .. سواء باعتراف المرأة له ، وطلبها التوبة على يديه ، وقبول أهل البلدة بما فيهم الأمير بأن يتولى الشيخ تنفيذ العقوبة .

انفجر الموقف في العيينة ، وتقرر خروج الشيخ من بلدة لا يصلح أميرها للدور المطلوب . وكان البيت السعودي يرقب الموقف ، ويتابع أخبار الشيخ ، ويتودد إليه (رسالة ولي العهد يطلب منه تفسير الفاتحة !) . وليست لدينا أية دراسات ولا معلومات عن هذا البيت قبل « محمد بن سعود » إلا أننا نستطيع القول بأنه كان بيتاً له طبيعة خاصة ، ليس فقط في طموحه ، وقدرته العجيبة على الاستمرار والتجدد وممارسة الزعامة دون الاستناد إلى دعم قبلي بارز ، بل وأيضا في وجود نوع من مجلس البلاط يرعي شئون الامارة ، فعبد العزيز بن محمد ولي العهد يراسل الشيخ ، ويفتح معه حوارا ، وهو لايزال بعيدا في العيينة ، وإخوة الأمير هم الذين اجتمعوا بالشيخ ، وقرروا حث الأمير على قبول دعوته ، وزوجة الأمير هي التي ألحت في إجراء المقابلة* .

ولم يكن لدى مجلس الأسرة السعودي أي شك في النتائج المترتبة على تبني الشيخ ، ويتضح ذلك من تردد الأمير في مقابلة الشيخ ، حتى لا يورط الامارة ، وكذلك من قول زوجته : « هذا الرجل غنيمة ساقها الله إليك ، فاغتنم ما خصك الله به » . وفي حوار الأمير مع الشيخ قبل المبايعة ، فعندما وعده الشيخ « بملك العباد والبلاد » قال الأمير : « على شرط ألا تغادرنا إذا فتح الله البلاد . ونشر الاسلام ! » فرد الشيخ : « الدم الدم والهدم الهدم . » .. فطلب الأمير إعفاء موارد الدولة من فتاوي الشيخ ! وقبل الشيخ على مضض ، وفي مرونة ، وإن لم يفته أن يؤكد للأمير أن موارد الثورة ، ستكون أكبر ، فتغني الأمير عن أموال رعيته . وهذه هي الرواية التي أثبتها ابن بشر ، وليس كما يقول من يحبون تنقيح التاريخ ، أنه طلب منه إلغاء هذه الضريبة لأن الله سيغنيه عنها ، ورواية ابن بشر أقرب للمنطق ولشعار « اعقلها وتوكل » وتؤكد وعي الأمير السعودي بحقوق الملك ومقوماته .. ومرونة الشيخ وواقعيته .

قال ابن بشر : « إلا أن « محمد بن سعود » شرط في مبايعته للشيخ ، أن لا يتعرضه فيما يأخذه من أهل الدرعية مثل الذي كان يأخذه رؤساء البلدان على رعاياهم ، فأجابه الشيخ على ذلك ، رجاء أن يخلف الله عليه من الغنيمة أكثر من ذلك فيتركه رغبة فيما عند الله سبحانه ، فكان الأمر كذلك ، ووسع الله عليهم في أسرع ما يكون » .

والحديث عن مرونة الشيخ لابد أن يثير قضية أخرى بالغة الأهمية ، كانت ولاتزال محل جدل في الفقه السياسي الاسلامي ، وهي وراثة الملك ، فقد وافق الشيخ على بقاء الملك في بيت واحد ، وعلى نظام ولاية العهد المتعارف عليه في العالم الاسلامي منذ مقتل علي ، أي أن يحدد القائم بالأمر من يخلفه استنادا إلى تأويل شديد المرونة لما فعله أبو

(*) للمرأة مكانة خاصة في البيت السعودي كما أشرنا في التمهيد وزوجة الأمير هي موضى بنت ابي وطبان وفي بعض الروايات قيل أنها أخته واختاروا لها اسم « خديجة » !

بكر الصديق رضى الله عنه .

فالبيعة كما يثبتها ابن بشر وأكدتها الأحداث ، تتفق مع منطق العصر والفهم الاسلامي ، فقد بايع الأمير الشيخ ، ولكن بمفهوم واضح هو أن الامارة لابن سعود في ظل تعاليم الاسلام التي سيتولى الفقيه شرحها والمجادلة عنها ومن الخطأ تسمية ذلك بحلف أو معاهدة ! فالامارة في الجزيرة ، شأنها شأن السلطة في كل بلد ، لها قوانينها التي سجلها ابن خلدون . والشيخ لم يكن بالذي يتطلع للامارة ، ولا حاولها ، بل كان يبحث عن أمير يبايعه ، ولا كان بالذي يجهل معنى الامامة في الاسلام ، وتنافيها مع وجود إزدواجية في السلطة ، ولكنه كان يهدف الى تغيير السلطة ، بهداية الأمراء ، وهنا تتجلى أيضا إحدى خصائص البيت السعودي ، فقد رفض الأمير بطريقة غاية في اللطف والذكاء ، أن يكون مجرد أمير يهديه الشيخ ، ثم ينطلق إلى غيره من الامارات والدول فلا يكون هو أكثر من أحد الأمراء ، ولذلك سأل الشيخ هذا السؤال المهذب حول موقفه في المستقبل ، وانتزع منه التزاما بالبقاء تحت راية البيت السعودي ، أي أن يكون في هذا البيت وحده زعامة تلك الحركة التي يدعو إليها الشيخ ، وآمن بها أو تبناها البيت السعودي ، وهذه الصراحة في رفض أي مساس بحقوق الامارة ، سنجدها في كل الأمراء البارزين الذين تولوا قيادة البيت ، وتصل إلى ذروتها عند عبد العزيز آل سعود .

وقد أثبتت الأيام فراسة الأمير السعودي ، ووعيه بتبعات وحقوق الامارة ، وأيضا فهم الشيخ لحدود الالتزام الذي تمت به المبايعة ، وذلك عندما أدرك « عثمان بن معمر » أمير « العيينة » ، خطأ قراره بنفي « الثورة » ! فاذا كان الحركي أو الثوري مرفوضاً من السلطة ، فلا يجوز إتاحة الفرصة له لكي يفلت من قبضة هذه السلطة ، ولذلك توجه إلى الشيخ في الدرعية ، يسترضيه العودة ، فرد الشيخ : « لم يعد هذا الأمر في يدي ، بل هو في يد الأمير » .

وطوال حياة الشيخ كان من الطبيعي أن يتولى هو أعمال الدعاية والحوار الفكري ، أو الحرب الأيدلوجية ، بل والحرب الفعلية ، فعندما كتب الشريف غالب إلى « عبد العزيز بن محمد » ، رد عليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، لأن الشيخ بالطبع هو أفقه الجميع في شئون الدعوة التي أثارها ، ولأن الأمراء السعوديين لم يكونوا قد تفقهوا بعد في الدعوة وفن المحاجاة ..

ولكن الغموض الذي يحيط بلقب الامامة[4] في البداية أعطى بعض الكتاب الفرصة لاثارة صخب لا مبرر له ، ولا فائدة منه . فالشيخ لم يترك مجالا لمثل هذا الشك فهو من يومه الأول يبحث عن أمير يبايعه ، ولم يحاول قط إقامة إمارة .. لماذا ؟ لا ندري ! ربما عن قناعة بأن الامارة هي نظام راسخ في المنطقة في بيوت تتوارثها ، ويستحيل منازعتها ، إلا تحت راية أمير وبيت ملك معترف به . وإذا كان « محمد بن سعود » قد بايع الشيخ في أول لقاء ، باعتبار أن الشيخ هو الداعية ، وهو الذي يطرح القضية ، ويطلب الحماية ، إلا أن الشيخ ما أن أصبح المواطن الأول في الدرعية . حتى سلم

بالامارة وقواعدها وتوارثها ، وكان في مقدمة المبايعين لعبد العزيز بن محمد ولم تتكرر بعد ذلك ، حادثة مبايعة الأمير أو أولاده ، للشيخ أو أولاده . قال ابن بشر :

« ثم دخلت السنة التاسعة والسبعون بعد المائة والألف وفيها توفي **الامام** الرئيس والمجاهد في الدين بالعرمرم الخميس « محمد بن سعود » أسكنه الله جنته . وكان ولي العهد من بعده ابنه عبد العزيز . فكان **إماما** للمسلمين وحامي ثغور الموحدين ، فبايعه الخاص والعام ، وتتابع على البيعة الحضر والبدو والشيخ رحمه الله هو رأس تلك البيعة » .

« وفيها أمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب جميع أهل نجد أن يبايعوا سعود بن عبد العزيز وأن يكون ولي العهد بعد أبيه ، وذلك باذن عبد العزيز فبايعوه جميعا ».[٢٧]

أما عندما توفي الشيخ فقد نعاه ابن بشر بقوله : « توفي شيخ الاسلام ، مفيد الأنام »* مع أنه أثبت أن الشيخ كان مطلق الحرية في التصرف في الغنائم والزكاة . وأنه كان في عهد محمد بن سعود « يجهز الجيوش والسرايا ويكاتب أهل البلدان ويكاتبونه » .[٢٨]

أما أولاد الشيخ فان ابن بشر يتحدث عنهم بلقب « الخليفة »** أو « القاضي » إذا كان يشغل هذا المنصب .

ولا مجال إذن لهذا الصخب الذي يثيره بعضهم *** ظانا أنه ينافق آل الشيخ ، بتأويل عبارات بركهارت ، بل وتكذيب ابن بشر ! .. بهدف الزعم بأن الشيخ كان يعين الامام أو الأمير من آل سعود ، أو أن آل سعود قد اغتصبوا هذا الحق من آل الشيخ بعد وفاة الشيخ .. هذا هذر لا أساس له من الحقيقة ، ولا جدوى منه ، فهو لا يضيف مجدا لآل الشيخ ، فوق ما بلغوه بطاعة الله ، وبالحركة التي بدأها جدهم والتي لولاها لما كان لآل سعود من ذكر في التاريخ أكثر من دهام بن دواس ! .. والحقائق التاريخية تؤكد أن ولاية العهد ، لم تطرح أبدا للنقاش ، ولا خرجت من إطار النظام المتعارف عليه ، وهو من يعينه الأمير القائم بالأمر ، أو الأرشد من ذكور البيت المالك ، وسواء سمى « محمد بن سعود » ابنه وليا للعهد ، أو أخذ له البيعة في حياته ، أو لم يأخذ ، فما من مصدر يشير إلى وقوع أزمة حسمها الشيخ ، أو وجود اعتراض من أحد ، بل انتقلت الامارة بشكل طبيعي بعد وفاة « محمد بن سعود » إلى ابنه « عبد العزيز » .. أما أن يتولى الشيخ أخذ البيعة له ، ويدعو الناس لمبايعته فأمر طبيعي لمكانة الشيخ التي لا تحتاج لتدليل .

---

* ولا يوجد أي مصدر سمي الشيخ « بالامام » .

** لقب « الخليفة » شائع في أولاد من يتولى مشيخة طريقة دينية معينة ، وهو إن لم يكن دقيقا في وصف دعوة الشيخ ودور أولاده الكرام . إلا أنه بالتأكيد لا يعني مفهوم اللفظ في الاسلام .. اي خليفة الرسول .

*** مثل الدكتور العجلاني .

أما القول نقلا عن « بركهارت » بأن شهرة « محمد بن عبد الوهاب » كانت أكبر من شهرة « محمد بن سعود » ، فقضية لا تحتاج لمن يدافع عنها ، بل لا نعتقد أنها تثار عن حسن نية أو حسن فهم ، لأن شهرة محمد بن عبد الوهاب لاتزال حتى اليوم أكبر من شهرة « محمد بن سعود » ، بل ومن عبد العزيز ابنه وسعود الكبير .. فهو صاحب الدعوة ومؤسس الحركة ، وهو الذي تولى الدعاية لها ، والمقارعة الفكرية عنها ، ومهما قال ابن بشر في ضخامة الفتوح الاسلامية وثراء الدرعية ، فقد مات ابن سعود الأول والامارة لا تزيد كثيرا عن مشيخة ، لولا تميزها بالدعوة . وكما قال الملك عبد العزيز : « إن البيت السعودي ، صاحب رسالة قبل أن يكون بيت ملك » . فالرسالة هي التي أعطته الدور الخاص ، وقد فاز ابن عبد الوهاب بفضل الرسالة كاملا .

ولكن منذ البداية تحددت الامامة* في الأمير القائم بالملك من آل سعود منذ بايع الشيخ وأولاده آل سعود بالامارة ، واختص بيت عبد الوهاب أو آل الشيخ بشرف السبق في هذه الدعوة، واستمرارية البذرة الطاهرة التي تثمر في كل جيل عالما أو علماء

---

* وفي احدى الدراسات التي تتسم بالوقاحة والجهل معا من الطالبة وأستاذها المعروف بعدائه الصليبي للاسلام والعرب اخترعت نظرية تقول ان عبد العزيز « تنازل عن لقب الامام بعد فتح الحجاز وذلك لاذهاب مخاوف المسلمين من حكمه للحجاز وتلقب بسلطان ثم ملك » ثم تعود فتقول ان آل سعود « ركزوا على الحق السياسي وليس الديني وهذا يتضح من تنازله عن لقب الامامة لأبيه بينما ركز هو على اللقب العلماني سلطان ثم ملك لتسهيل قيادته للحجاز » .

ولم تتكرم علينا لا هي ولا استاذها بشرح الفرق عند المسلمين بين لقب امام او سلطان مادام نفس الشخص يحكم بنفس الموقف المذهبي . ونسيت أكثر أنه تلقب بسلطان قبل فتح الحجاز ! بخمس سنوات !! وأنه كان يلقب بالشيوخ وفي رسالة شكسبير اليه عام ١٩١٤ يناديه بالشيخ حاكم نجد ويطلب منه السلام على « الامام » والده عبد الرحمن الفيصل ! ويرد عليه ابن سعود وليس في خاطره ابدا أنه يتودد لأهل الحجاز عام ١٩١٤ يرد « ابي الامام وإخوتي ... الخ تاريخه ١٩١٤/٥/٣ ــ ذو القعدة ١٣٣٢ .

وفي اجتماع الرياض عام ١٩٢١ الذي تم فيه تحويل نجد الى سلطنة صدر البيان الرسمي بأن الاجتماع عقد تحت رئاسة « الامام » عبد الرحمن الفيصل والد صاحب الجلالة ... الخ . والامارة في الاسلام هي الامامة ، وإلى أن ألقى بزعماء الاخوان في السجن عام ١٩٣٠ وهم ينادونه « الامام » . فلم يحدث التخلي المزعوم ولكن اللبس الذي حدث في اذهان العوام من الكتاب هو ما فسره الريحاني في تقريره للخارجية الامريكية : « ان الشيوخ في نجد يلقب عادة بالامام ولكن حيث أن والد عبد العزيز لايزال حيا فقد اعطي اللقب وهو وحده الذي يلقب بالامام » ! (من تقرير تقدم به أمين الريحاني الى القنصل الامريكي في بيروت مستر ادوارد غيث بتاريخ ١٩٢٣/١٠/٢٧ طالبا رفعه لوزارة الخارجية الامريكية) .

وجون حبيب قال في دراسته عن « حركة الاخوان » : « يستخدم رئيس البيت السعودي دائما لقب « إمام » التي تعني الرئاسة الدينية والدنيوية . ولما استخدم لقب سلطان ثم ملك اعتبرت هذه الألقاب تتضمن الامامة » هامش ص ١١٠

ومع التطور في نوعية المثقفين والمسئولين عن الاعلام غلب اللقب الدولي وهو صاحب الجلالة ، وإن ظل أهل نجد ينادونه بأحب الاسماء اليهم ، « الشيوخ » أو « الامام » .

يسهمون في الجهاد بالسيف والقلم في سبيل إعلاء كلمة الدين وتدعيم فرضية الحل الاسلامي.٥م

لقد أنعم الله على آل الشيخ بما لا يحتاجون معه لتزيد ، ومكانة أبناء الشيخ٦م في التاريخ والقلوب مستمدة من أفعالهم وصلاتهم ، وليس من معاهدات أو ميراث . وامتنان كل مسلم فضلا عن كل سعودي لبيتهم ، هو موقف طبيعي وواجب* . وأقرب وصف لما جرى في ذلك اللقاء التاريخي ، هو بيعة مشروطة بالتزام الأمير السعودي بالمفهوم أو التفسير الذي طرحه الشيخ للاسلام .

والمزاعم كثيرة حول ما جرى في هذا اللقاء بين الشيخ والأمير ، فقد زعم أحدهم أن الشيخ وعد الأمير بامتلاك جزيرة العرب فقال : « هذه الكلمات الملهمة التي قالها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في أول لقاء كان بينهما . فقد وعده متى أخلص التوحيد والتزم بأحكام الشرع ، أن يملك هو وأبناؤه جزيرة العرب ، ويشاء الله سبحانه أن **يتحقق** هذا الوعد في عهد محمد ثم يتكامل في ولاية عبد العزيز** . »

وليس صحيحا أن « الوعد المزعوم » ، تكامل أو تحقق لا في عهد « محمد بن سعود » ولا « عبد العزيز » ابنه ولا سعود الكبير ولا أحد من أولاد محمد بن سعود حتى اليوم ! إلا إذا غيرنا جغرافية الجزيرة العربية لنستثني منها ما لم تدخله جيوش السعوديين قط ! ليعاد تنقيح الواقع لينطبق على هذا الزعم ، الذي يحول الشيخ من داعية إسلامي يؤمن بأن لله المشرق والمغرب ، وأن دعوة الاسلام صالحة لكل زمان ومكان ، وأنه كما بعث محمد صلى الله عليه وسلم هاديا للعالمين ، فان كل من يتبع رسالته ، لا يجوز أن تحد حركته جغرافيا ولا إقليمياً .. بدلا من هذا الطابع العالمي للرسالة ، يتحول الشيخ على يد هؤلاء ، إلى منجم أو قارىء فنجان يلقي بنبوءته لفارس ، أو على أحسن الفروض مصلح إقليمي ، لا يعنيه إلا جزيرة العرب ، وليس هناك أي نص يعتمد عليه ينسب الى « محمد بن عبد الوهاب » هذا الوعد الاقطاعي ، التوارثي الطابع ! بل الذي يتحول إلى لعنة تمنع الدعوة من تخطي حدود الجزيرة !

---

* ولا أظن أنه يمكن أن يقال في احترام آل سعود لآل الشيخ أكثر من قول الملك عبد العزيز أنه كلما رأى ابن الشيخ يتصبب العرق من إبطه من مهابته ! وكان خلال مسيرته من الرياض إلى مكة بعد فتحها ، إذا ما طال به الطريق وهاجت به الظنون نادى : « ابن الشيخ » فيهرع إليه يتلو عليه أو يفسر له ما يطمئن به قلب الملك . كما اعتمد عليهم عبد العزيز في نشر الدعوة لحركة الهجر .

** الدكتور منير العجلاني في كتابه عهد عبد العزيز بن محمد صفحة ١٧ ــ ولعل الدكتور اكتشف وثيقة نادرة كتمها تثبت أن الوعد تحقق ، وإلى أن يكشف عنها النقاب ويثبت أن عبد العزيز بن محمد امتلك كل الجزيرة ، أو أن الجزيرة كانت في عصره أقل حجما ونمت مع الأيام . وكل شيء جائز ! .. فليس أمامنا إلا قبول حقائق التاريخ ، خاصة وأن الدكتور نفسه ، نسي ما قال فاعترف في كتابة الثاني « ولولا حملة محمد علي لدخلت الجزيرة العربية كلها داخلها وساحلها في طاعة الدولة السعودية » صفحة ٨٥ من « عهد سعود الكبير ».

رجعنا نقول لولا !

فضلا عن تنافيه مع مفهوم الدعوة ! وكل ما قاله الشيخ هو : « عسى أن يفيء الله عليك من الفتح ... الخ.[٢٧]م

تبقى نقطة شاعت بين المؤرخين ، وخاصة الغربيين الذين يؤمنون بالمصاهرات في بناء الملك ، ويبحثون عن أي سبب غير عقائدي ، لتفسير نجاحات المسلمين ، فقد شاع القول بأن « محمد بن سعود » أو عبد العزيز ابنه تزوج بنت الشيخ . وهكذا ارتبطت الأسرتان !

وإذا كان إرتباط الأسرتين ، أكبر من آية مصاهرة ، فان جميع المصادر الموثوق بها تنفي هذه الرواية التي تجعل سعود الكبير أو عبد الله* حفيداً للشيخ ، وقد أورد ابن بشر هذه الرواية في مسودات تاريخية ، ولكن عندما أعد هذا التاريخ « للنشر » حذف قصة المصاهرة . وقد علق مؤرخ آل الشيخ المحقق الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ ،[٢٩] على هذه النقطة بقوله : « وأنا كثيرا ما أقرأ لغالب المؤرخين ولاسيما الغربيين ، أن جد الامام سعود بن عبد العزيز هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب . ولا أدري ما هو مصدرهم . وللتنبيه حرر والله أعلم بالصواب » .

ولست أضيف إلى علم الشيخ علما ، عندما أتساءل هل كان بيت ابن غنام هو مصدر هذه الشائعة عند المؤرخين والمعلقين ، أم أن ابن غنام كان بدوره ضحية هؤلاء المؤرخين . المهم أن ابن غنام قال ان آل سعود أصبحوا **سبطا** للشيخ والأسباط هم أولاد البنات، قال :

وأطلع مولاه نجوم سعوده ... بآل سعود حين صاروا له سبطا[٣٠]

وقال بيلي في تقريره ان ابنة حفيد الشيخ تزوجت الأمير عبد الله بن فيصل بن تركي ، ولابد أن أكثر من مصاهرة قد تمت بين البيتين إلا أن أشهرها هي زواج عبد العزيز آل سعود الذي كان ثمرته الملك فيصل رحمة الله عليه** .

---

* بالطبع لا يمكن أن يكون عبد العزيز بن محمد ثمرة هذه المصاهرة ، لأن عبد العزيز كان موجودا وكبيرا وراسل الشيخ يطلب تفسير الفاتحة قبل وصول الشيخ إلى الدرعية .

وزعمت بنت ابو كريستين أن « كثيرا من ملوك آل سعود يمكنهم الفخر بأنهم من أم من آل عبد الوهاب » ولكنها لم تتفضل علينا بذكر اسم واحد من هؤلاء الملوك حتى الملك فيصل فاتها ذكره ، وليس من ملوك آل سعود من له أم من آل الشيخ في حدود معلوماتنا الا الملك فيصل .

** فقد جاء مصداقا لما قيل : « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » .

قلنا إن الركيزة الأولى في حركة محمد بن عبد الوهاب هي التوحيد ، والثانية هي الجهاد[٨]م، وهما في نظرنا لب الاسلام كما فهمه الرعيل الأول ، وقد مهد الشيخ للجهاد بالهجرة . هجرته هو إلى آل سعود ، ثم دعوته المؤمنين إلى الهجرة إليه في الدرعية ، وفي رسالته إلى عبد الرحمن بن ربيعة* ، ما يفيد هجرة المؤمنين إليـه من خارج الدرعية ، حيث أقام أول معسكر حركي أو مجتمع جديد لا يرتبط إلا بالحركة ، ويعيش للحركة ، وعلى نفقة الحركة ، وهي حركة عميقة الجذور في الاسلام منذ هجرة الرسول وأصحابه ، وقيل « لا فتح لمن لا هجرة له » .. وستظل راسخة في الفهم الحركي للاسلام ، حتى يجددها عبد العزيز في مطلع العقد الثاني من القرن العشرين ، ثم تتقزم الفكرة شأن كل الأفكار العبقرية ، تتقزم بالتقليد إلى ما نراه حاليا من حركات « الهجرة » .

وقد بدأت الغزوة الأولى ، في ابن بشر بنفس الطريقة التي تسرد بها قصص الثورات الكبرى ، وأعني البداية الساذجة الفقيرة في الامكانيات والتي لا تبدأ بالمحترفين ، بل بالبسطاء الذين تحولهم العقيدة إلى أبطال .. الخ . فقد روى ابن بشر عن هذه الغزوة أنها كانت تتكون « من تسع ركايب فلما ركبوها ، وأعجلت بهم النجايب في سيرها سقطوا من أكوارها لأنهم لم يعتادوا ركوبها »[٣٢] .

وسيغرقنا ابن بشر في تفاصيل ابن دواس وتركي شقيق مانع جلوي . وأبي بطين ، أبي خنيفس ، حتى نصل إلى فتح الرياض : « فاتسعت لهم الناحية وأمنت السبل وانقاد كل صعب من باد وحاضر » .

وتقدم السن بالشيخ ، أو اقتنع أن هذا هو « الفتح » المبين ، الذي لا يخشى على الحركة بعده ، فاعتزل الدنيا وتفرغ للعبادة والتعليم ، كما يقول ابن بشر ..

ولنتجاوز عن غزوات محمد بن سعود ، وابنه عبد العزيز ، داخل دوامة نجد ، لنخرج مع الحركة إلى المحيط الخارجي ، حيث بدأ صدامها المكشوف ضد السلطة العثمانية ، لتنبه العالم إليها ..وقد كشف « ابن سند » المؤامرة السعودية ـ الوهابية لامتلاك العالم الاسلامي ، فدل على الأقل أنه أكثر وعيا بعالمية الحركة ، رغم عدائه لها ، ممن يتحدثون عن « أرض الميعاد » في نطاق الجزيرة ، أو حيث وطأت خيل عبد العزيز بن محمد ، ورعت أغنامه** !

قال ابن سند « كان آل سعود أمة ضعيفة فقيرة ، وبلادهم ناشفة ليست مخصبة كريف مصر والعراق ، حتى يمكنهم جباية المال منها ، وكان لهم رياسة على العارض

---

* « وعندنا ناس يجيئون بعيالهم ، بلا مال . ولا جاعوا ، ولا شحذوا »[٣١] .

** وصدق من قال عدو عاقل خير من منافق جاهل .

فقط ، فلما اجتمع بهم عالمهم « محمد بن عبد الوهاب النجدي » ، في القرن الثاني عشر ، حسن لهم نشر الدين المحمدي وإماتة البدع ، ودس لهم دسيسة ، وهي أن هذه الحركات تجعلهم ملوك الاسلام عموما ، لأنه لم يبق في ملوك الاسلام من ينكر المنكر . فطاوعوه . وهكذا الدول لا تتأسس إلا بالسلطان والدين معا . فاقتضى رأيهم أن يحاربوا القرية التي بقربهم مثلا ، ويدعوهم إلى ما هم عليه ، فحاربوها .. وأطاعهم قرى نجد جميعها[33] ... » الخ .

وإذا كانت معظم الكتابات التي طوبت تاريخ السعوديين ، قد ركزت على محاربة والي مصر للدولة السعودية ، فان اول هجوم على تلك الدولة ، لم يكن من مصر ، بل من العراق ، ومن عرب المنتفق بقيادة تويني وبتحريض من الوالي في بغداد ، انصياعا لأوامر السلطان العثماني .

وقد لجأت قوى الثورة المضادة داخل السعودية ، الى طلب تدخل السلطان ، كما يقول ابن غنام ، ضد الحركة التي كانت تهدد مراكزهم سواء أكانوا علماء دين أم شيوخ قبائل وأمراء مدن .. وتنتهي أول حملة جردتها الدولة ضد السعوديين ، على يد فدائي من تلك الطليعة التي أدهشت فدائيتها المعاصرين* .

اقتحم خيمة العدو عبد أسود إسمه « طعيس » كان قد بايع في الليلة السابقة على الشهادة وقذف حربته على طريقة وحشي ، مع فارق القاتل والقتيل ، فقتل بها تويني ، ويضرب المثل في نجد حتى اليوم بوفاء هذا المؤمن الأسود البشرة ، الطاهر القلب والايمان فيقال : « بايع بيعة طعيس » رمزا للبيعة على الموت والوفاء . البيعة التي لا مخادعة فيها ولا ختل . ومن عجب أن يرى فيها مؤلف مبتعث رمزا للمغامرة !!؟م

وسجل ابن غنام فشل الحملة التي كانت تهدف على حد قوله أو شعره ، لاقتسام الاحساء بين الروم (الترك) والبدو المناصرين لهم .

وفي ربيع الثاني ١٢١٣ ـ سبتمبر ١٧٩٨ ، قامت الحملة العراقية الثانية بقيادة الكتخدا نفسه ، أي نائب الوالي ، وقد تطوع الكويتيون بنقل الحملة على سفنهم .

ويبدو أن جمهرة المؤرخين بما فيهم المحدثين ، قد فاتهم ملاحظة ثلاثة عناصر هامة في أخبار الحرب والمراسلات ومفاوضات الصلح ، التي دارت بين الدولة السعودية الناشئة ، وولاة العراق في تلك المرحلة ، فقد استغرقت المؤرخين أخبار الحشود والمعارك ، ونفقات الحملة والمطالب المالية والرشوة .. بينما أرى أن أهم ما يجدر الوقوف عليه في الحرب السعودية ـ العراقية (مع الاعتراف بخطأ التسمية) هو ثلاث نقاط :

١ ـ الاحساس بأن الحرب ضد « الروم » أي الأتراك ، وهذا يعني أن الثورة على

---

* وصف ابن سند رجال الدعوة فقال إن الرجل منهم يقاتل « سامعا مطيعا باذلا ماله ودمه في سبيل الله ، وذلك لحسن سياسة ابن سعود ، ولفصاحة الدعاة والوعاظ الذين حسنوا لهم ذبح أنفسهم فاستحسنوه » !

الدولة والصدام معها ، سابقان على التعرض لأم السلطان أو رسالة سعود (الغليظة) للسلطان سليم .

٢ ـ استطاع سعود أن يفرض الاعتراف باستقلاله ، وليس فقط استقلال الاحساء في رسالته الذكية ، لقائد الحملة ، وقبول هذا القائد ، عن قناعة بالأمر الواقع أو عن غفلة ، الاعتراف بالاستقلال ، فقد قال سعود الكبير في رسالتيه :

« إن الاحساء قرية ليست داخلة في حكم الروم » ، ومن باب أولى فان الدرعية والرياض ليستا داخلتين في حكم الروم ، وصاحبهما يطالب بالاحساء ! ولما رد الباشا يطلب ابتعاد سعود عن الاحساء ودفع نفقات الحملة ، ورد المنهوبات .. قبل سعود الحديث في كل المطالب إلا السيادة فقد عاد وكرر :

« جاءنا كتابكم وفهمنا معناه . أما من حال الشروط المذكورة ، فأولا الاحساء هي قرية بعيدة عن دياركم ، وخارجة عن حكم الروم » .

٣ ـ العزة التي تبدت لأول مرة في مخاطبة العربي للتركي : « من سعود بن عبد العزيز إلى علي » .

وهي البداية التي أعجبت « ابن سند » وجعلته يزعم أن سعود الكبير أراد الايحاء بأنه لا يعرف أباه ! والأحرى أن « سعوداً » لم يقصد هذا المعنى السوقي الشائع الاستخدام في الجاهلية .. فالأتراك لم يكونوا يتسمون باسماء العائلات ، ولا حتى بذكر اسم آبائهم .. بل كان كل منهم يتسمى باسمين .. وهناك طبعا « أنور » و « طلعت » و « جمال » ولا أحد يعرف اسم آبائهم . ومعظم ضباط الجيش العثماني في عهد سعود ، كانوا من الانكشارية ، أو المماليك الذين لا آباء لهم إلا الاسلام . وجميع سلاطين مصر والشام منذ الأيوبيين ليس لهم الا اسم واحد .. صلاح الدين .. سليم .. سليمان القانوني .. قلاوون .. قنصوة الغوري .. الخ . ولا عيب في ذلك . والعرب وحدهم ـ واليهود ـ هم الذين ينتسبون في الأسماء باضافة « بن » .

الذي أغفله سعود ، وغفل عنه ابن سند وغيره ، هو حذف لقب الباشاوية والكتخداوية ، والقاب التفخيم والتعظيم التي جرت العادة أن يكتب بها إلى ممثلي السلطة . فهو لا يعترف بالألقاب ولا الرتب لأنه لا يعترف بشرعية مصدرها . ولذلك فقد كتب إلى « علي » فقط ! ونفس الروح الثورية واستعلاء المؤمن ، المستمد من عزة الاسلام وإن شئت ـ أيضا ـ من شموخ العربي ، الذي يذكرنا بوفود العرب إلى كسرى ، نجد صورة مشابهة في سلوك مندوب « سعود » المتوجه إلى الباشا التركي ، فقد تصرف وكأنه المغيرة في البلاط الفارسي !

دخل مجلس الباشا ، وجلس بدون استئذان ، ووجه التحية ، أو بمعنى أصح التحدي : « السلام على من اتبع الهدى » .. « يا سليمان أرسلني عبد العزيز لأسلمك هذا الكتاب ، ولآخذ منك موافقتك على العهد الذي اتفق عليه ابن سعود وخادمك علي ، فافعل ذلك بنية صادقة وإخلاص ، ولا تبدل شيئا في شروط العهد ، فان الله يغضب على

من ينكثون بعهودهم ، وكن واثقا انك متى ابرمت العهد أبرمه عبد العزيز أيضا »٣٤ .
ثم غادر المجلس .

تاركا الرعب والذهول ليس فقط في قلوب الأتراك والعرب المستضعفين في مجلس الباشا ، بل والمقيم البريطاني في الخليج الذي كان في زيارة للعراق .. ولم يجد الباشا ما ينفث به عن غيظه وذهوله ، وفضيحة الدولة أمام الأجانب ، إلا شتم العرب !

ولا أظن أن هناك مرجعا تاريخيا يثبت محادثة مماثلة من عربي لوال تركي قبل هذه ، ولا أظن أن المعايشة كانت ممكنة بين العقلية العثمانية ، والنفسية العربية الجديدة ، التي تشكلت في ظل الدولة السعودية ، بتعاليم الشيخ .. تعاليم الاسلام .

وإذا كان الباشا قد قبل خروج السعوديين من حكم الروم ، فان السعوديين لم يقبلوا خروج ممتلكات « الروم » عن دائرة اهتمامهم ، ومجال دعوتهم ، ومسئولياتهم الاسلامية والعربية .. فكانت غزوة كربلاء ..

ونحن نرفض كل الاعتذارات التي يقدمها المؤرخون لتبرير هذه الغزوة ، ونرى أنها كانت خطوة محتومة ، لابد من وقوعها بموجب أهداف الحركة وطموحها لتحرير العالم الاسلامي كله ، « وفقا لخطة ابن سند » مبتدئة بجيرانها العرب .

ولماذا العراق ..؟!

لأن الخطر الخارجي الأول جاء من العراق ، الولاية العثمانية الأقرب إلى نجد والاحساء ، وحيث الخطر الفارسي المتمثل في غزو فارس للبصرة أكثر من مرة .

وما نريد توضيحه هنا ، أو بالأحرى تفنيده ، هو الزعم الذي أثاره المعلقون الغربيون ، وتابعهم بعض « الناقلين » العرب ، أعني التركيز على أن الغزوة كانت موجهة ضد الشيعة ، ولا يجوز التعلل بقول سعود : « إن أهل الاحساء رافضة أدخلناهم في الاسلام بالسيف » فهو نفسه اعتبر الأشراف في مكة مشركين ، واشترط إسلامهم ! وهو نفس رأيه في أمير المؤمنين ، وخليفة المسلمين السلطان السني . فالحركة الوهابية في بدايتها افترضت نقص إسلام كل من لم « يتدين » أي يدخل في الطاعة ويلتزم مبادىء الدعوة١٠م . وهدم قبة الحسين ليس عملا طائفيا موجها ضد الشيعة ، فقد هدموا قبة طلحة والزبير وزيد بن الخطاب وأمنا حواء ! واتهموا بقتل أهل الطائف (السنة) مقتلة لها شهرة تفوق مقتلة كربلاء . أما « أخذ » أموال القبة والمزار فقد تم وفقا للمفاهيم الوهابية ، تماما كما أخذت أموال القبة النبوية ذاتها* وفي اعتقادي أن قصة كربلاء ، قد ضخمتها الدعاية البريطانية ، التي كانت لها مصالحها في الشاطىء الايراني والبحرين ، وكانت تهدف إلى تطويق الحركة الوهابية ، والزحف

---

* وقد استند سعود في ذلك إلى فلسفة التوحيد الاسلامية ، وقد نقل محمد بن عبد الوهاب عن شيخه ابن القيم قوله ان المال الذي يرصد في القبور « هو مال ضائع ، فيصرف في صالح المسلمين » . رسالته الثانية إلى عبد الله بن سحيم . وهي نفس الفتوى التي استند اليها الجبرتي في دفاعه الجرىء عن السعوديين .

السعودي . كما ضخمها شاه العجم ، الذي كان يتمتع بالقدر اللازم من الحماقة لمن يتولى منصب الشاه ، مما جعله يهتم بالشاطىء العربي أكثر من اهتمامه بالروس والانجليز الذين يلتهمون بلاده !

ولو كانت واقعة كربلاء ، معركة طائفية ، موجهة ضد الشيعة[11]م ، لوجدنا هذا المعنى في كتابات ابن بشر ، ولكن كل ما كتبه هو الآتي :

« ثم دخلت السنة السادسة عشرة بعد المائتين والألف ، (١٨٠١ ــ ١٨٠٢) ، وفيها سار سعود بالجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة ، (وهذه قوات سعود في جميع الحروب التي سجلها ابن بشر « الجيوش المنصورة والخيول المشهورة » !) من جميع حاضر نجد وباديها والجنوب والحجاز وتهامة وغير ذلك . وقصدوا أرض كربلاء ، ونازل أهل بلد الحسين ، وذلك في ذي القعدة فحشد عليها المسلمون ، وتسوروا جدرانها ، ودخلوها عنوة ، وقتلوا غالب أهلها في الاسواق ، والبيوت ، وهدموا القبة الموضوعة بزعم من اعتقد فيها على قبر الحسين** ، وأخذوا ما في القبة وما حولها ، وأخذوا النصيبة التي وضعوها على القبر وكانت مرصوفة بالزمرد والياقوت والجواهر . وأخذوا جميع ما وجدوا في البلد من الأموال والسلاح واللبس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر ، ولم يلبثوا فيها إلا ضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الاموال ، وقتل من أهلها قريب ألفي رجل . ثم إن سعوداً ارتحل منها على الماء المعروف بالأبيض فجمع الغنائم ، وعزل أخماسها ، وقسم باقيها على المسلمين غنيمة للراجل سهم ، وللفارس سهمان ، ثم ارتحل قافلا الى وطنه »[35] .

وجاء اغتيال « عبد العزيز بن محمد » مع إشاعة أن قاتله « رافضي خبيث » وهي إشاعة بريطانية راجت من باب الاستسهال ، والربط السطحي بين ما جرى في كربلاء وانتقام الشيعة .. وإن كانت كل الروايات ، قد أجمعت على تآمر والي بغداد السني لتنفيذ الاغتيال . وقد أورد مؤلف « لمع الشهاب » معلومات عن تدبيرات هذا الوالي لعملية الاغتيال ، ليس انتقاما لقبة الحسين بالطبع ، وإنما لمواجهة الخطر السعودي الزاحف على الولاية العثمانية ، والذي يهدد : « بقاء تلك الدولة » . قال المؤلف :

« قال علي باشا والي بغداد يوما لندمائه ، لو يحصل عندي من يبذل نفسه ويسير إلى الدرعية ، فيقتل عبد العزيز غيلة لأعطيته ألف ذهب ، وقررت لعياله وعيال عياله وظائف من الديوان لا تنقطع أبدا ، فأتاه رجل وفي يده رقعة ، وإذا مكتوب فيها ، من الفقير الحقير إلى جناب ولي نعمته الوزير المعظم علي باشا .. أما بعد ، فقد سمعت أنك تريد من يكفيك شر عبد العزيز النجدي بقتله .. فهذا أنا ، أفعل ذلك . فأمره الوالي بالتقدم إليه ، وقال له : أنت علي ؟ قال نعم ! فقال أتوفي بما قلت ؟ قال نعم فأمر له بألف ذهب ، وقال هذه توضع بيد من تأتمنه من الناس المعروفين في بغداد ، فاذا بلغنا صنعك فهي لك ، تعطى لعيالك ، ولهم أيضا وظيفة جارية تكفيهم من جميع الوجوه ،

** لاحظ أن ابن بشر والوهابيين ما كانوا يعتقدون بأنها قبر الحسين .

مدة بقاء الدولة العثمانية .. فسار الرجل إلي بيته ، وودع عياله ، وأخذ بعض المتاع على ظهره واستأذن الوالي وسار .. فانحدر الى البصرة ، ثم الكويت ثم سار مع ركب أهل الدرعية . وأول وصوله قدم على عبد العزيز وقال له : أنا رجل من بغداد ، سمعت بما تدعون إليه ، فقدمت ، وأنا أعاهدك ، وليس لي رجوع إلى أهلي وعيالي ، بل داركم دار هجرة ومقام المؤمنين . وكان رجلا فصيحا ، فقربه عبد العزيز إليه حيث أنه رأى منه ملازمة على صلاة الجماعة ، وبعد ذلك أخفى خنجرا في ثيابه ، وصمم على قتل عبد العزيز ، وفعل ذلك في وسط الصلاة .. وبعد شهر كامل بلغ الخبر إلى بغداد (من كفاءة الدولة العثمانية !) وسمع به علي باشا فسر غاية السرور ، وتحقق من صدق الخبر ، وعرف أن القاتل هو **الحاج علي البغدادي** فأرسل إلى أولاده ، وكانوا ثلاثة من الذكور، وأربعا من الأناث، فأكرمهم، وأمر بدفع الذهب إليهم، ثم أجرى لهم كل شهر كذا من الدراهم ، وظلت هذه العادة جارية أيام سليمان باشا الذي صار وزيرا بعده ، ثم انقطعت في عهد عبد الله باشا ولم يعمل بموجب الدفتر المقرر »[٣٦] .

ولا مجال للشك ، فالجريمة أو على الأصح المستفيدون منها مقيدة أسماؤهم في الدفتر ويتقاضون مرتبا شهريا ، لم يدم طبعا بدوام الدولة العثمانية ، لأن من شروط زوال هذه الدولة أنه لا ضمانة لقراراتها !! . غير أن صدق مؤلف لمع الشهاب قد تأكد بعد مائة وخمسين سنة بالكشف عن وثائق مكاتبات والي بغداد إلى السلطنة .. ويفهم منها التالي[١٢]م :

١ ــ إن القضاء على عبد العزيز وابنه سعود كان هدفا سياسيا من أهداف الدولة متفقا عليه بين الباب العالي وولاته ، وخاصة والي بغداد القريب من نجد الذي اعتبر ذلك الهدف « مهمته الواضحة » فهو يقول للباب العالي : « قد سبق لي أن كتبت بالقلم عارضا ومنهيا أنني في حالة تمكني من السفر بنفسي من بغداد ، لاعداد وسائل القيام **بمهمتي الواضحة أمامي** ، ألا وهي التنكيل بالوهابي المبتدع فذلك نعم المطلوب ، ولن أتردد فيه » ولكن لأن ذلك غير مستطاع بسبب « العجز عن تدبير الجند من حملة البنادق ولكنه سيعمل جهده « من أجل تدمير المخذول المزبور » .

٢ ــ إن القاتل من رجال حاشيته وليس كما جاء في رواية لمع الشهاب من أنه فاعل خير جاء من عرض الطريق . وإن كان الباشا يؤكد في وثيقته أن التطوع جاء من القاتل وليس باختيار أو تكليف رسمي من الباشا إبتداء ..

٣ ــ اسم القاتل في وثائق الباشا « الحاج عثمان » بينما أورده « لمع الشهاب » باسم الحاج علي . وكان الظن أن القاتل انتحل اسم « عثمان » لكي ينفي الشك فيه من ناحية شيعيته. وإذا كان تفسير رواية «لمع الشهاب» عسيرا، والتشكيك فيها غير علمي ، فهو يعرف الأسرة ويعرف رواتبها ، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر رواية الباشا في تقريره السري .. إلا إذا افترضنا أن الباشا انتحل القصة كلها بعد أن تمت ولذلك أثبت الاسم الذي جاءت به التقارير والأخبار من الدرعية .. وهنا سنواجه أيضا بمطلب تفسير رواية لمع الشهاب ، عن اتفاق الوالي معه ، وتحديد المبلغ قبل السفر وإن كانت

رواية الباشا تؤكد زهد الرجل وأنه لم يطلب إلا نفقة الطريق وإن أكد محاولته « الاغراء » من جانبه : « أقدمت على تحريضه وإغرائه » .

٤ ـ ليس في تقرير الباشا أية إشارة لا من قريب ولا من بعيد لحادثة كربلاء أو شيعية الرجل بل بالعكس جاء نص صريح بأنه « لما وقعت قضية مكة المكرمة كرمها الله الملك العلام ، فارت دماء شريان غيرته ودينه وأبدى رغبته في محو وإعدام منشأ الفساد ، ومبدأ الشقاوة والعناد ، عبد العزيز بن سعود المبتدع ، وولده سعود ، بأي وجه كان ، طلبا لمرضاة الله تعالى » .. ولنا أن نستنتج بصرف النظر عن بعض التفاصيل ، أن رواية الفدائي الشيعي الذي جاء يثأر لعدوان سني على كربلاء ، هي من اختراع المخابرات البريطانية ، في إطار الاستراتيجية الدائمة ، ألا وهي تطويق السعوديين بالحواجز ، الأكثر فعالية من القلاع والبوارج ، ثم التقط القصة ، هواة المغامرات ، وربما كان الريحاني ، هو أول المروجين العرب لتلك الأسطورة في العصر الحديث .

على أية حال أثبتت الدولة السعودية ، أن رعاياها ليسوا أقل إخلاصا للحق من إخلاص رعايا الدولة العثمانية للباطل ، فسرعان ما سقط الوالي صريعا بطعنات مجموعة من الفدائيين : « ففي يوم الثلاثاء الرابع عشر من جمادى الآخرة ، كان صاحب الدولة سيدي خادمكم علي باشا ذو الشأن والي بغداد دار السلام محاطا بخاصة جماعته وقت صلاة الفجر ، وبينما كان ساجدا لله الذي لا يزول ، برز من داخل جناحه الخاص بضعة أفراد من خاصة حاشيته ، اختمرت جبلتهم بخميرة الخبث والخيانة ، وعجنت مضرتهم بخميرة النفاق والمفسدة ، وهجموا بخناجرهم على بريء (؟!) أحدثوا في جسده الملتمس للرحمة عدة جروح ، كانت سببا في ارتحاله على الفور من دار الفناء إلى دار البقاء »[٣٧] .

وإذا كان القائمقام قد حرص على إبلاغ السلطنة أنه بادر فورا بختم خزانة الوالي المقتول ، فهو لم يشر إلى هوية الفاعلين ، ولا إلى إجراء تحقيق ، وأغلب الظن أن المتهمين قتلوا فورا في الموقع ، كما حدث مع قاتل الامام عبد العزيز بن محمد ، وهذه عادة عربية ، في تغليب الانفعال على الاهتمام بالمعلومات وكشف الحقائق مما يتيح الفرصة للمتأولين لتفسير الأحداث على هواهم ! وذلك منذ مصرع عمر بن الخطاب الذي استمع فيه لآراء ومعلومات كل الأطراف إلا القاتل !

أما عداوة شاه العجم « عباس ميرزا » التي جعلته يبعث مهنئا محمد علي « على دفع البدع ونفي الدين المخترع » وأهداه « سيف حديد أثري » مؤكدا أن خير التحف والهدايا هو : « صرف وداد يبعث من صفو الفؤاد ، لولا أن عادة الأسلاف من الملوك والأشراف ، بابلاغه التحية مصحوبا بالهدية » .

هذه العداوة كانت دوافعها شوفينية توسعية ، وليست شيعية .

وجميع المصادر التي تعرضت لتاريخ السعوديين سجلت حرصهم على سلامة الحج العجمي ، وسلامة الشيعة من العرب ، والاهتمام برعايتهم وأمنهم . وقد روى ابن بشر قصة الحاج العجمي فقال :

« وحكي أنه جاء حاج من العجم ونزل قرب وادي سبيع فسرق من الحاج غرارة فيها من الحوايج ما يساوي عشرة قروش فكتب صاحب الغرارة إلى عبد العزيز يخبره بذلك ، فأرسل إلى رؤساء تلك القبيلة ، فلما حضروا عنده قال لهم : إن لم تخبروني بسارق الغرارة ، وإلا جعلت في أرجلكم الحديد وأدخلتكم السجن ، وأخذت نكالا من أموالكم فقالوا : نغرم بها بأضعاف ثمنها ، فقال : كلا حتى أعرف السارق فقالوا : ذرنا نصل إلى أهلينا ونسأل عنه ونخبرك ، ولم يكن بد من اخباره ، فلما أخبروه به ، أرسل إلى ماله وكان سبعين ناقة فباعها وأدخل ثمنها بيت المال وجيء بالغرارة لم تتغير ، وكان صاحبها قد وصل الى وطنه ، فأرسلها عبد العزيز الى أمير الزبير ، وأمره أن يرسلها إلى صاحبها في ناحية العجم »[٣٨] .

مغزى الواقعة بالطبع ، ليس في سلوك عبد العزيز بن محمد ، فهذا هو السلوك المفترض من أية حكومة متمدينة بصرف النظر عن عواطفها نحو المجني عليه ، ولكن المهم هو شعور الحاج العجمي ، فلو كانت الصورة التي زرعها أعداء الاسلام وخصوم السعوديين عن الشيعي المرعوب الذي يجتاز غابة الوهابيين ، صورة صحيحة ، لما فكر الحاج العجمي في أن يرفع شكواه إلى إمام الوهابيين من أجل عشرة قروش ، بل لحمد الله على سلامته من الأهالي والحكومة .

ومرة أخرى ، فان هذا لا يعني أننا ننكر وجود خلاف جذري بين الوهابيين و « الفكر » الشيعي من نواح عديدة ، ولكنه لا يعني صداماً طائفياً ، أو بمعنى أدق ، لا يحتم هذا الصدام .

هناك نقطة نريد أن نتوقف عندها قليلا ، وإن كان جميع المؤرخين قد تفادوها « بحسن نية » وبراعة يحسدون عليهما ..! ألا وهي موقف « السعوديين » من الغزو الفرنسي لمصر .. لماذا لم يساعدوا الدولة العثمانية ، أو الشعب المصري في مقاومته للاحتلال الفرنسي ؟ وهذه أول حملة صليبية في العصر الحديث ، وأول احتلال سافر من الاستعمار الأوروبي ومقاومة باسلة من بلد عربي .. هي مصر « عش العلماء » كما كان يسميها الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » . بل ألا يحق للمؤرخين القول إن حروب السعوديين في العراق ، قد ساهمت في تسهيل مهمة نابليون في مصر ، بفتح جبهة ثانية ضد الدولة العثمانية ؟! كما يذهب البعض إلى أن غزوات السعوديين في مناطق الخليج هي التي جعلت شيوخه يطلبون حماية الانجليز ..

لنبدأ بالحملة الفرنسية على مصر .. التي دامت من عام ١٧٩٨ إلى ١٨٠١ ، وفي تلك الفترة كان الأشراف يشكلون حاجزاً بين الدولة السعودية والمقاومة في مصر ، وذلك بسيطرتهم على الحجاز . وكان هؤلاء الأشراف على أطيب العلاقات مع السلطة « الكافرة » في مصر ، بينما يدعون الدفاع ضد الخوارج في الدرعية ! وكانت الدولة السعودية غارقة في حربها مع العراق ، ومؤامرات والي العراق التي انتهت باغتيال إمام السعوديين .

ولكن جماهير المسلمين في الجزيرة اشتركت على نحو بارز في دعم المقاومة المصرية

للاحتلال الفرنسي ، رغم إرادة الأشراف ، ورغم علاقتهم الطيبة مع الفرنسيين ، وإذا كانت المصادر التاريخية لم توضح تماما طبيعة هؤلاء المجاهدين الذين تدفقوا على صعيد مصر من الشاطىء الشرقي للبحر الأحمر ، وإذا كان بعض هذه المصادر قد وصفهم بالحجازيين ، باعتبار أن الجانب المشهور من شبه الجزيرة وقتها هو الحجاز . وكل عربي قادم من هناك فهو حجازي ، إلا أنه يصعب تفسير حماسة هؤلاء المقاتلين — التي أثارت دهشة الحملة الفرنسية — إلا بالتسليم بوجود عنصر وهابي في تكوينهم .

قال هيرولد : « كان أرهب إمداد وصل للمماليك ، هم المقاتلون القادمون من الحجاز ، الذين عبروا البحر الأحمر بالألوف ، وقد زعموا كلهم أنهم من سلالة الرسول (هذه من طرائف هيرولد ولا قيمة تاريخية لها) وكانوا يلبسون العمائم الخضراء ، ويحملون البنادق والسيوف والرماح والخناجر وفي خلقهم صلابة تنطلق بها وجوههم ، وقد تبين أن كثيرا منهم من الحجاج المغاربة الذين التقطوا بسرعة في الطريق . **ولكن أكثرهم — وأشدهم تعصباً بالطبع — عرب خلص من شبه الجزيرة** . ومع أن شريف مكة لم يشجعهم بالضبط على الانضمام لمراد (مراد بك حاكم مصر) فانه لم يفعل شيئاً ليثنيهم ، وقد أرسل في الوقت ذاته الرسائل الودية لبونابرت لأن موارده كانت تعتمد ، إلى حد كبير ، على ما يصدره من البن إلى مصر . وتجمع الروايات على أن « المكيين » أو « أشراف ينبع » كما سماهم الفرنسيون ، هؤلاء المقاتلين ذوي الجلود البرونزية والأجساد النحيلة ، كانوا مصداقا لحكم بونابرت على العرب : « إن ضراوتهم لا يعدلها إلا انحطاط مستوى معيشتهم . لأنهم معرضون أبدأ للرمال الساخنة والشمس المحرقة ، محرومون من الماء . لا رحمة في قلوبهم ولا عهد ، فهم صورة مجسمة للرجل المتوحش كأبشع ما يتصوره العقل ، وكان هؤلاء الرجال من سلالة أسلافهم الذين فتحوا نصف العالم قبل أحد عشر قرنا قد جاءوا في عام ١٧٩٨ ليقاتلوا الفرنسيين الكافرين بنفس الايمان »[٣٩] .

بصرف النظر عن عواطف المؤلف ، فمن الواضح أن الصورة أكثر انطباقا على « متدينة » نجد منها بمترفي مكة ، الذين كانوا يفرون إلى رؤوس الجبال عندما يأتي هؤلاء المتدينة بلباس الاحرام !.. فأنى لهم مقاتلة جيش نابليون بونابرت !

ومع ذلك فان الموقف السعودي الرسمي ، كان يتسم بالبرود ، إزاء الغزو الفرنسي لمصر ، وستتضاعف دهشتنا من هذا الموقف البارد ، بمراجعة كتابات ابن بشر عن تلك الكارثة التي روعت الجبرتي في القاهرة . فابن بشر يؤرخها كحادثة من حوادث السنة ، ويورد قصة هزلية عن سر سقوط الاسكندرية . فيدعي أنهم جاءوا بورقة مكتوبة من السلطان ، ولكنه تفسير ينسجم مع التصور العام الذي ساد العالم الاسلامي منذ الحروب الصليبية ، وهو رفض التسليم بأن انتصار « الكفرة » وهزيمة المسلمين يرجع الى تفوق الكفرة وتخلف المسلمين ، ونتيجة هذه القناعة ، كان لا بد أن تفسر الهزائم

المتتابعة بأنها نتيجة « ملعوب » ما ، أو غش في اللعب !*

على أية حال ابن بشر يلقب الفرنسيين بالكفرة ، وأرخ لثورة القاهرة الثانية ، وسجل إحدى ظواهرها المهمة وهي « ثورة أهل البلد على الباشاوات الترك »** . ولكن معلوماته عن مراد بك وتطورات الحملة شديدة التواضع .***

ويسجل ابن بشر جلاء الفرنسيين ويخطىء ، وهذا الحدث الذي رأى الجبرتي دلائله في حركة النجوم ، لا يمنحه ابن بشر أكثر من سطر واحد وعلى هذا النحو المذل : « وفيها (أي السنة) سار الروم بالعساكر العظيمة إلى مصر وأخذوه من أيدي الفرنسيين وأخرجوهم منه ، وفيها مات بادي بن بدوي بن مضيان رئيس عربان حرب ، ومات أيضا حمود بن ربيعان رئيس بوادي عتيبة » !

رحمة الله عليهما !. لقد جعلا السنة جديرة بالتسجيل ، وإلا لما ظفرنا ، وظفر الجلاء عن مصر حتى بهذا السطر !.. ولعل هذا يكون دواء لغرور المصريين ، فالجلاء عن بلدهم ووفاة بادي بن بدوي بنفس الأهمية . ويكون أيضا عذرا لهم لدى العرب الذين يتهمونهم بقلة الاهتمام بالقضايا العربية !

ولا يصدر موقف ابن بشر ، عن نزعة إقليمية ، حاشا لله ، فلم نكن بعد قد تقدمنا إلى هذا المستوى في عصره !.. وصحيح أن الجبرتي أفرد مكانا مرموقا في مذكراته للحركة الوهابية ، إلا أن الجبرتي كان يؤرخ لمصر ، فتناول الحركة الوهابية ، كأبرز حدث في السياسة الخارجية لمصر ، وأهم مصدر من مصادر إنفاق الخزينة ، أو الضرائب المتحصلة من الرعية المصرية طوال السنوات التي أرخها ، أما ابن بشر فكان يؤرخ للسعوديين ، وهؤلاء لم تكن لهم صلة مباشرة بأحداث الحملة (الفرنسية) وأيضا كان ابن بشر يؤرخ بعدما زال الخطر الفرنسي عن مصر ، وبعد الأحداث المؤسفة التي جعلت « محمد علي » **حاكم مصر** يتولى تحطيم الدولة السعودية الأولى ، ومن ثم لم يكن المجال يتسع للفرحة وحمد الله على خلاص مصر الذي أدى الى وصول محمد علي للسلطة .**** وأيضاً – وسامحونا فيها – لأن المصري دائما أكثر وعياً بقضايا العالمين العربي والاسلامي .

---

* ويبدو أننا لم نتخلص بعد من هذا الفهم ، فنحن نكتشف صهيونيا أو ماسونيا مندساً في قيادة المسلمين ، لنبرر الهزيمة ، وآخر النماذج حكاية السفينة ليبرتي . وانتظرناهم من الشرق فجاءوا من الغرب ، « وتحطمت الطائرات عند الفجر » .

** فأثبت بذلك أنه أكثر وعيا ودقة وإخلاصا للمهنة من الدكتور لويس الذي وصم هذه الثورة النبيلة بأنها من صنع الذهب التركي .

*** لو كانت معلوماته عن تاريخ السعوديين « وثيقة » بقدر معلوماته عن مصر فانا لله وإنا إليه راجعون !

**** وهذا من سوء حظ المصريين فمعظم التاريخ السعودي كتب في فترات توتر العلاقات . حتى ابن بشر !!

ولعل هذا « البرود » السعودي ، هو الذي شجع على انتشار روايات عن اتصالات فرنسية ـ سعودية . وقد زعم « جان جاك بيرني » في كتابه « جزيرة العرب » أن الملك عبد العزيز طالما أشار في حديثه مع الفرنسيين إلى تبادل الرسائل بين جده ونابليون الأول أثناء حملته على مصر » .

أولا سعود ليس جد عبد العزيز .. ولكن « نابليون » ذهب في اتصالاته مع الأمراء المسلمين إلى أمراء الهند ، وقد أرسل أحدهم رسوله على فيل إلى القاهرة لطلب مساعدة نابليون ضد الانجليز الذين كانوا يصفون السلطة الاسلامية في شبه القارة الهندية . فليس بمستغرب أن يتصل بهذه القوة التي تهزم جيوش الدولة العثمانية ، وتشغلها عن مهاجمته في مصر ، ولكن ما هي محصلة هذه الاتصالات ؟

لم يحفظ التاريخ ما يدل على أنها اتخذت طابعا جديا أو خرجت عن نطاق جس النبض ، وسياسة الكسب بمجرد إشاعة الاتصال الذي على مايبدو لم يكن بعيداً عن ملاحظة الأتراك وانتقادهم ، فسليمان باشا والي الشام من طرف « الدولة العثمانية أيدها الله إلى يوم القيامة ، وثبتها على عقيدة السنة والجماعة » يكتب إلى سعود الكبير : « فان كانت شهواتكم في إعانة الاسلام بالمقاتلة والمعاندة ، فقاتلوا أعداء الدين الكفرة الفجرة ، لا الملة الاسلامية »* ! وفي رد سعود الكبير أغفل هذه النقطة ، أو لعله اكتفى بقوله « المسلم الذي يعادي الاسلام وينابذ أهله لا يصير مسلما ولا من أهل الجماعة » .

والاتهام أو التحدي الذي طرحه باشا الشام ، قد أثير مثله ضد كل ثورة ، فرض عليها أن تقاتل معركتها الوطنية ، ضد القوى الداخلية أولا ، هذه القوى التي تفرض على الوطن الهزيمة ، ويمكن أن نشير إلى أكثر من ثورة يستطيع المؤرخ أن يسجل استغلال الأجنبي لها في القضاء على المقاومة الوطنية والتعجيل باحتلاله للوطن ، مثل ثورات المغرب على العرش ، وثورة عرابي في مصر ، وثورة المهدي في السودان ، وثورات المسلمين الهنود ، ولكن لا سبيل لاتهام هؤلاء الثوار بسوء النية ، ولا الاعتذار عن موقفهم ، فقد كان موقفا محتوما تفرضه وطنيتهم ، وتخلف النظام . ولا شك أن القيصر ورجاله وعددا كبيرا من الروس المخلصين قد اتهموا لنين ، بخدمة الغازي الألماني باضعاف المجهود الحربي الروسي ، بل وتسهيل اقتطاع المانيا لجزء كبير من أرض الوطن ، في صلح برست ليتوفسك . ولكن حساب التاريخ يتقرر في النهاية بالنوايا والنتائج .

الحركة الوهابية لم تكن فقط حركة وطنية تريد إنقاذ الجزيرة من خطر التحول إلى مستعمرة للغرب ، ولا مجرد حركة عربية تريد إنقاذ الوطن العربي من نفس المصير وبناء الوحدة العربية ، بصيغة ما ، وكخطوة على الطريق نحو الأخوة العالمية الاسلامية ، وتضع أمتنا على طريق التحديث لمواجهة تحديات العصر ، بل ومحاولة

---

* رجب ١٢٢٥ ـ ١٨١٠ م .

للاجابة على سؤال لماذا يتخلف المسلمون ويتقدم غيرهم . فمن ناحية النية كانت مشروعة وضرورية ، ومن ناحية النتائج ، وإن كنا سنتعرض لها بالتفصيل ، إلا أنه يمكن الاشارة هنا إلى أنهم في أعقاب الحرب العالمية الأولى أحصوا خمس دول إسلامية مستقلة هي : تركيا ، إيران ، السعودية ، أفغانستان ، اليمن . وحتى الثلاثينات لم يكن في العالم الغربي من الدول المستقلة إلا السعودية واليمن ... وذلك بفضل الثورة الوهابية بالنسبة للسعودية ، ولكن لا يمكن القول ان تلك الثورة حققت نتائجها التي استهدفتها ، وبنفس القوة لا يمكن القول بأنها ساهمت في النتيجة التي وصل إليها العالم الاسلامي ، بل بالعكس حاولت كل جهودها أن تمنع هذا المصير ... ولقد كان الغرب المعني والصانع لهذا المصير واعيا كل الوعي ، بل وبأضعاف إحساس المشرق ، بخطورة ما يجرى في الجزيرة العربية ، ومن هنا تدفق المستشرقون ، أو عيون الغرب ، على الجزيرة العربية لدراسة تلك الظاهرة ، وللتحقق مما يجرى هناك ، هل هو بعث حقيقي ، أم انتفاضة الموت للغريم الذي ظل يقاوم ثلاثة قرون أو أكثر .. والذي استطاع رغم كل ظواهر التدهور الحضاري أن يفرز المارد العثماني ، وابن تاشفين وابن تومرت .. ومحمد بن عبد الوهاب وسعود الكبير .

هرع هؤلاء الكشافة ، تحت الشعار المحبب للغربيين ، وهو « اكتشاف » جزيرة العرب ! الجزيرة التي « اكتشفت » أوروبا وحكمت أجزاء منها قبل ذلك بعشرة قرون ! والتي سجل الجغرافيون العرب كل حجر وبئر فيها ، بل وكل جذع نخلة خاوية ، جاء هؤلاء يكتشفونها ، معتمدين على مؤلفات الجغرافيين العرب .*

ولعل أول من وصل إلى الجزيرة بعد تحول الدعوة الوهابية إلى مرحلة الجهاد ، هو « كرستن نيبور » الذي وصل إلى نجد حوالي عام ١٧٦٥ وقد لاحظ الدعاية المعادية للسعوديين ، وفي نفس الوقت ، قوة دعاية السعوديين المضادة ، مما أتاح له تكوين فكرة صادقة عن الوهابية ، بل واستشف أهميتها المستقبلية ، ونقل صورة صادقة عن ذلك للأوروبيين[٤٠] ، وهو الذي لاحظ أن اسم « عبد الوهاب » هو الأكثر ذيوعا ، وهو أمر طبيعي ــ كما قلنا ــ فالأمير وقتها ، هو « محمد بن سعود » وإن كان له فضل الحدث التاريخي ، أو البداية التي أثمرت كل النتائج العظيمة ، أعني منح الحماية لابن عبد الوهاب ، إلا أنه لم يكن قد حقق للبيت السعودي المكانة التي بدأت في التبلور منذ عهد ابنه عبد العزيز عندما بدأ اسم الأمير السعودي في الانتشار .

ومع تصاعد الصراع البريطاني ــ الفرنسي ، حول الشواطيء العربية ، بحملة نابليون ، رأى المقيم البريطاني في البصرة ضرورة استكشاف هذا الاعصار الجديد ، خاصة وأنه كان يقترب من موقع المقيم ، فأرسل ضابط استطلاع زار الدرعية ، ورأى عبد العزيز بن محمد ، وعاد مدهوشا من صغر المدينة ، وبساطة عيش الأمير ،

---

* من حقنا أن نعتب على أستاذنا الشيخ حمد الجاسر ، قبوله تقديم كتاب باسم « اكتشاف » جزيرة العرب ، وهل هي أمريكا الهنود الحمر حتى يكتشفها هؤلاء الذين تعلموا الاستحمام على يد العرب ؟!

وضخامة صيت الاثنين ! ولكن بعد سنتين من زيارته ستكون جيوش هذه المدينة الصغيرة ، وذلك الأمير المتقشف ، تطرق حدود العراق الجنوبية بعنف ، وتثير الرعب في قلوب المستضعفين .

ثم جاء دومنغو باديا اى لبليخ ، الذي ادعى الاسلام وأطلق على نفسه اسم الحاج علي العباسي .. ولا يعرف حتى الآن ما إذا كان موظفا فرنسيا أو أسبانيا يعمل لحساب نابليون الذي أراد أن يسبر غور هذه الحركة التي اكتسحت الجزيرة في الفترة ما بين زيارة « نيبور » وهذا العلي العباسي ، حيث تعاقب على الامارة عبد العزيز وابنه سعود ، فوصلا بالفتوح إلى ذروتها ، وامتدت الدولة السعودية أو الدولة العربية المستقلة من الشام إلى حضرموت ومسقط ، ومن الخليج إلى البحر الأحمر . وباعتبار اهتمامات نابليون بالشرق ، وصدامه مع تركيا والانجليز . وادعاءاته الاسلامية ، فمن الممكن جدا أن يكون قد أرسل هذا الموظف الفرنسي* ، أو العميل الأسباني لاكتشاف هذه الطاقة الجديدة التي تفجرت في مهد الاسلام .

وقد وصل « علي بك دومنغو » إلى مكة في ٢٣ يناير ١٨٠٧ ـ ١٤ ذي القعدة ١٢٢١ ، وبريطانيا تنظم غزو مصر مع مماليك الألفي بك . وقد أتيحت لهذا المتنكر فرصة رؤية الدخول السعودي لمكة والرعب الذي زرعه المجاهدون في النفوس المستضعفة ، والذي سيظل ملتصقا بسمعة المجاهدين في الجيش السعودي ليكون عاملا أساسيا من عوامل النصر في حروب الملك عبد العزيز .. فقد سجل علي بك دخول خمسة وأربعين ألف مجاهد من جيش سعود الكبير ، مكة المكرمة في ثياب الاحرام ، بينما اختفى شريف مكة ، ولزم الجند وحرس المدينة قلاعهم يرتعدون فوق أكداس الذخيرة ، عاجزين عن استخدامها ..

والمجاهدون الحجاج يزحفون إلى داخل مكة ، يؤدون المناسك ويعودون منها تظللهم الراية السعودية التي لم تتغير من يومها ، والتي تحمل شعار التوحيد الذي قامت عليه الحركة « لا إله إلا الله » ..

وقد استطاع هذا المبعوث الخاص أن يسجل صورة صادقة لسلوك السعوديين وبعضا من مفاهيمهم . وأهم من ذلك الروح التي تحركهم ، قال :

« لم يلبث الذعر أن اجتاح الجبل وما حوله ، عندما احتلته جموع الوهابيين وكان مشهدهم يملأ النفوس ذعرا ، للوهلة الأولى ، ولكن ما أن يزول هذا الانطباع حتى يكتشف المرء خصالهم الحميدة ، فهم لا يسرقون قط ، لا عن طريق القوة ، ولا عن طريق الحيلة ، إلا إذا اعتقدوا أن المتاع يخص عدوا أو كافرا ، وهم يؤدون ثمن كل ما يشترونه ، وأجور كل الخدمات التي تقدم إليهم ، وهم يطيعون زعماءهم طاعة عمياء ، ويتحملون صامتين كل أنواع المشاق ، وهم على استعداد لأن يتبعوا قادتهم إلى أقاصي الأرض » . « إنني أعترف أنني وجدت جميع الوهابيين الذين تحدثت إليهم على جانب

---

* عمل بعد رحلته هذه ، بصفة رسمية في خدمة جوزيف بونابرت شقيق نابليون .

من التعقل والاعتدال . وقد استقيت منهم كل المعلومات التي ذكرتها عن مذهبهم ، ولكن على الرغم من اعتدالهم فان السكان والحجاج لا يستطيعون سماع مجرد اسمهم دون أن تتملك قلوبهم الرجفة ، بل إنهم لا يتلفظون باسمهم إلا همسا »[٤١] كما سجل هدم بعض المزارات والقبور ، وكذلك تعيين الشرطة لحض الناس على الصلاة .

المهم انه وجد أوروبي يقف مبهوراً أمام التنظيم والوعي والانضباطية في جيش شرقي مسلم ، وقبل سبع سنوات فقط كان نابليون يصدم السلطة العثمانية والسلطة المملوكية بانضباطية جيشه والتفافه حول قيادته ، وأذهل المصريين ، عندما دفع جنوده ثمن مشترياتهم من المصريين المحتلة بلادهم ، فقد تعود المسلمون على نهب وسلب جيوش الدولة التي ينتمون إليها ، ولم يروا منذ سقوط دولة صلاح الدين جنديا يدفع ثمن حاجاته التي يحصل عليها من المدني الأعزل ، وكان جيش دولة الخلافة هو مصيبتها الكبرى ، بفقدان روح الضبط والربط ، وعصيانه ، وتآمر قياداته ، وتمرده واغتياله للولاة وأحيانا السلاطين ، وكان حلم الخلافة هو التخلص من هذا الجيش من المشردين المشاغبين المنحلين ، وإدخال النظام الحديث أي الجيش على الطراز الأوروبي .. فاذا بالجيش السعودي يثبت أنه بتعاليم الاسلام يمكن أن يتفوق بدو نجد ــ وهم أبعد أهل الأرض عن روح الانضباطية والطاعة ، فضلا عن تقديس الملكية الفردية ــ على أي جيش أوروبي ، بما في ذلك الجيش الفرنسي الذي يستعرض مثاليات الثورة الفرنسية .

كانت طاعة هؤلاء الجند وتجردهم ، وسلوكهم النظامي أو المتحضر يفتن لب حتى أشد خصوم الحركة الوهابية فقد وصف مؤلف رسالة « الدرر السنية في الرد على الوهابية » الجيش السعودي بقوله : « كان الأمير محمد بن سعود وأولاده إذا أراد أحدهم أن يغزو بلدة من البلدان ، كتب لكل قبيلة يريد مسيرها معه ، كتابا بقدر « الخنصر » يطلب منهم الحضور ، فيأتون ومعهم جميع ما يحتاجون إليه من زاد وغيره ، ولا يكلفونه شيئاً* . وإذا « انتهبوا » (الغنيمة) شيئاً يأخذون أربعة أخماسه ، ويعطونه الخمس ، ويسيرون معه أينما سار ، ألوفا مؤلفة لا يحصيهم إلا الله تعالى ، ولا يستطيعون مخالفته في نقير ولا قطمير[٤٢] » .

وقد نشرت هذه الرسالة في عام ١٩٠١ أي عشية فتح الرياض ، عندما كانت قناعة الجميع ، أن الوهابية والجيش السعودي ، ظاهرتان تاريخيتان ، طواهما الزمن إلى الأبد .. وما كان أحد يظن أنهما سيبعثان قبل مضي خمسة عشر سنة ، ليحدثا نفس الأثر في نفوس المسلمين الذين يطحنهم العجز ، والذين وإن أجبروا على معاداة وإنكار التجربة السعودية ، يبقى في أعماق ضمائرهم حنين لانجازاتها يدفعهم للاعتراف ببعض هذه الانجازات ، وهكذا فان « الرد على الوهابية » لم يستطع تفادي الاعتراف

---

* ستجد نفس الوصف ونفس العبارات في حديث الملك عبد العزيز عن جيش أو مجاهدي الاخوان بعد مائة سنة .

بتلك « الدرة السنية » ، بل أثمن الدرر ، وهي تحويل البدوي أو الشرقي المتخلف إلى نموذج فريد في تفوقه .

ونقطة أخرى تثير إعجاب المراقبين بالاجماع ، مهما اختلف موقفهم من التجربة السعودية ، وهي الأمن .

« ومن محاسن الوهابية ، أنهم أماتوا البدع ومحوها ، ومن محاسنهم أنهم أمنوا البلاد التي ملكوها ، وصار كل ما كان تحت حكمهم ، من هذه البراري والقفار ، يسلكها الرجل وحده ، على حمار ، بلا خفر ، خصوصا بين الحرمين الشريفين ، ومنعوا غزو الأعراب بعضهم لبعض ، وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم ، من حضرموت إلى الشام ، كأنهم اخوان أولاد رجل واحد ، إلى أن عدم الشر في زمان ابن سعود ، وانتقلت أخلاق الأعراب من التوحش إلى الانسانية ، وتجد في بعض الأراضي المخصبة : هذا بيت غزي ، وبجانبه بيت عتيبي ، وبقربه بيت حربي ، وكلهم يرتعون كأنهم اخوان . ورأيت لهم عقيدة منظومة يحفظها حتى رعاة غنمهم ، منها :

وما الدين إلا أن تقام شعائر وتأمن سبل بيننا وشعاب .

« فكأنهم جعلوا تأمين الطرقات ركنا من أركان الدين »

ويبدو أن الشيخ قد اكتشف القانون الحضاري الذي يبدأ بتوفير الأمن ، فيقول إن « تحقيق الأمن ، يدفع الناس للاشتغال بالزراعة والتجارة وتربية الماشية للتكسب ، فاذا اشتغلوا بالكسب الحلال فلا ينهبون ولا يسرقون ولا يقتلون » ثم يلخص لنا اكتشافه « فكأن المسألة أشبه بالدورية* ، أي أنه متى وجد الأمان ، ارتفع السارق والقاتل لاشتغالهم بمعاشهم الحلال ، ومتى اشتغلوا بالمعاش الحلال وجد الأمان » .

أفادكم الله ..

وصاحب هذه الشهادة هو الشيخ عثمان بن سند البصري الفيلكاوي ، فهو أقرب أن يكون كويتيا ، وإن كان يصنف كمؤرخ عراقي ، وهو من خصوم الوهابيين ، وقد زعم أن هذا الأمن الذي حققه الحكم السعودي « كان دسيسة خدعوا بها العوام » ويبدو أن الدولة العثمانية ووالي البصرة ، لم يكونا بحاجة إلى دسيسة من هذا النوع : « فذهب الأمن وبطلت المعايش ، وتدهور الوطن الاسلامي إلى ما هو معروف »[٤٣] .

وقد انتشى ابن بشر في وصف حالة الأمن في ظل الحكم السعودي ، حتى قال برعي الذئب مع الغنم ، بل بما هو أخطر ؛ ترك الملكية بلا حراسة من الانسان ! فقال :

« فسماها الأعراب سنين الكما ، لأنهم كموا عليهم عن جميع المظالم الصغار والجسام ، فلا يلقى بعضهم في المفازات والمخوفات إلا بالسلام عليكم .. وعليكم السلام ، والرجل يجلس ويأكل مع قاتل أبيه وأخيه كالاخوان ، وزالت سنين الجاهلية وزال البغي والعدوان وسيبت الخيل والجياد والبقر وجميع المواشي في الفلوات ، فكانت

---

* يقصد حلقة مفرغة .

تلقح وتلد وهي في مواضعها آمنات مطمئنات وليس عندها من يرعاها ويحميها إلا من يأتيها غبأ ويسقيها »[٤٤]!

لقد أثبتت التجربة السعودية ، في جميع عصورها ، أنه بتطبيق الشريعة ، ولو جزئيا ، وفي حدود الامكانيات المتاحة لكل مجتمع ، أي بتطبيق قانون العقوبات يمكن أن يتحقق أول شرط من شروط المجتمع الانساني، وهو الأمن الفردي، الأمن على النفس والمال والعرض .. بل أول شرط يجب توفره للحديث عن تطور اجتماعي أو حضاري ، وهو ما كان الشرق يفتقر إليه ، وما كان الغرب يستغله للتشهير بالشرقيين وتبرير حملاته وغزواته واسترقاقه للشرق بحجة توفير الأمن بين الشعوب المتوحشة الهمجية ، وما كانت بعض القطاعات ــ ولا تزال إلى اليوم ــ تحمده للاستعمار الأوروبي ! فأثبتت الوهابية في تألقها في الدولة الأولى ، وفي عهد عبد العزيز ، بل حتى في فترات انكماشها ، أن الشريعة الاسلامية ، بما تخلقه من حس بالعدل في نفوس المؤمنين بها ، وما تفرضه من سيادة للقانون بقوة السلطة ، يمكن أن تحقق أمنا يفوق قدرة أي مجتمع وأية حضارة عرفها التاريخ . وكتب الغربيين حافلة بالنوادر المدهشة المذهلة للمواطن الأوروبي والأمريكي ، ليس في عصرنا هذا حيث اختل الأمن ، وتحولت مدن الغرب إلى غابات مفزعة ، يخشى السير فيها بعد غروب الشمس ، وتزود غرف فنادقها بالسلاسل ، بل والأقفال الاليكترونية التي تتغير كل ٢٤ ساعة ! بل كان الأمن السعودي مثيرا لدهشة الغربيين حتى في العصر الذي كان يضرب به المثل على قوة الردع الكامنة في عصا رجل الشرطة البريطاني ، المحظور عليه ــ وقتها ــ حمل السلاح مكتفيا بهيبة أو رعب القانون المتمثل في عصا رجل الشرطة !..

حتى في هذا الوقت استطاع السعوديون أن يقولوا : « نظامنا أفضل » ولسنا بحاجة إلى قوانين الغرب وأنظمته .. عندنا الحل الأفضل ..

ولم تغفل المخابرات البريطانية ، عن « الحاج » علي ، فعجلت له الدار الآخرة بوسائلها المعروفة .

كما ادعي الحج الكاذب ، الريخ زتسن الذي جاء في زي الحاج موسى ، وقد اجتمع بالامام سعود بن عبد العزيز (عام ١٨١٠) . ثم جاء بوركهارت أو الشيخ ابراهيم (١٨١٤ ــ ١٨١٥) تسبقه شبهة العمل لحساب المخابرات البريطانية ، وقد شك فيه محمد علي بالفعل ، وأجرى له امتحانا في مبادىء الاسلام ، نجح فيه بالطبع ، بفضل جهل الباشا فقد كان على الأرجح ، أقل معرفة بالاسلام من بوركهارت الذي لاحظ أن سكان الحجاز معظمهم من المهاجرين غير العرب ، وقد شهد بوركهارت للوهابيين ضد الأتراك فقال : « وما الوهابية إن شئنا أن نصفها إلا الاسلام في طهارته الأولى ، وإذا ما أردنا أن نبين الفرق بين الوهابيين والترك ، فما علينا إلا أن نحصي الخبائث التي إشتهر بها الترك »[٤٥] .

صدقت !

وقال : « لكي نصف الدين » الوهابي ، فان ذلك يعني وصف العقيدة الاسلامية ،

ولذا فان علماء القاهرة ، أعلنوا انهم لم يجدوا أية هرطقة (بدعة أو خروج عن الدين) في الوهابية »[٤٦] . وحتى بعد سقوط الدولة السعودية ، فان ظاهـرة الانفجـار الاسلامي ، ستظل تجذب المستكشفين ، وسيأتي جورج والين ١٨٤٥ ـ ١٨٤٨ ليقول عن السعوديين : « إنهم لا يدعون أنفسهم وهابيين أبدا ، فهذا الوصف استخدمه خصومهم ، أما هم فيصفون أنفسهم ببساطة بأنهم « المسلمون » أو الموحدون »[٤٧] . وقال « إن بعض الكتاب المعاصرين ، يزعم أن الوهابيين أنشأوا مذهبا خاصاً بهم . وهو زعم خاطىء ، فالوهابيون مجرد إصلاحيين ، يتبعون المذهب الحنبلي »[٤٨] .

ثم المقيم السياسي في الخليج ، بللى الذي سيشهد الأيام الأخيرة في حياة فيصل بن تركي ، والليدي بلنت (١٨٧٩ ـ ١٢٩٧) التي ستشاهد بقايا الوهابية في جبل شمر وبلاط ابن الرشيد . وسيستمر التدفق حتى شكسبير وفيلبي .. ومازال* .

* ملاحظة أخرى اتفق عليها كل الأجانب ، وهي التسامح الذي يعاملهم به الوهابيون ، مقابل الشدة التي يعاملون بها مخالفيهم من المسلمين .. وهو موقف طبيعي ، وظاهرة معروفة في كل الحركات العقائدية ، أو الثورات التي تأخذ شكل حرب أهلية ، إذ يصبح « المنشق » أو « المنحرف » أخطر وأكثر استهدافا لنقمة المؤمنين ، من المخالف الواضحة مخالفته ، والذي لا يقاتل « المؤمنين » على أرضهم الفكرية ، أو ينازعهم جماهيرهم .

كانت الحرب السعودية ـ العثمانية هي الفصل الأخير في التجربة الوهابية الأولى ، وأريد هنا ، مناقشة ثلاث قضايا :

● مدى الحتمية في ذلك الصدام المسلح بين الدولة السعودية والسلطنة ؟ وهل كان مجرد خطأ تكتيكي من سعود الكبير ، بلا مبرر ولا ضرورة تاريخية ؟ بينما الكياسة كانت تفرض عليه المهادنة وحسن السلوك مع الملوك ؟!

● الحقيقة والأكاذيب عن الدور « المصري » في تلك الحرب .

● أسباب وأبعاد الانتصار التركي والهزيمة السعودية .

أما أن السعوديين يتحملون مسئولية الصدام مع الترك ، فهذه حقيقة لا سبيل لدحضها ، وأما ان ذلك كان خطأ لا مبرر له من جانب سعود الكبير١٣م ، فهو قول يفوق الخطأ ، ويصل إلى درجة الخطيئة ، لأنه يعنى تجريد الحركة السعودية من كل مبرر تاريخي أو رسالة !

الصدام مع الترك ، أو « الروم »* كما كان العرب يسمونهم ، كان محتوما ، وقد بدأ مبكرا ، وفي عهد عبد العزيز ، هذا إذا نظرنا إليه من الناحية العسكرية البارزة ، أما من ناحية المفاهيم والمبادىء والشعارات ، فدعوة محمد بن عبد الوهاب ، وما اتفق عليه مع الأمير « محمد بن سعود » ، كلها موجهة مباشرة ضد الترك والسلطنة والخلافة .

والحرب التي دارت في الاحساء ، والصدام مع الوالي التركي في بغداد ، وإعلان ابن غنام أن الحملة التركية التي زحفت من العراق لانتزاع الاحساء من السعوديين كانت تريد تقسيم الاقليم بين « الروم » والبدو .. وإصرار السعوديين على أن بلادهم « وقرية » الاحساء ليست داخلة في بلاد « الروم » أو ملكهم ، وتطور الصراع إلى غزو السعوديين للعراق ، ثم تدبير والي بغداد لمقتل الامام السعودي عبد العزيز بن محمد ، ومصرعه هو بدوره على يد السعوديين أو بتدبيرهم . كل هذا يجعل الحرب سابقة على ولاية سعود ورسالته « الغليظة » ، بل وسابقة على غزو الحجاز ووقف الحج . ورسائل والي بغداد تؤكد أن مقاتلة هذا « المبتدع » الوهابي « فرض عين » أي لازمة على كل

* وهي تسمية ذات مغزى فى المعجم السياسي العربي ، ولكنها أيضا بالغة الدلالة من ناحية الجيوبولتيك ، فالاتراك عندما دخلوا القسطنطينية تقمصتهم روح المكان ، فأصبحت لهم إمبراطورية بيزنطة وتقاليد بلاطها واهتماماتها ، ونظرتها إلى العالم العربي .

مسلم ، ولابد من « تطويقه من كافة الجهات » لأن « حركته لاتشبه بوجه من الوجوه غيرها من التي سبق معالجتها ، بحيث لا يمكن أن تقاس بها » .

فحتى والي بغداد ، كان لديه من الوعي ما جعله يدرك أن هذه الحركة لا تقاس بما سبقها ، فهي ليست مجرد فتنة نجدية ، ولا غارات بدوية ، ولا حتى حركة تمرد من أمير يريد توسيع ولايته ، أو الوصول الى مركز أقوى في مساومة السلطنة على امتيازاته . بل شيء لم يسبق له مثيل بشهادة أول وال عثماني يتصدى لمحاربة السعوديين .

ولكن الصدام لم يتصاعد ، ولم يحسم على الجبهة العراقية ، لعدة أسباب منها عجز والي العراق العسكري ، مما جعله يفضل التآمر والاغتيال على توفير « حملة البنادق » ، ومنها تغلغل الدعوة الوهابية في عرب المنطقة ، فكانت ميولهم مع السعوديين ، ولم يدخروا جهدا في خدمة الاسلام بتضليل حملات « أمير المؤمنين » والتعرض لها ، وخذلانها في اللحظة الحاسمة ، بعكس الحال في الجيش الخليط الذي جاء من مصر ، فلم يكن للدعاية الوهابية أي تأثير عليه ، بل كان في « مأمن » من الفكر السعودي ، بجهله للغة العربية وانحلاله الخلقي ، وفحش سلوكه ..

ومنها أن الدولة كانت غارقة في قضية مصر ، حيث فاجأها الاحتلال الفرنسي ، وظلت منهوكة القوى في محاولة إخراج الفرنسيين من أهم ولاياتها . طوال السنوات من ١٧٩٨ ــ ١٨٠١ (١٢١٣ ــ١٢١٦) ثم تدهور علاقتها مع بريطانيا ، ومحاولتها ــ أي تركيا ــ إعادة مصر إلى الحظيرة السلطانية على نحو أكثر فعالية مما كانت عليه قبل الحملة الفرنسية .. وقد أدت هذه المحاولات إلى صدام مع المماليك وتداخلات أجنبية ظلت تشغل السلطنة عن الوضع في الجزيرة العربية إلى العقد الثاني من القرن التاسع عشر .. ومع ذلك فجميع الفرامانات التي وصلت إلى « من يعنيه الأمر » في مصر ، والشام والعراق ، كانت تطالب ببذل الهمة للقضاء على الفتنة في الأراضي المقدسة ، ولكن من يعنيه الأمر في دمشق وبغداد ، لم يكن قادرا ، ومن يعنيه الأمر في مصر كان يتغير ثلاث مرات يوميا ! فلما استقر الأمر بمحمد علي ، ظل يماطل ويؤجل تنفيذ القرار ، حتى استكمل سيطرته على الوضع الداخلي ، بذبح المماليك وتشتيت القيادات الوطنية . ولم تكن تخفى عليه صعوبة الحرب في الجزيرة ، ولا النتائج التي يمكن أن تترتب عليها ، لصالح أهدافه وخططه للاستقلال بمصر .. وتوابعها ..

وهكذا فالصدام مع تركيا كان محتوما ، والحركة الوهابية كلها تغدو ضربا من العبث والخسائر غير المبررة لجميع الأطراف ، إن لم تكن تحمل هدف التحرر من السيطرة العثمانية ، كخطوة أساسية لانقاذ العالم العربي من السقوط في قبضة الاستعمار الأوروبي ؟! هل كل أبعاد دعوة محمد بن عبد الوهاب هو حكم جزيرة العرب ؟! أو ما يسمح به جلالة السلطان منها ؟ ما الفرق إذن بين عبد الوهاب وسعود وبين علي باشا الجزار أو محمد علي أو الألفي بك ؟!

وقد أخذ على « سعود » الكبير تحرشه بالسلطنة ، سواء في أسلوب مخاطبة السلطان

أو في قضية الحجاز التي كانت تشغل أهمية خاصة بالنسبة للسلطنة . وتوسع المحللون والنقاد في لوم سعود . وهناك توقيعات سلطانية تعزز هذا الزعم مثل قوله لمحمد علي : « إن مطلبي المنحصر بالمصلحة الحجازية » ومثل « وبما أن أصل مطلوبي ومرادي منحصر بضبط إدارة الحرمين الشريفين على صورة جيدة »* ...

قال الشيخ حافظ وهبة : « لو أن سعودا اقتصر في الدعوة على جزيرة العرب . وترك الحج حرا للأتراك والمصريين ، ولم يمس الناحية الحساسة في الترك ــ وهي السيادة في الحجاز ــ ما اهتم الأتراك بأمره ، فقد مكثت جزيرة العرب مدة طويلة ، ونار الفتنة فيها تأكل الأخضر واليابس ، وكانوا يتحملون هذا ويعدونه من الأعمال الطبيعية ، وأي فرق في نظر الأتراك بين آل سعود والأشراف . والفريقان من العرب ، وأفضلهم من يحتفظ لهم بالسيادة ، ولو اسميا ، مع نشر الأمن والمحافظة على سلامة الحج » .

وردد العجلاني نفس الفكرة ، بانتهازية أوضح :

« وأغلب الظن أن الامام سعود كان يستطيع توحيد جزيرة العرب كلها ، واستبقاءها تحت رايته إلى ما شاء الله ، لو أنه اتبع سياسة ودية أو شبه ودية مع اسطمبول ، واكتفى بنوع من التحالف يعقده مع شريف مكة ، يضمن به ولاءه »[٤٩] .

كلام الشيخ وهبة صحيح ، فطالما ظلت الحركة الوهابية ، أو بمعنى أصح ، البيت السعودي ، مجرد عائلة حاكمة في قفار نجد ، حروبها فتن ، لا تبدل شيئا في خريطة الواقع العربي أو الاسلامي . فان اسطمبول لا تهتم ، بل لعلها ترحب وتشجع هذه الفتن ، فهي في النهاية ستأكل كل الأطراف . ولكن البيت السعودي رفض هذا الخيار ، وكما قال ابن بشر بالضبط : « حولوا « الفتن » إلى « جهاد » . و « النهب » إلى « غزو » و « الملك » إلى « رسالة » ومن ثم كان لابد أن تنتبه لهم اسطمبول وتضيق بهم . وكان والي بغداد أكثر فهما واحتراما لدعوة خصومه السعوديين من مؤرخي هذا الزمان ، عندما وصفهم بأنهم يختلفون عن كل من سبقهم ، وأن حركتهم ليست من نوع الفتن التي اعتادت عليها الدولة ! .. وإن كان قد زعم أن « سعود الكبير » أعطى تعهدا أو « سندا محررا الصق عليه طابع رسمي » !! بعدم مهاجمة ممتلكات السلطان لا في الحرمين ولا غيرها !

ولم يقل لنا ثمن طابع التمغة الذي وضع على هذا التعهد لنعرف قيمته !!

ربما لو كان « السعوديون » قد سمعوا نصح انتهازيي اليوم ، وقدموا الولاء للسلطان ، وقبلوا حكم الحجاز تحت رايته ، ربما كانت الآستانة تود لو دهنوا فتدهن ! ولكن حتى هذه الفرضية كانت مستحيلة ، لأن الوصول إلى حكم الحجاز ، كان يتطلب أن تكون للبيت السعودي رسالة ، فلو كان مجرد طالب ملك ، فانه لم يكن أكبر بيوت الجزيرة ، ولا أحقها بالملك ، وما كان لسعود الكبير أن يخضع شريف مكة لسلطانه ، إلا لأنه كما قال عبد العزيز آل سعود للشريف المهزوم : « خلعت ثوب جدك وأنا لبسته » ،

---

* رسالة السلطان الى والي الشام (١٢٢٥ ــ ١٨١٠)

وما لبس آل سعود بردة رسول الله إلا بالدعوة الوهابية .. أي بالرسالة أي بالدور الاسلامي الذي لابد أن ينازع الصفة الرسمية للسلطان ..

فالقول بأنه كان يستطيع توحيد الجزيرة والاحتفاظ بها تحت رايته إلى ماشاء الله لو أنه « لان » للسلطان ، وحالف الشريف .. هو قول يدل على الجهل التام بطبيعة الحركة ، كثورة عربية ، ضد حكم الآستانة . وترديده يدل على أن كل ما يخلعه هؤلاء الكتاب من صفات التمجيد في عروبة الحركة ، هو نفاق أو مجرد ترديد ببغائي لتحليل الآخرين . فمن يؤمن بأنها حركة تحرير عربية ، ومحاولة لاعادة الخلافة للعرب ، كيف يتمنى لو أنها حكمت الجزيرة في ظل راية السلطان ؟! ومن يؤمن فعلا أنها حركة تطهيرية ، كيف يطالبها بالتحالف مع الشريف ، الذي كان حكمه مضرب المثل في الفساد والانحراف عن الدين ؟ وهل كان يعقل أن يسمح « سعود » الكبير بدخول الحج الشامي ، بقيادة « عبد الله باشا العظم » الذي تسميه العامة : « سكران باشا » !

ولكن الذين لا يعنيهم من الظاهرة السعودية ، إلا « الملك » ، يذهبون إلى حد مؤاخذة « سعود الكبير » على عدم مزاحمته محمد علي في رشوة القبائل ، ويقولون : إنه لو فعل « لاستطاع أن يتفادى بها الكثير من المتاعب والخسائر » . والحمد لله أنه لم يفعل ، لأن ذلك يتنافى مع روح الدعوة ، وما تطرحه من شعارات للتطهر والايثار والاستشهاد . وكلها صفات ضرورية لانتصار أية حركة تعتمد على العقيدة أكثر مما تعتمد على الوسائل المادية ، فالدخول في سباق شراء الضمائر والولاء ، سيجرد الحركة من عنصر تفوقها وسينقلها من أرضها ، إلى القتال على أرضية عدوها ، ومهما قيل عن ثروة سعود الكبير ، فلم يكن بوسعه منافسة خزينة محمد علي والسلطان ..

سعود كان أكثر وعيا وإخلاصا ، عندما ترك المؤرخين من هذا الصنف يأخذون عليه أنه كان يقول للأعراب : « قاتلوا عن دينكم وأوطانكم » فحتى وإن كان الأعراب قد فضلوا القتال عن بطونهم وجيوبهم ، فقد بقي شرف إعلانه أنها حرب من أجل الدين والوطن .

وقد نسب حافظ وهبة للملك عبد العزيز أنه انتقد سياسة سعود الكبير لأنه « كان يحارب السلطان ويهادن شاه العجم » ولو صحت الرواية ، فهذا لا يعني صحة الفهم ، فكثيرا ما تتغير معاني الكلمات ، باختلاف المستشارين وقد يكون الملك قصد التدليل على أن معاداة الترك ، أو إذلالهم ، لم تكن منبعثة عن تعصب ، أو قصر نظر ، أو جفوة سببها جهل الدبلوماسية والعلاقات الدولية ، بل ها هو « سعود » يعادي السلطان ويحالف القوى الأخرى في المنطقة !

وهذا على الأقل ما فهمه « شكيب أرسلان » فقد استدل من هذه المهادنة على أن : « الأمير سعود بن عبد العزيز ، كان رجلا ماهرا في السياسة ، فرأى أنه مادام مقاوما للسلطنة العثمانية ، فلابد له أن يصافي أعداءها ، فتودد إلى شركة الهند الانجليزية ، وإلى العجم ، وأمر جماعته بالمحافظة على قافلة الحج الفارسي تودداً إلى « فتح على شاه » .

وكيف يعقل أن يدين عبد العزيز « سعود الكبير » لأنه لم يخضع للسلطان وهو القائل في موسم الحج لعام ١٣٤٩ ـ ١٩٣١ : « لقد أوذينا في سبيل الدعوة إلى الله ، وقوتلنا قتالا شديدا ، ولكنا صبرنا وصمدنا ، إن أعظم من حاربنا ، هم أجداد هذا الرجل (وأشار إلى الأمير أحمد وحيد الدين حفيد السلطان عبد العزيز) ولم يقاتلونا إلا لأننا امتنعنا أن نقول للسلطان إننا عبيد أمير المؤمنين .. لا .. لا .. لسنا عبيدا إلا لله تعالى » !.. هل هذه لهجة أو مفهوم من يدين « سعود » لأنه اصطدم بالسلطان ؟! ألم يكن الملك عبد العزيز يفكر في رسالة « سعود » الكبير وهو يفخر بأن أجداده لم يقولوا « مولاي » للسلطان ؟!

ولو صحت رواية بوركهارت ، عن سعود الكبير ، وأكثر من نصف كتابات هؤلاء المستشرقين هي من إنشائهم، ولكن لو صح، وهو أمر غير مستبعد، أن سعوداً قال: « لولا هذه الأمور والتصرفات ، لوصلت دعوتنا إلى القاهرة واستانبول » . لو صح هذا القول فهو صريح الدلالة على أهدافه في إيصال الدعوة والسلطة إلى استانبول والقاهرة ، وهي تشير إلى وجود انتقادات لسعود على الحركة ، وتمنيه لو كانت هناك فرصة لتصحيح هذه الأخطاء ولكن ليس منها بأي حال الندم على استفزاز اسطمبول أو عدم مداهنة السلطان ! ومن ثم فان الرسالة الشهيرة طبيعية ومقبولة ، بل لعلها ـ إن صحت ـ تمثل احدى الشواهد على روحية ثورة العرب الاولى :

من سعود إلى سليم* .

« أما بعد فقد دخلت مكة في الرابع** من محرم سنة ١٢١٨ ، وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم ، بعد أن هدمت ما هناك من أشباه الوثنية ، وألغيت الضرائب إلا ما كان منها حقا . وثبت القاضي الذي وليته أنت طبقا للشرع . فعليك أن تمنع والي دمشق ، ووالي القاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور إلى هذا البلد المقدس ، فان ذلك ليس من الدين في شيء . وعليك رحمة الله وبركاته » .

هذه أول رسالة ، من حاكم عربي (مشرقي) مستقل إلى « الباب العالي » « ولي النعم » .. « خاقان البحرين وسلطان البرين وحامي حمي الحرمين » . إنها لا تتسم بالعزة العربية والبساطة فحسب ، ويكفي مقارنتها بعبارات النفاق*** التي كان

---

* الزركلي والعطار أضافا البسملة وصححا الاسم إلى سعود بن عبد العزيز السعود . والتوقيع إلى الواثق بالله المعبود . وقد أوردها الريحاني قائلا وجاء فيها ما معناه . وهي لم ترد في ابن بشر .

** في الجبرتي أن الدخول كان في يوم عاشوراء أي العاشر من محرم . وبالطبع سعود أدرى فهو الداخل !

*** وكان والي بغداد الذي تولى محاربة سعود يبدأ خطاباته إلى الباب العالي هكذا : « هذا تحرير عبدكم والي بغداد . والأمر والفرمان لمن له الأمر » .

ووالي مصر يشتري السفن من جيبه الخاص ويحارب لاعادة سيطرة السلطان ، ولكنه يكتب للسلطان هكذا : « حضرة صاحب الدولة والسعادة ، والعطوفة ، والرأفة ، عالي الهمم ، كريم الشيم سلطاننا أفندينا » .

« محمد علي » يتذلل بها للباب العالي ، وهو يغزو أرض السلطنة ، ويأسر أسطولها .
أما « سعود » الكبير فيكتب من سعود إلى سليم .. ويرفض أن يمنحه السلام لا في البداية ولا في النهاية بل اكتفى بطلب الرحمة .

وعبارة من سعود إلى سليم وضعت بوعي سياسي ، لأن أية صيغة أخرى كانت مستحيلة ، فهو لا يستطيع أن يصف نفسه بلقب يحدد سيادته ، وإلا فماذا سيقول ؟ أمير الدرعية ؟ . وماذا يفعل أمير الدرعية في مكة ؟! ولماذا ذهب إلى العراق ومسقط ، وسيذهب إلى الشام ؟

فهو لا يستطيع أن يضع قيدا جغرافيا على حدود حركته أو دعوته ، وهو أيضا لا يقبل أي لقب من الألقاب المتداولة ، فهو ليس بسلطان ولا ملك ولا داماد ولا كتخدا ولا باشا ولا خديوي . ولا هو بالدعي حتى يسمي نفسه أمير المؤمنين أو خليفة المسلمين ، فهو يعرف شروط الخلافة وتبعاتها ، ولم يتطلع إليها ولا ادعاها أي أمير سعودي من قبله أو بعده* . فهو أمير المسلمين الذين « تدينوا » وهو سعود حامل الدعوة وناشرها حيثما شاء الله ، ووطأت خيوله ، ومن ثم امتد ملكه دون تقيد بدعوة مزعومة !

أما قوله : « سليم » (حاف) فلتجنب التسليم له بأية صفة ، فهو ليس السلطان ، فلو سلم بذلك لأقر على نفسه بشق عصا الطاعة .

وهو ليس أمير المؤمنين بكل تأكيد ..

اذن من « سعود إلى سليم » ليست جملة بدوية تستحق التعليق من المتحذلقين ، ولا هي من باب « جر الشكل » أو التحرش ، بل وضعت بدقة بالغة ، رغم أو بسبب عدم وجود مستشارين وجهاز دبلوماسي !

أما الجزء الذي شاع وذاع في العالم العربي ، فهو الذي يتضمن إثارة واعية للمسلمين ، باتهام الدولة بما كان في مكة من أشباه الوثنية . ثم هي مناجاة للتجار والمطحونين بالمكوس الظالمة** .

« وثبت القاضي الذي وليته » .

والقاضي كان حنفيا بموجب العرف السائد في الدولة العثمانية . وبتثبيته وإعلان ذلك تنتفي المزاعم الرائجة عن تعصبهم ، وتزول مخاوف الذين لا يرقى إخلاصهم لقناعتهم إلى حد التضحية بمصالحهم . ثم هو يعلم « أمير المؤمنين » ما هو من الدين ، وما ليس من الدين . ويأمره : « عليك » وليس « نلتمس » ...

هي إذن وثيقة إعلان الاستقلال ، دون الاعتراف بتبعية سابقة ، أو تسليم بوجود

---

* وقد فسر الملك عبد العزيز هذا الرفض بقوله : « يقولون : إنني أطلب الملكية ، وأن أصير خليفة على المسلمين ، أنا ما ادعيت هذا ولا طالبت به ، لأن على الخليفة واجبا هو تنفيذ أوامر الدين على كل فرد من أفراد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .
وهل هنالك من رجل يستطيع أن ينفذ ذلك على المسلمين في هذه الأيام ؟ »

** لا أعتقد أن سعودا قال « الضرائب » في رسالته !

عصيان ما ، أو شبهة خضوع ولو باعلان الثورة على السيد السابق .
هي رفض للمراسم والطقوس وسجع ثلاثة قرون من التقاليد الديوانية ، أو بالاحرى الرومية ــ البيزنطية التي نظمت علاقة قيصر الروم المسلم باتباعه ، لقد عادت بساطة صدر الاسلام ؛ بساطة الحضارة العربية النقية ..
حتى إذا لم يكن كتبة الديوان السعودي على وعي بهذا الانقلاب الثوري الذي يحدثونه ، فقد كان اقتباسهم اسلوب صدر الاسلام ، هو في حد ذاته الانقلاب على الصيغة العثمانية .
فلا معنى للوم « سعود » على جفوته ، فلو لم يكن في تاريخه سوى هذه الرسالة لكفاه . أما الفتوحات فقد زالت كلها أو معظمها بعد سنوات قليلة من وفاته .
أما دخول سعود الحجاز ، فقد كان أمرا محتوما ، إذ لا يمكن لدعوة إسلامية الطابع ، تستهدف ما استهدفته الحركة الوهابية ، ومقرها في الجزيرة العربية إلا ان ترنو بطموحها إلى الحرمين ، وتطهيرهما ، وتحمل مسئولية حمايتهما .
وقد بدأ « سعود » في مكة البداية الطبيعية ، بقبول دخول الجميع في دين الله أفواجا ، وفتح صفحة جديدة لهم ، ولكنه أدرك تآمر الشريف وعدم اخلاصه ، فخاف ، كما قال ابن بشر أن يتقوى الشريف بالحج الشامي ، ويدبر أمرا ما فبادر بمنع هذا الدخول كضرورة أمنية ، وأيضا لما كان يصاحب هذا الحج من مظاهر تستفز مشاعر جنوده ، وقد رأينا الاخوان يصيحون عندما رأوا المحمل المصري بعد مائة سنة : « الصنم ... الصنم » .. ظنا منهم أن المصريين يعبدونه . فماذا يقولون عن المحمل في القرن التاسع عشر !
ومع منع الحج الشامي الذي كان يقوده « سكران باشا » اتخذ سعود احتياطا آخر باخراج الأتراك من مكة ، قال ابن بشر : « أخرج من كان في قصور ــ أي قلاع ــ مكة من عساكر الروم » وقد رأينا في ما كتبه علي بك دومينغو ، أنهم كانوا مسلحين ومحصنين . وإذا كان الدخول السعودي ، فاجأهم وأرهبهم ، فلا يستبعد أن يتشجعوا إذا ما رأوا أمير الحج الشامي وجنوده . وفي مثل هذا الجو كان من الطبيعي أن يغادر مكة ، الأجانب الذين لا مصلحة لهم في الحرب المنتظرة ، ليتجنبوا الحصار المعتاد حيث لا طعام إلا « النار والفار » . حتى وإن ساء جلاؤهم الريحاني بعد قرن وربع .. فسجله في قائمة أخطاء « سعود » الكبير !
كانت الخطوة الثانية هي استكمال السيطرة على الحجاز بالاستيلاء على جدة ، وقد توجه سعود فعلا الى جدة ، ولكن الشريف كان قد حصنها وحفر حولها خندقا . وهنا ارتكب غلطة فادحة ، فقد مل « سعود » الحصار ، لأنه وجد جدة محصنة فانصرف عنها ، وربما اتخذ هذا القرار تحت تأثير الأنباء التى وردته عن استعدادات شاه العجم للهجوم على الحدود الشرقية للدولة . وقال ابن بشر : « وجدها محصنة بسور حصين وخندق دونها ، فرحل عنها »[٥٠].
ولو صبر عليهاوأكمل تحرير الساحل الغربي للجزيرة ، لصعب على « محمد علي »

إنزال قواته في الجزيرة ، أو على الأقل لتكبد خسائر فادحة من المقاتلين السعوديين على الشاطىء.*

هذه أول غلطة لسعود ، ولكن الغلطة القاتلة ، أو المقتل الاستراتيجي للتجربة ككل ، هو الاختناق في الرحم . فكما قلنا ان الجزيرة العربية قبل النفط ، لا تملك مقومات بناء دولة عصرية ذات اكتفاء ذاتي ، وقد وصل النظام السعودي إلى ذروة قوته ، ودان الجزء الأكبر من الجزيرة العربية للدعوة التي يحملها ، وكان لا بد أن يخرج الجنين بعد ما اكتملت شهوره ، وقد وصل جيش سعود إلى أطراف العراق والشام ، ولكنه عجز عن قهرهما عسكريا ، أو التوغل إلى مواقع الكثافة البشرية ، والمراكز الحضارية ، التي تحول غزواته من حروب بدوية ، إلى فتح حضاري ، وتضع تحت تصرفه موارد مصر من الأمصار الكبرى . ولم تتح للسعوديين فرصة نشر أفكارهم بين الأهالي في الشام الذين كانوا قد تخلصوا لتوهم من الغزو الفرنسي ، تحت الراية العثمانية فانتعشت آمالهم من جديد في قدرات هذه الراية ، وسيحتاجون لثلاثين سنة ، حتى يعود سخطهم ويدفعهم للترحيب بفاتح يخلصهم من هذه الراية . هذا فضلا عن التركيبة الخاصة للشام وما بها من حواجز موروثة ضد الدعوة السلفية . فأهل الشام يفضلونها أموية ناعمة مرنة ، على وهابية خشنة صارمة .

وهكذا أصبحت الدولة السعودية محاصرة من الشرق والشمال بالفرس والترك ، والدعاية حول كربلاء ومياه الخليج ، وتركيبة الشام وقوة مدنها وحصانتها ، ومن الجنوب بالجبال والزيود . ولم يكن امامها من منفذ أو أرض خصبة ، إلا مصر ، التي يتلهف شعبها على الحل الاسلامي** ، وفقد الثقة نهائيا في السلطنة العثمانية .

وهذه هي عقدة التاريخ المأساوية ، فقد كان دخول مصر في الدعوة الوهابية ، هو شرط نجاح هذه الدعوة في لعب دورها العربي ثم الاسلامي .. وكان صدامها مع والي مصر هو السبب المباشر في هزيمتها..

هناك قاعدة تقول : « كل ما هو ضروري ممكن » فهل كان فتح « مصر » ممكنا ؟! نعم بدليل أنه تم مرة على يد أربعة آلاف مؤمن جاءوا من نفس القبائل والبلدان التي جاء منها جيش الوهابيين ، وحتى إذا لم نقترح غزوة سعودية لمصر في ذلك الوقت ، مع أنها لم تكن مستحيلة برا عن طريق العريش ، أو حتى بحرا من السويس والقصير ،

---

* وقد حاول السعوديون فعلا الاستيلاء على الساحل ، فحاصروا « جدة » ثم انسحبوا ، كما فشلوا في « الليث » ، وفشلوا في الاحتفاظ بينبع التي استولوا عليها ، ثم اضطروا لاخلائها ، لأن بدو حرب وجهينة لم يقدروا على مواجهة المدافع . وكان بها وقت هجوم طوسون حامية صغيرة تغلب عليها بسهولة ، أما جدة فكانت قد خضعت اسميا لسعود بدخول الشريف تحت الطاعة ، ولكن لم توجد بها أية حامية ، ولو أخذت فتحا لتم القضاء على الشريف قبل سنوات من وصول الحملة .

** كان المصريون بحكم الصدمة الفرنسية قد اكتشفوا خواء الدولة العثمانية وضخامة الخطر الأوروبي . ومن ثم كان تلهفهم على الحل ، ويسعدهم ان يكون حلا اسلاميا .

ومن الناحيتين توجد قبائل عربية يمكن كسبها ، وخاصة في ظل حالة الفوضى التي سادت مصر بعد جلاء الفرنسيين وإلى اتمام سيطرة محمد علي . على الأقل كان من الممكن غزو مصر ايدلوجيا ، ومن استقراء النتائج التي تحققت بمجهود قليل قام به الوهابيون فعلا ، من خلال المنشورات والحجاج المغاربة واتصالات أخرى غير معروفة ، يمكن القول ان هذا الغزو الفكري كان ممكنا ، فالثابت وجود رأي عام متعاطف مع السعوديين ، ووجود خلايا أو متعاونين كانوا ينقلون أخبار تحركات محمد علي إلى الدرعية ، ويساعدون الأسرى السعوديين . كان من الممكن لو أعطي هذا الهدف ما يستحقه من جهد لحقق كسب مصر ، ولتولى المصريون الوهابيون تحريرها . وإن كان وصول نجدات سعودية ليس بالمستحيل ، فقد وصلت فعلا وقاتلت في مصر قبل سنوات ، كما رأينا ، وكان الحج هو المجال الطبيعي لتجنيد المصريين ، ولكن الحج توقف ، بمزيج من الاجراءات السعودية والعثمانية ، وإن كان المنصف لا يحمل السعوديين وحدهم مسئولية هذا المنع ، إلا أنهم لم يبذلوا جهدا كافيا لتحطيم هذا الحصار الخطير . فلم يكن من المعقول أن يتابع « ابن بشر » تسجيل موسم الحج ، فيثبت تربع « سعود » الكبير على بئر زمزم ودعوته علماء مكة وقضاتها لدين الله ، ثم لا حجاج إلا من نجد وأعرابها ، ففي كل سنة نجد هذه العبارة في ابن بشر : « لم يحج أحد من أهل الأقطار الشاسعة لا من الشام ولا غيره » (١٢٢٢ــ١٨٠٨) « ولم يحج هذه السنة أحد من أهل الشام ومصر والعراق والمغرب وغيرهم إلا شرذمة قليلة من أهل المغرب لا اسم لهم (!) حجوا بأمان (١٢٢٣ - ١٨٠٩) .

« وحج سعود حجته السادسة ، ولم يحج تلك السنة أحد من أهل الشام ولا مصر ولا استنبول ولا العراق إلا من كان يحج بأمان سعود » (١٢٢٤ــ١٨١٠) « وفيها حج سعود بن عبد العزيز الحجة السابعة ، (وحج معه ابن بشر) واستمر انقطاع الحج العام » .

« وفي هذه السنة حج سعود بن عبد العزيز حجته الثامنة ، ولم يحج أحد من أهل اسطنبول ولا مصر ولا الشام ولا غيرهم إلا شرذمة من أهل المغرب بأمان » (١٢٢٦ـ١٨١٢) .

وهكذا اقتصر الحج على « سعود » وشرذمة أهل المغرب ، الذين كما قلنا ، لا يخضعون للسلطان العثماني ، ولكنهم أيضا ــ كما قال ابن بشر ــ لا إسم لهم ، ولا نفقة معهم ، معظمهم يحج ماشيا ، ويستوطن في الطريق ..

كان من المستحيل أن يستمر هذا الوضع ، من ناحية فأهل الحجاز ، أو الجزيرة كلها ، يعيشون على موسم الحج وإيراداته ، نهبا ، أو ما يقدمه الحجاج من صدقات وينفقونه خلال إقامتهم . وجيش سعود المواظب على الحج ، ليس معه نقود ، ولذلك يدفع الجند رصاصا بدلا من الدراهم ، صدقة لخدم زمزم ! ..

والعالم الاسلامي لا يمكنه أن يصبر على انفراد « سعود » بالحج هو وشرذمة

المغاربة .* واذا تأملنا الجهد الخارق الذي بذله الملك عبد العزيز لاتمام موسم الحج خلال حصار جدة ، أدركنا الفرق بين دبلوماسية ووعي مؤسس التجربة السعودية الثانية ، وعجز « سعود » الكبير الذي غفل عن أن أول شرط لكسب الشرعية في حكم الحجاز هو ازدهار موسم الحج .

كان لابد أن يكسر الحاجز** الذي قام بين الدولة السعودية ، والعالم الاسلامي ، وكان « سعود » أضعف من أن يكسر هذا الحاجز من ناحيته ، بغزو السلطنة في ولاياتها الأخرى ، عقائديا أو عسكريا ، أو بالأثنين معا .. ومن ثم فقد اخترقت الدولة الحاجز ووصلت اليه .

ولا شك أنه من سوء حظ سعود وابنه عبد الله أنهما ظهرا في عصر « محمد علي »*** وبالذات لأن « محمد علي » كان يحكم مصر بموقعها الممتاز بالنسبة للجزيرة ،**** . ومواردها الهائلة ، ومن سوء حظ الأمة العربية ، أنه كان يستحيل التوفيق بين محمد علي وابن سعود أو اتحادهما ، وخاصة في ذلك الوقت المبكر (١٨١٠ – ١٨٣٠) . فالاول تركي أو ألباني ، وإن اضطر فيما بعد إلى تبني شعارات عربية ، في صراعه مع السلطان إلا أنه ظل إلى آخر عمره عثمانلي التصور والتفكير ، عينه على الآستانة وليست على مكة وطموحه الحاد هو مصر ، ولا بديل عنها . وربما لو تأخر بروز السعوديين إلى ثلاثينات القرن التاسع عشر ، لتغير وجه التاريخ ، ولكن محمد علي في تلك الفترة (١٨١٠ – ١٨٣٠) كان مضطرا لكسب ثقة السلطان وخطب وده . بطاعة أوامره وضرب الأمل الوحيد الذي لاح بالبعث العربي .

أما سعود فكان عربي الأصل ، عروبي المنطلق والأهداف ، لا يؤمن بالدولة العثمانية ولا يطيق أساليبها .

محمد علي كان قد استوعب درس الحملة الفرنسية وما تجرعه في سنواتها من إذلال على يد مدفعية وبوارج الغرب التي قذفت به للغرق في البحر لولا أن التقطته بارجة

---

* كان المغرب هو البلد العربي الوحيد الذي لم يخضع للسلطنة العثمانية ، وقد نمت علاقة خاصة بين المغاربة والدولة السعودية . والحوار الذي دار بين سعود وقاضي المغاربة يدل على تعمق سعود في قضايا المتكلمين فقد رد على الفور بعبارة محفوظة من الفقه المالكي (وهو المذهب الشائع في المغرب أو الوحيد كأنه أراد أن يلزمهم الحجة من مذهبهم) ، وهي : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال بدعة » والحوار واهتمام سعود بالحجاج المغاربة يدلان على إحساسه بالحصار ورغبته في توضيح موقفه . ولكنه لم ينجح . ونلاحظ مساهمة المغاربة في الحروب هناك لأنهم كانوا يستوطنون في الحجاز . ومصر بعد الحج ، ويحترفون أو يتطوعون في الحملات العسكرية .

** حاول الوهابيون كسره بارسال منشورات مع الحجاج المغاربة ، ولكن ذلك لم يكن كافيا ، كما لم تتح لنا إجراء دراسة شاملة عن مدى جهودهم لتنظيم خلايا وهابية في ما يحيط بهم من بلدان وربما تتاح الفرصة مستقبلا لمثل هذه الدراسة المهمة .

*** ولو أن هذه المصادفة ليست السبب الوحيد في الهزيمة الشاملة ، ولكنها أحد العوامل الأساسية .

**** إذ تستطيع شن الحملات دون التعرض – بسهولة – لحملات مضادة بعكس العراق والشام .

الطرف الآخر . فصمم على بناء مجتمع عصري ، لا يعتمد على الدين ، بل يتحلل قدر الامكان من التزامات الدين ، وينفتح على الغرب بمستشاريه وضباطه ومدارسه ومعاهده ، بل وحتى في قوانينه ، ويراهن في صراعه مع « الباب العالي » لا على المزايدة الاسلامية ، بل على اعجاب « الدول العظمى » غير المسلمة ، بتحضر مجتمعه ، ونظافته من التخلف الشرقي وضعف دور رجال الدين فيه !

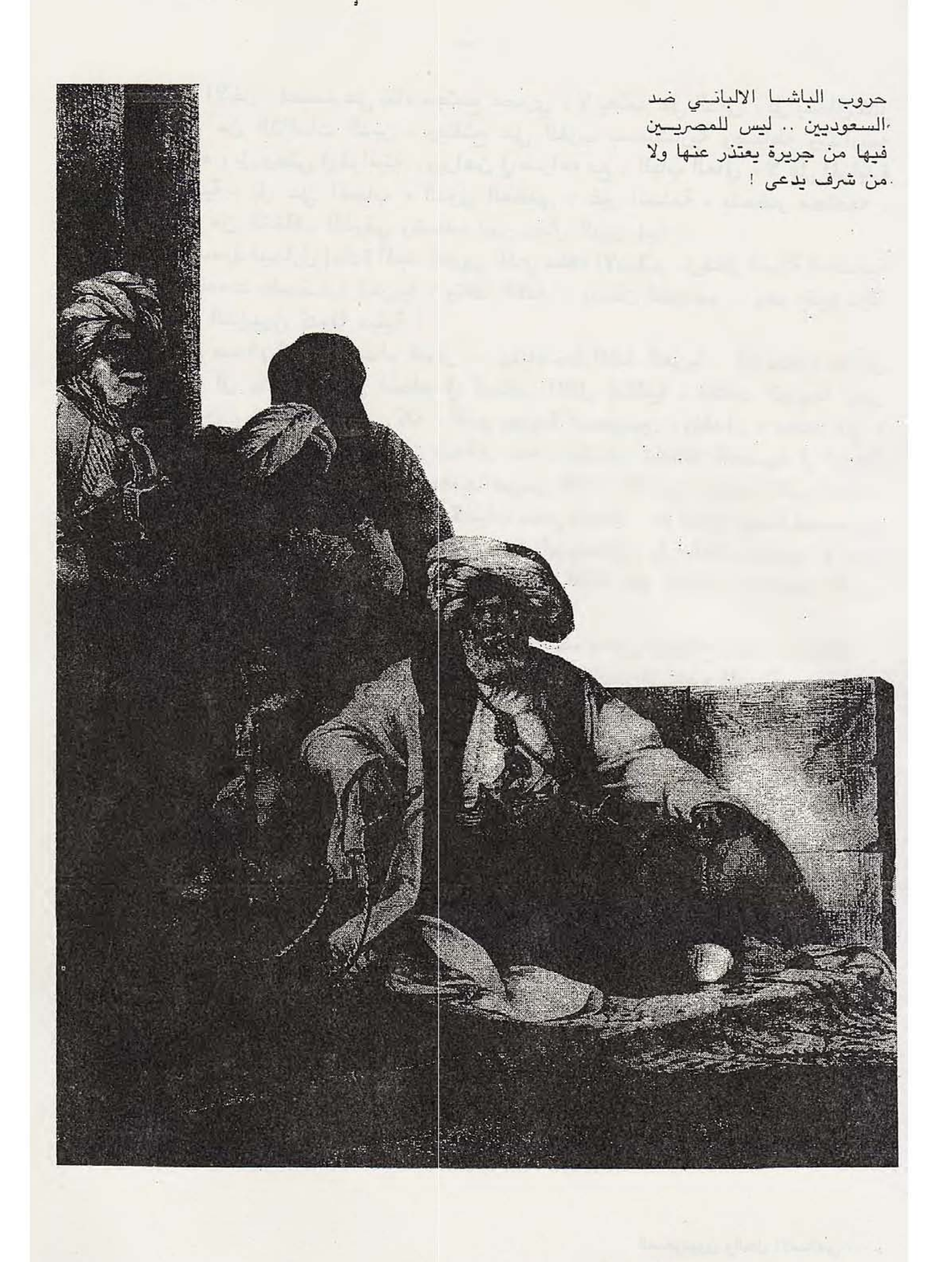
أما سعود فيحاول إعادة المجد العربي الذي حققه الاسلام ، ويقاتل الدولة العثمانية لأنها تسممت بالحضارة الغربية ، وتقلد الكفار ، وتمكن لنفوذهم .. وهو يقيم دولة يصنفها الغربيون كدولة دينية !

وكان صدام أقدار وصدام أدوار ... وشاء حظ الأمة العربية ، إلى جانب عوامل أخرى ، أن يكون العربي المسلم في الجانب الأقل إمكانية ، فكانت الهزيمة ليس للسعوديين ، بل للعالم العربي كله ، الذي بهزيمة السعوديين ، وفقدان « محمد علي » للقوة الوحيدة التي كان يمكن أن تتحالف معه ، فتجذر تطلعاته العصرية في أرضية التراث والتاريخ وضمير الأمة ، ويعطيها هو من كفاءته النادرة ، وهمته التي اعترف بها الخصوم قبل الانصار ، ومن إمكانيات مصر الهائلة ، ما يخلق وحدة تجمع بين حماسة الايمان وقوة التنفيذ .. ولكن لأن ذلك لم يتحقق ، بل بالعكس ضرب الايمان بالابداع والانجاز* ، فكان أن ساد الاستعمار المائة عام التالية ، واستمر العرب يحلمون بالنهضة ويفتشون عن الحل .

هزم الحل الاسلامي .. وتحمل المسئولية « باشا مصر » وارتاح المفسرون لهذا .. فلم يحاولوا البحث عن الأسباب الأكثر عمقا التي أدت إلى هذه المأساة ..

---

* زعم ف . م . ادوار في مقدمة رحلة سادلير (١٨١٩ ـ ١٢٣٤ ـ ١٢٣٥هـ) أن محمد علي طلب محالفة بريطانيا عام ١٨١٢ ليستقل عن الباب العالي ، الذي شك في نوايا محمد علي فكلفه بضرب الوهابيين ليحد من طموحه٥١ .



حروب الباشا الالباني ضد السعوديين .. ليس للمصريين فيها من جريرة يعتذر عنها ولا من شرف يدعى !

تلك المأساة التي خيمت على تاريخنا بالصدام بين السعوديين وباشا مصر ، يريدها البعض أن تسيطر على مستقبلنا للأبد ، وذلك بالاصرار على جعلها حربا بين السعوديين و« المصريين » ، والغريب كما قلنا أنه ما من أحد يتحدث عن حرب العراقيين أو الشوام ضد السعوديين ، مع أن ولاة العراق والشام حاربوا الدولة السعودية قبل باشا مصر . ومع أن القبائل التي اشتركت في تلك الحروب من العراق أو الشام تفوق بما لا يترك مجالا للمقارنة ، مساهمة « المصريين » ، في حروب محمد علي الأولى .

هذا الاتهام لمصر والمصريين روجته عدة مدارس :

١ــ المدرسة الاستعمارية الهادفة عن قصد للوقيعة بين الشعبين بزرع الاحقاد ، وتوريث العداوات ، وذلك باختراع الأكاذيب التي تتحول إلى « حقائق علمية » بالترديد والنقل ، والتدريس لتلاميذهم في معاهدهم ، أو معاهدنا في ظل إشرافهم ، ثم يأتي تلاميذهم فيترجمون هذه الأقاويل ويبيعونها لمواطنيهم على أنها من اكتشافهم ، فيضيع الأصل المشبوه ، وتبقى الفرية ! مثل أسطورة أن تجارة الرقيق من اختراع العرب ! أو أن ثورة المهدي كانت ضد مصر ، أو أن الفلسطينيين باعوا أرضهم .. أو ثورة القرامطة كانت اشتراكية ...الخ الخ ..

٢ــ المدرسة الثانية هي مدرسة الاستسهال والخطف وتلاميذها من المؤرخين والصحفيين والمعلقين الذين يفضلون التحليلات الجاهزة ، والذين يصعب عليهم قول « جيش محمد علي » « أو الجيش المحمدي علي » فيستسهلون وصفه بالجيش « المصري » فتتطور الحكاية ويقال « المصريون » هجموا وفتحوا وحرقوا ... الخ .

٣ــ وهناك طائفة ثالثة ، من الذين يكنون حقدا « موروثا » ضد مصر لأسباب طائفية معروفة ، وحقدا آخر مكتسبا خلال الصراع على لقمة العيش ، وهؤلاء لا تفوتهم فرصة في الدس لمصر والمصريين وكيل التهم لهم .

٤ ــ وأخيرا أولئك الذين كتبوا تاريخ السعودية خلال أزمة العلاقات المصرية ــ السعودية في عهد جمال عبد الناصر ، ولأنهم جميعا كانوا في الجانب السعودي ، أو بمعنى أصح يعملون لحساب الجانب السعودي ، وقل فيهم السعودي أصلا ! فقد استحسنوا استثمار حالة النفور من المصريين ، وعملوا على تنميتها بادعاء أن العداوة

أبدية ، والجريمة تتخطى حدود النظام ليتحملها الشعب كله وأولاده وأحفاده . وقد أسرف هؤلاء في هذا الخط ، حتى أختفى الجانب العلمي من كتاباتهم ، وأصبح التاريخ مجرد غطاء لحوار سياسي معاصر ، وسنجد هؤلاء « يصححون » التاريخ ، فاذا كتب « ابن بشر » عن جيش « الروم » الذي يحارب السعوديين صححه أحدهم قائلا : « وهو يقصد المصريين ! » وتطوع آخر بالقول : « كان العرب يدعون المصريين والترك بالروم » !

لا والله لم يحدث أبدا أن أطلق العرب على المصريين اسم الروم ! وفرق شاسع بين المصري والتركي ، وصور « الريحاني » تؤكد أنه أقرب شبها للترك من صعايدة مصر ، الذين ليس فيهم رائحة رومية على الاطلاق !

وابن بشر أصدق ، بل ويتفق مع قول الريحاني في موضع آخر : « جاء بجيش لا يتجاوز الأربعة آلاف ، وفيهم الألباني والمغربي والسوداني ، وقد أضاف إليهم في مروره بالصعيد ألفين من الفلاحين للأشغال والخدمة »[٥٢] . وبصرف النظر عن العدد ، فهذه شهادة بأن المصريين جمعوا عرضا وأثناء « مروره » وليس للقتال ، ومن ثم لا يجوز الحديث عن حملة مصرية* .

ولعل خير الدين الزركلي ، كان أصدق المؤرخين وأكثرهم تحريا للحقيقة ، عندما قال : « وكانت الدولة العثمانية قد ضاقت ذرعا باتساع دولة آل سعود في جزيرة العرب ، واشتد الحنق فيها حين ترامت إليها أخبار « الامامة »** وهي صنو « الخلافة » التي كان يقوم عليها عرش آل عثمان ، فانتدبت أحد كبار قادتها ، عثمان باشا ، وعينته واليا على حلب ، سنة ١٢٢٠ – ١٨٠٥ ، وأرسلته بجيش إلى دمشق ، فضم جيشها إلى من معه ، وتوجه إلى جدة ، فوصل إليها سنة ١٢٢١ (١٨٠٦) ثم أمرت والييها بمصر والعراق سنة ١٢٢٤ (١٨٠٩) بأن يزحف الأول إلى المدينة عن طريق ينبع ، ويزحف الثاني من العراق لمهاجمة الدرعية ، وسيرت جيشا رابعا بقيادة يوسف باشا المعروف بالمعدن ، الصدر الاعظم السابق في الدولة . وكان اشتعال جذوة الحرب على يد واليها بمصر ، محمد علي باشا فوجه جيشا قوامه الارناؤوط والانكشارية ممن تمرد على محمد علي ، وأراد التخلص منهم ، وأعقبه بجيش آخر **أرغم فيه بعض المصريين على الانخراط فيه وسماهم « متطوعين »** وتعاقبت القوى ، ومحمد علي لا يزال « واليا » عثمانيا في مصر . ولهذا كان مؤرخو نجد في أكثر حديثهم عن الوقائع يسمون عساكره بالترك أو الروم – انظر عنوان المجد »[٥٣] .

---

* انظر كيف قلبها العجلاني فقال : « لم يكن المقاتلون كلهم من أبناء مصر العرب ، فقد كان بينهم ١٥٠٠ ألباني وعدد من المغاربة والترك ، وبعض المرتزقة من بلدان مختلفة » ! بل ويعلن أنه اكتشف وثيقة تثبت أن « تركيا كانت تساعد مصر » في هذه الحرب ! وشر البلية ما كان جهلا مقصودا .

** وهي بالطبع أخطر من إمامة ملوك اليمن ، لأنها زيدية ، أما إمامة آل سعود فسنة ولذا فهي منافسة مباشرة للخلافة .

وإذا نظرنا « عنوان المجد » لابن بشر كما ينصحنا الزركلي فسنجده قد صدقنا النصح ، فقد بدأ ابن بشر حديثه بعنوان : « **الأتراك في الحجاز** » ثم قال « وفي هذه **السنة** أجمع أمراء **الروم** على المسير إلى الحجاز ، فاجتمع العساكر من اسطنبول ونواحيها وما دونها إلى **الشام ومصر** . والرئيس المقدم بهذا الأمر من جهة **الروم** صاحب مصر محمد علي ، فكانت العساكر التي استقلت من مصر من **الترك وأهل المغرب وغيرهم** نحو أربعة عشر ألف مقاتل أو يزيدون » .

وهو نص لا يمكن أن يسمح بوصفها بالحملة المصرية ، فابن بشر لم يكلف خاطره باضافة **المصريين** إلى الترك وأهل المغرب ، فاذا كان لابد من اتهام المصريين بالاشتراك فلن نجدهم إلا تحت « وغيرهم » ولا أظن أن مؤرخا مثل ابن بشر يصف جيش نابليون الذي فتح مصر ـ على سبيل المثال ـ بأنه كان يضم أسباناً وألماناً وغيرهم ، ويقصد بغيرهم الفرنسيين ! ولكن الذين على فهمهم غشاوة وفي قلوبهم مرض ، تمسكوا « بغيرهم » هذه ، وصبوا حقدهم على مصر والمصريين .

ونجد ابن بشر يتحدث هكذا : « فاستعد لهم **الروم** ، ونزل عسكر **الروم** مقابل عسكر المسلمين ، وكثر القتلى في **الروم** والمسلمين . فلما حمل **الروم** على المسلمين ... « فأمرهم أن يحملوا على **الروم** فانهزمت العساكر **المصرية** » !

مؤكدا بذلك أن حكاية النصر رومي والهزيمة مصرية ، سابقة على حروب اسرائيل !

وقد سجل ابن بشر معركة الدرعية في ١٥ صفحة ، لم يذكر فيها المصريين مرة واحدة ، وإنما تحدث عن الحرب مع « الروم » ٤٢ مرة ! .. وفي بعض الصفحات يذكر الروم تسع مرات . وإن كان هذا لا يعني أنه لم يتحدث عن « الدولة المصرية » « والعساكر المصرية » و « المصريين » .. وتفسير هذا فضلا عن الاستسهال الذي أشرنا إليه ، وعادة العرب في تغليب الجغرافيا على التاريخ ، وطريقتهم الخاصة في التسمية التي مازالت تسبب لنا المتاعب القومية مثل تسمية « الخليج الفارسي » فهناك أيضا الظروف الخاصة بابن بشر الذي شهد الغزوة الأولى وهو مازال دون العشرين ، ثم عاصر الوجود « المصري » الحقيقي بعد سقوط الدرعية في الدولة السعودية الثانية ، ولذلك كان الانطباع السائد في ذاكرته عندما بدأ يؤرخ ، هو الوجود المصري الحقيقي ، الذي يمثله نفس الوالي « محمد علي » وبقيادة نفس الضباط الكبار ، لذلك صعب عليه أن يميز بدقة ، ولم يجد حاجة إلى هذا التمييز بين الحملة الأولى التي انتهت بسقوط الدرعية ، ولم يكن لمصر ولا للمصريين فيها شرف ولا جريرة ، وبين الحملات المصرية التي جاءت بعد سقوط الدرعية . وإن كانت أمانته العلمية قد تجلت في حديثه المتكرر عن « الروم » ، وتحديده لنوعية العسكر الذي هاجم الدرعية ، ولم يكن فيهم مصري واحد !

ويشير محمد علي في إحدى رسائله إلى تدفق القوات من تركيا : « هناك مفرزات كبيرة وكثيرة العدد من الجنود تستقدم تدريجيا من روم » ،٥٤ « ودعما لما تقدم فاننا

آخذون باعداد وتجهيز ثلاثة الآف نفر من الجنود المغاربة ، وإضافتهم إلى الجنود »*
ولم يشر إلى المصريين .

وهذه رواية شاهد عيان ، كابتن بريطاني زار الدرعية عام ١٨١٩ ، ورافق الحملة « المصرية » من الدرعية حتى جده .. وكتب المعلومات التالية عن تكوين الجيش « المصري » إلى حكومته في تقرير سري ، و « الرائد » الانجليزي لا يكذب أهله ! قال الكابتن سادلير[٥٥] :

« في حصار إبراهيم باشا للدرعية كانت قواته كالآتي :

الفرسان :

٨٥٠	ترك وأرناؤوط مع الباشا
٤٠٠	ترك وأرناؤوط مع آزون علي (هؤلاء قال الجبرتي أنهم الدلاة من الشام ونواحي جبل الدروز)** .
٣٠٠	ترك وأرناؤوط مع رشوان أغا
٤٠٠	بربر (مغاربة)
١٩٥٠	المجموع

المشاة :

١٧٢٥	أرناؤوط
٢٥٧٥	تـرك
١٣٠٠	بربر (يقصد مغاربة)
٥٦٠٠	المجموع

وسادلير الذي لم يترك نقيصة إلا ورمى بها إبراهيم باشا والمصريين ، لو وجد مصريا واحدا في جيشه لجعله أشهر من الاسخريوطي .

وقد شهد فيلبي أن حملة طوسون كانت تتكون من أربعة عشر ألفا من الأتراك والمغاربة[٥٦] . فاندحر « الأتراك والمراكشيون » . مع أنه لو وجد أي أثر لمصري واحد لحرص على إبرازه . وهو الذي وصف محمد علي « بالرجل العظيم » .[٥٧] وهو الذي ــ كدأب المدرسة الاستعمارية ، كال التهم للمصريين ، رغم أنه شهد بنفسه أن الحملة كانت تتكون من الأتراك والمغاربة ، إلا أنه يتحدث عن « معسكر المصريين » بل ويذهب إلى حد وصف محمد علي باشا « **بالمصري** نائب السلطان »[٥٨] ، ووصف الباشا الألباني **بالمصري** ، فرية لم يحاولها الباشا نفسه ، ولا ارتكبها طالب يدرس التاريخ ، ولا يؤلف فيه .!

---

* سنة ١٢٢٧ ــ ١٨١٢ م .

** قال الجبرتي : «فانجر طائفة الدلاة وأميرهم المسمى أزون علي» .وقال عن الدلاة ينسبون انفسهم الى طريقة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأكثرهم من نواحي الشام وجبال الدروز صفحة ٤٨٨ الجزء الثالث طبعة لبنان دار الجبل . وأضاف الرافعي أن الدلاة هم الدروز .

ويعود فيتحدث عن النهب « المصري » والهجوم « المصري » ، وتاريخه كله يتحدث عن « المصريين » الذين لم يستطع أن « يضبط » منهم جنديا واحدا في الجيش الذي حارب الوهابيين .

ورغم محاولته اتهام المصريين ، فهو لا يستطيع أن يخفي أسفه على أخطاء الأتراك التي مكنت البيت السعودي من العودة مرة أخرى لمسرح الأحداث .. فهو يقول :

« أما حملة إبراهيم باشا على الجزيرة العربية ، فكلفت الأتراك إثنى عشر ألف قتيل ، منهم عشرة الآف سقطوا في المعارك التي دارت في الدرعية ، وكان هذا النصر الساحق زهيد الثمن فقد دمرت قوات الوهابيين وسحقت تحت أقدام الامبراطورية العثمانية وربما إلى الأبد ، لو لم تبدد الادارة التركية هذه المكاسب وتذروها هباء بضعفها وسوء معاملتها . فهي التي أوجدت في المناطق التي احتلتها روح الاستياء الذي تبدى أكثر ما تبدى في مظاهر الولاء والاخلاص نحو الأحياء من أمراء العائلة المالكة السعودية .[٥٩]

فالحملة على المصريين ، والحرص على اتهامهم ، في المصادر الغربية ، ليست حبا في الوهابيين ، فهذا الذي أكل خبز السعوديين ، تبدو الشماتة واضحة في حديثه عن انتصار الامبراطورية العثمانية ، والأسى لأخطاء الأتراك التي لم تجعل هذا الانتصار أبديا !..*

٥ ـ إلا أن كل المدارس ، والفئات التي أشرنا إليها ، في مؤامرة اتهام المصريين ، لا يصلون إلى خطورة وخطيئة مدرسة « الفخر » بالحملة المصرية في السعودية ! وهذه المدرسة ظهرت بين صفوف الحزب الوطني المصري في نهاية القرن التاسع عشر . وكان من أهم أركانها « محمد فريد » والمؤرخ الشهير « عبد الرحمن الرافعي » وهي ، للأسف ، مدرسة مخلصة حسنة النية ، لا تعادي الاتجاه الاسلامي ، على الأقل في مراحلها الأولى ، ولكنها تؤكد صحة المثل القائل بأن « الطريق إلى جهنم مرصوف بالنوايا الحسنة » ، إن لم نقل « عدو عاقل » .. إلخ . فقد لعبت كتابات هذه المدرسة ، وبالذات تاريخ الرافعي ، الذي سماه تاريخ الحركة « القومية » وهو يقصد « الوطنية » المصرية ، ولكنه كان أيضا ومدرسته يرون في حب مصر ، القومية والوطنية معا ! ولا يعترفون خارج المصرية إلا بالرابطة الاسلامية التي كانت بدورها تتضمن

---

* سنوضح في دراستنا عن فيلبي في الملاحق انه لم يكن أكثر من اداة استخدمها ابن سعود ببراعة ضد بريطانيا لمصلحة السعوديين معتمدا على حقيقتين : اعجاب فيلبي به واقتناعه بان المستقبل لابن سعود والثانية ان فيلبي لم يكن يهتم إلا بمصلحته الشخصية أو المالية . من خلال خدماته لابن سعود ، وعمله كوكيل للشركات العالمية . فهو كما وصفه ابن سعود مجرد تاجر . وبالتالي فموقف فيلبي الديني أو سلوكه الشخصي لا ينعكس بأي حال على ابن سعود ، الذي لم ينظر اليه ابدا كصديق أو مستشار ولا عينه في منصب يمكن أن يؤثر فيه ، وإنما استخدمه كأداة . والدول في ما يتعلق بالمصالح العليا تستخدم أنواعا شتى من الأدوات والنماذج المشوهة .

العروبة أو قل تشمل العرب بداهة . وقد لعبت مؤلفات الرافعي هذه دورا خطيرا وسيئا للغاية في تشويه طبيعة المواجهة بين « محمد علي » والدولة السعودية . فالجيل الذي ينتمي إليه « عبد الرحمن الرافعي » ، ومن قبله « محمد فريد » ، وبالذات جماعة الحزب الوطني . كان يخوض حربا قانونية ضد الاحتلال البريطاني ، والحجة الاولى التي تسلح بها في دعواه « القانونية » ، هي « الطعن » بعدم « شرعية » الاحتلال ! لأن مصر رسميا جزء من الدولة العثمانية ، أو الدولة العلية ، ولا يحق لبريطانيا الاعتداء على السيادة العثمانية ! وكان هذا التيار يتحرك داخل إطارين ، الأول هو النظر للدولة العثمانية كآخر حاجز في وجه الاستعمار الغربي ، حيث تختلط في مفهومهم الخلافة .. بالمسألة الشرقية .. بالعالم الثالث .. الممد كالفريسة العاجزة ، أمام سكاكين الدول الأوروبية ، تقطع منه ما شاءت ، وليس له من أمل في الدفاع إلا التمسك « بالعروة الوثقى » ، أو المناداة بوحدة شعوبه المتمثلة في أكبر تجمع حضاري ، يضمه إطار رسمي ، وهو الدولة العلية (العثمانية) .

والاطار الثاني هو حب مصر ، والتغني بأمجادها بصوت عال ، لطرد أشباح الواقع المذل ، وبعث الحماسة في شعبها ، من خلال الحديث عن انتصارات الماضي . والتأكيد للانجليز أن مصر قادرة على الدفاع عن نفسها ، إذا ما سمح لها بتكوين جيش ، والدليل هو انتصارات الجيش « المصري » من أيام « أحمس » إلى « محمد علي » .

وفي تاريخ الدولة العلية تأليف « محمد بك فريد » زعيم الحزب الوطني نجد نفس موقف الرافعي تقريبا ، فهو يقدم حديثه عن الوهابيين بهذه المعلومات . « الوهابيون قوم من العرب اتبعوا طريقة عبد الوهاب ، وهو رجل ولد **بالدرعية** بأرض العرب من **بلاد الحجاز** (!) وكان من وقت صغره تظهر عليه النجابة وعلو الهمة والكرم ، وشب على ذلك واشتهر بالمكارم عند كل من يلوذ به » ثم ينقل نص منشور من منشورات الامام يقول إنه منقول حرفيا من الخطط الجديدة التوفيقية* تأليف العالم العلامة فقيد الوطن المرحوم علي مبارك باشا ..٦٠ ونص المنشور هو :

« اعلموا رحمكم الله ، أن الحنيفية ملة إبراهيم هي أن تعبد الله مخلصا له الدين ، وبذلك أمر الله جميع الناس ، وخلقهم له ، كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ، فاذا عرفت أن الله خلق العباد للعبادة ، فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد ، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة ، فاذا دخل الشرك في العبادة فسدت ، كالحدث إذا دخل في الطهارة كما قال الله تعالى : « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ، أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون » ، فمن دعا غير الله طالبا منه ما لا يقدر عليه إلا الله من جلب خير أو دفع ضر فقد أشرك في العبادة كما قال تعالى : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس

(*) علي مبارك باشا مات في ١٤ نوفمبر ١٨٩٣

كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين» وقال تعالى: «والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير » . فأخبر تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك فمن قال يارسول الله أو يا ابن عباس أو يا عبد القادر زاعما أنه باب حاجته إلى الله وشفيعه عنده ووسيلته إليه فهو المشرك الذي يهدر دمه وماله ، إلا أن يتوب من ذلك ، وكذلك الذين يحلفون بغير الله ، والذي يتوكل على غير الله أو يرجو غير الله ، أو يخاف وقوع الشر من غير الله ، أو يلتجيء إلى غير الله ، أو يستعين بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، فهو أيضا مشرك ، وما ذكرنا من أنواع الشرك هو الذي قال الله فيه ، إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، وهو الذي قاتل رسول الله المشركين عليه ، وأمرهم باخلاص العبادة كلها لله تعالى ، ويصح ذلك أي التشنيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله في كتابه أولها أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرون أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور ، والدليل على ذلك قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر سيقولون الله ، فقل أفلا تتقون » . وقوله تعالى : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون الله ، قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله ، قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون الله ، قل فأنى تسحرون » . إذا عرفت هذه القاعدة وأشكل عليك الأمر فاعلم أنهم بهذا أقروا ثم توجهوا إلى غير الله يدعونه من دون الله فأشركوا ، القاعدة الثانية أنهم يقولون ما نرجوهم إلا لطلب الشفاعة عند الله ، نريد من الله لا منهم ولكن بشفاعتهم وهو شرك والدليل على ذلك قول الله تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه تعالى عما يشركون » . وقال الله تعالى : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار » وإذا عرفت هذه القاعدة فاعرف القاعدة الثالثة وهي أن منهم من طلب الشفاعة من الأصنام ، ومنهم من تبرأ من الأصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة ، والدليل على ذلك قوله تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذورا » ورسول الله لم يفرق بين من عبد الأصنام ومن عبد الصالحين بل كفر الكل وقاتلهم ،* حتى يكون الدين كله لله . وإذا عرفت هذه القاعدة ، فاعرف القاعدة الرابعة وهي أنهم يخلصون لله في الشدائد ،

(*) واضح أن المنشور يرد على دفاع الدولة العثمانية بأنه لا يجوز قتل المسلم مادام يقر بالشهادتين ..

وينسون ما يشركون ، والدليل على ذلك قوله تعالى : « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذ هم يشركون » . وأهل زماننا يخلصون الدعاء في الشدائد لغير الله ، فاذا عرفت هذا ، فاعرف القاعدة الخامسة وهي أن المشركين في زمان النبي أخف شركا من عقلاء مشركي زماننا لأن أولئك يخلصون لله في الشدائد ، وهؤلاء يدعون مشائخهم في الشدائد والرخاء والله أعلم بالصواب.» .(انتهى) ..

ويعلق « محمد فريد » : « ولما رأى السلطان محمود أنه من الضروري قمع هذه **الفئة التي يخشى من امتدادها ، على تفريق كلمة الاسلام ، الأمر الذي جعله الأوروبيون مطمح أنظارهم للتمكن من فصم عرى اتحادهم ، وامتلاك بلادهم ،** ولبعد ولايات الشام وبغداد عن مركز الفتنة ! كلف محمد علي باشا والي مصر ومؤسس عائلتها الخديوية ، بمحاربتها ، واسترجاع مكة المشرفة والمدينة المنورة من أيدي زعمائها وأرسل إليه فرمانا بذلك ، في ذي القعدة سنة ١٢٢٢ ـ الموافق ديسمبر ١٨٠٧ » . ويؤرخ « استئصال شأفة الوهابيين » بعودة « إبراهيم باشا في ٢١ صفر ١٢٣٥ الموافق ١٠ ديسمبر ١٨١٩ » .

تاريخ « الدولة العلية » كتبه « محمد فريد » في العقد الأخير من القرن التاسع عشر في ظل الاحتلال البريطاني ، عندما كانت سياسة الحزب الوطني كما قلنا ، هي إثبات لا شرعية الاحتلال البريطاني ، من خلال تأكيد تبعية مصر للدولة العثمانية . واستراتيجيته الوطنية والعالمية ، تقوم على الالتفاف حول الخديوي عباس حلمي الثاني ، الذي يستمد الشرعية من السلطان ، والذي وضع نفسه في إطار القوى الوطنية المضطهدة . وكانت هذه القوى تراهن كالغريق على نجدة الدولة العثمانية ، إذا ما استطاعت تحقيق آمال هذا الجيل بانجاز وحدتها الاسلامية ، والتصدي لمؤامرة الغزو والتقسيم التي تشنها الدول الأوروبية . والحزب الوطني هذا كان ضد عرابي لأنه تسبب ـ بثورته في نظر الحزب ـ في إتاحة الفرصة للانجليز لاحتلال مصر ، وكانوا في نفس الوقت يشاركون عرابي وحزبه « الحزب الوطني الأول » استنكار حروب محمد علي ضد السلطان ، لأن هذه الحروب ، أضعفت الدولة العثمانية ، أو الحائط الأخير في وجه الغزوة الأوروبية .

ولكن يرد على « محمد فريد » وهذه المدرسة ، بأن الحركة الوهابية ، لم تكن هي التي أضعفت الدولة العثمانية ، أو فصمت عرى الاتحاد ، فالدولة كانت في طور الانحطاط ، وهزيمة الوهابيين لم تنقذها ، بل انقلب « محمد علي » على الدولة فور انتصاره على الوهابيين ، وأنزل بالدولة العلية ، من الخسائر ما يفوق كل ما فعله الوهابيون .. كذلك فان التاريخ المبكر للحركة الوهابية ، حماها من أن تكون أداة في لعبة الأمم لتمزيق الدولة .

من ثم فمن حق التاريخ أن يقول ، ان الوهابية ، كانت الفرصة الوحيدة ، لتوثيق عرى اتحاد المسلمين ، بتوحيد كلمة الاسلام ، وتجديد الدولة ، وإفشال خطة

الأوروبيين .. وهل غابت المخاوف التي يوردها « محمد فريد » عن مخططي السياسة البريطانية ، الذين تصدوا للوهابيين ، وطوقوا الزحف السعودي قبل أن يذهب « محمد علي » إلى الجزيرة ، وبعد ما تراجع إلى حدود مصر ؟!

نفور هذه المدرسة من الحركة الوهابية ، يرجع إذا إلى موقفها العام من الدولة العثمانية ، ولأنها جاءت بعد الفشل ، عندما لم يكن المؤرخ السطحي بوسعه أن يرى إلا الخسائر . أما تعاطفها مع انتصارات « محمد علي » وإن بدا متناقضا مع حدبها على « الدولة العلية » فمرجعه إلى أن هذه المدرسة كانت تعتبر مأساة الشرق هي في عجزه العسكري ، ومن ثم كانت ترفض الاعتراف بأن انتصار الغرب العسكري ، هو انتصار محتوم يرجع ، كما يزعم التفسير الغربي ، إلى تفوق قيم الحضارة الغربية ، وانحطاط الانسان العربي أو الشرقي المسلم . ومن ثم كانوا يفتشون عن انتصار عسكري ينسب للشرقيين* .. ومن ناحية أخرى ، كانت هذه المدرسة حريصة على تفنيد المفهوم الذي روجه الانجليز عن عجز المصريين من الناحية العسكرية ، لذا نرى « الرافعي » يبذل جهدا صاخبا لاثبات تفوق المصريين العسكري ، وقدراتهم الحربية ، وحشد في تأريخه للحركة القومية ، كل ما يمكن حشده من انتصارات ونسبها إلى جيش مصر ، حتى قبل أن يوجد هذا الجيش .. ولا شك أن أشهر عمليات الادعاء هذه ، هي موقفه ، بل موقف مدرسته ، ومن تبعه من المؤرخين ، من « حروب محمد علي » ضد الوهابيين ، فقد جعلها الرافعي ، وتابعه هؤلاء ، حربا « مصرية » ، وقرر أنها « رغم ما كبدته مصر من خسائر .. قد تبدو غير ضرورية ولا لازمة لمصلحة مصر ، إلا أنها رفعت شأن مصر وأعلنت مكانتها »[٦١] !

لنضع في اعتبارنا أن الرافعي كتب هذا الكلام في عام ١٩٣٠ .. والجيش المصري ، خاضع لسيطرة وافساد الانجليز ، حتى أصبح . كما وصفه عبد الرحمن عزام ، في البرلمان : « ليس له شجاعة الهمج ولا كفاءة المتمدنين » .. وفقد احترام المواطن العادي ، كما كانت المفاوضات العسيرة مع البريطانيين ، تكاد تدور حول ادعاء البريطانيين أنهم لا يمكنهم المخاطرة بالجلاء عن مصر ، لأن جيشها لا يستطيع الدفاع عنها .. لذا يدق الرافعي طبول المجد « للجيش المصري » المنتصر في الجزيرة ليسمع بذلك الكلام ، الشباب المصري المعاصر ، فيؤمن بامكانية البعث ، وإمكانية مواجهة الجيش البريطاني . وهكذا بسبب الرغبة في إذكاء الحماسة التاريخية ، جعلها الرافعي ، حربا مصرية ، وراح يكرر عبارة « الجيش المصري »** كل ثلاثة أسطر على نحو يثير الغيظ ! لأن كتابات الرافعي نفسها تشهد أنه لم يكن لمصر جيش في هذه الفترة !.. وأنه حتى نهاية الجولة الأولى في تاريخ الدولة السعودية ، وهي التي تؤرخ

---

* لاحظ فرحة هذه المدرسة بانتصار اليابانيين « الشرقيين » مع أنهم مجوس ، على الروس الغربيين ولو أنهم من أهل الكتاب وقتها ... لأن المواجهة كانت بين الشرق والغرب .

** يقول المثل المصري : الجعان يحلم بسوق العيش .. ومصر في الثلاثينات كان تحلم بجيش !

بسقوط الدرعية ، لم يذهب مصري واحد للحرب في الأراضي الحجازية . لأن تجنيد المصريين في الجيش ، لم يبدأ ، كما تقرر جميع المصادر إلا بعد عام ١٨٢٠ . وكانت الحرب الوهابية قد انتهت ، مرحليا ، وتراجعت الجذوة لتعود فتتألق بزوال سلطان محمد علي ، بالانسحاب العام بعد عام ١٨٤٠ عندما بدأ الغزو البريطاني للشام .

والرافعي يعترف بأن من أسباب قبول « محمد علي » للمهمة التي كلفه بها السلطان ، التخلص من مواطنيه عسكر الأرناؤوط (الألبان) فيقول : « وكان لمحمد علي أغراض أخرى محلية ، أدركها من الحملة الوهابية ، أهمها التخلص من طوائف الجنود الأرناؤوط والدلاة (دروز الشام) الذين ألفوا التمرد والشغب ، فكانت الحملة الوهابية خير فرصة انتهزها محمد علي ليقذف بتلك الطوائف المتمردة إلى الأصقاع النائية من جزيرة العرب ».[٦٢]

فأين الجيش المصري ؟

ومن الرافعي نفسه نجد إحصائية للجيش الذي توجه لفتح السودان – أي بعد انتهاء الحروب الوهابية – نفتش فيها فلا نجد أحدا من سكان مصر ، ولا أقول المصريين ، إلا ٧٠٠ من عرب العبابدة « بينما كان ذات الجيش يضم ١٢٠٠ من الفرسان العثمانيين و ٤٠٠ من فرسان العرب والمغاربة ».[٦٣]

ويثبت الرافعي الحقيقة المعروفة في كل المراجع التاريخية ، وهي أن أول محاولة لانشاء جيش محلي هي التي بدأها محمد علي ، عندما أمر بتجنيد السودانيين ،[٦٤] ولكن المحاولة فشلت ، كما هو معروف ، بسبب مناخ مصر المخالف لمناخ السودان ، ولأنه كما قيل شديد البرودة على السودانيين في فصل الشتاء ! وهنا اتجه « محمد علي » إلى المصريين على كره منه ، ونفور شديد من كبار أعوانه الأتراك ، ونفور أشد من قبل المصريين أنفسهم .

وقد حاول « محمد علي » أن يتفادى هذا القرار ماوسعه ذلك ، لعدة أسباب ، منها كراهيته لقيام قوة مسلحة من المصريين ، وهو الذي تنبه لأهمية نزع سلاح المصريين ، وهم يقاتلون معركة توليته ، بل ورفض السماح لهم بالخروج لقتال الانجليز ، متمسكا بالمبدأ الذي تقرر في عصورنا الوسطى ، عندما تراجع مبدأ الجهاد ، وقام الجيش المحترف ، فقال : « ليس على العامة خروج » . و « محمد علي » الألباني ، الذي رأى العامة يعزلون الوالي الذي عينه السلطان* ، ويتصدون للغزو البريطاني ، فينزلون به هزيمة مذهلة** ، ما كان يحب أن يرى هؤلاء العامة وقد أصبحوا جيشا نظاميا مسلحا بأحدث الأسلحة ، ولم يقبل ذلك إلا كارها .. وقد أثبتت الأيام صدق ظنه ، فالفلاحون المسلحون ، أو الجيش المصري ، هو الذي خلع ورثته مرتين*** وقضى في

---

* خورشيد باشا الذي تولى محمد علي بعده .

** في معركة رشيد سنة ١٨٠٧ المعروفة بحملة فريزر .

*** توفيق بن اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي سنة ١٨٨٢ ، ثم فاروق بن فؤاد بن اسماعيل سنة ١٩٥٢ .

الثانية على ملك أسرته .. كذلك كان كبار المسئولين الأتراك يرفضون فكرة تجنيد الفلاحين ، لما في ذلك من خطر على نفوذهم ومراكزهم ، التي تفرضها وتحميها التجمعات الأجنبية المسلحة التي تكون الجيش العثماني ، وقد بدأ الهجوم من هذه الطبقة على الجنود المصريين .. أو الفلاحين .. وفي يوميات « محمد علي » أمر يقول : « .. علمت بالاحتفالات التي قوبل بها آلاي حسين بك من الأهالي والقناصل ، وبما تفوه به علي أغا ناظر السلخانة ، وقوله في محفل الاستقبال : صار الفلاحون العمي عساكر ، مهما كانوا لا يكونوا مثل عساكرنا الترك ، وعليه فأضربوه مائة نبوت على إليته ، وينفى وإن عاد يصلب » !..

وهو يستحق الضرب فعلا على إليته ، لا لأنه أهان جيش محمد علي فحسب ، بل لأنه هو الأعمى ، الذي لم يستطع أن يرى تفوق هؤلاء الفلاحين على جيش الدولة العثمانية ، هذا التفوق الذي سيثبت عما قريب في معارك الشام.*

المهم أن « محمد علي » ، لم يكن راغبا في تجنيد الفلاحين ، للأسباب التي ذكرناها ، وأيضا لأن المفهوم السائد وقتها في مصر ، وعن مصر ، كان يؤكد أن الاستثمار الأفضل للفلاح المصري هو استخدامه في الزراعة فقط .. كما أن التقليد الامبراطوري ، كان يفضل حكم كل ولاية بجيش من أبناء ولاية أخرى .

يقول الرافعي : « أخذ محمد علي يؤسس الجيش المصري النظامي منذ عام ١٨٢٠ » .

ومعذرة ياشيخ المؤرخين المحدثين .. كيف أمكن إذن تسجيل أمجاد هذا الجيش قبل أن يتشكل ، أعني قبل عام ١٨٢٠ ؟!.. ألست أنت القائل : « وكان الجيش قبل ذلك العهد** (١٨٢٠) أخلاطا من العناصر المفطورة على التمرد والفوضى ، يطلق عليهم لفظة « باشبوزق » أي الجنود غير النظاميين ، ومثل هذا الجيش ، لم يكن جديرا بالاعتماد عليه في رفع هيبة مصر ، والدفاع عن كيانها ، وتوسيع حدودها ، ولذلك ما فتىء « محمد علي » منذ تبوأ عرش مصر ، يفكر في إنشاء جيش على النظام الجديد ، ولكن الظروف لم تكن تؤاتيه ، فكان يؤجل انفاذ فكرته الى أن تحين الفرصة المناسبة ، وقد لاقى صعوبات كبيرة في تحقيقها » .

وتحت عنوان « البدء في تنفيذ المشروع » يخبرنا الرافعي : « عاد محمد علي إلى تحقيق مشروعه سنة ١٨٢٠ ، ووجد « محمد علي » عضدا كبيرا في ضابط فرنسي عظيم

---

* هاه ، حتى أنا انتشيت بأمجاد الجيش المصري !

** وصلت القوات الوهابية ــ (السعودية) إلى كربلاء سنة ١٨٠١ خلال استغراق الدولة العثمانية في اضطرابات أوروبا ، والغزو الفرنسي لمصر . ووصل سعود بن عبد العزيز إلى حدود مسقط ثم دخل مكة سنة ١٨٠٣ ، وفي سنة ١٨١١ وحدوا معظم الجزيرة تحت نفوذهم . وأول حملة خرجت من القاهرة غادرت السويس في ٣ سبتمبر ١٨١١ ــ وسقطت الدرعية في ذي القعدة ١٢٣٣ ــ سبتمبر ١٨١٨ أي قبل سنتين من بدء تكوين الجيش المصري !

هو الكولونيل « سيف » الذي جاء مصر سنة ١٨١٩ » ، « وقد أنشأ محمد علي مدرسة لتخريج الضباط في أسوان ، ضمت خمسمائة من مماليكه » ، أي غير المصريين طبعا . يقول الرافعي : « وبعد أن توفر العدد الكافي من الضباط أخذ محمد علي يفكر في حشد الجنود وتنظيم صفوفهم ، وهنا نشأت صعوبة جديدة ، وهي طريقة اختيار الجنود ، ومن أي الطبقات يحشدهم ، لم يشأ في المبدأ أن يجند الأتراك ولا الأرناؤوط في النظام الجديد ، لما فطروا عليه من حب الشغب والنفور من النظام ، والرغبة عن الطاعة ، فأعرض عنهم ، **ولم يشأ أيضا أن يفاجيء المصريين بتجنيدهم حتى لا يثير الهياج في البلاد لأنهم لم يعتادوا التجنيد من عهد المماليك ، فخشي إذا هو عجل بحشدهم أن يعدوا ذلك عبئا جديدا يثقل كاهلهم فوق أعباء الضرائب والأتاوات ، التي كانوا ينوءون بها ، وخشي من جهة أخرى أن يؤدي تجنيدهم إلى حرمان مصر من قيامهم بالزراعة ، فتسوء حالة البلاد الاقتصادية ، وتزداد ضنكا على ضنك ففكر أولا في تجنيد السودانيين من سكان كردفان وسنار** ، وقد تقدم القول ان من بواعث فتح السودان ، تجنيد أهله في الجيش المصري . ولقد عهد إلى ابنه اسماعيل باشا وصهره الدفتردار أن يرسلا إليه حشدا من السودانيين ، فأخذا يجمعان له ما وسعهما الجمع » ، « على أن تجربة السودانيين لم تصادف النجاح المرغوب ، فأخذ محمد علي يفكر في الالتجاء إلى تجنيد المصريين » .[٦٥]

ومعروف أن فتح السودان بدأ بعد سقوط الدرعية . وحتى فتح السودان وفشل تجنيد السودانيين كان محمد علي – بشهادة الرافعي – ضد تجنيد المصريين فكيف يمكن التحدث عن بطولاتهم ضد الوهابيين قبل أن ينخرطوا في السلك العسكري بعشرة أعوام ! ثم يذكر الرافعي ، كيف قاوم المصريون عملية تجنيدهم ، والفتن التي وقعت بسبب هذا التجنيد ، ويرجع ذلك في رأيه إلى أنهم : « لم يألفوا الخدمة العسكرية ، ولم يكونوا مكلفين بها في عهد المماليك » .

ويعلن أن هذا نقص كبير في أخلاق الشعب الحربية : « فلما شرع محمد علي في تجنيد المصريين ، قابل الفلاحون هذا المشروع بالنفور والسخط ، ولم ينتظموا في صفوف الجندية إلا مكرهين ، فكانت الحكومة تقبض على المجندين وتسوقهم قسرا إلى المعسكرات ، ومن الأسف أنه مازالت كراهية التجنيد باقية في نفوس معظم طبقات الشعب إلى عصرنا هذا »[٦٦] (١٩٣٠) .

وهي ظاهرة مؤسفة حقا ، لمن يبحث في أخلاق الشعب الحربية ، ثم لا يتعمق في بحث أسباب هذه الظاهرة ، مكتفيا بالأسف ، إلا أن الأسف إذا كانت تثيره تلك النظرة السطحية ، فهو أيضا لايزول بخداع الشباب ، بالحديث عن بطولات لم تقع ، من جيش لم يكن قد وجد بعد !..

وقد أثبت « أمين سامي » أن أول تجنيد للمصريين كان في ٢٥ جمادي الأول ١٢٣٧ هـ (١٨٢١) . فقد أورد أمرا صادراً إلى أحمد باشا طر « متصرف جرجا بضرورة استحضار العساكر الترك من الأقاليم السودانية لعدم تحملهم حر بلادها

واستصوب جمع ٤٠٠٠ شخص من أقاليم الوجه القبلي بالانضمام مع محمد بك ناظر النظام العسكري ، ومن يجمع يرسل لسليمان أغا (سليمان باشا الفرنساوي فيما بعد) معلم العسكر بأسوان لتعليمهم حسب النظام الجديد . وبعد خدمتهم ثلاث سنوات يعودون لبلادهم ويعفون من جميع التكليفات . ومنع اختلاط حديثي السن بالذين هم اكبر سنا منهم ، وما هو إلا لخدمة الدين المبين وعلو شأنه ، وهذا جل قصده » .

وكانت أول حملة أرسلت من جيش النظام الجديد إلى جزيرة سنار في السودان ٤ ربيع أول ١٢٣٩ (ديسمبر ـ ١٨٢٣) .

وأول معاركها في الجزيرة كان في عسير ، رجب ١٢٣٩ (أبريل ـ ١٨٢٤) . فتجنيد المصريين ، كما أقر الرافعي نفسه ، وأيدته كل المصادر المتاحة ، كان بعد فشل تجنيد السودانيين ، ومحمد علي لم يصل إلى السودان إلا بعد عام ١٨٢٠ ـ ١٢٣٦ . والحروب الوهابية انتهت سنة ١٨١٨ ـ ١٢٣٤ . فكيف تنسب أمجادها أو أوزارها للجيش المصري أو مصر ؟ ! هل لأن الجيش جاء من مصر ، وأنفق عليه من مال الشعب المصري ؟ أليس ذلك كمن يفخر بأن الجيش « المصري » فتح فلسطين بقيادة اللنبي ؟ أو أن المصريين حرروا الحجاز من الترك في الحرب العالمية الأولى ؟! .. ألا يبدو هذا مضحكا ، مع أن نسبة « المصريين » ، في قطعان البرابرة المتوحشين الذين أرسلهم « محمد علي » إلى الجزيرة العربية لمقاتلة السعوديين ، كانت أقل بكثير من نسبة المصريين الذين أجبروا على الالتحاق بجيش الجنرال البريطاني أو حملة لورنس .

وأول فرقة مصرية أرسلت للحجاز ، هي التي ذهبت في النصف الثاني من عام ١٨٢٤ م (١٢٤٠ هـ) ـ فالرافعي هو الذي قال : « إنه في يناير ١٨٢٣ (١٢٤٠ هـ) تألفت الأورط الست الأولى من الجيش النظامي ، والتي استمر تدريبها إلى منتصف عام ١٨٢٤ ـ (١٢٤١) حيث جرى استعراضها في شوارع القاهرة ، ثم انفذت الأورطة الأولى إلى الحجاز والثانية إلى السودان ، والأربع الأخرى إلى بلاد المورة » . أي أن أول فرقة مصرية ذهبت للسعودية بعد سقوط الدرعية بخمس سنوات !

وهكذا ، مع شديد الأسف والاعتذار لمدرسة المجد العسكري ، لا حيلة لنا ، إذ ليس للجيش المصري أي شرف يدعى في المعارك التي خاضها عسكر محمد علي ، والتي انتهت بسقوط الدرعية ، لأن الجيش المصري كان في عالم الغيب ، لم يولد بعد ..!

والجبرتي كان أصدق وأدق ، ليس فقط بحكم المعاصرة ، عندما قال : « في ٢٤ رمضان ١٢٢٧ ـ أول اكتوبر ١٨١٢ ، وردت هجانة مبشرون باستيلاء « الاتراك » على عقبة الصفراء الجديدة من غير حرب بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب ، وتدبير شريف مكة » .

الرافعي أحس بالقرار التاريخي الدامغ الذي تمثله كلمة « الأتراك » التي وضعها الجبرتي عن وعي وقصد وإن كان قصده يختلف عن جدلنا اليوم ، ولذلك يضع الرافعي رقما فوق كلمة الأتراك ويعلق في الهامش بهذه الملاحظة أو قل الاعتذار أو العتاب : « كذا يسمى الجيش « المصري » وكان الجبرتي يعطف كثيرا على الوهابيين ويدافع

عنهم وينتقد الحملة عليهم » .٦٧

صحيح هكذا كان موقف الجبرتي من الحملة والوهابيين ، ولكن ليس هذا هو السبب في تسمية « الجيش المصري كذا » بل لأنهم كانوا فعلا « كذا » أي أتراك .. ألم تؤرخ أنت نفسك أن أول أورطة مصرية تشكلت منذ حكم المماليك كانت بعد هذه المعركة باثنتي عشرة سنة ؟! (١٨٢٤) .. فلماذا تسمى أنت الأتراك بالمصريين والجيش المصري .. أليس ذلك بسبب موقفك من هذه الحرب ..؟!

فمن حقنا أن نمر مرور الكرام ، على العبارات التي رصع بها الرافعي تاريخه مثل : « أهم معركة في تاريخ **مصر** الحربي » . « نصر عظيم للجيش **المصري** » فهذه العبارات وإن تكن مسئولة عن تسميم الفكر العربي لأكثر من أربعين عاما ، وخاصة المصري والسعودي .. إلا أنها لا تمت للحقيقة بصلة ، ولكن لا بأس من وقفة عند ملاحظات الرافعي عن القضية كلها ، فستتبين ضعف معلوماته عن الوهابية ، بل حتى ضعف معلوماته عن الاسلام ! فهو يحدثنا عن مظاهر الغلو في العقيدة عند الوهابيين مستشهدا بحادثة رجم زانية ، وكأنه لم يسمع بهذه العقوبة من قبل ، ولا عرف أنها من حدود الاسلام ، طبقت قبل محمد بن عبد الوهاب باثنى عشر قرنا .. بل يؤرخ في لهجة رواة العجائب ! « دعا محمد بن عبد الوهاب إلى الأخذ بتعاليمه (!) فنالت دعوته نجاحا بين أهل نجد ، وأخذ يكسب الأعوان والأنصار خلال عدة سنوات ، دون أن تأبه له الحكومة العثمانية ، ولكن حدث يوما أن قدمت إليه إمرأة متهمة بالزنى وثبتت عليها التهمة ، فأمر برجمها ، فقتلت على الفور ، ولم تكن العقوبة مما تستسيغه النفوس* . فأحدثت إستياء شديدا ، وانتهى نبؤها إلى حاكم الحسا الذي تمتد سلطته إلى العيينة ، فأرسل يتهدد الشيخ بالقتل إذا لم يرجع عن طريقته » !٦٨

ومن حقنا ، بل من واجبنا أن نأسف ، لأن هذه معلومات الرافعي في الثلاثينات من القرن العشرين ، بالمقارنة مع معلومات سلفه العظيم ، الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في العقد الثاني من القرن التاسع عشر ، فان قيل أن الرافعي كان يكتب في ظل غضبة الملك فؤاد على الوهابيين الذين عادوا فوحدوا الجزيرة في مطلع القرن العشرين ! إن كان هذا هو سبب تشويه الرافعي للتاريخ ، فهو عذر أقبح من ذنب الجهل ، لأن الجبرتي ، عارض ، وقال الحقيقة كاملة في ظل استبداد محمد علي ، بل وفي ظل حالة حرب كان يخوضها هذا المستبد بنظامه الذي لا يعترف بدستور أو قانون .

ويحاول الرافعي أن يوهمنا بوجود رأي عام مصري متعاطف ، أو حتى محرج بالحرب الدينية في الحجاز ، مما سهل عملية جمع الضرائب فيقول :

« كذلك كانت الحملة ذريعة لاطلاق يد الحكومة في فرض ما تشاء من الضرائب

---

* وسنجد التابعي بعد ١٥ سنة يمدح الوهابيين ، فيعرف قراء آخر ساعة انهم يصومون شهر رمضان كله ، وكاتب آخر اكتشف ان النجديين يعتقدون بوجود حياة اخرى بعد الموت ! وفوق كل ذي علم عليم !

والاتاوات ، من غير أن يجد الشعب مسوغا للاعتراض عليها ، فان حجة محمد علي باشا فيما فرضه أثناء الحملة الوهابية من مختلف الضرائب والاتاوات الفادحة ، أن الحكومة في حاجة إلى المال لانفاقه على حرب مقدسة ترمى إلى استرداد الحرمين الشريفين ، وتأمين سبل الحج ، فهي من هذه الناحية جهاد مفروض ، وكذلك الانفاق عليها »[٦٩] .

وهي فقرة حافلة بالأخطاء ، لأنه ، كما سنرى بشهادة الجبرتي ، بل ومن تاريخ الرافعي ، قاوم الشعب هذه الضرائب ولم يقبلها أبدا ، ورفض بازدراء حجة الحرب المقدسة ، حتى احتاج الأمر إلى استصراخ المعلم غالي « المسيحي » شيوخ الأزهر ، لكي يقبلوا هذه الضرائب : « لتخليص كعبتكم يا مسلمين » ![٧٠] ولا أظن أن هناك نصا يمكن أن يعطينا صورة صادقة لحقيقة موقف المسلمين من الضرائب والحرب ، مثل تلك الصورة الساخرة ، التي أثبتها الجبرتي على أنها نكتة عجيبة ! ألا وهي نكتة المعلم غالي **المسيحي** يستحث شيوخ الأزهر على الدفع لانقاذ « **كعبتهم** » !

والخطأ الثاني ، أن الوهابيين لم يكونوا هم البادئين بمنع الحج ، بل العكس هو الصحيح ، فان شريف مكة هو الذي منع أهالي نجد من دخول مكة لأداء فريضة الحج سنة (١٧٨٤) وكان رد الوهابيين إرسال وفد من شيوخهم للحوار مع شيوخ مكة ، فلما أفحموهم بالحجة ، استعان شيوخ مكة عليهم بالشريف الذي أمر باعتقال الوفد الضيف ، « وتركهم في السجون حتى مات أغلبهم وهرب الباقون » .[٧١]

وكل مافعله الوهابيون أنهم اعترضوا على المظاهر المنافية للاسلام مثل العادة الغريبة التي كانت متبعة في الحرم وأبطلها الأمير سعود عندما دخل مكة في ٨ محرم ١٢١٩ ـ أول مايو ١٨٠٤ ، « فقد كانت العادة أن يصلي بالجماعة في المسجد الحرام أحد الأئمة من أهل المذاهب الأربعة ، ثم يتلوه غيره ، فأمر بابطال تلك العادة ، وأن لا يصلي في المسجد إلا إمام واحد ، فصار يصلي الصبح الشافعي ، والظهر المالكي ، وهكذا بقية الأوقات ، ويصلي الجمعة مفتي مكة عبد الملك القلعي الحنفي »[٧٢]

فهو لم يفرض إماما من مذهبه ، ولكنه أبطل عادة سخيفة ، خلقها تحاسد الفقهاء ، أوشكت أن تجعل الاسلام يبدو وكأنه أربعة أديان .. إذ لا يصلي أهل مذهب خلف إمام إلا من مذهبهم !

كذلك طلب من السلطان العثماني ، أن يبطل عادة المحمل بالصورة الهزلية التي كان يرسل بها إلى مكة .

ويفتش الرافعي عن قشة مساهمة مصرية ، فلا يجد إلا خبرا في يوميات شهر ربيع الثاني ١٢٢٩ (مارس ١٨١٤) أي بعد نشوب الحرب بثلاث سنوات ، فيحرص على إبرازه والتأكيد على أن « **المجندين هم من المتطوعين ، وأنهم من مختلف طبقات المجتمع** » !

يقول : « وقد تأخذك الدهشة إذ تسمع في هذا المجتمع بطريقة التطوع ، لأن المفهوم أن مثل هذه الحملات البعيدة ، كان يحشد لها الناس بالقوة . ولكن ما ذكرناه

(أي التطوع) مستفاد من رواية الجبرتي » .

ما أبشع الكذب .. كذب المؤرخ على المؤرخ !

فماذا قال الجبرتي ؟

قال : « وكان قبل ذلك (أي محمد علي باشا) قد أرسل يطلب سبعة آلاف عسكري ، وسبعة آلاف كيس ، فشرع كتخدا بيك في استكتاب أشخاص من « **أخلاط العالم** » ما بين مغاربة وصعايدة وفلاحي القرى ، فكان **كل من ضاق به الحال في معاشه يذهب ويعرض نفسه فيكتبونه ...** » ٧٣.

هذه هي الفقرة التي اكتفى الرافعي بنقلها ليدلل على رأيه ، ولكن الفقرة لم تنته في المصدر الأصلي بل يتابع الجبرتي ... « وفيهم أشخاص من الفعلة الذين يستعملون في شيل التراب والطين في العمائر ، وبرابرة (أي من النوبة) . وأرسل الكتخدا إلى الفيوم وغيرها يطلب رجالا من أمثال ذلك وجمعوا الكثير من أرباب الصنائع ، مثل الخبازين والفرانين والنجارين والحدادين والبياطرة وغيرهم من أرباب الصنائع **ويسحبونهم قهراً** ، فأغلق الفرانون مخابزهم وتعطل خبز الناس أياما » .

« أخلاط العالم » وهي تعني « حثالات الأمم » أو « شذاذ الافاق » أصبحت عند الرافعي « مختلف طبقات المجتمع » وهؤلاء المغاربة والبرابرة ، والفعلة من الصعايدة الذين قيدوا أسماءهم لأنهم لا يجدون قوتهم .. متطوعون للخدمة العسكرية ! وحتى لو أهملنا الجزء الآخر من الصورة ، وهو جمع الناس بالقوة ، أو سحبهم قهراً .. فان التسمية الأجدر هي مرتزقة ، لا متطوعون ...

ويدعي الرافعي ، أن المصريين كانوا يتبهجون بانتصارات جيش محمد علي في الحجاز : « ولما وصلت إلى مصر أنباء هذا الفتح قوبلت بابتهاج عظيم » (يقصد فتح الشقراء ١٣/١/١٨١٨) ويستشهد بالجبرتي ! مع أن كل ما ورد في الجبرتي هو قوله « حضر مبشر من ناحية الديار الحجازية يخبر بنصرة حصلت لابراهيم باشا ، وأنه استولى على بلدة تسمى الشقراء » .

لاحظ « تسمى » للتقليل من شأنها ، وكيف يبتهج الناس بفتح بلدة لا يعرفونها ، إلا أن الجبرتي يكمل : « وأن بين عسكر الأتراك والدرعية مسافة يومين » ما دخلنا نحن بعسكر الاتراك ؟!* ثم يضيف : « فلما وصل هذا المبشر ضربوا بقدومه مدافع من أبراج القلعة » !

هذه هي رواية الجبرتي ، مبشر جاء بنصر **للأتراك** ، ومدافع من القلعة أطلقت ! فأين المصريون من هذا كله ؟!

ولكن الرافعي مصر على توريط الجبرتي ، فينسب إليه ما لم يقله ، بل عكس ما قاله ، فينقل وصف الجبرتي لاحتفالات الباشا بانتصاراته ، وتجمع المصريين ، وهذا التجمع سواء طوعا أو كرها ، ظاهرة اجتماعية مصرية ، فهم لا يتركون جنازة ولا

---

* أم ترى سيقول الريحاني ان الجبرتي أيضا يطلق على المصريين لقب الأتراك ؟!

محملا ولا جمعية تعاونية إلا وتجمعوا حولها .. أو « توت حاوي كمان له » ! « خاصة إذا كان المنادي ينادي ، والعسكر يخرجون الناس ، والباشا يجري مناورات حربية ـ بحرية ، تقوم فيها السفن والمراكب بتمثيل المعارك البحرية والطبول تدق والمزامير والنقرازانات في السفن وطبلخانة (موسيقى) الباشا تضرب في كل وقت ، والمدافع الكثيرة تضرب في ضحوة كل يوم وعصره وبعد العشاء ، وتوقد المشاعل ، وتعمل أصناف كل الحراقات والسواريخ والنفوط ، وتتقابل القلاع المصنوعة على وجه الماء ، ويرمون منها المدافع على هيئة المتحاربين » .

فالباشا فاتح سيرك ، أو عامل أراجوز .. والشعب يتفرج ، وله فيها مآرب أخرى ، ذكرها الجبرتي في أكثر من موضع عند حديثه عن تجمعات المصريين العابثة .. فهل هذا يبيح لمؤرخ أن يستنتج : « وهذا يدلك على عظم تقدير الشعب للانتصارات الحربية ، وما تستثيره في النفوس من روح الفخر والعزة ، ولا جرم أن الحفلات الحربية هي مظهر من مظاهر تقدم الشعوب ، وتقديرها لمفاخرها القومية ، وتكريم الفضائل والأخلاق الحربية . فالحفلات التي وصفها الجبرتي تنطوي على هذه المعاني السامية ، وليس عجيبا أن تحتفل مصر بفتح الدرعية ، فان فتحها هو أعظم انتصار نالته في أول حرب خارجية خاضت غمارها في تاريخها الحديث . » ؟!!

نحن لا حاربنا ، ولا انتصرنا ، ولا ابتهجنا وها هو شاهد العصر ، الشيخ الجبرتي يشهد أن معظم الزينة ، كانت من صنع الافرنج ، الذين ابتهجوا لقهر الوهابية ، سواء عن وعي بخطورة البعث الذي كانت تمثله ، وللرفض الغريزي لكل حركة تنادي ببعث الاسلام ، أو لأن جيوش الباشا كانت تفتح الجزيرة لتجارتهم ، أو حتى لمجرد منافقة الباشا الذي نالوا في عهده من الامتيازات ، ما لم يسبق له مثيل ..

فلنسمع ما قاله الجبرتي في وصف هذه الاحتفالات بعد ورود نبأ استيلاء ابراهيم باشا على الدرعية : « فاكثروا من ضرب المدافع من كل جهة واستمر الضرب من العصر إلى المغرب ، بحيث ضرب بالقلعة خاصة ألف مدفع ، وصادف ذلك شنك أيام العيد ، وعند ذلك أمر بعمل مهرجان وزينة ، داخل المدينة ، وخارجها ، وتقيد لذلك أمين أفندي المعمار ، وشرعوا في العمل وحضر كشاف النواحي والأقاليم بعساكرهم ، ونودي بالزينة ، وأولها الأربعاء ، فشرع الناس في زينة الحوانيت ، والخانات ، وأبواب الدور ووقود القناديل والسهر **وأظهروا الفرح والملاعيب ، كل ذلك مع ما الناس فيه من ضيق الحال والكد في تحصيل أسباب المعايش** ، وعدم ما يسرجون به من الزيت والسيرج ، والزيت الحار ، وكذا السمن ، فانه شح وجوده ، ولا يوجد منه إلا القليل عند بعض الزياتين ، ولا يبيع الزيات زيادة عن الأوقية وكذلك اللحم لا يوجد منه إلا ما كان في غاية الرداءة من لحم النعاج الهزيل ، وأمتنع أيضا وجود القمح بالساحل وعرصات الغلة ، حتى الخبز امتنع وجوده بالأسواق ، ولما أنهي الأمر إلى من لهم ولاية الأمر ، فأخرجوا من شون الباشا مقدارا ليباع في الرقع ، وقد أكلها السوس ، ولا يباع منها أزيد من الكيلة أكثرها مسوس وكذلك لما شكا الناس من عدم ما يسرج به في

القناديل ، أطلقوا للزياتين مقدارا من السيرج في كل يوم يباع في الناس لوقود الزينة ، وفي كل يوم يطوف المنادي ، ويكرر المناداة بالشوارع على الناس بالسهر والقود والزينة ، وعدم غلق الحوانيت ليلا نهارا ».[٧٤]

فليجتر الرافعي مجد الفخار والعزة ، أما شعب مصر ، فكان في شغل عن الاحتفال بفتح الدرعية ، بأكل القمح المسوس ، واستجداء زيت الباشا لتشعل به القناديل ، تلبية لتعليمات المنادي . وإذا كان الرافعي يده في ماء الأمجاد التاريخية ، فان الجبرتي ومعاصريه كانوا في نار الواقع ، لذلك يقول الجبرتي : « وقد ذهب في هاتين الملعبتين (احتفالات الفخر والعزة .. إلخ يسميها الجبرتي « ملاعب ») من الأموال ما لايدخل تحت الحصر ، وأهل الاستحقاق يتظلمون من القشل والتفليس ، مع ما هم فيه من غلاء الاسعار في كل شيء وانعدام الأدهان وخصوصا السمن والسيرج والشحم ، فلا يوجد من ذلك الشيء اليسير الا بغاية المشقة ويكون على حانوت بعض السمن شدة الزحام والصياح » .

فلا جرم أن تكون هذه الحفلات الحربية سببا في زيادة شقاء وتعاسة وضيق المصريين . ويضيف الجبرتي عن هذه الملاعيب : « غالب هذه الأعمال من صناعة الافرنج والنصارى الأرمن بمصر القديمة وبولاق والافرنج » .[٧٥] ثم يعود فيؤكد ذلك وكأنه يرد على شبهات الرافعي بعد مائة عام : « والذي تولى الاعتناء بذلك طائفة الافرنج » .[٧٦] « وكانت معظمها حيث مساكن الافرنج والأرمن فانهم تفننوا في عمل التصاوير والتماثيل وأشكال السيرج » .

احتفل الأرمن والأفرنج ، وابتهج الباشا ، وثارت في نفس الرافعي ، روح العزة والفخار ، أما المصريون فلا حاربوا ولا ابتهجوا .. بل حارب ابراهيم باشا الذي لم يكن قد أتقن الحديث بالعربية بعد ، وبجنود من الأرنؤوط والدلاة ، ومرتزقة من شتى الأجناس إلا أبناء مصر ، وبخبراء من الافرنج ، فالذي وضع خطط حصار الدرعية ، وأشرف على تنفيذها ، هو الميسو فيسيير ،[٧٧] الضابط الفرنسي الذي سافر مع ابراهيم مع طاقم من الخبراء الأجانب ، أو كما يقول الرافعي فرحا شاكرا : إن إبراهيم كان يتميز بصدق نظره لأنه كان « أول من استعان بخبرة الأوروبيين في الحروب فاصطحب معه في الحرب الوهابية طائفة من الأفرنج منهم الضابط الفرنسي فيسيير أحد ضباط أركان الحرب ، وهذا أمر لم يكن مألوفا ، ولا سائغا ، بين قواد الشرق في ذلك العهد ، ولكن ابراهيم باشا بذكائه وحصافته ، عرف أن الأمم الشرقية لا تنهض إلا إذا اقتبست خبرة علماء أوروبا وقوادها » ..

أي نهضة ؟! وأنت تقول ان الوهابية كانت تهدد الدولة العثمانية إذ تنازعها السلطة والسيادة ، « وتتهددها بانشاء دولة عربية قد تنتزع منها الخلافة »[٧٨] .

هل تحطيم هذه المحاولة ، وإزالة هذا « التهديد » (إنشاء دولة عربية تنتزع الخلافة) بمعونة الفرنجة تعتبره نهوضا للأمم الشرقية ؟!

على أية حال ، إن الرافعي لم يكن سيء النية ، ولكنه فاسد التفكير ، وأمانته قد

فرضت عليه الشهادة للوهابيين بأنهم : « دافعوا دفاع الأبطال عن الرس ، بالرغم من قتالهم جيشا مسلحا بالبنادق الحديثة ، ولم يكن عندهم إلا البنادق من الطراز العتيق الذي يطلق بالفتيلة ، ومع ذلك صدوا هجمات الجيش « المصري » (تعبنا من تفنيد ذلك الزعم) ثلاث مرات ، وكبدوه خسائر جسيمة وبلغ عدد قتلاه مدة الحصار ٢٤٠٠ جندي . على حين لم يقتل من الوهابيين سوى ١٦٠ مقاتلا »* .[٧٩]

وفي الدرعية ورغم خطط الضابط الفرنسي ، يشهد الرافعي ، أن الوهابيين : « دافعوا عنها دفاع الأبطال واشترك نساؤهم في القتال فكان دفاعهم مجيدا » .[٨٠]

وهو (الرافعي) يشهد أن أموال « محمد علي » لعبت الدور الأساسي في النصر ، إذ اشترت البدو[٨١] : « ومن الأسباب التي أدت إلى اضمحلال قوة الوهابية ، ضعف عبد الله بن سعود ، والأموال التي بذلها طوسون ، وابراهيم ومحمد علي واشتروا بها ذمم البدو » .

فلنترك الرافعي غارقا في البحث عن قشة مجد كاذب لجيش وهمي ، لم يولد بعد ، وهو لا يحتاج لتلفيق أمجاد فحروبه في المورة والشام تكفيه فخرا . ولنعد للشعب المصري الذي عاش حروب محمد علي في الجزيرة العربية ، ودفع ثمنها غاليا من ماله وحرياته ورزقه .. هل كان متعاطفا مع هذه الحرب ، معاديا لخصوم الباشا ؟!

كل الوقائع التي أثبتها المؤرخون المعاصرون ، تؤكد العكس ، فقد خرجت مصر كلها ، لرؤية الأبطال الوهابيين ، والأمراء السعوديين الأسرى ، وتحول بيتهم في السيدة عائشة قرب القلعة ، إلى مزار ، يتدفق عليه المصريون يطلبون بركتهم للشفاء من الأمراض ! فقد روى ابن بشر : إنه بعد استسلام فيصل بن تركي رحلوه إلى القاهرة « فوصلوا إلى المدينة ومنها إلى مصر وانزلوه في بيت وجعلوا عنده حرسا يحفظونه وصار في مكانه ذلك يحيي أغلب الليل بالتهجد والصلاة ، وفي نهاره بين صلاة وتلاوة القرآن . وكان يتردد إليه كثير من أهل مصر إذا كان في أحد منهم ألم أو حمى أو غير ذلك يأتونه يقرأ عليهم وكانوا يرون أثر الشفاء من قراءته ودعائه (!!!) ومن أجل ذلك ازداد عندهم تكريما وتعظيما . ذكر لي أنه لما خرج من مصر في هذه المرة ، أنهم يترددون إلى مكانه (حيث كان يعيش) ويزورونه ، ويستشفون به »[٨٣] .

صحيح أن طلب البركة ، وسؤال غير الله ، يتعارض مع تعاليم الوهابيين ، وفهمهم الصحيح للاسلام ، فضلا عن التبرك بالجدران التي كان يسكنها** ، ولكن ما يعنينا هنا ، هو مغزى هذا السلوك ، فعامة البلد يؤمنون ببركة .. وصحة دين ، بل وقدسية

---

* شهد الكابتن سادلير « أثبت الوهابيون في حصار الرس معرفة بفنون الحرب واستخدام الأسلحة أكثر من الترك . وبعد هذه المعركة التي دامت شهرين ونصف ، تقرر أن تبقى الرس على الحياد في انتظار نتيجة معركة عنيزة » .[٨٢]

** وصدق من قال : « مصر تفتن العابد » !

أو ولاية خصوم واليهم ، الذي يدعي محاربتهم لأنهم خوارج ..! هذا الاعتقاد العلني بصلاحهم وتقواهم ، وقربهم الى الله تعالى ، الى حد شفاء المريض ، هو صرخة رفض يطلقها الشعب المصري . على طريقته . في وجه حاكم مصر ، وضد كل دعاياته . وتخيل الانجليز يتبركون بجان دارك الأسيرة ، أو الألمان يطلبون بركة ديغول لأولادهم !

شهادة مثقف مصري ــــــــ ٥

عرفنا موقف الشعب المصري ، من التذمر العام ضد النفقات الحربية للحملة ، ومن المبالغة في احترام « فيصل بن تركي » الى حد الاعتقاد بولايته والاستشفاء بالمنزل الذي حددت إقامته فيه ! .. فما هو موقف القيادات المثقفة المصرية ؟

من حسن الحظ ، أن التاريخ قد حفظ لنا وثيقة كاملة ، دقيقة وصريحة برأيهم . سجلها وحفظها لنا ، مؤرخ ذلك العصر وصحفي ذلك الزمان ، والمعبر الصادق عن تفكير القيادات المصرية ، والناطق الأمين بأحاسيس الشعب ، العميقة منها والعفوية ، بل وحتى الساذجة والانفعالية . ألا وهي شهادة المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي ، أحد مشاهير علماء الأزهر ، الذي تعاطف مع الوهابيين إلى أقصى حد ،* حتى تحول تاريخه إلى دعاية صريحة للوهابيين ، ووثيقة نادرة في كمالها وشجاعتها في معارضة حرب يخوضها حاكم مصر ، بأمر من السلطان . حرب تلقى تأييدا من عامة المسلمين في الدولة العثمانية ، الذين أثرت فيهم دعايات السلطنة وفتاوى المفتيين ورسائل والي العراق ، وتقريع والي الشام ، ودعاية وأموال باشا مصر ، وتباكي أشراف مكة والمدينة ، وغلظة الأعراب في جيش السعوديين .

صحيح كان الجبرتي متعاطفا مع الوهابيين والدولة السعودية ولكن عن اقتناع تدرج واكتمل بالمعرفة ، وهذا التعاطف لم يفقده الموضوعية ، ولا يشكك في صدق معلوماته ، وبهذا استحق تأريخه أن يوصف بالوثيقة النادرة ليس فقط في عصره ، بل وفيما تلاه من عصور للأسف .. حتى أستطيع أن أجزم بأن كتابات الجبرتي عن القضية الوهابية ، هي السبب الأساسي لما نزل به من تنكيل الباشا .. إلى حد اغتيال ابنه ، وتوقفه عن الكتابة .. ثم نهايته الغامضة الظروف . كما أقول مطمئنا إن هذه الكتابات ظلت المصدر الأساسي في التعريف بها بين العرب حتى مطلع القرن العشرين .

من حقنا بل ومن واجبنا إذن ، أن نتعرف على رأي المصريين وموقفهم .. من كتابات الجبرتي حول الوهابية ، وحروب محمد علي ضدها .. وسنلاحظ ــ كما قلنا ــ صدق وموضوعية شيخ المؤرخين ، وعميد المثقفين المصريين ، فموقفه يتطور بتطور المعلومات المتاحة له . ففي البداية ، أو عندما سجل أول خبر عن الحركة الوهابية ، كان موقفه

---

* الحمد لله لم يكن لديهم نفط ولا ملحق صحافي وإلا لطعن في شهادة شيخنا !

سلبيا قال :

الاثنين أول محرم ١٢١٧ (٤ مايو ١٨٠٢)

« ترادفت الأخبار بأمر عبد الوهاب وظهور شأنه من مدة ثلاث سنوات* من ناحية نجد ودخل في عقيدته (! ..لن تجد هذه الألفاظ بعد ذلك) قبائل من العرب كثيرة . وبث دعاته في أقاليم الأرض ، ويزعم (!) أنه يدعو إلى كتاب الله سبحانه وتعالى ، وسنة رسوله ، ويأمر بترك البدع التي ارتكبها الناس ومشوا عليها إلى غير ذلك »٨٤ .

وفي ٢٩ شوال ١٢١٧ (يناير ١٨٠٣) : « حضر أولاد الشريف سرور شريف مكة هروبا من الوهابيين ليستنجدوا بالدولة فنزلوا ببيت المحروقي بعدما قابلوا محمد باشا والي مصر وشريف باشا والي جدة » .٨٥

٢٥ ذي القعدة ١٢١٧ (فبراير ١٨٠٣) ، عينوا أحمد باشا والي دمياط ، محافظة مكة وكذلك قلدوا آخر باشاوية المدينة ويسمى أحمد باشا وضموا لهما عساكر يسافرون صحبتهم للمحافظة من الوهابيين وأخذوا في التشهيل » .٨٦

١٥ ذي الحجة ١٢١٧ (أبريل ١٨٠٣) : « حضرت مكاتبات من الديار الحجازية يخبرون فيها عن الوهابيين أنهم حضروا إلى جهة الطائف فخرج إليهم شريف مكة ، الشريف غالب ، فحاربهم فهزموه ، فرجع إلى الطائف ، وأحرق داره التي بها وخرج هاربا إلى مكة فحضر الوهابيون ، إلى البلدة ، وكبيرهم المضايفي نسيب الشريف ، وكان قد حصل بينه وبين الشريف وحشة فذهب مع الوهابيين ، وطلب من سعود الوهابي أن يؤمره على العسكر الموجه لمحاربة الشريف ففعل ، فحاربوا الطائف وحاربهم أهلها ثلاثة أيام حتى غلبوا فأخذ البلدة الوهابيون ، واستولوا عليها عنوة ، وقتلوا الرجال وأسروا النساء ، والأطفال ، وهذا دأبهم مع من يحاربهم » .

لايزال الجبرتي متأثرا بالمعلومات الرسمية ، والتي يروجها الشريف المحرض على ضرب الوهابيين دفاعا عن مصالحه ، وليس عن الاسلام أو المسلمين ..

٢٣ محرم ١٢١٨ (مايو ١٨٠٣) : « حضر هجان على يده مكاتيب مؤرخة في عشرين شهر الحجة ، مضمونها أن الوهابيين أحاطوا بالديار الحجازية ، وأن شريف مكة الشريف غالب تداخل مع شريف باشا وأمير الحاج المصري والشامي ، وأرشاهم على أن يتعوقوا معه أياما حتى ينقل ماله ومتاعه إلى جدة ، وذلك بعد اختلاف كبير وحل وربط وكونهم يجتمعون على حربه ثم يرجعون عن ذلك الى أن اتفق رأيهم على الرحيل ، فأقاموا مع الشريف ، إثني عشر يوما ثم رحلوا ورحل الشريف بعد أن أحرق داره ورحل شريف باشا أيضا إلى جدة » .

لكن الأمور تتطور ، والحقيقة لا يمكن كتمانها كل الوقت عن كل الناس ، وفي ١٦ صفر ١٢١٨ (١٨٠٣) أصبح الوهابي حديث القاهرة ، ومثار حوار بين شيوخها

---

* كان الشيخ قد توفي من عشر سنوات ، وبعد أن خدم الدعوة ما يزيد على نصف قرن (١١٥٣ ـ ١٢٠٦هـ ـ ١٧٤٠ ـ ١٧٩١) .

وجماهيرها ، فقد وصل الخبر بدخول الوهابيين مكة بعد وقوع ذلك الحدث بخمسة وثلاثين يوما ، مما يعطينا فكرة عن حالة المواصلات في الدولة العثمانية .. يقول الجبرتي :

« وحضر صحبة الحجاج ، كثير من أهل مكة هروبا من الوهابي ولغط ناس في خبر الوهابي ، واختلفوا فيه ، فمنهم من يجعله خارجيا وكافرا وهم المكيون ومن تابعهم ، وصدق أقوالهم ، ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه » .[٨٧]

واضح أن الجبرتي قد اختار معسكره ، لا لسبب إلا لأن المعلومات قد توفرت ، فقد زود الوهابيون الحجاج ببعض المنشورات التي تشرح فكرهم ، قرأها الجبرتي ، كما ناقشها مع الحجاج العائدين ، وسمع منهم وسألهم ، ثم سلك سلوك المؤرخين الشرفاء ، أو الصحفيين المخلصين لشرف المهنة ، فقد أثبت منشور الوهابي حرفيا قال : « وأرسل الوهابي إلى شيخ الركب المغربي كتابا ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وصورتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ، الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ونشهد أن محمدا عبده ورسوله . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصي الله ورسوله فقد غوى ولا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا . أما بعد ، فقد قال الله تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » وقال الله تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » وقال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . وقال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » . فأخبر سبحانه أنه أكمل الدين وأتمه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأمرنا بلزوم ما أنزل إلينا من ربنا وترك البدع والتفرق والاختلاف وقال تعالى : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » ، والرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا بأن أمته تأخذ مأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع ، وثبت في الصحيحين وغيرهما عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يارسول الله اليهود والنصارى قال فمن ؟ وأخبر في الحديث الآخر أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، قالوا : من هي يارسول الله ؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي . اذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التي أعظمها الاشراك بالله والتوجه إلى الموتى وسؤالهم النصر على الأعداء ، وقضاء الحاجات وتفريج الكربات التي لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسموات ، وكذلك التقرب إليهم بالنذور وذبح القربان والاستغاثة بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد إلى غير ذلك

من أنواع العبادة التي لا تصلح إلا لله ، وصرف شيء من انواع العبادة لغير الله كصرف جميعها ، لأنه سبحانه وتعالى أغنى الأغنياء عن الشرك ، ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا ، كما قال تعالى : « فاعبد الله مخلصا له الدين ، الا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار » ، فأخبر سبحانه أنه لا يرضى من الدين إلا ما كان خالصا لوجهه وأخبر أن المشركين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين ، ليقربوهم إلى الله زلفى ، ويشفعوا لهم عنده ، وأخبر أنه لا يهدي من هو كاذب كفار وقال تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم . ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون » . فأخبر أنه من جعل بينه وبين الله وسايط يسألهم الشفاعة فقد عبدهم وأشرك به ، وذلك أن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه » . وقال تعالى : « فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم » . وقال تعالى : « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن الرحمن ورضى له قولا » . وهو سبحانه وتعالى لا يرضى الا التوحيد كما قال تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » .

فالشفاعة حق ولا تطلب في دار الدنيا إلا من الله كما قال تعالى ، « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » ، وقال تعالى : « ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك إذا من الظالمين » ، فاذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو سيد الشفعاء وصاحب المقام المحمود وآدم فمن دونه تحت لوائه لا يشفع إلا باذن الله ، لا يشفع ابتداء بل يأتي فيخر لله ساجدا فيحمده بمحامد يعلمه إياها ، ثم يقال ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ثم يحد له حدا فيدخلهم الجنة فكيف بغيره من الأنبياء والأولياء . وهذا الذي ذكرناه لا يخالف فيه أحد من علماء المسلمين ، بل قد أجمع عليه السلف الصالح من الأصحاب والتابعين والأئمة الأربعة ، وغيرهم ممن سلك سبيلهم ، ودرج على منهاجهم ، وأما ما حدث من سؤال الأنبياء والأولياء من الشفاعة بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها وإسراجها والصلاة عندها واتخاذها أعيادا وجعل السدنة والنذور لها فكل ذلك من حوادث الأمور التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم أمته وحذر منها كما في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : لا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان ، وهو صلى الله عليه وسلم حمى جناب التوحيد أعظم حماية وسد كل طريق يؤدي إلى الشرك فنهى أن يجصص القبر وأن يبنى عليه ، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر وثبت فيه أيضا أنه بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره لا يدع قبرا مشرفا إلا سواه ، ولا تمثالا إلا طمسه ، ولهذا قال غير واحد من العلماء يجب هدم القباب المبنية على القبور لأنها أسست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم . فهذا هو الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر إلى أن كفرونا وقاتلونا واستحلوا

دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم وهو الذي ندعو الناس إليه ، ونقاتلهم عليه ، بعد ما نقيم عليهم الحجة ، من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع السلف الصالح من الأمة ممتثلين لقوله سبحانه وتعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان ،كما قال تعالى :«لقد أرسلنا رسلنا بالبيانات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس» وندعو الناس إلى إقامة الصلوات في الجماعات على الوجه المشروع وإيتاء الزكاة وصيام شهر رمضان وحج بيت الله الحرام ، ونأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ، كما قال تعالى : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » . فهذا هو الذي نعتقده وندين الله به فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم له ما لنا وعليه ما علينا ، ونعتقد أيضا أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، المتبعين للسنة لا تجتمع على ضلالة وأنه لا تزال طائفة من أمته على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله ، وهم على ذلك »٨٨ .

أثبت الجبرتي ، منشور « الاعداء » ليس في أوراقه الخاصة ، أو يومياته فحسب ، بل وفي تاريخه الذي وضعه بعدما هزم الوهابيون ، فهو أثبته إذن عن قناعة وإيمان . وكيف لا يتأثر الجبرتي بهذه المفاهيم التي يعرف صحتها ، وصدق استلامها من روح وتعاليم الاسلام ؟ وكيف لا يعجب بدعاتها ، وهو يعيش في عالم مخيف تتحكم فيه عناصر بلا عقيدة ، تستمتع باهدار العرف والشريعة .

ولو اكتفى الجبرتي باثبات نص المنشور في كتابه المعد للتداول في دولة الباشا المحارب للوهابيين ، لكفاه فخرا ، وشهادة له بالأمانة التاريخية ، والشجاعة الأدبية التي يفتقر إليها اليوم . ولكن شيخ المثقفين في ذلك العصر « المتخلف » ، ما كان ليتستر وراء القول بأن ناقل الكفر ليس بكافر ، بل لابد له من إبداء الرأي ، ولذلك نرى الجبرتي ، وقد تكونت لديه صورة واضحة للموقف يسجل لأول مرة رأيه بصراحة ، معلقا على المنشور بقوله :

« أقول إن كان (الحال) كذلك ، فهذا ما ندين الله به ، نحن أيضا ، وهو خلاصة لباب التوحيد ، وما علينا من المارقين والمتعصبين ، وقد بسط الكلام في ذلك ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان والحافظ والمقريزي في تجريد التوحيد والامام اليوسي في شرح الكبرى وشرح الحكم لابن عباد وكتاب جمع الفضائل وقمع الرذائل وكتاب مصايد الشيطان وغير ذلك » .

وبهذه الشهادة لا يكون الجبرتي قد انضم للوهابيين فحسب ، بل وأعلن « مروق » السلطان العثماني وواليه .. أي باشا مصر وحاكمها ..

وأي عالم من علماء الأزهر ، يتقي الله ، يستطيع ان يعارض ما جاء في رسالة « الوهابي » هذه ؟

وإذا كان الجبرتي ، في هذه الرسالة ، قد اضطر للتحفظ فقال : « إذا كان كذلك »

أي إذا كان هذا هو موقف الوهابيين فنحن معهم .. على طريقة الفتوى « فان كان الحال وفق السؤال » .. إلا أن الأخبار ستتابع بعد ذلك ، وتزداد قناعته ، ويتأكد انحيازه ، باتضاح سلامة موقفهم الديني ، وإنطباق سلوكهم على قولهم ، ثم بقتالهم ضد عسكر السلطنة الذين يبغضهم الجبرتي اشد البغض ، ثم بدخول « محمد علي » المعركة ضدهم ، وهو الذي ناصبه الجبرتي العداء ، لما رآه ولمسه من خداعه ومكره ، وإفقاره الشعب ، وعزل قياداته من طبقة الجبرتي . وسيتحول الجبرتي إلى أقوى داعية للسعوديين في القاهرة . وإن كانت المصادر غير متاحة ــ كما قلنا ــ لمعرفة مدى انتشار فكرة الوهابية بين المثقفين المصريين ، إلا أن موقف الشعب المصري واحتفاءه بالأسرى الوهابيين ، بل وكون مصر البلد الاسلامي الذي يضم أكبر عدد من الناس يحملون اسم « عبد الوهاب » بل « محمد عبد الوهاب » يدل على أنه إذا لم تكن للوهابيين دعاية نشطة في مصر ، أو أن الظروف لم تسمح لهذه الدعاية بالانتشار والتجذر ، فعلى الاقل كانت دعاية خصومهم عاجزة كل العجز عن الوصول إلى عقلية الجماهير خلال حرب دامية دامت ٨ سنوات ، ثم متقطعة لربع قرن ، فما زادت المصريين* إلا حبا في الوهابية والسعوديين !

نتابع أخبار الوهابيين في الجبرتي :

٤ ربيع الثاني ١٢١٨ ــ يوليو ١٨٠٣ .

« جلا الوهابيون عن جدة ومكة بسبب أنهم جاءتهم أخبار بأن العجم زحفوا على بلادهم الدرعية . وملكوا بعضها ، والخطابات بها خطابان لطاهر باشا على ظن حياته . » (كان قد قتل على يد الانكشارية انتقاما لقتل قائدهم) . ثم : تحقق الخبر بجلاء الوهابي عن جدة ومكة ورجوعه إلى بلاده وذلك بعد أن حاصر جدة وحاربها تسعة أيام وقطع عنها الماء ، ثم رحل عنها . وعن مكة ، ورجع الشريف غالب إلى مكة**

---

* ويمكن استنتاج وجود بعض الخلايا المؤمنة بالوهابية في مصر ، وليس جواسيس كما يقول مستشرق . من انتشار منشوراتهم ، ووجود رأي عام متعاطف معهم . وأيضا من وصول أخبار التحركات العسكرية المصرية للدولة السعودية قبل وصول هذه التحركات إلى الأراضي السعودية .

** أي ان التاريخ عاد الى الوراء ورجعت المظالم بانسحاب الوهابيين . أليس هذا ما يفهمه أي قارىء للغة العربية ؟.. ولكن دكتورا مبتعثا وشامعيا (أي جامعي بلغة العقاد الساخرة) لم يحسن فهم هذه الجملة الرائعة من الجبرتي فانهال عليه تقريعا هكذا : « ولم يغفل الجبرتي في تاريخه ، قصة عودة الشريف غالب الى مكة ، ولكنه لخص القصة بكلمة غريبة جدا مع شدة تحريه للحق ، وما ندري كيف تورط فيها ، قال : رجع الشريف غالب إلى مكة ، ورجع كل شيء إلى حاله الأول ورد المكوس والمظالم » وهذا الكلام قد يوهم أن المكوس والمظالم جرت في فترة النفوذ السعودي أيام عبد المعين . مع ان المستشرق بركارت شهد شهادة حق ... الخ .

والله ما تورط الجبرتي ، ولكن تورط من يفهم هذا الفهم من جملة واضحة كل الوضوح وعجبي من وزير معارف يفهم منها أنه بزوال حكم السعوديين عادت المظالم التي كانت في حكم السعوديين !

حسرة على معارفنا : وحسرة على الجبرتي الذي لو عرف أنه يكتب ليقرأه مثل هؤلاء ، على هذا النحو ، لما تورط أصلا في كتابة تاريخ هذه الامة !

وصحبته شريف باشا ، ورجع كل شيء إلى حاله الأول ورد المكوس والمظالم » .

٢٥ شوال ١٢١٨ (فبراير ١٨٠٤) :

وصل أول أمر بارسال تجريدة للحجاز :

« عملوا ديوانا وقرأوا فرمانا وصل من الدولة مع الططر خطابا لعلي باشا والأمراء بتشهيل أربعة آلاف عسكري وسفرهم إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين وارسال ثلاثين ألف أردب غلال إلى الحرمين ، وأنهم وجهوا أربعة باشات من جهة بغداد بعساكر وكذلك أحمد باشا الجزار ، وأرسلوا فرمانا بالاستعداد والتوجه لذلك ، فان ذلك من أعظم ما تتوجه إليه الهمم الاسلامية ، **وأمثال ذلك من الكلام** . والترفق وفيه بعض القول بالحسب والمروءة.[٨٩]

٦ ربيع الأول ١٢١٩ (١٨ يونيه ١٨٠٤) :

« وردت مكاتبات من الحجاز وأخبروا فيها بموت محمود جاويش الذي سافر بالمحمل ، وكذا الحاج يوسف صيرفي الصرة ، وأن طائفة من الوهابيين حاصروا جدة ، ولم يملكوها ، وأن ببلاد الحجاز غلاء شديد لمنع الوارد عنهم ».

١٥ رجب الفرد ١٢٢٠ (اول نوفمبر ١٨٠٥) :

« وردت الأخبار بأن الوهابيين استولوا على المدينة المنورة ، على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم ، بعد حصارها نحو سنة ونصف من غير حرب ، بل تحلقوا حولها وقطعوا عنها الوارد ، وبلغ الاردب الحنطة بها مائة ريال فرانسة ، فلما اشتد بهم الضيق ، سلموها **ودخلها الوهابيون ولم يحدثوا بها حدثا غير منع المنكرات ، وشرب التنباك في الأسواق ، وهدم القباب ما عدا قبة الرسول صلى الله عليه وسلم** » .

وهذه دعاية واضحة للوهابيين ...

ثم بدأ نهب مصر باسم محاربة الوهابيين ، الذين اطلق عليهم .. « الخوارج » .. وبدأت نغمة المعارضة ترتفع عند الجبرتي . « وهم يجمعون الأموال ، ويفردون الفرد على الاقاليم ، ويقولون برسم تسهيل العسكر المسافر للخوارج واستخلاص البلاد الحجازية من ايديهم »[٩٠] وهذه تشهيلة طاهر باشا ، وهي لم تسافر ، ولا حاربت ، بل نهبت المصريين .

وينتهي الجزء الثالث* ويبدأ الجزء الرابع ، وقد أصبح موقف الجبرتي واضحا كل الوضوح ، فهو مع الوهابيين ، عن قناعة واختيار حر لأنه يعيش في مصر ، بعيداً عن نفوذ الوهابيين وفي قبضة « محمد علي » الطاغية الذي يحارب الوهابيين ويفرض نظاما بوليسيا صارما ، تستبعد معه شبهة قيام أي اتصال مشبوه بين الجبرتي والوهابيين ، الذين لحسن الحظ ، لم يكن لديهم نفط في هذا الوقت ، والذين كانوا وما زالوا يفتقرون إلى جهاز إعلام قوي ، ولكن الجبرتي الباحث عن الحقيقة ، الأمين عليها إذا ظفر بها ،

---

* تاريخ الجبرتي المسمى عجائب الآثار في التراجم والاخبار .

استطاع أن يكون لنفسه من اتصالاته وقراءاته ، فكرة واضحة عن مبادىء الوهابيين وأهدافهم ، واستطاع أن يربط بين اقتناعه بعدالة قضيتهم ، وبين كراهيته لاستبداد « محمد علي » وأطماعه . ولابد أن ننبه هنا إلى أن الدولة العثمانية كانت تعتبر الوهابيين ألد خصومها ، فهم يشكلون التحدي الديني والقومي ، حتى أن « محمد علي » لم يفز برضاء السلطان ، وحاشيته ، إلا بعد انتصاره على الوهابيين ، فانحياز الجبرتي إلى جانب الوهابيين ، دليل على أن نظرته للدولة العثمانية ، ودفاعه عنها في بعض المواقف ، تنبع من نفس الأسس التي تحكم موقفنا اليوم ، فهي الدولة الظالمة ، الفاسدة ، العاجزة ، وهو مع كل حركة إصلاح إسلامية عربية ، ولكنه مع الدولة العثمانية ، ضد أي غزو خارجي ، مع الدرعية ضد الآستانة ، ولكن مع إسلامبول ضد موسكو وباريس ولندن .

في يوم السبت آخر محرم ١٢٢١ (١٠ - ٤ - ١٨٠٦) يعلمنا الجبرتي بأنه قد « وصلت الأخبار من الديار الحجازية بمسالمة الشريف غالب للوهابيين » « لم يسعه إلا الدخول في طاعتهم وسلوك طريقتهم ، وأخذ العهد على دعاتهم وكبيرهم بداخل الكعبة ، وأمر بمنع المنكرات والتجاهر بها وشرب الاراجيل بالتنباك في المسعى ، وبين الصفا والمروة ، وبالملازمة على الصلوات الجامعة ودفع الزكاة وترك لبس الحرير والمقصبات وإبطال المكوس والمظالم ، وكانوا قد خرجوا عن الحدود في ذلك حتى أن الميت يأخذون عليه خمسة فرانسة أو عشرة بحسب حاله ، وإن لم يدفع أهله القدر الذي يتقرر عليه فلا يقدرون على رفعه ودفنه ، ولا يتقرب إليه الغاسل ليغسله حتى يأتيه الاذن ، وغير ذلك من البدع والمكوس والمظالم ، التي أحدثوها على المبيعات والمشتروات ، على البائع والمشتري ، ومصادرات الناس في اموالهم ودورهم ، فيكون الشخص من سائر الناس جالسا بداره فما يشعر على حين غفلة منه إلا والأعوان يأمرونه باخلاء الدار وخروجه منها ، ويقولون سيد الجميع* محتاج إليها فاما أن يخرج منها جملة وتصير من أملاك الشريف ، واما أن يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أقل أو أكثر ، فعاهده (أي الشريف عاهد الأمير السعودي) على ترك ذلك كله واتباع ما أمر الله تعالى به في كتابه العزيز من اخلاص التوحيد لله وحده ، واتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام . وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون إلى آخر القرن الثالث . »٩١

أليست هذه حركة إصلاحية ؟ بل وتقدمية إنسانية ، حررت شعب الجزيرة ، ولو لفترة قصيرة ، من فحش المظالم المتعارف عليها في الدولة العثمانية ؟ وأكدت أنه من الممكن قيام حكم نظيف في المجتمع العربي بغير حاجة إلى الأجنبي ؟!..أليس النص على اتباع سنة الأئمة حتى آخر القرن الثالث يستحق وقفة تأمل ، ويفحم كل من يتهم

---

* في رسائل الأمير عبد الله بن الحسين الى ابن سعود كان يصف والده « سيد الجميع » ! وذلك بعد مائة سنة !

الحركة السلفية بالتخلف .. ألم تكن هذه القرون الثلاثة هي قرون التقدم والازدهار والسيادة والانفتاح ؟... بل وغلبة الملامح العربية للحضارة الاسلامية ... ألا يتضمن هذا النص إدانة لما وقع من جمود وتخلف وخروج عن روح الاسلام في القرون التالية ؟

وأخيرا أليس إثبات المظالم التي أزالها الوهابيون ، أعداء باشا مصر ، إثباتها على يد كاتب مصري ، وفي كتاب مصري ، معد للتداول في مصر .. أليس ذلك دليل شجاعة أدبية تؤكد أنه حفيد أولئك المثقفين الخالدين في بلاط فرعون الذين قالوا للطاغية « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ».

بل ويشهد الجبرتي أن هدم القباب المبنية على القبور قد تم .. « بعد المناظرة مع علماء تلك الناحية ، وإقامة الحجة عليهم بالأدلة القطعية التي لا تقبل التأويل من الكتاب والسنة وإذعانهم لذلك » .

فالفاتحون لم يهدموا القباب بقوة السيف ، ولا بسطوة الفتح ، ولكن بعد محاورة تستند الى الكتاب والسنة المقبولين من المتحاورين ، وبعد انتصار حجتهم بالأدلة القطعية ... بأن الاسلام قد جاء « لتوحيد الألوهية وانهاء الشرك » .

ويفند الجبرتي دعاوى منع الوهابيين للحج* ، بل ويدافع حتى عن أخذ أموال الحجرة النبوية بمنطق قوي ، وحجة مقنعة ، وتصور متفوق على المفاهيم السائدة ليس في عصره فقط ، بل وفي عصور تالية ، وأيضا بميل شديد للوهابيين .

يقول في الجردة السنوية لعام ١٢٢٣ « ومنها انقطاع الحج الشامي والمصري « **معتلين** » بمنع الوهابي الناس عن الحج ، **والحال ليس كذلك ، فانه لم يمنع أحدا يأتي إلى الحج على الطريقة المشروعة ، وانما يمنع من يأتي بخلاف ذلك من البدع ، التي لا يجيزها الشرع ، مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الاسلحة ، وقد وصلت طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا في هذا العام وما قبله ، ولم يتعرض لهم أحد بشيء** ». ثم يفسر الحملة التي شنها اللاجئون من الأراضي الحجازية ، ويأتي تفسيره متحيزا للسلطة الوهابية ، وإن كان معقولا ومقبولا ، يقول : « ولما امتنعت قوافل الحج المصري والشامي وانقطع عن أهل المدينة ومكة ما كان يصل إليهم من الصدقات والعلائف والصرر التي كانوا يتعيشون منها ، خرجوا من أوطانهم باولادهم ، ونسائهم ، ولم يمكث إلا الذي ليس له إيراد من ذلك ، وأتوا إلى مصر والشام ومنهم من ذهب إلى إسلامبول يتشكون من الوهابي ، ويستغيثون بالدولة في خلاص الحرمين ، لتعود لهم الحالة التي كانوا عليها ، من إجراء الأرزاق واتصال الصلات والنيابات والخدم في الوظائف التي بأسماء رجال الدولة كالفراشة والكناسة

---

* قد يبدو أن الجبرتي أكثر انحيازا للسعوديين من ابن بشر ، الذي جاء تاريخه كأنه نعي أو شكوى من انقطاع الحج . والحقيقة أن ابن بشر كان أكثر إحساسا بأهمية الحج لأهل الجزيرة . أما الجبرتي فكان قد عين نفسه متحدثا باسم الوهابيين لدى العالم الاسلامي ، فكانت مهمته هي « تبرير » كل افعالهم .

ونحو ذلك . ويذكرون أن الوهابي استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ، ونقلها وأخذها . فيرون أن أخذه لذلك من الكبائر العظام »* .

الجبرتي يتهم هؤلاء بأنهم إنما يستعدون الدولة ، من أجل منافعهم الخاصة ومصالحهم وما كانت تدره عليهم مناصبهم ، وليس غيرة على الدين ، ولا نصرة للحرمين .

ولكن كيف يدافع الجبرتي عن أخذ ذخائر وجواهر الحجرة الشريفة ؟!

نعم دافع ! وبمنطق مثير بالنسبة لمفاهيم عصره ، بل بمنطق أقوى من دفاع بعضهم بعد قرن ونصف قرن ...فما زال هؤلاء يبذلون الجهد لنفي التهمة ويقسمون أن عبد الله بن سعود سلم المجوهرات لمحمد علي أو السلطان .. فلماذا أخذها من الحجرة .. لماذا لم يبقها هناك ؟!

ولكن هكذا تكلم الجبرتي منذ مائة وخمسين عاما أو أكثر : «وهذه الأشياء أرسلها ووضعها خساف العقول من الاغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ، إما حرصا على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتي بعدهم، أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء ، فلما تقادمت عليها الأزمنة ، وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة وهي في الزيادة ، ارتصدت معنى لا حقيقة ، وارتسم في الاذهان حرمة تناولها ، وأنها صارت مالا للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يجوز لأحد أخذها ولا انفاقها ، والنبي عليه الصلاة والسلام منزه عن ذلك ولم يدخر شيئا من عرض الدنيا في حياته ، وقد أعطاه الله الشرف الأعلى ، وهو الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب واختار أن يكون نبيا عبدا ولم يختر أن يكون نبيا ملكا ، وثبت في الصحيحين وغيرهما أنه قال اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا ، وروى الترمذي بسنده عن أبي امامة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا قلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما ، أو قال ثلاثا ، أو نحو ذلك فاذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك ثم إن كانوا وضعوا هذه الذخائر والجواهر صدقة على الرسول ومحبة فيه فهو فاسد لقول النبي صلى الله عليه وسلم ، إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد إنما هي أوساخ الناس ، ومنع بني هاشم من تناول الصدقة وحرمها عليهم والمراد الانتفاع في حالة الحياة ، لا بعدها فان المال أوجده المولى سبحانه وتعالى من أمور الدنيا لا من أمور الآخرة ، قال تعالى : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد » . وهو من جملة السبعة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز في قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرةمن

---

* هل هناك كاتب سوري أو عراقي أو حتى سعودي كتب أفضل من هذا الدفاع ؟! ولكن موقف الكاتب المصري تحت سيف محمد علي ينسى ، ولا يحسب على المصريين إلا مواقف محمد علي الألباني وسليمان الفرنساوي وكذا أغا ؟!

الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » . فهذه السبعة بها تكون الخبائث والقبائح وليست هي في نفسها أمورا مذمومة ، بل قد تكون معينة على الآخرة إذا صرفت في محلها .. وكنز المال بحجرته (النبي ص) وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين وباقي الأصناف الثمانية . مخالفة لأوامره ، وإن قال المدخر أكنزها لنوائب الزمان ، وأستعين بها على مجاهدة الكفار والمشركين عند الحاجة إليها ، قلنا قد رأينا شدة احتياج ملوك زماننا واضطرارهم في مصالحات المتغلبين عليهم من قرانات الافرنج ، وخلو خزائنهم من الأموال التي أفنوها بسوء تدبيرهم وتفاخرهم ورفاهيتهم ، فيصالحون المتغلبين بالمقادير العظيمة بكفالة أحد الفرق من الافرنج المسالمين لهم واحتالوا على تحصيل المال من رعاياهم بزيادة المكوس والمصادرات والطلبات والاستيلاء على الأموال بغير حق حتى أفقروا تجارهم ورعاياهم ، ولم يأخذوا من هذه المدخرات شيئاً ربما كان عندهم أو عند خونداتهم جوهر نفيس من بقايا المدخرات فيرسلونه هدية إلى الحجرة ولا ينتفعون به في مهامتهم فضلا عن إعطائه لمستحقية من المحتاجين ، وإذا صار في ذلك المكان لا ينتفع به أحد ، إلا ما يختلسه العبيد الخصيون الذين يقال لهم أغوات الحرم . والفقراء من أولاد الرسول وأهل العلم والمحتاجون وأبناء السبيل يموتون جوعا وهذه الدخائر محجور عليها وممنوعون منها ، إلى أن حضر الوهابي واستولى على المدينة وأخذ تلك الذخائر فيقال أنه عبى أربع سحاحير من الجواهر المحلاة بالألماس والياقوت العظيمة القدر ومن ذلك اربعة شمعدانات من الزمرد وبدل الشمعة قطعة من الماس مستطيلة يضيء نورها في الظلام ، ونحو مائة سيف قرابتها ملبسة بالذهب الخالص ، ومنزل عليها الماس والياقوت ، ونصابها من الزمرد واليشم ونحو ذلك ، وسلاحها من الحديد الموصوف ، كل سيف منها لا قيمة له (أي لا يقدر بثمن) وعليها دمغات باسم الملوك والخلفاء السالفين وغير ذلك ».٩٢

هذا هو الدفاع المنطقي ، المستند إلى تعاليم الاسلام وروحه ومنطق الجهاد ، وتفضيل الصالح العام ومصلحة المسلمين ، على كل الاعتبارات.١٤م

ويصف الجبرتي نتائج حكم الوهابيين بقوله : « عند ذلك أمنت السبل ، وسلكت الطرق بين مكة والمدينة ، وبين مكة وجدة والطائف ، وانحلت الاسعار وكثر وجود المطعومات وما يجلبه عربان الشرق إلى الحرمين من الغلال والأغنام والأسمان والأعسال حتي بيع الأردب من الحنطة بأربعة ريال.*

ولكن الطبع غالب في الشريف غالب ، فرغم إذعانه ، ورغم قسمه اليمين في الكعبة « استمر يأخذ العشور من التجار ، وإذا نوقش في ذلك يقول هؤلاء مشركون وأنا آخذ من المشركين لا من الموحدين » !

استطاع الوهابيون فرض الأمن وتحقيق الرخاء في الاراضي المقدسة ، حتى وإن

---

* هذا قول من يبلغ الغباء بالدكتور العجلاني أو التغابي حد اتهامه بأنه ينسب المظالم لحكم سعود !!

بايع الشريف في الكعبة واستمر يأخذ مال المشركين بسيف الموحدين !

أما قضية منع المحمل التي استمرت تشكل أزمة بين القاهرة والرياض لأكثر من مائة عام ، حتى غنت « أسمهان » لعودة المحمل في أربعينات القرن العشرين ، فيقول عنها الجبرتي : « في يوميات شهر جمادى الآخر ١٢٢١ أنه قابل مصطفى جاويش المتسفر على المحمل ، فأخبره « المذكور » إنه لما ذهب إلى مكة وكان الوهابي حضر إلى الحج واجتمع به فقال له الوهابي . ما هذه العويدات التي تأتون بها وتعظمونها بينكم ، يشير بذلك القول إلى المحمل ، فقال له جرت العادة من قديم الزمان بها يجعلونها علامة وإشارة لاجتماع الحجاج ، فقال لا تفعلوا ذلك ولا تأتوا به بعد هذه المرة ، إن أتيتم به مرة أخرى فاني أكسره » .

ثم يعود الجبرتي فيثبت واقعة منع المحمل في يوميات شهر صفر مع عودة الحجاج المغاربة ، الذين جاءوا بعد أمير الحج بالطبع ، لأنه عاد سريعا ليبلغ خبر منع المحمل أو لينجو بجلده . ويثبت الجبرتي أن الحجاج المغاربة الذين جاءوا عن طريق البر « أخبروا أنهم حجوا وقضوا مناسكهم وأن **مسعود** الوهابي ، وصل إلى مكة بجيش كثيف وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الاسعار » . بل إن الجبرتي يسجل على الركب الشامي ، أنهم امتنعوا عن الحج « ولم يمتنعوا عن مناكيرهم » لما طلب الوهابي أن يتخلوا : « عن الطبل والزمر والأسلحة وكل ما كان مخالفا للشرع » .

في شهر ربيع الثاني ١٢٢٢ يثبت الجبرتي أن أخبار « الوهابي » اضطربت بحسب الأغراض » أي شوهت وفقا لأغراض بعض الجهات . ويقول إن الوهابي يوزع كراسة يرد فيها على اتهامات المخالفين له . ولعلها أول محاولة لمخاطبة الرأي العام العربي بالكلمة المكتوبة في العصر الحديث ، أعني أول محاولة عربية لكسب رأي عام عربي لقضية عربية ، فلا ندخل في حسابنا دجل نابليون وإفك مطبعته المرفوض من الشعب . كراسة الوهابي هي أول منشور مكتوب على نطاق العالم العربي لشرح أهداف ومبادىء حركة ثورية ضد السلطنة العثمانية .. كتبت بيد عربية ، في قلب الوطن العربي ، وليست في باريس ، ولا وزعتها سفارات أوروبا ، وقناصل المستعمرين ، كما هو الحال في منشورات القوميين بعد ما يقرب من القرن !..

ولابد أنها كانت قوية التأثير ، إذا ما حكمنا بنتائجها على تفكير الجبرتي ومواقفه .. فحتى ذلك الحين ، كان الجبرتي بتأييده للوهابيين ، يعارض السلطان ، هذا الكائن الرمزي ، الذي لا حول له ولا قوة في مصر ، ولكن منذ شوال عام ١٢٢٢ سيصبح تأييد الوهابيين ، يعني عصيان باشا القاهرة ، صاحب الحول والطول ، والبارع في الكيد لمعارضيه .. لأنه في ٢٣ شوال ١٢٢٢ ـ ديسمبر ١٨٠٧ ، وبعدما منع موكب الحج الشامي ، ومنع المحمل المصري ، وبعدما أصبحت الدعاية ضد السلطان تمارس في موسم الحج ، ودانت الحجاز كلها للوهابي ، وأصبح لقب « حامي الحرمين » الذي يتلقب به السلطان بلا معنى ، بل مثار سخرية كلما قيل في مساجد الامبراطورية .. عندئذ وصل أمر إلى القاهرة ، يلح في ضرورة الخروج « لمحاربة الخوارج بالحجاز

واستخلاص الحرمين » . ولكن الباشا في غير عجلة من أمره ، لأنه كان يريد الخلاص أولا من المماليك ليؤمن ظهره ، ولأنه كما يفهم من الجبرتي ، كان أكثر حكمة من السلطان ، وأكثر إدراكا لمخاطر مثل هذه المهمة ، من « باشا » أو « بيك باشا » مصر بعد مائة وخمسين عاما (!) فهو يعرف : « أن الأمر لا يتم بالعجلة ، ويحتاج إلى استعداد كبير وانشاء مراكب في القلزم ، وغير ذلك من الاستعدادات » . ولما يعجز مندوب السلطان عن فهم هذه الحجج ، يثير « محمد علي » العامة ، فيعقد اجتماعا للمشايخ وعمر مكرم ويبلغهم أن أمر السلطان قد وصل بطرد الوهابيين من الحرمين ، وأن ذلك يحتاج إلى أربعة وعشرين ألف كيس .. « فحصل ارتباك واضطراب وشاع ذلك في الناس ، وزاد بهم الوسواس ، ثم اتفقوا على كتابة عرضحال ليصحبه ذلك القابجي معه بصورة نمقوها » .

الباشا كان قد قرر خوض الحرب في الجزيرة العربية ، ولكنه كان يريد الاستعداد لها ، خاصة وأن نفوذ الوهابيين امتد وانتشر إلى حد أنه وصلت أنباء في نهاية شهر شوال هذا بوصول طلائعهم إلى مدينة السويس المصرية[٩٣] . ولكن الباشا يستطيع تأجيل الأمر والتسويف فيعين في جمادى الثانية ١٢٢٥ (أغسطس ١٨١٠) « ديوان أفندي ، ناظراً لمهمات الحرمين ، والتأهب لسفر الحجاز لمحاربة الوهابية » . الذين كانوا قد وصلوا إلى الشام وجرت بينهم وبين يوسف باشا واليها حرب في « المزيريب » والذي ما كاد يفرغ من حربهم ، حتى عزله السلطان وسلط عليه باشا عكا فهزمه ، ولجأ إلى مصر التي بدأت تتحول إلى المحل المختار للاجئين السياسيين من الشام . وسيقطعهم باشا مصر القصور ويجري عليهم الرواتب ، بوهم تحقيق أحلامه في الشام ، وسيكتشف أنه لم يحقق إلا ضياع مال مصر ..

بدأ الاستعداد للحرب ، فالباشا يفتش السويس ، الميناء الذي ستنطلق منه الحملة ، وقاعدة تموين الحرب لسنوات عديدة ، فأمر بمصادرة جميع وسائل النقل البحري ، كما صادر البن الموجود بمخازن المدينة ، لا من باب الحرص على مزاج الجنود ، بل لبيعه وإنفاق ثمنه على الحملة . وعين طوسون ابنه قائداً للحملة ، ومن سخرية القدر أن هذا الذي كان قائدا للحملة الأولى ضد الوهابيين ، الأمل الوحيد وقتها في بعث عربي إسلامي .. هو الذي ينعيه الجبرتي ، بعد ذلك ، بأنه كان فيه « ميل لأولاد العرب »!

اختار المنجمون وقت سفر الحملة ، وذبح « محمد علي » المماليك زيادة في الاحتياط ! وأمر بالسفر ، وأصبحت الدولة في حالة حرب رسمية مع السعوديين ، فأين كان موقع الجبرتي ؟ ترى هل غير موقفه ؟ .. ترى هل أحس بأنه مضطر لاتخاذ موقف « مصري » بتأييد الباشا ؟! أو حتى اتخاذ موقف تقية ؟!

بالعكس ..

ظل يتابع أنباء الحملة بتعليقاته الصريحة اللاذعة ، ويأخذ جانب الوهابيين على طول الخط .. تأمل موقفه من الشريف غالب أمير مكة الذي كان : « يكاتب الباشا

(محمد علي) ويراسله ويظهر له النصح والصداقة وخلوص المودة ، والباشا أيضا يراسله ويكاتبه ، والشريف يعاهد الباشا ويعاقده ، ويواعده بنصر عساكره متى وصلت وينافق للطرفين الذي هو العثماني والوهابي ، ويداهنهما ، أما الوهابي فلخوفه منه وعدم قدرته عليه ، فيظهر له الموافقة والامتثال ، وأنه معه على العهود التي عاهده عليها من ترك الظلم ، واجتناب البدع ونحو ذلك ، ويميل باطنا للعثمانيين لكونه على طريقتهم ومذاهبهم ، وتعاقد مع الباشا أنه متى وصلت عساكره قام بنصرتهم وساعدهم بكليته وجميع همته » .

وهذا يرينا أنه حتى في هذا التاريخ المبكر لم تكن حكاية « شريف » مكة ذات تأثير في تحديد موقف المثقفين العرب .. بعكس ما تزعم مدرسة لورنس* ..

وصلت المراكب إلى ينبع لانقاذ الحجاز من « الخوارج »! .. فماذا فعلت ؟!

أسألوا مؤرخ العصر : « نهبت ما كان بالينبع من الودائع والأموال والأقمشة والبن وسبوا النساء والبنات الكائنات بالبندر ، وأخذوهن أسرى ويبيعوهن على بعضهم البعض» . ويقاتل الوهابيون وهم يصيحون : « هاه يامشركون » وتقع هزيمة منكرة بجيش طوسون ، فيفر الجنود « وكأنما العفاريت في أثرهم تريد خطفهم » .

بحروف الجبرتي الفرحة ، أم نقول الشامتة ، وقد ذاق وطنه وشعبه الأمرين من هذا الجند « الأسد علي وفي الحجاز نعامة » .. ومعذرة للسيد الرافعي لنقص « وطنية » الجبرتي ، وعدم إحساسه بأية عزة أو فخار ، فالوطنية هي في موقف الجبرتي . والحق معه ، فهذا الجيش لا يضم مصريا واحدا ، وهو ذات الجيش الذي فعل الأفاعيل بالمصريين ، وهو يقاتل حركة عربية إسلامية ، لو كانت تعاونت مع القوى الوطنية في مصر لتغير مجري التاريخ .

وقد رجع الجند المنهزمون إلى القاهرة : « وهم في أسوأ حال من الجوع ، وتغير الألوان وكآبة المنظر والسحن ، ودوابهم وجمالهم في غاية العي ، ويدخلون المدينة في كل يوم » .

وكما هي العادة في كل جيش مهزوم ، يصبح الفشل يتيما ، يتبرأ من مسئوليته الجميع ، ويتبادل القادة التهم حول من المتسبب في الهزيمة : « طفقوا يتهم بعضهم البعض في الانهزام ، فتقول الخيالة سبب هزيمتنا القرابة ، وتقول القرابة العكس » .

أما الجبرتي الذي كان قد انحاز بكل وضوح إلى جانب الوهابيين ، ليس فقط نكاية في خصمه « محمد علي » بل عن إعجاب بتفكيرهم ، وربما داعبه الأمل ، في أن يكونوا هم « المهدي المنتظر » بالمعنى الحركي لا العجائبي ، الذي يحرر هذه الأمة ، ويعيدها إلى مجدها الذي تستحقه بدينها .. رفض الجبرتي هذه التفاسير « العسكرية » وراح يفتش عن سبب أعمق للهزيمة ، فأقام من نفسه لجنة لتقصي الحقائق فأثبت الآتي :

« حدثني بعض أكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع قالوا :

---

* انظر تعليقنا في كتاب: « القومية والغزو الفكري » ١٩٦٦

« أين لنا بالنصر ، وأكثر عساكرنا على غير الملة ، وفيهم من لا يتدين بدين ، ولا ينتحل مذهبا ، وصحبتنا صناديق المسكرات ، ولا يسمع في عرضينا* أذان ولا تقام به فريضة ، ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين . والقوم**، إذا دخل الوقت أذن المؤذنون ، وينتظمون صفوفا خلف إمام واحد*** بخشوع وخضوع ، وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة ، أذن المؤذنون وصلوا صلاة الخوف فتتقدم طائفة للحرب ، وتتأخر الأخرى للصلاة ، وعسكرنا يتعجبون لأنهم لم يسمعوا به ، فضلا عن رؤيته**** ، وينادون في معسكرهم : هلموا إلى حرب المشركين ، المحلقين الذقون ، المستبيحين الزنا واللواط ، الشاربين الخمور ، التاركين الصلاة ، الآكلين الربا ، القاتلين الأنفس ، المستحلين الحرمات . وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر (العثماني) فوجدوهم غلفا غير مختونين١٥م ، ولما وصلوا بدرا واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف وبها خيار الناس ، وبها أهل العلم والصلحاء ، نهبوا وأخذوا نساءهم وبناتهم ، وأولادهم وكتبهم ، فكانوا يفعلون فيهم ويبيعونهم من بعضهم لبعض ، ويقولون هؤلاء الكفار الخوارج ، حتى اتفق أن بعض أهل بدر الصلحاء طلب من بعض العسكر زوجته فقال له تبيت معى هذه الليلة وأعطيها لك في الغد » .

سيقول الذين في قلوبهم مرض ؛ ولكن جيش الزناة العصاة ، انتصر وهزم المسلمين التقاة الذين أرادوا أن يعيدوا العرب الى عصر الطهارة الأولى ، عصر المجاهدين المؤمنين المنتصرين الذين نشروا راية الاسلام ، وفي ظلالها قام مجد العرب .. وهناك ألف سبب ، بالطبع ، للاتجاه الذي اتخذه التاريخ .. ولكن هل صحيح انتصر العصاة ؟

اسألوا التاريخ والتفتوا حولكم .. ماذا بقي من الدولة العثمانية المنتصرة .. وماذا بقي من الوهابي الذي هزم ؟ .

ألم يقف عبد العزيز آل سعود ملكا يشير باصبعه إلى حفيد السلطان اللاجيء في بلاد الوهابي ، ويؤنب أجداده ، فلا ينطق ابن السلاطين ؟!..

---

* العرضي هو معسكر الجيش .

** يقصد الوهابيين

*** وهذا يبين كراهية المسلمين لما ابتدعه الفقهاء من تعدد الصلاة كل أهل مذهب خلف إمامهم ، وإدراكهم أن الحركة الوهابية توحد المسلمين ، خلف إمام واحد ، ولا تفرقهم كما تتهمها الدعاية السلطانية .

**** معذرة لجيش الترك الذي كان يضم عددا من غير المختونين ، والذي يتكون من بؤساء الفلاحين الجهلاء من شتى بلدان الامبراطورية ، معذرة لهم إذا لم يسمعوا على صلاة الخوف ، ولا رأوا جندا تبلغ بهم قوة الايمان ، والثقة بالله والنفس ،حد الصلاة والمعركة دائرة .. أقول معذرة لأنه بعد مائة سنة بالضبط ، سيبدي نفس الدهشة ونفس الجهل شريف قرشي ! . فقد روى الريحاني عن ذكريات الشريف عون بن هاشم عن غزوة تربة : « ومن أعجب ما رأيت يا أستاذ .. رأيت الاخوان أثناء المعركة يدخلون الجامع ليصلوا ثم يعودون إلى القتال »!

لم يكن نصر العثماني على الوهابيين إلا الزبد الذي يذهب جفاء ، أما ما جاء به « الوهابي » فقد مكث في الأرض يعطي ثمره كل حين ، ومع كل التحفظات الممكنة ، إلا أنه يمكن القول ، بأن « محمد علي » عندما انتصر في تلك الجولة (١٨١١ ـ ١٨١٩) على الحركة الوهابية ، إنما كان يسحق الامكانية الوحيدة ، المتاحة وقتها ، لتحقيق بعث عربي ـ إسلامي ، قيام وحدة عربية في دولة مستقلة ، إن لم نقل نواة عربية لدولة إسلامية كبرى ، تنقذ الشرق كله من المصير الحالك الذي كان يتربص به كالقدر الاغريقي ، على يد الغرب الاستعماري ..

من يدري ؟ ..

وهل هناك من محظور على حركة التاريخ ؟!

لقد كانت الوهابية هي أول محاولة جادة ، لتحقيق وحدة عربية تمتد جذورها إلى تراث هذه الأمة ، وتستلهم المباديء التي كانت وحدها هي السبب في البروز الحضاري للعرب ، والتي تحت رايتها أمكن تحقيق الوحدة الأولى والأخيرة في التاريخ العربي إلى يومنا هذا . ويستطيع أي ملم بحقائق التاريخ أن يراهن أنه لن تقوم وحدة للعرب بغير العودة إلى مفاهيم تلك الراية ، وبغير الالتزام الحضاري بتلك المفاهيم .

ولهذا فان دعاة القومية العربية ، بالمفهوم الذي طرحه الاستعمار الغربي من خلال ارسالياته ومخابراته لتحطيم الوحدة الاسلامية ، دعاة عروبة لورنس والكلية الانجيلية التي أصبحت الجامعة الأمريكية ، طابور عازوري والحصري إلى زكي الارسوزي ، يتجافون لأول حركة عربية ، نقية خالصة ، وهي الحركة الوهابية ، فلا يدرجونها في قائمة الأمجاد القومية !

وفي كتابي القومية والغزو الفكري* قلت عن هؤلاء : « وبقدر ما يعجبون بثورة لورنس ، ويجعلونها بداية القومية العربية ، نراهم يتنكرون للثورة الوهابية ، لمجرد أنها رفعت لواء الاسلام » يقول الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه « الجذور التاريخية للقومية العربية » في مجال رفض الوهابية : « قد يقول البعض إن الحركة الوهابية اصطدمت بالدولة العثمانية ، وأنها بحكم موطنها وأتباعها عربية صرفة .. ولكنها ليست ، على أية حال ، جزءا من الحركة القومية »!! لماذا أعزك الله ؟ .. يقول : « لأنها اتخذت اتجاها إسلاميا »!

وما ذنبها وليس في جزيرة العرب غير المسلمين ، ترضية لمن كان عليها أن تنبذ الاسلام ؟ وهل يبدأ تاريخ العرب الا بحركة ذات « اتجاه إسلامي » صرف ؟! فلماذا تحذف الثورة الوهابية من تاريخ الحركة القومية ؟

« وفيلسوف القومية العربية يتخذ نفس الموقف ، فبالرغم من أنه يعترف باليهود كأمة استنادا للدين وحده ، نراه ينكر على الوهابية ، طابعها القومي العربي ، لمجرد

---

* الطبعة الاولى صدرت عام ١٩٦٦

أنها حركة دينية ، والغريب أن الفلاسفة والبحاث في قضية القومية ، لا يقفون ليفسروا لنا معنى « حركة دينية » ولا ما هو الفرق بين « حركة دينية » تقتصر على حث الشيوخ على رفض الحذاء الحديث ، وبين حركة دينية ترفع السيف وتقاتل السلطة العثمانية ، فتزيلها من كربلاء إلى الحديدة ، وتقيم دولة عربية مستقلة ؟! بغير معونة من استعمار أجنبي ، بل وتتضمن البذور السليمة لأي اصلاح جدي في الوطن العربي ، ألا وهي العودة إلى روح الاسلام ، وهي البداية لاكتشاف التكنولوجيا الحديثة ، فالعرب عندما خرجوا باسم الاسلام في فجر الدعوة ، لم يكن معهم إلا طريقة جديدة في التفكير والسلوك ، فلما اصطدموا بالتفوق المادي للدول المحيطة بهم ، كان عليهم أن يحموا طريقتهم في التفكير باكتساب التقدم المادي الذي يمتلكه عدوهم . فبدائية الثورة الوهابية لا تشينها ، ولا حتى تشنجاتها ، فان من يصطدم بالدولة العثمانية ، ثم ، كما هو محتوم ، بمن يحمون الرجل المريض ، ويعارضون أية حركة بعث في الدولة العثمانية ، وبالذات في قسمها العربي ، عليه أن يكتسب سريعا ، التفوق المادي ، أما الذي استعار فكر الغرب ، وأسلحة الغرب ، فلم يحدث ولن يحدث ثورة قومية . يقول الحصري : « كان الوهابيون في الجزيرة العربية هم الذين قاموا بمحاولة ناجحة للقضاء على سيطرة الأتراك هناك ، وكانت حركتهم حركة إسلامية صرفا ، ولأسباب أخرى حركة ضد الغرب » .. ورغم ذلك فالوهابية مستبعدة من تاريخهم القومي ، وثورة لورنس هي البداية لهذا التاريخ ! مع أن الثورة الوهابية ، كما قلنا ويعترفون ، ثارت أيضا ضد السلطنة التركية ، بل وكان انتصارها عليها ، أقوى وأشرف من انتصارات لورنس وعودة أبو تاية .. إلا أن الجريمة التي لا تغتفر عند القوميين العلمانيين للثورة الوهابية ، أنها رفعت لواء الاسلام !!

« الياس مرقص » كان أصدق منهم نظرة ، وأكثر عروبة ، عندما تساءل : « كيف نسي (الحصري) أن الحركة الوهابية قامت في قلب الجزيرة العربية ، وأعلنت العودة إلى إسلام العصر الأول ، وهو إسلام عربي ، وعبرت عن أيدلوجية جزء من المجتمع العربي ، ضد أيدلوجية الحكم التركي ؛ الصوفية ، الطرق ، والكهنوت . وأثرت على المصلحين في البلاد العربية المتقدمة ؟ » .

لا ..

الحصري لم ينس .. فقد تلمس العروبة عند « أنطون سعادة » ولكن الثورة الوهابية استحقت أن تحذف من تاريخ العرب لأنها اتخذت طابعا دينيا .. ومن ثم أصبحت « حركة دينية » ! والتاريخ القومي عندهم ، هو ما كان ضد الاسلام ، لذا فان الحذف من تاريخ القومية العربية يشمل كل من تلا الشهادتين في كفاحه !

« إن الوهابيين ذاتهم ، كما اعتبروا كفاحهم ضد السلطة العثمانية المنهارة ، جهادا اسلاميا ، كان لديهم من الوعي ، ما جعلهم يرون انتصاراتهم ، نصراً عربياً أيضاً .. بل ورأت الجماهير العربية نفس الشيء في حركة البعث الاسلامي ـ العربي الذي مثله السعوديون . يقول جان ريموند الذي كان في تلك الفترة قنصلاً لفرنسا في

بغداد : « إن روح الفتح استأثرت بقلوب الجماهير ، فراحت تستعيد ذكرى تاريخ العرب المجيد القديم ، وأخذت الأحلام تراودها برؤية أمرائها متربعين على كرسي الحكم . والفقرة التالية تدلك على صحة رأيي ، أمس قال أحد الوهابيين وبلهجة من يتنبأ : « لقد اقترب الوقت الذي سنرى فيه عربيا على عرش الخلافة . وكم طال علينا الزمن الذي قاسينا فيه مرارة العيش تحت نير مغتصب »* .

وهذه الرواية تفيد أن « الوهابيين » كانوا موجودين في بغداد ، وأنهم كانوا يتطلعون إلى تعريب الخلافة ، ومن ثم لم يكن بوسعهم مهادنة السلطان .

ولكن الوهابيين ما كان بوسعهم أن يواجهوا إمدادات « محمد علي » وموارده ، وفتنه ، ولا كان بوسعهم تغيير أخلاقيات الأعراب في فترة وجيزة ، وهم الذين يحتاجون لمسافة زمنية ، بين إسلامهم ودخول الايمان في قلوبهم ، كما شهد الله سبحانة وتعالى .. ولا كانت طيبتهم ، تسمح لهم بالتنبه لغدر الشريف ، الذي أبقوه في منصبه . تصديقا للبيعة التي أعلنها في قلب الكعبة ! وهو لا يضمر إلا الغدر ، ولا يستطيع إلا الغدر ، ولكنهم بحسن ظن المؤمن ، اطمأنوا إلى عقيدة الأعراب ، والى ما حققوه من عدل ، وأخذوا الشريف وأمثاله بظاهر ايمانهم ، وتركوا النوايا لله سبحانه وتعالى . فاستطاع الشريف ، بمال محمد علي ، شراء ذمم الأعراب ، وارشاد الجيش السلطاني إلى عورات جيش الوهابيين ، فسقطت عقبة الصفراء والجديدة : « من غير حرب بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب وتدبير شريف مكة » ثم « قلعة المدينة المنورة ونزول المتولي بها على حكمهم » (١٠ ذي الحجة ١٢٢٧ ـ ٧ ـ ١٢ ـ ١٨١٥) واستمر ذهب « محمد علي » يعمل عمله في شراء الأعراب ، ويثبت الجبرتي هذه الحقيقة ، وكيف كان الوهابيون يعتمدون على تدين الاعراب ووطنيتهم ، بينما يراهن محمد علي ، على شهواتهم : « عرفه كبراء العرب الذين استمالهم ، واندرجوا معه ، وشيخ الحويطات ، أن العرب مجهدون والوهابية لا يعطونهم شيئا ، ويقولون لهم : « قاتلوا عن دينكم وبلادكم » فاذا بذلتم لهم الأموال ، وأغدقتم عليهم بالأنعام والعطاء أرتدوا ورجعوا وصاروا معكم وملكوكم البلاد ، فاجتهد الباشا في جمع الأموال بأي وجه ، واستأنف الطلب (من الشعب المصري المطحون) وأشاع الخروج بنفسه ونصب العرضي خارج باب النصر وذلك في شهر شعبان » ومعه « صناديق المال والكساوى » . وسقطت الطائف وتسمى السلطان العثماني بخادم الحرمين : « لأن عساكره افتتحت بلاد الحرمين وغزت الخوارج وأخرجتهم منها ، لأن المفتي أفتاهم بأنهم كفار لتكفيرهم المسلمين ويجعلونهم مشركين ، ولخروجهم على السلطان ، وقتلهم الأنفس ، وأن من قاتلهم يكون مغازيا ومجاهدا ، وشهيدا اذا قتل . ولما انقضى المجلس ضربوا مدافع كثيرة من القلعة وبولاق والجيزة وعملوا شنكا واستمر ضربهم المدافع عند كل آذان عشرة أيام » .

---

* القومية والغزو الفكري من صفحة ٩٨ إلى ١٠١ للمؤلف .

ثم ماذا يا شيخ المؤرخين ..
يا ضمير الشعب المصري ..؟..

هل تترك العبارة هكذا بحجة موضوعية المؤرخ ؟! .. حاشا لله ! بل يتبعها بأربع كلمات ينهي بها يوميات شهر جمادى الثانية ، وتفضح الزيف في الفتوى والمدافع فيصف ذلك بقوله : « وذلك ونحوه من الخور » أي من الضعف والعجز والخوف .. الذي يدفع رجل الدين إلى خيانة ضميره .. فيحل دم المدافعين عن الدين والعروبة !

قاتل الشريف غالب على رأس عساكر الأتراك والعربان ، واستطاع أن يهزم صهره المضايفي الذي كان قد انضم للوهابيين ، فلما أسره الشريف : « وضع في رقبته الجنزير » . « **ليأخذ بذلك وجاهة عند الأتراك الذي هو على ملتهم** ، ويتحقق لديهم نصحه ، ومسالمته إياهم . وسيلقى قريبا منهم جزاء فعله وبال أمره كما سيتلى عليك بعضه بعد قليل » .

الجبرتي ليس على « **ملة** » الأتراك ، وهو يتربص الدوائر بالشريف غالب الموالي للأتراك ، ويتشفى فيه لما أصابه على يد الباشا محمد علي ، ممثل السلطة التركية .. ولكن الصورة لا تكتمل إلا إذا عرفنا رأي الجبرتي في « المضايفي » الوهابي الأسير .. فلعل تعلقيه هو من باب كراهيته الباشا والشريف ..

جاء « المضايفي » أسيرا في ١٥ ذي القعدة ١٢٢٨

« وصل عثمان المضايفي صحبة المتسفرين معه إلى الريدانية آخر الليل ، وأشيع ذلك فلما طلعت الشمس ضربوا مدافع من القلعة إعلاما وسرورا بوصوله أسيرا ، وركب صالح بيك السلحدار في عدة كبيرة ، وخرجوا لملاقاته وإحضاره ، فلما واجهه صالح بيك نزع من عنقه الحديد وأركبه هجينا ودخل به المدينة ... فلما دخل عليهم اجلسوه معهم ، فحدثوه ساعة ، وهو يجيبهم **من جنس كلامهم بأحسن خطاب ، وأفصح جواب ، وفيه سكون وتؤدة في الخطاب وظاهر عليه آثار الامارة والحشمة والنجابة ، ومعرفة مواقع الكلام حتى قال الجماعة لبعضهم البعض : يا أسفا على مثل هذا إذا ذهب إلى اسطمبول يقتلونه ... ثم توجهوا به إلى بولاق** وأنزلوه في السفينة مع نجيب (مبعوث السلطان) ووضعوا في عنقه الجنزير وانحدروا طالبين الديار الرومية »!

مع من يجب أن نكون ؟

مع أبطال الجزيرة العربية .. الذين يقاتلون عن « وطنهم ودينهم » .. أم قتلة وجلادي الديار الرومية ؟

إلا أنه مما يثير الانتباه ، ليس فقط موقف « الجبرتي » المنحاز بوضوح للوهابيين ، وإنما المثير هو موقف جهاز محمد علي ، المتأسف على قتل الأتراك في اسطمبول لهذا العربي الذكي ، وقد يكون ذلك شعور الجهاز العامل في القاهرة ، تحت تأثير ضميرهم الاسلامي ، إلا أننا نلاحظ أيضا أن محمد على وجهازه وأولاده كانوا يسلكون في معاملتهم للعناصر الوهابية ، خارج ميدان القتال سلوكا مختلفا إلى حد كبير عن السلوك

المعتاد من السلطات العثمانية في معاملة الأسرى ، وبالذات الذين تعتبرهم متمردين .. وتفسير هذا الموقف ، يحتاج لدراسة شديدة التعقيد ، ولكننا سنجد عليه أكثر من شاهد ودليل ، سواء في الجبرتي أو ابن بشر .. وإن كانت هناك بالطبع فظائع في القتال ، وفي تحطيم المقاومة . في حدود الأساليب المتعارف عليها وقتها ، وإنما الفارق هو في المشروعية ، فالوهابيون كانوا يقاتلون في سبيل وطنهم ولصالح المستقبل العربي والاسلامي ، بينما محمد علي وأولاده كانو مجرد أداة لضرب ذلك كله .. ومن ثم لا تجوز مقارنة كربلاء بالدرعية ..

ويقدم لنا الجبرتي صورة مما جرى على الشريف ، وهي لا تخلو من الشماتة ، قد يظنها الجاهلون ، لا تليق بالتأريخ ، ولكن حاشا لله أن يكون الجبرتي مؤرخا محايدا بارداً ، فهو يؤرخ صراعا عاشه بكل معتقداته ووجدانه ، بل إن تسجيله هذه الواقعة وتعليقه ، هو لون من الدعاية موجه للعناصر المترددة في صفوف السعوديين ، ليؤكد أنهم لن يكسبوا شيئا من الخيانة ، يقول الجبرتي : « استولى الباشا (محمد علي) على موجودات الشريف غالب من نقود وأمتعة وودائع ومخبآت وشرك وتجارات وبن وبهار ونقود بمكة وجدة والهند واليمن شيء لا يعلم قدره الا الله ، وأخرجوا حريمه وجواريه من سرايته بما عليهم من الثياب ، بعدما فتشوهن تفتيشا فاحشا وهتكوا حرمته . قل اللهم مالك الملك ، هذا الشريف غالب انتزع من مملكته وخرج من دولته وسيادته وأمواله وذخائره ، وانسل من ذلك كله كالشعرة من العجين ، حتى أنه لما ركب خرج مع العسكر وهم متوجهون به إلى جدة ، أخذوا ما في جيوبه ، فليعتبر من يعتبر . وكل الذي وقع له وما سيقع له بعد من التغريب وغيره ، فيما جناه من الظلم ومخالفة الشريعة ، والطمع في الدنيا وتحصيلها بأي طريق . نسأل الله السلامة وحسن العافية » .

وإذا كان الخونة يتساقطون ، ويلقون جزاءهم فان الحركة الوهابية مستمرة في المقاومة ، وإفراز القيادات ، حتى أن « امرأة في تربة هزمت جيش الباشا شر هزيمة ».*

كان من المستحيل أن يسكت الباشا على صوت الجبرتي المعادي ، خاصة بعد ما فرغ من الجزء الرابع وتناولته الأيدي بالنسخ ، وفيه ما فيه من سب لعسكر الباشا ، ومدح لجميع الأسرى الذين وصلوا للقاهرة ، وقد رأينا مدحه « للمضايفي » ثم مدح « طامي » الذي قاتل وانتصر في بلدة قنفدة ، ثم احتال عليه عميل للباشا حتى اعتقله وباعه له ، فدخلوا به القاهرة : « وهو راكب على هجين ، وفي رقبته الحديد والجنزير مربوط في عنق الهجين ، وصورته رجل شهم ، عظيم اللحية ، وهو لابس عباءة

---

* وهي غالية المعروفة والمشهورة التي وصل خبرها للجبرتي في الكحكيين وتحت الربع والغورية ، وأثبت خبرها في تاريخه منذ أكثر من قرن ونصف قرن دون حاجة للسفر إلى باريس واسطمبول . حتى جاء من يزعم أنه هو للذي اكتشفها !

عبداني ، ويقرأ وهو راكب » .
فوفقا لتاريخ الجبرتي ، نجد أن كل خصوم الدولة ، أبطال تلوح عليهم الشهامة والنجابة ، أتقياء لا تفتر السنتهم عن ذكر الله .. أما عسكر الباشا فهم كما رأينا من وصفه القاسي .. بل إن تشهير الجبرتي ، يمتد ليشمل أولاد الباشا نفسه ، فهو يسخر منهم ، ومن كبار المسؤولين ، لما خلعوه على انفسهم من ألقاب فهو لا يعجبه قولهم عن أنفسهم : « مجاهدون وعائدون من غزو الكفار ، وأنهم افتتحوا بلاد الحرمين ، وطردوا المخالفين لديانتهم ، حتى أن طوسون باشا ، وحسن باشا ، كتبا في إمضائهما على المراسلات بعد اسمهما لفظة « الغازي »* والله أعلم بخلقه »٩٤ .
صحيح ... ولكنك أيضا ، بفضل الله ، علمت ، وما كتمت علمك ، ومنك علمنا أنك رفضت دعواهم ، وأنك أفضل من كتب عن الوهابيين .
وأخيرا فان هذا الجزء الذي طرحه الجبرتي للتداول يتضمن مقابلة الجبرتي للأمراء السعوديين عندما جاءوا إلى مصر . وقد أقر الجبرتي على نفسه بأنه اجتمع بهم مرتين ، إجتمع بزعيميهما عبد العزيز وعبد الله .. وربما رافقهما في زيارتهما للأزهر ، وان لم يذكر ذلك صراحة ، كما فعل بالنسبة للاجتماعين ، وإن كان قد وصف زيارتهما للجامع الازهر كمن رأى .. فقال « لما دخلوا الجامع سألوا عن أهل مذهب الامام أحمد بن حنبل** رضي الله عنه ، وعن الكتب الفقهية المصنفة في مذهبه ، فقيل انقرضوا من أرض مصر بالكلية واشتريا نسخا من كتب التفسير والحديث مثل الخازن والكشاف والبغوي والكتب الستة المجمع على صحتها وغير ذلك١٦م » .
ويقول الجبرتي إنه اجتمع بهما مرتين :
« فوجدت منهما أنسا وطلاقة لسان وتضلعا ومعرفة بالأخبار والنوادر ولهما من التواضع وتهذيب الأخلاق وحسْن الأدب في الخطاب والتفقه في الدين ، واستحضار الفروع الفقهية ، واختلاف المذاهب فيها ، ما يفوق الوصف . واسم أحدهما عبد الله ، والآخر عبد العزيز ، وهو الأكبر حسا ومعنى » .
صدقت وبررت يا شيخنا ..
صدقت وأنف الباشا وقادته من الترك والألبان في الرغام ..
صدقت وإن كلفتك هذه الاجتماعات ، التي رصدها جواسيس الباشا الذي كان يملك بلا شك ، أدق جهاز مخابرات في الشرق .. وكذلك ما كتبته ، ولا بد أنه ترجم للغة الباشا في أحد التقارير .. كلفتك حياتك إلا أنها صانت شرف الكلمة ، شرف علم التاريخ ، وشرف المثقف المصري .
وصل عبد الله بن سعود أسيرا ، وسلم ما كان بحوزة أبيه من مجوهرات الحجرة

---

* الغازي لقب يطلق على المجاهدين ضد الكفار . واشتهر في عهد الدولة العثمانية .
** هل هي مصادفة أن آخر قاض عربي تولى منصب قاضي القضاه في مصر هو الشيخ أحمد بن النجار الذي عينه السلطان سليم بعد فتح مصر سنة ١٥١٧م كان حنبلياً ؟

النبوية ، ورحلوا عبد الله إلى الآستانة حيث أعدمه الأتراك رغم شفاعة محمد علي .

ويتحدى الجبرتي السلطان ، فيسجل أن ضحاياه من السعوديين « ذهبوا مع الشهداء .»[٩٥]

صدقت ..

وهل من شهادة أكرم ، من شهادة من مات عن دينه وقومه ووطنه وأهله في الحاضر والمستقبل ؟!

« وجاء بواقي الوهابية بحريمهم وأولادهم وهم نحو الأربعمائة نسمة وأسكنوا بالقشلة التي بالازبكية ، وابن عبد الله بن سعود بدار عند جامع مسكة هو وخواصه من غير حرج عليهم وطفقوا يذهبون ويجيئون ويترددون على المشايخ وغيرهم ويمشون في الاسواق ويشترون البضائع والاحتياجات » .

معذرة ياشيخ المؤرخين .. الحركات العقائدية الصادقة ، هي كما قيل « ليس أبقى من بواقي السيف » فهي تبقى في ضمير الأمة ، لا يمكن اقتلاعها ، وسرعان ما تنبت من جديد ...

وها هو التاريخ يشهد .. فكم بقي من « بواقي » آل سعود ، وكم بقي من آل السلطان محمود ؟.. أو محمد علي أو ابراهيم أو طوسون .. أو خورشيد ؟! كلهم انقرضوا ، وسيبقى آل سعود كما قال مؤرخ غربي الى ما شاء الله .. وما هداهم للتمسك بالرسالة . بل إن تاريخ الجبرتي نفسه يأبى أن ينتهي قبل أن يثبت في الصفحة الأخيرة في أخبار شوال ١٢٣٦ـ١٨٢١ . نبأ ظهور « بواق » أخرى واستيلائها على الدرعية : « عمر بن عبد العزيز وأولاده وأبناء عمه وتركي بن عبد الله ابن أخي عبد العزيز وولد عم سعود ،* واجتمع عليهم من فر حين قدمت العساكر وأخذوا في تعميرها ورجع أكثر أهلها وقدموا عليهم مشاري ، ودعا الناس إلى طاعته ، فأجابه الكثير منهم ، فكادت أن تتسع دولته ، وتعظم شوكته ، فلما بلغ الباشا ذلك جهز له عساكر رئيسها حسين بك ، فأوثقوا مشاري وأرسلوه إلى مصر فمات في الطريق . وأما عمر وأولاده وبنو عمه . فتحصنوا في قلعة الرياض المعروفة ، عند المتقدمين بحجر اليمامة . وبينها وبين الدرعية أربع ساعات للقافلة ، فنزل عليهم حسين بك وحاربهم ثلاثة أيام أو أربعة ، وطلبوا الأمان لما علموا أنهم لا طاقة لهم به ، فأعطاهم الأمان على أنفسهم ، فخرجوا إلا تركي فانه خرج من القلعة ليلا وهرب . وأما حسين بك فانه قيد الجماعة وأرسلهم إلى مصر في الشهر المذكور ، وهم الآن مقيمون بمصر بخطة الحنفي قريباً من بيت جماعتهم الذين أتوا قبل هذا الوقت » .

---

* تأمل كيف عرف الشيخ الجبرتي في القاهرة وقد فقد البصر صحة نسب تركي وأنه ابن عبد الله بن محمد بن سعود ويخطىء بنواميشان في عام ١٩٨٠ ويتداول كتاب ميشان دون أن ينتبه أحد لما فيه من أخطاء فادحة مما يدل على مدى التدهور والانهيار ! مع ملاحظة انه لم تصدر قط طبعة سعودية للجبرتي ... ـــ ولا حتى طبعة مدعومة !

ومن نسل تركي « الذي هرب ليلا سيستمر البيت السعودي ، ومن الرياض ستنطلق حركة جديدة ، وإن فقدت الكثير من الرسالة . فقد ظلت تحمل هذه الرسالة في أحشائها ، حتى تأتي اللحظة المناسبة . ولو امتد العمر بالجبرتي حتى يكتب الجزء الخامس من تاريخه لسجل عودة السعوديين للرياض ثم سيطرتهم على شرق الجزيرة .

كانت الحركة الوهابية معارضة لتيار التاريخ ، أي لاتجاه الاحداث نحو سقوط العالم الاسلامي في قبضة الغرب ، ومن ثم كانت هزيمتها نتيجة منطقية ، وانتصارها هو الاعجوبة .كذلك كان صوت الجبرتي ، نشازا في اللحن الجنائزي للحريات الذي كانت تكتب نوتته في القلعة على يد طبلخانة الباشا وجلاوزته .. وكان لابد أن يخنق الصوت : « قتلوا ابنه ثم مات هو » .

لا أحد يدري أمات حزنا على ابنه ، وانهيار الحلم الوهابي ؟! أم ـ كما هو شائع بجرعة من السموم التي كان أطباء الباشا من الفرنجة يعدونها لترسانته ؟!

وبقيت الصفحة المشرفة ..

صفحة حركة عربية ـ إسلامية مجاهدة لتحرير الوطن العربي وتوحيده تحت راية الاسلام .

وصفحة مؤرخ أنصف هذه الحركة وبرأ ساحة المصريين من دمها الطاهر الذي سفحه باشا تركي بجند الدولة العثمانية.*

---

* يلاحظ قارىء الجبرتي أن اسم سعود الكبير يكتب دائما « مسعود » بالميم .. وقد ظننت في البداية أنها الغلطة المصرية التاريخية في تحريف أسماء العرب ، أو أن قلم الجبرتي كان ممتلئا بالحبر فظهرت رأس للسين حسبها الطابع ميما .. ولكني وجدت رسالة من طوسون باشا يلقب فيها سعود الكبير : « غير المسعود » . فرجحت أن يكون الجبرتي تعمد أن يسميه « مسعودا » نكاية في الباشا ودعايته وألقابه التي اعتاد الاعلام المصري خلعها على خصومه !

تعددت النظريات في تفسير أسباب هزيمة الدولة السعودية ، وسقوط الحلم العربي ، أو فشل الحل الاسلامي في التجربة الوهابية الاولى وإذا صرفنا النظر عن التفسيرات الهزلية التي تقترح أو تتأسف على أن « سعود الكبير » لم يهادن السلطان ، ويقبل حكم الجزيرة تحت رايته ، سنجد أن أشهر التفاسير هو عجز الدولة السعودية عن اكتساب التكنولوجيا أو الاسلحة الحديثة التي كانت متاحة لجيش محمد علي والسلطان .. وهو تفسير له من « قوة المدفعية » ما يصعب مناقشته فضلا عن رفضه ، ولكنه تفسير ناقص ، لأنه يضعنا في التسلسل والتسلسل باطل كما يقول المناطقة .. اذ أن السؤال التالي هو : ولماذا عجز السعوديون عن اكتساب التكنولوجيا وامتلاك المدافع والأسلحة الحديثة ؟! لماذا استطاعت اليابان في نفس التاريخ بالضبط أن تنجو من الحصار التكنولوجي ، وتخترق حاجز التخلف ، فتحمي استقلالها وتصبح دولة عظمى ؟ لماذا استطاع العرب في صدر الاسلام اكتساب تكنولوجيا الحضارتين الفارسية والرومية وقهرهما ؟! لماذا استطاع محمد علي في فترة زمنية لا تزيد عن حكم « عبد العزيز بن محمد » أن يقيم المصانع ، ويمتلك المدافع والاسطول وجيشا عصريا ؟*..

وذهب فيلبي الى أن الدولة السعودية توسعت فوق طاقتها .

أما ابن بشر فقد فسر الهزيمة بمزيج من الميتافيزيق والديالكتيك معا فقال : « وقد دخل المسلمون الفشل وذلك بقضاء الله وقدره ، وبسبب ذنوبنا نسأل الله العظيم المغفرة » وقال : « بسبب الذنوب وانتهاء الأمر المكتوب ، وكل دولة لابد أن تنتهي إلى زوال » وإن كان ابن بشر لم يذكر بعض هذه الذنوب ، وخاصة على مستوى المسئولين ، لأن خطايا هؤلاء هي التي تعجل بزوال الدول ،وتقصر أعمارها ، بل بالعكس أثنى على سعود بما لا مزيد عليه ، ولم يأخذ عليه إلا أنه كان أقل كرما من أبيه . أما عبد الله بن سعود فكان ذا سيرة حسنة مقيما للشرائع آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر . كثير

---

* ولعل هذا يفسر ما عرف من إعجاب الملك عبد العزيز به . وبالمناسبة لم يستطع المؤرخون الحاقدون على مصر أن يجدوا نصا واحدا للملك عبد العزيز أو الملوك من أولاده يتهم « المصريين » بتلك الحرب التي شنها محمد علي بأوامر السلطان .

الصمت ، حسن السمت ، باذل العطاء موقرا للعلماء . بل وجعله أشجع من أبيه : « أثبت من أبيه في مصابرة الاعداء[٩٦] » .

فالقيادة لم تنحرف .. فلماذا انهزمت؟*

أما حافظ وهبة فقد ذهب إلى أن السبب الأول لسقوط الدولة السعودية (الأولى) أنها كانت مستندة إلى القوة العسكرية ، أكثر من استنادها على القلوب . والدعوة الدينية لم تتمكن بعد من قلوب الناس . « ويستشهد على ذلك بأن الثورات كانت تنشب من وقت لآخر لطرح الحكم السعودي ، لا سيما في البلاد البعيدة عن نجد كعسير وعمان . »

وهي ملاحظة تحتاج الى نقاش ، وتعريف لما هو المقصود بالقوة العسكرية فمن وقائع التاريخ ، وما أثبته المؤرخون المعاصرون من شتى المواقع السياسية ، يتبين لنا أن اعتماد الدولة الاساسي كان على العقيدة الدينية ، وقد اكتشف ابراهيم باشا تأصل الدعوة ورسوخها ، وبرر ذلك بأنها قامت منذ ٩٢ سنة ، واستبسال المقاتلين السعوديين ضد التفوق التكنولوجي الذي جاء به الترك ، دليل قوة العقيدة الدينية وتمكنها في القلوب ، بل إن البعض يعتقد أن الدولة أسرفت في الاعتماد على العقيدة ، ولم تعزز ذلك بالوسائل المادية الضرورية ، وفي مقدمتها القوة العسكرية . وأخذوا على سعود أنه كان يكتفي بمطالبة جنوده بالقتال « عن دينكم وبلادكم » .. أما في عسير وعمان فكانت الدعوة حديثة العهد ، وفعلا لم تتمكن فيهما بسبب انتشار مذاهب معينة ، مرتبطة بمؤسسات كان من شأنها مقاومة الدعوة السلفية . فضلا عن النفوذ الاجنبي الذي حرك الثورات هناك .

وإذا تذكرنا أن معظم قبائل الجزيرة العربية انتقضت أو ارتدت فور وفاة الرسول ولم يؤثر هذا على الحركة الاسلامية الأولى . جاز لنا أن نرفض تفسير وهبة .

العقدة القاتلة في اعتقادي ، ولا أقول غلطة ، هي قبول سعود الاختناق في الجزيرة العربية ، فهذه الجزيرة بالنسبة للتاريخ والتحولات العظيمة والرسالات العالمية، كالرحم فيها تتشكل وتتكون هذه الحركات والدعوات، فهي مصنع الرجال الذين يملكون القدرة على تغيير تاريخ الجنس البشري ، ولكنها لا تملك المقومات المادية التي تسمح بالاكتفاء الذاتي . إنها لا تصلح أبدا لتطبيق نظرية « الثورة في بلد واحد » ..ومن ثم لابد أن تصدر ثورتها إذا كان لهذه الثورة أن تعيش ، لابد أن تقذف بجنينها إلى الخارج ، فتصدر العقيدة والرجال إلى البيئات التي تملك الموارد الطبيعية والقاعدة الحضارية القادرة على الدفاع عنها

---

* هناك رأي لعميد آل الشيخ ، يقول إن سعودا الكبير حول الرسالة إلى ملك . ونقل الجبرتي عن رسل عبد الله بن سعود الذين جاءوا لمفاوضات الصلح الذي دار مع طوسون باشا ، أنهم قالوا إن سعودا (الكبير) « كان يريد الملك وإقامة الدين » وأما ابنه الأمير عبد الله فانه لين العريكة يكره سفك الدماء على طريقه سلفه الأمير عبد العزيز فانه كان مسالما للدولة . صفحة ٤٩٣ الجزء الثالث طبعة دار الجيل .

والتطور بها والانتشار . ولعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يخشى على المسلمين ، أن يرضوا بتوحيد الجزيرة ويكتفوا باسلامها ، فيختنقوا فيها ، وتذبل الدعوة وتذوى في صحرائها . ولذلك كان صلوات الله عليه ، إذا أفاق من غشيته وهو في صراع الموت يقول « أنفذوا بعث أسامة » . وهو البعث الموجه لضرب الروم في الشام . كأنه صلوات الله عليه يقول للمسلمين : انتشروا .. اخرجوا قبل أن تحاصروا ..!

كان لابد لنجاح الدعوة وانتشارها أن تخرج إلى البلدان التي تمتلك وسائل تطوير التكنولوجيا للدفاع عن العقيدة . ولكن سعوداً تحول في سنواته الاخيرة إلى أسد حبيس في انتظار اقتحام عرينه . والحركة التي قضت فترة حضانة أطول بكثير مما احتاجته الدعوة الأصلية ، ظلت تطوف في أرجاء الجزيرة ، تفترس نفسها . وبينما أنفذ المسلمون الأوائل جيش أسامة ، وحروب الردة ناشبة ، مر ما يقرب من عشر سنوات والسلطة السعودية تحكم الجزيرة ، دون أن تنطلق الموجة خارج الحدود . كان لابد أن تنطلق إلى الأمصار . إلى الشام أو بغداد أو مصر .. أو كلها معا .. ولأنها لم تفعل أصبحت كالجنين الذي تأخرت ولادته فتضخم واختنق في الرحم أو انفجر معه الرحم ..

وقد حاول « سعود » أن يتجنب هذا المصير ، ووصلت قواته مرة إلى قرب دمشق ، واتجهت مرة أخرى بنية فتح بغداد ،وزحفت في الجنوب في اتجاه صنعاء ، ولكنها عادت في كل مرة ، دون أن تبدي التصميم الكافي لانجاز هذا الهدف الحاسم والمصيري ، ولو دخل السعوديون دمشق أو بغداد لتغير مصير الحركة .

وكما عجزوا عن فتح « الأمصار » عجزوا أيضا عن خلق حركات مؤمنة موالية في هذه الأمصار ، رغم وجود دلالات على شدة تقبل الجماهير والقيادات المثقفة في مصر بالذات ، ولكن ظروفا عديدة حالت دون تطور هذا الاعجاب إلى حركة قادرة على الاستيلاء على السلطة باسم الوهابية ، أو خلق وضع يحول دون استمرار محمد علي في الحرب وهكذا أصبحت الحركة الوهابية تدور في حلقة مفرغة ، وتأكل نفسها ، قبل وصول جيش محمد علي لأنها فقدت عنصر الحركية الذي ميز بدايتها . بانحصارها في ملك الجزيرة . وعندما يتقرر مصير الظاهرة التاريخية ، تتفاقم الأسباب المعجلة لسقوطها ، وكان في مقدمة الأسباب الذاتية ضعف القيادة في البيت السعودي ، بعد « سعود » الكبير . فمن المعروف ، في تاريخ الملكيات ـ باستثناء حالات نادرة ـ أن طول عمر الجالس على العرش ، وامتداد سنوات حكمه من أهم عوامل استقرار البيت المالك ، وتدعيم نفوذه ، وازدهار الدولة ، وتسهيل عملية انتقال السلطة . إذ يتمكن الملك من تصفية القوى المعارضة والتي قد تشكل مزاحمة لولي العهد ، وعندما تولى « سعود » الامارة ، كانت السلطة تنتقل طبيعيا وسلميا للمرة الثانيةفقط خلال ٧٨ سنة ! (قارن ذلك بانتقالها يوميا في مرحلة الذبول) فقد حكم محمد بن سعود أربعين سنة، وحكم ابنه عبد العزيز ٣٨ سنة .. مما أتاح لكل منهما تصفية مزاحمة الأعمام،

وكبح جماح الأشقاء ، والبيت المالك يقوى ، كلما ضبطت الطموحات بين أفراده وحددت المواقع ، وسد الطريق على المزاحمات المدمرة ، وذلك بتحديد واضح وصريح : من هو الملك القادم ؟!!

وبالاضافة إلى طول عهد « محمد وعبد العزيز » كانت انتصاراتهما ، وانتشار الدعوة تفرض الهيبة للامارة ، وتضفي هذه الهيبة على من يختاره الأمير لولاية العهد .

ولكن « سعوداً » لم يعمر في السلطة كرئيس دولة ، وإن كان قد مارسها طويلاً تحت مظلة أبيه .. ولذا لم يستطع أن يمكن لابنه أو أن يصفي له مزاحميه ــ بل على العكس تمرد على سعود نفسه بعض اولاده ، مما كان السبب في هزيمة السعوديين بمسقط ، وتشجيع سلطانها على الاستعانة بملك العجم ضد السعوديين .كذلك مات سعود والشك يلوح حول سلامة الوطن سلامة الملك ، وصوابية السياسة .. فلما تتابعت الهزائم ، كان من الطبيعي أن يظهر الأطباء وأدعياء الطب المنقذون والمغامرون ، وهكذا وجد عبد الله مزاحمة من أخيه وعمه ، وضربت جرثومة الشقاق العربية في الدوحة السعودية ، وستظل تتفاقم حتى يتحول البيت السعودي إلى مجموعة لاجئين في نهاية القرن التاسع عشر ..

وقال مؤلف مثير الوجد في أنساب ملوك نجد :١٧م : « إن عبد الله بن سعود ، سار على سيرة والده ، إلا أن إخوته كانوا لا يوافقون على إرادته ، وكان لا يخالفهم ، ونازعه أخوه فيصل بن سعود ، فكان عبد الله يأمر ، وفيصل يأمر ، فتفرقت شوكتهم ، ونفر منهم فئام من العرب ، واتسع الخرق في قوتهم » .

وقال مؤلف الدرر السنية : « بعد وفاة سعود تجهزوا للجهاد على **اختلاف** كان بين الاولاد » .

والجهاد لا يستقيم ، ولا ينتصر المجاهدون إذا كان « الاولاد » ، أو « الأمراء » مختلفين ، بل تقول بعض المصادر الأجنبية أن عبد الله بن سعود كان يخشى أن يضرب من الخلف ، أو من بيت أبيه ، ولذلك بادر بعرض الصلح على طوسون باشا .

والواقع أن « عبد الله » الذي أجمعت كل المصادر على حكمته وشجاعته وإيمانه العميق ، كان يعتقد بالحاجة إلى المراجعة ، وأن هناك خطأ ما في موقع ما من الحركة ، ولذا فهو بحاجة إلى وقت وسلام لاجراء هذه المراجعة ، قد يكون هذا هو الاحتمال الأكثر عمقا في تفسير رغبته في المسالة ، وقد تكون مجرد الرغبة في تصفية الوضع الداخلي ، لتركيز السلطة في يد الامام لمواجهة التحدي الخطير أو المدمر الذي واجهه .. وسواء تعمقنا في التفسير أو اكتفينا بالنظرة السطحية ، فالنتيجة هي أن عبد الله أو الدولة السعودية كانت بحاجة إلى هدنة ، لالتقاط الأنفاس ، وترتيب البيت من الداخل ، بحاجة إلى خطوة للوراء من أجل خطوتين للأمام . وقد بدأت المفاوضات فعلا بين طوسون قائد الحملة العثمانية ، ووفد من رجال عبد الله في مزرعة صغيرة « تبعد مقدار ثلاث ساعات عن مخيمات جيش عبدكم » وفي رسالة طوسون إلى والده محمد علي باشا : « إن عبد الله ندم على ما فات وقرر اتخاذ موقف الحياد ، وعدم التعرض بوجه

من الوجوه لأية قبائل أو عربان ، ما عدا عربان الدرعية ، وأعلن قبوله بأن تصبح البلاد كلها مستظلة بظل الدولة العلية ، وتحت جناح عدالتها ، رافعة لواء الطاعة والخضوع ، وأن يذكر دوما اسم الذات العلية الشاهانية في كافة المحافل والمنابر والقراءات والأدعية ، وأن يتمسك بهذه الطريقة في المستقبل فلا ينحرف عنها وإنما يلتزم جادة الصلاح والطاعة فلا تدور على الألسنة أية كلمات خلاف تلك التي نص عليها الشرع الشريف والقرآن الحكيم . وأن تترك تماما تلك الالفاظ والعبارات التي يلتفظ بها العربان متحدين بها المخالفين لهم .. وقد تعهد ببذل مساعيه الجدية في سبيل تنفيذ الأوامر العلية السلطانية والقيام بما تأمر به من خدمات دون إهمال أو تقصير » .
« وقيل إن عبد الله طلب الصلح على أساس » أن تقبلونا بين رعايا السلطان ، ومنذ اليوم سننفذ أوامركم . ونعيد الدعاء للسلطان في المساجد ..* »

وبصرف النظر عن صيغة العبارات ، والتي تثير بعض المؤرخين اليوم ، فقد كانت رغبة عبد الله هي المصالحة ، ولا سبيل لصلح الا بقبول السيادة العثمانية ، ولا معنى لنقد عبد الله لقبوله ما ينتقد سعود الكبير على رفضه !

لاقى الصلح استحسانا في معسكر عبد الله ، ولكن الصلح يحتاج إلى وحدة الارادة ، وسيطرة الحاكم أكثر مما تحتاجه الحرب ، ولأن البيت السعودي كان قد انشق على نفسه ، فقد انطلقت المزايدات ، وشلت يد الامام عن التصرف ، فأخوه فيصل بن سعود ، لم يكتف باعطاء نفسه سلطة تقرير الصلح والحرب ، وهي من صميم حقوق الامام – الأمير . بل وأصدر فتوى شعرية بتحريم المصالحة !

فقال :

لا أصلح الله منا من يصالحكم

حتى يصالح ذئب المعز راعيها**

لم يتم الصلح بسبب انقسام القيادة السعودية من ناحية ، ولأن المناخ النفسي لم يتهيأ لقبوله في المعسكر السعودي ، فجموع الموحدين الذين عاشوا سنوات النصر المتواصل ، قبل وصول عسكر محمد علي ، لم يصدقوا أن التاريخ قد تحول بهذه السرعة ، وأن هؤلاء الكفار المشركين يمكنهم أن يقضوا على حلم إعادة التاريخ الاسلامي كما بدأ . خاصة وأنه حتى هذه المرحلة ، لم يكن قد وقع نصر حاسم للقوات

---

* وزعم سادلير أن ابراهيم باشا قدم يده إلى عبد الله بن سعود فقبلها الامام (بعد سقوط الدرعية) رمزا للخضوع . وهو مالم يرد في أي مصدر عربي ولا يمكن استنتاجه مما سجلته شتى المصادر عن لقائهما . وزعم مؤرخ آخر ثقيل الظل أن « محمد علي » كان يزور رسائل الاعتذار على لسان عبد الله ابن سعود ويبعث بها للدولة لتعفو عن عبد الله ! ولذا فقد رفض هذا المؤرخ بسماجة نشر الرسائل التي تحقر صورة عبد الله التاريخية ! ولم يفسر لنا سر هذا الحرص من محمد علي على تبرئة ساحة عبد الله ولو بالتزوير !!

** رحمة الله عليه ، فقد بر بقسمه واستشهد في حصار الدرعية . ولكن هذا لا ينفي خطأه في المزايدات على إمامه وأميره ، وأنه تسبب إلى حد ما في ماجرى على بيتهم وحركتهم .

التركية ، بل كانت الحرب يمكن وصفها بأنها سجال .
ومن الناحية الأخرى لم يكن المزاج العثماني بالذي يقبل نصف حل ، خاصة بعدما تبينت قدرات باشا مصر ، وبعدما ثبت أن السعوديين يمكن أن يهزموا .. ولذا كان السلام الوحيد الممكن هو ذلك الذي اقترحه لورنس بعد مائة عام : « أن يتخلى الوهابيون عن وهابيتهم » ! . ولم يكن ذلك ممكنا في تلك المرحلة .
وهكذا ضاعت الفرصة ! ولو سمحنا لأنفسنا بالابحار في سفينة « لو كان » في محيط الأماني لحق لنا أن نتصور هدنة تبقي القوة السعودية سليمة في نجد ، خلال العشر سنوات التالية ، حتى ينشب الصراع بين السلطان وواليه محمد علي ، فاما أن يتحالف السعوديون والمصريون ضد الباب العالي ، ويجمعون بين العقيدة والتكنولوجيا ، أو ينتهز السعوديون فرصة انشغال محمد علي في حروب الشام ، ويستأنفون نشاطم ، وهو ما حدث فعلا في الدولة السعودية الثانية ـ كما تسمى ـ ولكن لأن الهزيمة العسكرية كانت قد طحنت القوة السعودية ، فان حروب محمد علي في الشام ، بل حتى هزيمته وانسحابه ، لم تفد كثيرا الدولة السعودية التي ظل خطها البياني في الانحدار .
أحس « عبد الله بن سعود » أنه غير قادر على النصر ، غير مسموح له بالتراجع ، فاختار الشهادة ، وهي حالة معروفة في القيادات العقائدية المخلصة ، عندما توقن أن الزمن ليس معها ، وأن النصر مستحيل ، فيكون استشهادهم هو الانتصار الذي يحققونه للعقيدة ، وان انهزم العقائديون مرحليا . فالهزيمة الشنعاء هي تلك التي تحل بالحركة ، بينما ينجو القائد بجلده ، أو كما قيل مرة ، أمة مهزومة وقائد منتصر .
هذا المفهوم السياسي الشديد التعقيد ، يتركز عند المسلمين ، ببساطة ، في عقيدة الايمان بالقدر ، أي قبول الواقع ، بايمان وصبر وتجلد ، عندما يستحيل تغييره . فلا يجمع المسلم على نفسه ، قسوة الواقع وذل الجزع منه ، أو محاولة عاجزة ذليلة فاشلة لتفاديه .
وماذا على عبد الله بن سعود ، أن يسجن ويعذب ويطاف به في شوارع اسطمبول ثم يعدم ؟! ألم يسجل بذلك أنه « **سعودي** » ذلك الذي يستحق شرف لقب أول ثائر عربي أعدمه الأتراك ؟! .. وبداية تاريخ الثورة العربية الأصيلة ؟!
ألم يحمنا من عار أن يكون أول شهداء العروبة ، أولئك الذين علق جمال باشا على صدورهم مكاتباتهم مع القنصليات الاجنبية ؟! أو أن تكون أولى ثوراتنا تلك التي نظمها المكتب البريطاني في القاهرة ، ورصدت ميزانيتها في حسابات المخابرات البريطانية ، وقادها لورنس ؟!
لا ..
هذه ثورتنا الأولى ، وهذا هو شهيدنا الأول الذي أعدم في اسطمبول بعدما قاد ثورة ناجحة وحرر جزيرة العرب .
وسنجد أكثر من دليل على إصرار عبد الله على الاستشهاد ، وفي المقابل سنجد محاولات ، أو اتجاهات من جانب ابراهيم باشا ومحمد علي من ورائه في مصر للتنصل

من مسئولية هذه الحرب ، والتودد للبيت السعودي ، والحرص على تجنيب عبد الله المصير المرعب الذي ينتظره .

شهد المقيم البريطاني في الخليج بأن « ابراهيم باشا أوضح لعبد الله بن سعود المصير الذي ينتظره في الاستانة » . ومعروف أنه وافق على طلب عبد الله عندما سلم نفسه ، بأن يعود لوداع أهله والمشاورة ، قبل أن يرد على طلبه بالسفر الى الآستانة ليلقى المصير الذي سيقرره السلطان والمعروف مقدماً ،وكانت هذه فرصة نادرة يمكن أن ينتهزها عبد الله ويهرب من الدرعية إلى الصحراء الواسعة . ولا يمكن أن تكون غفلة من ابراهيم باشا وجهازه ، وهم الذين اعتقلوا الشريف غالب ، فور دخوله معسكرهم ، مع أنه لم يكن محاربا ، فلما حاول أن يحتال بطلب مهلة ثلاثة أيام ، رفضوا المناقشة وقالوا السفينة في الانتظار ! ..

وقد يقال أن إبراهيم كان يثق في احترام عبد الله لكلمته ، وهذا صحيح ، ولكن عبد الله لم يكن قد التزم بشيء ، فقد عرض الاستسلام وأبلغه إبراهيم الشروط ، فطلب عبد الله مهلة للتفكير .. أي أنه كان يستطيع رفض الشروط ، ويستأنف القتال ، بالانسحاب الى موقع آخر ، وهذا ما فهمه كبار السعوديين في المدينة المحاصرة ، فنصحوه بالهرب ليستمر في المقاومة ، أو على الأقل ليتفادى الموت المحتوم في الآستانة .. ولا يعقل أنهم كانوا ينصحونه بنكث الوعد ..

وقد تنبه « سادليير » الكابتن البريطاني الذي زار الدرعية عام ١٨١٩ إلى هذا السلوك الغريب من جانب الامام عبد الله ، فقال أنه سمع بهروب ابن لعبد الله من القافلة التي ضمت الامام وأهله المرحلين الى القاهرة بعد استسلام الامام . وأنه أي « سادليير » قد اهتم بمصير هذا الابن الهارب ، وأجرى تحريات واسعة ليعرف مكانه ، ولكن الجميع كانوا يرفضون حتى الهمس بسيرته ويصفونه بأنه مجنون .

ويقول سادليير : « ولا شك أن عبد الله وأهله كانوا يعرفون المصير الذي ينتظرهم في اسطمبول ، ولو هرب عبد الله وبقية العائلة ، لاضطر الترك للبقاء في نجد والتشرذم الى جماعات صغيرة تطارد السعوديين . ومن هنا فان هذا الابن المجنون ، هو العاقل الوحيد في العائلة »!٩٧

واستمر سادليير يناقش الفكرة قائلا : ولكن قد يقال إن عائلة سعود لم تكن تتوقع أية حماية أومساعدة من البدو ، بعد مازال سلطانها ، فلم يكن تدين البدو عن عقيدة ، بل نتيجة سطوة السعوديين ، وطمعاً في الغنائم التي يسمحون لهم بها ، وهذه غلطة أخرى من غلطات عبد الله الذي بدلا من أن يطارد مؤخرة الأتراك وينهكهم في حرب الصحراء حصر نفسه في القلاع والمدن ، حيث لا مجال للبدو » .

ولكن عبد الله اختار الاستشهاد ـ كما قلنا ـ مع رفع راية العقيدة :

ـ « لم يغلبني جندك ، ولكن هذه إرادة الله .. »

ويقال إن علاقة خاصة قد قامت بين إبراهيم باشا وعبد الله بن سعود بعد أن رد إبراهيم باشا ، سعد بن عبد الله بن سعود ، الذي كانت قوات إبراهيم باشا قد أسرته

عند الاستيلاء على قرية علوي الباطن . وبعدما أكلا معا عدة مرات في معسكر ابراهيم خلال المفاوضات . ولما أبلغه إبراهيم بشرط السفر إلى مصر ومنها إلى الآستانة ، فطلب المهلة ، وبقي « ستة أيام في الدرعية تحت الاحتلال التركي » وموضع تكريم إبراهيم باشا .. كذلك أبدى ابراهيم وأبوه اعجابهما بشجاعة ومسلكية عبد الله .

وقد منع إبراهيم باشا ، العسكر من أن ينهبوا المدينة ، أو يفتكوا بسكانها ، بل نفذ تعهده لعبد الله ، بحمايتها ، إلى أن كتب محمد علي إلي الباب العالي يطلب ضم ولاية الشام أو العراق لكي يتمكن من الدفاع عن نجد ، وإلا فانه لا يستطيع الاحتفاظ بالدرعية ، فاختار السلطان على الفور ، الحل الأرخص ، وأصدر أمره بتدمير الدرعية فورا ! .. ولم يستطع « محمد علي » إلا أن يبلغ الأمر لابراهيم باشا ليتولى تنفيذه مع دهشته ومعارضته . وقد ظل محمد علي وابنه ، ومن خلفهما المصريون جميعا يحملون مسئولية هذا التدمير ، إلى أن كشفت الوثائق الحديثة عن هذه المراسلات ، والأمر السلطاني الصريح بتدمير الدرعية ، وما كان بوسع محمد علي « العصيان ».[١٨م]

ويثبت المرجع الأجنبي الوحيد المعاصر هذه الحقيقة ، وهو تقارير الكابتن سادليير الذي وصل الى معسكر ابراهيم باشا عقب تدمير الدرعية مباشرة (سبتمبر ١٨١٩) فقد أورد سادليير ثلاث مرات الآتي :

١ ــ « بعد الاستيلاء على الدرعية ، انتظر التعليمات التي **وصلت من اسطمبول بالتدمير الشامل للدرعية** والجلاء الكامل عن البلاد لأن مواردها لا تكفي نفقات إبقاء القوات اللازمة لحمايتها » .

٢ ــ « وتحدثنا عن الدرعية التي كان تدميرها **بناء على أوامر من اسطمبول**[٩٨] » .

٣ ــ وفي موضع آخر من تقريره* يعود فيؤكد ذلك بقوله : « وكانت **تعليمات الباب العالي هي التدمير الكامل للدرعية** ».[٩٩]

وإذا كان تدمير المدن بعد فتحها من الأعراف المتفق عليها في الحروب ، وقد سجل ابن بشر بفخر تدمير اكثر من مدينة على يد جيوش المسلمين** ، فليس تدمير الدرعية في حد ذاته ، بالاثم الذي يستحق كل هذا الندب من بعض المؤرخين لايغار صدر السعوديين على المصريين ، وهو ليس حزنا على « عثمان » الدرعية بل بغضا في « علي » القاهرة . اما نحن فنرى أن جريمة محمد علي الكبرى في حق الدرعية والقاهرة معا بل في حق الاسلام والعروبة ، هي قبوله أن يكون أداة السلطان في تدمير أول دولة عربية ــ

---

* ولا داعي طبعا لتصور أن المبعوث البريطاني يكذب على حكومته لتبرئة محمد علي في تقرير سري لم ينشر إلا بعد ٧٥ سنة ! ولكن لو خرج الباب العالي من قبره وأقسم أنه هو الذي أمر بتدمير الدرعية ، لأصر مؤرخو المدرسة المعادية لمصر ، على أن إبراهيم باشا هو الذي تطوع بتدميرها . وبما أن إبراهيم باشا « مصري » من مواليد زينهم والدراسة وبولاق (!) فمصر هي المسئولة ، ولذا لا يجوز التعامل مع المصريين الى يوم الدين !!

** « وقولك إننا أخذنا كربلاء وذبحنا أهلها وأخذنا أموالها فالحمد لله رب العالمين ولا نعتذر عن ذلك ونقول « وللكافرين أمثالها » « وأقمنا بها عشرة ايام وذبحنا ودمرنا ما بلغك علمه[١٠٠]» .

إسلامية ، ثورية ، مستقلة . أما ماعدا ذلك فتفاصيل ما كان يمكن تجنبها ، ولو أمكن لما غيرت من حجم الكارثة التاريخية ..

وعربية ثورية مسلمة واعية تلك التي قالت لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها !..

ولقاء « محمد علي » مع عبد الله بن سعود ، يعكس أيضا ، تلك السياسة التي أشرنا إليها .. فقد دخل عليه أسيرا ، فقام له الباشا « المتعاظم عادة في نفسه » « وحياه ببشاشة » . وهذه شهادة الجبرتي الذي يتلمس الغلط لمحمد علي . والذي سجل معاملة إبراهيم باشا القاسية لمشايخ الأزهر الذين جاءوا لتهنئته .

والحوار القصير الذي جرى بينهما ، يعكس الاحترام الكامل من جانب « محمد علي » بل حتى الود ، وعندما دهش « محمد علي » من حجم ما تبقى من مجوهرات الحجرة النبوية ، والتي سلمها له عبد الله بن سعود ، فبدرت من الباشا جملة عفوية ، ولكنها توحي بالشك وهي : « الذي أخذ من الحجرة أشياء كثيرة غير هذا » .. وكان صادقا في قوله ، ولكنه أحس أنه آذى شعور عبد الله بن سعود الذي رد قائلا : إن أباه لم يكن هو وحده الذي أخذ ما بالحجرة ، بل كبار العرب ، وأهل المدينة وأغوات الحرم وشريف مكة ..

بادر « محمد علي » معتذرا بتصديق كلام أسيره فقال : « نعم هذا صحيح وجدنا عند الشريف أشياء من ذلك » .

وأكدت المراجع الأجنبية أن « محمد علي » نفذ وعده لعبد الله ، وأرسل طلب استرحام للباب العالي ، يطلب العفو عن عبد الله ، ولكن العقلية التركية ، كانت بحكم قضاء التاريخ ، أغبى من أن تستجيب لهذا المطلب الذكي ، فقد حققوا مع عبد الله ، وطافوا به شوارع الآستانة ، ثم أعدموه ، دون أن يحاول السلطان ـ الذي يوصف بالذكاء من جانب بعض المؤرخين ـ أن يقابله أو يحاوره ليفهم سر تلك الظاهرة التي كانت أول نذير بسقوط شرعية آل عثمان .

أما الذين رحلوا إلى مصر من السعوديين وكبار آل الشيخ ، فقد عوملوا ـ بشهادة جميع المؤرخين ـ معاملة ممتازة ، بعضهم تبوأ كرسي الأستاذية في الأزهر ، وبعضهم أصبح بيته ـ كما رأينا ـ مزارا يتلمس العامة بركته . وكانوا يتنقلون بحرية ، ويجتمعون بمن شاءوا ، وإن كنا لا نصدق أن حسن المعاملة وصل إلى حد تمكنهم من القرار ، بل نعتقد أنه عندما بدأت سياسة محمد علي تتحول إلى الصدام مع الباب العالي ، ومع تكوين الجيش « المصري » ، وحلوله في الجزيرة محل الخليط غير المصري الذي خاض الحرب ضد الدولة السعودية ، أحس محمد علي بضرورة المصالحة مع السعوديين والاعتماد عليهم ، خاصة وأن تقارير ابراهيم باشا ، وحتى معلومات السلطنة أكدت تأصل العقيدة في نفوس النجديين ، وشدة تمسكهم بالبيت السعودي[١٩م] . وكانت هناك ظروف مساعدة لنجاح هذه المساعي ، فالباشا أصبح أقل

عثمانية ، واكثر طموحا في عدن ومياه الخليج ، وقد بدأ الصدام بين جهاز محمد علي والانجليز حول عدن والبحرين والكويت . وبدأت التقارير البرطانية تنهال حول خطورة الوجود المصري على المصالح البريطانية ، ومصالح « الأهالي » بالطبع !! وهناك رحلة سادلبير المبكرة ، ثم تقارير الضباط الانجليز عن أطماع القاهرة في عدن والبحرين . كل هذا فرض على « القلعة » البحث عن قوة محلية يعتمد عليها ، ولم يكن هناك من قوة سوى البيت السعودي ، الذي أصبح رجاله أقل تصلبا ، بعدما خرجوا إلى العالم ، ودرس بعضهم في الأزهر ، واكتشفوا أن المصريين لا يعبدون اللات والعـزى ولا يحكمهم المقوقس ! كما كان مطوعة نجد يقولون ، وتجسد هذا الفهم في الأمير « خالد بن سعود » الذي كانت أمه حبشية ووصف بأنه « كان فيه من الذكاء والفطنة شيء مفرط » . ولكن البيت السعودي كان منشقا على نفسه ، والفرع العزيزي* كان قد فقد الشرعية أو الأهلية للحكم بعد الهزيمة المروعة التي تحمل مسئوليتها . ولذلك ظهر أكثر من مطالب بالامامة ، واستولى عبد الله بن ثنيان على الرياض ، فاستشار خالد بن سعود كبار قومه ، فردوا عليه بالعرف البدوي ، فهو المنطق السائد بعدما تراجعت الرسالة والامامة إلى الوراء قالوا : « هذا ملك خرج من يدك . ونحن مع الذي عنده أموالنا وعيالنا » فجمع هو أيضا أمواله وعياله وتوجه إلى مكة ..

وحاولت الادارة المصرية محاولة أخرى بتهريب « فيصل بن تركي » من مصر مرتين** ، الأولى كان محمد علي في قمة مجده ، (١٢٤٩ ـ ١٢٥٤/ ١٨٣٤ ـ ١٨٣٨) ولكن الامام لم يستطع أن يدخل في اطار الاستراتيجية المصرية ، وفضل اعادة الملك ، فتم استسلامه وديا ، ورحل إلى القاهرة ، حيث طار صيته وذاعت شهرته بالصلاح والولاية ، والتف حوله كل السعوديين وأولاد الشيخ في مصر ، التي كانت تعيش مناخاً مختلفا تمام الاختلاف عن ذلك الذي رآه عبد الله بن سعود ، فقد كانت في حرب مع السلطنة ، والحديث يتردد عن استقلال العرب ، وأو بعث الدولة العثمانية بانقلاب من الداخل يسلم منصب الصدر الاعظم لباشا مصر محمد علي . وقد انعكس ذلك كله على البيت المالك في مصر ، وأبرز افراده « عباس باشا » الذي تأكدت وراثته للعرش بعد تدهور صحة إبراهيم .. ويعتقد أن صداقة ما قد قامت بين فيصل بن تركي وعباس باشا[٢٠]م ، الذي كانت له اتجاهاته الاسلامية ، أو كما يقول خصومه « الرجعية » . والذي كان يجاهر بمعارضة سياسة الانفتاح على أوروبا التي اتبعها جده ، والتي لم تجلب في رأي « عباس باشا » إلا الكوارث لمصر ولذلك تشير كل التقارير الى أن عباس

---

* اي أولاد عبد العزيز بن محمد وآخرهم عبد الله بن سعود .

** أخذ جمهرة المؤرخين الموثوق بهم بالرأي القائل ، أن محمد علي هرب ـ في المرة الأولى ـ الأمير فيصل ليضرب به ابن ثنيان الذي خلع خالداً .. « وليحافظ على العلاقات الودية مع مصر » (أبو علية) .

باشا لعب دوراً سياسياً في عملية تهريب فيصل الثانية* (فبراير ١٨٤٣) ولا مجال للحكم على سياسة القاهرة الجديدة ، لأن التدهور السريع ، بل المذهل في سرعته لقوة مصر ومكانتها بعد ١٨٤٠ ثم تدهور البيت السعودي ، وتقلص نفوذه ثم انشقاقه بعد موت فيصل ، لم يتيحا الفرصة لاختبار سياسة التعاون التي أرادها المصريون والسعوديون بل حتى الأتراك . إذ يمكن القول إنه من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٠ (١٢٤٦ ـ ١٢٥٦) كان محمد علي يحاول أن يدعم وجوده في الجزيرة ، ويقاوم النفوذين التركي والانجليزي متردداً بين محاولة الحكم المباشر واختيار حاكم من آل سعود ، مع الحذر من تزايد نفوذ الأمير السعودي المرشح . ومن ١٨٤٠ ـ الى وفاة فيصل ١٨٦٥ . كانت القاهرة والرياض والآستانة ، تدرك وحدة المصير وأن الخطر الأوروبي ـ والبريطاني بالذات ـ هو العدو الأصيل الذي يهدد العواصم الثلاث ، مهما تكن الخلافات الداخلية ، فالعواصم الثلاث أو العرب والترك في زورق واحد مهدد بالغرق ، وقد لاحظ المؤرخون أن الافكار الانفصالية أو الاستقلالية ، التي راجت في مطلع القرن التاسع عشر ، قد اندثرت حتى بين الشوام في النصف الثاني من هذا القرن بعدما اتضحت نوايا أوروبا ، وهزمت محاولة محمد علي ، الأوروبية المنهج ، على يد أوروبا ذاتها ..

ولذلك فان الدولة السعودية التي أقامها تركي بن عبد الله ، والتي استقرت على يد فيصل بن تركي بعد عودته الثانية ، والتي انتهت بانقطاع الحكم السعودي من الجزيرة حوالي ١٢ سنة ، هذه الدولة لم تشهد مواجهة مباشرة مع مصر ، بل شهدت أكثر من مظهر من مظاهر التعاون ، وتبادل الرسائل والهدايا بين باشا مصر وأمير الرياض ، وأيضا أمير حايل[٢١]م الذي تقاسم مع السعوديين ما بقي من دولة الوهابية . كذلك لم تكن هذه الدولة معادية للسلطان ، بل قبل فيصل بن تركي ، التبعية الشكلية للسلطنة ، وحتى مبدأ دفع الجزية ، وإن كانت العادة قد جرت على أن العرب لا يدفعون طواعية بل قهرا ، والسلطان من جانبه لم يبذل أي جهد لقمع نجد ، من ناحية لأن نجداً كانت منشغلة بمواجهة الانجليز الذين تصاعد وجودهم في الخليج وساحل عمان ، ومن ناحية أخرى لأن حروب النجديين ، وإن استمر ابن بشر يطلق عليها ألقاب الجهاد والغزوات والجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة ، إلا أنها كانت قد انحطت إلى مستوى

---

* يستغرب فيلبي أن المؤرخين المعاصرين لفيصل لم يقدموا تفاصيل مغامرة هروبه الخيالية ، والجواب على حيرة فيلبي هو أنها كانت فعلا خيالية ، فلا تفاصيل ولا اهتمام من المعاصرين . ولا بد أن فيلبي اطلع على تقرير السفارة البريطانية في اسطمبول حول تاريخ آل سعود والذي جاء فيه « إن عباس باشا سمح لفيصل بالهروب من مصر حيث توجه للقصير ومنها دعا رجاله إليه »[١٠١] .

وقد اخبرنا الأديب الاستاذ عبد الرحمن الرويشد أنه سمع شخصيا من الأمير مساعد بن عبد الرحمن عن عمته بنت الامام فيصل بن تركي ، أن والدها كان يهدي الخيول إلى عباس باشا ويقول هذا صديقنا وساعدنا على الخروج من مصر ، وإزاء هذه الرواية ، حرصنا على مقابلة سمو الأمير مساعد بن عبد الرحمن وتم ذلك يوم الأحد العاشر من مايو ١٩٨١ بمكتبه بالرياض فأكد لنا الرواية حرفياً ، وهي رواية تقطع كل قول وتؤيد ما ذهبنا إليه بمجرد التحليل .

«الفتن » التي لا تشغل بال السلطنة ..

ثم زحف تيار الانهيار العام فسقطت القاهرة عام ١٨٨٢ تحت الاحتلال البريطاني ، وسقطت الرياض وخرجت أسرة سعود إلى المنفى بعد ثماني سنوات . وقبل أن تعود الراية السعودية مرة أخرى الى مكة ، ويلتقي ابن سعود بآخر أحفاد محمد علي ستكون السلطنة قد سقطت وأصبحت الخلافة في ذمة التاريخ ..

الانجليز في نجد ـــــــ ٧

وقبل أن نودع التجربة السعودية الأولى نقف قليلا عند رحلتين ، أو اتصالين بريطانيين تما مع الدولة السعودية ، الأول عقب سقوط الدرعية مباشرة ، والثاني عشية وفاة فيصل وبدء زوال الحكم السعودي من الرياض .

وقد لاحظت في كتابات بعض المؤرخين ، وخاصة الذين حرصوا على إبـراز « العدوان » « **المصري** » على السعودية ، أنهم يروجون انطباعاً بوجود صداقة بريطانية ـ سعودية قديمة* .. مع أن وقائع التاريخ تثبت العكس تماما ، فقد قام تناقض طبيعي وجذري بين بريطانيا والدولة السعودية ، منذ يومها الأول حتى أزمة البوريمي . وكانت السياسة البريطانية الدائمة ، هي حصار القوة السعودية ، وتدميرها حيثما أمكن ، أما ما خالف ذلك ، فيرجع لظروف خارجية ، أو للدبلوماسية السعودية في عهد الملك عبد العزيز بالذات ، وهو ما سنتعرض له بالتفصيل في الجزء الثاني من هذه الدراسة .

قام بالزيارة الأولى « جورج فوستر سادلير » الكابتن بالفرقة السابعة والأربعين بالهند ، وهي التي ضربت القواسم** في عام ١٨٠٩ ـ ١٢٢٤ . وكان القواسم يشكلون نوعاً من القوة البحرية الوهابية في الخليج وساحل عمان وشرق افريقيا ، ومن ثم كانت إبادتهم هدفاً استراتيجيا للأسطول البريطاني وشركة الهند الشرقية ، وبالطبع أطلقوا عليهم اسم القراصنة ، وعلى بلادهم ساحل القراصنة ، وهي المشيخات التي تكون ما كان يعرف باسم ساحل عمان ، والتي تشكل اليوم دولة الامارات العربية المتحدة .

---

* لاحظ ان معظم الكتابات عن التاريخ السعودي تمت خلال حرب اليمن ، وكانت بريطانيا تقف في الجانب السعودي ضد عبد الناصر ولذلك اعتقد هذا الصنف من الكتاب أنه مما يخدم السياسة السعودية ، التطويب لبريطانيا ولو على حساب التاريخ ، وحساب جوهر الرسالة الوطنية للحركة الوهابية[٢٢]م! .. كذلك يكتب معظم هؤلاء تحت تأثير الوهم القائل بأن عبد العزيز كان رجل بريطانيا في المنطقة ، ومن ثم فهم يحاولون تخفيف « التهمة » بالحديث عن « صداقة » كما يحرصون على عدم إغضاب السعوديين « أصدقاء » الانجليز !

** وقد أشار والين إلى هذه المعركة وقال إنها « حاسمة » هزم فيها القواسم في « عمود الخيمة » (رأس الخيمة) وكانت عام ١٨٠٩ .١٠٢

وكان القواسم يملكون معظم الساحل ، باستثناء دبي وأبو ظبي وإن خضعتـا لنفوذهم ، ومن ثم فقد اطلق على الجميع ، لقب « القواسم » وقد أضافت الوهابية إلى شجاعتهم ، ومواهبهم كمقاتلين بحريين ، زخما جديدا ، أذاق الأسطول البريطاني وشركة الهند الأمرين .

وقد رأس « سادلير » هذا بعثة عسكرية بريطانية أرسلت من قبل شركة الهند لتدريب جيش « الشاه فتح علي » الذي كان مذعورا من نمو قوة السعوديين ، فدخل في معاهدة مع بريطانيا عام ١٨٠٩ ـ ١٢٢٤ تعهدت بريطانيا فيها بدعمه ، وإمداده بضباط ينظمون ويطورون جيشه . ولم تكن المعاهدة ، ولا البعثة العسكرية على هوى الشعب الايراني ، ولا هوى الروس ، فقتل الايرانيون الرئيس الأول للبعثة وألحقوه بالثاني عام ١٨١٠ ـ ١٢٢٥ ، وقتل الروس الثالث عام ١٨١٢ ـ ١٢٢٧ . ولكن سادلير استطاع أن يبقى حياً ، ويخرج حاملا سيفا هدية من الشاه ، ورتبة ماجور فخرية من حاكم أذربيجان . عام ١٨١٥ ـ ١٢٣٠ . وأضيف إلى نجاحه في ايران ، نجاحه في الهند حيث استطاع وحده أن يوقع معاهدة مع اثنين من المهراجات ، ضم بها أقاليمهما إلى أملاك بريطانيا .

وكانت حكومة الهند تتابع باهتمام بالغ أنباء الدولة السعودية ، والأحداث المتعاقبة بعد غزو إبراهيم باشا ، وسقوط الدرعية ، فقررت إرسال « سادلير » لدراسة الموقف . وقد حددت المذكرة السرية ـ التي كلف بها سادلير بالمهمة ـ واجباته في ١٥ نقطة أهم ما يعنينا منها :

١ ـ « بحث امكانية التنسيق للقضاء على الوهابيين .

٢ ـ التعرف بأسلوب لطيف قدر الامكان إلى نوايا ومشاريع إبراهيم باشا المقبلة بعد إخضاعه للساحل العربي للخليج الفارسي ، « دون أن يبدو عليك أي اهتمام جدي بالموضوع .

٣ ـ إذا كان إبراهيم باشا ينوي استئصال القواسم ، فما هي المساعدة التي يمكن أن نقدمها له من خلال أسطولنا وقواتنا .

٤ ـ جمع كل المعلومات الممكنة عن طبيعة البلاد ومواردها ومساحتها ، والمدن ، وكل ما تراه ضروري لمعرفة هذه البلاد المجهولة » .

وقد جرى ترتيب الرحلة والاعداد لها من جانب القنصليات والادارات البريطانية في القاهرة وبوشهر وبومباي .

فهي مهمة تجسس بريطانية ، ودراسة للوضع ، وإعداد لحملة استئصال الوهابيين وبالذات القواسم . ولكن بريطانيا أعلنت أن مهمة سادلير هي تسليم خطاب تهنئة من حاكم الهند إلي إبراهيم باشا وسيف كهدية ! ولأنه كما تقول المقدمة التي وضعت للرحلة عند نشرها في عام ١٩٧٧ : « إن اكثر الناس ثقة في حسن نوايا بريطانيا ، لابد أن يشك في طبيعة هذه المهمة ، لذا فان السبب الذي ذاع ، هو أن الحكومة البريطانية في الهند ، أرادت أن تقيم علاقات صداقة مع الفريق المنتصر (إبراهيم باشا) أما

حيثيات هذه الرحلة فلم تسجل أبداً » .

وهذا صحيح ، فالوثائق البريطانية ، لاتثبت المهام التي تندرج تحت نشاط المخابرات البريطانية . فهذا الجهاز الذي شاد الامبراطورية ، وولغ رجاله في دم الشعوب ، ليس له أرشيف ولا سجلات يسمح للجمهور بالاطلاع عليها ولو بعد ألف سنة . وحتى التقارير الاخرى التي يفرج عنها بعد ٧٥ سنة ، لا تتضمن كل المعلومات ، لأن الموظفين يكتبونها وهم يعلمون أنها ستتاح ، وفق قواعد معينة ، لاطلاع عناصر من خارج الجهاز الامبراطوري . ولذلك اعتادوا ألا يثبتوا فيها ما يعتبرونه من الأسرار العليا (راجع تقرير حاكم الهند اللورد كيرزون الذي زار الخليج عام ١٩٠٣ ـ ١٣٢١) كما نلاحظ أنها تكتب وكأنها موجهة للتاريخ !

أما مهمة « سادلير » فقد أخذت غطاءين : الغطاء العلني الذي قيل للموظفين الصغار ومشايخ القبائل الذين كان على سادلير أن يحصل على إذنهم بالعبور في أراضيهم أو الواقعة تحت سيطرتهم . ولهؤلاء قدمت قصة السيف وخطاب التهنئة . ولكن هذه الاسطورة لم تكن لائقة بابراهيم باشا وجهازه ، أو محمد علي في القاهرة ، لتبرير رحلة ضابط بريطاني من القطيف على الخليج إلى ينبع على البحر الأحمر ، ولذلك قيل إن مهمة الضابط سادلير هي مفاوضة إبراهيم باشا في القيام بعمل عسكري مشترك ضد رأس الخيمة ، (عاصمة القواسم) على أن تتولى حكومة الهند البريطانية قيادة الحملة التي سيقوم بها الجيش **التركي** (حتى الوثائق البريطانية السرية تعترف أنه ليس جيشا مصريا ، انظر اوراق الهند السرية الجزء ٣٨ بتاريخ ٧ نوفمبر ١٨١٨) .

وجاء في خطاب التهنئة أن المعلومات تفيد بنية إبراهيم باشا في متابعة زحفه على الخليج لاخضاع قبائل الساحل . وأنه نظرا إلى أن أعمال القرصنة والاعتداءات الوحشية التي قامت بها قبائل ساحل القراصنة ، وخاصة « القواسم المشاغبين » قد دمرت مصالح وهيبة الحكومة البريطانية . ولذا يقترح بذل جهد مشترك من الحكومتين لتأديب هذه القبائل (أوراق بومباي السرية ١٤ أبريل ١٨١٨) . كما تلقى رسالة من السير ايفان نيبان حاكم بومباي ، يقترح فيها تهنئة ابراهيم باشا بسقوط الدرعية وبحث الترتيبات اللازمة معه فيما يتعلق بتقليص النفوذ الوهابي « أو ضرب » القراصنة الوهابيين[١٠٣] « كما كان يطلق على القواسم الذين كانوا فعلا القوة البحرية للدولة السعودية » .

وتقول الدراسة التي وضعت عن هذه الرحلة ، إن هذه القرارات اتخذت « دون موافقة لندن ، وبلا اتصال مسبق مع المصريين » . « ولم تكن هناك مهمة محتومة الفشل ، أكثر من مهمة سادلير هذه ، فلم يكن هناك أي دافع للباشا لحماية مصالح بريطانيا في الخليج » .

وهذا بالطبع لم يغب عن بال الانجليز ، ولكن هدف المهمة لم يكن هذا الحلف الوهمي بأية حال ، بل مسح المنطقة وهو ما تم بنجاح كامل ، وإن فشل الهدف الوهمي المعلن .

ومعروف أن « الباب العالي » خشى زحف إبراهيم بعد الدرعية ، ولذلك أصر على تدمير الدرعية وانسحابه من نجد ، وهو ما حدث فعلا ، ولذلك لم يبق أمام سادلير إلا مطاردة إبراهيم باشا من الخليج للمحيط ومن معسكر إلى معسكر لتقديم السيف وخطاب التهنئة* .

وكانت المحطة الأولى في رحلة سادلير هي مسقط حيث استفاد من مخاوف الامام هناك ، ومن تزايد نفوذ الباشا في المنطقة . وما قيل عن تعارض طموح السلطان للاستيلاء على البحرين ، مع تطلعات ابراهيم باشا نحو الجزيرة ، وكان الاثنان قد تبادلا الرسائل فعلا مع الباشا حول مستقبل البحرين .

وأمضى سادلير ١١ يوما في مسقط اجتمع خلالها عدة مرات بالامام ، ونسق معه خطة كاملة لضرب القواسم ، والاستيلاء على رأس الخيمة ، التي عرضت على الامام فاعتذر بأنه لا يستطيع حمايتها ، كما اقترح الانجليز تسليمها لابراهيم باشا ، لكن الامام رفض رفضا باتا التعاون مع الأتراك أو السماح لجنده بالاختلاط بهم ، أو حتى تسهيل وصول سادلير إلى الاراضي السعودية الخاضعة وقتها للأتراك . « **فاضطر** » ، الانجليز للاحتفاظ برأس الخيمة !! كما اضطر سادلير للسفر إلى بوشهر ، ومنها استقل المدمرة « فستال » التي أنزلته في القطيف ، حيث لم يجد هناك من « المصريين » إلا الحاكم واثنين من مساعديه ، ولذا وضع نفسه تحت حماية بني خالد وسافر إلى الهفوف ومن هناك قرر مصاحبة الجيش التركي المنسحب ، بعدما اقتنع بأن فكرة التعاون مع ابراهيم باشا لضرب ساحل القراصنة قد انتهت تماما ، وأشاد في تقريره بأهمية اقليم الأحساء وميناء القطيف والعقير لضرب رأس الخيمة .

---

* يفسر كتاب « اكتشاف جزيرة العرب »، «جاكلين بيرين» برود إبراهيم باشا من ناحية سادلير، ورفض بحث أي موضوع معه بل السخرية منه وتكليفه بتوصيل خيول لحاكم الهند . بأن الباشا « لم يكن يهتم أي اهتمام بالخليج ومشاكله فكانت مهمة سادلير مخفقة كل الاخفاق ، واحتجز أربعة أشهر أخرى في جدة ولم يتمكن من مغادرة شبه الجزيرة الا في يناير ١٨٢٠ »[١٠٤].

أما نحن فنقول : بل لأن إبراهيم باشا كان شديد الاهتمام بالخليج ، لذلك رفض مناقشة عروض سادلير وحاول التضييق عليه قدر الامكان . فلم يكن بالذي تخفى عليه أطماع الانجليز في المنطقة . وها هو نائبه خورشيد يقول في رسالته الشهيرة : « إن الانجليز يرغبون منذ خمسين أو ستين سنة في الاستيلاء على جانب من سواحل بحر العجم ، حتى يأمنوا شر الدولة الروسية ، ولذلك حولوا أغراضهم إلى الاستيلاء على سواحل عمان والبحرين والأحساء والقطيف والكويت والبصرة لتكون عقبة أمام الدولتين الروسية والايرانية » واقترح خورشيد « تحييد البحرين ومنع سقوطها في يد بريطانيا إذا لم يكن الاستيلاء المصري عليها ممكناً » .

أما فيلبي فقالها صراحة « إن بريطانيا كانت تريد معرفة نوايا ابراهيم باشا وأبيه بخصوص الخليج ، وكانت رحلة سادلير بهذا الهدف » .

وقد أورد ابن بشر في احداث ١٢٢٥ ــ ١٨١٠ : « انتهز الانجليز ثورة الأبناء من آل خليفة في البحرين وطلبهم النجدة من صاحب مسقط ، الذي كان عنده مراكب النصارى فاستعانوهم ، فأقبلت جموع عظيمة في مراكب كثيرة وبندروا عند الزبارة بالليل ودمروها جملة ثم ساروا إلى البحرين »[١٠٥].

وهكذا استمر سادلير يقتفي أثر الجيش العائد من الأحساء إلى جدة ! .. ليسلم خطاب التهنئة والسيف ! ولا يكف خلال ذلك عن قيد ملاحظاته ، وبعث التقارير إلى بومباي وتسجيل يومياته .. التي يتحدث فيها عن « الوهابيين » كأعداء بريطانيا بكل وضوح وصراحة »[١٠٦] ، ومعروف أنه استاء من إبراهيم الذي فهم أهدافه ، ورغم أنه علم بوجوده في « عنيزة » إلا أنه ـ كما يقول سادلير في شكواه إلى القنصل العام البريطاني في مصر ـ رفض مقابلته ، كما منع الاتصال به ، وأغلب الظن أنه لم يقابله إلا عندما جاءت الموافقة لابرهيم باشا من القاهرة ، حيث الباشا الأب الخبير بالسياسة الدولية والأكثر استجابة للضغوط البريطانية ، ولم تتم المقابلة إلا بعد أن وصل الجيش إلى المدينة ، فقابله إبراهيم باشا في بير علي يوم ٨ سبتمبر ١٨١٩ .

وقد أبدى إبراهيم باشا أسفه لأن سادلير وصل متأخرا ، وبعد ما صدر الأمر السلطاني بالجلاء عن نجد والأحساء ، وإلا لكان من الممكن بحث هذا التعاون . وقد لاحظ سادلير أن الباشا حاول أن يعرف منه معلومات أكثر مما يجب عن قوة برطانيا العسكرية في الهند .

وقال له الباشا إن تعليمات الباب العالي كانت قاصرة على الوصول إلى الدرعية ، ولكنه اضطر إلى إرسال قواته للأحساء لضمان تموين جيشه .

وتدهورت العلاقات سريعا بين الباشا الذكي ، والكابتن المريب ، فقد استاء الباشا من رفض الكابتن سرج الحصان المهدى لحاكم الهند ، لأن السرج مستعمل ! وانتهى الأمر بسحب الهدية والتهديد بتمزيق الخطابات المرسلة للحاكم العام والتي ثار خلاف آخر حولها عندما أراد سادلير أن يترجم : The most honourable إلى « أشرف الأشراف » فرفض كتبة الديوان لأن هذا لقب رسول الله ، فاقترح سادلير تغييرها الى أمجد الامجاد ...

وكتب سادلير إلى القنصل البريطاني في عدن :

« منذ وصولي إلى المدينة ، لم أستطع أن أجمع معلومات تمكنني من تكوين رأي عن مشاريع خليل باشا في حالة تمكنه من الاستيلاء على صنعاء . وأنت تعلم أنه ليس لنا مقيم ولا ممثل في « مخا » ولذا سيصعب على حكومة بومباي أن تعرف تطورات الوضع المحتمل في ميناء مخا . ولذا سأمر عليها في طريق عودتي » .

ولكن خليل باشا لم يذهب إلى صنعاء بل وقعت اتفاقية مع الامام وردت إليه قنفذة واللحية . مقابل دفع الجزية لباشا مصر .

كما أطنب في وصف البربر أو المغاربة الذين لعبوا دوراً أساسيا في حملة ابراهيم باشا وقال إن الاشاعة الرائجة بأنهم أشجع من البدو ترجع « إلى أنهم أفضل تسليحا وتدريبا » وعبر سادلير عن غيظه من إبراهيم باشا ، فاتهمه بأنه ابن حرام ، ولد بعد زواج أبيه من أمه بعدة شهور قليلة . وسجل فرحة أهالي جدة بسفره . وإن كان قد سجل أيضا أن « سيف الباشا أقوى من الذهب الانجليزي ولذلك استحال علي أن أجد رسولا ينقل رسائلي » .

ورغم كل المضايقات التي أحاطه بها ابرهيم باشا ، فلا شك أنه استطاع أن يحصل على معلومات ، وتصور للاحداث ، مما يدل على علو كعبه في الجاسوسية ، ويوحي بأنه استعان بأعوان كانوا موجودين من قبل .

ومن مطالعة الرحلة وتقاريرها ومكاتباتها نلمس العداء الأصيل الذي كانت تكنه السلطة البريطانية للدولة السعودية ، وسرورها « **بزوال** » هذه الدولة ، « **التي نمت بسرعة غير عادية** »[١٠٧] ، وقلقها ــ أي بريطانيا ــ من الوجود التركي[٢٣م] النشط هناك .

رحلة بيلــي

أما الرحلة الثانية ، فهي أكثر شهرة ، وهي التي يشار إليها باستمرار ، كلما أراد السياسيون السعوديون ، توريط بريطانيا ، بالزعم بوجود اتصالات ودية قديمة ، وهي التي يبرزها المؤرخون من المدرسة التي تؤكد الصداقة البريطانية ــ السعودية .. ألا وهي رحلة « بيلي » .

وقد أشار حافظ وهبة إلى تلك الرحلة ، ولكنه جعلها وكأنها كانت بمبادرة من فيصل ! إذ قال : « ورغم اعتراف فيصل بسيادة الأتراك الاسمية إلا أن ذلك لم يمنعه سنة ١٨٦٢ من مفاوضة بيلي المقيم السياسي البريطاني في بوشهر على الشاطىء الشرقي للخليج » . ووصف الدكتور أبو علية رحلة بيلي بأنها ، « كانت تهدف إلى دعم العلاقة والتقارب بين المملكة وبريطانيا »! .

وقد وردت ــ كما قلنا ــ إشارات متفرقة عن هذه الزيارة ، توحي وكأنها فعل خبيث أو مؤامرة ، أو اتفاق حماية ، أو على الأقل دليل علاقة حميمة خفية بين السعوديين والانجليز ؟!

فماذا جرى في تلك الزيارة وما هي ظروفها ؟!

ذهب الليوتانت كولونيل « لويس بيلي »* المقيم السياسي في الخليج إلى الرياض عام ١٨٦٥ في أواخر حياة الامام فيصل بن تركي .. وقدم تقريراً إلى حكومة الهند بعد وفاة الامام بخمسة شهور ، أما سبب التأخير فهو انشغاله بمقاتلة حكومة الامام ، وممثليها في سلطنة مسقط وتدمير مدينة صور قاعدة النشاط الوهابي على الساحل العماني ! وقد تضمن التقرير ١١٧ نقطة (!) يفهم منها الآتي :

ــ الرحلة لم تكن أبدا بعثة صداقة ، كما ادعي بيلي ، وروج المؤرخون من بعده ، ولم تسبقها علاقات صداقة ، ولا تلتها هذه العلاقات ، بل جاءت في فترة تردت فيها العلاقات السعودية ــ البريطانية إلى الحضيض بسبب التدخل البريطاني في سلطنة

---

* لويس بيلي من مواليد ١٨٢٥ عمل فترة في البعثة الدبلوماسية في طهران ثم أصبح المعتمد السياسي في زنزبار ومنها انتقل إلى الخليج كمقيم عام ١٨٦٢ .

مسقط ، وإمارات الساحل ، والبحرين ، وقد شهدت هذه العلاقات مصادرة السفن الوهابية في المياه العربية ، وعند شواطىء افريقيا ، كما شهدت ضرب الاسطول البريطاني للساحل السعودي ، وسواحل المشيخات الموالية ، وخاصة القواسم ، والتقرير يشير إلى ضرب الدمام وإنزال قوات فيها في عام ١٨٦١ .

وبيلي يبرر رحلته بأنها استهدفت « إزالة الآثار السيئة التي علقت بذهن الأمير (فيصل) بسبب الأعمال البريطانية في مجال مكافحة الرق بالشاطىء الشرقي الافريقي . « ونود أن نشير إلى أن علاقاتنا كانت سيئة جدا ، بسبب ادعاء فيصل امتلاك الساحل الشرقي للجزيرة من الكويت إلى رأس الحد ، بدعوة أنه كان مملوكا لآبائه . وبسبب نشاطه المتزايد في عمان ، مما أثار مخاوف سلطان مسقط* « الحليف القديم لحكومة الهند » و « لذلك انقطعت كل العلاقات بين دار المقيم هنا (بوشهر) وأمير نجد » وقال بيلي في تقريره : « إن السيطرة السابقة للحكومة الوهابية على الساحل من الكويت إلى رأس الحد ، قد صاحبها نشاط واسع للقرصنة . الأمر الذي يضر بالتجارة والسلام . وقد وجدت أن كل خيوط القبائل تتجمع في نجد ، فقررت ان أذهب الى الأصل ، إلى الحكومة الوهابية . وبعثت للأمير خطاباً برغبتي في الزيارة ، ولم يكن الرد مشجعا ، ولكن أرجعت ذلك لسوء الفهم ، فكتبت له مرة ثانية ، ولكن سموه لم يجب . غير أن بعض القادمين من الرياض قالوا إنه تحدث عني بتعقل ، وقال إنني لا أضمر إلا الخير . فصممت على الذهاب إليه .

« وفي يناير ١٨٦٥ عبرت الخليج للكويت ، حيث اجتمعت بالشيوخ ، وأبلغتهم بمقصدي ، كما بعثت بخطاب للأمير فيصل أعلمه بأنني في الطريق لزيارته ، وذلك مع رسول خاص ناويا أن الحق به بدون تأخير » .

« وقد أقرني رئيس الشيوخ في الكويت على خطتي ، وقال : « خذ الجمال والله معك » . ولكن الشيخ يوسف البدر المعروف جيدا في سوق الخيل في بومباي اعترض بشدة على خطتي . وفي النهاية عقد الشيوخ مجلسا وقرروا أنه من الافضل أن اتريث إلى أن أحصل على معلومات من نجد . ولذا قبلت ضيافة يوسف البدر . وبدأت أجمع المعلومات » .

ويحكي كيف خرجت الكويت كلها تغني « وتشكر الرب على نعمته بارسال الجراد على الكويت » !

وقد حصل بيلي على معلومات من خادم في قصر الامير بالرياض ، لاندري أكان ساذجا أم غادرا .. المهم أن معلوماته تؤكد أن خبر الزيارة فاجأ القصر ، وأن رجال البلاط ظلوا ضد الزيارة إلى النهاية .

---

* وقد اعترف بيلي بأن سلطان مسقط يدفع للامام فيصل ما بين ١٢ ألف الى ٤٠ ألف دولار كزكاة . وأن حاكم البوريمي قد تحرك لغزو أراضي مسقط وإن كان الامام (فيصل) هو الذي يحرك كل الخيوط !

ـ فالرحلة كانت مبادرة بريطانية في ظل تدهور العلاقات ، أو تصاعد التوتر بين الاستعمار الزاحف ، والدولة السعودية التي كانت شمسها تنحدر بسرعة نحو المغيب ، والمتصدية ـ رغم ذلك ـ لمسئولياتها القومية في حماية الجزيرة من السيطرة الأجنبية .

ـ وهي رحلة تجسس واستطلاع وتخويف ، وزرع عملاء إذا أمكن . وكان البلاط السعودي على وعي بذلك ، فرفض الرد بالقبول على رسالتي البريطاني ، ولم تصدر الاجابة إلا بعد أن وضعهم أمام الأمر الواقع بابلاغهم أنه في الطريق ، ولم تكن هناك وسيلة لتجنب الزيارة المرفوضة ، إلا منعه بالقوة . وعندما وصل إلى الرياض ، ورغم تظاهره بالود ، ومحاولته رشوة وتهديد « العبد » محبوب وإنذاره بأنه يوما ما ، بعد وفاة الامام الذي يحميه ، وتولي ابنه « عبد الله » الذي يكرهه قد يجد نفسه لاجئا أو طالبا اللجوء في دار المقيم البريطاني في الخليج ! ورغم ذلك كان الجو معاديا في الرياض الى حد منعه من العودة ، وتذكر عندها التحذير الذي نصحه به الأصدقاء الكويتيون : « إذا كنت مصمما على السفر إلى الرياض ، فاحذر أن تمكث بها أكثر من يومين » .. وقرر المخاطرة بالسفر ولو دون إذن ، لولا أنه نجح أخيرا في مقابلة الامام للمرة الثالثة فأذن له .

ويمكن أن يضاف إلى أهداف الرحلة وأسبابها القلق من أخبار النفوذ الفرنسي المتزايد في المنطقة ، في لبنان بعد أحداث الستينات ، والتدخل الفرنسي ضد الدروز الذين كانت تدعمهم بريطانيا ، وأيضا تصاعد نفوذ فرنسا في مصر على يد فردناند دلسبس ، صاحب مشروع قناة السويس ، وإشاعات اتصال الفرنسيين بالأمـير الوهابي . وقد أكد الامام فيصل هذه الاتصالات عندما أخبر الضابط البريطاني :

« إن إحدى السفن الفرنسية ، بعثت له خطابا من عدة سنوات ، تعرض عليه المساعدة بحراً وبراً عند الحاجة . ولكنني لم أرد عليهم ، ومنذ سنتين تلقيت نفس العرض بنفس الطريقة ، ولكنهم طلبوا أن أبعث الرد عن طريق قنصلهم في دمشق . فرددت شاكرا ، قائلا إنني لا أحتاج مساعدة في الوقت الحاضر » .

ولذلك نستبعد وقوع لقاء مباشر بين الامام ، وأي مبعوث فرنسي أو متفرنس .. فنحن من الذين يعتقدون أن « بلجريف » لم يدخل الرياض ، لكنه صنف رسالة كاذبة ، سواء عن سوء خلق ، أو لأن وطنيته الانجليزية غلبت دينه الكاثوليكي فضلل الامبراطور الذي بعثه . والامام لم يشر إلا إلى رسالتين ، واحدة وصلت عن طريق سفينة ، والثانية يمكن أن تكون قد وصلت عن طريق كارلوغورماني وكيل البريد الفرنسي في القدس الذي وصل حتى جبل شمر في عام ١٨٦٤ .

على أية حال لم يكن الامام معجبا بالسياسة الفرنسية ، ولعل هذا من تأثير صداقته مع عباس باشا ، الذي أشار إليه في حديثه مع المبعوث البريطاني مرة بالاسم ، عند الحديث عن مشروع الباشا في مد التلغراف إلى الجزيرة ، والذي عدل عنه بسبب تعديات العربان . ومرة عندما قال انه سمع عن الحكومة البريطانية من صديق A Pasha of Egypt والأرجح أن يكون الحديث عن « باشا مصر » وليس باشا من

مصر !
ومن بين الباشاوات الثلاثة الذين عاصرهم فيصل ، فالأقرب لوصف « صديق » هو عباس ..
قال الامام إن الفرنسيين أكثر لؤما أو خداعا وتآمرا ، وأن سفينة حربية فرنسية عرضت مساعدة سلطان مسقط ضده . الأمر الذي نفاه الانجليز !
فهي رحلة تدخل ضمن المجهود الحربي ، لضابط نشط في عدائه للسعوديين ، وليست رحلة ودية ، أو محاولة للتفاهم كما تصورها بعض المصادر ، وعبارة حافظ وهبة تثير التساؤل ، وقد تركها بغير توضيح ، وكأن مفاوضات قد جرت بمبادرة الامام بين الرياض وبوشهر ، بينما الاتصال الوحيد هو ذلك الذي تم « عنوة » في قلب الرياض ، باصرار المقيم البريطاني في الخليج ، على زيارة الامام .. وكل المفاوضات التي تمت خلال الزيارة هي جس نبض من الامام مباشرة أو بواسطة سكرتيره الحبشي العبد محبوب ، ولعقد معاهدة عدم اعتداء ، وقد رفضت كل العروض مباشرة وبحسم ، بلطف مع الامام ، وببرود مع سكرتيره .. وستتكرر نفس المحاولة السعودية ، ونفس الرفض البريطاني خلال الثلاثة عشر عاماً الأولى من عهد عبد العزيز آل سعود !
وقد زعم « بيلي » أن الامام سأله عن احتمالات الدعم البريطاني في حالة الحرب مع تركيا ، ولمح إلى ما فهمه « بيلي » بأنه اقتراح بغزو مشترك لفارس .. وقد رد ببرود أو فجور : « إن السياسة البريطانية محافظة ولا تشجع المعتدين » !
ولكن الأكثر يقينا هو اقتراح محبوب ، عقد معاهدة عدم اعتداء بين الاسطول البريطاني وعرب عمان وصور والساحل والخليج .. « واقترح أن ننتهز مناسبة وجودي في العاصمة (الرياض) لتحرير مسودة هذه المعاهدة ، ولكني رفضت .» وقد جاء العرض والرفض خلال فترة تحديد إقامته ، ومنعه من السفر ، وتهديده هو بأنه سيسافر وليتعرضوا له إذا شاءوا .. ومع ذلك رفض أن يرتبط بأي شكل يوحي بالمسالمة في المستقبل ، أو حتى الرغبة في المسالمة . ويؤكد « بيلي » في تقريره أن هذا الموقف العدائي ، كان يمثل السياسة البريطانية الدائمة ، فعلى حد قوله ، « خلال تعرض الوهابيين لضربات باشاوات مصر ، عرض الأمير الوهابي الدخول في معاهدة مع حكومتنا ، ولكن هذا العرض رفض » .. كما اعترف بسياسة المقيم السابق العدائية نحو الدولة السعودية ، وقد أثار أحد مرافقيه غضب السعوديين ، لأنه كان يضع على رأسه قبعة رجال البحرية . فما أن رآها سكرتير الأمير حتى صاح « هل هذا من رجال الاسطول الذين يعتقلون سفننا ويضربون شواطئنا ؟! »
وعلى الفور اختفت القبعة . وأكد محبوب أنه « لو بقي المقيم السابق لانتقمنا منه » .
كانت هناك استحالة تفاهم فضلا عن لقاء بين المصالح البريطانية والدولة السعودية ــ الوهابية .. وربما فضلت السياسة البريطانية في فترات معينة ، ترك خصوم الوهابيين من العرب أو المسلمين ينفذون خطتها في ضربهم ، والحد من

نفوذهم ، بينما تتظاهر هي بالحياد ، ولكن المخطط الدائم هو رفض الوجود السعودي القوي ، لأن هذا الوجود لابد أن يمتد إلى الساحل فيصطدم بالوجود الاستعماري .. طالما ظل البيت السعودي يحمل رسالته التي استحق بها ملك الجزيرة ..

قال بيلي في تقريره* :

« إن الوهابيين اتبعوا سياسة ضرب القبائل ببعضها ، حتى أدخلوها في طاعتهم ، وبذلك تمكنوا من إخضاع كل الجزيرة ما عدا اليمن وساحل حضرموت . ثم دارت عليهم الدائرة بهجوم باشاوات مصر من ناحية ، وهجومنا نحن على ساحل المحيط الهندي والخليج الفارسي »** .

« ثم استعاد الوهابيون قوتهم ، بانسحاب باشاوات مصر ، وتقلص وجودنا كقوة بحرية ، فاستأنفوا سياستهم العدوانية القديمة » « وقد تمكنوا في عهد فيصل من ضم إقليمي الأحساء والقطيف ، ورأس الخليج ، وتم استرضاء تركيا بدفع جزية اسمية لشريف مكة . وقد انتشر صيتهم حتى هندوستان ، حيث تبالغ الصحف في أهميتهم . ولهم وكلاء في المناطق القاصية . ولهم مراكز دينية تضم أنصارهم على طول سواحل إيران والجزيرة العربية . كما اتخذوا عدة خطوات لاستعادة سيطرتهم المباشرة على أقاليم مسقط ومشيخات ساحل القراصنة . وذلك لاستعادة ما وصفه الأمير فيصل في مقابلتي معه ، بالمملكة التي وهبها الله لأسلافه وهي من الكويت الى رأس الحد بل وما وراء ذلك » .

وقد ظلت العلاقات سيئة بعد الزيارة ، إلى حد أن حكومة الهند طلبت من « بيلي » تأجيل كتابة تقريره ، ليتفرغ لحرب الوهابيين في مسقط ، وقد انتهى التقرير في المادة ١١٦ بالاشارة إلى تدمير مدينة صور .

« عند عودتي رأت حكومة الهند أن أؤجل كل اهتماماتي ، لاتفرغ للمصلحة العامة ، وهي ترتيب الأمور بين حليفنا سلطان مسقط ، والأمير الوهابي ، وقد فوضني السلطان في أن أعقد صلحا بالشروط التي أراها ، وأعطاني مكتوبا بذلك ، فحولته للحكومة الوهابية ولكن لم نتسلم ردا ، وسافرت إلى انجلترا ، بينما استمر الوهابيون في غزو أراضي مسقط ، وذبحوا بعض الهنود من رعايانا الذين كانوا يعيشون في سلام في ميناء صور باقليم مسقط . وعند عودتي من الهند ، رأت الحكومة أن الخطر داهم على حليفنا ، وأن الوقت قد حان لمساعدته بكبح العدوان الوهابي . ولذا أرسلت مرة ثانية إلى مسقط » .

ولكن المقاومة الوطنية داخل السلطنة تثور على استسلام السلطان للاجانب ، وتمكينه للنفوذ الانجليزي ، فيقع انقلاب داخل القصر ويقتل السلطان على يد ابنه .. الذي اتخذ اجراءات ضد النفوذ البريطاني ، ورجال البلاط المتعاونين مع الانجليز .

---

* يقع في ١١٧ بندا وتاريخه ١٥ مايو ١٨٦٦ أما الزيارة فكانت أواخر ١٨٦٥ .

** ولكن تاريخ بعضهم لا يشير إلا لهجوم باشاوات مصر .

ويبدو أن الضمير البريطاني يتدهور مع التقدم في السن ، فهذا الضمير الذي بارك ابن صباح ووضعه تحت الحماية البريطانية ، عندما اغتال أخويه ، بعد ثلاثين سنة ، هذا الضمير في عام ١٨٦٥ ـ ١٨٦٦ كان شديد الحساسية نحو صلة الرحم . فقد تدخل الاسطول ضد السلطان الجديد ونقل شقيق السلطان المقتول ووزيره كما نقل الرعايا البريطانيين .

تم تدمير مدينة صور على يد رسول السلام هذا بيلي : « حيث اضطهد الوهابيون رعايانا ، والتي كانت (أي صور) قاعدة وملجأ لقوارب تجارة العبيد . وقد لقنا العرب درسا لن ينسوه لسنوات قادمة . خاصة وأن أهل صور يشتهرون بأنهم أشجع عرب الساحل .. وهم الذين دبروا مؤامرة لاغتيالي في زنزبار عام ١٨٦٢ » .

فهذا رجل معروف ومشهور بعداوته للعرب والمسلمين ، ورأسه مطلوبة من صور إلى زنزبار . وهو مساهم مباشر إن لم نقل قائد مقاومة النفوذ الوهابي في الخليج وساحل عمان .ولكن البعض يصر على أن يجعل زيارته رحلة صداقة ومحبة ، لأن هذا البعض لا يريد ، ولا حتى في الماضي ، أن تكون السعودية ضد الانجليز !..

ويمضي التقرير في كشف الصدام المحتوم والمتصاعد بين الوجود الاستعماري البريطاني ، والدولة السعودية فيقول :

« عندما توليت منصبي كمقيم في الخليج ، اكتشفت ان شيوخ الساحل ليسوا الا مجرد دمى في يد القوة الكبرى في نجد ، وقد دلت تجاربنا على أن النفوذ الوهابي قد اتجه دائما نحو الشر ، وأن انتشار هذا النفوذ قد صاحبه نشاط القرصنة على نطاق واسع في الخليج وعمان وإيران والمحيط الهندي ، الأمر الذي يضر التجارة ويعكر السلام .

ويرسم التقرير خريطة سياسية للمناطق التي « لاتقبل بريطانيا » الوجود السعودي فيها بالزعم بأن سكانها أكثر تقدما من قبول نظام وضعت نصوصه في القرن السابع الميلادي* . وهي : « الساحل كله وساحل عمان ومسقط** .

وتوقع التقرير ، نشوب الخلاف بين ولدي فيصل : عبد الله وسعود ولمح إلى ترجيح كفة سعود[٢٤]م ، لأن « عبد الله متعصب » وقال : « من المحتمل أن تبقى الحكومة الوهابية مسالمة بعض الوقت ، بسبب الخلافات الداخلية المتوقعة ، ولكن إذا استطاع عبد الله تأمين وضعه في الداخل وأمن تدخلنا من الخارج ، فالاحتمال الوحيد هو استئناف الوهابيين محاولتهم للسيطرة على شيوخ ساحل القراصنة (ساحل عمان) ومن ثم فسيسقط شرق الجزيرة من الكويت إلى رأس الحد ، طوعا أو كرها تحت النفوذ

---

* امامة عمان أكثر تقدما من أن تحكم بالاسلام ؟!

** زعم فيلبي أن زيارة بيلي انتهت بتوقيع اتفاق عربي ـ بريطاني [١٠٨] وهو غير صحيح . ولا يوجد عليه أي دليل . ولما أشار الملك عبد العزيز إلى ذلك قال شكسبير إنه نقب فلم يجد إلا العقوبات التي « أنزلناها بالسعوديين.» ! (انظر فصل الانجليز في القسم الثاني) .

الوهابي » . وهو الأمر الذي يضر التجارة والسلام .. الخ الخ .. وقد عاد رسول « السلام » و « الحلف » !! بهذا الانطباع من الرياض : « إن **الوهابي ، والعربي عموما ، خؤون غدار متقلب ، أرعن ، حقود ، متعصب ، الأمر الذي ينفي امكانية الثقة في قرارهم لساعة واحدة** »[١٠٩]* !

ومن ناحية أخرى فان الأمير الكهل الذي ناهز السبعين وفقد بصره ، وسيصاب بالشلل ويتوفى بعد شهور ، كان واضحا وحاسما فقد هاجم السلطان حليف الانجليز ، وقال إنه لابد من ادخاله في الطاعة بالقوة ، « وأعلن » أن حدود مملكته التي أنعم الله بها عليه وعلى آبائه هي من الكويت إلى رأس الحد ، وقال لممثل بريطانيا العظمى : « **نحن نشعر بأننا ملوك في كل شعرة من جسدنا** » « ونحن سعداء بهذه البلاد التي تبدو لك موحشة ، وتجعلك تتساءل كيف يطيقون الحياة فيها بمعزل عن العالم .. » « ولكنها بلادنا .. نعم .. « **جزيرة العرب هي بلادنا** » و « نحن لنا وكلاء في شتى انحاء العالم يطلعوننا على الاخبار » « وفي سجني ستون شيخا من شيوخ القبائل » « قد نكون قساة ولكننا عادلون » وفي الحديث عن فرنسا قال : « **الكفر ملة واحدة** .. وعندما يتعلق الأمر بالدين فكلكم سواء ، ولكن في السياسة يمكن أن نميز » .

وقد سجل بيلي في تقريره حدود مملكة فيصل ، والفضل ما شهدت به الاعداء ، فقرر أنها تسيطر عى الساحل الغربي للخليج بالاضافة الى ساحل عمان ، وتتلقى الجزية سواء عينا أو نقدا من شيوخ البحرين وأبو ظبي ودبي وأم القوين وعمان والشارقة ورأس الخيمة . ولها (للدولة السعودية) قاعدة متقدمة في البوريمي . كما تدفع سلطنة مسقط الجزية بدورها » « كما سجل استقلال جبل شمر[٢٥]م الذي لا يقدم هدايا إلا اذا قويت حكومة نجد » .

وتنبأ بيلي « **إن هذه الدولة (الوهابية) تحمل في داخلها ، بذور انحلالها** » واقترح « استغلال الأزمة الحالية بين السعودية وسلطان مسقط للتعجيل **باسقاط الدولة السعودية ، أو على الأقل التخلص من شرورها لفترة طويلة** » .

وسجل وفاة الامام في ٢ ديسمبر ١٨٦٥

وفي نفس اليوم بعد ١٥ سنة سيولد للامام الراحل حفيد سيعيد الدولة السعودية ، بكل « شرورها » المعادية للنفوذ البريطاني في المنطقة من الكويت إلى رأس الحد !

وقبل أن يكتب بيلي تقريره مات الامام فيصل ، وبويع لابنه الكبير عبد الله ، ولكن الأمر لم يكن خالصا له ، وبدا كأن التاريخ الذي كان يعمل وقتها موظفاً في حكومة الهند البريطانية ، قد حصل على نسخة من تقرير بيلي وبدأ ينفذها ..!

فقد دب الشقاق في البيت السعودي ، بين الاخوة والاعمام وثبت فعلا ـ كما قال بيلي ـ أن البيت السعودي يحمل بذور انحلاله من داخله ، فقد تقاتل الاخوة ، وطرد الامام من عاصمته أكثر من مرة ، وتبادل أولاد فيصل الامامه وكأنهم خلفاء بني

---

* لماذا يصر البعض على تأكيد تحالف فيصل مع عدو العرب هذا ؟!

العباس عشية سقوط بغداد ، بل وقام أكثر من إمام ، وفقد الاسم معناه ، وبحث كل منهم عن نجدة خارجية ، وهرع الآخرون لنجدتهم بتصفيتهم ... وزالت الوهابية من مسقط والبحرين وساحل عمان واستولى الانجليز على ذلك كله .. وسواء استعان سعود بن فيصل بالانجليز* أو لم يستعن بهم في استيلائه على الأحساء ، فان أخاه الامام استعان بالأتراك لاستخلاص الأحساء منه ، فجاء هؤلاء بحملة من العراق واستولوا على الأحساء وضموها للدولة العثمانية ، بل وأطلقوا عليها سنجق « نجد » تيمنا . ونال مدحت باشا قائد الحملة من السلطان وساما مرصعا بالألماس مكتوب عليه « نجد »

ويحاول عبد الرحمن بن فيصل طرد الأتراك من الأحساء فيهزم ١٨٧٤ ويستعين الامام بابن رشيد لاسترداد الرياض ، فيدخل ابن رشيد الرياض مرة اخرى ، باسم آل سعود ، كما دخلها عبد الله بن رشيد قبل أربعين سنة ، ولكن فرق بين الدخولين ، فرق بين الدخول تحت راية فيصل بن تركي ، وبين دخول عبد الله بن فيصل تحت راية ابن رشيد ..

ومهما قيل في وفاء ابن رشيد ، وحسن معاملته للأمراء السعوديين ، فما كان بوسعه أن يعترض مشيئة التاريخ ، أو أن يعيد الملك لبيت فقد أمراؤه القدرة ، ومزقتهم الرغبة العاجزة .

والويل لبيت ملك .. أمراؤه عاجزون عن الحكم ، وأعجز عن كبح شهوتهم للحكم !

كان التاريخ قد آذن بانتقال الملك لآل رشيد ، واقتنع عبد الرحمن الفيصل ـ أكبر الاحياء من أولاد الامام الراحل ـ بهذه الحقيقة ، فغادر الرياض آسفا عليها .. ولكنها لم تأسف عليه ، فالرياض لا تعشق الا الفارس من آل سعود الذي يعرف تبعات الملك ويقوى عليها ..

اختفى آل سعود من الرياض .

واختفى السعوديون من التاريخ ..

وانزوت الرياض في ظلمات التاريخ ، ولم يبق من الوهابية إلا بعض المظاهر الشكلية في نجد وجبل شمر ، وروايات في ذاكرة التاريخ . فالوهابية ليست مذهبا ، ولا طريقة ، بل حركة .. وقد كان حظها ، أن حركيتها لا تتجلى إلا عندما يعتنقها السعوديون .. ويدعون الناس الى تعاليمها ، تعاليم : **الاسلام والعروبة ..**

---

* تحالف سعود مع حاكمي مسقط والبحرين اللذين تدعمهما بريطانيا ، ضد أخيه عبد الله فاستدعى هذا تركيا التي احتلت الأحساء .

الملاحق

المحاولة الأولى

١ م ــ وقد كتب ابن خلدون حول هذه التفرقة بين ما نزل به الوحي ، وبين ما اجتهده صلوات الله عليه ، أو علمه من خبرة المجتمع الذي يعيش فيه ، فقال : « إن العرب كان لديهم أطباء معروفون مشهورون . والطب المنقول في الشرعيات هو من هذا القبيل ، وليس عن الوحي في شيء ، وإنما هو أمر كان عاديا عند العرب ، فانه صلى الله عليه وسلم إنما بعث لتعليمنا الشرائع ، ولم يبعث للتعريف بالطب ولا غيره من العادات ، وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الاحاديث الصحيحة على أنه مشروع ، فليس هناك ما يدل عليه ، اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك ، فيكون له أثر عظيم في النفع ويكون ذلك من آثار الايمان وليس من الطب » .

٢ م ــ وهذه قائمة بالاقتطاعات التي انتزعها الاستعمار الاوروبي من الجسد الاسلامي خلال الفترة من ظهور الحركة الوهابية إلى ظهور عبد العزيز آل سعود . أي ما بين التجربتين :

١٧٩٨ ــ ١٨٢٥ تمام اخضاع إندونيسيا وسومطرة .
١٨٢٠ ــ خضوع الساحل المتصالح لبريطانيا .
١٨٣٠ ــ احتلال فرنسا للجزائر .
١٨٣٤ ــ ١٨٥٩ ــ ضم روسيا للقوقاز .
١٨٣٧ ــ ١٨٤٧ ــ سحق الروس للثورة الاسلامية في وسط آسيا .
١٨٣٩ ــ احتلال بريطانيا لعدن .
١٨٤٢ ــ القضاء على استقلال السند المسلمة .
١٨٤٦ ــ ١٨٦٤ ــ إتمام اخضاع الروس لوادي سيرداريا .
١٨٤٩ ــ التوسع البريطاني في الهند الاسلامية من الشمال الغربي .
١٨٥٠ ــ ١٨٦٥ ــ احتلال الروس لطشقند .
١٨٥٧ ــ القضاء النهائي على امبراطورية المغول المسلمة في الهند .
١٨٦٦ ــ ١٨٧٢ ــ التوسع الروسي في منطقتي سمرقند وبخارى .
١٨٧٠ ــ دخول البحرين في الحماية البريطانية .
١٨٧٣ ــ ١٨٨٧ ــ إستيلاء الروس على بلاد الأزوبك (اوزبكستان) .
١٨٧٥ ــ ١٨٧٦ ــ احتلال الروس لمنطقة خوكند .
١٨٨١ ــ احتلال فرنسا لتونس .
١٨٨٢ ــ احتلال بريطانيا مصر .
١٨٨٥ ــ ١٨٩٠ ــ احتلال ايطاليا لأريتريا .
١٨٩٠ ــ احتلال فرنسا للسنغال أو « صنهاجة » .
١٨٩١ ــ ١٨٩٩ ــ احتلال فرنسا للنيجر وساحل العاج .
١٨٩١ ــ سقوط مسقط وعمان تحت الحماية البريطانية وكان قد سبقهما انتزاع زنزبار .
١٨٩٥ ــ ضم روسيا لمنطقة بايد .
١٨٩٨ ــ احتلال السودان .
١٨٩٩ ــ الحماية على الكويت .
١٩٠٠ ــ ١٩٠١ ــ الحرب البريطانية في الصومال ــ واحتلال فرنسا لتشاد .

١٩٠٣ ـ غزو نيجيريا ومعركة كانو .
١٩٠٦ ـ وضع سلطنات نيجيريا المسلمة تحت الحماية .
١٩١٢ ـ احتلال ايطاليا لليبيا .
١٩١٢ ـ احتلال فرنسا وأسبانيا للمغرب وطرد المسلمين من البلقان .
١٩١٣ ـ الاعتراف بسيطرة بريطانيا على قطر .
١٩١٤ ـ ١٩١٨ ـ فرض الانتداب على العراق وسوريا ولبنان وفلسطين من جانب بريطانيا وفرنسا .

٣ م ـ وقد لاحظ المحقق والعالم الفاضل الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ هذه المبالغة أو الحماسة في حديث أهل نجد عن حركتهم ، عندما قال ابن بشر في مقدمة تاريخه : « ثم إن هذا الدين الذي من الله به في آخر هذا الزمان على أهل نجد بعدما كثر فيهم الجهل والضلال » فقال في حاشيته قوله « ثم إن هذا الدين الذي من الله به آخر هذا الزمان على أهل نجد .. إلخ قد يتوهم الذي لم يعرف ماضي نجد وما كان عليه أهلها قبل ظهور دعوة التوحيد السلفية ، أن هذا شيء جديد ، والواقع أنه قديم لأنه الأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه ، ولكنه جديد بالنسبة إلى أهل نجد وما كانوا فيه من الضلال وعبادة الأشجار والأحجار قبل قيام شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب » . (انظر تعليقه على هامش تاريخ ابن بشر)

٤ م ـ بالنسبة للقب الامامة . نلاحظ أنه في فترات تألق الدولة السعودية ، لم يكن هناك كبير اهتمام باللقب ، فالشيخ ، من ناحية ، لم يلقب أبدا بالامام في أي مصدر معاصر له ، بل إن أولاده وتلاميذه اذا أرادوا إكرامه قالوا : « شيخ الاسلام » تيمنا بابن تيمية ، ومعارضة لشيخ الاسلام المزعوم في تركيا ، أو مصر فيما بعد .. بينما كان الشيخ « محمد عبده » يلقبه تلاميذه « بالامام » ، ولم تكن له أية سلطة ، وبعض المحبين يلقب الشيخ المراغي بالامام !! فالامامة إذا نسبت للشيخ أو غيره من علماء الدين ، فهي لا تنصرف بأي وجه إلى مفهوم « الامامة » في النظام السياسي الاسلامي . حيث « الامام » هو رئيس الدولة .

أما بالنسبة للأمير السعودي المتولي ، وإن كان المحدثون قد اهتموا باللقب كثيرا ، إلا أننا نلاحظ أن هذا اللقب لم يصبح لازمة في الحديث عن هؤلاء الأمراء إلا عندما أحاط الشك بسلطاتهم الحقيقية ، فابن بشر وإن ذكر لقب « إمام » أحيانا قبل اسم عبد العزيز بن محمد ، أو سعود الكبير ، إلا ان اغلب حديثه يرد بالاسم المجرد فيقول : « خرج عبد العزيز » أو « غزا سعود » . أما في الحديث عن فيصل ، وعبد الله بن فيصل ، وعبد الرحمن بن فيصل ، عندما تقلصت السلطة الفعلية ، ولم يبق إلا الرمز ، أو عندما اختلطت الأمور بعد وفاة فيصل (الذي كانت له مكانة دينية خاصة ، لما ذاع عن تقواه وكراماته) وأصبح هناك اكثر من أمير وبويع لأكثر من إمام ، فقد أصبحت التسمية تعبيرا عن رأي المؤلف أو المؤرخ في صاحب الشرعية ...

وبالنسبة لعبد العزيز ، فقد بدأ تلقيبه بالامام على نحو بارز بظهور حركة الاخوان وانتهى ذلك بزوالهم ، إذ تغلب لقب « الملك » أو « الشيوخ » أو « طويل العمر » وبمفهوم ان كل هذه الألقاب تعني الامامة ايضا ولكن الاخوان كانوا يحبون مناداته بالامام (انظر شرحنا المفصل لهذا الأمر) وبعد عبد العزيز لم يلقب أحد بالامام رغم جهود بعض منقحي التاريخ في الحديث عن الملك فيصل ، مثل ما كتبه أحمد عسه في معجزته ، إذ قال : « وهكذا نودي بسعود **ملكا** على المملكة العربية السعودية يوم وفاة المغفور له عبد العزيز » . ثم تحدث عن خلعه ووضع العنوان التالي : « مبايعة فيصل بالملك والامامة » . وتمت المناداة بفيصل بن عبد العزيز ملكا على المملكة العربية السعودية وإماما للمسلمين » ! ..

وهذا ليس تاريخا ، ولا حتى إعلاما .. فان كانت البيعة في السعودية بالملك والامامة فلابد أنها

تمت هكذا لسعود عند وفاة عبد العزيز بصرف النظر عن التطورات التي كانت في علم الغيب .

٥ م ـ قال الشيخ عبد الله بن يوسف الشبل الأمين العام لجامعة محمد بن سعود الاسلامية : « وقد استقبل أمير الدرعية الامام محمد بن سعود ، الشيخ استقبالا حسنا ، وعاهده على نشر الدعوة في اتفاقية ، عرفت فيما بعد **بمعاهدة** الدرعية ١١٥٧ هـ ـ ١٧٤٤ » م .

ولم يرشدنا إلى المصادر التي اعتبرتها معاهدة ! ولا حيثيات ذلك ! وهذا من الخفة في القول ، والخضوع لمؤثرات الغزو الفكري باطلاق مسميات حديثة وغريبة على أحداث تاريخنا ، أو محاولة تضخيم هذا التاريخ بالألقاب ، فقد كانت بيعة لله ورسوله ، وليست معاهدة ، ولا يوجد أي مصدر محترم سماها معاهدة ، وإن كانت أكبر وأقوى إلزاما من كل معاهدة .

ومن الخفة في القول وأخطاء التعبير قوله أيضا « كان من أهداف دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب **تصحيح** العقيدة الاسلامية » !

أستغفر الله ، لا شك أنها زلة قلم .. فالشيخ استهدف تصحيح **الممارسات** في عصره ، أما العقيدة فهي الكمال المطلق منذ أنزلت ، بل منذ سطرت في اللوح المحفوظ . ومن تمام إعجاز الكمال أن الله ييسر كل حين ، من عباده الصالحين أمثال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رضي الله عنه وعن آله من يصححون ممارسات المسلمين ، ويهدي الله بهم من يشاء .

٦ م ـ وقد أخطأ الريحاني عندما قال « إن أحفاد الشيخ ينقصهم شيء من المرونة العقلية والروحية ، يعادون عبثا سنة التطور والعمران » .

وبالطبع هناك خلاف جذري بين مفهوم الريحاني للمرونة والتقدم ، ومفهوم آل الشيخ . أما إذا كان الحديث عن التقدم بمعناه الصحيح فقد عجز الريحاني وغيره عن ذكر حادثة واحدة وقف فيها آل الشيخ ضد التقدم الذي يحض عليه الدين ، ويقوي المجتمع الاسلامي . أما القول بأنهم يقاومون عبثا سنة التطور . فان تاريخهم وإنجازات دعوة جدهم ، تؤكد خطأ الريحاني ، فمقاومتهم لما يصفه الغرب والمتغربين بأنه « سنة التطور » لم تكن عبثا ، إلا لما ضاق الريحاني بهم ذرعا . وما حققه « آل الشيخ » في حقل التعليم الحديث على سبيل المثال ، يفوق ما تحقق في أي بلد عربي نفطي أو غير نفطي . رغم كل الظروف المعاكسة ، والتي لا يشكل الجمود عنصرا أساسيا فيها .

٧ م ـ أما مؤلف صقر الجزيرة فقد أخذ برواية ابن بشر عندما وعد الشيخ « عثمان بن معمر » بامتلاك نجد فقط : « إني أرجو إن قمت بنصرة لا اله إلا الله أن يظهرك الله تعالى ، وتملك نجدا وأعرابها » . أما عند الاجتماع بمحمد بن سعود ، فقد كان الوعد أعم وأقرب إلى المنطق : « هذه كلمة « لا إله إلا الله » من تمسك بها وعمل بها ملك البلاد والعباد » .

فالشيخ قد أغناه الله عن كذب المؤلفين عليه وعلى التاريخ وعلى حدود الجزيرة العربية ! ..

٨ م ـ ورغم حماسة أمين الريحاني للوهابيين بحكم اتصاله بسلطانهم ، إلا أنه لم يستطع أن يتحرر تماما من رواسب ميراثه كمسيحي لبناني غربي الثقافة والمقاييس ، فهو يعتقد أن رجوع الشيخ « إلى الكتاب والسنة جعله يصطدم بآيات وأحاديث نبهت فيه نعرة الأقدمين ، فحرض على الأعمال التي شوهت ـ في الماضي ـ كل دين » .

ليس في رجوع الشيخ إلى الكتاب والسنة ما يفسر بعض « المزعجات » التي ضايقت الريحاني ، بل بصرف النظر عن خلافنا حول هذه المزعجات ، فان معظمها يرجع إلى تخلف عصره ، وإلى قانون الانهيار العام ، أوكما قال علي بن أبي طالب : « لأنني خليفة على مثلك وهم كانوا خلفاء على مثلي » .

كذلك أخطأ الريحاني عندما قال : « قد جد الشيخ محمد واجتهد في نفع الناس ، ولكنه رآهم وأكثرهم من البدو لا يفقهون دقيق الكلام ، ولا يساقون بالبرهان ، فقال بالجهاد » .

هذا « الاعتذار » من « الصديق » الريحاني مرفوض بالطبع ، فالجهاد مبدأ أساسي من مبادىء الاسلام ، ولكنه لا يأتي إلا بعد توفر المؤمنين بالبرهان ، وتفقههم بدقيق الكلام . فالجهاد كان نتيجة محتومة لدعوة الشيخ بمجرد كونها دعوة لاتباع تعاليم الاسلام . والشواهد التاريخية تؤكد ذلك ، فزوجة محمد بن سعود ، أو أخته ، بشرت أخاها بالشيخ باعتباره « خيراً ساقه الله إليك » ، وهو بدوره عندما بايعه الأمير « بشره **بالفتوح** والغنائم » . والروايات متعددة عن حدود البشرى ما بين الوعد بملك الجزيرة ، أو ملك العرب .. والمسلمين ، وما كان يخطر ببال الشيخ أو الأمير أن ذلك سيتم بالاقناع الفردي لكل بدوي أو مسلم .. وليس في التاريخ على أية حال حركة سياسية أو عقائدية سادت سلميا بالاقناع الفردي والحجة والبرهان ! فالجهاد لم يكن غائبا ، ولا كان يمكن أن يغيب عن فكر الشيخ وحركته ، وقد أسلفنا القول أن الذي يطلق السهم الأول ليس بالضرورة الساعي للقتال ، أو المنتصر فيه . كذلك ليس دقيقا القول بأن محمد عبد الوهاب ، قد نفخ في البدو « روحاً قومية عظيمة ، تلك الروح القومية التي مكنتهم ، وهم محصورون في بواد من الرمال في قلب البلاد العربية من التوسع والاستيلاء » .

لا الشيخ لم يطرح دعوة قومية ، حتى وإن كان ذلك يسر القارىء في العشرينات ؛ سنوات الشبق القومي ، وحتى — وهو الأهم — إن كانت حركته قد طرحت فعلا كأول تحرك عربي ، أول حركة عربية خالصة ، نقية الجذور ، غير مستوردة ، إلا أن ذلك كان نتيجة للروح الاسلامية ، فالروح القومية والوطنية هي نتائج طيبة للايمان الاسلامي ، ولكن المنطلق القومي المنعزل أو المعادي للاسلام ، منطلق عقيم ..

٩ م — الدكتور العجلاني شديد الحرص على نفي تهمة التحريض على قتل تويني ، عن الامام سعود بن عبد العزيز ، ولذا يهاجم عملية طعيس ويصف بيعته بالمغامرة ! بل ويقول عن طعيس نفسه إنه شخص مغمور ! ليكن .. ولكنه عند الله مبرور ان شاء الله ، وقد خلده شعبه بأن ضرب المثل ببيعته ، وقيل فيه الشعر ، ولا نرى أية غضاضة من أن تدبر قيادة الأركان في الجيش السعودي عملية اغتيال قائد جيش العدو ، والنبي صلى الله عليه وسلم أرسل فرقة إغتيال لتنفيذ عملية ضد عدو . وليس من الضروري أن يتم الأمر مع سعود شخصيا . المهم أنه لا معنى لنفي هذه العملية الممتازة التي تستوجب الاعجاب على كافة المستويات .

والشعر الذي قيل في حادثة طعيس هو :

برب طعيس ، لا طعيس ، تقشعت	سحائب رجز بالمنايا لها شر
تقاسمتم الاحساء قبل منالها	فللروم شطر والبوادي لها شطر
تعستم فهجر* دونها خطة البلى	ودون حماها يقطع الهام والنحر
فلله فتح طبق الأرض صيته	وهزت به البلدان وارتعدت مصر**

١٠ م — على أية حال الشيخ في رسالته للسويدي ينفي اتهامه بأنه « يكفر جميع الناس إلا من اتبعني » ، « وأزعم أن أنكحتهم غير صحيحة ، يا عجبا كيف يدخل هذا في عقل عاقل ! هل يقول هذا مسلم أو كافر ، أو عارف أو مجنون ؟ » .

---

* هجر هو اسم قديم لاقليم الاحساء او المنطقة الشرقية كما تسمى الان .

** مصر برضه !؟.. لا حول ولا قوة إلا بالله !.. الحق على القافية . (واضح ان الشاعر لا يقصد مصر المحروسة)

وكذلك قولهم إنه يقول : « لو أقدر أهدم قبة النبي صلى الله عليه وسلم لهدمتها . » ، « وأما التكفير فأنا أكفر من عرف دين الرسول ، ثم بعدما عرفه سبه ونهى الناس عنه ، وعادى من فعله ، فهذا الذي أكفره ، وأكثر الأمة ولله الحمد ليسوا كذلك » .

ولا شك أن الشيخ لم يكن يجامل ، ولا يخفي ما يعتقد ، بل كان يستند إلى فتاوى العلماء في قتال أهل القبلة « ولكن لابد من الاعتراف بأن تعاليمه في التطبيق كانت قريبة من اتهامات خصومه هذه ، فقد استحلوا دم ومال مخالفيهم ، واستتابوهم ، ودعوهم للاسلام ، واعتبروا أن دخولهم في الدعوة ، هو دخول في الاسلام يحرم مالهم ودمهم ، ومعروفة قصة : « وليش تبشي يا تسافر ؟ » أو لماذا تبكي يا كافر « التي قيلت للشيخ الشيباني سادن الكعبة ، وكيف استطاع أن ينقذ حياته بالاقرار بأنه كان سيموت على الكفر لولا أن أدركته هداية الاخوان .

كذلك تجنب الشيخ الاجابة على السؤال الذي تحرج منه العلماء ، وهو قبة قبر النبي صلى الله عليه وسلم .. لماذا استثناها ؟.. واكتفى بفهم محاوره !.. وهو إذا كان يسلم بأن أكثر الأمة ـ والحمد الله ـ ليست كافرة إلا أن اتجاه الأحداث وسلوك المتحمسين من الأتباع ، قد عكس الاحساس بأن الاسلام قد عاد غريبا ، وانحصر فيهم . وكلها قضايا لم تبرز تناقضاتها في حياة الشيخ ولكن بذورها ستبقى في أحشاء الحركة تتفجر في الأزمات ، وكلما واجهت الدعوة تحديا جديا .

١١ م ـ ولا أدري لماذا حرص مؤلف « صقر الجزيرة » على تأكيد صفة الشيعية على المقاتلين والقتلى في معركة كربلاء .. « فحدث بين جنده وبين رجال المدينة الشيعيين قتال في الأسواق والطريق ، ذبح فيه من هذا الفريق عدد عظيم ، وبعثرت جثث القتلى على الأديم »!

إن كتابة التاريخ إذا لم تلتزم بهدف ، فعلى الأقل يجب أن تلتزم بالواقع ، ولا تضيف إليه بعدا لم يدركه ولا عناه صناع التاريخ المحكي عنهم .

أما الدكتور عجلان فقد أخذ بنفس الرواية ، وزاد عليها النقل الحرفي لما كتبه الدساسون الأجانب الذين أسهبوا وأطنبوا في تأكيد الجانب الشيعي ، دون تعقيب من الدكتور المبتعث ، إلا في الهدف المالي للغزوة ، مع أنه هدف مشروع ومعقول . نقل الدكتور عبارات « كورانشير » الذي بدوره يبدأ بمقدمة تاريخية أولها « الامام الحسين هو ابن علي وسبط النبي » حتى يصل إلى « وقد جرت العادة أن يحتفل الشيعة كل عام بعيد (علي) ويحجوا إلى ضريحه الذي يبعد خمسة أميال من مشهد الحسين ، وفي يوم الحج ... » ، « ويقدر عدد الضحايا خلال يوم واحد ، بثلاثة آلاف ! » ، « أما السلب فكان فوق الوصف » ولا ينسى أن يعطي الحادثة بعدا عنصريا كريها فيقول : وصلت أنباء هذه الغزوة الهائلة إلى فارس فهاج الناس وماجوا وطلب الشاه من والي بغداد ، الاسراع بتجهيز حملة تأديبية ضد الوهابيين ، وأنذره بأنه سيسير بنفسه لتأديبهم عبر العراق ! ولا يكتفي الدكتور بذلك بل ينقل لنا عن زويمر « ويقال أن المقيم البريطاني « سير بريدجس » جمع أموالا وافتدى بها مائتين من أسرى العجم وأعادهم إلى بلادهم » .

هوراه ! ارفعوا القبعات تحية لبريطانيا حامية الشيعة من السنة . والعجم من العرب !

وقد ذهب فيلبي إلى أن ما جرى في كربلاء على يد جيش سعود الكبير كان بداية تحول الرأي العام ضد الوهابية مما سيكون له آثاره المروعة على الدولة الوهابية ، وهو تفسير غير دقيق ، فلم يكن لها هذا الأثر الذي يزعمه ، فقد بقيت الدولة السعودية بعدها ما يقرب من عشرين عاما حتى أسقطتها مدفعية « السنة » التركية !

١٢ م ـ ورغم ما تجشمته الدولة السعودية من نفقات ، لابتعاث الدكتور العجلاني لتسويق الوثائق ، ورغم ادعائه أنه أول من جمع وثائق تركية (انظر قصة هذه الوثائق في مقال السيد محمد امين التميمي

المستشار بدارة الملك عبد العزيز حيث قال في مجلة الدارة (عدد يونية ١٩٧٥) بالحرف : وأعود للوثائق لأقرر إقرارا للحق ، ووضعا للأمور في مواضعها ، أن الوثائق التركية التي نشرها الدكتور منير العجلاني في كتابه تاريخ البلاد العربية السعودية ، الجزء الاول ــ القسم الرابع والاخير ، عن عهد عبد الله بن سعود ، أنا الذي اعطيتها إليه برغبته وبأمر معالي وزير المعارف ليطلع عليها ويقتبس عنها ،وكانت ضمن أول مجموعة أحضرتها من تركيا في أول انتداب لي اليها .وليس صحيحا ما ذكره في الصفحة ٢٨ من كتابه ذاك من زعمه أنه أول مؤلف عربي كشف عن الوثائق العربية والتركية المحفوظة في استانبول مما يتصل بالتاريخ السعودي ، أو أن معالي وزير المعارف أخذ برأيه فبدأ ينتدبني لبحث الوثائق وتصويرها » . المهم رغم تباهي العجلاني فقد فاتته وثيقة على جانب كبير من الخطورة هي تقرير الوالي علي باشا إلى الآستانة حول مصرع الامام عبد العزيز مما جعله يتخبط في روايات دوحة الوزراء « القاتل هو ملا عثمان وهو افغاني » وفي التاج المكلل أنه فارسي الأصل من جيلان والذي حرض عليه هو ملك العجم ، « وهي الرواية التي رجحها الدكتور لأن سندها الصحيح « ثبت عن مانجان »! ص ٢٠٦ــ٢٠٨ وبالطبع الوثيقة التي كشفها الأستاذ التميمي ترجح ذلك كله .

وإذا كان التميمي قد طعن في أولوية الدكتور من ناحية الوثائق التركية ، فقد أثبت له الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ أولوية أخرى . قال الشيخ : « ذكر الدكتور منير العجلاني في كتابه تاريخ البلاد العربية السعودية ، جزء (١) ص ٣١٥ ، أن لسليمان بن عبد الوهاب كتابا عنوانه : « حجة فصل الخطاب من كتاب رب الارباب وحديث رسول الملك الوهاب وكلام أولى الالباب » إلى آخر العنوان الطويل الذي أورده الدكتور . وهذا الكتاب غير مشهور ولم **نسمع** به من غير الدكتور العجلاني » !!

وقديما نصح أبو الأسود الدؤلي ابن أخيه « الدكتور » بأن يواري كل لفظ لم يسمعه عمه كما تواري السنور خرأها !..

١٣ م ــ من العجيب أن أحدهم استنكر تلقيب « سعود » بالكبير ربما منافقة لأنه ليس الجد المباشر للعائلة الحاكمة ! فهو يصفه بأنه كان ذكيا وعبقريا ! وقد فتح العبقري الجزيرة ووحّدها وحكمها فلماذا لا يلقب بالكبير ؟! هذا اذا اقتصر الأمر على الفتح ، وهو ما اعتاد المؤرخون خلع لقب « الكبير » به وحده ؟!... فما بالك وقد شهد هو نفسه بأنه كان في مقدمة علماء زمانه في التفسير والحديث والفقه وغير ذلك من العلوم العربية ، وكان إلى ذلك خطيبا بارعا ومحدثا رائعا !

ماذا بقي لكي يوصف الحاكم بالكبير ؟

السن ؟!.. لقد عاش ما يقرب من سبعين عاما !! أم يا ترى سقط حقه في اللقب لانه هزم ؟ إذا لا يستحق نابليون ولا هانيبال ولا روميل ولا أحد بأن يوصف بالكبير إلا الاسكندر المقدوني .

لقد شهد الريحاني ، المصدر الاساسي لأمثال هذه الدراسات بأنه استحق اللقب لأنه خص بالكثير من تلك السجايا « متواضعا في حكمته ورعا ، وفي عدله حكيما ، وفي سياسته جامعا بين المرونة والمضاء » (وقد نفي عنه الدكتور اياه المرونة ، ونحن نؤيد الريحاني لأن المرونة لا تعني التفريط في الأساسيات) ويكمل الريحاني : « وأضف إلى ذلك ذكاء لم يكن عاديا ، ولم يقف به عند حد السياسة ، فقد كان مولعا بالعلم محبا للعلماء والطلاب »!

أما ابن بشر الذي اتهم سعود بأن كرم أبيه قد فاق كرمه ، فقد شهد لسعود أيضا بأنه كانت له « الهيبة العظيمة التي ما سمعنا بها في الملوك السالفة »، أما أن ملوك الأقطار « لا تتجاسر على مراجعته الكلام ولا ترمقه بأبصارها إجلالا له وإعظاما » فلم تتح الفرصة لامتحان صدق ابن بشر إذ لم يجتمع بأحد من هؤلاء حتى نعرف سلوكهم في حضرته ! وكذا قول الريحاني أنه « لم تهزم له راية » ليس دقيقا حرفيا ، لأنه قبل ان يموت كان قد خسر الحجاز أو الحرمين على الاقل

على اي حال لقد ميزوه بالكبير عمن حمل نفس الاسم من امراء العائلة .

١٤ م ـ ولكن بعد قرن ونصف قرن سيظهر في السعودية كاتب يخشى التهمة فيحاول تفنيدها قائلا : « قد كنا نسمع أن الامام الشهيد عبد الله بن سعود أخذ النفائس والتحف والجواهر من الحجرة النبوية فعبث بها (!) كان هذا هو الخبر الذي ذاع وشاع بين الناس فظنوا إنه الصدق . وحين قرأنا الكلمة المكتوبة ، كتبها المؤرخ المنصف العاشق للحقيقة ، الجبرتي ، فدون الكلمة التاريخية ، يقول إن الشهيد ـ وهذه تسمية الجبرتي له ـ قد سلم النفائس والجواهر لمحمد علي باشا ، وتبعه في ذلك بالكلمة المدونة المؤرخ المصري محمد رفعت ، فبهذه الكلمة المدونة ، زهق الباطل الذي أشاعه الخبر . لكن الخبر كان قوي التأثير فوجدنا صعوبة في تصديق الكلمة المدونة بكذب الخبر حتى جاءت الوثائق بلغة تركية فوجدنا إنصافا للامام الشهيد وإبرازا للحقيقة نقطع بها دابر الخبر المكذوب » .

أي خبر ؟!

أولا ، لا أحد اتهم الامام الشهيد بأخذ النفائس ، بل التهمة موجهة لسعود أبيه .

ثانيا ، القضية لم تكن يوما ما هي مصير المجوهرات ، وكم بقي منها ، وكم سلم لمحمد علي ... فهذه مهمة لجنة جرد وليست مهمة مؤرخين ، ولا بالتي تشغل بال المفكرين المسلمين ... القضية هي : هل يجوز لحاكم مسلم أن يقتحم « الغرفة النبوية » ـ كما تسمى ـ ويأخذ أو يصادر ما وهبه المسلمون « لرسول الله » ، أو ما وضعوه تحت حرمة المكان ؟!

هذه هي القضية .. فلماذا نقفز فوقها بالهتاف بأن المفقودات قد ردت ؟! القضية قضية مبدأ ، وقد أفتى فيها الرجال منذ عصر محمد بن عبد الوهاب . ألا يحق لنا أن نقول إن الجبرتي كان أقوى حجة وأكثر إقتناعا وإقناعا ، وهو أيضا يتفق مع وجهة نظر الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ ، فالشيخ يقول : (... واما التجاسر على حجرة رسول الله ـ يشير إلى المال الذي استخرجه سعود من الحجرة الشريفة وصرفه في أهل المدينة ومصالح الحرم ـ فانه ، رحمه الله لم يفعل هذا الا بعد أن أفتاه أهل المدينة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، فاتفقت فتواهم على انه يتعين ويجب على ولي الامر إخراج المال الذي في الحجرة وصرفه في حاجة أهل المدينة وجيران الحرم ، لان المعلوم السلطاني قد منع في تلك السنة واشتدت الحاجة والضرورة الى استخراج هذا المال وانفاقه ، ولا حاجة لرسول الله الى ابقائه في حجرته وكنزه لديه ، وقد حرم كنز الذهب والفضة وأمر بالانفاق في سبيل الله ، لا سيما إذا كان المكنوز مستحقا لفقراء المسلمين وذوي الحاجة منهم كالذي بأيدي الملوك والسلاطين ، فلا شك أن استخراجها على هذا الوجه وصرفها في مصارفها الشرعية أحب الى الله ورسوله من إبقائها واكتنازها ، وأي فائدة في ابقائها عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأهل المدينة في أشد الحاجة والضرورة اليها . وتعظيم الرسول وتوقيره إنما هو في اتباع أمره والتزام دينه وهديه فان كان عند من أنكر علينا دليل شرعي يقتضي تحريم صرفها في مصالح المسلمين فليذكره لنا .

ولم يضع هذا المال أحد من علماء الدين الذين يرجع اليهم ، وليس عند هؤلاء إلا اتباع عادة اسلافهم ومشايخهم .)

وفي آخر الزمان جاءنا الدكتور العجلاني ليجلس على كرسي الاستاذية فينتقد الجبرتي والشيخ عبد اللطيف وسعود حول موقفهم من الذخائر النبوية ، أو ما كان في الحجرة النبوية من مرصودات ..!

سعود لأنه لم يمهد الرأي العام لذلك !.. « إذا كان ينبغي له أن يمهد لعمله بشرح مقاصده للرأي العام » ، « ثم كان عليه أن يبعد نفسه عن الشبهات بتسليم الكنوز إلى رجال أمناء يتولون بيعها وصرف أثمانها في المصالح العامة ، وبذلك يدرك كل إنسان خلوص نيته » .

لو كان الجبرتي حيا ، واضطر لاثبات هذا النص ، لأتبعه بعبارة من عباراته التقليدية من طراز « وغير ذلك من بارد القول » أو « وغيره من الخور » .

كيف كان بوسع « سعود » أن يمهد الرأي العام لهذا العمل ؟! وأي رأي عام ...؟ هل كان سيكسب الرأي العام التركي ، إذا قال إنه لم يأخذ هذه الكنوز إلا ليبيعها وينفق ثمنها في محاربتهم ؟! أم سيكسب الرأي العام المعادي لحركته أصلا إذا ما قال لهم إنه انما يريد التقوى عليهم لاجبارهم على الدخول في طاعته ؟!

الرأي العام صدمه الموقف ، مهما كانت تبريراته ، فهذا تراث حب المسلمين لنبيهم ، وهذه « حرمة » « القبر » ونهب » مال النبي » وحتى المتنور منهم ، لم يكن موقفه ليفضل موقف سلطان المغرب الذي قال للسلطان العثماني الذي أراد أن ينفق على مقاتلة الروس ، فاسترد بعض الجواهر التي تزين مصاحف عثمانلية أهديت للمسجد النبوي ، فقال السلطان المغربي : « إن هذا الفعل وإن لم يكن في نفسه ردية . إلا أنه ما كان دأبا للملوك والأمراء .. خوفا من القصور في الأدب والاحترام » .

فمع التسليم بأن أخذ المال لانفاقه لصالح المسلمين ، ليس سيئا في حد ذاته ، إلا أنه يخشى أن يصبح عادة ، فتمتد إليه يد الملوك والولاة بحجة الصالح العام . وكرهه ملك المغرب دفعا لشبهة التقصير في الاحترام والأدب الواجب لرسول الله .. والابن على سبيل المثال ــ لا يبيع ما أهدى لأبيه ، وهذا التحرج ... يحتاج لقناعة بالفكر الوهابي ، حتى يمكن إزالته . فالفكر الوهابي يرى أن القبر لا يعني رسول الله ، وأن الموتى لا ملكية لهم ، وحرمتهم لا تمتد للماديات ، كذلك لا تتأثر الحرمة والمكانة بثراء القبر أو فقره . فوضع المال عند القبر توددا لرسول الله ، عمل مرفوض من الوهابيين ومن ثم فلا تقصير في حق رسول الله وحرمته . ولكن الذين خارج الحركة الوهابية لم يكن من الممكن إقناعهم بهذه التفسيرات فالعامة اعتبروها عدوانا على حرمة النبي ، والمثقفون اختلفوا حولها باختلاف موقفهم من الحركة ، الذين مع السعوديين ، أيدوا العمل وأفتوا بمشروعيته ودافعوا عن الفعل (وإن كنا لا نعرف كاتبا أو عالما من رجال الدين ، غير الجبرتي، أثبت هذا الموقف في حينه)

واستشهاد الجبرتي بالآيات والاحاديث ، لا يعني أنه اغفل الجانب السياسي ، فلم تكن قد ظهرت بعد بدعة اشتراط جهل السياسيين والمؤلفين ، بالقرآن والسنة ! ولم يستطع الدكتور ــ إياه ــ بعد قرن ونصف قرن ، أن يضيف حرفا سياسيا لدفاع الجبرتي ، أما حديثه عن الصالح العام وضرورة التوعية وتشكيل « لجنة مصادرات » تتولى الانفاق على الصالح العام وتقدم كشف حساب للجنة !.. فهو مجرد ثرثرة ساقعة !

الجبرتي حلل القضية باسلوب علمي ، لم يستطع أي كاتب ، مهما كانت حماسته للسعوديين ، أن يضيف إليه نقطة واحدة جديدة ، ودفاع الجبرتي ليس فتوى دينية ، بالمعنى الذي يحاول الدكتور معايرة شيخ المؤرخين به . بل هو تحليل تاريخي سياسي ديني .

قال الجبرتي :

١ ــ هذه الاموال وضعها الملوك والسلاطين « الأعاجم » « سخاف العقول »

فهو ضد المبدأ من أساسه ، بل ويشير هنا إلى نقطة في غاية الأهمية والعمق ، مما يجعلها عسيرة على فهم الدكتور بالطبع ، ألا وهي « أعجمية » الملوك والسلاطين . فعبادة الموتى أو تقديسهم ، ووضع الاموال والتحف في القبور والمغالاة في القبور عادات أعجمية دخيلة على العقلية العربية التي تؤمن بأن « خير القبور الدوارس » .

٢ ــ بعض هذه الأموال وضعت من أجل الدنيا ، وليس من أجل الآخرة ، ووضعت بدافعين : إما الأنانية البشرية ، وذلك لحرمان ورثتهم منها .

أو لمواجهة المستقبل ، فتكون محفوظة في مكان أمين بعيدا عن فساد الملك أو عدوان المغتصبين ، وللاستعانة بها عند الحاجة ، وبالذات في الجهاد » فتكون كالرصيد أو الاحتياطي العام الذي تحتفظ به الدول .

٣ ــ ولكن بمرور الزمن ، وتدهور المفاهيم ، والقانون العام الذي يحكم تكون الاسطورة ، تحولت

هذه الأموال إلى مقدسات تأمل قوله « فلما تقادمت عليها الأزمنة ، وتوالت عليها السنون والأعوام الكثيرة وهي في الزيادة ، ارتصدت معنى لا حقيقة ، وارتسمت في الاذهان حرمة تناولها وأنها صارت مالا للنبي صلى الله عليه وسلم . فلا يجوز أخذها ولا إنفاقها » .

ثم يرد على ذلك بما هو معروف أن النبي منزه عن كنز المال وامتلاكه ، ومن زهد في الدنيا وهو حي لا يبغيها ولا ينتفع منها وهو في رحمة الله .

٤ ـ ليست هناك قدسية للمال ، بل إن الاستثمار الأمثل له هو إنفاقه في هذه الدنيا ، « فالمال أوجده الله سبحانه من أمور الدنيا وليس من أمور الآخرة ».

٥ ـ محبة الرسول تكون بتصديقه واتباع شريعته وسنته ، لا بمخالفة أوامره وكنز المال بحجرته وحرمانه مستحقيه .

٦ ـ ثم ينتقل إلى ما يعتبر عبقرية سياسية ، ووعي مبكر بأبعاد إحدى المشاكل الرئيسية التي كانت تدمر الدولة العثمانية ، وتقضي على سيادتها هي وغيرها من الدول الاسلامية ، مثل ايران ، والمغرب ألا وهي مشكلة القروض الاوروبية لتمويل الحرب ضد العدوان الأوروبي . فان قيل إن هذا المال مدخر « ليستعان به على مجاهدة الكفار والمشركين عند الحاجة » .

« قلنا : قد رأينا شدة إحتياج ملوك زماننا واضطرارهم في مصالحات المتغلبين عليهم من قرانات الافرنج ، وخلو خزائنهم من الأموال التي أفنوها بسوء تدبيرهم وتفاخرهم ورفاهيتهم . فيصالحون المتغلبين بالمقادير العظيمة بكفالة أحد الفرق من الافرنج المسالمين لهم ، « ولم يأخذوا من هذه المدخرات شيئا » ، « بل ربما كان عندهم أو عند خوندانهم جوهر نفيس من بقايا المدخرات فيرسلونه هدية إلى الحجرة »..إلخ .

« ملوك زماننا » بسوء تدبيرهم ، وإتلافهم ، والبذخ الشرقي المدمر افتقروا للأموال ، فاذا حاربوا الكفرة وانهزموا ـ كما هي العادة ـ فرضت عليهم الغرامات الوحشية ، فيقترضونها من الكفرة الآخرين المسالمين في هذه المرة ، فيرهنون اقتصاد المسلمين ، وسيادتهم بحجة احترام قدسية هذا المال المرصود بلا فائدة في الحجرة النبوية !

كل هذا التجلي ، من الجبرتي ، لا يتضمن سياسة !.. كل هذا المنطق من مؤرخ نصب نفسه للدفاع عن أصعب موقف ، دون أية مصلحة لتوريط نفسه في ذلك ، إلا قناعته وشرف مواقفه . ثم يتطاول عليه من لم يجد ما يدافع به إلا القول بأن ما أخذه سعود الكبير كان أقل مما شاع وذاع .. « ولكن القول بأنها ثمينة جدا كلام مبالغ فيه » .

لم يقل لنا ما هو المبلغ الذي يعاقب عليه القانون ؟!

١٥ م ـ أليس من المؤسف أن يكون هذا وعي الجبرتي وفهمه لأهمية العقيدة والسلوك . بينما في دراسة حديثة ، نجد المؤلف قد استهواه الحديث عن التكتيكات العسكرية ، وفي آخر البحث يضيف هامشا صغيرا يقول : « إلا أن الجبرتي ذكر في تعليل هزيمة طوسون بأنها تعود إلى بعد عساكره عن الدين » !إن لم يصلح هذا في تعليل هزيمة طوسون فكيف تعلل انتصار السعوديين ؟!

١٦ م ـ تجدر الاشارة إلى التطور الذي أصاب الأزهر في الفترة ما بين تألقه في مقاومة الحملة الفرنسية ، ثم قهره بسطوة محمد علي وألاعيبه في تفرقة قيادته .. وقد أثبت الرافعي سفر « أربعة من الشيوخ مع الحملة الاولى وهم أحمد الطحطاوي الحنفي ، والشيخ محمد المهدي الشافعي ، والشيخ الخانكي المالكي ، والشيخ المقدسي الحنبلي . وكان من المقرر سفر حسن كريت نقيب أشراف رشيد الذي كان له شأنه في مقاومة الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ ، والشيخ علي خفاجي من علماء دمياط. ولكنهما اعتذرا عن مصاحبة الحملة فأعفيا من السفر » . (عصر محمد علي ـ الرافعي ص

١٣٣) . ولا يتوقف الرافعي ليعلق أو يستنتج شيئا من رفض بطل مقاومة الحملة البريطانية ، السفر بصحبة عسكر الباشا لضرب الحركة الوهابية .. ألا يعني ذلك أن الوطنيين المصريين كانوا يعارضون هذه الحملة ، وربما رأوا في الحركة الوهابية ، عملا متمما لما قاموا هم به في صد الغزو البريطاني ؟!

١٧ م ــ هو الفقير لله تعالى راشد بن علي الحنبلي ، وألف كتابه بايعاز من « عبد الله بن عبد الله الثنيان » الذي استولى على الحكم في الرياض فترة ما بين مصرع تركي وعودة فيصل ابنه من مصر . وهو عبد الله بن ثنيان بن ابراهيم بن ثنيان بن سعود بن محمد . وعبد الله (الثاني) ابنه الذي أوعز بتأليف الكتاب سافر للآستانة وأصبح باشا هناك وأنجب أربعة أولاد عبد القادر واحمد وسعود وسليمان . أحدهم عمل مع الملك عبد العزيز خلال حروبه ضد الترك واستقال بعد اتفاقية العقير ، والباقون كانوا ضباطا في الجيش العثماني . وقد تزوج الملك فيصل ابنة عبد الله وهي الملكة عفت والدة الأمير سعود الفيصل وإخوته .

١٨ م ــ فقد زعم محمد علي في رسالته إلى « حضرة صاحب الدولة والعناية والأبهة والرحمة الزائدة والشفقة ولي النعم علي الهمم ورحيم الشيم أفندينا أدامه الله بالعز والاقبال وحفظه وأبقاه » زعم أنه استشار نفرا من أشراف مكة وعقلائها بخصوص إنهاء هذه المصلحة الحجازية فتبين (أفندينا) أن أساس ظهور قضية الوهابيين هذه ترجع إلى تسعين سنة مضت ، وهي مادة وقضية عظيمة جسيمة . وقد أفاد هؤلاء الأشراف والعقلاء (وهذا هو المهم) خطابا لعبدكم هذا العاجز : أن حل هذا الأمر متوقف على إناطة أمر إيالة الشام بذمتكم على كل حال ، وذلك لأن أعظم أسباب إنهاء هذه المشكلة تنحصر أولا بالوسائط النقلية كالجمال مثلا ، والكثير منها لا يوجد إلا في جوار الشام لدى عربان عنيزة المخيمين هناك ، وأنه بالامكان تدارك العدد اللازم من الجمال من هذه القبيلة ، إما شراء أو كراء وهذا متوقف على أن يناط أمر إيالة الشام بكم » (الأشراف مازالوا يخاطبون محمد علي وهو ينقل كلامهم) . هذا ما أفاده هؤلاء مؤيدين ما ذهبت إليه ومصدقين اعتقادي المتواضع ، وإن واقع الحال وهو على ماذكر ، يظهر بأنني لم أكن قادرا على التعبير بجلاء ووضوح فيما سبق من كتاباتي وعرائضي » .

ربما ولكن السلطان فهم تماما مراد محمد علي : لمواجهة المسألة الحجازية لابد من جمال الجمل سفينة الصحراء والجمال عند عنيزة في الشام ، ولذلك لا بد من ضم ولاية الشام إلى باشا مصر والحجاز !.. وهذا ليس رأي محمد علي وحده ، بل رأي الأشراف ..!..

ولابد ان رد الباب العالي كان قاسيا ، حتى أن محمد علي دبج بقية الرسالة في الاعتذار وتأكيد اعترافه بفضل السلطان ... ثم إعلانه ان الحاجة إلى ولاية الشام قد انتفت (وهو يتحرق شوقا اليها ، ويعد للموت في سبيل الحصول عليها) « وهكذا والحمد لله ثم الحمد لله ، لم تعد هناك حاجة للتوجه إلى الشام وجهاتها ، بعد أن تذوق كافة أمراء الوهابيين وقبائلهم وعشائرهم **فيما عدا الموجودين بالدرعية** طعم حسام حضرة الذات الشاهانية سالب الحياة » « وقد ينتقل ذلك ويسري إلى أولادهم أيضا الذين سيظلون بعد اليوم مع الجميع من وهابيين وغيرهم حتى ولاية مسقط يذكرون أسم حضرة صاحب الشوكة الخليفة الأعظم ... إلخ » .

ثم يصل النفاق إلى مستوى يفوق حتى قدرات رجال البلاط العثماني ، بل تفوح منه رائحة النكتة أو القافية المصرية ... عندما يؤكد محمد علي أنه هو وأولاده لخبطوا ، لكن بركة السلطان كانت أكبر : « وأنا أقسم بالله العظيم أن تدابير حركتنا المتخذة هذه المرة لم تكن مستندة إلى قاعدة حربية ، بل كان يشوبها الضعف ، وقد نجحت بفضل قوة سعد وإقبال حضرة أفندينا صاحب الشوكة ، وهذا مما لا شك أو شبهة فيه »..

وبعد هذا النفاق ، أو قل في طياته ، يدس التهديد ، بأنه كان بوسعه القضاء على الحركة بالاستيلاء على الدرعية ، خاصة وأن نفسية المدافعين عنها متدهورة يتبادلون الاتهامات ..
« فيقول الواحد هذا سببه أنت ، ويجيب الآخر كلا بل السبب هو أنت » ، « وبعون الحق لو أننا حصلنا على مجموعة من الجمال ، لكنا سارعنا خلال هذا الموسم بالزحف مباشرة على الدرعية » .. « ولكن ما الفائدة إذ أنه لم يبق لدينا جمال ، فمن الاوفق عدم السير إلى الدرعية ».
ما قلت لك يا سلطان هات الشام وخذ الدرعية !!
ثم يبلغه أنه سينسحب هو وابنه إلى مصر .. « لتبديل الهواء » مع الانذار بأن السعوديين « ولو أنهم حاليا مقيمون في الدرعية ، ينتابهم الخوف على حياتهم ولا يحركون ساكنا ، إلا أنهم ، كما هو ملحوظ ، إذا ظل مسكوتا عنهم سوف يزدادون كثرة وأتباعا خلال سنوات قليلة فلا يظلون قانعين بالركود ، ولذلك فان الحاجة ماسة لاجراء ترتيب خاص من أجل الدرعية نفسها » .
وكان الشك قد دب في البلاط العثماني ، وهو أرض خصبة للمخاوف والشكوك وسوء الظن ، وشديد الحساسية إزاء أي نمو في القدرة العسكرية الاقليمية ، سواء أكانت مجاهرة بالعصيان ، أو متظاهرة بالولاء .. ولذلك جاءت الأوامر المشددة إلى محمد علي بمنع إبراهيم من مواصلة الزحف بعد الدرعية ، لكي لا يتقدم نحو العراق أو في اتجاه الساحل ، ويبسط سيطرة محمد علي على أقاليم أوسع ، ويصبح أكثر خطرا على الباب العالي من الوهابيين الذين هزمهم .

ولعل هذا يفسر رسائل ابراهيم ومحمد علي عن خطورة عودة الوهابيين ، إذا ما اكتفى بالاستيلاء على الدرعية . لأنه « إذا لم يجر القضاء على حركات الأمراء النجديين المقيمين بتلك الأطراف ، فان القبض على عبد الله وتدمير الدرعية فقط لا يكفيان لرد غائلة المتمردين » ويقسم محمد علي أن غرضه شريف ، وأن السلطان يستطيع أن يلحق ولاية نجد بباشا بغداد ، ولكن بعد « أن تتم عملية ربط تلك الأماكن والمواقع بنظام وتدبير حسن » !
ولكن السلطان ، وكان لا يقل مكرا عن « محمد علي » أو بالأحرى كان رجاله من الذين يكنون بغضا خاصا لمحمد علي زاد في حساسيتهم لطموحاته ، ولذلك فقد رد السلطان بأنه أبدى شكه في رغبة إبراهيم بالبقاء ، مع أنه كان قد استاذن بالرجوع بعد ختام المصلحة ». وأكد السطان اوامره بعدم التقدم بعد الدرعية ، ولكن هذا « **لا يعني ان يترك الدرعية على ماهي عليه فورا بعد تكبده تلك المشاق الكثيرة » .**

ويشرح السلطان خطوط الاستراتيجية العثمانية التي اتبعت بعد ذلك ، ونفذها العثمانيون والوهابيون بعد جلاء قوات محمد علي ، وهو ترك نجد للوهابيين والاكتفاء باعادة الراية العثمانية والسلطة العثمانية إلى الحجاز ، لأن : « توطيد النظام في كافة قطاع نجد هو بمثابة الأمل الطويل ،» إن المذهب الذي اعتنقه عربان نجد ، إنما جرى اعتناقهم له منذ سنوات عديدة ، ورجوعهم عن هذه العقيدة أمر صعب وعسير » .
ولكن محمد علي الذي بدأ يتقمص « الدور المصري » الامبراطوري – إذا شئت – سيستغل حاجة الدولة إليه في حربها مع اليونان ، وأيضا ظهور مشاري وتجمع المقاومة السعودية مرة أخرى ، وعجز والي بغداد ، لكي يستأذن من السلطان في ارسال قوات وتحصين الاحساء لمنع هجوم مشاري عليها » .

ويفزع السلطان ، ويتراجع ، ويقول إن أوامره السابقة لم تكن تعني أبدا أن ينسحب محمد علي وابراهيم من الجزيرة العربية . » « إن الاهانة التي لحقت بالحرمين الشريفين اللذين نفتخر ونعتز بخدمتهما طوال هذه السنوات الكثيرة قد علم أمرها وعرفها الجميع » .
فاذا تركت لاهانة أخرى « فما هو الجواب الذي يمكن إعطاؤه إلى شفيعنا وأفندينا فخر

الموجودات » !*

وأفندينا هنا هو صلى الله عليه وسلم !!

١٩ م ـ وقد لاحظ ابراهيم باشا تجذر الدعوة في نجد وتمكنها في نفوس النجديين ، فكتب لأبيه : « ينبغي تكوين فكرة صحيحة عن نجد ، فقد مضى على ظهور الدعوة اثنتان وتسعون سنة ، وهي مدة طويلة ، وقد تمكن رئيس نجد الذي اشتهر بين العرب بلقب الامارة ، أن يتسلط على بلد بعد بلد ، هذا إلى أن أصبح هو وجماعته ذوي علم وخبرة كاملة بالفن الحربي الذي أتقنوه لكثرة ما خاضوا من الحروب والمعارك . ومع أنهم أصبحوا كالحفاة المتسكعين ، فانه لايزال من الضروري العمل على استئصالهم جملة ، وإذا لم يجر ذلك فان غائلتهم تبقى كامنة ، كما أنها لا تبقى منحصرة في طرف أو جهة واحدة ، وإني بعد عودتي لاحظت أن عددا من الذين يدعون أمراء يظهرون هنا وهناك ، وينشرون الفساد في هذه الجهات ، ويحرضون على الفتنة » .**

هذه الرسالة تشهد لابراهيم بالفراسة ، ولجهاز « محمد علي » بأنه كان في مراسلاته السرية ـ على الأقل ـ لا يمارس خداع النفس .

وقد اوضحنا أن هذا الجهاز تحول من محاولة استئصال السعوديين إلى محاولة تدجينهم والتعاون معهم .

٢٠ م ـ عباس باشا الأول الذي هرب الأمير «فيصل بن تركي» من القاهرة، كما أثبتنا، هو ابن طوسون باشا الذي قاد أول حملة على السعودية ، وعقد أول مشروع مصالحة مع السعوديين . « وكان فيه ميل لأولاد العرب » وكان عباس هو المرشح وقتها ـ (١٨٤٣ ـ ١٨٤٥) لولاية العهد بعد ابراهيم ، وكانت علاقته سيئة بجده (محمد علي) ، وعمه (إبراهيم باشا) وقد عبر عن رأيه المعارض لسياسة جده وخاصة حروبه . وانتقد خوفه (أي جده) من القناصل . وعرفت عنه نزعة إسلامية . وربما كانت له بعض الآراء المحافظة ، نتيجة صداقته مع فيصل ، وقد وصلت إلينا مشوهة بفعل الدعاية الأجنبية . وكان يكره الفرنسيين بصفة خاصة ، إذ حملهم ـ عن حق ـ مسئولية التغرير بجده ثم خذلانه ، وهو بذلك يشارك الامام فيصل في عواطفه نحو الفرنسيين . فهناك أكثر من سبب سياسي وديني وربما شخصي لاعجاب عباس بفيصل ومساعدته له على الهرب .. وإذا عرفنا أن « فيصل بن تركي » ، كان أبرز شخصية سياسية منفية في القاهرة في هذا الوقت ، استبعدنا أن يتمكن وحده من الهرب ، خاصة وسمعة الأجهزة المصرية في هذه الأمور معروفة . أضف إلى ذلك أنه ما من مؤرخ قد سجل اتخاذ اجراءات معينة ضد السعوديين في القاهرة ، أو ضد أية جهة أمنية عقب الحادث . فهو مبادرة من ولي العهد ، سكتت عنها السلطات العليا . وما أن تولى عباس السلطة كباشا مصر بوفاة إبراهيم باشا حتى سمح للشيخ عبد اللطيف بالسفر إلى الرياض ، وكان من أشهر علماء الأزهر ويتولى تدريس المذهب الحنبلي فيه ، وتعلم معايشة أهل المذاهب الأخرى ، واقتنع أن أهل مصر ليسوا مشركين بل يمكن ، على أسوأ الاحوال ، وصفهم بالمسلمين المقصرين في حق دينهم . وقد قرر بلجرايف أن الشيخ عند عودته إلى الرياض أصبح الرجل الثاني في الدولة السعودية . أما جورج والين فلم تصل معلوماته لأكثر من أنه تولى (أي الشيخ) منصب القضاء في الأحساء بعد عودته من مصر باذن الباشا عباس سنة ١٨٤٩ ، أي فور توليه حكم مصر . ووالين لم يذهب إلى الرياض ، سواء لأن الاذن لم يصل إليه ، أو إستجابة لنضيحة مشبوهة من أمراء حايل من آل رشيد ، إذ قالوا له : « لا تذهب إلى الرياض ، فهم لا يحبون أي قادم من مصر » .

---

* ١٣٣٦ ـ ١٨٢٠ .

** تاريخ الرسالة ١٢٣٣ـ (١٨١٧ـ١٨١٨)

وأخذ بهذه الرواية حافظ وهبه ، ولعله اعتمد على مصادر بريطانية . وقد عثرنا في المذكرة المرفوعة من السفارة البريطانية في اسطمبول إلى وزارة الخارجية البريطانية ما يؤكد مساعدة عباس باشا لفيصل على الهرب . (كتبنا هذا التحليل قبل اللقاء مع الأمير مساعد بن عبد الرحمن بن فيصل) .

٢١ م ـ ذكر جورج أوغست والين أنه خلال رحلته إلى حايل قابل في الطريق رجلا اسمه بشير ، قال إنه من عبيد عباس باشا كا متوجها إلى مصر مع مجموعة من الخيل اشتراها لسيده من حايل . كما التقى في نفس الوقت بمجموعة من رجال الامام فيصل في طريقهم من القاهرة إلى الرياض برئاسة شخص يدعى حازم . وكان معهم عبد آخر لعباس باشا متوجها إلى نجد لشراء فرس مشهورة .

ويفهم من حديث والين عن الخيل أن العلاقة كانت طيبة مع الجميع « وهدايا الخيل تنطلق من حايل من اسطبلات عبد الله بن الرشيد سنويا إلى المدينة للباشا التركي حاكمها ، وأخرى إلى مكة ، وأحيانا لباشا بغداد ، وبعضها يرسل في المناسبات إلى الأمراء السعوديين في الرياض . وفي السنوات الأخيرة أصبح عباس باشا يرسل رسله لشراء عدد من هذه الخيول لاسطبلاته في القاهرة » .

٢٢ م ـ أحد هؤلاء المؤرخين بذل كل جهد ممكن لنفي مساعدة مصر لفيصل في الهرب ، وفي نفس الوقت ، وبنفس القوة ونفس الفشل يحاول أن يجعل حرب الانجليز ضد القواسم ، وهم القوة البحرية الوهابية ، حربا مفروضة على الانجليز الذي كانو يعشقون السعوديين ويكرمون أنصارهم ! .. فيقول إن الانجليز « اضطروا مكرهين إلى قتال طائفة (من السعوديين) . ولكن الانجليز تركوا « رحمة بن جابر » يهرب وينجو لأنهم عرفوا صلته بالدرعية » !..

مصر هربت فيصل .. لأ ..

بريطانيا هربت رحمة بن جابر آه !!

أما ابن بشر المؤرخ السعودي بالتأسيس ، فيصف المعركة الوحشية التي خاضها الانجليز ضد الدولة السعودية ، والتي انتهت باحتلالهم رأس الخيمة ، وإزالة حكم القواسم الذين كانوا أخلص حلفاء السعوديين ، وألد أعداء الانجليز . يصف ابن بشر معركتهم مع الانجليز ، فلا نلمس أي عطف ، فضلا عن هذا التملق الذي يمارسه الدكتور إياه . يقول ابن بشر : « وفيها أقبل مراكب الانقريز النصارى مستنجدهم سعيد بن سلطان صاحب مسكة المعروفة في عمان بعد نقضه العهد ، وقصدوا أهل بلد رأس الخيمة المعروفة في عمان ورئيسها يومئذ سلطان بن صقر بن راشد بن مطير أمير القواسم ، وبندروا فيها وحاربوا أهلها فلم يحصلوا على طايل . فرفعوا على البلد بلورا وجعلوه في عين الشمس وقابلوا به البلد فاشتعلت النار فيها وكان أكثر بيوتها صرايف وعسبان النخل فدخلوا البلد واستباحوها ونهبوا ما فيها وأشعلوا فيها النيران ودمروها وهرب سلطان بن صقر وغالب أهل البلد حتى فرغ العدو منها » .

ـ مكرهون على رأي الدكتور !

٢٣ م ـ ولا تخلو رحلة « سادلير » من بعض اللفتات المهمة ، مثل مقابلته مع إمام مسقط ، الذي أبى أن يتسلم رسالة حاكم بومباي إلا واقفا على قدميه ، زيادة في التوقير والاحترام للحاكم !

كما أبدى الامام سروره بنجاح الحملة البريطانية في الهند ، وتفاؤله وثقته بنتائج الحملة المنتظرة على الخليج !

وخلال الزيارة أبلغه الامام نبأ سقوط البوريمي ! وذلك بلجوء شيخ الواحة (الذي وصف بأنه بطل وهابي) إلى الامام على اثر خلافه مع القواسم . ولعل هذا أول اتصال بريطاني عماني بمشكلة البوريمي التي يعترف التقرير بسعوديتها أو وهابيتها (وتاريخ ذلك ٩ مايو ١٨١٩ م) وقد نصح

الكابتن الامام بألا يسلم الواحة للشيخ سلطان بن صقر القاسمي شيخ الشارقة ، ولا يثق في عروضه الودية !

وافق الامام على التعاون مع القوات البريطانية في ضرب القواسم ، ولكنه رفض رفضاً باتاً أي اقتراح بالتعاون مع قوات إبراهيم باشا . وطلب وعدا بدعم بريطانيا له ضد توسعات إبراهيم باشا .

وفي الاحصائية التي قدمها الامام عن قوة القواسم الوهابيين جاءت هذه الأرقام :

٣٠٠ جاءوا من الدرعية بعد سقوطها .

رأس الخيمة : اسطولها يتكون من ٧٥ سفينة كبيرة و ٢٥ صغيرة + ٣٠٠ مقاتل بري .

أم القوين : مركب كبير وثلاثون من المراكب الصغيرة + ٤٠٠ مقاتل بري .

عجمان : ٤ مراكب كبيرة و ٣٥ صغيرة + ١٠٠٠ مقاتل بري .

الشارقة وفوشت وابو هيل : ١٢ كبيرة ومائة وخمسون صغيرة + ١٢٨٠ مقاتل بري .

دبي : ٤ كبيرة . ومائة صغيرة + ٨٠٠ مقاتل بري .

أبو ظبي – خيرام – بني ياس : ٥ كبيرة و ٣٠٠ صغيرة + ٣٠٠٠ مقاتل بري .

– فسر سادلير حماسة الامام في التعاون مع الانجليز بأن مخاوفه وغيرته ثارتا بوصول إبراهيم باشا إلى قرب حدوده ، وما أعلن عن آراء الباشا في ضرورة امتلاك جزيرة البحرين .

وربما كان حديث الكابتن البريطاني عن تحالف مع إبراهيم باشا ، وتسليمه رأس الخيمة هو لزيادة الغيرة والمخاوف عند الامام من هذا المزاحم على ود بريطانيا ، فيزداد تراميا في أحضان الانجليز وهو ما حدث فعلا .

– رغم الخضوع المطلق من جانب الامام ، فان الرأي العام الاسلامي ، والذي كان متأثراً بدون شك بالمناخ الوهابي في المنطقة ، كان يعتبر سادلير نجساً ، وقد سجل في ملاحظاته أن الامام تحاشى الأكل معه علنا ، كما أن الوزراء والضيوف الذين تناولوا معه طعام الغداء تجنبوا جميعا لمس أي طعام من طبق لمسه سادلير كما لاحظ كراهيتهم للتدخين وإن لم يحرموه كالوهابيين » .

ولم يخرج سادلير بيده خاوية . إذ وضع عينه على جزيرة « قشم » ! .

كما أرسل إلى قيادته يطلب احتلال الفجيرة « لتطويق القواسم الأوغاد » ومن الطريف مطالعة وصفه للظهران والدمام ورأس التنورة ، التي ستصبح بعد مائة وعشرين سنة أشهر من نفط على علم .

– وضع قائمة بايرادات جميع موانيء الأحساء ! وساحل عمان وتعداد السكان . جاء فيها مثلا أن دبي سكانها ١٢٠٠ نسمة .

– طوال الرحلة لا يتحدث سادلير عن جندي مصري واحد رآه . وإن أسهب في الحديث عن المغاربة أو البربر كما يسميهم .

– أشار إلى الحجاج الهنود والملاويين والترك النائمين في شوارع جدة ، « التي رغم كبرها ، ووجود عدد كبير من المنازل الفخمة فيها ، لا يمكن أن تتسع لهذا العدد من الحجاج » .

ولعل أهم ملاحظة في مباحثاته مع إمام مسقط ، هو توقع هذا الأخير أفول نجم القواسم ، بسقوط الدولة الوهابية ، وقوله إن عددا من الذين هربوا من الدرعية قبل سقوطها قد انضموا للقواسم وأنه لا يقدر عددهم بأكثر من ثلاثمائة . كما جرى خلال ١١ يوما إعداد تفاصيل الحملة البريطانية العمانية المشتركة ضد القواسم إلى حد الاتفاق على سعر الغنم الذي سيأكله الجنود ، ولا يمكن أن يكون ذلك مهمة عرضية أو جانبية إلى جانب المهمة الأصلية والهزلية وهي تسليم الهدية لابراهيم باشا !

ثم قدم الامام للضابط البريطاني قائمة « حصل عليها من أوثق المصادر عن قوة القواسم ، وقد أثبتها « الرحالة » البريطاني ، وبعث بها على الفور إلى بومباي حيث كان يجري إعداد سيف من نوع آخر للقضاء النهائي على آخر أسطول عربي ، أو على بحرية الوهابيين ، بعدما قضى على قوتهم البرية !

٢٤ م ــ ويبدو أن المخابرات البريطانية ، اعتمدت تقرير بلجرايف الذي وصف سعود بأنه يقود فريق المعتدلين ، أما عبد الله فيمثل أهل الدين المتعصبين . وفي تقرير رفعته السفارة البريطانية في اسطمبول لوزارة الخارجية ، وسيأتي ذكره في الجزء الثاني . وصف هذا التقرير سعود بأنه كان أمل الليبراليين . نموذجا كاملا للأمير العربي ، طويلا رشيقا جميلا صريحا مستهترا .. مبسوط اليد (كريم) . ويقول التقرير « وهناك إشاعات تقول أن سعودا هذا تلقى مساعدات من الانجليز في حربه مع عبد الله الذي كان مدعوما من الترك » .

٢٥ م ــ قال بيلي إن الشيخ رشيد (ابن رشيد) يدفع بعض الزكاة لشيخ نجد (فيصل بن تركي) ولكن المنطقة لا تعتبر من نجد . وقال إن شمر تضم أجزاء من القصيم وتصل إلى ولاية الفرات .

ورغم أنه سأل لماذا لم يدخل الصليبة في الاسلام ؟ فقيل له إن الصليبة لا شيخ لهم .. فلم تكن هناك وسيلة لعرض الاسلام عليهم !

وزعم أن فيصل هو الذي أدخل عرب الحوطة في الاسلام مباشرة من الوثنية .

المحاولة الثانية

عبد العزيز آل سعود

١٩٠٢ ـ ١٩٣٢

١٣١٩ ـ ١٣٥١



أعظم فارس مغوار أنجبته جزيرة العرب في هذا العصر عبد العزيز بن متعب الرشيد الذي قتل في حربه مع ابن سعود في معركة روضة مهنا الضارية

التعليق للعطار والتعجب من عندنا (!!)

ابن رشيد ـــــــــ ١

الوهابية بدون آل سعود ..!

خلال الفترة من ١٨٣٥ ـ ١٢٥١ إلى ١٩٢١ ـ ١٣٣٩ سيطالعنا اسم « ابن رشيد » وكأنه رمز لحالة أو شخصية معنوية وليس اسما لشخص حقيقي ، أو كأنه اصطلاح لوظيفة ما ! وسيقتل « ابن رشيد » ويقوم ابن رشيد مرة كل عشر سنوات ، أو حتى أقل حتى ينتهي حكم الاسرة فيختفي ذكر ابن رشيد وكأنه لم يكن أبدا ! ...

وقد بزغ نجم آل رشيد في ظل الدولة السعودية ، وان كان السعوديون هم الذين خلعوهم من الامارة ، ووضعوا مكانهم آل علي ، ولكن عبد الله بن رشيد استعاد الملك بالدور الذي لعبه في إقامة إمارة فيصل بن تركي ، وقد ظل نفوذ آل رشيد يقوى ونفوذ آل سعود يخبو ، حتى تمزق البيت السعودي ، وتحولت الامامة إلى صورة كاريكاتورية ، يتبادلها أولاد فيصل المتقاتلون ، فتمت السيطرة لآل رشيد ، الذين لم يحاولوا أبدا إنكار زعامة البيت السعودي ، أو قل لم ينازعوه الامامة ، ولا ادعوها قط ، بل استمروا « يدعون » الطاعة ، مع تفاوت في مظاهرها ، بتفاوت سلطة البيت السعودي ، حتى تحولت في أواخر عهد فيصل إلى ما يشبه طاعة الخليفة العباسي أو السلطان العثماني في ولاياته البعيدة . ولعل أطرف ما يعبر عن هذه العلاقة ، هو قول المؤرخين إن ابن رشيد **اعتذر** « للامام فيصل عندما انتزع منه القصيم وضمها الى شمر »* .

وجميع المراجع الأجنبية والعربية ، تؤكد أن امراء آل رشيد كانوا على علاقة طيبة ، رسمياً على الأقل ، مع البيت السعودي حتى وفاة الامام فيصل بن تركي ، التي رجحت كفة البيت الرشيدي . ومع ذلك ظل ابن رشيد محافظا على الاحترام الواجب ، إلى أن استدعى من قبل امراء آل سعود لدخول الرياض . فليس من مؤرخ يستطيع أن يتهم آل رشيد بالعقوق ، أو عض اليد التي أكرمتهم ، مع ان استعراض ما كتب عن تاريخ عبد

---

* وشهد ضاري بن رشيد للامام فيصل بأنه « كان صاحب ديانة وورع ونية صالحة ، لأنه ظهر لأهل نجد بركات نيته سنين ولايته ، والى الآن هم في أسباب بركته[1] » .

العزيز يعطي انطباعا وكأن الصراع ضد آل رشيد هو حجر الزاوية فيه ، إذ دام ما يقرب من عشرين عاما حتى تمت تصفية حكم البيت الرشيدي . وقد اتسمت هذه المرحلة بالطول والصراع الممل المرير ، لانها كانت تمثل الصراع على نجد ، ولان من يحكم نجداً ، يحسم الصراع لصالحه خارجها ...

ولا يمكن وصف هذا الصراع بالديني او الوطني بل هو حرب أهلية بين بيتين مالكين ، بيت له السيادة والشرعية ، وله المنة ، فقد كان هو الذي أعطى الامارة للبيت الآخر ، ومن ثم فقد شهر عليه تهمة التمرد ، بينما يحتج البيت الثاني بأنه صاحب السيادة الفعلية ، وأنه لم يقم بأي إجراء لتقويض إمارة السعوديين ، أو التمرد عليهم ، بل استمر يحترم سيادتهم ، ويؤكد الوفاء لهم ، حتى انهار بيتهم بتمزقاته الداخلية ، واستعدى الاخوة ، الاجانب من غير العرب ، على بعضهم البعض ، وحتى في تلك الفترة الحالكة من تاريخ نجد والسعوديين ، حاول ابن رشيد (أي ابن رشيد !) أن يدعم السلطة الشرعية ، ويعيد الامام إلى عاصمته حتى استحال تقويم الانهيار . فتولى ابن رشيد السلطة نزولا على الامر الواقع ، وحقنا للدماء ، وإنهاء لهذا التقاتل الذي فقد معناه !

واذا كان منطق ابن رشيد ، هو أن ميراثهم لامارة السعوديين كان ضرورة تاريخية ، فان زوال امارة آل رشيد ، وانتصار عبد العزيز آل سعود ، كان بدوره حتمية أملتها نفس الضرورة . بل وبحتمية تاريخية أشد .

بسقوط الدرعية ، وقرار الباب العالي الشديد الخبث في لعبة السلطة ، وأعني منع محمد علي وابنه من المضي إلى ما وراء الدرعية واجبارهما على الانسحاب ، عادت نجد الى ايام دهام بن دواس ، ونشب القتال على الامارة التي لا تستحق اسمها ، فظهر مشاري بن معمر ، واستولى على الدرعية ، لينزعه عن حكمها مشاري بن سعود الكبير ، ليعود ابن معمر فيحتل الدرعية ، ويعتقل ابن سعود ويسلمه إلى عبوش اغا ويطلب حماية الدولة العثمانية ، ولكن يظهر على المسرح تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود . وعبد الله أبوه هو أخو الامام عبد العزيز بن محمد بن سعود والد سعود الكبير ، أي أن تركي بن عبد الله هو ابن عم سعود ، وفي درجة عم عبد الله آخر أمراء الدولة السعودية الاولى .

وقد أجمع المؤرخون على ان « تركي بن عبد الله » هو مؤسس الاسرة السعودية الثانية ، كما يسمونها ، أو بمعنى أدق هو الذي ضمن استمرارية الحكم للبيت السعودي . وفي اعتقادي أنه إذا كان جمهورة المؤرخين قد رشحته لهذا الدور فعلى أساس أنه جد العائلة المالكة الحاكمة بينما نرى أن هذا الدور استحقه الامير تركي لاسباب اكثر عمقا .

فعندما نفي عبد الله بن سعود وأعدم في تركيا وقتل من قتل ونفي من نفى واعتقل من

اعتقل من أمراء البيت السعودي ظهر اتجاه مشيخي ، وهو الصراع على حكم الدرعية ، وكان البادىء هو محمد بن مشاري بن معمر وخاله هو سعود بن عبد العزيز أي ليس من عصب آل سعود ولذا خلعه مشاري بن سعود ، وهو أحق بالملك لأنه ابن سعود بن عبد العزيز . بل وأقرب الى العرش من تركي بن عبد الله الذي بايعه ، كما بايع بن معمر من قبله ، ولكن ابن معمر عاد فانقلب على مشاري بن سعود واعتقله واحتل الدرعية وزحف على الرياض التي كان فيها تركي بن عبد الله وغادرها قبل دخول ابن معمر، ناجيا بنفسه أو محتجا على غدر ابن معمر. وبالطبع لا يمكن اعتبار ابن معمر ولا مشاري بن سعود مؤسسا أو مكملا للحكم السعودي ، لا من ناحية الشكل ولا من ناحية الجوهر وقد نشب الصراع بين مشاري بن سعود وتركي بن عبد الله ، وانتصر تركي وأخذ الدرعية والرياض وأعدم ابن معمر .. ولكن السلطة التركية أخرجته من الرياض ، ليتحول إلى رمز المقاومة ضد تلك السلطة أو الوجود العسكري التركي في نجد ، واستطاع أن يسترد الرياض ليقتله مشاري ثالث هو ابن أخته مشاري بن عبد الرحمن بن حسن ولكن فيصل بن تركي يعود فيسترد الرياض ويقتل قاتل أبيه ، ولن يصفو الدهر لفيصل فسيخلع وينفى ويعود مرة ثانية ليستقر له الأمر .

ومن هنا كان لبعض المؤرخين عذرهم إذا رجحوا فيصلا للقب مؤسس الأسرة السعودية الثانية ، لقصر المدة التي حكمها تركي ، ولأنه قد سبقته محاولات لاستئناف حكم آل سعود ، ولأن التسلسل الزمني قد انقطع فترة بينه وبين ابنه في الحكم .. ومع ذلك فان الذين ينسبون هذا الدور لتركي لم يخطئوا .. لانه هو وحده الذي استأنف الرسالة ، باصراره على أن يخطب ويعظ على طريقة الأئمة الأولين من آل سعود .

ففي إحدى رسائله نجده يهتم بتربية النفوس ،والدعوة الى استئناف الدراسة أي **عودة الحركة**، الدعوة الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي الدعوة لاستئناف حمل مسئولية الوضع الاجتماعي وبالتالي السياسي ، وان كان كعادة الوهابيين لا يذكر السياسة بحرف ، ولكنه يقاوم اللامبالاة التي تنتشر في أعقاب الهزيمة الشاملة : « الكبرى هي عدم إنكار المنكر وتزيين الشيطان لبعض الناس أن كلا ذنبه على جنبه ، وفي الحديث « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليعمنكم الله بعقابه » . فالمجتمع الذي شغل عالمه بتصديه للتغيير العام ، والاستشهاد في سبيل القضية العامة ، سادته روح اللامبالاة ، روح الفرد المهزوم الذي لا يطمع في أكثر من حفاظه على دينه وتقواه الشخصية ، ومن أنقاض الهزيمة يرتفع صوت تركي ، بقية آل سعود ، يقاوم هذه السلبية ، ويطالب كل فرد بأن يتحمل مسئوليته في إزالة المنكر ، وهل من منكر أكبر من حكم الترك وعسكرهم الفسقة ؟! .

وخطابه هذا يدل على المستوى الرفيع الذي كان عليه البيت السعودي في الفقه ، فرأيه في الربا والمعاملات التجارية اكثر اكتمالا ووضوحا في التعبير من كثير من الجدل

الذي نقرأه اليوم للأسف* .

وهو المطارد من جيش الدولة العثمانية ، ومن المتمردين داخل مدينته وبيته ، يدعو « أهل كل بلد إلى ترتيب مجالس للدرس في المجامع ، فان كانت خاربة يعمرونها والذي يعرف بالتخلف عن مجالس الذكر يرفعونه لنا » « كما أعاد بناء المجامع (او الجامعات) وأقام في مدينة الرياض جامعة دينية تعيد للثقافة الدينية والتعليم ما اندرس من معالمهما** » .

نعم بغير الدرس والعلم والجدل ، تزول الرسالة ، وتتحول الثورة إلى شغب ، ويفقد البيت السعودي مبرره وميزته على كل البيوتات ... وحقاإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، فقد استحق تركي بن عبد الله أن يكون مؤسس الأسرة السعودية ، وأن يبقى الملك في نسله الى اليوم .

المهم جاء فيصل من مصر لينتزع الرياض من مشاري هذا ، ويكون في جيشه مقاتل من عائلة كريمة ، ولكنها مخلوعة من إمارة حايل ، هارب من اضطهاد العائلة السائدة في جبل شمر وهم آل علي .. هذا الفارس هو « عبد الله بن رشيد » الذي تولى اقتحام القصر وقتل مشاري الثالث ، وينادي بأعلى صوته من فوق القصر أو المأذنة : « الملك لله ثم لفيصل بن تركي آل سعود » .

ويكافيء الامام هذا الفارس فيدعمه ضد أسرة آل علي ، التي كانت تحكم في حايل ، ويتولى « عبد الله بن رشيد » تصفيتها أو استئصالها بقسوة ملكية عرفت في مؤسسي الملك ، وتميز بها آل رشيد [1]م خاصة ... وقد استمر عبد الله .. يدفع الزكاة لفيصل طوال حياته ، واتخذ الوهابية مذهبا رسميا لامارته في شمر[2] ، وكان مؤسسو بيت رشيد يمتازون بالمرونة السياسية ، فاستطاعوا كسب الجماهير الحديثة عهد بالثورة وشعاراتها ، وذلك بتمسكهم بالمذهب الوهابي فكانت دولتهم وهابية المذهب والشعارات ، بل كان « عبيد » أخو « عبد الله » مؤسس الامارة ، من قادة الوهابيين ، شديد التحمس للدعوة ، وصفه الريحاني : « رسول الوهابية الاكبر في الجبل ، وكان بيته محط رحال الوهابيين في حائل ، ومرجعهم الأعلى ، والصلة بينهم وبين الرياض[3] » .

ولكنهم في نفس الوقت ، اعترفوا بالهزيمة ، أو قل استفادوا من أخطاء التجربة ، فكانوا أكثر تسامحا ، أو تهاونا[2]م – حسب موقفك – ويقول تقرير الخارجية البريطانية ، إنهم : « سمحوا للشيعة وغيرهم بسكنى حايل ، وتخففوا كثيرا من أوامر ونواهي المذهب الوهابي ، رغم احتجاجات فيصل الذي لايزال اسميا سيدهم ، واحدى بناتهم تزوجها ابنه*** » .

---

* يمكن الرجوع لنص الرسالة في كتاب « تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها » .
** انظر الدراسة القيمة للاستاذ عبد الرحمن بن سليمان الرويشد في مجلة الحرس الوطني .
*** عبد الله بن فيصل بن تركي تزوج طريفة بنت عبيد الرشيد (اخو عبد الله الرشيد).

كذا تخلوا عن نشر الدعوة، ودخلوا في علاقات مهدئة مع كل من تركيا ومصر، واحتفظوا بالاحترام الواجب للامام السعودي .. ولم يدعوا اللقب (الامامة) ولا تبعاتها ... بل ان طلال ابن رشيد سمح بالدعاء للسلطان[3]م في مساجد شمر ولكن لم يلتزم بشيء أكثر نفعا للسلطان[4] » .

ولأن حكم آل رشيد كان طرازا خاصا في إمارات الجزيرة ، اذ كان حكما عائليا ، وحكم قبيلة واحدة ، فقد تميز بخصائص معينة ، منها المؤامرات الداخلية ، التي فاقت الحد المتعارف عليه داخل العائلات الحاكمة ، فقد حكم خلال الفترة من ١٢٥١هـ ـ ١٨٣٥م الى ١٣٤١هـ ـ ١٩٢١م ثلاثة عشر « ابن رشيد » ... مات منهم في السلطة أحد عشر أميرا .. اثنان فقط منهم ماتا حتف أنفهما ـ كما يقول العرب ـ أي ماتا ميتة طبيعية . أما الباقي : فسبعة قتلوا نتيجة مؤامرات القصر ، وواحد قتل في المعركة ضد عبد العزيز آل سعود ، وواحد كان أعقلهم ، أصيب بمرض ، فذهب الى طبيب فارسي قال له .. سأعالجك ، وستعيش ، ولكن ستفقد عقلك قال الأمير : أمير .. ومجنون ؟! هذا لا يكون !.. وأطلق على رأسه النار .. فكان حكيم العرب !

أما الاثنان الباقيان فقد أفلتا من سيوف ذوي الأرحام باستسلامهما لعبد العزيز آل سعود ... ولكن لعنة الدم لم تفلتهما .

ومع ذلك فقد دام حكم آل رشيد ما يقرب من تسعين سنة ، وقامت دولة تتفوق على اية دولة أخرى قامت في نجد إلى ذلك الحين ، اذا ما صدقنا شهادة الرحالة الأجانب ، حتى قال « دوتي » : « يصعب أن تجد خطأ في حكومة ابن رشيد » ! وهو وصف لم يقل في حكومة منذ الخلفاء الراشدين !

وأشهر من زار « حايل » في عصر ازدهار آل رشيد هما الرحالة « آن بلنت » والرحالة « والين » ..

وقد أسهبت « آن بلنت » إن لم نقل أفرطت في مدح إمارة آل رشيد ، قالت : « لن أنسى الانطباع الذي غمرني عندما دخلت مدينة حايل ، وذلك من نظافة الجدران والشوارع ، نظافة خارقة للعادة ، تكاد تصل الى جو الخيال » . وبلغ من ارتفاع مستوى رجال البلاط أنها ظنت خادم الأمير هو محمد بن رشيد نفسه ، من مهابته ، وملابسه القرمزية » .

وقد أحدثت عظمة الامير ، ونظافة ثياب أولاده ومرافقيه ، وجو المدينة نفسه تأثيرا إحباطيا في نفسية الرحالة الانجليزية ، حتى أنها خجلت من تفاهة الهدية التي جاءت بها للأمير[5] » .

« أما المطبخ الأميري فكان فيه سبع قدور ، تتسع كل واحدة منها لطهي ثلاثة جمال معا .. وابن الرشيد يستقبل يوميا مائتي ضيف ، وقائمة الطعام اليومي ، أربعون خروفا ، أو سبعة جمال[4]م » .

وأكدت آن بلنت الطابع العائلي للحكم ، والصفات المميزة لهذه الاسرة ، فقالت :

« إن عبد الله* وكل عائلة ابن رشيد ، قد وهبوا قسطا وافرا من الحيطة ، فما من مشروع هام اتخذ فيه قرار على عجل ، ومن المؤكد أن جميع شئون الدولة تبحث في مجلس عائلي ، قبل اتخاذ اي قرار ، ويبدو أن القاعدة دائما عند آل الرشيد هي أن يفكروا مرتين أو ثلاثا أو اثنتي عشر مرة قبل أن يبرموا أمرا . وهم في سلوكهم نحو آل سعود وسلاطين الترك ، ينتظرون دائما الفرصة المناسبة ويتجنبون الانشقاق العلني ، معهم ، ومن المدهش ان كثيرين من هذه الاسرة رجال متفوقون ، فمن الصعب أن تقول من هو أقدرهم : عبد الله أو عبيد أو طلال أو محمد أو ابن عمه حمود .. وليس الجيل التالي بأقل تفوقا** .

« وكانت سياستهم مطبوعة بطابع التحرر والاسترضاء المقرونين بالتلويح بالقوة في المناسبات ، وبهذا وضعوا حكمهم على القاعدة المضمونة الوحيدة ، قاعدة الشعبية . ويدهش المسافر القادم من تركيا عندما يسمع التعليقات التي يطلقها سكان حايل عن حكومتهم . فمن المستحيل أن تتحادث عشر دقائق مع أحد منهم دون أن يؤكد لك أن حكومة الأمير أحسن حكومة في العالم ... » الحمد لله ، بلدنا محظوظ ، الامر عندنا يختلف عنه عند الترك والفرس ، فحكومتهم لا تستحق ان تسمى حكومة ، نحن هنا ، في سعادة ورخاء ، والحمد لله » ، وقد علقت الكاتبة البريطانية بقولها : « ولقد أدهشتني هذه النعرة القومية[٧] » !

وإذا لم يكن محدثوها من مخابرات الامير ، فهي ، بلاشك أول وآخر سائحة سمعت هذا الثناء من شعب عربي على حكومته !

ولكن الشواهد الاخرى التي أوردتها ، تعزز هذا الرضا ، فقد حقق آل رشيد ، المعجزة التي يفخر بها الحكم السعودي ، منذ الوهابية ، وهي الأمن فقالت آن بلنت : « حتى طريق الحج ، رغم أنه في يد الدولة العثمانية اسميا ، فان الاتراك لا يمكنهم عبوره الا بجيش ومخاطرة عظيمة ، اما ابن رشيد فبمجرد هيبته الشخصية ، يحفظ كل الصحراء ، في سلام مطلق ، وفي جبل شمر بأكمله . وهو ــ الجبل ــ من أقفر الصحاري ، ويسكنه ناس من أشرس سكان العالم ، ومع ذلك يمكن للمسافر أن يسير بلا سلاح ولا حراسة ، بأمان وبلا عقبات أكثر مما لو كان يسير في إحدى طرق انجلترا ! ... وفي كل طرق جبل شمر ، يمكن أن تجد رجالا من المدن يتلكأون على حميرهم ، أو على أقدامهم وبمفردهم ، يحملون كل ما يملكون . وإذا سألتهم عن مخاطر الطرق ، ردوا عليك سؤالك بقولهم : ألسنا في بلاد ابن رشيد ؟! » .

وتندفع « آن بلنت » في حماستها ، حتى نطمع في تدينها ، فتقول : « ولا يستطيع أي نظام ، مهما كان كاملا ، من النظم البوليسية والحصون والحرس أن يأتي بنتائج

---

* وابن بشر وصف أو نعى مؤسس الأسرة عبد الله بن رشيد بأنه « الليث الشجاع والصارم القطاع عبد الله بن علي بن رشيد رئيس جبل شمر »[٦] .

** ومن هنا كان تذابحهم كالديكة . إذ لا أحد يعترف للآخر بالتفوق أو الأحقية في الملك .

مثل هذه . والأمير البدوي في المدينة ، على استبداده ، يخضع لانضباط محكم أمام الرأي العام[8] » .

وقدرت حرس الأمير « ما بين ثمانمائة وألف رجل لهم زيهم الخاص ، ومسلحون بسيوف مقابضها من الفضة » .

وقدرت ميزانيته بثمانين ألف جنيه ، وهو مبلغ لا يستهان به إذا عرفنا ان معاهدة ١٩١٥ ـ ١٣٣٣ أعطت ابن سعود ، ستين ألف جنيه فقط كدعم سنوي .

والامام عبد الرحمن أبوه ، سيقبل بعد عشر سنوات من تاريخ الميزانية هذه ، مبلغ سبعمائة وعشرين ليرة عثمانية مرتبا سنويا . ولذا وصفت المؤلفة ابن رشيد بأنه أغنى أمير في بلاد العرب ! ..

وقد مرت ثلاثون سنة بين زيارة والين وآن بلنت ولذلك سنلاحظ خفوت الطابع الديني ، فبينما قال والين إن الشريعة هي التي تحكم شمر في دولة عبد الله آل رشيد كما هو الحال في دولة الوهابيين[9] » .. قالت بلنت « إن شمر عادت الى القانون العرفي القبلي في عهد محمد آل رشيد » .

قال والين : إن فيصل الشيخ الحالي لنجد وإمام جميع الوهابيين ، ولو أنه محترم لسلوكه المستقيم ، واتباعه تعليم الدين ، وهو محبوب ، إلى حد ما ، لطبعه اللين ، الرءوف ، ولكن مكانته دون عبد الله ابن رشيد ، الذي ينظر إليه ، من قبل معظم الناس ، كالحاكم الفعلي لنجد ، ولاشك أن لحكمته وقدراته ، وشجاعة أخيه عبيد ، الفضل في المكانة التي احتلتها شمر ، التي تعتبر قبيلة صغيرة نسبيا ، ولكنها سادت على كل القبائل البدوية والقرى . وقد أصبح آل رشيد واحدة من أقوى العائلات في كل الجزيرة العربية ، ولكن المال والقوة ، وحدهما ، ليسا سر هذه المكانة التي لعبد الله بين العرب ، بل ترجع الى صفاته الشخصية العظيمة ، إلى بسالته ، ورجولته ، وعدالته الحازمة ، التي قد تصل الى درجة القسوة . التزامه بوعوده ، وكلامه . فلم يعرف عنه قط ، أنه تراجع في كلمة أو وعد ، وفوق ذلك كرمه الذي لم يسبق له مثيل وعطفه على الفقير . فلم يرد محتاجا من بابه قط . لقد حظي بأفضل صفات يتحلى بها البدوي » ! .

وأشاد هو أيضا بالامن الذي حققه عبد الله آل رشيد ، وقال إنه قبل حكمه : « لم يكن أحد يجرؤ على قطع المسافة من حايل الى قفار بدون حراسة ما بين عشرة وعشرين مسلحا ، وهي مسافة قطعتها أنا وحدي في ثلاث ساعات . والناس يقولون هنا إنه يمكن لأي شخص أن يحمل ذهبه على رأسه ويقطع البلاد من أقصاها الى أدناها دون خوف ، ولا سؤال ولا مشاكل . بينما كانت القرى تنهب بعضها بعضا ، بل حتى داخل القرية الواحدة » .

وقال « إن الوهابية الصارمة موجودة في الرياض ، والأراضي التي يسيطر عليها السعوديون » ، أما في شمر ، « فقد تسامحوا في لبس الحرير ، وشرب الدخان » ، الذي زعم أن أهل نجد يعتقدون أنه يسقى بماء إبليس ، وقال إن النظرة الى الدخان والمدخنين كانت لاتزال نظرة استنكار ورفض ، حتى أن بدويا من شمر قال له « إنه لا

يحمل على ناقته الدخان ، ولو بثقله ذهباً » .

« والمبدآن الأساسيان اللذان لاتزال شمر تتمسك بهما من تعاليم الوهابية ، هما رفض الوسطاء حتى النبي (صلعم) لا يقبلون وساطته بين الله والعبد* . والمبدأ الثاني هو الحرص على أداء الصلاة جماعة في المسجد ، وليس في البيت كما هي عادة سائر المسلمين » .

وقال والين « المرأة في شمر شديدة التمسك بالواجبات الدينية ، ولم أر في أي موقع آخر ، امرأة تصلي ، فضلا عن الحرص ، على الصلاة في المسجد ، ولكني رأيت الكثير من ذلك في جبل شمر ، والجوف . والأمراء الوهابيون (في شمر) حريصون على تجميع الناس لأداء الصلاة يوم الجمعة في المسجد ، ويذكرون في حايل كيف عاقب عبد الله ، أكثر من مرة ، وبشدة ، المتخلفين عن صلاة الجمعة[10] » .

وهذه الروايات تؤكد أن « شمراً » لم يخلعوا الوهابية ، ولعل هذا يفسر الطبيعة الخاصة للصراع السعودي ـ الرشيدي . ولكن الاسلام دين حركي ، كما يحلو لدعاته أن يرددوا دون بذل أية محاولة لفرض هذه الحركية ! والتخلي عن الجهاد يفضي للتخلي عن الصلاة ، وقد سجلت آن بلنت هذا التحول ، عندما قالت :

« بينما كنا نجلس في منزل « ابن درة » ، رأينا مثلا لحكومة ابن رشيد الدينية ، وأول مظهر من مظاهر الوهابية ، فقد نودي لصلاة الظهر من سطح المسجد القريب ، وليس هناك منارة في الجوف ، إلا أنه لم يبد على أي فرد ، لبرهة من الزمن ، أي ميل للتحرك . متخذين من زيارتنا عذراً .. ثم ابتدأ رجل مسن ذو ملامح قاسية ، يحاضر الأصغر سنا ، ويطالبهم بأن ينهضوا للصلاة . وعندما لم يجد لنصحه أي تأثير ، ضرب لهم المثل فذهب هو ، ولكن الجماعة ظلت جالسة . إلى أن نهض فجأة الجنديان الشابان اللذان جاءا معنا وصاحا : « قم !.. قم !.. » شاهرين سيفيهما ، وساقوا الجميع إلى المسجد ، ما عدا مضيفنا طبعاً ، وكان من الواضح أن الدين لا يهتم به هنا ، فباستثناء الرجل العجوز ، لم يبد أن أحداً ينظر إلى الصلاة نظرة جدية ، لأن الجنديين بعد أن أديا واجبهما في سوق الآخرين الى المسجد ، عادا هما بدون صلاة[11] » !

كانت روح الوهابية قد ماتت في النفوس ، وإن بقيت شكلياتها ، ولا يمكن تصور الوهابية في ظل مجتمع يساق فيه الأهالي للصلاة بقوة الجند ، أما الجند فلا يصلون ؛ إذ لا توجد قوة أكبر تسوقهم !

وكذلك لاحظ والين وجود كتب علماء الوهابية ، وهم يطلقون عليهم أولاد الشيخ*م

---

* وهذه نقط كان لها علاقة خاصة بالرحالة والين ، ففي موسكو نصحه شيخ مصري متروس ، من أهالي طنطا ، بأن يتنكر تحت اسم « عبد الولي » . فلما جاء إلى مصر نصحوه ـ وهم اكثر اتصالا بالوهابيين ـ بأن يغير اسمه الى « عبد المولى » « إذا كان يريد السفر لبلاد الوهابيين لأنهم لا يحبون التمسح بالأولياء فضلا عن ادعاء العبودية لهم كما في « عبد الولي » !

The childern of the Sheikh وذكروا له أن للشيخ عدة مؤلفات منها « كتاب التوحيد » « وكشف الشبهات » «وكتاب الكبائر » « وكتاب الأربعين حديثاً » . ولكنه لم يفلح في الحصول الا على كشف الشبهات » .

وقد اتفق كلا من والين وبلنت على أن المستقبل لشمر وآل رشيد في نجد .. قال والين :.

« إني أعتبر شمراً من أقوى القبائل في الجزيرة ، ونفوذها يزداد عاماً بعد عام على جيرانهم ، فمن القصيم حتى حوران ، ومن أراضي ابن سعود شرقا حتى جبال الحجاز ، يدفع البدو الزكاة لابن رشيد ويتقاضون أمامه »

وقال إن حراسه من الزنوج والمصريين الذين تخلفوا عن حملة ابراهيم باشا .

أما آن بلنت فقد تحمست على عادتها ، فتنبأت ببعث الملكية الوهابية في حايل ، واعتبرت آل رشيد ورثة السعوديين ، وذهبت في أحلامها إلى توقع قيام مملكة تضم من الأراضي ما يمتد إلى خلف الأردن[٦]م . وربما كان توقعها سليماً ، لولا أنه في نفس العام الذي كتبت فيه كلامها هذا ولد في بيت آل سعود ، طفل قدر له أن يصفي آل رشيد ، ويعيد الملك الوهابي الى مركزه الشرعي والتاريخي[٧]م .

قلنا إنه بعد موت فيصل تمزق البيت السعودي ، ولم يستطع عبد الله ابنه أن يجمع الأسرة حوله* ، وكان أخطر مزاحم له هو سعود الفيصل أخوه ، الذي حاز إعجاب الانجليز وتحالف مع إمام مسقط وشيخ البحرين ، واستطاع أن يبقي أخاه الامام الشرعي في حرب متصلة ، وطرده من الرياض إلى أن مات متأثراً بجراحه ١٢٩١ . ١٨٧٤ ولكن ذلك لم يكن نهاية متاعب عبد الله ، فقد تصدى له أولاد سعود هذا حتى انتهى بهم الأمر إلى وضعه في السجن ! وكان عبد الله ــ كما عرفنا ــ متزوجاً من طريفة بنت عبيد الرشيد ، « فلما سجنه أولاد سعود استنجد باصهاره آل الرشيد . فأنجدوه ، ولكنه على ما يبدو لم يأمن على نفسه في الرياض ، وقيل كان مريضاً بالاستسقاء فطلب ــ في رواية ضاري بن رشيد « أن يعين ابن رشيد شخصاً من رجاله في حكم الرياض ، ويسافر هو وزوجته طريفة إلى حايل » فاستجاب محمد بن رشيد لطلبه ، وأمر على البلاد سالما ابن سبهان ، وقفل راجعاً وصحبته عبد الله بن فيصل » واستقام في الجبل سنتين .

أما ابن سبهان ، فكان يفهم الامارة جيداً ، ورأى أنه لا استقرار مادام أولاد سعود أحياء ، فقتلهم ! ولما بلغ النبأ محمد بن رشيد : « قام من مجلسه مغضباً وقال : والله

---

* جاء في رسالة للشيخ عبد اللطيف آل الشيخ قوله : « إن حمولة آل سعود قد مزقتهم العداوة فيما بينهم ، وكل يدعي الأحقية في الولاية ، فأصبحنا نتوقع الفتنة كل يوم ، والمحنة كل ساعة ، وأصبح علي أن أتدخل لعقد السلام وإقناع عبد الرحمن بترك الولاية لأخيه عبد الله ، ولكن عبد الرحمن لم يوافق إلا بعد أربعة أيام من وصول عبد الله ، فوافق على عزل نفسه وتقديم عبد الله ، متبينا أن عبد الله له الحق بحكم السن ، وأن امامته أقدم » .

وبالله وتالله ، ما عندي مما سوى ابن سبهان خبر ، وإني أشهد الله أني لم آمره به » .
ومشى إلى عبد الله الفيصل وأخبره وحلف له . فقال عبد الله : أعلم أنك لم تأمر بذلك ، ولكن هذه عاقبة بغيهم علي . ونكثهم لعهد الله بيني وبينهم كما قال الله سبحانه وتعالى : « كذلك نولي بعض الظالمين بعضاً » . ثم عزل ابن رشيد ابن سبهان[١٢] » ..

ويقول ضاري الرشيد إن الامام (المريض اللاجيء) بعدما أقام في الجبل سنتين طلب الرجوع إلى الرياض مع زوجته الرشيدية ، وأخيه محمد بن فيصل . أما عبد الرحمن بن فيصل فكان في الرياض .

انتقلت السلطة ، نهائياً الى حايل ، وأصبح أمير الرياض يتبع أو يستمد شرعيته من أمير حايل ، فلما مات عبد الله بن فيصل بعد وصوله الى الرياض بثلاثة أيام* ، كتب محمد بن رشيد إلى محمد بن فيصل . « إنك أنت الأمير في الرياض » وتزوج محمد بن فيصل أرملة أخيه الرشيدية ولكنه توفي بعد عام ونصف .

وهنا ، قرر ابن رشيد ، إزالة الازدواجية ، فأزال إمارة السعوديين ، وأعاد سالما السبهان إلى الرياض ، رغم كل الأيمان التي أقسمها بأن سبهان قتل أولاد سعود من وراء ظهره .. وكان ابن رشيد وعبد الرحمن الفيصل (والد الملك عبد العزيز) يتبادلان ، ربما بالحس الملكي ، نفوراً وعدم ثقة . وقد اضطر عبد الرحمن إلى السفر الى حايل حيث قضى هناك فترة ، ولكنه لم يكن بالذي يصبر على الرياض وإمارتها ، « فاستأذن ابن رشيد في العودة إلى الرياض ، فأذن له ، وهناك دبر خطة اعتقل بها سالما بن سبهان ، وحبسه هو « ورجاجيل** » محمد بن رشيد وأخذ سلاحهم واستقل بالرياض[١٣] » .

وجرد ابن الرشيد عليه حملة ، ولكنه كان لايزال يراعي حرمة البيت فحاصر الرياض وقال في زعم ابن رشيد المؤلف***: «أنا مالي حاجة في بلادكم، إنما أنتم الذين جلبتموني إليها ، الآن بلادكم لكم . فقط رجاجيلي وسلاحي ، تعطوني اياهم . وبعد ذلك إذا أردتونا صديق فنحن كما أردتم . وإلا فكل واحد ذراعه يكسيه » . « فعندئذ قال له عبد الرحمن بن فيصل : إذا سلمنا لك رجاجيلك وسلاحك ترحل ؟.. قال نعم ! »

وقد كان .. ولكن ابن رشيد لم يعدم سببا لنقض عهده ، وفي رواية حفيده أنه ضبط مراسلات مع خصومه من عبد الرحمن الفيصل يدعوهم للتآمر معا ضد بن رشيد .. فاحتل ابن رشيد الرياض ، وهدم سورها[١٤] ...

وبدأت هجرة عبد الرحمن وأولاده وفي مقدمتهم عبد العزيز آل سعود ... وأسدل الستار على الدولة السعودية .. بل وظن الكثيرون أنها نهاية البيت السعودي .. فقد ظهر هذا البيت مع الدعوة الوهابية ، وهذه زالت أو أصبحت مجرد اجتهاد تاريخي ، كأقوال ابن القيم أو ابن تيمية .. أو على أحسن الفروض حركة تاريخية انطوت

---

* حددها فيلبي ٢٤ نوفمبر ١٨٨٩ ــ ربيع أول ١٣٠٧

** بمعنى رجال .

*** ضاري بن فهد الرشيد .

صفحتها ، بذبول البيت الذي أعطاها انطلاقاتها وفرضها على العرب والتاريخ ...!

في عام ١٨٩٧ ـ ١٣١٥ مات محمد بن رشيد ، وجاء عبد العزيز بن رشيد الذي وصفه تقرير بريطاني بأنه « كان ظالما غصوبا ، سيء الادارة مما أفقده عطف النجديين وجعلهم ينحازون لابن سعود[١٥] » .

ولكن أين ابن سعود وكيف يعود للنجديين ..؟

وصل ملك شمر إلى الذروة في ظل عبد العزيز الرشيد ، وآن الانحدار ، فلكل دولة أجل ، كما عرف ابن بشر .. وعندما تحين ساعة الدولة ، في تفسير الشيخ حافظ وهبة ، فانه يصعب التنبؤ من أين ستأتي الضربة ، بل تغدو كل مصادفة ، وكأنها جزء أساسي في الخطة ، أو التحول التاريخي ، وهكذا لم يبدأ العد العكسي لآل رشيد في حايل ، ولا في نجد ، بل في الكويت !

قتل ابن صباح أخويه ، وتولى الأمارة . وشاء حظ آل سعود ، أن يكون لأولاد القتيلين خال مشاغب ، يحمل الفشل والخسارة لكل من استعان به . ففي تصميمه على الانتقام من ابن صباح استعان بالعثمانيين فخسروا الكويت ، إذ طلب ابن صباح الحماية البريطانية ، واستطاع الخال أن يجر سيد نجد « ابن رشيد » إلى معركته ، ورحب ابن رشيد بالفرصة ليضرب ابن صباح باسم العثمانيين الذين كانوا قد استاءوا من تآمر ابن صباح مع الانجليز ، وهنا يتذكر ابن صباح أن عنده في الكويت عائلة لاجئة ، دخلت الكويت على كره من آل صباح ، وبأمر من الدولة العثمانية ، ولكنهم أصحاب حق في نجد ولهم صلاتهم وخبراتهم . وهكذا وضع التاريخ ، ابن صباح وإمكانياته ، وارتباطاته ، في خدمة آل سعود ضد ابن رشيد . ولم يكن الخلاف الصباحي ، الرشيدي ، إلا خلافا عابرا ثانويا قصير الأجل ، في مقابل الخلاف الجذري ، والصراع المصيري بين آل سعود وآل رشيد الذي يتحتم أن ينتهي بزوال أحد الطرفين ..

وقد انساق ابن صباح ، كارها ، سواء لمقاتلة ابن رشيد ، فالحرب ليست لغة آل صباح ، أو محالفة آل سعود الذين لم يكن لهم آل صباح وداً أبداً ...

فبعد أن بعث ابن صباح ، الامام عبد الرحمن للاغارة على أطراف ابن رشيد ، بعث يفاوض ابن رشيد على الصلح ، وفي نفس الوقت أرسل لعبد الرحمن يأمره بعدم دخول الكويت ، في انتظار رد ابن رشيد بقبول الصلح ، ولو تم ـ كما يقول الزركلي ـ ما كان عبد الرحمن سيجد مأوى له في الكويت . كان ابن صباح سيتبرأ منه ومما فعل ، ويخرج آل سعود جميعا من الكويت إلى الصحراء ، أو حتى يسلمهم لابن رشيد ، ففي سبيل الكويت ، كل شيء جائز عند ابن صباح . ولكن الله غالب ، ولذا رفض ابن رشيد الصلح ، واتخذ ابن صباح ، واحدا من قراراته الخاطئة ، النادرة . فزحف لقتال ابن رشيد ، في حشد هائل (حوالي عشرة آلاف مقاتل من مطير والعجمان ومرة ، والمنتفق وعنيزة وبريدة .....) وهنا ظهر ابن سعود .. عبد العزيز الذي رغب في الانفصال عن الحملة ، سواء لأن باله مشغول بالرياض وحدها ، فهو يريد أن يقاتل معركته هو ، أو

لأنه لم يكن كبير الثقة في قيادة مبارك الصباح .

الاحتمالان ممكنان ..

وقد أنجز ابن سعود جانباً كبيراً من مهمته . ولكن ابن صباح قام بأكبر خدمة في حياته ، للبيت السعودي ، ولعبد العزيز بالذات ، وذلك بأن انهزم ! رغم كل التوقعات ! وجاءت التعليمات لعبد العزيز من أبيه بالانسحاب من تحت أسوار الرياض ، قبل أن يصل إليه ابن رشيد المنتصر .. وهكذا انتهت أول محاولة لعبد العزيز بالفشل ويقول « كنيث وليمز » في كتابه « ابن سعود سيد نجد » . إن : « هذه الحملة كانت قبل الأوان » وليس هذا بتفسير دقيق ، فمرور سنة واحدة لا يغير الموقف من هزيمة إلى نصر ، بل إلى نصر سهل مدهش في سهولته كهذا الذي أحرزه ابن سعود بعد عام واحد .. الحق أن الحملة جاءت في الاطار الخاطيء ، وليس قبل الأوان ، كما سنوضح في الفصل القادم .

في العام التالي ١٩٠٢ ــ ١٣٢٠ جاء « ابن سعود » بحملته الخاصة ، واستولى على الرياض ، كما سيأتي تفصيله ، وبدأت دراما ، أو ملحمة العشرين عاما .

كانت استراتيجية ابن سعود حتى الحرب العالمية الأولى ، هي طي البساط إلى حايل ، وفي نفس الوقت ، وضع المعادلة الدولية في صفه ، بدفع ابن رشيد إلى محالفة الطرف الأضعف عالمياً ، وكان ابن رشيد ، بحكم قرب شمر من ولايات الدولة العثمانية ، والصلات القديمة مع الأتراك ، والعداء التاريخي بين آل سعود والعثمانيين ، بالاضافة إلى جهله بالواقع الدولي ، قد اعتمد على الأتراك كلية ، وظن أنه امتلك بذلك عنصر التفوق ، فلما دعاه ابن سعود مرة للمصالحة رد قائلا : « وهل يصالح من بيده قوة الدولة ؟ »!.. وفعلا قاتل معه عسكر الدولة ، وتبين عجزهم في البكيرية ، ثم في معركة الشنانة .

وقال تقرير بريطاني[١٦] « إن ابن رشيد اضطر تحت ضربات ابن سعود أن يطلب نجدة الترك ، ولايمكن تصور نتيجة هذا الطلب إلا كارثة مماثلة لما نجم عن طلب عبد الله بن فيصل سنة ١٨٧١ ــ ١٢٨٨ » أي احتلال الأتراك للأحساء ، ولكن الكارثة لم تقع لأن عبد العزيز آل سعود ، أثبت أنه قادر على إبعاد الترك وهزيمة ابن الرشيد معا .

وقد راهنت الحكومة التركية بكل قواها على ابن رشيد ، مما جعل ابن سعود يصبح نظريا في الجانب الانجليزي ، وإن كانت الحقيقة مخالفة ، فقد رفض الانجليز محالفة ابن سعود حتى الحرب العالمية الأولى . ولذا كانت انتصارات عبد العزيز على ابن رشيد ، التي توجت في عام ١٩٠٦ ــ ١٣٢٤ بمصرع عبد العزيز ابن رشيد ، انتصارات سعودية خالصة . ولكن ابن سعود استفاد من تحالف الترك مع ابن رشيد ، لسمعتهم السيئة ، وكراهية النجديين لهم ، وتخوف ابن صباح من عودة النفوذ التركي ، مما جعله يسمح بمرور السلاح أحياناً لابن سعود ، ويلح في تخويف الانجليز من الخطر التركي . ولكن العنصر الحاسم في انتصار ابن سعود ، كان الخلاف بين تاريخ ورسالة وجذور البيتين ، والخلاف بين شخصية رئيسي البيتين .. فقد كان ابن رشيد ، قاسياً ،

ظلوما ، والقسوة قد تكون من عوامل استقرار السلطة للأمير البدوي ، في الظروف العادية ، وإذا لم يكن يواجه تحدياً خارجياً ، أما في وجود مزاحم في مثل ذكاء وسياسة عبد العزيز السعودي ، فان مثل هذه القسوة ، تشكل تهديداً خطيراً ، لأن الذين ستصيبهم هذه القسوة ، أو يتوقعونها ، سيهرعون الى خصمه يتقون به انتقام أميرهم ، بل وينتقمون من أميرهم بسيفه ، خاصة وأنه لم يكن هناك صراع وطني أو ديني ، يغري بالصبر على الذل ، وينفرها من اللجوء للعدو القومي أو الديني ، وهذا ما حدث : فقد انفصلت القبائل عن ابن رشيد وانضمت لابن سعود ، فلم يبق معه في النهاية إلا شمر التي كانت تعتبر حكم آل رشيد رمزاً لسيادتها[8م] .

لم يكن آل رشيد مجرد حكام عينهم البيت السعودي ، في إمارة حايل ، ولا بيت إمارة مثل آل صباح أو الأدارسة ، بل كانوا فرعا من الحركة الوهابية ، تلك الحركة التي اتخذت مساراً محدداً بتلك البيعة الشهيرة في الدرعية ، التي كانت كأي عمل بشري لها سلبياتها وايجابياتها ، فكما أعطت الداعية دعم أقدر بيت ملك على نشر دعوته ، وحمايتها ، وتجديدها خلال ثلاثة قرون .. فانها أيضا قيدت مصير الحركة بهذا البيت ، بحيث أصبحت سعودية أكثر منها وهابية ، ولا ندري لماذا اكتفى الشيخ ببيعة الأمير السعودي ، لماذا لم يتوجه الى سائر المدن والأمصار في العالم الاسلامي يدعو حكامها أو جماهيرها للدخول في مفهومه الجديد ـ القديم للاسلام .. لماذا قبل شرط محمد بن سعود الذكي الذي حدد إقامة الشيخ ودعوته في بلاط آل سعود ؟! على اية حال أصبحت الدعوة الوهابية مرتبطة بالبيت السعودي ، ومن ثم لم يعد من الممكن أن يظهر فيها منشق يتهم الأصل بالردة أو التخلف ، وفور ظهور أمير سعودي على مسرح الأحداث في نجد في صورة القادر على بعث الوهابية ، تتساقط شرعية كل البيوتات المنتسبة للوهابية ، وهذا ما حدث لحكم آل رشيد .. ومن هنا كانت قناعتنا باستحالة انتصار آل رشيد[9م] مهما حدث ، وخاصة بعدما نجح ابن سعود في بعث الوهابية الحركية من خلال « الهجر » أو معسكرات الاخوان .

وقد جاء مقتل ابن رشيد في ١٣ أبريل ١٩٠٦ ـ ١٨ صفر ١٣٢٤ ضربة حاسمة قضت على آمال الترك ، وقطعت الطريق على مساومات الانجليز ، وألاعيب ابن صباح . ولكن ـ كما قلنا ـ كان « ابن رشيد » مجرد اصطلاح ، وستستمر الحرب مع ابن رشيد ، وستتابع أنباء مقتل « ابن رشيد » وقيام « ابن رشيد » حتى سقوط حايل في ١٩٢١ ـ ١٣٣٩ ...

واستمر ابن سعود يفرض التحالفات الفاشلة على خصمه ، فمن محالفة الأتراك حتى نهاية الحرب ، إلى محالفة الهاشميين ، فهوى مع الاثنين ، وإن تأخر نجمه عن أفول نجم الأتراك بثلاث سنوات ، وسبق الشريف حسين بنفس المدة !..

من ١٩٠٢ ـ ١٣٢٠ الى ١٩١٤ ـ ١٣٣٢ كان ابن سعود يحاصر ابن رشيد ويصفي مواقعه ، ويعزله في شمر ، بينما أصبح هو أقوى أمير في وسط الجزيرة والساحل باستيلائه على اقليم الأحساء عام ١٩١٣ ـ ١٣٣١ ، فلما نشبت الحرب ، حاول عبد

العزيز محاولته المعروفة ، لتوحيد موقف الأمراء العرب في الجزيرة ، وفشلت المحاولة ، وجاء الانجليز يطلبون من عبد العزيز المساهمة في المجهود الحربي ، فاختار أن يحارب ابن رشيد ، ورغم أن إزالة ملك ابن رشيد هو هدف سعودي بحت ، إلا أن دبلوماسية عبد العزيز ، استطاعت ان تحول هذا الهدف الخاص بل الشديد الخصوصية ، الى هدف بريطاني ، محققا بذلك هدفين : تجنب الاحاح البريطاني عليه بمقاتلة الأتراك فقد كان « عبد العزيز » يرفض أن يكون مخلب قط في يد الامبراطورية البريطانية ، ضد دولة تنتسب للاسلام والخلافة . ولذلك اختار هذا الموقف الذي وصف بالحياد ، واستطاع إقناع شكسبير « بأنه ليس من الممكن دفع شعبه إلى الانحياز لجانبنا في المراحل المبكرة للحرب[17] . »

والهدف الثاني هو تمويل بريطانيا لحربه ضد ابن رشيد على أساس أن هذه الحرب أجبرت ابن رشيد وشمر على الانشغال بالدفاع عن أنفسهم بدلا من مساعدة الأتراك في الدفاع عن العراق ضد الغزو البريطاني .

ومن المؤكد أن الانجليز كانوا بحاجة الى قوة تثبت أو تحيد « شمر » ، حتى لا تعترض الغزو البريطاني للعراق ، أو تدعم الحملة التركية على سيناء ، وقد حقق عبد العزيز هذا الهدف ، ومن ثم يمكن القول بأنه قد ساهم في المجهود الحربي البريطاني ، ولكن دون أن يطلق رصاصة واحدة ضد الأتراك ، ودون أن يدخل معركة ضد عدو لبريطانيا وحدها ، بل استأنف معركته التي بدأت قبل ربع قرن من قيام الحرب العالمية . ويمكن القول ايضا انه جر بريطانيا لحربه مع ابن رشيد ، ولم تجره بريطانيا لحربها مع السلطان العثماني . ولكن الأقرب للصحة هو القول بأن مصلحته التقت مع مصلحة بريطانيا في مقاتلة ابن رشيد خلال غزو بريطانيا للعراق .

ويمكن القول أيضا ان ابن رشيد كان مخلصا في تحالفه مع الترك حتى نهاية الحرب ، وفي وثائق المكتب الهندي نص رسالتين متبادلتين بين ابن سعود وابن رشيد بتاريخ ٢٢ رجب ١٣٣٥ ـ ١٥ مايو ١٩١٧ ـ ٢٨ رجب ١٣٥٥ ـ ٢٠ مايو ١٩١٧ (الفارق من اختلاف التقويم الهجري بين حايل والرياض) ورسالة عبد العزيز كانت ردا على طلب الصلح والمسالمة من ابن رشيد ، فرد ابن سعود قائلا :

« لو كان الأمر بيني وبينك ، لما كان أحب الى من حقن دم المسلمين ، وجمع شمل العرب . لكن الأمر اليوم ، يا أخي ، ليس في يدي . فان شئت الخير لك وللعرب ، فان السلام يمكن أن يتحقق بثلاثة شروط :

١ ـ أن تقطع كل صلة لك بتلك الحكومة الوضيعة التي سببت الخسارة لديننا ودنيانا ، وأعني بها الحكومة التركية التي لم تترك اثما لم ترتكبه .

٢ ـ أن تصبح صديقا مع الحكومة التي نحن حلفاؤها ، واخوانك العرب ونحن متعاهدون على توحيد العرب .

٣ ـ أن تكون صديقا مع الشريف وتساعده ، فأي عربي لا يساعده يجب أن نتجنبه . لأن الشريف هو عضو في تحالفنا .

« فان كنت تقبل هذه الشروط فلك ما تشاء ، فأنا أريد السلام ولكن لن أتنازل عن هذه الشروط ، حتى ولو كلفني ذلك عمري ، والسبب أنني أولا أعطيت كلمتي ، وكلمتي لا تتبدل ، وثانيا أنني والله لم أعرف أبداً عدواً ألد عداوة لديننا وللجنس العربي ، من الترك ، وكل من له غيرة على الدين والشرف العربي لا بد أن يحاربهم » .

واذا كان ابن سعود صادقا كل الصدق فيما قاله عن الترك ، فهذا احساسه الذي عبر عنه في كل المناسبات ، الا أن هذه الرسالة بالذات كان يريدها أن تسمع في معسكر الانجليز . ففي ذلك الوقت انتشرت اتهامات الشريف حسين له بأنه يفاوض الأتراك سرا ، ولا يقدم أي دعم للمجهود الحربي للحلفاء . وقد تحقق الغرض ، اذ أثبتت التقارير البريطانية مضمون الرسالة ، وكتب « كوكس » رئيس الخليج الى حكومته : « دعا ابن رشيد ، ابن سعود للتحالف ، فاشترط ابن سعود أن تكون بريطانيا طرفا في هذا الحلف . »

وقد رد ابن رشيد برسالة مختصرة ، لأنه لم يكن يريد استفزاز ابن سعود ، ولا كان يستطيع قبول هذا العرض ، وقد تورط في محالفة الأتراك الى حد لا يمكن أو لا يرغب في التراجع عنه ، فقال :

« لقد تلقيت رسالتك ٢٢ رجب ١٣٣٥ ـ ١٤ مايو ١٩١٧ وفهمت ما بها . ان الشروط التي ذكرتها غير مقبولة ، لا لصالح ديننا ولا دنيانا ، ولذا فالأمر على ما هو عليه : فلزم تعريفك . من عندنا السلام لاخوتك وأولادك وأولادي يبعثـون لك بتحياتهم » .

وقد حصلت غروترودبل[١٨] على الرسالتين ووزعتهما على المختصين البريطانيين في ٣ أغسطس ١٩١٧ ـ شوال ١٣٣٥ (!!)

ورغم الدعم التركي[١٠م] ، الضخم ، لابن رشيد ، وبعض المعارك الضارية ، التي أشرف فيها عبد العزيز على الهزيمة* ، أو حتى القتل ، فقد قاربت الحرب العظمى على الانتهاء ، وابن رشيد ، قد تحول الى مجرد جيب ، القضاء عليه مسألة زمن ليس الا .. في نفس الوقت أصبح الخطر الهاشمي ، هو الخطر العاجل والأكبر الذي يهدد ابن سعود ، لا لأنه كان أكثر قدرة على الحرب من أبطال شمر ، بل لأنه كان يشكل خللا في معادلات ابن سعود الدولية ، اذ لم يستطع أن يقذف به الى المعسكر الخاسر ، بل على العكس كان الشريف هو أبرز حليف لبريطانيا المنتصرة .

ومن هنا أصبح اهتمام ابن سعود موجها بالدرجة الأولى نحو الشريف حسين وأولاده ، عارفا أن عليه أن يلعب بورقة القوى المحلية وحدها ، ضد معادلة دولية ، شديدة القوة والخطورة ، ولأن بريطانيا كانت تعتبر حسينا وأولاده أهم اوراقها في عملية ميراث القسم العربي من الدولة العثمانية ، ولم تكن تريد فتح ملف نجد باطلاق يد الشريف أو بمعنى أصح بدعم الشريف في حربه ضد ابن سعود ، خاصة وأن التقارير

---

* وصف الزركلي موقعة جراب بأنها كانت هزيمة نكراء لعبد العزيز آل سعود[١٩] .

بدأت تصل عن قوة الاخوان ، لذلك قررت شغل انتباه ابن سعود عن الشريف بتحريضه على ضرب ابن رشيد ، فأرسلوا له البعثة التي تضم « فيلبي » ، والماجور « كنليف أوين » ، والماجور « هاملتون » (لورد بلهافن) لدفعه الى فتح « حايل » .

يقول فيلبي « كانت خطة بريطانيا هي شغل ابن سعود بالحرب ضد ابن رشيد لصرف انتباهه عما يجري في الحجاز ، ولمنع تهريب الطعام للأتراك في المدينة والشام عن طريق شمر » .

« وفي خريف عام ١٩١٧ ـ ١٣٣٥ لاحظ السير « ريجنالد وينغت » هبوط معنويات الثورة العربية ، فأرسل لورنس الى جدة ليبعث فيها الحياة . وأرسل رونالد ستورز لبغداد للضغط على ابن سعود للمساهمة في المجهود الحربي ، واقترح كوكس (سير برسي كوكس) أن يذهب ستورز لابن سعود للتوفيق بينه وبين الشريف حسين , ولكن ستورز أصيب بضربة شمس . »

ويقول فيلبي : « ان مهمة البعثة فشلت لأن الملك حسين رفض حمل ابن سعود على محمل الجد ، وخاصة فيما يتعلق بالوضع في خرمة ، التي كانت تتعرض لهجوم من قوات الشريف ، وبعث أهلها لابن سعود يطالبونه بحماية رعاياه . ولم يتحرك ابن سعود حتى وقع هجومان على القرية ، وعندها أعطى انذارا بالسير الى نجدتهم ، اذا ما وقع اعتداء آخر ، ولذا تركز جهد البعثة البريطانية في اقناع ابن سعود بالهجوم على حايل ، اذا اراد استمرار الدعم البريطاني . وقد وافق على ذلك ، ووعد بشن الهجوم في أغسطس ١٩١٨ ـ ١٣٣٦ وفعلا نفذ وعده وتوجه الى جبل شمر ، وظهر أمام حايل نفسها ، ولكنها كانت أقوى من أن يستولى عليها بلا مدفعية (ليس صحيحا*) ، ورجع الى بريدة لتبلغه البعثة البريطانية بأن حكومة بريطانيا لم تعد مهتمة بمصير ابن رشيد . حيث أصبح الترك خارج المعركة . وهكذا ترك ابن سعود لمصيره ، وانشغل المنتصرون بتقسيم الاسلاب[٢٠] ولم تكن له حصة لأنه لم يشترك في ذبح الفريسة ، ولا كان يصلح للدور المطلوب من الأمراء العرب الذين أعطوا حصة في شكل عروش كارتونية .

المهم أن بريطانيا عام ١٩١٨ ـ ١٣٣٦ أرادت أن تضرب ابن سعود بابن رشيد لتشغله عن الشريف حسين ، وفطن عبد العزيز لهذا الهدف ، فرفض أن يحققه ، ابتز الحكومة البريطانية « طلب عشرة آلاف بندقية بذخيرتها وخمسين ألف ليرة شهريا طوال مدة الحملة ، ومدفعية وضابطا بريطانيا يتكلم العربية ، ومستعدا للعيش وسط

---

* بدليل أنه هو نفسه قال في كتابه « بلاد الوهابيين » ص ٣١٩ انه اقتنع في النهاية ، أن لا أحد يهتم بمصير حايل غيره ، وأن المطلوب هو رأس الشريف وليس ابن رشيد[١١]م . ونقل عن ابن سعود قوله : « تذكر أننا نحارب ابن رشيد من أجل خاطرك ! اذ ليس لنا أي شكوى ضده ، بالعكس هو الذي له ثارات علينا من كثرة ما أنزلنا من اصابات من بيت الرشيد ! العدو الحقيقي لنجد شمالها وجنوبها هو الشريف ، وأكثر من عضو في عائلتي ، وكثير من القيادات الدينية ساخطون علي لسماحي بالهجوم على الاخوان في خرمة دون أن نرد الضربة وأنا أهدئهم بأن كل شيء سيعالج . يجب منع الشريف من مهاجمة بلادي . »

العرب[21] » . « ومع ذلك فان ابن سعود لم يقم بعمل ما ضد ابن رشيد الا وضع تركي (ابنه الأكبر) على رأس قوة قبلية في القصيم كنقطة مراقبة ، ولكنها دفاعية[22] » !

كان من الممكن أن يدخل ابن سعود حايلا ، وبريطانيا تلح عليه بذلك ، وتسانده ، وتضع فيلبي ، تحت امرته ، بالذهب والسلاح ، والالحاح المزعج ، وابن سعود يعطيه الموعد ويؤجل ، ويطلب ضمانات واشتراطات أن لا يهاجمه الشريف من الخلف ... الخ .. ولكن لو دخل ابن سعود حايلا وقتها لسجل التاريخ الفتح ، باسم فيلبي ، ولأصبح ابن رشيد شهيدا وطنيا ، أو على الأقل ضحية مؤامرة بريطانية ، ضحية حملة أمرت بها بريطانيا ومولتها ، أو على الأقل أرادتها .. ولأصبح ابن سعود أداة بريطانيا . وقد شاع بين البدو خبر اشتراك فيلبي ، حتى أنه لما وصل الكويت ، قالوا له : « أنت الذي غزوت حايلا ؟ » مع أن ابن سعود منعه من الاشتراك في الحرب .

وهناك نقطة على جانب كبير من الأهمية وعاها ابن سعود بالطبع ، وكشفها تقرير سير برسي كوكس ، وهو أن فتح حايل « بالحملة البريطانية » تمويلا وتنظيما يعطي لبريطانيا كلمة في تقرير مصيرها ، تماما كما حدث لفتوحات فيصل الهاشمي في الشام . كذلك لم يكن « الاخوان » ـ الذين أصبحوا يشكلون العمود الفقري لقوات عبد العزيز ـ سعداء بمحاربة حايل في ظل مستشار انجليزي . وكانوا على العكس أشد شوقا لمحاربة الشريف حسين عدو الاسلام وعميل الكفار كما كان الاعتقاد السائد .

ولأنه لا يجوز وقوع الخطأ في تاريخ ابن سعود (!) فقد رفض ، أو عجز عن الاستيلاء على حايل باسم الانجليز أو بناء على طلبهم ، حتى اقتنع هؤلاء بعجزه العسكري !

وبينما يعلل ابن سعود ، فيلبي بالأماني ، ويتابع باهتمام أنباء تحركات الشريف في خرمة ، وليس ابن رشيد في حايل ، كانت الأمور تتطور بسرعة ، على مائدة صناع الاستراتيجية البريطانية ، فقد زال الخطر التركي ، ولم تعد بريطانيا بحاجة الى مجاملة ابن سعود ، بل أصبحت لا تهتم بزوال ابن رشيد ، فصدرت الأوامر لفيلبي بالانسحاب ، والغاء المهمة . « ان الحكومة البريطانية طلبت من ابن سعود ايقاف الحركات العدوانية ضد ابن رشيد صديق الأتراك ، وهي نفس العمليات التي كان قد شرع بها بناء على طلب الحكومة البريطانية ذاتها[23] » بل وأوقفت صفقة سلاح كانت قد وعدت بها ابن سعود رسميا !..

وقالت مذكرة كتبها سير برسي كوكس : « اننا لا نريد أن ندفع ابن سعود ، الذي لا يعتبر عبقريا عسكريا ، في عمليات خطيرة مثل محاصرة حايل (!..) لقد جرت مياه كثيرة تحت الجسر منذ اتفاقنا الأخير مع ابن سعود ، ولم تعد تكتيكاته مع ابن رشيد تهمنا كثيرا* . وأشك في استطاعة ابن سعود محاصرة حايل بأي أمل في الفوز » (!) ويضيف

---

* في ٢٣ مارس ١٩١٨ ـ جماد ثاني ١٣٣٦ في اجتماع القاهرة قال كوكس : « ان التوازن يصبح أفضل اذا استمر ابن رشيد في حكم حايل » .

السير برسي كوكس « ان سقوط حايل سيثير مشكلة مصيرها ، وهي مشكلة ستكون حساسة » ويقترح الاتفاق مع ابن رشيد ، الذي كتب لفهد بك الهذال* ، صديق الانجليز في العراق بأنه اكتشف أنه راهن على الجواد الخاسر (الترك) . ويقترح برسي كوكس اذا ما تم الاتفاق مع ابن رشيد « أن يبقى ابن سبهان (منافس ابن رشيد) بعيدا عن حايل ، حتى يعرف ابن رشيد باستمرار أنه لو أثار أية متاعب فيمكن أن نضع ابن سبهان في مكانه[٢٤] » .

لم يعد سقوط « حايل » هدفا بريطانيا ، ولكن ذلك لم يكن كافيا ليضرب ابن سعود ضربته ، بل انتظر حتى أصبح استمرار ابن رشيد وحايل هدفا استراتيجيا وجزء من خريطة بريطانيا لشرق البحر الابيض وجزيرة العرب .. عندما عقد مؤتمر القاهرة ، وقرر خبراء الامبراطورية برئاسة الشرير تشرشل ، تقسيم الحصة البريطانية بين الشريف وأولاده وخنق ابن سعود ، وتقرر دعم وجود ابن رشيد كدولة حاجزة بين ابن سعود والعراق والأردن ، وكقوة مناوئة تشغل ابن سعود ، وقد فهم ابن سعود ذلك بصراحة من سير برسي كوكس أثناء اجتماعه به في العقير ، اذ أبلغه المندوب السامي البريطاني : « أن بريطانيا ترحب بوجود ابن رشيد كعامل توازن في المنطقة » . كذلك عرف ابن سعود بوجود مندوب من طرف ابن رشيد في بغداد يفاوض « غروترودبل » الوكيلة البريطانية أو حاكمة العراق الفعلية ، كما تعددت الرسائل من ابن رشيد الى الشريف حسين والملك فيصل ابنه ، والمعتمد البريطاني في العراق ، يطلب وضع شمر تحت حمايتهم** .

« وفي مؤتمر القاهرة (١٩٢١ ـ ١٣٣٩) اقترح كوكس زيادة اعانة ابن سعود الى مائة الف جنيه ، اذا امتنع عن مقاتلة ابن رشيد وابن صباح وحسين . ولكن عبد العزيز دخل حايلا قبل أن ينفض اجتماع لندن ! وهكذا أزال من اللعبة السياسية ورقة الدولة الحاجزة في شمر ، تلك الفكرة التي كانت تأثر لب مسز غروترودبل[٢٦] » .

لما أصبح تحرير حايل ، وسقوط آل رشيد ، عملا معاديا ، أو متعارضا مع الاستراتيجية البريطانية*** ، ضرب ابن سعود ضربته ، ودخل حايلا .. باجراء عربي

---

* وهو الذي وصفه ابن سعود في حضوره وحضور المندوب السامي بأنه « بلا شرف ولا دين » .

** قال فهد المارق ان أباه السيد المارق كان ينقل رسالة من كوكس الى ابن رشيد وكان هذا الاتصال ـ في رأيه ـ الدليل القاطع على أنه لو تأخر عبد العزيز عن فتح حايل لطلب ابن رشيد الحماية البريطانية[٢٥] .

*** وقد ظل الأمل يراود الانجليز في فصل حايل ، ففي التقرير الذي كتبه أنيس صيداوي (مسيحي سوري كان عضوا في الوفد السوري الذي ذهب لتحية الملك حسين عند زيارته لشرق الأردن لاعلان الخلافة . وقد قدم التقرير إلى ترجمان القنصلية الامريكية في بيروت بتاريخ ١٠/٢/١٩٢٤ ـ رجب ١٣٤٢) جاء ما يلي : « السير هربرت صمويل المندوب السامي البريطاني في فلسطين ، قال للملك حسين إن بريطانيا على استعداد لتأييد مؤتمر الكويت اذا وافق المجتمعون فيه على أن يعود وضع أمراء العرب الى ما كان الحال عليه قبل خمس سنوات ، أي ان يعود آل رشيد الى حايل حيث تمثل عودتهم مصلحة كبرى لبريطانيا ، لأن امارتهم ستكون حلقة وصل بين فلسطين والعراق » .

القرار عربي التنفيذ سعودي خالص .. بل يجدر بالذكر أن غالبية شمر ، وعدداً من آل رشيد أنفسهم كانوا مؤيدين لعملية التوحيد ، ايمانا بالمصلحة الوطنية ، ونأيا بدينهم وشرفهم عن أن يكونوا أداة في خدمة المخطط البريطاني وهذا يفسر سهولة الفتح ، ويسر الاندماج .

وهكذا نجت شمر من أن تكون كيانا هزليا يضاف الى ما نثره الانجليز على وجه الخريطة العربية . وتحققت وحدة عربية برغم الانجليز وليس بارادتهم . وانهار ركن في الاستراتيجية البريطانية . ونجا تاريخ عبد العزيز بل تاريخ السعودية من أن تدخل في صرح وحدتها لبنة واحدة تحمل عبارة « صنع في بريطانيا » !

الـملاحق

ابن رشيد

١ م ــ قال ابن بشر :

« لما وصل عبد الله بن رشيد الى جبل شمر أميراً ، وأقام فيها نحو شهر ، كثر القيل والقال بينه وبين صالح بن علي وأعوانه ، فحصلت بينهم مجادلة في المسجد يوم الجمعة ، وشهرت السيوف وأرادوا الفتك بهم ، وتصادموا بينهم ، فقام الناس فحجزوهم وهم في المسجد ، فخرج صالح وأتباعه ، وقصدوا قصرهم ودخلوه ، فحشد عليهم عبد الله بأعوانه ، وأهل بلدانه فحصرهم فيه ، ثم أخرجهم بالأمان عن القصر والبلد .. وكتب عبد الله الى الامام فيصل يخبره بالأمر ، وذكر له أنهم الذين بدوا بالشر ، وأرادوا القتل فينا ، والخيانة ، **فصدقه الامام** ، ثم بعد ذلك أدركهم في بلدان القصيم وقتلهم » .

ولا تلمس في ابن بشر أي صراع بين عبد الله ابن رشيد و « إمامه » فيصل ، بل يقول إنه عندما عاد « فيصل بن تركي » من منفاه في مصر ووصل الى جبل شمر « فأرسلوا الى عبد الله ابن علي ابن الرشيد ، يخبرونه بمجيئهم ، فتلقاهم بالرجال والرحايل . ودخلوا بلده حايل فقابلهم بالتكريم والاكرام وأعظمه غاية الاعظام . وقال « أبشروا بالمال والرجال والمسير معكم والقتال » . كذلك انضم عبيد ابن الرشيد الى تجريدة قادها جلوى بن تركي . وتولى أي عبيد « المفاوضة بأسم الامام مع ابن ثنيان » .

« وجاء متعب بن عبد الله بن الرشيد بهدية للامام اثنى عشر فرسا وركاباً » .

« ودخلت السنة الثالثة والستون بعد المائتين والألف (١٨٤٧) وفي **المحرم** أرسل عبد الله بن رشيد رئيس الجبل الى الامام يطلب النصرة ، فجهز له الامام فيصل من الرياض مائة وخمسين مطية عليها رجال من خدامه » . « وفي جمادي الأول عشية الجمعة توفى هذا الشجاع ، والسيف القطاع عبد الله بن علي بن رشيد بعدما رجع من غزوته هذه . وصار مكانه ابنه طلال أميراً على الجبل » .

(أنظر تعليقنا على خلافة عبد الله بن الرشيد) .

٢ م ــ قال خالد الفرج في مخطوطته العجيبة : « خالف ابن رشيد آل سعود ، في اجتنابه الدعوة السلفية ، لعلمه بأن أهل نجد لا يمكن أن يقروا له بالزعامة الدينية . وألان الجانب للأجانب ، وخص الأتراك بكثير من المجاملة والمسايرة . حتى أنه اعترف بخضوعه للسلطان عبد الحميد ، وتعددت منه الرسل والهدايا الى الباب العالي .. وحاز النياشين الرفيعة ، وقبل المعتمدين المندوبين من الحكومة العثمانية . فصارت تعتمد عليه . وتعده من أكبر المخلصين لها ، وتراه الوسيلة الفعالة التي قضت على آل سعود ومحت إمارتهم من الوجود . فأغدقوا عليه العطايا وخصوه بالمساعدات والتعضيد » .

والحقيقة ان ابن رشيد لم يتجنب الدعوة السلفية ، ولكنه لم يجعلها قضية ، فهذه الدعوة ارتبطت بالبيت السعودي ، وهو وحده الذي يغطيها الزخم الحركي . ولم يكن في طموح ولا في قدرات البيت الرشيدي لعب هذا الدور الحركي . أو قل ان عبرة الدولة السعودية ، جعلت آل رشيد يتجنبون استفزاز العالم الاسلامي ، والدولة العثمانية بالذات ، بتجنب تجديد العمل باسم الوهابية .

٣ م ــ قال والين : ان « صالح بن علي » أمير شمر ، لما هرب من عبد الله الرشيد ، اتجه الى المدينة يطلب نجدة تركية . فرحب به الوالي التركي ووعده بالمساعدة ، ولكن ابن رشيد أكد حقه « الشرعي » في الامارة بألفي جمل وصرة نقود قدمها للوالي فانشرح قلبه « للحق » . وان كان قد احتفظ بابن علي في

المدينة ، ليساوم به عبد الله كلما تأخرت براهينه !

« وقد مات عبد الله في صيف عام ١٨٤٧ وخلفه ولداه طلال ومتعب ، وهما يعترفان اسميا بسيادة عائلة سعود . ويعتبران أنفسهما نوعا ما ولاة لهم . ولو أنهما لا يقدمان أي دليل على تبعيتهما هذه ، إلا أنهما أحيانا يرسلون بعض المتطوعين لمساعدتهما (أي مساعدة السعوديين) في حروبهم وأحيانا يقدمان لهم جزءاً صغيراً من الزكاة »

واضاف والين « إن خيل شمر توزع على الوالي التركي لمكة وشريفها وعباس باشا في مصر وأمراء آل سعود » .

ــ وقال تقرير بريطاني إن « محمد بن رشيد حاول التصدي لحملة تركية ضد الجوف سنة ١٨٧٢ فهزم ووافق على دفع جزية ١٥٠٠ مجيدي سنويا عن الجوف ، والسماح لقوة عسكرية برئاسة قائمقام بالبقاء هناك ، واستقر في قلبه ، الخوف من قوة الترك ، فبينما كان يلقي بآل سعود الى المهانة عام ١٨٨٨ ، كان ينحني لأوامر الضابط العثماني . (لاحظ ان الأتراك كانوا قد احتلوا الأحساء فمن حق ابن رشيد أن يخاف) .

٤ م ــ لابد أن شهية العرب قد نمت كثيراً خلال الثلاثة عشر قرنا ، ففي حديث بدر أن القوم ما بين التسعمائة والألف ، لأنهم يذبحون كل يوم ما بين تسعة وعشرة جمال . أي الجمل يطعم ما بين تسعين أو مائة مقاتل ، فلماذا يحتاج ضيوف الأمير الى ثلاثة جمال ونصف لكل مائة ضيف ، إلا إذا كانت قائمة الآكلين تشمل الخدم والعامة من غير الضيوف الرسميين أو أن حجم الجمال ، أيضا ، قد تناقص !

٥ م ــ وقال إن الشيخ « كان له ٤ أولاد حسين وعلي وعبد الرحمن وعبد الله . عبد الرحمن وابن اخيه عبد اللطيف جيء بهما إلى مصر ودرسا في الأزهر ومازالا (في عام ١٨٤٩) يدرسان فيه المذهب الحنبلي ، وقد سمح لعبد اللطيف في نفس السنة من قبل باشا مصر بالعودة الى وطنه ، حيث عين قاضيا للأحساء » .

٦ م ــ لقد وضعت أن بلنت يدها على مشكلة الحكم في بيت الرشيد ، بل في كل الامارات العربية حتى اليوم فقالت :

« ولعل الخلل في النظام البدوي ، ولابد لكل نظام من خلل ، هو في التباس حق الخلافة في الشياخة ، أو العرش البدوي ، فعندما يموت الأمير ــ إن لم يكن له ابن في سن الرشد ، وذو مقدرة معترف بها ليتولى مقاليد الحكم ، يقوم النزاع المسلح بين المتنافسين من إخوة وأعمام وأولاد الأعمام على الخلافة ، وكثيرة ومريرة هي الحروب التي نشأت نتيجة لذلك . ومن ذلك الخصومة التي هزت العارض عند موت فيصل بن تركي آل سعود وقادت الى تحلل الملكية الوهابية » .

أن بلنت هي حفيدة بيرون وزوجة « ويلفريد سكوين بلنت » الذي كان محامياً للعرابيين في الثورة العرابية ــ ١٨٨٢ ــ ١٢٩٩ وقد عاش حتى رأى ثورة مصر الثانية ١٩١٩ ــ ١٣٣٧ ... وقد زارت اللادي بلنت « نجداً » عشية مولد عبد العزيز وفي ظل حكم آل الرشيد ١٨٧٩م ــ ١٢٩٧ هــ .

وقد جرى تجنيد اللادي للعمل في المخابرات البريطانية حديثا وبعد نصف قرن من وفاتها من قبل بعض الكتاب العرب !! الذين هوايتهم تشويه كل أعلام تاريخنا ، فقد أعلنوا اللادي بلنت جاسوسة ليثبتوا أن جمال الدين الأفغاني مريب لأنه كان على صلة بها . وزوجها كما قلنا كان متصلا بكل زعماء الثورة العرابية بل وكان مستشارهم ومحاميهم !

٧ م ــ عبد الله بن رشيد مؤسس الامارة توفي عام ١٢٦٣ ــ ١٨٤٧ وتولى بعده طلال ومتعب معا .

وانتحر طلال عام ١٢٨٣ ـ ١٨٦٦ وترك ستة أولاد لم يمت منهم أحد ميتة طبيعية بل قتلوا جميعاً .

وقد قال ابن بشر في أحداث ١٢٦٣ : « وفيها وفد متعب بن عبد الله أمير جبل شمر على الامام فيصل ومعه بضع عشر فرساً هدية وحرائر من النجايب » .

وقد علق المحقق الفاضل عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ على ذلك بقوله : « قول المؤلف متعب بن عبد الله بن رشيد أمير جبل شمر فيه نظر لأن أمير جبل شمر في هذه السنة ومنذ أن توفي والده في جمادي الأول ١٢٦٣ هو الأمير طلال واستمر أميراً حتى توفي سنة ١٢٨٣ . وقد راجعت جميع النسخ المتداولة والمخطوطة فوجدتها مطبقة على **هذا الخطأ** . وهو ذكر وفادة الأمير متعب وللتنبيه حرر » .

والحقيقة أن ابن بشر رحمه الله لم يخطيء ، فقد حكم طلال ومتعب معاً وتلقبا معاً بالامارة . وقد ذكر الرحالة والين في صفحة ٦٧ من كتاب : « Travels in Arabia » ما نصه : « ظل عبد الله مالكا للاقليم (شمر) بلا منازع حتى وفاته في صيف ١٨٤٧ (وهو مطابق تماما لما قرره شيخنا ابن بشر) فخلفه في منصبه ابناه طلال ومتعب اللذان يحكمان الآن الاقليم معاً » .

والرحالة والين ، ليس معاصراً فقط ، بل كان في حايل في تلك الفترة ، ومن ثم فلم يخطيء شيخ المؤرخين السعوديين .

وللتنبيه حرر !..

وبعد انتحار طلال تولى أخوه متعب منفرداً فقتله أولاد أخيه بعد ثلاث سنين (١٢٨٥ هـ ـ ١٨٦٨ م) . وحكم بعده بندر الى أن قتل في (١٢٨٩ هـ ـ ١٨٧٢ م) . ثم محمد بن عبد الله ومات سنة ١٨٩٧ .

ثم تولى عبد العزيز بن متعب الذي قتل في روضة مهنا سنة ١٣٢٤ ـ ١٩٠٦ في القتال ضد عبد العزيز آل سعود . وكان معه فيصل الدويش الذي سيكون من أشهر قواد عبد العزيز آل سعود ونجم « الاخوان » .

وترك عبد العزيز الرشيد أربعة اولاد : « متعب » . « مشعل » . « محمد » . « سعود » . فخلفه متعب ، الى أن قتله أولاد حمود من آل عبيد ، سلطان وسعود ، وقتلا معه أخاه « مشعل » . ولما تولى قاتله (سعود) الامارة ، قام بقتل الأخ الثالث لمتعب ، وهو « محمد » . ولكن سعوداً ، لم يصف له الدهر . فقد وثب عليه سعود وفيصل ، فقتلاه . وتولى سعود بن حمود الامارة . ثم خلع وتولى طفل في العاشرة الحكم بوصاية خاله حمود السبهان ، الذي مات مسموما ، فتولى بعده زامل السبهان الذي قتله سعود بن سبهان ، وأصبحت الامارة بين عبد وامرأة . ولا يذكر الأمير إلا عندما يقتل ! كما حدث للأمير سعود الرشيد عندما قتله عبد الله بن طلال في ١٣٤٠ ـ ١٩٢١ ، ليقتله عبيد الأمير سعود ، الذين لا أدري لماذا لا يحمون أميرهم وهو حي ، مادامُوا يقدرون على الثأر له وهو ميت !.

وتولى عبد الله بن متعب الذي أسره عبد العزيز آل سعود ، فتولى محمد بن طلال الذي استسلم بدوره لعبد العزيز سنة ١٩٢١ . وقال ضاري بن فهيد بن عبيد الرشيد : « إن التطاحن الذي قام بين أفراد هذه الأسرة ، نشأ عنه من المآسي ما تقشعر له القلوب ، بحيث أن الأخ يقتل أخاه ، والخال يقتل ابن اخته ، والعم يقتل ابن أخيه ، مما أوجد في نفس كل فرد من أفراد هذه الأسرة عدم الطمأنينة » .

٨ م ـ قال فيلبي : « بعد انتصار ابن الرشيد على الحشد الكويتي ، انتقم من بريدة ، بذبح مائة وثمانين من زعمائها ، وفرض غرامات فادحة على الأحياء . ولكن هذه القسوة في الانتقام جعلت اسم عبد العزيز الرشيد مكروها في نجد كلها . ودفعت عبد الرحمن الى التنبؤ بأن نجداً ستعود قريباً لأصحابها الشرعيين وهي نبوءة ستبدأ في التحقق في العام التالي على يد ابنه عبد العزيز » .

٩ م ـ ومن هنا كان نقدنا للخطأ الشنيع الذي وقع فيه مؤلف صقر الجزيرة عندما قال عن عبد العزيز

الرشيد الخصم الأول لابن سعود الذي قتل في عام ١٩٠٦ وهو يحارب عبد العزيز آل سعود : « وكان الى جانب كل ذلك ، مغروراً متكبراً متهوراً سيء السياسة ، فائل الرأي ، فقيد الزكانة ، يريد أن يقضي كل حاجاته بالقوة والعنف ، ولهذا قادته قوته العمياء الى هاوية تردي فيها سريعا ... ولو ساوى جوده وشجاعته وقوته ، ما كان لدى خصمه ابن سعود من رجاحة العقل وسماحة النفس وصحة الملكات وسداد الرأي لكان في حربه وقتاله من الغالبين ، ولكان له في المحافل السياسية الدولية شأن مذكور كما لخصمه الآن » .

ولكن هذا الكلام يصح فيه قول القائل ونستغفر الله العظيم : « لقد سألتم الدهر شططا » ! فليس في التاريخ فرضية اسمها لو كان ابن رشيد غير ابن رشيد ، أو أن نتطلب عكس صفاته بالضبط !.. إلا أن وجه الخطورة في هذا القول ، ليست فقط في مساواة قضية شمر ، بقضية آل سعود ، بل حتى في ترجيح قضية شمر ، إذ أن مجرد تساوي صفات القائدين ، جعلت المؤلف ، في تلك الفرضية ، يحتم فوز عبد العزيز الشمري على عبد العزيز السعودي . وهو ما لا نجد له سنداً أو مبرراً تاريخياً ، بل نحكم بأن الفوز كان من نصيب آل سعود مهما تكن صفات الحاكم من آل رشيد ، لأن البيت السعودي ، كان يحمل رسالة وهدفاً أكبر من الصراع على السلطة ، هذا الهدف كان معلقا في رايته حتى ولو لم يكن القائد واعياً به ، معلناً له ، والقائد السعودي يطرح صيغة جديدة على الأصعدة السياسية والوطنية والمسلكية ، ومن ثم ففرص نجاحه أكبر . وهذا الرأي الذي يطرحه المؤلف هنا بفجاجة ، هو في الحقيقة تعبير عن التيار العام الذي سبح فيه المؤرخون لعهد عبد العزيز إذ وقعوا جميعا في خطأ ترجيح صفات عبد العزيز على أنها العنصر الفعال الذي كتب الانتصار السعودي ، لا الوهابية ولا الرسالة ، ولا حتى البيت السعودي . اما أن الدعوة الوهابية قد تعززت وانتصرت بتفوق الصفات الشخصية لقائدها ، فهذا هو حكم التاريخ دائما ، عندما تحين لحظة نصر تاريخي لحركة عقائدية ، فانها تصبح قادرة على انجاب القائد الأمثل ، وتسهل مهمته ، غالباً ، باختيار نموذج سيء ليقود القوى المضادة .. وحتى اذا كان قائد التيار المهزوم تاريخياً أذكى أو أبرع فان ذلك لا يفيده كما هزم هانيبال وهزم روميل ونابليون أمام قادة لن ينالوا أبداً شهرة المهزومين أمامهم !...

ومهما أغدق المؤلف من صفات على ابن سعود مثل قوله : « رجح عليه بالرأي والحيلة والدهاء والاعتصام بربه ودينه ، وبالسخاء والكرم والأريحية والتواضع ، وحسن السيرة ، ولين العريكة ، والبعد عن الغرور والحماقة والكبرياء ، وهي صفات حرم ابن متعب أكثرها ، وكان نصيب عدوه منها نصيباً موفوراً . »

كل هذا الاغراق في الثناء على عبد العزيز ، إنما يتم على حساب البند الأول في انتصاره ، وهو الدعوة .. الرسالة .. نقل الصراع من المستوى العائلي السلطوي ، الى صراع عقائدي .. ولذلك نجد أنه من ١٩٠٢ الى ١٩١٥ وإن كان الخط البياني لصالح ابن سعود ، إلا أن الحرب سجال ، والكفتان تتعادلان من البكيرية الى جراب .. ولكن بعد إتضاح الطابع العقائدي ، والطرح العزيزي للصيغة الوهابية حسم الموقف تماما ، وأصبح الأمر رهينا بارادة عبد العزيز متى شاء أنهى دولة آل الرشيد ، فلما حانت اللحظة المناسبة أنهاها .

ولكن الأمر يخرج عن نطاق الخطأ التاريخي عندما يكتب المؤلف عن ابن رشيد : « أعظم فارس مغوار أنجبته جزيرة العرب في هذا العصر : عبد العزيز بن متعب آل الرشيد الذي قتل في حربه مع ابن سعود في معركة روضة مهنا الضارية » !

لماذا أعظم فارس ؟. لماذا ليس عبد العزيز الذي قتله ؟.. أو فيصل الدويش ؟!

وأي فارس هذا الذي يقتل أربعين كهلا من الرعاة العزل ؟! يذبحهم ذبحاً ثم لا يميز رايته في المعركة من راية خصمه ؟!

وقصة الأربعين كهلا أنه أي عبد العزيز الرشيد «أعظم فارس انجبته .. الخ» نزل«روضة

مهنا » فوجد بها أربعين كهلا فانيا من البؤساء الفقراء العاجزين ، ومع بعضهم أطفال لا يتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره ، فأتى بالأربعين طاعنا في السن ، لأنهم من أهل القصيم الذي دخلوا في طاعة ابن سعود ، ورصهم على ابعاد متساوية وجز رؤسهم ضاحكا لاهيا يسمع أناتهم » !

ويظل أعظم فارس !

أما حكاية الراية التي أوردها الريحاني ، فهي أنه في معركة روضة مهنا اختلط على « الفارس المغوار » الأمر بسبب غبار المعركة كما في معظم الروايات ، أو بسبب الليل ، اذ كان خارجا لقضاء الحاجة مع عبده ، كما في الرواية التي انفرد بها محمد المانع عن ابن مطرف ، المهم أخطأ حامل راية السعوديين ، فظنه « الفريخ » حامل رايته ، فصاح به « من هنا يا لفريخ » فعرفه الأعداء وانهالوا عليه بالرصاص فأردوه قتيلا (١٣ أبريل ١٩٠٦) .

وقيل إن عبد العزيز الرشيد أقسم الا يستحم أو يمس النساء إلا اذا دخل الرياض فمات دون ذلك .

وقال ابن المانع انه طلب مبارزة ابن سعود فرد هذا عليه بأن « (ابن الرشيد) حريص على الموت ، وليس من الحكمة مبارزة رجل يحرص على الموت » .!

١٠ م ـ في مطلع يناير ١٩١٤ أرسلت تركيا لابن الرشيد عن طريق السكة الحديدة حمولة ٣ عربات قطار من الأسلحة : ٣ مدافع جبلية مع ٥٠٠ طلقة لكل مدفع ، وثلاثين ألف بندقية مع عربة كاملة بذخيرتها . وسيارة (الأولى من نوعها في الجزيرة) وثلاثة خبراء أوروبيين قيل إنهم مسيحيون ، (من تقرير بريطاني سري بتاريخ ١٩١٤/٦/١١ برقم ٢٤٨٢ وجاء في نفس التقرير : « والشائع أيضا ان الحكومة التركية تنوي إزاحة ابن سعود من الخليج بعدما انشغل كلية مع ابن رشيد في القصيم » . وهذا قبل قيام الحرب ويدل على أن التحرش كان من جانب تركيا أولا .

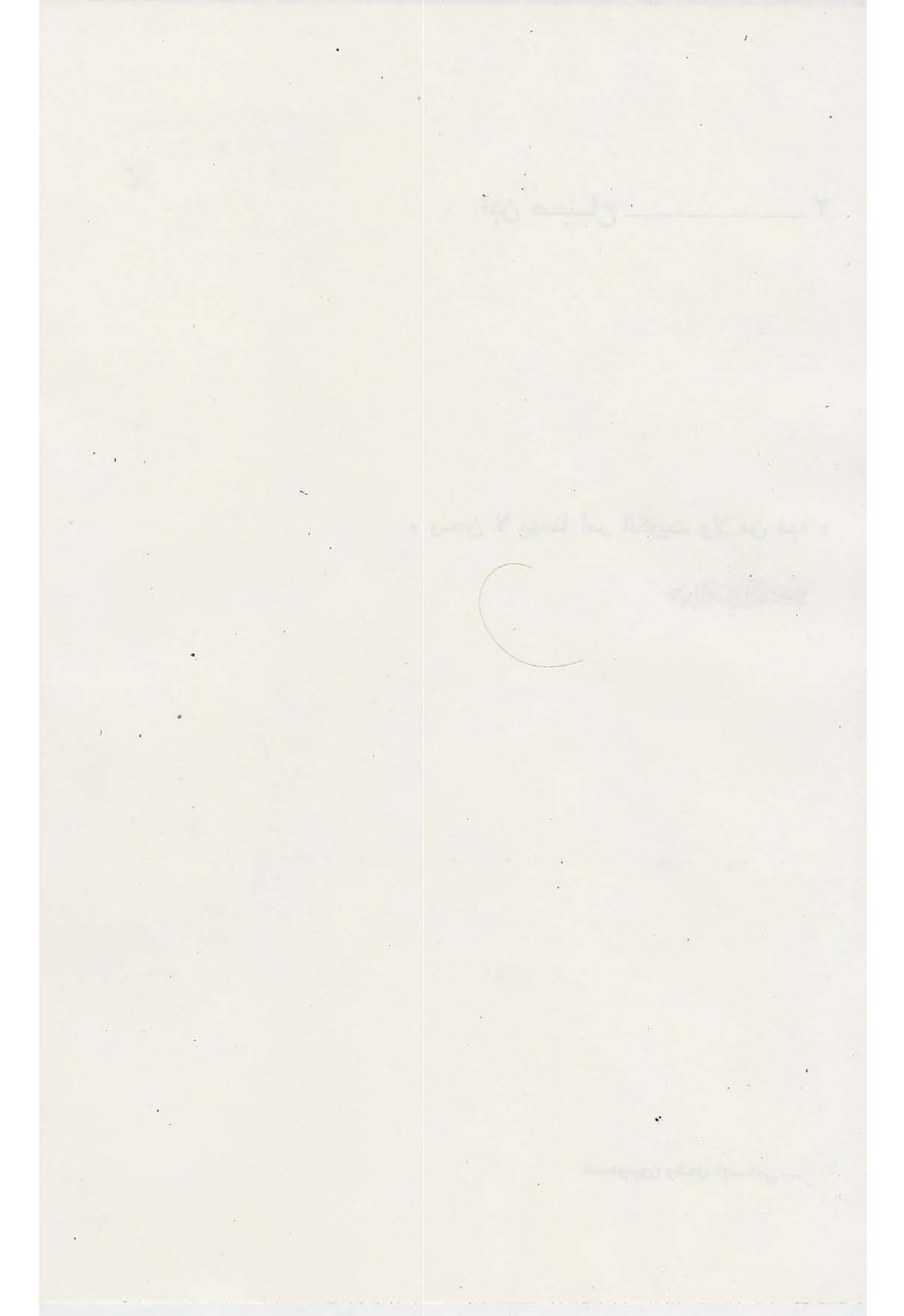
١١ م ـ بعد الحملة « الاستعراضية » التي قام بها ابن سعود لترضية فيلبي والتي وصلت الى أسوار حايل . عقد ابن سعود مجلسا لبحث الخطوة التالية : هل يفرض الحصار على حايل حتى تستسلم ؟ ولكن « المسلمين ما رأوا ذلك » . وقد كتبها فيلبي هكذا « Muslimin Ma Rau dhalik » وقالوا ليس بيننا وبين ابن رشيد عداوة خاصة . وقد حصلنا على ما نريد (الغنائم) فلنعد الى بيوتنا . « وكان هذا قرار المجلس » .

ويعلق فيلبي أن « ابن سعود والمجلس بهذا القرار ، أضاعا الفرصة التي أتيحت للقضاء على ابن رشيد نهائيا من الساحة العربية ، ولم تسنح هذه الفرصة مرة أخرى إلا في عام ١٩٢١ .

وقد شرحنا فلسفة ابن سعود ، والرأي العام بين الاخوان ـ وقتها ـ وهو كراهية إسقاط ابن رشيد تنفيذا لخطة بريطانية ، فلما أصبح وجود ابن رشيد استراتيجية بريطانية ، أزاله ابن سعود بسيوف الاخوان .

« ونحن لا يهمنا أمر الكويت ولا من فيه »

عبد العزيز آل سعود



لعبت الكويت او ابن صباح دورا لا يمكن إغفاله في أحداث السنوات الاولى من قيام دولة السعوديين بقيادة عبد العزيز ..

ولا توجد حتى الآن دراسة شاملة جادة تحلل الدور الذي لعبه آل صباح في تاريخ الخليج ، وربما يفسر ذلك بعدة أمور ، منها أن غالبية المهتمين بتاريخ الخليج والجزيرة العربية ، كانوا على قناعة بمنطق عبد العزيز ، أنه لا دور خاص للكويتيين ، أو كما قال : « نحن لا يهمنا أمر الكويت ، ولا من في الكويت وإنما الذي يهمنا هو موقف الحكومة البريطانية » أعني ان الجميع اعتبروا أن الطرف الأصيل هو بريطانيا ، ومن ثم فلا معنى للاهتمام بالظل أو تحليل الصدى ، لأن سياسة الكويت كانت بالكامل في يد الانجليز ، والسبب الثاني أن حجم الكويت لم يتورم في الساحة العربية ، إلا بعد النفط ، ولذلك فان الدراسات الفكرية ركزت على الوهابية والشيعة ، أما التاريخية ، والسياسية فقد اهتمت بالبلدان الكبرى الثلاث : ايران ، العراق ، السعودية ثم البحرين باعتبار الدور الطليعي الذي كان لشعبها دائما ، ولا مكان للكويت في اي نوع من هذه الدراسات إلا على هامشها* .. السبب الثالث أشار اليه مؤرخ الكويت الوحيد ، الذي ألف كتابه بموافقة ابن صباح وقبض ألفين وخمسمائة روبية مكافأة على تاريخه هذا ، الذي وضع أساسا عام ١٩٢٩ ـ ١٣٤٨ ، للرد على محاولة سعودية لكتابة تاريخ المملكة ، وتوقع الكويتيون ـ بالطبع ـ انها لن تذكرهم بالخير[١م] . هذا المؤرخ اعترف بأنه لم يستطع أن يقول كل شيء ، ولا حتى أن يلتزم بالحقيقة في ما قاله ! واعتذر قائلا :[١] « وأنا على يقين أن من القراء ، من سيلاحظ على أشياء فيما كتبت ولكني أجيبه بقول الشاعر :

في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء ؟[٢م]

وإذا كان فم المؤرخ « الكويتي » قد امتلأ ماء عام ١٩٢٩ ـ ١٣٤٨ ، على ندرة الماء في الكويت ، فسكت وابتلع الحقيقة ، فما بالك بمن ملئت أفواههم بالنفط ؟ .. هل يمكن أن يخاطر أحد بمثل هذه الدراسة المطلوبة ، لا عن الكويت ، بل عن آل صباح ليكشف لنا سر هذه الظاهرة المدهشة ، **وأعني بها التكوين الفكري والنفسي لهؤلاء الشيوخ الذين شكلوا حالة متميزة وغريبة عن المزاج العربي والنفسية العربية مكانا وزمانا** ، وقد اتضح ذلك بشكل سافر منذ ولاية الشيخ مبارك الكبير ، رأس الاسرة الحاكمة حاليا ، وحاكم الكويت خلال الأحداث التي شهدت عودة آل سعود الى الرياض ؟

---

* وان كان ديكسون قد حاول قلب القاعدة فوضع كتابا سماه « الكويت وجيرانها » ، وهو أشبه بمن يؤلف كتابا بعنوان مالطة وجيرانها يقصد بجيرانها فرنسا وايطاليا ... الخ !

ففي ظل « مبارك » نشأ في الكويت وضع خاص ، يتميز في مسلكتيه وقيمه ومبادئه ، عن كل ما عرفته المنطقة من نماذج ! ولا أحد يدين آل الصباح أو آل خليفة أو حتى ملك الملوك الايراني بالخضوع للانجليز في ذلك الوقت ، ولكن المهم هو الموقف من القهر البريطاني ، لقد كان موقف العرب من السيطرة الانجليزية يتخذ أحد مسلكين : إما الرفض المطلق والاصرار على المقاومة بكافة أساليبها من التقزز من المؤاكلة الى القتال بالسلاح ، كما هو الحال مع الوهابيين ، وأبرز صور هذا الرفض هم القواسم ، الذين ظلوا يقاومون الانجليز حتى اغرقت آخر سفنهم ، وحرق آخر كوخ لهم في ساحل عمان ، وخلع آخر شيوخهم في الستينات من هذا القرن ! وكما هو الحال في مقاومة الجماهير العراقية والايرانية والبحرانية ، بل حتى مقاومة الطبقات الحاكمة في تلك البلاد قدر طاقتها ، وصلابتها ، ومحاولتها تفادي الضغط البريطاني ، مع تقليل حجم التنازلات عن السيادة والكرامة . وقد تتفاوت هذه المقاومة ما بين التضحية بكل شيء أو التسليم مع الاعتراف بالخيانة من قبل مرتكبها وليس فقط من جانب رافضيها ولاعنيها .

أما الحالة الثانية ، فهي حالة الخضوع للقوة القاهرة ، وهو ما لجأ إليه بعض شيوخ الخليج حفاظا على الكيان . واعترافا وتسليما بالعجز المطلق عن المقاومة ، ولذا اتسم خضوعهم بالذل والمرارة والانكسار ، والانفجارات الغامضة ، وتعدد حوادث تدخل الانجليز لخلع الشيخ . واستبداله بشخصية أضعف ، وأكثر استعدادا لقبول الذل ، ومعظم هؤلاء المشايخ ، وقعوا معاهدات الحماية عن غير وعي كامل بتبعاتها ، وسرعان ما ندموا واعترضوا وخلعوا ...

الا آل الصباح ! فقد ظهرت معهم أو مع مبارك بالذات حالة فريدة من نوعها – في ذلك الوقت على الأقل – وهي حالة الفخر بالتبعية لبريطانيا ، التلذذ بالخضوع لبريطانيا العظمى ، عشق بل الافتنان بقوة « الحكومة القيصرية البهية »* « أهل البيض »** ، والشبق لخدمتهم بل التطوع لخدمة مصالحهم ، وتمكين استعمارهم للمنطقة بل وبذل الجهد تطوعا لجر الآخرين الى نفس الطريق !

الظاهرة الأخرى التي تميز بها آل الصباح ، والتي قد تبدو أعجب وأغرب ، وربما كانت هي الاساس في تلك العلاقة الخاصة مع الانجليز ، هي : « **تحررهم** » **من الدين !** حتى كأن شيوخ الصباح قد جاءوا من عصر آخر غير عصرهم ، ومن مجتمع غير مجتمعهم ، ويضاعف من غرابة هذه الظاهرة ، وجدارتها بالدرس والتحليل ، أنها وجدت في فترة كانت الدعوة الاسلامية فيها ، نشطة مع المد الوهابي الذي أثاره ابن

---

* اسم بريطانيا في مخاطباتها مع أهل الخليج

** كذلك كان مبارك يسمي الانجليز كناية عن بياض بشرتهم ! ويبدو أن الانبهار من بياض البشرة واقترانه بالقوة ظاهرة عامة في آل الصباح فقد زار الشيخ جابر العلي ايران في الستينات وعاد مبهوراً مذهولا يردد : « بيض عيونهم زرق مثل الانجليز والاسرائيليين ! » .

سعود في المنطقة .

وقد زعم حافظ وهبة ، الذي يعتبر أكثر المؤرخين ، لتلك الفترة معايشة للكويتيين وشيوخهم ، أن القصة التالية تروي في الكويت[٢] : « عن جابر الكبير جد الشيخ مبارك الصباح ، أنه حينما رأى أحد أبنائه يحضر مجالس العلم ، وصفه باختلال العقل ! لأن الامارة لا تجتمع مع طلب العلم ، ولكن هذا الفتى الذي اشتهر أول امره بالتقوى وحب العلماء تغير سلوكه ، فاستبدل بحلقات الدروس مجالس الأنس والطرب ، وبالعلماء أهل الخلاعة ، فسر والده من هذا التبدل ، وقال : إن دم الصباح قد تغلب عليه فصغيرهم للكلاب وكبيرهم للـ ... »*

وليس الاقبال على الملذات ، أو ارتكاب المعاصي ، هو ما يؤخذ على آل الصباح ، فكلنا في الهم شرق ، **ولكن التحلل رسميا وعلنيا من الدين ، واتخاذ موقف فلسفي منه ،** هو الامر الغريب والمستغرب من شيوخ في البادية ، حرموا من الثقافة الغربية التي تكون قاعدة فكرية لمثل هذا الموقف الديني !

وقد حاول الشيخ وهبة أن يعظ الشيخ جابر فقال له ابن صباح : « كلامك كلام مطوعة (جمع مطوع أو الواعظ) وقد سمعناه كثيرا في دروس الوعظ وخطب الجمع ولسنا في حاجة الى المزيد »[٣] .

وأحصى عبد العزيز الرشيد مؤرخ الكويت مساجدها ، فلم يدرج مسجدا واحدا بناه آل الصباح ، وان كان قد أحصى مسجدين في الكويت بناهما آل خليفة شيوخ البحرين ! ... وهما مسجد مبارك ومسجد آل خليفة ، ولم يفت المؤرخ الكويتي أن يقول « أما مبارك الذي يضاف اليه مسجد مبارك فهو مبارك من آل فاضل وقيل من آل خليفة حكام البحرين » !

وقد أجمع المؤرخون على تحلل « مبارك الكبير » من الدين ومجاهرته بالمعاصي ، فوصفه الشيخ حافظ وهبة بقوله :

« كان الشيخ مبارك طويل القامة أسمر البشرة ، قوي الذاكرة ، صلب الارادة ، مستبدأ طموحا الى نشر سلطانه ونفوذه على البلاد المجاورة ، ولكن الظروف لم تساعده . وقد اشتهر مبارك بالتقلب وعدم الثبات على سياسة واحدة ، فقد كان يساعد آل سعود لاضعاف نفوذ آل رشيد وخضد شوكتهم ، كما كان يعمد أحيانا الى تقوية صلاته بآل رشيد خوفا من توسع آل سعود وكان لا يعف عما في أيدي الناس فقد كان يتوسل بأوهى الاسباب لفرض ضرائب على الناس وابتزاز أموالهم » .

وقال ــ وهو المهم ــ : « **وقد خرج في أخريات أيامه على تقاليد العرب والدين ، وكان يجاهر بالمعصية حتى في رمضان ، مما جعل أهل الكويت يضجرون منه** » .

ووصفه مؤلف صقر الجزيرة بقوله :

« كان رقيق الدين ، محبا للهو والأنس والطرب ، وعندما تولى إمارة الكويت أصبح

---

* وتكملتها معروفة ولكن فضيلة الشيخ تعفف عن إثباتها !

قصره على شاطيء البحر مزدحما بالغواني والراقصات من حسان ايران والخليج ، وكان لديه عديد من الراقصات السوريات والمصريات واللبنانيات ولياليه الحمر ، بشعة داعرة ، وكان مفتونا بالكاعب والكأس ، **وقد استباح حرمة شهر رمضان**[٤] » .

ولم يؤد فريضة الحج منهم الا الشيخ احمد الجابر* ، ورأى مؤرخ الكويت في ذلك ظاهرة تستحق التسجيل « لأنه حفظه الله تعالى هو أحد أمراء آل الصباح الذين وفقوا لأداء فريضة الحج » . وكان الأحرى أن يقول الوحيد ، وقد حج أحمد الجابر عام ١٣٣٦ ـ يونية ١٩١٨ « ولقى من الملك حسين إذ ذاك حفاوة وإكراما لائقين بمقامه السامي » .

فالرحلة كانت لهدف سياسي . والشيخ « أحمد الجابر » هو ايضا « أول وآخر شيخ في الكويت اتخذ له واعظا خاصا في مجلسه العام ، كل صباح ، يفسر بين يديه الكريمتين الآيات القرآنية ويشرح الاحاديث النبوية** » .

وقال الريحاني وهو القادم من نيويورك والشارب لعرق زحله إنه « فتن بمفاجآت الترف والرفاهية في قصر ابن صباح » أما سالم بن مبارك « فكان من العفاف بحيث لم يتحدث حتى ألد أعدائه بما يوجب القدح في عرضه ، وكان عدوا لدودا للفسق والفجور ولكنه لم يحج » .

ومعروفة قصة الشيخ عبد الله السالم الذي رفض أداء العمرة رغم وجوده في جدة لاجتماع سياسي .. وكان غفر الله له يمزح في مجالسه بالسخرية من طريقة السجود في صلاة المسلمين ويفخر بأنه لا يفعلها ! ولا يعرف في الكويت تقليد صلاة الجمعة للأمير .

فهناك موقف « عقلي » من الدين ، وليس مجرد ترف أو فساد حكام .

وقد أشاد الريحاني بالكويت في العشرينات وقال[٦] إنها « تنسيك الرياض ، هي باريس البلاد العربية ، فيها دخان ، وفيها ويسكي ، وفيها المباح من النساء*** » .

أما الشيخ سالم الذي كان عفيفا ، فقد تعرض فيلبي لالحاح شديد منه لكي يحلق لحيته : « فاللحية قد تكون ضرورة في مجتمع ابن سعود المتخلف ، ولكنها مزعجة هنا

---

* وأحمد الجابر هو الذي شرح للانجليز أسباب ثورة الاخوان قائلا : « لما بدأ ابن سعود حربه الدينية ، تشبع الاخوان بفكرة عودة أيام الرسول ، فلما اصطدمت توسعات ابن سعود بالسلطة البريطانية أجبر على التوقف وضبط الاخوان ، والتخلي عن جهاده ، وهكذا تحطمت أسطورة الامام » ! .

من تقرير بسكو رئيس الخليج الى وزير المستعمرات ١٥/١٢/١٩٢٩ ـ رجب ١٣٤٨
The Cohesion of Saudi Arabia.

** ويبدو أن الشيخ أحمد الجابر كان حريصا على إبراز هذه الشعائر لما تعرض له من نقد بسبب انضمامه للمحفل الماسوني ، وكان أمرا غريبا من شيخ في جزيرة العرب أن يصبح ماسونيا ! .. وقد وصفه الريحاني بأنه « أقرب في هيئته إلى الشكل الآري منه الى السامي فلو كان في غير النعل والثياب العربية لظننته هنديا من البنجاب أو أوروبيا من بلاد الأسبان[٥] » .

*** وهذا في عهد الحاج « أحمد الجابر » .. فما بالك ؟!

في الكويت » .. فلما طلبت حلاقا ، بادر بتقديمه في الحال . وعندما دخلت على الشيخ في الليل كان سعيدا برؤيتي حليقا نظيفا » !

وقال مؤرخ الكويت عن مبارك الكبير : « **جاهر مبارك في آخر أيامه بترك الشعائر الدينية** ، والتساهل بالصلاة والصيام ومال إلى اللهو والقصف والتهتك والخلاعة ، فاستقدم الراقصات من مصر وسوريا وأقام لهن المسارح في قصوره الشاهقة ، وانغمس في هذا الأمر انغماسا عظيما » !

ولا يمكن تفسير هذا « التحرر » في سلوك آل الصباح بطبيعة الكويت ، كمجتمع تجاري مفتوح من ناحية البحر على العالم ، وعراقة اتصالهم بالهند البريطانية . والانجليز ، ومن ثم يقال إن المجتمع كله « متحرر » غير متأثر « بتزمت الصحراء » من ورائه ! .. هذا التفسير لا يستند لأساس من الواقع ، بدليل استنكار جميع المعاصرين لسلوك مبارك الكبير ، وبدليل ما رواه التاريخ عن تزمت المجتمع الكويتي ـ قبل النفط ـ حتى أن مؤرخ الكويت الأول ، « كان يرى حرمة مطالعة الكتب العصرية ، وقراءة الصحف والمجلات ، فأعلن هذه الآراء ، ودعا الناس الى اعتناقها ، كما دعاهم الى الابتعاد عن تعلم اللغات[٧] » . وقد ترك مؤلفات توحي عناوينها بمضمونها مثل : « تحذير المسلمين » « الدلائل البينات في حكم تعلم اللغات » ! ..

فمن يحرم تعلم لغة الكفرة ، أتراه يحلل شرب خمرتهم وفي رمضان ؟!

وهناك وقائع اخرى ، وصلت فيها معارضة الكويتيين لسياسة التبعية لبريطانيا ، حد المجاهرة بعصيان مبارك رغم قسوته وبطشه ..

وكان المحرك الأول للكويتين هو الدافع الديني ، أو الروح الاسلامية ، فعندما ثار شعب عربستان على « خزعل » صديق مبارك ، كما سنرى . وذلك في عام (١٣٣٣ ـ ١٩١٤) ، وأعلنوا الجهاد ضده نصرة للدولة العثمانية ، بعدما رأوا ترامیه على أقدام الانجليز وتهتكه في الملذات ، وتنبأوا بالمصير الذي ينتظرهم في ظل مثل هذا الحاكم الخليع من كل القيم ، طلب « خزعل » نجدة من قرينه ابن صباح ، فهب لنجدته ولكن الكويتيين ـ كما يقول المؤرخ الكويتي ـ وقد علموا أنهم سيقاتلون إخوانهم ، أظهروا العصيان وجاهروا بالامتناع ، لاسيما والعلامة المحدث الشيخ محمد الشنقيطي ، والشيخ حافظ وهبة المصري ، كانا يطوفان المجالس ويغشيان الاندية ، لتحذير الناس من الطاعة ، وأن من انقاد فقد يحكم عليه بالأرتداد عن الدين ، فأثار ما قالاه الحماسة في النفوس ، حتى صنمم القوم على الاباء ، مهما كان في الأمر من شدة ، ومهما نزل بهم من بلاء ، وذهبوا الى جابر (ابن مبارك) وقد تأبطوا مسدساتهم ، فقالوا له عندما أمرهم بالمسير : لا نسمع ولا نطيع فقال جابر : لماذا ؟ فقالوا لأن الطاعة في هذا الأمر معصية . والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » فبهت جابر من مفاجأتهم بذلك ، وحق له أن يبهت فانها هي الفذة في الكويت ولم تجر فيها أختها منذ تأسست . وقد أخلد جابر إلى السكوت ، غير أنه بادر باخبار أبيه في « الفيلية » بما جرى ، وهناك ساور مباركا غضب شديد كاد يتميز منه سيما على

من ظنهم مدبري العصيان من الرؤساء ، فشرع يتوعدهم بما يقض عليهم المضاجع ، ويعكر عليهم الصفو . وقد حاول الرؤساء بعد أن بلغهم غضبه إقناع الناس بما يراد منهم فما قنعوا ولا رضوا فاضطروا إذ ذاك إلى أن يذهبوا بأنفسهم لعرض الطاعة عليه وازالة ما علق في ذهنه ، ولكنهم وقد اجتمعوا به في الفيلية أسمعهم من التأنيب القارص واللوم الشديد ما أطار النوم من أعينهم وزهدهم في انفسهم . ولكنه من جهة أخرى خامره شيء من الخوف للحماس الذي انتشرت جذوته بين أحياء الكويت . والذي لم يعهد له نظير في أيامه كلها ، فغير لهجته أمامهم وقال : « أنا لم أرد رجالا لقتال ، وانما طلبت سفنا لنقل أثاث اخي خزعل وأمواله وعائلته الى الكويت ، اذا احتاجوا الى ذلك ، فارجعوا الى الكويت وبادروا بارسال ما أريد فرجعوا وقد وقعوا بين أمرين عظيمين ، إرضاء العامة بسخط مبارك ، أو ارضائه بسخطهم وهما خطتا خسف يصعب عليهم التخلص منهما . وأخيرا اهتدوا الى أمر خدروا به الاعصاب ، واطفأوا النار المتأججة .. قالوا إن مباركا بلل الثرى بدموعه رحمة بالكويتيين . وقال إن اهل الكويت أولادي أود لهم من الخير ، ما أود لنفسي ، وأني آسف لما أصابهم من الأنزعاج ، وما حصل لهم من الاضطراب فخدعوا بقولهم هذا الكثيرين حتى تمكنوا من تجهيز ١٨٠ رجلا في ست سفن شراعية[٨] » .

فنحن أمام ثورة حقيقية ، اجتاحت الكويت ، ضد المتعاونين مع البريطانيين ، ودفاعا عن الدولة العثمانية ، دولة الخلافة والاسلام . وهي الأولى والاخيرة من نوعها الى الخمسينات ، ولا يكاد يشار اليها في الكتابة عن تاريخ الكويت . ثورة منعت ابن صباح من نصرة خزعل الذي يعد نموذجا للأمراء العرب الذين دمروا الحضارة العربية ، وأبادوا ليس فقط السيادة العربية ، بل حتى الوجود العربي والاسلامي من الأندلس إلى الفلبين .

ثورة شلت ابن صباح وأرعبته ، واضطرته للكذب والنفاق ، وهو الطاغية الجبار ، ثورة « عمت جميع الأحياء » ، أي جميع مناطق الكويت ، بلا استثناء بسبب الانقسامات المذهبية ، واشترك فيها الشيخ حافظ وهبة ، الذي سيعاقب بالنفي بعد ذلك ، وإن كان لا يذكرها في تاريخه ! لينتهي به المطاف في خدمة « ابن سعود » ، ويساهم في الحرب ضد أشهر من قاتل العثمانيين متعاونا مع الانجليز .. الشريف حسين .

أما الشيخ خزعل فقد كتب للسلطات البريطانية « يرجو عدم الاشارة مستقبلا الى خدماته في تسهيل استيلاء الانجليز على البصرة[٩] » ! .

وقد أجرى القنصل البريطاني ، بحضور مبارك ـ وليس العكس كما يقول مؤرخ الكويت « تواضعا » ! ـ تحقيقا مع الشنقيطي وحافظ وهبة واتهمهما مبارك بالتحريض عليه ، واستشهد لهم بقول مأثور : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » . على أساس أن محالفة بريطانيا ، أو العمل لحسابها ضد المسلمين لا يعني المسلمين ! وقال : « أنا مسلم عثماني (!!) أغار على ديني ودولتي ولا أحب من يتعرض

لهما بسوء ، غير أني اتفقت مع الانجليز على أمر فيه نفع لي ولبلدي ، ولهذا لا أرضى بالطعن فيهم . وإن كنت لا أحبهم وديني غير دينهم ! » ... واتهم حافظ وهبة بأنه السبب في أن « أبناء المدارس في الكويت يجهرون في الشوارع والاسواق بسب الانكليز ومدح الألمان » .

وقد هرب الشنقيطي لما تأكدت النية في القبض عليه . ثم نكل مبارك بزعماء الحركة من الكويتيين بتعليمات القنصل البريطاني . أما شعب عربستان الذي ثار على عميل الانجليز ، فقد أفحش الانجليز في الانتقام منه ، وإن كانوا قد ألقوا بعميلهم الى الكلاب ! ...

ومن هذا كله ، أردنا القول بأن شعب الكويت مسلم محافظ وطني ، ومن ثم لا يمكن نسبة سلوك آل الصباح لمناخ خاص بالمجتمع الكويتي ، كما لا يمكن نسبة هذا السلوك « لعصرية » خاصة في فكر الشيخ مبارك ، أي القول بأنه كان يسبق عصره ، أو كأنه الملك الفيلسوف الذي يريد « تحرير » بلاده ..

فقد كان كما وصفه مؤرخ الكويت[١٠] : « لم يكن لمبارك ميل للعلم ولا رغبة في المعارف ، ولم ينشط لها في أيامه ، يوما ما ؛ فكانت الكويت في عهده محرومة من النور ، محرومة من اسباب الارتقاء الفكري ، ومن وسائل التهذيب العقلي ، لا معاهد علمية فيها ، ولا مجتمعات أدبية .. وهذا وأيم الحق مما يسيء الى كل مصلح غيور* » .

« أما المدرسة المباركية التي تقدم الكلام عنها ، وسميت باسمه فليس له في تشييدها يد ولا في نفقتها درهم واحد ، ويلوح لنا مما نعرفه عنه أنه لو استشير بأمرها قبل ان تشرئب إليها الاعناق وقبل أن يذاع خبرها في مجالس الكويت وأنديتها لكان من أكبر المعارضين لها ومن أشد الناس حرصا على اقامة العراقيل في طريقها** » .

والشيخ خزعل : « الصديق الوحيد للشيخ مبارك الذي أخلص له مبارك الود*** ، هو « سمو السردار أقدس معز السلطنة الشيخ خزعل خان بن نصرت الملك الحاج جابر خان الجاسي المحيسني الكعبي العامري أمير نويان وسردار عربستان ! » .

وهو من أمراء العرب ، وإن كانت إمارته داخلة في اطار السيادة الأيرانية ، وكان أكبر الأمراء العرب بعد الملك حسين ، وإمارته تضم نصف مليون مواطن ، وهو رقم لا يستهان به وقتها ، فالكويت لم تكن تزيد عن مائة ألف ، وهي لم تزد عن تعداد إمارة خزعل ، حتى اليوم .. بعد سبعين سنة ! ونجد كلها لم يكن تعدادها يتجاوز المليونين ،

---

* فما بالك أعزك الله بمن لم يكن مصلحا ولا غيورا !!

** هذا ما قاله مؤرخ الكويت وابنها الأدري بشعابها ، أما الصحفي البريطاني فقد زعم « أن الشيخ مبارك هو الذي فتح المدرسة في يناير ١٩١٢ ـ محرم ١٣٣٠ وأنه أي الشيخ اعتصر التجار الذين احتجوا ورفضوا المشاركة في فتح المدرسة » وغير ذلك من الأقاويل التي لا سند لها .

*** طوال حياته وإمارته طبعا ، أما أولاد خزعل المخلوع ، فيعيشون في ابوظبي ، لأن الكويت حريصة على حسن الجوار مع ايران !

وقد وازن السردار بين الانجليز الذين ارتبط بهم عمليا وواقعياً وقلبيا ، وبين الشاه حيث السيادة الاسمية . أما هو فتفرغ للهوه وخلاعته ، وصداقته مع ابن صباح التي تصلح وقائعها ، التي وصلت إلينا ، مادة لسيناريو فيلم لا يمكن عرضه إلا في الدنمرك ! كما تصلح لسيناريو جاد عن أسباب انهيار الحضارة العربية وزوال الجنس العربي من فرط اهتمام حكامه « بالجنس » !

إذ كانا يعيشان لغاية واحدة ، هي الاستمتاع ، ويؤمنان بأن نقطة البداية والنهاية هي استمرارهما في السلطة ، لتحقيق هذا الاستمتاع ، بلا حاجز من قيم أو دين أو اهتمام برأي عام . لقد سبقا عصرهما بدون شك ، وحققا الثورة الجنسية ، أو العدمية في الخليج قبل أن تصك مسامع سان فرنسيسكو وباريس بنصف قرن على الأقل !

وكان خزعل فيه خلاعة ومجون ، وتهتك بسلوك المنتحر حضاريا أو من يوقن بأنه هو الأخير إمارة وحضارة وجنساً وعرقاً ... فهو والحق كان « منفتحاً » ، حتى ليمكن القول بأن بابه كان بلا مصراع ، أو أن بيته كان بلا باب أصلا .. « كرمه فاق الحد » أو قل إسرافه وسفهه ، فليس له من أثر حضاري ، إلا بناء كنيسة في إمارته التي لم تضم ولا تضم حتى اليوم مسيحياً واحداً ! ولم يكن متسامحاً متودداً للمسيحيين فقط ، حتى يقال منافقة للانجليز ، بل فتح قصره وبلاده للمبشرين والماسونيين ، وإليك وصف المعجب به ، أمين الريحاني :

« إن للشيخ خزعل ذوقاً إنسانياً شاملا فلا ينفر من غير القبيح والذميم في الحياة ، ولا يعرف في مكارمه التفضيل والتمييز ، تجيء المغنية من حلب أو من الشام أو من المحمرة وهي لا تملك غير خلخالها فتقيم عدة أشهر في القصر وتعود غنية مثقلة بالحلي ، ويجيء الشعراء وفي جيوبهم قصائد المديح فيعودون من المحمرة وفي جيوبهم أكياس من المال ويجيء حبر من المسيحيين فينزل على سمو السردار ضيفاً كريما محترما ، ويعود مصحوبا بالهدايا الثمينة ، ثم يجيء المبشر بالماسونية ، فيحل محل الأسقف في القصر الخزعلي ، ويعود بعد إقامة سعيدة ، كما عاد المحترم من قبله . إن من أجمل ازاهر الكرم في هذا العربي تساهله وهو شيعي المذهب ، فهو يساعد في بناء كنيسة في بلاده لمنكوبي الكلدان أو يساعد في تأسيس محفل للماسون ، ويفتح خزانته لراقصة أو مغنية كما يفتحها لأولي البر والاحسان من الطوائف كلها جمعاء (لم يخبرنا إلا عن الكلدان والماسون !) وهو على مقامه ، بل بالرغم من مقامه يميل دائماً إلى ما فيه لهو أو تسلية أو فكاهة . فاذا ما انتابه الضجر في القصر ، وكان قصر الضيافة فارغاً ، ولم يكن ليرغب في زيارة البصرة ليشرف طاولة « البوكر » فيها ، ينادي أولاده قائلا : يا ولد الخير تعالوا .. ألا تلعبون .. فيجيء السردار أرفع ، أو السردار أجل ، أو السردار جاسم ، أو نصرت الملك أو كلهم أجمعون ، فيجلسون مع عظمة الوالد الى تلك الطاولة الخضراء العزيزة الشأن حتى في المحمرة والبصرة[11] » ! فهو يقامر مع أولاده إذا لم يجد من يقامر معه من الأصدقاء !

ويفهم من عرض الريحاني أن الشيخ لم يكن له من مجلس إلا على مائدة القمار ، أو

في مجالس اللهو مع الراقصات والمغنيات ، أو في فراش العرس ، فقد تزوج « ستين امرأة » !

« وكان يحمل وساما من البابا هو وسام القديس غريغوريس ، ونقل عنه الريحاني قوله : « التعصب بلية العرب ، ولو خيرت أن أعود للدنيا ، لطلبت أن يكون ذلك بعد أن تخلو من التعصب الديني[٤م] » !

وقامر خزعل بعربستان وخسر .. أطاح به وبامارته رضا خان بتواطؤ بريطانيا ، ورحل السردار مقبوضا عليه إلى طهران حيث مات « حزيناً مقهوراً » .. ربما لأنه لم يجد مائدة خضراء في السجن[٥م] !..

خسر دينه وملكه وشعبه ، واندثر ذكره من التاريخ ، فلا أحد يعرف عنه شيئاً ولا توجد مقالة واحدة مما قيل في مدحه ، ودفع فيها مال شعبه ، وضاعت حتى ذكرياته بوفاة الراقصات والمغنيات .. وبقيت بقية من ضحكات المجون اليائس المجنون ، اشتهر بها السردارات الخزعليون يطلقها الأحفاد اللاجئون في مجالس شيوخ الخليج .. ولكن شتان بين ضحكات ماجن يقامر بملكه وبين ضحكات لاجيء خسر كل شيء في مقامرة لم يلعبها ولا شهدها !!

هذا هو المناخ الذي أمضى ابن سعود فيه صدر شبابه ، وسنوات تكوينه النفسي والخلقي ، والتي يزعم بعض المؤرخين ، ان هذا الجو كان مدرسة له . إن صح ذلك فبمفهوم المخالفة ، فهو الذي وصف بأنه لم يسمع موسيقى قط إلا في آخر أيامه عندما وضع السلام الملكي للدولة ، ولم يسمع غناء في حياته* ، ولا جلس في مجلس شرب فيه الدخان ..

هذا من الناحية الدينية ، فماذا عن الناحية السياسية ؟!..

يقول المثل ليس بعد الكفر ذنب ! وابن صباح الذي رأينا سلوكه الديني ، لا يستغرب إفراطه في الولاء والخضوع للانجليز ، ولا مسلكيته مع عبد العزيز آل سعود ..

رغم أن الكويت كانت تعتبر قائمقامية عثمانية** ، إلا أن الانجليز كانت لهم علاقة وثيقة قديمة بالكويت ، وساهموا مساهمة فعالة في منع وصول المد السعودي إليها في نهاية القرن الثامن ومطلع القرن التاسع عشر*** . إلا أن حاكم الكويت ظل يدين

---

* ألغى من برنامج زيارته لمصر حفل غناء لأم كلثوم .
وكان علي محمود طه قد أعد له أغنية خاصة أشرنا اليها في غير هذا الموضع .

** قال صاحب تاريخ الكويت : « لما رجع عبد الله إلى الكويت ، وبعد مدة وجيزة مات والده . وأقامه الكويتيون مكانه . وبعد مخابرات بينه وبين الحكومة العثمانية تعين في قائمقامية الكويت تحت حمايتها . »

*** تدخلت مدرعة بريطانية في عهد الشيخ عبد الله الصباح ضد جيوش عبد العزيز بن محمد وأنزلت مدفعين وجنودا بريطانيين لصد الهجوم الوهابي . وكان الانجليز قد نقلوا مخازن شركة الهند الشرقية من البصرة إلى الكويت عندما استولى الفرس على البصرة .

بالولاء لتركيا ، ويحاذر الارتباط الرسمي ببريطانيا ، والشيخ جابر والد صباح وجد مبارك الكبير الذي يعتبر أول من لقب بابن صباح . رفض جابر هذا طلبا بريطانيا بادخاله في الحماية أو بناء قاعدة عنده ، وأبلغ الدولة العثمانية ، فكافأته على إخلاصه بصرف مائة وخمسين كارة تمر (من العراق طبعاً) ومن أجل هذا التمر ، اشتركت الكويت في الحملة التركية لانتزاع الأحساء من أولاد فيصل بن تركي آل سعود ، المتنازعين . وإن كان مبارك ومؤرخ الكويت ، حاولا التنصل من هذا الشرف « العثماني » فقال مؤرخ الكويت : « إن مباركا لم يشهد القتال لأنه لم يصل إلا بعد قضاء الجيش مهمته ، وبعد فتح المدينة وقراها »* . أما خير الدين الزركلي فيقول « إن أول ذكر لمبارك في التاريخ الحديث ، هو يوم سار كمرشد مع الجيش العثماني لانتزاع الأحساء من آل سعود » . فان صح ذلك فهي المعركة الوحيدة التي حضرها مبارك وانتصر الجانب الذي يؤيده !..

إلا أن «صباح» تميز عهده بصداقة وود كبيرين مع الانجليز،حتى أن أحد ممثلي بريطانيا في عهد الحماية تحسر على مجد الامبراطورية ! « عندما أمضى شيخ الكويت نصف يوم غارقاً لوسطه في الماء يدفع سفينة « بيلي » التي جنحت على الشاطىء !.. وقد رأينا في الفصل الأول ، كيف كان « بيلي » يتصرف في الكويت بين أهله وكيف نظموا له رحلته٦م ..

وبعد وفاة صباح حكم ولداه محمد وجراح معا ، وفي هذا الوقت كان التزاحم الأوروبي قد وصل إلى الخليج ، فقد مدت تركيا وجودها إلى الأحساء . كما رأينا .. وبرزت ألمانيا في نفس السنة كقوة أوروبية عظمى بهزيمة فرنسا ، وزاد النفوذ الألماني في البلاط العثماني . وخاصة بعد احتلال بريطانيا لمصر ، واتفاقها مع روسيا ضد تركيا في البلقان ، وتطلعت لمزاحمة بريطانيا في نفط ايران ، أو نفط العراق الذي فاحت رائحته وبريطانيا هي السابقة في الاستعمار ، والمسيطرة على نفط ايران ، والمنتشرة الوجود والنفوذ من القاهرة إلى بومبي ، والمستعدة لاغراق العالم في الدم من أجل سلامة طريق الهند ، وألمانيا المنتصرة ، أو أقوى قوة عسكرية في القارة السيدة ، ليس لها مستعمرات لا في الخليج ، ولا على البحر الأبيض ، فليس أمامها إلا أن تزحف براً عبر تركيا ، وهكذا ظهر مشروع الخط الملعون : سكة حديد برلين بغداد ــ البصرة أو الكويت وهو الخط الذي جندت بريطانيا كل أجهزتها لمراقبته ومقاومته** وعلى طول هذا الخط تناثر رجال المخابرات البريطانية ، من هوجارت إلى لورنس وفتاه دحيم !

---

* وربما كان هذا صحيحا والا لما انتصر الأتراك !

** كانت حرب السبعين قد أبرزت أهمية السكك الحديدية من الناحية العسكرية . وهذا الخط كان يمكن ألمانيا من نقل قواتها أو إنتاجها إلى الهند وشرق آسيا دون مرور في قناة السويس ولا التعرض لأسطول سيدة البحار .

وبرزت أهمية الكويت كميناء ومركز تجاري يتطلع اليه الألمان* لمد الخط ، فيصبحون على مرمى طلقة مدفع من نفط ايران والعراق ، ويستنشقون عبير الشاي الهندي . وقرر الانجليز الاستيلاء على الكويت ، وكان رجلهم في ذلك المخطط هو مبارك ، الشيخ المفلس** ، شقيق الحاكم ، والمحروم من كل امتيازات الحكم ، تماما كما كان وضع الملك فؤاد قبل أن يختاره الانجليز لعرش مصر . ولكن الانجليز كانوا يحكمون مصر ، وكانت لهم فرصة الاختيار بخلو العرش عند وفاة السلطان حسين . أما في الكويت ، فلم تكن لهم صفة رسمية ، تسمح لهم باختيار الوريث . ومبارك بالذات بعيد عن العرش الذي يتولاه أخوه الشيخ محمد ، والتالي له ، المشارك له ، أخوهما « جراح » فكيف يصل مبارك الى العرش متخطياً كل تلك العقبات ؟!

من المؤكد أن علاقة مبارك بالانجليز وإعجابه بهم سابقان على مؤامرة اغتيال أخويه ، وربما تعرف عليهم في المحمرة عند صديقه خزعل ، في إحدى لحظات الصحو الفردي ، والغيبوبة القومية ، ويقال إنه عندما ضربت المدفعية البريطانية الزبارة في قطر وأحرقتها وأغرقت سفن أهلها سنة ١٣١٠ (١٨٩٢ ــ ١٨٩٣) . « فرح مبارك فرحاً شديداً » وأرسل إلى محمد آل رشيد من يبشره بما وقع على ابن ثاني (قاسم) حتى لامه أخوه محمد الصباح (الحاكم) فرد عليه : عقلي عندي ، ومهري بيدي وأنا بكيفي . »
ومهما قيل في أخلاقيات مبارك ، فان هذا التصرف وهذا القول يوحي بعلاقة ما سابقة على قتل أخويه .

وقد روت المصادر التاريخية قصة قتل مبارك لأخويه « محمد الحاكم وجراح » شريكه في السلطة ، في ليلة واحدة ، ولكن ما من أحد استقصى كيف استطاع مبارك أن يفاجيء أخويه الحاكمين ، مع أنه توجه إلى القتل بحشد من الأبناء والخدم ، بل وانقسمت فرقة الاغتيالات إلى فريقين : فريق توجه برئاسة مبارك لقتل محمد الحاكم ، وفريق لقيادة ابنه جابر لقتل « جراح » مما يصعب معه وصف العملية بالمفاجأة ! ولا فسر أحد كيف استطاع مبارك وابنه التغلب على الحاكمين ، ولهما من الحظوة والسطوة والأعوان ، ما يفترض أن يكون ضعف ما لمبارك ــ داخل الكويت ــ إن لم يكن بحكم العدد ، فهما اثنان وهو واحد ، فبحكم السلطة ، ويوسف إبراهيم « العجيب » معهما ، وسوق اللحم يسمع أوامرهما ولا يبيع لمبارك !
اذا كان المجرم هو المستفيد من الجريمة ، فان بريطانيا هي المستفيد الأول ، ومن ثم لا نستبعد أن تكون المخابرات البريطانية قد ساهمت بدور ما في نجاح العملية ، بعدما التقت المصالح . والسرعة التي تحرك بها الانجليز ، لاستغلال الحادث تدل على

---

* والروس إيضاً حاولوا خطب ود شيخ الكويت ، بل واتصلوا عن طريقه بابن سعود كما سنرى .
** قال مؤرخ الكويت إن أخوي الشيخ مبارك « كانا اذا دخلا سوق اللحم صاحا في اللحامين . لا تبيعوا لمبارك فهو مفلس » .

أن الأمر لم يكن مفاجأة لهم* . أما الذين عاصروا الحادث ، وعاشوا وقائع الاغتيال وملابساته ، فقد سكتوا أو أسكتوا .. والذي كتب منهم أحرقت أوراقه ** »

قتل مبارك أخويه ، واغتصب السلطة[7]م ، وكان للقتيلين صهر ، من أغنى تجار الخليج ، فتحرك لأخذ الثأر للقتيلين ، ورد الامارة لأولادهما ، أولاد أختيه . فاشتكى عند القنصل البريطاني في البصرة ولعبت الدبلوماسية البريطانية دورها بأسلوب مفضوح ، لا يمكن أن يقع في شراكه الا دولة « ذاهبة » مثل تركيا ، كما كان مبارك يلقبها عن حق . تدخل القنصل البريطاني عند الدولة العثمانية ، فأصدرت قرارا بخلع مبارك « ومما لا ريب فيه أن الدولة العلية أصدرت هذا القرار ارضاء لبريطانيا[13] » .

« وفي نفس الوقت كان مبارك يفاوض القنصل البريطاني في بوشهر*** وأصبحت بريطانيا تمثل دور المدعي العمومي ودور المحامي معا[14] » .

وهكذا أصدرت تركيا قرار الخلع ارضاء لبريطانيا ، فطلب مبارك حماية بريطانيا ، فأرسلت بوارجها لتثبيته ، ضد القرار الذي سعت لاصداره !..

لعبة تستحق ان توصف بالوضاعة أو البراعة اكثر من أن توصف بالتعقيد[8]م ، ولكن نتيجتها كانت شديدة الوضوح ، فقد خسرت تركيا الكويت ، وخسرت الكويت استقلالها لستين عاما غير مجيدة وكسبت بريطانيا الحماية على الكويت .

وقيل ان والي بغداد « رجب باشا » نصح تركيا بأن لا تتدخل لكي لا تستفيد بريطانيا من الوضع ، مؤكداً للمسئولين العثمانيين أن هذه الاغتيالات هي ظواهر طبيعية في الجزيرة « وخير للحكومة ألا تتدخل في القضية ، فان تدخلها قد يهدم آمالها العظيمة في الخليج » . ولكن تركيا تصرفت ببلاهة عجيبة وان تكن غير مستغربة ، وكأنها تلعب دورا رسم لها في وزارة المستعمرات البريطانية أو حكومة الهند البريطانية فقد قررت عزل ابن صباح ، ولكنها لم تلجأ للمفاجأة كما فعل أغوات محمد علي في اعتقال الشريف المشاغب ، او الانجليز في خطف النقيب من البصرة بعد عشرين سنة ، أي استدعائه الى حفل تكريم ، ثم اعتقاله وترحيله فورا ، فينتهي الجدل ، وينشغل الناس بالوالي الجديد ، ولا أعدت ما يلزم من القوة ، كأن تحشد أسطولها ، وتعبىء

---

* اغتال مبارك أخويه في ٢٥ ذي القعدة ١٣١٣ ــ مايو ١٨٩٦ . وفي عام ١٨٩٧ ــ ١٣١٥ رأينا طرادا انجليزيا في الميناء يراقب الموقف ، وفي عام ١٨٩٩ وقعت معاهدة الحماية . وفي عام ١٣١٨ ــ ١٩٠٠ شكت الحكومة العثمانية (صح النوم) في وجود معاهدة بريطانية ــ كويتية ، أي صك حماية . وهي فعلا موجودة من العام الماضي ولكن مباركا استطاع كتمانها عن الجميع ، بل وكان قد بدأ في إرسال تقارير محادثاته مع الدولة العثمانية إلى رئاسته الجديدة ، أي المقيم البريطاني في بوشهر ، وكلها توحي بمتانة العلاقة وعراقتها والتدرب على واجباتها ، وقدرة الطرفين على كتمانها ، حتى بعدما اتخذت شكل معاهدة حماية رسمية .

** كما حدث للشيخ محمد بن رابح المغربي !

*** طالبا الحماية ضد الترك .

جيشها ، وتلقي القبض على مبارك بعد احتلال الكويت ، فتضع بريطانيا أمام الأمر الواقع .

أبدا .. أعلنته بنيتها وكتبت له رسالة بقرار خلعه ، تسلمها وهو على كرسي الحكم ! ثم أرسلوا له الباخرة « الزحاف* » فوصلت للكويت في ديسمبر ١٨٩٨ ــ رجب ١٣١٥ وبدأت مفاوضات : « انخلع ما انخلعشي » ! حتى عاد رسول مبارك بالحماية ، واقتحم السيد البريطاني مجلس الشيخ وطرد الوفد العثماني ، وشيعه بألفاظ جارحة ، أو كما قال مبارك في رسالته الى خزعل : « وقام يحكي عليهم حكي واجد يتهزأ بيهم » . وانسحب الوفد العثماني ذليلا ، لم يجرؤ واحد من اعضائه على الغضب للشرف العثماني ! وتصل الكوميديا ذروتها بتعثر « الزحاف » ولكل من اسمه نصيب ، فتعجز الباخرة عن مغادرة المياه الكويتية ، ويهرع الكويتيون لها ليخلصوها من الوحل ، ويجري تعويمها تحت رقابة الطراد البريطاني . وكتب ابن صباح لصديقة خزعل يقص عليه قصةُ الجماعة (الأتراك) الذين حاولوا خلعه ، ثم نصرة أهل البيض .. أي الانجليز الذين غلب بياضهم بياض الترك على ما يبدو ..

وهذه هي الرواية الحقيقية ، وليست تلك التي اخترعها ابن صباح وصدقها الشيخ رشيد رضا ، ليبرىء ساحته ، وذمة الشيخ « رضا » كانت تتسع للكثير ، حتى أصدر علماء الكويت فتوى بتكفيره[٩م] !..

عجزت الدولة عن تنفيذ قرار الخلع بالفرمان السلطاني ، فنشط صهر القتيلين يشن الحملات البحرية والبرية ، والمالية في جيوب الموظفين العثمانيين . والمخابرات البريطانية تراقب الموقف في البر والبحر من اسطمبول للبصرة . وقد روى مؤرخ الكويت أن الحملة البحرية التي أعدها يوسف ابراهيم لغزو الكويت كان يتبعها طراد بريطاني ، وقف يراقب الأمور ، واستنتج مؤرخ الكويت أن وجود الطراد « يعزز قول من قال بارتباط يوسف (ابراهيمَ) مع الانكليز في هذه الحملة ، وأنه لم يجهز الاسطول الا بعلم منهم ورضا[١٦] .

وكل شيء محتمل .. فكما أوعزوا لتركيا بالتدخل لخلع مبارك ثم تدخلوا هم لحمايته ، ربما أوعزوا ليوسف بالحملة ، ثم ابلغوا نبأها لمبارك ، ولعل هذا يفسر موقف آل الصباح من « على أبو اكحيل » الذي ينسب اليه تحذير مبارك من الأسطول القادم ، ويعتب مؤرخ الكويت أن آل الصباح أهملوا الرجل في شيخوخته « وكنا نرى ويرى غيرنا أنه من الواجب على كل من يتولى أريكة الحكم في الكويت من آل الصباح أن يقوم بما يحتاجه الرجل . لأنه خاطر بحياته في مصلحتهم ومع ذلك فآل الصباح عنه غافلون . وهذا لا يليق بهم ، وقد قدم لهم الرجل تلك الخدمة العظيمة التي لولاها لكانت النتيجة مجهولة » .

صحيح الوفاء صفة غير معروفة عند سكان السواحل ، ولكن من يدري لعل آل

---

* وهو موقف يحتاج للراكض أو المهرول أو حتى الطائر الوثاب !

الصباح كانوا يعرفون من هو صاحب الفضل في انذارهم ، وان كانت السمعة من نصيب « أبو أكحيل » !

انسحب أسطول يوسف ابراهيم أشهر فاشل في التاريخ ، أو اكثر الفاشلين اجتهاداً ، وظل الطراد البريطاني ، فلما أقبل مركب عثماني الى الكويت « تبعه الطراد البريطاني ، وأرسى في ميناء الكويت ، وان تظاهر بأنه جاء يحتج على خروج السفن الكويتية في البحر »[١٧] !

ربما خوفا عليها من البلل !

عبد العزيز ينادي الرياض

كل هذه الأحداث ، وكل هذه الشخصيات كانت مقدمة لظهور البطل على المسرح ، فالأقدار عندما تختار بطلها تسخر له الطيبين والشياطين معا .. وكان البطل هو « عبد العزيز » . والدور المطلوب هو وصوله للرياض عاصمة السعوديين ليبعث التجربة الوهابية الثانية ومن ثم فقد بدأت كل الأحداث تتجمع في هذا الاتجاه .. توترت العلاقات بين تركيا وابن صباح وبتحريض الألمان ، أو ببعد نظر السلطان عبد الحميد كانت اسطمبول مصممة على منع ابن صباح من الفوز بمؤامرته مع الانجليز ، لأنها اعتبرت ذلك بداية ضياع الخليج كله وتهديد وضعها في العراق . ولم يكن لتركيا فرصة للنيل منه بحراً ، حيث المدمرات البريطانية ، فاستعانت بابن رشيد سيد البر وسيد نجد وأمير عربانها .. الذي كان بدوره على علاقة سيئة بابن صباح ، من ناحية لطموحاتهما التي اصطدمت عند حدود الكويت ، ومن ناحية لاعتداء عرب الكويت على قافلة لتجار شمر ، ويزعم مؤرخ الكويت أن محمد الرشيد أوصى ابنه عبد العزيز ، وهو على فراش الموت (١٣١٥ ـ ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨) بالتيقظ من مبارك والحذر منه . كما كان حريصا على كسب ود تركيا التي لها قوة في القصيم وفي الأحساء ، وأيضا فان الكويت غنيمة سهلة ومغرية .

واستعد ابن رشيد للحملة التأديبية على ابن صباح ، وهنا ـ كما قلنا ـ تذكر ابن صباح أن سادة نجد الأصليين يعيشون في بلاده كلاجئين . ذلك أنه بعد استيلاء ابن رشيد على الرياض وطرد آل سعود، أرسل عبد الرحمن الفيصل، والد عبد العزيز، نساءه وأولاده الى البحرين ، وطلب اللجوء الى الكويت ، فرفض طلبه فتوجه الى قطر ، وقال الريحاني انه بعد فشل المباحثات بين الامام عبد الرحمن ونائب متصرف الحسا اللبناني المسيحي زاخور عازار ، رفض شيخ الكويت محمد الصباح السماح لهم بدخول الكويت كلاجئين . فعاشوا في البادية مع العجمان ثم قطر . الى أن تم الاتفاق مع حافظ باشا متصرف الحسا الذي لم ينس أن عبد الرحمن هو الذي استدعاهم باسم أخيه عبد الله بن فيصل الى الحسا ، فوافق الترك على صرف مبلغ ستين ليرة ذهب وحق الاقامة في أية منطقة خاضعة لنفوذهم فاختار الكويت ، « وقبل ابن صباح اذا ذاك أن يتوطنوا في بلاده[١٨] » .

فلا فضل لابن صباح ـ وقد سبق منه الرفض ـ في لجوء آل سعود لبلاده أما في المرة

الثانية فكان الأمر من الأتراك ولم يكن يملك عصيان أوامر الدولة وقتها (١٨٩١ – ١٣٠٩) فتحدي الدولة لم يبدأ الا في عهد مبارك . وحتى اذا كان هناك فضل لمحمد الصباح ، كما يصر الكويتيون ، فان آخر من يحق له ميراث هذا الفضل والمن به هو قاتله مبارك الكبير ، فكل القوانين تحرم القاتل من ميراث قتيله !..

على أية حال لم تكن في نية مبارك ولا خطر بباله عودة آل سعود لحكم نجد ، بل استعان بهم ضمن الحشد العام الذي جمعه لضرب ابن رشيد وازعاجه ، وكان مستعداً للتضحية بآل سعود في أية لحظة اذا ما اتفق مع ابن رشيد ، كما حدث ومنع الامام عبد الرحمن من دخول الكويت ، في انتظار مفاوضاته مع ابن رشيد* . وكان الامام قد بادر بشن غارات على حلفاء ابن رشيد ١٠م ، الذي قرر رفض عروض مبارك ، واستمر في الحرب . وأصابت مبارك نوبة المبالغة في تقدير الذات ، وهو مرض جاء الكويت مع الحماية وسيستفحل بالنفط ، فخرج يغزو ! وقد جمع – كما قال فيلبي – أكبر جمع تمكن من حشده في حياته ، أو كما قال مؤرخ الكويت : « ضم كثيرا من العربان كمطير والعوازم والعجمان وعريب دار ، والمنتفك والمرة وبني هاجر ، وقلة من الظفير ونحو ثمانمائة مقاتل من أهل الكويت** » .

وكانت الخطة أن يشغل ابن رشيد بعمليات داخل مملكته ، لكي يتفرغ مبارك لضربه الضربة القاصمة في ميدان القتال ، أما العمليات الفرعية فهي احتلال آل سليم عنيزة ، وآل مهنا بريدة ، وعبد العزيز آل سعود الرياض . وقد نجح الجميع تقريبا في تأدية مهمتهم ، فدخل آل سليم عنيزة وآل مهنا بريدة ، ووصل عبد العزيز الى الرياض ليقابل بمقاومة شديدة ، تبدو كظاهرة غريبة ، أو غير لائقة ، فها هو ابن سعود يعود لعاصمته وعاصمة آبائه ، فما بالها لا تفتح له ذراعيها ؟ هل ابن الرشيد أو عجلان أحب اليها من ابن سعود ..؟!

كان ابن سعود في أيام ملكه ، وعندما يسرف أهل الرياض في مطالبهم يصرخ فيهم : « كسرتم اصبعي يا أهل الرياض في قتالكم فلا منة لكم علي » مشيرا الى مقاومتهم العنيفة في تلك الغزوة . ويقول فيلبي « ان عبد العزيز اقتحم فعلا أسوار الرياض ، ولكن أهلها التفوا حول أميرهم ، وقاتلوا قتال المستميت ، حتى كسر اصبع عبد العزيز » .. وكان وجوه المدينة في مقدمة المقاتلين ضد عبد العزيز ، فقد قاتل الشيخ محمد بن عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ ببطولة وبسالة جعلت « عجلان » يهديه فرسا بعد انتهاء المعركة وجرح الشيخ محمد في يده ، كما أصيب أيضا عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ بجرح في رقبته من قبل جنود عبد العزيز آل سعود وهو يقاتل ضدهم ليصدهم عن غزو المدينة ، كذلك كان الشيخ عبد الملك بن عبد الله بن عبد

---

* اشرنا الى قول الزركلي في الفصل السابق : « لو تم لابن صباح الصلح مع ابن رشيد لجعل من عبد الرحمن وابنه عبد العزيز كبش الفداء١٩ » .

** كانت المعركة في ذي القعدة ١٣١٨ (مارس ١٩٠١)

اللطيف آل الشيخ على رأس أهل الرياض في جيش ابن رشيد في معركة الصريف ضد ابن صباح .

وهذه المقاومة الشديدة من أهل الرياض جعلت عبد العزيز عاجزا عن الاستيلاء عليها أربعين يوما .. وان كان لم يعدم أنصارا داخلها مثل ابن هدهود الذي حاول أن يحفر نفقا ينسف به حصن سرية ابن رشيد وقد عاقبه سالم السبهان بقطع يده[20] » وجاء رسول والده يبلغه خبر الهزيمة العامة فانسحب من تحت أسوار الرياض ..

وتفسير مقاومة أهل الرياض بسيط جدا ، فما كانت الرياض ، وشيوخ الوهابية ، ليستسلموا لذلك القادم من قبل ابن صباح . لا وطنيا ولا قبليا ولا دينيا ، كان من الممكن ان تفتح الرياض باسم ابن صباح أو بتجريده من حملة ابن صباح .. فلم يكن ابن سعود أمام الرياض عام ١٩٠١ ــ ١٣١٩ أكثر من طليعة من طلائع جيش الكويت الذي يقوده ابن صباح ..

وقدم ابن صباح أكبر خدمة في حياته لابن سعود ، وذلك بأن هزم أمام ابن رشيد هزيمة ساحقة ، فاضطر ابن سعود للانسحاب من الرياض ، ولو انتصر ابن صباح لتفتحت شهيته للتوسع على حساب ملك آل رشيد ، وحقوق آل سعود التاريخية ، ولكان قد وجد دعما من بريطانيا ، حيث كل توسع في ملك ابن صباح ، يضاف لأملاكها ومناطق نفوذها ، ومن ثم تتغير المعادلة ، فاما أن تطوى نهائيا صفحة آل سعود أمام هذا المغتصب الجديد ، واما أن يكون عليهم مقاتلة بريطانيا هي ورجلها المحدود الأخلاقيات ، بدلا من محاربة القوة الآفلة ، تركيا ، وابن رشيد المحدود القدرات . ومن هنا كانت هزيمة ابن صباح في معركة الصريف ، اخراجا نهائيا له من عملية الصراع على مستقبل نجد ، وهذا ما فهمه الانجليز ، فاستمروا يحذرونه من أي استجابة لعاطفة الثأر الطبيعية عند أي شهم أو بدوي بالتورط في صراع آل سعود وآل رشيد . ولو انتصر ابن صباح ودخل عبد العزيز الرياض ، لاستحال على التاريخ الا ان يسجل فتح الكويت للرياض ، وهو ما لا يجوز عقلا ولا موقفا . من هنا كما قلنا ، كان استبسال أهل المدينة في مقاومته كممثل لابن صباح ، وفتحها ذراعيها له عندما جاء متسللا مع حفنة من الرجال ، ولكن كابن سعود القائد الشرعي للرياض* .

لنترك ابن سعود يعود فاشلا من تحت أسوار الرياض ، في أعظم نصر سجله في كفاحه الطويل ، هذا الفشل الذي أنقذ التاريخ السعودي ، من كارثة الانتساب لغزوة ابن صباح ، نتركه يفكر في حملته المستقلة ، ونسمع أنباء هزيمة « ابن صباح » من

---

* قيل إن أهل المدينة مع الغالب ، كما قيل إنهم خشوا بطش عجلان . ولكني لا أرى هذا الرأي ، فالبطش في المرة الثانية كان احتماله أكبر لأنه في المرة الأولى كان الزحف عاما ، وقد استسلمت عنيزة وبريدة عن قناعة بأن ابن رشيد سيهزم . ولا أظن أن رجالا مثل آل الشيخ يمكن أن يقال فيهم « وهم مع من غلب » !.. ولكن سمعة ابن صباح الوطنية والدينية كانت تجعل مقاومة حملته وكل من ينتسب له فرضا واجبا !.

أحلى وأمتع مصدر يمكن ان يرويها ، ألا وهو مؤرخ الكويت ، الذي يمكن تلخيص عرضه كالآتي : استمر ابن صباح ينتصر حتى هزم الهزيمة الساحقة ! ولكن بالتفاصيل أمتع ؛ وأكثر دلالة على ما يتمتع به الكويتيون من روح الفكاهة ؛ قال :

« أما ابن رشيد ، فقد ذعر من مسير مبارك ذعرا أطار لبه ، وأعدمه رشده ، وود أن لا يلتقي به ولا يشتبك واياه في قتال ، ولكن مباركا كان يطارده في رؤوس الجبال ، وبطون الأودية ، ويسأل عنه السهل والوعر ، وقد صمم على أن لا يتركه ، ولو اعتصم بأعظم معتصم . اذ ذاك علم ابن رشيد أنه لا مندوحة له من النزال ولا مفر له من القتال فاستسلم للقضاء . ونزل الميدان مكرها ، وهناك بين الصريف والطرفيه* وقعت تلك الحادثة المشهورة في تاريخ الكويت . هناك التحم الجيشان وتقابل الفريقان واستمر القتال من قبل الظهر الى قبيل العصر وقد تقهقر ابن رشيد مرتين من مركزه . ولكنه في كل منهما كان يتمكن من التقدم الى الامام (؟!!) وقد قدم أمام جيشه صفوفا من الابل جنة لتقيه النبال ، فكانت كالهشيم المحتضر ، وأخيرا بعد قتال عنيف وعراك شديد ذهبت فيه أرواح لا تحصى ، وزهقت نفوس غير قليلة ، تم الانتصار لابن رشيد على خصمه وشرب كأس العز قبله » !

وكانت هزيمة ساحقة ، طارد فيها جيش ابن رشيد ، الكويتيين ، الذين اختبأوا في الكهوف وذبحوهم لا فرق بين « أبيض اللون ولا أسود ، فلم يفلت منهم الا النفر القليل ، فكانوا يخرجونهم من المساجد ، والكهوف ، والمدن والقرى ، ويذبحونهم أمام اخوانهم ذبح الشياه الواحد تلو الآخر . » !

ويتعجب ابن رشيد المؤلف** من فعل عبد العزيز بن رشيد المقاتل « لأنه يعلم أن أهل الكويت مكرهون » !

« ووصل مبارك الى الكويت وليس معه الا اثنان من خدامه[٢١] » ، واستدعيت البوارج ، بناء على معاهدة الحماية ، وليس العكس كما يقول الريحاني[١١م] .. وجاء مركب حربي بريطاني*** . ورسى في مياه الكويت عشرين يوما ، ونزل جنود صاحب الجلالة ببشرتهم البيضاء وعيونهم الزرقاء فاشتركوا في حفر خندق حول مدينة الكويت لحمايتها وحماية مبارك ... مما جعل الدولة العثمانية تشك في وجود معاهدة حماية ؟! والله ؟!

وتحرك الأسطول البريطاني على طول الشاطىء على مرأى من البدو الذين جاءوا مع ابن رشيد يغزون الكويت ، بعد هزيمة الصريف الفادحة ، « وأنزل الربان بعض المدافع الرشاشة الى البر ومعها ضباط ، علموا الكويتيين ، استخدامها ، ثم خطر في بال ذلك الربان الذكي ، أن يرهب العربان بالأسهم النارية فأرسلها ليلا في الفضاء ،

---

* ولذلك تسمى معركة الطرفيه أو الصريف .
** واسمه ايضا عبد العزيز الرشيد !
*** جمادي الثانية ١٣١٩ (سبتمبر ١٩٠١) .

وكان لها التأثير المطلوب ، فقيل ان ابن رشيد ورجاله لاذوا بالفرار عندما رأوا النيران تشتعل في كبد السماء[٢٢] . »

ومع أن القدر جعل ابن سعود يرتد عن أسوار الرياض في حملة ابن صباح هذه ، ليعود هو بحملة سعودية خالصة ، الا أن مؤرخ الكويت ، يصر على أن يجعل فتح الرياض في العام التالي جزءاً « من خطة كويتية » ، وأن مباركا حض ابن سعود على امتلاك الرياض « الاستيلاء عليها »[٢٣] أما سائر المراجع الأخرى ، فتؤكد أن مباركا نفض يده تماما ، وكان فعلا بحاجة الى فترة استجمام بعد الهزيمة الساحقة ، بينما استمر عبد العزيز في الالحاح والاصرار على الخروج ، ويقول مؤلف كتاب توحيد الجزيرة ، ان عبد العزيز أخفى نيته في غزو الرياض ، عن ابن صباح والا لما قبل ابن صباح مساعدته ، بل قال له انه خارج في غزو عادي ، غارة بدوية ، « ولذلك أعطاه أربعين جملا هرما أنهكها المرض من نفايات مراعي ابن صباح » !ونقل عن عبد العزيز أن « مركز آل سعود في الكويت تدهور بعد معركة الصريف الى الحضيض ولم يكن ابن صباح مستعدا للقيام بأية مغامرات عسكرية جديدة ، ولو أن عبد العزيز وأباه ظلا يقيمان في الكويت ، الا أن مكانتهما عند ابن صباح كانت في هبوط . وقال عبد العزيز انه طوال اقامته في الكويت كان يشعر بأنه ثقيل على الكويتيين ، ولكن هذا الاحساس زاد بعد معركة الصريف ، واستشهد على ذلك بأن ابن صباح لم يعد يجلسهما في صدر المجلس بجانبه كما كانت عادته من قبل[٢٤] » .

وهكذا كانت حملة الأربعين رجلا ، حملة سعودية صرفة ، أو مغامرة عزيزية ، فمبارك من ناحية ما كان ليفكر في غزو الرياض بأربعين رجلا ، وهو الذي قبل شهور فر بثيابه من ابن رشيد (ثيابه الخفيفة !) في هزيمة لم ينسها الكويتيون الا بهزيمة الجهرا على يد الدويش .. وعبد الرحمن والد عبد العزيز نهاه ، ثم بعث له رسولا بعدما قارب الرياض يأمره بالعودة .. فهو اجراء ، يتحمل مسئوليته ونتائجه ، عبد العزيز وحده !.. وكان من الطبيعي أن تستأثر مغامرة عبد العزيز والأربعين فارسا بخيال المؤلفين والمؤرخين ، فتنال الجانب الأكبر من تعليقاتهم .. وبقدر مواهبهم في الانشاء لوصف ليلة « المصمك » وقد خص بعضهم عجلان المسكين بالحقد والغضب الشديد ، وهوما لم يكنه أي فرد من الرجال الأربعين الذين فتحوا المدينة ، فعجلان لم يكن سوى مجرد حجر يعترض مسيرة التاريخ ، فلزم ازالته أو اماطته عن الطريق بلا حقد ولا شماتة تبرر القول بعد خمسين سنة : « وجعلاه كومة من اللحم يتهافت عليها الذباب » !

مسكين عجلان ، بذل كل جهد ممكن ليفلت من المجد والخلود ، فأبى حظه السعيد الا أن يقتل وبذلك كتب له الخلود وحفر اسمه في التاريخ !

وصل عبد العزيز والاربعين متطوعا الذين جمعهم من السعوديين الى الرياض في التاسعة من مساء يوم ١٥ يناير ١٩٠٢ (شوال ١٣٢٠) . والروايات المتعددة عن العشرين ساعة التالية تجعلنا نعيش احداث فيلم مكسيكي لم يحلم مخرج بانتاجه ، بل

ان وقائعه يستحيل تصديقها ، دون الالمام بالخليفة البدوية ، والتاريخية ، والحضارية ..

فما أن فتح باب جويسر بائع البقر (الذي كانت مهنته ضرورية ليستكمل جو الكاوبوى !) حتى صاحت النساء « عمنا عبد العزيز » وكأنه عائد من الحج !..

فقد سبق لهن العمل في بيت آل سعود ، وقد عرفن على الفور ، أنهن يعشن فصلا جديدا من قصة الصراع على السلطة ، فلم تأخذهن الدهشة ، ولا صدر عنهن احتجاج ، لأن الصراع على السلطة ، أمر مسلم به ومقبول في شريعة الصحراء ، وسعي صاحب الحق الشرعي لاسترداد حقه من السلطان المغتصب ، سلوك مشروع ، بل واجب محتوم ، يلام من يقصر فيه أو يتنازل عنه١٢م . ولذلك لا يصعب فهم سلوك النساء في منزل راعي البقر ، ولا حتى في منزل عجلان نفسه ، فقد كان ظهور ابن سعود متوقعا محتوما ، خاصة بعد غزوة العام الماضي .

ظهر عبد العزيز عند فراش زوجة عجلان وشقيقتها ، تدفعان بتعانقهما تحت غطاء واحد برد يناير الموجع في الرياض ـ قبل دخول اجهزة التكييف ـ وتتناسيان وحشة الحياة التي تفرض على الرجال النوم في الحصن ، والبعد عن البيت الا عندما يطرد ضوء الصباح أشباح المغامرين وطلاب الثأر . وما أن أفاقت المرأتان حتى دخلتا في حوار مع عبد العزيز وكأنهما على موعد معه !

طرق عبد العزيز باب « جويسر » راعي البقر . ورفضت النسوة فتح الباب ، لأن الوقت ليس وقت بيع أو شراء ، فهو زائر مريب ، وإن كان ظنهن قد ذهب بعيداً ، وبما يرضي غرور النساء !.. ولكن عبد العزيز يلح ويهدد بانتقام أمير البلد ، فيفتحن الباب ، وتعرف شخصية الطارق ، وأنه يريد بقرة السلطة ، فيذهب رعبهن ، ويطمئن بالهن ! ويصيحن ـ كما عرفنا ـ عمنا عبد العزيز١٣م .. عمنا !..

ـ لا بأس عليكن .. ادخلن ، معنا أغراب !..

هكذا لابد أن يتم المشهد ، حيث أدخلهن غرفة وأغلق الباب ، فجلسن هادئات ساكنات لم يسمع لهن صوت خلال الخمسين عاما التالية ، أما راعي البقر فقد اختفى تماما من التاريخ ، وان كان الزركلي التي تعد روايته أحفل الروايات بالأسماء والتفاصيل ، قال إن « جويسر » هرب واختبأ في ضلع البديعة ، ولم يره عبد العزيز ، وأنبأنا « فؤاد حمزة » على لسان الملك أن جويسراً هرب ولم ينتبهوا لهروبه بل ظنوه محبوساً ! ويبدو أن جويسراً نفسه لم ينتبه إلى أنه هرب ، بل ظن نفسه محبوساً ! لأنه لم يظهر بعد ذلك ، ولا حاول أن ينبه أمير المدينة الذي فتح الباب للطارق في منتصف الليل خوفاً من عقابه .. فكيف خاطر بعقوبته بعدما عرف أن الطارق جاء يطلب رأس الأمير ؟! وكان جويسر على رواية حمزة لايزال حيا حتى عام ١٩٣٥ ـ ١٣٥٤ على الأقل . ولكن ما من أحد كلف خاطره بمقابلته .

وعلى الطريق إلى بيت عجلان سيتسلق عبد العزيز جدار بيت ثالث ، ليجد شخصين نائمين في فراش واحد ، لف الأثنين في فراشهما . دون أن يعرفنا أحد من هما ولا ما

هما .. معذرة لا مكان لهما في الملحمة ، ومن البيت الثاني الى الثالث ، ويبدو وأنه كانت هناك أزمة سراير ، فللمرة الثانية يجد المهاجمون شخصين متعانقين .. أيقظوهما فاذا بهما زوجة عجلان وأختها . ولم تصدر صرخة واحدة لمنظر رجال مسلحين في غرفة النوم ولا حتى شهقة ، بل المرأة تقول وكأنها طفلة عادت من المدرسة الداخلية ، أو متفرج في برنامج جرب حظك : أنت عبد العزيز ؟!

صح !..

ومهما قيل عن علاقة المرأة بأسرة عبد العزيز وطول قامته المميز ، وملامحه الملوكية ، الا أنه يصعب على موظفة في مصلحة تحقيق الشخصية التعرف على شاب في الثانية والعشرين من عمره شاهرا سيفه ، من ملامح طفل غادر البلاد في العاشرة من عمره !

الزركلي انفرد بايراد الاسم الثلاثي « عجلان محمد العجلان » الحائلي ، من مولدي حائل . وهي بيانات كافية لاستخراج جواز سفر أو بطاقة ركاب مرجع من الخطوط السعودية ، ولكنها لا تفيدنا في التعرف على شخصيته . كذلك عرفنا أن زوجة عجلان هي « لؤلؤة بنت ابن حماد » ونقل عن عبد العزيز قوله « إن أباها وعمها كانا من خدامنا » وأنها مازالت تعيش إلى وقت تأليف الكتاب (١٩٥٠ ـ ١٣٦٩) أو نشره (١٩٧٧ ـ ١٣٩٧) لا أحد يدري ، أطال الله عمرها إن كانت حية ، ورحمها الله إن كانت قد لحقت بأبطال الملحمة .. يكفيها فخراً أنها استطاعت أن تتجنب فضول الصحفيين ، وإغراء الناشرين ، فلم تكتب مذكراتها عن ليلة المصمك ، ولا واجهت سؤالا سخيفاً عن شعورها بعد مقتل عجلان الذي كان مصرعه أول إجراء ضروري لقيام المملكة العربية السعودية !.

ونقل « فؤاد حمزة » على لسان الملك أنه « وكز الحرمة فنهضت ، فلما رأتني صرخت من أنت ؟! فقلت : « بَس أنا عبد العزيز (وهذا أقرب وصف للمنطق والمعقول) أما هي فكانت تعرفني وأبوها وعمها خدام لنا ، وهي من أهل الرياض ، قالت : ماذا تريد ؟ (كان المفروض أن تقول وايش تبي أو ويش تريد) قلت : أدور رجلك يا فاجرة ! يلي تاخدين شمر (أي تتزوجين رجلا من شمر) قالت : أنا غير فاجرة .. أنا ما أخدت شمر إلا يوم تركتني أنت ويش جايبك » فقلت « أنا جيت أدور رجلك لأقتله » قالت « أما زوجي فلاودي تقتله ، وأما ابن رشيد وشمر فودي تقتلهم جميع ! ولكن كيف تقدر على زوجي ؟ زوجي محصن في القصر ومعه ثمانين رجال ويمكن لو طلع عليك أخاف ما تقدرون تنجون بأرواحكم وتخرجوا من البلاد » . « تكلمت عليها وسألتها عن وقت خروج زوجها من الحصن ، قالت انه ما يخرج الا بعد ارتفاع الشمس بثلاثة أرماح . »

« أخذناها وصكينا عليها مع الخدم ، ثم أحدثنا فتحة بيننا وبين الدار التي فيها أخي محمد ، ودخلوا علينا » .

وتحول البيت إلى ديوانية وجرى إعداد القهوة والشاي وأكل البلح* !.. ورواية الملك ، ورواية الزركلي عن مخطوطة خالد الفرج العتيدة ، متفقة على أنهم ناموا جميعاً في انتظار موعد خروج عجلان ، وإن كنت اقترح أن يتناوبوا النوم !..فرغم مرور ما يقرب من ثمانين سنة على الحادثة ، وثقتنا التي لا تقبل الشك في نجاة عبد العزيز ، إلا أن أعصابنا مازالت لا تتحمل أن ينام عبد العزيز وكل رجاله تحت رحمة أية مفاجأة ، حتى ولو كانت لؤلؤة وأختها قد اختارتا معسكرهما ، فهما آخر من يطمئن طالب سلطة للنوم في حراستهما !..

ولعل ما يعين على تفسير هذا السلوك ـ العجيب بمقاييسنا ـ لنساء ليلة المصمك ، أن نعرف القناعة الاجتماعية في الصحراء ، فصحيح أن شخصية عبد العزيز وأسرته لعبا دوراً أساسياً في هدوء النساء ، ولكن أيضا الخلفية الحضارية ، الاستعداد لقبول نتيجة الصراع ، ولذلك يدهش الغريب مكانا وزمانا ، من السهولة التي تنتقل بها زوجة الأمير أو القائد المنهزم ، في نفس الليلة إلى حريم القائد المنتصر ، وتبيت في فراشه ، ولا تسجل أحداث التاريخ ، إلا وقائع نادرة تكاد تعد على الأصابع عن غدر الزوجة « الأسيرة » بالرجل المنتصر ، فالمرأة كالأرض والسلطة بل والشعب ، وحتى التاريخ كلها تمنح ولاءها للمنتصر .

على أية حال لم نجد في ملحمة عجلان رجلا واحدا يتعاون مع المغيرين إلى أن يقتل عجلان . ولكن أكثر من امرأة صاحت : « عبد العزيز » .. ثم انتظرت هادئة نهاية المعركة التي ستحدد من هو السيد الذي يمنح الولاء والحب !

وفي رواية الملك التي نشرها « فؤاد حمزة » ان أحدهم تنكر في ثياب امرأة لكي يفتح الباب لعجلان عندما يأتي في زيارة الصباح المعتادة ، ولكنهم لم يطيقوا صبراً عندما رأوه ، فخرجوا إليه .

كما اهتم الزركلي اهتماماً كبيراً بنفي رواية « كنث وليامز » عن وجود جذع نخلة استعان به ابن سعود في تسلق حائط بيت عجلان . واستند في نفيه إلى رواية الملك عن ركوب « بعضنا فوق بعض » « وهذا ما يثبت عدم وجود الجذع كما أنه ينفيه » !..

مسكين الجذع لا مكان له في الملحمة !

---

* وهنا خلاف في أكل البلح .. « العطار » قدم مشروعا لسيناريو يصلح للبث في الاذاعة المدرسية في نجران في فسحة الظهر ولمن شاء الرجوع اليه (ص ٢٥٠ ـ صقر الجزيرة الجزء الأول) . وينسب لعبد العزيز أنه وقف في غرفة عجلان وقال على طريقة عباس فارس : « كلوا أيها الأبطال ! لا تجبنوا في طلب حقكم المسلوب ! هذه صفائح التمر والدبس تناولوا منها ما تريدون .. فاما أن يكون ذلك أول ما تطعمون في بلادكم تحت ظلال الحق والحرية ، وإما أن يكون آخر طعامنا في هذه الحياة التي تتجاهل أقدار الرجال أيها الأبطال !! »! وسر هذه الخطبة الهزلية ، هو أن ضمير الشيخ عطار احتار في فتوى أكل بلح عجلان ! ولكن ابن سعود خفف عنا وعنه ، ففي رواية فؤاد حمزة على لسانه كان التمر مما حملوه معهم « فلما اجتمعنا استقرينا وأكلنا من تمر معنا ، ونمنا قليلا ثم صلينا الصبح وجلسنا نفكر ماذا نعمل . »

وسنضرب صفحاً عن موعد خروج عجلان من الحصن ، فقد اختلف فيه الرواة ، الزركلي والريحاني وحافظ وخالد قرروا أن زوجة عجلان عندما سئلت أفادت أنه «يخرج بعد طلوع الشمس» ، أما قلب الجزيرة وصقر الجزيرة فأفادا أنها قالت « قبل شروق الشمس » . ولو سئلت زوجة عجلان في اليوم التالي لما تذكرت ما قالت .

المهم أن عجلان خرج عندما فتح باب الحصن ، وفتح سجل التاريخ ، وتسابق الجميع لاحتلال مكان في أطول ملحمة عرفها القرن العشرين . وكان الطريق إلى الخلود ، يمر عبر النجاح والفشل معا ، فالحربة التي أخطأت عجلان واستقرت في باب الحصن ، لو أصابته لما زاد حظها عن أن ينتزعها ابن جلوي ويحارب بها معاركه الأخرى وتنسى تماما ، أو قد يتركها في جسد عجلان وتدفن معه ، ولكن لأنها أخطأت ، دخلت التاريخ وظلت عشرات السنين تحتل مكانا مرموقا في برنامج زيارات السياح والصحفيين وممثلي شركات النفط ومختلف القادمين إلى الرياض ، تستمع في تلذذ لقصة عجلان وابن جلوي ، والضربة الخاطئة التي كانت وسيلتها إلى المجد .

كذلك كانت كل المصادفات ضد عجلان ، إلا التاريخ والخلود ، فقد كانا له بالمرصاد ... أخطأته الحربة ، فأصابت باب الحصن ، ونفذت فيه ، وحاول ابن جلوي أن ينتزعها ليضربه مرة ثانية فتشبثت بباب المجد وانكسرت . وهكذا نجا عجلان من الحربة ، فتقدم التاريخ لنجدته وجعل ابن سعود يمسك به ، بقبضته التي اشتهرت بقوتها الخارقة ، حتى أن بعض معارفه كان يتجنب مصافحته ، بعدما جربوا قبضته في المصافحة ! .. ورغم ذلك استطاع عجلان العامي ، الذي بلا طموح ، استطاع ضرب ابن سعود في خاصرته حتى أغمى عليه إغماءة خاطفة ، ولكنها كانت كافية ليمرق الثعلب من يده ، وينفذ من ثقب الحائط أو البوابة الصغيرة ، ولكن هيهات أن يفلت عجلان من المجد ، ولو مرق من « الخوخة » لأفلت من التاريخ ، فقد كانت الخطوة الثانية هي إغلاق باب الحصن ، واستصراخ الحرس والجند والأعوان .. وفرصة عجلان الوحيدة في الخلود ، هي أن يهزم ويقتل على يد ابن سعود ، فلو قتل هو ابن سعود ، أو انتصر عليه ، لطواه التاريخ ، كعشرات بل مئات من عمال نجد الذين لا يذكر أحد اسمهم ولا حتى أحفادهم ... وهكذا رغم كل ما بذله عجلان للافلات من المجد ، لم يتحقق هدفه .. وحقا يثاب المرء رغم أنفه .

كانت الرياض فعلا على موعد مع التاريخ ، فالأمير القادم ، ليس مجرد أمير سعودي ، من أمراء فترة التناحر ، عندما تخلى البيت عن الرسالة ، وتصارع أفراده على الملك فضاع الملك كما ضاعت الرسالة ، **لأن هذا البيت بالذات لا يستقيم له ملك بلا رسالة ، لأن التاريخ لا يحب الخديعة ، وهذا البيت نال الملك باسم الرسالة ، فلا يجوز له أن يتخلى عن الرسالة ويستبقي الملك** .وقد تساقط كل الأمراء الذين تخلوا عن الرسالة ،واكتفوا بالامارة ،وانتهى بهم الحال إلى قبول الحماية ،والحكم بينهم من ابن رشيد ، عاملهم القديم ووارث ملكهم ، بل وصل بهم الأمر إلى قبول الدعم البريطاني ، أو الحماية التركية متخلين بذلك عن جوهر الرسالة السعودية ، وهو

التحرر من كل نفوذ أجنبي ، متنكرين لكل الدم الذي أريق خلال أكثر من قرن ، من أجل أن تكون جزيرة العرب للعرب وحدهم .. فضاعوا في التيه ٣٧ سنة .. تساقط فيها كل طلاب السلطة . حتى خرجوا من الرياض ، وبقي شيخ واحد ، كان على ما يبدو ، لا يصلح ، أو غير مقتنع بجدوى السعي لاسترداد ملك « خرج من أيديهم » رغم أنه أبدى كفاءة ـ ملوكية ـ نافذة سواء في مواجهة ابن سبهان ، أو في ما أعقب ذلك من مفاوضات مع الترك والأهم من ذلك كله ، إدراكه أن فاتح الرياض هو الأحق بالملك ، وأن تجديد الأسرة ، وفتح صفحة جديدة في مستقبلها ، يتطلب قيادة وجيلا جديداً فتنحى في عظمة ووعي نادرين بين أمراء العرب .

صاح المنادي : الملك لله ثم لابن سعود

نفس الصيحة التي اطلقها ابن رشيد قبل نصف قرن فكوفىء عليها بالامارة .. ولكنها اليوم تعني بداية زوال ملك ابن رشيد ..

نفس الصيحة التي أطلقت منذ أكثر من نصف قرن باسم الرسالة لتنتهي بملك يذبل ويذوي .. تعلن اليوم بداية ملك سيبعث الرسالة ، وهذا هو المعنى الذي عجز ابن رشيد عن فهمه عندما وصل اليه نبأ دخول ابن سعود الرياض فقال قولته المشهورة « ارنبة محجرة وأهلها مقيمون » أي أرنب دخل جحراً والصيادون ينتظرون خروجه فلا مهرب له . وصحيح كانت تتجمع في عبد العزيز كل الصفات المطلوبة لقائد ورجل تاريخ ، ولكنه بلا رسالة لم يكن أكثر من فتى دون الثالثة والعشرين من عمره ، في قرية لا قيمة لها اقتصادياً أو عسكرياً .. ولكن فاته أن عبد العزيز بصفاته الشخصية ، عندما أصبح في الرياض عميداً للبيت السعودي . تقمصته على الفور مسئوليات والتزامات الرسالة* ، حتى وإن احتاج الأمر الى عشر سنوات حتى تنضج الدعوة وتتخذ صيغة تنظيمية ستغير الأوضاع في جزيرة العرب . وستطرح من جديد فكرة « الحل الاسلامي » للجدل والمناقشة ما بقي من القرن .

لكن ابن رشيد كان ضعيفاً في المعادلات الدولية ، بعد به العهد عن عبيد الله وعبد الله ، فنسى زخم الوهابية ، ولم يتعلم درس سلفه امرؤ القيس الذي أراد أن يحكم شمراً بدعم خارجي ، فلم يحكم ، ولم يترك من أثر سياسي الا شهادته على نفسه باستعداء قيصر على مواطنيه** .. ولذلك غفل عن الرياض وما جرى فيها واستمر يفاوض « قيصره » أي الأتراك يطلب دعمهم ضد ابن صباح للاستيلاء على الكويت وهي المرتبطة والمتمتعة بحماية قيصر الأكبر !.. بينما هب أهالي الرياض يبنون السور

---

* تقول بعض الدراسات الحديثة إن حملة ابن سعود هذه كانت بلا هدف ديني بل مجرد طلب ملك . وقد يكون هذا صحيحاً ولكن عبد العزيز سرعان ما اكتشف دوره الحقيقي .

** إشارة إلى قول امرؤ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

للدفاع عن إمارة ابن سعود ، وقد جاءهم هذه المرة متحرراً من أي التزام ، خالصاً لهم ولدورهم التاريخي ، فأخلصوا له ومنحوه حبهم ..

نترك عبد العزيز في الرياض ، وقد بدأ الخطوة الأولى في مسيرة الثلاثين عاما ونعود لابن صباح ، لنجد مؤرخ الكويت ، الخفيف الدم ، مستمرا في ادعاءاته ، فيزعم أن ابن صباح ، هو الذي أرسل لابن سعود التعليمات الخاصة بتحصين سور الرياض ، بعد الاستيلاء عليها ، ولكن خفة دم المؤرخ تجلعه يضيف أن هذه التعليمات وصلت في رسالة « كالألغاز والاحاجي ، ولم يفهمها حتى كاتبه الخاص » (كاتب ابن صباح) .. إلا بعض ما جرى تأويله ! والمعروف أن ابن سعود شرع في تحصين السور فور انتهاء مقاومة حرس ابن عجلان . ولم يكن بحاجة إلى وصول رسول من الكويت ! برسالة بالشفرة ، يعجز « كمبيوتر » الكويت ذاته عن حلها ، ولا ندري لماذا يحتاج ابن صباح لمثل هذه الشفرة المعقدة لابلاغ رسالة شديدة البساطة : « يا ولدي يا عبد العزيز .. حصن سور الرياض وإلا أخذوها منك تاني » !

.. مثلا !

ويمضي مؤرخ الكويت :

« أما مبارك آل الصباح فكان في تلك الوقائع بين الاميرين ، هو ركن ابن سعود الأعظم الذي عليه يعتمد ، فتراه يبعث إليه بالامدادات بسخاء وكرم ، ويخرج إليه الحملات الواحدة تلو الثانية والقافلة في إثر أختها تحمل الأطعمة تارة والذخيرة تارة أخرى . وفوق ذلك فان مباركا كان يرسم الخطط الحربية له ، وهو في مدينته ، فانتصار ابن سعود إذا على ابن الرشيد ، هو انتصار مبارك على خصمه وتنفيذاً « لخططه التي رسمها[٢٥] »

أما عن الامدادات فلا ننفي ، ولكن لا سخاء ولا كرماً ، فابن الرشيد العدو الأول إن لم تقل الوحيد لابن صباح في الجزيرة ، بل وأخطر عدو ، وقد وصل إلى مشارف الكويت ، لولا تدخل البوارج البريطانية ، وفجأة ووسط الهزيمة الشاملة لابن صباح ، يظهر عبد العزيز وينتزع الرياض من ابن رشيد ، ويشغله ما بقي من سنوات حكمه عن الكويت وشيخ الكويت ، فلا يستغرب أن يدعمه ابن صباح ، وسنجد أن معظم هذه الامدادات كان يدفع ثمنه من خزينة السعوديين ، وأن الانجليز ، ضغطوا على مبارك — وهو خير من يستجيب — لوقف السماح بمرور السلاح أو شراء الطعام من أسواق الكويت لابن سعود .. ولم يستجيبوا لمحاولته « بيع » ابن سعود لهم ، فقد كانوا أعرف بالسعوديين منه ، وكانوا في ابن سعود من الزاهدين . أما عن وضع ابن صباح الخطط الحربية لابن سعود ، فحتى لو صدقنا زعم ابن صباح الذي أقنع به الانجليز عن قلة حظ ابن سعود من العبقرية العسكرية ، فلابد أنه كان يتمتع بالحد الأدنى من الفهم الذي يجعله يرفض نصيحة من قيل فيه « لم تنتصر له راية قط » وإن كانت الحماية البريطانية قد أعفته من دفع ثمن الهزيمة .وابن صباح لا يريد ولا يطيق ،ولا يطمح في أكثر من الكويت ، بعد درس ابن رشيد . وهو لا يجيد القتال ، ولا صبر له عليه ،

وشعبه تجار ، يفضلون حلها « بالمال عن السنان » ، وابن صباح يفضل أن ينجو بالميكافيلية ، عن السيف .. ولقد نجا بكويته بلعبة التوازن ، لم يفقد منها شبرا ، وهذا التوازن هو ما يبرر به المعتذرون عنه مسلكيته التي تصل الى درجة الغدر ، إذ يقول الريحاني في تبرير غدر ابن صباح بابن سعود « إنه كان ينشد التوازن في نجد لأنه إذا اختل اختلت الكويت » . وقد أشرنا في تمهيد الكتاب إلى لعبة التوازن هذه وأشرنا إلى الفرق بينها وبين دبلوماسية اللعب على التناقضات العالمية ، فالأولى ــ كما قلنا ــ سلوك غريزي بدائي أشبه بدفاع الكائنات ذات الخلية الواحدة عن وجودها الاميبي ، والثانية هي دبلوماسية راقية ، لعل أوضح أمثلتها في القرن التاسع عشر هي اليابان وبروسيا ، أما في القرن العشرين فان أبرع لاعبيها هو عبد العزيز آل سعود ، وقد حاول بعض الزعماء العرب في الخمسينات وبعد نصف قرن من ممارسة ابن سعود ، أن يلعبوا نفس اللعبة على التناقض الروسي ، الأمريكي ، أو التناقض البريطاني ــ الأمريكي ، فانتهوا بخسارة فادحة لشعوبهم وأوطانهم ..

استخدام التناقضات العالمية ، ضرب من الدبلوماسية الراقية ، يعتمد أساسا على الايمان بهدف قومي ، والوعي بالتطورات العالمية ، وإدراك حركة التاريخ ، وفن محالفة القوى التي تلتقي مصالحها مع الهدف القومي أو الاقليمي للقوى الوطنية ، دون الوقوع في مخطط هذه القوى ، أما لعبة التوازن الأميبية أو البيولوجية التي يلعبها المشايخ ، فهي ضرب من الانتهازية وألاعيب بدوية ، وأشهر نموذج هو ذلك الذي أشرنا اليه ، وحكاه الريحاني عن شيخ البحرين محمد بن خليفة آل سلمان . فقد قال الريحاني : « إنه كان في السياسة يتخذ الحرباء مثاله الاعلى ، ولا غرو فالدولة العثمانية ، كانت قد بدأت ترمق الكويت والأحساء والبحرين بنظر الأم الرؤوم . وكانت الدولة الايرانية تحلم برجوع ابنتها الضالة ، وكان الانكليز بعد أن ثبتت أقدامهم في بوشهر ، يسيرون في المضيق بين الدولتين ، الى مقاصدهم « الكريمة » ، فهل يلام الشيخ محمد ، إذا قام بينهم كالبهلول يدهشهم تارة ، وطورا يضحكهم ، ولا يرضي باطنا أحدا منهم . قيل إنه كان ينشر في القلعة علمين ، علما عثمانيا فوق البرج الغربي منها ، وعلما ايرانيا فوق البرج الشرقي ، حتى إذا حاولت إحدى الدولتين ، التحكم بأموره ادعى النسبة إلى الأخرى[٢٦] .

نعم ! يلام .. لأن اللعبة انتهت بسقوطه في قبضة الراية الثالثة : البريطانية ! عندما أراد أن يلعب ورقتها هي الاخرى ، فقبل الحماية ، وكانت بريطانيا في خطتها للاستيلاء على الخليج ، قد وضعت هدفا أساسيا هو تدمير القوة البحرية العربية فيها ، فدمرت أسطول القواسم ، واشترطت على شيخ البحرين نزع سلاحه البحري وتصفية اسطوله ، ثم دكت القلعة ذات العلمين ، وخلعته وولت أخاه عليا مكانه ، فكان الشقاق في بيت الامارة . ولعبت هي لعبة التوازن البدوية ، داخل هذا البيت الذي خرج من اللعبة لسنوات طويلة .

وقد استرد الشيخ « محمد » الحكم ، وقتل الشيخ « علي » ، ولكن ليسجن هو

بدوره على يد المتمردين عليه من الأسرة ، في القلعة الشهيرة أو ما بقى منها . وجاء الوكيل السياسي من بوشهر بمدفعيته ، فقبض على الشيخ الذي كان أول من أدخلهم في البحرين ، ونفوه الى الهند ، حتى تشفع فيه السلطان عبد الحميد ، فنقل إلى مكة ومات هناك ! وعين الحاكم البريطاني الشيخ عيسى بن الشيخ علي شيخا للجزيرة التي فقدت استقلالها لمائة عام* ١٤م .

ودبلوماسية ، أو سياسة التوازن التي اشتهر بها ابن صباح ، هي من النوع الثاني ، دبلوماسية الكائنات الدنيا ، كأن يرسل رسالة لابن رشيد يقول فيها : إني متكدر جدا من أعمال « ابن سعود » . وقد جرت الأمور في نجد على غير ما اشتهي ، أما الان فأنا وإياكم عليه ، والكويت وحائل شقيقتان . ومصلحة البلدين واحدة . ولكم مني ما تشاءون » !

ويكتب إلى ابن سعود في نفس الوقت : « أولدي .. ياولدي .. أنا معك في كل حال وحين ، قواك الله وتولاك . لا تترك هذا الكلب ، فحل الشول ، ولا تدعه يستريح ولا تصالحه ، وأنا أبوك مستعد لمساعدتك في كل ما تريد[٢٧] » .

مثل هذه الألاعيب الصبيبانية ، تفضحها غلطة** موظف ، عندما يرسل خطاب ابن رشيد لابن سعود ، والعكس بالعكس . فدبلوماسية الدس ، واللعب على الحبلين ، هي دبلوماسية أزقة ، وكيد نساء ، وتضع أصحابها في مواقف مخجلة١٥م . كما أرسل ابن صباح رسالة تهديد لابن سعود بالحرب . ولكن يصله خبر مصرع ابن رشيد وانتصار ابن سعود ، فيلحق رسوله الاول بنجاب سريع يلهث ليقدم فروض التملق لابن سعود : « إني لك دائما ياولدي ياعبد العزيز ، أنا أبوك وعونك وعضدك ، ولم اصالح ابن رشيد إلا قهراً للترك ، ولكنني مستعد لمساعدتك . المال مالك ياولدي ، والحلال حلالك » .

ما الذي حققته براعته ، .أودهاؤه ، إلا هذا الموقف المحرج الذي يضطر فيه إلى التودد ، بل الاعتذار لمن يصغره بثمانية وثلاثين عاما !

وستتكرر نفس الألاعيب ، ليجد نفسه مرة أخرى مضطراً للتذلل والاعتذار ، فيكتب إلى عبد العزيز يستنجده ضد عدو : « أنا أصيح وأناديك وأنت ياولدي تصم أذنك . أبمثل ذلك يعامل الوالد .. أتهجرني يوم شدتي ، فيساعد هجرك العدو علي ؟ اسمعني ياولدي ياعبد العزيز .. اسمعني أصيح وأناديك .. » فيستجيب عبد العزيز .. ولكن مباركا يكتب لنفس العدو يحذره من زحف ابن سعود عليه ! وتتكشف اللعبة كما هي العادة .. ويثور جند عبد العزيز طالبين الاذن بمحاربة عدو الله الغدار الذي « يطلب

---

* عين الانجليز الشيخ عيسى بن علي عام ١٨٧٠ ــ ١٢٨٧ ومنحوا حفيده الشيخ عيسى بن سلمان الاستقلال سنة ١٩٧٠ ــ ١٣٩٠ . وكانت عندما دخلت في الحماية تضم مائتي ألف نسمة ودخلها من اللؤلؤ ثلاثون مليون روبية ودخل الكويت لا يتجاوز ٨ ملايين روبية .

** انظر تاريخ الكويت .

منك الهجوم على ابن سويط ثم يخبره بذلك ليكون على حذر ؟! رخص لنا فتجري الدماء كالأنهر في أسواق الكويت[٢٨] » ! ..

ويسارع مبارك إلى الاعتذار لولده !

ومرة أخرى يحاول اللعب ولكن على مستوى أكبر من ابن سويط ، فعشية الحرب العالمية رأت تركيا أن تخطب ود عبد العزيز وتنبهت بريطانيا لأهمية ابن سعود ، فاتصلت الدولتان به ، وهنا يتلقى رسالتين من ابن صباح ، واحدة تحرضه على الوكيل البريطاني . « كن صلبا معه ياولدي فلا تمكنه من شيء ولا تعطه الجواب الشافي » هذا في الوقت الذي يبلغ فيه ابن صباح الوكيل بكل سكناته وحركاته .. وعندما وصل الوفد التركي كانت قد سبقته رسالة خاصة من ابن صباح لابن سعود : « خذ حذرك من هؤلاء الاتراك الكذابين المكارين الخداعين ، كن صلبا معهم ياولدي ولا تمكنهم من شيء ، ولا تصدق ما يقولون ، إنهم كذابون خداعون » ! ... وطبعا يعرض ابن سعود الرسالة على الأتراك الذين كانت قد وصلتهم رسالة ثالثة من ابن صباح ضد عبد العزيز ، فيضحك الجميع ، ويتفقون من وراء ظهره ، ويكون هو الأبله الوحيد في اللعبة كلها !

وإذا كان عبد العزيز لم يطرح أبدأ مطلبا جديا في الكويت ذاتها ، فان نمو قوة نجد* خلال تصديها لتوحيد الجزيرة كان جديراً بأن يثير قلق المتشبثين بالكيان ، خاصة إذا كانت عملية التوحيد تتم تحت شعارات وممارسات عربية ـ إسلامية ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان العراق لم تكف أبدأ عن المطالبة بضم القائمقامية الى الوطن الأم[١٦]م ، حتى قبل ظهور النفط كما سجل الريحاني في كتابه « ملوك العرب » . وقد مرت فترة ـ قبل النفط ـ كان الكويتيون يريدون الالتحاق بالعراق إيمانا بالوحدة ونفوراً من ابن الصباح ، وتطلعا لنصيب من ثروة العراق وتقدمه . ومن هنا كان ابن صباح مضطراً للقيام بدور البهلوان أو المهرج ، وتقديم الألاعيب التي سنرى منها العديد . وكلها تهدف إلى تمزيق المنطقة وضربها ببعضها لكي يصبح التمزق وتعدد الكيانات القزمية . هو القاعدة ! .

واذا كان مبارك قد حاول أن يستخدم عبد العزيز في صراعه ضد ابن الرشيد وفشل ، إذ تبين ان « ابن سعود » هو فرخ النسر الذي لا يؤكل ولا تلعب به الطير حتى وان وضع بيضه في أوكارها . عندئذ تحول الى « الاتجار » بعلاقتهما .. فهو يكتب للدولة العثمانية أنه أمر ابن سعود « بالامتناع عن جميع عربان الدولة العلية فانصاع لما أردت » ! .. وهو كما سنرى يبيعه غيبا للانجليز ، ويحاول أن يزيد من أهميته وثمنه عند هؤلاء بادعاء أنه يملك ورقة ابن سعود ، ولكن الجميع سيكتشفون استقلالية عبد

---

* مع الاعتذار لمؤلف تاريخ الكويت القائل : « إن نجداً بدون الكويت لا تساوي قلامة ظفر[٢٩] » فهذا كقولنا إن الصين بدون هونغ كونغ لا تساوي قلامة ظفر ، أو الهند بدون جوا .. أو الجزيرة العربية بدون كوريا موريا[١٧]م .

العزيز وتفوقه على ابن صباح ، الذي لم يؤمن في البداية بامكانية انتصار عبد العزيز ، ثم ملأ نفسه الرعب ، أو حتى الحقد على عبد العزيز ، فظل يكيد له كيد العاجزين ، ما بقي من عمره !

ومؤرخ الكويت يشير إلى ما كان شائعا عن حذر مبارك وتوجسه أو حسده لعبد العزيز ابن سعود ، فيقول إن مباركا كان يعلم أن ابن سعود إذا تم له ما يريد في نجد ، فسيشرع بتوسيع نفوذه وسلطانه واستئصال شأفة من يقف في وجهه ، ولو كان مباركا صديقه وحميمه » .

وقد بذل مبارك كل جهد ممكن لمنع ابن سعود من تحقيق ما يريد في نجد ، حفاظا على « شأفته » وسجل مؤرخ الكويت بعض هذه الجهود قدر علمه فقال :

« عقد اتفاقا مع خصم ابن سعود اللدود ، عبد العزيز الرشيد في شوال (١٣٢٣ ـ ١٩٠٥) على يد خالد باشا العون في زيارته للكويت تلك السنة ، تلا ذلك أن كتب مبارك إلى ابن رشيد يحرضه على غزو ابن سعود ، وأفهم أهل نجد بتخليه عن نصرته ، وكذلك الدور الذي مثله مبارك في الوقت الذي تقرر فيه اجتماع الوفد التركي برئاسة السيد طالب باشا النقيب بابن سعود ، في الكويت للبحث معه بشأن القطيف والأحساء بعد احتلال ابن سعود لهما فان مباركا عارض أولا في عقد المؤتمر في الكويت ، **ثم اجتمع ثانيا بالوفد التركي ، وأخذ يشرح له نبذاً من أعمال ابن سعود المخالفة لمصالح الدولة** ، وأبان لهم غلط الحكومة العثمانية في تقديرها قوة ابن سعود باكثر مما يستحق ، وتأسف لكون الحكومة لم تفوض إليه عقد الصلح معه ، وقال لو إنها فوضت له ذلك « لأجبرته على الخروج من الأحساء والقطيف » . ثم أخذ بعد هذا الخداع (والكلام مازال للمؤرخ الكويتي) يحذر ابن سعود . ايضا من الاصغاء إلى مطالب الوفد او قبول شروطه ويضعف قوة الحكومة العثمانية أمامه » .

وفسر المؤرخ هذا السلوك بالسبب الحقيقي ، وإن لم يكن الوحيد فقال : إن مباركا لم يمثل هذا الدور إلا بدافع من انكلترا التي كانت ترى اتفاق ابن سعود مع الأتراك ضررا على سيادتها في الجزيرة وإزهاقا لآمالها بالاتفاق معه سيما وقد أخذ نفوذه يمتد الى قلب الجزيرة » .

ويستمر مؤرخ الكويت في تعداد أيادي ابن صباح فيقول : « وكان آخر الادوار التي مثلها مبارك على مسرح المكر ، الدور الذي قام به في تجهيز ابنه سالم ومن معه من آل الصباح إلى الأحساء نصرة لابن سعود على العجمان . فقد سيره بجيش عرمرم في رمضان ١٣٣٣ وقال له إني لم أرسلك لقتال العجمان ولا نصرة حقيقية لابن سعود . وأنا جهزتك صورة أمام الناس . ثم حذره أشد التحذير من الاشتباك مع العجمان في قتال . وقد علم ابن سعود بذلك ، بل علم بلوم مبارك الشديد لسالم بعدما سار إلى ساحة الوغى وبعدما اشتبك مع العجمان في بعض الوقائع ، فقد قال له في عتابه : « قد نهيتك فلم تنته ، وحذرتك فلم تسمع . أنت لست تابعا لابن سعود ولا هو بأفضل منك وأكبر . فاياك إياك أن تعود لمثل ما عملت » . « فمثل هذا التلاعب يضطر ابن سعود الى التغير

على مبارك* » .

وكتابات مؤرخ الكويت ، تكشف المناخ النفسي الذي توارثه آل صباح ضد ابن سعود ، واعترافهم بأن العلاقة بين مبارك وابن سعود ، كانت علاقة عداء ، وغيرة وخوف من جانب ابن صباح . وقد حاول المؤرخ الكويتي أن يعدد أخطاء الجانبين على لسان أنصاركل فريق . فقال إن أنصار مبارك يأخذون على ابن سعود هذه الأخطاء :

ـ « عدم حضور ابن سعود اجتماع الكويت الذي انعقد برئاسة « هاردنك » ٥ ربيع الاول سنة ١٣٣٣ لاشتغاله بخصمه ابن رشيد في وقعة « اجراب » التي قتل فيها شكسبير فأحدث هذا تغيراً في نفس مبارك على ابن سعود لأنه أخلف الوعد وانهزم أضف إلى ذلك الخجل الذي اعتراه أمام انكلترا من خلف ابن سعود الوعد » !!!

ـكتب ابن صباح المعادية لابن رشيد ، والدولة العثمانية « التي تمسك بأذيالها » ويقول فيها (ابن صباح) إنها ذاهبة لا محالة ، وإن الغلب سيكون لخصومها الانكليز في ميدان الحرب ، تركها ابن سعود في حقيبته فغنمها منه ابن رشيد في حادث « اجراب » مع أن ابن صباح كان قد أوصاه أن يرميها في قعر الظلمة فاستشاط مبارك غيظا ، ولم لا يستشيط وقد سبب هذا انكشاف أسراره ؟ » !

وهي كما ترى من لون العتاب الذي يسمع في الحريم وليس في العلاقات الدولية .

وقد علق مؤلف تاريخ الكويت بقوله : وكان مبارك لدهائه يلبس لكل زمان لبوسا بل تراه وهو يحرض ابن رشيد على ابن سعود ، يحرض ابن سعود أيضا في نفس الوقت على ابن رشيد ، يمثل الأدوار تحت طي الخفاء ، وهكذا كان يتلاعب مبارك بالرجال والأبطال[٣٠] » .

فما عليه إذا لعب به الرجال ؟! فألقى ابن سعود برسائله الى ابن رشيد ليفسد ألاعيب مبارك ؟! ... لو كانت رسائل من صديق مخلص لما علم بها أحد .

ـ أن مباركا يدعي أنه سمع من صاحب الدولة السيد طالب باشا النقيب نقلاً عن ابن سعود أنه قال : لا يمكنني الاتفاق مع انكلترا إلا بعد أن تسمح لي بقطر ومسقط وعمان ، وبعد أن ترجع مباركا الى حدوده الأصلية » .

وصحيح أن ابن سعود اعتبر عمان وقطر وبعض مسقط من الدولة الوهابية ، وتحفظ عليها حتى في معاهدة الحماية ، إلا أنه كان واقعيا ، ويعرف أن قبول بريطانيا مطالبه فيها ، هو من المستحيلات . ولذلك لم يسمع عنه هذا القول ، أما إعادة الكويت إلى حدودها فهو مطلب تردد فعلا ، ولكن خلال الازمات وعند بحث الحدود ، ولم يكن مطلبا سعوديا في ذلك الوقت المبكر في حياة مبارك وان كان ابن سعود كثيرا ما قال : « السور هو حدود الكويت » .

ـ أخفى الحقيقة عن مبارك في موقعة اجراب . وطلب منه سلاحا ، وقال له « ليس عن حاجة ما طلبت ، ولكن أريد أن تكون لك الشهرة الطيبة والمعروف والجميل أمام

---

* تاريخ الكويت

أهل نجد وإلا فالسلاح في الرياض صناديق في وسعنا عد الجراد دون عدد الجنود . وقد فهم مبارك من هذا أن ابن سعود يتغفله ويستهبله* » .

إما ان ابن سعود كان صادقا ، فهو يريد تبرير صداقته لابن صباح ، بتحسين موقفه أمام شعبه وجنوده ، باظهاره بصورة الصديق الذي يسارع بنجدتهم . فهو موقف نبيل لا يدل على رغبة في الخصام أو الكيد ، والالكان بحاجة لاثارة شعبه ضد ابن صباح ، وليس إبرازه بصورة الصديق الشهم .

وإما انه كان ـ فعلا ـ في حاجة ماسة للذخيرة ، ومن ثم فالأسلوب الذي لجأ اليه ، والعبارات التي استخدمها ، لا توحي أبداً بتوفر الثقة أو حسن العلاقة ، أو أن « مبارك الكبير » كان يقدم « بسخاء » كما قال مؤرخ الكويت . وإلا لما احتاج ابن سعود إلى التحايل عليه . ولماذا يطلب من ابن صباح سلاحا في وقعة اجراب . وشكسبير سيد كل تجار السلاح وولي أمر الكويت ، موجود ، شخصيا ، في المعركة ؟!

ـ حادثة العجمان ، وقد طلب ابن سعود ان ينضم له « الجيش » (؟!) الكويتي في الهجوم على العجمان ولكن ابن سعود ترك الجيش الكويتي ، وذهب الى الأحساء لرغبته في ان لا يكون لمبارك يد في تأديب العجمان ، وإزالة النعرة من رؤوسهم ، لئلا يتبين من ذلك ضعفه أمامهم ، وقوة مبارك الذي علم بما كان يضمره له » .

أما حادثة العجمان فهي : طلب ابن صباح نجدة ابن سعود ضد العجمان ، وعبد العزيز يعرف تقلبه وغدره ، فطالبه باعطاء المواثيق أن لاينقلب عليه ويخونه إذا توجه لنصرته . « وعاهده الشيخ مبارك على ذلك عهد الله » وكانت أسوأ معركة في تاريخ عبد العزيز (١٣٣٣ ـ ١٩١٥) إذ قتل أخوه سعد وجرح هو وانهزم فطلب النجدة من ابيه ومن « الوالد » الذي كان السبب في الحرب .. وقد سارعت نجد إلى نجدته بل وانضم اليهم أحد اولاد عمه المنشقين عليه ، حتى الملك حسين شريف مكة وقف الى جانبه ، وحال دون انتهاز ابن رشيد الفرصة . إلا الشيخ مبارك فقد أصم أذنيه ، ثم قام متثاقلا وبنجدة بعث بها مع ابنه سالم عدو ابن سعود اللدود ولم تزد عن مائة وخمسين من الكويتين ومائتين من البدو . مع التعليمات المشددة لابنه سالم بألا يقاتل ، بل وانضم سالم الى العجمان ضد ابن سعود ويقول الريحاني إن خطة مبارك هي الاستيلاء على الأحساء ، من خلال الوقيعة بين ابن سعود والعجمان ، ثم التحالف مع العجمان ضد ابن سعود . وهو أمر غير مستغرب . على الاقل كانت الخطة البريطانية التي ينفذها ابن صباح هي إضعاف ابن سعود ، فقد وجدنا وثيقة بريطانية** تقول إن هزيمة ابن سعود في هذه المعركة كانت مفيدة لبريطانيا اذ ستجعله أقل تشدداً في مفاوضات المعاهدة.

ونفذ صبر ابن سعود فزحف على ابن صباح وحلفائه العجمان ، الذين استنجده لمحاربتهم ! (محرم ١٣٣٤ ـ نوفمبر ١٩١٥) وأطلق ابن سعود صيحة الحرب : « إياك

---

* تاريخ الكويت .

** انظر فصل الانجليز .

نعبد وإياك نستعين » ؛ « صبرنا على مبارك صبرا جميلا ، واحتملنا منه شيئا كثيرا . وفادينا من أجله بالمال والرجال ، وما نحن والله بصابرين الى الأبد » !

وهنا يقوم مبارك بأذكى ملعوب في تاريخه ، أفلت به من يد ابن سعود فقد مات !

ولكن مؤرخ الكويت له وجهة نظر أخرى في وفاة مبارك الموفقة التوقيت إذ يقول :

« إن كلا الأميرين أخذ ينظر صاحبه بعين العدو اللدود وشرع يستعد له بما في وسعه وطاقته فاستدنى مبارك العجمان الذين وقعت بينهم وبين ابن سعود تلك الحرب » .

« وبينما هو يحرق أسنانه تارة ، ويعض سبابة المتندم* أخرى ، ويحسب لعداوة مبارك وللتدابير التي قام بها ألف حساب ، ويتخيل من جراء ذلك كله مستقبله مظلما ، وأنه على شفا حفرة من السقوط ، بينما هو كذلك ، وقد ضاق الفضاء به واستعرت أنفاسه من الجوى ، وإذا بنبأ طار فملأ الآذان والأسماع ، نبأ أقامه وقد كان مقعدا وجلا عنه سحابة الاضطراب التي أحاطت . همس الناعي بأذنه بأن صاحبك بالامس وعدوك اليوم قد مات ، وورارته الأجداث ، فكن آمنا على نفسك ومستقبلك ، ونم نوما هادئا مستريحا . فكاد صاحبنا يطير فرحا مسرورا . وقد تراءى للناس إذ ذاك أن سيقوم لابن سعود حظ عظيم في الجزيرة لأنهم كانوا يرون من المستبعد أن يتم له ما يريد ومبارك في قيد الحياة يحاول إنزاله إلى الحضيض الأسفل**،ومبارك هو الذي أوصله الى ما وصل اليه في ذلك الوقت ، وهو الذي أخرجه إلى عالم الوجود بعد أن كان نسيا منسيا ، سيما وقد بزه في ميدان الدهاء وفاق عليه في ضروب الخداع . وقد أخذ باحتياطات عديدة ما سمعت . ولو أمهل في عمره ، لرأينا له دورا مهما يمثله على مسرح الانتقام من صاحبه الأول وعدوه الثاني . ولرأينا له مهارة باهرة في تفكيك عرى البادية وأهل نجد من حوله بفتح خزائنه الملأى بالاصفر الرنان ، إذ له*** ما ليس لصحاب نجد عشر عشرها ، والكل يعلم أن الأخير لم يفز بما فاز به إلا بنثره الدراهم ، بلا عدد ولا حساب . والدراهم هي التي تستعبد القلوب**** وتمتلك الرقاب . ولكن مباركا مات ، فكان بموته حياة ابن سعود[31] » .

إلا أن المؤرخين ، كما قلنا ، يجمعون على أن « ابن صباح » هو الذي وصل حظه الى الذروة بوفاته في الوقت المناسب تماما . فكان في ذلك حياة آل صباح . حتى قيل إنه لم يكن موفقا في تدابيره الا في مرتين : يوم وصول البارجة والقومندان البريطاني فأفلت

---

* اللي هو ابن سعود !!

** أظن أنه لا مجال للحديث بعد ذلك عن حب مبارك أو زرع الجميل والقمح ؟!

*** أي مبارك

**** وهذه واحدة من الثوابت الخاطئة في المنطق الكويتي ، الاعتقاد بقدرة المال على خلق الدول . حتى أن المؤلف ــ على تدينه ــ لم يجد تفسيراً لظهور وقوة الدولة السعودية إلا عطايا ابن سعود ! ولماذا لم تفلح عطايا خزعل ..؟!

من يد الأتراك ، ويوم أنقذه ملك الموت من يد ابن سعود .

وقد حكم سلوك عبد العزيز « المتسامح » أو اللين أو « الصبر الجميل » ــ كما قال ــ إزاء ابن صباح عدة عوامل :

ــ اعتبار الوفاء ، لا لما أسداه ابن صباح ، بل نظرا لما يعتقده الناس ، وللفهم الرائج بينهم فآل سعود كانوا لاجئين في الكويت ، صحيح أن اللجوء لم يكن منحة من آل صباح ، بل بأمر من الدولة العثمانية . إلا أن هذه التفاصيل لا يعرفها الناس . والأخلاق هي في النهاية ما يقره العرف والناس وما يرفضونه .

ــ عامل السن ، وقد قلنا ، إن الفرق بينهما في العمر كان حوالي ٣٨ سنة وكان يناديه : « ياوالدي » . والآخر يناديه ياولدي . وفي لحظات الصحو كان مبارك يبدي إعجابه بعبد العزيز ، بل ويقدمه على أولاده ، وعيا منه بكفاءاته وإمكانياته ، مما ترك جرحا لا يندمل في قلب ابن مبارك « سالم » وربما كان مبارك وخزعل يريان في عبد العزيز شبابهما غير المنحرف ، أو ضميرهما الاسلامي والعربي . والشخص المنحرف يشعر بعاطفة متناقضة نحو ضميره ، ما بين الغيظ منه والرغبة في خنقه ، أو الأسف والرغبة في الاعتذار اليه . والحنين الى الوفاق معه ، أو الحصول على عفوه !

أما العنصر الثالث والأهم ، فهو معرفة عبد العزيز أنه لا سبيل إلى عنق ابن صباح ، فالبارجة البريطانية قابعة في الخليج ، لنجدته كلما أوقعته خطاياه في مأزق ، فلماذا تفجير العداوة مع من لا سبيل إلى قهره ، لا لقوته ، بل لصلابة « ظهره » الانجليزي !؟ وابن صباح هو القناة المفتوحة على الانجليز ، إذا ضاق الخناق التركي ، أو لمنعهم من قيده في قائمة الأعداء ، وتوجيه قوى الامبراطورية ضده ، وإذا ما شاء أن يسرب اليهم فكرة أو رأيا يفيد استراتيجيته ، حيث أثبت ابن صباح أنه موصل جيد جدا للاسرار إلى المعتمد البريطاني .

ولكن إذا بلغ السيل الزبى فلا بأس من عرك الأذن أو التأديب ، وهكذا اتخذ كارها قرار ضرب مبارك وعجمانه ولكن تدخل حسن حظ مبارك الذي مات في الوقت المناسب . فبادر ابن سعود وألغى الحملة على الفور ، مؤكداً بذلك أنه ما كان يستهدف آل الصباح ، أو الكويت .. وإلا لكانت وفاة مبارك فرصة لا تترك[١٨] م .

ولأن الكيد الكويتي لابن سعود ، هو سياسة بريطانية ثابتة ، وهو أيضا إحدى الافرازات المحتومة للتناقض بين منطق التجزئة وفلسفة الحركة التوحيديـة أو الوحدوية . بين التشبث بالسلطة العائلية من ناحية وأصحاب الرسالات القومية والعقائدية من الناحية المضادة ، لذا فان العداء والكيد كانا لابد أن يستمرا .

وقد حاول « جابر » أن يغير هذا الواقع فمات* في ظروف يصفها فيلبي بأنها مشبوهة[٣٢] » . وجاء بعده أخوه سالم الذي كان بعكس جابر يحقد حقداً شخصيا على

---

* وهذه ليست أول مرة ولا آخر مرة يموت فيها فجأة حاكم أو مزاحم على العرش ، غير مرغوب فيه من النظام الكويتي .

عبد العزيز ، ويخشاه ، فتحرش به وطالب بقرية « بلبول » قرب القطيف ، وهدد وتوعد ، فكانت موقعة حمض التي أكدت أن الكويتيين يتمتعون بمزايا عديدة ، ليس القتال من بينها ! ثم موقعة « الجهرى » الشهيرة .

وقد كتب سالم الى ابن رشيد يستنجده ضد « **خصم الجميع** » وكان صادقا في الوصف ، لان ابن سعود ، بما كان يمثله ، وما يستهدفه ، ونوعية القيم التي يقاتل جنده في سبيلها ، كان خصما لكل تلك الكيانات التي تقوم لضرورة أجنبية وليس لاي مبرر عربي . ولأهداف طفيلية أنانية ، أو نتيجة لانهيار الكيان الشرعي الطبيعي . وإذا كان ابن صباح الكبير قد تكرر منه الاعتذار والتذلل لابن سعود فان ابن صباح الصغير تذلل لقائد جيوش عبد العزيز فيصل الدويش ، سيف الاسلام ، وفارس الاخوان ، إلى حد إعلان التوبة والرغبة في الاسلام ! كل ذلك بالطبع كسبا للوقت في انتظار وصول المخلص .. الأسطول البريطاني .

وهكذا بدلا من أن يأتي ابن صباح بالتوحيد « ويتدين » فعلا ، كما وعد الاخوان ، جاء بالتثليث ، ثلاث بوارج حربية بريطانية ، مع إنذار وصواريخ نارية ، وطائرتين من العراق ، ألقيتا المنشورات فوق جيش الاخوان ، وقد كتب له فيصل الدويش ، البدوي الذي كان قاطع طريق ، فتحول بنعمة الاسلام وحركة الاخوان الى فقيه وفارس يتفجر وطنية ، وحمية على دينه :

« من فيصل بن سلطان الدويش إلى سالم الصباح سلمنا الله وإياه من الكذب والبهتان ، وأجار المسلمين يوم الفزع الأكبر من الخزي والخذلان .

أما بعد .. فمن يوم جاءنا ابن سليمان يقول إنك عاهدته على الاسلام والمتابعة ، لا مجرد الدعوى والانتساب ، كففنا عن قصرك بعدما خرب ، وأمرنا برد جيش ابن سعود ، على أمل ان ندرك منك المقصود . فلما علمنا أنك خدعتنا آمنا بالله وتوكلنا عليه . يروي عن عمر أنه قال : « من خدعنا بالله انخدعنا له » . فنحن ، بيض وجوهنا نرجو الله أن يهديك . ولا يسلطنا عليك . إياك نعبد وإياك نستعين » .

ولعل بعض عداوة سالم لعبد العزيز ترجع الى عقدة سالم من ناحية أبيه مبارك ، فقد كان سالم يكرهه ، أو يكره منه ، تمييز عبد العزيز عليه ، فمهما تكن عاطفة مبارك نحو ابن سعود ، إلا أن الشيخ العجوز لم يكن يخفي إعجابه به ، بل وحسده له ، ولعله كان لا يكف عن معايرة أولاده بنبوغ ابن سعود ــ كما يفعل الآباء عادة ــ وربما كان لكراهية سالم لأبيه أثرها في ميل سالم للأتراك ، ومحاولته اللعب على الحبلين ، اكثر من مجرد الرغبة في جمع المال . وقد قال فيلبي إنه في لقائه مع الشيخ سالم ، ظل يقسم له على إخلاصه للانجليز ، مع أن « ماكولوم » وخلفاءه ، كانت لديهم أسباب وجيهة للشك في إخلاصه منذ لحظة توليه الحكم ، فقد تآمر مع شمر ، ومن خلالهم مع الترك واغتنى بفضل ذلك ، ولاشك أنه كان سعيد الحظ ، إذ نجا من الخلع[19]م على يد السلطة البريطانية التي عاملته دائما بكرم وتحمل[33] » .

وهذا النفور أو اللعب ، انتهى بالطبع بانتهاء الحرب ، وعاد ابن صباح ليدور

منضبطا في الفلك البريطاني ، والكيد لابن سعود . وقد عدد مؤلف تاريخ الكويت : « ما يقال عن أسباب عداء ابن سعود لسالم :

ـ جفاء سالم لابن سعود في حكم جابر .

ـ حماية سالم للعجمان في عداوتهم لابن سعود .

ـ عداوة سالم للمذهب الوهابي ، وعقده الجلسات للرد عليه ، واتهام معتنقيه بالجهل وفساد العقيدة .

ـ ميله (أي ابن صباح) لابن رشيد[٣٤] » .

أما فيلبي الذي مثل الحكومة البريطانية في المنطقة ، واشترك في أكثر من اجتماع سري ، ومفاوضات علنية ، ومن ثم فلديه فكرة طيبة ، عن موقف الكويت وابن سعود ، وقد أشار لذلك في عدة مناسبات وردت في كتبه . وفيما يلي بعض ما ورد في كتاب واحد منها :

« كان هم الشيخ سالم الصباح هو إساءة سمعة ابن سعود[٣٨] » .

« لم يكن الشيخ سالم يترك مناسبة ، تتيح له التحرش ، بابن سعود إلا انتهزها ، وكان متفقا في ذلك مع الشريف حسين » .

« كان سالم عاجزاً عن إيذاء جاره القوي (ابن سعود) ولكنه لم يعدم الحيلة في ازعاجه » .

« كان شيخ الكويت معاديا لابن سعود بصفة دائمة[٣٥] » .

ويقول فيلبي إنه في غزوة ابن سعود لآل الرشيد : « وجد في معسكرات الرشيديين أكياس الأرز مكتوب عليها الكويت ، كدليل قاطع ضد سالم الصباح[٣٦] » .

« وسياستنا التي سمحت لشيخ الكويت ، وعجمانه وأصدقائه من شمر بنكرزة ابن سعود ، ألقت المنطقة كلها في حالة من الفوضى وعدم الاستقرار[٣٧] » .

« وكان الكويتيون يشيعون أنباء ملفقة عن هزيمة ابن سعود[٣٨] » .

وعندما ذهب فيلبي إلى الكويت وحاول سالم أن يتملقه على حساب كرامة منصبه ، كشيخ للكويت فبادر بزيارة فيلبي على غير العادة والعرف . فالزيارة الأولى يقوم بها الضيف للأمير وليس العكس ! إلا أن هذا التكريم لم يمنع فيلبي من أن يقول « إن سالما الذي كان يفترض فيه أن يكون نموذجا لتقاليد الفروسية العربية ، قد أكلت روحه الغيرة والكراهية والحقد لابن سعود . وكان قد ربط نفسه بقضية الهاشميين الخاسرة »

ويعترف فيلبي بأن « النكرزة » لم تتوقف إلا بعد أن أمرت « الحكومة »* سالما بايقاف الحركات العدائية ضد ابن سعود فرضخ لأمرها ، ووافق على ما أرادت[٣٩] » .

وشرح « محمد أسد » بافاضة في كتابه ، « الطريق الى الاسلام » دور آل صباح في تأجيج نيران الأزمة الاخوانية ، وأشرنا لذلك في فصل الاخوان .

---

* المقصود بالحكومة هنا الحكومة البريطانية ، أو بمعنى أصح حكومة الهند التي كانت السلطة المباشرة في الخليج . وإذا قيل الدولة قصد بها تركيا . أما العسكر فالجيش العثماني .

كما اعترف غلوب في كتابه مغامرات عربية : « بأن الكويت استخدمت كقاعدة للتجسس على نجد والاخوان » .

وفي اعتقادنا أن التناقض الرئيسي كان في اختلاف المنطلقات الدينية والسياسية ، وقد أشرنا إلى موقف ابن صباح من الدين ، ونعود فنستكمل موقفه من بريطانيا :

في ١٩٠٣ ـ ١٣٢١ زار الكويت حاكم عام الهند اللورد كيرزن ، الذي يعد رئيس الرؤساء بالنسبة لحكام الخليج . فنظم له ابن صباح استقبالا سلطانيا ، لم يره ممثل لبريطانيا في اي بلد عربي ، لا قبله ولا بعده ، حتى ولوكانت تحت الاحتلال السافر* !

وهذا ما كتبه[٢٠] اللورد : « سر الشيخ مبارك وانتشى ، وفرح من أعماقه بزيارتي ، وقد جند لاستقبالي كل ما تطيقه موارده المحدودة ، وموارد شعبه وبلده » .

« وأجدر ما حدث بالتسجيل في رحلتي هذه : دخولي الكويت إلى جانب الشيخ في عربة (هي الوحيدة في البلد) محاطا بأهازيج واحتفالات الفرسان العرب وراكبي الجمال بين صفوف من آلاف السكان وزغاريد النساء !

« وكنت قد أشرت في خطابك (يقصد وزير خارجية بريطانيا) في ٦ نوفمبر أنه من المحتوم أن يكون الشيخ راغبا في تلقي تأكيدات مني بالدعم فوق ما وعدناه . ولكني وجدت ، كما هو الحال في مسقط ، أن الزيارة في حد ذاتها ، دون حاجة إلى أية وعود أو ارتباطات جديدة ، اعتبرت من جانب الحاكم كرباط نهائي يربطه بعجلتنا ، وكتصديق على الحماية والتسليم بالسيادة للسلطة البريطانية » .

(ولهذا كان الفرح !) .

« في المحادثات الخاصة مع الشيخ ، بعدما أعلن بوضوح كامل ، أنه قد قطع كل علاقة له مع الترك ، وأنه يبرأ الى الله من أية علاقة مع أية سلطة إلا السلطة البريطانية . بعدها سأل إذا كان يمكن الانعام عليه منا ، بلقب أو نيشان ، ومنحه علاوة » (أي زيادة مرتبه !) .

ولكن الشيخ طلب ذلك كعلاقة قائمة فعلا ، وليست مقابل وضع جديد[٢١] . وجاءت المطالبة منه متوقعة ، بالنظر إلى تصرفه في حفل الاستقبال الرسمي في اليوم السابق ، عندما تسلم السيف من يدي (هدية) فقد طلب حزاما ، يعلقه فيه حيث أصبح بنص كلماته : « ضابطا في الامبراطورية البريطانية » . وقد أمرت الكولونيل كامبل بأن يشرح لي بالضبط طلب الشيخ هذا . ولكني حذرت الشيخ من أنه يحتمل ألا يمكن ضمان تحقيق طلبه (لم يقل ماذا : الحزام ؟! أم الوظيفة ؟! أم العلاوة ؟!)

« وأضيف أن الشيخ « مباركا » ولو أنه رجل عجوز الآن ، إلا أنه الاكثر لياقة وحيوية من بين الذين قابلتهم في الخليج . وبدا لي أنه يمتلك ذكاء حادا ، وشخصية تبرر سمعته الذائعة كماكر ، وتفسر وصوله الى مركزه الحالي بقتل أخويه » .

« على أية حال إن إعلانه الولاء والصداقة كان يكن اخلاصا في اعتقادي . وقد

---

* إلى أن كانت زيارة ملكة بريطانيا للخليج وما جرى فيها !

علمت فيما بعد أنه يختص ضباط البواخر البريطانية ، والمسافرين الانجليز ، بمعاملة وكرم ضيافة خاصين » .

وقد وردت في تقرير اللورد ، فقرة تخص ابن سعود وهي : «بالنسبة للبرقية التي وصلتني منك يوم وصولي للكويت (الحديث موجه لوزير الخارجية البريطاني) فقد حذرت الشيخ (مبارك) **ضد أي تورط من أي نوع كان في الداخل (نجد) حيث لا يمكن أن يتوقع منا أي دعم ، وقد وعدني بأن ينصاع حرفيا لنصيحتي** . وقد يكون ذلك أسهل ، كما قال ، إذا ما انتصر المرشح الوهابي لرئاسة نجد ، **عبد الرحمن بن فيصل** ، الذي هو حليفه ، وقضى على خصمه ابن رشيد[٤٠] » .

وقال حافظ وهبة ، إن الحكومة البريطانية : « عينت على إثر هذه الزيارة وكيلا سياسيا لها في الكويت ، فاحتج الأتراك على هذا التعيين الماس بسيادتهم ، ولكن لم يكن لاحتجاجهم أثر » .

أما مؤرخ الكويت فقد أورد في وصف الزيارة ، وتبرير تهالك ابن صباح على تكريم اللورد ، ما يستحق التأمل والتعليق قال غفر الله له :

« زار الكويت في سنة ١٣٢١ ـ (١٩٠٣) اللورد كرزون ، بأسطول حربي ضخم . وقد أقام مبارك للزائر احتفالا ضخما سارت بذكره الركبان ، وأظهر به أبهته وعظمته ، أمام ذلك السياسي الكبير : أرسل مبارك على جميع القبائل الخاضعة له ، واستنفر الكويتيين عموما ، وأعد خمسمائة من الخيل وما يزيد عليها من الابل ، واتخذ خمسين من رجاله المقدمين حرسا ، وقسمهم الى خمس فرق ، لكل فرقة علم خاص بها ، ولباس تتميز به عن سواها . وأحضر عربة من أحدث طراز ، شاع في الخليج إذ ذاك أنه هيأها لنزول الضيف يوم وصوله . وجللها بقطع من الشال مموهة بالفضة وكون صفين من الرجال من رأس المدينة الى الشويخ ، وهو الذي يبتدىء نزول الضيف منه . ويبعد عن البلد بنحو ساعة ونصف ، وزين الطريق التي يمر عليها داخل المدينة بأقواس النصر مكتوب عليها أهلا وسهلا بكم . فسارت العربة بالزائر في شارع كبير من الرجال الذين تقلدوا سيوفهم ، واعتقلوا رماحهم ورفعوا بنادقهم على الاكتاف . سارت به في ذلك الشارع والخيول المطهمة والابل من خلفه وأمامه . وما كاد يلج المدينة حتى ثار من البندق دوي عظيم وارتفعت أصوات المحتفين بالأراجيز الحماسية ، فدهش الزائر من هذا الاحتفال البديع ، وأعجب بسلامة ذوق صاحبه وبنباهته . **وعلم أن ليس كل لابس عباءة ، وعقال ، أهلا للاحتقار*** » .

هذه العقدة ، الخوف من احتقار الانجليزي للابس العباءة والعقال ، شفت الوهابية ، النفس العربية في نجد ، منها ، بل بالعكس خلقت شعوراً بالاستعلاء عند النجديين ، فقد كان بدو نجد الحفاة العراة ، كما وصفهم الريحاني يسيرون كالملوك

---

* ربما فسر ذلك استقبال الملكة بعد سبعين سنة بنفس التبهرج لاثبات « أن ليس كل لابس عباءة وعقال أهلا للاحتقار » !! لاحظ « ليس كل » !

المتوجين ويستفتون العلماء في جواز السلام على الانجليزي ، ويبصقون في اتجاه ممثل بريطانيا ، ويكسرون الزير الذي لمسه . وعندما وصل لورد بريطاني الى الرياض بعد ١٤ سنة كان يحاذر أن يشم عبد العزيز رائحة الدخان في غرفته !

ويصعب على الذين عاشوا عصر الاستقلال ، وسباب « صوت العرب » في الانجليز ثم ترف إنفاق عائدات النفط في بلاد الانجليز حيث يعمل والد المقيم البريطاني السابق سائقا عند أحد الشيوخ ! .. يصعب عليهم تخيل السطوة التي كانت للبريطاني في الخليج والأسلوب الذي كان يعامل به حكام المشيخات ، وكأنهم طلبة مدرسة أو اصلاحية !

وهذا نموذج من رسالة توبة واستغفار كتبها الشيخ مبارك « **الكبير** » إلى المقيم البريطاني ، يعتذر عن اشتراكه في مؤتمر صفوان ، الذي عقد للصلح بين آل سعود والأتراك ، وحضره عن الجانب السعودي الامام عبد الرحمن الفيصل وذلك في عام ١٩٠٥ ـ ١٣٢٢ :

من الشيخ مبارك الى كوكس رئيس الخليج بتاريخ ٨ محرم ١٣٢٣ ـ ١٥ مارس ١٩٠٥

تسلمت خطابك المؤرخ ٣٠ ذو الحجة ١٣٢٢ حول المجلس الذي انعقد في صفوان .

أعرفك أنني دائما أبلغ الكابتن نوكس ، بكل شيء ، يتعلق بنا . **بالنسبة لي فأنا لا أرغب ، ولن أتدخل ، في شئون نجد أبدأ ، لانني فهمت من البداية أنها ضارة في النهاية** ، ولأن أشخاصا مثل ابن رشيد ويوسف الابراهيم مهتمون بها .

وأيضا لأنه لا شأن لي بهذه الأمور ، وأن مهمتي الوحيدة ، هي سلامة أراضينا ورخاء تجارتنا » .

« ان شاء الله بفضل رعاية الحكومة السامية* سنبقى على مايرام ونداوم علاقة الصداقة ، ونفي بالتزاماتنا » !

يخيل لك أن كوكس قد أمر الشيخ بكتابة : « **لن أتدخل في نجد ... إنها ضارة لمن يمارسها** » ! ألف مرة ! كما يعاقب ناظر المدرسة ، التلاميذ أو المراهقين المشاغبين ! وقد أفاد الدرس ، ففي وثيقة بريطانية بتاريخ ٢٠ يوليو ١٩٠٦ ـ جماد أول ١٣٢٤ جاء ما يلي : « وصلت أخبار « طازة » من الكويت أن الشيخ مبارك وابن رشيد قد أصبحا صديقين : وقد وصلت هذه الاخبار اليوم قبل رحيلنا . وهي منسجمة مع أخبار صلح والي البصرة مع الشيخ مبارك[٤١] » .

وحق للمقيم البريطاني أن يفخر بتحسن سلوك تلميذه ، ووعيه للدرس . أما ابن صباح فلم يفته استكمال مكارم الاخلاق ، فكتب إلى ابن سعود : « لم أصالح ابن رشيد إلا لأخدع الأتراك » !

وتتوتر العلاقات بين ابن سعود والأتراك ، فيصالح ابن صباح الأتراك ! ففي ٩

---

* البريطانية .

يوليو ١٩٠٦ ـ جماد أول ١٣٢٤ أبرق القائم بالاعمال البريطاني في جدة الى السفارة البريطانية باسطمبول :« وصلت أنباء أن ابن سعود أعطى أوامر لكل مشايخ العرب والقبائل في نجد بالامتناع عن الاتصال بالموظفين الأتراك أو الجنود الأتراك ، وأن يتوقفوا عن نقل بريدهم وتموينهم تحت التهديد بعقوبات صارمة ، إذا لم ينفذوا هذه الأوامر[٤٢] » .

بينما أبرق « كراو » القنصل البريطاني في البصرة إلى نفس السفارة (اسطمبول) يقول سجل العام الماضي تطوراً ملحوظا في علاقات شيخ الكويت مع والي البصرة (التركي) منذ اجتماع صفوان في فبراير ١٩٠٥ ـ ١٣٢٣ . إن موقف الوالي نحو مبارك ودي ومجامل ، والشيخ من جانبه يبذل أقصى جهده لتحقيق رغبات مخلص باشا (الوالي) سواء بالتبرع لمعسكرات الجيش التي أقيمت حديثا في البصرة ، إذ ساهم بمبلغ ٦٢٥ ليرة تركية (!) أو باعادة الفارين من الجيش التركي الذين يلجأون للكويت وكذلك حماية المواصلات البريدية بين البصرة والحسا ، التي يستمر وصولها عبر الكويت كما أشرت في برقيتي بتاريخ ٤/١١/١٩٠٥ ـ رمضان ١٣٢٣ .

« وهناك تبادل رسائل بين الوالي والشيخ وكما علمت تحرر بصيغة ودية للغاية . والشيخ يلقب نفسه « بقائمقام الكويت » ويوقع : « صديقك المخلص » .

« وهذا كله يوضح أنه قد قامت علاقة أكثر صداقة مما كان في الماضي بين الولاية والكويت . وقد تكون للوالي أهداف أخرى ولكن لم أكتشفها بعد[٤٣] » .

وبصرف النظر عن الدوافع والملابسات ، فقد كان هذا الوقت بالذات الذي وصل فيه الصراع بين ابن سعود وابن رشيد إلى ذروته ، حيث سيقتل ابن رشيد (عبد العزيز الرشيد) في ١٣ أبريل ١٩٠٦ ـ صفر ١٣٢٤ ..

وهذا يوضح أن ابن صباح لم يكن ، في معسكر واحد ، مع ابن سعود ، في صراع السنوات الأولى القاسية . ولكن ليست هذه هي النقطة ، فقد وضحناها بما فيه الكفاية ويزيد ، ولكن ما نعالجه هنا ، هو كيف أذل الانجليز ابن صباح عقابا له على محاولته اللعب على الحبلين أو التودد للأتراك .. فقد حققوا معه كالمتهم .. وفيما يلي فقرات من محضر تحقيق أجراه المقيم السياسي البريطاني مع « سمو » الشيخ « الحاكم » ، حول مقابلته في صفوان مع الوالي التركي :

« كل الملحوظات السابقة أعطيت بهدوء وثبات وتعكس بوضوح الانطباع الذي يريد الشيخ مبارك نقله للحكومة البريطانية . وقد شكرت الشيخ على المعلومات الجيدة التي قدمها لنا ، وعلى الفور التقط الشيخ الخيط ، وكرر الحديث عن صداقته وارتباطه بنا . وكان واضحا أن الشيخ متوتر الأعصاب ، فليس من عادته الثرثرة . ولكنه قلق على الانطباع الذي يمكن أن نخرج به حول موقفه في صفوان ؟[٤٤] .

وما حصلنا عليه من وثائق ـ وما خفى كان أعظم ـ جعلتنا نقتنع أن تفاني ابن صباح في الولاء لبريطانيا والخضوع لمثيلها ، قد وضعه في مواقف تتنافى مع الخلق العربي والشهامة العربية ، أو حتى احترام النفس المفترض في رئيس دولة ، فضلاً عن

جبار على شعب الكويت ، ودعنا من طلب الحزام ، ففي تلك الوثائق التي عثرنا عليها تقرير سري رفعه الكولونيل سير برسي كوكس رئيس الخليج الى سكرتير حكومة الهند بتاريخ ١٣ نوفمبر ١٩١٣ ـ ذو الحجة ١٣٣١ ، نجد القصة أو المأساة التالية :

« لي الشرف أن أرفع اليكم أنه خلال وجودي بالكويت منذ ايام ، أبلغني الشيخ مبارك أنه تسلم رسالة من شيخ عجمان الشيخ حميد بن عبد العزيز ، بداخلها رسالة موجهة لابن سعود يعرض فيها خدماته وتعاونه أو دخوله في طاعته ، ويطلب من الشيخ مبارك ارسالها لابن سعود . وقال الشيخ مبارك انه رد عليه بأنه لن يرسل الرسالة ، وأن الشيخ حميد يجب أن يهتم بشئونه ولا يزج بنفسه في مؤامرات من هذا النوع الذي لن يأتي له الا بالمتاعب .

« وقد ابلغت الشيخ مبارك بامتناني للموقف الذي اتخذه ، وأملي في أن يكرره . ولو أني أبلغت ذلك للحكومة ، فاني لا اعتقد أن الحادثة خطيرة . الى حد يستوجب مناقشتها مع شيخ عجمان ، **لأننا لو فعلنا فسنضطر الى ذكر اسم شيخ الكويت** (!!!!) ولكنني سأطلب من الوكيل السياسي هناك أن يعيد التنبيه على شيوخ الساحل المتصالح* ، وأن يبقى حذرا ، ليحول دون اقدام جاهل (؟!) مثل هذا على مغامرة غبية من هذا النوع** » .

انها أكبر من فضيحة ؟ أليس كذلك ؟!

أما ابلاغ السلطات البريطانية بجميع اتصالاته ومراسلاته وأحاديثه مع الترك وابن سعود ، فذلك عمل روتيني ، يؤديه ابن صباح بشغف خاص وأمانة مطلقة*** ، كما كان ينفذ توجيهات الانجليز ، وينقل نصائحهم ، للحكام العرب الآخرين ، فهو كما وصف نفسه : « مطيع لكل أوامر الحكومة٢٣م » ويعتبر هذه الطاعة هي الاستقامة فيقول في نفس الرسالة : « واذا استقام ابن سعود فسيستجيب لرغبات الحكومة في كل ما طلبتموه٤٥ » وعندما اعترف الانجليز بأهمية ابن سعود ، وقرروا التخلي عن موقف العداء أو البرود واللامبالاة ، كان ابن صباح هو الواسطة ، الذي راح يخاطب ابن سعود بمنطقه هو !.. وإن بذل كل جهد لمنع اتفاقه !

« سألني الكرنيل (هو الكولونيل برسي كوكس رئيس الخليج) وايش مطلبه ابن

---

* هو ساحل عمان ، الذي يشكل حاليا دولة الامارات . والمعروف أن شيوخه كانوا من أخلص الوهابيين ـ باستثناء ابو ظبي ـ وكانوا لذلك من ألد اعداء الاستعمار البريطاني ، ويتطلعون الى السعوديين لقيادة كفاحهم ضد الانجليز وفي احدى الوثائق يعترف مبارك بتطلع أهل عمان لابن سعود٢٢م . والشيخ سمع بانتصارات ابن سعود في الأحساء ، فظن أن رياح التحرير قد هبت فبعث يبايع ، ولكنه أثبت فعلا أنه لا يدري بما حوله ، اذ أرسل البيعة عن طريق ابن صباح ! ولو أعطاها للمقيم البريطاني نفسه لما كانت النتيجة اسوأ !

** رقم الوثيقة 3371 of 1913

*** على أية حال ، وزيادة في الاحتياط كان للانجليز اتصالاتهم الخاصة بكاتب الشيخ الذي يحرر رسائله الخاصة !

سعود ، وايش نظرك ؟ فقلت له : مطلبه مثل حالتي وياكم . قال أنا أراجع الدولة من بعد ما أواجهه (اقابله) وانشاء الله يحصل له استقلال مثلك . قلت له : هذا هو المطلب ، فأنت الله يسلمك ، أمورك ان شاء الله ميسرة . هذا الذي حنا (نحن) نريد . وهي اكبر النعم* . وأنت لا تثقل حين ما يصلك الخط (المكتوب) آن شاء الله تمشي . والقرار صار المواجهة في العجير (أي تم الاتفاق على لقاء عبد العزيز وكوكس في العقير) فاذا تعيدت (عيدت) ان شاء الله يوم ١١ ذي الحجة تمشي ، يعني بعد العيد بيوم ، والكرنل (الكولونيل) يبي (يريد) يحضر بالبحرين يوم ١٥ ذي الحجة وينتظر الخبر منك » .

وابن صباح ليس مجرد واسطة ، أو ناقل رسائل ، بل يبذل جهده لغواية ابن سعود : « وأنت الله يسلمك ، كل من دخل تحت نظرهم (أي كل من دخل في حماية الانجليز) اعتز واستراح ، مثلما تشوف حنا (كما ترانا نحن) وراعي البحرين وعمان** . رفيقهم عزيز وعامر . وهذه ان شاء الله من حسن توفيقك . خلينا نستريح من ها الذاهبين (أي الأتراك) اللي دائما حنا في فكر من طرفهم (الذين نحن دائما في قلق من جانبهم) ومن الشريف (حسين) وغيره . فأوصيك وأؤكد عليك يوم الله ييسر (أي يوم تجتمع بالمندوب البريطاني) اقبل بما يقطع نظر الكرنل (اقبل بما يعرضه عليك الكولونيل) تراني جاسهم وعارف غايتهم زين . تراهم رجال كل أمورهم ما يبينوها ، وغايتهم هذى بينوها لي أنه يحصل استقلال ، فأنت لا تبين لهم الا انك تطلب منهم استقلال ، وانك محب لطرفهم دون غيرهم من الدول ، فان أعطيتوني استقلال على موجب محبتي لصداقتكم وقربكم فأنا راغب فيكم دون غيركم وأمشي بكل ما يرضيكم . وان تعذرتوني فاعذروني » .

ويستمر ابن صباح وكأنه دلال في سوق الحراج ..

« من مدة ثلاث أربع سنين نشير لهم ونشور عليهم ، ولا أخذنا منهم جواب . ومن بعد دخولك الأحساء رأينا أن يصير لنا ميدان بالكلام معهم . وشافوا طول اقامتي ها السنة بالبصرة . واختصاري (خلوتي) مع الوالي (العثماني) دفعات . وهم ، الله يسلمك ، نعرف ما يغباهم (ما يخفى عليهم) شيء . واعين . وسألوا مني (استجوبوني) وبينت لهم أن الترك يسلك أمرهم مع عبد العزيز . وسلوك عبد العزيز معهم . حتى أنا*** أشور به عليه لأنكم مبعدين عنه . وأنتم الآن جاعدين تنطرحون للترك (تتوددون للترك) والترك الآن في حالة الضعف ، كلها من قوة سياستكم ، وذلك لاجل

---

* وهنا فارق مهم ، فابن صباح يعتبرها « اكبر النعم » اما عند ابن سعود « فهي شر لا بد منه » أو على أفضل تقدير « أهون الشرين » .

** وبئس القرين !

*** أي حتى أنا صديقكم أشير على عبد العزيز بتدبير أمره مع الترك مادمتم أنتم تجافونه ، وتتوددون للترك . وهذا بالطبع يخالف تماما ما يجري فعلا من حديث بين ابن صباح والانجليز كما هو واضح في الوثائق .

تكملون امتياز خليج فارس الى الكويت . تأخذونها منهم بحسن رضاهم (أي اعتراف تركيا بمركز بريطانيا في الخليج) فالاشارات التي أنا رأيتها منهم (الترك) يسلكون مع عبد العزيز ، ويعطون له الأحساء والقطيف ، ويحسنون كل ملحقات ممالكهم الذي من أب وحدا الى مسكت (مسقط) . وهذا شيء يخل عليكم (أي ضار بالانجليز) **وأهل عمان جميعا راغبين في ابن سعود ، وأنا الذي مانعه** (!!) فالآن أحب ان ابن سعود معكم ، يدخل مدخلي ، وكل هذه المدة معهم على هذا البحث » .

أي أنه خلال ثلاث سنوات أو أربع يحاول اقناعهم ، بفرض الحماية على ابن سعود وتحويل دولته الى وضع الكويت وعمان والبحرين !

« وأنت الله يسلمك من ألزم اللزوم عليك مواجهة الكرنل ، لأن هذى المسألة حنا نشريها في كل حاصل الأحساء والقطيف (أي لقاء الانجليز وحمايتهم كنا نشتريها بايرادات الأحساء والقطيف فجاءت مجانا فبادر بالشراء !) واليوم الله يسرها من حسن طالعك » ! « فالآن أنا أكد عليك بالعجلة لمواجهة الكرنل ، وأنت اذا واجهته ان شاء الله مطلبك عليه فقط الاستقلال وأبي (أبغي) أدخل معكم مدخل امبارك (مبارك) وأنا ملزم ان شاء الله اتبع رضاكم وامتثل أمركم في كل الأحوال . »

وفي هذه الرسالة أخبره أن القنصل الذي عندنا قبطان (كابتن) شكسبير سيحضر اللقاء المنتظر .

والرسالة تدل على أن اختيار ابن صباح اختيار واع ، فهو يعرف الفروق بين الانجليز والأتراك . فالانجليز يتميزون بالكتمان « ولا يكشفون أهدافهم ولا مصالحهم ، ولا اتجاههم الا بعدما ينفذونه ، وكلمتهم واحدة اذا اعطوا جواب يصدقون ، ورفيقهم يزيدونه ما ينقصونه » (وهذا بالطبع يتوقف على تقديره للزيادة والنقص) . « اما الذاهبون (الأتراك) ما في قربهم خير ، وأخوهم يضرونه » . ومن يرتبط بهم قد يسقط معهم ، كما أضاعوا هم أنفسهم .

وهذه الحقائق كان يعرفها عبد العزيز ، ولكنه اختار سبيلا يختلف جذريا .

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى ، وحاول ابن سعود ، أن يشكل موقفا عربيا ، فدعا حكام الجزيرة من حوله الى اجتماع لبحث الوضع ، والنظر فيما فيه مصلحة العرب . كانت كل الردود سلبية ، الا أن رد ابن صباح تميز بالوضوح والاختصار ! قال له : دعك من هذا واعمل المفيد .. بارجة بريطانية ستصل الكويت . عجل بالقدوم لتجتمع مع قبطانها !

وكتب رئيس الخليج الى سكرتارية حكومة الهند يقول :

« لقد تسلمت من شيخ المحمرة – خزعل – عرضا بالتعاون المخلص . كما تسلمت من شيخ الكويت تعبيرا عن الولاء غير المحدود ، وعرضا لخدماته خلال الأزمة الحاضرة ، وذلك في مذكرة رفعها الوكيل في الكويت . وهو يؤكد أن ابن سعود سيحذو حذو مبارك . والسير مبارك سيكون سعيدا باستعادة بوبيان وصفوان وأم القصر من الترك ، وهو يعتقد أن لا صعوبة في تحقيق ذلك . وصرح أيضا بأن البصرة ستفتح

أبوابها سعيدة للاحتلال بواسطة البريطانيين . وقد حذرت المعتمد في الكويت من أي عمل الا بموافقة واضحة من حكومة الهند . المعتمد في البحرين أبلغ أن الشعور العام موال للفرنسيين (!!) ومعاد جدا للألمان[٤٦] » (! هذه عبارة غير مفهومة وربما تكون بالشفرة !.. أي يكون الفرنسيون هم الأتراك والالمان تعني الانجليز) .

وفي تقرير رفعه المقيم السياسي[٤٧] في الكويت ناقش فيه سبب انضمام العرب الى الأتراك في مقاومة الغزو البريطاني للعراق .. قال : « ولا يمكن المبالغة في الحديث عن سلوك صاحب السعادة الشيخ السير مبارك ، الذي من اللحظة الأولى التي أبلغته فيها أن الحرب مع تركيا قريبة ، كان سلوكه سلوك الولاء والنبل لرجل شريف . اذ قال في تلك المناسبة ، ان كل ما يملكه تحت تصرفنا ، وانه سينتصر معنا أو يهلك معنا . وكل ما قاله وفعله منذ تلك اللحظة أكد هذا الاخلاص . لقد كتب لكل شيخ مهم عبر البلاد يحثه على حفظ الصداقة والثقة في حكومة صاحب الجلالة . ولن نستطيع تسطير ما فعله من أجلنا . واني اختم* هذا التقرير بفقرة من رسالة نشرتها « تايمس اوف انديا » فهي تغني عن التعليق :

« التجار من أتباع شيخ الكويت ، الذين جاءوا هنا من أجل التجارة ، ساعدوا جدا في تنوير المحمديين ، حول الوضع الصحيح بالنسبة للحرب ، واثبات أن تركيا جعلت من نفسها مخلب قط لاطماع الألمان » .

ومقابل هذا الاعجاب والاحترام والوله كيف كان القناصل الانجليز يتحدثون عن شيوخ الكويت** ؟

كتب نوكس المقيم البريطاني في الكويت بتاريخ ٢٠ ــ ٧ ــ ١٩٠٦ ــ جماد أول ١٣٢٥ تقريرا تضمنه رأيه في الشيخ سالم فقال : « زارني الشيخ سالم وهو الابن الثاني للشيخ مبارك ولا استطيع أن أقيم هذا الرجل ، ان لديه سمعة كبيرة لدى العرب كرجل دولة وقور ، ولكنه يبدو لي وقحا ، سخيفا ، أو غبيا أو مزيجا من ذلك كله . وما

---

* الحديث للمقيم البريطاني .

** سنرى في الفصل الثالث كيف طوى عبد العزيز شكسبير تحت جناحه ولا بأس من تأمل كيف كانت علاقة شكسبير بالشيخ مبارك الكبير . قال مؤلف كتاب كابتن « شكسبير » كان مبارك يعيش في رعب من مؤامرات اغتياله حتى انه نفى ابنه سالما . وقبض عام ١٩١٢ ــ ١٣٣٠ على صقر الغانم ووضعه في السجن وعذبه بلا رحمة ، وكان مبارك يتودد وقتها للأتراك الذين أرسلوا بعثة لتسليمه النيشان المجيدي تحية لجهوده في تبرعات حريق اسطمبول . فثار ضمير شكسبير على تعذيب صقر الغانم (!) واستجاب لشكوى أهله وابلغ مباركا أنه لن يزوره ، وأن على مبارك أن يأتي بنفسه الى دار المعتمد البريطاني اذا شاء مناقشة مشاكله .

ولكن حدث أن اختلف شكسبير مع بحار كويتي ، فرفعه الانجليزي وقذف به الى البحر فسقط على الخطاف الحديدي الذي اخترق احشاءه ومات على الفور . وخاف الكابتن فتوجه بنفسه الى أمير الكويتيين يبلغه الخبر ، ليفاجأ بابتسامة الشيخ وقوله : « اذا كانت خوزقة رجالي تصلح بيننا ، فيمكنك يا صديقي ان تخوزق كويتيا كل يوم » !

استطيع أن أقرره باطمئنان هو أنه سيسبب متاعب كبيرة لجابر* الوريث الشرعي عندما يموت مبارك[48] » .

ونشر الماجور مور المعتمد البريطاني هذا الرأى في الشيخ أحمد الجابر ، في حديث صحفي لجريدة الفيحاء قال : « الذين لا يعرفون الأمير أحمد الجابر الصباح لا يستطيعون أن يقولوا كلمتهم . وأما أنا فأقولها ، وأقولها عن معرفة جيدة ، واختبار صحيح . ان الأمير أحمد الجابر من أشد المحافظين على سلامة البلاد ومصالح العباد ، **وقد تظهر لك سذاجته** ، وقد يقول لك بعض الناس **انه غبي وقد يقولون أشياء كثيرة مؤلمة** عن هذا الرجل الطيب . ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها أنه من أشد الناس حرصا على بلاده وشعبه[49] . » !

وفي عام ١٣٤٤ ـ ١٩٢٥ أكد المعتمد البريطاني في حديث صحفي : « أن الكويت تحت حماية بريطانيا ، التي ستحافظ على هذا الوضع ، وأن البريد الكويتي سيلحق رأسا بمصلحة البريد الهندي . وأن الرعايا الاجانب يحاكمون أمامه هو . »

وعندما طلب شكسبير مد خطوط التلغراف في الكويت رد الشيخ مبارك الكبير ان « الحكومة » لها الحق في أن تفعل كل ما تراه من الصالح العام » .

فلنترك الظل اذن وننتقل الى الحكومة **لنرى كيف استطاع ابن سعود أن يقيم علاقة من نوع خاص مع الانجليز ، وكيف استثمر التناقض الانجليزي ـ التركي في بناء الدولة السعودية دون أن يقع في قبضة المتصارعين .**

وقد مرت فترة كان عبد العزيز فيها هو أبرز « اصدقاء » بريطانيا في وسط الجزيرة وشرقها ، وخلال مسيرته كان يبدو على اتفاق تام في خطواته وتحركاته مع الاستراتيجية البريطانية ، فهل يمكن القول بأنه كان عميلا للانجليز ؟! ان هذا القول ليس فقط افتراء على الرجل بل على التاريخ ، وعلى الوطن الذي وحده ، وفرضه على الزمان والمكان ، فلا يمكن أن يكون الوطن هو ثمرة عمالة ! ولا يمكن أن تكون جهود وتضحيات كل هؤلاء الرجال الذين غيروا وجه الجزيرة العربية ، مجرد ضحايا غرر بهم في خدعة كبرى !

ولنقرأ وقائع التاريخ ..

---

* راجع شكوك فيلبي عن ظروف وفاة جابر .

الملاحق

ابن صباح

١ م ــ وقد اعترف مؤلف تاريخ الكويت بأن السبب في تأليف هذا التاريخ هو الخوف من قرار سلطان نجد بكتابة تاريخ نجد بواسطة الريحاني « وأنت تعلم يا سمو الأمير (أمير الكويت) أن عظمته لم يقدم للريحاني ما قدمه من رسميات سينشرها قريبا الا لعلمه بالفائدة التي يجنيها من وراء النشر ، فعسى أن تكون لك به قدوة حسنة » .

وقال أيضا : ان التاريخ كتب لمواجهة الحصار الاقتصادي الذي فرضته نجد على الكويت ، عندما حظرت الاتجار مع الكويت لتنشيط تجارة موانيها في الأحساء .. وبعد أن رفضت الكويت اعطاء نجد حصتها من الضرائب الجمركية على واردات السلطنة . وكان أن تقدم أحد تجار القطيف فالتزم بجمرك الأحساء مقابل ٧٢ ألف جنيه سنويا بشرط منع التجارة مع الكويت فأجيب طلبه .

انظر « تاريخ الكويت » لعبد العزيز الرشيد . وحافظ وهبه .

٢ م ــ وقد ذهب بعضهم الى أن بداية تاريخ الكويت هي ما يقابل حروف : « طغى الماء » أي سنة ١٠٨٣ هجرية . والأرجح أنه : « طغى النفط » أو « طغى المال » . كذلك ذهب بعضهم الى أن آل صباح جاءوا من « خيبر » .

٣ م ــ كان الشيخ صباح السالم حاكم الكويت السابق أو ثاني حاكم بعد الاستقلال يفخر بأن الدم الانجليزي يجري في عروقه ، وذلك أنه أجرى عملية جراحية في بريطانيا فنقلوا له دماً انجليزيا !.. وكان لا يمل من اعلان ذلك لضيوفه . واقسم للمؤلف ، بأن المعتمد البريطاني أصلح له بيده وضع العباءة على كتفيه مرة !!

٤ م ــ وقد وصف الريحاني علاقة خزعل بمبارك ابن صباح فقال :

« أحب الشيخ مبارك الأمير خزعلاً حبا جما ، صافيا ، فبنى له قصرا في الكويت وبنى خزعل لمبارك قصرا في المحمرة ، فكان الاثنان يجتمعان على ضفاف قارون أو على شاطىء الخليج ليقضيا أياماً وليالي بين سرب من القيان والراقصات ، ولسان حالهما يقول : بعدا للسياسة والحروب . »

ولكن لا أحد يستطيع أن يبعد السياسة عنه ، بكأس خمر أو فخذ غانية .. خاصة اذا كان حاكما وفي الخليج .. انه هو الذي تبعده السياسة عنها ، أما الحرب فتأتي الى بلده ، وتستذل شعبه ، وقد تكلفه عرشه كما حدث لخزعل ، بل وأفقدت شعبه هويته .. أما مباركا فكان أسعد حظا فقد فاز بغايته كاملة ، وهي البقاء في السلطة ، واستبقاء الكويت له ولأولاده ، ولكن تحت المدافع البريطانية ، وتجرع ذل المقيم البريطاني ، ومعاونيه الهنود الذين تحكموا في العرب الغافلين ، ولكن مباركا لم يمت سعيدا ، وان كان قد عاش بين غانية وكأس ، فقد شاهد ، صعود نجم ، من التزم بالعقيدة ، من لم يسمع غناء قط ، من لم يكن يسمح للملوك بالتدخين في مجلسه . رأى مبارك نجم المؤمن يعلو ، واسمه يكبر ، وسطوته تمتد ، ولو طال به العمر لعرف أن في الملك مسرات ولذات بالمجد والذكر الحسن ما يفوق كل لذات الجسد ، ولعرف أنه لن يذكر في التاريخ ، الا على هامش تاريخ ذلك المتزمت المتقشف !.. أو البدوي كما كان يسميه في تقاريره السرية للانجليز .

٥ م ــ هذا مع أن بريطانيا العظمى أعطته خلال الحرب العالمية وعدا مكتوبا هذا نصه : « نظرا

للخدمات والتعاون الذي قدمه للحكومة البريطانية والمصالح البريطانية في عربستان وشط العرب ، فاني مخول بالتعهد لكم شخصيا ، كتابة ، أنه مهما حدث من تغيير في شكل حكومة فارس ، وسواء أصبحت ملكية أو (جمهورية) فان حكومة صاحب الجلالة (البريطانية) ستكون مستعدة لاعطائك الدعم اللازم للحصول على حل مرض لك ولنا ، في حالة وقوع أي تجاوز من الحكومة الفارسية على حقوقك الشرعية المعترف بها على أملاكك في فارس . وستحميك حكومة صاحب الجلالة قدر طاقتها ضد أي هجوم غير مستفز ، من قبل أية قوة أجنبية ، أو أي تجاوز من قبل هذه القوة على حقوقك المشروعة ، المعترف بها ، وأملاكك في فارس . وهذه التعهدات تعطى لك ولخلفائك من أولادك الذكور طالما بقيت أنت وهم محافظين على التزاماتكم تجاه الحكومة الفارسية ، معترفين بأن تسمية خليفتك من بين نسلك الذكور سيكون موضع استشارات خاصة وموافقة حكومة صاحب الجلالة ، وطالما ظللتم تستمعون لنصح حكومة صاحب الجلالة وتتصرفون بما يرضيها . وسندعم وضعك الحالي في الحكم الذاتي ، وكذلك ستكون حرا في التصرف أنت وورثتك في مزارع البلح التي تملكها على الشاطىء التركي لشط العرب .

توقيع
سير برسي كوكس
المقيم البريطاني العام بالخليج
والقنصل العام لفارس وخلافها

ابريل ١٩١٥

٦ م ــ قام الكولونيل بيلي المقيم البريطاني في الخليج برحلته المشهورة الى الرياض ، حيث نزل بالكويت في طريقه للرياض والمعاملة التي قوبل بها والتسهيلات التي أعطيت له تؤكد متانة العلاقات البريطانية ــ الكويتية ، كما تشير الى وجود مصالح كويتية في الهند مثل التي أشار اليها في حديثه عن عائلة « يوسف البدر » ، وقد أطنب بيلي في مدح الكويت وتأكيد أهميتها في الجمعية الجغرافية الملكية في لندن ، وعلى اثر ذلك وضعت الكويت على لائحة السفن البريطانية . وان كان حافظ وهبه يرجع اهتمام بريطانيا الى اواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، عندما امتد النفوذ المصري الى هناك ، وكان أول معتمد سياسي « أجنبي » تشهده الكويت هو المعتمد المصري !

ومعلومات صاحب تاريخ الكويت عن رحلة بيلي مثيرة حقا ، فقد أوردها كالتالي :

« قدم بيلي الكويت في احدى المراكب البخارية ليقوم منها بسياحة الى الرياض ، فنزل ضيفا عند يوسف آل بدر المشهور ، واظهر له عزمه على السفر ، فقال له : الأمر راجع الى صباح حاكم المدينة ، فلو عرضت عليه الأمر لكان أولى ! فذهب بيلي اليه وكشف له الأمر طالبا منه أن يرسل معه رجالا يهدونه الطريق ، ويوصلونه الى الرياض . فقال له ليس في استطاعتي أن أجيبك الى ما تريد خوفا عليك من قطاع الطريق ، والذي أرى هو أن تخابر ابن سعود في (عاصمته) أو تستأذنه في السفر اليه . جرت المخابرة بين الاثنين ، وجاءه الاذن ، فقام بمهمته بسرعة ، ولكنه عندما قرب من سور الرياض ، هب رجال الدين هناك في وجه ابن سعود ، وطلبوا منه بالحاح أن يمنعه من الدخول ، ونظرا الى أن لهم الكلمة النافذة ، فقد نزل على حكمهم وأبلغ حقيقة الأمر الى « السائح » الانكليزي ، فرجع السائح من حيث أتى وهو في غاية التأثر وقد تمثل بقول الشاعر :

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وظهر البحر نملأه سفينا .

فأجيب على لسان ابن سعود :

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا » !

أو كما قال !..

٧ م ــ ويبدو أن « صلة الرحم » من التقاليد غير المتعارف عليها بين آل صباح ، فكما كان اخوة الشيخ مبارك يمنعون تجار اللحم من البيع له ، كذلك عندما تولى هو حرم جميع أقاربه من أية معونة . فقد كتب المقيم السياسي بالكويت في تقريره عام ١٩٠٦ أن أحد شيوخ الصباح اشتكى له ما نصه « مبارك عنده ٣٩ مصدراً للدخل ، ولكنه لم يستخدم واحداً منها ليسد جوع أهله الفقراء جميعا ، بل احتفظ لنفسه ولأولاده بكل شيء . مع أنه من أيام جده الشيخ جابر ، كان الشيوخ يحصلون على مخصصات من الحكومة التركية كقائمقامين ، ولكن هذه المخصصات وقفت بعد قتل أخويه . وفي الماضي كان الشيخ يوزع ذلك على آل صباح وكان أسلاف الشيخ مبارك ناسا أجاويد . أما هذا الرجل فان يكن قد رفع مكانة المشيخة الى مركز مرموق لم نكن نحلم به من قبل ، الا أنه استفاد وحده من ذلك ، وأهمل أقاربه الفقراء . فمنذ جاء الانجليز وتقوى بهم لم يعد يعترف بأي حق لأحد » .

٨ م ــ ولا بد أنه كان للجريمة ردة فعل عنيفة في نفوس الكويتيين ظلت حتى عبر عنها مؤرخهم بعد وفاة مبارك الكبير بأكثر من عشر سنوات . وكما قلنا فان هذا المؤرخ العزيز تحلى بالصدق والطيبة فهو يكتب في ظل حكم أولاد وأحفاد مبارك الذين أصبح الملك منحصراً فيهم بفضل هذه الجريمة ولكنه يجد من الشجاعة ما يجعله يقول :

« تقدم مبارك لقتل أخويه مدفوعا بيد الحنق الذي غيب عقله ، وقد سهل عليه ذلك شغفه بالحكم واستماتته في سبيله ، اذا فمبارك (ان لم يعف الله عنه) سيحمل يوم القيامة وزرا عظيما ، وسيعض سبابة الندم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون . وسيلاقي أخويه يوم الفصل والقضاء تشهد لهما دماؤهما الزكية على اعتدائه عليهما وعلى اخوانه الذين شاركوه في اثمه وفعلته الشنعاء » .

لا شك أنها جرأة من المؤلف ، أما أن يعطيه حفيد مبارك ٢٥٠٠ روبية مكافأة ويكتفي بمنع نشر الكتاب فذلك دليل التسامح .. ولو أدرك زماننا لكان الحال غير الحال من الكاتب والمسئول ..

٩ م ــ حاول مبارك أن يبرىء ساحته أمام رشيد رضا ، الذي كان بدوره غير متشدد (!) فقال : « في أواخر مدة عبد الحميد ساقت الدولة بعض العسكر مع عربان ابن رشيد الى قرب الكويت ، وأرسل المشير فيضي باشا السيد رجب النقيب ومعه نجيب بك ابن الوالي الى الكويت فبلغاه أنه قد صدرت ارادة سنية بوجوب خروجه من الكويت الى الأستانة ، أو الى حيث شاء من ولايات الدولة العثمانية ، والحكومة تعين له راتبا شهريا يعيش به ، فان لم يخرج طائعا ، دخل الجند مع عرب ابن رشيد وأخرجوه بالقوة ، فسألهم ما هو ذنبه الذي استحق به النفي من بلده وعشيرته . وذكر نقيب البصرة بما يعرف من اخلاصه للدولة واعانته لها بالمال عند كل حادث ، وبما كان من محاربة سلفه وعشيرته لقبائل المنتفك المالكين للبصرة ، واخراجهم منها ، وجعلها في حكم الدولة ، كما ملكهم ، هو وعشيرته بقوتهم ، الأحساء وغيرها (هنا يدعي فضل احتلال الاحساء !) . وطلب منه أن يعود الى البصرة ، فيقنع المشير بمراجعة الآستانة ، فقال له انما علينا البلاغ وليس في يدنا غيره . قال : فخرجت من عندهما بقصد مشاورة أهلي ، وكانت حكومة الهند الانكليزية قد علمت بكل ما دبرته الدولة في ذلك ، وبمجيء عشيرة ابن رشيد مع العسكر الى جهة الكويت فأرسلت مدرعتين فوقفتا تجاه البلد ، فلما عدت رأيت أمير الانكليز قد نزل من احدى المدرعتين ومعه بعض الجند فسألني عما جرى فأخبرته الخبر . فقال ان حكومتنا متفقة مع حكومة الترك على أن تبقى الكويت على حالها ، لا يتعرضون لها ، ولا نتعرض لها ، واذا غدروا وخالفوا ، فقد صار لنا حق الدخول في أمرها ، ولا يمكن أن نسمح لجندي عثماني أن يدخلها ، واذا دخلوها برضاكم دمرناها على رؤوسكم ورؤوسهم ! ثم بلغ الأميرال ذلك لنقيب البصرة رسول الحكومة ، فقفل راجعا ، وأبلغ المشير ذلك ، فأمر المشير بصرف الجنود والعربان . قال : فما كان من تدخل الانجليز في أمر الكويت لم يكن بطلب مني ، بل كان هذا سببه .

وقد عرضوا علي أن اختار لنفسي راية أرفعها علماً لبلدي وأعلن الاستقلال تحت حمايتهم ، فأبيت ذلك . وهذه الراية العثمانية تراها كل يوم مرفوعة على رأسي ، وقد تعجبوا من قولي لهم انني اختار أن أكون دائماً عثمانياً . وقالوا لي أنت تقول هذا بعد أن رأيت منهم ما رأيت . قلت ان الوالد اذا قسا في تربية ولده أحياناً لا يخرج بذلك عن كونه والده ، الذي تجب عليه الطاعة له » .

والذين يعرفون مباركاً ويعرفون عمق علاقته بالانكليز يظنون أن الحديث كله ، بعض ضروب الخداع التي اشتهر بها ، ولمجرد ارضاء ضمير رشيد رضا الشديد التسامح (!) .. ولكن هناك جانباً من الحقيقة فالانجليز نصبوا الفخ ـ كما أوضحنا ـ باحكام لم يترك للطريدة مخرجاً ، الا الذي فتحوه في اتجاههم . ولكن « مبارك الكبير » كان يعي أنه ارتكب ما لايجوز، فهو يعتذر أمام العرب والمسلمين الذين يهمه رأيهم ، بأنه مضطر غير باغ . أما في تعامله مع الانجليز ، وفي مواجهة شعبه فهو يتصرف بلا مبالاة بل ويبالغ في الولاء . فاللوم الأساسي ليس على توقيع معاهدة الحماية ، فالملك داء العربي ، ولكن اللوم هو في الافراط أو التبذل في طاعة الانجليز وخدمتهم . أو التباهي برعي خنازير الفونس .

وقد أضاف مؤرخ الكويت : « ولقد حكم مشايخ الخليج على رشيد رضا بالكفر واستحلال دمه ، حتى حاول أحدهم قتله في السنة التي زار فيها الاستاذ الكويت ، وترصد له في الطريق . »

١٠ م ـ وقد أورد تاريخ الكويت رسالة منسوبة للامام عبد الرحمن الفيصل كتبها الى السيد رجب النقيب في البصرة يخبره فيها بخروجه (مع ابن صباح في موقعة الصريف) وطلب منه أن يستعطف والي البصرة في أمور ذكرها في كتابه وهذا نصه : « ما يخفي شريف علمكم قدم خدماتنا للدولة العليا أدامها رب البرية ، من وقت الآباء والأجداد (!؟) وتعديات ابن رشيد على بلداننا وعشائرنا وظلمهم إياهم ، وهو ليس له حق في ذلك . وبمقتضى تعدياته وظلمه ، أكثر علينا أهل نجد الالحاح بأن نتوجه لأجل استنقاذهم من يده ، وتوجهنا لذلك ، فنرجو من تفضلاتكم أن تسترحموا لنا من حضرة والي البصرة أن يكتب لابن الرشيد أن لا يتعرض لنا ولا يحرك أحداً من عشائره علينا حذراً أن تقع فتنة قتل ومقتول وسفك دماء المسلمين . وهو السبب في ذلك ونحن خدام الدولة قديمين . وعلى هذا عهد الله وميثاقه أننا لانزال نؤدي الخدمات اللازمة لحضرة أمير المؤمنين ، أدام الله مجده وعزه . ونحامي أتم المحاماة على جميع أطراف الدولة العلية الأحساء والقطيف وعشائرهما الخ » .

والرسالة غريبة التاريخ غريبة المضمون . فتاريخها هو ربيع الثاني ١٣١٨ والخروج كان في ذي القعدة ، فان صحت فهي تكشف تحركات ابن سعود وليست مجرد استئذان . كما يستغرب أن تكون الحملة موجهة ضد ابن رشيد ويطلب الامام أن يؤمر بعدم التعرض للقادمين لغزوه !

رسالة مشبوهة . وقد نسي ناشرها أن يذكر مصدره .

١١ م ـ ليس دقيقاً قول الريحاني ، إنه لما حوصر الحواقة (ابن صباح) بعد موقعة الصريف ، فتح قلبه للدولة الأخرى الراسية بواخرها الحربية عند الشاطىء الفارسي من الخليج . فالحقيقة أن كل جوارح الحواقة كانت مفتوحة لصاحب البواخر الحربية قبل ذلك بكثير . فمعاهدة الحماية ذاتها كانت سنة ١٨٩٩ . ومعركة الصريف ١٩٠١ . وهو ما لا يخفي على الريحاني !

١٢ م ـ وبعد سبعين عاماً سيأتي مطالب بحقه من القواسم ، وسيقتل « عجلان » آخر ، بل ويصل الى سرير « المغتصب » ويقتله ، ولكنه سيفشل لأسباب لم تتوفر لعجلان الرياض وقتها ، والمهم أن القاسمي سيتساءل في دهشة ، عندما يقبض عليه : « ما جريمتنا ألم نأت لنسترد ملكنا ؟! » ..

١٣ م ـ مؤلف كتاب توحيد الجزيرة حذف كل هذه الرواية وجعل عبد العزيز يفاجيء المرأة وهي ترعى

معيزها !

في منتصف الليل !

ويزعم العطار ان « جويسر » راعي البقر ما « أن عرف شخصية الطارق حتى انهال على عبد العزيز تقبيلا ، حتى إن عبد العزيز نسى أن يوثقهم أو يحبسهم » « ولكن الله سلم وإلا لكان في وسع جويسر أن ينم عليهم فيتقرب الى الحاكم عجلان ويحصل منه على مكافأة سخية » .

وهذه بالطبع عقلية مدني أو حضري يعيش في عروبة الخمسينات والستينات . أما جويسر والنساء فما كان ليخطر بباله أو بالهن الوشاية وقبض المكافآت والتقرب للحاكم . بل كانوا ينتظرون نتيجة الصراع في قضية يرون أنهم لا يشكلون طرفا فيها ، ولا يقبل منهم التدخل في أحداثها .

١٤ م ـ تولى الشيخ عيسى سنة ١٨٧٠ بتعيين الانجليز واستفتاء تم التصويت عليه بالمدفعية البريطانية . ثم « أذلوه وامتهنوا حرمة ملكه مراراً ، ثم أسقطوه عن العرش الذي رفعوه إليه » . وقد أخلص الشيخ عيسى لبريطانيا ورفض عروض تركيا وألمانيا ، وأبلغ ذلك لمندوب بريطانيا ، ومع ذلك جرعوه الذل وسلبوه حقوقه شيئا فشيئا ، وحركت عليه بريطانيا فتنة في الزبارة ، ثم اشترطت لتنفيذ معاهدة الدفاع ، إقامة وكالة في البحرين ، وأن يكون لها وحدها حق محاكمة البريطانيين والفصل في قضاياهم ، وعندما أهان خادم ألماني ابن أخ الشيخ عيسى (يعني لازم الشيخ يجيب خدام ألماني !!) اشتكاه الى الوكيل السياسي البريطاني ، واعتذر الشيوخ « لسعادة » الخادم ، واتفقوا على أن يدفعوا له ثلاثة الآف روبية تعويضاً عن اللطمة ! أي ما يعادل مائتي جنيه استرليني ، مرتب الوكيل السياسي نفسه ! ولكن الوكيل السياسي في بوشهر السير برسي كوكس، الذي ، يوصف عادة بأنه صديق العرب ، لم يقبل التعويض ، فجاء بالأسطول البريطاني ليثأر لشرف الخادم الألماني ، ونزل البحارة الى أرض البحرين ، حيث جرى إحراق ما بقي من الأسطول البحريني ، ليس في حرب ، بل كعقوبة !.. ونفى ابن أخي الشيخ عيسى الى الهند ، ونقل الى الوكالة البريطانية الاختصاص بالنظر في جميع قضايا الأجانب وليس الانجليز وحدهم ! ونسى موضوع الخادم !

وأخيراً تنازع نجدي وايراني فجاء الأسطول وخلع الشيخ عام ١٩٢٣ ، وألحقت كل المؤسسات البحرانية بالأنكليز بما فيها الجمارك والمحاكم الوطنية بل وأصبح الوكيل السياسي البريطاني عضواً في الديوان الذي يحكم البلاد ويتولى القضاء .

وقد حاول الشيخ عيسى بكل عجزه التجاوب مع روح شعبه ، المتأججة وطنية باستمرار ، كما حاول التملص قدر الأمكان من ذل الحماية ، وقد زاره الريحاني فخاف الشيخ من التحدث في السياسة في المجلس العام ، واختلى بالريحاني في غرفة لا يصل اليها من الرقباء أذن ولا عين ، وقال له : « العرب لا يتحدون ولكن إذا لبى سلطان نجد الدعوة فنحن نلبيها » أما الأفغاني عندما زار البحرين فلم يجرؤ أحد أو لم يرغب أحد في استضافته . وعندما خلع الشيخ عيسى وعين ابنه الشيخ حمد ظل مخاصما له خمس سنوات ثم توفي عام ١٩٣٢ (١٣٥٠ هـ) .

والشيخ عيسى هذا هو الذي اكتشف ـ كما يقال ـ عبقرية عبد العزيز عندما لجأ الى البحرين طفلا ، وكان يشعر بعاطفة شديدة كلها حب وإكبار لعبد العزيز ، كان يرى فيه « المنتقم العربي » أو الفارس الذي نجا وحده من « مرض الأفرنجي » وهو الذي بكى عام ١٩٣٠ عندما مر ابن سعود منتصرا بالبحرين، ونزل بها بارادة شعبها وشيخها هذا ، رغم أنف الحماية البريطانية وما دبرته ، وقال قولته المشهورة : « أموت الآن مطمئنا بعدما رأيت عبد العزيز في هذه الحال » . لقد كان ابن سعود محل حب وإعجاب كل الأشراف وحقد وبغض كل الذين سقطوا واستمرأوا السقوط .

ومن العجب أن نقرأ للشيخ وهبة ، الذي له كفاحه ضد الانجليز، قوله إن «الشيخ عيسى، كان لا يحب التغيير ويكره كل جديد ، ولذا فقد كان يتصادم دائما مع الوكيل السياسي عندما يراد القيام بأي

عمل عمراني ! » ..

كأن الأنجليز كانوا هناك للعمران ! وكأن إلغاء المحاكم الوطنية وإخراج القضاء من السلطة الوطنية ، وتلزيم الجمارك لشركة بريطانية ومدير بريطاني وتحطيم أسطول البحرين مشاريع عمرانية !.. بل ويقول الشيخ وهبة إن « الشيخ عيسى غلت يده عام ١٩٢٣ بالنظر الى كبر سنه » !

على أية حال وهبه كان صادقا عندما قال إنه وطني ضد الأنجليز داخل مصر وحدها !

١٥ م ــ ويضيف « عطار » أن كاتب الديوان عند ابن صباح ، كان عبد العزيز العتيقي ، وأن ابن سعود أطلع ابن رشيد على الرسالة التي كان يفترض أن تصل اليه ، فأصطلح الأثنان واتفقا على هدنة ، دامت حتى مقتل ابن رشيد (متعب) . أما الزركلي فجعله الملا عبد الله العتيقي . وجعل الخطأ عن « عمد وعبث من ابن صباح عرف عنه مثله » . وهو أمر غير مستبعد ، ولعلها مزحة اقترحها عابث على كأس نصف فارغ ! أو لعلها مزحة من الكاتب نفسه الذي ضاق ذرعا من سماجة تذاكي سيده .

١٦ م ــ عام ١٩٣٩ في عهد غازي الأول بن فيصل أعلنت أجهزة الاعلام العراقية أن الكويت جزء من العراق فلجأ أحمد الجابر الى الملك عبد العزيز ، فكتب ابن سعود الى لندن مؤكداً أنه إذا لم يسحب العراق مطلبه هذا علنا من اذاعة بغداد ، فانه سيجهز القوات السعودية ويبعثها الى الكويت لنجدة الشيخ أحمد . فأجبر العراق على سحب قواته .

وبدلا من أن يرد الشيخ معتذراً عما سلف منه هو وجده من إساءات لابن سعود شخصيا وللسعودية سواء في عهد مبارك أو أحداث الاخوان خلال عهد احمد الجابر حتى قال فيه ابن سعود في برقيته لحافظ وهبه « أما أحمد الجابر فما عنده إلا التملق » . بدلا من أن يقول العفو من شيم الكرام ..

لا ..

قال في برقيته : « لقد أثبت لنا ولجيلنا وللأجيال أن زرع الجميل كزرع القمح اذا بذر في أرض خصبة أنبتت الحبة مائة حبة* » !!

١٧ م ــ وهذا الادعاء أو الأحساس بدور غير موجود ، ولا معترف به من خارج الكويت ، هو تعويض عن الاحساس بغربة الكيان . الذي لا يملك أية مقومات للوجود ، ومع ذلك فهو موجود ، بل وشديد البروز ، ولعل الاحساس بضعف الأسس التي يقوم عليها هذا الوجود ، يزيد من الحساسية والرغبة في كبت هذا القلق بالحديث عن أهمية هذا الوجود ، ودوره « الاقليمي » ثم « العربي » وأخيراً « العالمي » ! والكويت هي أول من وضع كلمة دولة قبل اسمها ، والتعريف يلزم المجهول أو المشكوك فيه .

« تاريخ الكويت » عرفها بأنها « الدرة في تاج الخليج ، بل الجوهرة الثمينة التي ستنير ما حواليها بنورها ؛ وستأخذ بأيدي غيرها الى المجد ، بعد أن يأخذ أهلها والمسيطرون عليها بيدها الى ربوع الفخر » .

ولكن المؤلف بخل علينا بذكر أي مظهر من مظاهر التأثير الكويتي المنير على ما حولها ، ولو تقدم به العمر لسمع مر الشكوى من تأثير الظاهرة الكويتية على الوضع العربي وعلى مجرى الأحداث بالنسبة للاستخدام العربي المأساوي للنفط في تخريب وتدمير الحضارة العربية ، وما كان يرجى من آمال في

---

* من شيم عبد العزيز عن كتاب أسود آل سعود تأليف ابراهيم بن خمس.

نهضة الثلاثينات والأربعينات ، وما كان يمكن أن تحققه فيما بقي من القرن ، فتعفن ذلك كله بمال النفط ، وكان للكويت قصب السبق ! وقد أرخ مؤرخ الكويت أحداث درة الخليج كالآتي : « الرحيبة وهي مطر غزير ، الهيلق : « جوع أصاب الكويتيين فاضطرهم الى أكل دماء البهائم » ، « الطبعة والمراد بها غرق سفن لهم عديدة » ، « الطاعون » وهو غني عن التعريف ، الدبا : في سنة ١٣٠٧ هـ ـ ١٨٨٩ م أرسل الله على أهل الكويت دبا عظيماً أكل الزرع وأهلك الحرث والنسل وآذى الأطفال وامتلأت منه الآبار حتى انتنت ، وأصيب الناس منه بما أقلق راحتهم » ...

وهكذا كانت أيام الكويت قبل النفط .

واليك نموذج للادعاء الكويتي سجله قلم مؤرخهم الذي تتسم كتاباته بخفة دم ترجع الى طيبته بل سذاجته . قال :

« في السنة التي تولى فيها صباح ، هجم عبد الله آل السعود على العجمان في « ملح » فقتل منهم من قتل والتجأ الباقون الى الكويت تحت ظل صباح ، فأرسل عبد الله (يقصد عبد الله بن فيصل) اليه رسولا لطرد العجمان من البلد واخراجهم من حمايته . ولكن الرسول أساء التعبير ، فقال له وعنده أخوه « دعيج » : « إن معزبك (أي سيدك) الامام يأمرك باخراج العجمان اليه » . وقد عد « دعيج » ما سمع إهانة وتحقيراً (لاحظ أن الامير لم يحس بالأهانة بل أحسها أخوه !) فسرت النخوة في رأسه وأظلمت الدنيا في عينيه (يا للهول !) وهناك أراد ان يعلم آل سعود ، بأنهم لا يعترفون لهم بفضل ولا يقرون بسلطة ، وان في استطاعتهم منازلتهم في الميدان ، وفي استطاعتهم صدهم عن الاعتداء . أراد ذلك فأمر ... »

(موسيقى تصويرية عسكرية !!)

عندما نصل الى هنا نتوقع طبعا أنه أمر بألا يصلي كويتي العصر إلا في الرياض ، أو أن يؤتى له برأس عبد الله هذا في طست ، ولا يبقى حجر على حجر في نجد !..

أبداً ..

فأصدر أمرا الى « عنبر » أحد عبيد آل الصباح بأن يصيح بأهل الحوطة المنتمين الى آل سعود بالأذن لمن يريد الخروج منهم ليقاتل مع عبد الله (وليس ضده !!) « وكان الكويتيون فيما مضى يصلون العيد خارج البلدة ، وبعد تلك الحادثة أخذوا يصلونها في الداخل خوفا من الحدثان ، ومازالوا الى هذا اليوم وهم يصلونها هناك » .

ولا شك أنه كان درساً قاسياً لآل سعود !..

ويزعم المؤلف أيضا أن ابن صباح كتب الى حسن رضا باشا والي البصرة ، يؤكد استعداده للمقاتلة مع الدولة في حرب طرابلس الغرب (كان هدفه الحقيقي الحصول على موافقتها على تسجيل قطعة أرض اشتراها في العراق) وأن لديه ستين ألف مقاتل ! ما بين فارس وهجان بما فيهم ابن سعود وأهل نجد وقبيلة عنزة . وقد رأينا أن الكويتيين ساهموا في معركة الصريف ، التي اعتبرت أكبر حملة جهزتها الكويت في تاريخها ، بثمانمائة مقاتل ، وهذا يعني أن ابن صباح كان سيقترض من جيرانه تسعة وخمسين ألف ومائتي مقاتل !.. أما قوله بأن ابن سعود جاهز للخدمة فهو جزء ـ كما سنرى ـ من لعبة بيع ابن سعود ، دون أن يدري ابن سعود ، للأنجليز وللأتراك ، بالزعم أنه في جيبه !..

١٨ م ـ قال تويتشل في تعداد المشاكل التي واجهت عبد العزيز في مطلع حياته السياسية : « امتلأ قلب مبارك عليه غيرة وحسداً » .

وقال مؤلف « العربية تتوحد » : إن ابن سعود تبين أنه لا يمكن الثقة كثيرا بالشيخ مبارك الذي عرف عنه غيرته من صعود نجم ابن سعود المفاجىء والسريع » .

١٩ م ـ ربما استند « عطار » لهذا القول ليزعم أن « الأنجليز كانوا يرون اسقاط آل صباح عن كرسي

الحكم في الكويت أضمن للاستقرار والسلام . وأشير من قبل البريطانيين الى ترشيح ابن سعود لحكم الكويت غير مرة . وعرض حكم الكويت على أصدق أصدقائها الشيخ خزعل فلم يوافق » !

والعطار اعتاد ألا يعطي مراجع لمزاعم في مثل حجم هذا الزعم ! ونحن بدورنا لم نجد أي سند لمثل هذه التخيلات . فالشيخ سالم هو الوحيد من أولاد صباح الذي شك فيه الانجليز ومع ذلك لم يفكروا في خلعه ، فمن أين جاءت رواية خلع كل آل صباح ؟! وفي وثائق ١٩١٣ البريطانية ، إشارة تقول إن بريطانيا لا ترى أن يتخلى الشيخ مبارك عن الولاية التي يديرها بحزم . أما أن تعطى الكويت لابن سعود .. فهذا ما لم يخطر ببال !.

٢٠ م ــ البليوس هو المقيم البريطاني ، أو الحاكم المطلق في المحمية ، سواء أكانت الكويت أو البحرين أو مسقط .. ورئيسه هو رئيس الخليج في بوشهر ، الذي بدوره يخضع لحكومة الهند التي تتلقى التعليمات من وزارة الهند في لندن ، التي تخضع لاشراف مستشارين في وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات . فضع درجة « استقلال » حاكم المحمية حيث شئت !

واذا كان « البليوز » يملك خلع « الحاكم » دون أن يستعين بأكثر من عصاه ! فلنا أن نتخيل مدى الرعب من اللورد حاكم الهند ونائب الملك . ولعل هذه الفقرات من تقريره عن رحلته تعطينا فكرة ولو محدودة ، عن جبروت الامبراطورية ، وأسلوب معاملتها لعرب الخليج في هذه الفترة ، ولماذا استقر الرعب والذل من الانجليز في عظام حكام تلك البلدان وتوارثوه ! وإن كان تصرف الانجليز لا يمكن وصفه إلا بالجبروت والطغيان فان تصرفات بعض الحكام تمنعنا من الرثاء لهم، ويكفي أن التقرير وصف لقاء الملك بالحكام بأنه Durbar ، وهو الحفل الذي يقدم فيه أمراء الهند ــ قبل الاستقلال طبعاً ــ عهد الولاء والتبعية للحاكم البريطاني .

وقال نائب الملك في تقريره إنه لن يضمن هذا التقرير كل شيء . إذ « هناك ملاحظات لا أرى من المصلحة جعلها ملكية عمومية » . أي متاحة للعموم بعد الفترة القانونية وهي ٧٥ سنة !!.. وحتى الذي رأى نائب الملك أنه من الممكن تداوله بعد ٧٥ سنة حذفت منه « الرقابة » البريطانية فقرات كاملة ، وانتزعت صفحات بأكملها . وقد قام نائب الملك برحلته الاستعراضية في ٩ سفن ، « وذلك لاقناع الجميع بتصميمنا على حماية مصالحنا » .

وقد لخص اللورد التأثير النفسي الذي كان لهذا الاسطول على سلطان مسقط فقال : « ان الوضع وملامساته لم يتركا له مجالا للشك في أن مصلحته هي الاعتماد على صداقتنا ، وتبني رغباتنا » .

« وصلنا مسقط صباح ١٨ نوفمبر ١٩٠٣ وبقينا هناك الى مساء اليوم التالي ، وتبادلنا الزيارات مع السلطان ، ثم عقدت Durbar على ظهر المدمرة ، تبعها تقليد السلطان نيشانا . وقد تصرف سمو السلطان ببساطة وكرامة ، وكان سلوكه سلوك تابع مخلص للتاج البريطاني أكثر منه سلوك حاكم مستقل ذي سيادة ! وكان واضحا أنه يستكين للسلطة البريطانية في حمايته . ولم يطلب أي ارتباطات أبعد ، ولا حاول أن يحصل على أية تعهدات جديدة . ولكن الجو العام كان كافيا لكي يضع أمام عينيه حتمية الاعتماد على صداقتنا » .

« وهنا أشيد بمجهود ماجور كوكس الوكيل السياسي الذي عينته أنا في مسقط سنة ١٨٩٩ والذي استطاع فيما لا يتجاوز أربع سنوات أن يحول الحاكم (السلطان) من شخص متشكك فينا إن لم نقل معاد صريح في عداوته ، الى هذا الشخص الممتلىء ثقة بنا واحتراما لنا » ..

استحق كوكس ان يلقب بمروض السلاطين ! ولكن الفقرة التالية أنكى !

« بالنسبة لطلب السلطان بأن يوضع في مركز الأمراء الهنود المرتبطين بالتاج البريطانيين ، فقد دعوته الى اللقاء على انفراد ، وطلبت منه أن يقول كل ما في قلبه ، وقبل أن أسلمه براءة الوسام . نصحته بأن يضع نفسه في يد حكومة الهند كلية ، وأن يتصرف وفقا لنصائحها فيما يتعلق برغبته في

التنازل عن العرش . وقد أثار السلطان أمرين تافهين لا يستحقان إزعاج فخامتكم في هذا الخطاب ! » ..

اللورد يتكلم كأنه رئيسة الدير أو ناظرة مدرسة داخلية ، أو مشرف الأحداث .

ثم ذهبوا للشارقة ، وهناك اجتمعوا بأمراء الساحل : شيخ أبو ظبي وشيخ دبي وشيخ الشارقة وشيخ عجمان « وابن حاكم أم القوين لأن الحاكم عجوز جداً » (يلاحظ أنه رغم مرور ٧٧ سنة فمازالت اجتماعات أمراء الساحل تتم بنفس الصيغة لأن حاكم أم القوين عجوز جداً ، وحاكم رأس الخيمة دائما في حالة احتجاج !) .

وفي البحرين نرى بعضاً من مأساة الشيخ عيسى :

« كانت هناك مشكلة مع الشيخ أبو حمد لأنه محافظ ويرفض الاصلاحات (!) ويريد أن يترك ليموت في سلام قبل أن يرى هذه الاصلاحات في عصره . فقلت له إن الاصلاحات ضرورية ولا يمكن تأجيلها . وأنا في انتظار اقتراحات المعتمد هناك » .

« حاولت رؤية الشيخ أحمد حاكم قطر ، ولكن الدعوة لم تصله في الوقت المناسب » !

(من الطريف أنه بعد سبعين عاما خلع الشيخ « أحمد » حاكم قطر لأسباب منها أنه لم يتسلم أوراق أو دعوة الاستقلال في الوقت المناسب) !

أما حاكم الكويت الذي طلب وساماً فقد كان عليه أن ينتظر طويلا حتى منح نيشان سي آي اي (وهو غير السي آي ايه إياها) وقد حصل لتقليده إياه حفلة باهرة في إحدى ساحات قصر الأمير على ساحل البحر .

وحتى هذا الوسام كان ضمن لعبة الحبلين ، « ففي أبريل ١٩١٤ علمت بريطانيا بنية الحكومة التركية في منح الشيخ مبارك وسام العثمانية من الدرجة الأولى فأبلغت وزير خارجية تركيا ، أنها هي أيضا كانت تنوي منحة وساما ، ولكن رأت تأخير ذلك لحين انتهاء المفاوضات واعلان نتيجتها » . والمفاوضات المقصودة هي الخاصة باعتراف تركيا بوضع بريطانيا في المشيخات .

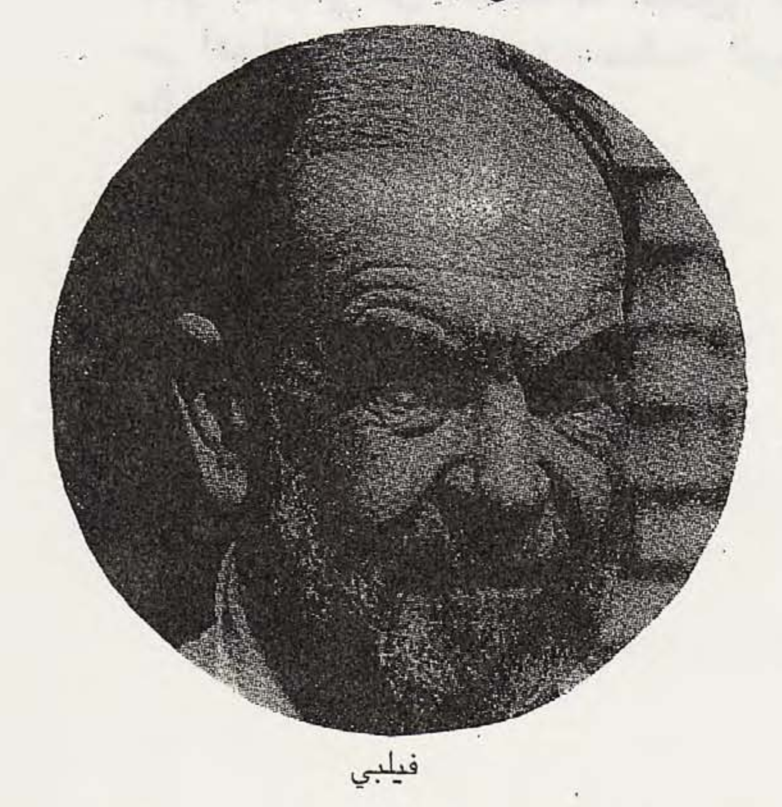
٢٣ م ـ في ٧ مارس ١٩٠٥ ـ آخر ذي الحجة ١٣٢٢ ـ كتب السير برس كوكس الى ابن صباح يثني فيها على حكمته وبعد نظره لأنه أبقى نفسه بعيداً عن التورط في شئون ابن سعود وسياسات نجد » .

وفي نفس الوقت طلب منه أن يعطي الشيخ عيسى حاكم البحرين بعض النصائح المفيدة » . لأن شيخ البحرين كان « غير مستقيم » !

لقد استطاع عبد العزيز أن يوظف
الامبراطورية البريطانية لخدمة أهدافه ،
وما من دليل واحد يثبت العكس .
كما يمكن القول بأنه ما من حاكم عربي
استفاد من صداقة الانجليز مثل عبد العزيز
وما من حاكم عربي ، في دائرة النفوذ البريطانية ،
عجز الانجليز عن استخدامه لتحقيق هدف واحد
من أهدافهم يتعارض مع مصالحه الوطنية ..
مثل عبد العزيز .



الشيخ خزعل أمير المحمرة



فيلبي

متى بدأت علاقة عبد العزيز بالانجليز ؟..

لقد عثرت على وثيقة تحمل تاريخ السابع من نوفمبر عام ١٩٠٣ ، كتبها المعتمد البريطاني في البحرين ، ضمن تقريره الدوري الى رئاسته ، أي حكومة الهند ، جاء فيها ما يشبه النبوءة .. فالوثيقة تتضمن نص محادثة جرت بين المعتمد البريطاني ، وشيخ يدعى « عبد الرحمن بن سلمان » الذي عرفه المعتمد بأنه من أعيان مدينة الهفوف* ، ويفهم من التقرير ، أن علاقة الشيخ بدار المعتمد قديمة ، إذ قال « إنه ـ أي الشيخ ـ هو الذي حمل رسالة من المتصرف التركي لاقليم الحسا في أغسطس ١٨٩٥ الى دار المعتمد » .

فهو ـ كما نرى ـ موثوق به من جميع الأطراف !

واذا كان التاريخ قد نسى الشيخ عبد الرحمن تماما ، فلم يرد أسمه في أي مصدر آخر ، إلا أن تقرير المعتمد البريطاني ، قد أثبت له قدرة عجيبة على قراءة التاريخ ، وحاسة تخترق حجب السنين ! فنقلاً عن التقرير البريطاني المحفوظ في أرشيف المكتب الهندي ، عرفنا أن الشيخ اتصل بالمعتمد البريطاني في الرابع من نوفمبر ، وحدثه عن الوضع في الجزيرة العربية على نحو ، جعل المعتمد ـ الذي لا شك كان لماحا ومخلصا في عمله ـ يرى أن هذه المعلومات « تستحق أن توضع تحت تصرفكم » على حد قوله لنائب الملك في الهند !..

« قال الشيخ : إن الوضع في الجزيرة يتغير سريعا ، وهناك رغبة قوية في الانفصال عن الحكم التركي ، من جانب كل الأطراف ، والعرب الآن مسلحون جيداً وبأسلحة حديثة . ويستشعرون قوتهم . وما عادوا يخافون الأتراك بعدما زال وهم أنهم لا يقهرون . ولتأكيد وجهة نظره أشار الى الشيخ مبارك وابن سعود . وهو يعتقد أن ابن رشيد سيخسر « نجد »** حتما ، والدليل هو عجزه عن استرداد الرياض ، وغيرها من المواقع التي انتزعتها منه عائلة سعود . وقال الشيخ : إنه عندما سيتم قضاء آل سعود على آل رشيد ، سيحاولون طبعاً استعادة الأحساء من الترك ، وسينجحون في ذلك*** ، اذا استمرت الظروف الحالية .

---

* الهفوف عاصمة اقليم الحسا الذي كان محتلا من الترك منذ عام ١٨٧١ .

** سنعرف ان بريطانيا العظمى بكل اجهزتها في الجزيرة لم تقتنع بهذه الحقيقة إلا بعد سنوات من نبوّة الشيخ العجيب !

*** بل استرد ابن سعود الأحساء قبل القضاء النهائي على ابن رشيد !

« وقال إن الأتراك تمكنوا من احتلال الأحساء ، خلال تعاونهم مع رؤساء الكويت ، وعرب المنتفق ، ولكن الأوضاع تغيرت الآن وليس من المحتمل أن يقدم لهم الشيخ مبارك أية مساعدة . ومن المشكوك فيه أن يشارك عرب المنتفق في أية عمليات في المستقبل . »

وقد سأل الشيخ عبد الرحمن المعتمد البريطاني : اذا ما كان أهل الاحساء يستطيعون الاعتماد على حماية بريطانيا في حالة الثورة على الترك . واذا ما كان هو شخصيا يستطيع الحصول على حق اللجوء السياسي في قطر (؟!) .

ولكن بعد أن فتح المعتمد أذنيه والتقط الأنباء التي تهمه ، تلفح بوقار الشرف البريطاني وقال له : « ليس من سياسة الحكومة البريطانية التآمر مع رعايا حكومة صديقة (يقصد تركيا !) أما قطر فتخضع للشيخ جاسم بن ثاني وأخيه . وهنا قال الشيخ عبد الرحمن « اذاً أرجو أن تعتبر ما دار بيننا سراً ، وأن تسمح لي بالكتابة اليك مرة ثانية » . فرد عليه المعتمد « يسعدني دائما ان أتلقى أنباء من الداخل » .

وكانت هذه الرسالة هي بداية المسألة « العزيزية » في السياسة البريطانية ! فقد أثارت سيلاً من التقارير والتقارير المضادة ، من دلهي الى بوشهر والكويت والبصرة واسطمبول ولندن ، وأثارت خلافاً حاداً ـ لم يحسم إلا بعد ١٢ سنة ـ بين المدرسة الهندية ـ في الدبلوماسية البريطانية ـ التي رأت الاهتمام بما يجري في نجد ، والتنسيق مع هذه التطورات بما يحمي الكويت ، ويبعد خطر ابن رشيد ، الذي هدد الكويت قبل عامين ، وبين المدرسة الأوروبية ، التي رأت أن ابن سعود أخطر من أي احتمال آخر وكانت تراعي الوضع في أوروبا باعتبار الاهتمام الأوروبي بتركيا وليس لأن تركيا دولة أوروبية كما تقول بعض الدراسات !

تنبهت حكومة الهند ، وهي المسئولة عن الخليج ، الى خطورة هذه المعلومات فردت على المقيم السياسي في الخليج ليوتانت كولونيل كامبل ، وهو الذي يعرف برئيس الخليج ، برسالة تقول فيها ؛ إنها : « تود أن تكون أكثر إحاطة بما يجري في نجد والرياض ، وتود أن تعرف رأي رئيس الخليج فيما إذا كان من المفيد إرسال موظف أوروبي (أي بريطاني أصيل وليس من العرب أو الكويت ولا من الهنود المسلمين) لزيارة عاصمة عائلة سعود من أجل جمع المعلومات ؟ فاذا لم يكن لديكم اعتراض فاستشر الشيخ مبارك (حاكم الكويت) حول إمكانية تنفيذ ذلك . وما هو الأسلوب الأفضل . هل يتوجه هذا الموظف الى الرياض بشكل علني أو متنكراً[١] » .

وقد رد رئيس الخليج على سكرتارية حكومة الهند بقوله :

« من الناحية العملية أعتقد أنه من المستحيل على انجليزي غير متنكر أن يشق طريقه للرياض سواء عن طريق القطيف أو العجير ، فسيمنعه الترك من ذلك . أما عن طريق الكويت ، فقد وجهت مساعدي الكابتن « هنت » لكي يبحث الموضوع مع الشيخ مبارك خلال زيارة الكابتن الأخيرة للكويت فكان رأي الشيخ أن الطريق سالكة ، وأنه لن يكون من الصعب على موظف انجليزي أن يزور الرياض ، وسيرتب هو الأمر مع عبد الرحمن بن فيصل وسيبعث أحد أبنائه شخصيا كمرافق مع هذا البريطاني ، لتوصيله

الى الرياض وإرجاعه . ولذا فلا خطورة ، ويمكن للشخص المنتدب أن يسافر علنا .

ويمضي التقرير البريطاني فيقول :

« ويبدو أن الشيخ مبارك قد سر من الفكرة ، وقال إنه يعتقد أن زيارة موظف بريطاني للرياض أمر مفيد ، لأنه منذ زمن غير بعيد ، أرسل له والى البصرة خطاب توصية مع المانيين ، يطلب فيه مساعدتهما على الوصول للرياض ، ولكنه رفض ، وأعادهما الى البصرة بحجة أنه لا يريد تحمل مسئولية سلامتهما .

« ومن الطبيعي ـ يقول كامبل ـ أن يرحب الشيخ مبارك ـ وهو المعروف بعطفه على قضية آل سعود ـ بأية بادرة توحي باهتمام الحكومة البريطانية بشئون أصدقائه ، إذ ليس من المعقول أن الشيخ مبارك سيصدق أن الزيارة البريطانية ستقتصر على جمع المعلومات دون ان يكون لها هدف سياسي (!) . بل على العكس أعتقد أنه هو وابن سعود سينظرون الى هذه الزيارة باعتبارها تبنيا صريحا لقضية الأخير . ولأن الزيارة ليست من النوع الذي يمكن أن يبقى سرأ فانني أعتقد أن هذا سيكون أيضا رأي الأتراك وابن رشيد .

« كذلك أشك في استطاعة هذا الموظف الذي سيقوم بالزيارة ، الحصول على المعلومات الكافية ، لأنه لن يستمع إلا لوجهة نظر طرف واحد ، إلا إذا بقي في البلاد فترة طويلة ، وهو ما لا أنصح به » .

« ومع الاعتراف بضرورة أن تصبح حكومة الهند أكثر إلماما بأحداث نجد والرياض ، إلا أن زيارة موظف بريطاني ، ليست عملية مستحبة ، في الوقت الحاضر ، وحتى الآن فان معلوماتنا كافية . فنحن نعرف أن ابن سعود قد استقر في العاصمة الوهابية القديمة ، ونجح في مد سلطته على منطقة كبيرة مجاورة . وصحيح أن عجز أمير نجد (ابن رشيد) عن استعادة ما استولى عليه ابن سعود ، قد أعطى انطباعا بأن سلطة ابن رشيد في انحدار وسائرة الى زوال . **ولكن اعتقاد الشيخ مبارك في الانهيار الشامل لحكم أمير نجد ، لا يبدو أنه تحقق . ومن المحتمل جدا أن يستعيد أمير نجد تفوقه ويطرد ابن سعود مرة ثانية »** .

« ولذا فان زيارة يقوم بها موظف أوروبي متنكراً لكل من الرياض وبلاد ابن رشيد قد تكون أكثر فائدة . إلا انني لا أوصي بأن تكون مثل هذه الزيارة (للطرفين) تحت رعاية الشيخ مبارك » .

ويفهم من الرسالة الحقائق التالية :

١ ـ أن بريطانيا لم تكن لها أية علاقة بالتطورات النجدية التي سبقت هذه المكاتبات . أي عملية استرداد الرياض من قبل عبد العزيز .

٢ ـ حتى هذا التاريخ كانت الادارة البريطانية تعترف بابن رشيد « أميراً لنجد » وتعتقد ـ على الأقل على مستوى رئيس الخليج ـ أن الاحتمال الأكبر هو انتصاره على ابن سعود وطرده من الرياض ، ومن ثم لا تريد توريط نفسها في إجراء قد يفسر بأنه انحياز لجانب ابن سعود . بل تريد الاستماع لوجهة نظر الطرفين .

٣ ـ الشيخ مبارك الذي أنقذه انتصار ابن سعود من تهديد ابن رشيد الذي كان قد وصل الى أسوار الكويت ، بل وتولى ابن سعود عنه مسئولية واعباء الحرب ضد ابن رشيد ، كان ـ أي مبارك الصباح ـ يرحب باتصال الانجليز بابن سعود ، على الأقل لينضبط في الخط !..

وبينما رأى رئيس الخليج اللعب على الحبلين ، بارسال انجليزي متنكراً الى كل من الرياض وحايل بشرط إبعاد الشبهة عن مبارك ، رأت وزارة الخارجية والمدرسة التركية في بريطانيا ، رفض أي اتصال بابن سعود .

كتب الماركيز «اوف لانسدون» الى سير «اوكونور» ، السفير البريطاني في اسطمبول ، يطمئنه الى أن « التعليمات قد صدرت الى حكومة الهند بألا تقيم أي علاقة مع نجد ، أو اتصال ، وألا ترسل وكلاء الى هناك بدون موافقة مسبقة من حكومة صاحب الجلالة » .

وقال الماركيز : « ولو أن المعلومات مطلوبة إلا أن مثل هذه الخطوة قد تطرح طلب إقامة علاقات أوثق مع عائلة سعود ، وهي خطوة ستثير الاعتراضات . فضلا عن أن هذا الاجراء سيبدو متناقضا **مع نصحنا المستمر لأمير الكويت بالبقاء بعيداً عن أي نشاط مضاد لأمير نجد*** ، **وهو النشاط الذي تديره أساسا عائلة سعود** ، بينما تتورط الحكومة البريطانية في عملية ستبدو وكأنها تشجيع لهذه العائلة . وسيعتبرها الأتراك إخلالا بالاتفاق معهم على الحفاظ على الوضع القائم في المنطقة » .

وهذه الوثيقة تضيف نقطتين :

ـ الأولى أن الحكومة البريطانية منعت ابن صباح من مساعدة آل سعود ضد ابن رشيد . ومن ثم فالحديث عن الدعم الكويتي لعبد العزيز في تلك المرحلة ، مبالغ فيه ، رغم عواطف الشيخ مبارك وحقده على ابن رشيد أو تخوفه منه .

ـ وجود اتفاق ، أو وفاق بريطاني ـ تركي ، على إبقاء الوضع على ما هو عليه ، أي سيطرة آل رشيد ، الموالين للأتراك ، على نجد ومنع زيادة الوجود أو التدخل من جانب أي من الدولتين ، وكما هو معروف ، كان اللورد لانسدون قد صرح في عام ١٩٠٣ بأن بريطانيا تعتبر إنشاء قاعدة بحرية ، أو تحصين أي ميناء على خليج فارس بمثابة تهديد لمصالحها التي يجب حمايتها بكل ما تعنيه كلمة الحماية[٢] .

تحاشي بريطانيا إقامة علاقة مع ابن سعود .

وقد شرح السفير البريطاني في اسطمبول أسباب التحرج البريطاني من الاتصال بالرياض ، وإن كان قد أكد على ضرورة الحصول على معلومات عما يجري هناك فقال : « إن العلاقات متوترة مع تركيا بسبب زيارة نائب الملك (في الهند)** للخليج ـ نوفمبر ١٩٠٣ . وما أبداه العرب هناك من مشاعر نحو نائب الملك ، وصفت بأنها قد تصل الى

---

* أي ابن رشيد .

** انظر رحلة اللورد كيرزون الاستعراضية في فصل ابن صباح .

جد تحريضهم على الانضمام في حركة ضد الحكم العثماني هناك . ولذا فالاتفاق تام على خطورة ارسال بعثة خاصة لتقصي الحقائق في الرياض ونجد ، إلا أنه من الضروري الحصول على معلومات أفضل مما لدينا الآن بشأن المنطقة الداخلية . ولذلك لا أرى أن نصرف النظر نهائيا عن الاقتراح (ارسال شخص بريطاني للرياض) حتى نستطيع أن نحدد موقفنا اذا ما وقعت تطورات جذرية هناك*[٣] .

وفي مارس أبلغ عبد العزيز ، الشيخ مبارك بانتصاره على ابن جراد (؟!) ولتأكيد هذا النصر التاريخي بعث براية ابن جراد الى الكويت وقد طير شيخ الكويت النبأ الى رئيس الخليج ومن رئيس الخليج الى القنصل البريطاني في البصرة ، مستر « كرو » ومنه الى السفير في اسطمبول سير ن . أوكونور :

« معلومات وصلت من الكويت ان ابن سعود انتصر على ابن جراد ، وقتله هو وأربعمائة من انصاره . وأن عبد العزيز يتحرك لمهاجمة القصيم ، وبريدة ، من أراضي الأمير** ، وإذا صح ذلك ، فان **الجماعة الوهابية** ، ستقوى الى حد بعيد ، ولكن يحتمل أن أنباء هذه العمليات مبالغ فيها من جانب شيخ الكويت »[٤] .

ولعل أهم ما تميزت به الامبراطورية البريطانية في فترة ازدهارها ، هو استقراء التاريخ ، فلا يوجد أي مصدر ولا حتى سعودي ، في تلك الفترة ، كان منتبها للعنصر الوهابي في هذا الصراع المبكر الذي اعتبر من جانب القوى المحلية ، على أحسن الفروض ، استمراراً للصراع الذي بدأ بوفاة عبد الله الفيصل وانقطع بخروج آل سعود من الرياض ، والذي لم تكن « الوهابية » قضيته بأية حال*** . ولكن دهاقنة السياسة البريطانية ، أدركوا أن البيت السعودي ، لابد أن يطرح الوهابية ، إذا ما وصل الى حد معين من الانتشار ، لأن التوسع بعد ذلك خارج قدرة الملك ، ولا يتحقق الا بالرسالة ..

ولذلك بادرت حكومة الهند باعداد دراسة مختصرة عن العلاقات بين بريطانيا و « البيت الوهابي » جاء فيها :

١ ــ خلال القرن التاسع عشر أجرت حكومة الهند عدة اتصالات مع الأمراء

---

* في سنة ١٩١٣ عندما طرحت من جديد قضية الاعتراف بابن سعود ، قالت مذكرة الخارجية البريطانية انه في اول ابريل ١٩٠٧ أستشير السفير البريطاني في اسطمبول ، فأكد أن الارتباط بابن سعود سيكون من اكثر الأعمال بعداً عن الحكمة . وقد أبلغ المكتب الهندي وقتها ان السير ادوار غراي (وزير الخارجية) يوافق تماما على هذا الرأي .

** ابن رشيد

*** قال الاستاذ عبد الله بن محمد بن خميس في مجلة الدارة عدد يوليو ١٩٧٩ ان « الفيلق الأول » الذي فتح الرياض بقيادة عبد العزيز لم يقم على دعوة روحية ، ولم يكن الدافع الأول دافعا دينيا .. ولكنه كان ارهاصا بين يدي انتفاضة دينية ويقظة روحية قادت طلائعها كتائب الاخوان .

وهو أفضل تحليل قرأناه عن ظهور عبد العزيز . ولكنه كتب بالطبع بعدما تحققت الظاهرة ، اما الانجليز فقد استقرأوا ذلك من التاريخ قبل ظهور الاخوان والانتفاضة بعشر سنوات !

الوهابيين وفي سنة ١٨٦٦ دخل محمد بن عبد الله* في اتفاق مع المقيم السياسي البريطاني في الخليج الفارسي تعهد فيه بعدم الاساءة الى الرعايا البريطانيين المقيمين في أراضيه ، وألا يتدخل في شئون القبائل العربية المتحالفة مع الحكومة البريطانية . ولكن منذ احتلال الأتراك الحسا وارتفاع شأن أمير نجد (ابن رشيد) توقفت اتصالاتنا مع البيت الوهابي . ونحن الآن لا علاقة لنا بأي من الطرفين في شبه الجزيرة العربية .

ولكن المشروعات الحالية حول السكة الحديدية عبر القارات (وهو المشروع الألماني) التي ستمتد من البحر الأبيض الى الخليج الفارسي ، وتقدم مشروع سكك حديد الحجاز الذي يقال إنه سيضم خطأ فرعياً ما بين نجد والحسا بالأضافة الى تضاؤل النفوذ التركي ، والتصاعد المنتظم في التدخلات الأجنبية في هذه الربوع ، تفرض علينا الاهتمام أكثر بالأوضاع داخل الجزيرة » .

« ولقد استرعت القضية اهتمامنا خلال المقابلة التي تمت في الكويت في مارس ١٩٠٣ بين قائدي الباخرتين « انفرنت » و « بوارين » مع عبد العزيز بن سعود »**.

و « قد كتبنا للمقيم السياسي بخصوص الاقتراح بارسال موظف بريطاني الى عاصمة العائلة السعودية ، للحصول على معلومات ، ولكن أخذاً برأي الكولونيل كامبل ، لا نرى تنفيذ هذا المشروع حاليا ، ولكن في المستقبل عندما تتطور الأمور ، وبالذات إذا نجح الممثل الحالي للعائلة الوهابية ، عبد الرحمن الفيصل في مد سيطرته*** ، الأمر الذي يبدو ــ من التقارير التي وصلتنا ــ أنه غير مستبعد ، يصبح من المرغوب فيه ، الدخول مرة أخرى في علاقات مع حليفنا القديم**** . ونأمل أن نبلغكم بالمزيد عن هذا الموضوع في الخريف من هذا العام***** » .

وهكذا قررت بريطانيا اتباع سياسة : « انتظر وراقب » .

ولكن عنصراً جديداً تدخل لمصلحة ابن سعود ، وهو التخبط العثماني ، الذي تمثل في زيادة حجم الدعم التركي لابن رشيد ، فتركيا كانت ناقمة على بريطانيا ، تحركاتها في الكويت ، ساخطة على سلوك ابن صباح ، لا تعترف بما اتخذه من اجراء منفرد بفك ارتباطه بالدولة العثمانية ، ودخوله في حماية الانجليز ، وكانت تتربص به ، وترفض مطالبه في وربة وبوبيان . وأعلنت تبعية الجزيرتين لولاية البصرة ، وعززت دعواها

---

* لا يوجد « محمد بن عبد الله » اذا كان عبد الله المقصود هو عبد الله الفيصل الذي خلف والده في عام ١٨٦٦ . ويحتمل اذا صحت الرواية ، واقتصر الخطأ على الاسماء أن يكون محمد بن فيصل أو سعود بن فيصل على الأرجح ، فهو الذي شاع عنه الاتصال والتفاهم مع الانجليز .

** هذه إشارة الى اجتماع تم بين عبد العزيز والقنصل الروسي الذي جاء على الباخرة بوارين[١]م .

*** واضح انه حتى ٢٤ مارس ١٩٠٤ كانت التقارير البريطانية لا تعرف من هو ممثل العائلة الوهابية[٢]م . مما يفند أي زعم عن مؤامرة بريطانية مع عبد العزيز .

**** إذا انتصر ... يصبح « حليفنا القديم » !

***** وقد وقع هذا التقرير كل من كيرزون ــ كتشنر ــ رالي ــ لو ــ آليس آرندل ــ ابتسون . وتاريخه ٢٤/٣/١٩٠٤م .

بتدعيم الحامية التركية في جزيرة « وربة » واستخدمت كل وسائلها لمنع تعيين بريطانيا لمعتمد لدى الشيخ مبارك . باعتبار أن هذا التعيين لو قبل دوليا ، فهو يكرس إلحاق الكويت بالامبراطورية البريطانية . كما كانت تركيا تقاوم أيضاً مؤامرات الانجليز في قطر ، التي كانت تستهدف ضمها الى مجموعة المحميات : الكويت ، والمحمرة والبحرين .. وساحل عمان .. وعمان .. الخ . وكانت تركيا خلف الهجوم الأول الذي شنه ابن رشيد على الكويت ، وأصبحت بالتبعية في المعسكر المعادي لابن سعود . ورأت في انتصاره ، تصفية لنفوذها ، او تحريضا على التمرد على هذا النفوذ ، لأن ابن سعود ، كما لم يقصر ابن صباح في إفهام الجميع ، هو صديق الشيخ المتمرد ، وقاتل معه ضد ابن رشيد ، وهو بتصفيته سلطان واليها (ابن رشيد) المعترف بسيادتها ، يرجح كفة ابن صباح . وفوق هذا كله فابن سعود هو سليل البيت العربي الوحيد الذي له ذكريات دامية مع الباب العالي ! ومن ثم كان من الطبيعي أن تقرر تركيا حماية نفوذها ، واستعادة هيبتها ، وتخويف المترددين ، وتشجيع المخلصين ، وذلك كله يتم بضرب ابن سعود ، مادام الوصول الى ابن صباح دونه الاسطول البريطاني . وكان أن انضمت تركيا الى ابن رشيد ودعمته بالمال والسلاح والرجال .. ضد ابن سعود .

وتحركت المعادلة الدولية !.. فالتحرك التركي يعاكس الخطط البريطانية ، التي وان كانت لا تتعجل تصفية الوجود العثماني في الجزيرة ، ولا تمانع في بقاء ابن رشيد عثماني الولاء ، بعيداً عن حدود الكويت ، إلا أنها لا تسمح لهذا الوجود التركي ، أن يتحول من سيادة اسمية الى وجود عسكري نشط ، فرغم كل نفورها من ابن سعود ، وتوقعاتها ، بل وتمنياتها للبيت السعودي بالعودة مرة أخرى للظل ، إلا أنها لا تود أن يتم ذلك على يد حملة أو تجريدة عثمانية ، تعيد الهيبة للراية التركية ، وتؤثر على خططها في الكويت وقطر والبصرة ، وقد تشجع تمرداً في الساحل المتصالح .. خاصة وأن تركيا في تلك المرحلة ، كان يتخفى تحت عباءتها العثمانية ، اليونكرز الألماني ، بسكة حديده المشئومة . وتطلعاته للنفط في العراق وإيران .. ولذلك سنرى أن الخطة البريطانية ، خلال ما تبقى من عام ١٩٠٤ هي :

ترك نجد تصفي حسابها .

منع ابن صباح من مساعدة ابن سعود .

تجنب أي اتصال مع ابن سعود من جانب بريطانيا .

وفي نفس الوقت معارضة التدخل التركي المسلح ، ومحاولة الاستفادة من الأزمة : « تأكدنا أن المقيم السياسي في الخليج قد أبلغ أنه سيكرر على شيخ الكويت النصيحة بعدم الزج بنفسه في صراع القبائل بالداخل* . ونقترح بالمناسبة لفت نظر الحكومة التركية الى عدم التدخل كما جاء في رسالة السفير » (في اسطمبول)[٦] .

ومع ذلك تدفقت أنباء الحشود التركية الضخمة ، لأن السلطان عبد الحميد الذي

---

* نجد . والمقصود هو الحرب بين ابن سعود وابن رشيد

كان يراقب في فزع انهيار امبراطوريته ، ونهش القوى الكبرى لأطرافها ، اعتبر فقدان الجزيرة العربية كارثة لا يمكن تحملها ، ووافقه المستشارون الألمان ، وكان الجميع في اسطمبول وبرلين يرون أن كل التحركات في الجزيرة ، المعادية لتركيا ، هي من صنع بريطانيا وتدبيرها .. ولذلك وضعت تركيا خطتها على أساس مهاجمة ابن سعود (ومن معه) عن طريق البصرة والمدينة .. وبعض تقارير الأجهزة البريطانية توضح ضخامة الخطر الذي هدد ابن سعود ، وفرض عليه أن يسلك المسلك الذي سلكه ، والذي سيصبح سياسته الدائمة خلال الثلاثين سنة القادمة ، ألا وهو : « فرض التحالف على بريطانيا » ..!

وكانت هناك خطة بريطانية ـ على ما يبدو ـ لترويع عبد العزيز بتضخيم أنباء الحشود التركية ، وتسريب ذلك له . وان كان الحجم الحقيقي للحشد التركي في حد ذاته كفيلا باخافته ، وقد ورد في تقرير القنصل البريطاني في جدة « أن الحكومة التركية دفعت عشرة آلاف ليرة تركية لابن رشيد ، كما أمرت بارسال ٢٦ ألف عسكري الى نجد » ، « كما علمت أنه قد صدرت ارادة بارسال ابن سعود حيا أو ميتا الى اسطمبول »[٧] !

« أبلغني القنصل في البصرة أنه في ٨ مايو ١٩٠٤ تحركت قوة تركية من أربعة آلاف عسكري ، وعشرة مدافع من السماوة ، لدعم ابن رشيد » وفي برقية أخرى من نفس القنصل الى السفير في اسطمبول أن « القوى التركية تصل الى ٧٠٠٠ جندي و ٢٨ مدفعا »[٨] .

أما التجريدة القادمة من الشمال فقد حصلت المخابرات البريطانية على صورة من أمر الصدر الأعظم الى وزير الحربية بنص التعليمات لتسفير الحملة ، ووضعتها في ملفاتها ومنها حصلنا على نبئها !.. وهي تفيد بنقل التجريدة على باخرة من شركة « لويد » (البريطانية طبعا) من مرسينيا بعد أن تكون قد وصلت من أضنه على البغال ، ومن مرسينيا بالباخرة الى بيروت ومن بيروت الى سوريا ومنها بالسكة الحديد الى معان ثم العقبة ، وبالباخرة الى ينبع ومن ينبع الى مكة ومن مكة للمدينة ومن المدينة للقصيم .. » .

من السهل أن نتصور مدى التأثير الذي أحدثته أنباء الحشد التركي ، والمدفعية بنوعيها ، الهاون والميدان ، وكتائب المشاة الأتراك ، الذين يستعدون للانضمام الى ابن رشيد في حربه ضد ابن سعود ...

ثارت مخاوفه بالطبع ، وجعلته يحسب حساب الدخول في حرب مكشوفة ضد الدولة العثمانية التي مهما قيل عن تدهورها ، فهي أقوى من امكانيات حاكم الرياض ، وعنيزة ، بل وحتى لو أضفنا اليه بريدة !

ولم يكن عبد العزيز قد جرب قوته بعد مع الأتراك ، وهو لا يستطيع أن ينسى الدور الذي لعبته الأستانة في القضاء على الدولة السعودية ، فهو محفور في ذكريات السعوديين !

واذا كان اثبات هزيمة « ابن جراد » قد احتاج لارسال راياته التي غنمها جيش ابن سعود ، فان مواجهة السلطان عبد الحميد ، وعسكر الدولة العلية يحتاج الى حليف ، الى قوة توازنها وتشلها ، ولم يكن في الساحة الا ... بريطانيا .

لم يكن عبد العزيز يسعى ولا يفكر في نجدة عسكرية بريطانية ، ولا خطر في باله يوما أن حماية بريطانيا أو صداقتها يمكن استغلالها ضد أية قوة محلية ، بل نهر الريحاني وكوكس بعد عشرين سنة عندما حاول الانجليز تفسير معاهدته بأنها تعني دعمه ضد قوة عربية ، ولكنه وقد رأى دبلوماسية البوارج في الكويت ، فكر في وضع الدبلوماسية البريطانية ، في مواجهة العسكرية العثمانية . ليتفرغ هو لابن رشيد وابن جراد وابن مهنا .. الخ .. بعيدا عن أي تدخل أجنبي ، وربما أراد أيضا أن يمنع الانجليز من الاتفاق مع الأتراك على جثته ، وكان واعيا بموقف البريطانيين الشديد الجفاء نحوه ، ونصحهم المتكرر لابن صباح ، بالابتعاد عنه ، بل وعرقلتهم وصول السلاح اليه ، وهم يحتكرون مصادره ، ويسيطرون على ممراته ، بل وشكهم في قدرته على الانتصار وحده ولذا ارتأى أن يثير مخاوفهم بالتهديد بمنافسيهم ...

وهذا في رأينا تفسير هذه الرسالة التي يتحاشاها المؤرخون ، أو يمرون بها مرور غير الكرام .. المنافقين ..!

فقد كتب نائب الملك في الهند بتاريخ ٢٠ مايو ١٩٠٤ ، في نفس الرسالة التي أوردنا منها خبر الحشود التركية ، كتب يقول :

« كما وصلتني رسالة من ابن سعود بتاريخ الثاني من مايو يحتج فيها على الغزو التركي ويطلب حماية بريطانيا العظمى له ولبلاده . وقد طلب أن يكون رد حكومة صاحب الجلالة برقيا . كما تسلمت في نفس التاريخ ، من الشيخ مبارك النسخة الأصلية لرسالة ابن سعود الموجهة للشيخ مبارك ، وفيها يذكر مباركا بأنه في عام ١٩٠٣ خلال زيارة العسكريين الفرنسيين والروس للكويت ، حث الروس ابن سعود على قبول حمايتهم ، الأمر الذي رفضه بارتياح بعد مشاورات مع مبارك . ونفس الشيء ، عندما عرض نفس الاقتراح من جانب القنصل الروسي في البصرة ، وانتهى ابن سعود الى القول بأنه اذا كان العرض الروسي ، قد خطر بباله الآن ، الا أنه لا يوافق هواه . ولذا فقد طلب الحماية البريطانية مفضلا أن يسلك سبيل مبارك . أرجو ارسال تعليمات سريعة مع ملاحظة أنه اذا كان ردنا غير مشجع ، فسيتجه ــ دون شك ــ الى القنصل الروسي ، وبما أن البارجة « لورنس » غير متاحة فمن الضروري ارسال مدمرة »* !!

وهكذا نجح ابن سعود في ازعاج الادارة الهندية ، الى حد دفعها لطلب المدمرات لمواجهة الحماية الروسية !... ولكن الدبلوماسية البريطانية ، لا تخططها جهة واحدة ، ولا توضع في ظل الانفعالات ، فالسفير البريطاني في اسطمبول لم يبلع الطعم السعودي بل قال : « عندما وصلتنا من نائب القنصل في جده ، أنباء الحشود التركية في

* التاريخ ١٩٠٤/٥/٢٠

« المدينة »* لمساعدة أمير نجد** لفتنا نظر وزير الخارجية*** الى مذكرتي في ١٦ مايو حول النتائج الخطيرة التي ستترتب على الاخلال بالوضع القائم والاستقرار في تلك المناطق » .

« الا أن مذكرتنا وان جعلت السلطان يتريث ، غير أنه من الصعب أن تجعله يتحول عن قراره ، الذي يمكنه ـ بحق ـ أن يبرره بأنه يهدف الى منع تصاعد الاضطرابات ومنع تغيير الوضع القائم . واعترف بأنني لا أملك حجة يمكن أن استخدمها ، لمنعهم من ارسال نجدة للأمير الذي تعرض للهجوم . ولا أرى أي أساس يمكن أن أستند اليه في الضغط عليهم دون أن أبدو كمناصر ـ مباشر ـ لابن سعود ، **الذي أعتقد أن تهديده المبطن بالتوجه للروس ، هو مجرد حيلة أريبة ، معتادة من العرب ، محسوبة جيدا ، تهدف الى ابعاد الدعم وليس التشجيع عليه** .. وفي اعتقادي أننا يجب أن نكتفي بحماية سلامة أراضي شيخ الكويت وانتظار التطورات . »

ولا أظن ان المؤرخين الذين تعففوا عن مناقشة طلب الحماية ، كانوا بحاجة الى كل هذه الحياء بعدما كشف السفير البريطاني اللعبة ، فابن سعود سواء في طلب حماية بريطانيا أو تهديده بقبول الحماية الروسية ، « يمارس لعبة عربية » ، يصفها السفير بالدهاء . لعبة تهدف الى منع الدعم العثماني لخصمه ، أو حتى البريطاني ، وليس الحصول على الدعم .. وهذا التفسير يشهد بذكاء السفير البريطاني وسوء ظن مؤرخينا !

لم يكن عبد العزيز يريد الحماية البريطانية ، ولا خطر في باله امكانية الدعم الروسي ، ولكنه بطرح هذه الأوراق ، كان يهدف الى ضرب عصفورين بحجر واحد٣م ، تخويف الباب العالي ، بالتلويح له بالخطرين اللذين يهددان المصالح التركية ، بل الوجود التركي .. خطر اللجوء الى روسيا العدو التاريخي أو طلب الحماية البريطانية ، كما فعل الشيخ مبارك ، بسبب سوء تصرف الدولة العثمانية ، وتدخلها في صراعه مع اخوته .. فكانت النتيجة أن سقطت الكويت في الفم البريطاني المفتوح كنار جهنم يسأل هل من مزيد ...

واستقراء الحوادث ، يؤكد لنا أن عبد العزيز كان يملك من الوعي السياسي ، ما يجعله يدرك أن « الحماية » لا تفرض على بريطانيا بناء على رغبة طالبها ! بل تسعى اليها بريطانيا لسنوات ، وتدفع الدولة المعنية اليها دفعا ، حتى وان جاءت في النهاية على شكل طلب من السلطة المحلية الا أن هذا الطلب لا يصدر أبدا ـ في الحقيقة ـ من جانب المحمي ، بل يوقع عليه .

فهو عرض وهمي ، ومطلب غير جدي ، قصد به تهويش السلطان ومن الناحية

---

* المدينة المنورة .
** ابن رشيد .
*** التركي .

العملية ، طرح الورقة البريطانية في الساحة ، وهي ورقة لها مفعولها في حسابات القبائل الموالية لابن الرشيد ، فهذه الاتصالات مع بريطانيا ، والتقارير والمذكرات المتبادلة بين قنصليات صاحب الجلالة . وبين لندن واسطمبول نشرت اعتقاداً في الأوساط العربية بأن الانجليز يؤيدون الجانب السعودي وقد أشار الى ذلك خطاب القنصل البريطاني في جده بتاريخ ٥ ـ ١١ ـ ١٩٠٤ : « ان الاعتقاد السائد في أوساط العامة في الحجاز ، هو أن بريطانيا العظمى تميل الى جانب ابن سعود وليس ابن رشيد »[٩] .

وهذا بالطبع له تأثيراته على موقف كثير من القوى الانتهازية ، التي ترهب سطوة الانجليز وتؤمن بقول ابن صباح « صاحبهم في ازدياد » .

ولكن حسابات بريطانيا كانت مختلفة ، لم تكن لها مصلحة في الصدام مع الباب العالي من أجل ابن سعود ، وان اعتصرت الموقف الى أقصى حد لمصلحتها بتعيين مقيم في الكويت*، وتوجيه انذارات الى الباب العالي ، تتضمن في حد ذاتها الاعتراف بحقوق بريطانية فوق السيادة العثمانية في الجزيرة .. أو في مواجهتها . ولم تكن بريطانيا واثقة من انتصار ابن سعود ، بل كانت حساباتها وتقديراتها ثم توقعات ابن صباح ـ كما سنرى ـ تؤكد خطورة المراهنة على ابن سعود ، « فمن الممكن جدا أن يستعيد ابن رشيد قوته » فضلا عن أن الادارة البريطانية لم تكن سعيدة بانتصار وانتعاش البيت السعودي « حليفنا القديم » !! الذي ورثت بريطانيا تركته ، في اكثر من موقع ومشيخة ، وبريطانيا لا تحب أن ترى امارة لها رسالة ، يمكن أن تثير حركة بعث اسلامية في الجزيرة الممزقة ، الحائرة بين عجز الترك وكفر الانجليز !..

وقد عبر وزير الدولة البريطاني لشئون الهند عن مخاوف بريطانيا من البيت السعودي ، في رسالته بتاريخ ٢٤ مايو ١٩٠٤ الى وزارة الخارجية عندما قال :

« ان هدف ابن سعود هو بعث الملكية الوهابية في وسط الجزيرة ، هو أمر يثير نتائج خطيرة في المستقبل القريب ، ومن المحتمل أن يهدد سلطتنا في الكويت ، تلك السلطة التي تزداد قوة عاما بعد عام . ولذا فنحن نؤيد فكرة « أوكونور » (السفير في الاستانة) في التركيز على حماية سلامة أراضي الكويت . وانتظار التطورات »[١١] .

ومرة أخرى لم يكن السعوديون أنفسهم في هذا التاريخ يرفعون شعار الثورة الوهابية ، ولكن الامبراطوريات تبنى برجال لهم مثل هذه القدرة على فهم القوة الحركية الكامنة في التحرك السعودي حتى وان بدا في ـ وقتها ـ أو أتخذ شكل صراع مشيخي على نجد ..

فالسياسة البريطانية التقليدية في لندن واسطمبول ، كانت تفضل حكم ابن رشيد المحدود الاهداف والقدرات ، بل حتى السيادة النظرية العثمانية ، على مواجهة

---

* واشترطت بريطانيا لسحب المعتمد البريطاني من الكويت ، جلاء الترك عن جزيرة بوبيان ، مع : « تصميم حكومة صاحب الجلالة على الاحتفاظ بحقها في إرسال وكيل للكويت من حين لآخر ، وأن انسحاب نوكس (المعتمد) يجب ألا يفسر على أنه تنازل » (١٦/١٢/١٩٠٤)[١٠] .

الاحتمالات التي يثيرها بعث البيت السعودي للوهابية .
أما الادارة الهندية المهتمة بالخليج ، والتي اضطرت الى ارسال البوارج لتخليص ابن صباح من الأتراك ، ومرة ثانية من ابن رشيد ، فكانت تنظر للأمر نظرة مخالفة تاكتيكيا . فهي تعارض أي تعزيز للوجود العسكري التركي في الجزيرة ، وهي بحكم قربها من « السعوديين » لم تكن تملك النظرة الشمولية ، التي للاستراتجيين والمحللين في لندن ، فلم تهتم كثيراً بالعنصر الوهابي الذي لم يكن بارزا ، ولا حتى مطروحاً ، بشكل حركي ، بل كانت خطابات ابن صباح تؤكد أن آل سعود تحت سيطرته ، وأنه يستطيع توجيه ابن سعود كيفما شاء ، أو وفقا لتعليمات المقيم البريطاني ، وهذا يفسر خجله وغضبه ، من الاحراج أمام مسئوليه الانجليز ، عندما لعب ابن سعود عليه ، وتفاوض مع الأتراك فظل يصيح : « ابن سعود : بدوي .. بدوي » « لا يوثق به » !

كانت الادارة البريطانية في الهند والخليج تؤمن بامكانية احتواء أو تدجين الظاهرة السعودية ، أو على الأقل ـ في المرحلة الحالية ـ الاكتفاء بفتح سكة عليها ، لكي لا تفاجأ بالأحداث . وقد لخصت مذكرة نائب الملك بالهند استراتيجية تلك الادارة على النحو التالي :
« ان موقفنا بالنسبة للمشكلة النجدية يدور في الاطارات التالية :
١ ـ يجب أن نبلغ الباب العالي أنه مادام الترك يتجنبون التدخل في شئون نجد ، فاننا أيضا سنمتنع عن التدخل ، واننا لا نرغب بأية حال **في تقديم مساعدة مباشرة أو غير مباشرة لابن سعود** . الا أن مصالحنا في شرق الجزيرة ، **تجعل** من المستحيل علينا اتخاذ موقف اللامبالاة ازاء التدخل لصالح أحد الأطراف التي تتصارع على السيادة في نجد ، لأن ذلك سيؤثر على القبائل التي لنا علاقات معها . وان حقوق الطرفين المتنازعين متعادلة الى الحد الذي يجعل من الأفضل تركهما يصفيان حسابهما وحدهما ، اذا ما كان هدفنا هو تجنب المشاكل وحماية السلام » .

« ويحسن أن نذكر الترك بأنهم في عام ١٩٠٢ ، قد عجزوا عن منع حملة مغامرة ضد الكويت انطلقت من الأراضي التركية (معركة الصريف بين ابن صباح وابن رشيد) ، وأن الدعم الذي يعطى الآن لابن رشيد يمكن أن يقويه الى الحد الذي يتجاوز قدرة الترك على ضبطه . وهذا قد يؤدي الى خلق وضع لا يمكن تجاهله من جانب الحكومة البريطانية نظرا لعلاقاتنا مع شيخ الكويت .
٢ ـ « بالنسبة لملاحظات السير أوكونور (السفير البريطاني في آستانه) نعلق بالآتي :
« ان نفوذ شيخ الكويت قد زاد طرديا مع نجاح صديقه ابن سعود ، ولكن اذا حدث ، كنتيجة لتدخلنا ، بمنع مبارك من مساعدة ابن سعود* ، ومنع ابن سعود من

---

* وهذا يوضح أن انتصار ابن سعود خدم ابن صباح بأكثر مما قدم ابن صباح لآل سعود .

استيراد السلاح ، أن ترك المجال للنفوذ التركي لفرض تفوق مرشحهم ضد ابن سعود ، فان نفوذنا في الكويت لابد أن يتأثر ماديا* ، ومن المحتمل على ضوء ما جرى في الحسا** عام ١٨٧٠ أن يبتلع الترك نجداً ، والنتيجة الطبيعية هي تحطيم نفوذ الشيخ مبارك بفعل السيطرة التركية في نجد ، بل ومن المحتمل جداً أن يتبع ذلك هجوم على الأراضي الكويتية ذاتها . وفي هذا الحالة قد نجد أنفسنا مضطرين لتقديم مساعدة فعالة لمبارك ضد الترك . وهذا في رأينا يفتح المجال لاعتراضات أقوى من التي يثيرها خطر احتمال قيام الملك الوهابي ، الذي لم يعد متعصبا كما كان*** . ولذا فلا يمكننا قبول الرأي القائل بأن نجاح ابن سعود يمكن أن يضعف سلطتنا في الكويت ، أو أننا نستطيع حماية سلامة أراضي الكويت بوسيلة أفضل من منع الترك من التدخل لصالح ابن رشيد .

٣ ـ « بالنسبة لتعيين وكيل سياسي في الكويت ، نتفق معكم تماما ، ونقترح ترشيح شخص بسرعة لشغل المنصب .

٤ ـ « بالنسبة لمشكلة السلاح ، فليست هناك اتفاقية محددة مع الباب العالي . ومع ذلك فنحن لا نقترح السماح لشيخ الكويت باستيراد السلاح ، ولا حتى في تخفيف القيود الحالية ، بل مجرد ترك الأمور على ما هي عليه الآن . فاذا احتجت الحكومة التركية (على عبور السلاح من الكويت) فسيكون هذا لصالحنا ، لأن الاحتجاج سيتصمن الاعتراف من جانبهم بسيادتنا على الكويت (!!) . وفي هذه الحالة ، يمكننا أن نقترح منع تجارة السلاح ، اذا امتنعوا هم بدورهم عن التدخل في شئون نجد[١٢] » .

وتصاعد الاهتمام البريطاني بالنجم الوهابي الصاعد فأعدت السفارة البريطانية في اسطمبول ـ هي الأخرى ـ دراسة عن الحركة الوهابية ، بعثت بها الى الخارجية لتعميمها ، مع مقدمة يصعب وصفها بالتواضع ! ولو أن الجزء الأول من الدراسة يؤكد أنه لا وجود للبشر الكامل ، ولا حتى في الأجهزة البريطانية في ذلك الوقت ! فهي حافلة بالاخطاء ، ولكن الجزء الثاني الذي يبدأ من عهد فيصل بن تركي يعتبر دقيقا ، ومتفقا مع جميع الروايات الموثوق بها ، ان لم يفقها في بعض المعلومات التي يقدمها ، مثل

---

* باعتبار أن ابن صباح هو المراهن الأكبر على انهيار الترك ، وعدم جدوى الاحتماء بهم ، وإذا كانت العواطف مع الترك ، فان هزائمهم المستمرة ، وعجزهم عن حماية أنصارهم ، تعطي سياسة مبارك عذر الواقعية . ولكن إذا انتصر ابن رشيد بدعم الدولة ، فهذا يعني أن بها بقية ، وأنها تستطيع مواجهة بريطانيا وتحمي من يتمرد على الهيمنة البريطانية ، وبذا تسقط حجة الواقعية من منطق مبارك ، وتبرز تهمة الخيانة وموالاة الكافر ، ويتشجع خصوم مبارك حتى داخل عائلته خاصة وأن يوسف نجيب أقصد يوسف ابراهيم كان لايزال حيا متربصا ! (اشارة الى اللص المصري الظريف) .

** اشارة الى احتلال الأتراك للأحساء عام ١٨٧١ عندما استنجد بهم عبد الله الفيصل .

*** يمكن القول بأن الملاحظة كانت دقيقة في وقتها ، فلم يكن عبد العزيز قد بعث بعد « الحركية » باقامة الهجر أو معسكرات الاخوان الذي تم بعد ذلك بسنوات .

ترجيح انجليز الخليج ، لسعود بن فيصل على أخيه عبدالله* » .

على أية حال لم تنجح الضغوط البريطانية ، ولا تهديدات ابن سعود ، في منع الأتراك من المغامرة ، في المرحلة الأولى .. ولكنهم كانوا فعلا « الجماعة الذاهبة » كما كان ابن صباح يسميهم في رسائل الحض على طاعة الانجليز . فما أن انضم الأتراك الى ابن رشيد حتى فتك بهم عرب شمر !!

ففي برقية من القنصل العام لبريطانيا في بغداد بتاريخ ١٠/٨/١٩٠٤ جاء الاتي :

« وردت معلومات بأن ابن رشيد قتل بيده قائد النجدة التركية الميرالاي علي ! لأنه رفض أن يضع الجند الترك النظامي في مقدمة العربان[١٣] » .

مع أن هذا الاقتراح يبدو عسكريا أفضل ، لأن العربان اذا انهزموا سيسحقون الجيش النظامي تحت اقدامهم الهاربة . إلا أن الخلاف لا يمكن أن يبرر قتل ابن رشيد للأميرألاي التركي ، وأمره الضابط الثاني البمباشي رمضان أغا بالتقدم ، ففعل ، ولكن بدو شمر اقتدوا بأميرهم ، فانتهزوا فرصة القتال ضد ابن سعود ، واهتموا هم بالأتراك الذين جاءوا لنجدتهم ، فقتلوا منهم مائة بما فيهم رمضان أغا ، وجرحوا تسعين ! وكانت معركة ذات طابع خاص تلك التي سميت بالبكيرية ، حيث اختلط الحابل بالنابل فعلا .. وهزم الطرفان وانتصر الطرفان .. مدفعية الترك وفرسان ابن رشيد هزموا ابن سعود وأهل العريض .. وفر ابن سعود فعلا .. إلا أن أهل القصيم من أنصار ابن سعود ، هزموا الأتراك وابن رشيد فأسروا مدفعية الترك ونهبوا خيمة ابن الرشيد .. ووصلت أنباء متضاربة للكويت .. ولكن معركة البكيرية كانت نصراً سياسيا لابن سعود ، فالانجليز الذين قرروا تركه لابن رشيد يأكل أحدهما الاخر ، وراهنوا على ضربه بالترك وضرب الترك به ، فوجئوا بانقلاب في موقف الترك ، الذين بدورهم ، رأوا على أرض المعركة مدى تدهور الوضع في معسكر ابن رشيد الذي « تفيد التقارير أن قوته في انهيار »[١٤] وأجروا اتصالاتهم بابن صباح لكي يعود الى المظلة التركية ، ويأتي بابن سعود معه ولكن ابن صباح بادر بالرفض وابلاغ الانجليز ذلك ! وجن جنون كوكس** رئيس الخليج ، فأرسل لوزارة الخارجية خطاباً حاد اللهجة يتضمن المعلومات التالية ، نقلا عن ابن صباح :

« إن الحكومة التركية التي تحققت من أفول نجم ابن رشيد ، وضعت خطة جديدة للاعتراف بابن سعود كحاكم لنجد تحت الحماية التركية ، مع وعد بمنع التدخل

---

* يرجع الخطأ في الدراسة الى اعتمادها في الجزء الأول على أول نصاب عالمي زار السعودية وهو بلغريف الذي خلط بين تاريخ سعود وتاريخ عبد العزيز وحول عبد الله بن سعود الى عبد الله بن عبد العزيز مما انعكس على الدراسة البريطانية في أخطاء أشرنا اليها في مواضعها .

** سير برسي كوكس من العسكريين ، ولكنه عمل موظفا سياسيا في التسعينات من القرن التاسع عشر ، ثم رئيسا للخليج من ١٩٠٤ ــ ١٩١٣ ثم مندوبا ساميا في العراق . ولذلك لعب دورا بارزا في العلاقات السعودية ــ البريطانية ، وبالطبع السعودية ــ الكويتية والسعودية ــ العراقية الخ .. وكان من أوائل من راهنوا على صعود نجم ابن سعود وهو القائل إن « عبد العزيز لم يخطيء قط » .

المباشر . وقد أرسل هذا العرض الى الشيخ مبارك بواسطة عملاء لوالي البصرة ، مع وعد بأن تخلع على الاثنين (ابن صباح وابن سعود) ألقاباً وغيرها ، اذا ما استخدم نفوذه في اقناع ابن سعود بقبول ذلك الترتيب » .

« وقد رفض مبارك الاقتراح قائلا إن أي اعتراف بالسيادة التركية في نجد سينتهي بابتلاع البلاد كلها من جانب الأتراك ..

واضاف : « إن ابن سعود » « بدوي » ولذلك فهو لا يثق فيه ، ومن الممكن جدا أن يتحالف مع الترك رغم انه صديقه الحميم الآن » !

ويقول كوكس إنه من المتوقع نتيجة رفض مبارك ، أن يحاول الوالي (العثماني) الاتصال بابن سعود مباشرة .

ويختم كوكس تقريره بعنف غير معتاد في الموظف الانجليزي ، في ذلك الوقت على الأقل*، ولكنه كان له مكانته فهو مروض السلاطين والشاهنشاهات، ومدرب الشيوخ والمهراجات . ولذا يقول .. مخاطبا رؤسائه : « ويبدو أن هذا المشروع التركي ، هو نتيجة اتفاق مع حكومة صاحب الجلالة ، فان كان الأمر كذلك ، فبلغونا على الاقل (كذا) وأحب أن أضيف أن مثل هذا الاتفاق ـ إن صح ـ يعبر عن قصر نظر شديد » !

ويبدو أن كوكس ، ذاته ، راح ضحية الاسطورة البريطانية التي كانت تزعم أنه ما من حدث يحدث في العالم الا وفقا لمخطط بريطاني !

على أية حال اذا كان كوكس نفسه يخشى اتفاقا بريطانيا ـ تركيا على حساب ابن سعود وسيادته على نجد ، ألا يحق لابن سعود أن يكون أكثر تخوفا ، وأن يبذل كل جهد ممكن لدق اسفين في هذا الوفاق الذي لن يكون الا على حسابه ؟! حتى ولو اصبح هو هذا الاسفين ؟!

جاء الرد سريعا لكوكس ، ينفي وجود مثل هذا الاتفاق المزعوم ، والذي يعد مخالفا لكل سياسة بريطانيا . وحولت اليه جميع الملفات الخاصة بالسياسة البريطانية في نجد .

المهم ... أربك تحول الموقف التركي ، الدبلوماسية البريطانية ، التي أصرت على تجاهل ابن سعود ، اطمئنانا الى أنه لا مخرج آخر له .. وراحت التقارير والبرقيات تنهال من وزارة الخارجية على القنصليات تطلب تفسيراً لهذا التحول في الموقف التركي ، باعتبار أن الذكاء أو البراعة السياسية ، والمنطق السليم كلها ظواهر مستغربة وممنوعة على الباب العالي !

وجاء في تفسير : « أن القنصلية البريطانية في جده تعتقد أن هذا التحول كان نتيجة تقرير من أحمد باشا راتب والي الحجاز الى السلطان قال فيه « ان ابن سعود هو من نسل عائلة عريقة في حكم نجد**، ولذا فان انتصاره ينهي النزاع في نجد الى الأبد » !!

---

* تاريخها ٤ سبتمبر ١٩٠٤

** الحمد لله وجد باشا في السلطنة يعرف التاريخ !

كما أشار نفس التقرير الى أن الجهات العليا في الاستانة نصحت : « بالتروي قبل ارسال حملة جديدة الى نجد ، حيث أن كل العوامل هي لصالح ابن سعود » . وأبرقت السفارة البريطانية في اسطمبول[15] الى وزير الدولة للشئون الخارجية ، بأن التعليمات قد صدرت بوقف الحملة على ابن سعود ، لأن هذا بعد أن هزم ابن رشيد أظهر الطاعة للسلطان[16] » .

وجاء في مذكرة بتاريخ ٣/١/١٩٠٥ وجدت بين أوراق الخارجية البريطانية أن ابن سعود كتب للشريف الكبير : « بما أن سموه ، هو القائد المعترف به للقبائل والمشايخ العرب ، لذا يعتبر من الضروري أن يجعله حلقة الوصل مع الباب العالي أو صاحب الجلالة السلطان . وقد ذهب إلى القول بأنه لا يفكر أبدا في الثورة ضد الحكومة التركية ولا في عصيان أوامرهم ، ولكنه حاكم مخلص لنجد ، وقد هزم ابن رشيد فهو على استعداد لقبول أية شروط معقولة تفرض عليه من حكومة السلطنة لتنفيذها باخلاص .

« كما أعرب في هذا الخطاب عن أسفه لاضطراره لمقاتلة القوات التركية ولكنها كانت تساعد عدوه ابن رشيد . فلذا اضطر لقتالها دفاعا عن النفس ووعد بأن يعيد لأي شخص تعينه الحكومة التركية ، كل المنهوبات من القوات العثمانية بما في ذلك المدافع والبنادق التي أخذت في المعركة ضد ابن رشيد »

ربح ابن سعود الجولة على جميع الجبهات ، بالدبلوماسية التي طرحت التهديد بالحماية الفرنسية أو الروسية .. أو البريطانية . وبالسيف الذي هزم الحملة التركية ، وعرض مدافعها في أسواق الرياض كغنيمة ، وأخيرا بحفظ كرامة السلطان والاعتذار له . وتأمل ابن رشيد هذا الفوز السعودي فقرر تقليد ابن سعود من البداية تقليدا أعمى ... فكانت تلك « النكتة » التي شغلت الدبلوماسية البريطانية لفترة ، والتي يمكن تخيل خطتها كما وضعت في قصر ابن رشيد كالآتي :

اذا كانت بريطانيا قد تدخلت لدى الباب العالي ، والباب العالي يتجه لمصالحة ابن سعود لمجرد تهديده بالحماية الروسية أو الفرنسية . فلماذا لا يكرر ابن رشيد نفس اللعبة .. بل وبالحمايتين معا !

وهكذا جاء في برقية من السفارة البريطانية في اسطمبول* أن القنصل في جدة أبلغ أن عميلا يدعي تمثيل فرنسا وروسيا كلا على انفراد ، أو مجتمعتين ، حاول إرسال برقية لابن رشيد وفشل ، وقد أبلغ ذلك للباب العالي » ثم وردت تفاصيل القصة كاملة في تقرير بريطاني من جدة :

« إن شخصا اسمه محي الدين ، أو اسم آخر آخره « الدين » قد عرض على ابن رشيد مبلغ مائة ألف دولار شهريا** (!) اذا ما قبل توقيع معاهدة قبول حماية أي من

---

* ١٩/١١/١٩٠٤

** أي أكثر من ١٥ ألف جنيه استرليني شهريا ! وبريطانيا لم تدفع بعد عشر سنوات ولا بن سعود ذاته سوى ثلث ذلك المبلغ !

الدولتين أو هما معا . وقال هذا الرسول في خطابه إن بريطانيا تحاول مد سكة حديدية من الكويت الى نجد مما سيؤثر على سلطة ابن رشيد في البلاد . ولذا فان الحماية التي يقترحها عليه من روسيا أو فرنسا أو منهما معا . ستخلصه نهائيا من هذه المخاطر . والتمس السماح له بزيارة حايل لمناقشة هذا الموضوع . ولكن ابن رشيد رفض ، وحذره من دخول بلاده . وذكره بأن الحكومة العثمانية هي التي من حقها أن تقرر السماح بالسكك الحديدية ، أو منعها . وقد أرسل ابن رشيد رسولا خاصا بالمراسلات ، التي جرت بينه وبين هذا الرجل الى اسطمبول ، ومعها بعض الوثائق التي عثر عليها في إحدى خيام ابن سعود عندما اضطر الأخير الى الفرار بعد إصابته بجرح في احدى المعارك . وقد غادر رسول ابن رشيد جدة الى اسطمبول في السابع من نوفمبر ١٩٠٤ . بعد أن ابلغ والي مكة والشريف الكبير بهذه المراسلات مع الوكيل « المزعوم » للروس والفرنسيين »[١٧] .

ويلاحظ أن التقارير البريطانية تكرر صفة « المزعوم » و « يدعي » في حديثها عن هذا « الكذا .. دين » الذي يسوق توكيلات الحماية بالجملة ، ونستبعد أن تكون فرنسا قد فكرت في هذا الوقت بالذات في تحدي بريطانيا في جبل شمر والوفاق الودي الشهير لم يكن قد جف مداده بعد ، أما روسيا فكان لديها من الخطر الياباني ، والثورة الداخلية ، ما يشغلها عن آل الرشيد . فهي ليست الا لعبة بدوية من ابن رشيد الذي حرص على إبلاغها لكل آذان السلطان والانجليز ، ولكن التقارير البريطانية تعكس عدم تصديق الحكاية ، ولا دليل على أن الباب العالي « قبضها » بدوره .

المهم هو أن الجزيرة كانت قد دخلت في دوامة الصراع العالمي ، وسواء أتمت تلك العروض فعلا ، أم كانت من اختراع العرب ، فان المبدأ كان مطروحا ، والقوى المحلية كانت تعرف بالتطلعات العالمية ، وكل مؤشرات التاريخ كانت توحي بان الاقتسام والابتلاع هو المصير الوحيد الذي ينتظر قلب الجزيرة بعدما أكلت من أطرافها .

والكثير من القوى المحلية التي كانت تروم ملكا ، كانت تفكر في عبور الدرب لتلحق بقيصر !.. إلا ابن سعود الذي عرف كيف يبقي القياصرة بعيدين عن نجد ، بل يمكن القول ، بأنه حيث سار عبد العزيز استحال على بريطانيا أن توجد ، أو أن تخلق كيانا مشوها .

والتقرير الذي تحدث عن تاجر الحمايات المزعوم ، تضمن فقرة في غاية الاهمية عن موقف ابن صباح اذ قال : « علمت أيضا ان ابن صباح شيخ الكويت الذي كان يميل دائما نحو ابن سعود ، قد أصبحت علاقتهما اليوم على غير مايرام . حتى أن ابن صباح أعاد نقودا أرسلت من ابن سعود لشراء إمدادات وأسلحة وذخيرة ، مما أدى الى إبقاء ابن سعود بلا موارد على الاطلاق ، فاضطر الى العودة للرياض »* .

وتغير موقف ابن صباح لا يصعب تفسيره ، فأساسا هو موقف انجليزي ، لأن

---

* تاريخه ١٦/١١/١٩٠٤

انتصار ابن سعود ، أو عدم هزيمته على الاقل ، ثم اتصاله بالأتراك ، جعل الانكليز يقررون قطع الأمدادات عنه ليعرف من هو سيد الجزيزة ، أما الاسباب الكويتية ، فأهمها أن انتصار ابن سعود في « البكيرية » ، وما أعقبها ، أثار مخاوف وغيرة ابن صباح ، فهولم يكن يريد ابن سعود أكثر من شوكة يخز بها ابن رشيد ، ويشغله عنه . ولكنه لا يحب ان تنمو قوة ابن سعود حتى يصبح قرينا أو منافسا ، فابن صباح يعلم أن أميراً سعودياً قويا ، مسيطراً على نجد ، يشكل مزاحمة ويثير مخاطر أكبر بكثير مما يستطيعه أمير شمر. وزاد انزعاجه، ما رآه من تطور في موقف الترك واتجاههم نحو مهادنة ابن سعود ، وتوليته على نجد . أما ما أطار لبه ، وحرك غيرته ، أكثر وأكثر فهو ما لاحظه من اهتمام الانجليز بابن سعود واجماع تقارير وكلائهم بالخليج على انه هو القوة الصاعدة . ويبدو أن موقف ابن صباح قد تدهور جدا عند الانجليز حتى أن أحد التقارير يقول : « واعتقد أن مباركا يحاول لسبب خاص أن يثير عطفنا عليه »[١٨] .

ولابد أن جزع الانجليز وغضبهم كانا أكبر فبدلا من أن يسحب مبارك ، عبد العزيز ، الى دار المعتمد البريطاني في بوشهر أو الدار الجديدة في الكويت حيث جاء « نوكس » رغم أنف تركيا زاعما أن مساعده هو مدرس لغة عربية ! بدلا من أن يأتي مبارك بعبد العزيز الى المعتمد اصطحب ابن سعود مباركا معه الى مجلس الوالي العثماني في صفوان ثم البصرة !

ورغم أن وجود ابن صباح في اللقاءات السعودية ــ التركية ، كان مفيداً للانجليز ، فقد استمرت التحذيرات للشيخ بالابتعاد عن التورط في قضايا نجد « يجب أن يكون مفهوما بوضوح أن مصالح ونفوذ حكومة صاحب الجلالة يجب أن يحصرا بدقة في خط الساحل في شرق الجزيرة ، ولا تتخذ أية خطوات ، ولا تستخدم أية لغة ، قد تبدو أنها تربطنا ولو بشكل غير مباشر بحرب القبائل المشتعلة الآن في الداخل .. وإذا ما ألح الشيخ مبارك على نوكس في موضوع نجد ، فيجب أن نكرر عليه التحذير الذي سبق ووجهه له اللورد كيزرون* ضد التورط في الداخل . ويجب أن نعطيه التعليمات بأن يتجنب إعطاء أي رأي للشيخ حول النصيحة التي يمكن أن يقدمها الشيخ ، لابن سعود ، بشأن العرض التركي على هذا الأخير[١٩] » .

وقد تم اللقاء بين عبد الرحمن الفيصل ومبارك الصباح ووالي البصرة على بعد ٣٠ ميلاً من البصرة في اتجاه الكويت (صفوان) اقترح والي البصرة أن ترسل حاميات عثمانية الى نجد ووافق والد ابن سعود ولكنه اشترط ألا تتدخل هذه الحامية في شئون الامارة . واحتج الوالي على الشيخ مبارك لأنه وقع برقتيه للوالي بامضاء « حاكم الكويت » . « ولم يثمر الاجتماع عن نتائج حاسمة »** وهناك واقعة مثيرة أشار اليها تقرير ذكي للقنصل البريطاني في البصرة بتاريخ ١٨ فبراير ١٩٠٥ ... إذ ذكر : « أن

---

* انظر فصل ابن صباح

** تقرير السفارة البريطانية في اسطمبول ١٧ فبراير ١٩٠٥

فخري باشا القائم باعمال والي البصرة ، أرسل خطابا ، بتعليمات من اسطمبول إلى عبد الرحمن بن فيصل ، الوالد العجوز للشخص الذي يعرف عادة باسم « ابن سعود » يدعوه للمجيء لتسوية موضوع القصيم في اجتماع ودي . وفي نهاية نوفمبر جاء خطاب من عبد الرحمن بواسطة الوالي مخلص باشا .

« **وتقول المصادر الحسنة الاطلاع ، ان الخطاب كان مكتوبا بخط يد سكرتير الشيخ مبارك الذي يقيم على بعد ما بين ثلاثمائة ، الى أربعمائة ميل من حيث يقيم عبد الرحمن (!) وقد فسر ذلك بأن الخطاب أرسل للتوقيع على جناح السرعة من الكويت (أي قطع ستمائة ميل !!) أو أن شيخ الكويت قد ائتمن على خاتم عبد الرحمن** » !

هذا الاكتشاف الذي لاحظته عين واعية ، او علمت به أذن تجيد الاصغاء ، في البصرة ، يفتح الباب أمام كثير من الاحتمالات والتفسيرات . ويحتم مراجعة كثير من الخطابات المنسوبة الى عبد الرحمن الفيصل أو « ابن سعود » كما جرت العادة في كثير من المصادر على عدم التمييز ، فالقائم بالأمر أو المتحدث باسم السعوديين اسمه « ابن سعود » .

وابن صباح الذي كان يكتب خطابات متعارضة وقيل أنه كان يمزح بارسالها خطأ الى عكس الجهة المطلوبة ، ليس بالذي يمتنع عن استخدام خاتم عبد الرحمن الذي أئتمن عليه .. أو الذي اصطنعه .. لا أحد يدري قبل أن يجري فحص تاريخي شامل لكل الرسائل .

ختم القنصل البريطاني تقريره بهذه العبارة :

« من المدهش أن السلطان تجنب اراقة الدماء ، رغم القوات التي تتدفق على نجد[٢٠] » .

وهكذا انتهت أول جولة لابن سعود مع القوى العالمية ، بخروجه منتصرا من الحرب ضد ابن رشيد والاتراك ، متصالحا مع الدولة ، غير مرتبط بشيء مع بريطانيا ، رغم أنها انغمست في الصراع بواسطة ممثليها ، أو بادخال صديقها الأول مبارك في دوامة الاتراك مرة أخرى !

ويمكن القول إنه من عام ١٩٠٣ الى عام ١٩١٣ كانت السياسستان البريطانية والسعودية تسيران في خطين متوازيين : ابن سعود يريد إفهام الأتراك ، بوجود البديل دون رغبة في الوصول الى نقطة اللاعودة مع الدولة ومع الحرص على تجنب الارتباط الحقيقي مع الانجليز ، وان كان لا يكف عن عرض أو مطاردتهم بصداقته .

ومن الجانب الآخر كانت بريطانيا ، ترى في ابن سعود ، وتحرص على أن يفهم الأتراك وابن رشيد ، أنه ــ اي ابن سعود ــ ورقة في يدها يمكن استخدامه ضدهما إذا ما هددت تركيا مصالحها في الجزيرة ، أو هدد ابن رشيد مرة اخرى الشيخ الكويتي . أو حاول دعم الأتراك في العقبة ومطالبهم في سيناء كما حدث في أزمة ١٩٠٦ .

وفي نفس الوقت ابتزاز تركيا ، بموقف « عدم التعاون » مع ابن سعود بتأكيد رفض

لندن أي ارتباط معه ، بل ودعم ابن رشيد من خلال ابن صباح لحفظ التوازن . ومساومة الأتراك على اطلاق يدهم في نجد لاستئصال آل سعود مقابل اطلاق يد الانجليز في الساحل الشرقي للجزيرة .

ولعل هذا ما جعل المؤرخين يحتارون في تفسير تلك « الصداقة » التي « نشبت » بين عبد العزيز والانجليز في تلك الفترة . والتي لخصها صحفي بريطاني بقوله « إن عبد العزيز خطب ود الانكليز أو بالاحرى انتزع منهم ، ذلك الود ، انتزاعا في بدء حكمه وأول عهده » .[٢١]

أي انه حب بالاكراه !

والشيخ حافظ وهبه سفير الملك عبد العزيز الدائم في بريطانيا ، والرجل الذي حرص على دعم العلاقات السعودية ـ البريطانية ، في اطار استراتيجية عبد العزيز ، وأحيانا فوق احتياجات هذه الاستراتيجية بعض الشيء ! هو ايضا تخبط في تفسير هذه العلاقة .

فنراه يؤيد الرواية الخاصة برسالة ابن سعود التي يطلب فيها الحماية .

يقول الشيخ : « في الوقت نفسه استلم السير برسي كوكس كتابا آخر من الشيخ مبارك أمير الكويت ، مرسلا ـ للشيخ ـ من الأمير عبد العزيز يلوح فيه بأنه إذا لم يجد « عضدا وتأييد » من الحكومة البريطانية ضد الأتراك ، فانه سيضطر لقبول « مساعدة » الروس الذين عرضوا عليه مساعدتهم منذ سنة ١٩٠٣ »* .

ويقول الشيخ إن الحكومة البريطانية كانت في الحقيقة تعطف على حركة ابن سعود » . ولكنه يعود فيقول « إن وزارة الخارجية البريطانية ، وحكومة الهند لم يوافقا على اقتراح كوكس بالتفاهم مع عبد العزيز ، لأنهم كانوا يعتقدون أن مطامح هذا الأمير لا حد لها وأن نيته هي مهاجمة الأتراك بمجرد ما تسمح له قوته والفرص الملائمة . أضف الى ذلك أن مثل هذا التدخل قد يدعو إلى تعكير صفو العلاقات بينهم وبين الأتراك . فالى أن يتم التفاهم مع الروسيا على ايران** ، ومع تركيا وألمانيا على خط سكة حديد بغداد ، كان رأي الخارجية البريطانية هو الابتعاد عن الزج بنفسها في مشاكل أواسط بلاد العرب »[٢٢] .

فأين العطف على حركة ابن سعود ؟ إلا إذا كان عطفا رومانطقيا أو عذريا ، وهو كما يعرف الشيخ رحمة الله عليه ، لا ينجب مساعدات ولا يبني دولا !

وينقل الشيخ أيضا عن ترجمة حياه برسي كوكس أن عبد العزيز كتب في عام ١٩٠٧

---

* المصادر الانجليزية تسميها حماية سواء التي طلبت من بريطانيا أو رفضت من الروس ولكن الشيخ وهبة في عام ١٩٣٤ لم يكن بالذي يسمح له أدبه باستخدام هذه اللفظة القبيحة فاستبدلها « بالعضد والتأييد » أو « المساعدة » ! وهذه المحاولات لتحسين التاريخ ـ كما قلنا ـ تكشف سوء ظن المؤرخ . فعبد العزيز عندما طلب الحماية بالاصطلاح الدارج وقتها كان في الحقيقة يطلب ما هو أقل من العضد والمساعدة ، كان يسعى لموازنة التدخل التركي بالورقة البريطانية فقط .

** تم ذلك عام ١٩٠٧ .

الى الشيخ جاسم بن ثاني ، شيخ قطر يبلغه أنه ينوي فتح الأحساء ، بعد أربع أو خمس سنوات ويريد أن تتعهد له بريطانيا بالدفاع عن شواطئه ضد الأتراك اذا تمكن هو من طرد الأتراك من بلاده بدون مساعدة من الخارج ، مقابل قبول ممثل في بلاطه »* .

ولكنه ــ أي وهبة ــ يعود فيشير الى مذكرة حكومة الهند التي أوردناها ، ويقول : إنها خلصت من دراسة الوضع بأن قيام ملك وهابي « على أنقاض ملك الأتراك يهدد في الغالب المصالح البريطانية في الكويت ، وفي إمارات الشاطىء ، وقد ردت حكومة الهند ، بأن ليس لها مصلحة في الموافقة ضمنيا على تركيز سلطة الوهابيين » وأن طلبات الأمير يستحيل التعهد بها ، « فلا داعي للرد عليها » ، ولم يفكر ابن سعود بعد ذلك في تأسيس علاقاته مع الحكومة البريطانية » !!

فأين العطف ياسيدنا الشيخ ؟!

وكيف يتأتى عطف ، والانجليز ، قد رأوا أنه لا مصلحة لهم ، ولا سبيل لتحقيق مطالبه ليس هذا فحسب ، بل وأهم من ذلك ، رأوا في ملكه خطراً عليهم في كل الخليج ؟!

ويلطف حافظ وهبه ــ كعادته ــ وبحكم مسئولياته كسفير (!) خطايا الانجليز فلا يشير الى دورهم في الحملة المضادة التركية على الأحساء ، كما سنرى .

---

* انظر الجزء الخاص بالأحساء ومعاهدة ١٩١٥ في هذا الفصل .





من كوكس الى تشرشل رحلة استغرقت أربعين عاما وحررت ووحدت الجزيرة رغم أنف «صداقة» بريطانيا.

وخدع البدوي الامبراطورية البريطانية !

كان عبد العزيز ، كما أشاع عن نفسه ، ويتهمه خصومه بجهل ، صديق الانجليز رقم واحد في وسط الجزيرة وشرقها ، ولكنه في جميع القضايا الرئيسية لم يتبع نصيحة بريطانيا ، بل تصرف ضد هذه النصيحة ، واضعا مصلحته فوق أي اعتبار بما في ذلك التهديدات البريطانية ، واذا قلنا إنه لا توجد واقعة واحدة ، يستطيع أن يقدمها ناقد ، تثبت أن عبد العزيزضحى بمصلحة سعودية في سبيل بريطانيا أو إرضاء لها .. فاننا سنعدد الان بعضا من أبرز المواقف التي نفذ فيها عبد العزيز مصالح السعودية رغم إرادة بريطانيا .

وأول هذه المواقف هو مصالحته للأتراك بعد أحداث ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥م) رغم نصائح الانجليز ومحاولتهم منع هذه المصالحة . وقد شرحنا ذلك بما فيه الكفاية .

والثاني : ضمه الأحساء رغم التحذيرات والانذارات التي قدمها له شكسبير .

والثالث : ضمه تربة عام ١٩١٩ ضاربا عرض الحائط بانذار اللورد كيرزون وكل رجال الحكومة البريطانية . .

والرابع : فتحه « حايل » رغم التحذير الواضح في عام ١٩٢١ بأن بريطانيا تؤيد بقاء دولة ابن رشيد .

والخامس .. والسادس .. ولكن لماذا لا نبدأ بالأحساء ولا نستبق الأحداث ؟!

كانت عملية « الاحساء » هي الضربة التي كالها عبد العزيز لعباقرة السياسة الامبراطورية ، الذين كانوا يدعون أنهم لا تخفى عليهم خافية في الخليج ، ولا يمكن مفاجأتهم .. حتى انهم عرفوا تزوير ابن صباح لخطاب عبد الرحمن الفيصل .. من معرفة خط سكرتيره ، وتوقيت إرسال الخطاب ، وأماكن وتواريخ تواجد عبد الرحمن الفيصل في نجد التي لا ممثل فيها لبريطانيا !!

البعض يعتبر عملية الاحساء ، ضربة العمر لابن سعود ، والسعوديين ، باعتبار الموقع ، وما تفجر عنه من نفط ومال ، حتى وإن كانت مكانة الحجاز في العالم الاسلامي لا سبيل لتقديرها ماديا .

على أية حال ضربة الاحساء ، تتميز بأنها موجهة بالكامل ضد بريطانيا ، وإن بدت

ظاهريا ، عملا عسكريا ضد الأتراك ! كما تتميز بالتفوق الدبلوماسي والمكر السياسي والقدرة على الكتمان حتى على الامبراطورية التي قامت شهرتها وقدرتها على التفوق في كل هذه الصفات .

ونحن ، نعتقد أن أبرز منجزات عبد العزيز هي الأحساء والاخوان .. ومن العجيب أن الاثنين تضمنا أيضا ، عناصر الضعف في التجربة ، فالأحساء جاءت بالنفط فالمال وفتنته .. والاخوان كما كانوا الدواء ، كانوا أيضا الداء .. بل ربما قال فيهم بعض رجال عبد العزيز : وأخف من بعض الدواء الداء ! ..

مات فيصل بن تركي جد عبد العزيز ، والأحساء جزء من الدولة السعودية . وقد تعرضت الأحساء كما رأينا في رحلة « بيلي » إلى اعتداءات الاسطول البريطاني ، بل ومحاولة إنزال من هذا الاسطول . وبعد وفاة فيصل ، والنزاع الذي ثار بين أولاده ، استدعى الامام عبد الله بن فيصل الأتراك لنجدته ضد أخيه سعود ، الذي كان يتمتع بتأييد الانجليز وكان هؤلاء أبدوا اهتماما بالأحساء باعتبارها الحلقة المفقودة في سيطرتهم على الشاطىء الغربي للخليج ، من الكويت إلى ساحل عمان . فأرسلت بريطانيا تحذيرا إلى مدحت باشا والى العراق ـ الذي لجأ اليه عبد الرحمن الفيصل باسم أخيه لارسال نجدة للاحساء ـ أرسلت بريطانيا تحذيرا إلى مدحت ليمتنع عن غزو الأحساء وفي نفس الوقت طلب مدحت باشا من شيخ البحرين تمكينه من استخدام الجزيرة لضرب سعود بن فيصل ، ولكن شيخ البحرين ، باشارة من المقيم البريطاني في البحرين ، رفض الطلب »[٢٣]

ولذلك يمكن القول ، بشيء من التحيز لآل سعود : إن خطوة عبد الرحمن وعبد الله في استدعاء الترك ، ولو أنها انتقدت خلال السنوات الثلاث والاربعين التالية ، كانت خطوة حفظت الأحساء بعيداً عن الأخطبوط البريطاني ، الذي يعتبر الداخل فيه مفقودا .. ونجت بذلك من مصير الكويت وقطر وساحل عمان ، فلم يكن هناك ما يمنعها من الدخول في حماية بريطانيا ، اذا ما استمر صراع « الأولاد » أو العرايف عليها .. ولو احتلها ابن رشيد كما احتل الرياض ، لتغير وضع الجزيرة ، اذ كان ابن رشيد سوف يصبح في نهاية القرن التاسع عشر في نفس وضع ابن سعود عام ١٩١٣ يطل على الخليج ، وله وضع دولي ، يصعب القضاء عليه بمعزل عن التدخلات الخارجية . ولعل ابن سعود كان يفكر على هذا النحو ، عندما كتب هذه الرسالة التي وأن بدت مريرة السخرية ، إلا أنها لا تبعد كثيرا عن فكرة « حفظ » الأحساء ، في « ثلاجة السيادة التركية » ، الى أن يحين وقت استرداد الامانة !

فقد كتب القنصل البريطاني في البصرة مستر « كراو » الى وزارة الخارجية بتاريخ ٣١ مايو ١٩١٣ يقول :

« علمت أن رسالة وصلت من ابن سعود يقول فيها إن والده كان قد ائتمن الأتراك على اقليم الأحساء خلال السنوات الثلاث والأربعين الماضية بهدف تحسين الأوضاع في الاقليم ورفع مستوى شعبه ، ولكن الامور سارت من سيء الى أسوأ ، مما اضطره الى

استرداد « الامانة » . وقد أكد ولاءه كخادم للسلطان إلا أنه إذا حاولت الحكومة التركية استرداد الأحساء فهو على استعداد لمقاومتها » .

ومنذ عام ١٩٠٧ وعبد العزيز يفكر في الأحساء ، بعد ان قتل عبد العزيز آلرشيد ، واضطرب أمر البيت الرشيدي بعض الشيء ، وقد وردت إشارة الى هذا الاهتمام في رسالته الى حاكم قطر يجس فيها نبض الانجليز ، فقد كان يعرف مدى اهتمامهم بأي تحرك على الساحل ، بعكس الأمر داخل نجد . ولكن الرد البريطاني كان سلبيا ، وهو أمر طبيعي .

وفي عام ١٩١١ اجتمع عبد العزيز بشكسبير ، وتصر التقارير البريطانية على أن اللقاء تم « صدفة » ! .. « فقد كان الكابتن شكسبير الوكيل السياسي في الكويت ، يقوم بجولة في الصحراء ، عندما قابل (عبد العزيز) صدفة » .* وأكرم عبد العزيز وفادته في مخيمه ، وعبر له ابن سعود عن رغبته في أن يقيم علاقة رسمية مع بريطانيا . وأشار الى زيارة الكولنيل بيلي للرياض عام ١٨٦٥ . والى العرض الذي تقدم به أبوه عبد الرحمن في عام ١٩٠٤ ، عندما تم تعيين وكيل بريطاني لأول مرة في الكويت . وتحدث ابن سعود بوضوح وقوة عن الكراهية التي يكنها العرب للأتراك ، واستيائه الشخصي من احتلالهم للأحساء ، الاقليم الذي كان ابن سعود شديد الاهتمام باسترداده ليس فقط لأنه من أملاك آبائه ، بل لأنه يعطيه منفذاً على البحر ، ويمكنه من السيطرة على القبائل في المنطقة الممتدة من الرياض الى الساحل** » .

وحاول ابن سعود إغراء المندوب البريطاني فقال : « في حالة استرداد الأحساء فسيرحب بقبول وكيل بريطاني في إحدى موانىء الاقليم . وأن تجارتنا ستستفيد من الأمن الذي سيوفره للقوافل » .

ولكن العرض رفض فورا وفي الموقع ، قال الكابتن شكسبير : « إن الحكومة البريطانية ، تحصر اهتمامها في الساحل ، ولم تنازع تركيا أبداً في سيادتها على وسط الجزيرة ، التي ليس لنا أي اهتمام بها . وقال إننا على علاقة ودية مع تركيا ، ولذا نتحاشى أية علاقة أو عمل له طابع التآمر ضد الحكومة العثمانية » .

وقد علق السير برسي كوكس الذي كان يشغل منصب المقيم السياسي في بوشهر ، أو رئيس الخليج كما كان يسمى ، وترجع إليه كل أمور الخليج قبل رفعها إلى حكومة الهند .. علق على تقرير شكسبير بقوله : « مادام الباب العالي يتشدد في المفاوضات الخاصة بتسوية مصالح بريطانيا في الخليج ، فلا يمكن أن نستمر في تجاهل ابن سعود ، فنفوذه الشخصي يتزايد ، ومن المفيد أن تكون لنا معه علاقة ودية ولو من بعيد » .

---

* الأمر الذي يستحيل تصديقه بعد كل ما جرى من مكاتبات بين الاجهزة البريطانية حول « قضية » الاتصال بابن سعود !

** من التقرير الذي أعده المكتب السياسي الملحق بالحملة الهندية بالبصرة في ١٢ يناير ١٩١٧ وكتبه « أ . ت . ويلسون » حول علاقات بريطانيا وابن سعود (٤م) .

ويمضي التقرير البريطاني فيقول : « غير أن وزارة الخارجية قررت أنه من المستحيل ـ وقتها ـ تغيير سياستنا القاضية بعدم التدخل »[٢٤] .

ففي عام ١٩١١ كان ابن سعود يفكر في الأحساء ، وجس نبض الانجليز بل حاول رشوتهم في ذلك اللقاء الذي تم « صدفة » بالوعد بتعيين « ممثل » في إحدى مواني الأحساء اذا فتحها ، ولكن المندوب البريطاني رفض وأيدت رفضه وزارة الخارجية ، مفضلين صداقة الأتراك ، وإبعاد ابن سعود عن الساحل . وقد أجل ابن سعود استرداده للأحساء ، ليس لأن الانجليز عارضوا ، فمعارضتهم لم تتغير حتى بعد أن استردها بالفعل . بل لأن تركيا دخلت في حربي ليبيا والبلقان ، ولم يعد من الشهامة ، ولا من المقبول عربيا أو إسلاميا طعنها في هذا الوقت ، ولو كان كما يزعم بعض المؤرخين قد « انتهز » فرصة ضعف أو انشغال الدولة ، لبادر بغزو الأحساء في ذلك الوقت ، كما فعل الادريسي والعياذ بالله !

كان عليه أن يؤجل خططه حتى هزمت تركيا في الحربين ، وتبين للمسلمين أن الخلاص الوحيد من مصير إخوانهم في ليبيا والبلقان ، هو المبادرة بالخروج من سيطرة هؤلاء الذين لا يعطون الاستقلال ، ولا يحمون الأرض ، بل لا يعترفون باستقلال البلد المسلم ، إلا لكي يسلموه للمستعمر « الكافر » بعجزه ، من تخلفهم وخيانتهم . عندها قرر ابن سعود تحرير الأحساء !

وقد زعم بعض الكتاب للأسف ، أنه استمزج رأي الانجليز ، واستغل انشغال الدولة في الحرب . وكلها تخرصات .. فحقا استمزج عبد العزيز رأي الانجليز ، فحذروه بكل قوة ، ولم يتركوا لديه ذرة من الشك في معارضتهم لحملته على الأحساء فكان أن قام بها رغم أنفهم وقبل ان يتمكنوا من اتخاذ أي إجراء لوقفه .

اما الدولة فكانت قد هزمت وانتهى أمرها ، لم تعد سوى جثة في بيت أقتحم ونهب ، يتقاسمها رعاع أوروبا من الصرب والبلغار والرومان والطليان .. وأصبح الحال كما يقول المثل الصعيدي : « بيت أبوك خرب خد لك قالب » !

وقد شهد التقرير البريطاني : « وبعد عامين (من لقائه مع شكسبير) وبدون مساعدتنا التي حاول عبثا الحصول عليها ، تمكن وحده من الاستيلاء على الأحساء وطرد الحامية التركية بدون صعوبة . وإن كان قد شاع عنه في الجزيرة أنه حصل على مساعدتنا »[٢٥] .

ولكن الوقائع اكثر دلالة .

ظهر شكسبير صدفة* « في معسكر ابن سعود عشية قراره بالزحف على الأحساء ، وسجل شكسبير المقابلة في التقرير التالي حرفيا :

« عبر الأمير بانفعال شديد عن كراهيته للأتراك ، وأبدى استياءه من عجزي عن تشجيعه أو حتى التلميح له بأن طموحاته ستلقى تأييدنا بأية صورة من الصور . وقد اضطررت أن أشرح له أننا على علاقة صداقة مع الحكومة التركية ، **وأننا في مفاوضات معهم الان حول قضايا سكة حديد بغداد والخليج الفارسي**** . وأن الوقت الحاضر ، هو أقل الظروف مناسبة ، لكي نربط أنفسنا بمطالبه ، حتى ولو كنا نرغب في ذلك ، وهو مالا أعتقده بأية حال » .

ويمضي شكسبير في تقريره قائلا : « ورغم ما أبداه من عدم ارتياح لأقوالي هذه ، إلا أنه لم يظهر انزعاجا ، أو ضيقا ، بل قال بهدوء : سيأتي يوم تجبرون فيه على تبني موقفي » .

في هذا اللقاء كان ابن سعود يهاجم الأتراك ، والانجليزي يدافع عنهم ذلك أن السياسة البريطانية ، بعدما أنجزت مع روسيا تصفية القسم الأوروبي من تركيا .. قررت التحفظ على القسم الاسيوي ، ليكون من حصتها في الوقت المناسب .

نقل شكسبير عن ابن سعود قوله : « إن العرب يعتقدون أن نكسة الترك ، هو قضاء الله على أمة تدعي الاسلام ، ولكنها أهملت دينها ، وظلمت رعاياها ، وفرطت في تعاليم الدين ، وانتهكت حرماته ، وخالفت كل ما أمر به القرآن ، وقوضت الخلافة ، وقال :

---

* قال التقرير البريطاني : « كان شكسبير في جولة بالصحراء لبحث بعض المشاريع المائية الكويتية . وفي ٢٥ مارس ١٩١٣ سمع بوجود ابن سعود على مسافة ٣ أيام من المجمعه فقرر زيارته .

إلا أنه لم يكن اللقاء الأول في بعض الروايات ، فقد أورد — على سبيل المثال — هـ . ف . ف . ونستون مؤلف كتاب « كابتن شكسبير » أن عبد العزيز التقى بشكسبير في قصر الشيخ مبارك الكبير في مارس ١٩١٠ . وزعم أن شكسبير إستقبل عبد العزيز والشيخ مبارك وإخوة عبد العزيز في منزله (أي منزل شكسبير) وقد تبادل الاثنان الاعجاب . وقال إن عبد العزيز لم يتحدث في السياسة على الغداء ، ولكنه قال : « الحمد لله لا يوجد أتراك بالقرب من الرياض ، بل أقرب موقع لهم هو الأحساء . وأن الانجليز ماداموا أصدقاء ومتآخين مع مبارك فهم أصدقاؤه وإخوته أيضا . وقال إن الأمير الوهابي غادر الكويت يوم ٤ مارس ١٩١٠ الى معركة دبرها مع مبارك خلال الزيارة » . ص ٨٠

وهناك صورة فعلا أخذها شكسبير تجمع بين مبارك وعبد العزيز . وليست هناك مناسبة اخرى معروفة جمعت الثلاثة .

أما عن الاجتماع الثاني فقد جعله المؤلف الصحفي — الذي لا تنضبط رواياته كثيرا — يوم ٧ مارس ١٩١١ حول بئر مصيبة في الثاج . وزعم أن عبد العزيز قال في هذا الاجتماع الذي دام ٣ أيام « نحن لا نكره أحداً أكثر من الترك إلا الفرس لما أدخلوه من بدع في الاسلام » . كما زعم أن اجتماعا عقد بين ابن سعود ورؤساء مسقط وعسير واليمن لبحث المستقبل » . ص ١٠٣ . وهو اجتماع لم يحدث ولا ذكره أي مصدر يعتد به .

** فليس صحيحا مازعمه فيلبي[٣٦] من أن شكسبير كتم عن ابن سعود أنباء هذه المفاوضات ، بل نرجح أن علم ابن سعود بها كان عاملا حاسما في التعجيل بقراره بالاستيلاء على الاحساء ، قبل ان تدخل في التقسيم العثماني — البريطاني .

إن السلطان الحالي ليس خليفة بأية حال ، بل ليس اكثر من دمية ، في يد عصابة سياسية ، لاهم لهم إلا ملء جيوبهم ، وهم على استعداد لخلعه وتعيين غيره ، وفقا لمصلحتهم » .

« وقال : إن الوقت قد حان ليرسم سياسته المستقبلية ، وأنه والحمد لله يسيطر على الوضع في نجد ، ويتحالف مع معظم الرؤساء باستثناء شريف مكة الذي يخشى غزوا وهابيا* ثانيا للحجاز ولذلك تحالف مع الترك » .

« وقال إن آل سعود يريدون استرداد ما كان خاضعا لهم في الخمسة عشر عاما الاخيرة من سيطرتهم القديمة على الجزيرة ، والخطر التركي يأتي من ناحيتين : الشرق من الأحساء ، والغرب من مكة والمدنية .

« ولكن السعوديين لا يستطيعون اخراج الترك من الناحيتين ، فذلك يفوق طاقتهم . فلكي يتمكن السعوديون من حشد قواتهم على الجبهة الغربية ، يجب تأمين ظهرهم باخراج الأتراك من الأحساء والقطيف ، وهناك عنصر آخر لا يقل أهمية وهو أن موارد موانىء الأحساء وخاصة العقير ضرورية لتمويل الدولة التي تعتبر من أشد الدول فقراً .

« وقال (ابن سعود) إن الأحساء والقطيف كانتا من أملاك آل سعود ، والترك أنفسهم ، أعطوا وثيقة لعبد الله بن فيصل من « نافذ باشا » ـ وهو الجنرال الذي قاد حملة مدحت باشا والي العراق عام ١٨٧١ ـ يعترف فيها بأن المنطقة تخص عبد الله ويجب أن تحكم من قبله هو وأسرته . وأبلغني الأمير أن هذه الوثيقة وصلته حديثا** وأنه فور وصوله للرياض ، سيبعث لي بنسخة منها . وقال إنه يبحث عن وثيقة أخرى سمع عنها ، ولكنه لم يستطع العثور عليها . وهي اتفاقية وقعها الكولونيل سير لويس بيلي يضمن فيها باسم الحكومة البريطانية ، الاعتراف بآل سعود كشيوخ القطيف ، وأن ذلك كان نتيجة المفاوضات التي دارت عقب عمليات الأسطول في القطيف والدمام . وكان الأسطول البريطاني قد ضرب هذه المناطق عام ١٨٦٥*** » .

---

* لاحظ أننا في عام ١٩١٣ ولذلك بدأ عبد العزيز يتحدث عن الوهابية

** ربما صدقة ايضا !

*** يقول شكسبير معلقا على هذه النقطة : « ليس لدي ملفات للرجوع إليها للتأكد من صحة كلام الأمير . ولكنني وجدت إشارة في الصفحة ١٥٦ من معاهدات ايتشسون الجزء الثاني عشر ورقم ٢٨ يبدو وأنها تشير الى هذه الوثيقة[٢٧] » . ولكن شكسبير كان يتمتع بخفة دم نادرة في التقارير البريطانية ، عندما علق على إلحاح ابن سعود بوجود صداقة قديمة مع بريطانيا بقوله : ليست لدي الوثائق ، لأحدد بالضبط نوعية علاقتنا في الماضي ، ولا أعرف إذا كان هناك ما يؤيد دعوى الأمير . ولكني على يقين من أننا أنزلنا بالوهابيين عقوبات أكثر من مرة لتدخلهم في مشيخات الساحل والبحرين[٢٨] » .

ومعلوماتنا نحن التي تؤكدها هذه الملاحظات من المسئولين البريطانيين ، أنه لم توقع أية معاهدات خلال زيارة بيلي للرياض . ولكن الاعتراف البريطاني بسعودية القطيف ثابت ، لأن بيلي قرر في تقريره أنه سافر للرياض لبحث عملية ضرب الأسطول البريطاني للقطيف ـ انظر رحلة بيلي في القسم الأول من هذه الدراسة .

وقال شكسبير : إنه فهم أن ابن سعود : « مصمم على إخراج الأتراك عاجلاً أو آجلا ، من الأحساء والقطيف ، وهو يعرف آن ذلك لن يتم إلا بالسيف ، ويعتقد أن الفرصة الحالية هي أنسب الفرص ، ولكنه يريد قبل اللجوء الى السلاح ، أن يتعرف على الموقف الذي سنتخذه » .

وحاول ابن سعود إغراء شكسبير فقال له :

« إن الأتراك يعتقدون بوجود علاقة ما بيننا ، وهذا ما يجعلهم يلحون عليه للتخلي عن استقلاله الكامل ، وقبول لقب عثماني ، وفرمان سلطاني بتعينه واليا على نجد . وتسليمهم أية رسائل أو وثائق . تبودلت بينه أو بين آل سعود والمسئولين البريطانيين » ، وخاصة من النوع المشار اليه (معاهدة بيلي) . وقد رفض ذلك بأسلوب مهذب ، قدر الامكان .. ولكنه يرغب في إعلان أية صيغة من صيغ التفاهم معنا ، لأن **وجود هذا الاتفاق سيخلصه من التهديد التركي** . وهو يثق في قدرته على مواجهة ابن رشيد أو أي حاكم آخر ، أو حتى تحالف هؤلاء الحكام ضده ، ولكنه يعتقد أن انضمام الأتراك لأي حلف ضده ، يهدده تهديداً خطيراً . ولذا فليس أمامه سوى خيارين : إما طلب الحماية البريطانية ، على نسق ما قدمناه للكويت والمشيخات الاخرى . أو أن يعتمد على سيفه وتدبيره » .

ورد عليه شكسبير ، الذي كان ــ رغم عواطفه السعودية ــ يعرف خطط الدولة البريطانية ، وسياستها ، وربما بسبب عاطفته نحو عبد العزيز ، بذل كل جهد ممكن لاثنائه عن غزو الأحساء ، إلا أن الأرجح أو الأكثر معقولية ، أنه نهاه عن غزو الأحساء ، لأن بريطانيا كانت تعتبر الاقليم من المناطق الداخلة في اطار استراتيجيتها ، وسيجري ضمها أو عزلها في الوقت المناسب .

المهم ماذا قال شكسبير ؟ قال بالحرف الواحد حسب ما جاء في تقريره : « وقد أخبرته بلا تردد ، أنه إذا هاجم الأحساء ، فأنا واثق كل الثقة من اننا لن نخاطر **بعلاقتنا مع تركيا من أجله***، **لأننا لم نطعن أبدا في شرعية وجود الأتراك في الأحساء، ولا يمكن أن نؤيده، خاصة إذا ما بدأ هو بالهجوم، دون استفزاز تركي**.

« وقلت له ، إنه قد يتمكن في البداية ، من طرد الأتراك ، حيث أنهم لا يحتفظون بقوات كبيرة هناك ، ولكن ذلك سيعني دخوله في حرب عنيفة ، وعليه أن يقدر العواقب التي ستترتب على فعلته هذه ، فان أي إجراء سيتخذه ضد الأحساء ستتبعه حتما عمليات ردع من الجانب التركي ، قد تتطور إلى حرب في حجم الحرب التي شنتها تركيا في اليمن أخيرا ، وربما تسببت في تقدم الأتراك الى داخل نجد ، مما سيؤدي الى فقدان ما بيده حاليا . فلا مجال للشك في أنه سيتحدى قوة عالمية** يمكنها إذا ما جمعت

---

* كان السير آرثر هرتزل قد بعث لشكسبير بخطاب يقول فيه « اذا كانت حكومة صاحب الجلالة ستساعد ابن سعود فيجب ان يوفق بين مصالحه ومصالح الأتراك لأن سياستنا الثابتة هي دعم الاتراك في آسيا » . (ص ١٨٩ من كتاب كابتن شكسبير لونستن) .

** أي الدولة العثمانية .

أمرها ، أن تسحقه تماما .
وقلت له إنه من الحماقة أن يخاطر بعملية مخاطرها الفادحة ، تفوق أية فوائد محتملة ، عملية تثير احتمالا مؤكداً بخسارة كل ما يمتلكه حاليا ..
« وقلت إنني كصديق له ، لا يمكن أن أتركه يتورط تحت تأثير تقدير خاطيء لضعف الترك ، حتى ولو كانت نتائج حرب البلقان توحي بذلك ، هذه هي الصراحة مهما تكن مريرة على نفسه » .[٢٩]
ولعل القاريء يشاركنا حيرتنا .. هل نصيحة شكسبير بهذه الحرارة ، عن قناعة ، وخوفا على ابن سعود لأنه كان يعرف أن بريطانيا لن تسمح له بالاستيلاء على الأحساء ، وستتفق مع تركيا على ضربه ؟ أم كان يخوفه لكي لا يسبق بريطانيا الى الأحساء ، خاصة وأن مفاوضات تقسيم الخليج كانت جارية ؟!
لا أدري ! ... ولكن المهم هو أن ممثل بريطانيا نصحه بكل قوة بعدم غزو الاحساء .
وكتب شكسبير لرؤسائه في نفس التقرير :
« من كل ما سمعته في مخيم ابن سعود ، لا أشك في أنهم سيقومون بمحاولة ضد الأحساء والقطيف ، ولم يكن حديثهم يدور حول القيام بهذه الحملة ، أو العدول عنها . بل كيف يجعلونها غير دموية . ورأيت أنه من الواجب علي أن أوضح لهم ما سيحدث : انتقام تركي صارم .. ولا دعم من جانبنا بأية صورة للموقف السعودي . وقد كررت ذلك وأوضحته حيثما أتيحت لي مناسبة ، وكلما أثير موضوع الأحساء » .
وتابع شكسبير الحاحه الذي بدأه منذ عامين حول ضرورة الاهتمام بابن سعود :
« إنني أرفع هذا التقرير بأمل أن نوجه اهتماما جديا نحو ابن سعود ووسط الجزيرة . فالرجل يعتبر حاكما من أفضل طراز عربي ، وشخصيته تؤهله لقيادة الجزيرة العربية » .. وأنا لا أرى ظلا من الشك في أن أول خطوة لابن سعود ستكون الأحساء والقطيف .. وعند ذلك سنجد أنفسنا مرغمين للدخول في علاقات مع أمير نجد مهما كان إصرارنا على تفادي ذلك . وفي الوقت الحاضر يتخذ ابن سعود موقف الصديق ، بل يرغب في الارتباط ، الى حد ما ، ولكن ما مدى استعداده لوضع هذه الرغبة في صيغة معاهدة ؟! هذه مسألة لست متأكداً منها ، ولكني أعتقد أن المهمة ستكون شاقة جدا ، إذا كان يعتقد أننا سنساعده في إزالة الترك من الاحساء والقطيف .. إنني اعترف أنه لا توجد أية وسيلة لمساعدته ، ولا حتى دبلوماسيا ..
« ومن ناحية اخرى فان رفض يد الأمير الممدودة الينا ، قد تثير ردة فعل تؤثر على مصالحنا في الخليج ، ربما ليس الان . ولكن في المستقبل القريب بنمو قدرات ابن سعود ، وهي تنمو وستنمو مادام عبد العزيز حيا هو وإخوته .
وفي النهاية لي الشرف أن أطلب مساعدتكم باعادة تقدير شاملة ، لمسألة علاقتنا مع أمير نجد ، لأنني لا أستطيع ان أقاوم خاطراً يلح علي بان الأمر سيصبح ذا أهمية بالغة في القريب العاجل ، ومن ثم فمن مصلحتنا الوصول الى قرار ــ من الآن ــ بشأن علاقتنا مع ابن سعود » .[٣٠]

ومن هذا التقرير* يفهم الآتي :

١ ـ تأكد شكسبير من نية ابن سعود وتصميمه على فتح الأحساء .

٢ ـ اذا افترضنا حسن النية ، فان شكسبير كان مقتنعا بأن « مغامرة » الأحساء مقضي عليها بالفشل ، وانها ستثير ردة فعل تركية ، قد تؤدي الى زوال ملك ابن سعود في نجد ذاتها ، دون أية معارضة من جانب بريطانيا لهذا المصير !

٣ ـ حاول شكسبير بكل المنطق ، الذي يملكه كممثل لصاحب الجلالة ، وبكل الثقة التي يعتقد أن ابن سعود يضعها فيه ، حاول أن يثنيه عن غزو الأحساء ، واعطاه إنذاراً صريحا ليس فقط بأن تركيا قوة عالمية ، بل وأن بريطانيا ، تعترف بشرعية الوجود العثماني في الأحساء ، ولا تقبل تعريض « صداقتها » ، ومفاوضاتها مع تركيا للخطر من أجل مغامرته التي ستعرض البيت السعودي كله للدمار !

٤ ـ يفهم من التقرير ـ أيضا ـ أنه حتى عام ١٩١٣ كانت السياسة الرسمية أو العليا في لندن هي الاستمرار في تجاهل ابن سعود ، ورفض إلحاحه في الدخول في علاقة معه** . أما ماذا فهم ابن سعود من حديث شكسبير فليس من العسير استنتاجه .

ـ فهم أن بريطانيا لا تريده أن يستولي على الأحساء ، هذا الاقليم البالغ الاهمية من ناحية موقعة بالنسبة للخليج وللامارات المرتبطة مع بريطانيا ، وخاصة البحرين والكويت ومشيخات ساحل عمان ، وأنها ترفض اعطاءه أية إشارة يفهم منها عدم معارضتها لعملية غزو الأحساء التي ينتويها .

ـ ولا كان في مصلحة بريطانيا ، وصول الدولة الوهابية للشاطىء ، وإعادة ذكريات النداء الوهابي في آذان المقهورين ، الذين مازالت مجالسهم تروي ذكريات عهد العزة السعودية الأولى ، وأحلامهم تدور حول ظهور المخلص المسلم الذي ينهي قهر المشركين واستبدادهم . ولعل حادثة شيخ عجمان*** الذي بعث يبايع ابن سعود بعد استيلائه على الأحساء . والحساسية حول موضوع قطر . كل هذا يعزز المخاوف البريطانية ، ويجعل الانجليز يفضلون الوجود التركي الهش على الوجود السعودي الديناميكي .

ـ كما فهم ابن سعود أن هناك مفاوضات جارية لتقسيم المنطقة بين تركيا

---

* الذى لا أدري كيف غاب من كل المؤلفات العربية ، ولم يستحق وقفة مطولة من أحدهم لفهم موقف بريطانيا الحقيقي من ابن سعود ؟!

** بل حتى أبريل ١٩١٤ كانت الرسائل البريطانية تتحدث عن « ضيق ابن سعود من عدم اهتمامنا به » انظر تقرير السير مالت . ويقول « مالكولم ياب » إن بريطانيا رفضت تأييد ابن سعود ضد العثمانيين عندما استولى على الأحساء ، وفي اتفاقية الخط الأزرق عام ١٩١٣ اعترفت بريطانيا بالسيادة العثمانية على نجد وفي يونية ١٩١٤ كتب آرثر هيرتزل ممثل حكومة الهند ينصح كابتن شكسبير : « ضع في رأسك السياسة الثابتة لحكومتنا وهي دعم الوجود العثماني في آسيا ، ولن تتخذ أي اجراء معاكس لذلك ، فلا تنطح الهواء ! » . انظر الخليج الفارسي الناشر جامعة جون هويكنز ـ ١٩٨٠ .

*** انظر فصل ابن صباح .

وبريطانيا ، سيكون هو ، إن قبل ذلك ، أحد الاحجار التي سيحركها اللاعبون الكبار ويحددون مصيرها وحجمها ، وستكون محاولة التغيير بعد الوفاق أصعب بكثير .

ــ عرف أن الكابتن « شكسبير » سيبادر بابلاغ رؤسائه . وهؤلاء قد يبلغون الأتراك أو يدبرون أمرا .

ولكن عبد العزيز لم يكن حجرا على رقعة الشطرنج الدولية ، ولا كان من الذين يعلقون مصير حركتهم وبلادهم على التسويات الدولية . وعلاقته مع الانجليز هي الشك المتبادل°م مع ادعاء الصداقة ، وهكذا تصرف معهم عملا بالمثل القائل : « شاوروهن وخالفوهن » .. فسارع بضرب ضربته قبل أن تتاح الفرصة للادارة البريطانية لاتخاذ أي اجراء ولعله ندم على إطلاع شكسبير على نيته ومخططه ، فبادر باصلاح هذا الخطأ بالتعجيل بالغزو ..

وهكذا قبل أن ترسل البيروقراطية البريطانية التقرير من الكويت إلى بوشهر* ومنها إلى الهند فلندن .. ويتخذ قرار يبلغ عن نفس الطريق ولكن بالعكس . بل حتى قبل أن يجمع شكسبير أوراقه ويكتب تقريره** . كان ابن سعود قد ضم الأحساء . وقضى الأمر الذي فيه تستفتيان !

وهكذا تبني الدول .. والعكس صحيح أيضا !

خدع البدوي « أبو عقال » بريطانيا العظمى وجميع ماجوراتها . وكولونيلاتها ولورداتها !

بعد يومين فقط من سفر البريد البريطاني من الكويت ، بتقرير شكسبير عن « نية » ابن سعود في فتح الأحساء ، وصل رسول ابن سعود يحمل رسالة أو « بشارة » الفتح لابن صباح ! (١٧/٥/١٩١٣ ــ ١٣٣١ هـ) ، ومن ابن صباح إلى شكسبير رأسا ، فقد سبق القول بأن ابن صباح موصل جيد للانجليز . ووجد شكسبير نفسه ، يجلس الى مكتبه مرة ثانية ، ليبعث بملحق عاجل لرسالته على ضوء المعلومات المستمدة من رسالة ابن سعود إلى ابن صباح : « بدأ الزحف في ٢٧ جمادي الأول ــ ٤ مايو ١٩١٣ بجيش يتكون أساسا من **المدنيين** . وعلى مسافة خمس ساعات من الهفوف ، دعا عبد العزيز جنوده إلى اجتماع وشرح لهم المتاعب التي عاناه من الأتراك ، واستفتى المشايخ في جواز مقاتلتهم وإخراجهم من الأحساء فأفتوه بذلك ، بل عاهدوه على الموت وراءه*** ، فطلب منهم فرز ثلاثمائة مقاتل فقط » .

---

* بوشهر ميناء على الشاطيء الفارسي من الخليج وكانت مقر رئاسة الخليج (البريطانية)

** كتب شكسبير تقريره بتاريخ ١٥/٥/١٩١٣ واستلموه في ٢/٦/١٩١٣ وابن سعود بدأ هجومه على الاحساء في الرابع من مايو ١٩١٣ واستسلم متصرفها يوم الخامس من مايو .

*** هل يعني شكسبير « الاخوان » بالحديث عن « المدنيين » ؟ الجدير بالملاحظة أن شكسبير لم يلاحظ وجود الاخوان ولا ورد ذكرهم في تقاريره حتى قتل عام ١٩١٥ ــ وربما كان « هاملتون » هو أول من لفت نظر الامبراطورية إلى الاخوان وذلك عام ١٩١٧ ولكن شكسبير سجل قلة البدو ووصف الجيش بأن غالبيته من المدنيين اما قصة البيعة فقد وردت في أكثر من مصدر . وهي الأولى من نوعها مما يدل على التحول الذي طرأ بظهور الاخوان أو كمقدمة لظهورهم .

« وقد عرض ابن سعود على الأتراك الاستسلام الفوري ، مقابل ترحيلهم بسلاحهم ، فاستسلم المتصرف ظهر يوم ٥ مايو . وقد غنم ابن سعود في القلعة ٤٠ ألف ريال و ١٢ مدفعا و ٢ مترليوز وعددا كبيرا من المسدسات والذخيرة » .

« وقد دهش الكويتيون لجرأة ونجاح ابن سعود ، وانقسموا حول الموقف المنتظر من الدولة العثمانية . وإن كانوا يتفقون على أن الترك مشغولون الآن بوضعهم في البصرة ، فلن يتخذوا إجراء في الوقت الحاضر . إلا أنه من المؤكد ، أنهم سيشنون حملة من البحر* على ابن سعود في المستقبل . أما مبارك (ابن صباح) فيعتقد أن الاتراك سيتقبلون الوضع ، وسيعينون ابن سعود متصرفا على الأحساء » .

ومن النقاط الجديرة بالاهتمام أو الملاحظة ، تسجيل التقرير تعاون الشيعة مع النظام السعودي الجديد ، والدور الذي لعبوه في مفاوضات التسليم ، فيقول شكسبير : « إن أعيان الشيعة والمجتهد الشيعي في الأحساء قد حملوا رسائل من المتصرف الى القائمقام يأمره بالتسليم » .

ويختم شكسبير تقريره بعبارة لن ترد في أي تقرير بريطاني عن حاكم عربي خلال الأربعين سنة التالية !

شكسبير الذي كتب مرة في أحد تقاريره إن ابن سعود وعائلته يثقون فيه ثقة لا حد لها : « جعلته يطلعني على المكاتبات التي تصل إليه من الزعماء العرب » ، اكتشف أو تعلم ــ بضربة الأحساء ــ أن هؤلاء السعوديين يطلعونه على ما يريدون ، ويعرفون ايضا كيف يخفون عليه خططهم ، بل ويفاجئونه بها فكتب :

« وأعترف انني أخذت بمفاجأة ابن سعود ، فصحيح أنني توقعت هجومه هذا ، عاجلا أو آجلا ، إلا أنني توقعت أن ينتظر حتى يرى موقف الترك من مطلب الحكم الذاتي الذي يطرحه العرب في البلاد الأخرى . ولكن من ناحية اخرى اعترف بأنه لم يكن في الامكان ، اختيار وقت افضل ولا إنجاز أبرع مما فعل ابن سعود[٣١] » .

لعل شكسبير ظن أن تهديداته أخافت ابن سعود ؟ أو لعله ظن أن ابن سعود سينتظر موقف بريطانيا على ضوء تقرير شكسبير ؟! أو ينتظر تقرير مصيره على مائدة المفاوضات بين العملاقين في اسطمبول ولندن حول مستقبل الخليج والأحساء والوطن القومي للعجمان ! أو سيكتفي بخطبه عن ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة ! ..

رجل التاريخ لا ينتظر حتى يستدعيه اللاعبون الكبار ، ولا يسمح لهم .. بصنع تاريخه ، وتقرير مصير بلاده . ونجاحه في توظيف التناقضات العالمية ، يقوم على قدرته في فرض إرادته على الوفاق العالمي ، وإجبار الكبار على إدخال « معامله » في معادلاتهم .

كانت عملية الأحساء ، عملية عزيزية مائة بالمائة . سعودية القرار ، سعودية التنفيذ ، سعودية الهدف والمصير . فقد دخل الاقليم تحت العباءة السعودية ،

---

* شنوها فعلا من البحرين بتحريض ومساعدة الانجليز .

ونجا من الاحتلال البريطاني ، الذي كان أمرا محتوما إذا ما تأخر عبد العزيز لأقل من عامين ، حتى تنشب الحرب العالمية ، وتحتل بريطانيا كل المناطق التركية في المنطقة ، وما كانت الأحساء لتنجو وقد أخذ العراق كله ! ولو وضعت بريطانيا يدها على نفط الأحساء ، لتأخر انسحابها من المنطقة كلها إلى زمن في علم الغيب ..

قال فيلبي : كان واضحا أن ابن سعود تحرك في الوقت المناسب للاستيلاء على الأحساء التي كانت ستسقط أتوماتيكيا في يد القوة التوسعية البريطانية المتجمعة في البحرين ٣٢ » .

كل هذه الاحتمالات حسمها قرار أتخذ في الوقت المناسب ٦ م ، ونفذ بالجدية اللازمة وهكذا أصبحت الأحساء درة المملكة وقاعدة رخائها ثم ثرائها المفرط .

ورسالة سير برسي كوكس رئيس الخليج بتاريخ ٢٦ مايو ١٩١٣ تشير الى مفاجأة التحرك السعودي للمسئولين الانجليز فقد جاء فيها : « يبدو غريبا أن يندفع ابن سعود الى هذا العمل الخطير ، في نفس الوقت الذي تدور فيه المفاوضات التركية ــ البريطانية* ! وبعد لقاء ودي مع ممثلنا . ولكن مهما بدت الملابسات غير مرضية . فان الظرف كان فرصة ذهبية لابن سعود ، ولم يبق أمامنا نحن والأتراك إلا مواجهة الأمر الواقع ٣٣ » .

« ومواجهة » الأمر الواقع لا تعني قبوله .. وقد رفض الانجليز الأمر الواقع السعودي ، رفضوه في لندن واسطمبول ، بل وفي البحرين ، حيث حاول المقيم البريطاني إعادة الاتراك إلى الأحساء . وكان الأتراك ــ كما رأينا ــ قد استسلموا بسهولة مثيرة للدهشة ولغيظ الانجليز ، وذلك تحت تأثير عوامل عديدة ، منها انهيار الروح المعنوية ، بالهزيمة الشاملة في البلقان وليبيا ، ثم بالفساد الذي دب في صفوف الجيش العثماني من خلال الخلايا والتنظيمات السرية ، وانتشار روح الانحلال والتحلل من الدين أو كما قال سفير بريطانيا في اسطمبول : إن جمعية الاتحاد والترقي تعلم كبار العسكر إدمان الخمر ، وصغارهم العصيان » .

وربما لأن بعض الجنود كانوا معجبين بتدين الجيش السعودي ، يشكون في إسلام حكومتهم « الثورية » التي خلعت الخليفة .

المهم اغتاظ الانجليز لانتصار ابن سعود السهل ، فلما وصلت القوات التركية المنسحبة إلى البحرين : « ساعدهم شخص من طرفكم ، وقدم لهم التسهيلات اللازمة ، وشجعهم على البقاء في البحرين ، وخلق المتاعب** لنا٣٤ » .

وهذا « الشخص الذي من طرفكم » هو المقيم السياسي في البحرين الماجور « تريفور » الذي سلح الأتراك ودفعهم إلى العودة للأحساء ، ويعلق الريحاني على هذا

---

* بل الغريب ألا يندفع .. هل كان المطلوب ان ينتظر حتى تنتهي المفاوضات بتقسيم الخليج بين بريطانيا وتركيا ؟!

** وقال هـ. ف ونستون « إن القوات التركية نقلت من البصرة إلى الأحساء على الباخرة البريطانية جون سكوت » ص ١٣٩ .

العمل بقوله : « أما الحقيقة فهي ان آل خليفة والوكيل الانجليزي ، خشوا أن يتقدم ابن سعود إلى داخل الخليج في فتوحاته ، فأقدموا على عمل كان التسرع فيه أظهر من العداء[٣٥] » .

وهذا تفسير فيه من البلاغة ، والعطف على الانجليز ، أكثر مما يتضمن من الحقيقة والتاريخ ولكن المهم هو تأكيده اشتراك الوكيل البريطاني أو تدبيره عودة الترك لغزو الأحساء . أما أن آل خليفة كان لهم أي دور ، فغير صحيح ، منطقيا : لأن الشيخ عيسى حاكم البحرين وقتها ، كان يحب عبد العزيز ، وثانيا وهو الأهم ، أن الشيخ المسكين لم يكن يملك تحريك سفينه غوص بدون أمر الانكليز ، فضلا عن إعداد حملة تركية .. وكان في شغل عن نفوذ عبد العزيز ، بالعجز عن ممارسة نفوذه على خادم ألماني !

هذا من ناحية المنطق ، أما من ناحية الوقائع ، فقد عثرنا على تقرير لم يصل لعلم الريحاني ـ وقت تأليفه كتابه ـ وهو تقرير المقيم البريطاني في البحرين إلى « كوكس » (رئيس الخليج) يبلغه استياء الشيخ عيسى من استخدام البحرين قاعدة للغزو التركي للعقير ويقترح توجيه احتجاج للترك على استخدام البحرين في العمليات العسكرية » .

فالشيخ إما أنه لا يدري شيئا عن تفاصيل العملية ، ولذلك بعث يحتج على الأتراك ، أو أنه يعلم ، ولكن لا حيلة له ، فاكتفى باستنكار المنكر بلسانه ، عاملا بالحكمة اللبنانية وهي « الحق على الطليان » .. أو المثل المصري : « لم يقدر على الحمار فضرب البردعة » .. أي احتج على الأتراك !

يقول عبد العزيز في رسالته* « وقد تلقينا أخبار ذلك ، الا أننا لم نصدقها ، لأنها لا تتفق مع حكمتكم ونزاهتكم . ولكن بعد بضعة أيام ، انطلق العسكر (التركي) من البحرين الى القطيف ، الا أنهم ردوا خائبين ، ولم يجدوا دعما الا من رعاياكم وأعوانكم . وبعد بضعة أيام تقدموا الى ناحية العقير ، حيث تلقوا درسا قاسيا على يد جماعة صغيرة من رجالنا » .

وفي تقرير للوكيل السياسي في البحرين بتاريخ ٣٠ مايو ١٩١٣ : « ان الضابط التركي أنزل ستين جنديا احتلوا قلعة العقير ولكن باقي القوة رفضت النزول ، مما اضطره للرجوع معهم للبحرين ، تاركا الستين جنديا لمصيرهم . »

وفي رسالة من قنصل البصره الى السير ادوار جراى ، يشير فيها الى برقية من المقيم البريطاني في الخليج ، تتضمن تقرير المقيم بالبحرين عن نورس افندي ، وهو ضابط تركي صحب الجنود الأتراك الذين طردهم ابن سعود من الأحساء ـ الى البحرين واستطاع ان يستحضر مائتى جندي تركي ومدفعين من قطر وتوجه بهم مع ٤٩٧ من العسكر التركي من البحرين في مراكب شراعية حيث نزلوا في العقير . وفي اليوم التالي زحف ابن سعود عليهم على رأس قوة من ثلاثة آلاف عربي ، وقد هرب الترك بعد أن تركوا ستة قتلى في المعركة . وقد اعتقل ابن سعود خمسين منهم مع ضابط ، ولكنه أطلق

---

* رسالة عبد العزيز الى كوكس ١٣ يونيه ١٩١٣ ـ ٨ رجب ١٣٣١

سراحهم بعد أن نزع سلاحهم وذخيرتهم ، وأقسموا له بأن لا يقاتلوا ضده مرة اخرى . ويقال ان مائتين من الجنود ، رجعوا بمدفعين الى قطر ونورس افندي بقى في البحرين . »[٣٦]

وأفادت برقية ثانية أن التعليمات صدرت للقوات التركية في البحرين بكسب الوقت في انتظار وصول المدمرتين التركيتين « حميدية » من عدن و « مرمره » من بومباى . وأن الباخرة التي استؤجرت لنقل الجنود الأتراك من البحرين تتسكع بالقرب من الشاطىء !

ولكن كما قال نابليون : لا يجوز أن نجعل « الاحداث » تغير السياسة ، كذلك لم يكن عبد العزيز بالذي يسمح لمثل هذا الحادث ، بأن يغير استراتيجيته ، وهي فرض الصداقة على بريطانيا ، والتي أصبح الآن في أمس الحاجة اليها ، لا لحمايته من الانتقام التركي فقط ، بل ولحمايته من الغضب البريطاني ، بعد أن اعتبرت بريطانيا أن غزو الأحساء صفعة لها ، بل ويشكل خطرا مباشرا على سياستها العثمانية ، ومركزها في الخليج . وبعد ردة الفعل التي حدثت في المشيخات ، وخاصة بين الحكام الذين ظهروا على أنقاض الدولة السعودية الأولى ، وطعنوها من الخلف ، بالتعاون مع الانجليز ، فقد خشى هؤلاء أن تكون ساعة العقاب قد حانت ، كما تحركت آمال المخلصين ، أو المهملين .. وهذه بعض التقارير التي تعكس الحالة النفسية التي سادت في المنطقة بعد ضربة الأحساء .

« من نائب الملك في الهند :

توفى الشيخ جاسم بن ثاني (قطر) وخلفه ـ على ما يبدو ـ ابنه عبدالله حاكم الدوحة ، بناء على رغبة والده ، ولكن مركزه ضعيف بسبب انشقاق اخوته عليه ، وقد أبلغنا الوكيل السياسي ، أن عبدالله يستعد للسفر في أول أغسطس لزيارة ابن سعود . ويعتقد الوكيل أن ابن سعود سيضغط عليه لاخراج الأتراك (من قطر) أو يستولى هو (ابن سعود) على قطر » ![٣٧]

« أبلغتنا البحرين أن ابن سعود وهو في القطيف خاطب شيخ قطر وطلب منه طرد الحامية التركية من قطر » .

« المقيم السياسي في الساحل (الامارات العربية المتحدة) أبلغ عن اجتماع بين شيخي دبي وابو ظبي* ، وهما ينتميان الى نفس القبيلة ، وشيخ أبوظبي الذي حصل على مركز **ممتاز في البريمي وما حولها منذ جلاء الوهابيين عنها** ، يعتقد أن الخطوة التالية لابن سعود ستكون في اتجاه البوريمي ، ولمواجهة هذا الخطر ، قرر الشيخان حشد بدوهم في سبخة ومطى (هي سبخة مطى التي اعتبرت خط حدود في تسوية الحدود مع ابو ظبي بعد ستين سنة) . وأخذ المبادرة ضد ابن سعود .

« ورغم أنني أستبعد اقدامه على استعدائنا ، الا أن الوضع الحالي في عمان**،

---

* لاحظ أن « القواسم » لم يشتركوا في هذا الاجتماع .

** كانت قد قامت ثورة في عمان ضد السلطان المتعاون مع الانجليز !

يشكل اغراء قويا له باستثماره . وقد نبهت على الشيوخ وحذرتهم من أن يبدأوا هم بالعدوان .. الا أنه سيسعدني أن أطمئنهم حول موقف الحكومة البريطانية تجاه خطوة من هذا النوع من جانب ابن سعود . »٣٨

هل هذه لهجة من « طبخوها سوا » ؟!! أو حتى أصدقاء ودعنا ممن يزعمون أن ابن سعود كان مع الانجليز مثل ابن صباح !

كان ابن سعود يدرك عمق الاضطراب الذي أثاره في مياه الخليج ، والسياسي الذكي هو الذي يهدىء الجو بعد أن يضرب ضربته ، لأن الانفعال ليس لمصلحته ، وخصومه هم الأشد رغبة ، والأكثر مصلحة وحرصا على الاستفزاز ، للانتقام واسترداد ما حصل عليه ، ولذلك استغل ابن سعود تورط بريطانيا في الحملة المضادة على الأحساء لكي يكتب رسالته التي أشرنا اليها وقد بدأها هكذا :

« اخاطبكم من واقع الصداقة القديمة بيننا ، وبموجب المعاهدة التي ترجع لأيام جدي فيصل رحمه الله التي مضي عليها ٥٥ سنة وبقي منها ٥٥ سنة* وأنا أرغب في اقامة ذات العلاقة التي كانت بينكم وبين اجدادي** » .

ويختمها بعد تسجيل التدخل البريطاني : « الحمدلله والشكر له ، أننا لا نعلق أية أهمية على الترك ولا على الجانب المرتبطين به . نعم نحن العرب المسلمون ، سنهب لحماية شرفنا وانتزاع حقوقنا ، وسنبذل آخر قطرة من دمنا ، ونحن نجاهد في ذلك مؤمنين بالله الواحد وكذلك بأخوة المسلمين . سنعمل معا ، يدا واحدة ، لا خلاف بيننا قد وحدنا الهدف وهو الاسلام والاعتزاز بالشرف العربي .

وانطلاقا من شعوري الودي ، فاني أرغب أن أكون معكم بنفس الشروط التي قامت بينكم وبين أجدادي ، فاذا كان لديكم نفس الشعور ، فاننا نتعهد بحماية رعاياكم وصيانة مصالحكم واحترام شرفكم . ونتوقع منكم معاملة بالمثل . فاذا كانت هذه رغبتكم فبينوا لنا ذلك . واذا كانت الظروف قد تغيرت ، والوضع غير ما نتوقع فأخطرونا لنهىء انفسنا لنفس الشعور*** »٣٩ .

وقد استمزج كوكس رأى لندن وكتب الى ابن سعود ينفي الاشتراك في عملية الغزو التركي للأحساء ، أما « بخصوص مشاعر الصداقة التي أبديتموها نحونا ، فهي تلقى التقدير من الحكومة البريطانية**** . ولكنهم لا يرون سبيلا للتدخل في النزاع القائم بينك وبين الحكومة التركية . بالعكس ان الحكومة البريطانية تعتبر أنه من الضروري

---

* وهي معاهدة وهمية من اختراع ابن سعود وبحسابه هذا تكون قد وقعت عام ١٨٥٨ ومدتها مائة وعشرة سنة ! وهي مدة غير معروفة في المعاهدات !

** لو أخذه الانجليز بنص كلماته لعاملوه نفس معاملتهم لأجداده التى تحدث عنها شكسبير في تقريره : « طالما أنزلنا بأجداده العقوبات لتدخلهم في مشيخات الساحل والبحرين » !..

*** وهي تهديد واضح باستعداده لمواجهة الحالة الثانية وهي عدم الصداقة .

**** ٩ يوليو ١٩١٣ في نفس الوقت كانت هذه الحكومة تتفق فيه مع تركيا على انقاض استقلاله وسيادته . في اتفاقية الخط الأزرق .

التزامها الحياد الدقيق بين الجانبين »

وكما نتحدث الآن عن قدرة اسرائيل على خلق تناقض بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية ، فقد نجح ابن سعود في خلق تناقض بين لندن ، والادارة البريطانية في الهند حول الموقف من ابن سعود ، فقد غضبت لندن ، والسفارة البريطانية في اسطمبول غضباً شديداً على ادارة الخليج في حكومة الهند ، اذ أن « الطبخة » كانت قد أوشكت على النضج مع الأتراك وجاءت هذه المفاجأة ، تحمل في طياتها ، ليس فقط واقعا جديدا في الخريطة التي يجري بحثها مع الأتراك ، بل وشبهة اتصال بريطاني !.. فانهالت من لندن رسائل التقريع على الادارة الهندية ، وخاصة على شكسبير الذي كان وجوده في معسكر ابن سعود عشية الهجوم على الأحساء ، قرينة عززت اشاعات الأتراك بأن ابن سعود يعمل بالاتفاق مع الانجليز ، وان غزو الأحساء هو الخطوة الأولى في هذا الاتفاق المزعوم !

من هنا كان انفعال الحكومة في لندن والسفارة في اسطمبول .. فكتب وزير الدولة للشئون الخارجية البريطانية يقول : « كنا نود لو أن شكسبير لم يقم برحلته هذه .. اننا نعتقد أنه أخطأ أو أسيء نصحه بالسفر بعيدا الى هذا الحد . » « وستصدر التعليمات الى حكومة الهند بضرورة التنبيه على الوكلاء السياسيين بأن يلتزموا في المستقبل ، بدقة بالغة ، بالحدود المقررة في الاتفاق « الانجلو ــ تركي » (أي لا يذهبون الى ممتلكات تركيا التي تشمل أراضي ابن سعود !) واللورد « كرو » اذ يقدر الشجاعة الأدبية للموظفين المحليين في التعبير عن آرائهم (مثل اقتراحات شكسبير ونوكس ومذكرة كوكس) الا أنه لا يرى مبررا للالتزام بشيء نحو ابن سعود . وقد صدرت التعليمات لحكومة الهند ببرقية بتاريخ العاشر من يونية تلخص فيها سياسة حكومة صاحب الجلالة بأنها : دعم الحكومة التركية في آسيا الصغرى . وأن نتجنب لأطول وقت ممكن التدخل المباشر وغير المباشر في نجد . وهذا يعني ، بصفة عاجلة ، تقليل الوكلاء السياسيين ــ قدر الامكان ــ من اتصالاتهم بابن سعود . وان حكومة صاحب الجلالة لا تريد في هذه المرحلة أن يصدر قول أو فعل يمكن أن يثير الشكوك سواء لدى تركيا أو غيرها ، بأن حكومة صاحب الجلالة ترغب أو تشجع تمزيق السلطة التركية في آسيا ، وعليه فان اللورد كرو يرى بعد هذا التوضيح أنه لا داعي للابراق الينا مرة أخرى* »[٤٠] !!

---

* ووزعت وزارة الخارجية تعليمة بعنوان : نسخة من التعليمات الصادرة بشأن موضوع العلاقة مع ابن سعود أمير نجد ــ حول زيارة شكسبير لابن سعود أمير نجد ــ بلاغ الى الحاكم العام للهند ، جاء فيها :

« لاحظنا من يوميات المقيم العام للخليج أنه في مارس ١٩١٣ كان الكابتن شكسبير في « المجمعة » التي تقع على بعد مائة وخمسين ميلا خارج حدود الكويت عندما سمع بوجود ابن سعود في المنطقة المجاورة . أرجو أن تبلغوا ملاحظاتي للكابتن شكسبير ، وهي أنه لا يسمح للوكلاء السياسيين (ما لم تصدر تعليمات مباشرة من حكومة صاحب الجلالة) بتجاوز حدود المنطقة المتعارف عليها باسم « الكويت » في الاتفاق الانجلو ــ تركي » (المكتب الهندي ــ ١١ يوليو ١٩١٣) .

الى هذا الحد كانت لندن تريد أن تسد آذانها عن الحاج ابن سعود ، وتأييد موظفي الحكومة الهندية أو قل اهتمامهم بأمر ابن سعود !

وفي الرد على رسالة شكسبير كان الجواب قاسيا :

« علم السير ادوار غراى (وزير الخارجية) بمزيد من الأسف أن الكابتن شكسبير قد قضى أربعة ايام في مخيم ابن سعود ، الأمر الذي ليس له أي مبرر . ولا ضرورة ، في اطار مهمته كممثل للحكومة في الكويت . وهو عمل من شأنه أن يثير الشبهات حول الدوافع والأهداف البريطانية . وقد جاء في رسالة الكابتن شكسبير ، أننا اذا رفضنا صداقة ابن سعود ، فسوف يضر ذلك بمصالحنا ، والسير ادوار غراى ، اذ يرى أنه غير ملزم ببحث مدى صحة هذا « الانذار » . فهو على يقين تام من أن أية نتائج محتملة من هذا النوع ، **لا يمكن مقارنتها بالنسبة للضرر المحقق الذي يمكن أن ينجم من اقامة علاقة بين الأمير وحكومة صاحب الجلالة** . كذلك يقول السير برسي كوكس ان « التدخل التركي ضد ابن سعود وسكوتنا عليه ، سيثير ضدنا مرارة في الخليج » .. انني مخول أن أبلغكم أن السير ادوار غراى ، لا يفهم لماذا يتحتم على حكومة صاحب الجلالة أن تتخذ موقفا . انه يرى أن يكون موقفنا هو الحياد المطلق .

« وعلى ضوء هذا التوضيح ، وما جاء في البرقيات المختلفة يبلغ السير برسي كوكس ، أن يمتنع هو وجميع مساعديه في الخليج عن الاتصال بابن سعود الا في أضيق الحدود الرسمية . ان حجر الزاوية في السياسة البريطانية ، التي لا تحددها الاعتبارات المحلية وحدها* ، هو حماية وحدة الممتلكات التركية الاسيوية[٤١] »

السياسة العليا هي حماية ممتلكات تركيا في آسيا .. ولذا لا بد من قطع كل صلة مع ابن سعود . وهذا ما جاء في الوثائق المكتوبة السرية ، أما ما كان يجري في الأكثر خفاء ، فاننا نميل للقول بأن لندن كانت تدبر اطلاق يد تركيا في القضاء على ابن سعود ... وهذه بعض القرائن :

يقول فلبى ان المسئولين الانجليز نبهوا على شكسبير ألا يشير بحرف الى ابن سعود ، عن المفاوضات التي كانت جارية بين بريطانيا وتركيا لتقسيم الجزيرة . وأن ابن سعود لم يسمع بهذا الاتفاق قبل عام ١٩٣٠ (١٣٤٩هـ) . فقد وقعت الدولتان في ٢٩ يونيه ١٩١٣ (١٣٣٢هـ) اتفاقا لتحديد مصالحهما المتبادلة في الكويت والبحرين والساحل المتصالح ، دون اشارة الى الحسا ، وقد فهم ضمنا ـ يقول فلبى ـ أن الحسا اعتبرت جزء من الامبراطورية العثمانية . وقد وقع عن تركيا « ابراهيم حقى باشا » ، وعن بريطانيا وزير الخارجية سير « ادوارد غراى » على أن يتم التصديق على المعاهدة خلال ٣ شهور ، ثم تأجل هذا الموعد لسبب ما الى ٣١ اكتوبر ١٩١٤ ـ ١٣٣٢ وهو نفس

---

* وهذه صفعة للادارة المحلية ومجموعة كوكس ، فليسوا هم الذين يحددون سياسة بريطانيا . وقد اضطر شكسبير الذي ارتكب خطيئة الاتصال بابن سعود ، ويحتمل اذا صحت نظريتنا عن احتواء ابن سعود له ، أن يكون قد أخر تقريره حتى استولى ابن سعود على الأحساء ، نقول : اضطر لمغادرة المنطقة في اجازة أو تقاعد !

اليوم الذي أعلنت فيه بريطانيا الحرب على تركيا .
« وكانت المفاوضات جارية لعقد اتفاقية ثانية في نفس الوقت الذي كان شكسبير يبدى صداقته لعبد العزيز ، وقد تم التوقيع على هذه ، يوم ٩ مارس ١٩١٤ ــ وصدق عليها يوم ٣ يونيه ، وبنود الاتفاقية تنص على تقسيم الجزيرة العربية بين الحكومتين ، برسم خط مستقيم يبدأ من قطر عبر الصحراء ليلتقي مع خط الحدود بين عدن واليمن الذي رسم عام ١٩٠٢ ــ ١٣٢٠ ، ومعنى ذلك أن كل ما يقع شمال هذا الخط بما فيه الأحساء ، بل ونجد ، داخل السيادة التركية . ولا يعرف كيف كان الأتراك يدبرون استرداد الأحساء ، بمعونة بريطانيا أم بمجرد موافقتها ؟! »

ويعلق فيلبي : «من هنا لا غرابة في أن بريطانيا كانت حريصة على ألا يتسرب لعلم ابن سعود ما تدبره أجهزتها مع عدوه التقليدي ، ولا غرابة ايضا في أن هذه المعاهدة ، وهذا العداء لابن سعود ، قد عزز النظرية القائلة بأن بريطانيا قد تبنت الدور التقليدي لتركيا ، أي دور العدو الرئيسي للنظام الوهابي* . ويمكن القول بأن تصرفات أخرى وقعت خلال الحرب ، وما بعدها ، تعزز هذا الانطباع وآخرها الأحداث الأخيرة في البوريمي[٤٢] »

ويزعم فلبى أن ابن سعود لم يفهم أبدا سر البرود البريطاني تجاهه ، ويرجع السبب في ذلك الى سياسته الاستقلالية . والحق أن كل ما يمثله ابن سعود كان يتعارض ويتناقض مع ما كانت تريده بريطانيا في العالم العربي .

أما ما لم يقله فيلبي ، أو لعله لم يصل الى علمه ! فهو أن بريطانيا كانت قد اتفقت بوضوح مع تركيا على ازالة ابن سعود ، وأنها تفضل تركيا في الأحساء ، ومن ثم لم تعترض ، أو حتى سوف تساعد الدولة العثمانية على استرداد الأحساء . وقد جاء ذلك بوضوح ، في رسالة السفير البريطاني في اسطمبول تعليقا على اتفاقية ٢٦ يوليو ١٩١٣ التي اعترفت « بنجد والحسا » مناطق تركية . قال السفير البريطاني : « ان سياسة بريطانيا قد تحددت في ثلاثة أهداف هي بالتحديد :

١ ــ ضمان حرية انتقال الرعايا البريطانيين وحسن معاملتهم في نجد وخاصة في الأقاليم الساحلية .

٢ ــ تجنب أية تطورات في تلك المنطقة قد تؤدي الى تعكير السلام العام في الخليج ، وأداء بريطانيا لمسئولياتها هناك .

(لم يكن لتركيا أقاليم ساحلية في الخليج الا الأحساء) .

٣ ــ منع أو على الأقل تأجيل أي اجراء قد يؤدي الى انفجار عربي يهدد سلامة الممتلكات التركية في آسيا .

وأكد السفير أن مصلحة بريطانيا تلتقي مع السيادة التركية وليس في الاعتراف بابن سعود ، مشيراً في نهاية رسالته الى النفوذ الألماني في اسطمبول ، وسعي الألمان لتحريض تركيا ضد بريطانيا . قال : « لقد اعترفت حكومة صاحب الجلالة في اتفاقية

---

* ومع ذلك فمازال البعض يحدثنا عن صداقة ابن سعود والانجليز .

٢٦ يوليو الماضي **بالطابع العثماني الكامل لنجد والأحساء** • وفي اعتقادي أن أهدافنا الثلاثة يمكن أن تتحقق في ظل الاتفاقية ، اذا سمحنا للباب العالي بأن يفرض على ابن سعود ، فيما يتعلق باقليم الأحساء إما أن يحكمها كموظف تركي ، أو يسمح للأتراك بادارتها بأنفسهم . فبالنسبة للهدف الأول يحتمل أن يعامل ابن سعود الرعايا البريطانيين معاملة أفضل من معاملة الحكومة التركية ، ويحتمل العكس . بالنسبة للهدف الثاني ، أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نتعامل مع حكومة اعترفت بمركزنا الخاص في الخليج **اذا ما استطاعت هذه الحكومة أن تفرض سيطرة فعالة على الأحساء** . فاذا انتقلنا للهدف الثالث ، نجد أنه اذا كان من المستحيل التنبؤ بما سيقع من أحداث في العالم العربي ، الا أنني أعتقد أن فرصة اضطراب عام لن تقل ، بل ستزيد ، اذا ما استطاع حاكم واسع النفوذ في مثل مركز ابن سعود ، أن يدعم سلطته وينشر سلطانه وخاصة الى الشاطىء .

« لقد وقعت حوادث عدة ، تعزز شك الحكومة التركية في أننا نريد التعامل مع ابن سعود ، فمثلا قبل شهر واحد من هجوم ابن سعود على الأحساء ، كان الوكيل البريطاني بالكويت يزوره في الداخل . وفي مطلع هذا العام زاره موظفون بريطانيون آخرون ، مما أدى الى صدور التعليمات الى حقي باشا للشكوى في لندن .

« وفي مارس الماضي فشلت مبادرة من الباب العالي للتفاوض مع ابن سعود بواسطة عمر فوزي ، بسبب برود شيخ الكويت المحمية البريطانية .

« اعتقد أنه بعد اتفاقية يوليو الماضي ، يجب أن نتجنب أي عمل قد يفسر على أنه دعم لابن سعود ضد الحكومة العثمانية . انني أرى أن نترك الطرفين معا ، طالما يحاولان حل المشكلة بالدبلوماسية الشرقية ، ونتدخل دبلوماسيا ، اذا ما اتجهت تركيا الى حلها عسكريا ، الأمر الذي أكد لى طلعت بك أنه مستبعد . وأعتقد أن الباب العالي سوف يستخدم كل وسيلة ممكنة للاعتراف باستقلال ابن سعود في نجد ، **واسترداد السيطرة على ساحل الأحساء** » .

التوقيع : لويس ماليت[٤٣]

بريطانيا لم تفاجأ ، فقط ، بضربه الأحساء ، بل رفضت قبولها واستمرت حتى عام ١٩١٤ تخطط وتتصرف على أساس استرداد تركيا لها .. وهذه الوثائق تثبت ، بما لا يترك مجالا لأي تفسير آخر ، أن ابن سعود استرد الأحساء ، ضد الارادة البريطانية ، وأنه حتى نشوب الحرب العالمية الأولى كان خارج الاستراتيجية البريطانية ، بل يشكل عنصرا معاكسا لها ، وأن زيارة شكسبير واتصالات كوكس ، كانت اجتهادات محلية واذا كانت نظرة الادارة المحلية قد أثبتت أنها أكثر انطباقا على تطورات الأحداث وأكثر نفاذا في اكتشاف أهمية ابن سعود ، وادراك أنه هو القوة الصاعدة ، فان هذا لا يعني أن القيادة البريطانية في لندن كانت مخطئة . بالعكس كانت أكثر حرصا على المصالح الامبراطورية ، وأكثر وعيا وأبعد نظراً . فان ظهور قوة جديدة لا يعني ضرورة

محالفتها ، وانما المهم أولا تحديد مدى تجاوبها مع المصالح الاستراتيجية للطرف المعني . والبيت السعودي الذي تنبأ بقوته وصعود نجمه ، كوكس وشكسبير وفيلبى ، هو قوة معارضة تاريخيا وواقعيا للمصالح البريطانية الامبراطورية في المنطقة . وهو المزاحم الطبيعي لأي نفوذ أجنبي هناك . طالما ظل متمسكا بالرسالة ولم يتحول الى مشيخة كبيرة الحجم . وما الصراع على ولاء القواسم وسلطنة عمان في القرن التاسع عشر الا احدى صور هذا التناقض ، ولا جدال في أن البيت السعودي الذي بعثه عبد العزيز قد لعب دوراً أساسيا في تصفية الامبراطورية البريطانية في الجزيرة والخليج بل والوطن العربي ، مهما اختلفت تفاسيرنا حول الصيغ التي تمت بها هذه التصفيات . وكل ما ضمه عبد العزيز ووحده مع نجد ، كان هدفا محتملا لبريطانيا ، بل ويدخل دوليا في دائرة النفوذ البريطاني من عسير الى الحجاز (على الاقل الشواطىء) والأحساء .. الخ . ولنا أن نتخيل واقع الجزيرة والخليج لو حذفنا الظاهرة السعودية وعبد العزيز من تاريخ النصف الأول من هذا القرن . ومن هنا نقول ان « جهابذة » لندن ــ كما كان فيلبى يسميهم ساخرا ــ كانوا أكثر حكمة وصوابا في رفض ابن سعود وعدائه ، وتفضيلهم التعامل مع السيادة العثمانية الوهمية ، أو مع شيوخ متناحرين ، لا طموح لهم أبعد من حدود مشيختهم ، ولا استمرارية لسياستهم بعد وفاتهم . هذا اذا كانت لهم سياسة .

بينما كانت حكومة الهند والوكلاء في الخليج أكثر واقعية وميكافيلية ، عندما قالوا ان تجاهل ابن سعود لا يفيد ، بل لعله يقويه ويطلق يده أكثر ضد بريطانيا ومصالحها . ومن ثم لا بد من التعامل معه بقصد « تصفيته أو احتوائه » .. ولذا يعود سير برسي كوكس رئيس الخليج الى الالحاح فيكتب الى لندن قائلا :

« القضية ليست رغبتنا في التدخل في شئون وسط الجزيرة ، لأن ابن سعود موجود الآن على الساحل ، والباب العالي لن تكون له سيطرة على تصرفات ابن سعود لفترة طويلة ، ومن ثم سيكون بوسعه أن يسبب ازعاجا لعمان والساحل المتصالح وقطر . فبالنسبة لنا هي قضية تهديد لمصالحنا في منطقة الخليج ، فاما أن « نخصيه » أو نحمي أنفسنا ضده . وبالطبع ليس هناك من سبب منطقي يجعلنا نعرض مصالح محمياتنا للخطر لمجرد أن الباب العالي غير قادر على اخضاع واحدة من محمياته ! فاذا شاركتني حكومة الهند الرأي فأرجو أن تطلب من حكومة صاحب الجلالة اعادة النظر[٤٤] » !

وقد عزز نائب الملك في الهند هذه الرسالة برسالة منه قال فيها :

« من الواضح نظراً لعلاقة ابن سعود بشيخ القطر (قطر) وأبناء الساحل المتصالح ، أنه أصبح عنصراً أساسيا في سياسات الخليج الفارسي وبذلك يكون قد اقتحم دائرة نفوذنا ومصالحنا . وطالما حصر ابن سعود نفسه في الأحساء ، فمن الممكن تجاهله دون مخاطر . ولكن هذه السياسة ــ في رأينا ــ لا يمكن اتباعها حاليا ، حيث تقوم احتمالات بتدخله في قطر ومع مشايخ الساحل . ومن الممكن أيضاً في عمان حيث يمكن أن تعطيه

الثورة هناك فرصة ضم أجزاء من أراضي مسقط .. ولذلك لابد أن نقرر من الآن ما إذا كنا سنسترضيه أو نقصيه . وإنذار ابن سعود ، اذا ما تدخل في حالة قطر ، يجب أن يتبعه عمل عسكري في حالة تجاهله التهديد ، وهو ما لا نريده ، ومن ثم فبدون تفاهم ودي مع الأمير ، فاننا سنجبره على اتخاذ موقف عدائي منا ، سيكون له أثره السيء على كل مشايخ الساحل .. **إننا لا نقترح معاهدة ولكن على الأقل تبادل الآراء معه** ـ وقد أبدى نحونا أكثر من رغبة ودية ـ لافهامه اننا نتوقع منه الا يتدخل في الأراضي المرتبطة معنا بمعاهدات ونحن لا نرى سببا يجعل مثل هذه الخطوة ، مثيرة لشكوك الترك[٤٥] » .

وقررت حكومة الهند ـ التي تواجه الخطر السعودي في الموقع ـ كسب الوقت الى أن يتغير موقف لندن ، فأوعز نائب الملك الى رئيس الخليج ليكتب لابن سعود رسالة فتح حوار : « نريد أن نعرف ما هي النقاط التي تريد أن توضحها في علاقتك مع الحكومة البريطانية . وما هي الصيغة التي تريد أن تعبر بها هذه الحكومة عن صداقتها ، واذا شئت فانه يسعدني الاجتماع بك لبحث ذلك . والى أن يتم هذا اللقاء أؤكد لك أنك إذا امتنعت عن أي عمل من شأنه أن يثير الاضطراب في الوضع القائم أو خلق قلاقل بين عرب المشيخات التي يرتبط حكامها بحكومة صاحب الجلالة بما في ذلك مشيخة قطر التي اعترفت حكومتا تركيا وبريطانيا باستقلالها* اخيرا . فان الحكومة البريطانية ستواصل سياسة الصداقة التي قامت في الماضي[٤٦] » .

وبذلك يمكن القول بأن موقف الانكليز كان في لندن هو رفض ابن سعود والاتفاق مع تركيا ضده . وفي المنطقة هو التوجس والخوف والسعي نحو تطويقه ..

فلا ارتباط ولا صداقة ..

ومن الجانب السعودي ، فان استمرار ابن سعود في مطاردة الانجليز بطلب الود ، لم يمنعه من الاتصال بالأتراك لتهدئة أعصابهم ، وإثارة أعصاب الانجليز .. فقد كانت مصلحته تتعارض مع وضع الأتراك في مأزق كرامة يحتم عليهم المواجهة العسكرية ، إما مباشرة أو بواسطة الشريف وابن رشيد والسعدون . الخ خاصة بعد الاتفاق أو الوفاق التركي ـ البريطاني .

كتب ابن سعود الى تركيا أنه اضطر الى احتلال الأحساء ، بناء على استغاثات الأهالي ، وأنه مستعد لقبول منصب والي الأحساء . وكتب القنصل البريطاني في البصرة الى وزارة الخارجية في ٣١ مايو ١٩١٣ : « علمت أن رسالة وصلت من ابن سعود ، أكد فيها ولاءه وإخلاصه كتابع للسلطان . ولكن إذا حاولت الحكومة التركية استرداد الأحساء ، فهو على استعداد لمقاومتها[٤٧] » .

كان ابن سعود يعرف أن الامبراطورية في النزع الأخير ، وقد عرفنا رأيه في الأتراك ، حتى خلال محادثاته مع شكسبير ، بل وفي حواره العنيف مع الباشا

---

* هذا هو الاستقلال الذي تمنحه تركيا .. وثيقة مخالصة للاستعمار الأوروبي !

التركي* . ولكنه أراد أن يجرد الأنكليز من أقوى ورقة في يدهم ، وهي اللعب على تصعيد التناقض التركي ـ السعودي ، خاصة ، وأن السفينة « جون أوسكوت » مازالت تتسكع في مياه الخليج ، ببقايا الحامية التركية المطرودة من الأحساء ، والمفاوضات دائرة في لندن واسطمبول ، وطلعت بك يثرثر في السفارة البريطانية عن عودة النفوذ التركي الى الأحساء ونجد .. فلا بأس من مغازلة الأتراك ، مادام قد أصبح مفهوما أن الأحساء قد استقرت والى الأبد تحت راية السعوديين !.

وفعلا نجح الطعم !.. فما أن أبلغ وزير خارجية تركيا السفير البريطاني في اسطمبول بنية تركيا في الاعتراف بالأمر الواقع وتعيين ابن سعود والياً على الأحساء وذلك في أول ديسمبر ۱۹۱۳ حتى بادرت بريطانيا بعقد اجتماع مع ابن سعود في نفس الشهر ، اذ التقى به في العقير كل من شكسبير ، والوكيل البريطاني في البحرين ، ربما ، لأن بريطانيا لم تعد تأمن لشكسبير إذا ما انفرد به عبد العزيز !

ومع بداية عام ۱۹۱٤ وتصاعد النفوذ الألماني في اسطمبول ، نشطت الاتصالات بين عبد العزيز والأتراك ، وحاولت بريطانيا أن تفرض نفسها قبل أن تفلت الخيوط من يدها . ففي يوم واحد (۹ مارس ۱۹۱٤) كان شكسبير يصل الى الرياض ، والخارجية البريطانية تقدم مذكرة الى حقي باشا الصدر الأعظم احتجت فيها على شروط التسوية التي تعرضها تركيا على ابن سعود ، وتعرض وساطتها وتستعرض عضلاتها بوضع فيتو على استرداد الأحساء من ناحية البحر ..

أما شكسبير فكتب من الرياض في تقريره يقول : « وصلت الى الرياض في التاسع من مارس ۱۹۱٤ فوجدت حالة استعداد نشطة لحشد القوات من جانب ابن سعود ، وقد بقيت معه حتى الخامس عشر (من مارس ۱۹۱٤) حيث أتيحت لي أكثر من فرصة لمعرفة شعوره وأهدافه ، **ويمكن أن أضيف أنه نظراً للعلاقة الحميمة التي تربطني بابن سعود وجميع عائلته ، فغالبا ما يطلعني على بعض الخطابات الخاصة التي تصله من بعض الرؤساء العرب مثل السيد محمد الأدريسي والامام يحيى وابن شعلان ، كبير شيوخ عنيزة . وغيرهم ، فضلا عن مراسلاته مع الأتراك .**

« وكان ابن سعود على علم بوصول قوات تركية الى البصرة ويخشى أن يكون هدفها هو النزول في موانىء الأحساء ولذا أصدر قرارا بالتعبئة العامة . ورغم أن هذا القرار لا ينطبق إلا على ثلث المقاتلين الموجودين في كل قرية ، إلا أنه تمكن من حشد ما بين خمسة آلاف وسبعة آلاف مقاتل راكب حسن التجهيز . ويمكن أخذ فكرة عن الكفاءة العسكرية لابن سعود ، من حقيقة أن بعض هذه القرى يقع على بعد مائة وخمسين ميلا من الرياض ، ومع ذلك تمت التعبئة خلال ١٤ يوما . وأرسل ألف رجل الى قرى الساحل والقطيف بالذات خلال الأسبوع الأول .

« وقال لي ابن سعود إنه اضطر لاتخاذ استعداداته هذه ، لانه لا يستطيع المخاطرة

---

* أنظر فصل الأتراك ..

بترك الترك ينزلون على الساحل بدون مقاومة . وقال إنه لا يضمر أية نوايا عدوانية ، ولكنه ينوي الدفاع بشراسة . وكان قلقا للغاية حول معرفة ما هو الرد الذي سيتلقاه من الوكيل السياسي (البريطاني) في البحرين على خطابه المؤرخ أول ربيع الثاني ١٣٣٢ (٢٦ فبراير ١٩١٤) . وما هي الخطوات ، إذا كانت ثمة خطوات ، التي ستتخذ من قبل حكومة صاحب الجلالة في حالة مهاجمة القوات التركية للساحل . ولكن وضعي لم يسمح لي إلا بنصحه بالصبر ، وتذكيره بأنه في أية مفاوضات مقبلة ، يجب ألا ينسى ما وعدنا به خلال اجتماعه معي والماجور تريفور في العجير في ديسمبر الماضي (١٩١٣) أي فيما يتعلق برؤساء إمارات الساحل ، والتجار البريطانيين على الساحل . فقال إنه لا ينوي أن يربط نفسه طويلا بالترك ، طالما لديه أية فرصة للوصول الى اتفاق مع الحكومة البريطانية ، أو على الأقل الحصول على دعمها أو مساعيها الحميدة خلال مفاوضاته مع الترك . ولكنه لا يستطيع الانتظار لأجل غير محدود ، ويبقى محتفظا بهذه الحشود العسكرية ، فاما أن يحصل على نوع من التأكيدات أو سيكون مضطرا لاجراء ترتيباته الخاصة (مع الترك) لكسب الوقت » .

واستطاع ابن سعود أن يلعب على التناقض البريطاني ـ التركي .. باثارة مخاوف الانجليز من اشتراط الأتراك إخراج الأجانب من الأحساء .. فقال لشكسبير إن الأتراك سيطالبون بشرطين : الأول إعادة حامياتهم السابقة لمدن الأحساء . والثاني طرد الأجانب ، ولما كان يستحيل عليه أن يقبل الشرط الأول ، فانه بقبول الشرط الثاني ، سيقنعهم بالتنازل عن الشرط الأول . وإن كان يعرف أنه بذلك يغلق الباب أمام أية مفاوضات مقبلة مع بريطانيا ، رغم تطلعه الشديد للتفاهم معنا » ! [ولكن ما باليد حيلة يا شكسبير !] .

ويحتمل أن يكون ابن سعود هو الذي أوحى لشكسبير بهذه الأخبار التي لم ترد في أي مصدر آخر عن قيام جامعة أو تحالف عربي بين « ابن سعود والامام يحيى والأدريسي وابن شعلان وشريف مكة، في العام الماضي (١٩١٣) باستثناء ابن رشيد لأنهم اعتبروه غلاما لا رأي له ، وأساس هذا التحالف هو اتفاقهم على حل خلافاتهم بالتراضي أو التحكيم ، حيث أن الحرب بينهم تضعفهم جميعا ضد العدو المشترك (الترك) وفي حالة الاعتداء من جانب الباب العالي على أي منهم فسيتحد الجميع في مقاومة الباب العالي . ولست أدري ـ يتساءل شكسبير ـ هل تعلم الحكومة التركية بهذا الاتفاق أم لا (ثم يرد على نفسه) ولكنني أعتقد أنها تعرف ، ولذلك كانت في عجلة من أمرها لتزويد ابن رشيد بالأسلحة .. الخ » .

وقال شكسبير في تقريره : « إنني أعرف أن حكومة صاحب الجلالة ملتزمة بسياسة حماية ودعم « تركيا قوية في آسيا » ، ولكن لسوء الحظ فان الحكومة التركية لا تدري شيئا عن حقيقة وضعها في الجزيرة . إن أقرب مثال لحالة الترك هو وضعنا نحن في الصومال على أسوأ عشر مرات . أنا لا أعتقد أن الترك قادرون على شيء في الجزيرة لعدة سنوات مقبلة . وصحيح أن العرب لا يستطيعون الاتحاد طويلا . إلا أنه في الوقت

الحاضر – على الأقل – ومع تدهور نفوذ الأتراك بسبب طرابلس (ليبيا) والبلقان .
وأهم من ذلك بسبب أن العرب ، وجدوا قائداً تعلو هامته ، هامة أي قائد آخر ..
ووضع فيه كل الشيوخ ثقتهم ، ويستشيرونه في كل شئونهم ، وخاصة علاقتهم مع
الترك (!!) لذلك أعتقد أنه اذا ركبت تركيا رأسها ، وقررت محاربة ابن سعود من أجل
الأحساء ، فستتوحد كل قبائل الجزيرة ، ضدها .. وستكون النتيجة هي طرد الترك
من الحجاز واليمن وعسير وإقامة الجزيرة العربية المستقلة في شكل اتحاد كونفدرالي
فضفاض ، يرأسه ابن سعود ، أما مكة والمدينة فستكونان تحت السلطة المطلقة لعائلة
الشريف بموافقة ابن سعود ... أعترف بأنه من الصعب التنبؤ بالمستقبل ، ولكنني
سمعت هذا الموضوع يناقش عدة مرات في الجزيرة ، ومن كثير من الرؤساء ، الى حد
أنني لا أستطيع أن أتفادى استنتاج أن الحكومة التركية تركب في الوقت الحاضر
سياسة هوجاء في الجزيرة[٤٨] » .

وسيبقى لغزا تاريخيا ، موقف شكسبير هذا ، الذي يمكن وصفه بأنه تضليل
للحكومة البريطانية ، فلا أساس لهذا الاتحاد المزعوم ، ولا كان الحكام العرب ، قد
اعترفوا لابن سعود عام ١٩١٤ بالزعامة بما في ذلك شريف مكة ؟!.. ولولا ان هذه
الحماسة أصابت كل من بعثته بريطانيا الى الرياض ، وأن السعوديين لم يكن لديهم
وقتها لا النفط ولا المال ، لقلنا إن ابن سعود اشترى شكسبير وجعله يكتب هذا التقرير
الجدير بصحيفة لبنانية* . والمثير حقا هو تأمل كيف تحول شكسبير خلال عام واحد من
إنذار ابن سعود بأن صدامه مع تركيا سيعرضه لخسارة الرياض ، الى التنبؤ بأن هذا
الصدام سيؤدي الى فقدان تركيا للجزيرة العربية كلها !

نجح الفتيل الذي زرعه ابن سعود بين الأتراك والانجليز ... فقالت المذكرة
البريطانية لحقي باشا (٩ مارس ١٩١٤) : « إن ابن سعود بسيطرته على القطيف
والعجير وساحل إقليم الأحساء ، قد دخل في المجال السياسي والتجاري للخليج ،
وأصبح من المستحيل تجاهله ، على ضوء المصالح الهامة لبريطانيا هناك ، مثل
استمرار السلام البحري ، ومكافحة القرصنة ، وتجارة السلاح ، وقضايا الغوص
والعبودية .. إن الحاجة تفرض علينا اقامة علاقات مع شخص يمارس سلطة فعلية ،
ولما كان الترك قد جلوا عن الاقليم فان علينا أن نتعامل مع ابن سعود ، وقد أسعدنا
شرح الوضع للأتراك (سنرى سر هذا الموقف الجديد) .

« وقد اتسمت مخاطباتنا مع الترك ، من جانبنا ، بالصراحة الواضحة والموقف
الودي ، وانطلقت بدافع الرغبة في التصرف معهم بروح الثقة والتعاون . وقد تسلم
حقي باشا المراسلة بارتياح ورد بأن الباب العالي دخل فعلا في مفاوضات مع ابن
سعود ، وإذا ظهرت الحاجة الى وساطتنا فسيستعين بها . ورغم الاستجابة الودية من

---

* وهناك احتمال آخر : ضعيف بالطبع ، ولكن لجأنا اليه كتفسير لموقف شكسبير العجيب ، وهو أن
يكون ابن سعود قد عرض رسائل مزورة على شكسبير لاقناعه بمبايعة العرب له ، وهو احتمال ضعيف
جدا .

سعادته ، فقد علمنا من مصادر محلية (في الخليج) موثوق بها أنه في خلال تبادل هذه المراسلات ، أو قبلها مباشرة كانت الحكومة العثمانية تعد شروطا لاتفاقها مع ابن سعود بعضها موجه بوضوح ضد الحكومة البريطانية ، والمصالح البريطانية ، وهذه الشروط كما تفيد معلوماتنا طلب من ابن سعود قبولها كثمن لاستقلاله المحدود .. وهي :

١ ــ إعادة السماح بوجود الحاميات التركية في الاقليم كما كانت في السابق .

٢ ــ تعيين القضاة بفرمانات من السلطان .

٣ ــ يدفع ابن سعود ٣٠٠٠ ليرة تركية سنويا .

٤ ــ إحالة جميع المراسلات مع الدول الأجنبية أو ممثليها للسلطات التركية للتصرف فيها .

٥ ــ إخراج جميع التجار والوكلاء الأجانب من الاقليم .

٦ ــ أخذ تعهد من ابن سعود بألا يعطي أي امتياز لأية شركة أجنبية من أجل سكة حديد أو خط سيارات» .

« وقد أبلغ وزير الخارجية (التركي) سفير صاحب الجلالة (البريطاني) في أول ديسمبر ١٩١٣ أن الحكومة العثمانية تنوي الاعتراف بالأمر الواقع بتعيين ابن سعود متصرفا على الاقليم » . إن الشروط الثلاثة الأولى تتعلق بأمور لا تهمنا حاليا . ولكن اذا صحت المعلومات عن الشروط الثلاثة الأخيرة فاننا نحتج بشدة وخاصة على البندين الرابع والخامس .. إن التفسير الوحيد لهذه الشروط ، هو أن الباب العالي يشك فعلا في التأكيدات التي قدمناها عن استعدادنا للتعاون ، ومدى المتاعب التي نعانيها بسبب الوضع غير المريح لعلاقاته مع ابن سعود ، إننا نعترف اعترافا كاملا بأن نجدا اقليم عثماني ، ولكننا أوضحنا الأسباب التي تجعل من غير الممكن تجاهل ابن سعود* حيث أنه يحتل الساحل ، وليس هناك أسرار حول مطالبنا ، إن ما نريده منه هو احترام مصالحنا بالآتي :

١ ــ أن لا يتدخل في أراضي أو سياسة المشيخات العربية في الخليج ، بما فيها الساحل المتصالح (الامارات المتحدة حاليا) وقطر .

٢ ــ أن يتعاون ، كسائر شيوخ الجانب العربي من الخليج ، في حماية الهدنة البحرية ومحاربة القرصنة وتجارة السلاح .

٣ ــ أن يسمح بدخول التجار البريطانيين في القطيف ومعاملتهم المعاملة اللائقة .

« وليس في هذه المطالب ما يمكن أن يثير أي اعتراض شرعي من جانب الباب العالي أو ابن سعود .

« ليس لنا رغبة في توريط انفسنا ، ولكن الشروط التي سمعنا أن الباب العالي يريد فرضها على ابن سعود ، لا تعبر عن صداقة نحونا ، ولا يمكن قبولها ، ولذلك اضطررنا لاثارة الموضوع » .

---

* وهذا بعدما اعترفت أو قررت تركيا عدم تجاهله .

وكما يحاول ابن سعود استخدام الورقة البريطانية ضد التركية ، والعكس ، فان بريطانيا تلعب الورقة السعودية ضد الباب العالي ، بهدف الحصول على إلغاء الشروط الموجهة ضدها ، فهي تطرح أو تجدد الاعتراف بعثمانية نجد وحاكم نجد ،وفي الوقت نفسه تلوح باستعدادها لدعم مطالب ابن سعود في الأحساء ، فتقول وزارة الخارجية البريطانية :

« نحن أساساً مهتمون بحذف الشروط الثلاثة الأخيرة ، ولكن يسعدنا أيضا أن نرى تسوية مرضية يحصل عليها ابن سعود من الباب العالي ، فيعترف به بحكم منصبه ، متصرفا للأحساء . ومن خلال التعاون الودي مع الحكومة البريطانية ، لحفظ السلام والنظام في الخليج يوافقون (الأتراك) على الامتناع عن الأعمال العدوانية من البحر ضد ساحل الأحساء بدون استشارتنا مسبقا ، واعطائنا فرصة للوساطة اذا كانت ممكنة* » ..

إذا أرادت تركيا ضرب ابن سعود فيجب أن يكون ذلك بمشورة وموافقة بريطانيا ، القوة الفعلية في الخليج ، والثمن المعلن ــ حتى الآن ــ هو إلغاء شروط إبعاد بريطانيا عن إقليم الأحساء .. وإلا ففيتو على الغزو الساحلي ، والمطالبة بالاعتراف بابن سعود حاكما للأحساء ، والاتصال به ...

وقد حاولت بريطانيا عرقلة المفاوضات بين تركيا وابن سعود .

ومعروفة قصة التوصية التي بعث بها ابن صباح لابن سعود ينصحه بعدم الاتفاق مع الأتراك ، كما انسحب ابن صباح من المفاوضات مع أنه كان طرفا مرغوبا فيه من الجانبين .. وعلى يخته سافرت لجنة المفاوضات التركية بتعليمات ــ على ذمة القنصل البريطاني في البصرة ــ « بالوصول الى تسوية بروح ودية[٤٩] » ...

ونفس نصيحة ابن صباح - أبلغها المقيم البريطاني لابن سعود ، مرة شفهيا عن طريق رسوله يوسف « لا أرى أن هناك حاجة عاجلة للوصول الى تسوية (مع الأتراك) وأنصح بالتأخير » . ومرة في رسالة خطية الى ابن سعود : « لا أرى أي داع للعجلة وأنصح بالانتظار[٥٠] » .

وكان ابن سعود يمارس حرب الأعصاب على السلطات البريطانية ، بابلاغها أخبار الاتصالات التركية وتأكيده أن الاتفاق مع تركيا سيكون ضد مصالح بريطانيا .. فيكتب المقيم البريطاني في البحرين ، الذي كان قد دبر عودة الأتراك الى الأحساء ، ثم انقلب الى متحمس للتعامل مع ابن سعود ، يكتب الى قياداته :

« تسلمت رسالة من رسول خاص لابن سعود ، ومنها عرفت أنه يتوقع مقابلة بعثة تركية في مكان ما حول الكويت . ورسوله قادم لمناقشة الموضوع معي غداً ، ولكني لن أكون قادراً على تزويده بأية تعليمات مرضية لابن سعود . وأرى أنه ما لم يتوفر شيء محدد ممكن إبلاغه له ، فانه سيرتب أموره مع الحكومة التركية ، ومثل هذا الاتفاق

---

* وزار الخارجية البريطانية ٩ مارس ١٩١٤ .

سيكون على الأرجح معاديا لمصالحنا[٥١] » .

وكان ابن سعود قد كتب له : « تسلمت رسالتك وفهمت ما أشرت اليه وخاصة قولك إن الحكومة البريطانية تبذل جهودها لعمل اتفاقية مع الحكومة التركية وإن المباحثات متقدمة . ولذلك ليس من المستحسن اتخاذ خطوات مستقلة من جانبي . أرجو أن أوضح التزامي بذلك .. وأنني لن أغير ما اتفقت عليه معك شفويا ، وإن شاء الله تسمع من الحكومة البريطانية ما يسر القلب .. وقد سمعت بوصول المبعوث السياسي التركي ، الذي جاء رأساً من اسطمبول ، واسمه البمباشي سيد عمر فوزي بك المارديني . كان والياً للبصرة ، وهو حاليا والي سوريا ، ومعه خطابات ورسائل ، وينوي أن يسوي الموضوع بيني وبينهم . وسأراه قريباً باذن الله . ولكني لم أشأ أن أقابله قبل إبلاغك . أنت تعرف أنني ملتزم بكلمتي ومصمم على ما يقربني من صداقة الحكومة البريطانية ، ويوقف أو يحد من اقترابي من الترك ، **إلا إذا أعجزني الأمر وفي هذه الحالة سأبحث عما فيه الخير لي**[٥٢] » .

وقد رد عليه ــ كما قلنا ــ بأنه « لا داعي للعجلة » وهذا يفسر رسالة ابن صباح ، كما كتب الماجور الى رئيس الخليج يقول إن ابن سعود يطلب مقابلته ، ولكنه لا يستطيع ذلك دون موافقة السلطات العليا « ونظراً للاتصالات الجارية حاليا في لندن (بين تركيا وبريطانيا) فانني أعتقد أن مثل هذا اللقاء سيكون محل اعتراض[٥٣] » . « وانطباعي أن ابن سعود ينوي الذهاب والاجتماع بالمسئول التركي على جميع الأحوال . ألتمس تعريفي ما إذا كان بوسعي الاستجابة لرغبة ابن سعود ومقابلته في مكان ما » .

وقد تم اللقاء مع الوكيل السياسي في الكويت الكولونيل غراي .. الذي أبلغ ابن سعود بتعليمات لندن برفض التدخل « وقد لاحظت خيبة أمله ، وكأنه شعر بأننا تركناه يتوقع أشياء لم نكن ننوي تحقيقها . ولكني لم أجد صعوبة في إزالة هذا الخاطر فقد شرحت له أن الحكومة التركية هي التي رفضت وساطتنا . ونحن لا نستطيع إرغامها على قبول مساعدة لا تريدها . وأبلغته حسب تعليماتكم أنه لا مانع الآن من إجراء مفاوضات مباشرة بينه وبين الترك ، وأن آراء حكومة صاحب الجلالة قد نقلت للباب العالي . وقال الأمير إنه لا ينوي عمل اتفاقيات منفردة مع الترك لأنه لا يثق بهم . وسألني ما هي آراء الحكومة التي نقلت للباب العالي ؟ فأجبت : بأنها خاصة بالمحادثات التي جرت بينه وبين موظفينا في البحرين . وقال إنه لا يملك أية معلومات عن الشروط التي سيطلبها الترك منه ، ولكنهم لن يسمحوا بوجود أجانب في القطيف ، بأية حال ، وأنه في حالة الوصول لاتفاق معهم ، فسيجبرونه بدون شك على إخراج الأجانب من القطيف . وهنا رأيت أنني يجب أن أخبره بصراحة أنني لا أستطيع الاستمرار ، فيما كنا فيه من قبل ، ولا أنني جئت لكي أنصحه باتخاذ موقف معين ضد رغبته[٥٤] » .

عرف ابن سعود أن بريطانيا باعته في الاتفاق التركي ــ البريطاني ، فبدأ يسأل عن مدى استعداد الترك للحرب « ففهمت من ذلك أنه يدرس الاحتمال البديل . وقبل أن ينتهي لقاؤنا سألني هل حكومتنا على استعداد لاعطائه ضمانة ضد غزو الترك للأحساء

من البحر ؟.. لأنه بهذه الضمانة يستطيع أن يصدهم الى الأبد .. ولكنني أجبت بأنني لا أملك أية معلومات الا ما قدمته له عن البحرين ومياهها[٥٥] » .

وقد انتهى الاجتماع بسوء الظن المتبادل ، إذ أضمر ابن سعود مفاجأة بريطانيا للمرة الثانية .. أما الوكيل البريطاني فقد كتب يقول : « وأعترف بأنني عدت للكويت بدون فكرة واضحة عن الطريق الذي سيختاره ابن سعود : هل سيستمر على رفضه لأي اتفاق لا تضمنه بريطانيا بشكل ما ؟ أم سيرى أنه بدون ضمانة قد يتعرض لهجوم بري وبحري (من الترك) مما يفوق قدرته على المقاومة ، ولذلك سيحاول الوصول الى تسوية معقولة مع الأتراك في الاجتماع القادم ؟ وفي هذه الحالة أعتقد أنه سيبذل كل جهده لتوريط حكومتنا وذلك بقبول شروط من الأتراك ، تحت ادعاء الأكراه ، وهو يعرف أننا لا يمكن أن نقبلها بحكم مصالحنا[٥٦] » .

كان الشرط الأول لنجاح خطة مفاجأة الأنجليز ، هي قطع الخيط الكويتي المتصل مباشرة بدار المعتمد البريطاني . فكانت هذه الأزمة المفتعلة التي وقعت في الأجتماع الأول مع البعثة التركية (الصبيحة ٣ مايو ١٩١٤ ــ ١٣٣١ هــ) بحضور ابن الشيخ مبارك . افتعل عبد العزيز أزمة مع الأتراك[٥٧] . وبعد أن تم التخلص من الكويتيين بحجة فشل اللقاء ، وبعث ابن صباح يبشر المعتمد البريطاني بفشل المفاوضات ، عقدت جلسة أخرى في المساء ، وتم الاتفاق مبدئيا على أن يرفع ما اتفق عليه الى الباب العالي .

وقد استمتع الوفد التركي ، ورئيسه طالب النقيب بالسخرية من مبارك الذي كان يظن أنه أوقع بين ابن سعود والأتراك ، فتآمر عليه الأتراك مع ابن سعود ، وسجل المؤرخون بعض القفشات التي قالها الوفد لابن صباح الذي كان يجهل تماما ما جرى ، ولكن الضحكة الكبرى كانت لابن سعود ، الذي يعرف أنه لم يغرر بابن صباح ، بل بالانجليز .. وقد سجلت الغفلة البريطانية في تقرير رسمي كتبه الكولونيل غراي المقيم السياسي بالكويت ، « استناداً الى تقرير من الشيخ مبارك ومصادر أخرى[٥٨] » . (وكلها على الأرجح سربت عمداً عن طريق ابن سعود) : « احتدت المناقشة وتبودلت عبارات خشنة بينه وبين السيد عمر ، الذي بلغ من تهوره أن قال لابن سعود : ستقبل ذلك طائعا أو مكرها ، عندها وقف الأمير وسحب سيفه الى منتصفه وأمر السيد عمر بمغادرة الاجتماع ، وزال أي أمل في نجاح المفاوضات . وعاد الوفد التركي الى البصرة في لنش الشيخ صباح ، مساء يوم ٤ الجاري وسيبلغون اسطمبول بفشل المباحثات[٥٩] » .

وإذا كان المؤرخون العرب قد استهوتهم السخرية من ابن الصباح ، على الملعوب الذي عمله فيه ابن سعود ، فان السلطات البريطانية ، لم تظل طويلا على جهلها ، والمثير أن ابن سعود كان مصدراً رئيسيا إن لم نقل المصدر الأول في إبلاغ الانجليز بنبأ المعاهدة ، التي عقدت أصلا نكاية بهم .. فقد أرسل إليهم أحد اصهاره الشيخ مقبل الذكير ، الذي عرفه تقرير الوكيل البريطاني في البحرين بأنه تاجر مهم في نجد تزوج ابن سعود حديثا بنت أخيه . أفاد هذا الرسول ــ الذي لم يعلن عن إيفاده من قبل ابن سعود بالطبع ــ « ان اتفاقية وقعت بين ابن سعود والأتراك ، وانها ستعطي الترك حق

وضع جنود في كل من العقير والقطيف وجبيل لحراسة العلم التركي فقط . وقد ارتفع نفوذ ابن سعود في البحرين نتيجة هذه الاشاعات ويتردد أنه وافق على طرد التجار الأجانب ، وأطلقت تركيا يده ضد قطر . ولكن من ناحية أخرى فان الوكيل البريطاني في الكويت لم يسمع بهذه الأخبار ، وقد نفاها فورا ، وأنا بدوري كنت أميل الى نفيها لولا وصول الشيخ « مقبل » الى البحرين في طريقه الى الكويت .. إلا أن الشيخ السير مبارك اعترف أنه لا يدري شيئا عن هذا الموضوع[٦٠] » .

وإزاء هذا التناقض في الانباء وصل رئيس الخليج لحل يرضي الجميع !

فقال : « يبدو أن الوفد التركي قد فشل في الوصول الى أي تفاهم محدد مع ابن سعود ، ولكنهم اتفقوا على هدنة ، يستطيع ابن سعود أن يحترمها أو يلغيها في أية لحظة إلا أن الوفد كذب على اسطمبول وأبلغها انه وصل الى اتفاقية ملزمة . على أية حال ستكشف الأسابيع القادمة عما إذا كان ابن سعود سيأخذ موقفاً معادياً من التجار البريطانيين ، وكل ما يعنيني حاليا ، بالنسبة للمصالح البريطانية ، هو أن الشيخ السير مبارك لم يعد متجاوباً » .

مسكين ابن صباح ! راهن على ذكائه ضد ابن سعود فخسر طبعاً ! .. ولعله شك في أن الانجليز يعبثون به ويخفون عنه ما يعرفون ، تآمراً مع ابن سعود[٧م] . ولكن بريطانيا لم يكن يعجزها الحصول على النبأ اليقين من مصادره في اسطمبول ، فقد أبرق القنصل البريطاني هناك الى وزارة الخارجية في لندن :

« قبل ابن سعود منصب والي وقائد عام نجد ، واعترف بأنه رعية عثمانية ، وسيرفع العلم العثماني[٨م] ، وسيقرر هو قبول قوات عثمانية أو يرفضها .. وقد أبرق السلطان مهنئاً الى طالب النقيب على نجاحه في المهمة[٦١] » .

وبعد ثمانية شهور سجلت المصادر البريطانية قصة الصبيحة : « خلال الأشهر الثلاث الأخيرة كان ابن صباح يرسل له الرسائل ملحاً عليه في الحضور لمقابلة الأتراك فلما وصل الى الصبيحة دهش عندما استلم خطاباً من الشيخ السير مبارك ينصحه بعدم الاتفاق مع الأتراك* ، وأنه هو شخصياً لن يحضر المفاوضات ، بعكس وعده ..

وبالاضافة إلى هذا الموقف من الشيخ مبارك**، فقد فهم من الكولونيل غراي (المعتمد البريطاني في الكويت) أن حكومة صاحب الجلالة غير مستعدة لتأييده بأية صورة حيث أنهم وقعوا اتفاقية مع الباب العالي ولا يعقل أن تعرض مصالحها للخطر من أجله . خاصة وأن الترك رفضوا عرضها للوساطة وهناك أمور أخرى بينه وبين السير مبارك زادت من استيائه ، مما أدى به الى الاتفاق مع السيد طالب (رئيس الوفد التركي) على أن تبقى المفاوضات سراً بالنسبة لمبارك . وقد رفض ابن سعود الكثير من

---

* سبق وأشرنا في فصل ابن صباح الى رأي مؤرخ الكويت بأن هذه النصيحة كانت بايعاز من الانجليز .

** واضح أن ابن سعود اعتبر موقف مبارك موقفاً بريطانياً .

الشروط فور طرحها ، ولكنه قبلها بعد ذلك ، عندما أكدوا له أن الهدف من وضعها هو حفظ هيبة السلطنة ، ولكن الحكومة التركية لا تنوى الاصرار على تنفيذها[٦٢] » .

هذه هي القصة السرية للمعاهدة التي تقع في ١٢ بنداً .. والتي لم يوجد لها أصل الا في مستمسكات الادارة العثمانية بالبصرة* عندما استولى عليها الجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى .. لم تخرج عما أنذر به ابن سعود الانجليز ، فقد جعل وجود القوات العثمانية في الأحساء رهنا بمشيئته ، في مقابل جعل الاتصال بالأجانب في يد الدولة العثمانية . وسواء صدقنا الرواية البريطانية ، وهي المصدر الوحيد بأن المعاهدة تحمل توقيع عبد العزيز والي نجد وقائد جيشها . وسليمان شفيق علي كمالي والي البصرة وقائد قواتها . أو أخذنا برأي بعض المؤرخين العرب : أن ابن سعود لم يوقعها « وما ينبغي له » ! ...

فالمهم أنها كما قال الأتراك وضعت لحفظ ماء الوجه ، ولم تتح الفرصة قط لامتحانها في التنفيذ فقد عاجلتها الأحداث بقيام الحرب العالمية الأولى وتبدل موقف الانجليز . ومن الجدير بالملاحظة ان البندين الخاصين بولاية العرش والأجانب ، قد اعتمد عليهما الانجليز في مفاوضاتهم مع ابن سعود لتوقيع المعاهدة العتيدة .. ولكن ابن سعود لم يقبل في الأولى من بريطانيا ما قبله من دولة الخلافة ، وأعطى في الثانية نصوصاً أكثر . وان كان المضمون لم يختلف .

باختصار لا يمكن لمؤرخ يحترم قلمه والحقائق أن يزعم بوجود علاقة خاصة بين ابن سعود والانجليز حتى الحرب العالمية الأولى ، فضلا عن سخافة القول بأن ضم الأحساء كان بعلم الانجليز أو رضاهم .. فكل الوقائع التي قدمناها تثبت أنه كان ضربة موجهة ضد بريطانيا بالدرجة الأولى .

تبدل الموقف بقيام الحرب العالمية الأولى بين المانيا والنمسا وتركيا من جانب وبريطانيا وفرنسا وروسيا من الجانب الآخر . وهكذا استدعي شكسبير على عجل من لندن ، وكان قد اختفى من الساحة مغضوباً عليه ، متهما بالتحمس لابن سعود** ، وأمر بالتوجه فوراً الى ابن سعود « مكلفاً بمهمة خاصة » . وأبرق إلى ابن سعود في ٢٠ أكتوبر ١٩١٤ بأن شكسبير في طريقه اليه . وقد وصل الى مضارب عبد العزيز في ٣١

---

* وقد وجد عليها تاريخ ٥ مايو ١٩١٤ .

** قال مؤلف كتاب « كابتن شكسبير » ان شكسبير بعد أن عاد من رحلته التي قطع بها الصحراء من الخليج للبحر « لطعوه في لندن بدون عمل ولما قامت الحرب في اغسطس ١٩١٤ ظل يطوف خمسة أسابيع بالمكاتب الحكومية يعرض خدماته وكانوا فيه من الزاهدين ولكن تحت الحاحة ، ارسلوه لمعسكر تدريب في الدرشوت . وفجأة بدأ البحث المحموم عنه بعدما تجاهلوه خمسة شهور . وفي نفس الوقت تسلم المقيم السياسي بالخليج أمراً من وزير الدولة البريطاني لشئون الهند يقول : يجب ان يتسلم ابن سعود عن طريق البحرين والكويت الرسالة التالية مترجمة الى العربية :

« صديقك كابتن شكسبير سيصل الى البحرين حوالي ٤ نوفمبر أي منتصف ذي الحجة ويلتمس ان تهيء له الجمال في عقير وهو قادم من انكلترة لزيارتك في امور مهمة تتعلق بالحكومة البريطانية .

« وهكذا دخل شكسبير وزارة الخارجية البريطانية كالابطال بسبب صداقته لابن سعود » .

ديسمبر ١٩١٤ .

في هذه الرحلة نعتقد أن شكسبير قد أعطى روحه لابن سعود ، وأصبح يبعث لحكومته بما يمليه عليه الساحر السعودي* ، وربما كان عذاب ضميره كموظف بريطاني قد اثقله الاحساس بخطيئة عدم الاخلاص لحكومته ، هو السر خلف رغبته الانتحارية بالاصرار على حضور معركة جراب بقبعته ، وسط طلائع الاخـوان المسلحين !

إننا نرى أن تقرير شكسبير عن رحلته هذه يعبر عن وجهة النظر السعودية المطلوب إبلاغها للحكومة البريطانية . وسنجد فيه حرص ابن سعود على عقد معاهدة تؤمنه « **ضد بريطانيا**[٩م] » وان طرحت في صيغة طلب الحماية البريطانية ، أو ضمانة بريطانيا ضد الأعاصير الدولية** التي قسمت ايران، وخلعت خديوي مصر كبرى الدول الاسلامية بعد تركيا ، ووضعتها تحت الحماية الصريحة المعلنة من طرف واحد شأنها في ذلك شأن عجمان .. نعم خلعت بريطانيا أكبر حاكم عربي ، وعينت سلطاناً بدله يحكم مصر بمرسوم صادر من دار المندوب السامي البريطاني دون طلقة واحدة، ولا معاهدة. وعبد العزيز يعرف مشاعر الانجليز، ورأى نزولهم في البصرة. ويعرف مناخ الحرب، وأن ورق اللعب الدولي يحرق فور قيامها.. وهو الذي حاول دائما الحصول على اعتراف بريطاني، في شكل علاقة تعترف بوضعه. ولذلك تصاعدت المطالبة السعودية بالارتباط.. مما أدى الى معاهدة ١٩١٥ التي يفرغ فيها المؤرخـون موضوعيتهم المكبوتة، فينتقدونها، ليثبتوا أن لديهم الشجاعة لنقد ابن سعود؟!

---

* وان كان ابن سعود قد سحر شكسبير كما اشرنا في آخر لقاء قبل عودة الكابتن الى لندن فقد كان شكسبير يكتب التقارير لابن سعود عن رحلته عبر الصحراء! فقد كتب له من القاهرة يبلغه بوفاة زامل بن صبحان. وان الأتراك ارسلوا عدة آلاف من البنادق والمدافع الى حايل ، « ويردد بدو الشمال ان ابن الرشيد سيزحف على قبائلك قريبا لقتالهم والأمر بيد الله القادر على كل شيء واني واثق ان الله سيشـد عضدك اذا ما احتاج الأمر » هذا كلام الكابتن !!

ولا نعرف في تاريخ الامبراطورية البريطانية موظفاً بمكانة شكسبير كتب تقارير تتضمن معلومات دولية وعسكرية الى غير حكومته الا شكسبير مع عبد العزيز . وكان ابن سعود قد طلب من شكسبير ان يشتري له من مصر بارومتر بالعربية ، ونظارات ميدان من لندن . ورسائلهما أكثر ودية : « سلم على والدك الامام » .. « يا صديقي الحبيب شكسبير » ولماسئل عبد العزيز من قبل كلايتون بعد ١٤ سنة من هو أعظم انجليزي قابلته في حياتك رد بدون تردد : « شكسبير » . ولم يذهب بعيداً فقد نعت مجلة « ذي ورلد » شكسبير بقولها : « كان يحمل اسما لا يتحمل مزيداً من المجد ، ولكنه نجح في ذلك » .

** وقد أكد ابن سعود هذا المعنى بعد ذلك بثماني سنوات (٢٨ نوفمبر ١٩٢٢) فعندما اقترح السير برسي كوكس أن يوجه عبد العزيز خطاباً للمندوب السامي يقول فيه إنه يعتبر ، المادة الثانية من معاهدة (١٩١٥) الخاصة بحماية بريطانيا لأمير نجد ضد اعتداء أية دولة أجنبية ، تشمل حكومات الحجاز والعراق وشرق الأردن ، غضب عبد العزيز ، وضرب الأرض بعصاه وقال للريحاني حامل الرسالة : « من قال للمندوب السامي ، إن ابن سعود يخاف الشريف وأولاده ؟ لا والله نحن في غنى عن الحماية ، اذا كان المعتدي علينا من العرب » .

ورفض توجيه الخطاب[٦٣] .



شكسبير



سير برسي كوكس



هذه هي الصورة التي استند اليها مؤلف كتاب شكسبير عن لقاء الكويت بين عبد العزيز وشكسبير . وهي من تصوير شكسبير نفسه .

... « إن سلمت هذه الرأس فسوف نغير كل شيء ! »

في رأي جمهرة المؤرخين العرب ، أنها معاهدة غير مشرفة لا تختلف عن معاهدات الحماية في الخليج ، وأن هذا يرجع الى جهل المستشارين من الجانب السعودي مع أن مفاوضات المعاهدة والتعديلات التي اقترحها الجانب السعودي تؤكد دقة ودراية هؤلاء المستشارين وسعة اطلاعهم .

ولا شك أن الشيخ وهبه قد تخلى عن الموضوعية وروح الزمالة ، عندما علق على معاهدة ١٩١٥ فقال : « ولا تختلف هذه المعاهدة ، عن المعاهدات الأخرى التي عقدت مع أمراء الخليج ، وفي هذه المعاهدة تجلى قصر نظر مستشاري* ابن سعود بجهلهم بما يجري في العالم، والاستفادة من الفرص المتوالية. على أن هذا الخطأ قد أصلح بمعاهدة سنة ١٩٢٧ حيث اعترف له بالاستقلال** التام وبمخابرة الدول والاتفاق معها على حسب ما تمليه مصلحة بلاده . بعدما كان محروما من هذا الحق . في معاهدة القطيف[٦٤] » . وقد عاد وهبه الى تكرار هجومه في كتابه الثاني فوصف المعاهدة بأنها وضعت ابن سعود تحت الحماية البريطانية كسائر أمراء الخليج !

ولم ينفرد وهبه بالتعالي على مستشاري عبد العزيز عام ١٩١٥ ، بل شاركه الزركلي وفؤاد حمزة :

قال الزركلي : « وفي جزيرة دارين ، المواجهة للقطيف ، عقدت بين عبد العزيز وبرسي كوكس « معاهدة دارين » ويقال لها أيضاً « معاهدة القطيف » في صفر ١٣٣٤ (أواخر ١٩١٥) وهي على غرار المعاهدات التي كان الانكليز يعقدونها مع إمارات الخليج ، نعتها فؤاد حمزة بأنها « معاهدة جائرة سقطت قيمتها قبل إلغائها بسنوات عديدة . وقال حافظ وهبه : « تجلى في هذه المعاهدة قصر نظر مستشاري ابن سعود بما يجري في العالم والاستفادة من الفرص » ..

واعتذر العطار في نقده للمعاهدة بأن هذا هو العرف الساري بين الكتاب فقال : ولم ينفرد كتابنا بنقد تلك المعاهدة ، ففي البريطانيين من كان يصفها بالعقم . قالت م .

---

* كان ابن ثنيان هو مستشار عبد العزيز الذي أدار المفاوضات مع برسي كوكس تحت اشراف عبد العزيز . ولما وافق ابن ثنيان على التنازل عن قبائل العمارات والظفير والمنتفق للعراق في عام ١٩٢٢ عزله عبد العزيز ومات في العام التالي . وهو من آل سعود وأصهارهم .

** والفضل طبعاً لبعد نظر المستشار الجديد. حافظ وهبه !

ف . ستون في كتابها : بريطانيا والدول العربية : « تعتبر من بعض النواحي آخر معاهدة وضعت على غرار تلك المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع دول الخليج ، ولكنها « لسوء الحظ » لم تكن ناجحة نجاحاً كبيراً من وجهة النظر البريطانية ، لأنها لم تتمخض عن اتخاذ ابن سعود خطوات فعالة ضد الأتراك » . وعلى هذا أعطى العطار نفسه حق نقدها فقال : « وماذا نعلق عليها وقد نسخت والحمد لله بسلامة نية ابن سعود (!!!) غير أن مستشاريه الذين وقعوا على المعاهدة ، كانوا قصار نظر* حقاً . وقد ظنوا أن تعهد بريطانيا بسلامة أراضي ابن سعود والاعتراف بها له ولورثته من بعده هو كل شيء . ومادروا عن الحماية التي بسطتها بريطانيا عليه . فهو ممنوع من الاتصال بأي دولة كانت . واذا أعتدي على أراضيه فيجب إشعار الحكومة البريطانية ، فهي المرجع ، وكأنها « ولي الأمر** » . ولكن ذهب ريح هذه المعاهدة الجائرة ، فهي إلى جانب مساوئها وشناعتها ، ركيكة التعبير ، مخنوقة الأداء ، مشحونة بالأغاليط ، وهي لهذا مكروهة من العربية والعرب*** ٦٥ » .

ولكن خالد الفرج ، فيما نقله الزركلي ، عن مخطوطه العجيب كان أصدقهم تحليلا عندما قال : « وهي على ما فيها من قيود تحد من استقلال عبد العزيز ، فانها كانت بحسب الظروف شراً لابد منه . فالانكليز لم يكونوا ليعترفوا باحتلال « الأحساء والقطيف والجبيل وسائر الساحل بدون المعاهدة ، ولقد كان موقف ابن سعود بعد وقعة جراب وحروب العجمان ، لا يساعده على التصلب والعناد » .

وهذه الملاحظة الاخيرة ، يؤكدها تقرير عثرنا عليه ، لمخابرات الجيش البريطاني في البصرة بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩١٥ جاء فيه : « أبلغني طبيب ابن سعود أنه جرح جرحاً بليغاً في إحدى الهجمات الليلية الفاشلة التي قتل فيها أخوه سعد . ثم جرح مرة أخرى في معركة تالية . والطبيب اسمه Abdullahsai عربي من الموصل . درس في بيروت واسطمبول وزار باريس ويقول إنه عدو لدود للترك وأعتقد أنه صادق » .. وقد علق برسي كوكس على ذلك بهذه العبارات المتوحشة : « إن هزيمة ابن سعود أمام العجمان وقتل شقيقه سعد . وسوء الحظ الذي لازمه في الشهور الاخيرة . مفيد لنا من ناحية أن ذلك يجعله أكثر لينا في موضوع المعاهدة » .

نعود لحديث المعاهدة . فالحق أنه إذا كان هناك من يستحق أن يوصف بقصر النظر وسوء التعبير فهم ليسوا بمستشاري عبد العزيز . فهؤلاء لم يجهلوا ما يجري في عالمهم عام ١٩١٥ .. فماذا كان يجري ؟ سوى تقسيم ايران ، واعتراف تركيا بالاحتلال البريطاني لشاطيء الخليج . ثم الحرب العالمية التي اصبحت فيها سيادة الدول ، قصاصة ورق ! ولم يعترف الكبار لا باستقلال ولا بحياد الصغار . وخلع خديوي

---

* التعبير لحافظ وهبة وغنمه العطار في حربه مع وهبة ! (راجع فصل « المؤلفون »)

** بالطبع من حق ابن سعود ألا يشعر بريطانيا على الاطلاق ، ولكن اذا أراد نجدتها وجب إبلاغها !

*** وسنرى انه لم يقرأ النص العربي بل نقلها عن وهبه !

مصر ، وأحتل العراق ، وتهاوت الامبراطورية العثمانية التي عاشت خمسة قرون ، تهاوت كالعهن المنفوش . كل هذا كان عبد العزيز ومستشاروه على علم به . ولذلك قبلوا المعاهدة . بل سعوا حثيثاً في طلبها ، ولم يغب عنهم أبداً « موضوع الحمايه » بل هذا هو ما كانوا يسعون اليه ، واضطر والدفع ثمنه ، « فالحماية » لم تدس عليهم ، بل هي حجر الزاوية في مطالبهم !

والتقصير الأكبر من جانب حضرة المستشار السفير أنه لم يكلف نفسه بالتنقيب في محاضر المفاوضات ، ليعرف ما هو الأصل الذي عرض على عبد العزيز وكيف عدله وغيره هو أو مستشاروه ، حتى فقد الكثير ان لم نقل جوهر ما كان يميز معاهدات الحماية الأخرى مع دول الخليج .

فما جاء من قيود في معاهدة ١٩١٥ ، لم يكن غفلة ، من المستشارين أو خطأ من عبد العزيز أصلح في معاهدة ١٩٢٧ ، بل كان نتيجة وضع عالمي ، وحاجة محلية ، تغيرتا تغيراً كاملا بانتصار ابن سعود وسيطرته على كل الجزيرة ، وباعلان استقلال مصر والعراق ، ومن ثم لا الوضع العالمي ولا العربي ولا السعودي ظل كما كان عليه الحال في عام ١٩١٥ .. ولا ابن سعود هو أمير نجد الذي حتى عام ١٩١٨ كان برسي كوكس يهدده قائلا : « إن ابن سعود يعرف جيداً أن الأحساء والقطيف ، وهما خير ممتلكاته تصبحان تحت رحمتنا ، اذا ما رسم لنفسه سياسة معارضة لمصالحنا ، فضلا عن أن نجداً نفسها ، تستورد جميع حاجياتها من موانينا[٦٦] » .

ودراستنا للوثائق ، تؤكد أن المعاهدة ، قرئت حرفاً حرفاً* من قبل مستشارين يعرفون معنى كل كلمة . ولكن المعاهدات لم تعكس أبداً ، في أي زمان أو مكان ، مهارة أو ذكاء أو ثقافة الطرفين المتعاهدين ، بل هي انعكاس لتفاوت القوى .

ومعاهدة ١٩١٥ وان كانت فعلا تشبه ، في ظاهرها ، معاهدات الحماية التي كانت بريطانيا توقعها مع شيوخ الخليج**، إلا أنها تختلف ، ليس في النصوص ، فهذه يمكن أن تتشابه ، ولكن في دوافعها وظروفها ، ومفاوضاتها ، واسلوب تطبيقها .

فهي أولا ثمرة الاستراتيجية السعودية ، في فرض التحالف فرضاً على بريطانيا ،

---

* بينما لم يقرأ ولا مؤلف محاضر المفاوضات والرسائل المتبادلة بل اكتفوا بالنقل الببغائي وقد أخطأ الشيخ في ترجمة المادة السادسة فقال يتعهد ابن سعود كما تعهد **والده** من قبل بأن يمتنع عن كل تجاوز وتداخل في أرض الكويت والبحرين وأراضي مشايخ قطر وعمان وسواحلها .

ونقل عنه العطار المادة حرفيا باخطائها ، وهي **والده** ، وصحتها « آباؤه » ، كما وردت في الأصل الانجليزي والخطأ الثاني هو عدم إدراك مغزى اضافة المفاوض السعودي كلمة « شيخ » قبل قطر ليميزها عن بقية المحميات المنصوص عليها في المادة . انظر نص المشروعين والصيغة النهائية في الملاحق .

** يقول حافظ وهبة إنه أقنع الانجليز بالتنازل عن حق محاكمة الأجانب في معاهدة ١٩٢٧ مع أن معاهدة « الحماية » لم تتعرض لمحاكمة الأجانب !

فالأصل في معاهدات الحماية هو رغبة الدولة الكبرى في فرض الحماية ، وذلك لمصالحها أو أطماعها في الدولة الصغرى . ومن ثم تطارد الدولة الاستعمارية ، تلك الدولة ، وتضيق عليها الخناق ، حتى تضطرها اضطراراً الى توقيع « صك الحماية » . وليست هذه التسمية التي انتشرت في عالمنا العربي « صك » مجرد بلاغة عربية . ولكنه فعلا صك عبودية ، لا يوقعه من الجانب « المحمي » الا من كان مرغماً ..

أما في حالة ابن سعود ، فالعكس بالضبط هو الذي حدث ، لقد ظل ابن سعود يطارد الانجليز منذ دخوله الرياض ، حتى الحرب العالمية ، وبريطانيا زاهدة فيه* ، رافضة عروضه ، ومنعت كل شيوخ الخليج من معاونته ، وخاصة ابن صباح ـ رغم حقده الشخصي على ابن رشيد ـ تحت شعار عدم التدخل في الصراع الدائر في نجد ! وأخيراً اتفقت مع تركيا عليه ، وباعته لهم واعترفت بعثمانية نجد والأحساء . وأعلنت أن استراتيجيتها هي حماية سلامة الأراضي العثمانية في آسيا ، بما فيها نجد . ولولا الحرب العالمية ـ وما سبقها من تكتيك سعودي ناجح جعل ابن سعود يبدو مرتبطاً بمعاهدة مع تركيا ، وبالتالي يفترض أن ينضم اليها في الحرب ـ لما قبلت بريطانيا توقيع هذه المعاهدة . أو فرض الحماية على ابن سعود .

والتقارير البريطانية السرية ـ التي نشرنا بعضا منها ـ تشير كلها الى هذا الالحاح من جانب ابن سعود ، والرفض من جانب بريطانيا ، بل الضيق من إصراره على صداقتها . وقد استمر الحال على هذا المنوال حتى أواخر ايامه ، وقال بعض المؤرخين إنه كان يعجب من هذا الموقف المعادي ، وإن كنا لا نصدق هذه الرواية ، فقد كان يعرف تماماً ـ كما قال فيلبي ـ أن بريطانيا هي العقبة الكؤود في سبيل تحقيق الحلم الوهابي بتوحيد الجزيرة مرة ثانية** .

تابع ابن سعود الحاحه في طلب اعتراف بريطاني باستقلاله وسلامة أراضيه ، أو معاهدة حماية ، فلما قامت الحرب العالمية ، وهرع اليه شكسبير « أملى عليه » ـ في رأينا ـ هذا التقرير الذي رفعه شكسبير لرؤسائه :

« كان ابن سعود قد تسلم خطابات وبرقيات عديدة ، ووعوداً لا حصر لها من الباب العالي ، لكنه ظل يتملص من الأتراك بأمل أن يكون ذهابي اليه يعني أن الحكومة البريطانية ، قررت اعادة النظر في مطلبه القديم وهو الدخول تحت حمايتنا . وفي ١٤ ذي الحجة ١٣٣٢ ـ ٣ نوفمبر ١٩١٤ طلبنا منه أن يلتزم بالحرب ضد تركيا علنا مقابل :

ـ حمايته ضد أي انتقام تركي .
ـ حمايته ضد أي غزو من البحر .

---

* كتب له نوكس المقيم البريطاني في الخليج : « وتقول إنك تحت حمايتنا . وأحب أن أعرفك أن حكومتنا الموقرة لا تبعثر حمايتها ولا تتعجل في منحها وأن طلبك لم يرد عليه بعد » من كتاب كابتن شكسبير تأليف هـ . ف . ونستون

** وهذا المفهوم أكده غلوب باشا أيضا .

ـ الاعتراف بوضعه في نجد والأحساء والاستعداد للدخول معه في معاهدة .

فالمعاهدة كانت « الثمن » الذي « تدفعه » بريطانيا ، وليست « القهر » الذي « تفرضه » على ابن سعود مقابل اعلانه الحرب . وهذه أول مرة تبدى بريطانيا استعدادها لعقد معاهدة معه ولكن ماذا كتب شكسبير ؟ »

« ان عبد العزيز المفعم بوطنية وحب جارف لبلده ، مع احترام عميق لدينه ، ولا تسيطر عليه إلا رغبة واحدة هي تحقيق صالح شعبه عن طريق السلام والأمن ، وجد نفسه في وضع حرج .. فهو يثق في الحكومة البريطانية أكثر من ثقته في أي طرف آخر ، وهو يريد علاقات أوثق معها ، وكدليل على اخلاصه مازال يتملص من الترك رغم ما في ذلك من مخاطر عليه . والآن يطلب منه أن يدخل في حرب مكشوفة ضد أقوى وأشرس اعدائه (الترك) .. ومن الذي يطلب منه ذلك ؟ نفس الدولة التى قبل ستة شهور ، ليس الا ، أبلغته أنه لا يمكنها التدخل لحسابه وتركته يرتبط بما شاء من شروط مع الترك* !؟.. حقا لقد تسلم منا تأكيدات ، ولكن في عبارات غامضة ، لا توضح اذا ما كانت هذه الضمانات محدودة بالحرب أو تمتد الى المستقبل ؟.. وأكثر من ذلك أن بلاده محاصرة من الغرب والشمال بولايات تركية ، واذا ما استطاعت المؤامرات التركية ، توحيد هؤلاء في جبهة أقوى من أن يتصدى لها وحده . فما هي فعالية هذه الضمانات ؟ بسبب هذا الغموض ، فان المخاطرة التي يتعرض لها هي وطنه . اذا ما دخل في حرب ضد تركيا وضد الولاة الموالين لها الذين يمكنها تحريكهم ضده » .

« وهي مخاطرة أكبر من أن ينظر اليها باستخفاف . ولكن كدليل على اخلاصه ورغبته في مساعدة الحكومة البريطانية ، دون الترامي اليائس ، فقد أبقى ابن رشيد مقيد الحركة ، وبموقفه وسلوكه حول ، ما كان يمكن أن يكون موقفا عدائيا ضد بريطانيا الى موقف متعاطف معها (في وسط الجزيرة) . »

« وقد بذلت جهدي لازالة شعوره هذا ، ولكني وجدت أنه لا شيء يرضيه أقل من معاهدة صريحة تحدد بنودها التزامات الطرفين ، ولكي أعرف ما يدور برأسه ، اقترحت أن يضع هو صيغة معاهدة » .

ثم يضيف شكسبير ما يؤكد رأينا في أن المعاهدة كانت مطلبا سعوديا فرض فرضا على بريطانيا بعكس كل ما هو معروف عن معاهدات الحماية التقليدية .. وما هو شائع عن هذه المعاهدة التي نحن بصددها .. قال شكسبير : « ان ابن سعود لا يرغب في هجر موقفه الحيادي ، وحريته في التفاهم مع الترك ، الى أن يحصل على معاهدة موقعة من البريطانيين ، ولا هو على استعداد أن يتحرك خطوة أخرى في اتجاه تسهيل الأمور لنا ، وتعقيدها للترك ، فيما يتعلق بالحرب ، حتى يحصل في هذه المعاهدة ، على ضمانة

---

* واضح ان كاتب هذا لا يمكن أن يكون ممثل بريطانيا بل كاتب الديوان السعودي . ومرة أخرى نعتقد أن لغزا حائرا في التاريخ يحتاج لمن يتفرغ للاجابة عليه ، الا وهو ماذا فعل ابن سعود بشكسبير .. ثم فيلبي ؟!..

صريحة بوضعه مع بريطانيا وخاصة فيما يتعلق بالسيادة . فاذا حصل على ذلك فسيعبىء كل قواه ، ونفوذه الضخم في الجزيرة الى جانبنا ليس فقط في هذه الحرب ، ولكن بعدها ، وأن يستمر بعد نهايتها في عدم الاتصال مع أية دولة أجنبية بدون الاتصال بنا أولا . وهو يرجو قرارا سريعا ، لأن وضعه الحيادي بدأ يزعج الأتراك ، واذا لم يستطع الحصول على معاهدة شاملة معنا ، فسيتوجب عليه ــ دفاعا عن النفس ولمنع الانتقام التركي ــ أن يعطيهم بعض الايحاءات بأنه منضم اليهم (!) .. « وليس في ذلك نوع من التهديد ، لأن كراهيته للترك هي عقدة عبد العزيز . ولكنه يعرف أن الفشل في الحصول على حماية بريطانيا ، يوجب عليه أن يسالم عدوه ، ويحاول أن يثبت له صداقته . فمن رأي عبد العزيز* أنه لا حل وسط** »

كان واضحا أن عبد العزيز يفكر في ما بعد الحرب ، وقد استطاع أن يحصل على ما فشل الأشراف في الحصول عليه ، فمقابل الرسائل الغامضة والعبارات المطاطة التى حصل عليها الشريف حسين ، حصل ابن سعود على معاهدة صريحة تعترف باستقلال ممتلكاته . وان انتقصت من سيادته .

يقول شكسبير :

« ان ابن سعود لا يذهب بعيداً في مطالبه ، عما عرض عليه ، فلو استطعت أن نجعل تأكيداتنا تشمل المستقبل ، وليس فقط الحرب الحاضرة ، وفسرنا تأكيداتنا بطريقة أقل تشددا ، فان ابن سعود بالمقابل سيكون مستعدا للقيام بدور «وال» بريطاني***. والمطلوب لا يكلفنا كثيرا ، فان طلب الحماية من الغرب والشمال ، لن يكون عبئاً كبيرا علينا ، وان كان مهما من وجهة نظر ابن سعود ، فهو لا يتوقع أن ينجح الترك فيما فشلوا فيه خلال العقدين الماضيين . كما أن حمايته من البحر ستجعله في مركز أفضل لمواجهة هذا الخطر . كما سيطلب منا أن نلعب دور الحكم بين شيوخ الساحل وبينه وهذا أمر لمصلحتنا . أما ما سيعطينا مقابل ذلك فهو جدير بالنظر والاعتبار ..

ــ سيطرة كاملة على الساحل العربي للخليج .

ــ سيطرة كاملة على تجارة السلاح .

ــ اخراج كل الدول الأجنبية من قلب الجزيرة .

ــ الأمن الذي سيتحقق بالسيطرة البريطانية وقبضة ابن سعود القوية على القبائل ، سيعمل على ازدهار التجارة في موانيء الخليج الفارسي وربما يحول اليها جانباً من تجارة البحر الأحمر[٦٧] » .

واذا تأملنا هذه « المكاسب » التي يعددها شكسبير ، فسنجد ، أنها « قبض الهواء » أو من لا يملك يعطي فعلا من لا يستحق . فبريطانيا ــ التي كانت لها السيطرة

---

* لاحظ أن شكسبير هو اكثر بريطاني يستخدم اسم عبد العزيز وليس ابن سعود كما جرت العادة .
** أي اما مع الانجليز أو مع الأتراك .
*** ليس المهم ماذا يفكر شكسبير أو ماذا يقول ليقنع رؤساءه ولكن المهم ماذا تحقق .

الكاملة على الخليج بساحليه وهي التي أعلنت قبل ١٢ سنة أن أي تحصين لميناء على شاطىء الخليج يعد عملاً معادياً لا تسمح به بريطانيا ـ لم تكن بحاجة الى ابن سعود ليعطيها السيطرة على الساحل العربي للخليج !

أما أن ابن سعود سيعطي بريطانيا السيطرة على تجارة السلاح ، فهي نكتة ! لأن ابن سعود لا ينتج ولا يبيع ، ولا حتى يسيطر على ممرات وطرق السلاح ، بل تتحكم بريطانيا في كل قطعة سلاح تصله حتى نهاية الأربعينات* ، أي بعد ثلاثين عاما من هذا التقرير المفضوح التحيز لابن سعود .

واخراج كل الدول الأجنبية من قلب الجزيرة ، هو هدف سعودي ، وبريطانيا هي أول من يطبق عليها البند !..

واذا كان الحكم السعودي من خصائصه توفير الأمن الا أنه يصعب تصور عقد بريطانيا لمعاهدة ، فقط من أجل الأمن .

ومن هنا يحق لنا القول ان عبد العزيز أراد هذه المعاهدة « لحمايته » من الانجليز بالدرجة الأولى ، للحصول على اعترافهم بسيادته على المناطق التي اعترفوا بعثمانيتها قبل شهور ، وهذا يعني أن مصيرها يمكن أن يتقرر ضمن تسوية الحرب باعتبارها أملاكا عثمانية .. وهي بلاده كلها .. نجد والأحساء !.. فكان في سباق مع الزمن لانتزاع اعتراف بسعوديتها .

وفعلا تحت الحاح شكسبير ، وعلى ضوء التقارير التي بعثها ، وأدلة « اخلاص » ابن سعود ، الى حد نصح الشريف حسين « ذاته » بالتخلي عن الترك والانضمام للانجليز ! كتب نائب الملك في الهند لوزارة الخارجية في لندن : « كل هذا يدفعني الى الالحاح لتخويلي عقد معاهدة معه بدون تأخير . ومن الناحية الأخرى فالأنباء التي وصلت للكويت عن هزيمة ابن سعود على يد ابن رشيد ، لم تتأكد بعد ويستحسن انتظار أنباء من شكسبير . على أية حال يجب ألا يؤخر ذلك اعداد مسودة المعاهدة التي يمكن أن ترسل الى شكسبير ليفاوض عليها ابن سعود . وبذلك نأمل احراز نتائج طيبة تخرج ابن سعود من موقفه المتحفظ . وتجعله يلقى بثقله معنا[٦٨] » .

ولكن .. لا أنباء ستصل من شكسبير ، ولا مشروع معاهدة سيصل اليه ، فقد قتل ـ تحت راية الزعيم الذي فتن به ، وانحاز اليه ـ في معركة جراب** .

في مايو أعطيت التعليمات لنائب الملك في الهند بعقد معاهدة مع ابن سعود قبل اتمام معاهدة « القطر » « لأن القضيتين منفصلتان ، ولا نريد اثارة ابن سعود بالاتفاق أولا

---

* ولو أن هناك معلومات نشرتها الصحف (٧/٩/١٩٣٠) عن تحطيم ابن سعود لاحتكار السلاح فقد اشترى سلاحا في هذا التاريخ من بولندا . وذلك أن حجاج عام ١٩٣٠ من بولندا . كان بينهم ممثل لشركة سلاح بولندية ، فاتفق معه الملك على صفقة بمبلغ ثلاثين ألف جنيه استرليني وجرى استعراض بالذخيرة الحية في جدة ، حضره الملك . وسقطت حكومة بولندا وزالت بولندا من الخريطة قبل أن يتم سداد ثمن السلاح . وقد كلفت حكومة بولندا الحرة فيلبي بتحصيل المبلغ نظير عمولة طبعا .

** في ٧ ربيع الأول ١٣٣٣ (٢٤ - ١ - ١٩١٥) .

مع قطر . كما أننا لسنا واثقين بعد من وضع الشيخ عبد الله فلا داعي لربط انفسنا قبل التأكد » .

وبدأت مفاوضات المعاهدة التي ستستغرق سبعة شهور أخرى .. وكانت مفاوضات حقيقية ، طلب فيها الجانب السعودي تعديل مقدمة أو ديباجة المعاهدة وست مواد من موادها السبع ! والتعديلات التي أدخلها الجانب السعودي هي تعديلات جغرافية وسياسية ولفظية .. وقد بررها ابن سعود في خطابه الى سير برسي كوكس الذي تولى شخصيا مسئولية الاتصال والمفاوضات مع ابن سعود ، بررها بأنها تعديلات أملتها « أوضاعنا الداخلية » .. وهي :

١ ــ اضافة « الجبيل والمدن والموانى التابعة لهذه المناطق الى التحديد الذي ورد في النص الانجليزي وكان : « حاكم نجد والحسا والقطيف » .

٢ ــ في المادة رقم واحد أجرى نفس التعديل على نحو أدق فكان النص الانجليزي « تعترف الحكومة البريطانية بأن نجداً والأحساء والقطيف وأراضيهم وموانيهم على ساحل الخليج الفارسي هي أراضي ابن سعود وآبائه من قبله ، وبذلك تعترف بابن سعود حاكما مستقلا ، ومن بعده لأولاده .. الخ .

فجاء التعديل السعودي « تعترف الحكومة البريطانية بأن نجداً والأحساء والقطيف **وتوابعهما** وأراضيهما التي ستحدد فيما بعد هي « **بلاد** » ابن سعود ... الخ .

وبعد : « حاكما مستقلاً » .. أضاف التعديل السعودي : « **والرئيس المطلق لقبائلها ..** »

وقد وافقت بريطانيا على تعديل ابن سعود حرفيا : كذلك وافقت على التعديلات التي جرت في المادة الخامسة والخاصة بسلامة الحجاج وهي غير مهمة .

التعديلات السياسية :

١ ــ كان النص البريطاني في المعاهدة يعطي بريطانيا حق الفيتو على اختيار خلفاء ابن سعود ، وهو الحق الذي كان لها على مشيخات الخليج ، فلا يتم تعيين ولى العهد ، أو تنصيبه حاكما الا بموافقة المعتمد البريطاني ، وبالتالى أصبح له حق خلعه ..

وقد رفض الجانب السعودي النص كاملا ، ووجه لطمة لبريطانيا بالنص الذي اقترحه وهو : « ومن بعده لأولاده وورثته ، على أن يكون خليفته معينا من قبل الحاكم القائم ، أو من خلال دعوة الرعايا القاطنين في هذه الأقاليم لانتخابه .

وقد علق السير برسي كوكس[٦٠]م ، ممثل كبرى وأولى الديموقراطيات الغربية ، على هذا النص الديموقراطي أو الجمهوري* بقوله[٦٩] : « ان النص جيد من الناحية المبدئية ، ولكنه صعب التنفيذ » . وجرت مساومات ، استبعد فيها مبدأ الانتخاب الذي يقوض هيمنة بريطانيا في الخليج بل وكل مستعمراتها ، والذي بمجرد طرحه من

---

* ولو أن هذا النص لم يطبق الا أن ايراده يدل على أن عبد العزيز وشيوخ آل سعود لا يتصورون امارتهم ملكية بالمفهوم الشاهنشاهي أو الأوروبي .

الجانب « البدوي العربي » فضح زيف ادعاء الغرب عن الديموقراطية . وجاء النص المعدل ، يعطي حق تعيين ولى العهد للحاكم القائم . ويلغي الجملة الانجليزية القائلة : « بعد موافقة الحكومة البريطانية عقب مشاورات معهم » !

وهكذا سقط أي حق لبريطانيا في اختيار أو تسمية الحاكم . ولكن وضع شرط آخر هو : « على شرط ألا يكون معاديا لانكلتره بأية صورة ، وعلى سبيل المثال ، أن لا يكون معارضا لشروط هذه المعاهدة . »

والنص الجديد وان بدا مفزعا ، الا أنه متوقع ، فما دامت المعاهدة تفرض على بريطانيا ، حماية الحاكم من أية عدوان خارجي ، فمن المعقول ، أن تشترط بريطانيا أن لا يكون هذا الحاكم معاديا لها ، وأن يكون ملتزما بالمعاهدة التي تحميه .

ولكنه نص على ضوء تاريخ بريطانيا ، يفتح أكثر من ثغرة للتداخلات ، لو في غير الرياض ، وغير ابن سعود . الا أن هذا الفهم يجب ألا ينسينا أن الرفض السعودي والتعديل الذي قبلته بريطانيا ، جرد المعاهدة من واحد من أبرز النصوص المعروفة في معاهدات الحماية بالخليج ، كما نكرر ، أن المفاوضة والرفض والتعديل ، تجعلها ــ وان حدت من سيادة ابن سعود ــ الا أنها ليست معاهدة حماية خليجية ، من التي كان يطلب فيها بصمة الشيخ أو ختمه ، دون أن يقرأها ! ولم يقع لنا في قراءاتنا ، ونتمنى أن يدلنا أحد ، على معاهدة حماية مع دول الخليج جرت مناقشتها وتعديل بنودها قبل توقيعها .. باستثناء معاهدة ابن سعود هذه .. كما لا يجوز أن ننسى أن السعوديين رفضوا في عام ١٩١٥ ما ظل ساريا في مصر حتى ١٩٢٢ وهو حق بريطانيا « المنفرد » بموجب الحماية ، بتعيين الجالس على العرش دون أن تتقيد بأية قاعدة أو نظام لوراثة هذا العرش ، ونفذت ذلك فعلا في اختيار سلطانين ..

٢ ــ كانت المادة الخاصة بالدعم العسكري تنص في الصيغة البريطانية على :

« في حالة وقوع عدوان على أراضي ابن سعود وخلفائه ، من قبل أية قوة اجنبية ، بدون استفزاز من الجانب السعودي ، فان الحكومة البريطانية ستساعد ابن سعود الى الحد ، وبالمقدار الذي يتطلبه الموقف في تقديرهما . »

وقد طلب الجانب السعودي ، تعديلها ، فحذف جملة « بدون استفزاز من الجانب السعودي » باعتبارها جملة مطاطة تعطي المجال لتفسيرات وتعللات ، كما أضاف السعوديون جملة تنص على مساعدة ابن سعود « في جميع الظروف وفي كل مكان » .

وبالطبع رفضت بريطانيا ، ووصل الطرفان الى حل وسط هو :

« في حالة عدوان أية دولة أجنبية على بلاد ابن سعود وخلفائه ، دون مراجعة الحكومة البريطانية ، ودون أن تعطى بريطانيا فرصة التفاوض مع ابن سعود لبحث الأمر معه . فان الحكومة البريطانية بعد مشاورة ابن سعود ستحدد أفضل الوسائل لحماية مصالحه وبلاده . »

٣ ــ وافق الجانب السعودي بدون تعديلات على المادة الثالثة وهي :

« يوافق ابن سعود ويتعهد بعدم الاتصال أو التعاقد أو الدخول في معاهدات مع أية

أمة أو دولة أجنبية . وأن يطلع السلطات البريطانية في الحال ، على أية محاولة من جانب أية دولة أخرى للتدخل في المناطق المشار اليها . »*

٤ ــ النص الانجليزي : « يتعهد ابن سعود **الى الأبد** ، بألا يبيع أو يرهن أو يؤجر أو يتخلى بأية صورة من الصور عن الأراضي المذكورة أو جزء منها . أو يعطى امتيازات فيها لأية حكومة أجنبية أو لرعايا دولة أجنبية ، بدون موافقة الحكومة البريطانية التي سيتبع نصيحتها بدون تحفظ » .

وقد حذف الجانب السعودي عبارة « الى الأبد » .. فصحيح أنها اكثر تهذيبا من الصيغة التي كانت شائعة في معاهدات بريطانيا مع المشيخات وهي : « حتى يشيب الغراب ويبيد التراب » الا أنها تحمل طابع الجبروت الامبراطوري ، وتأبيد العلاقات غير المتكافئة .

وفي نهاية المادة أضاف الجانب السعودي ، جملة ، ألغت الجزء الخاص بالنصيحة .. اذ اقترح : « وسيتبع نصيحتها بدون تحفظ **اذا ما اتفق ذلك مع مصلحته** » !

وبالطبع رفض الجانب البريطاني ، التعديل السعودي ، وبعد شد وجذب أصبح النص كالآتي : « ويتعهد ابن سعود « بصورة قطعية » بدلا من « **الى الأبد** » وعدل الاقتراح السعودي فأصبح : « وسيتبع نصائحها **مادامت لا تضر بمصالحه هو** . »

والنتيجة هي ما أراده الجانب السعودي ، اذ أصبحت « النصيحة » مشروطة بانسجامها مع مصالح ابن سعود ، وليست الزاما ولا املاء .

على أية حال : فأهم امتياز كان يعني بريطانيا قد أعطى لرعايا دولة أجنبية على غير هوى بريطانيا ودون اهتمام بنصائحها وبعد أقل من عشرين سنة . كما أن تاريخ هذه العشرين عاما يحفل بالقرارات التي اتخذها ابن سعود ضد نصيحة بريطانيا .

٥ ــ كان النص البريطاني هو :

« يتعهد ابن سعود كما فعل آباؤه من قبل بالامتناع عن أي عدوان أو تدخل في أراضي الكويت ، البحرين ، قطر ، ساحل عمان ، وأي قبائل أو مشايخ تحت الحماية البريطانية ، والتى ستحددها فيما بعد ... »

ولكن النص لم يمر على فطنة ابن سعود ومستشاريه الوهميين أو البؤساء الذين انهالت على رؤوسهم الاتهامات والنقد والتقريع بزعم أنهم ورطوا ابن سعود في هذه المعاهدة ، وكان بوسعهم أن يعقدوا عام ١٩١٥ في « العقير » معاهدة مثل تلك التي عقدت عام ١٩٢٧ في جدة .. !

سواء أكان ابن سعود هو الذي كتب وعدل وناقش وهو الأرجح ، أو مستشاروه ، فان النص كما لاحظ الجانب السعودي ، كان يعني التنازل عن المطالب الاقليمية

---

* هذا النص حذفه « المؤرخ » احمد عبد الغفور عطار .. حياء من التاريخ أو ربما ليصبح تاريخ عبد العزيز أكثر بياضا بعد غسيله بأومو هذا النوع من التأريخ !

السعودية في قطر وعمان .. وهي مطالب موروثة وأساسية . ولذلك عدل النص الى :
« يتعهد ابن سعود ... الخ بالامتناع عن أي عدوان أو تدخل في أراضي الكويت والبحرين (وشيوخ)* قطر وساحل عمان ، الداخلة في حماية الحكومة الموقرة ... الخ ».

فأضاف « شيوخ » قبل قطر وعمان ، وحذف « أو غيرهم من الرؤساء والقبائل » فأصبح نص « التي ستحدد أراضيهم فيما بعد » يعود على قطر وعمان .. أي يبقي الباب مفتوحا لمناقشة المطالب السعودية . كذلك أعفي السعودية من الاعتراف بجميع أراضي وكيانات كل الرؤساء والقبائل .. الخ .

وقد قبل النص السعودي حرفيا ، وهو انتصار له شأنه ، ليس على المشيخات ، فعندما جاء عصر الاستقلال تنازلت السعودية بسخاء (يعتبره البعض أكثر مما يجب) ولكنه كان انتصارا على المفاوض البريطاني . وتأكيدا للطبيعة الخاصة لهذه المعاهدة ونفيا لشبهة الزعم بأنها صورة طبق الاصل من معاهدة الحماية مع المشيخات الاخرى !

التعديلات اللفظية

١ ــ في المقدمة غير الجانب السعودي كلمة « أجيال » التي وردت في عبارة العلاقات الودية التي دامت لأجيال ، فأصبحت « لزمن طويل » . وقبل التعديل .

٢ ــ حذت عبارة « بأسرع ما يمكن » .. « والاخرى » من النص الانجليزي في المادة السابعة ، وهو : « وافق الطرفان على وضع معاهدة تفصيلية بأسرع ما يمكن لبحث الامور الاخرى التي تهم الطرفين » . وقبل التعديل .

فاذا وضعنا في الاعتبار الظروف التي وقعت فيها المعاهدة وهي حالة الحرب ، والعجز المطلق عن مواجهة آلة الحرب البريطانية بالاضافة الى الخوف من التآمر التركي ، وأيضا ــ وهو الأهم ــ أنها لم تكن مطلبا بريطانيا بل مطلبا سعوديا ، فرض بالالحاح بل حتى بالابتزاز والتهديد ، فلم تكن هناك مصلحة استعمارية ، تدفع بريطانيا الى فرض الحماية . ومن ثم فحتى لو تشابهت بعض نصوصها ، مع معاهدات الحماية الاخرى ، إلا أنها تختلف جوهريا من ناحية المنطلق والعلاقة ، والتعديلات التي أدخلها الجانب السعودي والتي منعت بريطانيا من التدخل في نظام الحكم ووراثة

---

* حتى اذا اقتضت الصياغة العربية كتابتها كالتالي : وأراضي شيوخ قطر وساحل عمان .. الخ وهو ما فعله حافظ وهبة ونقل عنه العطار . فالمعنى لا يتغير وكان يستحق التفاتة ، فان اضافة « وشيوخ » غيرت الموقف ، ففي القسم الاول اعترف بالكيان الكويتي والبحريني . وفي القسم الثاني السعودي المعدل تحفظ على الكيانين القطري والامارات ولم يعترف الا بما كان للشيوخ في قطر وامارات الساحل من حقوق معترف بها . والغريب أن الشيخ وهبه الذي لابد قد واجه في مفاوضات البوريمي ، نقاشا حول معاهدة ١٩١٥ لم يهتم بابراز توفيق الجانب السعودي في حفظ حقوقه في تلك المعاهدة .

العرش ، وجعلت مصلحة السعوديين على قدم المساواة مع نصيحة صاحب الجلالة ، التي قال اللورد دوفرين في برقيته الشهيرة لكرومر :

« إن المسئول المصري الذي يرفض نصيحة بريطانيا عليه أن يستقيل » .

هي معاهدة ، لا يمكن وصفها بأنها معاهدة الند للند ، ولو كانا لما طلبها ابن سعود ، ولكنها ايضا ليست صفحة عار تتطلب الاعتذار ، ليس فقط لأنه ما من قوة عربية أخرى في وقتها ولسنوات بعدها ، استطاعت أن تحقق افضل منها ، بل لأنها كانت في اطار الاستراتيجية السعودية ، استراتيجية محالفة القوة العالمية الكبرى ، لبناء القوة الذاتية ، وفرض الواقع السعودي في المنطقة . ودفع الخصم المحلي إلى التحالف مع القوة العالمية الأضعف .

فاذا انتقلنا الى التطبيق ، نجد أن المعاهدات أو صكوك الحماية ، لم تكن الا الجانب الشكلي من السيطرة البريطانية ، أما الجانب العملي ، فهو السلطات التي يتمتع بها المعتمد البريطاني ، أو الحاكم بأمره ، الذي رأينا بعض تداخلاته في الكويت ، وفحشه في البحرين وعمان . ولم يكن في إمارة أو سلطنة ابن سعود ، معتمد بريطاني ولا وكيل ولا باليوز* .

أول ممثل كان شكسبير ، وقد رأينا كيف تحول إلى ممثل لابن سعود في بلاط الملك جورج ! وانتهى بالموت تحت راية ابن سعود !

ثم جاء فيلبي في مهمة محددة هي حملة حايل ، وانتهت المهمة بقرار سحبه وإلغاء المهمة ، والحوار الذي دار بينه وبين ابن سعود يثبت أنه كان « سفيرا » وليس باليوزاً بأية حال من الأحوال . فالمقيم البريطاني يعين من قبل بريطانيا ، ولا يملك الحاكم العربي أن يعزله أو يمنعه من الوجود في المحمية ، بل العكس هو الصحيح . أما ابن سعود ، فعندما ألغت الحكومة البريطانية حملة حايل . قال بصريح العبارة لفيلبي** : إذا فشلت في تغيير موقف حكومتك ، فلا تعد الى الرياض » . ولم يمر علينا في معاهدات

---

* قال الريحاني : الممثلون السياسيون لبريطانيا في الخليج نوعان : الموظف السياسي Political Officer والوكيل السياسي Agent Political . وفي الخليج وكيل سياسي أول مركزه في بوشهر ويرجع اليه الوكلاء والموظفون السياسيون في الكويت والبحرين أما مرجع الوكيل السياسي في بوشهر فهو حكومة الهند . وبما أن في البحرين كثيراً من الهنود ، فقد أطلقوا على الوكيل السياسي فيها لقبا هنديا ، فهو يدعى هناك بليوس . وبعضهم يكتبها باليوز .

** قال فيلبي إنه يأمل في اصلاح الأمور فرد ابن سعود : « واذا لم تستطع فلا تعد ، لأنني لن أستطيع أن اقف أكثر من ذلك ضد رأي شعبي ولن أقبل ممثلا آخر[٧٠] » . وفي كتاب فيلبي العرب : « إذا لم تكن حكومتك على استعداد لتغيير سياستها فلا داعي لعودتك الى الرياض[٧١] » . وكلها جمل وصيغ تعني قطع العلاقات الدبلوماسية ولم يكن قد مضى أربع سنوات على توقيع المعاهدة .

الحماية ، ولا في تاريخ الخليج والجنوب وسائر المحميات حالة واحدة طرد فيها « المعتمد » البريطاني أو طلب الحاكم سحبه ، أو أعطاه مثل هذا الانذار ! .. وتكفي مقارنة حادثة الشيخ عيسى الذي بعث مع مجهول خفية ، خطابا يشكو فيه جبروت المعتمد ، الى عدالة الحكومة البريطانية ، فحقق مع الشيخ المسكين كأنه سجين سياسي عربي ، هرب رسالة من المعتقل ! .. ولم يكن وضع ابن سعود العسكري ولا السياسي قد تغير عنه عندما وقع المعاهدة .. فأين الامانة أو الموضوعية التي تجعل مؤرخا يقول إن معاهدة ١٩١٥ جعلت ابن سعود مثل شيخ البحرين أو شيخ الكويت أو سلطان عمان ؟! والمعتمد البريطاني في الكويت يقول إنه لا يرى تنحي مبارك فهو « يقوم بعمله على الوجه الأكمل » !

وحاكم الهند يثني على كوكس لأنه روض سلطان عمان ! .. أين هذا من ممثل يقول له عبد العزيز اذا فشلت في تغيير سياسة حكومتك فلا تعد ولا ترسل غيرك فلن أقبل ممثلا لبريطانيا ! كلمة لا نستطيع أن نقولها لسفير امريكا اليوم ونحن ٢١ دولة مستقلة ، ولم تستطع مصر بمليكها وأحزابها ودستورها وبرلمانها ، قولها للسير مايلز لامبسون (اللورد كلين) ، وهو لا يستحق في التاريخ أن يوضع في هامش سيرة فيلبي !

ممثل هذا وضعه لا يلجئنا للقول بأنه ما كان يجرؤ على فتح محضر تحقيق مع عبد العزيز كتلك المحاضر التي تحدثنا عنها في البحرين والكويت ، ولا بالذي يتدخل في القضاء أو يطلب حرق الاسطول ، بل ما كان يجرؤ على التدخين في حضور خادم من خدم عبد العزيز .

وكما قلنا كان المقيم يعين من بريطانيا ويفرض على المحمية ، ولا يؤخذ رأي حاكمها فيه . ولكن بريطانيا حاولت تعيين ممثل لها في البلاط السعودي وفشلت . كتب فيلبي يقول :

« كنت قد تلقيت تعليمات باستمزاج رأي ابن سعود ، في مسألة تعيين وكيل بريطاني في البلاط الوهابي ، ولانها مسألة شديدة الحساسية ، فقد ظللت أتحين الفرص لفتح الموضوع .. فلا أوفق ، خاصة مع تزايد عدم رضاء ابن سعود على معاملة حكومتنا له ، وأعترف آسفا بأنني لم أجد فرصة مناسبة ، أطرح فيها مثل هذا الاقتراح ، حتى انتهت مهمتي ، في ظروف كان واضحا ، أن ابن سعود لن يوافق ، اذا ما اقترحت عليه الفكرة » .

إذا استطاع مؤرخ أن يأتي لنا بحالة من مصر إلى الهند استمزجت فيها بريطانيا ـ حتى بدون هذا الرعب ـ رأى حاكم المحمية في تعيين ممثل لبريطانيا العظمى الحامية .. إذا وجدت حالة مماثلة فسنوافق على أنها كانت معاهدة حماية كسائر المعاهدات !

يكمل فيلبي : « كان واضحا أن وجودي في الرياض يحتاج إلى توضيح مستمر لجمهور معاد ومنتقد ، فكان ابن سعود يؤكد للعناصر الوهابية المتشددة أن اقامتي ،

وإن طالت إلا أنها مؤقتة وضرورية بسبب موقف الاشراف والحصار من حوله . ولذا فهو مضطر لكي يكون على اتصال بالحكومة البريطانية .

« وفي نفس الوقت أوضح لي أنه يعتبر وجودي ضروريا ومفيداً ، ولم يقترح أبدا أن أغادر إلى أن وقعت الظروف التي أشرت اليها (الغاء مهمة حايل) عندها قال لي بصراحة تامة إنه اذا كانت الحكومة البريطانية لن تعدل سياستها الجديدة نحوه ، فهو لا يرى عودتي أو أن يحل أحد محلي » ... ونصح فيلبي حكومته إذا كانت تهدف في المستقبل لاقناع ابن سعود بقبول ممثل دائم لبريطانيا في بلاطه ، فان نوعية هذا التمثيل يجب أن تكون موضع دراسة مستفيضة ، إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون على غرار وكالاتنا في مواني الخليج الفارسي ... » .

« إن على حكومة صاحب الجلالة أن تجعل تمثيلها في البلاط الوهابي غير ظاهر وإن كان فعالا في نفس الوقت » . « وربما كان من حسن السياسة أن يبدأ متقطعا على شكل زيارات بدلا من تمثيل دائم » .

وكان المفهوم الشائع في الخليج ، وهو يعبر عن الواقع بدقة ، أن قبول ممثل بريطانيا يعني بداية السيطرة الاستعمارية ، وأحيانا نهاية ، المقاومة الوطنية . لذلك كان الشيخ البحريني أصدق نظرة ، وأعمق تجربة من الشيخ وهبه ، في تلك الرواية التي رواها وهبه : قال : « سألني قبل أربع سنوات* أحد شيوخ البحرين ، عن حقيقة ما أشيع من أن جلالة الملك سيقبل تعيين أحد القناصل في القطيف والأحساء ، فقلت له إن الاشاعة غير صحيحة ، ولكن ماذا يمنع من ذلك ؟ فقال : إذا قبل الملك ذلك فعلى بلاده السلام . إن الراية الانجليزية ما رفعت على بلد** ، إلا وأعقبها الاستيلاء عليه ، ولقد رأيت ما صنعوا في البحرين ، إنهم في خمسين سنة قضوا على كل نفوذ لشيوخ البحرين »[٧٢] .

وابن سعود لم يسمح لراية بريطانيا بأن ترفع في بلاده الا بعد أن زال نهائيا هذا الخطر الذي تحدث عنه شيخ البحرين ، ولكن ابن سعود أيضا لم يكن بالذي يكتفي بتغطية عينيه لكي لا يرى راية بريطانيا في كل مكان حول بلاده ، ولا كان بالذي يأخذ بالمعنى السطحي لقول الشيخ « ما أرتفعت على بلد إلا استولوا عليه » فهو كان يعرف أن النفوذ البريطاني يعتمد على القوة ، وأن استقلال مشيخات الخليج ضاع ، لأنها فقدت القوة اللازمة لحمايته ، وهكذا تحولت البحرين من حكومة مستقلة ذات سيادة

---

* أي سنة ١٩٣٠ (١٣٤٩ هـ)
** يقصد برفع الراية هنا على مقر القنصل وليس المعنى العسكري أي الاستيلاء على البلد ورفع راية الغازي عليها .

وأسطول بحري حربي ، الى حكومة بدون أسطول ، عندما قبل شيوخها تدمير الاسطول بناء على طلب بريطانيا ، ثم حكومة يراقبها وكيل سياسي بريطاني ، إلى حكومة يشارك الانجليز في ادارة شئونها الداخلية ، ولا سلطات خارجية لها » . إلى حكومة يديرها البليوس »[١١]م ، فيعين من يشاء ، ويخلع من يشاء[٧٣] » .

كان ابن سعود يعرف كيف حرص الانجليز على تجريد مشيخات الخليج ، من القدرة على المقاومة ، فحرقوا أسطول القواسم ، واشترطوا في معاهدة البحرين ، حرق الجزء الأكبر من أسطولها ، ثم تعللوا بضرب أحد الشيوخ لخادمه ، ليأمروا بحرق بقية الأسطول كعقوبة ! واحتكروا تجارة السلاح ، وحرموا تكوين الجيوش العربية .

ومن ثم فقد ركز ابن سعود على بناء قوته الذاتية ، ليكون قادراً على تفسير نصوص المعاهدة وفق مصلحته . وهكذا كانت حركة بعث الوهابية وتنظيم الاخوان ، هي الضمانة الأولى التي حالت دون البريطانيين والتعبير عن كراهيتهم وضيقهم باتساع ملك ابن سعود وانتشار نفوذه .

ولعل خير ما نختم به حديث المعاهدات المتكافئة .. هو تلك الرواية التي نقلها فيلبي عن « سيد خليفة القصيبي » عندما قابله في الدمام خلال الحرب العالمية الثانية . عما جرى في مؤتمر العقير في نوفمبر ١٩٢٢ ولم يكن وضع عبد العزيز قد تغير جذريا كما سيحدث بعد فتح الحجاز. وكانت معاهدة ١٩١٥ سارية المفعول. ولكن تأمل كيف مثلت الدول في المؤتمر : الكويت كمستعمرة كاملة مثلها المقيم السياسي البريطاني ولم يحضر أحد من الكويتيين في بحث قضية من أخص شئون السيادة وهي رسم الحدود ، فكأنها تيم التي يقضى الأمر حين تغيب ولا يستشارون وهم قعود . العراق مثله صبيح بك وماجور مور أما سلطنة نجد فلم يمثلها إلا سعوديون .. فكيف يقال إن الاوضاع كانت متشابهة ؟!

في هذا الاجتماع نصح عبد الله القصيبي ، ابن سعود ــ على حد تعبير فيلبي ــ بأن لا يضع رأسه في المشنقة البريطانية ، فرد ابن سعود : لابد مما ليس منه بد ، « ولكن اذا سلمت هذه » ــ وأشار إلى رأسه ــ فسوف أغير هذا كله !.. وبعد ٥ سنوات عندما قدم له قلم من الذهب لتوقيع المعاهدة مع كلايتون ، وهي المعاهدة التي اعترفت بالاستقلال الكامل والسيادة المطلقة للسعودية قال عبد العزيز لمرافقه : « ارسل هذا القلم لعبد الله القصيبي وهو سيفهم[٧٤] » .

سلمت الرأس وغيرت كل شيء . تم اعتراف بريطانيا في تلك المعاهدة بالاستقلال التام المطلق لمالك صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها فكان هذا أول اعتراف بريطاني ، باستقلال بلد عربي ، بناء على الأمر الواقع ، وأول استقلال أعلن بالارادة العربية . لم يصدر من دار المعتمد البريطاني ، ولا بموجب تسوية بين دولتين تتنازعان

السيادة على البلد العربي * .

* في خطاب عبد العزيز لنائب الملك بالهند (٢٤/٤/١٩١٥) وفي رسالته الى سير برسي كوكس بنفس التاريخ ، نراه يتحدث عن « المعاهدة » « التي تدعم العلاقات بين الأمتين الانجليزية والعربية ، وتسوي الخلافات التي قد تكون قائمة » ويقول إنه تسلم النسخة المقترحة و « أجرى فيها بعض التعديلات » . ثم يسميها « معاهدة الصداقة » وهو تعبير حصلت عليه مصر بعد عشرين عاما وثورة !. ويقول إن التعديلات التي أدخلها على مشروع المعاهدة ضرورية للاعتبارات المحلية ، والحاجة الى طمأنة البيت الحاكم من عائلة بن سعود ، وأيضا بحكم معرفتنا بظروف العرب .

الحرب اذا هي التي فرضت على بريطانيا ، « صداقة » ابن سعود . فحتى آخر لحظة كانت تفضل الاتفاق مع تركيا على حسابه ، فلما قامت الحرب ، واتضحت نية تركيا في الانضمام الى ألمانيا ، وكان المخطط البريطاني هو الاستيلاء على العراق ، كما كانت تخشى موقف الهنود المسلمين وهم عصب جيشها الامبراطوري ، في حالة إعلان « امير المؤمنين » التركي للجهاد .. وقد بهت المسئولون الانجليز أمام تضامن العرب في العراق وخاصة البدو ، مع الأتراك ، وامتداد النقمة على بريطانيا ، والعطف على تركيا من المحمرة الى اليمن ، ومن ليبيا ومصر حتى الكويت ، حيث اشرنا الى « ثورة الكويت الفذة » .. لذا كانت بريطانيا بحاجة الى وضع أكبر عدد ممكن من الأسماء الاسلامية على لائحتها وخاصة من ذوي السمعة الحسنة .

أما ابن سعود ـ فكما سنشرح في فصل الأتراك ـ كان قد وصل الى القناعة التي بدأت تنتشر بين الاسلاميين العرب منذ الحرب الطرابلسية ـ الايطالية ، وهي أن العصابة الحاكمة في اسطمبول* ـ يهودية ـ معادية للاسلام ، ألعوبة في يد القوى المعادية للاسلام والعرب . وقد عبر ابن سعود عن رأيه هذا في أكثر من مناسبة ، سواء في اجتماعاته مع شكسبير ، أو في رسائله لابن رشيد أو خطابه في الكويت ، والبصرة .. أو في أحاديثه مع الأتراك أنفسهم .

كل هذا صحيح .. وأيضا جاءت الحرب بالمعاهدة والدعم والمعونة ، ولكن عبد العزيز رفض مقاتلة الأتراك من أجل الانجليز ، وقال قولته المشهورة : « لا أطعن دولة تحمل اسم الخلافة في محنتها » .. واختار خدمة « المجهود الحربي للحلفاء » بمقاتلة ابن رشيد الذي يقاتله منذ ١٣ سنة قبل الحرب ! وأقتنع الانجليز بقبول هذا الموقف ، وشهدوا به في جميع تقاريرهم التي أثنت والتي انتقدت ، كلها أجمعت على أن المجهود الحربي الوحيد الذي قام به ابن سعود هو شل ابن رشيد عن دعم المقاومة التركية في العراق ، أو الحملة التركية في مصر** ..

---

* ماسونية ويهودية جماعة تركيا الفتاة والاتحاد والترقي .. الخ ثابتة بالوقائع التي تكشف كل يوم . ولكن .. نعتقد أن المخابرات البريطانية ساهمت بقدر ما في ترويج هذه الاشاعات عنهم في العالم الاسلامي ، لتحالفهم مع الألمان ، ولتضعف من تأثير دعوتهم الاسلامية أو الجهاد .

** لما قارن السعوديون بين ما تدفعه لهم بريطانيا (خمسة آلاف جنيه شهريا) ١٢ م وبين ما يدفع للملك حسين (وصل الى مائتي الف) « حاول فيلبي عبثا أن يفسر لهم ذلك ، بأن الشريف يقدم خدمات جليلة مقابل ما يأخذه من مال . أما ابن سعود فلم يرفع اصبعا لمساعدتهم[٧٥] » .

أما غلوب باشا فقال : « إن المجهود الحربي الوحيد الذي قام به ابن سعود هو محاربة ابن رشيد في موقعة جراب التي قتل فيها شكسبير . ثم بقي في أرضه الى نهاية الحرب[٧٦] » .

ويبدو ان الانجليز لم يتوقعوا منه اكثر من ذلك ، فقد كان المطلوب هو الانضمام السياسي ، للتشكيك في مشروعية « الجهاد » التركي . فالى جانب « الخليفة » تقف دولة مسيحية كبرى ، يدعي « قيصرها » ـ كما زعم الانجليز وروجوا بفجورهم الدعائي المعهود ـ أنه نبي .. والى جانب الانجليز يقف مسلمون من شيعة ايران الى اسماعيلية الهند الى وهابية نجد وأخيرا أشراف مكة ... ومن الناحية العسكرية ، كان تثبيت ابن رشيد وقطع الاتصالات مع الترك في المدينة ، له قيمته الحربية .

وقد استعرض رئيس الخليج الوضع في المنطقة عشية الحرب كالآتي :

« في حالة قيام حرب مع تركيا . نستطيع الاعتماد على ولاء رؤساء المحمره والكويت . وأعتقد أنه سيكون من المفيد لنا لو أعطيت تأكيدات لابن سعود ، فسيأخذ نفس الموقف . اما البحرين فاعتقد أنها لا تضر ولا تنفع* . وقد تقع بعض الحوادث المخلة بالأمن ، بسبب ارتفاع الأسعار وندرة السلع (!) ... لا أرى أية إمكانية أمام سلطان مسقط للانحياز إلى الترك . أما الثوار في مسقط ، فيحصرون اهتمامهم بالسياسة المحلية ، **ويمكن أن أعد ابن سعود ايضا بالاستقلال وضمانة ضد أي هجوم من ناحية البحر** . وقد أدفع شيخ الكويت لمهاجمة الحامية التركية في القصر وصفوان وجزيرة بوبيان ، وأحميه من نتائج ذلك** وسأعطيه وعداً بالاعفاء من الضرائب والاستقلال التام فيما يتعلق بحدائق البلح على الضفة اليمنى لشط العرب . أما المحمرة*** فأن قضيتها تتضمن مشاكل خاصة نظراً لموقف كلا من الروس والفرس . ويمكن أن نعده بالاستقلال التام بحدائق البلح التي على الشاطىء الايمن من النهر بنفس شروط شيخ الكويت .

« بالنسبة لغرب الجزيرة فان المقيم السياسي في عدن يعتقد أن الامام والادريسي موالون لنا ، ومن الممكن توحيدهما ضد الترك .

ومن المحتمل أيضا أننا نستطيع التأثير على شريف مكة في نفس الاتجاه من خلال ابن سعود (!!) .

« ومن الممكن ان تنظر الطبقة المتعلمة الى هذه الاعمال (انضمام الحكام الى بريطانيا ضد تركيا) بالأسى ، ولكني أشك في وقوع حركة رفض فعالة » .

« وأفكر فيما هي أفضل الوسائل للتأثير على قيادات المسلمين في الهند في حالة توجيه تركيا نداء للمسلمين[٧٧] » .

وفي أكتوبر صدر الأمر الكتابي باستدعاء شكسبير للخدمة مكلفا بمهمة ابن سعود .

تعزيزاً للأوامر الشفهية الصادرة اليكم فانني مكلف من وزارة الدولة لشئون الهند

---

* لاحظ الحقد على البحرين ، وأنها البلد الوحيد الذي توقع فيه الاضطرابات وإن عللها بتعليل مضحك ، كما لم يتوقع منها أي دعم للموقف البريطاني .

** تأمل اللهجة القيصرية التي يتحدث بها ممثل بريطانيا !

*** خورمشهر ..

بأن أبلغكم بقرار استدعائك للخدمة فورا فيما يتعلق بالوسائل التي شرحت طبيعتها لك ، والتي يجب أن تتخذ لحماية المصالح البريطانية في الخليج الفارسي وتركيا العربية .

« وعليه فستتجه إلى الخليج الفارسي ، بأقل ظهور ممكن ، كضابط سياسي مكلف بمهمة خاصة . وعند الوصول لا تضيع وقتا في إتمام الاتصال الشخصي مع ابن سعود « أمير نجد » .

وستستخدم نفوذك إلى أقصى حد لتحقيق هدفين :

١ ـ منع قيام ازعاج أو اضطرابات بين العرب كنتيجة للاجراءات المشار اليها .

٢ ـ في حالة قيام الحرب بين بريطانيا العظمى وتركيا ، ضمان عدم وصول مساعدات من العرب للجيش التركي .

(وردت اضافة بخط اليد تقول : « في تنفيذ ذلك يجب أن تضع في اعتبارك التحذير المتضمن في كتاب الخارجية رقم ٥٤٦٢٣ بتاريخ ٥/١٠/١٩١٤ ـ ١٣٣٢ ومرفق نسخة » ... ولكن التحذير حذف طبعا من الملفات فلا وجود له !) .

وشرح الوزير البريطاني لنائب الملك مهمة شكسبير فقال :

« الشيخ مبارك وابن سعود يمكنهما حفظ السلام باستخدام نفوذهما على قبائلهما ، وأيضا من خلال أصدقائهما الأقوياء مثل شريف مكة وابن شعلان . ونعتمد على مشايخ الساحل وابن سعود في منع العرب من اتخاذ أي موقف[٧٨] » .

ورد نائب الملك :

« أحب أن أشير هنا الى أنني بعثت بكابتن شكسبير الى ابن سعود مع تعليمات بدعوته الى القدوم الى الشمال والبقاء معه في حالة ما اذا أردناه أن يساعدنا بقبائله خلف البصرة[٧٩] » . وقد بقى شكسبير وشهد معركة جراب ضد ابن رشيد وقتل فيها[١٣]م ولم تعين بريطانيا ممثلا آخر* ، الى عام ١٩١٧ ـ ١٣٣٥ . وان وقعت المعاهدة التي ناقشناها . وظلت العلاقات مستمرة من خلال « كوكس » رئيس الخليج .. الذي اجتمع به مرتين ، مرة عند توقيع المعاهدة في تاروت ومرة عندما دعاه للبصرة ليستعرض أمامه المدافع والطائرات البريطانية . ويقول فيلبى « ولكن ابن سعود نتيجة نزاعه القديم مع شريف مكة ، لم يقم بأي مساعدة للمجهود الحربي البريطاني في العراق[٨٠] » .

وربما يطرح سؤال .. هل كان بوسع ابن سعود أن يغير التاريخ ، لو انضم للاتراك في العراق ؟!.. والجواب لا .. فقد كان الأسطول البريطاني سيحتل الاحساء ، وهو

---

* في الحقيقة عين « غيرالد ليخمان » ولكنه لم يقم بأي عمل . اما المعاهدة نفسها فكما يقول هـ. ونستون « تم تجميدها بناء على طلب اوستن تشمبرلن وزير الدولة الجديد لشئون الهند . كما تبدل موقف ابن صباح فأصبح اكثر عداء ، وسمح للعجمان باستخدام أراضيه في حربهم ضد ابن سعود مما يدل على تغير في موقف الانجليز بعد انتصارهم في العراق » .

الذي احتل البصرة . وربما تحالف الانكليز مع الشريف وابن رشيد لضربه في نجد ، فقد كان شكسبير مكلفاً بكسب ابن رشيد ، وحاولت « غرترودبل » الاتصال بآل رشيد . وكانت الصلة مفتوحة عن طريق فهد الهذال . لولا أن شكسبير افتتن بابن سعود واكتفى به . كما كانت القاهرة تجرى اتصالاتها المبدئية مع الشريف ولو أغرى بابتلاع ابن سعود ، لما تردد بل لعجل باعلان « الثورة العربية » !

على أية حال فمصير الحرب لم يكن ليتقرر في نجد أو الخليج بل في أوروبا ، وكل أوراق الجزيرة والخليج لم تكن لتضيف قيمة فعالة لموازين القوى في أوروبا .

وبنجاح الحملة البريطانية على العراق ، وصد الهجوم الألماني في فرنسا ، وفشل الهجوم السنوسي في الصحراء الغربية ، والحملة التركية على قناة السويس ، أهملت بريطانيا ابن سعود ، واكتفت منه بشغل ابن رشيد ، وشغلته هو بألاعيب ابن صباح والعجمان ، ورسائل الشريف حسين . فلما تم « تدبير » الثورة العربية ، وتدهور الموقف بهزيمة الروس ، ثم خروجهم من الحرب ، برزت أهمية الثورة العربية ، والشريف حسين وأولاده على الجبهة العربية ، وبرز في نفس الوقت التناقض المكبوت بين آل سعود والشريف .. فقررت بريطانيا شغل « ابن سعود » عن الملك حسين ليتفرغ هذا لحرب الأتراك في المدينة والشام .. وهكذا ظهر فيلبي في الرياض ..

كانت بعثة فيلبي ذات ثلاثة أهداف : حل مشكلة الخلاف بينه وبين الكويت ، وحل مشكلة العجمان ، وترطيب الجو بينه وبين شريف مكة .

وبالنسبة للهدفين الأول والثاني ، كان يمكن للبعثة حلهما ، فهما تابعان للمكتب الهندي الذي جاءت منه البعثة ، أما قضية الشريف ، فان فيلبي وهاملتون ، لم تكن لديهما معلومات كافية عن وجهة نظر الشريف حسين . وحسن طالع ابن سعود ، جعل الشريف يمنع « ستورز » الذي يمثل مكتب القاهرة ، من السفر الى الرياض ، وهو الذي كان يفترض فيه أنه يمثل وجهة نظر الملك حسين ، وكان « ستورز » قد وصل الى جدة ، ولكن الملك أراد أن يثبت اختلال الوضع في وسط الجزيرة بسبب ابن سعود فرفض السماح له بالسفر الى الرياض خوفا على سلامته !

وهكذا خلا الجو لابن سعود ليشرح وجهة نظره للبعثة التي بهرها بشخصه ومنطقه ، وأهم من ذلك بسلوك جنوده الجدد : « الاخوان »* . وقد سجل فيلبي هذه الملاحظة عندما قال « وهكذا كانت البعثة البريطانية لا تعرف الا وجهة نظر حكومة الهند في السياسة العربية[٨١] » .

ولم تجد بعثة الحكماء الانجليز ، من حل لمشكلة العلاقة مع الشريف ، الاحث ابن سعود ، على محاربة ابن رشيد ، حتى ينشغل به عن الشريف ، وكان ابن سعود يفهم الهدف ، فطالبهم بالثمن :

---

* انظر فصل الاخوان . وقد رأينا أن أول اشارة رسمية بريطانية للاخوان هي التي وردت في تقرير وينغت الى كوكس بتاريخ ٢٣ ديسمبر ١٩١٧ ـ ١٣٣٦ بعد زيارة بعثة فيلبي .

أربعة مدافع ميدان وعشرة آلاف بندقية ، وذخيرة كافية ، عشرون ألف جنيه دفعة عاجلة لشراء طعام وجمال للركوب ، خمسون ألف جنيه دفعة شهريا طوال مدة الحملة ، لدفع مرتبات عشرة آلاف رجل .

« ولم يجد هاملتون بدأ من القبول ، لأنه أحس بأن ابن سعود متردد في تنفيذ الحملة ، فهو ـ ابن سعود ـ يعتقد أن مصير الحرب لم يتقرر ، وأن الأتراك يمكن أن ينتصروا* ، واذا انتصر الانجليز ، فيجب أن يكون مستعدا لمواجهة الشريف . ولم يكن يقبل من الانجليز أن يعاملوه على مستوى أقل من مستوى ملك الحجاز » .

« وانتهت المفاوضات بعد عشرة أيام ، بوعد بريطاني بتقليم أظافر العجمان ، وتعهد من ابن سعود بتشديد الحصار ضد تهريب التموين للأتراك . كما تعهد بأنه اذا ما توفرت الأسلحة والأموال البريطانية ، فسيحدد موعداً لهجومه على حايل ، وفقا لتقديراته هو . ولم تستطع البعثة اقناعه بأية تفاهم مع الشريف . مما جعل الملك حسين يخشى أن ينتهز ابن سعود فرصة انتشار جيوش الشريف** فيهجم على الحجاز[٨٢] » .

وهذا هو السر في اهتمام الانجليز بالحملة على « حايل » لمنع ابن سعود من اتخاذ الاجراء فعلا ، ولتطمين الشريف ، فيتفرغ لمحاربة الترك مع الحملة البريطانية على الشام . وقد لخص فيلبي رأيه في تفكير ابن سعود في تلك الفترة فقال :

« كان ابن سعود يواجه منعطفا حاسما في تاريخه ، فالطريق مفتوحة الى حايل حيث العدو التقليدي لآل سعود مازال يحكم بمساعدة الأتراك . وازالة ابن رشيد يمكن أن تؤدي الى نسف توازن القوى الذي جعل وضع الدولة غير مستقر في وسط الجزيرة . وعبر هذا الطريق (ضد حايل) يمكن أن ينال ابن سعود مساعدة من بريطانيا ، التي رغم أنها من الناحية المبدئية **ضد أي اختلال في التوازن القائم بالصحراء** ، كانت تفكر في بعض الوسائل التي تحرِّف بها انتباه الوهابيين عن النزاع مع الشريف حسين والآخرين الذين كانوا حلفاءنا . وهكذا كانت الظروف كلها مع ابن سعود ، ولكن مجرد « تآمر الظروف » لدفعه في طريق معين جعلته يشك اكثر ! فالعدو التقليدي لم يكن هو العدو الحقيقي ، وابن رشيد يمكن حل مشكلته في أي وقت ، ان لم يكن اليوم فغدا . أما الخطر الحقيقي فهو حفنة أولاد الأفاعي الذين تلقمهم الحكومة البريطانية ثدييها » (التعبير لفيلبي طبعا) . « وشعر ابن سعود بأن منافسا في الصحراء ، يشكل خطرا تافها بالنسبة لمنافس على شاطىء البحر الكبير ، يمكنه الاعتماد الى الأبد على الحماية البريطانية*** . ولوكان الأمر بيده ، لفضل أن يوجه حملته على الحجاز أو الكويت[٨٣] » .

---

* هذه حذلقة فيلبي . فلم يمر بخاطر ابن سعود أبداً احتمال انتصار الأتراك وعلى أية حال لم يشك ـ كما قال ـ في أن الانجليز سيبقون في العراق والخليج حتى لو حدث المستحيل وانتصر الأتراك !

** في حصار المدينة « وتحرير » الشام !

*** يقصد أن الحماية ستكون ميسرة بحراً حيث الأسطول بعكس ابن رشيد المعزول في الصحراء.

وهكذا فان الفترة الوحيدة في تاريخ ابن سعود ، التي شهدت تعاونا وتنسيقا على الصعيد العسكري مع بريطانيا ، كانت النوايا فيها متعارضة ، والأهداف متناقضة ، وكل طرف يلعب على الآخر . بريطانيا « من الناحية المبدئية ضد أي اختلال في التوازن القائم في الصحراء » أي ضد انتصار ابن سعود على ابن رشيد ، ولا تريد رأس ابن رشيد بل سلامة الشريف .. وشغل أو انهاك ابن سعود ، الذي بدوره يفهم هذا الهدف ، ويريد لو توجه لضرب حلفاء بريطانيا ، ابن صباح أو الشريف .. ولكنه اضطر لقبول اللعبة ، وان أدارها لحسابه ، فوافق على شن الحملة ، ضد ابن رشيد ، ولكن في الجهود التي رسمها ، وهي الحصول على الدعم البريطاني ، ومنعهم من دعم الشريف الى الحد الذي يهدده ، وذلك في اطار سياسة كسب الوقت ، وتنمية القوة الذاتية ــ الهجر والاخوان ــ التي سوف تحسم الموقف بانتهاء الحرب .

وهكذا كانت حملة حايل* ولكن خلال زيارة السير برسي كوكس ، المندوب السامي بالعراق للندن (مارس ١٩١٨) وافق الاستراتيجيون هناك على أن حملة حايل فقدت مبررها بسقوط فلسطين ، وأقنع كوكس المسئولين في لندن ، بانتظار عودة فلبي من الرياض وتقديم تقريره ، قبل اتخاذ قرار وقف تمويل الحملة . ولما توقف كوكس في القاهرة في طريق عودته اعترف لزملائه خلال مناقشة الوضع بأن مصلحة بريطانيا هي الابقاء على حايل « مستقلة » كعنصر توازن بين الرياض ومكة . وقد وافق الجميع على أن بريطانيا يجب ألا تجر للصراع في وسط الجزيرة . وأصبحت الخطة الجديدة هي تركيز كل المساعدة البريطانية على الحجاز ، ووقف أي تشجيع لابن سعود ، مع ابقائه في دائرة الطاعة من خلال جرعات قليلة من المساعدة يقدمها فيلبي .

وهكذا سرعان ما نفضت بريطانيا يدها من ابن سعود ، مؤكدة بذلك أن كل لقاءاتها معه ، كانت مؤقتة وعابرة ، وخارج اطار استراتيجيتها الاصيلة ، وغالب هذه اللقاءات فرضها ابن سعود فرضا ، وأحيانا من خلال كسب المندوب البريطاني .

وكان ملك الحجاز هو أول من عرف بالتكتيك البريطاني الجديد وأنه أضبح مركز الاستراتيجية العربية لبريطانيا ، فرأى أن يستغل الموقف ، بقص جناح ابن سعود العدو الأول . فكان التحرش في خرمة وتربة ، فوجد استعدادا طيبا لقبول التحدي لأن السعوديين ، كما قال فيلبي ، كانوا يريدون مقاتلة الشريف ، والاخوان اكثر حماسة لمقاتلة الشريف العدو التاريخي ، « وعميل » الانجليز الكفار ــ كما كان يشاع عنه ــ وقد سمعهم فيلبي يتحدثون عن « استخدام السلاح الذي حصلوا عليه (من الانجليز) ضد مكة (أي الشريف حيث كان مقر حكومته في مكة) بدلا من حايل[٨٤] » .

وفيلبي المعزول في دار الضيافة بالرياض ، يتحاشاه الاخوان ، ويبصقون حيثما سار ، لم يكن يدري شيئا عما جرى في لندن والقاهرة وبغداد ، فأصبحت حملة

---

* انظر فصل ابن رشيد .

« حايل » هدفا شخصيا* ، من ناحية لأن بعثته التي استخدم كل انتهازيته للحصول عليها ، معلقة بانجاز هذه المهمة . ومن ناحية اخرى ، لأنه كان لايزال متأثرا بالتعليمات القديمة ، وهي منع ابن سعود من مواجهة الشريف ، بشغله بحرب ابن رشيد ، وكان في الرياض يرى تصاعد كراهية الشريف والدعوة لمقاتلته ، « ونصرة اخواننا في الدين » فيتصاعد الضاحه ـ هو بدوره ـ على ابن سعود بالتوجه الى حايل ، وراح يمطر بغداد بالبرقيات والرسائل « ولكنه كان متهما عند السلطات البريطانية بان ابن سعود قد أكله » !

ولذلك استمر ينادي ولا من مجيب : « ان أفضل حل هو حض ابن سعود على الاستيلاء على حايل ، والشريف للاستيلاء على المدينة ، ثم تقسيم الجزيرة بينهما ، على أساس ضم خرمة لابن سعود ، ووضع « عتيبة » غرب خرمة تحت سيادة الشريف . وأنا أضمن قبول ابن سعود لتخطيط جاد للحدود[٨٦] » .

وفي الرياض اشتم ابن سعود رائحة تغير الموقف البريطاني ، قبل أن يعرف ذلك فيلبي ـ ممثل حكومة صاحب الجلالة ـ فطلب من فيلبي اعطاءه ثلاث ضمانات ، مقابل وعد بالتحرك لمهاجمة حايل خلال ١٥ يوما : ضمانة بأن الشريف لن يهاجم خرمة . والعجمان لن يتحركوا في الشرق ، وشمر لن تدلل من قبل السلطات العراقية »[٨٧] (البريطانية) فأعطاه فيلبي الوعد ، وتحركت الحملة « ولكن (الادارة البريطانية) في بغداد رفضت دعم هذه الضمانات ، ولا حتى من ناحية كبح ابن صباح » .

وفي ١٢ يوليو ١٩١٨ أي قبل ثمانين يوما من وصول الأنباء الى فيلبي ، زاره ابن سعود في غرفته بالقصر وقال له « انه يشعر بأن موقف حكومتنا لم يعد بنفس الحماسة التي كان بها عند بداية مهمة فيلبي (تأمل الحس السياسي ، أو هل كانت له مخابرات داخل الأجهزة البريطانية . أم لاحظ اهمالهم فيلبي وعدم الاتصال به من بغداد ؟) وهذا يرجع الى نقص ثقتنا به ، وقال انه لا يوجد شخص مسلم أو مسيحي لديه أسبابه ، لكراهية الترك ، ليس فقط لأسباب دينية ، بل لأنهم دائما يردون الحسنة بالسيئة ، ففي عام ١٩٠٤ عندما أرسلوا قواتهم لمساعدة ابن رشيد ، هزمهم في البكيرية ، ولكنه سمح لهم بالرحيل ، دون أن يساء اليهم ، الى البصرة والمدينة . ومرة أخرى عندما استولى على الأحساء عام ١٩١٤ (اخطأ فيلبي فهي ١٩١٣) سمح للجنود الأتراك بالجلاء بأسلحتهم ، « وقال انه يكره الأتراك ، وفوق ذلك فهو يتتبع أخبار الحرب في أوروبا باهتمام كبير ، ولكنه لا يشك أبدا في أن العراق والخليج سيبقيان في يد بريطانيا ، ومن ثم فمن مصلحته الشخصية ، وحتى من الناحية الأنانية ، لا مصلحة له في البحث عن صديق غيرنا » .

« فأكدت له أن ولاءه لم يكن يوما محل شك ، ولكني رجوته أن يلاحظ ، أن أعداءه

---

* كان فيلبي يكتب لزوجته عن الحملة على حايل فيقول عنها « حملتي » بياء الملكية[٨٥] .

لم يملوا أبداً من الاشارة الى نقص انجازاته ، وعجزه ، سواء عن منع التهريب للأتراك من أراضيه ، أو احراز نصر عسكري حاسم[88] »* .

وفي الثاني من أكتوبر ١٩١٨ ــ ١٣٣٧ وصل البريد وفيه بلاغ بأن الحكومة البريطانية ، لا تريد أن يتقدم ابن سعود في حملته ضد حايل حتى لا يؤدي نجاحه في الاستيلاء على حايل ، الى تعكير مزاج الملك حسين ، وبالتالي يعرقل حملة لورنس في سوريا** . ولكن فيلبي يشك في هذا التفسير. المهم ان القرار اتخذ ، وقرروا حتى الغاء هدية من ألف بندقية وذخيرتها ، كانت قد سلمت بالفعل لعبدالله النفيسي وكيل ابن سعود في الكويت » . « وسحب هدية أعطيت فعلا كان أمرا لا يمكن أن يبرز » ... بل ورفضوا ارسال لجنة لتحرى موضوع خرمة . ويقول فيلبي انه على ضوء التطورات التي حدثت بعد ذلك ، يمكن القول انه من حسن حظ ابن سعود ، أن مستشاري صاحب الجلالة (البريطاني) كان يتصرفون عن جهل وتحيز (ضد ابن سعود) . وعندما قابلته كان قد قرأ خطاب وكيله في الكويت وعرف نبأ مصادرة البنادق (الهدية) ؛ قال : « من سيصدقكم بعد ذلك ، أو يثق بكم ؟ لم أكن أريد مهاجمة حايل ، ولكنكم ضغطتم علي لأفعل ذلك . والآن تقولون لي توقف ! وتحرجوني أمام شعبي ، ثم تزيدون الأمر سوءً بسحب البنادق ! » .. واستمر يتحدث وأنا لا أكاد أقف على قدمي ، ولا أجد ما أقوله !.. « اذا رفضت حكومتك تغيير سياستها ، فلا أرى فائدة من رجوعك ، سأريهم ماذا أستطيع أن أفعل ، ان الشريف هو المسئول عن توجيه هذه الضربة لي . لقد خدع حكام مصر*** وسأهاجمه ، مادامت حكومتكم تعاملني هذه المعاملة مراضاة له » .

وقال : « ان الحكومة البريطانية أصبحت حكومتين ، واحدة في مصر تفتح أذنيها للشريف ، وتصدق كل ما يقوله ، وتنفذ كل رغباته ، بالحق أو الباطل . والأخرى في العراق تستقبل أعداءنا بالأحضان ، وتمنعنا من القصاص منهم[90] . »

فمهما قيل عن تناقض المكتب الهندي مع المكتب العربي ، أو حكومة الهند مع

---

* وهذه ردا على تفسير موقفه بأنه يتوقع انتصار الأتراك بعد تردي وضع الحلفاء في أوروبا بخروج روسيا ، والهجوم الألماني .

** وقد ورد هذا الموقف في خطاب المندوب السامي بالقاهرة في ١٢ صفر ١٣٣٨ (٥ نوفمبر ١٩١٩) اذ قال : « وقد طلبت حكومة صاحب الجلالة من ابن سعود وقف الحركات العدائية ضد ابن رشيد ، الذي كان قد شرع فيها بناء على طلب الحكومة البريطانية[89] » .

وجاء في تقرير وينغت الى كوكس ــ الذي حصلنا عليه ــ أن الحكومة البريطانية سيسعدها اذا ما نجح فيصل (ابن الحسين) في الشمال « فيمكن أن نرى ممثلا للشريف مكان ابن رشيد ، وبالنظر الى روح مفاوضاتنا مع الشريف ، لا أعتقد أننا يمكننا الاعتراض على ذلك » أي اعطاء حايل للشريف ! والمذكرة تفسر هذا الموقف بأن السيطرة على الشريف العلماني أسهل من السيطرة على ابن سعود باخوانه المتعصبين ! بتاريخ ١٩١٧/١٢/١٣ .

ولعل هذا القول يكشف مزاعم العلمانيين عن الرجعية والتقدمية .

*** يقصد الادارة البريطانية طبعاً .

حكومة لندن ، فالكل ضد ابن سعود* .

وكان فيلبي قد أخبره بصراحة أن بريطانيا ملتزمة بقرار مؤتمر القاهرة الذي اعتبر خرمة واقعة في أراضي الشريف . ولذا لن تعترض محاولة الشريف اعادتها الى سلطانه . » « فكان صريحا معي ، وقال انه لن يتحمل أية مسئولية لتصرف شعب خرمة اذا ما وقع عدوان جديد عليهم[91] » وقال له ابن سعود : « ستندمون يوما على سياستكم الخاطئة هذه » .

ورغم أن ابن سعود ، منعاً للخلاف مع بريطانيا ، سحب قوات الاخوان الرئيسية من المنطقة ، ودفعهم الى حايل في الحملة التي ترأسها ابنه تركي ، ولكن الهجوم الهاشمي صد وانتصر الاخوان ، ولما عاتب فيلبي ابن سعود لسروره بانباء انتصار الاخوان على القوات الهاشمية ، رد ببساطة : « أليس ذلك أفضل من سماع نبأ هزيمتهم[92] ؟! »

كانت السنوات من ١٩١٩ الى ١٩٢١ سنوات قاسية ، بدأت بوفاة « جوهرة » والغدر البريطاني ، وتوجت بالحصار الهاشمي ، واهمال ابن سعود وتطويقه ، وقد لخص فيلبي حالة ابن سعود ، أو قل وضع ابن سعود كما كان يبدو في الملفات البريطانية ، فقال إنه قابله في سبتمبر عام ١٩٢٠ « في العقير عندما جاء لمقابلة سير برسي كوكس الذي كان في طريقه لتولي منصب المندوب السامي في العراق ، وعرفت أن حملة حايل ، لاتزال حيث تركتها في أغسطس ١٩١٨ ، والدولة الوهابية ، رغم انتصار تربه ، لا تحتل إلا مكانة تافهة في اهتمامات الحكومة البريطانية ، المنحازة بدون مبرر للعائلة الشريفية . فقلت له إن الحكومة البريطانية لن تأبه له ، أو تحمله على محمل الجد ، ما لم ينتصر على ابن رشيد ويمح امارة شمر من خريطة الجزيرة . فقال : « كل شيء سيكون على خاطرك يا فيلبي إن شاء الله » . وفي أغسطس التالي ١٩٢١ (١٣٤٠ هـ) سقطت حايل ، وخلال ثلاث سنوات ، أصبح ابن سعود سيد الجزيرة[93] » .

كانت الخريطة البريطانية التي أقرت في مؤتمر القاهرة عام ١٩١٩ هي :

« مملكة الحجاز وعليها الشريف ، مملكة أو إمارة عسير ويمكن أن توضع تحت السيادة الهاشمية بصورة أو أخرى ، منعاً لتآمر حكامها مع الطليان .

سلطنة نجد — مع إضعافها الى أقصى حد لمنع الخطر الوهابي — ثم إمارة شمر الحاجز بين ابن سعود وعروش الهاشميين في الأردن والعراق . مع أمكانية تمديد الكويت على حساب ابن سعود ، واقامة دويلة جديدة في العمارات بين نجد

---

* ويمكن القول ان هذا التحول كان بعد اخراج تركيا من الجزيرة ، وظهور خطر الحركة الوهابية في دولة ابن سعود ، وتركيز الادارة الهندية والخليجية على العراق كمركز الثقل في المنطقة .

والعراق[٩٤]* .

وكانت كل الأطراف العربية المعنية ، موافقة وسعيدة وحاضرة للتنفيذ ، إلا عبد العزيز وحده الذي مزق الخريطة ، ورسم خريطته هو : « مع تحياتي وصداقتي أنا وأجدادي للحكومة البريطانية » !

غفل الانجليز في حصارهم** لعبد العزيز ، عن الطاقة الهائلة التي فجرها ابن سعود في « الهجر » والتي كانت تتجمع كالسيل في المضيق لتفجر الصخر من حولها ، وتطيح بكل ما يعترض طريقها ، تماما كما وصف ابن سعود ذلك السيل الذي يملأ واديهم مرة في كل قرن فيغير وجه الحياة والأرض .

وقد لمس الريحاني ، الحصار البريطاني حول ابن سعود ، وإن أساء الفهم ، أو التفسير ، أولعله غلبت عليه روح النكتة ، غافلا عن الخلود الذي قدر لكتابه مما يجعل النكتة غير مفهومة بمرور عصرها*** . ثم رأى ابن سعود الانجليز يزرعون الأشراف من حوله : فالى جانب الشريف حسين في الحجاز، وصل فيصل للعراق، وعبد الله الى الأردن ، ثم وصلت اليه أبناء المفاوضات مع ابن رشيد وكان يعرف جيداً أنه لا يستطيع أن يكسر الطوق في اتجاه العراق ولا الأردن او الكويت ، فهي ممتلكات بريطانية ، وإن جلس على العرش شريف قرشي ! كذلك لم تكن الظروف قد نضجت للتحرك في اتجاه الحجاز ، فالانذار البريطاني مازال صداه يدوي في البلاط السعودي ، الانجليز لم ينفضوا يدهم بعد من الملك حسين ، وأفضل سياسة مع الملك حسين هي سياسة طي البساط بتصفية الجيوب في الجزيرة ، وهكذا ضرب ابن سعود السلسلة في أضعف حلقاتها وأطاح بابن رشيد . وأصبح كما قال أحد التقارير « سيد الجزيرة بلا منازع وزعيمها » وما من معجزة يمكن أن تمنع صدامه مع الشريف حسين . خاصة بعدما وضع عسيراً ونجران تحت عباءته . والفضل لهذا الوضع الجديد الذي بدأ يفرض نفسه على جميع حقائق الجزيرة ، وكل القوى التي يعنيها أمرها ، هو ما قاله ابن سعود لفيلبي : « يجب ان تعلم انه يكفي ان أصدر النداء ، ليهب للقتال تحت رايتي ألوف من بيشه الى نجران ، ومن رانية الى تثليث وغيرها . ليس فيهم من لا يحب الموت في سبيل

---

* قال الريحاني إن الانجليز كانوا يريدون إنشاء محمية مستقلة على طريقتهم حول عدن . عند الشمال من العمارات بين نجد والعراق .

** قال غلوب باشا : « اعتبر ابن سعود تعيين الأمراء الأشراف من حوله مؤامرة بريطانية موجهة ضده[٩٥] » .

وهذا يعطينا فكرة عن مدى حسن الظن المتبادل .

*** انظر كتاب الريحاني عن نجد .

العقيدة . وكلهم يؤمنون بأن الفرار من الزحف يدخلهم النار* »[٩٦] .

فالقوة الذاتية ، عندما تختل المعادلة الدولية ، هي التي تمكن القوى الوطنية من حماية مصالحها ضد تطورات الوضع العالمي الجديد ، وبقوة الاخوان ، أو بالتحول من دولة الى حركة ، ومن نظام الى ثورة ، استطاع عبد العزيز أن يقاوم الاستراتيجية البريطانية المعادية ، ويحطمها تدريجيا ، في حايل وعسير حتى جاء دور الشريف حسين في الحجاز ..

وقد أفردنا فصلا خاصا للأشراف ، ولكن ما يعنينا هنا ، من ناحية الانجليز ، هو أن التحرك السعودي ، وإن تم في ظل معادلة دولية ملائمة ، لم يكن بالتنسيق مع بريطانيا ، وان استطاع شلها عن التحرك وتحييدها ، إلا أن الملك ظل الى آخر لحظة يتوقع تدخلا بريطانيا ضده ولصالح الملك حسين ..

ورواية حافظ وهبه مهمة ، وإن أثارت ثائرة البعض وهي فعلا من شأنها أن تصيب القارىء بشيء من الانزعاج ، اذ يبدو فيها ، الشيخ ، وكأنه هو الذي أقنع عبد العزيز بفتح الحجاز ! ومع ذلك فلا يجوز إهمالها لمجرد المجد الذي تخلعه على الشيخ السفير ، الذي هو لسوء الحظ الشاهد ، والمدعي ، والمستفيد !.. إلا ان وجه الأهمية في روايته هو إثباتها أن عبد العزيز لم يكن واثقاً من موقف الانجليز ، الى آخر لحظة . وكان يحسب حساب تدخلهم ضده . يقول وهبه : « إن الجو السياسي كان ملائما لابن سعود ، من جميع النواحي » . وبعد أن يعدد عناصر هذه الملاءمة ، يصل الى موقف الانجليز فيقول : « وكان الملك حسين يقف تجاه فلسطين ، موقفا ، لا يرضي بريطانيا فعلى من يعتمد ؟ إنه كان يعتمد على أخيلة لم تحققها الأيام . لذلك أشرت على الملك عبد العزيز أن يضرب ضربته بالاخوان النجديين سيوف الاسلام**. ولكن ابن سعود لم ينس إنذار البريطانيين له في سنة ١٩١٩ ولكنني شرحت لجلالته الظروف التي تحيط بالملك حسين في ذلك الوقت ، وهي تختلف اختلافا بيناً عنها في ١٩١٩ . ففي تلك السنة كان الحسين حليفا مطواعا لبريطانيا . وفي سنة ١٩٢٤ أصبح مناوئا ، ولكن ابن سعود كان متهيباً أكثر منه مترددا ، وأنا استحثه على انتهاز هذه الفرصة[٩٧] » .

وبرغم أن الشيخ يأخذ بالتفسير السطحي ، السهل ، الرائج ، وهو أن الحسين فقد عرشه لأنه عارض إعطاء فلسطين لليهود ، وهو ما سنناقشه في حينه ، ويكفي أن نقول الآن ، إن هذا التفسير يشبه من يعلل سقوط فاروق بأنه دخل حرب فلسطين ورفض عقد الصلح مع اسرائيل !! إلا أن ما يعنينا هنا ، هو أن الملك عبد العزيز لم يكن يشارك

---

* وقال « تسير الآن ورائي جيوش جرارة لا تقل عن اربعمائة الف مقاتل ان بكيت بكوا وان فرحت فرحوا ، وان أردت نزلوا على ارادتي وأمري . وان نهيت انتهوا وهؤلاء هم جنود التوحيد إخوان من أطاع الله » .

مساء الجمعة ٥ ذي الحجة ١٣٥١ .

** أنظر فصل الاخوان ، لترى كيف سبهم وهبه !

الشيخ قناعته بتحول موقف الانجليز تماما ، وإلا لما تهيب وسأل وتحرى ، فقد كان يعرف تمام المعرفة ، قوة الملك حسين ، ويثق تمام الثقة في قدرة الاعصار الاخواني على اجتياح جيشه ، كما تلتهم النيران أعجاز النخل ، ولكن الملك كان متوجسا من موقف الانجليز .

ومن ناحية الانجليز ، فقد شرحنا في فصل الأشراف ، أنه ما كان بوسعهم التدخل في معركة الحجاز ، ولكنهم بذلوا جهدهم لاستثمارها « وقصقصة » مملكة عبد العزيز ، فانتهزوا حالة الحرب الباردة والساخنة بين الرياض وجدة ، واقتطعوا مناطق في الشمال في نجد وألحقوها بالعراق* ، كما اقتطعوا العقبة ومعان من الحجاز وألحقوهما بمحميتهم الجديدة : « شرق الأردن » كما حصل بريطاني** على امتياز نفط المنطقة الشرقية وإن لم يكن على هوى الانجليز تماما ، كما حصلوا على اعتراف ابن سعود بالحدود العراقية والأردنية والكويتية ..

ومن القضايا الرئيسية التي استطاع عبد العزيز أن يشل التدخل البريطاني فيها ، بل وأن يوظف « قوة » بريطانيا لصالحه ، رغم توتر العلاقات بين الرياض ولندن ، وتآمر بريطانيا ضده بكل قواها في مواقع أخرى ... قضية توحيد عسير ..

---

* الجزيرة كلها تقسيمها مفتعل . ولا تعني إشارتنا هنا أننا نتثير أو نطرح أو ندعم أية مطالب إقليمية لأي طرف . فبعد استقلال الدول العربية لم يعد يهم أين تمطر السحابة أو يتفجر النفط .

** وهو فرانك هولمز الذي حصل على امتياز النفط في المنطقة الشرقية . أو ما حصلت عليه أرامكو بعد عشر سنوات . حصل عليه هذا الانجليزي في عام ١٩٢٣ مقابل ألفي جنيه في السنة ، ودفع عامين ثم توقف ! وقد ألغى عبد العزيز امتيازه عام ١٩٢٨ .

فسبقهم إليها ابن سعود !

لم يكن من الممكن حل قضية عسير إلا بعد حل قضية الحجاز ككل ، وتقرير مصيره أو بمعنى آخر تقرير مصير الجزيرة العربية .. هل ستكون للأشراف أم للسعوديين ؟! ومع ذلك لم يغفل ابن سعود لحظة واحدة عن عسير حتى وهو في أحلك سنواته من ١٩١٩ ـ ١٩٢١ وحتى قبل أن يفتح حايل ويتخلص من ابن الرشيد الذي كان يمثل التحدي التاريخي ، بل التحدي المباشر لهيبة ابن سعود ، بعد مازال التحدي العسكري بتفوق ابن سعود وجيشه الاخواني .. ففي هذا الوقت المبكر استطاع التحرك من خلال خلاف الأهالي مع أمراء آل العايض ليفرض وجوده في أبها ، وليعقد معاهدة مع الأدريسي للصداقة والتعاون ، ووضع الأدريسي أولاده تحت رعاية ابن سعود .. وعندما حاول الملك حسين إخراج ابن سعود من أبها بتحريض آل العايض ودعمهم عسكريا ، سحقهم ابن سعود وأعاد السيطرة على أبها .. وبقي الأدريسي والقسم الساحلي من عسير ، وهو بموقعه لا يقل أهمية عن الأحساء باستثناء النفط ! وكانت كل الظروف تشير الى احتمال انفصال هذا الاقليم ليصبح كيانا مشوها أو مشيخة أو سلطنة لا سبيل أمام حكامها إلا الارتباط بالقوى الأجنبية ، والتحول الى سوق مضاربة للدول الكبرى ونفوذها ..

وقد بدأت المرحلة الحاسمة في تصفية عسير بعد فتح الحجاز ، ومع تدهور العلاقات السعودية ـ البريطانية ، التي كانت في أسوأ سنواتها عندما تمت الخطوات الأخيرة في ضم الاقليم .. ومع ذلك استطاع ابن سعود أن يجعل التوازن الدولي لصالحه ، وذلك بمجرد دفع خصمه المحلي للاستعانة بالطرف الأضعف في المعادلة الدولية ، ورفض كل عروض هذا الطرف ، وادعاء أنه يمثل مصالح الطرف الأقوى ، وهي لعبة بدأها عبد العزيز ، وتمارسها اسرائيل بنجاح كبير مع عرب لا يتفوقون كثيرا على ابن جراد وابن الرشيد والحسن الأدريسي !!

وعسير منطقة غامضة التاريخ ، مبهمة الحدود ، وخاصة مع اليمن ، أهلها في غالبيتهم من الشوافع الذين يفضلون أي حكم على « زيود » اليمن ، وإن كان فيلبي وغيره قد سجلوا بعض الطقوس في نجران* لا يمكن أن تنسب لثقافة عرفت الاسلام !

---

* قبل قيام السلطة السعودية .

وعسير اذا تمددت ضمت أجزاء لا شك في يمنيتها مثل الحديدة ، وإذا انكمشت تعرضت لادعاءات يمنية لا شك في تطرفها ، مثل ادعاءات الامام يحيى في جيزان ونجران . وقد قدر تعدادها بمليون ونصف مليون نسمة ، وهو تقدير فيه مغالاة* ، ووضع على أساس حساب عدد المحاربين ونسبتهم للذكور ونسبة الذكور للأناث .. الخ .

وقد اقترن اسم عسير في المرحلة السعودية بالأدريسي ، وآل العايض ، أما الأدريسي ، وهو الأهم ، فهو صوفي جاء من المغرب من مدينة « فاس » ووصل الى الجزيرة مع سقوط الدولة الوهابية وانتشار المغاربة في جيش محمد علي هناك (١٨٣٠ ـ ١٢٤٦ هـ) . « وأحمد بن ادريس » هذا ككل من يحمل اسم ادريس في المغرب يرفع نسبه الى الامام ادريس بن عبد الله المحض الحسيني بن فاطمة الزهراء .... وقد نزل الصوفي الأدريسي هذا في صبيا شرق جيزان وجنوب أبها بمائتي وعشرة كيلومترات ، و ٧٦٤ كيلومترا جنوبي جدة .

وكما هو الحال في جميع الأساطير ، فان الأسطورة تبدأ بوفاة الرجل الصالح ، وبناء « القبة » على قبره . ومن حسن حظ الذين تاجروا بالأدريسي أنه مات بعد زوال الحكم الوهابي ، وإلا لما استطاعوا بناء قبة على قبره ، في ظل دولة شعارها « خير القبور الدوارس » .

بنى الأبن « القبة » وجلس بجانبها يدعو لطريقة أبيه ، ويجمع النذور والمال بالايمان الساذج ويشتري الايمان المأجور بالمال ، أما حفيده فقد سافر الى مصر والى بني غازي والكفره حيث اتصل بالطريقة السنوسية ، التي كان لجده اتصال بها ، مع اختلاف المنهاج والسلوك ، ويبدو أن هذا الحفيد تعلم سحر الفراعنة في مصر ، فروي عنه أنه عاد بصندوق يحدث هزة كهربائية ، تعيد الايمان للمتشككين ، حتى اذا صاحوا : مدديا ادريسي أوقف التيار !.

وقد ظهر هذا الألعبان في فترة تدهور سياسي وديني عام شملا العالم العربي ، وانتشر في ظلهما أدعياء المهدية ، والطرق الصوفية المتخلفة ، وذلك في نهاية القرن التاسع عشر . واستطاع هذا الأدريسي أن يتولى إمارة عسير برضاء الدولة العثمانية ، ليعود فينقلب عليها .

كانت إمارة الأدارسة مفتعلة ، بلا أساس ، من التاريخ ، أو الواقع ، ولا رسالة لها ، تمثل أحط صور التخلف الديني ، أو الشعوذة ، وتدهور الصوفية ، وتحولها الى أداة لخدمة الاستعمار الغربي ، فكريا ، وعمليا ، فأحمد الأدريسي ألف كتابا برهن فيه على أن طلب الرزق ـ أي العمل ـ حرام !.. وزعم أن النبي ـ صلوات الله عليه قال :

---

* ASir before World War I.

Sir Kinahan Cornwallis P11.

« لو ركب الانسان الريح وهرب من رزقه لركب الرزق البرق وأدركه حتى يدخل في فمه[98] » .

وتخيل مثل هذه الفلسفة في القرن التاسع عشر ، قرن الانقلاب الصناعي ، وأين ؟ في العالم الذي يواجه زحف الذين يركبون الريح لسرقة رزق الشرقيين !..

ولكن الأدارسة انفسهم لم يؤمنوا بهذه التعاليم ، وفي سجلات وزارة الخارجية البريطانية ، قصة مخزية عن مطاردة « مصطفى الأدريسي » بالريح والبرق والبغال لمبلغ خمسة الآف جنيه دفعت له من المخابرات البريطانية في القاهرة ثمنا لخروجه في « اثنى عشر ألف مقاتل على الأتراك فدحرهم دحرات متوالية » .

وهذه الدولة المفتعلة ، لم يكن لها أن تقوم أو أن تستمر إلا بارادة خارجية ودعم أجنبي . وبلعبة التوازن الأميبية التي أشرنا اليها ، والتي تمارسها الكيانات التي لا جذور لها ولا مقومات !

وكانت بداية اللعب مع الطليان ، الذين كانوا في اريتريا ثم بدأ تطلعهم لاحتلال ليبيا ، التابعة ـ وقتها ـ للدولة العثمانية ، التي كانت بدورها تتطلع الى فرض سيادتها على اليمن الثائرة ، وإحكام قبضتها على الشاطىء الشرقي للبحر الأحمر ، بعد أن خرج الشاطىء الغربي كله من سيطرة المسلمين وربط الأدريسي نفسه بعجلة الطليان ، الذين دعموه بالسلاح ليشغل الأتراك عن غزوهم لليبيا وتدفق عليه السلاح الذي نقل «من مصانع ايطاليا الى جيزان[99] » . وتقدم فأحتل ما بقي من تهامة من شمالي الحديدة الى جنوبي « قنفذة » واحتل أبها ، ولكنه أخرج منها ، فعاد بدعم الايطاليين وحاصر القوات العثمانية بقيادة سليمان شفيق باشا الكمالي ، عشرة شهور (١٩١٠ ـ ١٩١١) (١٣٢٨ ـ ١٣٢٩ هـ) حتى أكل الباشا وعسكره الهررة والكلاب . وهب الشريف حسين لانقاذ الجيش العثماني فجرد حملة فك بها حصار الأدريسي لأبها في صيف عام ١٩١١ . ويقال إن الأمير عبد الله بن الحسين رد على الذين انتقدوا دعمهم للأتراك ضد العرب ، بقوله : « وماذا نستفيد اذا تمزق جنوب الجزيرة بين أيدي جهلة يفتحون الباب للنفوذ الأجنبي » ؟

إلا أن الحظ أو بركات الأدريسي كانت في صعود ، فسرعان ما دخلت ايطاليا الحرب رسميا ، ضد الدولة العثمانية بغزوليبيا (٥ شوال ١٣٢٩ ـ ١٩١١/٩/٢٩) وهنا تلألأ ولمع الأدريسي*! «فأخذ من الايطاليين سلاحا استخدمه نارا وسياسة على عدوهم وعدوه (أي ضد تركيا عدوة الايطاليين وعدوته) وأخذ من الانجليز مالا وسلاحا فخدم الحلفاء في الجزيرة[100] » .

وقد تحدثنا عن الحرب التركية ـ الايطالية ، كما تسمى ، أو الحرب الايطالية ـ

---

* قال الريحاني ولم يلمع نجم السيد محمد الأدريسي وتلألأ في سماء آل ادريس ، الا خلال حربين بين الدولة العثمانية ، ودول الأفرنج . أي حربها مع ايطاليا . ثم الحرب العظمى ضد الحلفاء .

العربية* ، وكيف كانت هذه الحرب ، المحك الذي كشف معادن الرجال ، فطوى العرب المخلصون خلافاتهم مع الترك ، ورفعوا شعار الوحدة ضد الغزو الايطالي ، وكان في مقدمة هؤلاء إمام اليمن الذي حارب الأتراك أكثر من عشر سنوات ، وأذاقهم وذاق منهم الأمرين ، فلما وقع العدوان الايطالي البشع ، أوقف الحرب ، وعرض إرسال قواته الى ليبيا للقتال الى جانب الليبيين والأتراك ، حتى « ابن صباح » تبرع للجيش العثماني ! بل وأشرنا الى موقف سلطان لحج الذي تحول موقفه تماما بعد هذه الحرب مع أسف الريحاني . واجتاحت المنطقة العربية من مصر الى العراق موجة من الاتحاد والحماسة ، للمقاومة الليبية ، التي كانت بقيادة السنوسيين ، بل وثار العطف والولاء للدولة العلية التي تعلقت بها الآمال والقلوب ، في محنتها ضد الغزو البربري الايطالي .. إلا الأدريسي هو وحده الذي رأى في محنة المسلمين العرب في ليبيا ، فرصة لضرب الأتراك في الجزيرة ، وتدعيم حكمه . وقد استعان في هذه المرة بالأسطول الايطالي جهارا نهارا .. لطعن الدولة ، وتنفيذ المخطط الايطالي . ولم يأبه حتى بالصلة الروحية والتاريخية التي تربط بيته بالسنوسيين**، فساهم في المجهود الحربي ضدهم ، وأعان عليهم الغازي الاستعماري الصليبي .. وسنرى كيف ينتقم التاريخ على يد السعوديين !

بنشوب الحرب العالمية ، نقل الأدريسي خيامه الى مضارب الانجليز ، وكان أول حاكم عربي يحالف الانجليز ، وتنص معاهدته صراحة على محاربة الأتراك*** (١٩١٥ ـ ١٣٣٣ هـ) كما عقد معهم معاهدة ثانية عام ١٩١٧ (١٣٣٥ هـ) وقعهما مصطفى الأدريسي وقبض الثمن خمسة الآف جنيه ، وقطعة أرض في مصر وعلاج أسنانه على حساب المخابرات البريطانية في القاهرة**** !

وكانت مهمة الأدريسي ، هي منع الأتراك من استخدام مواني البحر الأحمر ، أو جزر فرسان أما الحديدة فقد احتلها الانجليز ، وسلموها للأدريسي بعد الحرب ، على إثر إجراء استفتاء هناك اختار فيه الأهالي أكثر من جهة لتحكمهم إلا الأدريسي ،

---

* أنظر فصل الأتراك .

** مؤسس الحركة السنوسية درس بعض الوقت على الأدريسي الأول ، أما هذا الأدريسي حليف الطليان فقد عاش فترة بين السنوسيين .

*** نصت المادة الثانية على : « القصد من هذه المعاهدة هو اعلان الحرب على الأتراك وتوطيد عرى الصداقة ما بين حكومة بريطانيا والسيد الأدريسي المذكور آنفا وأعضاء قبيلته » . وقد وقع عن بريطانيا المعتمد البريطاني في عدن ، وصدق عليها حاكم الهند في ١٥ جمادي الآخرة ١٣٣٣ ـ ٣٠ ابريل ١٩١٥ . كما تضمنت بندا تعد فيه بريطانيا بالتحكيم بين الأدريسي واليمن حول مطالبهما فيما يتعلق بالحدود عند انتهاء الحرب (دون استشارة اليمن في هذا النص !!) .

**** انظر وثائق المكتب العربي خلال الحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٥ .

فأعطاها الانجليز للأدريسي* !..

أما معاهدة ١٩١٧ (١٣٣٥هـ) فقد تعهد فيها بالا يبيع أو يؤجر أو يتنازل .. الخ عن جزر فرسان أو موانيه لأية قوة أجنبية . وأن يطلب مساعدة بريطانيا ضد أي تهديد لهذه المناطق ، وتعهدت بريطانيا بحماية جزيرة فرسان وهذه الشواطىء أو الموانى الأدريسية . وتزويد الأدريسي بالسلاح خلال وبعد الحرب . **وتوفير حق اللجوء في أراضيها اذا ما وقعت أزمة في بلاده » !!**

ورغم تحمس الريحاني للأدريسي لأنه حارب الأتراك ومنفتح على الأجانب ، ومع أنه تبنى وجهة نظره في الدفاع عن نفسه ضد إجماع العرب على عمالته واستنكارهم موقفه خلال الحرب الايطالية ـ الليبية**، إلا أن الريحاني نفسه ، وجد الأدريسي عميلا أكثر من المطلوب ! فاختلف معه حول صيغة المعاهدة ، إياها ، التي كان الريحاني يسوقها في قصور الأمراء العرب لتوحيدهم ! إذ أصر الأدريسي على أن ينص في معاهدة الوحدة العربية ، على تفضيل بريطانيا على سائر الدول الأوروبية ، فقال الريحاني :

« اني وان كنت من رأي سيادتكم في تفضيل انكلترا على سواها من الدول الأوروبية ، فاني لا أستحسن ذكر اسمها في المعاهدة » . ولكن الأدريسي الذي يحب أن يلبس مشهوراً .. يصر ! فيرد الريحاني ناصحا : « خير لكم يا مولاي والانكلترة أن لا نذكرها في المعاهدة . وأنا لا أرى ما يوجب ذكرها في معاهدة بينكم وبين أمير عربي آخر » ...

ولم يستطع الريحاني إلا أن يثبت هذا الترامي على الاستعماريين وفسره بقوله : « إن مثل هذه السياسة الروحية المدنية ، المتوكلة في معظم شأنها على الأنكليز لا

---

* قال الريحاني سألوهم « من تريدون ليحكمكم بدلا من الانجليز ؟ » فقالوا جميعا : « نريد الأتراك » ! فقال القنصل هذا مستحيل . فقالوا : « نبغى اذا الحكومة العربية المصرية ، نبغى الانضمام الى مصر ، ولكن ممثل حكومة عدن أفهمهم أن رجوع الترك الى الحديدة أمر مستحيل ، وكذلك حكم المصريين . وقام الأدريسي باحتلالها في يناير ١٠١١٩٢١ » .

** دافع الأدريسي عن موقفه من تلك الحرب في رسالة للامام يحيى قال فيها : « أما ما أشرتم اليه ، في ما بيننا وبين الأجانب . فلو راجعتم التاريخ بالنظر لما قد مضى بيننا وبين الطليان ، الذين أمدونا بما علمتم ثم وقع الصلح بينهم وبين الترك ، فأنكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة » !..

وهو عذر فيه فجور يفوق الذنب ، فلأن تركيا هزمت أو خانت وسلمت ليبيا للمحتل ، فقد ثبتت براءة من بادر بدعم المحتل الايطالي ؟!..

كما حمل الادريسي على الامام يحيى لأنه صالح الأتراك بعد الحرب الليبية ـ الايطالية ، وخلال الحرب العالمية فقال : « نحن أول من حمل على الأتراك في الحرب الكبرى ، وأول من أنضم الى الحلفاء ، أما هو (الامام) فأتفق مع الأتراك وانسحب الى شهاره ، وأقام هناك بعيداً عن ساحة القتال[١٠٢] » .

ووصف تقرير القنصلية الامريكية في عدن السيد مصطفى الأدريسي بأنه « عميل بريطاني شديد العمالة » « an out and out British Agent » .

وقال عنه « خادم الأنجليز » و « خادم مخلص لبريطانيا » .

تستغرب من أمير* يعد في البلاد دخيلا » .

وبانتهاء الحرب رأى الأدريسي نفسه بين الملك حسين ، نجم الاستراتيجية العربية لبريطانيا ، والمؤيد من الانجليز بلا حد ، وبطل الثورة العربية ، الذي استأثر وحده بمجد الحرب ضد الأتراك !. وبين إمام اليمن ، الذي تخلص من الخطر التركي ، بل كافأه الأتراك على موقفه في الحرب فتركوا له سلاحهم ، وبدأ يتطلع لالتهام الأدريسي : « الدخيل** والعميل وحليف الكفار على المسلمين .. الخ » في نفس الوقت كانت ايطاليا ، مع شديد رغبتها في اقتطاع عسير ، تفضل كسب إمام اليمن على إمام عسير ، فضلا عن أن ايطاليا في هذا الوقت كانت مشلولة باضطراب أوضاعها الداخلية ، وصراع الشيوعيين والفاشست*** . وهكذا تلفت الأدريسي حوله ، فلم يجد إلا ابن سعود فوضع أولاده تحت وصايته (١٣٣٨ هـ ــ ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ م) .. ولكن بعد عام عندما جرى تطويق ابن سعود بالأشراف وأنذره الانجليز ، وبدا أن موقف الملك حسين هو الأقوى وتمرد آل العائض في أبها وحاولوا تنفيذ انقلاب ضد الوجود السعودي الذي دخل الاقليم ــ كما قلنا ــ بناء على طلب الأهالي ، تشجع الأدريسي فطلب من ابن سعود تسليمه « إمارة العائض » باعتبارها جزءاً من إمارة عسير « الكبرى**** » ! ولكن ابن سعود رد عليه الرد اللائق الذي ألزمه حده ، فقد قال له « حنا ما نآخذ الصاحب على أول زلة » !

أي عفونا عنك لأنها الغلطة الأولى .!.. فاستقام الى أن مات سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) وخلفه ابنه علي فانتهز ثعلب صنعاء اضطراب الوضع في الامارة وانشغال العملاقين ابن سعود والملك حسين بصراعهما فاستولى على الحديدة وميدي . وانفرط عقد البيت الأدريسي ، كما هو الحال عشية انهيار الدول . فخلع علي ،وتولى الامارة عمه الحسن الذي حاول أن يلعب على كل الحبال ، فأعطى الانجليز امتيازاً للنفط في جزيرة فرسان ، ولكنهم رفضوا مساعدته ضد الامام بحجة أن الحماية لا تشمل العرب ، وأعاد الاتصال بالحليف القديم ، الطليان الذي تضخمت تطلعاتهم الامبراطورية بوصول موسوليني للسلطة ، وتصاعد نفوذهم في بلاط الامام يحيى ، الذي أراد أن يوازن بهم الانجليز ، ولكن الطليان فضلوا الامام اليمني عليه وكانوا يدبرون تسوية مع الانجليز . وحاول التفاهم مع الامام نفسه ، ولكن يحيى اعتبر عسير ثمرة ناضجة آن اقتطافها . فأتجه العسيري مرغما الى عبد العزيز الذي كان قد توج ملكاً على الحجاز في ١٠ يناير ١٩٢٦ ــ ٢٥ جمادي الثانية ١٣٤٤ ، بعد إزالة الحكم

---

* قدر الريحاني دخل الامارة بمائة وخمسين الف جنيه سنويا .

** ينتقد الريحاني والزركلي الدماء الهندية والزنجية في الادراسة الذين لم يعتبرهم الكثيرون عربا مع ما في ذلك من نظرة عنصرية .

*** وظل هذا الاضطراب حتى وصل موسوليني للسلطة في عام ١٩٢٢ .

**** ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ ــ ١٩٢٢ م) .

الهاشمي ، وأصبح يمثل أكبر قوة سياسية وعسكرية ليس في الجزيرة وحدها ، بل في العالم العربي ، ولذا فقد ربح الجولة ، خاصة وأن ميول السكان كانت مع ابن سعود* وهكذا وقع الوفد العسيري معاهدة مكة في ٢١ اكتوبر ١٩٢٦ (٢٤ ربيع الثاني ١٣٤٥) التي وضعت عسير تحت الحماية السعودية ، فقد نصت ـ كما جاء في وثيقة بريطانية[١٠٣] على :

١ ـ وضع عسير تحت السيادة السعودية .

٢ ـ يلتزم الأدريسي بعدم الدخول في أية مباحثات مع أي حكومة أجنبية وعدم اعطاء امتيازات اقتصادية بدون موافقة ابن سعود .

٣ ـ عدم التنازل عن أي جزء من أراضي عسير .

في مقابل :

١ ـ اعتراف ابن سعود بالأدريسي ومن يعينهم كحكام لعسير .

٢ ـ حق الأدريسي في الحكم بما لا يخالف الشريعة والعدل .

٣ ـ حماية عسير من أي عدوان داخلي او خارجي .

ويبدو أن مستشاري ابن سعود قد حفظوا دروس معاهدات الحماية ، فقد حلالهم جميعا وصف هذه المعاهدة بأنها فرض « الحماية » السعودية على عسير ، وهذا يعني أن السعودية دخلت نادي الدول الكبرى ، أو حتى الاستعمارية اذا شطح بك الخيال وسوء النية ! وصارت لها محميات الى جانب « وملحقاتها » وليذهب فؤاد ملك مصر والسودان وبلاد النوبة ودارفور وكردفان الى حيث ألقت ، فهنا ملك نجد والحجاز وملحقاتها ، ومحمية عسير ! مع فارق : أن ابن سعود كان يحكم فعلا ما يدعي ملكيته . ولم يفت الجانب السعودي تعيين مندوب سامي سعودي في عسير ، على غرار مندوبي بريطانيا في مصر والعراق !

إلا أن المعاهدة كانت ضربة معلم ، في توقيتها وتوقيعها ، وواحدة من أعظم انجازات عبد العزيز القومية .. وإن فات جميع المؤرخين الاشارة إلى هذا الجانب الذي عثرنا عليه في الوثائق البريطانية .

وتفصيل ذلك أن الدولتين «الأعظم**» في المنطقة : بريطانيا وايطاليا ، اجتمعتا في هذا الوقت بالذات في روما « لبحث المصالح البريطانية والايطالية في منطقة البحر الأحمر » . وكانت ايطاليا تطالب بعسير ، وقبل أن يتفق العملاقان على تقسيم الشاطىء الشرقي للبحر الأحمر دقت أجهزة البرق نبأ المعاهدة ودخول عسير تحت العباءة السعودية ، وقضي الأمر الذي فيه تتفاوضان ، وهرع وزير خارجية ايطاليا ممسكاً بالبرقية الى رئيس الوفد البريطاني ينقل اليه النبأ الكارثة .. واليك التفاصيل

---

* أنظر السير Kinahon Cornwallis في كتابه : « عسير قبل الحرب العالمية الأولى » .

** مع الاعتذار لمن لم يفز من التاريخ الا باختراع هذه التسمية وجر الخراب وعداوة الدولتين على بلاده .

منقولة من وثيقة بريطانية من محفوظات وزارة الخارجية كتبت عام ١٩٣٠ (١٣٤٩ هـ) ولم يسمح بتداولها إلا بعد مرور خمسين عاماً ! .. قالت :

« وصلت أنباء معاهدة مكة ، خلال مباحثات روما ، حول المصالح البريطانية والايطالية في منطقة البحر الأحمر ، وقد عبر الوفد الايطالي ـ على الفور ـ عن قلقه البالغ من النتائج التي ستترتب على اعترافنا بالمعاهدة . مؤكداً أن هذا الاعتراف ، لو وقع ، فسيعتبر دليلا على انحياز حكومتنا لابن سعود ضد الامام* . ولتهدئة هذه المخاوف ، تم تكليف الوفد البريطاني بابلاغ الجانب الايطالي ، أن الحكومة البريطانية ستتحاشى اتخاذ أي اجراء يبدو منه تأييدنا المواد الخاصة بالحدود في المعاهدة . وأنها من جانبها لن تبادر بالاعتراف بالمعاهدة ، بل تتعهد بتأجيل هذا الاعتراف أطول مدة ممكنة ولو أننا لا نتوقع أن يكون ذلك أمراً سهلا .. إلا أنه في جميع الأحوال سنوضح لابن سعود بجلاء أن سياستنا هي عدم التورط في القضايا العربية الداخلية ، باعتبار أن المعاهدة تتضمن قضايا حدود في مناطق متنازع عليها من قبل الحكام العرب . ولذا فان الحكومة البريطانية ستمتنع عن الاعتراف بأية مواد في المعاهدة خاصة بالحدود .. » .

وقال نفس التقرير : « إنه جرت دراسة لتأثير هذه المعاهدة ، على اتفاقيتي ١٩١٥ و ١٩١٧ بين بريطانيا والادريسي . وقررت بريطانيا اعتبار معاهدة ١٩١٥ « قد استنفدت أغراضها » ! » .

أما معاهدة ١٩١٧ التي تعهد فيها الادريسي بألا يرهن أو يبيع أو يتنازل عن جزر فرسان أو أي موقع على سواحله ، لطرف أجنبي ، وحقه في أن يطلب المساعدة من الحكومة البريطانية ، إذا تعرضت هذه المناطق للخطر . وتعهد الحكومة البريطانية بحماية جزر فرسان ، وساحل الادريسي ، فاننا نشير هنا ـ والكلام لوزارة الخارجية البريطانية ـ إلى أننا عندما تلقينا هذا الطلب من الادريسي ، بتنفيذ تعهدنا وحمايته من الامام ، وذلك قبل إبرام معاهدة مكة ، كان ردنا أن إرتباطنا ملزم في حالة وقوع عدوان أوروبي فقط .

« وعندما وقعت معاهدة مكة قرر المستشارون القانونيون بالوزارة ، أنها من الناحية النظرية لا تؤثر على وضعنا ، أما من الناحية الفعلية ، فلابد أن تؤثر على ارتباطاتنا وتعهداتنا . فتقرر أنه طالما التزم الادريسي بعدم التخلي عن جزر فرسان ، ولم تنشأ حاجة الى موانيه ، فاننا سنبقي معاهدة ١٩١٧ بيننا وبين الادريسي في حالة تجمد ، متجنبين الاجابة على مشكل هل هي قائمة أو منتهية ؟! ونكيف سياستنا في الجزيرة على ضوء ضروريات الظروف . وقد بعثنا بنص المعاهدة الى ابن سعود ، وأبلغ جلالته أن النص الوارد فيها عن مساعدة الادريسي لا يسري على الحكام العرب » .

---

* الأمام يحيى .

« ويمكن تلخيص الوضع كالآتي : لم نعترف رسمياً بمعاهدة مكة . ولكننا من الناحية العملية ، على استعداد لأن نأخذ في الاعتبار سيادة ابن سعود على عسير ، وليست لدينا رغبة للتورط بأية صورة في عسير . ونحتفظ بمعاهدة ١٩١٧ من باب الاحتياط لاستخدامها عند اللزوم اذا قرر الادريسي يوما أن يتخلى عن جزر فرسان أو أحد موانيه لدولة أوروبية* » .

ومن مصادفات القدر العجيبة ، أو من لمحات عبد العزيز الذكية ، أنه اختار من بين جميع السكان واللاجئين في المملكة ــ السلطنة ، « أحمد السنوسي » ليتولى المفاوضة وصياغة المعاهدة التي أزالت حكم الادارسة .

و « أحمد السنوسي » هو بطل المقاومة الليبية التي طعنها الأدريسي ، هو بطل الحرب الوطنية ضد الطليان الذين عمل الادريسي لحسابهم ضد قومه ودينه .. أحمد السنوسي هو الذي استجاب لدعوة الجهاد العثمانية فهاجم الانجليز في مصر ، والادريسي هو الذي تحالف مع الانجليز في الحرب العالمية ونص وحده في معاهدته على محاربة الأتراك . أحمد السنوسي ، هو الذي رغم كل ما حدث قاد حملة التعبئة في تركيا ضد الغزو الأوروبي ولعب الدور الأساسي في نجاح مقاومة الأتراك وانتصارهم ، ثم بلغ الذروة بدعوة السوريين للاتحاد مع تركيا ولو علمانية ، لتجنب السقوط في قبضة الاستعمار الأوروبي . ثم انتهى به المطاف الى بلاد السعوديين .

أحمد السنوسي هو رمز السنوسية المجاهدة ، الاسلام الثوري ، الذي يعبيء الجماهير ويقودها في سبيل التحرر وحياة أفضل .

والادريسي الذي يقفز من حجر استعمار إلى ذراعي استعمار آخر ، رمز الشعوذة والتخلف والصوفية الانهزامية التي تخدر الجماهير وتبرر السلطة الأجنبية ، وتشوه صورة الاسلام .

فاوض أحمد السنوسي ووقع على وثيقة إزالة عار الادارسة من الجزيرة العربية ، بل ومن التاريخ العربي .

هل كانت مصادفة ؟

هل كان الاختيار لمجرد العلاقة التاريخية بين الأدريسي الجد والسنوسيين** ؟ أم أن « عبد العزيز » الذي عجز المؤرخون عن سبر غوره ، أراد أن يحقق العدالة التاريخية ويثبت أن الجريمة لا تفيد ، وأيضاً دم الشهداء لا يذهب هدراً ؟!

لعل السنوسي المجاهد وجد بعض العزاء في إحباط وقهر الطليان المحتلين لوطنه ، المنكلين في هذا الوقت بالذات بابطال المقاومة الليبية . ولعله وجد بعض الأمل في إنقاذ

---

* وتاريخ هذه الوثيقة هو عام ١٩٣٠ (١٣٤٩ هـ) .

** واللجنة التي أرسلها ابن سعود لبحث الأزمة في دورها الأخير كانت برئاسة خالد أبو الوليد القرقني وهو أيضا من المجاهدين الليبيين وصهر عبد الرحمن باشا عزام .

عسير من مصير ليبيا ، وفي تحقيق وحدة أقليم عربي .

وقد بدأت ازالة ملك الادارسة بتحطيم قبة الشعوذة ، قبة جدهم التي قامت عليها الأسطورة . فقد أمر ابن سعود بهدمها ، وفقا للتعاليم الوهابية ، أي الاسلامية الصحيحة ، ولعلها أحق قبة بالهدم !..

زالت الأسطورة وبقيت حقيقة النظام البشعة .

وكما هو الحال في كل المعاهدات التي وقعها أمراء الجزيرة العربية والهند وافريقيا ، كانت مجرد بداية لزوال حكمهم .

استعرض عبد العزيز عضلاته أمام الدول ، وسد ثغرة خطيرة في نفس الوقت ، بالغاء امتياز النفط في جزيرة فرسان ، الذي منحه الادريسي . وكان هذا كما يقول فؤاد حمزة : « الحق الوحيد الذي مارسه من حقوق الحماية في البداية[١٠٤] » .

ولكنه بالطبع ، أهم الحقوق ، فهو إعلان لسقوط سيادة وشرعية الادريسي في التعامل الخارجي ، وانتقال هذا الحق الى ابن سعود وبأثر رجعي !

وفي عام ١٩٢٨ مع تصاعد أزمة الاخوان ، تشجع الادريسي وطلب إعطاءه صلاحيات حكم محلي ، أو الحكم الذاتي ، ووافق ابن سعود ، على أن تحتفظ الرياض بالشئون الخارجية فقط ، ولكن البيت الادريسي كان قد انتهى تاريخياً ، فسرعان ما أفلست الامارة . ومع هزيمة الاخوان ، أو لعله أراد توريط ابن سعود ، أبرق إليه في اكتوبر ١٩٣٠ (١٣٤٩ هـ) بطلب نقل الادارة والمالية الى حكومة عبد العزيز ...

المهم انه بتوقيع معاهدة مكة عام ١٩٢٦ (١٣٤٤ هـ) أصبح ابن سعود في خط المواجهة مع اليمن وايطاليا ، وبريطانيا .

اليمن كانت تتخوف من تصاعد قوة الوهابيين ، وامتداد دولتهم في اتجاهها ، وهي لها مطالب في عسير ، وضمت أراضي كانت خاضعة للادريسي (الحديدة وغيرها) ولم يسلم الادريسي للامام بها ، كما أن معاهدة الحماية السعودية ، لم تحدد حدود عسير ، بل على العكس زادت مخاوف الامام لأنها نصت في المادة الأولى على أن الحدود* هي ما ورد في معاهدة سلطان نجد مع الامام الادريسي (محمد علي الادريسي) في ١٠ صفر الخير ١٣٣٩ (اكتوبر ١٩٢٠) وفي هذا التاريخ كانت عسير تضم الأراضي التي ضمتها اليمن فيما بعد ، فحق لليمن أن تتخوف من أن يكون هذا النص ، باباً تنفذ منه السعودية للمطالبة باجزاء خاضعة للحكم اليمني ، أو تعتبرها اليمن ضمن أراضيها المغتصبة ، وهذا ما ذهبت اليه الدراسة البريطانية التي قالت ، « ان بقاء مسألة الحدود بين عسير واليمن عائمة ، سيجعل تحديدها في المستقبل ، رهنا بموقف القبائل ، أو حيث تكون قوات الطرفين[١٠٦] » .

---

* ولكن الحكومة البريطانية سألت ممثل ابن سعود بعد توقيع معاهدة مكة (١٩٢٦ - ١٣٤٤هـ) أين تقع هذه الحدود التي أشارت اليها المعاهدة ، فقال إن المقصود هو حدود نجد وعسير ، أما حدود عسير مع اليمن فقد تركته عائمة لمباحثات في المستقبل[١٠٥] . وقالت الوثيقة إن وزير خارجية الحجاز سئل في يناير (١٩٢٧ - ١٣٤٥ هـ) أين تقع « ميدي » في اليمن أو عسير ؟ فرد باجابة غامضة » !

أما ايطاليا التي كان لها نفوذ متصاعد في اليمن ، ولها علاقاتها وأطماعها في عسير ، وجاءت معاهدة مكة ضربة مفاجئة لخططها ، وفي لحظة المساومة مع الانجليز عليها . فقد تحالفت مع اليمن ، واشترطت على ابن سعود إخراج عسير من اعترافها به ملكا على الحجاز ونجد ، ولكنه رفض بالطبع فلم تعترف به ، شأنها في ذلك شأن اليمن .. وفشلت مفاوضات كلايتون مع الامام ، وقام السنيور « جاسباريني » الحاكم العام لاريتريا بزيارة صنعاء ، وعقد معاهدة صداقة وتجارة مع الامام اعترفت فيها ايطاليا به « ملكا على اليمـن كدولة مستقلة ذات سيادة داخل أراضيها وامتداداتها .. » وهي جملة تعني كما قال فيلبي : « التزام ايطاليا بالدفاع عن مطالب اليمن ، التي تشكل مصدر خلاف حاليا أو مستقبليا بين الامام والسعودية أو الامام وبريطانيا » .

تبقى بريطانيا ..

وكان الخط البياني لعلاقتها بابن سعود قد بدأ في الانحدار حيث سيصل الى التدهور والتوتر في الثلاثينات عبر أزمة الاخوان ومضاعفاتها ، وقد كان لبريطانيا مصالحها في عسير مثل امتياز فرسان ، واحتفظت بمعاهدة ١٩١٧ (١٣٣٥ هـ) لشهرها عند اللزوم ، وحجبت اعترافها بمعاهدة مكة .. الخ ورغم ذلك استطاع ابن سعود أن يضعها في معسكره بمجرد أن أصبحت ايطاليا حليفة خصمه !

وهذه هي استراتيجية ابن سعود الدائمة في تلك المرحلة التي نتحدث عنها ، محالفة الطرف الأقوى في الوفاق أو الصراع العالمي ، أو على الأقل جر هذا الطرف الى صفه ، بدفع الخصم المحلي الى محالفة أو حتى طلب تدخل الطرف العالمي الأضعف ، وفي جميع معادلات ابن سعود لم يطلب ، ولا كان بحاجة الى أي تدخل عسكري من حليفه ، ابن رشيد هو الذي جاءته الحملات التركية ، اما ابن سعود فلم يطلب جندياً* واحدا وسيستدعي الأدريسي ومن بعده الامام يحيى الأسطول الايطالي ، والعسكر الطليان ، أما ابن سعود فيحسم الموقف في الموقع بقواته الوطنية ، أما الأساطيل فتوازن بعضها ! وهو دائما حليف سيدة البحار !

وخلال عام ١٩٢٧ وقبل أن تتدهور العلاقات ، بذل ابن سعود كل جهده الدبلوماسي ليثبت أنه يواجه جبهة ايطالية ـ يمنية في قضية عسير ، وبالتالي فهو يدافع أيضا عن مصالح بريطانيا ..

في ١١ أغسطس ١٩٢٧ أبلغ القنصل البريطاني في جدة حكومته الآتي « استدعاني وزير الخارجية السعودي** وسلمني رسالة من ابن سعود يبلغ فيها حكومة صاحب الجلالة : « بتزايد النفوذ الايطالي لدى الامام ، وأن ايطاليا تشحن كميات كبيرة من السلاح والذخيرة اليه . وأن رسالته الى الامام قد عرضها هذا على الايطاليين الذين

---

* إلا اذا اعتبرنا اشتراك شكسبير في معركة « جراب » حملة بريطانية ! والحق أنه كان عبئا عسكريا على ابن سعود .

** هو الدكتور عبد الله الدملوجي على الأرجح .

يسعون لمنع التفاهم السلمي بين الحجاز واليمن . وقد سأل الملك : إذا كانت حكومة صاحب الجلالة لها علم بهذا النشاط الايطالي .. واذا كانت تعلم به فما هو موقفها ؟..

« وقد أخبرت وزير الخارجية بأنني سأبرق لحكومتي ، كطلب ابن سعود ، ولو أني أعتقد أن السير «ج. كلايتون» قد أوضح آراء حكومة صاحب الجلالة للملك. فقال نعم .. ولكن جلالة الملك (ابن سعود) حصل الآن على معلومات أكيدة ، بأن الامام أصبح مدعوما من ايطاليا في خطة عدائية موجهة ضده[١٠٧] » .

وفي نفس الاسبوع تلقى القنصل (١٦ ـ ٨ ـ ١٩٢٧ ـ ١٨ صفر ١٣٤٦) رسالة من عبد العزيز حول امتياز جزيرة فرسان جاء فيها :

« لي الشرف أن أبلغ سعادتكم أن ممثلنا لدى حكومة الادريسي تسلم رسالة من السيد حسن الادريسي حول موضوع امتياز شركة النفط في جزيرة فرسان . وقد طلب منه ، رفع موضوع الامتياز الينا ، لنرى ما هي الخطوات التي يجب اتخاذها لتجنب أية معارضة .

« وانطلاقا من حرصنا الشديد على حقوق الشركة ، وحقوق بلاد الادريسي ، فقد درسنا الموضوع برمته ، دراسة دقيقية ، فخلصنا للنتائج التالية ، التي نرغب في وضعها امام بريطانيا العظمى ، كتعبير عن رغبتنا في التعاون لحل هذا الخلاف بروح الود والصداقة القائمة بيننا وبين بريطانيا .

« إن ممثلي الشركة عند توقيع الاتفاق وعدوا السيد حسن بانجازات مبدئية ، تبين الآن عجز ممثلي الشركة عن تنفيذها ، الأمر الذي يعتبره الأهالي ضاراً بهم وببلادهم . ولمعرفتهم بالأهداف الشريرة لمصطفى الادريسي* ضدهم وضد الشركة ، فقد طالبوا الشركة عبثا بتنفيذ التزاماتها . مما خلق شعوراً سيئاً ضد الشركة .

وهناك قوى أخرى تشجع الأهالي على إثارة الاضطرابات ، فلما أصبح الوضع خطيراً طلب السيد حسن الادريسي تدخلنا نظراً لعلاقات الصداقة التي تربطنا ببريطانيا العظمى » .

« وقد رأينا أن الحل الأمثل ، هو الدخول في مفاوضات معكم : ثم نرسل مندوبا عنا الى جيزان ، لنجد بالاتفاق مع ممثل الحكومة البريطانية ، وممثل شركة النفط والسيد حسن حلا مقبولا من كل الأطراف . وكما تعلمون نحن نفضل أن يكون الامتياز للشركات البريطانية عن أي أجانب آخرين ، **إذا ما تساوت الشروط** . ولا شك لدينا أنه بهذه الوسيلة التي نقترحها ، سنكون قادرين على محو الشكوك من نفس الادريسي نحو الشركة ، والوصول الى شروط مقبولة للجميع . رجاء رفع ذلك لحكومتك » .

توقيع : عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود

---

* عميل ايطاليا وبريطانيا صاحب الخمسة الآف جنيه المشهورة وخادم الانجليز كما وصفه التقرير الامريكي .

هذا في جدة . أما في القاهرة فقد اجتمع « حافظ وهبة » مستشار الملك مع اللورد لويد المندوب السامي البريطاني الذي لخص المقابلة في برقية الى حكومته قال فيها :
« بخصوص موقف ايطاليا من الاعتراف بابن سعود. يقول ابن سعود إنه يرغب في الوصول إلى اتفاق مع الامام الذي يحرضه الايطاليون ضده ، كما يشجعه على ذلك سياسة حكومة صاحب الجلالة في الجزيرة . وإذا لم تصر حكومة صاحب الجلالة على وقف ايطاليا لمساعدتها للامام فان الخطر سيتهدد العلاقات الانجلو ـ ايطالية أكثر من أي شيء آخر* .

وقد ردت وزارة الخارجية على قنصلها في جدة بهذه الرسالة** :

« بخصوص برقيتكم بتاريخ ٢٦ أغسطس حول النفوذ الايطالي في العلاقات بين الحجاز واليمن . نفيدكم بأنه في نفس اليوم الذي تسلمنا فيه برقيتكم ، حضر السفير الايطالي إلى وزارة الخارجية ليشكو ابن سعود لأنه يمارس تصرفات شديدة الاستفزاز للامام ، وأنه في مواجهة هذه الاستفزازات ، فان الحكومة الايطالية لا تستطيع الاستمرار في سياسة ضبط النفس .

« وهم يسألون عما اذا كانت الحكومة البريطانية من جانبها لا تستطيع كبح ابن سعود ، وهل بالامكان اتخاذ موقف مشترك من جانب الحكومتين لتجنب ما يبدو كأزمة محتومة بين العاهلين العربيين ؟.. » .

وقد وعد السفير بتقديم معلومات أكثر عن الاستفزازات المنسوبة لابن سعود ، كما ذكر السفير أن الامام يعتقد أن الوفد السعودي الذي توجه الى صنعاء لم يكن صادق النية في الوصول الى تسوية ، وإنما كان الهدف من إرساله هو كسب الوقت ، حتى يتمكن ابن سعود من استكمال تسليحه . وان إرسال مندوب من قبله الى عسير هو عمل استفزازي ، وأنه يستعد لاحتلال عسير » .

« وقد أبلغنا السفير رداً على أقواله هذه ، أن ابن سعود قد وجه إلى حكومة صاحب الجلالة شكوى مماثلة ضد الامام والحكومة الايطالية . وأن حكومة صاحب الجلالة في حدود معلوماتها ليست لديها أية أسباب للظن بوجود رغبة لدى ابن سعود في الحرب ، فليس لديه المال أو السلاح أو الذخيرة اللازمة لشن حملة . وعلى العكس من ذلك فان الامام الآن لابد أنه متخم بالسلاح من المصادر الايطالية . كما نبه السفير إلى أنه بموجب معاهدة مكة فان لابن سعود كامل الحق في إرسال ممثل لعسير .

وعليك إبلاغ ابن سعود أن الحكومة الايطالية اشتكت لنا من الاستفزازات السعودية المزعومة للامام ، وأنها تجد صعوبة كبيرة في تهدئة الامام وأنه رداً على اتصالها هذا فقد تم إبلاغ الحكومة الايطالية بشكواه من نشاطها . وعليك أن تضيف أنه وإن كانت الحكومة البريطانية ، لا تجد سبباً لتأييد الاتهامات الايطالية عن

---

* هذه الجملة الأخيرة غير واضح ما اذا كانت نقلا عن حافظ وهبه أو رأي اللورد لويد .
** بتاريخ ١٩٢٧/٨/٣١ .

استفزازاته أو أنه يسعى إلى استفزاز الامام إلى نقطة تصبح فيها الحرب محتومة ، إلا أنها تود أن تحث جلالته على تجنب أي عمل يمكن أن يؤدي إلى الحرب ، أو يعرضه للاتهامات باثارة أعمال عدوانية . وأن الايطاليين سيعطون نصيحة مماثلة للامام . وستستمر جهود الحكومتين من أجل حفظ السلام في الجزيرة العربية » .

وفي ١٢ جمادى الثانية ١٣٤٦ ـ ديسمبر ١٩٢٧ كتب الملك للمندوب السامي البريطاني ، يحذر من مؤامرات الطليان ، ويلوح بامكانية الحصول على الدعم السوفييتي وقد أشرنا إلى هذه الرسالة فيما يتعلق بالروس في الملاحق أما ما جاء بها عن الايطاليين وعسير فهو :

« لقد كانت الحكومة البريطانية ، وماتزال أكثر الحكومات علاقة بجزيرة العرب ، ولم نجد دولة من الدول تزاحمها في علاقاتها هذه . ولكن ظهرت مجدداً حكومة ايطاليا في البحر الأحمر . وجعلت تفكر في توسيع أطماعها توسيعا عظيما . وقد عرضت علينا ــ حتى قبل مداخلتها مع الامام يحيى ــ الدخول في اتفاق معها . وكان ذلك في بدء دخولنا الحجاز . فلم نرد على تلك الصلة . رغبة في توطيد علاقتنا السياسية بالحكومة البريطانية ، ولما يئست الحكومة الايطالية من هذه الجهة ، أسرعت للامام يحيى ، وعقدت معه ذلك الاتفاق التجاري ، الذي أعلن ، ثم أعقبه ــ فيما يغلب على ظننا ــ اتفاق سري ظهرت بوادر شره من آثار في مفاوضاتها الاخيرة معنا بشأن اعترافها بملكية الحجاز ونجد وملحقاتها . فقد كان آخر مطالبها منا أن نتعهد لها بحفظ السلام والسكينة في « جزيرة العرب » « التي هي غاية حكومة جلالة ملك ايطاليا » . **وطلبت أن تعترف بنا ملكا على الحجاز ونجد وملحقاتها ، مع إخراج عسير من ذلك الاعتراف .**

ومن جهة ثانية ، لقد عملت لتقوية حليفها وتأييده ضد الحكومة البريطانية ، من جهة حدوده الملاصقة لها ، وعملت ضد صديق الحكومة البريطانية* ، فموقف الطليان هذا في إعتقادي ، موقف غير محمود ، بالنسبة لنا ، وبالنسبة للحكومة البريطانية . وإننا نريد أن نكون على وفاق تام مع الحكومة البريطانية في هذه القضية حفظاً على مصالحنا ومصالحها » .

وبعد أن تحدث عن الأشراف ومشاكلهم عاد فلوح باليد البلشفية الممتدة بالصداقة والنفط والتجارة .. ولكنه يرفضها حرصا على مصالح بريطانيا ..!

وبهذه الطريقة استطاع ابن سعود تجميد الموقف طوال سنوات الأزمة المصيرية مع الاخوان ، بل كما أشرنا ، عندما طلب الادريسي استقلالا ذاتيا عام ١٩٢٨ بادارة الشئون الداخلية التي كان قد تنازل عنها في معاهدة الحماية ، وافق ابن سعود وتنازل

---

* في هذا الوقت بالذات كانت الحكومة البريطانية ترتب للاطاحة بهذا الصديق من خلال استفزاز وتفجير ثورة الاخوان . ولكن تلك هي سياسة ابن سعود ، فرض الصداقة على العدو الذي لا يستطيع محاربته .

عن كافة الاختصاصات ما عدا الشئون الخارجية . فلما فرغ من الاخوان ، وفقدهم في نفس الوقت ، ونشطت المؤامرات ضده من الهاشميين ، فتشكل حزب الأحرار الحجازي* ، واتصلوا بالادريسي ، بواسطة ايطاليا التي نظمت اجتماعا لهم مع الادريسي عن طريق مصوع التي كانت تحت الاحتلال الايطالي ، ثم جاءت حركة ابن رفادة ، وقيل للادريسي إن ابن سعود سينشغل بالشمال فاضرب ضربتك في الجنوب ، والدعم الايطالي المسلح موجود على مدى صرخة .. والانجليز كارهون لابن سعود ، وإن كانوا لا يقبلون وجودا ايطاليا في عسير ، فلن يغضبهم إزعاج ابن سعود بواسطة الادريسي .. وهكذا تشجع الادريسي ، وقرر الثورة ، فاعتقل المندوب السامي السعودي وجهازه من الموظفين السعوديين . ورد ابن سعود بارسال حملة دخلت جيزان ، فجاءت مدمرة ايطالية** ، الى مرفأ المضايا على بعد ٣٢ كيلومترا من جيزان ونزل منها مندوب ايطالي ومعه عدد من الجند ، فتوجهوا إلى الحسن الأدريسي ، وكان نازلا في قرية الزخمية ، جنوبي أبي عريش . واجتمع به المندوب الايطالي . ثم عاد ومعه المستشار الأدريسي الخاص « محمد الشنقيطي » لاستكمال المفاوضة مع الايطاليين في مصوع ، والبحث في إدخال الأدريسي وبلاده تحت حمايتهم ، فيما قيل ، وجلب الذخيرة لهم . كما ضبطت رسائل تعده بالدعم من اليمن مقابل الدخول تحت حمايتهم[١٠٨] » ..

ولكن الوجود العسكري السعودي بدأ يتدفق ، وأصبح على الطليان أو اليمنيين أو كليهما معا الدخول في حرب غير محدودة مع السعودية ، لفرض هذه الحماية . وكما قلنا ، لم تكن بريطانيا لتسمح بسيطرة ايطاليا على جانبي البحر الأحمر من عند عنقه الجنوبي وقطع طريق قناة السويس مهما تكن عواطفها نحو ابن سعود*** .

فرحل الادريسي الى اليمن حيث رحب به الامام يحيى ، الذي كان يستعد لجولة مع السعوديين ، جولة لم تكن فيها مصلحة عربية ولا إسلامية ، ولا حتى سعودية أو يمنية . ولكنها كانت محتومة . لا لأن ابن سعود كانت له مطالب في اليمن ، ولا لأن ابن حميد الدين ، كان يطمح فيما تحت يد ابن سعود ، بل لأن كلا منهما كان يريد اعتراف الآخر بالوضع القائم ، وإسقاط أية ادعاءات مستقبلية . وهذا ما تحقق بالضبط في الحرب اليمنية ـ السعودية ، كما سيأتي بيانه في الجزء الثالث ان شاء الله .

تحققت وحدة عسير نهائياً في أواخر شوال ١٣٥١ ـ أواخر فبراير ١٩٣٣ .

ونعود لحديث الانجليز ..

لم تكن بريطانيا سعيدة ولا راضية بقيام دولة عربية مستقلة ، مهما قيل عن فقرها وتخلفها ، فان وضعها السياسي أفضل من مصر والعراق وسوريا ، ويشكل تحريضاً

---

* حدد الزركلي تاريخ تكوين الحزب بعام ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م .

** ١٨ شعبان ١٣٥١ هـ (١٧/١١/١٩٣٢ م) .

*** كانت العلاقات البريطانية ـ السعودية تدخل أسوأ مراحلها كما سنرى ، ورغم ذلك استطاع استخدام الورقة البريطانية لموازنة الأسطول الطلياني .

لشعوب هذه الدول على طلب الاستقلال ، كما يثير غيرة حكامها .. فما بالك اذا كانت هذه الدولة العربية المستقلة ، تحمل أيضا رسالة ودعوة حركية لتحرير المسلمين ، كل المسلمين ؟. لذلك تآمرت بريطانيا على نسف المملكة بتفجير ثورة الاخوان ، ففي الوقت الذي كانت تجري فيه مفاوضات معاهدة جدة ، كان « هنري دوبس »، المندوب السامي ، أو الحاكم البريطاني للعراق ، يزرع الألغام التي يعرف أنها ستفجر غضب الاخوان ، إذ قرر بناء حصن « بصية » ، ولما كان هذا يخالف بروتوكول العقير ، ويثير البدو لنفس الأسباب التي ذكرت في حيثيات ذلك البروتوكول ، وهي تقسيم الصحراء التي لم تقسم أبداً لعشرة آلاف سنة ، ويحرم بدو نجد من الآبار التي آثر بها الانجليز العراق في تخطيط الحدود ، فقد تصرف الاخوان التصرف الذي توقعه الانجليز ، أي الهجوم على الحصن ، فقامت الطائرات البريطانية بضرب مواطني ابن سعود أو رعيته ، وقدم استجواب في مجلس العموم عن الأسباب التي تجعل الطائرات البريطانية تضرب القبائل السعودية بدون حالة حرب مع سلطان نجد .. فرد وزير المستعمرات قائلا : « لأن ابن سعود اعترف بفقدان السيطرة على تلك القبائل ! » .

وقد وصف فيلبي هذا التصريح بأنه الكذبة البلقاء ! لأن « كل ما قاله ابن سعود ، هو اذا استمر القصف الجوي فلن يكون مسئولا عن النتائج » وقد استمر القصف الجوي حتى و « كلايتون » يفاوض و « جورج انطونيوس » يترجم . فقطعت المفاوضات* واستؤنفت في أغسطس ثم فشلت . لأن بريطانيا كانت تتوقع انهيار ملك عبد العزيز بثورة الاخوان ، أو على الأقل تحجيمه . وقد شرحنا في فصل الاخوان الدور الذي لعبته بريطانيا في ثورة الاخوان وعملية ابن رفادة . وكيف جمع ابن سعود الأدلة الدامغة على هذا التدخل البريطاني ، في وثيقته المشهورة التي واجه بها الحكومة البريطانية ردا على اتهاماتها بأنه يسلح الفلسطينيين ..

وفور انتصار عبد العزيز على الاخوان ، ورغم ما بدا من علاقات ودية بتسليم بريطانيا زعماء الثورة ، فقد تعمدت التحرش بالملك ، فالكولونيل بيسكو رئيس الخليج الذي تولى عملية التسليم ، وانصرف « مسرورا من نجاحه وتوفيقه » حاول منع الملك من النزول في البحرين في طريق عودته لبلاده ، لولا إصرار شعب البحرين وشيوخها ، حتى كادت تتكرر أحداث ١٩٥٦ (١٣٧٥ هـ) . والحوار الذي دار مع الشيخ عيسى ، الأسد العجوز المخلوع الذي امتنع عن مخاطبة ابنه لأنه قبل الحكم من الانجليز .. حواره مع الملك المنتصر يكشف ما في قلبيهما من مرارة نحو الانجليز** .

وقد قيل صراحة إن الانجليز خافوا أن يثير عبد العزيز موجة وطنية في البحرين ، فحاولوا منعه من النزول هناك .

واذا كان الانجليز قد تخفوا خلف الهاشميين ، وابن صباح ، في تحرشاتهم بابن

---

* ربيع ١٩٢٨ .

** أنظر فصل الاخوان .

سعود ، فان العلاقات المباشرة ، استمر تدهورها هي أيضاً ، ووصلت إلى أسوأ أوضاعها باختيار أسوأ رجل يمكن أن يمثل بريطانيا في بلاط ابن سعود ، وهو « أندرو ريان » الذي قال عنه وهبه ، أنه « أمضى مدة طويلة في اسطمبول فحذق خلالها الدسائس التي تحاك ضد الشرق والمسلمين[١٠٩] » . أو بالأحرى تعود على الأسلوب الامبراطوري في معاملة المسلمين ممثلين في الباب العالي ، أو بالأحرى « المستوطي » .. للأجانب وخاصة الانجليز . فلم يدخر وسعاً في استفزاز عبد العزيز ، حتى تمنى الملك لو استطاع « قطع رأسه » لولا الأسطول البريطاني « وصداقة » بريطانيا بالطبع !

وكان وزير الخارجية البريطاني متزوجاً من عضو في « جمعية محاربة الرق » ولها كتاب عن « الرق في جزيرة العرب » . ونحن نعرف أية فئة من المستعمرين ، السود القلب والضمير ، المفعمين حقداً وجهلاً إزاء العرب والاسلام ، أولئك الذين كانوا يثرثرون عن تحرير الرقيق خلال غزوهم وابادتهم واستعبادهم للشعوب .

ثم كانت أزمة العبد « بخيت »[١٤م] الذي لجأ الى السفارة البريطانية في جدة ، فأحضر ممثل بريطانيا بارجة حربية أخذت العبد الآبق ، الى مصيره التعس ! وتقدم الملك بمذكرة احتجاج مريرة ، حتى أن وزيره المفوض خاف تسليمها ! وطلب الملك إبعاد الوزير المفوض* الاستفزازي السلوك ، فرفضت بريطانيا بصلافة ، وأجبرته على تعديل مذكرته .

ومع كل هذه الاستفزازات ، رفضت بريطانيا مساعدة المملكة في أزمتها الخانقة** ، وكان « هولمز » قد توقف عن الدفع بعد الأربعة الآف جنيه ! ولم يقم بأي مجهود حقيقي لاكتشاف النفط فألغى عبد العزيز امتيازه*** ، ورفضت بريطانيا وشركاتها باصرار ، عروض الملك في استثمار النفط ، ربما لأنها كانت مكتفية بنفط ايران والعراق والبحرين والكويت .. أو لأنها كانت تفضل النفط في كيانات صغيرة ، ولا تريد تقوية ابن سعود . أو لأسباب أخرى غير معلنة حتى الآن**** .

وطفح الكيل بعبد العزيز فقال : هاتوا الملف الامريكي !

وبدأت معادلة دولية جديدة .

وجاء الأمريكيون بالنفط والمال ووزير مفوض يتكلم العربية ، بل ومصاب في رجله برصاصة ، تماما مثل الملك ! فكان الملك والسفير يجلسان ، ويمد كل منهما ساقه المصابة ، ويتحدثان بالعربية عن ذكريات الاصابة والنفط والسياسة !

---

* الانجليزي وذلك بتاريخ ٥ فبراير ١٩٣٢ (١٣٥٠ هـ) .

** نتيجة الأزمة العالمية ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢ واعباء الثورة الاخوانية .

*** ألغاه عام ١٩٢٨ ـ ١٣٤٦ هـ وكان هذا من عناصر التوتر مع بريطانيا .

**** يقال إن امريكا كانت قد اتفقت معها عند الغاء اتفاقية الخط الأحمر سنة ١٩٢٨ على أن تترك لها المجال في البحرين والأحساء .

ويقول وهبه « إنه لوحظ في السنوات السبع من ١٩٣٢ الى ١٩٣٨ (من ١٣٥١ - ١٣٥٧ هـ) ابتعاد كثير عن السياسة البريطانية ، خلافا للسياسة التقليدية للملك عبد العزيز » . ولكنه يرجع ذلك « للسياسة التي اتبعها الزميل فؤاد حمزة ، فقد ظهر ميله بوضوح الى « موسوليني » وسياسة ايطاليا . وتكررت زيارته لايطاليا » ! ونقل عن المستر « جورج رندل » رئيس القسم الشرقي في وزارة الخارجية البريطانية أن فؤاد حمزة : « قبض مبالغ كبيرة من ايطاليا » . وفي اليوم التالي دعاني السير « لانسوت اليفانت » الى وزارة الخارجية وأخبرني بأنه : « ليس من عادتنا التدخل في شئون الغير ، ولكن بما ان « المستر رندل » زل في إخبارك فأنا أؤيده ، وإذا اراد جلالة الملك تفصيلا أكثر ، فالسير « ريد بولارد » الوزير البريطاني سيخبر جلالته بالتفاصيل.

(ولكن الملك كان عنده خبر بالاتهام ، وأخبر به الشيخ قبل أن ينقل هو الى مولاه ما سمعه من الانجليز) .

وبصرف النظر عن صحة الأتهام ، فلا شك في وجود اتجاه في بلاط الملك كان يبحث عن مخرج من الطوق البريطاني ، متفقا وواعيا بأن هذه هي رغبة الملك نفسه ان لم يكن بعلمه ! حيث بلغ الحصار البريطاني ، أو الاعتصار البريطاني مرحلة لا تطاق ، ولا يمكن الصبر عليها ، بل ولا حاجة للصبر عليها ؛ من الدور البريطاني في تمرد الاخوان وابن رفاده ، وأزمة النزول في البحرين ، ورفض بيع السلاح ، والتشهير في صحف الهند والأشراف ، وتحرشات هؤلاء من العراق والأردن ، ومغامرات أندروريان ، ورفض قبول امتياز النفط .. كل هذا كان يحتم البحث عن مخرج ، ولا يمكن أن يكون السبب في تدهور العلاقات ، المستشارون !.. ففي نفس الصفحة ، ناقض الشيخ نفسه - كعادته - فقال : حقا إن فؤاد حمزة كان يتمتع بثقة لدى عبد العزيز ، وكان لآرائه وزن كبير ، أما في البلاد فلم يكن له أو لسواه أي نفوذ ، والوزراء والمستشارون لا يستمدون نفوذهم إلا من رضا الملك عبد العزيز[١١] » .

عبد العزيز إذا هو الذي أدرك ان « صداقته » مع بريطانيا قد استنفدت أغراضها ، وأن الانجليز يتبعون سياستهم التقليدية في تطويق البيت السعودي ، أما التحسن الذي طرأ في عام ١٩٣٨ فكانت له أسبابه ، وأهمها الوضع العالمي باقتراب الحرب العالمية ، أو قل قناعة الانجليز ، بعد الدخول الامريكي وتأكد أنباء النفط بكميات هائلة ، أن وضع ابن سعود وحجمه ، يحتاج لدبلوماسية جديدة - وإن استمر العداء - فما أن انتهت الحرب ، حتى بدأ التحرش البريطاني بابن سعود ، حتى ليمكن القول إن أكثر من نصف مكاتبات ابن سعود مع الحكومة الامريكية من ١٩٤٦ الى ١٩٥٣ (١٣٦٥ - ١٣٧٢ هـ) تدور حول مؤامرات بريطانيا ضد المملكة !.. مما أقنع الشيخ السفير أخيرا بغدر بريطانيا ، وإن استمر على « وهم » وفاء عبد العزيز فقال : « لقد كان ابن سعود صديقا وفيا لبريطانيا ، لم تزعزع صداقته أحداث الزمان ، بل بقي ثابتا كالطود ،

ولا سيما في الأيام السود التي مرت على بريطانيا في الحرب العالمية الثانية* . ولكن بريطانيا لم تراع هذه الصداقة ، ولم تترك مجالا لأصدقاء الفريقين لتقريب شقة الخلاف ، وصداقة الدولة السعودية خير ألف مرة من صداقة شيخ أبو ظبي[111]** » .

إلا أن الشيخ لم يحرمنا من « تناقض » جديد فسر به علاقة الملك ببريطانيا فقال : كان الملك شديد الحذر ، كثير المجاملة للانجليز ، ولا يرجع ذلك الى « صداقة » أو « حسن ظن » بل الى الحيلة ، وعدم القاء النفس في التهلكة فيقول :

« ولا ينقص قدر الملك عبد العزيز مبالغته في الحذر*** من الانكليز (!) كما سترى في الكتب المنشورة في ذيل الكتاب ، من تردده في نشر أول « كتاب أخضر[15]م » لتوضيح أوجه الخلاف بينه وبين الأشراف ليطلع عليها العالم الاسلامي ، وكذلك المبالغة في مجاملتهم في مختلف المسائل . فقد سبق أن أنذره الانكليز في سنة ١٩١٩ (١٣٣٧ هـ) بعد واقعة تربة ، التي قضى فيها على جيش الشريف حسين ومعداته .

« والرجل واقعي وعملي ، يقف عند الحد الذي تؤهله له قوته ، ولا يتمسك بالخيال ، وكان دائما يكرر القول المنسوب لعلي بن أبي طالب ، ما هلك أمرؤ عرف قدر نفسه » وكنت أردد ، كلما استشهد بهذه الحكمة ، البيت المشهور :

لا يبلغ الاعداء من جاهل

ما يبلغ الجاهل من نفسه[112] » .

فلماذا تجعلها صداقة يا شيخنا ؟! وتزعم أن الملك أصيب بخيبة أمل من الغدر البريطاني في قضية البوريمي ؟!

« صداقة » عبد العزيز مع الانجليز ، لم تشمل المطالب الاقليمية ، ومنذ أول يوم « نشبت » فيه هذه « الصداقة » حاول الانجليز أن « يمرروا » عليه التنازل عن مطالبه الاقليمية فتنبه مستشاروه ووضعوا التحفظ الذي أشرنا اليه . بل عندما مات ابن سعود ونعاه العالم أجمع ، لم يستطع جلال الموت ، أن ينسي بريطانيا الاطماع الامبراطورية ، فنعته بأنه الرجل « الذي ضم لواء حكمه أكبر بقعة من أرض الجزيرة حكمها رجل واحد منذ أيام النبي صلى الله عليه وسلم**** » !

---

* رغم أن هذه الدراسة تنتهي عند عام ١٩٣٢ (١٣٥١هـ) . إلا أن الحديث عن « وفاء » عبد العزيز في الحرب العالمية الثانية ، يحتاج لتعليق ، فموقف الملك كان ذكاء سياسيا ، وليس موقفا أخلاقيا . ففي هذه الأيام السود بالذات ، رأي عبد العزيز بريطانيا تخلع وترحل شاهنشاه العجم امبراطور ايران وتسحق ثورة العراق عن يمينه وتحاصر قصر عابدين بالدبابات ووثيقة تنازل تقدم لفاروق ، عن شماله .. فهل كان عبد العزيز بالذي يخاطر في مغامرة طائشة ؟! ثم ماذا عن علاقته مع الامريكيين وقتها ؟ هل كانت تتفق مع تقربه للألمان أو الطليان ؟!..

** من حق بريطانيا ، على الشيخ ، أن يترك لها تحديد ما هو أفيد لها ؟! فنفط أبو ظبي أفيد ألف مرة من صداقة ابن سعود وحافظ وهبه .

*** بالطبع ، ولكن ينقص من قدره ومن ذكائه « اتهامه » بأنه كان يثق فيهم أو يؤمن بصداقتهم !

**** بعضهم أوردها كشهادة بريطانية بعظمة ابن سعود !!

والمعنى واضح .. أي أن أحداً من أجدادك لم يحكم خارج الأرض التي تحكمها فالبوريمي ليست من أملاكك وليست أرضا سعودية !..

ولولا هذا الهدف ، لما سقطت « البي بي سي » في هذا الجهل الجغرافي والتاريخي الفاضح !.. لأن طلبة المدارس يعرفون أن سعوداً الكبير حكم بقعة أكبر !

أما الزركلي فيضعنا أمام حالة سيكولوجية ، نادرة في علمي السياسة والنفس معا .. فهو يصف علاقة عبد العزيز ببريطانيا ، بأنها « الصداقة والخوف معا » . مع أن أول شرط للصداقة ، هو الأطمئنان .. فلا تجتمع الصداقة مع الخوف من الصديق .. وان كان الزركلي أقرب المحللين لعرض حقيقة سياسة عبد العزيز مع الانجليز يقول :

« كان عبد العزيز ، يحيط ما بينه وبين الانكليز من « صداقة » أو ما يسميه « الصداقة » بهالة من الرعاية والصون . وكان يدخل السرور عليه ، ويبعث الغبطة الى نفسه ، أن يشعر ـ مع الحيطة والحذر ـ بأن الانكليز أصدقاؤه . وكان الى جانب هذا ، وهو الذي كاد الخوف لا يعرف سبيلا الى قلبه ـ يخافهم ، ويبتعد عن الطرق التي تؤدي الى الاصطدام بهم . ولما تحدث الناس أخيرا عن خلافه مع الانكليز من أجل البوريمي لم يدرك أحد ما كان لذلك الخلاف من ألم الوقع وقسوة في نفس عبد العزيز . ومن مأمنه يؤتي الحذر » [١١٣] .

نحن نؤيد أن « عبد العزيز » كان يخافهم ، وله الحق ، ويتجنب الاصطدام بهم « قدر الامكان » وخيراً فعل . ولكن اذا كان الصدام محتوما ويمس الأساسيات ، فلم يكن يتردد . و « الله ما نخاف غير الله » . واذا جاء الانجليز « بورقة مختومة » نتراجع .. ونتحين الفرص .. لأن الورقة المختومة تتبعها البوارج . ثم « إذا حان الوقت نطالب بحقنا » أو ننتزعه .

نعم كان يشعر بالغبطة والامتنان كلما « شاع » نبأ « صداقته » مع الإنجليز ، فهذا يسد أبوابا كثيرة ، ويكبح جماح « آخرين من دونهم » .. ولكنه لم يتصور أبداً أنهم مأمنه ، أو أصدقاؤه . والخلاف حول البوريمي لم يكن إلا أحد خلافات عديدة شهدتها السنوات السبع الأخيرة من حكمه . التي كما قلنا كان العنصر الأساسي فيها هو الخطر البريطاني ومحاولة موازنته بالأمريكان .

على أية حال ، فما من حاكم عربي استفاد من « صداقة » بريطانيا مثل عبد العزيز ، وما من حاكم عربي في دائرة النفوذ البريطانية ، لم تستطع بريطانيا استخدامه لتحقيق أي هدف من أهدافها الاستعمارية ، الا عبد العزيز .

الملاحق

الانجليز

١ م ـ وقد أشار « لوريمر » إلى هذه المقابلة عندما قال إن عبد العزيز كان في مارس ١٩٠٣ ذي الحجة ١٣٢٠ ، وقابل القنصل الروسي العام في بوشهر الذي جاء على الطراد بويارين . وخلال وجوده هناك هاجم ابن رشيد الرياض وفشل في الاستيلاء عليها .

ويزعم كتاب تاريخ الكويت أن عبد الرحمن الفيصل قبل خروجه للرياض في صفر ١٣٢٠ هـ (مايو . يونية ١٩٠٢ م) كتب لرئيس الخليج في بوشهر ينبئه بخروجه ، ويرجو منه أن تضع الحكومة البريطانية أنظارها عليه ، وأن تشمله بعطفها ، ويخبره أيضاً أن معتمد الروس قد عرض عليه بلسان حكومته بذل المساعدات التي يحتاج اليها ، وأنها ستلبي طلباته وأنه رفض ذلك رغبة في الحكومة البريطانية وزهدا في غيرها من الدول (انظر صفحة ١٧٩ من تاريخ الكويت) .

وتهافت الرواية واضح . فوفقا لتواريخها لابد أن يكون العرض الروسي قد تم قبل صيف ١٩٠٢ (١٣٢٠ هـ) (تاريخ خروج عبد الرحمن الفيصل) ، بينما الرسالة المنسوبة لعبد العزيز ، وتقرير حكومة الهند ، يتحدثان عن هذا العرض بتاريخ مارس ١٩٠٣ (١٣٢١ هـ) والتاريخ الأول مستحيل لأن أحداً لم يكن قد سمع بعبد العزيز ، وهو لم يكن قد استولى على الرياض إلا منذ ستة شهور لا أكثر . كما أن التناقض بين الروايات التي نسبت هذه الرسالة إلى عبد العزيز والأخرى التي نسبتها إلى عبد الرحمن أبيه يجعلنا نتشكك في مصدرها ، ويدفعنا للتساؤل : هل هي ضمن الرسائل المزورة التي كان ابن صباح يدبجها ويختمها بخاتم عبد الرحمن الفيصل ؟

هذا وقد نقل الزركلي عن « لوريمر » خبر الاتصال السعودي بالروس بلهجة توحي بأنه يؤكده فقال :

« هذا الخبر ، كان من جملة ما احتفظ به الانكليز ، ضمن علاقاتهم ببلاد الخليج ، وما أذنوا بنشره إلا سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م)

قال مصنف تلك العلاقات ج . ج لوريمر (توفي سنة ١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م) وكان من كبار الموظفين البريطانيين في الهند ، وعهد اليه المكتب البريطاني الذي كان يدعى « قسم الخدمات المدنية بحكومة الهند » بجمع ما لديه عن علاقات بريطانيا ببلاد الخليج ، فصنف كتاب « دول الخليج » وطبعت منه نسخ قليلة ، عليها طابع السرية ، وما أذن الانكليز بنشره للناس إلا بعد مرور خمسين عاما على حوادثه ، قال : « بينما كان عبد العزيز ابن سعود ، في الكويت في أوائل آذار ١٩٠٣ (ذي الحجة ١٣٢٠) وصل إلى الكويت القنصل العام في بوشهر ، على الطراد الروسي « بويارين » وأكدت بعض المصادر ، أن لقاء حصل بين القنصل وعبد العزيز ، عرض فيه الروس أن يمد عبد العزيز بالسلاح والمال . وكانت البصرة على علم بأن حكومة روسيا مهتمة اهتماما خاصة بالصراع القائم بين ابن سعود وآل الرشيد » .

وعلق الزركلي : « أما الملاقاة فأمر محتمل الوقوع ، واما عرض السلاح والمال عليه ، أيام حروبه مع ابن الرشيد ، فلم يعرف ان عبد العزيز تلقى شيئاً لا في ذلك الحين ولا بعده »

الا أن الزركلي بعد أن قرر ان « الملاقاة محتملة » عاد في الصفحة التالية فانكر وجود عبد العزيز في الكويت عام ١٩٠٣ ونسب الرسالة اياها الى عبد العزيز فقال : « ومثل هذا التباين يضعف الثقة في كتاب تصدره الحكومة البريطانية . ومصدر التباين في نظر الزركلي هو : « ولكن لوريمر بعد ان ذكر حكاية المقابلة هذه (دول الخليج ص ١٧٠٣) وانها كانت في اوائل مارس ١٩٠٣ عاد فقال ان ابن سعود حين بدأ حركته من الكويت في مايو ١٩٠٢ لاستعادة عاصمة اسلافه ، كتب الى المقيم السياسي

في الخليج لتوثيق العلاقة بينه وبين بريطانيا ، وذكر انه قد رفض اثناء وجوده في الكويت عروضا بالمساعدة من جانب مسئول روسي كبير » . فهذا يدل على ان اجتماعه بالروس كان قبل أن يخرج من الكويت لاسترداد الرياض . وعبد العزيز لم يكن في الكويت عام ١٩٠٣ » .

على أية حال لقد لعب عبد العزيز ورقة الروس مع البريطانيين بل والأمريكيين ليس في هذا الوقت المبكر فحسب ، بل وبعد فتح الحجاز ، فقد كتب للمندوب السامي البريطاني في القاهرة (١٢ جمادى الثانية ــ ديسمبر ١٩٢٧) يقول :

« موقف البلشفيك بازاء جزيرة العرب ومحاربتهم النفوذ الاقتصادي البريطاني ؛ وعزم السوفيت على حيازة النفوذ الاقتصادي في بلاد العرب :

« إننا نصارحكم برأينا في هذه القضية . إننا باديء بدء اتخذنا في الحجاز الاجراءات التي لا تقاوم قوانين حرية التجارة في العالم . واتخذنا من جهة ثانية بعض احتياطات أخرى لمنع سبق نفوذهم .

قد يكون من المفيد لاقتصاديات بلادنا ، تسهيل سبل التجارة من روسيا ، ولكننا نرى في ذلك ضرراً لا يستهان به على منتجات البلاد البريطانية . وإنه وإن لم يكن بيننا وبين الحكومة البريطانية أية اتفاقية تجارية ، لرعاية منتجاتها ، فاننا حباً في المحافظة على المصالح البريطانية ، ومقاومة لمنافسيها ، وقفت حكومتنا في الحجاز ذلك الموقف ، الذي لابد أن بلغكم أمره على أن « السوفيت » لم يألوا جهداً من التقرب منا ، وتقديم المساعدات لنا ، وهم على موقفهم وقربهم من كثير من بلاد الشرق ، ولكننا لم نزل حريصين على صداقتنا مع الحكومة البريطانية .

« وقد بسطت هذه القضية لفخامتكم ، لتفكروا في طريق لمعالجة الوسائل الاقتصادية بين البلدين ، ولتعلموا موقفنا ، ومقدار حرصنا على المحافظة على مصالح الحكومة البريطانية » .

ولم تكن هناك قوة عربية تعارض أو تقلق مصالح بريطانيا في ذلك التاريخ إلا السعودية . التي لم تكن قد تم الاتفاق النهائي على حدودها مع ممتلكات ومحميات وانتدابات بريطانيا ، وحيث الاخوان يشكلون أخطر تهديد لكل التركيبة البريطانية ــ العربية . ومع ذلك فقد استطاع ابن سعود أن يفرض نظرية تلاقي المصالح البريطانية ــ السعودية ، وهدد بايطاليا وروسيا .. ولا أظن أن أحداً كان يراهن على الروس عام ١٩٢٧ .. في الجزيرة العربية !

ولا بأس هنا من إشارة إلى العلاقات الروسية ــ السعودية .

في عام ١٨٧٩ (١٢٦٩ هــ) كان في جدة ثلاثة قنصليات هي البريطانية والفرنسية والهولندية (باعتبارها الدول الاوروبية التي تحكم رعايا مسلمين) ، أضيفت إليها القنصلية الروسية ، ثم قتل القنصل الروسي في غارة بدوية . ثم جاء الطليان بعدما أصبحت ايطاليا امبراطورية تضم رعايا مسلمين .

ولما قامت الثورة البلشفية ، تحولت القنصلية القيصرية إلى قنصلية سوفيتية ، وشهدت العشرينات إهتماماً روسيا كبيراً بالشرق والاسلام والمسلمين ، نظرا لثورة المسلمين الروس ضد النظام الجديد ، وبدء سياسة اخضاعهم وترويسهم بشكل نهائي وحاسم ــ كما بدا وقتها ــ وكانت القوى الامبريالية الرأسمالية ، تحاول الاستفادة من التطلع القومي لدى الشعوب الاسلامية لموسكو ، ومن الحالة الثورية التي كانت تجتاح العالم الاسلامي ، لتفتيت الامبراطورية الشيوعية ، فرد الروس بدعوة شعوب الشرق الخاضعة للاستعمارية الغربية للثورة ، ومحاولة الظهور بمظهر الحليف لتلك الثورة . أما بالنسبة للسعودية ، فقد اختار الملك حسين طياريه من الروس البيض ، كما كان ارتباطه هو وأولاده بالانجليز ، يسد الطريق على الغزل السوفيتي . وهكذا أفرغت روسيا البلشفية كل عواطفها في معسكر ابن سعود ، واعتبرته « حركة ثورية ــ رغم شعاراتها الدينية » ، والقنصل الروسي هو الوحيد الذي وافق عبد العزيز على مقابلته في مكة خلال حصار جدة ، حيث عبر لابن سعود عن دعم

الاتحاد السوفيتي . وقد سبقت موسكو حتى بريطانيا في الاعتراف بابن سعود فقد أبرق القنصل الروسي إلى عبد العزيز في ١٦ فبراير ١٩٢٦ « بموجب السلطة المخولة لي من حكومتي يسعدني أن أبلغ جلالتكم أن حكومة الاتحاد السوفيتي مستندة إلى مباديء حق تقرير المصير واحتراما لارادة شعب الحجاز الذي انتخبك ملكا . فان الحكومة السوفيتية تعترف بقيام علاقات دبلوماسية عادية مع حكومتك . . ».

ورد عبد العزيز : « نعبر عن امتناننا لموقف الحكومة السوفيتية ، واستعدادنا الكامل للدخول في علاقات مع حكومة ومواطني الاتحاد السوفيتي . كما هو الحال بين الدول الصديقة . ولتقم العلاقات بين الحكومتين على احترام استقلال الأراضي المقدسة ، والأعراف الدولية المتعارف عليها . » .
عبد العزيز .

وكانت روسيا أول دولة ترفع قنصليتها إلى مستوى مفوضية عام ١٩٢٩ . وكان أول وزير مفوض أوروبي هو «كريم خان حكيموف». ولما نشبت الأزمة العالمية وبدأت شركات النفط الانجلو ـ أمريكية تضغط على عبد العزيز بحجة عجز الحكومة السعودية عن تسديد ديونها ، ضرب عبد العزيز ضربته ففتح اسواق جدة للتجارة الروسية ، وجن جنون القنصل الأمريكي في عدن فكتب هذا التقرير الذي يكشف عن سوء أدبه وخبث نيته . قال التقرير الأمريكي :

« إن المرسوم الذي صدر في مارس ١٩٣٣ والذي يسمح للسوفيت بالتصدير إلى البلاد (السعودية ج) بدون قيود سيكون له أكبر الأثر على البلاد . والمعروف أنه في عام ١٩٢٧ افتتح السوفيت خط ملاحة من أودسا إلى الخليج الفارسي عبر جدة وبور سودان والحديدة . ولكن لم يسمح لهم . بانزال بضائع في جدة لأن البضائع الروسية كانت ممنوعة . وفي عام ١٩٣١ وقعت حكومة الحجاز مع منظمة التجارة السوفيتية اتفاقية يتم بموجبها توريد الكيروسين والغازولين للسعودية ، في الوقت الذي كانت فيه شركتا شل وستاندرد أويل تلحان في طلب مستحقاتهما لدى الحكومة . وقد بلغت ديون الحكومة السوفيتية لدى المملكة حوالي ثلاثين ألف جنيه ، ولذا فقد حان الوقت الذي يطلب فيه الوزير المفوض السوفيتي حرية العمل لمؤسسة التجارة السوفيتية ويبدو أنه نجح . ولكن نعتقد أن ابن سعود كان يسخر منهم وأن خططه هي أن يسمح لهم بالتجارة إلى أن تغطي الضرائب والرسوم ديونهم أي الثلاثين ألف جنيه لأن تجار جدة متضررون وهم المورد الرئيسي للدخل بعد الحج ، وهو لا يستطيع أن يستمر في الحكم اذا عاداهم » .

وكانت سياسة « الاغراق » السوفياتية قد أزعجت الوكلاء التجاريين في جدة المرتبطين باسواق الغرب فهاجموا « البضاعة الملحدة » .

ونعود للتقرير الامريكي أو إلى الجزء المنحط منه فنراه يقول : « إن ابن سعود الذي استطاع أن يحافظ على موقفه إزاء ما اعتاد تسميتهم بالاستعماريين الأوروبيين ، سيفقد الكثير من نفوذه في العالم الاسلامي نتيجة أعماله هذه . إنه في نظر الكثيرين «يرخص» نفسه وبلاده المقدسة في سبيل طموحه وموقفه هذا من روسيا التي تعتبر في نظر المثقفين المسلمين في حوض البحر الأبيض والهند معادية للدين . مما سيضعف موقفه كحارس للأماكن المقدسة* .

ثم تنبأ بسقوط ابن سعود !..

وزيادة في الاغاظة أرسل ابن سعود الى موسكو وفدا رسميا برئاسة الأمير فيصل وعضوية فؤاد حمزة وخالد الأيوبي وسيد شاكر عثمان . وقد رحبت « الازفستيا » بالوفد على الطريقة الروسية أي مدحت نفسها ، ونسبت الى الثورة البلشفية نجاحات الأخوان في الحجاز !.. قالت غفر الله لها « إن ثورة أكتوبر الجبارة كان لها تأثيرها على شرق الجزيرة العربية فهب شعبها لبناء دولة وطنية بجهودهم

---

* بتاريخ ١٩٣٣/٤/١٢ (١٣٥١ هـ)

الذاتية. وهكذا طرد حسين من الحجاز وقامت الدولة الجديدة من الحجاز ونجد وتوابعها*».
وأمرأة بريجنيف طالق ثلاثاً ان كان ابن بجاد قد سمع بثورة اكتوبر حتى عام ١٩٢٦ .
وقالت الازفستيا « ان حقيقة وجود دولة وطنية مستقلة في الجزيرة العربية له أهميته العالمية الكبرى » .

وقد نجحت مناورة عبد العزيز ، ولكن مناورة الروس لم تنجح ، فقد رفضت الثورة الوطنية في السعودية أو الشرق الاسلامي ، التحول الى ثورة بروليتارية . وعقمت الصحراء عن أن تنبت بروليتاريا ، بل أنجبت أغنى رأسمالية ، والملك « الوطني » لا سبيل لاقناعه بالماركسية ، وقرر ستالين حل المشكل بطريقته فاستدعى البعثة كلها بما فيها حكيموف وأعدمهم فور وصولهم ! وأفلت واحد هو طبيب كان بالسفارة ، وكان لديه من الذكاء أو المعرفة ما جعله يرفض الاستدعاء ، فطلب اللجوء من الحكومة السعودية ، وتحول إلى طبيب خاص للملك . وهكذا كان قطع العلاقات من جانب الروس .

٢ م ـ كان القنصل البريطاني في بغداد قد أبلغ في ٢٥ أبريل ١٩٠٤ (١٣٢٢ هـ) أن ابن سعود قد استولى حديثاً على الرياض وطرد ابن رشيد منها ولما كان استيلاء ابن سعود على الرياض قد تم قبل عامين ، فان رئيس الخليج في بوشهر ، الذي يعتبر مسئولا عما يجري في الخليج والجزيرة ، أراد أن يقول للقنصل : لا تتدخل فيما لا يعنيك ، أو صح النوم بالأدب الانجليزي ، فكتب إليه يقول : « نرجو الافادة عما إذا كان هناك خطأ في اسم « الرياض » وأن صحته هو « حايل » (فتحها ابن سعود بعد ١٧ سنة) حيث أن معلوماتنا أن ابن سعود قد استولى على الرياض منذ فترة ! » .
وقد ردت عليه السفارة في اسطمبول : « إن الماجور نيومارش (بغداد) لا يستطيع التأكيد بأن ابن سعود استولى على حايل ولكنه بالتأكيد أخذ الرياض »

٣ م ـ وفعلا استغلت الادارة الهندية المناسبة ، وقررت انتزاع حق تعيين مقيم بريطاني في الكويت . « اذا ما اصر الأتراك على التدخل المسلح في تلك الربوع . »

٤ م ـ وقد جاء في مقدمة التقرير المذكور ما يلي :
« خلال السنوات التي تلت عودة عبد العزيز إلى الرياض ، كان يتصرف بتنسيق مع شيخ الكويت ، الذي كان لديه كل الأسباب للتطلع إلى القضاء على ابن رشيد ، لأن آل رشيد كانوا حلفاء للأتراك ومؤيدين للنظام التركي ، وتدعمهم اسطمبول ، ويمثلون في الجزيرة السياسة التي كان الشيخ يقاومها في أراضيه . ولأن الشيخ كان على اتفاق مع بريطانيا منذ عام ١٨٨٩ (١٣١٧ هـ) ووعدناه بالمساعدة ضد العدوان العثماني ، لذلك لم نكن نريده أن يتورط في مشاكل وسط الجزيرة (نجد) وأيضاً لالتزامنا بما أعلن سنة ١٨٩٧ (١٣١٥ هـ) وهو أننا يجب أن لا نتدخل إلا في حدود حماية الأمن في الخليج الفارسي ، لذلك منعناه من توريط نفسه داخل الجزيرة . أما ابن سعود فرغم تزايد مكانته ، إلا أنه ظل خارج دائرة اهتمامنا ، وليس إلا في عام ١٩١١ (١٣٢٩ هـ) ، عندما طرح اسمه في الوثائق الرسمية (الحق أنه ذكر قبل ذلك في التقارير من ١٩٠٣ ـ ١٩٠٦ « ١٣٢١ ـ ١٣٢٤ هـ »)

٥ م ـ وقد ظل هذا الشك ملازماً له طوال حياته السياسية ، ففي خلال مفاوضات ١٩٣٥ ـ ١٣٥٤ هـ أبرق الى نجله « سعود » في لندن بتاريخ ١٢/٧/١٩٣٥ ـ ٩ ربيع الثاني ١٣٥٤ يقول :
« برقيتكم وصلتنا . من قبل ما نشرته جريدة التايمس . فليس هو مقصد الانكليز الخفي ، ولو كان

---

* ازفستيا ٢٩/٥/١٩٣٢ ـ ١٣٥١هـ

مقصدهم ذلك ما نشروه بحضوركم . وإنما أرادوا يظهرون عدم انتهاء الأمور . ليكبروا الأمر عليكم . فأنتم الزموا موقفكم بثبات تام ، لأن مالنا عن مطلبنا مهرب . والحاجة لهم . وتمسككم بمطالبنا مشروع . وحجتنا قوية . وما وراءكم خسوفة* » .

٦ م ــ لم يكن القرار سهلا بعد التحذير أو الانذار البريطاني . ولعل مما يشير إلى الأزمة النفسية التي عاشها عبد العزيز وكتمها عن كل من حوله ، حتى أفضى بها إلى « محمد أسد » لأنه كان يشاركه الحزن على وفاة الزوجة الوفية ، أو الحب الأول لكل منهما .. فقد روى له أنه « كلما أظلمت الدنيا في عيني ، ولم أتبين طريقي للخروج من المتاعب والأخطار التي تحيط بي ، كنت أجلس وأنظم قصيدة لجوهرة**، وعندما أفرغ منها كنت أشعر أن الدنيا تتفتح لي فأعرف ما كان علي أن أفعل»
وقال محمد أسد «وفي سنة ١٩١٣ــ١٣٣١ هــ وكانت قوة الاخوان الهائلة تحت تصرفه***. شعر ابن سعود أخيراً بأنه كان يملك القدرة الكافية على غزو منطقة الأحساء على الخليج الفارسي ، والتي كانت فيما مضى تابعة لنجد ، واحتلها الأتراك منذ خمسين سنة . ولم تكن محاربة الأتراك خبرة جديدة بالنسبة لابن سعود ، ذلك أن كان قد لاقى ، مرة بعد أخرى ، فصائل تركية ، وبخاصة مدفعية الميدان ، ضمن جيوش ابن رشيد ولكن الهجوم على الأحساء ، التي كان الترك يحكمونها مباشرة كان شيئاً مختلفا تماما ، ذلك أنه يجعله يصطدم بدولة عظمى وجها لوجه**** ».
« الخطر كان كبيرا جدا ، حتى ان ابن سعود تردد طويلا قبل أن يقوم بأي هجوم على الاحساء وعاصمتها الهفوف ، وهو لايزال مولعا ، حتى الآن ، بأن يروي الظروف التي اتخذ فيها قراره النهائي : «لقد كنا على مرأى من الهفوف . ومن الرابية التي كنت جالسا عليها استطعت أن أرى بوضوح أسوار القلعة الحصينة ، التي كانت تشرف على البلدة . كان فؤادي مثقلا بالحيرة . وكنت أوازن بين فوائد هذا العمل وأخطاره . فرأيت وجه زوجتي جوهرة ماثلا أمام عيني . وبدأت أفكر في بعض الأبيات التي يمكن أن أقولها لو كانت إلى جانبي . ودون أن أشعر ، شغلت بنظم قصيدة لها » ثم بعثت بالقصيدة إلى أم محمد : « وبينما كان الساعي يختفي في غمامة الرمال .. وجدت فجأة أنني وصلت إلى قرار بشأن الحرب*****، وانني مهاجم الهفوف ، وأن الله لابد أن ينصرني».

٧ م ــ وجاء في تقرير الكولونيل غراي المقيم البريطاني في الخليج : « وقد انزعج السير مبارك جداً من فكرة وصول ابن سعود إلى اتفاق رسمي مع الأتراك ، دون استشارته . وأرسل رسولا إلى الرياض يسأله عن التفاصيل . ومن سوء الحظ لايمكن أن يعود قبل عشرة أو اثنى عشر يوما ، ولكن سأحاول أن أبلغكم قبل ذلك قدر الامكان . وسأرسل صورة من هذا الخطاب إلى حكومة الهند مباشرة كسبا للوقت » بتاريخ ١٩١٤/٦/٢٦ ــ ١٣٣٢ هــ .

---

* عن الزركلي صفحة ٨١٥

** هي جوهرة بنت مساعد والدة الملك خالد والأمير محمد .

*** هذه نقطة موضع شك . وإن كنا نميل للاعتقاد بأن تشكيل الاخوان سبق عام ١٩١٣ (١٣٣١ هــ) إلا أنهم لم يكونوا قوة « هائلة » في ذلك التاريخ .

**** لاحظ أن هذا الكلام منقول عن ابن سعود ، وبعد ١٩ سنة من حواره مع شكسبير ولكن كلمات شكسبير بنصها محفورة في ذاكرته ، فهو يكررها على محمد أسد .

***** القرار بشأن الحرب لم يتخذ أمام قلعة الهفوف بالطبع ، فهذا كلام شعراء . ولكن هذه الحالات معروفة في القياديين الذين لا تناقض بين قدرتهم على اتخاذ القرار وحاجتهم إلى ملهم نفسي أو عاطفي . ولذلك قال سيد من عرف النفس البشرية : « تفاءلوا ولا تتطيروا . »

٨ م ـ ويبدو أن مسألة « الراية » كانت مهمة ، فقد نعت مجلة « لغة العرب » الهزيمة العثمانية بقولها : إن عبد العزيز استولى على مدينة الأحساء والقطيف وننشر هذه الأخبار آسفين على أن العلم العثماني قد طوي من الخليج ، ولم يبق للدولة العثمانية مقدار شبر من الأرض على ضفافه . ولا حول ولا قوة إلا بالله » من حق مجلة لغة العرب أن تكفكف دموعها فان هذه الأحساء التي سقطت عنها الراية العثمانية ظلت وحدها المنطقة المستقلة التي ترفرف عليها راية مسلمة على الشاطىء العربي للخليج لمدة سبعة وخمسين عاما بعد تاريخ المقال (يوليو ١٩١٣ ـ ١٣٣١ هـ) .

٩ م ـ وظل سحر ابن سعود يسيطر على شكسبير حتى وهو على بعد مئات الاميال ، فهو يكتب من « نخل » في سيناء « أن الرأي العام العربي يجمع على أن اليوم الذي سيكون فيه ابن سعود أو نائبه يحكم حايل قد اقترب . » ولكن هذا اليوم تأخر عن أماني « محبنا » ٨ سنوات .

١٠ م ـ مشروع معاهدة مع ابن سعود

المشروع البريطاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكومـة البريطانيـة الساميـة ، من جانبها ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ، حاكم نجـد والحسـا والقطيف ، بالاصالة عن نفسه ، ونيابة عن ورثته وخلفائه وقبائله .

حيث أن الطرفين لديهما الرغبة في توطيد وتقوية العلاقات الودية التي قامت بينهما لعدة أجيال ، ورغبة في دعم مصالحهمـا المتبادلة فقد اختارت الحكومة البريطانية وعينت سير برسي كوكس ، المقيم البريطاني في الخليج الفارسي مفوضا له كامل السلطات في توقيع معاهدة لهذا الغرض مع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود وقد اتفق المذكور ، الليوتينانت ـ كولونيـل ـ سـير برسي كوكس مع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ، المشار إليه فيما بعد « بابن سعود » ، وأقرا المواد التالية :ـ

(١)

تقر الحكومة البريطانية وتعتـرف بأن نجدا ، والحسا ، والقطيف ، وأراضيها ، وموانيها الواقعة على شواطـىء الخليـج الفارسي ، هي أراضي ابن سعود وآبائه من

المشروع السعودي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكومة البريطانية السامية من جانبها وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود ، « **حاكم نجد والحسا والقطيف وجبيل ، والمدن والموانى التابعة لها** » بالأصالة عن نفسه ونيابة عن ورثته وخلفائه وقبائله .

وحيث أن الطرفين لديهما الرغبة في توطيد وتقوية العلاقات الودية التي قامت بينهما « **لمدة طويلة** » ورغبة في دعم مصالحهما المتبادلة ، فقد اختارت الحكومة البريطانية وعينت سير برسي كوكس ، المقيم البريطاني في الخليج الفـارسي ، مفوضـا له كامـل السلطات في توقيع المعاهدة مع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود .
وقـد اتفـق المذكور ، الليوتينانـت ـ كولونيل ـ سير برسي كوكس مع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ، المشار اليه فيما بعد « بابن سعود » ، وأقرا المواد التالية :

(١)

تقر الحكومة البريطانية وتعتـرف بأن **نجدا والحسا والقطيف وجبيل وملحقاتها وأراضيها التي سوف تقرر فيما بعد ،** وأراضيها وموانيها على شواطيء الخليج

قبله ، وعليه فانها تعترف بابن سعود المذكور كحاكم مستقل لها .

ومن بعده أولاده وخلفائه بالوراثة ، ولكن اختيار شخص الحاكم منهم سوف « **يخضع لموافقة الحكومة البريطانية بعد مشاورات سرية بينها وبينهم** » .

(٢)

في حالة وقوع عدوان — « **غير مستفز** » — من جانب أية دولة أجنبية على اراضي ابن سعود المذكور وخلفائه تقدم الحكومة البريطانية العون لابن سعود بالاسلوب والى المدى الذي يريان أن الموقف يحتاجهما .

(٣)

يوافق ابن سعود هنا ، ويتعهد بالامتناع عن الدخول في آية مراسلة ، أو اتفاق ، أو معاهدة مع أية أمة أو دولة أجنبية ، وأكثر من ذلك ، أن يطلع السلطات السياسية للحكومة البريطانية على أية محاولة من جانب أية دولة أخرى للتدخل في الأراضي المذكورة آنفا .

(٤)

يتعهد ابن سعود « **إلى الأبد** » بأنه لن يمنح **أو يبيع** أو يرهن ، أو يسلم تلك الأراضي أو أي جزء منها ، أو يعطي امتيازات داخل تلك الأراضي لدولة أجنبية أو رعايا دولة اجنبية بدون موافقة الحكومة البريطانية ، وأن يتبع نصيحتها في ذلك دون تحفظ .

(٥)

يتعهد ابن سعود هنا بأن يبقى الطرق مفتوحة **داخل تلك الاراضي** الى الاماكن المقدسة ، كما يتعهد بحماية الحجاج في طريقهم اليها ومنها .

الفارسي ، هي **بلاد** ابن سعود وآبائه من قبله ، وتعترف هنا بأن ابن سعود المذكور هو الحاكم المستقل فيها **والرئيس المطلق على جميع قبائلها** .

ومن بعده أولاده وخلفائه بالوراثة ، ولكن اختيار شخص (الحاكم) منهم ، يكون إما **بتسمية الحاكم القائم له في حياته أو بدعوة رعايا تلك البلاد لانتخابه** .

(٢)

في حالة وقوع عدوان من جانب أية دولة أجنبية على أراضي البلاد التابعة لابن سعود المذكور وورثته تقدم الحكومة البريطانية العون لابن سعود **في جميع الظروف وفي أي مكان** .

(٣)

بوافق ابن سعود هنا ، ويتعهد بالامتناع عن الدخول في أية مراسلة ، أو اتفاق ، أو معاهدة ، مع أية أمة أو دولة أجنبية ، وأكثر من ذلك ، أن يطلع السلطات السياسية للحكومة البريطانية ، على أية محاولة من جانب أية دولة أخرى للتدخل في الاراضي المذكورة آنفا .

(٤)

يتعهد ابن سعود بأنه لن يمنح أو يرهن ، أو يسلم الاراضي المذكورة أو أي جزء منها ، أو يعطي امتيازات داخل « تلك الاراضي لدولة أجنبية » ، أو لرعايا دولة أجنبية بدون موافقة الحكومة البريطانية ، التي سيتبع نصيحتها دون تحفظ ، « **مادام ذلك في صالحه** » .

(٥)

يتعهد ابن سعود بأن يبقي الطرق المؤدية إلى الأماكن المقدسة عبر بلاده ، مفتوحة كما يتعهد بحماية الحجاج في « **عودتهم** » إلى الأماكن المقدسة .

(٦)

يتعهد ابن سعود ، كما فعل آباؤه من قبله ، بالامتناع عن أي عدوان أو تدخل في أراضي الكويت والبحرين وقطر وساحل عمان ، أو القبائل والرؤساء الآخرين الذين هم تحت حماية الحكومة البريطانية ، الذين سوف تقرر حدود أراضيهم فيما بعد .

(٧)

توافق الحكومة البريطانية وابن سعود على أن يبرما « عندما يتيسر ترتيب ذلك » معاهدة مفصلة في الامور الاخرى التي تهمها بشكل مشترك .

(٦)

يتعهد ابن سعود ، كما فعل آباؤه من قبله ، بالامتناع عن أي عدوان أو تدخل في اراضي الكويت والبحرين ، **ومشايخ** قطر ، وساحل عمان ، الذين هم تحت حماية الحكومة المعظمة ، ولها علاقات تعاقدية معهم ، وسوف تقرر حدود أراضيهم فيما بعد .

(٧)

توافق الحكومة البريطانية وابن سعود على ابرام معاهدة أخرى مفصلة عن المسائل التي تهم الطرفين بشكل مشترك .

ترجمة خطاب* من المقيم البريطاني في الخليج الفارسي الى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود ، بتاريخ ٢٦ يونيو ١٩١٥ .

بعد التحية

وصلني كتابكم المسجل بتاريخ التاسع من جمادي الاول ١٩٣٣ ، ولكنني كنت غائبا مع القوات أولا في الأهواز ، ثم في الامارة ، ووصلت كتبكم أثناء غيابي . ولهذا وقع بعض التأخير في الاطلاع عليها وارسال رد إليكم ، الأمر الذي انتظر أن تتقبلوا عذري فيه . ولكنني طلبت من عبد اللطيف بن المنديل أن يطلعكم على ما تقدم ويروي لكم الأخبار ، وهو يقول لي إنه قد فعل ذلك .

أما عن الكتاب الموجه إلى سمو نائب الملك فقد أرسلته إلى وجهته .

أما بالنسبة للمعاهدة ، فقد فهمت ما كتبته أنت شارحا أنك قد أدخلت بعض التعديلات على النص وليس لدي أدنى شك في أننا سوف ننجح في ضبط الصياغة على نحو يلائم كلا الطرفين ويضمن مصالحنا ومصالحكم ، ولكن ، لما كانت الصياغة قد اختلفت عما كان قد سبق للحكومة الموافقة عليه ، فقد أصبح من واجبي أن أعيد التشاور معهم فيه ولكنك، لابد وأن تكون قد فهمت من قراءة مشروع المعاهدة مدى استعداد الحكومة البريطانية لتوطيد علاقاتها معك ، وأنك سوف تبقى هادىء البال في انتظار التوقيع النهائي للوثيقة .

وأعتقد أن الأمر سوف يتم بسهولة أكبر في لقاء شخصي بيني وبينك . وفي الوقت الحاضر ــ طبقا للمعلومات التي تصلني ــ فان سموك في طريقك ، أو تنوي التوجه الى الحسا . وأنا أيضا سوف أغادر البصرة لبضعة أيام متوجها الى « الناصرية » التي ننوي حاليا احتلالها وادارة حكومتها . وعند عودتي من هناك سوف أتصل بك وآمل أن تجد من الميسور لك الحضور إلى العقير ، حيث يمكن أن نلتقي .

هذا هو ما كان يراد بيانه ودمتم والسلام .

تعليق بريطاني

على التعديلات التي أدخلها ابن سعود

في الديباجية :

* المنشور هنا ترجمة الى العربية عن الترجمة الانجليزية لنص الخطاب الذي ربما كان بالعربية على الأغلب .

(١) إضافة « جبيل والمدن والمواني التابعة لها » .
واضح أنه قد وضعت إشارة خاصة إلى جبيل ، حيث تقوم قرية كبيرة لقبيلة آل بوعينين ، وأقام الترك فيها حامية عسكرية ، وهذا الموضع يدخل في نطاق « سنجقية » الحسا ، ولكن إذا أراد النص عليها بالاسم فلا أرى مانعا ، وينبغي أن يسأل عن أسباب اهتمامه بها .
٢ ـ « لمدة طويلة » بدلا من « لعدة أجيال » لا اعتراض .

من المادة الأولى :

(٣) اضاف « جبيل وملحقاتها وأراضيها ، التي سوف يتم تحديدها فيما بعد » ، (انظر التعليق رقم ١)
٤ ـ مجرد استخدام لالفاظ مغايرة ـ لا اعتراض .
(٥) قوله « الرئيس المطلق للقبائل » .
وأعتقد أننا نقر ذلك في الواقع ، ولكن يبدو من غير الضروري ـ والى حد ما ـ النص على ذلك كتابة ، وربما نحاول استبعادها .
(٦) عبارة « بواسطة الحاكم القائم على قيد الحياة » أضفتها أنا إلى الترجمة الانجليزية ، بعد أن تأكدت بنفسي في أعقاب مناقشة مع وكيل ابن سعود أن هذا هو المعنى الذي يقصده .
أضيفت عبارة : « أو بالتصويت من قبل سكان تلك البلاد » . لا بأس من ناحية المبدأ ، ولكنها صعبة التنفيذ وتحتاج إلى مناقشة معه .
(٧) حذفت جملة مهمة وهي : « بعد موافقة الحكومة البريطانية ، بعد مشاورة سرية معهم » حينما يتفهم دافعنا لوضع هذا الضمان ، سوف يقبل صياغتنا أو صياغة مشابهة .

في المادة الثانية

(٨) حذف عبارة « غير مستفز » على أساس أن كلمة « تعدي » العربية في ذاتها تعني المهاجمة دون سبب ، وهذا يعني أن إضافة « غير مستفز » غير ضرورية ، ويمكن إقناعه ببقائها .
(٩) إضافته عبارة « في جميع الظروف وفي كل مكان » من المستحيل بالطبع قبولها ، وينبغي التوصل إلى صيغة أخرى بالتشاور مع ابن سعود ، صيغة ليست ضيقة التحديد مثل صيغتنا ، ولا فضفاضة مثل صيغته .

في المادة الرابعة :

(١٠) حذفت كلمة « إلى الأبد » ، غير ذي أهمية .
(١١) حذف كلمة « بيع » ربما خطأ في الكتابة ، وينبغي أن توضع .
(١٢) كلمة « يؤجر » مستقلة عن كلمة الرهن ، تركت خطأ في النص المقدم منا ، وحذفت من جانبه ، وربما اعتبر معناها متضمنا في عبارة « يتخلى عن » .
(١٣) لفظة يمنح حذفت ، حيث أن الكلمة العربية المقابلة لها مستخدمة في السطر التالي بمعنى « يتخلى عن » لا اعتراض .
(١٤) عبارة : « مادام ذلك في صالحه » غليظة بعض الشيء . ولكن لا شك أنه لا يعني سوى « حينما لا تكون مصالحه مهددة في هذه الحالة » ، ويمكن اقناعه بقبول هذا التعديل الذي يبدو غير مستوجب للاعتراض .
(١٥) « خلال بلاده » استخدمت بدلا من « خلال أراضيه أو حدوده » لا اعتراض .

في المادة الخامسة :

(١٦) أعتقد أنه يظن أن تعهده « بحفظ الطرق المؤدية إلى الاماكن المقدسة » يتضمن حماية الحجاج في طريقهم اليها ولهذا يتكلم فقط عن « عودتهم » ، ولكن ينبغي أن تكون « العودة

« من » ، وليس « العودة » » إلى » خطأ في الكتابة بلاشك .

(١٧) حذفت : « قبائل ورؤساء آخرون » ، ينبغي أن تعاد ، مالم يقدم أسبابا جدية تدعوه الى حذفها .

في المادة السابعة :

(١٨) حذف عبارة « عندما يتيسر ترتيب ذلك » ألفاظ يمكن الاستغناء عنها .

(١٩) حذفت كلمة « أخرى » ، ربما خطأ في الكتابة ، غير ذات أهمية .

ب . ز . كوكس
٢٦ يونيو ١٩١٥

وقال تقرير نائب الملك في الهند* .

١ ــ بخصوص وراثة العرش ، يعتقد كوكس أن ابن سعود يمكن أن يقبل صيغتنا أو صيغة مشابهة اذا شرحنا له دواقعنا . على أية حال اذا رفض فيمكن التنازل عن هذه النقطة .

ــ أوافق على اقتراح السير برسي كوكس في تعديل المادة ٤ لتصبح : « فيما لا يضر مصالحه » .

وهذا نص المعاهدة الذي اتفق عليه :
معاهدة مع ابن سعود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكومة البريطانية السامية من جانبها وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود ، حاكم نجد والحسا والقطيف وجبيل والمدن والموانى التي تتبعها ، بالاصالة عن نفسه ، ونيابة عن ورثته وخلفائه وقبائله .

حيث أن الطرفين لديهما الرغبة في توطيد وتقوية العلاقات الودية التي دامت بينهما وقتا طويلا ، ورغبة في دعم مصالحهما المتبادلة ، فقد اختارت الحكومة البريطانية وعينت ليوتينانت ــ كولونيل سير برسي كوكس المقيم البريطاني في الخليج الفارسي مفوضا له كامل السلطات في توقيع معاهدة لهذا الغرض مع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود .

وقد اتفق المذكور الليوتينانت ــ كولونيل سير بيرسي كوكس مع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود المشار اليه فيما بعد « بابن سعود » وأقرا المواد التالية :ــ

(١)

تقر الحكومة البريطانية وتعترف بأن نجدا والحسا والقطيف وجبيل ، وملحقاتها وأراضيها ــ التي سوف تبحث وتحدد فيما بعد ــ وموانيها على شواطىء الخليج الفارسي ، هي بلاد ابن سعود وآبائه من قبله وبناء عليه تعترف بابن سعود المذكور كحاكم مستقل لها ، ورئيس مطلق لقبائلها ، ومن بعده أولاده وخلفاؤه بالوراثة ، ولكن اختيار شخص الحاكم يتم بتسمية الحاكم القائم لخليفته ولكن بشرط الا يكون شخصا معاديا للحكومة البريطانية بحال من الأحوال ، وعلى سبيل المثال ، فيما يتعلق بالنصوص المشار اليها في هذه المعاهدة .

(٢)

في حالة عدوان أية دولة أجنبية على أراضي بلاد ابن سعود المذكور وخلفائه ، دون الرجوع إلى الحكومة البريطانية ، وبدون اعطائها فرصة للتشاور مع ابن سعود وتكوين فكرة عن الأمر ، فان

---

* ١٩١٥/٧/٧

الحكومة البريطانية سوف تقدم العون بالأسلوب وإلى المدى الذي ترى الحكومة البريطانية أنه الأكثر فعالية لحماية مصالحه وبلاده وذلك بعد التشاور مع ابن سعود .

(٣)

يوافق ابن سعود هنا ويتعهد بالامتناع عن الدخول في أية مراسلة أو اتفاق أو معاهدة مع أية أمة أو دولة أجنبية ، وأكثر من ذلك ، أن يطلع السلطات السياسية للحكومة البريطانية على أية محاولة من جانب أية دولة أخرى للتدخل في الأراضي المذكورة آنفا .

(٤)

يتعهد ابن سعود على وجه الاطلاق بأنه لن يمنح ، أو يبيع ، أو يرهن ، أو يؤجر أو يتخلى عن الأراضي المذكورة أو أي جزء منها ، أو يعطي امتيازات في تلك الأراضي لأية دولة أجنبية أو رعايا أية دولة أجنبية بدون موافقة الحكومة البريطانية ، وأنه سوف يتبع نصائحها في ذلك دون تحفظ بشرط أن لا تكون ضارة بمصالحه .

(٥)

يتعهد ابن سعود بأن يبقى الطرق مفتوحة داخل تلك الأراضي إلى الأماكن المقدسة وأن يحمي الحجاج في عبورهم لها حال ذهابهم إلى الأماكن المقدسة وعودتهم منها .

(٦)

يتعهد ابن سعود ، كما فعل آباؤه من قبله بالامتناع عن أي عدوان أو تدخل في أراضي الكويت والبحرين وشيوخ قطر وساحل عمان الذين هم تحت حماية الحكومة البريطانية وتربطهم معاهدات بالحكومة المذكورة ، وسوف يجري تقرير حدود أراضيهم في المستقبل .

(٧)

اتفقت الحكومة البريطانية وابن سعود على ابرام معاهدة أخرى أكثر تفصيلا بخصوص المسائل التي تهم البلدين .

وقعت في ١٨ صفر ١٣٣٤ ، الموافق ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ .

عبد العزيز السعود (وقع وختم)

ب . ز . كوكس ــ ليفتنات كولونيل

المقيم البريطاني في الخليج الفارسي (توقيع)

شملفورد

نائب الملك والحاكم العام في الهند (توقيع)

اعتمد هذه المعاهدة نائب الملك والحاكم العام في الهند في سملا في الثامن عشر من يوليو عام ألف وتسعمائة وستة عشر .

١١ م ــ قال الريحاني : في البحرين كانت هناك ثلاث حكومات : وطنية ويديرها الشيخ ، وأجنبية ويديرها البليوس البريطاني ، والبلدية ويديرها ايراني . ولما عزل الشيخ عيسى* وتولى ابنه حمد، الغيت المحاكم الوطنية ، فأصبح حتى البحرانيون يتقاضون في قضاياهم الشخصية أمام قضاة أجانب يعينهم المعتمد البريطاني . وفي نفس الوقت طلب ابن سعود عزل رئيس البلدية الايراني الذي اضطهد رعايا نجد في البحرين ، فتم عزله فوراً » .

وقد لاحظ الريحاني أن السياسة الانجليزية في البحرين تختلف عنها في بقية محميات الخليج والجنوب ، ويقصد أنها اكثر ضراوة وشراسة ، واكثر وضوحا في القضاء على المؤسسات الوطنية ، وأرجع ذلك إلى شخصية المعتمدين الانكليز . ولكن ذلك غير صحيح بالطبع ، والسبب الحقيقي ، هو

---

* مايو ١٩٢٣ (١٣٤١ هـ)

أن البحرين ، كانت أكثر بلدان الخليج تطورا ، وكانت الحركة الوطنية فيها هي الأكثر نضجا ، والأكثر مقاومة للإستعمار ، ولذلك كانت السلامة البريطانية ، في الخليج ، تقتضي سحق هذه الحركة ، وعزل شيوخ البحرين عن الجماهير ، وفي كل مرة يتجاوب الشعب والشيوخ ، كانت السلطة البريطانية تتدخل وتعزل الشيخ أو تضرب الجماهير . والشيخ عيسى الذي عاصر سنوات السحق البريطاني لاستقلال البحرين ، كان أقل شيوخ الخليج استكانة ، وأكثرهم مشاغبة دفاعا عن سيادته ، وأحرصهم على التفاهم مع شعبه ، ولذلك كان الصدام معه مستمرا من جانب السلطة الاستعمارية .

وتجدر ملاحظة أن الريحاني طاف جميع بلاد الجزيرة فلم يتحدث عن « الوطنيين » ومطالبهم ، ومحاوراته معهم إلا في البحرين » (في العشرينات من هذا القرن) .

١٢ م – وقد قدر الريحاني عائدات المعاهدة حتى إلغائها بمائة وستين ألف ليرة » .

أما فيلبي فقد قدم كشف حساب كالأتي :–

٢٦٤٠٠٠ دولار = ٤٢,٥٠٠ جنيه انجليزي
+ ٥٠٠٠ هدية في ديسمبر ١٩١٧ (١٣٣٦هـ)
+ ١١٠,٠٠٠ حتى اكتوبر ١٩١٨ (١٣٣٧هـ)

١٥٧,٥٠٠ المجموع .

هذا بخلاف السلاح ، وقد زعم فيلبي أنه عندما ذهب الى الرياض عام ١٩١٧ (١٣٣٦هـ) وجد سلاحا مما أعطى للسعوديين في ١٩١٥ (١٣٣٤هـ) لم يستعمل بعد . أو مازالت في صناديقها* » .

وفي قائمة الزركلي التي سجل فيها معاهدات ابن سعود جاء الآتي :–

التاريخ	المكان	الحكومة المتعاقد معها	الموضوع
٤ رجب ١٣٣٢ – ١٩١٤/٥/١٥	–	الدولة العثمانية	تأسيس علاقات ودية
١٨ صفر ١٣٣٤ – ١٩١٥/١٢/٢٦	القطيف	الحكومة البريطانية	تأسيس علاقات ودية

وفازت المعاهدة العثمانية المجهولة المكان ، بالأولى في الترتيب التاريخي لمعاهدات عبد العزيز في تقويم الزركلي هذا .

وقد أورد فيلبي في تقريره هذه الاحصائية عن الدعم الذي قدم لابن سعود :

الأسلحة

سبتمبر ١٩١٥	٣٠٠ بندقية تركية
ديسمبر ١٩١٦	٤ مدافع ميكانيكية .
ديسمبر ١٩١٦	١٠٠٠ بندقية عيار ٣٠٣,
ديسمبر ١٩١٦	٢٠٠٠ بندقية اتوماتيكية
ابريل ١٩١٧	مدفعان تركيان
يوليو ١٩١٨	١٠٠٠ بندقية
اكتوبر ١٩١٨	١٠٠٠ بندقية

الذخيرة

ديسمبر ١٩١٦	٢٥٠,٠٠٠ خرطوشة
يوليو ١٩١٨	١٠٠,٠٠٠ اتوماتيكية

---

* اذن فحديث عبد العزيز عن السلاح الذي في الصناديق لم يكن كذبا (انظر فصل ابن صباح) .

اغسطس ١٩١٨	٢٥٠,٠٠٠
اكتوبر ١٩١٨	غير مقرونة

الدعم المالي

ديسمبر ١٩١٧	٣٠,٠٠٠ دولار + ٥٠٠٠ جنيه استرليني
ابريل ١٩١٨	١٥٤,٠٠٠ دولار
يوليو ١٩١٨	١٠,٠٠٠ دولار
اكتوبر ١٩١٨	٧٠,٠٠٠ دولار
المجموع	٢٦٤,٠٠٠ دولار + ٥٠٠٠ جنيه استرليني

١٣ م ـ وقد حاول عبد العزيز بكل جهده أن يمنع شكسبير من الاشتراك في المعركة ، فقد كان كما قال الريحاني ، هدفا مثيراً شديد الاغراء ، ببرنيطته وملابسه الأفرنجية ، وكان ابن سعود يعرف ذلك ، ولاشك أنه سمع انتقادا عنيفا ، أو على الأقل ضيقا شديدا من جانب الاخوان ، الذين كانوا قد بدأوا بالظهور كقوة ذات صوت مسموع .. وهناك واقعة تشير الى مدى التوتر الذي كان يحدثه ظهور « خواجة » في بلاط ابن سعود ، وان كان راويها لا يذكر ما إذا كانت عن شكسبير أو فيلبي .. فقد قرأ الامام* في الصلاة معرضاً بتعامل عبد العزيز مع الكفار .. « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم ، بعد الذي جاءك من العلم ، مالك من الله من ولي ولا نصير » .

فلما فرغوا من الصلاة ، هجم عبد العزيز على الامام وأطبق على عنقه وراح يتلو بصوت مرتفع : « قل ياأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا انتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين** » .

ولكن شكسبير كان يريد الموت ، وليس هناك من تفسير سوى ذلك الذي طرحناه ، وهو إحساسه بالذنب ، لأنه أفرط في الافتتان بعبد العزيز ، حتى مالأه على بلاده .. وهذا الموقف الاغريقي بالنسبة لبريطاني ولد في العصر الفيكتوري ، وخدم في الهند لا يكفر عنه الا الموت*** .

أما كيف مات شكسبير ، وعلى يد الاخوان أو يد قبائل شمر ، أو العجمان الذين غدروا ، فكما قال التقرير البريطاني سيبقى لغزا إلى الابد ، وهي عبارة توحي وحدها بشكوك الانجليز فليس هناك لغز في من قتل في معركة ، بمثل ضراوة يوم « جراب » ولكن التقارير البريطانية تلمح إلى شيء . فتارة تقول إنه قد ترك جريحا في معسكر ابن سعود حتى أجهز عليه العدو ، وتارة تقول إنه قتل أثناء « الفوضى » التي حدثت . وكلها تؤكد الشك في ظروف مقتله .

١٤ م ـ تمنيت لو أنتج فيلم عن أزمة العبد «بخيت» لا مع السفارة البريطانية ،بل أزمته الشخصية ، فمؤكد أنه لم يكن له من اسمه نصيب ، اذ لم يكن بخيتا بأي حال من الاحوال ، فما من رجل سعى جاهدا الى الفقر والتعاسة ، وأخرج ببارجة حربية من مستقبل لو اطلع عليه قائد البارجة لسفح الدمع حتى يحل محل العبد بخيت في قصر الملك عبد العزيز ! وتفسير ذلك ان « العبد » بخيت بفوزه « بالحرية » ، اندثر تماما وأغلب الظن أنه انتهى بوابا في احدى مستعمرات بريطانيا ، أو

---

* يقال انه كان الشيخ العنقري .

** يقصد عبد العزيز ان هذه الاتصالات مع « الكافرين » لا دخل لها في الانفصال الكامل في العبادات .

*** وهي عقدة لم يعانها فيلبي لأنه كان من عائلة عريقة في « خيانة الامبراطورية » .

غاسل صحون أو عامل مناجم في كارديف .. وسيبقى ذكره إلى الأبد في كتب التاريخ « العبد » بخيت .
أما لو كانت قد فشلت محاولته ، أو لو سلمته السفارة وعاش في « عبودية » عبد العزيز وطال به العمر ، لكان اليوم ، ليس حراً فقط ، بل مليادير وأحد ابنائه وزيرا .. تحمل الصحف صورته ، ويعطي مفتاح مدينة ميامي أو سانت تروبيز ، وتتحدث صحف أمريكا عن مشاريع الشيخ بخيت « الخيرية والتنموية » ، وترفع تنقلاته ، أسعار البورصة البريطانية وتخفضها . ولكن من أشقاه ربي كيف أنتم تسعدونه ؟ .. وأشقى الأشقياء هو « العبد » بخيت الذي آثر « الحرية » فلم يصبح الشيخ بخيت ! ...

١٥ م ـ وحكاية « الكتاب الأخضر » التي يشير اليها وهبة ، هي أن السلطان عبد العزيز قرر أن ينشر محاضر اجتماع الكويت من ١٧/١٢/١٩٢٣ (١٣٤١هـ) الى ٩/٤/١٩٢٤ (١٣٤٢هـ) . ولكن ذاع في ذلك الوقت نبأ اتفاق الانجليز والفرنسيين ، فأحس كبار المسئولين السعوديين ، بالقلق ، اذ خافوا استفراد بريطانيا « الصديقة » بهم ، ولذلك كتب عبد الله بن جلوى إلى السلطان عبد العزيز ينصح بعدم استفزاز الانجليز بنشر الكتاب الأخضر عن مفاوضات الكويت . ورسالة ابن جلوى غاية في الأهمية ، لا في فهمها لعبة التوازن ، وخطر اتفاق القوى الامبريالية ، بل في فهم كبار السعوديين ـ وابن جلوى من أبرزهم واكثرهم صلة بابن سعود ـ حقيقة العلاقة مع بريطانيا « الصديقة » . الرسالة تقول :

« الله تعالى يديم حياتكم . هالأيام لابد بلغكم خبر ذكرته الجرائد ، قرب اتفاق دولة الانكليز وفرنسا . وبموجب اتفاقهم لابد يصير تغيير وتبديل في «جزيرة العرب»* ولهذا السبب رأيت أن أبين لحضرتكم رأي محبكم ، بموجب أنني رأيت في بعض الجرائد المصرية ، عزمكم على أن تظهروا كتابا أبيض فيما صار بينكم وبين هذه **الدولة الكافرة** من مكاتبات ، وما صار في المجلس بالكويت ، وأخاف ان يكون فيه شيء يؤخذ عليكم من هؤلاء **الكلاب** . فاذا رأيتم ، الله ، يديم بقاك أن تنظروا في هذه المسئلة ، ولا تستعجلوا حتى تعرفوا ما يؤدي اليه اتفاقهم ، وتتبين لكم المسئلة . كان الصبر أحسن .
هذا نظر محبكم ، ونظركم ان شاء الله هو المبارك . والله تعالى يديم وجودكم » .

وقد تأثر ابن سعود فعلا ، وحاول ايقاف نشر الكتاب ، أو على الاقل عدم مفاجأة الانجليز به ، لولا انه كان قد تم طبعه فعلاً في القاهرة .

فالاستراتيجية السعودية ، هي استغلال التناقضات العالمية ، وفن العيش في ظل الوفاق بين القوى المتحكمة في المنطقة . وشروط نجاح اللعبة « وطنيا » ـ وليس فقط الحفاظ على كرسي الحاكم ـ هو ألا ينحاز اللاعب الوطني ، أو يفقد الوعي لحظة واحدة بعداوة اللاعبين الكبار .. فيصدق أن هذه زعيمة معسكر الشعوب ، او الاخرى زعيمة المعسكر الحر ، فالذين عرفوا أنهم كلهم « كلاب » هم الذين انتزعوا منهم حق الامة العربية ، وبنوا دولتهم فوق انقاض استراتيجية « صديقتهم » الدولة الكافرة ، ورغم ارادتها ومؤامراتها ...

---

* حدث ولكن لصالح ابن سعود .

ما من أحد يحق له أن يكره الترك أكثر مني ..
ولكن لن يقال إني طعنت دولة تحمل اسم الخلافة
في محنتها ...

عبد العزيز آل سعود



جيش السعوديين : نفس الراية لثلاثة قرون ..

كان أول لقاء بين عبد العزيز والأتراك ، هو ذلك الذي حضره مع والده الامام عبد الرحمن في يناير ١٨٩١ (١٣٠٨ هـ) ـ وكان عمر عبد العزيز وقتها ١١ سنة ـ وقد تم الاجتماع مع مندوب « الخلافة » والمتحدث باسمها ، الطبيب اللبناني المسيحي ، الدكتور « زخورعازار » طبيب الجيش العثماني ، فهو الذي اختاره متصرف الأحساء ليفاوض إمام الوهابيين !

وقد عرض **المسيو** « زخورعازار » على الامام ولاية الرياض باسم الدولة العثمانية ، وكان الامام واعيا بحقيقة الوضع ، عندما اعتذر عن قبول العرض .

ومع تحياتنا واعتذارنا لجميع التفسيرات ، أو الخطب المنبرية التي أشادت بهذا الموقف ، وخلعت عليه من الصفات والدوافع ، مالم يخطر ببال معاصرية ! تلك التفسيرات التي هتفت بحياة الامام لأنه رفض التبعية للأتراك ، مفضلا النفي والتشريد عربيا مستقلا ! عن قبول ملك الرياض في ظل السيادة العثمانية .. أو فاسقني بالعز كأس الحنظل وجهنم بالعز أطيب منزل ... وتموت الحرة ولا تأكل ... الخ ما يصلح للتدريس في رياض الأطفال ! ولا يمت للحقيقة بصلة !

عبد الرحمن الفيصل هو بعينه الذي توجه قبل عشرين سنة الى العراق ، وطلب نجدة عثمانية لاستخلاص اقليم الأحساء من أخيه . وهو نفسه الذي سيصاحب الحملة العثمانية ضد قطر* ، وهو الذي سيقبل من الباب العالي بعد شهور ، مرتبا شهريا قدره ستون ليرة ، وسيكتب هو وابنه يحتجان على عدم انتظام الدفع . بل وبعد أكثر من ست سنوات من القتال ضد الدولة ، سيرسل ابنه يقترض من وكيله في البصرة بضمان المتأخر من مرتب والده على الخزينة السلطانية[١] ! .

وعبد الرحمن هو الذي فاوض الأتراك بعد فتح الرياض ، في إطار التسليم بالسيادة .. العثمانية . وعبد العزيز بعد فتح الأحساء يقول انه « سكت طويلا على وضع الأحساء اذعانا **لدولتي**» ووقع معهم معاهدة بعد حادثة عبد الرحمن هذه بثلاث وعشرين سنة ، تعينه واليا على نجد والأحساء ، ومنحوه لقب « باشا » ، وبدرجة وزير ! وكان توقيعه : « خادم الملة **والدولة** والوطن » والمقصود بالدولة هنا ـ التي تلي الدين وتسبق الوطن ـ هي « الدولة العثمانية » ما غيرها ! فلا مجال للحديث عن رفض حكم الرياض في ظل السيادة العثمانية الوهمية ، من قبل لاجيء .

---

* قال فؤاد حمزة : إن عبد الرحمن أستدعى من قبل متصرف الأحساء حافظ باشا ، وانضم الى جيش الباشا في زحفه على قطر ، وشهد هزيمة الباشا وعاد معه الى الأحساء « وهناك أذن الباشا للحريم والأطفال بالذهاب مع عبد العزيز الى الكويت . وكانت لاتزال عثمانية ، ورضى أميرها محمد ابن صباح بعد مدة قصيرة بدخول عبد الرحمن والرجال[٢] » .

عبد الرحمن الفيصل رفض العرض ، لانه كما قيل : اعتذر بأنه لا يستطيع : « اخضاع العشائر التي صارت خائنة[3] » . وهذا هو الأساس في خروجه باولاده . مقتنعا بأن الملك قد خرج من أيديهم ، بعد أن مل الناس صراعهم العقيم في ما بينهم كذلك لم يجد عبد الرحمن الفيصل أية جدية في العرض ، فليس هناك جيش عثماني مستعد لفرض مرسوم الولاية ، ولا حتى على شيخ قطر ! .. ولا مفاوض يغري بالارتباط والمخاطرة ، بل إن هذا المفاوض ، المسيو عازار ، ما كاد يرجع الى الأحساء ، حتى القي القبض عليه بتهمة التآمر مع عبد الرحمن لخلق حلف بينه وبين جاسم بن ثاني حاكم قطر المتمرد على الأتراك . وهدف الحلف المزعوم ، هو إخراج الأتراك من الاحساء . وربما كان للمفاوض اللبناني اتصالاته مع الانجليز الذين كانوا جادين في اخراج قطر من السيادة العثمانية ، وحتى عندما عجز المحقق التركي عن إثبات التهمة على الخواجة عازار ، لم تسمح السلطات التركية بعودته الى خدمة الدولة !

أما الامام فما أن استقر في قطر وأرسل له عاكف باشا متصرف الأحساء ، يستدعيه حتى لبي دعوته ، واتفق معه على إعانة شهرية من مال السلطنة ، فقبلها (بصفة ماذا ؟ الا أنه عثماني ؟!) وأعطت تركيا الاذن لابن صباح فقبلهم في الكويت بعدما كان قد منعهم مراضاة للدولة ولابن رشيد .

وقد ظهر عبد العزيز في فترة خاصة من تاريخ الدولة العثمانية ، هي السنوات العشر الاخيرة من عمرها ، وهي فترة عجيبة حافلة بالتناقضات ، والمشاعر المتضاربة ، والحيرة في اتخاذ الموقف ، فها هي آخر « أمبراطورية » اسلامية تنهار وتتمزق ، على يد الأعداء التاريخيين ، دينيا وقوميا للمسلمين والعرب . وهي في نفس الوقت النموذج التاريخي للتخلف والفساد ، والنظام المنهار . وأخيرا ها هي تسقط في يد عصابة تجاهر بعداء الاسلام . وتخوض في نفس الوقت حربا ضد القوى الاوروبية التي تهتف : اقتلوا التركي .. اسحقوا الامة المسلمة الملعونة .. مزقوا القرآن* !

فأين يضع السياسي العربي المسلم نفسه ؟!

على أية حال ، نستطيع القول بأن عبد العزيز كان يتمنى لو أن بينه وبين الترك جبلا

---

* من الأغاني الشعبية التي راجت في ايطاليا خلال الحرب الايطالية ـ الليبية :

أنا ذاهب الى طرابلس
فرحا مسرورا لأبذل دمي
في سبيل سحق الأمة الملعونة
ولأحارب الضلالة الاسلامية
سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن
ليس بأهل للمجد
من لم يمت ايطاليا حقا

أنظر الجزء الخاص بالحرب الليبية في هذا الفصل (راجع كتاب الدكتور محمد محمد حسين : الاتجاهات الحديثة) .

من نار فلا يصلون إليه ولا يصل اليهم ، كما تمنى عمر بن الخطاب مع الفرس ، ولم يكن عبد العزيز بالذي سعى لقتال الدولة ، بل كان يفضل لو اقتصر الصراع عليه هو وابن رشيد ، وقد حاول بكل الطرق إقناع الدولة بأن تعتبر صراعهما مسألة نجدية ، لا شأن لها بها ، فهو صاحب السيادة الشرعية ، يريد استردادها من صاحب السيادة الفعلية ، وفي النهاية فان من ينتصر سيعطي « الاحترام » الواجب للسيادة العثمانية ، ويدعو للسلطان بالنصر ! ولكن تركيا كانت في مزاج سياسي خاص ، فهي قد تلقت ضربة الكويت ، حديثا ، وتلتها تصريحات بريطانية استفزازية ، ثم رحلة استعراضية لحاكم الهند وكأن الخليج قد الحق بمستعمرة الهند ! وها هو « السعودي » العدو* التاريخي يخرج من الكويت ، ويدعمه ابن صباح حليف أو عميل الانجليز** ، فما كان لها بعقلية حكامها ، وشواهد الواقع ، الا أن تتوجس خيفة من سقوط نجد وحايل في يد من تتوهم أنه صنيعة الانجليز ، والذي راجت الاشاعات عن اتفاقه معهم : أو على الاقل ، تأكد انه حليف ابن صباح ، فكل قوة له ، تؤكد انفصال ابن صباح ، وفقدان الأمل في استرداد الكويت ، وتهدد وضعها في الأحساء والبصرة والشام . بل يمكن القول إن ابن رشيد كان يساعد الدولة في « حربها » هي ضد ابن صباح فلما ظهر ابن سعود في معسكر ابن صباح ، كان من الطبيعي أن يتعرض لنيران الأتراك المنصبة على ابن صباح .. وهكذا تحددت الأدوار والمواقع فحاربت الدولة علانية بجيشها النظامي الى جانب ابن رشيد وذلك في موقعة البكيرية (أول ربيع الثاني ١٣٢٢ ـ ١٥/٦/١٩٠٤) « وكان عسكر الدولة ، فيه كثير من السوريين والعراقيين ، من بينهم تحسين باشا الفقير*** وهو نفسه الذي حارب عبد العزيز مرة أخرى بعد عشرين سنة في الحجاز ، إذ كان قائدا للفرقة السورية ـ الفلسطينية التي كانت تدعى فرقة النصر****، والتي حاربت مع الملك حسين ضد السعوديين » .. فلم تنل نصرا .

وشهدت وقعة البكيرية ، قتالا ضاريا ، قتل فيها من أهل الرياض وحدها ستمائة وخمسون « وقتل من جيش الدولة ألف ، فيهم أربعة من كبار الضباط وثلاثمائة من اهل حائل ، فيهم اثنان من بيت الرشيد . وأصيب عبد العزيز آل سعود بشظية في يده اليسرى » .

---

* بعد ٢٩ سنة من فتح الرياض و ٧ سنوات من خلع آخر سلطان خطب الملك عبد العزيز في ٩ ذي الحجة ١٣٤٩ ـ ١٩٣١ فقال مشيرا الى الأمير وحيد الدين حفيد السلطان عبد العزيز : « لقد أوذينا في سبيل الدعوة الى الله ، وقوتلنا قتالا شديدا ، ولكننا صبرنا وصمدنا ، إن أعظم من حاربنا ، هم أجداد هذا الرجل ولم يقاتلونا إلا لأننا امتنعنا أن نقول للسلطان بأننا عبيد أمير المؤمنين .. لا .. لا .. لسنا عبيداً إلا لله تعالى » .

** أنظر خطاب الأميرالاي حسن شكري ، فستجد فيه أن التهمة الرئيسية الموجهة لابن سعود هي تعاونه مع ابن صباح « الخائن » كما يصفه الباشا التركي .

*** لكل من اسمه نصيب .

**** في تلك المرة كان اسمها من أسماء الأضداد .

وقد علق ابن سعود للريحاني على المعركة فقال : « رحت أنا وعشرين من الخيالة ، أخذ الترك خيامنا ، وهجم البدو على الترك فأخذوا خيامهم ، وهربوا .. « فسألت عظمته : الى أين رحتم ؟ » ..

« فأجاب ضاحكا : انهزمنا .. هربنا »

ويبدو أن قتال السعوديين اثار اعجاب الميرآلاي حسن شكري ، الذي يستحق ان يذكر في هذا التاريخ ، لأنه استفز عبد العزيز لكتابة رسالة توضح لنا أفكاره ، ونظرته للدولة العثمانية ، ووعيه السياسي في ذلك الوقت المبكر جدا* . كما أتاح لنا الفرصة بالمقابل للتعرف على مدى التدهور الثقافي في الدولة العثمانية الى مستوى الجهل بالقرآن !

فبعد تسعة أيام من الموقعة وصلت رسالة من أميرالاي الجيش التركي من عنيزه تقول :

الى جناب المكرم عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل

« بعد السلام والسؤال عن خاطركم ، نفيد جنابكم أن جلالة الخليفة الأعظم ، بلغه اضطراب الفتنة في بلاد نجد . **وأن يداً أجنبية محركة لها** . فلهذا السبب بعثني اليكم حقنا للدماء **ولمنع تدخل الأجنبي في بلاد المسلمين** فأنا أنذرك إذا لم تأتنا وتبين الأسباب التي حملتك على اضرام هذه الفتنة بدون مراجعة أي ولاية ، من ولايات الدولة . واقتصارك على مراجعة صاحب الكويت وأخذ المدد منه . وأنت تعلم علم اليقين أنه خارج عن طاعة الدولة ، ناكث لعهد الخليفة الأعظم ، **وخائن له في بلاده . وما كان ينبغي منك الالتئام معه** » .

« وأنا الآن ليس لي وظيفة غير الاصلاح ، وتقرير ما فيه صلاح البلاد وأمان العباد ، طبقا للحديث الشريف « إذا تقاتلت فئتان من المسلمين فأصلحوا بين أخويكم فان بغت احداهما على الأخرى ، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله** (كذا) !

« فها أنا مقيم بأطرافكم إما ان تتقدموا الي ، وإما أن تستقدموني ، وتعرضوا علي ما عندكم لأنظر فيه مع أمراء عساكري ، وأسير في الحكم طبق إرادة مولانا الخليفة .

فاياكم والمخالفة ، فتكونوا ممن عصى الله ورسوله ، واعلم أني لم أبرح عن خطة العدل والانصاف ، فان كنت محسنا فالدولة تزيدك إحسانا وإن كنت مسيئا ، فتدخل في مراحم الدولة العثمانية . وأعطيك مدة عشرة ايام تشاور بها القريب والبعيد ، وتختار لنفسك ما يصلح لها . وقد قال الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا رسوله ـ كذا ـ وأولي الأمر منكم » فمتولي أمركم الذي تجب له الطاعة بنص الآية الشريفة هو خليفة الله ورسوله سلطان آل عثمان . فأنصحك نصيحة مسلم لمسلم أن تسرع الى الطاعة وأحذرك

---

* كان عمره أقل من ٢٥ سنة .

** واضح ان الباشا وأركان حربه وكاتبه وترجمانه لا يعرفون الآية من الحديث ويخطئون في النص ، وكأنهم ينقلون من مصحف مترجم !

العصيان والله على ما نقول وكيل » .
تحريره في عاشر ربيع آخر ١٣٢٢ (يونيه ١٩٠٤)
كاتبه ميرآلاي حسن شكري .

غلطة واحدة ، هي التي جعلت رسالة الميرآلاي تندرج تحت باب « النوادر » وعجائب المخلوقات ، وهي نسيان الميرآلاي أنه لابد لمن يوجه انذارا ويحدد مهلة ، أن يكون قادرا على إنزال العقوبة بمن لا يستجيب له . وهو يعرف على ضوء معركة البكيرية أنه لا يستطيع معاقبة ابن سعود ، ويعرف أن ابن سعود يعرف ذلك !.. أما أن يخطىء ممثل « الخيفة الأعظم » في الآيات ولا يعرف الآية من الحديث ، فأمر غير مستغرب ، والا فكيف تنهار دول وتقوم دول ، وهؤلاء الضباط هم الذين سيخلعون الخليفة بعد أربع سنوات ، ويصفون الامبراطورية في عشر سنوات ، ويلغون الاسلام في تركيا بعد عشرين سنة !..

غير أن رسالة الاميرالاي لا تخلو من فائدة ، فمنها نعرف :

١ ـ أن الدولة كانت تتهم عبد العزيز بأنه مدعوم أو حتى تحركه دولة أجنبية ، هي بريطانيا بالطبع .

٢ ـ أنها كانت تأخذ عليه تعاونه وممالأته لابن صباح .

٣ ـ كانت النظرة لابن صباح أنه خائن خارج عن طاعة الدولة .

٤ ـ أن الدولة تعتبر « نجدا » إحدى ولاياتها وتحمل نفسها مسئولية الأمن فيها .

وقد رد ابن سعود بهذه الرسالة الجامعة ، الصريحة العصيان والتحدي من أول سطر فيها .

« جناب الاميرالاي حسن شكري

« فهمنا خطابكم الى آخره . وأما قولك إن أمير المؤمنين بلغه خبر أمر هذه الفتنة في البلاد العربية ، وما هان عليه إلا إصلاحها ، فسبحان الله ! هل تخفى عليه حقيقة الأحوال ؟! إنه هو المضرم لها ، وهي غاية مقاصده !..

« وما الحامل لمبارك على التحيز الى دولة أجنبية إلا سوء أفعال محسن باشا ، والى البصرة . فهو الذي نفره ، وأضرم هذه الفتنة . ولذلك لم تبق لي ثقة بوال أو مبعوث تركي . وانني مختار لنفسي ما اختاره مبارك آل الصباح* . والأحسن رجوعك من هذا المكان .

« وأما قولك إن الخليفة الأعظم بعثك لتنظر الخلاف الذي وقع بيني وابن الرشيد ، فليس إلا لأنكم تريدون غدر إمارتي . ولو كان الأمر كما زعمت لكنت نظرت في بادىء الأمر لمن تكون بلاد نجد ، ولمن كان الأمر عليها من قديم ، ومتى كان ابن الرشيد أميرا فيها ، وكيف دخل هذه الامارة ، وأحواله لا تخفي عليكم ، وليس له حق في المنازعة . وكان يمكنكم التدخل منذ أربع سنوات في بادىء الأمر ، قبل استفحاله ، وقبل أن

---

* انظر فصل الانجليز .

يداخلنا الشك في سوء أفعالكم ، وأما الآن فلا نقبل لكم نصيحة ، ولا نعترف لكم بسيادة ، والأحسن ان ترجع من هذا المكان ، اذا كنت لا تود سفك الدماء ، فان تعديت مكانك هذا ، مقبلا إلينا ، فلا شك أننا سنعاملك معاملة المعتدين علينا ، وقد قال الله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

« فان كنت حراً منصفا فلا يخفاك أن سبب عدم أطاعتي هو عدم ثقتي بكم . انظر الى ولاية البصرة ، كيف فرطت في الكويت . والى والي اليمن كيف سلوكه في اليمن ؟ فانه أضرم فيها الفتنة . وانظر الى الحجاز وأهله التعساء ، وما يلاقونه هم وحجاج بيت الله الحرام من السلب والنهب ، في نفس البلاد من الحكام .. فأي نصيحة تبديها لي يا حضرة الأمير ، مع ما أراه من سوء المقاصد . وخبث نيات العمال .

وأمنية عموم المسلمين ، هي أن يهيء الله لهم من يحمي ضيعتهم ، ويعلي شأنهم . وأظن أنك لا تجهل جميع الأحوال التي عرضت عليك . وخلاصة القول ان كل العمال الذي رأينا ، إنهم خائنون منافقون ، فلا طاعة لكم علينا ، بل نراكم كسائر الدول الأجنبية » .

ورد ابن سعود . وإن ختمه باعلان ان تركيا ستعامل « كسائر الدول الأجنبية » إلا أنه يبرىء ذمة ابن سعود ، فقد أعطي حيثيات الثورة على السلطنة ، ليس في القصيم وحده ، بل وفي كل أجزاء الامبراطورية حتى في انقره .. وهي :

١ ـ أمير المؤمنين هو الذي يشعل الفتن « فهو المضرم لها وهي غاية مقاصده » .

٢ ـ مبارك دفع الى الاحتماء بالأجنبي بسبب سوء تصرف الدولة العثمانية . نفس التصرف الذي يجعله هو يجبر على اختيار طريق مبارك .

٣ ـ والي البصرة « أضاع » الكويت ، فهو لا يعتبرها « استقلت » بل « فرط » فيها ، و « ضاعت » !

٤ ـ تدخلكم ليس لصالح الأمن والسلام ، بل ضد صاحب الحق الشرعي في نجد ولو كانت لديكم النية الصالحة ، والمعلومات ، لعرفتم أننا نحن الذين أمرنا ابن رشيد .

٥ ـ كان يمكنكم أن تتدخلوا من أربع سنوات يوم كنا لاجئين مشردين ، فتعيدوا لنا حقنا ، ولكنكم لم تفعلوا .

٦ ـ سبب عدم الطاعة هو عدم الثقة .. ولا مجال لقبول نصيحة من دولة نتهم كل عمالها بالخيانة . ولا ثقة في أحد من ولاتها .

٧ ـ وعليه فالدولة العثمانية ، ليست الا دولة أجنبية .

ألا يستحق عبد العزيز أن يتوج أول « ثائر » على السلطان ، إن كان ذلك فخراً يتسابق عليه ؟! .. أليس هو أحق بهذا الشرف من الشريف حسين الذي بعد أربع سنين من خطاب عبد العزيز هذا الذي خلع فيه السيادة العثمانية ، سيلمس ركبة السلطان رمزاً للطاعة عندما يوليه هذا السلطان على الحجاز . وسيظل يبذل الهمة في دعم شوكة السلطنة ثماني سنوات أخرى ؟!

على أية حال إن الثورة على الدولة ، تهمة لا ينكرها عبد العزيز وشرف لا يدعيه ..

كما قيل ..

واذا كانت معركة البكيرية ، قد انتهت بغير انتصار لابن سعود ، فلا شك أنها كانت هزيمة لعسكر الدولة « ١١ طابورا وأربعة عشر مدفعا[٤] » الذي لم يستطع الانتصار على بدو ابن سعدو . وقد تأكدت هذه الهزيمة بمطاردة ابن سعود لعسكر الدولة وحليفها ابن رشيد ، وإنزال سلسلة من الهزائم بهم ، عندما أصبح القتال بالأسلوب المفضل لجند ابن سعود ، وهو حرب العصابات ، أو الغارات ، الانهاك والضربات السريعة ، ثم الاختفاء دون إتاحة الفرصة للعدو لكي يستقر أو يهرب ، أو الدخول في معركة مكشوفة ، تم الاعداد لها مسبقا ، وقد استمر في هذه الغارات حتى سحق الجيش التركي نهائيا في معركة الشنانة[١]م في ٢٩ سبتمبر ١٩٠٤ ـ ١٨ رجب ١٣٢٢ . ونهب البدو الذهب التركي ووزعوه فكانت حصة الجندي في جيش ابن سعود من الذهب ، « ما بين المائة والمائة والخمسين ليرة عثمانية ، ومن الجمال ما بين العشرة والعشرين بعيراً [٥] » .

« بعث الأتراك بسبع كتائب نظامية من المدينة بقيادة صدقي باشا ، ومن بغداد بقيادة فيظي باشا » وقد هزم ابن سعود كل هذه القوى كما رأينا ، وساعده حظه بنشوب ثورة اليمن ، أو بالأحرى تطورها تطورا خطيرا ـ فاليمن في حالة ثورة دائمة ـ فصدرت الأوامر باستدعاء احمد فيظي باشا للسفر الى اليمن ، وتكليف صدقي باشا بانهاء الوضع مع ابن سعود .. بعدما فشل التورط التركي في تحقيق أي هدف اللهم الا اثبات عجز الدولة عسكريا ، ودفع ابن سعود لاجراء الاتصال بالانجليز ، وادخال وباء الكوليرا كما قيل في صحراء نجد* حمله الجند الاتراك من البلاد الرطبة !

ونحن نتفق مع الريحاني ، في أن الدولة بعد هزيمة البكيرية والشنانة وما لاحظته من تدخل بريطاني ، أو بمعنى أصح ما شاع عن اتصالات سعودية ـ انجليزية . قررت مفاوضة ابن سعود . وأن الحشود الجديدة ، التي جمعتها تركيا ، كانت تهدف الى دعم المفاوض التركي . وتولى المفاوضات الشيخ مبارك والامام عبد الرحمن ، وانتقلت الى القصيم . وشجع الترك وجود جماعة داخل بريدة تطالب بالحماية العثمانية ، وتؤيد الاقتراح التركي بتحييد القصيم . وهي قسمة ضيزي ، لأن القصيم كانت مع ابن سعود . واستمرت المفاوضات ، الي أن استدعى فيظي باشا كما قلنا لفك الحصار عن صنعاء . أما ما بقي من الجيش بقيادة صدقي باشا ، فآثروا السلامة وتركو ابن سعود وابن رشيد « يتذابحان** » .

وكان يمكن أن تنجح هذه الاستراتيجية ، فقوات الدولة موجودة ، بكثافة لم تعرف من قبل ، في نجد . وابن سعود وابن رشيد يتذابحان ، ومن سينتصر سيكون أضعف

---

* ربما كانت تشنيعة ، فقد سجلت حالات الكوليرا من قبل في الدرعية والرياض . إلا إذا كان المقصود قلب صحراء نجد .

** عن الريحاني بتصرف .

عن مواجهة الدولة ، أو يستهلكان قواتهما حتى يلجآن معا للدولة فتقرر ما تشاء أو تقضي عليهما معا .. ولكن متى كان للدولة العثمانية استراتيجية ، أو سياسة وتدبير ولو حتى في الشر !

بعد صدقي باشا ، أرسلت الدولة ممثلا نموذجيا للذين أضاعوا الامبراطورية ، عربيا مستتركا ، هو كما قال لينن عن ستالين* .

لم يدرس الاوضاع ، ولا قرأ التاريخ ولا جمع المعلومات ، مع أنه كان في المدينة ، ولم يأت من سالونيك ! عقد اتفاقا مع ابن رشيد على أن يكون القصيم للدولة ، وقد عجز سلفه عن جعله محايداً ! ولم ينتبه الى أن ابن رشيد الذي لا يملك أعطى الباشا الذي لا يفهم ولا يقدر على الامتلاك ! ولكن الباشا ذهب الى ابن سعود يطلب موافقته ، كما وافق ابن رشيد ! فرفض ابن سعود بالطبع ، ولم يكتف الباشا باغضاب ابن سعود ، بل استفز أهل القصيم ، عندما قال لهم : « ما جئنا نسترضيكم ولا نستفتيكم ، بل نعلمكم الاخلاص والطاعة للدولة العلية ، ولا معلم اليوم غير السيف » !

والغريب ، أنه لا كان يحسن استخدام السيف ، ولا حتى يعرف كيف يصون شرف هذا السيف ، فما أن أظهر له ابن سعود العين الحمراء ، حتى لجأ لترسانة الفساد العثمانية ، فعرض رشوة على ابن سعود ، مقابل التنازل عن القصيم ، وكأنه ظن ابن سعود من الولاة الأتراك الأفاقين ، الذين يبيع الواحد منهم اقليما لينتقل الى اقليم آخر !.. وبذلك أثبت ليس فقط جهله بالأوضاع والرجال ، بل وأيضا عجزه عن استخدام السيف الذي لوح به .. وإلا لما لجأ للمال .. وقد تأكد ذلك عندما أدرك ابن سعود بفراسته أنه باشا خوار ، فأراد تهويشه ، وبعث له من يقول له على طريقة عنترة : « خذ حذرك فاني قاتلك » .. وبلغة عبد العزيز : تأهب لأني سأهاجمك بعد صلاة الفجر « وقد اعترف عبد العزيز للريحاني بعد عشرين سنة ، أنه ما كان ينوي فعلا مهاجمته ، « ولكن تهويله جاءت بفائدة » ! ..

انهار الباشا العثمانلي وبعث يستعطف : « اعتبرونا ضيوفكم والباشا وعسكره في معيتكم » ..!

- هذا القائد الخوار ، كان معه جند ضرب فيهم الفساد ، وانتشرت بينهم الجمعيات السرية فعصوا أوامر قائدهم « ضيف الأمير » وطلبوا ترحيلهم من « معية » ابن سعود . وتم تشهيل العسكر ، الى العراق ، والى المدينة ، بأسلحتهم ومتاعهم ، ومع التكريم والاحتياط اللازمين !

كان السلطان عبد الحميد في أواخر عهده ، يحاول تدارك الانهيار العام ، ويشم رائحة المؤامرة عليه بأطرافها المعادية للاسلام ، فأراد أن يكسب ابن سعود ، فأرسل

---

* كان ستالين كما هو معروف من جورجيا ، وهي مستعمرة روسية ، ولكنه تروس ، أي أعتنق سياسة الأمة الروسية ، والامبراطورية الروسية ، وقال لينين أن هؤلاء المتروسين يكونون أشد تعصبا لسيطرة القومية الروسية من الروس أنفسهم .

اليه خطاب شكر على حسن معاملته للعسكر ويطلب وفداً سعودياً للآستانة .. فأرسل له وفدا من أهل نجد من ثلاثة أشخاص ، وعاد رئيس الوفد برتبة الباشاوية ، وصورة بلاغية على طريقة وفود العرب ، لا تحتاج لأي تعليق قال : « ما سررنا بشيء في تلك الزيارة مثل سرورنا يوم رحلونا من اسطمبول ! » ووصف لقاءه بالسلطان هكذا : « فتحت لي أبواب كثيرة ودخلت ، فاذا بشخص واقف ، فأشرت بيدي كما علموني أن أفعل ، وخرجت[٦] » .

في ٢٢ يوليو ١٩٠٨ وقع الانقلاب العثماني ، وكما هي العادة في كل الانقلابات التي سيشهدها عالمنا العربي خلال القرن التالي لهذا الانقلاب الرائد ، اندفعت كل القوى التي جاء الانقلابيون لضربها وسحق مصالحها ، اندفعت تهلل لهم وترحب بهم ، وتخلع عليهم من أحلامها ما لا صلة لهم به !. فقد أستقبل الانقلابيون كرسل الخلاص الذين سيحررون الدولة من النظام البوليسي ، وسيمنحون شعوبها حق إدارة شئونهم ، وتقرير سياسة الدولة التي ينتمون إليها ، واعتبروهم « الثورة الديموقراطية » المنتظرة التي ستحول الدولة العثمانية الى دولة حديثة ، على جميع المستويات عسكريا وسياسيا وصناعيا ... الخ وبالتالي تكون قادرة على ضرب الأطماع والمؤامرات الأجنبية وحماية ما بقي من الامبراطورية ، بل وتحرير ما سقط منها في قبضة الأوروبيين في ظل « الحكم الرجعي الفاسد » ... الخ ...

وكان العرب بالطبع في مقدمة الفرحين باعلان « الدستور » . العرب داخل وخارج الامبراطورية ، ويقول مؤلف كتاب « الترك والعرب » : « على إثر إعلان الدستور ، عمت الفرحة سائر أرجاء السلطنة ، وحصل ائتلاف معنوي بين عناصر الأمة العثمانية ، واندفعت جموع الشعب في الشوارع تحركها موجة من الاستبشار والغبطة يهتفون للحرية والعدالة والمساواة ، والاخاء وسائر الشعارات التي نادى بها العهد الجديد .. ولم يكن العرب أقل من غيرهم ترحيبا واستبشارا بهذا الحادث السعيد .. وقد وصف زعيم كبير من زعمائهم هو رفيق بك العظم شعوره بهذه المناسبة قائلا : « إنه لم يكن يلقى صديقا له من العثمانيين الذين عرفوا بالميل الى الحرية إلا وغلبت على كليهما عواطف السرور وانفجرت أعينهما بالدمع « استبشارا بمستقبل الدولة السعيد[٧] » ويعلق المؤلف « إن العرب « كانوا على استعداد للتضحية حتى بقوميتهم، على مذابح الائتلاف والوحدة العثمانية » . « كانت الأشهر الثلاثة الأولى من عودة الدستور متمثلة بروح الحماس والمحبة والأخوة بين الطوائف ، وعبرت الجماعات والأفراد عن شعورها بمختلف الوسائل ، فقد أعرب السوريون في الأرجنتين عن ولائهم للعهد الجديد بفتح اكتتاب للتبرع بسفينة حربية هدية منهم للبحرية العثمانية ، وشكل أهالي بيروت حرسا وطنيا لمساعدة الجيش عند اللزوم . وفي العراق اشترى طالب بك النقيب ، نائب البصرة ، من ماله الخاص مركبا بحريا ، وأهداه الى الحكومة كي تستخدمه في المحافظة على شط العرب وتطوع لاصلاح العلاقات بين الأمير مبارك الصباح .. وبين الحكومة[٨] » وسجل لطفي السيد على عداوته لتركيا والجامعة

الاسلامية ، أن الفرحة بالدستور في مصر شملت « الأمراء والعلماء والفلاحين في غيطانهم وتجار تحت الربع*[9] » .

وقال شوقي :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب
حياك من يبعث الموتى ويحييها
صبرت للحق حين النفس جازعة..
والله بالصبر حين الحق موصيها
ما بين آمالك اللائي ظفرت بها
وبين مصر معان أنت تدريها .

وقال الشاعر الاسلامي عبد المطلب :

عهد مضى ، لاعاد ، كبل دولة الاسلام في الأغلال والآصار
فرمت مقاتلها يد الأطماع عن دول كلفن بحب الاستعمار
هذه تطالب بالدخول ، وهذه تحتال في وطر من الأوطار
لولا أمير المؤمنين يحوطها لرأيتها خبرا من الأخبار

حتى عزيز سليم افندي البيروتي طلب من مواطنيه :

فلنقف كلنا بكل وقار.. (!!)
ونحيي العساكر الملية
ونحيي عبد الحميد بقول:
فليعش للحكومة الشورية.

ونقلت مجلة الزهور « البغدادية » عن « سليمان الدخيل » وهو صهر عبد العزيز آل سعود ، أنه حدث عبد العزيز عن الدستور العثماني « فأنشرح صدره ، وأفادني بأنه يكون أول مؤيد له ، وأعظم مساعد للحكومة العثمانية ، فيما تريده ، وأنه كان يود ايفاد مبعوثين من قبله للمشاركة في مجلس « المبعوثان »**، ولكن ناظر الداخلية ، طلعت بك ، رد طلبه ووعده بالنظر فيه في الانتخابات المقبلة[10] »***.

وفي تلك الفترة خبا نجم ابن رشيد ، كان عبد العزيز الرشيد قد قتل (١٩٠٦) واضطرب الوضع بين الورثة . ونقلت تركيا اهتمامها وقلقها الى نجم جديد ، هو الشريف حسين**** الذي جاء الى الحجاز مع صدور الدستور، ووصول عصابة

---

* تحت الربع أسم أحد الأحياء الشديدة الشعبية بالقاهرة .

** البرلمان العثماني .

*** تاريخ المقال ١٣٢٩ ــ ١٩١١ .

**** قال حافظ وهبه إنه سمع وهو في الآستانة ما يهمس به الأتراك نحو شريف مكة من سوء ظنهم به وعزمهم على التخلص منه[11] .

الاتحاديين للحكم . فكان سبه للدستور هو أول خطاب له عند وصوله الى الحجاز ! وبذل الشريف الهمة في إثبات ولائه للدولة في حملات عسير ومناوشاته في نجد . والشريف أخطر من ابن رشيد بالنسبة للدولة السعودية ، موقعا ونسبا .. وامكانيات . فهو المنافس الحقيقي . وقد بدأ بالتحرش بابن سعود ليريه من هو السيد في الجزيرة ، فيعتقل أو يشتري شقيق عبد العزيز ، الذي غدر به « العتوب » واعتقلوه ، ثم سلموه للشريف ليثبت للدولة أنه قادر حتى على اخضاع ابن سعود ، الذي أذل باشاواتها ، وقد وافق عبد العزيز على مطالب الشريف لاطلاق سراح أخيه ، للأسباب التي شرحناها ، وأهمها أنه لم يكن في مزاج نفسي معاد للدولة العثمانية ، وأنه كان يعتبر نفسه عثمانيا ، على الطريقة التي شاعت في القرن التاسع عشر ، مثل محمد علي الذي كان يستولي على بلاد السلطان ، ويأسر أسطوله ، ويسحق جيشه ، ثم هو عثماني لم يخلع الطاعة ! بل يستمر في عهده الدعاء للسلطان في المساجد المصرية والشامية ، ومن قبله كان المماليك يتصرفون بنفس الطريقة .

على أية حال سيادة الدولة لا تؤلم إلا اذا كانت مدعومة بتجريدة عثمانية ، أو بأمير آخر منافس .

ورغم فتور حماسة العرب في تلك الفترة ، بعدما لمسوا حكم عصابة الاتحاديين ، فان اليأس لم يكن قد سيطر ، والأمل في معجزة تجعل الأتراك يشعرون بمصلحتهم ، مازال ينبض تحت أكوام الحقائق التي تؤكد أن الحالة ميئوس منها تماما .. ولعل رسالة عبد العزيز الى والي البصرة ، سليمان شفيق باشا الكمالي ، تؤكد أن ابن سعود لم تكن تساوره أية أوهام عن الدولة وحالتها الميئوس منها ، وكذلك لم يكن يتمنى زوالها ، بل يبرىء ذمته بنصحهم ، وكان الباشا قد بعث الى ابن سعود يسأله عن رأيه في اصلاح الحال فتضمن رد ابن سعود ثلاث نقاط هامة هي :

١ ـ « اعلم أن استشارتكم إياي إنما هي وسيلة استطلاع لتعلموا ما انطوت عليه مقاصدي .. ومع ذلك فهذا هو رأيي » ...

فهو يعلم أنها دولة بوليسية ، دولة مباحث ، لا تستطلع الآراء للمعرفة والاصلاح ، بل للتجسس وتحديد من هو المخلص ، ومن هو المتذمر ، ومن ثم لا تتخذ اجراء سياسيا ، بل بوليسيا ! وهذا عنصر من أهم عناصر قيام وسقوط دول الأرهاب البوليسي .

٢ ـ قال له : « اكتفيتم بأن تحكموا ، وما تمكنتم حتى من ذلك . أردتم أن تحكموا العرب لتحقيق مصلحتكم ، فلم تتوفقوا الى شيء من هذا أو ذاك ، لم تنفعوهم ولا نفعتم أنفسكم » .

وهذا تحليل دقيق لمأساة الدولة العثمانية ، لقد تفرغ الأتراك لمهمة واحدة هي الحكم والحرب ، فلم يحسنوا هذه المهمة ، وعجزوا عن حكم الامبراطورية ، وكلما زاد عجزهم زاد بطشهم فعجل ذلك بانهيارهم ، أضروا العرب بابقائهم متخلفين ، لقمة سهلة للقوى الأجنبية ، وأضروا أنفسهم بحرب العرب ، فأنشغلوا وشغلوا العرب عن

العدو الحقيقي للأثنين ، المتربص بهما معا !
٣ ــ ثم اقترح عليه اتحادا كونفيدراليا .. « وهذه هي الطريقة التي تستقيم فيها مصالحكم ومصالح العرب ، وتكون فيها الضربة القاضية على أعدائكم » .
ويقال إن الفكرة أو الأسلوب الصريح في النقد أعجب والي البصرة ،فبعث بالرسالة الى عصابة الاتحاديين في اسطمبول ، الذين قيل فيهم ــ بحق ــ إنه منذ قيام الدولة العثمانية ، لم تواجه عدوا أخطر منهم !.. فرفضوا النصيحة بزعم أنها لصالح العرب ، وليست لصالحهم ، وزاد عداؤهم لابن سعود ، الذي سيقطع الأمل منهم ، والحوار معهم ، ويبدأ في البحث عن مخرج لأزمته ..
كانت السنوات من ١٩١١ ــ ١٩١٣ سنوات عصيبة حائرة ، والبعض يسميها عقيمة ..
على صعيد العالم العربي والاسلامي .. وصل التناقض الى الذروة ، وشلت قدرة الجميع على التصرف ..فقد بدأت الحملة الصليبية العامة تحت شعار تحرير المسيحيين الأوروبيين ، أو بمعنى أصح ابادة الاسلام في أوروبا ، وتفجر بركان التعصب الأوروبي من باريس ولندن وبتروغراد وبرلين . وقام بالهجوم غوغاء بلغاريا ورومانيا والصرب واليونان ... الخ . وجرى ذبح المسلمين وطردهم من اوروبا حيث عاشوا ، على الأقل ، خمسمائة سنة ، بافتراض أنهم جميعا مهاجرون ، ولم يسلم أحد أو لم يكن بهذه البلاد مسلم واحد !! جرت تلك الابادة تحت سمع وبصر وتهليل أوروبا الغربية التي قامت ولم تقعد بسبب محاكمة ضابط يهودي ، كانت السبب في شهرة أميل زولا !!
ولم يقتصر الأمر على أوروبا ، بل بدأ غزو ليبيا وسقط المغرب آخر حصن للاسلام في أقصى افريقيا .. أو القلعة التي صمدت للضربات الصليبية ستة قرون ، وظلت مستقلة عشرة قرون . كان الاتجاه الطبيعي هو الالتفاف حول دولة الخلافة في معركتها الأخيرة من أجل الاسلام . ولكن في نفس الوقت كانت المعلومات والشواهد والوقائع تتجمع على أن هذه العصابة التي تحكم تركيا ، هي الخصم الألد للاسلام ، والتي على يديها ــ كما قيل ــ سينزل بالاسلام وبالدولة العثمانية في عشر سنوات ، ما عجزت صليبية أوروبا عن تحقيقه في أربعة قرون !
قال سير مارك سايكس ، الذي وصف بأنه ميال للترك ! في وصف الحكومة الانقلابية بعد زيارة قام بها لاسطمبول عام ١٩١٣ (١٣٣١ هـ) ، إن السلطة الجديدة علمت الطبقة العليا شرب الخمر ، والجندي العثماني ، الذي اشتهر باخلاصه ، علمته العصيان ، أما الدين الاسلامي فقد أصبح عرضة للسخرية والاهانة . إن هؤلاء الثوار الذين كانوا في المنافي ، قد حملوا معهم الى تركيا كل ما تقمموه من مزابل ومجاري أوروبا من أفكار وقيم ومسلكية ، وطبخوا من كل هذه السلبيات مزيجا غريبا ، أحلوه محل قوة الخلافة التي سقطت[١٢] » .
فأين المخرج ؟
تجمعت هذه التناقضات كلها في الحرب الليبية التى بدأت ٢٩ سبتمبر ١٩١١ ــ ٥

شوال ١٣٢٩ ـ ففجرت كل العلاقات ، اذ كانت ايطاليا آخر استعمار اوروبي ظهر على الساحة ، يطلب حصته في الفريسة العربية المسلمة . وكان أيضا أحط صور الاستعمار ، وأكثرها وحشية وفجورا وصراحة في ترديد الشعارات والأهداف . وكان الهجوم على بلد عربي ، وفي ظل ظهور الوعي بـ « الأمة العربية » مما مكن من خلق رأي عام عربي لأول مرة ، رأي في هذه الغزوة ، صورة المأساة التي بدأت بغزو الجزائر .. تونس .. مصر .. ولا يبدو أن لها نهاية . فتجمعت إرادة هذه الأمة[٢]م ، بأمل أن تجعل معركة ليبيا آخر المآسي إن لم يكن بداية التحرر ، وتشكلت لجان المقاومة ، وتطوع الضباط* والشباب للقتال ، حتى الذين كانوا في بعثات دراسية في أوروبا قطعوا دراساتهم** ولبسوا السترة العثمانية ، وتوجهوا للقتال .. وشوقي يهتف لهم :

يا قوم عثمان والدنيا مداولة — تعاونوا بينكم يا قوم عثمانا
كونوا الجدار الذي يقوي الجدار به — فالله قد جعل الاسلام بنيانا
في ذمة الله أوفى ذمة نفر — على طرابلس هم يقضون شجعانا

ويندب حافظ المتخصص في البكائيات :

طمع ألقي عن الغرب اللثاما — بذوات الخدر ، طاحوا ، باليتامى
ذبحوا الأشياخ ، والزمني ولم — يرحموا طفلا ، ولم يبقوا غلاما
أحرقوا الدور ، استحلوا كل ما — حرمت لاهاي في العهد احتراما
بارك المطران في أعمالهم — فسلوه بارك القوم علاما ؟
أبهذا جاءهم ، انجيلهم — آمرا يلقي على الأرض سلاما ؟!

ويهددهم أحمد محرم ، ويؤكد أن الأخوة العربية ـ التركية ، باقية رغم كل ما حدث :

رويداً بني روما فللحرب فتية .. — تهيج الظبا أطرابهم واللهاذم
أولئك أبطال الخلافة تحتمي — بأسيافها إن داهمتها العظائم
أنذعن للباغي ونعطيه حكمه — وفي الترك مقدام وفي العرب حازم
هما أخوة العز الذي دون شأوه — تخر الصياصي خشعا والمخارم
أقمنا على عهدي وفاء وألفة — فما بيننا قال ولا ثم صارم
على طول ما قال الوشاة وخببت — حقود الأعادي بيننا والسخائم .

ويقول عبد المطلب :

نعم .. راعني من نحو برقة صارخ — يهيب بأنصار الهلال .. ألا اركبوا

---

* مثل عزيز المصري .

** من هؤلاء كان عبد الرحمن عزام الذي كان يدرس الطب في بريطانيا فقطع دراسته ووهب نفسه للحركة الوطنية في ليبيا .

دعا صارخ الاسلام يا لبني الهدى أغار العدا أين الحسام المشطب .
كأني به يدعو الخلافة مسمعا كأني به في المسلمين يثوب .

وكان الأنذار الايطالي ، الذي أعقبه هجوم الأسطول في اليوم الثاني واضحا صريحا : « إن الدولة الايطالية تريد فتح أبواب هذه البلاد للمدنية الغربية ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى تريد المحافظة على مصالح الايطاليين فيها وإنقاذهم من الخطر المحيق بأرواحهم بسبب التحريض العام عليهم بدافع من التعصب الديني الذي يظهره الموظفون الترك وضباطهم ونحوهم » .

ونزل الجيش الايطالي الى شواطىء ليبيا يغني هذا النشيد ؛ الذي أشرنا إليه من قبل عن محو القرآن وإبادة الأمة الاسلامية الملعونة ! والقضاء على التعصب ... الاسلامي !

وليس إلا عميل من طراز الأدريسي يمكن ان يستغل هذا الوضع لضرب الأتراك . فالامام يحيى مثلا أوقف الحرب الدائرة من أيام أبيه ، وأعرب عن استعداده لارسال مائة ألف مقاتل كاملي العدة والعدد الى طرابلس الغرب للدفاع عنها ضد الايطاليين . وقد سجلنا في غير هذا المكان ، موقف بقية الأمراء العرب .

وقام الأسطول الايطالي بضرب المواني التركية على البحر الأبيض ، وكذلك بيروت .. وأحتل الجزر ... الخ وخلال الحرب ، وفي ظل مناقشات مجلس « المبعوثان » ، وعبر مقالات الصحافة التركية والعربية داخل وخارج السيادة العثمانية ، بدأت تتضح حقيقة الدور الذي لعبته القيادة التركية في الاعداد لتلك الهزيمة العربية ـ الاسلامية ، وتسهيل مهمة الطليان في ابتلاع ليبيا . وتبين أن ايطاليا نجحت في تعيين عميلها حقي باشا صدراً أعظم ..

وقد اتهمه العرب في الصحافة والبرلمان العثماني بالآتي :

« ايطالي النزعة ، ومشهور بحبه للمدنية الايطالية ، ومعاشرة الايطاليين ، ومتزوج من ايطالية ، ويفضل التردد على أنديتهم ، وأنه طلب تعيينه سفيرا في ايطاليا لشدة حبه لهم وأن لايطاليا دخلا في تعينه صدراً أعظم ... الا أن المؤكد أن الاتحاديين كانوا بصورة عامة يهملون شؤون هذه الولاية . وأما حقي باشا فقد كان في غفلة تامة عما يجري حوله (!!) وأصيب بالذهول عندما تسلم الانذار من سفير ايطاليا في الآستانة ، فأسرع الى القصر السلطاني وجمع مجلس الوزراء ، حيث سمع كلاما مهينا من السلطان جزاء لاهماله وعدم احتياطه للأمر[١٣] » « على أن غفلته قد تكون مقصودة ، حبا بزيادة التسامح مع الايطاليين الذين كانت تربطه بهم روابط عديدة ، منها زواجه من ايطالية ، وشغفه بارتياد النوادي الايطالية بالاستانة ، وبلعب الورق ، ومعاطاة القمار مع اصدقائه من الايطاليين ، وخضوعه لسلطان الذهب » « حتى أن سفير الدولة العثمانية في روما قدم تقريرا الى مجلس المبعوثان ضده ، جاء فيه أنه كتب له مرارا من روما ينذره بالخطر الذي يتوسمه من جهة ايطاليا وتدابيرها الخفية ، وأعمالها المريبة لأجل الاغارة على طرابلس الغرب ، لكنه لما عاد الى الآستانة علم أن حقي باشا قد أهمل

كثيرا من التقارير التي أرسلها اليه ، ولم يعرضها على مجلس الوزراء[١٤] . »
وفي الحوار الذي انفجر في الصحف عرف العرب أن « حكومة الاتحاديين جردت (ليبيا) من كل جند وسلاح ، اذ سحبت منها الجنود لقمع الثورات في ألبانيا واليمن (ضد المسلمين) ، وكان شوكت باشا قد استمزج رأي « حقي باشا » عندما كان سفيرا للدولة في ايطاليا ، عما اذا كان ثمة ما يدعو الى الخوف من جهة ايطاليا ، فأجابه زوج الطليانة ، بأنه ليس هناك ما يوجب الريبة في نواياها* ، وعندئذ أمر بسحب الجيوش من طرابلس لضرب الامام يحيى والادريسي ، ولم تبق فيها تركيا الا عددا قليلا لا يتجاوز أربعة أو خمسة آلاف جندي ، من أربعين أو خمسين ألفا كانوا فيها » . وكان زوج الطليانية ، لا يترك فيها واليا صالحا ، « كما فعل مع ابراهيم باشا الذي عزله في سبتمبر ١٩١١ (١٣٢٩ هـ) أي قبل الغزو بأيام ولم يعين أحدا بدله .. بحيث أن البلاد كانت بدون وال حينما اعتدى الطليان على حرمتها[١٥] » بل كان الطليان قبل الاحتلال وتمهيداً له ، يستصدرون الفرمانات بعزل الوالي الذي يحاول حماية البلاد ضد تغلغلهم كما حدث لرجب باشا ، مما جعل « الولاة الذين أتوا بعده آلة في يد السياسة الايطالية ، وخاصة حسن حسني باشا ، والد زوجة رحمي بك من كبار زعماء جمعية الاتحاد والترقي ، كما أصبح الموظفون الترك الكبار ، آلة بيد الايطاليين ، وصارت بيوتهم مفتوحة لارتياد رجالهم الذين يجتمعون فيها لبث الدعاية الايطالية . »
« وكان حسني باشا ، عدا ذلك ، من اكبر المشجعين على انشاء شركة الفوسفات الايطالية ، فأشمأز الناس من أعماله ، وافساحه المجال للتدخل الايطالي ، وقد تجرأت الصحف الايطالية ، في عهده على التحريض لاحتلال طرابلس ، وأغرت حكومتها بذلك ، كما حرضت الشعب الايطالي على المطالبة بتنفيذ هذه الفكرة حتى شكلت ايطاليا فرقة خاصة لاحتلالها سميت : الفرقة الطرابلسية . وقد بلغ تهاون حسني باشا مع الايطاليين حداً أسخط الأهالي فعزموا على القيام بمظاهرة احتجاجا على لهجة الصحف الايطالية ، فمنعهم من القيام بها ، ومع ذلك أرسلوا برقية الى الصدارة العظمى محذرين الدولة من نوايا الطليان ، مطالبين بتحصين البلاد ، وتزويدها بالذخائر والمؤن لعام كامل ، عارضين تطوعهم ، معاهدين الله والشرف والذمة على الدفاع حتى آخر نقطة من دمائهم » وردت الدولة « بسحب أربعين ألف بندقية ، كانت في طرابلس ، كما سحبت الضباط الأكفاء من هناك . » !

« وكان زعماء الاتحاديين ، قد صرحوا ، غير مرة ، بأنهم لا يريقون دم عسكري واحد لصيانة طرابلس الغرب من اعتداء ايطاليا أو فرنسا أو غيرها ، كما عقدت لجنتهم في « سلانيك » (معقل يهود الدونمة)[٣م] اجتماعا لبحث مسألة طرابلس الغرب ، فقر رأيهم على عدم تحصينها أو اتخاذ التدابير التي تصونها من أي عدوان مفاجىء ، وعدم اثارة القضية في مجلس المبعوثان ، ثم نشرت جريدة « طنين »** مقالا جاء فيه أن

---

* وكيف الريبة ونحن نسكر ونقامر معها كل ليلة !؟

** ارجع لتحليلنا لدور « طنين » هذه في كتابنا القومية والغزو الفكري .

طرابلس الغرب من الولايات التي لا تفيد الدولة فائدة مالية يعتد بها فعلى الحكومة العثمانية الاقتصاد في الانفاق عليها[16] . »

كان الوضع يشبه الى حد كبير موقف العرب خلال وبعد حرب ١٩٤٨ و ١٩٦٧ مع اسرائيل ، اندفاع وحماسة وثقة في القيادة ، ثقة الربع ساعة الأخير ، والتي لم يكن لها وجود من قبل ، ولكن محاولة لطرد الخوف ، في مواجهة الخطر الداهم أو « الغادر » ! ولكن ما أن تتتابع الهزائم ، حتى يبدأ فتح الملفات للحاكمين وكشف تقصيرهم وخيانتهم ، بل واكتشاف « اليهودي » المتنكر في السلطة ، وترتفع الأصوات تحذر من مؤامرة الصلح أو التسليم .

قال رضا توفيق في البرلمان العثماني : « انني أذكر أن مبعوثي طرابلس الغرب ، قد وقفوا على هذا المنبر في السنة الماضية ، وقصوا علينا أطماع ايطاليا بوطنهم ، وما أعدته وما تعده لذلك . حتى بكى هؤلاء المبعوثون ، واستبكوا غيرهم . نعم انهم أنذرونا يوم كانت تنفع النذر .. وها قد صح بالفعل ما كانوا قد أنذرونا منه بالقول[17] » .

وقال خالد البرازي نائب حماة : « أيها الاخوان .. شاع في المحافل بأن الصلح سيعقد ، ومع أنني واثق بالحكومة وأمين من وجدان رجالها ، فلنفرض انها استحصلت على فرمان بالاعتراف بالحاق طرابلس الغرب بايطاليا .. فانني أقول باسم الأمة العربية : اننا نمسح هذا الفرمان بدمنا* ، ولا نرضى بذلك ، ولو لم يبق عربي على وجه الأرض . » « ان طرابلس قد فتحها عمرو بن العاص عام ٢٣ هـ . قد مر عليها الآن نيف و ١٣٠٠ سنة ، وهي في يد الأمة الاسلامية ، فهي اذا بمثابة الروح من الجسد ، وعلى ذلك أختم قولي بأن طرابلس الغرب باقية وستبقى بيد الأمة العثمانية الى الأبد[18] » .

كان العرب في بداية مسيرة التحرير بالخطب والتي ستستمر حتى يفقدوا القدس التي فتحها عمر وليس عمراً .! فالأتراك قرروا أن تخرج ليبيا من « يد الأمة العثمانية والى الأبد » . فاتفقوا على الصلح مع الطليان بأن يعلن السلطان : « استقلال برقة وطرابلس ، استقلالا ذاتيا ! » وأعقبه ملك ايطاليا : « باصدار العفو التام في المقاطعتين ، الخاضعتين خضوعا مطلقا للسيادة الملكية الايطالية ، والمواظبة على ذكر اسم السلطان بصيغة خليفة المسلمين . في الصلوات العامة[19] » . وأعقب ذلك سحب الضباط الأتراك بأسلحتهم كما نصت شروط الصلح وقطع المعونة المالية ، « وذلك بعد أن كان القتال في طرابلس الغرب آخذا في الاشتداد ، وكان العرب يبذلون من ضروب الاستبسال حداً منع الايطاليين من التوغل ، وأوقفهم عند خط الساحل ، وقد ظهرت بعض المقالات في الجرائد ، تنكر على الدولة هذا الصلح بشدة** وتعلن أن العرب

---

* لاحظ انه لم يكن قد مر سوى شهر واحد على الحماسة والاخاء التركي ـ العربي ؟

** نفس الشيء يقال في نقد الهدنة الأولى في فلسطين .

سيدافعون عن طرابلس[٤]م الى آخر نقطة من دمائهم[٢٠] » .

واذا كانت هزيمة القيادات العربية في حرب فلسطين الأولى قد زرعت الثورة ضد هذه القيادات في كل البلدان العربية ، فان خيانة وهزيمة ثم استسلام الحكومة التركية في حرب ليبيا قد زرعت الثورة والرفض في كل انحاء الوطن العربي ، ولكن جاءت حرب البلقان ، فأجلت الانفجار لشهور ، وقد نشرت « التلغراف » البريطانية تعليقات نقلها مراسلها في البلاد العربية ، منسوبة الى زعماء العرب ، جاء فيها على لسانهم : « ان الترك قد سلموا العرب لأعدائهم ، وعبر هؤلاء الأعيان عن سخطهم ونقمتهم على الدولة ، وأنكروا ، وخاصة منهم ، الطرابلسيون ، عمل الدولة ، واستفظعوه . » وقال هؤلاء لمراسل التلغراف : « اذاكان هذا الصلح لم يثمر حركة خطيرة الآن بسبب حرب البلقان ، فلا بد من وقوع أحداث أليمة في المستقبل . »

في اليوم التالي لتوقيع الصلح أو الاستسلام ـ الخيانة مع ايطاليا (١٩ أكتوبر ١٩١٢ ـ ١٣٣٠ هـ) هجمت دول البلقان على تركيا لتصفية آخر مواقعها في أوروبا ، فتأجل الانفجار الى مطلع عام ١٩١٣ (١٣٣١ هـ) عندما قام الاتحاديون بانقلابهم الثاني وتسلموا السلطة ، وقبلوا التصفية واستداروا للعرب ، أو ما بقى لهم في آسيا ، وقد صمموا على أن يتعلموا السلوك الامبراطوري في الأيتام العرب !. وسقط اللوم عن أي عربي يستطيع الخروج من هذا المأزق بانقاذ بلاده من يد الأتراك دون أن يقع بين فكي الاستعمارية الأوروبية ..

عبد العزيز وحده كان مستعداً وقادراً على استخلاص وطنه وانقاذه من هذا المصير ، هو وحده كان يفكر منذ بدأت سنوات الحيرة والعجز ، كان يفكر في الحل ، وسط ما بدا أنه حصار قد أطبق عليه ، وأن قوة الدفع التي خرج بها من الكويت ، أو تزود بها عند فتح الرياض ، قد استنزفت في معارك الصحراء . فمنذ معركة روضة مهنا لم يسجل انتصاراً له شأنه ، بل ظل في دوامة ابن صباح ومقالبه ، ثم ابن رشيد ، « الهيدرا » الذي كلما قطع رأسه نبتت له رأس جديدة ، يدور معها ابن سعود ما بين مناوشات وهدنة وصلح ، ثم العرايف ، هؤلاء الأقارب الذين لا يملك معهم الا أن يهزمهم ويأسرهم ويعفو عنهم ويصاهرهم ، فهم من آل سعود وان اخطأوا السبيل ، وضل طموحهم ، ونسوا أن هذا الملك القائم في الرياض وما حولها لا يستحق الصراع ، والأهم من ذلك أنه ملك عبد العزيز ، وليس بأي حال « تركة فيصل بن تركي » ، حتى يكون لهم حق الوراثة . فملك فيصل زال وانقطع اكثر من عشر سنوات ، بعد أن ذبل وتحول الى أقل من مشيخة* !..

وأخيرا ظهر الشريف حسين بتحرشاته ورسائله التي هي أنكى من حروبه !

---

* زعم فيلبي أن أولاد سعود الفيصل كانوا يرون حقهم في الملك لأن أباهم حكم فترة أكثر وضوحا وقبل أن يحكم عبد الرحمن والد عبد العزيز ، ولكن هذا مردود عليه بأن عبد العزيز لم يحكم بسبب وراثة عبد الرحمن ، بل لأنه أقام دولة جديدة .

والانكليز لا يثقون بابن سعود ، ولا يعترفون به ، في شغل عنه بترتيب وراثة التركة العثمانية ، ولا مكان له في القسمة ولكن الحصار الأكبر ، كان هذا التناقض الذي خيم على العالم العربي كله ، التناقض بين التعاطف مع الدولة العثمانية في محنتها وهجوم القوى الصليبية عليها ، وبين الوعي بأن العصابة التي تحكمها هي ألد عدو غزا بلاد الاسلام ، وأنها موجهة من كل أعداء الاسلام ، وفتحت فلسطين للغزو الصهيوني على نحو جعل بعض المؤرخين يقول : ان وعد بلفور ، كان مجرد تحصيل حاصل ، أو تتويجا للوضع الممتاز الذي حصل عليه اليهود في ظل الحكم الدستوري العثماني من ١٩٠٨ ـ ١٩١٣ بعد خلع السلطان « الأحمر » . وقد ظن البلهاء أنه سمى بالأحمر نظرالدمويته وارهابه وبطشه بالحريات ، وانما سمي كذلك وعوقب على ذلك ، لأنه أمر باصدار جوازات حمراء لليهود لكي لا يسمح لهم باستيطان فلسطين ، فأبلغوه قرار الخلع على يد يهودي* ...

أين يقف ابن سعود ؟ مع البلغار واليونانيين والروس والطليان ؟! هل يقف مع عصابة الماسونيين اليهود ؟.. وكيف يستطيع التحرر من تلك العصابة دون أن يجازف بخطر الوقوع في المعسكر الآخر ..؟

يقول الريحاني ان حال ابن سعود ، في تلك الفترة (١٣٢٩ ، ١٣٣٠ هـ ـ ١٩١١ ، ١٩١٢ م) كانت كحال المصارع الذي لا يصل جهده الى أكثر من محاولة الاستمرار على الحلبة ، فلا يسقط بالضربة القاضية . وفي اعتقادنا أن ابن سعود قد وصل في هذه الفترة الى أخطر وأعظم قرار في حياته ، فلم يكن مصارعاً يتفادى الضربة القاضية ، بالترنح على الحلقة ، بل المصارع الذي يعد للضربة القاضية التي تجعله والى الأبد سيد الحلقة ، وقاهر كل من يجرؤ على الاقتراب منها ..

لقد عرف ابن سعود الحل وهو : أن يحمل العرب مصيرهم في أيديهم وينقذوا ما استطاعوا من بلادهم قبل أن يسلمه الترك للمستعمر الأوروبي .. ولكن كيف ؟! بالقوة الذاتية ..

عرف ابن سعود الصيغة الوحيدة التي تمكن بلداً متخلفاً من مواجهة التفوق التكنولوجي للقوة المحلية أو العالمية : جيش التحرير الشعبي .. ولا يمكن أن يقوم جيش تحرير شعبي بدون عقيدة ..

والاسلام هو عقيدة العرب ، ومفجر طاقتهم .. وللسعوديين تجربة وتراث .. فلتبعث الوهابية ..

لتكن « الهجر » .. وليقم جيش الاخوان ..

---

* انظر كتابنا القومية والغزو الفكري وملاحق هذا الفصل .

.. فان كنت مأكولا فكن خير آكل

في اللقاء الثاني مع شكسبير (١٩١٣ م ـ ١٣٣١ هـ) دار الحديث حول حرب البلقان (من ١٩ أكتوبر الى ٣ ديسمبر ١٩١٢) ـ ١٣٣٠ هـ ، قال شكسبير « كان الأمير قلقا على سماع أنباء حرب البلقان ، وقال انه لا يصدق المصادر التركية ولا الصحف المصرية* التي تتحدث عن انتصارات تركية ، بينما يبدو أن الاتراك يتراجعون على جميع الجبهات . وأنه قد سمع من الكويت والبحرين أن الجيش العثماني لا يسيطر الا على العاصمة وبعض المدن المنعزلة والقلاع الصغيرة ، بينما كل تركيا الأوروبية قد ابتلعها حلفاء البلقان فأعطيته المعلومات الحقيقية لأدهش لردة الفعل ، فلم يكن هناك أي عطف على الأتراك ، بل ان الأمير واخوته وأعيان نجد لم يجدوا في هذا الموقف الا فرصة ممتازة للتخلص نهائيا من كل بقايا النفوذ العثماني ، وطرد قوتهم من القطيف والأحساء » « وقد خرجت بانطباع أن نكبات الترك لم تثر أي عطف عليهم ، بقدر ما اعتبرت قصاصا من الله على تخليهم عن الدين ، فتخلى الله عنهم ، وعليه فان على الوهابيين الصالحين تخليص أنفسهم من كل علاقة مع هؤلاء المنحرفين العصاة .. هذا هو الفكر السائد بين المثقفين في نجد[٢١] » .

كان جمال باشا في بغداد ، وأراد أن يفتح حوارا مع ابن سعود ولكن على طريقته : « ان ابن سعود لا يعرف حجمه ، واذا كان لا يقبل ما نطلبه منه فأني لا أحتاج لأكثر من طابورين لأصل اليه » وكتب ابن سعود للباشا الذي لم يستح من الحديث عن الطوابير . بعد أن أنزل هو ورفاقه بطوابير الدولة ، بفضل قيادتهم ، أشنع هزيمة حلت بها منذ خمسة قرون .. كتب له ابن سعود : « لا داعي للتعب وشق نجد بطابورين ، نحن نقرب لك الطريق ان شاء الله . »

وقد رأينا كيف انتزع الأحساء بسهولة فائقة ، وأثبت أن الترك ينهزمون أيضا أمام رعاياهم المسلمين «وليس المسيحيين فقط**». ورغم ذلك كان حريصا على تأكيد الرابطة الخاصة التي تربط المسلم في هذه الفترة ، بالجندي العثماني ، ولو كارها ، فقال قولته المشهورة : « لا ننزع من الجندي العثماني سلاحه » بل حملهم على ركائبه ، وأرسلهم في خفارة احمد بن ثنيان الذي عاش في تركيا ويتكلم التركية . والذي تلقى تهديد جمال باشا ، بالطابورين ، فها هو يتولى ترحيل ألف ومائتي جندي عثماني بأسلحتهم ، قد جمدهم الرعب من ابن سعود ، حتى وصلوا الى البحرين فوجدوا من

---

* حتى في هذا الوقت ؟!

** انظر كتاب The ottoman centuries by Lord Knioss لترى الحقد الصليبي البريطاني والشماتة في هزيمة آل عثمان على يد البلغار واليونان .

شجعهم على العودة واستخدام السلاح الذي تصدق به ابن سعود عليهم .

وكان واضحا في ذهن ابن سعود وتخطيطه أن ضربة الأحساء موجهة ضد الانجليز وليس ضد الأتراك ، ولنتركه هو يوضح ذلك في الحديث الذي أعطاه لصحيفة « الدستور* » العراقية ، والذي كان جديرا بأن يغير الكثير من كتابات بعضهم لو أنهم اهتموا بقراءته ، فهو أوضح من أن يحتاج لدراسة !

قال عبد العزيز :

« ان الدولة العلية ، **حفظها الله** ، **غصبت** آبائي هذا اللواء ـ الأحساء ـ بدون أمر مشروع ، بحجة دعوة عبد الله السعود شقيق والدي . ومن بعد أن أخذته لم تحسن صنعا . »

« وكان والدي يومئذ ولي العهد بعد أخيه على امارة نجد ، التي يدخل فيها هذا اللواء ، وما يتبعه ، **وعمان وسواحله** .

« ولما اشتد الخصام بين سعود وعبد الله آل سعود على الامارة ، أرسل الأخير مندوبا الى بغداد ، لمفاوضة واليها في مسألته مع أشقائه . وبقي ينتظر من الدولة اسعافه ونجدته ، لاخماد نار الفتنة المتأججة . غير أن الدولة وجدت أن قد آن زمن الاحتلال ، فوضعت يدها من ذلك الوقت على الأحساء ، وأبعدت أمراءها عنها . مع أنه لم تبدر منهم بادرة تستوجب ما أتته . **وليت الدولة احتلت ما يداني الأحساء من البلدان كعمان وغيرها التي تركتها هملا ، ومكنت الدول الأجنبية من أن تقذف فيها نار الفتن لتحصل على ما تنويه .**

« ومنذ ذلك الوقت أخذ سكان هذا اللواء بالسقوط والتردي ، لتغلب قطاع الطرق عليه ، لكثرتهم هناك ، وكان الأهلون يرفعون ظلامتهم الى مقام الولاية ، ويذكرون له عجز أصحاب الأمر في ذلك الموطن ، فما كان يسمع صدى لاصواتهم المتكررة ، فراجعوني مرارا ، فضربت عنهم صفحا **اذعانا لدولتي** ، وان كان يسوؤني نظري اياهم في تلك الحالة ، لأن المجتمع الانساني ، كالجسد اذا أصيب عضو منه بآفة انتقل الألم الى الجسد كله .

« ثم جاءتني محاضر فيها تواقيع كثير من العلماء والوجوه قائلين : ان لم تسعفنا نضطر الى ما لا تحمد عقباه . وفي تلك المطاوي ، **سمعت أن الدولة تنازلت عن**

---

* أجرى هذا الحديث التاريخي[٢٢] : الأستاذ ابراهيم عبد العزيز الدافع ، الذي استحق أن يخلد اسمه ، وذلك في مجلة « الدستور » في ذي القعدة ١٣٣١ ـ أكتوبر ١٩١٣ على الأقل هو أول وآخر صحفي اسمه : « الدافع » !

حقوقها في **الخليج وسواحله***، فاستندت حينئذ الى ما لي من الحقوق الشرعية في هذا القطر، بمنزلة أساس، فبادرت الى تلبية طلب الأهالي، ليكونوا في حرز حريز من فتك أرباب الفساد فيهم. **وابعاد الأجانب عن ديارهم.**

« فهذه هي الأمور التي ساقتني الى ما أتيت، فقدمت الأهم على المهم. وسرحت موظفي الامارة، محافظا على حياتهم دون أن ينالهم أذى.

« وعليه اذا أنعم النظر رجال الدولة المخلصون في هذه المسائل، وفكروا في مآلها أحسن التفكير، وأعطوا لكل ذي حق حقه، ولاحظوا الأمن الضارب أطنابه في البلاد. وتبينوا ما انتشر من مرافق العمران بين العباد**.. **حبذوا عملي هذا** ».

دعنا من طرفة « الدولة العلية حفظها الله اغتصبت حقوقنا » ! واذا كانت العادة قد جرت أن يقول كل الفاتحين الكبار، إنهم جاءوا بناء على طلب الأهالي، فان ابن سعود هو أحقهم بهذا الادعاء فابن سعود ليس غريبا على الأحساء، وفتحه عاد بالخير والاستقلال والعروبة للاقليم. فاذا انتقلنا للمعاني السياسية في الحديث سنجد الآتي:

١ ـ هجوم صريح على بريطانيا لا مجال معه للعجب من أن بريطانيا لم تثق به يوما .. فهو في حديث صحفي وليس رسالة سرية ولا خطبة في احدى « الهجر » يتهم الدولة العلية بالتفريط في عمان وساحله، اذ لم تحتل هذه المنطقة عندما احتلت الأحساء، فكان أن سقطت في يد بريطانيا التي قذفت فيها نار الفتن .. وهذه خطيئة من خطايا الدولة وكارثة تستحق أن تحاسب عليها ..

ليس هكذا يتحدث حلفاء بريطانيا واصدقاؤها ! فضلا عن أعوانها ! ..

٢ ـ **كان عبد العزيز على علم باتفاق تركيا*** على التنازل عن كافة حقوقها في الخليج وسواحله. ومن ثم فهو الذي أخفى علمه عن شكسبير، وبادر بانقاذ الأحساء من مصير عمان وسواحلها .. أي أنه كان واعيا مفاخرا بأنه انتزع الأحساء من يد الانجليز وليس من الأتراك أو « الذاهبين » ـ تعبير ابن صباح المفضل ـ فليس استنتاجا تاريخيا، ولا اجتهادا منا القول بأن ابن سعود انتزع الأحساء من الانجليز بل عن وعي وسبق تصميم.**

فعلها عبد العزيز ولا يبالي باعلان ذلك في حديث صحفي ! ولا يكتفي بهذا بل يجدد

---

* حياك الله ! قد يظن البعض اننا نخترع لك فلسفة تبرر مواقفك. ها أنت تقول صراحة أنك اخذت الاحساء لكي لا تقع في يد الانجليز. فماذا بقى لنا من قول ؟!

راجع فصل الأنجليز باب الأحساء. اما المعاهدة التي يتحدث عنها هنا فقد وقعت في رمضان ١٣٣١ هـ ـ اغسطس ١٩١٣ تنازلت فيها تركيا عن حقوقها في الخليج كله وأصبحت الخفارة في موانى الخليج من حق الانكليز وحدهم.

** العمران انتشر في أقل من ٥ شهور يابو تركي ؟!

*** وقع الاتفاق بعد الاستيلاء على الأحساء ولكن المفاوضات والاتجاه كانا سابقين.

أو يعلن مطالبه في عمان وساحله . فهما كان يتبعان نجداً التي يمتلكها عمه وأبوه ولي عهده .

٣ ـ حتى هذا التاريخ (اكتوبر ١٩١٣ ـ ١٣٣١ هـ) كان ابن سعود يتحدث عن اذعانه لدولته*، وهو الذي شيب جنرالاتها . وقبل ذلك بخمسة شهور وقع معاهدة مع الدولة بوصفه والي وقائد نجد (انظر ملحق رقم ٩) .

٤ ـ فاذا أمعن النظر رجال الدولة المخلصون ، في هذه المسائل ، وفكروا في مآلها أحسن التفكير ، حبذوا عملي هذا » .

نعم ! إذا تأمل « المخلصون » ما جرى على ليبيا وولايات البلقان ، وقبلها ساحل عمان .. الخ ، لتمنوا لو قام في كل بلد ابن سعود « يغتصبها » ويبقيها للاسلام والمسلمين . ولكن ابن سعود علق الشرط على مستحيل كما يقول المناطقة . فاين هم « المخلصون » في رجال الدولة ؟!

ورغم كل ما جرى ، قبل ابن سعود ، كما أشرنا ، الاتفاق مع الترك[٢٣]، ووقع معهم معاهدة تحمي ماء وجههم ، وتؤمن ظهرهم ، وتغيظ الذين كفروا .. ولكن ما يبلغ الاعداء من جاهل ، ما يبلغه هذا الجاهل من نفسه . فحتى والي البصرة المتهم بمحاولة الفهم والحوار ، كان يتفاوض مع ابن رشيد ، ويسأله هل تستطيع إذا احتجنا أن تسترد لنا الاحساء ؟ فأجاب ابن رشيد : إنه يود ذلك ولا يحتاج لأكثر من مائتي عسكري تركي . وقد أرسل هذا الوالي لابن رشيد عشرين ألف بندقية** لضرب ابن سعود في نفس الوقت الذي كان فيه ابن سعود يتفاوض مع الأتراك على المعاهدة[٥م] ! وأنور باشا يبرق له مهنئاً ، وكأن الدولة أصبحت فعلا لا تدري يسراها ما تفعل يمينها ... باشا اسطمبول في حساب ، وباشا البصرة في حساب آخر ..!

وفور إعلان الحرب ، كان ابن سعود الزعيم العربي الوحيد الذي دعا من حوله للاجتماع لاتخاذ موقف عربي موحد***، فلم يأبه أحد لاقتراحه ، بل كل أشار إلى الجهة المرتبط بها : ابن صباح قال : « إن اللورد هاردنغ حاكم الهند قادم إلى البصرة ومن رأيي أن تأتي أنت للمفاوضة فلعل الله ييسر الأمور**** ! أما ابن الرشيد فقال :

---

* ولعل هذا يلقي ماء باردا على انفعال المعلقين وتشبثهم بأسطورة رفض عبد الرحمن الفيصل ، حكم الرياض تحت سيادة هذه الدولة ، وأيضا الذين استنكروا معاهدته مع الترك .

** تلك هي البنادق التي قال ابن رشيد إنه سيكسرها على رأس ابن سعود قبل أن يصالحه ! وقد اجتمع الكمالي والي البصرة بابن رشيد في صفوان للتآمر على ابن سعود . وسيصبح الكمالي في آخر أيامه لاجئا في مملكة ابن سعود !

*** قال الزركلي إن ابن سعود كتب لابن صباح وابن رشيد والشريف حسين يقول : « أرى وقد وقعت الحرب أن نجتمع للمذاكرة عسى أن نتفق على ما ينقذ العرب من أهوالها ، أو نتحالف مع دولة من الدول ، لصون حقوقنا ، وتعزيز مصالحنا » .

**** ولم يذهب عبد العزيز وانما اعتذر لنائب الملك بانشغاله في حرب ابن رشيد (انظر رسالته بتاريخ ١٩١٥/٤/٢٤ ـ ١٣٣٣هـ) .

« أنا مع الدولة أحارب من حاربت وأصالح من صالحت » وابن الرشيد في هذا لم يغير موقفه ، ولا حاول تغطيته . ولكنه لو اجتمع بابن سعود ، لأبرأ ذمته ، إلا أنه ما كان له أن يجتمع به ، وقد قدر بحساباته الخاطئة ، أن الحرب هي فرصته للقضاء على ابن سعود ، وليس للتنسيق معه بما يفيد العرب .. فالعرب هم شمر ، ومستقبلهم معلق في عنق ناقته !..

الشريف حسين بعث ابنه عبد الله* الى الحدود ، فأرسل اليه عبد العزيز رسولا فتفضل الأمير عبد الله بالنطق التالي : « عسى ابن سعود ما نسى ما تعهد به لوالدي عند اطلاق أخيه سعد[٢٤] » .

وسينسى الشريف عبد الله ووالده كل شيء بعد شهور ويحاربون الدولة التي أخذوا لها التعهد !

وهكذا أصبح على كل عربي أن يواجه مصيره وحده ، ويختار معسكره ، وقد اختار الامام يحيي موقف الحياد ، الميال للأتراك وذلك بحكم الوجود العسكري التركي في اليمن ومواجهته للأنجليز .. أما عبد العزيز ، فقد اختار الموقف المتفق مع استراتيجيته ، وهو توظيف التناقضات العالمية ، لخدمة مصالحه الوطنية ، وليس العكس** ..

فتحالف مع الانجليز ، وعقد معهم معاهدة ، وهاجم الترك في جميع أحاديثه ومجالسه ، ولكنه لم يطلق طلقة واحدة ضد تركيا ، بل اختار أن يحارب في جبهته الخاصة .. ضد ابن رشيد واعتبر ذلك مساهمته في قضية الحلفاء . وشهد فيلبي : « أن عبد العزيز وإن كان من الناحية الرسمية في نفس معكسر الشريف ، إلا أنه لم يساهم بأي مجهود مادي في سقوط الترك [٢٥] » .

أما كيف استطاع ابن سعود اقناع الانجليز بهذا الموقف ، فقد تعددت الروايات ، بتعدد الخيالات ! قال الزركلي غفر الله له ، لأنه ضن علينا بمصدر هذا الحوار البالغ الأهمية !

قال : « ونشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م . فدار حديث في إحدى خيام عبد العزيز . قال السير برسي كوكس : « أتذكر يا طويل العمر (!!) ما قاسيت من نجدات الترك لعدوان ابن الرشيد ؟

قال : « ما حان لي أن أنسى »

---

* ويقول الريحاني إن الشريف كان يتهيأ للهجوم على ابن سعود باسم الدولة .

** هناك رسالة عثرنا عليها قال فيها عبد العزيز إنه يعتقد إن مصلحة الدولة العثمانية والاسلام هي في التحالف « مع الذين تعرفهم » يقصد الانجليز . وهو موقف صحيح نظريا ، وكان على الأتراك أن يلزموا الحياد على الأقل . وان كان من الصعب جدا القول بأن مثل هذا الموقف كان سيغير مصير الدولة .

انظر رسالة عبد العزيز إلى السيد طالب النقيب ردا على اتصالات أنور باشا نقلا عن مراسلات المقيم البريطاني في الكويت إلى حكومته بتاريخ ٧/٤/١٩١٤ ـ ١٣٣٢ هـ .

قال : « ألا ترى ما يراه الناس من تحفز العراق والشام والحجاز للثورة على الترك ؟

قال : أرى .

قال : ألا تكون رايتهم رايتك ، ولك بعد ذلك ملك العرب ، وان شئت فخلافة الاسلام ؟!

قال : لا ..

قال : ألا تنتهزها فرصة فتنتقم ؟!

قال : لا .. لن يقول الناس ثار عبد العزيز على دولة تسمى بدولة الخلافة في محنتها .

وبعد عام أو عامين كان ساسة لندن يقولون : فشل برسي كوكس في الرياض ونجح لورنس في مكة[٢٦] » .

وأنت ترى أن الحوار كله بين مزدوجتين ، دليل النقل الحرفي ، مما يزيد في عذابنا لأنه كتم المصدر !

وفي رواية أخرى عن الزركلي ايضا أنه قال ، رد عبد العزيز على اقتراح برسي كوكس :

« إن في العرب من يتهمني بالدعوة الى مذهب خامس ، فقيامي معكم وجعل رايتي المنقوش عليها « لا اله الا الله » ، إلى جانب رايتكم ، أمر غير نافع لا لي ولا لكم . والرأي عندي أن تكتبوا إلى الشريف حسين فان اتفق معكم فأنا أعدكم بأني لا أعرقل له سعيا ، مادام في حرب مع الترك . وحاول شكسبير أن يقنعه بالقيام فذهب سعيه سدى ، فكتب الى حكومته فكانت الثورة على يد الشريف[٢٧] » .

هكذا !!

ونسب حافظ وهبة ، للملك عبد العزيز ، قوله ، إن السير برسي كوكس في أول اجتماع معه في العقير ، حاول أن يغريه باعلان الحرب على الأتراك ، وأن بريطانيا تساعده بالمال والسلاح ، ولكنه اعتذر عن ذلك ، بأنه مادام « ابن رشيد » في نجد ، فانه لا يستطيع أن يقوم بدور فعال ، ولكن الشريف حسين يمكن أن يقوم بهذا العمل ولاسيما أن أبناءه عليا وفيصلا وعبد الله ، كانوا متصلين بالعالم الخارجي ، وسأكفيكم أنا « ابن رشيد » ، فانه سينضم الى الأتراك ، لا محالة . فوافق السير برسي كوكس على ذلك . ويقول المرحوم الملك عبد العزيز إن كوكس قد أعطاني القمر بيد والشمس باليد الاخرى[٢٨] » .

دعنا من التفسيرات ، المهم أن كل الروايات تجمع على أنه لم يحارب الأتراك ، بل كانت الفكرة السائدة بين رجاله ، هي أنه لم يحارب تركيا ، وأن ذلك من مفاخره وما يذكر له .

أما موضوع الخلافة وزعامة الثورة العربية فقد وردت فيه تعليقات أطرفها ما جاء في « صقر قريش » ، إذ زعم المؤلف أن موضوعها طرح علنا من قبل كوكس في مؤتمر الكويت (٢٦ محرم ١٣٣٥ ـ ٢٣ نوفمبر ١٩١٦) وأن الحاضرين (خزعل وابن صباح

وعدد من زعماء القبائل) قد وافقوا على مبايعة ابن سعود خليفة ولكنه اعتذر[٢٩] !

وهي رواية بلا مصدر ولا بينة ولا منطق ، فلا نعتقد أن برسي كوكس يعرض الخلافة ويبايع علنا ، ولا ابن سعود يرفضها علنا ، بل ولا يقبل ابن سعود أن يصبح سير برسي كوكس هو أهل الحل والعقد ، أو عمر رضي الله عنه فيقول له : امدد يدك أبايعك .. وأين ؟ في سقيفة ابن صباح !

ويقول الريحاني إن السير برسي كوكس استمزج رأي ابن سعود بعد إعلان الحرب العظمى ، عن رأيه في الخلافة ، بل وعرضها عليه قائلا : « إن حكومة جلالة الملك تستحسن ذلك وتساعد في تحقيقه » . « ولم يخف على عبد العزيز قصد المعتمد فقال : « لا ذوق لي بالخلافة ، وإني لا أرى من هو أجدر بها من الشريف حسين » .

« اطمأن بال الوكيل المحترم ، وارتاحت وزارة الخارجية إلى الخبر الذي مكنها من اطلاق يد المعتمد في مصر » .

ويفهم من رواية الريحاني ، التي تستند إلى ما رواه عبد العزيز ، ان ابن سعود أدرك عدم جدية العرض البريطاني ، وأن القصد هو جس نبضه لمعرفة مدى استعداده لقبول حمل أمير آخر للقب.. فرد عبد العزيز الكرة باقتراح اسم الشريف ، ليعرف نوايا الانجليز الحقيقية .. على أية حال إن موضوع الخلافة لم يطرح جديا إلا بعد ذلك بعشر سنوات ، وبعد انتهاء الحرب ، ولم يكن الانجليز على استعداد بأية حال من الاحوال لطرح خليفة عربي مرتبط معهم بمعاهدة ، والا لثارت ثائرة المسلمين الهنود والمصريين ضد « الخليفة الانجليزي » وبريطانيا التي تتدخل في المقدسات . وهو ما حدث بالضبط بعد عشر سنوات عندما تسمى الشريف حسين بها . وليس صحيحا أن ابن سعود « ألقى الطعم على شاطىء جده فالتقطه الشريف حسين » كما يقول الريحاني . فكمال اتاتورك والأمير عبد الله بن الحسين هما اللذان ألقيا الطعم في عمان (سنة ١٩٢٤ — ١٣٤٢ هـ) وموضوع البحث جديا عن خليفة لم يطرح الا بعد تخلي تركيا عن الخلافة . أما خلال الحرب ، فكانت بريطانيا تريد زعامة دينية تنافس رنين لقب الخلافة في آذان المسلمين الهنود ، وما كان هؤلاء ليغريهم الزعيم الوهابي في ذلك الوقت ، بل كان المطلوب « أغا خان » أو « الشريف » حفيد النبي ومن قريش وحامي الحرمين .. الخ .

إن رغبة الانجليز في مساهمة فعاله من ابن سعود حقيقة ، وكذلك رفض ابن سعود أن يتورط في هدم دولة الخلافة حقيقة ، ولكن مط ما بين الحقيقتين ، يوقعنا في التخيلات ، فلا الانجليز عرضوا ــ جادين ــ الخلافة وقيادة الثورة العربية وملك العرب ، ولا ابن سعود رفض .. فالانجليز وعبد العزيز يعرفان أنه لا يمكن قبول خليفة وهابي في سنة ١٩١٤ (١٣٣٢ هـ) وإن كانت قلوب المسلمين ستهفوا إليه بعد ذلك ، بعشر سنين ليس الا .. ولكن مهما خدع شكسبير رؤساءه ، فلم تكن لعبد العزيز خلال الحرب مكانة تغري بتتويجه ملكا للعرب أو خليفة !

وأقرب تصور للحقيقة هو ذلك الذي نقله تقرير بريطاني صادر من البصرة في ٥ يناير ١٩١٦ وجاء فيه :

« اجتمع السير برسي كوكس ، طويلا مع ابن سعود في القطيف ، يوم ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ (١٣٣٤ هـ) » وبخصوص السؤال العام حول الخلافة ، قال إنه في حالة انهيار تركيا ، فلا حاكم من الحكام يهتم بمن يسمى نفسه خليفة ، واذا انتحل الشريف اللقب فلن يقبلوا سلطة من جانبه ، أكثر مما يفعلون الآن[٣٠] » .

وهذه الوثيقة تضيف حقيقتين : الأولى أن موضوع الخلافة لم يكن مطروحا وقتها ، ولكن في حالة سقوط تركيا . فالانجليز لم يحاولوا أبدا إقامة خليفتين ، أو خليفة بريطاني في مواجهة الخليفة التركي لمعرفتهم بخطورة ذلك ، وما يمكن أن يثيره من اعتراض . والحقيقة الثانية هي فهم عبد العزيز لواقع العالم الاسلامي ، حتى أنه تنبأ بما حدث بعد عشر سنوات ، عندما انتحلها الشريف حسين فلم يأبه به أحد* .

كوكس كان يحاول معرفة شعور العرب إزاء لقب الخلافة ، وشرعية الخليفة العثماني ولا أكثر .

أما قيادة الثورة العربية ، فان هذه الثورة كان يستحيل عليها الالتفاف حول « ابن سعود » الذي بعث في هذا الوقت بالذات ، الحركة الوهابية ، ولا كان ابن سعود ، و « إخوانه » يقبلون قيادة مثل هذا التجمع الذي كانت رابطته الكبرى هي كراهية الحكم « الاسلامي » وليس التركي .. هذا التجمع الذي كشف عن هويته فور سقوط الدولة العثمانية ، فتدفقت وفوده تطالب بحماية فرنسا أو تستجديها من مؤتمر الصلح[٦م] . فلم يكن لابن سعود مكان في مثل هذه الثورة وهذه الجماهير ولا كان يمكن أن ينسب لها فضلا عن ان يقودها .

ولعل هذا الموقف الذي اختاره ابن سعود هو الذي ضاعف حقد الأتراك ، والتيار الاسلامي المتعاطف معهم على الشريف ، وجعلهم يميلون الى ابن سعود أو على الاقل يحترمونه ، فقد كان الضباط الأتراك يبدون استعدادهم للتسليم له ، نكاية في الشريف ، فدعاه إلى ذلك غالب باشا والي مكة ، وفخري باشا والي المدينة . ولكن عبد العزيز رفض العرضين عن حكمة واضحة ، وليس كما فسر أحدهم ، « مجاملة للشريف »[٧م] !

وقد أشرنا في فصل الأشراف ، الى قوة هذا التيار الذي ظَل متعاطفا مع الترك في الحرب العالمية الأولى ، وقد رد الليوتانت كولونيل غراي المقيم السياسي في الكويت والمرافق للجيش الهندي في حملته على العراق ، على تساؤل اللورد كيرزن عن السبب في انضمام العرب للأتراك في الدفاع عن العراق ضد الغزو البريطاني مما أوقع ، الهزيمة بالبريطانيين وأخر سقوط بغداد وكان اللورد كيرزن قد تساءل :

---

* وجاء في التقرير أيضا تحليلات صائبة لابن سعود ، فقد توقع ألا تؤثر دعاية الأتراك على القبائل وأن ابن رشيد لن يجرؤ على مهاجمة الكويت . ولا مجال للتفاهم بين الشريف حسين وابن رشيد . (ضد بريطانيا على الاقل) كما جاء في التقرير أن كوكس استجوب ابن صباح الجديد (جابر بن مبارك) في الكويت ، « فأكد له ابن صباح بكل حماسة أنه لا هو ولا رعيته يبدون أي اهتمام بموضوع الخلافة » .

« لقد كانت لنا أفضل الصداقات مع العرب ، ولذا بدا محيراً أن ينضم العرب في بداية الحرب للترك . ويجب ان يكون في مقدمة عملنا الدبلوماسي إبعادهم عن الترك واستئناف علاقتنا الطيبة معهم ، تلك العلاقة التي ميزت سياستنا خلال الخمسين سنة الأخيرة » . كما قرر في مجلس اللوردات في ٢٠ ابريل « وهم (أي الترك) يبدو أنهم نجحوا في تجنيد الجانب الأكبر من القبائل العربية في جنوب العراق ، وهذا أمر بالغ الاهمية ، لأننا كنا دائما على علاقة طيبة مع القبائل في هذا الجزء من العالم » .

وقال وزير الدولة لشئون الهند :

« في معركة الشعيبة اشترك ما لا يقل عن عشرة الآف تركي ومثلهم من العرب . وربما كان سبقاً للأحداث ، توقعنا ثورة كل العرب على الاستغلال التركي فور انضمام تركيا للألمان ، بالنسبة لبدو الصحراء ، كان ذلك صحيحا ولكن ليس من السهل القول إلى أي مدى ينطبق هذا الموقف على عرب الحضر الذين يشكلون القوة العربية المقاتلة الآن . « ومن الحكمة القول بأن نسبة كبيرة منهم أبدت رغبة في الانضمام للترك ، لأن الترك أوحوا لهم أن الاسلام يهاجم ، وبعضهم ربما صدق القصص الخرافية عن اسلام الألمان بما فيهم القيصر نفسه » .

أما الكولونيل غراي فقد شرح أسباب المقاومة العراقية للغزو البريطاني فقال :

« كان للعراقيين اتصالات محدودة بنا ، ويقعون بعيدا عن تأثير موظفينا في الخليج الفارسي . والمقيم في بغداد لم تكن لديه الفرصة لزرع صداقات أو نشر نفوذه بينهم . ولذا فلا مجال للدهشة من انضمامهم للأتراك . فهذا هو الأمر الطبيعي . ونفس الشيء عن المنتفق ، فلم أسمع بأي جهد بذل من جانب قناصل صاحب الجلالة في البصرة ، لاقامة علاقات صداقة معهم .. بل الواقع كانوا يعتبرون هذه المهمة خارج واجباتهم ، خوفا من إثارة شكوك الأتراك » .

ولم يكن العرض البريطاني بالانضمام الى الحلفاء ، هو الوحيد الذي تلقاه ابن سعود ، ففي تقرير شكسبير بتاريخ ١٩١٥/١/٤ ــ ١٣٣٣ هــ أن ابن سعود تلقى أمرا من الباب العالي شأنه في ذلك شأن كل حكام الجزيرة باعلان الجهاد ضد البريطانيين ، والجزء المخصص له هو الدفاع عن البصرة ، وبغداد* ، ضد أي هجوم بريطاني من الجنوب . ابن رشيد ينضم الى قبائل الدولة والحويطات وبني شاكر والقبائل الاخرى في الغرب بالقرب من خط الحجاز ويتحركون الى جزيرة سيناء ومصر ، بينما شريف مكة والامام يحيى والسيد الأدريسي يحمون مواني البحر الأحمر والاماكن المقدسة ومواني اليمن والحجاز٨م وقد فشلت الخطة لنفس السبب الذي فشلت من أجله دعوة الجهاد . اذ عجز الأتراك عن فهم نتائج سياستهم الخاطئة خلال الخمس سنوات الماضية » .

* يقول حافظ وهبة : إن الاتراك بعد قيام الحرب ، عرضوا إمارة مكة على حاكم نجد عبد العزيز آل سعود ، ولكنه رفض العرض .

« هذا وقد أبلغ ابن سعود الحكومة التركية أنه نظرا لنزاعه مع ابن رشيد ، فمن المستحيل عليه أن يتحرك شمالا لحماية العراق ، تاركا نجد معرضة لهجوم . إلا اذا تحرك ابن رشيد الى مصر .. وهكذا وجد عذراً لعدم اتخاذ أي موقف في الصراع ضد أهداف البريطانيين في العراق وقد بدأ يعد حملته ضد ابن رشيد لهدفين : منعه من التقدم في اتجاه مصر وتنفيذا لخطته الأصلية بالقضاء عليه[٣١] » .

وتفسير شكسبير لفشل دعوة الجهاد التركية أدق وأبسط من فتوى الشيخ محمد أسد* .. فليس السبب هو محالفة دولة أجنبية ، بل سوء سلوك العصابة الاتحادية الذي شكك نسبة كبيرة من القيادات الاسلامية ، في إسلام الاتحاديين ، أما محالفة دولة غير مسلمة ، فتهمة الصقت بالطرفين . مع أنهم جميعا ، الذين « قاتلوا » مع الأتراك والذين « قاتلوا » مع الانجليز لم يكونوا حلفاء ولا شركاء ، بل مجرد أدوات في الصراع الالماني ـ البريطاني . وخلال حصار المدينة كان الترك يهتفون مع كل طلقة مدفع يصوبونها لمعسكر العرب : « اضرب الانجليز الكفار » فيرد العرب بمدافعهم الانجليزية هاتفين « اضرب الألمان المشركين[٣٢] » ..

وكان الطرفان للأسف صادقين !

ولهذا رفض ابن سعود أن يقاتل الأتراك . وقد أورد الزركلي ٣ رسائل تواريخها : ١٠ نوفمبر ١٩١٦ (١٢ محرم ١٣٣٥) ، ومارس ١٩١٧ (٤ جمادي الاخره ١٣٣٥) والثالثة في ١٧ سبتمبر ١٩١٨ (شوال ١٣٣٦) ، في الاولى والثانية يلفت الشريف فيصل وأبوه الحسين نظر ابن سعود الى تدفق التجارة على الاتراك المحاصرين في المدينة ، وما وراء ذلك من أراضي ابن سعود . وفي الرسالة الثالثة يعرض الفريق فخري باشا قائد القوة العسكرية التركية في المدينة ، مساعدة ابن سعود عسكريا ضد الشريف حسين أو « العاصي » حسين .

وهذا يدل على ان ابن سعود لم يساعد المجهود الحربي البريطاني ، ولا ساعد الشريف بل كانت التجارة تمر عبر أراضيه . وحتى عام ١٩١٨ كان الفريق أو الباشا التركي ، يشكو « العاصي » حسين لابن سعود « غير العاصي » ، بل ويطلب مساعدته ضده !

وشهد شكيب أرسلان أن ابن سعود لم يقم بعمل عسكري ضد تركيا ، اذ قال : « ولما اشتعلت الحرب العامة ، راسلت الدولة الأمير ابن سعود في خوض غمراتها الى جانبها ، فلم يجب طلبها ، لا كرها بها ، بل خوفا على بلاده من الانكليز . لاسيما بعد أن رأى تقدمهم في العراق . على أنه من الناحية الأخرى ، لم يأت عملا تقدر أن تعاتبه الدولة عليه بالرغم من مساعي الانكليز لديه في ذلك . فكانت خطته في هذه الحرب هي التزام الحياد التام[٣٣] » .

ويمكن اضافة تصحيح بسيط ، وهو أن ابن سعود كان يكره الأتراك ، وهو بالفعل

---

* انظر ملحق السنوسية رقم٤م .

اضطر لمسايرة الانجليز ، بل وورطهم في المعاهدة ، خوفا منهم . وهولم يقم بأية خطوة عسكرية ضد تركيا ، لأسباب عديدة ، منها أنه لم يقبل أبدا أن يكون مخلب قط في لعبة الامم ، أو صراعات القوى الكبرى ، ولكنه اعتاد توظيف هذه الصراعات ، ولم تكن هناك مصلحة سعودية في مقاتلة الأتراك في الجزيرة ، فالاقليم الوحيد الذي كان يعني ابن سعود ويحتله الأتراك وهو الأحساء استرده قبل الحرب . ولم تكن العراق ولا الحجاز في متناوله أو مخططه في ذلك الوقت . فاكتفى بابن رشيد !

وفي محرم ١٣٣٥ نوفمبر ١٩١٦ كان اجتماع الكويت مع السير برسي كوكس وجابر بن مبارك وخزعل ، وجرى تبادل كلمات بمناسبة إهداء الحكومة البريطانية نياشين للحكام وهذا هو الاجتماع الذي تحدث فيه ابن سعود ، فاشتد في هجومه على الأتراك أو قل قال علنا ، ما كان يقوله في اجتماعاته الخاصة عن الأتراك ، فقد نقل عنه مؤرخ الكويت :« أنا عدو الأتراك وهم لي أعداء وسأطاردهم ولو وحدي ، ولأنني لا أذكر منهم إلا الشر لي ولآبائي من قبلي. فقد قتلوا من قتلوا منهم ، ومثلوا ببعضهم أشنع تمثيل » ، وضرب خزعل أيضا على هذا الوتر . أما جابر فقال قولا أكبره الناس لأجله فقال ولم يتجاوز الحد . قال نحن مسلمون ، فاذا أجمع المسلمون على شخص فنحن له من الطائعين[٣٤] » .

ورواها الشيخ وهبه هكذا : « عندما زار عبد العزيز الكويت في سنة ١٩١٦ (١٣٣٥ هـ) معزيا الشيخ جابر المبارك الصباح في وفاة والده الشيخ مبارك الصباح ، واجتمع كبار أهل الكويت لتحية الأمير عبد العزيز بن سعود ، كان كل حديثه أو خطابه تشديد النكير على الأتراك والحط من شأنهم ، واتهامهم بما أصاب الاسلام من ضعف ، وتأييدهم لكل بدعة . ثم ختم حديثه بأنه لو كان في بدنه قطرة من دم تميل الى الأتراك ، لبذل كل وسيلة ، لاخراجها من جسمه . وأضاف وهبه : إن أهل الكويت استاءوا من تصريحاته هذه ، لأنهم ككثير من المسلمين في ذلك الوقت ، كانت عواطفهم مع الأتراك والألمان . وكان الالمان منتصرين على الحلفاء في جميع الميادين . ولقد انصرف أعيان الكويت من مجلس ابن سعود غير راضين عن خطابه[٣٥] » .

ولا مجال للظن بأنه كان يجامل الأنجليز ، أوكان يخشى غدرة من غدراتهم وهو تحت رحمتهم في الكويت ، فهذا هو رأيه الدائم في الأتراك منذ عام ١٩٠٤ (١٣٢٢ هـ)

ولكن الشيخ وهبة ، صادق أيضا في ما نقله عن مشاعر الكويتين ، وهنا يجب أن نلاحظ أن الشعور في نجد كان مختلفا .. فالمناطق التي كانت ترزح تحت الاحتلال البريطاني مثل مصر والكويت ، كانت كراهيتها منصبة على الانجليز ، وعواطفها مع عدو عدوي .. أما نجد فلم تر انجليزيا ، والعدو التاريخي والحالي المستقر في الاذهان هو الترك. والنجديون ــ واليمنيون ــ هم أحدث العرب عهداً بمقاتلة الترك عشية الحرب العالمية ، ومع حركة بعث الوهابية ، كان الاعلام الديني السعودي . يركز بالطبع على خطايا الحكم العثماني ولم يكذب شكسبير عندما قال في تقريره عن زيارته لابن سعود في ديسمبر ١٩١٤ (١٣٣٢هـ) :

« على ضوء ما رأيته في المخيم يمكنني القول إن الشعور العام في وسط الجزيرة متعاطف جدا مع بريطانيا العظمى ومعاد لألمانيا . وكاره للترك* » .

دعنا من حكاية حب بريطانيا ، فالحقيقة هي أن أهالي نجد كانوا أقل العرب حبا للترك .. عبر عن ذلك الشيخ عبد الرحمن سلمان في تقريره المبكر جدا (١٩٠٣ – ١٣٢١هـ) وكذلك رفض أهل القصيم إقامة حامية تركية في بلادهم .. فكان ابن سعود في كراهيته للأتراك لا يعكس فقط ميراثا تاريخيا ، ولا رفضا إسلاميا عربيا لما آل اليه حال الدولة ، بل وأيضا يعكس .. عاطفة شعبه .

ولكنه في كرهه كان القوي البار .. حاربهم لحساب وطنه وعروبته ، ورفض أن يطلق طلقة واحدة ضدهم لحساب الانجليز .. بل تولى القصاص ، من كل الذين تعاونوا مع الانجليز ضد الأتراك فأزال دولة الادريسي ... ثم ازال ملك الحسين وخرج من الحرب العالمية الأولى وهو اكثر الحكام العرب احتراما لدى الأتراك .

فلننتقل الى حديث الاشراف .

---

* شكسبير بتاريخ ١٩١٥/١/٤ (١٣٣٣هـ) وقد جاء في التقرير أن « ابن سعود سجن ضابطا تركيا في الأحساء كان قد أرسل له لتدريب قواته للحرب . كما يبقي أربعة علماء في بريدة تحت الاقامة الجبرية . وهؤلاء العلماء من الوهابيين الذين يعيشون في بغداد أو كربلاء(!) وأرسلوا من قبل الحكومة التركية للحض على الجهاد » .

الملاحق

الأتراك

١ م — وفي واقعة الشنانة هذه وهي التي دحر فيها الترك . وردت قصة ذلك الشيخ المسمى « محمد ابو شيبة » وهو كما حققه الزركلي — نقلاً عن بعض ثقاة أهل نجد ، شيخ الحوطة . قيل إنه جاء إلى عبد العزيز ، وهو يرقب المعركة بمنظاره — وكانت هذه إحدى هوايات عبد العزيز — فقال له : لماذا ننتظر هنا ؟ لماذا لا نهاجمهم ؟. فأمره بالانتظار . فالتفت الشيخ إلى ابنه وقال : هذا عبد العزيز يا ولدي ، يدور الدنيا (أي يريد الدنيا) ونحن نبي الجنة (نريد الجنة) واندفعا الى خطوط العدو .. »

أما خالد الفرج (نقلا عن الزركلي) فقد نسب للرجل قوله : » إن كان لك طمع في الدنيا وملاذها ، فنحن ما أتينا هنا إلا لحماية نسائنا من جنود الترك ، فانتهره عبد العزيز وقال : اسكت .. فقال أبو شيبة : ما أنا بساكت ! لقد سئمنا المطاولات ! وها أنا وابني هاجمان ومن أراد فليتبعنا » !

ونحن وإن كنا نرجح رواية « خالد الفرج » ، أن الرجل جاء ليدافع عن نسائه ضد الأتراك ، لأن سمعة الجيش التركي في هذه الأمور أشهر من أن تحتاج لاشارة . ولم يشر خالد الفرج لحكاية « نبي الجنة » وهو أقرب للتصور . فلم يكن طابع الجهاد والاستشهاد واضحاً في ذلك الوقت المبكر ، وشيخ الحوطة ، كان يحتاج لمستوى فكري خاص ليرى الجنة عبر مقاتلة جيش الخلافة في عام ١٩٠٤ (١٣٢٢ هـ) !

٢ م — وقد روى حافظ وهبة أن المصريين كانوا يعقدون مجالس لقراءة البخاري لنصرة الدولة العثمانية وهزيمة الطليان . أما العصابة الحاكمة في اسطمبول ، فكان من إصلاحاتها إلغاء بند قراءة البخاري من « ميزانية الأسطول العثماني » . وبالطبع لم ينتصر هذا الاسطول بعد تخلصه من الميتافيزيق ، بينما كان الأسطول الذي يقرأ البخاري مصدر الرعب لأوروبا لأكثر من مائة سنة . حتى إنه لما اتحدت كل أساطيع أوروبا لمواجهته في ليبانة ، أعلن البابا أن « دون جوان دوتريش » قائد الأساطيل الأوروبية هو الذي عناه الإنجيل عندما تحدث عن مجيء رجل من قبل الله يدعى يوحنا .

٣ م — أشرنا إلى موضوع الماسونية والدونمة ، وقد عثرنا على الوثيقة التي كتبها السفير البريطاني في اسطمبول كاملة ، وهي تعزز رأينا بأنه وإن كانت الماسونية وتغلغلها حقيقة ، إلا أن الأجهزة البريطانية لعبت دورا رئيسيا في إشاعة هذه الحقيقة في العالم العربي والاسلامي ، لتحطيم سمعة الدولة لدى المسلمين خلال الحرب العالمية .

٤ م — وقد قدم « محمد أسد » في كتابه « الطريق إلى مكة » صورة لمأساة القيادات الوطنية الاسلامية في معركة ليبيا التي نسجت خيوطها الخيانة والغدر وفساد وتحلل القيادة التركية كما رسمت نهايتها الدامية والسوداء .

استعرض المؤلف كفاح الحركة السنوسية ضد الاستعمار الأوروبي ابتداء من جهاد « محمد المهدي » وخليفته وابن اخته السيد « أحمد السنوسي » ضد الغزو الفرنسي في افريقيا الاستوائية أو تشاد ، ثم ضد الايطاليين عندما غزوا ليبيا في عام ١٩١١ (١٣٢٩ هـ) واستمر أحمد السنوسي يقاتل الطليان بعدما انسحب الأتراك ، ويقول محمد أسد : « لقد حارب السيد أحمد ومجاهدوه السنوسيين ، الغزاة ، بكثير من النجاح ، لم يستطع الايطاليون ، ازاءه ، رغم تفوقهم في العدد والعدة ، أن يحتفظوا بسوى عدد قليل من الثغور . أما عن البريطانيين الذين كانوا قد رسخوا

أقدامهم في مصر ، ولم يكونوا بالطبع تواقين كثيراً إلى أن يروا الايطاليين يتوسعون في داخل شمالي افريقيا ، فقد تركوا السنوسي وشأنه ولم يعتدوا عليه . وكان حيادهم على جانب كبير من الأهمية ، لأن جميع ذخائر المجاهدين كانت تأتيهم من مصر حيث كانوا يتمتعون بعطف الشعب كله تقريبا ، والأرجح أن هذا الحياد البريطاني كان من شأنه أن يمكن السنوسي من إخراج الايطاليين من برقة نهائيا ، ولكن تركيا في سنة ١٩١٤ (١٣٣٢ هـ) دخلت الحرب العظمى إلى جانب ألمانيا ، وطلب السلطان العثماني بصفته خليفة المسلمين ، إلى إمام السنوسية أن يساعد الأتراك بمهاجمة البريطانيين في مصر ، واذ كان البريطانيون بطبيعة الحال راغبين اكثر من أي وقت مضى في حماية مؤخرة ملكهم المصري فقد حرضوا السيد أحمد على التزام جانب الحياد ، ومقابل حياده أعربوا عن استعدادهم للاعتراف سياسياً بالطريقة السنوسية في ليبيا ، وأن يتنازلوا عن بعض الواحات المصرية في الصحراء الغربية .

« ولو أن السيد أحمد قبل هذا العرض ، اذاً لكان اتبع ما كان يقضي به منطق الأمور عندئذ ، فهو لم يكن يدين بأي ولاء خاص للأتراك الذين كانوا قد تعاقدوا مع الايطاليين ، على إعطائهم ليبيا قبل ذلك ببضع سنين ، تاركين للسنوسي أن يستمر في حربه وحده . كذلك فان البريطانيين لم يقوموا حتى ذلك الحين بأي عمل عدواني ضد السنوسية بل ، على العكس سمحوا لها بتلقي الذخائر والمؤن من مصر ، فكانت مصر هي المصدر الوحيد لهذه المؤن وهذه الذخائر . وفوق ذلك فان « الجهاد » الذي أوحت به برلين ، والذي كان السلطان قد أعلنه ، لم تتوفر فيه الشروط التي نص عليها القرآن . فالأتراك لم يكونوا يحاربون دفاعاً عن النفس ، بل حالفوا دولة غير اسلامية ، في حرب عدوانية* ، وهكذا فان الاعتبارات الدينية والسياسية ، لم تكن لتدل إمام السنوسية إلا على طريق واحد فحسب ، هو أن يبقى خارج حرب لم يكن لهم فيها ناقة أو جمل . وقد نصح عدد كبير من أكبر القادة السنوسيين نفوذا ـ ومن بينهم صديقي سيدي محمد الزاوي . نصحوا السيد أحمد بالبقاء على الحياد ، ولكن شعوره المغالي بالشهامة نحو خليفة المسلمين ، تغلب أخيرا على مقتضيات المنطق ، وحمله على اتخاذ القرار الخاطىء ، إذ أعلن أنه إلى جانب الأتراك وهاجم البريطانيين في الصحراء الغربية .

« هذا القرار ونتائجه كانت فاجعة أكثر ، لان المسألة لم تكن لتؤدي في مثل تلك الحالة الى مجرد خسارة شخصية للسيد أحمد ، بل ربما أيضا الى إيقاع أذى كبير بالقضية العظمى التي وقف نفسه ، كما وقفها جيلان أثنان من قبله ، عليها ، وبالنظر إلى معرفتي الوثيقة به ، فانني لا أشك مطلقاً في أنه كان مدفوعاً بدافع غير شخصي ، بالرغبة في صيانة وحدة العالم الاسلامي . ولكن عندي شك ضئيل في أن قراره ، من وجهة النظر السياسية ، هو أسوأ قرار كان يمكن له أن يتخذه ، ذلك أنه بشنه الحرب على البريطانيين قد ضحى ـ دون أن يدرك ذلك تماما في ذلك الوقت ـ بمستقبل السنوسية كلها » (بل بمستقبل ليبيا إن صح هذا التفسير) .

« ومن ذلك الحين فصاعداً أجبر السيد أحمد على أن يحارب على ثلاث جبهات : في الشمال ضد الايطاليين ، وفي الجنوب الغربي ضد الفرنسيين ، وفي الشرق ضد البريطانيين » .

ولم يكتف الأتراك بتجريد ليبيا من المقاومة ، ثم التخلي عنها ، وتوريط السيد أحمد السنوسي في « جهادهم » .. بل سحبوه من أرض المعركة « ففي سنة ١٩١٧ (١٣٣٥ هـ) قام المستشارون الأتراك باقناع السيد أحمد بأن يذهب بالغواصة إلى اسطمبول للحصول على مساعدات أكثر جدوى » !! وقبل أن يبحر عهد بقيادة الطريقة إلى ابن عمه « محمد الادريسي السنوسي » الذي عجل بمصالحة الانجليز والطليان .

ويقول « محمد أسد » إن الأتراك إحتجزوا أحمد السنوسي عن عمد رغم الحرب (!) « لأن الدوائر

---

* لا مجال لمناقشة فتوى « الشيخ » أسد ، فهذه فتوى الادارة البريطانية التي وزعتها على الهنود المسلمين .

المحيطة بالسلطان ــجماعة الثورة ــلم تكن راغبة رغبة حقيقية في نجاح السنوسي ، فقد كان الأتراك يخشون دائما أن يحاول العرب المستيقظون ، يوما أن يستعيدوا مرة ثانية زعامة العالم الاسلامي . وانتصار السنوسي كان من شأنه أن يبشر بالضرورة بمثل هذا الانبعاث العربي ، وأن يجعل من امام السنوسية ، الذي كانت شهرته قد أصبحت عظيمة حتى في تركيا نفسها ، وريث الخلافة . وبالرغم من أنه قد عومل بمنتهى الاحترام وأحيط بجميع مظاهر التكريم ، فانه قد احتجز بلطف وأدب في تركيا . وما أن انهارت الامبراطورية العثمانية في سنة ١٩١٨ ــ ١٣٣٦ هـ ، واحتل الحلفاء اسطنبول بعد ذلك ، حتى أدرك أن آماله كانت في غير موضعها ، وفي الوقت نفسه سدت في وجهه سبل العودة إلى برقة » .

هذا هو الأساس في بطلان دعوة تلك العصابة للجهاد ، وليس كونها حربا دفاعية أو هجومية ــ فالاسلام في حالة دفاع من القرن السادس عشر ضد العدوان الدائم عليه وعلى أراضيه وشعوبه .. ومحالفة دولة غير إسلامية لا يبطل الجهاد أبداً .. المهم ما هو هدف التحالف . ولا نستطيع أن نحكم على تفسير محمد أسد ، وهل كان التفكير التركي بهذا العمق الاستراتيجي ، وهم يلفظون الأنفاس الأخيرة للزعامة الاسلامية ؟! أم أنها كانت مجرد عملية خيانة عادية من جاسوس بريطاني في القيادة ، أو يهودي بعد أن انضم اليهود لبريطانيا على إثر وعد بلفور أو خلال المفاوضات لاصداره ؟..

المهم هو أن القيادة التركية ، سحبت القائد الليبي من المعركة ، والأهم هو أن تلك القيادة كانت تتمتع بسمعة سيئة إلى الحد الذي يطرح تفسيرا مثل تفسير محمد أسد .

ولكن البطل العربي المسلم ، الذي استجاب لدعوة الجهاد ، لا عن قناعة باسلام مجاهدي الدونمة ، بل حرصاً على وحدة العالم الاسلامي ، واقتناعا ، بأن أي تجمع باسم الاسلام ، يضم المسلمين في داخله مهما تكن نوعية قيادته ، يحمل الأمل في عمل إسلامي صادق صحيح ، أما تمزق المسلمين فيقضي على هذا الأمل أو بصيغة عصرية .. الجغرافيا قبل السياسة ، والأرض أهم من النظام ..

ولذلك حينما انتهت الحرب ، وهجم اليونانيون باسم أوروبا على تركيا يريدون إزالة الاسلام منها هي الأخرى .. واستصرخ مصطفى كمال الحمية الاسلامية ، كان « أحمد السنوسي » في مقدمة المجاهدين ، « وأخذ يتنقل بين مدن الأناضول وقراه ، داعيا الناس إلى مؤازرة الغازي مصطفى كمال ، وأسهمت جهود إمام السنوسية ، بالاضافة إلى اسمه المجيد ، بقسط وافر لا يقاس ، بنجاح الحركة الكمالية بين فلاحي الأناضول البسطاء . الذين لم تكن الكلمات القومية تعني شيئاً بالنسبة لهم ، والذين طوال أجيال لا تحصى كانوا يعتبرون شرفا لهم أن يهبوا حياتهم في سبيل الاسلام . لكن إمام السنوسية قد ارتكب أيضاً خطأ في الحكم ، لا بالنسبة إلى الشعب التركي الذي قادته حميته الدينية إلى النصر ضد عدو أقوى بكثير منهم ، بل بالنسبة إلى نوايا زعيمه » .

لم يخطيء الزعيم العربي بل أخطأ أسد في لومه ، لأن البديل هو سقوط تلك البلاد في يد اليونانيين ، أي ابادة الاسلام جغرافيا ، وبشريا .. بينما انتصار تركيا حتى بقيادة كمال أتاتورك ، أبقاها جغرافيا في الوطن الاسلامي ، وها هي الحركة الاسلامية تعود في تركيا ، والمساجد تفتح والأذان يتردد باللغة العربية في مساجد كانت ستحول إلى كنائس . مما يثبت أن جهاد السيد أحمد وأمثاله لم يذهب عبثاً ولا كان خطأ ..

والدليل على أن هذا هو منطقه ، أنه بعد ما كشف « كمال أتاتورك » عن أصوله وأهدافه ، وعداوته الشرسة للاسلام ، والمصير المظلم الذي قاد تركيا اليه ، وخروج السنوسي من تركيا . ذهب إلى دمشق وهناك في سنة ١٢٤١ هـ (١٩٢٣) « رغم مقاومته لسياسة أتاتورك الداخلية ، حاول أن يخدم قضية الوحدة الاسلامية ، بأن جرب إقناع السوريين بالاتحاد ثانية مع تركيا » .

وقرر الفرنسيون القبض عليه فهرب إلى السعودية في ١٣٤٢ هـ (١٩٢٤) فالرجل كان يعرف ماذا يفعل .. ومن وجهة النظر الاسلامية ، لاشك أن دولة إسلامية تضم تركيا وسوريا حتى تحت زعامة أتاتورك كانت أفضل على المدى البعيد ، من تمزيق سوريا وخضوعها للاستعمار الفرنسي ..

كذلك لم يكن مخطئاً في إختيار الجهة التي يهرب إليها .. « حيث استقبله ابن سعود بحرارة » .

ويقول محمد أسد إنه قابله في عام ١٩٣٢ ـ ١٣٥١ هـ في المدينة واستعرضا أنباء إعدام عمر المختار ويزعم أن السيد أحمد العجوز اللاجىء في المدينة قال له : « يخيل إلي أحياناً أنني أخطأت عندما باليت بنداء استانبول اذذاك ، منذ ١٧ سنة .. ألم يكن ذلك ، ربما ، بداية النهاية ، لا بالنسبة إلى عمر فحسب بل بالنسبة إلى السنوسيين جميعاً .. ولكن كيف كان يسعني أن أفعل خلاف ذلك ، عندما سألني خليفة المسلمين المعونة ؟ » .

ولكننا نطرح فرضية أخرى ، فقد ذكر « مصطفى أمين » الصحفي المصري المعروف في مذكراته ، أن حمد الباسل وجماعة العرب المتصلين بالسنوسية ، كانوا يريدون إعلان الثورة في مصر عام ١٩١٤ (١٣٣٢ هـ) فور إعلان الحماية على مصر وخلع عباس حلمي . ولعل السيد أحمد السنوسي كان على موعد ، فقام بهجومه لشغل القوات البريطانية ، بينما أجل سعد باشا أو المصريون موعد الثورة . فهي لم تكن غلطة سياسية ولا إستجابة ساذجة لنداء الجهاد* .

٥ م ـ وكان رئيس وفد المفاوضات التركي ، أو وسيط الأتراك يعمل لحساب ابن سعود ويقبض من المصاريف السرية السعودية ! فقد ورد في تقرير للمعتمد البريطاني في البحرين أن السيد طالب النقيب سلم ابن سعود خطابات مرسلة للأتراك من عبد الحسين بن جمعة من تجار القطيف ، مما أدى إلى إعدامه بتهمة التجسس . وفي نفس التقرير أن عبد اللطيف المنديل وكيل ابن سعود في البصرة دفع للسيد طالب ٢٠ ألف روبيه بالاضافة إلى أربعين ألف أخرى سلمت له في الكويت أما عبد اللطيف المنديل ، فقد استقال من الوكالة ، وأصبح يمثل الأتراك في مفاوضة ابن سعود ، وهكذا أمكن الاتفاق على صيغة معاهدة كتبها وكلاء وعملاء ابن سعود أو كما قيل جورج الخامس يفاوض جورج الخامس !

وقد أورد تقرير قنصل بريطانيا في البصرة ، المستر كراو تشكيل اللجنة كالآتي : السيد طالب بك نقيب زاده رئيساً ، وعضوية عمر فوزي بك ، وعبد اللطيف المنديل وأعضاء آخرين . وانتقلوا من البصرة على يخت الشيخ مبارك ٢٨ ابريل ١٩١٤ (١٣٣٢ هـ) وقال التقرير : « وعرفت أن تعليمات اللجنة هي الوصول الى تسوية مع ابن سعود بروح ودية » (التقرير بتاريخ مايو ١٩١٤ ـ ١٣٣٢ هـ .

وسواء نزولا على الأمر الواقع ، أو خوفا من اتفاقية مع الانجليز ، أو بناء على نصيحة الألمان وهو الأرجح ، قبلت الدولة معاهدة الصبيحة ، واعترفت بعبد العزيز واليا لنجد ومتصرفاً للأحساء ، وأهدته النيشان العثماني الأول ورتبة الوزارة (١٩١٤ ـ ١٣٣٢ هـ)

وقد حصلنا على ترجمة المعاهدة من الملفات البريطانية ، التي قالت إنها عثرت عليها في الأوراق التركية عند احتلال البصرة . وجاء فيها :

المادة ١ ـ هذه المعاهدة موقعة بين والي وقائد البصرة سليمان شفيق بن علي الكمالي باشا المفوض بصفة خاصة بموجب إرادة سلطانية ، وصاحب السعادة عبد العزيز باشا آل سعود والي وقائد نجد . وهي معتمدة من الحكومة العلية وتتكون من ١٢ مادة تشرح الأمور السرية المذكورة في الفرمان السلطاني بتاريخ (لم يوجد تاريخ بل نقط) الخاص بولاية نجد ، وسيبقى نص المعاهدة سرياً .

---

* انظر من واحد لعشرة لمصطفى أمين .

مادة ٢ ــ تبقى ولاية نجد تحت ولاية ابن سعود مادام حياً بموجب فرمان سلطاني ، وبعد وفاته تنتقل إلى أولاده وأحفاده ماداموا مخلصين لحكومة السلطان ولآبائهم الولاة .
مادة ٣ ــ سيعين موظف عسكري فني من قبل الوالي (ابن سعود) يقيم حيث شاء وحيث يرى ذلك مناسباً وضرورياً ، ويمكن أن يستجلب ضباطاً أتراكاً لتدريب القوات المحلية ، على أن يحدد عددهم وفقاً لرغبة الوالي المذكور (ابن سعود) .
مادة ٤ ــ سيقيم عدد من الجنود والجندرمة ، بما يراه الوالي مناسباً في الموانى مثل القطيف والعجير وغيرها ...
مادة ٧ ــ سيرفع العلم التركي على كل المباني الحكومية والأماكن الهامة في البحر والبر وعلى كل المراكب المملوكة لوالي نجد .
مادة ٨ ــ لا يجوز للوالي المذكور الدخول في أية علاقات أو مراسلات تتعلق بالشئون الخارجية أو المعاهدات الدولية ، أو منح تنازلات للأجانب .
مادة ١١ ــ تستخدم طوابع البريد التركية على كل المراسلات .
مادة ١٢ ــ إذا دخلت الدولة في حرب مع قوة أجنبية ، أو وقع اضطراب في إحدى ولاياتها وطلبت مساعدة الوالي المذكور ، يلبي طلبها في الحال قدر طاقته .
وفي نهايتها عبارة تقول توقيع : عبد العزيز

والي ولاية نجد وقائد جيشها
سليمان شفيق بن علي الكمالي
والي ولاية البصرة وقائد قواتها .

٦ م ــ كانت هذه الوفود تتكون أساساً من الأخوة المسيحيين الذين رفعوا شعار العروبة ضد العثمانية ، فما أن سقطت العثمانية ، وأبدى العرب المسلمون استعدادهم لقبول العروبة العلمانية المستقلة ، حتى تخلى هؤلاء عن العروبة وطلبوا حماية فرنسا لأن « دمشق تبعد عن مكة بما لا يقل عن ألف وخمسمائة كيلومترا فأية صلات روحية وتقارب ذهني تربط بين طبيعة السوري والحجازي ، بين البدو وأهل الحضر ؟ وهل هناك غالبية من العنصر العربي من شأنها أن تعلل ، أو تبرر مثل هذه الفكرة ؟! وضم سورية الى الجزيرة العربية هو افتئات صارخ على قدسية الأرض التي أنبتت هذا الشعب وعلى تاريخه . »
ولم تكن هذه نزعة استقلالية ، ولا حتى اقليمية ، لأن قائل هذا تابع : « إن مصلحتنا ومنطقنا يدفعان بنا إلى الاعتراف بأننا نحتاج إلى تعاون مع جهة أجنبية . إننا نلتمس منكم أن تكون دولة فرنسا هي الدولة التي سيوكل اليها أمر إنشاء دولة سورية فدرالية متكاملة مستقلة » .

٧ م ــ يقول العطار إن ابن سعود رفض عرض فخري باشا قائد المدينة التركي بالانضمام إليه ، لأن « ابن سعود لم يرد أن يقف في وجه الحسين ، بل كان شديد الحرص على رضاه ، ولهذا أغفل الجواب ، مع أنه كان في وسعه أن يقصد المدينة المنورة ، ويفك الحصار عن فخري ، ويوحد جيشه مع جنوده الأتراك ويضرب القوات الهاشمية » .!!
وهو تفسير عامر بالنبل والمروءة ، بعيد كل البعد عن الحقيقة ، فالأقرب للفهم أن ابن سعود كان يراعي الانجليز ، وليس الشريف ، في رفضه الانضمام للأتراك ، والقوات الهاشمية المحاصرة لفخري باشا لم تكن هاشمية إلا في الراية والذكر الحسن !
ولا أظن أن الشريف تمنى في حياته شرا لابن سعود أكبر من هذا الذي يقترحه العطار ــ عن حسن نية طبعاً ــ : أن ينضم للقوات التركية المحاصرة في المدينة ضد الانجليز !! وقد حاول الشريف

استغلال اتصالات فخري باشا ، الذي كان « حالة خاصة » في الدس لعبد العزيز عند الانجليز ، فقد ذكر فيلبي أن الشريف اتهم عبد العزيز بالاتصال بالأتراك مستندا إلى هذه الاتصالات . ولكن فيلبي فند ذلك ، وقال إن ابن سعود أراه خطابات فخري باشا ، ولم يرد عليها قط .

٨ م ــ هذه هي أوهام الأتراك ، أما الموقف الحقيقي فقد لخصه تقرير كوكس الذي أشرنا إليه ويكمله تقرير المقيم السياسي في عدن إلى سكرتير حكومة الهند عن الوضع في جنوب الجزيرة حيث ــ على حد قوله : ــ « في هذا الجزء من العالم لا يوجد الا الامام والترك والادريسي » . وقد فشل الترك حتى الآن في مصالحة الادريسي . ولذا فموانيه في الميدى وجيزان مغلقة في وجوههم . الترك والامام متصادقان الآن . والسبب أن الامام ينال إعانة ضخمة من الحكومة العثمانية . بينما ضعف الترك بعد حرب البلقان يجعل من حسن السياسة كسب صداقة الامام .

« إذا أبدى الباب العالي عداوة نحو حكومة جلالة الملك فمن الممكن تشجيع الامام على فض تحالفه مع الحكومة التركية وذلك بوعده بمساعدة مالية . والنتيجة ستكون تحالفا بين الادريسي والامام ضد الترك . موقف الامام نحونا ودي الطابع وموقف الادريسي هو المنتظر منه (!) ولذا فلا حاجة لاتخاذ خطوات برية على الأرض ، التي من شأنها أن تثير الشكوك في محمياتنا حول حقيقة أهدافنا ، فانه يمكن جعل الوجود التركي مستحيلا في جنوب غرب الجزيرة ، ويمكن ضرب الموانى التركية على البحر الأحمر دون أن تمس موانى الادريسي » .

بالنسبة للمسلمين الهنود في عدن سيكونون مسالمين في حالة نشوب صراع مع الترك . ويمكن ان أضيف أن شريف مكة يأخذ موقفا متشككا للغاية من ناحية الترك وقد اعتزل في الجبال » .

الأشراف ـــــــــــــــ ٥

« لم أنتصر عليك الا لأنك خلعت ثوب جدك . ولبسته أنا بأفعالي .. »

عبد العزيز آل سعود



الملك حسين وقد رسم على شكل خريطة للبلاد العربية بمفهوم «ثورة لورنس» أي اخراج عرب افريقيا!

لا يمكن كتابة تاريخ السعوديين ، الا ويذكر الأشراف ، فقد لعبوا دورا بارزا في هذا التاريخ ، منذ سعود الكبير في مطلع القرن التاسع عشر الى سقوط عرشهم في بغداد في النصف الثاني من القرن العشرين . ولكن قصة الأشراف في الحجاز ، هي أيضا ، عنصر رئيسي في قضية « الحل الاسلامي » ليس في حينها فحسب ، بل ولاتزال تمثل عنصراً حياً وحاداً في الحوار حول هذا الحل . فالأشراف حمّلوا تهمة قيادة الثورة العربية ، أو الحل القومي ، في مواجهة الحلم الاسلامي . وعلم « الثورة العربية* » الذي صممه مستر سايكس[١] ، بطل اتفاقية سايكس ـ بيكو ما غيره ، مازال يمثل قميص عثمان الذي ترفعه كل ثوراتنا القومية** . ولكن المدرسة الاسلامية الثورية ، ترى ـ كما كتبنا منذ عشرين عاما ـ أن هذه « الثورة » أعدت في المخابرات البريطانية وتولي توجيهها والاشراف عليها وتمويلها وقيادة تحركها ، ونحت شعاراتها ، ضباط هذه المخابرات ، حتى استحقت ان تسمى « ثورة لورنس » ، ومن يومها ولعنة المخابرات تطارد ثوراتنا العلمانية أو القومية حتى يومنا هذا ، تدبيراً أو شبهة . كذلك حمل الأشراف مسئولية ما جرى على العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية ، مما اعتبره معظم العرب وقتها ، والى اليوم ، نتيجة غفلة أو خيانة الأشراف ، أعني تقسيم الوطن العربي واعطاء فلسطين لليهود*** .. ومن ثم فلابد لمناقشة الصراع السعودي ـ

---

* احتارت التفاسير في مغزى ألوان « العلم العربي » فمن قائل بأنها مقتبسة من بيت الشعر المشهور: خضر ملاعبنا . سود وقائعنا . بيض أيادينا . حمر مواضينا ! الى قائل بأنها ترمز بالابيض للأمويين ، والاخضر للعلويين . والأسود للعباسيين ، والأحمر الى مضر ! ولكن الحقيقة التى لا خلاف عليها هي أن مصمم العلم هو السير مارك سايكس ، الذي صمم بدوره خريطة الوطن العربي المقسمة بين بريطانيا وفرنسا !

** ينص دستور حزب البعث في مادته التاسعة : « راية الدولة العربية هي راية الثورة العربية التي انفجرت عام ١٩١٦ لتحرير الأمة العربية وتوحيدها . »

*** حتى عام ١٩٧٩ ــ ١٣٩٩ هـ ـ يقول مؤلف كتاب « الملك حسين ومملكة الحجاز » أنه أصدر كتابه هذا لانصاف الملك فالفكرة الشائعة عنه أنه باع الأمة العربية في فجر ميلادها عام ١٩١٦ ـ ١٣٣٤ هـ ـ وأن اسمه مازال يثير الحنق الى اليوم . من فلسطين الى اليمن »

King Husain and the Kingdom of Hejaz: by Randall Baker. The Oleander Press

الهاشمي في مرحلة بناء الدولة السعودية على يد عبد العزيز من مناقشة « الثورة العربية » .

ومن سخرية التاريخ ، أنه رغم اللقب « الشريف » وما يعنيه من الناحية الدينية ، ورغم خلفية الشريف العثمانية ، ومفاهيمه « الرجعية » التي ظل يتشبث بها حتى منفاه في قبرص الا أن الرجل نصب ـرغم أنفه ـ قائداً للقومية العربية[1] م ، ورمزاً للحركة التي أرادت فصل الدين عن تلك القومية ، وهو الذي قاد ثورة العرب المتعاونين مع الغرب المسيحي ضد الخلافة العثمانية المسلمة !

ومن الطبيعي اذا ، أن تصطدم هذه الحركة مع التيار السعودي الذي يمثل الصيغة الحادة للحل الاسلامي ، وأن يكون هذا الصدام هو أبرز التطورات ، وأطولها ، في تاريخ عبد العزيز . ولكن من سخرية التاريخ أيضاً ، أن ذلك الصدام لم ينفجر الا بعد انتهاء الحرب والثورة ، فمن الناحية النظرية ، كان السعوديون والهاشميون في معسكر واحد طوال الحرب ، حلفاء لبريطانيا وضد تركيا ، فلما سقطت الخلافة في تركيا ، وتبناها الشريف حسين ، أي تبنى الصيغة الشكلية الرائجة عن الحل الاسلامي ، كانت جيوش عبد العزيز هي التي أزالت عرش الملك أو الخليفة الذي لم يبايعه الا ابنه وحفنة من الشوام .

والى منتصف الستينات ، كان الكتاب القوميون ، منحازين الى « الثورة العربية الكبرى » التي قادها لورنس ، وأعلنها الشريف حسين .. وخلال الحرب بين ابن سعود والشريف ، كان جيش الشريف يتكون أساسا من الشوام ، (السوريين والفلسطينيين) وكان يتمتع بتأييد العرب الآسيويين حتى أن منادى جيش الاخوان في حصار جدة كان يناديهم من خلف الخنادق : يا اخواننا يا أهل الشام وشمر وحرب ويا عقيلات . اخرجوا من الخط ، وأنتم في وجه الله ووجه ابن سعود ، لا تخافوا والله ما نريد لكم غير الخير ، تعالوا الينا ونحن اخوانكم . والله .. وبالله[2] » .

ويقول الريحاني : ان الملك عبد العزيز تساءل بدهشة : « لماذا جاء السوريون والفلسطينيون الى جدة لقتالنا ؟. أقتالهم لنا قتال ديني أو حمية وطنية ؟ أم الحسين وأولاده قاموا بأمر منتظم يرون أننا أتينا لتخريبه ؟! » (أي أن عبد العزيز يؤكد القناعة بأن ثورة الحسين وأولاده لم تحقق أي أمر للعرب .)

ويقول ان عبد العزيز عندما أصدر عفوه عن الذين يهجرون جيش الملك علي ، عرض فوق ذلك المساعدة المالية على من أحب منهم السفر الى وطنه ، فكان لمنشوره أثره السحري ، « مما اضطر القيادة الهاشمية الى تسريح عدد كبير من الجنود الفلسطينيين » .

وفسر الريحاني اشتراك « الشوام » في القتال الى جانب الشريف بقوله : « ان الكثيرين من اولئك الجنود كانوا يحاربون عملا باعتقادهم ، أن النهضة العربية لا تقوم الا بالبيت الهاشمي » .

ويمكن أن نضيف أنه كان قد شاع بين العرب الآسيويين ، أو بالأحرى في منطقة

الهلال الخصيب ، وذلك في السنوات الأخيرة من حكم الشريف ، أن الانجليز قد تخلوا عنه لأنه يعارض وعد بلفور .. وهناك روايات عديدة عززت هذا الظن ، فيشير مؤلف كتاب « الحسين ومملكة الحجاز » الى جهود لورنس لاقناع الشيخ بقبول مصير فلسطين فيقول : « في فبراير ١٩٢١ ـ ١٣٣٩ هـ نقلت الشئون العربية من اشراف كيرزن في الخارجية ، الى ونستون تشرشل في وزارة المستعمرات ، « فعقد مؤتمراً بالقاهرة ، في مارس لمداواة الجراح التي حدثت للعرب ولبيت شريف مكة . » « وفي يوليو من نفس العام أرسل لورنس ليعقد المعاهدة بين بريطانيا والحجاز . وقال لورنس للملك حسين : ان قضية عروبة فلسطين لا جدوى منها ولا مجال للنقاش حولها ، فهي غير مقبولة . أما وعود الحرب فقد سقطت بفعل الأحداث ، وعلى الملك أن يقبل الأمر الواقع . ولكن الملك حسين رفض المساومة تماما ، رغم نصيحة فؤاد الخطيب وزير خارجيته ، والحاح أولاده بأن يقبل ما يعرض عليه . »

ولما ضاق ذرع لورنس الذي لا يفهم للشرف معنى قال له : « ولكن الفلسطينيين لا يريدونك » فرد الملك ، ان هذا لا يغير من الأمر شيئا . نحن لا نريد فلسطين لي ولا لأولادي . ولكن أريد أن تحفظ بريطانيا وعودها للعرب . فان فعلت فأنا وأولادي على استعداد لمغادرة البلاد العربية . »

ويقول المؤلف : ان لورنس استمر يغريه بأنه لو وقع المعاهدة فسيحمي نفسه من الاخوان ، كما أن الدعم المالي سيقطع اذا لم يوقعها ، ومن المؤكد أن قوات نجد لن تغزو بلدا تربطه معاهدة مع بريطانيا* . « وقال الملك بتأثر وهو يعرف أنه بدون معاهدة لن يستطيع الاستمرار : « أنا لا استحق القيادة ، دع الأمراء يتفقون على قائد وأنا أتنحى » .

« لم يكن هناك اغراء : لا القوة ولا المال ولا الحماية ، يمكن أن يزحزحه عن رفضه للمادة السابعة التي تفرض الانتداب على فلسطين والعراق . »

« عندها أمر لورنس بأن يذهب الى الأردن ليحصل على توقيع عبد الله لعل ذلك يلين موقف الشيخ ، وفعلا وقع عبد الله في ٢١ اكتوبر ١٩٢١ ـ ١٣٤٠ هـ ، وأرسل خطابا لوالده يشرح الأسباب ، فأعيد الخطاب دون أن يقرأ . وقد استمرت المفاوضات دون طائل الى عام ١٩٢٣ ـ ٤١ / ١٣٤٢ هـ[٣] » .

ويشير حافظ وهبه الى زيارة وفد فلسطيني لمكة في خريف عام ١٩٢٢ ـ ١٣٤١ هـ فألهب حماسة الحجاج « وفتحت له جريدة القبلة صفحاتها » . واستاءت بريطانيا من ذلك وبعثت برسالة الى الملك حسين تنتقد فيها حكومة الحجاز وهيئة تحرير القبلة !

---

*وهذه نقطة وان بدت وجيهة الا أننا لا نقف عندها طويلا ، فالمعاهدة لم تكن لتحمي الحسين ، وبريطانيا لا تعترف الا بالمعاهدة التي تحمي مصالحها . والدليل الأقوى من تخيلات المؤلف ، أن جيوش عبد العزيز أطاحت بحكم الادريسي وكانت له معاهدة مع بريطانيا ، فلم تجده نفعا ، بل توارت بريطانيا خلف اصبعها وقالت ان المعاهدة كانت تقصد حمايته من غير العرب !

ويعتقد « حافظ وهبة » أن الملك اتخذ الموقف المتصلب في شأن قضية فلسطين تحت تأثير « الأحزاب العربية » التي كانت سنداً مهما في دعواه الزعامة العربية » كما يربط وهبه ، بين البيان الذي وجهه الملك حسين للشعب البريطاني في نوفمبر ١٩٢٣ ــ ١٣٤٢هــ ضد السياسة البريطانية ، وبين قرار الحكومة البريطانية تركه لخصمه ابن سعود يحل مشاكله معه بنفسه فتغلب عليه وأقصاه من الحجاز[٤] » وان كان مؤلف الدفاع عن الحسين يعتقد أن الملك كان واقعا تحت ضغط الفلسطينيين ، فهو قد أحاط نفسه بهم ، ومن ثم لم يكن بوسعه معارضتهم ، وأشار المؤلف الى المؤتمر العربي السادس « الذي اجتمع في يافا ــ يونيه ١٩٢٣ ــ ١٣٤١ هــ ــ وأصدر قراراً برفض المعاهدة بين بريطانيا وحسين فيما يتعلق بفلسطين » .. فلم يسع الملك أسير الفلسطينيين الا الرفض ..!

ولكننا نقول ايضا ان خلفية الرجل الدينية ، ما كانت لتسهل عليه قبول اعطاء فلسطين لليهود ، خاصة وقد اكتشف أنه سيفعل ذلك بدون مقابل ، فقد تم تقسيم مملكة العرب التى رسمت خريطتها على مقاس صورته* ، حتى وان وضعوا أولاده على اشلائها ، كما فقد أي أمل في الاستيلاء على امارة ابن سعود ، أو على الاقل في دعم الانجليز له لتحقيق هذا الاستيلاء . وهو من جانبه جعل الخلاف الوحيد بين بريطانيا وبينه ، هي نجد وليست فلسطين وابن سعود وليس ابن بلفور ! كما لم يكن بوسعه توقيع صك تسليم فلسطين لليهود وهو يحارب ابن سعود ويحتاج لدعم عربي ، في مواجهة الدعم الاسلامي الملتف حول خصمه .

« فقد تحقق ظني الآن بأن الغيظ والغضب علينا من بريطانيا العظمى بشأن المعاهدة ، هو من جهة المواد المتعلقة بابن سعود ، وهذه المسألة لا نقول عنها الا شيئا واحدا ، هو أن عظمتها ترجح ابن سعود علينا[٥] » .

فالفلسطينيون راهنوا على الهاشميين ، وكان بعضهم يعتقد أن الشريف قد نال وعودا من بريطانيا ، ومن ثم فسقوطه يعفي بريطانيا من هذه الالتزامات** اما « القوميون » ، والمسيحيون منهم خاصة ، فكانوا يميلون للبيت الهاشمي « المنفتح » بعكس البيت الوهابي « المتزمت » ، ورغم علاقة الريحاني النادرة بابن سعود ، فقد توجه فور الحرب الى جدة وليس الى الرياض .. وسرعان ما اندمج في المعسكر الهاشمي ، وصار يتصرف فيه تصرف الوصي*** !.. والريحاني كان يعتقد أن الشريف

---

*وزعت صور للشريف على شكل خارطة البلاد العربية .

** وهو وضع يشبه الى حد ما القول بأن إسقاط الشرعية الأردنية عن الضفة الغربية يعفي اسرائيل والمجتمع الدولي من الالتزام باعادة إسرائيل الى حدود ١٩٦٧ .

*** انظر في فصل « المؤلفون » نص التقرير الذي كتبه الريحاني للقنصلية الامريكية في بيروت ، وكيف حاول بكل قواه الابقاء على مملكة الهاشميين ، وعمل البحر طحينة لعبد العزيز ، وهدده بتحمل مسئولية زوال الأمة العربية واحتلال الأجانب للحجاز اذا ما دخل جدة . ولكن عبد العزيز لم تهتز له شعرة .

حسين سيسمح له بالفرجة على الكعبة ! « كيف لا ، وهو زعيم النهضة العربية الاصلاحية ، ومنقذ العرب الأكبر . كيف لا والمسيحيون السوريون من العرب . والاخاء والمساواة ركنان من اركان النهضة[6] . »

ولكن المسلمين عامة ، وعرب أفريقيا ، والجزيرة ، لم يكن هذا رأيهم في الحسين ، لا قبل انتهاء الحرب ، ولا بعد اعلان الانتدابات .. وكيف يصدقون أنها النهضة العربية ، والمنشور البريطاني يقول : « ان حكومة جلالة ملك بريطانيا وامبراطور الهند ، قررت أنه عند انتهاء الحرب ، ستجعل من شروط الصلح ، ومواده الرئيسية أن تكون شبه جزيرة العرب والأراضي المقدسة التي فيها مستقلة ، ولا يضم شبر منها الى أراضينا ، أو أراضي أية دولة أخرى ... بربكم ألا يكفيكم ذلك » .

بالطبع لم يكن ذلك يكفي العرب بأية حال .. ولا كان الانجليز صادقين في هذا الميني ـ استقلال الذي بشروا به العرب فقد ضموا وحرموا من الاستقلال ، أكثر من بلد وموقع وشبر وميل وفرسخ في شبه الجزيرة . أما ما أصبح مستقلا بعد الحرب ، فهو ما كان مستقلا قبلها ، فحتى الحجاز لم يكن للأتراك فيه سلطة يمكن تسميتها باحتلال أو استعمار ... والا لما استطاع الشريف اعلان الثورة .

لم يصدق العرب من هذا المنشور الا فقرة واحدة وهي القائلة :

« ولا ريب أن كل مسلم صميم ملأت العقيدة الاسلامية قلبه ، يربأ بنفسه أن يستخف بعقيدته ، ويكون ألعوبة في يد دولة أجنبية تجعله قربانا على مذابح مطامعها الأشعبية » !

صدق المنشور البريطاني ، ولكن المسلمين رأوا ذلك ينطبق على الشريف أكثر من السلطان العثماني .. وكان الرأي العام الاسلامي كما قال محمد أسد : « غير راض عن الدور الذي لعبه الأشراف في الثورة التي قام بها الملك حسين بوحي من الانجليز ضد الأتراك ، واعتبروها خيانة من قبل مسلمين لاخوانهم في الدين . »

أما العرب في افريقيا والمحميات ، فكانوا من ناحية مع الأتراك بعواطفهم نكاية في محتليهم الانجليز والفرنسيين ، وكان لهم من تجاربهم المريرة مع هؤلاء الأوروبيين ما يحميهم أو يغنيهم عن تجربة وعودهم ، ومن ثم فقد رأوا في موقف الحسين عمالة للمستعمرين وطعنة للآمال التي علقوها على الحرب العالمية ، كفرصة لاضعاف المستبدين بأوطانهم ؛ الانجليز والفرنسيين والطليان .

ومعروفة عواطف المصريين ، كما أشرنا الى موقف الليبيين وهجومهم على مصر لتحريرها من الانجليز .. ومن ناحية أخرى ، ضاعف في عزلة الشريف وثورته ، عن عرب افريقيا ، انه ـ كما قلنا ـ حصر العروبة في الجزء « التركي* » من العالم

---

* انظر صورة الملك حسين كملك البلاد العربية ، حيث حددت مملكة العرب غربا بالبحر الأحمر ، فلا عرب ولا بلاد عربية غرب هذا البحر ولسبب واحد هو أن هؤلاء العرب كانوا تحت الاحتلال الأوروبي !

العربي ، فلم يعترف ولا اهتم بمصير العرب الرازحين تحت الاستعمار الأوروبي* .

والذين هم ايضا مسلمون مائة بالمائة . أو يشكل المسلمون أغلبيتهم الساحقة (مصر والسودان) ومن ثم لم تكن هناك عقد خاصة تجعلهم يفضلون الاستعمار الفرنسي أو البريطاني على « الاستعمار » التركي .

كان من المستحيل على هؤلاء العرب ، أن ينضموا لثورة يقودها الانجليز والفرنسيون وتنفق عليها بريطانيا اكثر من مليونى جنيه « لتحرير العرب[٢]م » لذلك كان المناخ العام يعادي الملك حسين ، ويتهم ثورته بأنها مؤامرة استعمارية ، فلما تتابعت الأحداث ، ونشر البلاشفة مشروع سايكس ـ بيكو ، ثم صدر وعد بلفور ، وسمعوا الملك جورج الخامس يتحدث عن « تحرير فلسطين » ، فيصفه بأنه « الحملة الصليبية الأخيرة » . وألنبي يصف انتزاع القدس من المسلمين ، بأنها هدية الكريسماس للعالم المسيحي ، ويرون أن أمجد أعمال « الثورة العربية » هو نسف الخط الحديدي الذي كانت اقامته مظاهرة اسلامية ، اذ تبرع لانشائه المسلمون من جميع أنحاء العالم ، فكان أول وآخر عمل « اسلامي » وظل فلاحو الأناضول البؤساء يعملون ليل نهار في حر الصحراء القاتل بالنسبة لهم ، فضلا عن القتل والنهب والسلب وغير ذلك ..... مما يمارسه البدو في غاراتهم ، ضد هؤلاء الغلمان الأتراك ، الذين رغم هذه الأهوال ، أنجزوا المعجزة وربطوا المدينة المنورة بالشام ، وسهلوا طريق الحج .. فاذا بالعرب يقودهم ضباط انجليز ينسفون الخط ، ويفتخرون بذلك** !

فلا المسلمون ، ولا العرب صدقوا أن هذه ثورتهم ، ومن الناحية الاخرى ، لم يكن الانجليز عندما دبروا « ثورتنا » يشغل بالهم موقف المسيحيين العرب ، أو يهتمون كثيرا بكسبهم ، بل كان كل همهم ، تضليل ، المسلمين الهنود ، باعطاء زعمائهم المتعاونين ، عذرا يبررون به القتال ضد دعوة الجهاد العثمانية . وقد لخص فيلبي القضية بقوله :

« عندما أعلن سلطان تركيا الجهاد ضدنا ، اضطررنا مراعاة لملايين الهنود

---

* ولم يقتصر الأمر على اهمال عرب افريقيا (مصر ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب ـ ليبيا ـ السودان) بل ان مكماهون الأب الروحي والمالي للثورة العربية وجد من الوقاحة ما سمح له بتهنئة باعث النهضة العربية بضرب الثورة الليبية ! فكتب له : « وقد يسرني أن أبلغ دولتكم أن العربان الذين ضلوا السبيل تحت قيادة السيد أحمد السنوسي ، وهم الذين أصبحوا ضحية دسائس الألمان والأتراك ، قد ابتدأوا يعرفون خطأهم . وهم يأتون الينا وحدانا وجماعات يطلبون العفو عنهم والتودد الينا ، والحمدلله قد هزمنا القوات التي جمعها هؤلاء الدساسون ضدنا » .

** ومن هنا انطلقت صيحة : « عرب خيانات » واستغلها أتاتورك لقطع كل صلة بالعرب ودين العرب !! ولكن التاريخ يشهد أن الخيانة بدأت في اسطمبول .

المسلمين من رعايانا ، الى ايجاد قائد مسلم معترف به* ليعلن الثورة لحسابنا ضد الترك[7] » وهكذا كانت القاب الشريف ومنصبه ، خامة استطاع الانجليز تطويرها ، فهو شريف هاشمي ووالي مكة المكرمة ، وهي العناصر التي تجذب المسلم الاعجمي .. وكذلك جاء بيان اعلان الثورة منشوراً اسلاميا كاملا ، من ناحية الصياغة والشعارات ، ويحتج على سلب سلطات « السلطان » ومخالفة الحاكمين الاتراك لأحكام القرآن .. مما جعل الريحاني رغم حماسته للهاشميين والنهضة العربية ، يتساءل : ماذا يهمنا نحن العرب غير المسلمين من نهضة أساسها سورة البقرة .. وأي دخل لنا في ثورة أعلنت في ذلك السبيل** ولتلك الأسباب الدينية[8] » ؟!

وهذه غلطة بعض المسيحيين العرب توهم أن الغرب يهتم بهم أكثر من مصالحه عند المسلمين ، بل بعضهم يتصور أن الغرب يعادي المسلمين كرامة لهم .. أو أن الغربيين ينظرون الى المسيحي العربي كند لهم أو كأخ في الدين !

وقد حمل الأتراك ، الشريف ، مسئولية تعطيل الجهاد ، فقال جمال باشا في حفل تكريم رئيس مجلس « المبعوثان » العثماني ، التي أقيمت في دمشق (يناير ١٩١٧ ــ ١٣٣٥ هــ) :

« من المؤسف أن فردا دنيئا قد عطل الجهاد المقدس في صميم الأرض الاسلامية المقدسة ، حين حالف القوى المسيحية التي تسعى الى ابتزاز العالم الاسلامي ، واستلاب القسطنطينية عاصمته . »

أما ذلك الفرد الخسيس الذي دفعته الوقاحة لأن ينسب نفسه الى الرسول صلوات الله عليه وسلامه . فقد اضطر الدولة العثمانية ، الى أن توجه اليه قوة كان الأجدر أن توجه لضرب البريطانيين في القناة وتحرير القاهرة .

« ان هذا الخائن لم يقم بما قام به الا خدمة للبريطانيين ، ولكن هذا كله لن يحول بين الاسلام ، والنصر في النهاية . فأولئك الابطال الذين حموا القسطنطينية ، لن يحول هذا الفرد بينهم وبين اجتياز القناة ، واستئصال البريطانيين ، وجز رأس الدجال في مكة[9] » .

ومن الطبيعي أن يثور سؤال .. لماذا اختص الشريف بهذا النقد ، مع أنه لم يكن وحده الذي انضم للحلفاء ضد الأتراك ؟ ولقد أسهبنا في شرح موقف ابن سعود ، وكيف استطاع أن يفرض « حياده » على الانجليز ، فلم يطلق رصاصة واحدة ضد الأتراك

---

* حكاية قائد معترف به ، هذه ، قابلة للنقاش ، فالحقيقة أن الاعلام البريطاني هو الذي ضخم موضوع « الهاشمية » و « الأشراف » وأهمية أمير مكة !.. أما قبل ذلك فلم تكن لها أهمية تذكر عند العرب في قضايا السلطة .

وراجع فصل ثورة لورنس في كتابنا القومية والغزو الفكري الصادر عام ١٩٦٦ ــ ١٣٨٦ هــ .

** وكان منشور الاستقلال الذي أعلن به الملك حسين الثورة في ٢٧ يونيه ١٩١٦ ــ ٥ رمضان ١٣٣٤ قد جاء فيه : ان من جرائم الحكومة العثمانية « اصدار الأحكام التي فيها مخالفة صريحة لنصوص سورة البقرة » .

طوال سنوات الحرب . وربما يمكن اضافة عنصر آخر ، هو أن العرب أو المسلمين ، لم يثقوا أبدا في تجرد الأشراف ، أو اخلاصهم ، وخاصة أولاد الشريف حسين . فالشريف عين من قبل الترك ، وبناء على طلب استخدام قدمه للسلطان ، وأبدى همة واضحة في تدعيم دولة الاتحاديين الذين « خالفوا سورة البقرة » حتى لو صح قول الباب العالي عندما وقع فرمان تعيين الشريف في أول نوفمبر ١٩٠٨ ـ ١٣٢٦ هـ ـ « الآن ضاع الحجاز » ، الا أن الروايات الأخرى ، تشير الى أنه كان يفضله على مرشح لجنة الاتحاد التي اغتصبت السلطة من السلطان ، وكان يثق في اسلامه ، وقد اجتمع به وفاتحه بما يعانيه ، كمسلم عثمانلي فقال للشريف : « انه يخاف على مصيره ، ويتوقع حتى الاعدام ، وانه يشك في اتجاهات ونوايا القوى المعادية للاسلام التي تعمل خلال اللاجنة (لجنة الثورة التركية) وانه يرى تركيا تسقط في يد أعداء الاسلام . » وتأثر الشريف حسين ، فعرض على سلطانه أن يأتي للحجاز ومن هناك يشن المقاومة على لجنة الاتحاد والترقي . فقال السلطان : اجعل اتصالك بي مباشرة* » .

وقاد الشريف في عام ١٣٢٧ ـ ١٩١٠ حملة بنفسه ضد الادريسي عدو السلطنة ، ودخل أبها ، وخطب فيها قائلا للعرب المتمردين على السلطنة :

« أنتم تعرفون أنه لولا حماية الدولة التركية ، لهاجمتكم الذئاب ، كما تهاجم القطيع من الخراف . كيف أمكن خداعكم بواسطة هؤلاء الذين يهدفون لتدمير بلادنا . ألستم أحفاد أولئك الذين قال عنهم جدي النبي : « الحكمة يمانية ، والايمان يماني » . ابقوا في ظل العلم العثماني . فأنتم نيتكم سليمة ، ولا تعرفون عداوة الدول الاجنبية للاسلام[١٠] » . وبعد ادخال ابها في طاعة السلطان ، توجه في نفس السنة على رأس حملة أخرى الى الشعرا عند حدود نجد لاجبار ابن سعود على الاعتراف بالسلطنة . ويقول « منصف » الملك حسين : « ان الأتراك حركوا حسينا ضد ابن سعود ليثأروا من هزيمة القصيم ، فبعث الحسين يطالب ابن سعود بالضرائب المستحقة للدولة وأنه عين على القصيم مقابل مساعدة الحامية التركية في القصيم ، ولم ينفذ تعهده » . « ثم جرد عليه حملة بقيادة ابنه عبد الله لفرض الولاء للسلطان فخرج أهل نجد لمقاتلة « شيطان مكة الشايب[١١] » . وهزم عبد الله ، كعادته ، فجاء حسين لنجدته ، وأسعفه الحظ بأسر سعد شقيق ابن سعود وأحب اخوته اليه ، واشترط خضوع ابن سعود للأتراك والتعهد بدفع الجزية ، ستة آلاف جنيه ذهبا ! ولم تكن علاقة ابن سعود سيئة بالدولة ، بل كان قد حصل على لقب الباشاوية ودرجة الوزارة من خزينة الألقاب السلطانية ، وكانت صحف بغداد الخاضعة للرقابة العثمانية تمدحه وتصفه بالأمير الخطير والزعيم الكبير عبد العزيز باشا السعود ... فلم يكن الشريف بحاجة الى زرع العداء مع ابن سعود ، باظهار كل هذا الولاء للترك ! وحتى عام

---

* الملك حسين ومملكة الحجاز .

١٩١٥ ـ ١٣٣٣ هـ ، كان الشريف مواليا للأتراك ، وأولاده يعتبرون ضباطا في جيش السلطنة .

وحتى يناير ١٩١٥ (١٣٣٣ هـ) كان الملك حسين يستشير ابن سعود ماذا يفعل مع الأتراك . فقد كتب نائب الملك بالهند بتاريخ ١٢ فبراير ١٩١٥ (١٣٣٣ هـ) يقول : إن شكسبير أبلغه في ١٧ يناير بوصول رسول الى ابن سعود من شريف مكة ، وابنه الذي يعمل قائداً لقوات أبيه . ومع الرسول كتاب من عبد الله يفيد أنه وصل الى المدينة على عجل بناء على طلب الأتراك الذين يضغطون عليه لتعبئة قبائله وإعلان الحرب المقدسة . ولكنه قبل اتخاذ هذه الخطوة يريد معرفة آراء ابن سعود وموقفه .

« وقد استشار ابن سعود شكسبير فأقترح عليه أن يجيبه بأن مثل هذا العمل لن يثمر إلا إجراء انتقاميا من بريطانيا ضد مدينة « جدة » وشرح ابن سعود للشريف التاكتيك الذي سيتبعه ، وأكد له أن لا مصلحة في الانحياز للترك . وأرفق بالرسالة صوراً من رسالتنا لرؤساء الخليج ، وإعلاننا الخاص بالأماكن المقدسة ، وبياننا ضد الأتراك ، وهذه الاجراءات المتعاونة من ابن سعود*مفيدة جداً وأقصى ما يمكن توقعه منه في ظل غياب المعاهدة معه[١٢] » .

من هنا كان العرب يلتمسون العذر للامام يحيى وابن سعود اذا قاتلا الأتراك فهذا هو موقفهما قبل الحرب ، ولا أحد منهما يدين بامارته وإمامته لفرمان سلطاني فلما اختار الأول الحياد في معسكر الأتراك ، واختار الثاني الحياد في معسكر الأنجليز ، تفهم الناس موقفهما ، وهما اللذان تعرضا للغزو التركي ، فأكبروا هذا الموقف ، بعكس الحسين عندما انقلب على الأتراك على نحو صارخ ، فبدا موقفه يحمل طابع الغدر ، كما شكك ذلك في حقيقة دوافعه . وجاء توزيع العروش على أولاده دليل « قبضهم » ثمن « المؤامرة أو الخيانة » .. خاصة وأن توليتهم كانت مقترنة بقبول السيادة الاستعمارية . ويمكن القول إن عبد العزيز كان بعيداً عن الأضواء خلال الحرب ، وكان الأنجليز يحتاجون الى « أسطورة » الحسين أكثر من حاجتهم الى قتاله ، ولذلك صنعوا له شهرة فاقت وغطت على شهرة جميع الأمراء العرب[٣]م .. وبالتالي دفع الثمن !

وايضا فان العرب يؤمنون بأن لأم المخطىء الهبل ، وبينما توجت ثورة ابن سعود باقامة أول وآخر وحدة عربية ، وأول دولة عربية بالارادة العربية المنفردة فان ثورة الحسين قد انتهت بتقسيم الوطن العربي واحتلاله ، وإزالة عروبة فلسطين وحمل الحسين مسئولية ذلك كله ! بل واعترف هو بهذه المسئولية ، والاتهام ، فكتب لنائب الملك البريطاني في مصر يعتذر عن المطالب التي تقدم بها بخصوص استقلال البلاد

---

* كانت هذه آخر رسالة كتبها شكسبير .

العربية بأنه اراد : « صيانة العظمة البريطانية من الاستهداف لما سترمي به عكس مقاصدها ، وسلامتي من الاتهام بالتواطـؤ معهـا ضد الأسـاس المقصـود بالنهضة[١٣] » . وأقر أن عجزه عن تحصيل ما كان يؤمل من النتائج يحتم عليه الانسحاب من الأمر والتنازل عنه : « لأنه يجرده من ثقة أقرب الناس اليه[١٤] » وربما كان مؤلف « صقر الجزيرة » هو وحده الذي انفرد بالاشادة بانجازات ثورة الحسين ، بينما اقتصر جهد المؤرخين الهاشميين على الاعتذار بالطيبة وحسن النية ، وحتى الهاشميون أنفسهم قالوا : « كنا بدواً لا نفهم في السياسة » . ولذا يبدو عجيبا أن يقول مؤرخ « صقر الجزيرة » : « ونحن لا ننكر أن الحسين بقيامه ضد الترك وتضحيات أبنائه كونوا للعروبة مجداً جديداً ، ونهضوا بها نهضة مباركة ، وأيقظوها من سباتها العميق . ولكنه أخطأ في توجيه دفة السياسة والحكم الى شاطىء السلامة والأمان بعد أن صار ملكا ، وعجيب من الحسين الشجاع الداهية الذي فاوض كتشنر واستورز ومكماهون ببراعة وحذق ومهارة ، وخطط وحده للثورة على الترك بعقل ودهاء وعبقرية . ونجا من مكر ولاة الترك الذين كانوا معه ولديهم قوة حربية ضخمة بالنسبة له ، أن يفقد صفاته ومزاياه هذه في موقفه من ابن سعود ، ولو وفق توفيق ابن سعود لكان حقا ملك العرب الأكبر » .

حظوظ !

أقصد حظ الملك حسين الذي سخر له من يدافع عنه هذا الدفاع في بلاط ابن سعود ! ومن يتحسر على فشله أمام سيده ، بل ويتعجب ان يهزم هذا الداهية على يد مثل ابن سعود ؟!!

والحق أنه يصعب على من يطلع على حالة العرب في اعقاب الحرب العالمية الأولى أن يجد مجداً للعرب ، وقد أصبحوا كالقصاع يتداعى عليها الجياع ، ويقرر مصيرهم وترسم حدود أوطانهم ، وتحدد جنسياتهم بواسطة « الخواجات »[٤]م وفي باريس ولندن . أما القول بأن الأمة العربية كانت في سبات عميق وأيقظها لورنس عام ١٩١٦ ـ ١٣٣٤ هـ ، فهو إنكار لكل جهود وتضحيات الشعوب العربية من الحركة الوهابية وجهاد القواسم ، الى جهاد الليبيين ضد الطليان ، مروراً بالثورة العرابية والحزب الوطني ، ومقاومة الشعب الجزائري ثم المغربي .. وقبله ثورة السودان .. الخ . أما « اليقظة » العامة التي اجتاحت العالم العربي في العراق وسوريا وشرق الأردن وفلسطين بعد الحرب العالمية ، فكانت ثورة ضد « كل المجد » الذي أنزلته بهم النهضة المباركة ، وتضحيات أبناء الشريف الذين تولوا إخماد هذه اليقظة بمعونة الجندرمة البريطانية والفرنسية .

وعن « الدهاء والحذق والمهارة » نكتفي بما سجله ذات المؤلف من اعترافات الأشراف وفي مقدمتهم الملك حسين نفسه ، وكلها اعتذار بالسذاجة وجهل مكر الأوروبيين . ألم يعتذر الأمير علي بن الحسين (الذي أصبح ملكاً على الحجاز في الربع

ساعة الأخير) « لم نكن سوى بدو بسطاء لم يسبق لنا قبل الثورة أن دخلنا في الحياة الدولية أو عاملنا الأجانب أو اتصلنا بهم من قريب أو بعيد ، وقد جاءنا الأنجليز الى الحجاز ولم نذهب اليهم* . جاءونا بورقة بيضاء في ذيلها ختم الأمبراطورية ، وقالوا لنا ، هذه ورقة رسمية فأكتبوا فيها ما تشاءون ونحن مستعدون للتنفيذ والتلبية ، فصدقناهم ووثقنا بهم وقاتلنا في جانبهم ، ولكنهم ما لبثوا أن خانوا وغدروا بنا[١٥] » .

وقال راندال باكر « وفي اعتقادي أنه إذا كان الملك حسين مذنبا في شيء فهو أنه كان ساذجا لا يفهم سياسات القرن العشرين » ، وقال : « وأعتقد أنه كان يتلقى نصائح ضارة من ابنه الثاني عبد الله الذي في الحقيقة ، كان خلف كل الشطحات التي تنسب لأبيه . أما الملك فكان يتصرف بعقلية القرون الوسطى التي عرفها في البلاط العثماني باسطمبول ، وكان يؤمن بدبلوماسية الكلمة . الوعد والشرف وواجه بهذه الأساليب أوروبا التي كانت تخوض حربا لا تعترف باتفاقيات ولا حياد ولا ما شابه ذلك[١٦] » .

لم يكن للملك حسين في صراعه مع ابن سعود أي ميزة أو تفوق تبرر الدهشة لما نزل به من هزيمة ، هي كما قيل بحق : كانت محتومة ومطلوبة ، أما إذا كان الحديث عن الحظ والقسمة والنصيب ، فاننا نضيف حتى لو انتصر حسين على ابن سعود ، بمعجزة شيطانية ، فما كان ليكون أبدأ ملك العرب الأكبر ، ولا كان بوسعه أن يحتفظ بانتصاره هذا ، بل كان الأحرى أن تعود الجزيرة الى مرحلة التمزق ، ويتقزم الحجاز الى وضعية شرق الأردن فلا داعي للعجب ولا الدهشة . إن ما جرى ، هو إحدى التحولات النادرة في التاريخ العربي ، التي التقت فيها الحتمية التارخية مع إرادة الشعب العربي !

يقول راندل باكر الذي خصص كتابه « لانصاف » الملك حسين : « والرأي السائد عن حكومة الملك حسين انها كانت متهرئة ، فاسدة ، مرتشية ، غير عادلة ، لا تستحق بكل تأكيد أن تكون حامية الحرمين » . ويضيف : « ولا شك أن الأدلة متوفرة ، على أن الحسين كملك ، أثبت كفاءة أقل مما يجب بكثير ، فالحجاج كانوا يتعرضون للسطو والاستغلال من البدو الذين لم يكن الملك حسين يملك لا المال ولا القوة للسيطرة عليهم .

وبينما لم يشهد الحجاز أي تقدم في عهده ، فقد تنفس الصعداء بالاصلاحات الهائلة التي تمت بعد ضمه لمملكة ابن سعود عام ١٩٢٥ـ ١٩٢٦ (١٣٤٤ ـ ١٣٤٥ هـ) .

فالملك السعودي ، يذكر الناس بتسامحه وإدارته الحازمة معا ، بنقيضه الملك حسين الذي كانت تحكمه المزاجية والقسوة » « على أية حال ، لا مجال للشك في أن ضم السعوديين للحجاز كان عملا ضروريا ومطلوبا على الأقل من أجل الحجاج الذين طالت

* غير دقيق فقد ذهب عبد الله اليهم في القاهرة .

معاناتهم[17] »* .

عندما جرى « بوس اللحي » بين الملك عبد العزيز والملك فيصل ملك العراق على ظهر الباخرة لوبين، اعتذر الأخير عن كيد الهاشميين لابن سعود ، بأن السبب هو خالد بن لؤي ، فقال « إن كل ما جرى بيننا سببه خالد بن لؤي ، فقد قابلنا في جدة ، فور وصولنا من اسطمبول ، وقال لنا إذا أردتم تأسيس ملك الحجاز ، فلا يمكن قيام هذا الملك ، طالما بقي سلطان عبد العزيز بن سعود في نجد[18] » .

إن لم تكن وشاية أو دساً ، فالحق أن ابن لؤي صدقهم القول ، وأثبت أنه أكثر وعياً وأبعد نظراً ..

فمن ناحية ، هناك تناقض جوهري بين دعوى « الأشراف » أو الحق الموروث في حكم المسلمين ، حتى وان اضطر محمد بن عبد الوهاب الى الاقرار « بحقوقهم » تحت ضغط الحملة المسعورة ضده بأنه يعادي رسول الله وأهل البيت ، إلا أن محمد عبد الوهاب والسعوديين ما كانوا ليقروا الزعم الذي راج ، وروجه الأنجليز عن إيمان العرب بحق خاص للأشراف في الحكم .. وقد أنكروا ذلك على الحسين بن علي بن أبي طالب ! أفيعطونه للحسين بن علي بن عبد الله ؟!. فالوهابية لا تعتمد على النسب ، ولا هي قرشية ، بل إن يوميات ابن بشر تتحدث عن الحرب ضد « قريش »** !

ولكن بعض المؤرخين يقول ، بأنه كان من الممكن نسيان الماضي ، والتعايش بين الوهابية الجديدة ، ودولة الأشراف في الحجاز ، كما تعايشت دولة الوهابيين مع العراق والأردن وكان الحكم فيهما للأشراف .. ونحن لا نرى هذا الرأي ، فالدولة السعودية ، خاصة بعد ما بعث ابن سعود الجانب الحركي فيها ، ما كان يمكن أن تتوقف دون « الفتح » . أي فتح مكة .. بينما « ملك العرب » لم يكن يتصور تنازله عن خرمه وتربه !.

---

* قال تقرير القنصلية الامريكية في عدن ١٩٢٣/١١/٦ (١٣٤٢ هـ) : « إن جميع المثقفين الذين عادوا من الحج قالوا إن سوء الأحوال في حج عام ١٩٢٣ ــ ١٣٤٢ ، فاق كل الحدود ، وانهم سيعودون لبلادهم لشن حملة لوقف الحج « وملخص الرأي عندنا هو أن حكومة الملك حسين من الملك الى أصغر موظف هي شبكة فساد ، ولا أمل في اصلاح الحال . ورأي الناس فيه أنه كذاب سلاب قاتل » .
هذا رأي الأجانب فليجفف المؤرخ السعودي دموعه ! !

** من هنا كانت الدهشة من ظهور حركات في القرن الخامس عشر الهجري تطالب بعودة الأمامة لقريش . وفي اعتقادنا أن حديث « الامامة في قريش ما أقاموا الدين » أو هذا « الأمر لقريش ما أقاموا الدين » هو من احاديث النبوة وليس التشريع . مثل حديث « تنقسم أمتي الى ٧٣ فرقة » أو « لتتبعن حذوهم » ليس أمراً بأن ننقسم أو أن نرتد عن سنة رسول الله ! فالأمر كان لقريش بقانون العصبية الذي أشار اليه ابن خالدون وبحكم أسبقية المهاجرين للاسلام ، وليس بحكم الدم أو قانون القبيلة .. معاذ الله أن يكون الاسلام دين القبلية أو الحقوق الموروثة .

وقد استفتح حسين علاقته مع عبد العزيز بايواء أولاد عمومته المنشقين عليه ، وهم الذين يسميهم البدو « العرايف » . ثم أسر أو بالأحرى اشترى سعداً شقيق عبد العزيز الصغير (كان عمره وقت هذه الحادثة ١٧ سنة) من « العتوب » ، وكانوا قد أسروا سعداً غدراً ، ولو كان الموقف بالعكس لأعاد ابن سعود شقيق الشريف معززا مكرما محملا بالهدايا ، ولكن الشريف أراد ان يبيض وجهه عند الأتراك ، فسود وجهه عند السعوديين ، فقد ساوم عبد العزيز على أخيه ، مقابل الخضوع للأتراك ودفع جزية « لم يقبض منها مليما ، ولكنه لم يتوقف عن استفزاز عبد العزيز ، بايواء أقاربه المتمردين عليه ، وهكذا خلق عدوا له[19] » .

ولعل الريحاني كان أكثر فهما لأهداف الشريف ، وأنها لم تكن حبا في طاعة السلطان ، بل لاخضاع عبد العزيز وازعاجه ، قال الريحاني : « لم يكن الشريف يقصد من هذه الحرب ، بل هذه المناورات ، غير إزعاج ابن سعود وإكراهه في ما يريد، وقد كتب إليه ، وهو يفر ويكر من ماء الى ماء يؤكد ذلك : « إذا هجمت علينا تركنا لك المعسكر والخيام وعدنا بأخيك سعد الى مكة فيبقى عندنا الى أن تطلب الصلح » .

على أية حال إن قانون : « التاريخ في خدمة المبارك » جعل قضية سعد مفتاحا لكسب عظيم ، هو ذلك الأعجاب ، الذي دخل نفس خالد بن لؤي ، عند مفاوضته لابن سعود ، وكان بذرة نمت الى أن حانت اللحظة ، وانشق خالد عن الشريف ، وجاء الى ابن سعود[5م] ..

فقد أرسل الشريف حسين ، خالد بن لؤي ، أمير الخرمة ، وقتها ، للمفاوضة في تسليم سعد ، بشرط الاعتراف بسيادة الدولة على نجد ودفع الجزية ، مع أن ابن سعود كان ـ نظريا ـ يداين الحكومة العثمانية بمرتب والده !

أما مفاوضات ابن سعود وابن لؤي ، فهي صورة مكررة في تلك الملحمة ، التي يعاد تمثيلها بنفس الأسماء . فكما قال جد خالد بن لؤي لجد عبد العزيز[6م] ، فيصل بن تركي : الشريف (محمد بن عون) نيته حسنة ، وقد خدعه الناس ، ولكن أعطه صلحاً يبيض وجهه[20] . كذلك قال الحفيد للحفيد : الشريف حسين ، ليس له نية سيئة ولكنه يريد أن يبيض وجهه مع الترك ، فاكتب له ورقة تنفعه عند الترك ولا تضرك . وأنا أتكفل برجوع سعد ، وأتكفل بأن الشريف لا يتدخل في أمور نجد . واذا اعتدى عليك فأنا أعاهدك أن أكون معك ، كما كان أجدادي مع أجدادك » .

لابد أن ذكريات الأجداد ، حركت أشجان الأحفاد ، وزرعت الاعجاب المتبادل ، الذي سيكون عاملا من عوامل الاطاحة بحكم الشريف ، ودعم ابن سعود ببطل من أبطال « التوحيد » ، سيرفع راية البيت السعودي ، ويقاتل تحتها من خرمة الى نجران .

عاد خالد مجبور الخاطر بعد أن بيض ابن سعود وجهه هو ، بانجاح مسعاه ، وقبول مطلبه . وعرف ابن سعود الخبير بالرجال ، قيمة ابن لؤي ، وضعف ارتباطه بالشريف ، بل ضعف احترامه له ، وهو يتحدث عن مطالبه بهذه اللهجة التي تعكس

قناعته بتفاهة مطالبه !

كتب ابن سعود الورقة وعاد سعد من الأسر ، ودق مسمار في نعش العلاقة السعودية ـ الشريفية ... بعدما أثبت الشريف أنه لم يتعلم في اسطمبول إلا العادة العثمانية ، وهي استفزاز من لا يقدرون عليه ! أو كما قيل أعجل الناس الى الفتنة وأعجزهم عنها* !.. ولا داعي لتبديد الجهد في الدفاع عن موقف عبد العزيز ، فحتى ذلك الوقت ، لم يكن الولاء للدولة العثمانية ، أو الأعتراف بسيادتها ، قضية ذات بال ، فهو يوقع « خادم الملة والدولة والوطن » ، كما قلنا ، وهو يجتمع بممثليها ويناقش معهم وسائل النهوض والاصلاح . فابن سعود لم يقبل وضعاً لم يكن قائما ، ومصر في أزمة سيناء كانت جنودها تواجه القوات العثمانية ، وهي تابعة للسلطنة ، تعتـرف « بسيادة »الدولة العثمانية ، وتدفع الجزية لشركة بريطانية ، كان الباب العالي قد رهن جزية مصر عندها ، لسداد دين عثماني !

وابن صباح وقع مع الانجليز معاهدة حماية ، وترك ممثل بريطانيا يطرد الوفد العثماني من مجلسه تحت تهديد البوارج ، ويؤكد انه عثمانلي ويرفع الراية التركية !.. فحكاية « السيادة » العثمانية ، لم تكن ذات فعالية ، ولا يترتب عليها أية نتائج مادامت غير معززة « بمفرزة » تركية .. فلا داعي للاعتذار عن خطأ لم يقع .. ولم تترتب عليه أية نتائج .. وما كان يمكن أن تترتب ..

وبقيام الحرب وتدبير الأنجليز للثورة الشريفية ، واعلان الحسين نفسه ملكا للعرب ، تضخم حجمه ، في نظر نفسه وأولاده ـ إذ أصبح قائد النهضة العربية وملك البلاد العربية ، والمفاوض المعترف به باسم الأمة العربية . فزادت الهوة اتساعا بينه وبين ابن سعود الذي رفض من أول يوم الاعتراف باللقب . « ملك البلاد العربية » .

نام الملك حسين ، فوق أرجوحة العظمة التي نسجها له مكماهون ومكتب الشئون العربية في دار المندوب السامي بالقاهرة ، وراح يهزها له لورنس وهو جارت ، والموظفون الانكليز في جدة ، فلم ير في ابن سعود إلا بدويا متوحشا**، وحتى أواخر

---

* وقد بعث الشريف حسين ببرقية الى الباب العالي يهنئه باستسلام ابن سعود ، ونشرتها الأهرام ـ اكتوبر ١٩١٠ (١٣٢٨ هـ) .

أما التايمس فقالت : إن كل قبائل الصحراء خضعت للحكومة العثمانية بعد انتصار الحسين على ابن سعود ! ٦/ ١٠/ ١٩١٠: (١٣٢٨ هـ) .

** كان الأمير عبد الله اذا ما تحدث عن ابن سعود يضعه تحت بند : « المسائل البدوية لمشايخ العربان الذين كانت لهم صلات بالحكومة البريطانية منذ الحكم العثماني كابن صباح وابن سعود وغيرهما » (رسالة الى نائب الملك في مصر بتاريخ ٢٨/ ٤/ ١٩٢٠ ـ ١٣٣٨ هـ) .

وقد أنكر عبد الله أنه قال عن أحد من آل مقرن إنه من الخوارج ، ولكن الريحاني شهد بأنه قيل له في الحجاز وفي العراق : « ابن سعود بدوي جاهل . ابن سعود جلف لا قلب له ولا دين . هو من الخوارج . بل من الذين يخدعون وينافقون باسم الدين ، والاخوان رجاله ذئاب تعصب ضارية يذبحون ويحمدون الله . إن دعوة ابن سعود مذهبية لذلك لا تنجح خارج نجد ، لا أمن للجزيرة ولا راحة للعرب ، ومطامع ابن سعود تزداد يوما بعد يوم[٢١] » .

عام ١٩١٨ (١٣٣٧ هـ) . كان الملك حسين يشترط للوحدة ، تصفية ابن سعود للاخوان ، والتخلي للشريف عن حق التعامل مع الدول الأجنبية ، أي يصبح الشريف لابن سعود في مركز بريطانيا العظمى بالنسبة للمحميات* !

ولما تدفق الذهب الأنكليزي على الملك ، بعث ببعض القطرات الى ابن سعود ، ولكن بطريقة فجة ، تعلمها الشريف في اسطمبول ؛ إذ يأتي الرسول حاملا صرة بها خمسة الآف جنيه ذهباً بلا كتاب ولا عتاب . بل يقول « هذه من الملك » وينصرف . واستراب ابن سعود من الأمر فعقد ــ على عادته ــ مجلسا للاستشارة .. وقال أبوه .. إنما يريد الشريف منعنا من استغلال موقفه ضد الأتراك بضربه من الخلف .. فأراد اسكاتنا بالذهب وأيده الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ .. ولكن ابن سعود رأى أن يستثمر هذا الود المفاجىء ، لتحقيق تفاهم ، وذلك بحل قضية الحدود بين نجد والحجاز التي تسبب الصدام مع الأشراف .. فكتب الى الملك حسين يطلب رسم الحدود : « قد يكون حدث بيننا وبينكم سوء تفاهم في الماضي ، فلابد إذن من التفاهم والتأمينات . وذلك بأن تحدد الحدود بيننا وبينكم فتزول الشكوك . وتتضاعف من أهل نجد المساعدات » !.

ولكن عندما تتم المشيئة ، ويتحتم قيام دولة وانهيار اخرى ، فان التاريخ يتدخل لاصلاح أخطاء القوة الصاعدة ، فان الحاح ابن سعود على تحديد الحدود ، لم يكن لمصلحة السعوديين على المدى البعيد ، وإن بدا كذلك وقتها ، على ضوء توازن القوى المؤقت ، والذي كان يتحول بسرعة لصالح السعوديين بنمو قوة الاخوان ، ولذا فان القدر الذي ادخر دورا أكبر للسعوديين ، تدخل وقسا قلب الملك حسين (كما تقول التوراة على فرعون مصر) وجعله يرفض هذا العرض رفضا قبيحا : « إما أنك سكران يا ابن سعود ، وإما أنك مجنون ! أفلا تعلم لأي أمر قمنا وأي غرض نبغي ؟! » ولا يصعب علينا استنباط مغزى سؤال الشريف الاستنكاري ، فهو يقصد أنه قام من أجل توحيد البلاد العربية تحت عرشه ، مما لا يستقيم مع تخطيط الحدود داخل الجزيرة ، والاعتراف بانفصال ابن سعود .. أما حكاية السكر ، فرجال الشريف هم الذين سكروا بخمر الوعود البريطانية ، فرأوا كل القوى العربية الأخرى أشباحا زائلة تترنح وتوشك أن تقع ، وهكذا يرى السكران ما حوله ، وقد أكد السير برسي كوكس ، هذا المعنى لابن سعود ، عندما قال له ؛ تعليقا على هذا الخطاب العجيب : « لا تكترث بالشريف » !

وقد ظل ابن سعود يلح على الانجليز والشريف ، مطالبا بتخطيط الحدود مع الحجاز والشريف يرفض . ويقول فيلبي : « لو أن الشريف حسين قبل مطالب ابن سعود ، لتغير تاريخ الجزيرة ، ولكنه لم يكن يفكر إلا في هدف واحد هو تدمير الدولة الوهابية ، ولم يكن يدري أنه إنما يسعى جاهداً لتدمير دولته هو » .

---

* مشروع الوحدة الذي كان الريحاني يتنقل به بين الأمراء العرب في ١٧ صفر ١٣٣٧ ــ نوفمبر ١٩١٨ .

وسيظل الهاشميون يرفضون تخطيط الحدود حتى حصار جدة ، عندما يعطون العقبة ومعاناً للانجليز ! وليس صحيحاً أن موقفهم من عروض ابن سعود ، كان غباء أو مجرد تعنت ، بل محاولة للاستفادة من الدعم البريطاني لتدمير عدوهم ، الذي اقتنعوا بان الجزيرة لا تتسع لهما معا .

ولكن باشتراك الملك حسين في الجبهة المعادية للأتراك ، تحسنت العلاقات بين الرياض ومكة ، ويمكن ان نطلق على خريف ١٩١٦ (١٣٣٤/٣٥ هـ) والشتاء التالي له ، فصل « المجاملات » المتبادلة – اذا لم نشأ استخدام لفظة أكثر غلظة – بين ابن سعود من ناحية والشريف وأولاده من ناحية أخرى ، مع احتفاظ كل منهما بتحفظه ضد الآخر فعبد الله يكتب لامير نجد ، فيلقبه « بالامام » ويدعوه للاشتراك « في الجهاد الديني الذي لم يسبق له مثيل » ثم يضيف لكي لا يغضب الوهابي « في سني الاسلام الأخيرة » و « أنا ضامن لحضرة الأخ الامام كل مطاليبه فيما ينويه » .

ويرد عليه ابن سعود :

وقد عرفت حضرة سيدنا وسيد الجميع ، والآن أعرض لحضرتكم سبب عدم المباشرة لذلك (يقصد القتال) . ما يخفي حضرتكم ، والحمدلله ، اليوم اتسع ما أعطانا الله ، وهو بالاسم لنا ، وبالحقيقة نحن وهو ، لكم . ممالكنا وعرباننا – والحمدلله – كثير ، وشرهم بينهم كثير أيضا ، كل جهة فيها عدو . والله العظيم ، ان أخيكم على كثر ما أعطانا الله مجد ومجتهد في جهاد رعيته (!!) وكيف البعد عنهم وتركهم ينهب بعضهم البعض . وأيضا لابد من قوة تقابل ابن رشيد بأطراف القصيم ، ولا تحسب جوابي هذا دورة عذر أو طمع ، لا ورب البيت والذي بعث محمدا بالحق ، انما هو عجز (!!) وهو الحقيقة . »

عبد العزيز اختار الجهاد في البدو وابن رشيد ، أما الترك فعلى الأشراف والانجليز .. وهو يقدم عذرا لا يمكن دفعه : « العجز » !

وأطرف ما في رسالة عبد العزيز حتى وان كانت غلطة في التعبير أو غلطة مطبعية هو قوله : « اما اذا ترون مساعدة لنا سواء من سيادتكم أو من **المعلومين** نضبط بها داخليتنا ، ونتقوى بها على الجهاد « **على** » حضرتكم فذلك هو المطلوب* » . ويرد « سيد الجميع » مع صرة « بالمعلوم » من المعلومين ؛ والاعتذار بأن الحالة معلومة ! « المطلوب من ابي تركي ثباته على حسن الظن ، فانا ان شاء الله ، أصدق له من نفسه ، والمولى على ذلك رقيب ، والله ، ان هذه هي الظاهرة والباطنة ، وان لم نكن كذلك فنبرأ من الله ورسوله ، ولا والله القصد من هذا الاراحة خاطرك واشتغالك بالنوايب الحقيقية وتفرغك لها . هذه هي البلغة والقصد ، وحسبي على ذلك عالم الغيب والشهادة . ومرسل اليك مع حامله صرة جعلناها للاستعانة على النوايب تفيدنا

---

* ولا تخفي الغمزة التي في الرسالة وهي أن الشريف « يجاهد » بما يناله من مساعدات « المعلومين » أي الانجليز .

بوصولها . والصرة داخلها ألف جنيه* ، ولا مؤاخذة فان الحالة معلومة .. وما بغيتو من بندق وحتى ولو مدافع عرفونا ويجيك مطلوبك بتيسير الله ! »**

وهكذا استمرت المجاملات الشفهية ، والصرر التي كانت تقيد على حساب المعونة البريطانية ، كما تم اتفاق جنتلمان غير معلن ، بأن يسمى كل منهما نفسه كيفما شاء ويتفادى الآخر الاعتراف باللقب ، فالملك حسين يسمى نفسه شريف مكة وتوابعها ! أقصد : « شريف مكة وملك البلاد العربية » أما عبد العزيز فيرد عليه بطابور من الألقاب وألفاظ التكريم ، الا اللقب الذي يتحرق الشريف شوقا الى سماعه أو قراءته في رسالة من عبد العزيز .

« جناب الأجل الأمجد ، ذو المكارم العلية والشيم المرضية ، سليل السلالة الطاهرة الهاشمية ، حضرة سمو الفخامة والسيادة أمير مكة المكرمة وشريفها سيدنا ووالدنا المكرم ، الشريف حسين بن علي المفخم ، حرسه رب البرية ، وبلغه أمانيه الخيرية »

والشريف يتمنى لو أسقط ابن سعود كل هذه الألقاب ، بل لو كتب اليه رسالة أولها « الملعون عدو الله **ملك البلاد العربية** » لكان سروره لا يحد ، وفرحته لا توصف !..

وعبد العزيز يوقع رسائله خادم الدولة والملة والوطن أمير نجد ورئيس عشائرها » . أما الأشراف فيكتبون له : « الى حضرة الشهم الأوحد ، والهمام الأمجد الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل » . ولا سيرة لامارة نجد أو عشائرها*** !

ولا غرابة أن يكتب أمير نجد للشريف بهذا الأسلوب ، فقد رأينا نموذجا من رسائل مكماهون للشريف ، الا أن رسائل ابن سعود في تلك الفترة تصدم القارىء ، وتبدو غريبة عن لهجة وأسلوب السعوديين ـ وقتها ـ ولكنها كانت فترة شاذة ، فترة « تقية » والتقية ليست من الوهابية ، فلا عجب ان بدت شاذة وغريبة . ولكن الأكثر شذوذا هو الاصرار على اعتبار هذه « الانحرافات » عن المجرى الطبيعي للعلاقة ، هي الأساس وأن ما جرى بعد ذلك كان كارثة ! والا فأي موقف يثير العجب أكثر من أن يتحسر مؤرخ « سعودي » على ما جرى !.. ولولا ما جرى ما كان قد حصل على جنسيته ، ولا ألف كتابه !..

يقول متحسرا :

« ولو أن ما خلف من علاقتهما بنى على هذا الأساس من الاخلاص والولاء ، ودام ، لأصبح العرب ـ بفضل الله ثم بفضل ذلك ـ قوة عظيمة ، ولكن ذلك لم يدم ، واعتقد أن مفسدين ، أفسدوا ما بينهما فكان ما أصاب العرب الى يومهم[٢٢] هذا » .

---

* يبدو أن حكاية الخمسة الآف مبالغة من صحفي الفريكة أو أن ابن سعود خجل من ذكر المبلغ الحقيقي فضاعفه خمس مرات !

** كله من حساب الخواجا .

*** اللطيف أن مؤلف « صقر الجزيرة » قد فسر هذا التجاهل المتبادل ، بأنه : « دليل على حسن نياتهما » !

ولكل رأيه ونظرته للأمور ، ولكن كان على الكاتب أن يشرح لنا ماهو الشر الذي أصاب العرب الى يومهم هذا نتيجة خلاف ابن سعود والشريف حسين .. هل هو توحيد الجزيرة وقيام المملكة العربية السعودية ..؟!

عجبي !

ولكن المجاملات حبلها قصير ، وقد سجل تقرير بريطاني[٢٣] الآتي :

« بالنسبة لعلاقة ابن سعود مع الشريف . فمن جانب ابن سعود هناك شعور بالغيرة ، وتصميم على عدم الخضوع للشريف ، ومن جانب الشريف هناك رغبة في السيطرة على ابن سعود ، وتطلع ، لأن يعترف له ابن سعود بمكانته . وأنا أقدر وجهة نظر السير « مارك سايكس » في أنه من المستحسن جعل ابن سعود يعترف نوعا ما بمركز الشريف . ومن الناحية الأخرى ، أتعاطف مع ابن سعود في رفضه أي اعتراف من هذا النوع* . ويمكنك معالجة الموضوع بحذر لأنه باعتبارك تمثل الادارة المصرية ، فان ميولك ستكون مشبوهة عند ابن سعود ، وأعتقد أن أقصى ما يمكن الحصول عليه ، هو اقتناع ابن سعود بارسال مبعوث معك الى الشريف حسين أو الى الشريف عبدالله » .

وقد حاولت السلطات البريطانية منع الصدام الذي كان الطرفان يتحركان نحوه في خرمة وتربة . فأرسلوا بعثة تقصي حقائق من الانجليز العاملين في العراق ومصر ، ولكن الملك حسين منع القادمين من مصر** ؛ من تكملة الرحلة الى الرياض . ولما رد ابن سعود بارسال فيلبي من الرياض الى الطائف***، منعه الملك حسين من العودة الى نجد . وهكذا اقتصرت الاتصالات مع ابن سعود ــ كما أشرنا في فصل الانجليز ــ على فيلبي ، والميجر « كنليف أوين » والميجور « هاملتون » (الذي أصبح اللورد بلهافن) . وكانت مهمتهم شغل ابن سعود عن الملك حسين . وكتب فيلبي عن رحلته هذه يقول :

« عندما وصلت الى الرياض في ديسمبر ١٩١٧ ــ ١٣٣٦ هـ ، كان واضحا أن ابن سعود يتصرف بمزيج من الغيرة من الشريف ، والحذر من محاولته التصرف كسيد فعلي للبلاد العربية . الأمر الذي انعكس في اختياره اللقب : « ملك ديار العرب » . ولم يخف ابن سعود شكوكه في أن اختيار هذا اللقب انما تم بناء على اتفاق سري مع حكومة صاحب الجلالة (بريطانيا) . وخلال محادثاتي مع الشريف في جدة يناير ١٩١٨ ــ ١٣٣٦ هـ اقتنعت بأن شكوك ابن سعود في الشريف ، لا يعادلها الا كراهية الشريف لابن سعود ، فهو يعتبره العقبة الرئيسية في وجه طموحه للسيطرة على كل جزيرة العرب . وهذا صحيح بالنسبة للماضي والحاضر والمستقبل ، ولكن ألم يكن من الممكن أن يعترف ابن سعود باللقب ، خلال الحرب ، لو اتبع الشريف سياسة أكثر لينا مع ابن

---

* مع الاثنين ؟!

** مستر ستورز ومستر هوجارت

*** ديسمبر ١٩١٧ ــ ١٣٣٦ هـ

سعود ؟! » « ولكن الشريف اتبع سياسة تهديد ابن سعود بالسلاح ، واضعاف مركزه بتزويد قبائل نجد بالسلاح والمال كرشوة لاغرائهم بترك تحالفهم مع ابن سعود . وبهذا الأسلوب أثار غيرة ابن سعود ، وكراهيته المتقدة دائما ، أما القبائل التي كان يسلحها ويمولها ، فما أن تحصل من الشريف على المال والسلاح حتى تتجه الى ابن سعود ليوجهها حيث شاء[٢٤] » .

وكتب برسي كوكس في ٢٨ سبتمبر ١٩١٧ ـ ١٣٣٥ هـ يعلق على أنباء نقلها طبيب أمريكي من الرياض ، عن انتشار السخط على بريطانيا بين السعوديين بأن ابن سعود حانق لأنه لا يستطيع أن ينافس المال الذي ينفقه الشريف على القبائل من عطايانا (بريطانيا) الجزيلة » . وفي تقرير بريطاني نشر بالقاهرة أن « هوجارت » هرع الى الشريف ليهدىء روعه ويطيب خاطره ، حول ما أذاعه الروس البولشفيك عن سايكس ـ بيكو وتصريح بلفور ولكنه وجد الشريف لا يهتم الا بقضية ابن سعود وخرمة وتربة وقبائل العتوب ، ومن يحصل الزكاة منهم ! وكتب هوجارت بعد المقابلة : اذا كان الشريف قد ولد ليحكم كما يقال ، فهذا صحيح شرط ألا تتخطى دائرة حكمه مدى بصره* » !

ولكن في نهاية عام ١٩١٧ (١٣٣٦ هـ) وخلال عامي ١٩١٨ و ١٩١٩ (١٣٣٦ ، ١٣٣٧ هـ) كان الأشراف هم حجر الزاوية في سياسة بريطانيا في المنطقة ، سواء في عمليات غزو الشام ، أو لازعاج الفرنسيين واجبارهم على قبول تعديل اتفاقيات الحرب بما يرضي الأطماع البريطانية في الموصل وفلسطين .. « وعرف الشريف مكانه فتدلل » على حساب ابن سعود .. اختفت عبارات المجاملة وبدأت الرسائل الاستفزازية ، والتحرش بخرمة ، فالأمير عبدالله يكتب لابن سعود ، فيخلع على نفسه وعلى أبيه من الألقاب ما شاء : فهو عبدالله ابن أمير المؤمنين الحسين بن علي ، الذي هو بدوره ، صاحب الشوكة ، والذي « سيد الجميع » ! وهو أي عبدالله : « القائد العام للجيوش الشرقية الهاشمية » وخاتم عبدالله فيه ادعاء غير خفيف الظل فهو كالآتي : « قال انى عبدالله** .. وهو أي عبدالله : « لأهل نجد قبل أن ينزل أجداد عبد العزيز بها ، وهو من بني هاشم جده الرسول وعلي بن أبي طالب فلا يقعقع له بالشنان . » « وتقول اني لو التمس رجلا في نجد يرجح الحياة على الموت في سبيل الله لما أجده ، فكان الأوفق لهم اذن أن يأتوا ويجاهدوا الأتراك معنا عن بيت الله ومسجد رسوله حتى ينال الشهادة منهم من كتب له »*** !

وهو ذاهب « لتأديب العصاة » . ثم يطلب من ابن سعود تسريح الهجر ، ومقابل ذلك يعده بالعفو عن أهل نجد ، ويعد « بأن لا يمس أحداً من أهل نجد **بسوء** » !

---

* Arab Bulletin. Cairo No 74 December 24th 1917. P. 510 [٢٥]

** وتكملة الآية : « قال اني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً » (سورة مريم)

*** الظاهر أنه صدق نفسه !

وكانت هذه الرسالة المتغطرسة قد كتبت قبل ٢٤ ساعة من احتلاله تربة وذبح رجالها ، بتهمة أنهم من الخوارج ، وأيضا قبل ٤٨ ساعة ، من « السوء » الذي لا مثيل عليه الذي أنزله به أصدقاء أهل نجد أو سكان الهجر الذين كان يطالب بتسريحهم* ! اذ قضوا على « الجيوش الشرقية الهاشمية » في أقل من ساعة ، واضطروا قائدها العام الى الفرار بثياب النوم ، تاركا خلفه بقايا امرأة ، عثر فيلبي — ان كان صادقا — على قدمها عندما جاء يزور أرض الموقعة التي غيرت تاريخ الجزيرة .

ابن سعود كان صادقا في كل حرف كتبه للأشراف ، متواضعا ، جاداً كل الجد في وعده ووعيده ، بينما لم يكن لدى الأشراف الا أسلوب الاستفزاز والتعالى والغرور والعمى المطلق عن رؤية الحقائق .

قبل أن يأوي الأمير القائد العام للجيوش الشرقية ابن أمير المؤمنين ، الى فراشه ، بعث برسالة الى ابن سعود يقول فيها : « اخبر الخوارج ومن التف حولهم في القرنين بما جرى . قل لهم اننا سنكفيهم مؤونة القدوم الى تربة ، قل لهم ما جئنا تربة من أجل تربة والخرمة فقط .. سنصوم في الخرمة ان شاء الله ، وسنعيد عيد الأضحى في الاحساء[٢٦] » ..

ان الكريم اذا دعي استجاب .. وقد جاء اليه « الخوارج » وجعلوه هو وجيشه ضحية العيد ..

ومما يزيد موقف الأمير عبد الله سوءا أنه لم يكن يتكلم بهذه العنجهية عن ثقة بالنفس أو ايمان بروحية مقاتليه ، بل لأنه كان يعلم أنه حصل على اذن بريطاني بفتح خرمة وتربة ، وانتزاعها من ابن سعود ، فقد روى فيلبي : « استأذن الملك حسين بريطانيا في الاستيلاء على خرمة ، وطلب مباركتها .. وعقد اللورد كيرزن مؤتمراً من المشتغلين بالقضية العربية ، لبحث الوضع . وقرر المؤتمر بالاجماع ، أنه نظرا لحتمية انتصار قوات الشريف — الأحسن تدريبا ، وتجهيزاً — على المتطوعين الوهابيين مهما قيل عن تعصبهم الديني . فان من مصلحة بريطانيا دعم الجانب الشريفي ، وتأييد سياسة ضم خرمة كجزء من مملكة الحجاز ، شرط ألا يورط الحكومة البريطانية في مغامرات عسكرية بالصحراء . وعليه ؛ يسمح للشريف باتخاذ ما يراه من خطوات لتأكيد حقه في واحة الخرمة . كما تقرر ، ابلاغ ابن سعود بهذا القرار ، مع توجيه تحذير له بأن معارضته ، ستفقده حسن ظن بريطانيا ، وستؤدي الى قطع الاعانة الشهرية التي تقدمها له الحكومة البريطانية[٢٧] » .

---

* وكان ابن سعود لما بلغه زحف الأمير عبد الله في اتجاه تربة وخرمة كتب اليه الرسالة التالية ؛ نقلا عن مذكرات الأمير عبد الله :

« بلغني أنك جئت تجر الأطواب والعساكر تريدنا بنجد ، وحناما عندنا بنجد الا الرمق نتظلل به حنا وعولاتنا . فأنت أعلم أن أهل نجد كافة جاءوك يمشون ، مرتهم تسبق رجالهم . وأنا خرجت ونزلت الصخة . وعليه فأنت انكف لديرتك ، فان فعلت فأنا أمنع الاخوان ، وان لم تفعل فبصرك بنفسك . »

فالقائد العام للجيوش الشرقية ، كان يعرف أنه يحمل تفويضاً بريطانياً ، وأن خصمه يحمل انذاراً بريطانياً ، ومن معه بريطانيا لا يخاف الاخوان ، ويحق له ان يسميهم « بالخوارج » .. ولم يخطر بباله أن عبد العزيز سيضرب عرض الحائط بانذار بريطانيا وتهديدها ، وأن الاخوان الذين يحملون أمر الله ، لا يخافون بريطانيا ، ولا أتباعها .. من هنا كانت لهجته وهزيمته ..

وقد تمادى الشريف في استثمار الدعم البريطاني المطلق ، حتى انه كان يوجه « التماتوميات » لابن سعود . فقد عثر الزركلي على رسالة في الشعبة السياسية ، مما وقع في يد السعوديين عند الاستيلاء على جدة ، يقول فيها الشريف حسين لابنه عبد الله « وقد حررنا لصاحبك ابن سعود في هذه المرة ، تقريبا ، التماتوم »* .

أي انذار ولكن بلغة التايمس !

وتربة وخرمة قريتان أو واحتان تقعان على الحدود بين نجد والحجاز والحديث الذي اعتمد عليه السعوديون ، « من رأي حضننا فقد أنجد » أي من وصل الى جبل حضن فقد وصل الى نجد ، يمكن أن يفهم أيضا بالعكس فمن « رأى حضنا من ناحية نجد فقد أحجز » !..

المهم أنهما ككل قرى الحدود لهما وضع خاص ، فهي ان اعتبرت اقليميا في نجد ، الا أن حكامهما من الأشراف ، أي تعتبر سياسيا منتمية لأشراف مكة ! ولكن لعبة التوازن تجعل هؤلاء الأشراف أول من يبايع نجداً ، عندما يتصاعد نفوذ نجد ، من ناحية لأنهم أول من يتعرض لزحف نجد ، ومن ناحية أخرى لموازنة ضغوط « الأشراف » في مكة . وقد بايعت خرمة في عهد سعود الكبير ، وأعفاها من الضرائب . ومع صعود نجم نجد مرة أخرى في عهد عبد العزيز انضم خالد بن لؤى أمير الخرمة الى الوهابية الجديدة ، أو قل جدد وهابيته القديمة . والقصص المتعددة حول أسباب انشقاق ابن لؤى ، كلها لا أهمية لها ، فابن لؤى كان سينضم لابن سعود حتى ولو سمح له الشريف عبد الله بأن يلطمه .. فالتاريخ مولع بتكرار نفسه في تلك المنطقة وبنفس الأسماء !..

وقد بدأ الاشتباك الأول بتعيين الأمير عبد الله قاضيا ــ من طرفه ــ لخرمة في عام ١٩١٧ ــ ١٣٣٥ هــ ، فرفض خالد بن لؤى الأمير ، القرار باعتباره يعني قبول سيادة الشريف من ناحية ، ومن ناحية اخرى لأن أهالي خرمة « متدينة » وهابيون ، ومن ثم فلا بد لهم من قاض « متدين » ، ورفض ابن لؤى السماح لقاضي الأشراف بدخول المدينة ، وتحركت قوات الشريف لفرضه ، فهزمت أربع مرات متوالية وخلال ذلك ــ كما يقول فيلبي الذي كان بالرياض ــ تعالت أصوات الحرب في الرياض ، وتحمس الاخوان مطالبين بنجدة اخوانهم في الدين ، حتى شمل الحماس الامام عبد الرحمن نفسه (والد عبد العزيز) ، ولكن عبد العزيز الذي لم يقلل من خطورة الأمر في حديثه معي ، قاوم

---

* رسالة بتاريخ ٣٠ رجب ١٣٣٦ ــ ١١ ابريل ١٩١٨[٢٨] .

الضغط عليه ، واستدعى مقاتلي الغطغط ، وبعث بهم مع تركي (ابنه البكر) للحرب ضد شمر .. بينما كتب الى خالد بن لؤى ، بناء على طلبي ، يؤكد له أنه سيبحث الموضوع مع الحكومة البريطانية* .

« وفي يوليو هاجم الأشراف خرمة مرة أخرى ، فأبيدوا . وأبلغ الأمر لابن سعود في رسالة من ابن لؤى . ألح فيها على طلب المساعدة ، وهدد بارسال النساء والاطفال لتحريك عواطف قبائل نجد . ولم يكن هناك مجال للشك في أن القبائل الجنوبية كانت مستعدة لنجدة خرمة ، بينما المسئولون الأتراك يراقبون الوضع باهتمام .

« وقد ركزت جهودي على اشغال ابن سعود بالحرب ضد شمر ، لكي أصرف انتباهه عن خرمة ، ولضمان اشغال جانب كبير من قواته ، ولكنه كتب لخالد يؤكد له أنه لو وقع هجوم ثالث فلا بد أن يتدخل** » ولم يكن لدى ما أفعله سوى أن أؤكد لابن سعود ، أن الحكومة البريطانية لن تسمح باعتداء على سيادة أراضيه ، وقد ذهب ابن سعود الى حد قبول تحكيم بريطانيا ، مع التعهد مقدما بقبول ما تحكم به . وقد طلبت تسوية للحدود ، واذا كان ذلك مستحيلا في ظروف الحرب ، فتوضع حدود مؤقته ! »

ومن العجيب أنه بينما رأت الامبراطورية البريطانية حماية الشريف من ابن سعود بشغل الأخير بالحملة على حايل ، أو تجديد الحرب مع ابن رشيد ، اذ بالشريف يطلب من بريطانيا ، الغاء هذه الحملة ، ويظفر بما أراد ، فيتفرغ ابن سعود لبراقش التي جنت على نفسها !

فقد جاء في رسالة المندوب السامي البريطاني وينغت الى الملك حسين : « لقد اشترطنا على ابن سعود بناء على اقتراحك ، الغاء حملته على ابن رشيد الموالي للترك ، مقابل تلبية طلبه للسلاح ، تلك الحملة التى كان قد شنها بناء على اقتراحنا »[٢٩]

ويقول فيلبي ساخراً : « ولكن الشريف رفض التحكيم في قضية « الحق فيها واضح » وتبنت الحكومة البريطانية موقف الشريف القائل بأن هدفه هو تأديب أمير

---

* وفعلا كتب ابن سعود الى المقيم البريطاني في جدة يعرض قبول تحكيم بريطانيا في موضوع خرمة وتربة . ولكن الانجليز كانوا قد قرروا دعم استيلاء الأشراف على خرمة وقد كتب « وينغت » من القاهرة يقول : « أعتقد أن الملك حسين بعد انهاء حصار المدينة سيقوم بالهجوم على خرمة واحتلالها . ولمنع ابن سعود من اثارة شغب حول الموضوع ، يستحسن افهامه أننا لا نعارض تحركات الأشراف في خرمة ، وأن يتم ذلك بدون تأخير . والمعلومات التي وردت في برقيتي السابقة تؤكد احتمال تآمر ابن سعود مع فخري باشا (قائد المدينة التركي) ، والآن وقد فقد الأمل في مساعدته فلعله يظهر الطاعة » .

وأيد المكتب الهندي موقف المكتب المصري وقال « ان ابن سعود لا بد أن يضبط أعصابه ، وحتى اذا لم يفعل فلا يتوقع نتائج خطيرة لاستيلاء الشريف على خرمة وتربة » يناير ١٩١٩ ــ ١٣٣٧ هــ .

** الا يحق لنا الشك في أن مهمة فيلبي أو حملة حايل ، كانت تهدف إلى تسهيل استيلاء الشريف على خرمة تنفيذاً لقرار اللورد كيرزن . وذلك بنقل قوات السعوديين الى أقصى الشمال عند حايل بينما يهجم الأشراف على خرمة ؟!

الخرمة المتمرد ، وليس في نيته القيام بأي عمل عدائي شرق الخرمة ضد ابن سعود » .

وبعد انتصارات الخرمة المتكررة اطمأن ابن سعود ، ولم يفكر في مواجهة مع البريطانيين من خلال التصعيد ضد الشريف ، بل يقول فيلبي « ان ابن سعود كف يده طويلا ، رغم استفزاز الأشراف ، بل عرض غصن الزيتون في خطاب كتبه بناء على اقتراحي ، وضد رأيه الذي تبين سداده فيما بعد . فقد أعيد هذا الخطاب دون أن يفتح ، كما أهين الرسول وأسمع كلمات سب في ابن سعود »[٣٠] مما جعل المعتمد البريطاني في مصر يكتب له قائلا : « انني لا أصدق هذا الخبر » وبالبرود الانجليزي ذكره غامزا : « انه وان كان ابن سعود أقل شأنا من جلالتكم وأضعف مواردا ، الا أنه لا يمكن أن ينكر أحد أنه ذو تأثير وأهمية في السياسة العربية »[٣١] .

وقد استعرض المكتب الهندي في تقرير وضعه بتاريخ ٧ يناير ١٩١٩ (١٣٣٧ هـ) الخلاف حول خرمة وتربة ، ومساعي الأشراف لاقناع الانجليز ـ (الراغبين في الاقتناع) بمشروعية الاستيلاء الشريفي عليهما فقال التقرير :

« خلال زيارة الشريف فيصل ابن الملك حسين لمكتب الهند (١٩١٨/١٢/٢٧ ـ ١٣٣٧ هـ) شرح طبيعة الحركة الوهابية التي يعتبر ابن سعود رئيسها وقائدها الروحي فقال: انه من ناحية العقيدة، لا اعتراض له على الوهابية، ولكنها ـ أي الوهابية* ـ حركة توسعية ، مجندة لخدمة أهداف سياسية ، والوهابيون متعصبون ضد كل من ليس وهابيا ، فمثلا لو امتلكوا الأماكن المقدسة ، لمنعوا الحج عن كل من ليس وهابيا . ولطالما ظل الوهابيون في نجد فان أحداً في الحجاز ، لا يريد التدخل فيهم ، ولكن لا يمكن التغاضي عن ظهورها في المناطق العامرة ، غرب الصحراء . وهذه هي أهمية مسألة « خرمة » ، لأن خرمة هي أول قرية غرب الصحراء ، وطالما ظلت تحت نفوذ ابن سعود فستشكل نقطة وثوب على المنطقة العامرة . وقد عبر الشريف عن تصميمه على طرد الاخوان ، (أي المقاتلين الوهابيين) من القرية واقترح أن يفعل ذلك في المستقبل القريب بقوة السلاح ، وسيقود هو الحملة شخصيا . ولا **يتوقع أية صعوبة في تنفيذها . والقضية تافهة بحيث لا تحتاج لأية ترتيبات** من قبل حكومة صاحب الجلالة (البريطاني) . وسيكتفي باعادة الوهابيين الى الصحراء ، وليس لديه أية نية لمواصلة الزحف في بلاد ابن سعود** . « وهناك بديل واحد ـ كما قال ـ هو أن يختار أهل الحجاز ، الوهابية ، وهو مستعد لقبول هذا الوضع اذا أرادت الحكومة

---

* وهذا يتفق مع نظرية كتابنا هذا ، فالوهابية من الناحية العقائدية لم تضف جديدا ، وما كان لها أن تضيف ، وانما الجانب الحركي فيها هو الذي أعطاها طابعها الخاص وأثار حماسة المؤيدين ورعب غيرهم !

** هذا تواضع كبير . وهو أيضا يؤكد أن الأشراف في تلك الفترة كانوا سكارى بخمر التحالف ، والانتصارات التي دبرت لهم .. وكانوا بحاجة الى جرعة قوية مقيئة ، على يد ابن بجاد ولؤى ، وبقية زجال ابن سعود ، لكي يفيقوا .

البريطانية . ولكن هذا يعني منع الحج عن غير الوهابيين في المستقبل » . ورغم هذا الاعتراف الواضح بالأهداف العدوانية والتوسعية على لسان الشريف فيصل بتصميمه على « طرد » الاخوان من تربة وخرمة .. فان نفس التقرير يكشف تحيز الانجليز ، وخاصة المكتب العربي بالقاهرة فيقول :

« في ٢٦ نوفمبر ١٩١٨ (١٣٣٧ هـ) أبرق السير « وينغت » ان الأهداف العدوانية لابن سعود تجددت في الحجاز ، وأنه طبقا لمعلومات القيادة العسكرية الشريفية ، فان الاخوان في خرمة قد عززوا بأربعمائة وخمسين راكبا .

« وبعد أيام قليلة أبلغ الملك حسين أن الاخوان هاجموا ونهبوا قاعدة رئيسية لتموين القوات الحجازية في الدغدية ٤٥ ميلا شمال الطائف . وقال الملك (حسين) : ان هذه الاعتداءات القريبة من عاصمته يمكن أن تثير أزمة ، وأن الحل الوحيد هو انذار بريطاني للاخوان بالاختفاء خلال ٣٥ يوما (!!) وقال الملك حسين في تقرير آخر ان قوات الاخوان تحت قيادة سلطان بن بجاد ــ الذي يبدو أنه ممثل ابن سعود في شئون المقاتلين الوهابيين ــ تتقدم نحو مكة . وقد علق السير وينغت* على هذه الأنباء بقوله : « لم يعد هناك شك بعد الدغدية ، في أن الاخوان قد تبنوا سياسة عدوانية . ويشكلون خطراً على سلامة مكة ، وأوصى بارسال تعليمات باسم صاحب الجلالة (بريطانيا) لابن سعود لسحب جميع الاخوان المقاتلين من المنطقة ، مع التوضيح بأن عدم تنفيذ ذلك الأمر أو التأخر في تنفيذه ، سيتبعه فرض عقوبات مثل قطع المعونة واغلاق الأسواق ــ ثم أشارت التقارير الى تقدم الاخوان لمسافة عشرين ميلا من الطائف .

« قررت الحكومة البريطانية في ١٣ ديسمبر تحذير ابن سعود بصراحة أنه اذا لم يتخل ويأمر أتباعه بالتخلي عن الأعمال العدوانية ، ضد الحجاز ، وسحب جميع الاخوان المقاتلين من غرب خرمة ، فستقطع عنه المعونة ، وسنرى أنفسنا أحرارا في اتخاذ الاجراءات اللازمة لحماية السلام في وسط الجزيرة » واقترح أن تسلم له هذه الرسالة بواسطة الكولونيل ولسن من جدة . ولكن الاقتراح لم يعجب سير وينغت ، فسقط ، وأعطيت التعليمات بارسال الرسالة من جانب المكتب العراقي .

« وقال الكولونيل ولسن ان المواجهة محتومة ، ما لم ينسحب الاخوان من خرمة ، وانتهى احتلال ابن سعود لها بواسطتهم . » ولكن فيلبي الذي كان قد أصيب بالمس السعودي ، وتحول بدوره الى ممثل أمير نجد في بلاط صاحب الجلالة ملك بريطانيا وليس العكس فقد كتب يقول : « لا بد أن تتدخل الحكومة البريطانية لتمنع الشريف من مواصلة اعتدائه ، أو أن تعترف نهائيا بسيادة ابن سعود على خرمة[٣٢] » .

ويمضي التقرير البريطاني قائلا :

« ورغم الخلاف بين ولسون وفيلبي ، فهما متفقان في نقطة واحدة ، وهي أنه في

---

* ارجع لتقرير وينغت الذي قال فيه ان السيطرة على دولة الحسين العلمانية أسهل من السيطرة على ابن سعود باخوانه المتعصبين .

حالة فشل تدخل بريطانيا ، فان صراعا مسلحا يصبح محتوما ، والسؤال هو .. اذا كان هذا الرأى صحيحا فهل نحن ملزمون بالتدخل أم نترك الأمور تجري في أعنتها ؟!

« بداهة نحن غير معنيين بالصراعات الداخلية في وسط الجزيرة ولا بالحوار الطائفي في الاسلام . وكون أطراف النزاع لهم علاقات معنا ، لا يشكل عنصرا مهما ، لأننا غير ملزمين مع أي طرف بدعمه في صراعه مع منافسيه العرب . حقا اننا لا يمكن أن نسمح باحتلال وهابي لمكة ، لأن ذلك **لن يكون فقط ضربة قاضية لمكانتنا في الشرق** ، بل أيضا سيفضي الى مصاعب لا حد لها في مسألة الحجاج . ولكن المكتب العسكري بحث فعلا مسألة مساعدة الملك حسين للدفاع عن عاصمته . وقد طرح اقتراح بارسال قوات « محمدية » الى مكة ، ولكنه كان اقتراحا غير مرغوب فيه ، وعدل عنه بارسال معدات وأسلحة للملك . « على أية حال بالنسبة لمكة والحجاز عموما فان القضية قد تمت معالجتها بالانذار الذي أقرته حكومة صاحب الجلالة » .

« والسؤال هو : هل حان الوقت للاصرار على تسوية ؟.. اذ لا بد من اعطاء خرمة لأحد الطرفين ، أو تركهما يتقاتلان عليها ، مكتفين بانذارنا لابن سعود بألا يتخطى خرمة غربا ؟ ان تقارير موظفينا متناقضة ، لدرجة تجعل من المستحيل على حكومة صاحب الجلالة تقرير من هو صاحب الحق . وقد حذرنا السير وينغت بأن الملك حسين يتنازل عن العرش ، ولا يقبل تسليم خرمة لابن سعود . وفيصل ابنه أوضح بجلاء أنه لن يقبل سيطرة وهابية على المنطقة . ومن ناحية أخرى اذا كانت تقارير مستر فيلبي دقيقة (لاحظ « **اذا** » هذه ، فقد أصبح هو بدوره متهما بالتحيز لابن سعود) . فان سكان خرمة قد اعتنقوا الوهابية ، وانضموا لابن سعود بارادتهم الحرة . ولذا فان اجبارهم على التخلي عنها ، أو اجلائهم سيكون عملا غير سار يتضمن اضطهادا دينيا .

« ان قيام حرب أهلية بين اثنين من كبار « محمياتنا » لن يفيد سمعتنا أو يقوى مطلبنا لدى مؤتمر السلام ، باعطائنا « الانتداب » على الشئون العربية . وهناك احتمال كبير بأن الحرب لن تقتصر على خرمة ، بل قد تمتد الى أراضي ابن سعود التي التزمنا بحماية استقلالها أو يزحف ابن سعود الى الحجاز . ولذلك يجب أن نمارس ضغوطنا الدبلوماسية ونقطع المعونة عن المعاكس » .

« المطلوب الآن هو تقديم الانذار الذي تقرر تقديمه لابن سعود بواسطة الكابتن براى ــ ضابط بالجيش الهندي ومنتدب في مهمة خاصة بالحجاز ومعروف للسلطات في مصر ــ بدون ضجة .

ولا داعي للالحاح على جلاء أتباع ابن سعود من خرمة ذاتها . » « كما لا يطلب من الملك حسين قبول أية حدود تجعل خرمة من حصة ابن سعود ، يكفي أن يعرض عليه الانذار الذي سيقدم لابن سعود ، ويفهم أن ازالة الاخوان من غرب الخرمة ، ستؤمن الحجاز ، وأننا لا نريد بحث وضعية المنطقة ، بل نطلب منه الصبر الى أن يحين الوقت المناسب للتسوية النهائية . »

« هذا بالطبع حل وسط ، ولكنه كسب للوقت ، ويزيل الخطر الداهم وهو تقدم

الوهابيين نحو مكة ، ومن الصعب تصور عدم تقدير ابن سعود للوضع الحاضر ، وضرورة العمل على تحقيق تهدئة . وعلينا أن نضع في اعتبارنا أنه حتى اذا لم ننجح في تجنب الصدام ، فان النتائج لن تكون خطيرة كما تبدو ، فحروب العرب ليست لها نتائج حاسمة ، وأقرب مثال صراع ابن سعود وابن رشيد . وحتى لو عاد فيصل وقاد جنوده المدربين في الحرب ضد الترك ، وطرد الاخوان من خرمة ، فلماذا لا نتقبل عندئذ الأمر الواقع ؟.. على أية حال نحن لا نستطيع أن نمنع ذلك[٣٣] » .

ولا فعله ولله الحمد !

وقد زعم لورنس في تقريره أن اتفاقية ١٩١٠ (١٣٢٨هـ) بين ابن سعود والشريف تعترف بحجازية خرمة ، فانبرى له فيلبي مفندا ذلك ، مؤكداً أن إمارة خالد بن لؤي ترجع إلى قرار من فيصل بن تركي ومن يقرأ مذكرة فيلبي ، يجد أنها لا تزيد عن مذكرة يكتبها مستشار لابن سعود !

كما نلاحظ أن المكتب الهندي ، نفسه ، وليس فقط المكتب المصري ، كان يتوقع انتصار جيش فيصل « المدرب واحتلاله خرمة » واستعداد الانجليز لقبول هذا الأمر الواقع على حساب ابن سعود ، بل الايحاء به .

وفي مارس ١٩١٩ (١٣٣٧هـ) عقد مؤتمر لبحث الوضع في الجزيرة برئاسة كرزون ، الذي قال : « إن سياسة الحسين هي سياسة بريطانيا » معبرا بذلك عن قناعة المسئولين البريطانيين ، الذين قالوا إن حسينا يتفوق عسكريا على ابن سعود ، ومن ثم فتأييده لن « يورطنا في مغامرات عسكرية في داخل الجزيرة » .

وفي إبريل وضع لورنس استراتيجية لمواجهة ابن سعود فقال : اذا احتل ابن سعود مكة ، فليس أمامنا الا أحد أمرين : إن قبل التخلي عن وهابيته ، فلا بأس ، ولا داعي للاهتمام به . وان أصر عليها ، نرسل قواتنا المسلمة الهندية لاستعادة مكة وتحطيم الحركة الوهابية ، وزعم أنه عرض في الكريسماس من العام الماضي (ديسمبر ١٩١٨ ــ ١٣٣٧هـ) أن ينفذ هذه العملية* بعشر دبابات[٣٤] » .

وفي التاسع والعشرين من نفس الشهر (ابريل ١٩١٩ ــ ١٣٣٧هـ) كتب ابن سعود الذي تلقى كل هذه الانذارات من الانجليز ولم يعد يشك أي معسكر قد اختاروا ، كتب لهم عن تحرك الامير عبد الله من المدينة بالجنود الاتراك والأسلحة . وأن الشريف حسين غادر مكة وانضم الى عبد الله ، مسلحين بمدافع ميدان ، ومدافع أتوماتيكية ، ومعدات عسكرية وقال :

« زمن الحرب ، تركنا الأمور كما هي ، وتنازلنا عن الكثير من حقوقنا . ولكن الآن ، لا عذر للحكومة البريطانية ، اذا كان الشريف يطيع أوامر حكومتكم فأنا مستعد لقبول تسوية للنزاع في ضوء الحق الواضح وضوح الشمس » « أرجو أن تفصلوا بيننا عن

---

* أفلت لورنس والله من يد ابن بجاد ، والا لو نفذ اقتراحه وجاء بدبابته لشفاه جند ابن سعود من علله الكثيرة ... !

طريق التحكيم في ضوء الحقوق المقررة . فاذا كان معتديا ، يمكنكم ايقافه ، واذا كنت أنا المعتدي فأوقفوني » .

« أما إذا كان هذا الشريف خارج طوعكم ، وليست لديه رغبة في سماع نصحكم ، وهذا هو موقفكم النهائي ، فأنا عندئذ سأدافع عن قبائلي وحقوقي ، والعاصي يتحمل المسئولية .

« أمل أن أتسلم ردا عاجلا ، فاذا كان الشريف يريد الطاعة ، فليبق في مدينته ، وسنفعل نحن نفس الشيء . ونلجأ إليكم لحسم الأمر . وإذا بقى حيث هو فالأمور ستتدهور وستفضي الى وخيم العواقب* » .

ولكن بريطانيا كما قلنا ، كانت قد قررت أن جيش الشريف « قاهر الترك » ومحرر سوريا وفلسطين .. قادر على قهر سلطان بن بجاد ، فدخل الأمير عبد الله تربة في ٢١ مايو ١٩١٩ - ١٣٣٧هـ ، ونفذ ابن سعود وعده ، وتوجه بقواته لمساعدة أهالي تربة ، ولكن قبل أن يصل بيومين** كانت قوات الاخوان قد احتطبت جيش الاشراف٣٧ ، وفر عبد الله كما هو معروف ، ولم يكن امام ابن سعود من مهمة عندما وصل ، الا اعلان ضم تربة الى سيادة نجد .. ووضع الانجليز امام أمر واقع يختلف تماما عما توقعوه وسعوا اليه .

وقال فيلبي أن كيرزن دعا فوراً لعقد اجتماع آخر لبحث الوضع الجديد ، بعدما انهارت كل التقديرات عن قوة ابن سعود والشريف ، وقد صدر الأمر فعلا إلى السير « أرنولد ولسن » المعتمد البريطاني في العراق لقطع المعونة عن عبد العزيز ، ولكنه أي المعتمد فضل ان « يطنش » على الخبر*** . ولمواجهة الوضع بعد الفزع الذي اجتاح مكة وجدة ، بوصول الاخوان ، الوهابيين ، « أرسلت ست طائرات بريطانية الى جدة ، في تهديد واضح بالتدخل » ، كما أرسل أنذار أو « التماتيوم » أصلي من « المعلومين » يقول :

« أمرتني حكومة جلالة الملك أن أبلغكم بأن تعودوا الى نجد حالما يصل إلى يدكم

---

* ٢٩ إبريل ١٩١٩ - ١٣٣٧هـ

** وقد قيل أن الأمير عبد الله قائد الحملة الهاشمية قد فر بثياب النوم »٣٥ وكان ذلك يوم ٢٥ مايو ١٩١٩ (١٣٣٧ هـ) .

وقال شاعر السعوديين :

إن الحسين الذي أبدى عداوته	للمسلمين رأى عقبى الوغى ترحا
أزجى الجموع وغرته مكائنه	فباء بالذل مخذولا ومكتسحا
أتاه قوم إذا اشتد اللقا صبر	لا يألون شواظ الحرب إن لفحا٣٦

*** ولكن هو نفسه كتب يقول : « يجب أن نضع في اعتبارنا أن ابن سعود لا يدين لنا بمركزه ، بل لنسبه ودينه وموقعه الجغرافي وشخصيته . ولذا أرى أن نكون حريصين على عدم التورط في عداوته هو وأتباعه » برقية بتاريخ ١٩١٩/٦/١٤ (١٣٣٧ هـ) .

نحن لم نصنعه ولذا لا نستطيع تخويفه أو توجيهه !

كتابي هذا وتتركوا تربة والخرمة منطقة غير مملوكة حتى مفاوضات عقد الصلح وتحديد الحدود ، وإذا أبيتم الرجوع بعد الاطلاع على هذا الكتاب ، فحكومة جلالة الملك تعد كل معاهدة بينكم ، وبينها ملغية ، وتتخذ ما يلزم من التدابير ضد حركاتكم العدائية . وبالعكس فهي تقدر عملكم إذا عدتم ، وتعتبر أنكم قمتم بحقوق الود والولاء ، وأخذتم بنصائحها الودية ، لأنها تعد الجميع أصدقاء لها . وهي تأسف أشد الأسف ، لما وقع بين أصدقائها سواء أكان النصر في جانبكم أو في جانب الحسين » .

ويقول العطار إن صقر الجزيرة « ما أن فرغ من تلاوة الخطاب حتى نادى في قومه بالرحيل » ! أما حافظ وهبة فقال : إن الانذار أرسل يوم ١٩١٩/٦/٤ (١٣٣٧هـ) ، فلم يسعه إلا الرجوع الى نجد لأنه ، وهو الرجل العاقل البعيد النظر لم ير من مصلحته الدخول في مخاصمة مع الحكومة البريطانية » .

ونحن نأخذ برواية فيلبي القائلة بأن حامل الانذار وصل بعد « أن انسحب ابن سعود عائداً الى الرياض ، ولكن بعد أن أعلن ضم تربة وخرمة » .

لم يكن ابن سعود على استعداد للمضي أبعد من ذلك وابن رشيد وراء ظهره ، وبريطانيا العظمى مصممة على منعه ، ولكنه أيضا لم يرتعد أمام الانذار ويضيع انتصار جنده ، فقد ضم المدينتين وأثبت أن القوة الوطنية قادرة على تغيير الواقع المحلي ، وفرض إرادتها على الدولة الكبرى ، حامية خصمها ، دون أن تنزلق الى صدام انتحاري معها .. وأيضا دون أن تفرط في أهدافها ومصالحها بحجة عدم مناطحة الدولة الكبرى .. أو التعلل بأن أي نصر محلي لا قيمة له لأنه سيجبر الدولة الحامية للخصم على التدخل .. وغير ذلك من منطق العاجزين .

ويقول راندل : « صحيح تراجع الوهابيون للرياض بعد انتصار تربة ، ولكن بعد أن غير انتصارهم الأمر الواقع تغييرا تاماً[٣٧] » .

رغم اكتشاف الانجليز ، الحقيقة المؤلمة عن قوة الشريف ، وقوة ابن سعود ، الا أنه كان من المستحيل عليهم التخلي عن الملك حسين ، فعلاقة الأشراف بالانجليز والزعم بالالتزام البريطاني نحوهم ، ورقة رابحة في يد الانجليز في مساوماتهم مع فرنسا ، فالانجليز كانوا يطالبون « بحقوق » الأشراف ! .. ولم يكن معقولا ـ كما قال حافظ وهبة ، « أن يدخل فيصل دمشق ليؤسس حكومة عربية تحت رعاية لورنس ويخرج أبوه من الحجاز بسيوف الاخوان » ...

وهنا لعب توفيق ابن سعود دوره ، فلو أسقط الأشراف في عام ١٩١٩ ـ ١٣٣٧هـ لتحمل مسئولية كل ما أصاب العرب من تقسيم وانتدابات ، اذ كان سيقال وقتها : انه لو بقي الملك حسين ، لالتزم الانجليز أو الحلفاء بوعودهم ، ولما أمكنهم التخلص منها !

لو كان (وهي لفظة محببة عند المحللين العرب) « ملك الديار العربية » قد بقى على عرشه لكان حظ العرب أفضل ، وصوتهم أقوى ، ألم يكن فيصل يحكم سوريا وأخوه موعود بالعراق ، والكل يتحدث عن الاستقلال ، والهمس ممنوع عن فلسطين ؟ كل هذا زال لأن ابن سعود قضى على الهاشميين عام ١٩١٩ ـ ١٣٣٧هـ .. ! ألم يكن هذا هو

منطق المحللين لو أكمل ابن سعود زحفه ؟! ..

لحسن حظ ابن سعود ، أن الأشراف أخذوا فرصتهم كاملة ، حتى تمت التجزئة ، وكانوا هم أدواتها ، وقبلوا الانتداب ، والحدود الجديدة ، بل واتهمهم الملك حسين نفسه بالخيانة والمساومة على حقوق العرب ..

وهكذا كان الانسحاب في عام ١٩١٩ ـ ١٣٣٧هـ ، عاملا من عوامل انجاح الفتح بعد خمس سنوات ، ومزيلا لأي لبس أو تأويلات حول « لو كان » .

ولا بأس أن نقف هنا قليلا حول ذلك الرأي الذي افتى به الريحاني حول سبب الفرقة بين العرب ، أوتراجع الانجليز عن وعودهم للملك حسين ، فقد أراد أن يثبت أن الفرقة والانقسام ، واستبداد أوروبا بنا سببه التناحر العربي . وهي فرضية نتفق فيها معه ، فنحن فعلا الذين نمكن لمؤامرات الآخرين من تحقيق أهدافهم ، وهذا رأي كرره ابن سعود في أحاديثه معه ، وفي خطبه بعد فتح الحجاز وعرضنا بعضا منها .

بهذه الصيغة ، لا بأس من أن ننقد مواقفنا ، ونقسو على قياداتنا ، ولكن الصيغة التي طرحها الريحاني مخالفة تماما ولا يمكن قبولها ، فهو يقول :

« ليأذن القارىء أن نقف مرة أخرى مستطردين ، ليس الذنب في تفريق كلمة العرب ذنب الانكليز وحدهم كما يظن الناس . وهاكم الحقيقة كلها(!) يجيئهم أحد الأمراء مدعيا أنه سيد العرب أجمعين وأنهم كلهم أطوع له من بنانه ، فيسبر الانكليز غوره ، ويتحققون من صدق كلامه أو كذبه ، ولكنهم يوالونه لأنه على شيء من القوة ، ثم يجيئهم الآخر ودعواه أكبر من دعوى من تقدمه أو مثلها ، وكذلك الآخرون ، فيضطر الانكليز أن يحددوا قوة الواحد إكراما للآخر فتكون النتيجة التقسيم والتفريق وعندما طفقت جريدة القبلة تهلل لملك العرب ، وتهتف للمنقذ الاكبر ، استبشر غلاة القومية ، وزعماء النهضة العربية ، فرددوا الهتاف ولسان حالهم يقول : هوذا الزعيم الأكبر ، هوذا المنقذ الأعظم ! على أنهم ما كادوا يفرحون حتى جاءتهم الأخبار أن دول الأحلاف اعترفت بالحسين ملكا على الحجاز ـ الحجاز فقط . فقالوا اذ ذاك : هي ذي أوروبا عدوة النهضة . بل هي ذي انكلترة تفرقنا لتسودنا » .

« والحقيقة هي أن ابن سعود في مفاوضاته مع السير برسي كوكس بخصوص المعاهدة اشترط أن لا يتكلم الشريف باسم العرب ويدعي أنه ملك العرب ، فقبل الشرط حبا وكرامة ، وكان الاعتراف بالحسين ملك الحجاز ـ الحجاز فقط » .

والغريب أنه بعد هذا المنطق العجيب ، يعود فيسجل أن بريطانيا التي « برأنا ذمتها من هذا القبيل » ! « وهبت الحسين البلاد العربية كلها ماعدا عدن والبصرة » ويسمى ذلك فعلتها الكبرى ، ويسجل أنها في نفس الوقت كانت معترفة بسيادة الأدريسي وابن سعود « ثم بعد هذه الضمانات كلها ، أدخلت البلدين ، بلدي نجد وعسير في دولة عربية يرأسها الملك حسين[٣٨] » .

كيف تستقيم هذه الفقرة ، بعجزها المتناقض مع صدرها ؟! إنها بحاجة إلى قنينة كاملة من عرق زحلة حتى تكف عن الدوران حول نفسها ! ..

بريطانيا بناء على طلب ابن سعود اضطرت للاعتراف بالحسين ملكا للحجاز فقط ، ولولا ابن سعود لاعترفت بالحسين ملك البلاد العربية ! ... ولقامت الوحدة والنهضة والقومية ... الخ ! ولكن فيلسوف الفريكة يعترف أن بريطانيا لم تكن جادة ولا في نيتها الاعتراف بالحسين ملكا على بلاد العرب ، لأنها كانت تقتطع الجانب الأكبر من هذه البلاد ، ولن نتحدث عن عرب افريقيا البؤساء الذين لا أحد يتحدث باسمهم أو يتكرم بمنحهم الجنسية العربية ، بل حتى عرب آسيا الذين اختصوا بشرف التحرير من تركيا ، كانت بريطانيا قد استثنت منهم البصرة وعدن والمحميات ، أي مسقط وعمان وساحل عمان والبحرين وقطر والكويت ، وهي في نفس الوقت معترفة ـ وقبل التفاوض مع حسين ـ باستقلال عسير ونجد والأحساء ، ووقعت معاهدة مع ابن سعود بالقتال معه إذا حاول أي طرف ضم بلاده .

فماذا فعل ابن سعود ، ازاء تولية الشريف نفسه عرش العرب ، إلا أن طالب باقرار الحقيقة وتأكيد أن الشريف لا يتحدث باسمه ، ولا يملك نجدا بلاده .. ؟!
وهب أن ابن سعود كان السبب في خلع ملك العرب من نجد فلماذا لم تعترف بريطانيا بالشريف ملكا على الحجاز والشام والعراق .. أليست هذه هي البلدان التي كان مصيرها مطروحا للجدل ومتعرضا للخطر .. أم نجد ؟! ..

إن التقسيم أرادته بريطانيا ، ونفذته بريطانيا ... فهذه سياستها الدائمة ، منذ أن كتبت شركة الهند الى كابتن هينس أول حاكم بريطاني لعدن : « حرض القبيلة الموالية على القبيلة المعادية ، فلا تحتاج عندئذ لجنود انجليز ، واذا كان هدر الدماء مما يؤسف له ، إلا أن هذه السياسة تفيد الانكليز في عدن لأنها توسع هوة الخلاف بين القبائل[٣٩] » .

فاذا سلمنا بهذه الحقيقة ، كان لنا أن ننتقل الى محاسبة قياداتنا وتحديد حجم مسئولياتهم . أما أن نبدأ بتبرئة الاستعمار البريطاني القائل : « فرق تسد » . فلا عجب أن ندين ابن سعود بتهمة إغراء كوكس وبريطانيا بتقسيم العرب !

كل ميسر لما خلق له

أصبحت المواجهة مصيرية ، كما يقولون ، والصدام الحاسم مسألة وقت ليس الا ، حتى يرفع الانجليز يدهم أو حمايتهم ، فيكتسح السعوديون مملكة الهاشميين ، وليس العكس ، فقد بدأت القناعة تزداد بصحة تحليل لورنس ، القائل بأن غزو نجد يحتاج لخمسين ألف عسكري بريطاني !

وكانت كل العناصر حتى الدعم الانجليزي للشريف ، تعمل لصالح ابن سعود ، وأية مقارنة يعقدها المواطن العربي بالحجاز ، أو المسلم على نطاق العالم الاسلامي كانت ترجح كفة ابن سعود والاخوان ، على حكومة الشريف التي وصفت بأنها اكثر حكومات العالم فساداً أو كما قال « راندل »[٤٠] : « أصبح الحجاز ، العسل الذي يجذب النصابين من جميع الاجناس والأشكال والأنواع ، كلهم جاءوا للصيد في ماء الحجاز العكر : طيارون لا يعرفون الطيران ، وأطباء غير متخرجين ولا يحملون شهادة ، تجار سلاح ، مهربون .. الخ » وضرب مثلا « بحبيب لطف الله » الذي دفع مائة ألف جنيه ثمنا للقب أمير من الملك حسين ومنصب سفير في روما ، ومستشار خاص لوزارة الخارجية ، والحق في اختيار زيه الخاص ، وإصدار الجوازات*

وقال المعتمد البريطاني : « إن عصابات النهب هي المؤسسة الوحيدة المنظمة في الحجاز ، وقد ثبت ذلك عندما خطفوا جدة ملك أفغانستان « أمان الله » أثناء تأديتها للحج ! واعتذر الملك بأنه لا يمكن أن يكون أقوى من الدول العظمى . « ألم تسمع باضراب عمال القطارات في لندن » ..

وفي مقابل ذلك كانت دعايات الد أعداء الوهابيين ، تعترف لهم بتحقيق الأمن ، والقضاء على عمليات السلب والنهب ، وتطهر الحكام والشعب تطهرا دغدغ أحلام العرب والمسلمين بطهر عصر الاسلام الأول ...

واذا كانت التهمة الوحيدة المشهرة في وجه الوهابيين ، هي تعصب الاخوان ، وتخلفهم ، وقسوتهم على مخالفيهم ، فان الملك حسين لم يكن يقدم صورة أفضل إذ شهد الريحاني بأنه وجد « في جدة خوفا يستحوذ على الناس من مجرد ذكر صاحب الجلالة المنقذ الأكبر ، فتراهم عندما يشرف البلد كأنهم في مأتم » . وقال إن أهالي

---

* والحق أن الأمير المذكور هو أول نصاب عمل في الحجاز في العصر الحديث ، وقد ذهب إلى الولايات المتحدة أثناء حصار جدة وحاول أن يضحك على آلن دلاس فقال له إن ابن سعود هزم هزيمة ساحقة على أسوار جدة ، وطالب بتدخل أمريكي لمصلحة الملك علي .

الحجاز يسمون الملك حسين « عبد الحميد الصغير » وقد قيل لي إن سجن مكة ، أظلم من أعماق البسفور . فما قول أهل جدة ، وقد شاهدت بعيني ولمست بنفسي ذاك الخوف المستولي عليهم ، الخوف من رجل مكة الظالم ، ومن سجن مكة المظلم ، ومن وحشة مكة عند المغضوب عليهم ، هي وحشة لا يتخللها بصيص من الرحمة أو المعروف[41] » .

ونقل الريحاني عن عدد من وجهاء « جدة » أنهم يرغبون في تعليم أولادهم ولكن « سيدنا لا يرضي بذلك » . ونقل عن الملك : « لا يلزمنا نحن العرب من العلم غير ما يوافق حالنا وبلادنا ، ويمكننا ضمن حدود الدين ، أقول ضمن حدود الدين ، من الانتفاع بالكمالات » .

ويقول منصف الحسين أنه أي الملك كان يحتكر الجمال التي تنقل الحجاج ، ولذلك منع استخدام السيارات ، بحجة أن الحرمين يجب أن يبقيا على الحالة التي تركها النبي ، وفي إحدى المرات رأى حاجا هنديا في سيارة ، فكسرها بنفسه مستخدما عمودا حديديا[42] .

على الأقل تخلف الاخوان أو معاداتهم للسيارة ، لم يكن يرتبط بمصلحة مادية !

هذا في الوقت الذي لم يكن رجال الملك يستطيعون إخفاء إعجابهم بالوهابيين والتسليم بصحة معتقدهم من الناحية المبدئية* ، فقد روى « محمد أسد » عن الدكتور رضا توفيق المستشار الأول للأمير عبد الله الذي كان يتحدث معه إلى أن يفرغ الأمير من مناقشة معاونيه عن غارة إخوانية على الحدود ، أي أن الجو لم يكن يسمح حتى بالموضوعية ولكن المستشار قال :

« إن مبادىء الوهابية لم يكن من الممكن رفضها بداهة وارتجالا . ذلك أنها في الحق ، أقرب الى روح القرآن من الأفكار المنتشرة بين عامة الناس في معظم الاقطار الاسلامية ، ويمكن بالتالي ، أن تحدث مع الزمن تأثيرا خيرا مفيدا في التطور الاسلامي الثقافي ، إلا أن التعصب لدى أولئك القوم ، في رأي الدكتور رضا ، جعل من العسير بعض الشيء على غيرهم من المسلمين أن يقدروا الحركة الوهابية حق قدرها » . ومع تأكد هزيمة الحل « القومي » وخيانة أو غفلة المراهنين على أوروبا لتحرير الوطن العربي ، انتعشت المراهنة على الحل الاسلامي ، أو النجم السعودي الصاعد . أما فارق الصفات الشخصية في القيادتين ، فكان لصالح القيادة السعودية بالكامل ، وقد أورد المعاصرون نماذج من مسلكية ابن سعود ، وكيف لم يسمع غناء في حياته ، وكيف كان كبار الزوار ، حتى من رجال الامبراطورية يحرصون على تهوية غرفهم قبل دخوله حتى لا يشم الامام رائحة الدخان ، هيبة واحتراما لأمير نجد .. وها هي ريشة الريحاني ترسم الصورة المضادة للملك الذي نصبه الانجليز على العرش ، بل نصبته امرأة

---

* بينما لم تكن هناك أية عواطف متبادلة بين الملك الهاشمي وأهالي جدة ، فحينما حوصرت جدة « حاول أحد سكرتيري الديوان الملكي أن يشتري طعاما للقصر بمبلغ عشرة جنيهات مؤجلة الدفع ففشل . أما المتطوعون الفلسطينيون فقد أعلنوا انسحابهم من جيش علي إذا لم يدفع مرتباتهم[43] » .

انجليزية .. فقد وصف مآدب الملك فيصل ملك العراق ، بأنها مآدب الغم !

« قال الملك تراني اليوم محاطا بالأعداء، ولا صديق لي غير الانكليز، فمن أين لي حليف لو شئت المحالفة ، وفي الغرب في سوريا الافرنسيون وهم أعدائي . وفي الشمال الأتراك وهم يكرهونني ، وفي الشرق الأكراد وقد تفلتوا من يدي ، والعجم وهم يدسون الدسائس بواسطة الشيعة على حكومتي ، وفي الجنوب ابن سعود وهو دائما يهددنا بالاخوان ، من لي إذا غير الانكليز ؟ وهل يعقل أن أنقلب عليهم ؟ » .

حتى لو قبلنا هذا المنطق ، مع أن الحركة الوطنية العراقية قد أسقطت من هذا الحساب ، ومع ذلك فان هذا الحصار يحتاج لقيادة متطهرة كل الطهر ، وتملك كل مقومات احترام النفس حتى تجبر « حليفها » على احترامها ، وتحول دون استغلاله السيء لهذا الوضع .. ولكن كيف كان سلوك الملك المحاصر ؟!

« دعيت الى مأدبة أعدها في القصر ، كان جالسا اليها في صفين متقابلين ، عشرون من كبار موظفي الحكومة العراقية والوجهاء وعشرون من رجال حكومة الانتداب وبعض حريمهم . وكان جلالته جالسا في الوسط وإلى يمينه قرينة المندوب السامي « اللادي كوكس » وإلى شماله القائد العام للجيش الانكليزي في العراق .. وإلى يمين الأمير زيد المندوب السامي وإلى شماله آية النساء في العراق وشمعة سياسته « الخاتون » جرترودبل .

« أما جلالة الملك فكان أثناء المأدبة ، منذ قدم الحساء إلى أن جاء الخدم بالقهوة ، صورة من صور اليأس المحزنة ، وقد أحاط نفسه بسيدة لا تحسن العربية ، وبقائد قاتم الجبين لا يحسن لا العربية ولا الافرنسية .. قد رأيته غير مرة يتثاءب وما سمعته والمندوب السامي يتحدثان ولو عن الطقس . ولا أظن الانكليز ماعدا المس « بل » أحسوا بواجب في مثل هذا المقام تفرضه عليهم في الأقل آداب المائدة ، فلا يتحدثون بأمور خصوصية لا تهم جلالة الملك ولا تهم المدعوين من الوطنيين . أما جاري نجيب بك الشاوي ، والرجل الوحيد الذي تجاسر أن يلبي الدعوة الملكية في ثوب عادي ، فلم يكن يهتم بالحديث بل يحسو الشمبانيا الكأس تلو الكأس .. وكان لنجيب بك فضل على جلالة الملك تلك الليلة لأنه في سلوكه فتح بابا للمجون . كان واقفا عند الوداع إلى جانبي فقال له الملك وهو يشير إلى شربه الخمر : شفتك والله شفتك (!!) فأجاب الشاوي ، وهو يشير إلي : هذا صديقي لأنه صديق المعري ، ونحن يامولانا لا نعرف غير المعري والخيام . فضحك الملك فيصل ، وكانت ضحكته الأولى في تلك الليلة » ! . « جلس الملك في خيمته يلعب بسبحته ، ويدخن السيكارة تلو السيكارة ، ياله من غم لا يحترم حتى الانكليز » !

حتى ولم تكن لأسباب دينية ، فان شرب الخمر على مائدة ملك مسلم ، لا يشرب ـ

---

* أي رأيتك والله رأيتك !

أمام الناس ـ وهاشمي وشريف ، وابن أمير المؤمنين ، فيه استهتار بهيبة الملك وتجرؤ عليها . وهو ما نجده في القصة التالية للريحاني أيضا ، فبعد وصف طريقة الملك في لعب البريدج يقول :

« لا أحد ينكر أن يوما في البساتين جدير بأن يكون عدو الرسميات ، فلا بأس إذا جلس الملك على الديوان ، وهو في ثوب قائد الجيش العراقي ، ورفع خوذته . ولكن الموظف في الحكومة الذي يجلس قبالته على كرسي ويمد رجليه ، كما لو كان في بيته ، ولا ينزع قبعته عن رأسه ، يسيء الأدب ويمتهن حرمة التاج . لا أظن أن موظفا انجليزيا مهما علا منصبه يجلس كذلك في حضرة ملك بريطانيا » .

ولا غرابة ، فالذي يقبل العرش من الانجليز ، ويتركهم يتوجونه على صندوق شاي فارغ مكتوب عليه « صنع في بريطانيا » ، ثم يسمح لهم بشرب الشمبانيا على مائدته ، لا يستطيع أن يعترض إذا وضعوا أحذيتهم في وجهه ..

واذا كان كل الحكام العرب ، كانوا يشعرون بالقهر من بريطانيا ، فالفارق هو ردة الفعل ، وقد روى الريحاني كيف كان الملك حسين يسلي نفسه من غم الانجليز : « عندما يذكر جلالته الانكليز يستحوذ عليه الحنق والغم ، فينادي أحد نظاره ، الناظر الحضرمي ، ويكون قد دبر له حيلة للتسلية أو مفزعة ينشرح لها صدره . والناظر الحضرمي ضعيف العصب ، سريع التأثر من غريب الحركات والأصوات ، شديد الخوف من الحشرات والدبابات وفي المبادهات ... » ثم يصف ليلة الضب :

« جاءني أحد عبيده ذات ليلة يقول : سيدنا يبغيك ، فأسرعت اليه فاذا بقنصل بريطانيا العظمى هناك . وبعد أن حدثنا ساعة عن الابل والأهوية في الحجاز ، وعن البدو وعاداتهم ، سألني قائلا : أتعرف أيها العزيز الضب ؟ فقلت في الكتب فقط يا مولاي ! قال سنريك الضب حتى اذا كتبت عنه تحسن الوصف ، وضرب كفاً على كف ، فحضر عبد من العبيد : هات الضب. نظرت الى القنصل ، وكان ينظر الي ، كأن قد خطر بباله ما خطر ببالي ، فتبادلنا ابتسامة فيها الدهش والاعجاب من هذه الجلسة الملكية التي صار فيها جلالته أستاذاً في التاريخ الطبيعي والحيوان » .

ثم دخل العبد بالضب ، ومزح الملك مع القنصل فوضع يده على ذنب الضب وضغط عليها « فبدت في وجه القنصل علائم الألم ، فضحك جلالته .. » ، « ودخل الحاجب ينبىء بقدوم الناظر الحضرمي .. فقال الملك : بلى .. بلى .. فيه خير (أي الضب) وهو يواري الحيوان تحت جبته . دخل صاحب الاقبال الناظر الحضرمي ، فأشار الملك الى مجلس قريب منه ، وما كاد يتبوأه حتى مدت اليه يد الجلالة ، وصاحبها هادىء البال ، وفيها الضب ، ووضعته في حجر الناظر المسكين ، فصرخ وصاح صيحة طفل مرعوب ، ووثب على الديوان وثبة جاب فيها الباب ، وأصطدم بالحاجب هناك ، فقهقه الملك وكاد يستلقي وضحكنا كلنا ضحك الصبيان .. الخ » « وعندما خرجنا من مجلس الملك تلك الليلة قال لي القنصل : هي ألذ ساعة قضيتها مع جلالته ، وهو في غير موضوع السياسة أفصح المحدثين وألطف الجلساء[٤٤] » !.

وهذا التعليق الذي قاله القنصل البريطاني للريحاني عن « ليلة الضب » ، رغم ما فيه من قسوة ، إذ كيف يكون الحاكم فصيحاً في كل شيء إلا السياسة ؟! ومع ذلك فهو يختلف طبعاً عما يكتبه في التقارير السرية ، وقد عثرنا للقنصل نفسه ، « جرافتي سمث » على تقرير بعث به لحكومته يصف « ليلة القرد » قال فيه : « إن الملك دفع الناظر الحضرمي الى حافة الانتحار بتخويفه بقرد ، وكلما زاد رعب الرجل ، ظهر السرور السادي على وجه الملك » !

وكل الذين اعتذروا عن الملك حسين ، لم يجدوا إلا القول بأنه كان « ساذجاً » لم يفهم ألاعيب السياسة الأوروبية ! وما من خطيئة أكبر من سذاجة أو غفلة القائد .. ولكن الملك لم يكن يرى في نفسه مجرد ذكي بل عبقرياً ، وقد أورد الريحاني قائمة باعتقادات الملك في مواهبه فهو السياسي الأول ، والمفسر الأول* ، واللغوي الأول ، والزعيم الأوحد[٤٥] . وصحيح أن العائلة الشريفية كانت تفتقد الصفات القيادية ، ولكن هناك تصرفات تفوق حتى مسألة الذكاء أو الغباء الفردي ، إنها مما يطلق عليه تعبير الغباء التاريخي ، الذي يصيب القوى الاجتماعية أو السياسية في الجانب المهزوم في اللحظة التاريخية المعينة ، والذي يبدو للأجيال التالية مثيراً للدهشة ، مستحيل التصور ، ولكنه كعمى البصر الذي يقول العامة إنه يصيب من ضر به القدر .. مثل إعدام القائد العام للجيوش الشرقية للرجل الذي جاء يحذره من أنه « رأى طلائع الاخوان في الخرمة وسيهجمون عليك » .. « فغضب الأمير وأمر بقطع عنقه » . وقيل إن امرأة أيضا حاولت تحذيرهم ، ولعلها هي التي وجد قدمها في خيمة القيادة .

ومن هذا العمى التاريخي .. أن الملك بعد أن عزل عن العرش أو أجبر على التنازل ، وأصبح محاصراً في جدة ينتظر مغادرة البلاد ، هاجم الحكومة الدستورية ! وماذا عليه لو ترك ابنه يكسب تأييد الناس بالوعد بالدستور ، خاصة وأنه كان المطلب الدارج وقتها في العلم العربي خارج معسكر الاخوان .. وماذا عليه إذا لغم الأرض لخصمه وترك له مهمة معارضة الدستور ؟!.. لماذا يتشبث بتحدي شعبه وهو يركب السفينة ؟!..

« أما الحكومة الدستورية ، سيما في الحرمين الشريفين ، فالعمل بها ينبذ أحكام كتاب الله وسنة رسوله . إن العمل في البلاد المقدسة بالقوانين البشرية لما تأباه شعائر الاسلام ، وفرائض الدين ، والأخلاق الشريفة مادة ومعنى** » .

فماذا ترك لابن بجاد والدويش ؟!

والخلاف بين العقليتين والسلوكين واضح في الواقعة التي كان الملك عبد العزيز يحب التندر بها ، عندما لجأ محمد بن مهنا أمير بريدة الذي أسقطه عبد العزيز ، وضم بريدة الى ملكه ، فلجأ الى الشريف حسين يستعين به على استرداد بريدة ، فأعطاه مكتوباً الى

---

* مع أن المستشرق ماسينيون كتب في العدد ٤٧ من مجلة العالم الاسلامي يقول إن الملك حسين يغلط في الآيات ويخلط بين القرآن والحديث[٤٦] .

** رسالة بتاريخ ١٥ ربيع الأول ١٣٤٣ عن الريحاني .

عبد العزيز نصه : « أعطوا محمداً قريته » ! فكان عبد العزيز إذا صفا مزاجه ، هتف : « أعطوا محمداً قريته » ! ويضحك هو ومن يعرفون القصة ، أو يحكيها لمن لا يعرف فيغرقون في الضحك ! والقصة مضحكة لأكثر من زاوية ، فهو يصدر أوامره وكأنه السلطان سليمان القانوني ملك العالم كما كان السلطان ومن حوله يعتقدون ، وهو يهون الأمر وكأنه يقول : أعطوا محمداً لعبته !.. ولم يكلف نفسه عناء نسبة محمد ، ولا تبيان أسباب قناعته بملكية محمد لقريته ، ولا أسباب إعادتها إليه !لوكان ابن سعود ، لاتخذ أحد موقفين : إما القتال مع محمد لاسترداد قريته ، أو يطلب من محمد « أن يلعب بعيد » !

وبينما كان ابن سعود يشجع أي اتصال إعلامي أو سياسي معه ، ويرحب باتصال المعجبين به بغيره من الحكام ليتيح لهم المقارنة . بل واستدعى الريحاني ليكتب عن نجد وتجربة الاخوان ، وتاريخ البيت السعودي ، والخلاف مع ابن صباح والشريف . بل وفرح باقتراح فيلبي السفر للاجتماع بالشريف وجهزه للرحلة وسهلها له . نجد الملك حسين يحاول أن يضرب حصاراً حول الأمراء العرب ، فقد رفض السماح للمندوب البريطاني القادم من مصر بالسفر الى الرياض ، ومنع فيلبي من العودة عبر الجزيرة ، كذلك حاول الملك إقناع الريحاني ، بأنه لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها : « فانك متى درست أخلاق قبائل الحجاز تكون قد درست أخلاق بقية القبائل لأنهم كلهم متقاربون . أما زيارتك الرياض وابن سعود فهذه مستحيلة لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز » .

وقد اشتهر نظام عبد العزيز بمستشاريه الذين كان كل فرد منهم يحمل كفاءة خاصة أو شهرة وطنية وتاريخاً في مكافحة الاستعمار ، والذين كانوا رغم ذلك لا يبرمون أمراً دون مشورة الملك وأذنه ، ولم يسجل التاريخ ، حادثة واحدة ، خدع فيها المستشار ابن سعود ، رغم أنه كان يستشيرهم ويعطيهم الصلاحيات ، ويدعم أقتراحاتهم ومواقفهم . ولكن « منصف » الملك حسين يحكي عن أهم مستشاريه ، أو ممثله في بريطانيا ، وهو طبيب عراقي ، فيتهمه بأنه دمر علاقة الحسين ببريطانيا ، اذ خصص له ميزانية سبعة الآف وخمسمائة جنيه سنويا للاستخبارات ، فتفنن في العبث بسيده ، أخبره في منتصف ١٩٢٣ ـ ١٣٤١ هـ ، أن وعد بلفور أصبح غير ذي موضوع وأن وزارة الخارجية تريد امبراطورية عربية . وفي أبريل ١٩٢٣ ـ ١٣٤١ هـ ، انزعج المعتمد البريطاني في جدة ، من الترهات التي يتسلمها جلالته من « فندق هايدبارك » (مقر البعثة الهاشمية في لندن) فكتب لحكومته : « إن جلالته يعتقد أننا سنعترف به قريباً كرئيس لدولة تتكون من فلسطين والأردن والعراق والحجاز ، للاسراع في تكوين الولايات المتحدة العربية* !.. وقد فهمت من فؤاد الخطيب أن الملك مقتنع تماما بأن الدكتور ناجي العسيل قد وضع قواعد هذا المجد الهاشمي[٤٧] » . كما روي أن الملك

---

* من تقارير المعتمد البريطاني في جدة بتاريخ ٣٠ أبريل ١٩٢٣ ـ ١٣٤١ هـ .

بعث الأمير علي وفؤاد الخطيب للتوقيع على المعاهدة ، ولكن وهما في الطريق استدعاهما الملك بالتليفون ومنعهما من التوقيع لأن « ناجي » أبرق له بأن يمتنع عن التوقيع ، وبذلك ينال كل طلباته ، وأن وعد بلفور سيسحب ، وعلى هذا الأساس كتب الملك كل مطالبه فيما يتعلق بالأراضي العربية ووقع عليها بالحروف الأولى وبعث بها الى جدة . ولذا فرغم تأكيد الملك حسين للعالم أجمع أنه وقع المعاهدة . فان وزارة المستعمرات تجاهلت النص المعدل[48] » .

وهذا يشكك في القول بأن الملك ذهب ضحية تصلبه في الحق العربي ، فالأحرى أنه ذهب ضحية تقارير الدكتور العراقي !*

وفي مقابل عائلة ابن سعود المنضبطة تحت قيادة عبد العزيز ، والتي تقوم على الأحترام المطلق ، والطاعة التطوعية من جانب الابن للأب ، كانت علاقة الشريف بأولاده غاية في التعقيد وتدهورت تدهورا خطيرا في سنوات الأزمة مع ابن سعود ، ففي يونيو سنة ١٩٢٠ ـ ١٣٣٩ هـ ، تفيد تقارير القنصلية البريطانية ، أن الامير عبد الله قدم للقنصلية بواسطة سليمان قابيل عمدة جدة ، عريضة تتضمن توقيع عبد الله** وستين شريفاً بطلب السماح لهم بخلع الملك حسين والده ، ولكن المعتمد البريطاني رفض التدخل . وبعد عبد الله ، جاء أخوه علي . فقال « جرافي سميث » المعتمد البريطاني « أبلغني فؤاد الخطيب أن الأمير علي تحدث معه بجدية في السنة الأخيرة عن قيادة انقلاب ضد أبيه ، الذي يعتبره أولاده عقبة في طريق القضية العربية*** » !

ولم يكن رأي الحسين في أولاده بأفضل ، ولا معاملته لهم .. فقد قذف ابنه قائد الثورة محرر سوريا بدواة حبر في وجهه ، وكان يسخر منهم ويقلل من شأنهم أمام الأجانب ، وقال للريحاني عن أولاده : « لقد فتحوا الباب لفرنسا في سوريا وقتلوا الحركة العربية » .

ويقول راندل باكر : « إن الملك حسين كان مقتنعا بأن فيصل غدر به في فرساي ، وساوم على حقوق العرب بقبول عرش بريطاني الصنع ، أما عبد الله فهو يراه مرتبطاً بالبريطانيين تمام الارتباط » .

وبعد أن اتفق الملك فيصل ابنه ، مع الملك عبد العزيز على الحدود وتبادل الاعتراف ، حظر ذكر اسم فيصل في مجالس أبيه !

---

* هو الدكتور « ناجي عسيل » . ويستفاد من تقارير القنصلية البريطانية في جدة ، أن بعض كبار معاوني الملك حسين ، كانوا على صلة بالقنصلية أقوى مما يعرف الملك !!

** وهذا هو السر في أن الملك عبد العزيز العفيف اللسان أطلق عليه لقب : « خسيس » في رواية فيلبي . الذي عجز عن ترجمتها فكتبها بالانجليزية هكذا : Khasis . وقال إنها تعني خبيث[50] ! وقد كتب الأمير عبد الله المجلدات في التطاول على الملك عبد العزيز . ولم يدخر صفة إلا نعته بها ، ومع ذلك فان هذه اللفظة التي عجز فيلبي عن ترجمتها والتي أطلقها عليه عبد العزيز تحتاج لدائرة معارف لشرحها ، وترجح بل تحرق كل ما كتبه[8]م .

*** أولاده يتآمرون عليه ، ووزير خارجيته يبلغ المعتمد البريطاني[49] .

وتقول « مونرو » : ان عبد الله عندما ذهب الى لندن في أكتوبر ١٩٢٢ ــ ١٣٤١ هـ ــ لامتحان كشف الهيئة الذي عين بموجبه أميراً على الأردن تقول : « كان عبد الله يأمل في الاستفادة ، من حالة النفور العام الذي يحسه الجميع نحو أبيه ، في إقناع الانجليز بضم الحجاز اليه[٥١] » . وقد اشتكى الملك حسين للريحاني من عقوق اولاده فقال :

« أقرب الناس الي يخونون ويخطئون .. ما جئتك شاكياً ، يا أيها النجيب ، ولكنها العهود ، وحقوق الأب على بنيه .. إن أحقر البدو لا يخون عهداً يعاهد به ، ولو اتبعوا نصيحتي ، لو امتثلوا الأمرى ، لما كان ذاك التساهل والتذبذب في المؤتمرات . فتحوا للفرنسيين باب سوريا ، وكادت سياستهم تقضي على القضية العربية .

« قد علمت بعدئذ من شرح المتن لجلالته أن الضمير في «اتبعوا» وامتثلوا ، وفتحوا ، هو عائد الى من كان يمثله في الشام وفي فرساي وعلى رأسهم الأمير « فيصل » ابنه . وعلمت كذلك أن جلالة الملك حسينا كان يرغب بالقدوم الى سوريا . وبأن يمثل العرب في مؤتمر السلم الأول . اذن هو ناقم على فيصل . وقد قيل لي إنه يوم عاد الأمير آخر مرة من أوروبا الى الحجاز لم ينزل جلالة الوالد ليلاقيه في جدة كما كان يفعل سابقا ..

« ملك مغبون ، وشيخ في بيته محزون ، لا يشكو الزمان ، ولكن في قلبه من الزمان جمرة حامية ، ولا يلومه العربان ، وفي صدره من العربان دملة دامية ، ولا يندم على ما تقدم في سبيل النهضة من المساعي والذنوب . فهو النهضة أولا وآخرا . وهو لايزال باذن الله قويا عصيا ، مهما كان من أمر « فيصلنا » و « زيدنا » و « عزيزنا » في شرق الأردن ، فقد قال بلزاك : « إن ابناءنا أعداؤنا » وما أصدقها كلمة ، ولا سيما على الأسر الشريفة المالكة[٥٢] » .

ونقل راندل عن المعتمد البريطاني في جدة أن الملك حسين يردد في مجالسه : « فيصل (ابنه) ليس إلا أداة بيد الانجليز* ، ولا يهمه إلا إرضاء الانجليز[٥٣] » .

---

* هذا رأي الملك في الدور الذي لعبه أولاده ، فلا عجب أن طلبنا من المؤرخين والمتقربين أن يعفونا من شهاداتهم ، فلن يكونوا ملكيين أكثر من الملك حسين !

وقيل كان يطوف بعدما خلع بارجاء القصر وهو يهتف : « هذا جزاء من يثق بالأنجليز » !

واذا كان رأي الشريف في أولاده أنهم خانوا القضية العربية ، فان هذا الرأي قد شاع بين الجماهير العربية ، والمسلمين حتى الهند ، مع إضافته هو الى أولاده ، وكانت المرارة ضد الترك قد زالت ، بزوال دولتهم ، وانتبه العرب على المصير الذي سقطوا فيه ، مع سقوط دولة الخلافة ، وحملوا مسئولية ذلك كله للحسين وأولاده ، ولهم عذرهم ، فلم يكن الحسين وأولاده هم فقط الذين قادوا الثورة ، تحت أعلام الانجليز والفرنسيين وزعموا أن لديهم وعوداً بالاستقلال والوحدة .. بل وظهروا أمام الرأي العام العربي كالمنتفعين الوحيدين بما نزل بالعرب من كارثة ، فيصل ينقل من عرش سوريا بعد تسليمها للفرنسين ، الى عرش العراق بعد قبول الانتداب البريطاني . وتشرشل يرسل لورنس لمعاينة الأمير عبد الله لتقرير صلاحيته لشغل منصب أمير شرق الأردن . وكان من الطبيعي أن يعجب به لورنس ، ورأى أنه يصلح شرط أن يكون بجانبه « رجل » انجليزي قوي .. فصرف النظر عن لورنس طبعا !.. وعين له فيلبي . ولكن تنصيب عبد الله لم يتم إلا بعد أن توجه الى لندن وجرى له امتحان كشف هيئة ، وبعد أن وقع ، وهو الأهم ، للورنس على إقرار بقبول الانتدابات البريطانية (الأردن ــ العراق ــ فلسطين) .

وقد أحب فيلبي عبد الله ، عندما كان يعمل وصيا عليه ، ولكن هذا لم يمنعه من القول : « وبلا شك لا أحد هنا أو في سوريا يريده ، أو يريد أي فرد من عائلة الأشراف ولكن من يهتم بذلك[٥٤] » !..

وكتب فيلبي : « ليس هناك أي أساس للأعتقاد بأن أهل العراق سيخضعون لحكم الأشراف إلا اذا أجبروا على ذلك بالقوة وفي مواجهة رفض شديد من جانب هؤلاء الأهالي » ..

وواضح أن الموقف قد تغير منذ دخول فيصل البطولي الى دمشق ، فالثورة التي اجتاحت العالم العربي ضد الأنجليز في مصر والعراق ، وأجبرت بريطانيا في البلدين على الدخول في حرب مع الشعبين المصري والعراقي*، وانتشار المقاومة في الأردن** وفلسطين للانتداب البريطاني ، وحكم الأشراف الذي استخدمت الدبابات والطائرات

---

* قدرت نفقات إخماد الثورة العراقية بأربعين مليون جنيه استرليني . أو عشرين ضعف نفقة « الثورة العربية الكبرى » ! واستمرت الثورة أو الجهاد من يوليو الى اكتوبر .

** احتفل « باستقلال » الأردن في ٢٥ مايو ١٩٢٣ .

البريطانية لفرضه ، حتى انتشرت أغنية في عمان ، كما تقول اليزابث مونرو٥٥ تقول :
« أميرنا مثل القمر نوره في شرق وغرب تارك لقبله عمر صلي لقبلة فيلبي* » .

ورأى الشعب الأردني جيش الاحتلال الذي يقوده الجنرال بييك يتحول الى « الفيلق العربي » بنفس جنوده وقائده غير العربي . وفي العراق يتفاوض باسم الملك المندوب السامي البريطاني ، ويعقد المعاهدات باسمه ، والجيش كله في يد الضباط الانجليز ..

رأى العرب الأنجليز يوزعون العروش على الهاشميين ، الذين يحاصرون ابن سعود ، فتأكدت حقيقة أن الملك حسين** وأولاده يعملون لحساب الانجليز ضد ابن سعود ، وذلك في الوقت الذي كانت علاقة الملك حسين بالأنجليز في تدهور مستمر ، ولكنه لم ينتبه لهذه الحقيقة ، ولا تخلى عن موقفه في إخضاع ابن سعود ، غافلاً عن الفارق الهائل بين قوته وقوة ابن سعود ، بعدما تحول الاخوان الى طاقة كاسحة ، لا يمكن مواجهتها ولا من قبل دولة عظمى ، وهي الحقيقة التي عرفها الانجليز ، وأثرت في موقفهم من الصراع ..

استمر الملك حسين في التحرش بابن سعود رغم الهزيمة الساحقة في تربة .. فعقد حلفاً سرياً مع آل رشيد وآل الصباح وشجع العجمان على مهاجمة الحدود الشرقية لنجد ، واتصل بالامام يحيى ، والأدريسي ، ومنع حج النجديين ابتداء من عام ١٩١٩ ـ ١٣٣٨ .

وتحرك ابن سعود فدخل عسير في صيف ١٩٢٠ ، وفي العام التالي أطاح بابن رشيد وضم الجبل وحايل نهائيا الى سلطنة نجد*** . ولكن الحسين يرفض الاعتراف بما يجري حوله ، فيكتب يقترح الصلح على السلطان عبد العزيز : « شرط إعادة تربة وخرمة للحجاز ، وإعادة ملك ابن الرشيد في حائل وجبل شمر » . واستمر الأمير علي في اقناع لورنس بأن رانيه وخرمة وتربة وبيشة وما حولها تابعة لمقاطعة الحجاز ! « فتقبل لورنس هذه الحجج ووافق على عرضها على وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات لارسالها لابن سعود لابداء ملاحظاته » .

وفي نوفمبر ١٩٢٣ ـ ١٣٤٢ هـ وافق ابن سعود على حضور مؤتمر في الكويت يضم الحكام الأشراف الثلاثة ، ووافق العراق ، ولكن الملك حسين رفض الحضور**** ، اذ

---

* ولم نجد الأصل العربي واجتهدنا في استنباطه من الترجمة الأنجليزية .
** كان عامة جدة يسمون الملك حسين « ابو خيشة » وهي تسمية مصرية الأصل على الأرجح أو حجازية من أصل مصري !
*** في عام ١٩٢١ ـ ١٣٣٩ هـ عقد مؤتمر في الرياض من أهل الحل والعقد واتفقوا على تلقيب ابن سعود « بسلطان نجد » لرفع مكانة نجد الدولية » . وفي ٢٢ أغسطس ١٩٢١ ـ ١٣٩٩ هـ اعترفت بريطانيا باللقب الجديد ، مقابل اعترافه بفيصل ملكاً على العراق . وكان قد تم « انتخابه » ملكاً في أول استفتاء مزور تم إجراؤه في العالم العربي .
**** كذلك عبد الله الذي أرسل مندوبين عنه ، وقد هاجم الاخوان « تبوك » يوم افتتاح المؤتمر .

رأى أن الأمر لا يحتاج لمؤتمر « لأن الحقيقة واضحة لكل ذي عينين » وبدلا من السفر الى الكويت* ، سافر الى الأردن حيث نصحه ابنه عبد الله بلبس عباءة الخلافة** التي طوح بها كمال أتاتورك ، فأنفض اجتماع الكويت ، باعتبار أن الحسين حالة ميئوسة الشفاء .. ولكن الأشراف كانوا يظنون العكس ، فقد روى ابراهيم بك هاشم مندوب شرق الأردن في المؤتمر ، لحافظ وهبة أنه « سمع الأشراف يتحدثون وقتها عن سقوط سلطنة نجد خلال ستة شهور . وقال الضابط علي جلفي بك إنه يستطيع أن يقضي على سلطنة نجد في زمن أقصر من الستة شهور[٥٦] » .

انصرف الجميع من مؤتمر الكويت مقتنعين بأن الحرب هي الحل الوحيد والمحتوم . ويذهب « حافظ وهبة » إلى أن عبد العزيز لم يكن يفكر في غزو الحجاز حتى عام ١٩٢٣ (١٣٤١ هـ) وأرجع ذلك إلى تخوفه من التدخل البريطاني ، ولكن بعد فشل مؤتمر الكويت إقتنع بأنهم يتآمرون عليه .

والسؤال الذي طرح نفسه وقتها ، هو : لماذا تخلى الانجليز عن الحسين ؟ .. والجواب الشائع هو رفضه توقيع المعاهدة مع بريطانيا التي يعترف فيها بالانتداب والتقسيمات ، وتهويد فلسطين .. وهذا صحيح جزئياً ولكنه لا يمثل الجواب الصحيح ، فأولاد الملك الثلاثة ، فيصل ، وعبد الله ثم علي في جدة .. وافقوا على ذلك ، وأقروا المطالب والامتيازات البريطانية بما فيها الشق الفلسطيني .. والملك حسين قرر التوقيع في الأيام الأخيرة ... ولكن بريطانيا ، اقتنعت باستحالة تدخلها لمصلحته . فقد أنذرت وهددت وقطعت الدعم في عام ١٩١٩ (١٣٣٧ هـ) والحرب مازالت ساخنة ، ولكن هذا لم يمنع مذبحة تربة ، وتحطيم الجيش الهاشمي ، وضم ابن سعود تربة ، رغم القرارات البريطانية ، وبرنامج اللورد كيرزن ، وقد ساعدت الأحداث خلال السنوات الخمس التالية ، على زيادة شك ابن سعود في نوايا بريطانيا ، وأيضاً اقتناعه باستحالة التدخل البريطاني المكشوف في الحرب الحجازية ، باعتبار مكانتها المقدسة ، وما يمكن أن يثيره في العالم الاسلامي ، فقتال الاخوان ضد الكفار الحمر الوجوه « لابسي البرانيط » ! وبريطانيا والأشراف يذكرون ما جرى لقبعة شكسبير التي علقت في أسواق « المدينة المنورة » . كذلك لم يكن من الممكن تنفيذ اقتراح لورنس بارسال « مسلمينا الهنود » أو المصريين . فالشعور العام في البلدين ، بل في العالم الاسلامي كله كان ضد الشريف الذي أعتبر عميلا لبريطانيا ، وأصبح أي قرار يتخذه ينسب فوراً للمخابرات البريطانية ، ومؤامراتها ، ويثير عليه ثائرة المسلمين .. وخاصة الهنود ! .. والغريب أن ذلك حدث في نفس اللحظات التي كان الشريف الملك يعصى أوامر بريطانيا ، أو قل فقد الصلة نهائياً مع تعليماتها !

أما الاستعانة بقوة عربية في ضرب ابن سعود ، فأيضاً لم تكن ممكنة ، بعد إزالة

---

* انعقد المؤتمر في ١٧ ديسمبر ١٩٢٣ ـ ١٣٤٢ هـ وانفض في ١٢ أبريل ١٩٢٤ ـ ١٣٤٢ هـ .

** أعلن نفسه خليفة في ٧ مارس ١٩٢٤ ـ ١٣٤٢ هـ وأوقفت بريطانيا إعانته في ٣١ مارس ١٩٢٤ ـ ١٣٤٢ هـ .

ملك آل رشيد ، وسيطرته ــ إلى حد ما ــ على عسير ، والحاجز الاليكتروني الذي أقامه الاخوان « بالرعب » في وجه قبائل العراق والأردن والكويت ، حتى أصبحوا يفضلون الموت جوعاً وظمأ على المخاطرة بالاقتراب من موقع فيه الاخوان* !

كان يمكن للانجليز ضرب الأحساء وحتى إنزال قوات بها ، ولكن دخول الرياض كان يحتاج ــ كما قال لورنس ــ إلى خمسين ألف جندي ، في ظرف كان الرأي العام البريطاني ، والميزانية معاً ، يلحان في تجنب المغامرات العسكرية .. وفي النهاية .. من أجل ماذا ؟! ..

استحال على بريطانيا التدخل العسكري لحماية الحسين ، ففضلت أن تبدو في صورة من كان السبب في سقوطه ، وخرجت التايمس تقول : « إنه لقى جزاء رفضه اقتراحاتها ، ولو فعل ذلك لأمكن إنقاذه من الوضع الحاضر » .. وهي تعرف أنها كاذبة ، ولكن إذا لم يكن بوسع الانجليز ادعاء نصر عبد العزيز فلا أقل من أن يدعوا أنهم السبب في هزيمة الملك حسين ، فذلك يفيد هيبتهم في المنطقة . ويشجع حكامها على الطاعة . وأيضا يشوه تاريخ العرب ، فلا أحد ينتصر إلا بارادتها ، ولا ملك يزول إلا بمشيئتها ، وقد عاشت الامبراطورية على هذا الوهم . ولكنها أسطورة آن ان تحذف من التاريخ . فلم يكن بين الحكام العرب من هو أبغض إلى قلب الانجليز من ابن سعود .. ولكن ما باليد حيلة .

وقد صدق الملك حسين هذه الاسطورة فقال لعبد الملك** : « لقد أخطأت في عدم توقيع المعاهدة . ولكني أفضل أن أخسر عرشي عن أن يسجل علي التاريخ أنني فرطت في حقوق العرب ، وأنا واثق أن سياستي لم تكن خاطئة ، إنما غلطتي ، أنني وثقت في الغرب وبالغت في تقدير الشرف الأوروبي . » .

ولعل هذا اللوم لبريطانيا ، واتهامها بأنها كانت السبب في هزيمته يرجع إلى ثقة الملك حسين في الانجليز ، واتكاله المطلق على حمايتهم[٩]م ، بعكس عبد العزيز الذي لم يثق أبداً في الانجليز ، ولم يطالبهم ولا انتظر منهم أكثر من حمايته من غدرهم هم . واعتمد على نفسه فيما عدا ذلك ، بل ورفض رفضا باتا أن تفسر معاهدة الحماية مع بريطانيا على أنها تحميه من الأشراف . وبينما يبكي الكتاب الهاشميون إلى اليوم لأن الحسين لم يوقع المعاهدة ، فلم تحمه بريطانيا ، رفض ابن سعود عرضاً صريحا من جانب كوكس باضافة تفسير يعطيه الحق في حماية بريطانيا ضد الأشراف ، وصرخ قائلا أن حماية بريطانيا غير مطلوبة بأية حال ضد العرب .

ولعل هذا الفارق يتضح في الجهة التي يعتبر كل منهما نفسه معينا من قبلها ، ومن ثم يتقدم لها باستقالته . وقد أذهل الملك حسين الانجليز أنفسهم بتقديم استقالته إلى بريطانيا .. فلما تكرر ذلك سأله المعتمد البريطاني في جدة : « أليس الحجاز مملكة

---

* أنظر مذكرات غلوب باشا . والفصل الأخير من كتابنا هذا

** عبد الملك الخطيب وكيله في مصر .

مستقلة ؟.. فلماذا تستقيل لدى الحكومة البريطانية ؟ » .. وقال حافظ وهبة « إن السر في ذلك لا يعلمه إلا الحسين نفسه » ! ..

ولما ضاق بهم الحال ، من تكرار الاستقالة أحبوا أن يتخلصوا من هذا الاحاح ، فقبلوا الاستقالة ، وقالوا له « إن عليه أن يسوي الموضوع مع شعبه » فحملق برهة في دهشة وقال : « ما دخل شعبي في ذلك » ! ».

وقال « جرافتي سمث » المعتمد البريطاني : « كان يتأكد لي عقب كل مقابلة مع الملك ، أنه سيتنازل عن كرامته ، ولا يتنازل عن عرشه[٥٧] » .

كان يعتبر نفسه مدينا بالعرش للانجليز ، أو موظفا لديهم ، وقد أشار الملك عبد العزيز إلى هذا المعنى في خطابه أمام المؤتمر الاسلامي بعد فتح الحجاز ، إذ هاجم الملك حسين ، وقال : « ولدينا مما ترك من أوراقه الخاصة بخطه ، مما هو أدل مما ذكر ، على جعل نفسه ، عاملا موظفاً لبعض الدول الاجنبية[٥٨] » .

ولا حاجة للمقارنة بين استقالة ملك العرب لدى الماجور البريطاني ، واستقالة عبد العزيز أمام جمعية عمومية تضم زعماء البلاد الدينيين والقبليين وغيرهم . ولا حاجة للقول بأن كلا يعرف مصدر الشرعية ، وكلا يستقيل لدى هذا المصدر . والمرء حيث يضع نفسه !

كان الحسين قد قام برحلته إلى عمان ، وهناك حملة السوريون والفلسطينيون إلى ذروة الأحلام ، عندما اصطفوا للقائه وهو يهبط من القطار الملكي في عمان (٨ جمادى الثانية ١٣٤٣ ـ ١٧ يناير ١٩٢٤) وهتفوا يحيا ملك العرب « يحيا المنقذ الأعظم » .. وكما هو الحال في كل تظاهرة عربية ، عبر الجميع عن إخلاصهم ووطنيتهم بالخطب التي يقول الريحاني إنها هاجمت المستعمرين وهددت « الانجليز والفرنسيين بل والأوروبيين جميعاً » .

واستجاب الشيخ ملك العرب ، المرشح للخلافة لحماسة الجماهير ، فأعلن ـ ما التزم به دائما للحق والتاريخ ـ « لا أقبل إلا أن تكون فلسطين لأهلها العرب .. أقول لأهلها العرب .. لا أقبل بالتجزئة ، ولا أقبل بالانتداب ولا أسكت وفي عروقي دم عربي عن مطالبة الحكومة البريطانية بالوفاء بالعهود التي قطعتها للعرب . إذ رفضت الحكومة البريطانية التعديل الذي أطلبه فاني أرفض المعاهدة كلها .. الاستقلال التام للأقطار العربية كلها » .. ويقول الريحاني « ولا عجب ، بعد هذه التصريحات المدهشة ، أن تمت المبايعة بالخلافة[٥٩] » .

حقاً كانت مدهشة ، فالى جانبه يأخذ له البيعة ، كان ابنه عبد الله أمير شرق الأردن الشاهد الحي على التجزئة وفقدان الاستقلال ، وقبول السياسة البريطانيـــة في فلسطين ، أي أن لا تكون لأهلها العرب . أو كما قال لورنس ، غير مسموح بالنقاش حول عروبة فلسطين فقد تقرر تهويدها !.. وعلى الخط من بغداد ابنه الثاني فيصل ، يحكم بموجب الانتداب ، أي لا وحدة ولا استقلال ولا مطالب عربية ، ولا فلسطين لأهلها .. الخ .. والحفل كله تحت حراسة الفيلق العربي بضباطه الانجليز .

ومع ذلك فقد كانت التصريحات مثيرة ، وألهبت حماسة الجماهير ، وأقنعت الانجليز بأن الشيخ قد أصبح ظاهرة مزعجة ، وأنه لا مصلحة بريطانية في الدفاع عنه ، بل ربما كان الخير في سقوطه !

أما خارج الأردن ، فكانت ردة الفعل مخالفة تماماً١٠م ، اذ انفجر العالم الاسلامي في غضبة عجيبة وغريبة ، إن لم نقل مريبة ! وأصر الهنود على أنها مؤامرة بريطانية ، للتطاول على مقام الخلافة ، وكانت قد تشكلت في الهند « لجنة الخلافة » بعد إلغائها في تركيا ، ومن الطبيعي آن تغضب « لجنة الخلافة » اذ يتقرر أمر « الخلافة » وينتهي دون علمها أو استشارتها ، كما استفز الاعلان ملوك العالم الاسلامي ، من ملك مصر إلى شاه ايران ! الذين وإن لم يجدوا في طلبها ، ما كان فيهم من يقبل استئثار آخر بها .

ولم يحاول أمير المؤمنين أن يهدىء النقمة عليه ، بل استمر يستفز يمينا ويساراً ، فكانت علاقته متردية مع مصر ، ومع الهنود ، ومع الانجليز ، ومع الفرنسيين ، ومع الاتحاد السوفيتي ومع إمام اليمن وإمام عسير .. ومع أولاده ! .. وأولا وأخيراً مع عبد العزيز الذي رأى أن الثمرة قد نضجت فبعث بالاخوان يقطفونها .

وبالمقابل ، ورغم التفوق الساحق لعبد العزيز من ناحية القوة العسكرية ، فقد استطاع أن يكسب أو على الأقل يحيد كل القوى ، قبل أن يتحرك لفتح الحجاز ، وقبيل الحملة .. أعطى الانجليز امتياز نفط الأحساء أو المنطقة الشرقية ، وان يكن قد رفض اقتراح السير برسي كوكس باعطاء الامتياز للشركة الأنجلو ــ إيرانية مفضلا شركة غير حكومية . كما كسب العالم الاسلامي كله ، بفكرة « المؤتمر الاسلامي » التي خلبت لب المسلمين ، وأطلقت طموحات الحاكمين ، وأسكرت لجنة الخلافة الهندية . وكسب مصر بتكليفها بالدعوة لهذا المؤتمر ، وأمن ظهره بسلسلة معاهدات وأهم من ذلك بالرعب الاخواني . وأعجب من ذلك أنه كسب تأييد روسيا لأن الحسين كان يستعين بضباط روس بيض !

حتى عندما دار الحوار في صحف القاهرة ، إختار عبد العزيز الحديث من على منبر « الأهرام » المتهمة بالاستقلالية ، والمحترمة لدى الرأي العام العربي والعالمي بينما اختار حسين وأعوانه جريدة « المقطم » المفضوحة في انتمائها للانجليز .

وقد سجل الاعلام السعودي تفوقه الساحق على مهاترات الهاشميين ، أساساً بسبب تفوق الرسالة السعودية ، في تلك الفترة ، ويتضح ذلك من خطاب عبد العزيز في علماء مكة الذي نسجل عليه هذه الملاحظات :

١ ــ الحسين عينه الترك أميرا على الحجاز فخلع طاعتهم . أما آل سعود ، فأمرتهم سيوفهم وطاعة الله ، فلا ولاء لديهم لقوة خارجية ، ولا غدر في سلوكهم .

« إن الحسين أتى إلى هذه الديار مؤخراً من قبل الترك وأقام فيها ثم خلع طاعتهم فنحن في ديارنا لم يؤمرنا غير سيوفنا واتباع ما أمر الله . » .

٢ ــ ليس هناك مذهب وهابي : « نحن لم نطع عبد الوهاب ولا غيره إلا فيما أيدوه بقول من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . أما أحكامنا فنسير فيها طبق

اجتهاد الامام أحمد بن حنبل » .

٣ ـ عاد إلى المواجهة التاريخية مع الترك وأنهم الأساس في حملة التشهير التي تعرض لها السعوديون منذ فجر حركتهم .

« لقد أشاع الترك عنا كثيراً ، وقالوا في جملة ما كذبوه عنا ، أننا لا نصلي على محمد ، وأننا نعد الصلاة عليه شركاً بالله . نعوذ بالله من ذلك » .

٤ ـ حذر العلماء من التقية ، أي السكوت على المنكر أو حتى مجاراة الحاكم تجنباً لبطشه : « أعيذكم بالله من التقية . لا تكتمونا شيئاً . » .

وقد استجاب عبد العزيز لمطلب المتفقهين والمتكسبين في الحرم ، فسمح للأئمة الأربعة بأداء الصلاة ، وكانت هذه القضية من أولى القضايا التي تثار عند فتح مكة . منذ سعود الأول ، فقد أدى الصراع على المراكز ، وما يتبعها من مخصصات وأوقاف ، إلى تحول المذاهب إلى ما يشبه الكنائس المختلفة ، فكان أتباع كل مذهب يصلون خلف إمامهم ، وتقام الصلاة في وقت واحد ، وكأنهم أربعة أديان مختلفة .. وهو أمر غير معروف إلا في المسجد الحرام ، أجدر المساجد بأن يتوحد فيه المصلون . وقد أبطل سعود الكبير هذه العادة بموقف إسلامي متسامح وشديد الوعي ، فقد أمر بتوحيد صلاة الجماعة خلف الامام الحاضر مهما يكن مذهبه .

وكان خالد بن لؤى ، عندما دخل مكة قد تصرف بالتشدد الاخواني ، فأبطل ما كانوا عليه ، وجعلهم يصلون جميعاً خلف الامام الحنبلي .

وإجراء ابن لؤى أصح إسلامياً ، مما كان عليه أئمة المسجد الحرام ومن تبعهم من عامة مكة والحجاج وزوار البيت ، ولكنه كان خطأ سياسياً ، ولا يتفق تمام الاتفاق مع روح الاسلام ، وقد عزز الاتهام الرائج بأن الاخوان أو السعوديين يكفرون من لا يتبع المذهب الحنبلي ، والحنابلة هم الأقل عدداً في العالم الاسلامي ، لأسباب عديدة منها أن الدولة العثمانية كانت تعتبر المذهب الحنفي مذهباً رسمياً ، فتعين القضاة منهم ، ومنها انتشار المذهب الشافعي بمصر بحكم إقامة الامام الشافعي فيها ، ومنها إعتناق المغرب كله للمذهب المالكي .. ومنها ما أشيع عن تشدد الحنابلة ، حتى أصبح التعبير الشائع في وصف الدوغماتيكي ، أو المتشدد في شكليات الدين بأنه « حنبلي » !

وجاء ابن سعود بالحل « التوفيقي » بين الشرع والسياسة ، أو قل بين تشدد الاخوان ، ومراضاة عامة المسلمين ، فسمح للأئمة الأربعة بأداء الصلاة ، على أن يصلي خلف الامام ، الحاضرون بالمسجد ، ومن يأتي بعدهم يصلي خلف الامام الثاني وهكذا .. ولم يجعل الصلاة الأولى للحنبلي ، بل جعله الأخير ، ربما تواضعاً ، ولعدم الاستفزاز ، وربما إعترافاً بأن أتباعه هم الأقل عدداً .. وصلى هو وابنه محمد وابنه فيصل خلف الأئمة كلهم الحنفي والشافعي والمالكي .. والحنبلي بالطبع ، فزال الاتهام وزالت الحساسية ، وأسقط في يد الملك علي .. بل وزال الاهتمام ، فلا أحد اليوم يسأل ما مذهب الامام الذي يؤم المصلين في الحرم ، وإن كانت القضية وقتها ، على قدر كبير من الأهمية حتى أن المنادين داروا في أسواق مكة يبشرون « باعادة الأئمة الممنوعين

من أداء الصلاة » !

ولم يقتصر الأمر على المصالحة ، بل أعلن ابن سعود عن المؤتمر الاسلامي ، وعن نيته « في جعل الأمر شورى في هذه البلاد بين المسلمين » « وقد أبرقنا لكافة المسلمين في سائر الأنحاء أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر إسلامي عام يقرر شكل الحكومة الذي يرونه صالحاً لأحكام الله في هذه البلاد المطهرة . »

وقال في خطابه أمام قيادات مكة :

« لا أريد أن استأثر بالأمر في بلادكم دونكم ، وإنما أريد مشاورتكم في جميع الأمور ، إن العرب تقول : الرجال ثلاثة : رجل ، ونصف رجل ، ولا رجل .. فالرجل من كان عنده رأي ويستشير الناس في أموره ، ونصف الرجل من ليس عنده رأي ويستشير الناس . وليس برجل ، من لا رأي له ولا يستشير » .

وطلب من الحاضرين أن يجتمعوا لانتخاب من يمثلهم في مجلس الشورى الأهلي ، « أيها الاخوان أرجوكم السرعة في العمل (الانتخابات) لامتع نفسي برؤية هذه البلاد المطهرة تتمشى فيها الحياة الجديدة » .

وقد جرت الانتخابات وتم تشكيل مجلس الشورى قبل أن تسقط جدة .. وبذلك زالت مخاوف الحجازيين ، أن يحكم الحجاز لصالح نجد ، أو حتى على طريقة نجد ، في الوقت الذي كان الحسين يهاجم الشورى !

وقد جاء تعيين « حافظ وهبة » محافظاً لمكة* ، يخدم الدعاية السعودية عن نيتها في « إسلامية » الادارة للاراضي المقدسة ، بدليل تعيين مصري محافظاً لمكة وإن كان في ظني أن هذا الهدف لم يكون مقصوداً ، بل جاء عفوياً في إطار سياسة عبد العزيز ومفهومه عن حركته بأنها عربية يشغل فيها المنصب ، العربي الكفء بصرف النظر عن مسقط رأسه** . ولقد ظل هذا هو السلوك السعودي ، إلى ان صدموا بموقف الشوام في حصار جدة ، ثم بمطالبة مثقفي الحجاز وتجاره بمناصب هؤلاء « الوافدين » ثم استشرى المرض بما جاء من البلدان العربية التي لم تتعلم من الوطنية إلا الاقليمية .

كذلك أطرب المسلمون رفضه وساطة الأجانب في قضايا المسلمين ، فقد رد على فيلبي : « ليس من مصلحتي الخاصة ، ولا من مصلحتك يا صديقنا جعلكم وسيطاً في هذه المسألة الاسلامية المحضة[١١]م » . أما الريحاني « موحد العرب » الذي كان يأمر وينهي في جدة في بلاط الملك علي فقد جاءه رد ابن سعود « إن مشكل الحجاز يجب أن يحله المسلمون » ...

---

* الأمر الذي مازال — بعد أن مات الجميع — يثير غيظ مؤرخ ، مما يبدو واضحاً في صيغة الخبر إذ قال : « ثم ولى خالد بن لؤى شؤون الاخوان . والشريف هزاعا العبدلي أمور بدو الحجاز . وأقام حافظ وهبة محافظا على مكة يعينه بعض رفاقه ، ثم استبدل به أحد أهل مكة[٦٠] » .

** في هذا الوقت سجل الريحاني اعتراض العراقيين على استخدام المدرسين السوريين « رغم شدة الحاجة إليهم » !

عقد عبد العزيز مؤتمراً حركياً وقرر « الحج* » أي فتح الحجاز .. وانطلقت قوات « التوحيد » المتدينة إلى الطائف .. حيث كانت الهزيمة الفادحة لقوات الشريف الذي لم ينج بحياته إلا بانقطاع الهاتف بينه وبين والده الملك في جدة ، فاستحال وصول أوامر انتحارية للقائد العاجز أمام الهول الزاحف ، ففضل العصيان على الذبح** !

اختارت بريطانيا الحياد وأعلنت التايمس[61] « إن الحكومة البريطانية محايدة بصفة نهائية ، ولو طلب منها مساعدة عسكرية فسترفض بحسم وأدب » وبعد يومين سيكتشف رمزي ماكدونالد أنه خلاف ديني ومن ثم فان الحكومة ترفض التدخل في خلاف ديني !

وتهبط البراءة على وزير خارجيته « أوستن تشمبرلين » بطل ميونخ فيكتب متساءلا لوزارة المستعمرات : « لست أدري لماذا نتورط في حرب من أجل حسين » ؟!

أيوه صحيح لماذا ؟!

ونسوا أن الحسين هذا قد ورط العرب والترك في حرب من أجلهم ، ولكن بريطانيا لا تعرف إلا مصالحها ، وفي ضوء قدراتها ، وما كان بوسعها مواجهة ابن سعود قال الريحاني : « لم يعد في إمكان بريطانيا أن تقول لعاهل نجد ، افعل هذا أو امتنع عن هذا إكراماً لي . وليس في إمكانها ، أو في إرادتها أن ترسل الطيارات والسيارات المصفحة على الاخوان في الحجاز ، كما تفعل في العراق . وكما فعلت في الشرق العربي ، وهب أنها أمدت الحسين بالسلاح والذخيرة ، فهو لا يجد في البلاد من يلبون دعوته للدفاع . فهي لو شاءت أن تنقذ المنقذ الأكبر بعد سقوط الطائف لما استطاعت ، فاتخذت لذلك سياسة الحياد***، تحفظ بها كرامتها في مدة الملك علي القصيرة[62]» .

وفوجيء الملك حسين بآخر شيء كان يتوقعه .. أعيان جدة يطلبون منه التنازل لابنه

---

* في ٥ يونيه ١٩٢٤ – ١٣٤٢ هـ ترأس الامام عبد الرحمن مؤتمر علماء نجد وسئل السلطان عبد العزيز عن الأسباب التي تفرض على المسلمين الرضوخ لسياسة الملك حسين في منعهم من أداء الحج ، فأعلن عبد العزيز أن هذه الأسباب قد زالت . وكانت هذه هي إشارة الحرب ، ولعل ذلك يفند زعم حافظ وهبة بأن عبد العزيز كان مترددا حتى بعد فتح الطائف ، فقرار المؤتمر كان تأمين الحج أي إزالة سلطة الشريف من مكة والمدينة .

** كان الملك قد أمر ابنه علياً بعد هروبه من الطائف بالعودة إلى الهدى على مقربة من المدينة .. (الطائف) التي احتلها الاخوان وقال في أمره : « الطاعة ولو ذبحت » !

*** هذا ما كتبه الريحاني في كتابه المعد للتداول العلني ، ولكن في تقريره السري الذي كتبه لوزارة الخارجية الأمريكية اعترف بأنه توجه إلى مصر ، بعد لقائه بالأمير عبد الله ، حيث اجتمع بالقنصل البريطاني في بور سعيد « مستر بالمر » ، وقلت له : « إن اتخاذكم موقف الحياد في الحرب الدائرة بين نجد والحجاز ، هو مساعدة غير مباشرة لابن سعود ، ونصحته بالتدخل للوساطة لاستعادة نفوذ بريطانيا . إنني إذ أسأل بريطانيا أن تتابع من حيث توقفت ، فتتقدم وتقول لابن سعود والملك علي : قفا ، وتجمعهما معاً وتساعدهما على حل خلافاتهما ، فأنا أخدم بريطانيا أيضا لأنكم عندما تلعبون دور صانع السلام تنقذون ما بقي من نفوذكم في الجزيرة ، وتأخذون بالسياسة التي ستحمي مصالحكم في كل من البحر الأحمر والخليج . »

علي ! وحاول الملك الشيخ ، المناورة بكافة السبل ، وفي مقدمتها رفض التنازل لابنه وأخيراً قبل ورحل في يخته الشهير إلى العقبة ، مقتنعاً بان الانجليز خلف تعيين ابنه ! فقد أبرق لوكيله في مصر عبد الملك الخطيب : « أصدقاؤك الانجليز لا يريدون لي أن أستمر في الملك ، ويريدون تعيين ابني الأمير علي مكاني » !.

لم تكن هناك وسيلة لاقناعه في هذا السن بأن مثل هذا « الحدث » يمكن أن يكون مبادرة من رعيته ، ولا دخل لبريطانيا فيه !

ثلاث نقاط سنقف عندها قبل أن نفرغ من قصة الأشراف في الحجاز :

مذبحة الطائف

حصار جدة

المؤتمر الاسلامي .

واذا كنا سنناقش « مذبحة » الطائف في فصل الاخوان .. فيكفي هنا بعض ملاحظات : فقد أشار مؤلف كتاب الملك حسين* الى « ان الأمير علي منع أهالي الطائف من مغادرتها ثم هرب هو بجيشه ، وأن المدينة سلمت ودخل الاخوان بأمان ، وفجأة أطلق عليهم النار من نقطة بوليس ، فجن جنونهم ، واعتبروه كمينا وأعملوا السيف في البلدة » ولكنه يقول أيضا : « ان القاضي والعلماء اعتصموا في مسجد ابن عباس فقتلوا جميعاً الا أنه يؤيد الرواية القائلة بأن « عدد القتلى خارج وداخل المدينة لم يتجاوز ثلاثمائة قتيل » . واذا عرفنا أن هذه هي أهم معركة في حرب الحجاز فان الرقم يبدو لنا غريبا على الدعاية التي انتشرت حول مذبحة تترية ! ولكنها كانت من صنع الدعاية البريطانية تولتها « رويتر » وروجها المقطم في العالم العربي ، والتايمس أوف انديا في الهند ، بل عثرنا على تقرير أمريكي يقول ان السلطات البريطانية في عدن ، سمحت أو استقدمت بعض الهنود لالقاء محاضرات علنية في محمية عدن حول « فظائع » الغزو الوهابي** !..

---

* ويزعم أيضا أنه كان هناك خلاف بين فيصل وسعود حول من يتولى قيادة القوة المتوجهة للطائف ، ولذلك لم يعين أحد منهما مما كانت له نتائج خطيرة[٦٣] ولكنه لم يذكر مصدراً ولا وجدنا نحن مصدراً يؤيد روايته .

** انظر تقرير القنصلية الامريكية في عدن بتاريخ ١٩٢٦/٨/١٧ (١٣٤٥) . وقد قام بالحملة اثنان ادعيا أنهم من المولوية ، وتبذلا في رخص الدعاية فزعما أن الاخوان طلبوا من أحد رجال الطائف حريمه فلما رفض ذبحوا أهل البيت ! وقالا انهما رأيا ابن سعود يطلق النار على قبر النبي ... وهذا بالطبع يثبت أن بريطانيا كانت تحاول حصار المد السعودي ولو بالاسفاف في الدعاية المضادة . وقال جون حبيب « ان عطار يبدو متحاملا بغير مبرر على ابن لؤى وابن بجاد ولذا يبالغ في وصف مذبحة الطائف ، ويحملهما مسئوليتها » وقرر جون : « انه عندما دخل ابن بجاد المدينة جمع النساء والاطفال في حديقة قصر شبرا وقدم لهم الطعام والماء . وكان المسئول عن حمايتهم هو ماجد بن ختيلة الذي اخبر جون أن الاخوان وان لم يظهروا أية رحمة بالمحاربين الا أنهم لم يقتلوا ولا جرحوا مدنيا واحدا » .

فما دامت أسلحة بريطانيا عاجزة عن النيل من سعود عسكريا ، فلتضربه باعلامها وأجهزتها ... وقد حاول الملك علي بدوره استثارة العالم الاسلامي ، فكتب وأذاع رسالة موجهة لعبد العزيز يطلب فيها : « ابلاغ قائد جيشكم بمكة ، برفع ممنوعية أداء فريضة الدين من قبل الائمة الثلاثة فورا » ! الا أن اجراء ابن سعود الذي اشرنا اليه أبطل مفعول هذا الزعم ، فاخترع اكذوبة ضرب القبة النبوية !

ولكن الحرب النفسية أثرت في الملك عبد العزيز ، بالاضافة الى تخوفه من عودة المحافظين للحكم وهم الذين احتضنوا الأشراف ، وكذلك الاتفاق الانجلو ـ فرنسي على تسوية قضية سوريا والموصل . وأهم من ذلك كله أنباء الانقلاب في مصر والسهولة التي أطاح بها الانجليز بحكومة الاستقلال ، والعقوبات المذلة التي فرضت على مصر لقتل انجليزي واحد على يد جمعية سرية ..

كان من الطبيعي أن يتحسب ابن سعود حساب ذلك كله وهو يزحف على الحجاز ، ولكن الصورة التي عرضها حافظ وهبه ، يصعب علينا قبولها اليوم ، حتى وان كانت العادة قد جرت على أن ينقح الكاتب حواره ، لكي يبدو أكثو احتراما في حواره مع المسئول ، ونحن نصدق وهبه في أن الملك سأله عن تأثير التغيير الوزاري في بريطانيا ، وهو سؤال طبيعي جدا ، وضروري من الملك ، واجابة « وهبه » صحيحة نظريا ، وصدقت تاريخيا ، ولكنها لا تنفي الحاجة للسؤال والحسابات من قبل القيادة . أما ما لا نوافقه عليه فهو الزعم بأن ابن سعود شك أو تخوف الى درجة العدول عن الحملة ، أو أن الشيخ جرؤ على القول للسلطان : اذا كنت في شك من أمرك فخير لك أن ترجع الى بلدك* » .

ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بأن هذه المخاوف ، بالاضافة الى الضجة التي قامت حول أحداث الطائف ، جعلت عبد العزيز يفضل حصار جدة بدلا من اجتياحها بالاعصار الاخواني . وهي غلطة وان لم تكن في مستوى غلطة سعود الكبير ، الا أن نتائجها لا تقل خطورة ، فقد سببت التواءات في المسيرة وانتكاسات على شتى المستويات . وهنا نلمس تناقضا لوهبة ، فهو من ناحية يشاركنا** في نقد الحصار فيقول : « ولم يكن هناك ما يمنع الاخوان من الاستيلاء على جدة ، لولا ما أمرهم به امامهم . فكانت هذه فرصة للشريف علي ، حصن فيها جدة ، وحشد فيها القوات العسكرية ، التي جمعها من فلسطين وشرقي الأردن ، مما جعلها تقاوم نحو سنة٦٤ » .

ولكنه ينسى نفسه ويدعي شرف نصح الملك بعدم الاستيلاء على جدة ! « خشية أن يقع في جدة ما وقع في الطائف فتكون العاقبة وخيمة » !

---

* انظر فصل « المؤلفون » ..

** وله فضل السبق طبعا .

تحصن علي في جدة ، وتدفق عليه المتطوعون* والنصابون والوسطاء الذين أعطوه انطباعا خاطئا بامكانية المساومة ، واقناع الانجليز بتغيير موقفهم . فالنصاب العراقي في لندن ، لم يجد الا فيلبي يبعث به الى جدة للتوسط ، مع اشاعة ، روجها هو أو فيلبي ، أو انتشرت بمجرد ظهور فيلبي في جدة وليس في الطائف . ان موقف بريطانيا قد تغير وجاءت النجدة المنتظرة ! وقد حاول « بولارد » المقيم البريطاني في جدة ، بكل الوسائل ، توضيح الأمور بتأكيد أن حضور فيلبي هو مبادرة شخصية ، وأنه لا يمثل الحكومة البريطانية بأية حال »[٦٦] .

أما الريحاني** فقد ألزمه عبد العزيز حده ، عندما كتب اليه يقول انه يستطيع ايقاف الهجوم الشريفي يومين ، رد عليه ابن سعود بسخرية ملكية : « انك لا تقدم لنا أية خدمة بذلك ، بل نحن نرجوك أن تجعلهم يتعجلون ولا ينتظرون . لقد قال الأمير علي انه لا يحاربنا في الحرم . لذلك خرجنا اليه لكي يقاتلنا[١٢]م » . وعلى الفور حزم الريحاني حقائبه للسفر ، وودعه الاخوان بقنبلة سقطت أمام بيته ، وحمل شظية منها الى الأمير علي في وداعه الأخير له .

الوحيد الذي سمح له عبد العزيز بالتوسط هو حكيموف ، قنصل الاتحاد السوفيتي الذي توجه الى مكة (وهو مسلم) مع مترجمه « رضا لاري » وهو من أصل ايراني . وقابلا عبد العزيز في مكة . وانتهز حكيموف الفرصة لتصديع رأس السلطان في شرح دور الامبريالية في دعم الهاشميين ، وموقف الاتحاد السوفيتي نصير الشعوب ، وحكاية سايكس بيكو .. الخ . ويبدو أن المدرس السوفيتي ومترجمه قد أجهزا على صبر ابن سعود . فوافق على استقبال وزير خارجية الملك علي ، الذي ما أن سمع بالموافقة حتى « طار في الهواء من شدة الفرح » . ولكن وزير خارجيته ما أن وصل الى معسكر ابن سعود حتى نسي سيده ، وراح يجيب على أسئلة ابن سعود ، الذي أبدى أسفه البالغ لأن « السوريين والفلسطينيين يحاربون ضده ، كما أبدى السلطان اهتماما كبيرا بمعرفة نصوص معاهدة الحماية الانجليزية الحجازية*** . فرد وزير الخارجية بأنه لا يعرف ! فسأله السلطان :

---

* قال الريحاني ان الملك علي باشر تجنيد حوالي ألف وخمسمائة متطوع بمساعدة بعض الزعماء الفلسطينيين[٦٥] .

** زعم الريحاني في تقريره السري لحكومته الأمريكية أن ابن سعود دخل معه في محادثات حول اقتراحه بأن يقبل وجود حكومة الحجاز على ان يكون لسلطنة نجد وضعها الخاص في المملكة الحجازية . ونعتقد أن ابن سعود كان يشاغله ويكسب الوقت لمعرفته بأنه متعاطف مع الهاشميين ، ويبلغهم كل ما يصله .

*** كان الأمير علي قد استعجل توقيع المعاهدة طلبا للحماية . ولكن الانجليز رفضوا . وعلى أية حال لم يكن في المعاهدة نص بالدفاع المشترك بل « بذل الجهد لتحقيق تسوية سلمية . فحتى لو وقعت لم تكن لتفيد[٦٧] » . وقد أشرنا الى المذكرة البريطانية التي قالت ان معاهدتها مع الادريسي لا تتعهد بحمايته ضد العرب .

ألم تقرأها ؟
قال : لا ..
كيف وانت وزير الخارجية ؟
انا وزير خارجية للتوقيع فقط . وهناك رسائل كثيرة بعثت باسمي ، ولم أرها قط[٦٨] » !
ولعل أول خسائر خطة الحصار ، وان لم تكن أخطرها ، هو اقتطاع معان والعقبة ، فقد انتهز عبد الله فرصة المحنة التي وقع فيها أبوه وأخوه ، ليقتطع للانجليز ما أرادوا من الحجاز ، وأقنع أخاه : « سلموا بضم العقبة ومعان وأنا أضمن لكم من الانكليز ما يأتي : ثلاثمائة الف ليرة تعويض الضم ، ومئتى ألف ليرة ثمن الأملاك غير المنقولة ، وقرضا قيمته خمسمائة ألف ليرة يعقد حالا ، ثم ابعاد ابن سعود عن الحجاز حتى تربة والخرمة ، وجعل الخط الحجازي رهن اشارتكم[٦٩] في كل وقت » ...
وتأمل ترتيب أولوية العرض .. المال أولا ..
وهكذا أثبت الترك أنهم يحبون الحجاز أكثر ، فقد قاتلوا بريطانيا من أجل اثبات حجازية العقبة ..
على أية حال ، بريطانيا فضلت ابعاد من تقدر عليه ، فاستخدمت بوارجها ضد الشيخ المعزول ، الذي قررت نفيه الى قبرص . وبكى الشيخ مستصرخا مهددا معاتبا « انني منذ ابتداء النهضة حتى هذه الساعة ، وأنا مخلص في ولائي لحكومة جلاله ملك بريطانيا . ثابت على مبدئي ، اعتمادا على شرفها وعهودها ومواثيقها الرسمية التي قطعتها على نفسها .. ثبت على مبدئي ، وأخلصت في عملي ، وقمت بواجبي ، فما علي من غيري .. لا أغادر العقبة الا اذا أبلغت رفع الانتداب ! والا فلن أبرحها ولو أدى الأمر الى هلاكي ، واذا شاءت بريطانيا فلتبعث بي الى عالم المريخ !.. »
غير أن ابنه « الحكيم » قال له : « لابد من الطاعة يا ولي النعم » . فبدأت المساومة المذلة : « اذهب الى حيفا ؟! »
لا .. قبرص ..
أمهلوني يومين ..
أبدا فورا ..
أركب يختي الخاص ؟!
الا البارجة دلهي ! نعم دلهي فقد صدقت وجهة نظر المكتب الهندي الذي لم يثق فيه .. فلتكن « دلهي » هي الخاتمة .
وعلى البارجة دلهي قال الملك : « أعترف أنني خدعت ، ولم أكن أعرف حقيقة الأوروبيين . ولم أفعل الا بحسن نية ، وأنا لم أطلب الخلافة ، بل ان أناسا خدعوني وحملوني على قبولها[٧٠] » .
وفي الكويت قال فيصل الدويش ، عندما أفلت ابن صباح من يده .. « ان المؤمن اذا خدع بالله ينخدع » ولكن الشريف انخدع بالانجليز ولورنس ، وذهب المكتب

البريطاني بالقاهرة . والأوروبيون يقولون ان الطريق الى جهنم مرصوف بحسن النية . أما الذين خدعوه وحسنوا له قبول الخلافة فهو ابنه عبد الله ، يا ولي النعم* !

وقد ختم المؤلف الذي أراد انصاف الحسين بعد أكثر من نصف قرن بحثه بقوله : « ان الحسين لم يكن خائنا للقضية العربية ، ولقد رفض الانتداب البريطاني على فلسطين » .

ولا أحد يجادل في ذلك الا المؤلف نفسه ، الذي قال في نفس الصفحة : « ان حسينا ـ على أية حال ـ كان يحبذ وجود حركة يهودية في فلسطين العربية ، ولكن ليس الى حد تشكيل أغلبية يهودية » !

الحسين لم يكن خائنا ، ولكنه أيضا لم يقد ثورة تحريرية ، بل كان ضحية السذاجة والجهل ، أوكما قال ابنه زيد « كنا بدو لا نفهم في السياسة الدولية » . أو حتى كما قال « ليدل هارت » : « مهما تكن أخطاؤه ، فقد ضرب مثلا على الشرف . حتى يمكن القول أنه كان أشرف من أن يصلح رئيس دولة ! »

اختلطت الغفلة ، بطموحات فوق القدرة ، بلا رسالة ، على الأقل من جانب أبنائه ، فتحولوا الى وصوليين ، وذر الحقد فوق ذلك الخليط .. مع فارق السن ، وميراث التاريخ ..

فكان ما كان ..

ولله الحمد والمنة ..

---

* هذا رأينا في مسلكية الشريف حسين نشرناه أول مرة عام ١٩٦٦ (١٣٨٦ هـ) في كتابنا « القومية والغزو الفكري » . ومن الطريف أن كاتبا اشتراكيا قدم فينا وقتها بلاغا الى الاتحاد الاشتراكي بتهمة الرجعية ومعاداة الثورة اللورنسية ، والعمالة للدولة العثمانية التى هاجمها الميثاق !..

وبسبب الحصار ، انطلقت الوساطات العربية والاسلامية ، مما ملأ قلب عبد العزيز والسعوديين بالمرارة .. اذ لا يمكن فهم دوافع هؤلاء الوسطاء . أكانوا يريدون صلحا يبقي الحكم الشريفي في جدة وحدها ؟ أم اخراج ابن سعود من الحجاز كله ، واعادة الوضع الى ما كان عليه ؟

كان من حق السعوديين أن يرفضوا الوساطة باعتبار أن هدفها غير واقعي وغير ممكن وغير مطلوب . فالوساطة الوحيدة المعقولة والمطلوبة هي التي تدور حول شروط تسليم جدة ، وخروج الأشراف من البلاد . وهو ما فعله الانجليز في النهاية . أما الجهود الأخرى فقد رأى فيها السعوديون محاولة لحرمانهم من ثمرة انتصارهم ، أو كسب الوقت حتى يتدعم موقف الأشراف . فلم تكن وساطة الريحاني « غصن زيتون » يستحق أن يتحسر عليها مؤرخ سعودي ، فيقرع عبد العزيز الذي رفضها « فاحترق غصن الزيتون وا أسفاه » ! بل ويقزم الخلاف فيقول ان الريحاني « حاول أن يصلح بين فريقين وأن يكون بينهما الوئام والصلح بدلا من الشقاق والخصام »[٧١] ! فكل ما بين السعوديين والأشراف وقتها هو شقاق وخصام . كان يمكن أن يحل الريحاني محلهما الصلح والوئام ، لولا رفض ابن سعود حارق أغصان الزيتون !..

واذا كان التخلص من وساطات الريحاني وفيلبي ، قد تم بسهولة ، باعلان أن الأمر من شئون المسلمين ، فان وساطة الدول الاسلامية كانت مشكلة أكبر ، فقد طلبت مصر التوسط « وأرسلت وفدأ كبير الشأن يضم رئيس المحكمة العليا ، أو شيخ الاسلام المقبل « محمد مصطفى المراغي » وسكرتير الملك فؤاد ، مع خطاب من الملك يعرض وساطة الوفد للصلح » ، ولكن ابن سعود كان قد اكتشف الحل الذي أطلق آمال المسلمين ، وكسب الى صفه الوسطاء ، سواء عن عقيدة ، أو عن تطلع لدور ما في الحجاز .. ألا وهو « المؤتمر الاسلامي » الذي نعتبره من سلبيات قرار حصار جدة .

على أية حال لقد خلب الاقتراح لب الشيخ المراغي ، أما سكرتير الملك فؤاد ، فقد أسعده ، ما خص به السعوديون مليكه من تكريم ، اذ أعطوا الملك فؤاد شرف توجيه الدعاوي للمؤتمر المقترح ، فانصرف الوفد شاكرا . وتخلى عن الوساطة ، بل أصبحوا يتعجلون زوال الملك علي !

وحاول الامام يحي أن يتدخل بعدما : « حل بالأماكن المقدسة من الكوارث من نتائج الحروب التي اشتعلت نارها بينكم ، ووصل الاستصراخ من الأهالي وعموم المسلمين لعموم ذوي العلاقة من المسلمين بالحرمين الشريفين ومشاعر الحج » .

فأرسل له السعوديون بطاقة دعوة للمؤتمر !

أما الوفد الايراني الذي جاء يحقق في الاشاعة التي روجها الأشراف عن ضرب المسجد النبوي ، فما أن عرف أن الملك فؤاد هو عريف الحفل ، حتى نسى القبة النبوية

والوساطة والأشراف ، وبدأ الاحتجاج على تولي مصر تلك المهمة وهي « ليست مستقلة » .

ومع أن جميع الوسطاء جاءوا من جدة ، ولم يكلف ابن سعود ، ولا سمح لأحد أن يتوسط باسمه ، فان الملك علي ، ما أن انفض عنه الوسطاء ، حتى اكتشف « أن تدخل الأجانب بين الأمم المسلمة ضار بنا وبمصلحة بلادنا ، ويغري عدو العرب على الاستفادة من الخصام ، وأنت تعلم أنه عدو شديد ، عنيد لا يستنيم الى رعاية العهود ولا يطمئن الى السكينة . . » !

مع أن الذين كانوا يديرون الوساطة في قصره : أمريكي وبريطاني وعراقي . بل ويهاجم الهنود والايرانيين لأنهم أعاجم ناسيا قول جده : لا فرق بين عربي وأعجمي ... فيقول : « وما شأن الأعاجم في بلادنا ؟ فاذا جدوا في استقلال بلادهم كان ذلك أجدى عليهم من كل أمر .[72] »

أما العدو فكان قد استفاد الحد الأقصى من الوضع ، فالى جانب اقتطاع العقبة ومعان في الحجاز ، جرت تسوية حول الحدود العراقية والأردنية (اجتماع كلايتون من ١ ـ ٣ نوفمبر ١٩٢٥ ـ ١٤ ـ ١٦ ربيع الآخر ١٣٤٤) .. ومن ثم قرروا القاء الملك علي في البحر ..

ولم تكن هناك أية مصلحة لا شريفية ، ولا عربية ، في اطالة أمد الحصار ، فالملك علي كان يعرف أنه لا فائدة ، وأن جيشه هو آخر جيش يمكن أن ينتصر على الجيش المحاصر للمدينة ، وقد ترك القنصل البريطاني في جدة « بولارد » وصفا طريفا للجيش الهاشمي قال فيه[73] : « ان الطيار الروسي الوحيد في جيش الملك علي كان اسمه شبريكوف* ، ومساعده** بعين واحدة ويرفض الطيران الا على ارتفاع ألف قدم . ويلبس دائما نظارات سوداء . لذا فان طلعاته الاستكشافية ، لا أظن أن لها قيمة . أما السيارات المصفحة التي اشتراها لهم (الأمير) لطف الله . فكانت لوريات غرقت في الحرب العالمية الأولى ، ثم جرى انتشالها وزودت بصفائح ينفذ منها الرصاص*** » .. ورغم ذلك ظل يرفض التنازل حتى حصل الانجليز على مطلوبهم ، فلجأ اليهم عارضا التسليم والرحيل ، ولو طلب ذلك من عبد العزيز لأعطاه فوق ما حصل عليه من الانجليز**** ..

---

* انفجرت طائرة الأشراف في الجو بانفجار القنبلة في يد مساعد الطيار الأعور ، وهو يحاول القاءها على معسكر الاخوان في الرغامة (١٣٤٣/٦/٢٣ ـ ١٩٢٥/١/١) ولم يفد الأمير على من استخدام الروس البيض الا اقتناع الاخوان بأن ايمانهم يسقط التكنولوجيا الطائرة ، ودفع الاتحاد السوفيتي الى تأييد ابن سعود .

** مساعده كان سوريا .

*** لاحظ ينفذ منها وليست عازلة للرصاص !

**** نصت اتفاقية التسليم على عدم مصادرة أملاك الاشراف « **الموروثة** » وتستثنى أية ثروة جمعت خلال الحكم باعتبارها غير شرعية ، بمفهوم الامارة عند السلف .

المؤتمر الاسلامي

لعبت فكرة « المؤتمر الاسلامي » دورا حاسما في تجميع الرأي العام الاسلامي حول عبد العزيز خلال حربه مع الاشراف في الحجاز ، وأغلب الظن أنها من اجتهادات الشيخ « حافظ وهبة » . وقد وافق عليها عبد العزيز .. أما لماذا ؟ ، فهذا هو السؤال الذي اكتفى المؤرخون بالقفز فوقه ، من خلال تأييد إلغاء عبد العزيز للفكرة ، وتمزيق كل الذين احتجوا على هذا الالغاء أو لم يقتنعوا بالاسباب التي « ادعاها » عبد العزيز في مكاتباته الرسمية . بينما التدقيق والتنقيب ، يشهد لعبد العزيز ليس بالبراعة السياسية ، وحدها ، بل والوعي الكامل بمسئولياته الوطنية والقومية ، وفهمه لوضعية العالم الاسلامي . ولو نقب هؤلاء ودرسوا لاستغنوا عن لعبة « الثلاث ورقات » في تفسير موقف عبد العزيز ، بادعاء أنه لم يكن يريد الحجاز ولا يرغب في حكمه ، ولذلك كان صادقا في استعداده لتسليمه للمسلمين يحكمونه لولا أن غصبه الحجازيون ! وغير ذلك من الاجتهادات او الفتاوي التي لا يحتاجها عبد العزيز ولا تتفق مع حقائق التاريخ .

أدرك عبد العزيز ، بذكائه اللماح ، الأثر الذي يمكن أن تحدثه هذه الفكرة في العالم الاسلامي . الذي كان بعد سقوط الخلافة ، أشبه باليتيم الذي فقد أبا وهميا .. ويتوقع أن تكون هذه هي نهاية « الجامعة الاسلامية » أو الرابطة الاسلامية . وربما الاسلام ! حتى أنهم كانوا يتناقشون في مصر « هل يكتمل الاسلام بدون خلافة » ؟! وها هي دعوة « اسلامية » لأول : « مؤتمر إسلامي عالمي » يبحث ضمن ما يبحث مستقبل الحجاز ، بلاد الحج ، أرض مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والحرمين .. ملكت الفكرة قلوب الهنود والجاويين ، وأشجت السرايا المصرية ، والبلاط الايراني ، ولم تحرك عرقا في جماهير أي بلد عربي !

ومن ناحية الاخوان لم يكن للفكرة أي معنى ، فهم الذين قررت سيوفهم مستقبل الحجاز وهم يعتبرون أنفسهم الجماعة ولا مسلمون خارج الجماعة ، فلا تناقض بين انفرادهم بتقرير مصير الحجاز وبين القول بأن الحجاز « للمسلمين » جميعا فالمسلمون سواسية يسعى بذمتهم أدناهم ، ولذلك ناب عنهم خالد بن لؤي والشيخ وهبة ، فتوليا ادارة مكة وتنظيمها .. طبق رغائب العالم الاسلامي ، كما قال عبد العزيز : « إن مكة للمسلمين كافة ، فأمر إدارتها وتنظيمها يجب أن يكون طبق رغائب العالم الاسلامي » !

ولكن الأمر لم يكن من الممكن حله بمثل هذه الألاعيب المنطقية ، فبقدر ما فهمت

دعوة عبد العزيز في الخارج ، إلى مؤتمر اسلامي يقرر مصير الحجاز ، على انها تنازل أو مصالحة من الجانب الوهابي ، إذ أنها تعترف بوجود مسلمين ، ليس فقط خارج الهجر ، بل وحتى خارج سيطرة « خيالة التوحيد » حراس الشريعة ! .. فانها فهمت بين صفوف الاخوان بالعكس تماما ، على أنها تفريط ومداهنة .. وقد أشار عبد العزيز الى وجود معارضة قوية وصلت إلى حد التهديد بخلعه ، وإن كان المؤرخون العرب قد مروا بهذه النقطة مرور الكرام !

وقد التزم « عبد العزيز » في أكثر من برقية وخطاب ، بفكرة تدويل الحجاز ، ففي خطابه عند المسير الى مكة بعد ان فتحها جيشه من الاخوان قال : « إن مكة للمسلمين كافة ، فيجب أن يكون أمر إدارتها وتنظيمها وفق رغبة العالم الاسلامي ، إننا سنجتمع بوفود العالم الأسلامي هناك ، وسنتبادل معهم الرأي في كل الوسائل التي تجعل بيت الله بعيداً عن الشهوات السياسية ، إن الحجاز سيكون مفتوحا لكل من يريد فعل الخير من الافراد والجماعات[٧٤] » .

وفي رده على برقية الحزب الوطني الحجازي الذي لعب الدور المباشر في خلع الشريف حسين ، قال عبد العزيز : « لا نطمع في امتلاك الحجاز أو التسلط عليه ، ولهذا فهو يترك للعالم الاسلامي . هذا ما نراه من البداية لتلك البلاد المقدسة . واذا خرج الحسين وابناؤه فأنتم آمنون في بلادكم* » .

وأكدت ذلك في برقيته الجوابية الى الملك علي : « ونحن لا نريد سوى تحرير الحجاز للمسلمين ، وللعالم الاسلامي الكلمة الاخيرة في أمر الحجاز ، ومستقبله ، فان أردت السلامة فاترك الأمر للمسلمين** » .

وفي منشوره بتاريخ ٢٢ صفر ١٣٤٣ ــ سبتمبر ١٩٢٤ قال : « وأن يكون أمر هذين الحرمين الشريفين شوري بين المسلمين ، وألا يمضي فيهما أمر يضر بهما أو بشرفهما أو بأهلهما ، إلا ما توافق عليه المسلمون وأمضته الشريعة » أما حافظ وهبة ــ صاحب الفكرة في اعتقادي ــ فهو يزيدها وضوحا وتوريطا في الكلمة التي كلفه السلطان بالقائها في اجتماع العلماء في مكة يوم السبت ٩ جمادي الاولى ١٣٤٣ . (ديمسبر ١٩٢٤) :

« إن عبد العزيز يريد أن يرجع هذه البلاد الى عهد الشوري الذي نشأ فيها ، وهو لا يريد أن يستبد بكم ، ولا أن يجري في بلادكم إلا ما يوافق شرع الله . والأمر الثالث هو أن الامام عبد العزيز ، كما ستسمعون منه ، لا يريد أن يكون هذا البيت ملكا لأحد بل مشاعا بين المسلمين ، ولكل شعب من الشعوب الاسلامية ولكل فرد من أفراد العالم الاسلامي حق فيه » .

أما الهنود فقد شطحوا في تفسير الوعد فأبرق « شوكت علي » باسم جمعية الخلافة إلى الحزب الوطني الحجازي (١٠ ربيع الأول ١٣٤٣ ــ اكتوبر ١٩٢٤) ، « إن مسلمي

---

* برقية جوابية يوم ٢٦ ربيع الاول ١٣٤٣ ــ اكتوبر ١٩٢٤

** ٩ ربيع الثاني ١٣٤٣ ــ نوفمبر ١٩٢٤

الهند لا يقبلون بأي وجه من الوجوه تولية الحسين أو أحد أولاده ، ولا يرضون إلا بتأسيس حكومة ديموقراطية يشترك فيها جميع المسلمين » . وأكد مرة اخرى لابن سعود أن مسلمي الهند « يريدون أن تكون حكومة الحجاز ديموقراطية تخضع لرأي العالم الاسلامي » .

وقد أفادت الفكرة في تبرير رفض الوساطات ، إذ رد عبد العزيز على الوسطاء بأن الأمر لم يعد في يده ، فهو مجرد وكيل عن المسلمين في طرد الهاشميين ليقرروا مصير الحجاز بحرية فهو « قد أعطى عهدا للعالم الاسلامي بأن تكون الحجاز ومكة للمسلمين عامة » .

ولم يذهب الشيخ حافظ بعيدا في قوله إن المنشور الذي أصدره ابن سعود كان له أثره السحري لا في نفوس الحجازيين فحسب بل في العالم الاسلامي قاطبة . وهو يعني المنشور الذي صدر بتاريخ ١٢ جمادي الأولى ١٣٤٣ ـ ٩ ديسمبر ١٩٢٤ بعد دخول مكة والذي جاء في مادته الثانية : « سنجعل الأمر في هذه البلاد المقدسة بعد هذه ، شوري بين المسلمين ، وقد أبرقنا لكافة المسلمين في سائر الأنحاء أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر اسلامي عام يقرر شكل الحكومة التي يرونها صالحة لانفاذ أحكام الله في هذه البلاد المطهرة[٧٥] » .

أما أنا فلدي تفسير واحد لموافقة ابن سعود على فكرة « التدويل الاسلامي » هذه التي أقول على ذمتي ، إنه لم يكن يؤمن بها ، ولا ينوي العمل بها أبدا ، ولكنه كان في حرب والحرب خدعة ، أو كل شيء يجوز فيها ، كما قال للريحاني مرة .. التفسير الذي وصلت إليه ، هو أنه نما إلى علمه أن أعيان جدة قد طلبوا الحماية البريطانية ، **فحاول ابن سعود من ناحية ، تهدئة هذه الجماعة بطرح فكرة حق تقرير المصير ، ووضع الحجاز تحت وصاية وتمويل العالم الاسلامي . ومن ناحية أخرى سد الطريق على أية محاولة بريطانية من هذا النوع ، بافهام الانجليز أنهم سيواجهون العالم الاسلامي كله ، الذي أعطاه ابن سعود السيادة النظرية على ما بقى من الحجاز ، وحمله في نفس الوقت مسئولية الدفاع عن تلك السيادة** ، وفعلا أبرق « شوكت علي » يحذر بريطانيا باسم « جمعية الخلافة » من أي تدخل في شئون الحجاز .

ومن أجل نفس الأسباب كان من الضروري الاسراع بالغاء الفكرة ، ودمج الحجاز في السيادة السعودية بعد أن أصبح تحت سيطرة تلك السيادة لملء الفراغ ...

وحكاية الحماية حقيقة يسترها المؤرخ العربي بثوبه ، كما لم يفعل « ماعز »* لأن المؤرخين العرب يحبون التاريخ نظيفا طاهرا طهورا ، أو يسترون عورة المؤمن ! مع أنه لا عار ولا عورة ، بل الموقف الرائع الذي تجلت فيه عبقرية عبد العزيز ..

ففي ٢٤ سبتمبر ١٩٢٤ ـ ١٣٤٣هـ توجه وفد من أعيان جدة الى مكتب بولارد

---

* في حديث ما عز المشهور

(القنصل البريطاني) يطلبون حماية بريطانيا . وفي اعقابهم جاء وفد يضم على رضا قائمقام جدة ، ومحمد الطويل مدير الجمرك ، وسليمان قابيل عمدة جدة ومدير التعليم ، يطلبون « الانتداب » البريطاني ، لولا برقية من « شوكت علي » إلى صحيفة التايمس يحذر فيها بريطانيا من التدخل في الحرمين ، فتحول أهل جدة الى الاستقلال ، واجتمعوا لبحث الوضع ، وكان يهمهم استقلال الحجاز حتى لا يتأثر إيراد الحج بالسلطة النجدية أو ينفق على أهل نجد »[٧٦] .

ومن هنا ترك عبد العزيز مستشاره يتبسط في إعطاء الوعود التي كادت أن تجعل الحجاز ولاية مستقلة !

« إجراء استفتاء عام لاختيار حاكم للحجاز ، تحت إشراف مندوبي العالم الاسلامي ، استقلال الحجاز داخليا ، وحياده ، لا تعقد حكومة الحجاز اتفاقيات اقتصادية مع دول غير إسلامية ، تحديد حدود الحجاز ووضع النظم المالية والاقتصادية والادارية موكول لمندوبي الممالك والشعوب الاسلامية » .

وكل هذا من انشاء الشيخ وهبة ، الذي تخيل نفسه « بسمارك » وحفظ تاريخ مؤتمر برلين والجزيرة الخضراء وطريقة تعيين أمير التيرول والجبل الأسود وجبل لبنان ... الخ !

ولا شك أن حافظ وهبة قد ذهب بعيداً في فهم سيده ، الذي كان مشغولا بالحصول على الحجاز أكثر من التفكير فيما يحرره الفقيه المصري فلما عرض وهبه عليه هذا المشروع ، زاد ابن سعود من سرور مستشاره بأن كلف الوفد المصري بتولي الدعوة لهذا المؤتمر العتيد ! فاذا بالفكرة تصطدم بأول حجرة إذ سرعان ما ثار الوفد الايراني ، كما قلنا ، وأعلن رفضه تولي مصر الدعوة للمؤتمر ، « لأن مصر دولة « غير مستقلة من كل وجه » ، وتساءل الوفد الايراني : لماذا لا يوجه عبد العزيز نفسه الدعوة لهذا المؤتمر ... ؟ اليس هو صاحب (الفرح) أقصد الشأن ؟!

الاخوان كانوا أسرع في الاجابة على السؤال ، فقد سلمت المدينة للأمير محمد ، ثم تلتها جدة . وأصدر السلطان منشوراً جديدا في ٢٤ ديسمبر ١٩٢٥ ــ ١٣٤٤هـ ــ يؤكد فيه أن « مستقبل البلاد لابد لتقريره من مؤتمر يشترك المسلمون ، فيه ، جميعا لينظروا مستقبل الحجاز ومصالحه » .

ولكن بعد أسبوعين ليس إلا ــ كما يسجل وهبه ــ أعلن السلطان (٢٢ جمادي الآخرة ١٣٤٤ ــ ٧ يناير ١٩٢٦) عدوله عن المؤتمر « لأن دعوته لم تجد استجابة ، ولا كلف أحد خاطره بالرد عليه ، ولذا فقد بايع أهل الحجاز ، السلطان عبد العزيز ، ملكا على الحجاز فأصبح لقب جلالته « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها » !

واستيقظ المسلمون ، وانفجر غضبهم ، واحتجوا .. وخاصة الهنود الذين كان حجمهم الصوتي ، قد زاد كثير بعد سقوط الخلافة وابتعاد الأتراك عن العالم الاسلامي . كذلك غضب الملك فؤاد الذي لم يكن على علاقة طيبة بالاشراف ، كما

سنرى ووقف مع السعوديين حتى دخولهم جدة ، فقد اعتبر فؤاد ـ وله حق لانه كان يجهل الأسباب ـ انه استخدم من قبل السعوديين الذين استغفلوه هو ووفده ، إذ جعلوه داعيا لحفل وهمي ألغي قبل إعداد بطاقات الدعوة ! ..

والحجة القائلة بأن المسلمين لم يتجاوبوا ، حجة هشة ، فلا شك أن الوفود ، ما كان لها أن تتشكل ، ولا حتى الدعوة ما كانت لتناقش جديا ، قبل معرفة مصير الحجاز ، أي دخول جدة ، إلا اذا كان الملك يريد مؤتمر مصالحة ، وهو ما رفضه بالاصرار على طرد الاشراف من الحجاز . ومنذ دخوله جدة إلى الغاء المؤتمر والمبايعة ، لم يمر اكثر من أسبوعين ، ومهما قيل عن « حمية » العالم الاسلامي ، وسرعة اتخاذ القرارات فيه ، وكفاءة التنفيذ والاتصال ، فهي ليست مدة كافية !

ولعلنا نستطيع التعرف على ردة الفعل التي أثارها القرار المفاجيء بضم الحجاز ومبايعة ابن سعود ملكا ، والمسلمون يستعدون لارسال مندوبيهم لتشكيل مجلس الوصاية ، من ردة الفعل او الصدمة التي أصابت المستشار الاكبر لابن سعود ـ في تلك الفترة ـ للشئون الاسلامية والمصرية ، حافظ وهبة ، الذي سجلها بعد أربعين سنة فقال إنه فوجيء باعلانات البيعة وضم الحجاز وفوجيء الملك فؤاد مثله ، فقال للشيخ وهبة عندما تشرف بالمقابلة الملكية في ١٨ يناير ١٩٢٦ ـ ١٣٤٤ هـ ، إن هذا الاعلان يعد نقضا للكتاب الذي أرسله (عبد العزيز) الي مع الشيخ مصطفى المراغي ، وناقضا لكلامك السابق » .

وقد انعكس إحساس الملك فؤاد بالاستغفال على حافظ وهبة ، الذي رأى نفسه يعامل معاملة وزير خارجية الملك حسين فكتب لمليكه خطابا ، ندم عليه فيما بعد ، اذ وردت فيه مثل هذه العبارات :

« أفيدكم بأن « رويتر » اليوم نشر تلغرافا بأنكم ناديتم بأنفسكم ملكا على الحجاز ، فان كان هذا الأمر صحيحا فقد غشكم من أشار عليكم بذلك . لأن هذه المسألة أثارت الرأي العام في الخارج ضدكم . هذا من جهة ، ومن الأخرى إنه لا ينطبق مع العهود التي قطعتموها على أنفسكم أمام العالم الاسلامي ، وملوك المسلمين ، في تشكيل حكومة الحجاز . ولو تريثتم قليلا لحين انعقاد المؤتمر الاسلامي ، وتقرير مصير البلاد لكان خيرا وأبقى ، والنتيجة كانت لكم على كل حال .. ويظهر أن هناك أيديا أثيمة حسنت في نظركم هذا الامر ، حتى تقضي على فكرة المؤتمر الاسلامي ، وتقضي في الوقت نفسه على سمعتكم في الخارج .

لقد دهشت جداً من هذا الانقلاب ، ودهشت بالأكثر من عدم إخباري بشيء مطلقا يتعلق بهذا الامر ، مع وجودي في مهمة رسمية ، وفي بلاد متمدينة يسأل الناس فيها عن كل شيء أفلا يصح أن أخبر بمثل هذا الانقلاب العظيم ؟ هل يصح أن قنصل العجم في جدة يرسل إلى السفير هنا هذا الخبر ، وأنتم لا تخبروني بشيء ؟ إن هذه المعاملة لا أرضاها لنفسي أبداً ، ولا أرضى أن تعاملوا بها أحدا ، وعلى كل حال فأنا متوجه اليكم في

تاريخ ٢١ في الشهر الافرنجي . واذا وصلت أطلعكم على كل شيء ، وقد سحبنا لكم اليوم تلغرافا بذلك ومنتظر الجواب على ذلك تفصيلا لنحيط علما بأصل الموضوع .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

« حافظ »

وغضب المستشار ، الذي رأى ، ربما لأول مرة ، أنه ليس اكثر من مستشار يستخدمه سلطان ، أكثر ذكاء ، وأكثر احاطة بظروف العالم من حوله ! وزاد من ألم الشيخ المستشار أن القرارات اتخذت والغيت وهو في مصر يحضر للمؤتمر المزعوم ، فأصبح متهما إما بالغفلة أو بالتواطؤ ! فكانت برقيته هذه التي لا تسيء اليه ، ولا إلى سلطانه الذي كان يؤمن بالرجال الأحرار ، الذين لهم كامل الحق في التعبير عن آرائهم ، ونصحه بما في قلوبهم وقناعاتهم ، ثم يتحمل هو مسئولية القرار دون أي التزام قبلهم إلا السمع منهم ، ولا معنى للضجة التي يقيمها كاتب في عصور التخلف ، معبراً عن العجز عن فهم المناخ الصحي الذي أشاعته حركة ابن سعود الثورية* .

وقد اعتذر حافظ وهبة بأن شدة خطابه « أملتها حرارة الشباب (مع أنه كان قد جاوز السادسة والثلاثين) وأن ابن سعود غفر له هذه الشدة لما كان يعلمه عن اخلاصه . والحق أننا يصعب أن نجد خطابا مماثلا من مثله الى مثل عبد العزيز ، في التاريخ العربي كله ، من موظف لم يستقل ، ولا طلب اللجوء السياسي بل ينهي خطابه بأنه قادم ! بعد أن يبرق له علنا » إن مبايعته ملكا هي « غش » و « من صنع يد أثيمة » ويعرض بنظامه وبلادهِ بالحديث عن وجوده في « بلاد متمدينة » . ثم يطلب الاجابة تفصيلا .. فلولا التوقيع لحسبنا أنه هو المرسل إليه وليس المرسِل !

وقد رد عبد العزيز هادئا ومنطقيا ، وإن لم يكشف كل الأوراق ، فقال :

١ ـ إنه وجه الدعوة للمؤتمر الاسلامي فلم يصلنا جواب من أحد في تلبية دعوتنا . « ومع ذلك فاننا على استعداد لقبول آراء العالم الاسلامي في كل شأن له مساس براحة الحجاج » .. !

٢ ـ « كنت أود من صميم قلبي أن لو تأخر ذلك ولكن ألجئونا إلى ذلك مضطرين ، فان أهل الحجاز قاموا قومة رجل واحد يلزموننا قبول البيعة . ومع ذلك توقفت » .

٣ ـ فبلغ أهل نجد توقفي فقامت قيامتهم .

٤ ـ فازاء **هذا الموقف الحرج ، الذي يتوقف عليه أمن** الحجاز الحاضر ، واستقرار الأمر فيه ، لم أجد بدا من تلبية الدعوة ، فقبلت البيعة متوكلا على الله وإنني لا أزال على عهدي ، من رعاية ما للمسلمين من الحقوق المشروعة في هذه الديار المقدسة[٧٧] » .

وقد أورد العطار قصة تفسر عدول ابن سعود عن فكرة التدويل ، بأنها ترجع الى

---

* انظر فصل مؤلفون .

اقتراح واحد من علية أهل مكة ، رفض ذكر اسمه بناء على طلبه (رغم مرور نصف قرن !) المهم مضمون الاقتراح هو اعطاء الحجازيين الحق في اختيار حاكمهم . ويقول « واثمر هذا الاجتماع وحدد تاريخه (السابع أو الثامن من شهر ربيع الآخر ١٣٤٤ - اكتوبر ١٩٢٥) تحولا في فكر ابن سعود فرأى أن يشرك العالم الاسلامي في المسئولية على أن يكون حق الحجازيين معترفا به قبل أي مؤتمر يعقد باسم العالم الاسلامي .. » وقال « انه على اثر ذلك أرسل ابن سعود رسالة الى الحكام المسلمين ، وقد أشرنا اليها ، وهي تتضمن اختيار حاكم الحجاز من الحجازيين تحت اشراف مندوبي العالم الاسلامي ، وتحديد المؤتمر الاسلامي ، لحدود الحجاز .. الخ . وتحديد عضوية المؤتمر فالى جانب الدول الاسلامية ، مندوبين من جمعية الخلافة وجمعية أهل المدينة وجمعية العلماء في الهند ، ومندوبين من قبل الجمعيات والهيئات الاسلامية التي تمثل المسلمين في الديار التي ليست فيها حكومة اسلامية[٧٨] . »

ولا نرى أهمية في تعديل « صديق » المؤلف . فالمهم هو فكرة تدويل أو استقلال ما للحجاز وليس اختيار حاكم من أهله .. وعلى أية حال فان عبد العزيز قد ألغى ذلك التعهد بشطريه ، فلا انتخب الحجازيون حاكما من أهل الحجاز ، ولا عقد هذا المؤتمر لتقرير حدود الحجاز الخ ..

فالعالم الاسلامي كان محقا في غضبه ، مخطأ في تفسيراته ، أما ابن سعود فكان يعرف أنها فكرة خيالية ، وابن سعود لا يجري وراء الأوهام ، ولم يحدث أبدا أن كانت الأماكن المقدسة سببا في خلق وضع دولي اسلامي للحجاز ، بل كان دائما يحكم بقوانين السلطة في العالم الاسلامي ، فاما أن يستقل به حاكمه في عهد التجزئة ، أو يخضع لسلطان مصر اذا كان هو الأقوى في المنطقة ، أو يلحق بالامبراطورية الاسلامية القائمة ، ولم يجد المسلمون في أي عصر حاجة الى ادارة دولية أو ترتيبات خاصة ، أو حتى منع التقاتل فيه ، وانتزاعه بالقوة ، وقد اكتفى سعود الكبير بضمه كما ضم الأحساء أو ساحل عمان . والمؤتمر الاسلامي ما كان يمكن أن ينعقد بشكل جدي وقتها ، وقد احتاج الى ٤٣ سنة ، والى كارثة بحجم حرق « أولى القبلتين وثالث الحرمين » لينعقد ، ومع ذلك فقد انعقد وسط خلافات حادة ، وامتنع بعضهم عن الحضور ..

كان من المستحيل أن تجتمع كلمة المسلمين ، وهم مقسمون في مناطق النفوذ للدول غير المسلمة ، كما كان يستحيل على الاخوان الذين سيثورون بعد أقل من عامين مطالبين بفرض « الاسلام » على « رافضة » الأحساء ! أن يجلسوا مع « رافضة » طهران يبحثون ادارة الحرمين وانتخاب حاكم الحجاز الذي فتحوه هم !.. أو يقبلون ممثلا عن مصر في مجلس ادارة الحجاز ، وهم الذين عددوا من خطايا الامام ارسال ابنه للعلاج في مصر بلاد الكفرية !..

ولسنا نذهب مذهب « الزركلي » في قوله ان فكرة اختيار « الحاكم » للحجاز على يد « مؤتمر » كهذا ، كانت من أصلها غير مدروسة ولا عملية[٧٩] » ولا نأخذ برأى وهبة

« والنتيجة لكم على أية حال » على أساس أن المؤتمر ـ لو انعقد ـ كان سينتخب ابن سعود ، وكان ابن سعود سيتجنب أزمة دامت ١١ سنة مع مصر ، وعاصفة مع المنظمات الاسلامية ، وحملة عداء وتشهير استمرت لسنوات في صحف الهند المسلمة .
ولا يمكن القول انه لو نفذ ابن سعود وعده لولدت « منظمة » المؤتمر الاسلامي قبل نصف قرن ؟!
لا ..
وضع الحجاز لم يكن يحتمل ترك قضية السيادة عليه مشرعة الأبواب للرياح ، خاصة بعد موضوع الحماية والانتداب والاستقلال ، الذي أشرنا اليه ، وتصاعد العداء الهاشمي والانجليزي والايطالي ، والذي سيستمر لعدة سنوات ، وأيضا بعدما بدت ملامح الانشقاق الاخواني .
وهكذا كان استقلال الحجاز وأمنه بل ، واستقرار المملكة كلها بحاجة الى ذلك القرار التاريخي الذي اتخذه ابن سعود على مسئوليته . وهذه القدرة على اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب ، هي موهبة ملكية ، وصفة قيادية ، لا تكتسب .. بل تولد مع القائد ، وهي التى تجعل الملك كائنا متميزا عن جميع معاصريه بما فيهم المستشارين* ..
اجتمع عشرون من أهل جدة مع ثلاثين من أهل مكة ، ووضعوا البيعة التى قبلها السلطان : « وبعد صلاة الجمعة في ٢٥ جمادي الثانية ١٣٤٤ (١٠ يناير ١٩٢٦) اجتمع الناس عند باب الصفا من المسجد الحرام . وجاء موكب السلطان في الساعة الواحدة بعد الظهر . كان المشهد عربيا صافيا ، أي بسيطا ديموقراطيا ، فلم يكن هناك غير سجادة وقف عليها السلطان وكرسي للخطيب الذي سعى مناد بين يديه قائلا : « إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .. » أما نص البيعة فهو : بسم الله الرحمن الرحيم : الحمدلله وحده . والصلاة والسلام على من لا نبى بعده . نبايعك يا عظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود على أن تكون ملكا للحجاز على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما عليه الصحابة رضوان الله عليهم ، والسلف الصالح والأئمة الأربعة رحمهم الله ، وأن يكون الحجاز للحجازيين ، وأن أهله هم الذين يقومون بادارة شؤونه ، وأن تكون مكة المكرمة عاصمة الحجاز ، والحجاز جميعه تحت رعاية الله ثم رعايتكم . » .
« وعندما كان الخطيب يتلو البيعة كانت قلاع مكة تطلق مدافعها ، أطلقت مئة مدفع ومدفعا ، وكان الناس أثناء ذلك يتزاحمون حول تلك السجادة الواقف عليها السلطان ليتقبل البيعة . فتقدم أولا الأشراف ، ثم الوجهاء والأعيان ، وتلاهم المجلس الأهلي ، فالمحكمة الشرعية ، فالأئمة والخطباء ، فالمجلس البلدي ، فأهل المدينة المنورة ، فأهل

---

* يحق لحافظ وهبة أن يرفض معاملة المستشارين المعاصرين ، أي أن يكون آخر من يعلم ، ولكن فاته أن هذا القرار كان من أعمال السيادة ، والسياسة العليا جدا ، الذي لا تجوز فيه المشاورة ، لا لأن المباغتة عنصر أساسي في نجاحه ، بل لأنه فوق قدرة فهم المستشارين .

جدة ، فبقية خدم الحرم ، فالمطوفون والزمازمة ، فمشايخ جاوه ، فأهل الحرف ، فمشايخ الحارات ، وأهل المحلات[٨٠] » .

وقضى الأمر الذي فيه تستفتيان !

وواضح من نص البيعة ، أن قيادات الحجاز وان كانت قد أسقطت فكرة التدويل نهائيا ، الا أنها صاغت البيعة بطريقة تعكس وضع الحجاز الخاص ، فكانت أشبه بالفيدرالية ، أوما يشبه النموذج الذي تكرر كثيرا في العالم العربي منذ حرب البلقان : امبراطورية النمسا والمجر .. أو ما كان الوطنيون في مصر والسودان يفكرون فيه من وحدة تحت التاج المشترك .. ولأن هذه الصيغة قد وضعت بروح وحدوية حقيقية ، فانها كانت خطوة نحو الاندماج ، وليست بداية الانفصال كما هي عادة العرب !

كان عبد العزيز راغبا في اغلاق الملف الحجازي نهائيا ، ولذا عارض فكرة عقد المؤتمر حتى بعد مبايعته ملكا ، وضم الحجاز ، وكان المسلمون الذين تهيأوا للمؤتمر ، قد قبلوا ما جرى ، ولكنهم طالبوا على الأقل ، بعقد المؤتمر الاسلامي ، الأول من نوعه ، لبحث قضايا المسلمين ، وفي مقدمتها قضية الخلافة التي كانت لاتزال تشغل بال القيادات الاسلامية ، ولكن الملك لم يكن يتوقع خيرا من هذا اللقاء ، كان يعرف حالة المسلمين ، ولم يكن مستعداً لبحث قضية الخلافة ، فلا مخرج لها في ظروف العالم الاسلامي وقتها ، وكان يخشى أن تطرح مسألة الحجاز بأية صورة ، خاصة وأن الأصل في المؤتمر ، كان بحث هذه المسألة ، ويقول وهبة : « ان الملك ظل يرفض فكرة المؤتمر الاسلامي ، ولكن تحت الحاح الكتب والتلغرافات من الهند وغيرها من الممالك الاسلامية بطلب عقد المؤتمر ، قبل عقده في مكة على شرط ألا يتعرض المؤتمر لمسألة الحكم في الحجاز » .

وفي البداية استطاع الملك فؤاد منع الحكومة المصرية من الاشتراك في المؤتمر ، ردا على مقاطعة ابن سعود لمؤتمر الخلافة في مصر ، ولكن تعديلا وزاريا وقع ، عاد به الوفد جزئيا الى الحكم ، وكان يعطف على الحركة السعودية ، فقررت وزارة عدلي يكن الائتلافية ارسال مندوب الى المؤتمر .

وعند افتتاح المؤتمر « حظر » على المندوبين ، أو بعبارة المستشار المصري الذي تعلم صناعة الانشا من القلقشندي الذي ورثها بدوره عن البلاط الفرعوني : « منح » المؤتمر الحرية المطلقة ، الا فيما يتعلق بالسياسة الدولية ، وما بين الشعوب الاسلامية من خلاف » ![٨١]

أي أعطوا حرية بحث اصلاح عين زبيدة ، ومحاورة ابن بجاد في تفسير الفاتحة !

ومع ذلك فان المد التحرري الذي أثاره عبد العزيز بحركته ، وانتصاراته ، وشعاراته ، وأماني العرب فيها وبها ولها ، هذا المد الذي كان قد وصل للذروة ، ليبدأ الانحسار ، حمل على أمواجه بعض المؤتمرين ، بل وبعض السعوديين المقربين الى الملك نفسه ، فقد اتفق السيد رشيد رضا ، والشيخ عبدالله بليهد رئيس القضاة . أي أعلى منصب ديني تقريبا ، وانضم اليهما الحاج أمين الحسيني ... اتفقوا في نوبة حماسية

مع وفد جمعية الخلافة الهنود ، على القسم تحت أستار الكعبة على : « تحرير جزيرة العرب من نفوذ الأجانب » وقالوا للملك : « انهم يعتقدون أنه سيكون لهذا الأمر تأثير عظيم في الرأي العام الاسلامي » فلما سأل الملك عن حدود هذه الجزيرة التى سيقسمون على تحريرها ، بادر بليهد عراف العرب فحددها : « **فلسطين وسوريا والعراق ، وسواحل الجزيرة التي للأجانب نفوذ فيها** » .

ولم يكن الملك بحاجة لمن يقسم له على تأثير هذا الفعل في العالم الاسلامي ، ولكنه كان على يقين أكبر من أن تأثيره في « العالم البريطاني والفرنسي » سيكون أعظم ، ومردوده أسرع وأحسم في لندن وباريس وعدن والبحرين والبصرة والكويت وعمان ..... وكل الطوق البريطاني من حوله . ولذلك لجأ للمفتي « وهبة » ليفض حلف الفضول هذا .. وصدق من قال لكل شيء آفة من جنسه .

وعقد الاجتماع عند الملك ، بعد أن أعد « محررو الجزيرة » صيغة القسم التوريطة ! وتلاه الشيخ « عبدالله بن بليهد » ثم « شرح الأغراض من العهد ، والروح الجديدة التي ستسرى في المسلمين والعرب حين سماعهم ذلك .. وبعد أن ساد المجلس السكون ، طلب مني جلالة الملك رأيي » !..

وببراعة « كلفت » الشيخ وهبة ، حماسة الجماعة ، بل طيبتهم وصدق نيتهم !.. فقد اقترح عليهم دعماً للفكرة ، استمزاج رأي ، والحصول على موافقة ، وفود مصر واليمن وتركيا والأفغان الذين سيصلون قريبا ... « فاذا وافقوا على الاقتراح فان لموافقتهم من القوة المعنوية ، ما ليس لموافقتنا .. فقبل الجميع هذا الاقتراح ، وسر جلالة الملك من هذه الفكرة التي هيأت له فرصة للتفكير ، وبالطبع لم يقبل أحد من مندوبي الدول هذا الاقتراح ، لأنه توريط لدولهم في مشاكل هم في غنى عنها[٨٢] » .

كان الملك أكثر واقعية ، ولكن الشيخ بليهد وجماعته كانوا يعبرون عن روح الحركة التي أثارها وقادها ابن سعود ، وكانت هذه القضية من بدايات الانشقاق بين الواقعية والثورية .. بين الاعتراف والقبول بالقدرات المحدودة للمملكة الوليدة ، وبين الايمان بقدرة الطاقة الروحية التي بنت هذه المملكة ، على الانتشار والتوسع ، ومن ثم لا يجوز أن تخنق في الحجاز ونجد ، حتى لا تتكرر مأساة سعود الكبير ، لا بد من استمرار المسيرة بتحرير فلسطين والعراق وسوريا وعدن والبحرين والكويت ... الخ .. أليست هذه المملكة أو السلطنة مجرد قاعدة لتحرير العالم العربي والاسلامي ؟! فلماذا الخوف من تحرير الجزيرة فقط ؟!

ولكن الملك لم يكن باستطاعته مواجهة بريطانيا وفرنسا والصهيونية ، والأشراف وشيوخ الخليج في ضربة واحدة ، أو بقسم يكتب صيغته الشيخ بليهد ، ويردده خلفه الهنود بالأردية !..

على أية حال ، لقد أبرأ المستشار الأريب ، ذمة امامه ، اذ علق الموافقة على قبول الدول المسلمة « المستقلة » مصر والأفغان وتركيا واليمن .. وكلها رفضت .. أفلا يسع ابن بليهد ما وسع أحمد فؤاد وأمان الله وأتاتورك وحميد الدين ؟!

وسجل وهبة : « فشل المؤتمر في كل ما علق عليه من الآمال » . وعرف أن امامه أعلم بأمور دنياه ، بل واقتنع بأن السياسة ، لا تفيد ..!

اختار ابن سعود بناء « دولة الرسالة » ، على الاستمرار في حالة الثورة .. بلا دولة .. وتم « ترحيل لجنة الخلافة الهندية تحت الحراسة على أول سفينة متجهة الى الهند[83] » .

وقد لخص حافظ وهبة انطباعاته عن أسباب فشل المؤتمر الاسلامي (السعودي) الأول ، فأرجع ذلك بالدرجة الأولى للخلاف الكبير بين منطلق وتصور النجديين ، وممثلي الدول الاسلامية التي اشتركت في المؤتمر .

فالنجديون « يرون أن التوحيد هو الدواء الوحيد لما أصاب العالم الاسلامي من أمراض . ولأن مكة والمدينة مهبط الوحي ومصدر التشريع فيجب البدء بهما بهدم القبور وتسويتها ... الخ . »

أما سائر المؤتمرين فسياسيون أكثر منهم دينيين لا يتفقون مع النجديين في أسلوب الاصلاح . ويقولون ان العالم يختلف الآن تمام الاختلاف عما كان عليه قبل ثلاثة عشر قرنا . وهنا يقع الخلاف بين الفريقين ، ويشتد النزاع ، ولا سبيل الى التوفيق . »

كما أشار حافظ وهبة الى معارضة الملك مناقشة القضايا السياسية العربية . وهذا ينسجم بالطبع مع سياسة الانكماش ، بعد النصر الذي أثار مخاوف كل القوى المعادية من حوله ، وجعلها تحاول استدراجه لمعركة استنزافية .

فلما انعقد المؤتمر الثاني في المملكة محرم ١٣٤٦ ـ يوليو ١٩٢٧ وجه اليه الملك تحذيرا : لا يسمح بالاشتراك الا للحكومات . ممنوع التدخل في الشئون الداخلية للحجاز . ممنوع الخوض في الشئون السياسية على الاطلاق . محظور الحديث باسم العالم الاسلامي ، بل كل وفد يتحدث باسم من أوفده ...

وطويت صفحة المؤتمر الاسلامي .. وفي نفس الوقت كان الملك والمملكة الوليدة .. والسعوديون .. بل التجربة والحل الاسلامي .

كانوا جميعا يواجهون أخطر أزمة ...

الثورة على الثورة !

قبل أن ننتقل الى حديث الاخوان .. نقف لحظات مع العلاقات المصرية ـ السعودية في الفترة التي سبقت توحيد السعودية ..

فلقد أثرت ، الظروف الخاصة التي كتب فيها تاريخ المملكة في الستينات على موقف المؤرخين بالنسبة لدور مصر في الحرب السعودية ـ الهاشمية في الحجاز ، فكما أشرنا في أكثر من موضع ، كانت العلاقات ، في الستينات ، مترديه بين الرياض والقاهرة ، فتأثر المؤرخون من الجانب السعودي ، وراحوا يبرزون كل سيئة مصرية ، ويخفون كل موقف طيب ، فهناك المجلدات عن موقف مصر من الغاء المؤتمر الاسلامي ، أو حادثة المحمل .. أو توزيع أوقاف الحرمين ، ولكن ولا حرف عن الفترة الحرجة التي كان مصير الحجاز يتقرر فيها ، حيث كانت مصر هي الدولة العربية الوحيدة التي تقف رسميا وشعبيا الى جانب السعوديين ضد الهاشميين . وبينما كان الأشقاء ـ كعادتهم ـ موزعين على المعسكرين ، لم يكن هناك مصري واحد في معسكر الأشراف . وقد جرى الاتصال بين الرياض والقاهرة منذ عام ١٩٢٤ ـ ١٣٤٢ هـ .. عندما أبرق السلطان عبد العزيز مهنئا الملك فؤاد بالحكم الدستوري .. وقد انفرد الريحاني ـ على سبيل المثال ـ ربما لأنه وضع كتابه قبل الحرب الاعلامية بين السعودية ومصر ، انفرد بذكر حادثة الهلال الأحمر المصري والتي يفهم منها كيف كانت مصر منحازة الى الجانب السعودي مشكوكا فيها من الجانب الهاشمي ، ورغم أن جميع الذين كتبوا عن عبد العزيز ، اعتبروا الريحاني فلكلورا أي مباح النهب وبدون ذكره كمصدر ، فقد عفوا جميعا عن حكاية الهلال الأحمر المصري !! قال الريحاني ان طبيب التكية المصرية ، كان من الذين يحضرون مجلس عبد العزيز الخاص ، ويتمتع بثقته الى حد أن عظمة السلطان أطلع الطبيب المصري على المراسلات الخاصة ، ومن بينها رسالة الريحاني عن الوساطة والصلح .

وكتب الريحاني : الهلال الأحمر المصري يستوجب كلمة في هذا التاريخ . فقد أرسلت الجمعية المركزية في القاهرة بعثة الى الحجاز مؤلفة من ستة أطباء وصيدلي وثمانية ممرضين وأربع ممرضات وحكيمة واحدة ، وكانت البعثة مزودة بكمية وافرة من الادوية والعقاقير ، وبمستشفى متنقل مؤلف من ستين سريرا بمعداتها اللازمة .

« نصبت هذه البعثة خيامها في الطرف الجنوبي من جدة عند وصولها ، ثم نقلت الى الطرف الشمالي ، الى مكان أنظف وأفسح من الأول ، على شاطىء البحر ، وراء القنصلية الافرنسية ، وأمام البيت الذي كنت مقيما فيه . فكنت ورئيسها الدكتور حسن حلمي كرارة نتزاور من حين الى حين . وعندما ظهرت طلائع الجيش النجدي في ٤ يناير وقطع الناس الأمل بمفاوضات الصلح ، طلب الدكتور كرارة من الحكومة

(الهاشمية) أن تأذن بارسال قسم من البعثة الى الجهة الأخرى لتتم وظيفتها ، فرفضت الحكومة قائلة ان الطريق غير آمن ، وانها لا تستطيع تأمينه . فجاء رئيس البعثة يسألني أن أعرض المسألة على الملك فوعدته بذلك . وفي ذاك الصباح ، بعد خروج الدكتور ، زارني رئيس الحكومة فكلمته في الموضوع ، وبينت له الخطأ في رفض الطلب ، لأن المشروع خيري ولا دخل للسياسة فيه ، الى أن قلت « هؤلاء رسل الرحمة فلا يجب أن يقال فيكم انكم صددتموهم عن العمل الذي انتدبوا له . وعدني عطوفة الرئيس خيرا ، ولكن بعد يومين ، عندما راجعته في الموضوع ، قال معتذرا : « لا جمال عندنا لنقل البعثة وأحمالها » ففهمت من لهجته أن هناك غير هذا العذر مما لا يجوز التصريح به . »

ثم جاء طبيب التكية بمكة يجدد الطلب ، فسألته : وهل يرسل السلطان (عبد العزيز) الى منتصف الطريق جمالا تنقل أحمال البعثة ؟ فأجاب : نعم هو يرسل خمسين جملا . فذهبت اذ ذاك الى القصر وعرضت الأمر على الملك علي ، سألته باسم الانسانية أن يأذن بارسال جزء من البعثة الى ما دون الخط ، وقلت انها فرصة أغتنمها لأكتب الى السلطان مرة أخرى في موضوع السلم . بل هي فرصة يجب أن يغتنمها جلالته **ليظهر أن لا حقد في قلبه على المصريين** . واذا لم تأت بفائدة سياسية فلا أظن أنه يحول دون فائدتها الأصلية الشريفة . الهلال الأحمر خير محض لا سياسة له ، ورجاله رسل رحمة .

فقال الملك ، وقد وضع يده بلطف على يدي : « **هل هو محض خيري يا أستاذ** ؟ » ثم أسر إلي السبب الحقيقي في رفض الطلب :

« **قد جاءتني كتب من مصر يحذرني أصحابها من هذه البعثة الخيرية . تأكد يا أستاذ أنها ليست محض خيرية . ان لها صبغة سياسية ، وان لم تظهر للعيان . وأنت تعلم موقف مصر السياسي تجاه الحجاز في السنين الاخيرة** .. فهل ألام ، والبلاد في حرب ، اذا تحذرت ، وهل كنت أنت تتساهل في الأمر لو كنت من المسؤولين في الحكومة ؟

« سمعت كلام الملك ولكني لم أقتنع . وحزنت لأني لم أستطع أن أقنع جلالته بما أعتقده في تجرد البعثة عن السياسة . وهب أن ما جاء الملك عليا من المعلومات هو محقق كله ، أفما كان في وسعه ، وهو المعروف بكرم الأخلاق ، المتصف بالشهامة ، أن يحسن معاملة أعضاء البعثة فيستميلهم اليه ؟ »

لم أر مرة في مجلسه أحدا من الأطباء المصريين . وما علمت أنه مرة دعا رئيسها للطعام مثلا في القصر .

« نعم قد كان في امكانه أن يكتسب ثقة رجالها ويستخدمهم ، اذا فرضنا أن ذلك ممكن ، لغرضه . قد كان في امكانه أن يصلح من هذا **القبيل ما أفسده والده**[١٣] ، فيغتنم الفرصة التي جاءت البعثة بها **ليعقد حبل الولاء بينه وبين مصر** ، وليفتح بابا

جديدا للسلم بينه وبين ابن سعود[84] .* »

وقد روى حافظ وهبة أن السلطان عبد العزيز أرسله الى مصر خلال حصار جدة ، للاتفاق مع المصريين على تسهيل وسائل الحج عن طريق رابغ ، فقد كان ابن سعود يعلق آمالا كبيرة على اتمام موسم الحج في هذا العام لأسباب سياسية وسيكولوجية واقتصادية . وقد وصل حافظ وهبة الى مصر في أواخر نوفمبر سنة ١٩٢٥ ـ ١٣٤٤ هـ ، واستقبله الملك فؤاد في ١٩ ديسمبر ١٩٢٥ ـ ١٣٤٤ هـ أبلغ حافظ وهبة الملك فؤاد ، أن ابن سعود : « يسره أن يرى ملك مصر خليفة للمسلمين ، اذا وافق المسلمون على ذلك ، وهو أول من يوافق كزعيم من زعماء المسلمين** . فارتاح الملك فؤاد لذلك ، وقال : اني لا أرغب في الخلافة ، فقد عرضها علي سعد باشا (!) ولكني رفضت (!!) ثم أشار الى جميع ملوك وسلاطين المسلمين ، وغمز كلا منهم بما يبعده عن الخلافة ، اما لتشيعه كشاه ايران وامام اليمن ، واما لأنه وهابي أي متطرف ، فكان ذلك اشارة خفية الى أنه أحق الملوك المسلمين بالخلافة »[85]

ثم توترت العلاقات باعلان ابن سعود ملكا على الحجاز ، وقد أشرنا الى ذلك ، ومع هذا فلم تثر مصر أي اعتراض على ملوكية ابن سعود على الحجاز ، وتقبلت فكرة التخلي عن الاستفتاء ، والادارة الاسلامية للحجاز ، وكان الملك فؤاد يطمع في اشتراك ابن سعود في مؤتمر الخلافة ، كما وعد . ولكن ابن سعود كان عازفا عن الحضور ، فتلمس الأسباب للانسحاب !

ورسالة الدعوة التي وجهها شيخ الازهر باسم المؤتمر فيها الاعتراف بالوضع الجديد في المملكة فهي موجهة الى « حضرة صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها حفظه الله تعالى » لحضور « المؤتمر الاسلامي العام للخلافة بمصر*** » ولكن السعوديين كانوا غير راغبين في الاشتراك في المؤتمر ، وغير راغبين في بحث هذا الموضوع اطلاقا ، فمن ناحية رأوا ما حدث للحسين عندما حمل اللقب في زيارته المشئومة لعمان ، ومع هذا لم تكن هناك أية دلائل توحي بامكانية مبايعة ابن سعود أميرا للمؤمنين . ولا كان بوسعه أن يقبل ، فضلا عن اقناع الدويش وابن بجاد وابن

---

* كان الملك علي قد حاول أن يكسب الملك فؤاد فأبرق له مذكرا بالدور « الذي لعبه جده في خدمة هذه الديار المباركة من قبل في مثل هذه الكارثة نفسها مادة ومعنى » ولكن الملك فؤاد لم يستجب للاغراء ، ولعله تذكر أن من « خدمات » جده اعتقال الشريف وترحيله مقبوضا عليه الى مصر !

** وكانت العلاقات ودية الى حد أن السلطان عبد العزيز كتب في نوفمبر ١٩٢٥ ـ ١٣٤٤ هـ الى الملك فؤاد ملك مصر وصاحب بلاد النوبة والسودان وكردفان ودارفور يطلب الانعام على الموظفين المصريين في مكة برتبة البكوية « لما قاما به من خدمات جليلة وقدما من تضحيات عظيمة لخدمة الانسانية في بلد الله الحرام ، فجعلا لمصر ومليكها أسمى مكان في القلوب[86] »

*** كان الملك عبد العزيز قد أخطر لجنة المؤتمر بموافقته على الاشتراك بتاريخ ٢٥ شعبان ١٣٤٤ ـ مارس ١٩٢٦ اذ قال في رسالته : « رجاء اخبارنا بابتداء وصول الوفود الاسلامية الى مصر ليتحرك وفدنا بأقرب وقت »

حثيلين وابن لامي .. بمبايعة الملك فؤاد الذي يلبس طربوشاً ويدخن ، وبدلا من أن يحفي شاربه ويعفي لحيته ، يحلق اللحية ، ويبرم شنباته الى أعلى بالكوزماتيك ... ويحكم بقوة الانجليز !

ولذلك تعللت الرياض بأن الدعوة للمؤتمر وجهت لأشخاص في الحجاز ، وهو ما لا يجوز ، اذ يجب أن تكون الدعوة لرئيس الدولة فقط[٤١م].

ولم يفد اعتذار شيخ الأزهر الشديد الاستعطاف :

« ان المجلس الاداري للمؤتمر الاسلامي العام للخلافة بمصر ، قرر في يوم الأربعاء ٢٠ رجب ١٣٤٤ أن توجه الدعوة العامة والخاصة الى الأمم الاسلامية . وقرر المجلس أيضا ــ كما كتب في محضر الجلسة ــ أن يخاطب في ذلك ملوك المسلمين ، وسلاطينهم ، وأمراءهم ، وشعوبهم وبقية شعوب المسلمين ، تعميما للدعوة الدينية ، حتى لا يكون بعض الشعوب في ناحية ، وحكامها في ناحية أخرى . ومن ثم يتبين لجلالتكم وجه إرسالنا الدعوة الى بعض الأفراد في مملكتكم السعيدة ، فاذا كان في هذه الاعتبارات ، ما لا يوافق رغبات جلالتكم ، فشفيعنا في ذلك حسن النية ، ونبالة المقصد الديني ، ولا نرغب إلا في الاحتفاظ بخالص مودتكم ، والاعتقاد بجلالتكم ومكانتكم السامية في المسلمين .. » الخ .

ولكن لا مجال للاعتذار لمن يصر على « الغضب » لأسباب مختلفة تماما عما يعتذر له عنه !

على أية حال كان الملك عبد العزيز له حساباته ، ومن ثم قرر ألا يحضر « مؤتمرا » لا يعرف برنامجه مسبقا ، ولا يضمن السيطرة على ما يجري فيه ، كما كان عليه أن يراعي مشاعر « الاخوان » التي ازداد توترها ، وبدأت تحصي الشبهات على الملك لذلك لا نعتقد أن تعدد الرسائل أغضبه ، ولا أي اعتذار كان يرضيه ، وإنما هي السياسة العليا . وقد أشرنا الى ان حزب الوفد في مصر استطاع إرغام الحكومة الائتلافية على الأشتراك في مؤتمر السعوديين رغم موقف السعوديين من مؤتمر مصر . ورغم ما أثاره الشيخ الظواهري ، فقد تجادل علماء مصر وعلماء نجد بسماحة صدر وحب للحقيقة ، ولم يقع هذا الذي يشير اليه من يؤرخون بعواطفهم ..

وما كان لديهم إذ يلقون الاقلام !

ثم كانت حادثة المحمل ، الذي هاجمه « الاخوان » لأنهم ظنوه صنما يعبده المصريون الوثنيون فصاحوا « الصنم . الصنم » فلما ضرب الجند النفير قالوا : « نداء الشيطان !.. وقذفوهم بالأحجار ، فأطلق قائد حرس المحمل عليهم النار » ..

ورغم توتر العلاقات على المستوى الملكي ، فان الحكومة المصرية والشعب المصري ، لم يدخرا جهدا في إرضاء السعوديين ، فلما مرض الأمير سعود ولي العهد ــ وقتها ــ

وجهت له الدعوة لزيارة مصر للعلاج فيها بتدبير من الشيخ الظواهري* . ولما وصل الأمير الى مصر يقول حافظ وهبه : « قوبلنا بحفاوة لا نظير لها من الحكومة المصرية والشعب المصري . كان في استقبال الأمير ، ثروت باشا بصفته وزيراً للخارجية ، والشيخ المراغي ، وجمع غفير من أعيان البلاد . ونزلنا في ضيافة الحكومة المصرية . وقد لقينا في أثناء اقامتنا كل حفاوة وإكرام ، من رجال الحكومة الائتلافية القائمة في ذلك الوقت** .. وحاطنا سعد باشا (قائد ثورة ١٩ وزعيم الأمة ..) برعايته كما يرعى أبناءه . وإن أنس لا أنسى زيارتنا له في مجلس النواب[٨٧] » .

وزار الشيخ وهبه سعد باشا في بيت الأمة*** ، ليحدث الزعيم المصري في مسألة الاعتراف بالنظام السعودي فقال سعد باشا ـ في رواية وهبه : ـ

« أنت تعلم أننا كنا في أزمة مع الملك ، في مسألة الميزانية ، والملك كما تعلم عنيد ، ومادام الحجاج يفدون إليكم في كل سنة ، فلا يقلقكم عدم اعتراف ملك مصر » .

غير أن الزيارة شهدت حادثة تكشف جانبا من السلوك الشخصي لمشايخنا ، والذي بدوره ينعكس على الأفكار والحركات ...

فقد رأى الشيخ وهبه ، أن يزور مع الأمير سعود ، مسجد الامام الشافعي ، ومسجد سيدنا الحسين ، وصليا الجمعة في الأزهر ، ربما لاتاحة الفرصة للأمير لمقابلة الجماهير ، وإزالة آثار الدعاية المعادية عن موقف الوهابيين من آل البيت وأئمة المذاهب الأخرى غير المذهب الحنبلي ، وربما على عادة المصريين في أن تكون زيارة المساجد هي أهم بند في برنامج الرحلة السياحية لأي زائر مسلم كبير المقام .

المهم أن الشيخ رشيد رضا الذي لم تكن تربطه صلة طيبة بالشيخ وهبه ، منذ أن دافع رشيد رضا عن ابن صباح ، وأحل علماء الكويت دم رشيد رضا**** ، بل وتربص له مسلم متعصب لقتله في أحد أسواق الكويت ، كتب رضا الى الملك عبد العزيز

---

* مما يؤكد أنه لم يحمل أي ضغينة بعد مناقشات المؤتمر ، بينما يحقد عليه أو يتظاهر بالغضبة ضده ، بعد نصف قرن ، الكاتب الذي ذرف الدمع على كل خصوم ابن سعود من عبد العزيز الرشيد الى علي بن الحسين .

** مع أنه لم تكن هناك علاقات ولا حتى اعتراف بين البلدين ، ولكن الحكومة تحدت الملك ، كذلك كانت صور الزعيم سعد زغلول مع الأمير سعود ، تحديا صارخا للملك فؤاد . ولكن المكرمة المصرية لا تذكر في تاريخ هؤلاء المؤرخين ، أما الرذيلة فتعم ، فخطيئة الملك فؤاد المكروه من المصريين جميعا يتحملها المصريون كبني اسرائيل الى آخر جيل ! أما موقف سعد زغلول و « الأمة المصرية » كلها فلا يذكر ولا يشار إليه !

*** هو منزل سعد زغلول وقد اطلقت عليه هذه التسمية في حادثة طريفة ، اذ هاجم أحد الشباب الزعيم المصري فغضب سعد زغلول وقال : اتهاجمني في بيتي ؟! فرد الشاب على الفور : هذا ليس بيتك هذا بيت الأمة !
فصارت مثلا ..

**** والشيخ رشيد رضا هو الذي جاء بيوسف ياسين الذي زاحم وهبة عند الملك حتى أزاحه.١٥م

يدس ضد وهبه محتجا بأن زيارة الأمير سعود لهذه المساجد تخالف المذهب الوهابي وكان الجو شديد التوتر في المملكة ، لأن الاخوان هاجوا بسبب زيارة الأمير لمصر بلاد البدع والمنكر . حتى أن الملك كان شديد الجساسية لكل إشاعة ، وأرسل للشيخ وهبة ، خطابا سريا يأمره فيه بتكذيب أي خبر يزعم أن السعوديين هم الذين طلبوا توجيه الدعوة للأمير ، ويحظر عليه القيام بأي عمل سياسي خلال هذه الزيارة . ومع ذلك كانت زيارة التداوي هذه ، من أهم الاتهامات في قائمة الاخوان المتمردين ضد الملك .

واذا كانت مناقشة العلاقات السعودية ـ المصرية بالتفصيل مكانها القسم الثالث من هذه الدراسة فيكفي هنا أن نورد بعض النصوص التي تؤكد أن الملك عبد العزيز كان يكن حبا خاصا لمصر ، ويقدر تمام التقدير أهمية وجود علاقة قوية وانسجام تام مع مصر حكومة وشعبا وكان شعب مصر يبادله نفس المشاعر ...

قال الزركلي إنه مثل الملك عبد العزيز في مصر ثمانية عشر عاما من ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤) الى ١٣٧١ هـ (١٩٥٢) « فما كتب لي يوما بشأن مصر ، ولا سمعته يتحدث في سر أو علن عن مصر ، إلا بما فيه الحرص والحض على حسن العلاقة ، وتوطيد الحب والصداقة ، بينه وبين المصريين ، حكومة وشعبا[٨٨] » .

وقال « إن السعودية ومصر لم تختلف سياستهما في أمر من أمور الجامعة ، منذ إنشائها الى آخر حياة عبد العزيز » وأورد برقية منه في ٣١ أغسطس ١٩٥١ (١٣٧٠/١١/٢٨) تأمره بالتصويت مع مصر !

وختم الفصل قائلا : « ذلك هو الملك عبد العزيز ، في ما كان بينه وبين حكام مصر الأولين ، وقد لقي الله ، وليس في علاقاته بمصر ، وحبه لشعبها ، ما يكدر صفاءه ، أو يشوب تلك العلاقة بشائبة »

ومعروفة أن آخر وصاياه لأولاده « كونوا مع مصر دائما » .

وعندما أتيحت الفرصة لشعب مصر لكي يعبر عن حبه للملك عبد العزيز ، جاوز المدى حتى أثار غيرة الحاشية ، ومخاوف بعضهم أن يؤثر عبد العزيز « مصر » عليهم !

قال الشاعر حمد بن ابراهيم الغزاوي :

وأخشى الذي نخشاه في مصر أنها تنافسنا فيك الهوى فنضيع .

وله الحق ، فهكذا كتب فيلبي الذي رافق الملك في الرحلة ، الى زوجته . « كانت رحلة الملك الى مصر (١٩٤٦) نجاحا مزلزلا » أما عن مسيرة الملك من محطة السكة الحديد الى قصر عابدين : « فكان يجب أن تري الجماهير والتنظيم الرائع ، والهتافات المدوية ، لم أر شبيها لذلك في حياتي ، ولا شك أن ابن سعود الأسطورة ، قد أسر قلوب وخيال الجماهير . لقد كانت الزيارة فوق الوصف ، وما كنت لأتخلف عن مشاهدة ما شاهدت ، ولو جزيت عنه بجنة الخلد* »[٨٩] .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه كانت أسوأ فترة في علاقات الشعب بالقصر

---

* ٤ صفر ١٣٦٥ ـ يناير ١٩٤٦

والحكومة .. إذ كانت مصر تعيش في ما يشبه الثورة* . ولكنها خرجت تحيي ضيف الملك .. لأنها عرفت أنه ضيف وحبيب مصر قبل كل شيء .

* أحداث يناير وفبراير ١٩٤٦ وما تلاها حتى حرب فلسطين .

الملاحق

الاشراف

١م ـ المؤلف أحمد عبد الغفور عطار السعودي الجنسية وإن كان لا يخفي عاطفته الهاشمية نشر في كتابه « صقر الجزيرة » صورة الملك حسين وكتب تحتها « مفجر الثورة العربية الكبرى » !

ووصفه بأنه « كان عالما جليلا ، وذا خلق عظيم ، وذكاء خارق ، ورغبة صادقة في الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل كان يحكم بهما وكان شديد التواضع ، ولين الجانب ، بعيداً عن التكبر والترف ، ويعيش في بيته عيش أهل التقوى والصلاح ، وكانت مائدته متواضعه كنفسه » .

٢ م ـ لم تدفع بريطانيا مليما من هذا المبلغ ، بل سحبت ٢,٢ مليون جنيه ذهبا من احتياطي الخزانة المصرية بقوة الحماية مما جعل هذا الاحتياطي يشرف على الزوال في اغسطس ١٩١٧ ـ ١٣٣٥هـ ، كما يقول مؤلف كتاب « الملك حسين ومملكة الحجاز » .

٣ م ـ وتأمل كيف كان مكماهون يخاطبه لتعزيز الاسطورة : « الحبيب النسيب سلالة الاشراف وتاج الفخار ، فرع الشجرة النبوية ، والدوحة القرشية الأحمدية . صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية ... السيد ابن السيد والشريف بن الشريف .: السيد المبجل دولة الشريف حسين باشا سيد الجميع .. أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رجال المؤمنين الطائفين عمت بركته الناس اجمعين » .

ثم تأمل وقارن تقاريرهم وكتاباتهم عنه لما قرروا التخلص منه والقضاء على « الاسطورة » بعد الحرب .

٤ م ـ كان يجري توزيع اراضي العرب وجنسياتهم على هذا النحو الميلو دارمي ، الذي جاء في مذكرات بلفور عن محادثات كليما نصو (فرنسا) مع لويد جورج (بريطانيا) قال كليما نصو : « في ديسمبر الماضي كنت في داوننغ ستريت (مقر رياسة الوزراء البريطانية) وحاولت أن أصل الى تفاهم مع الانجليز حول سوريا . ولذلك سألت رئيس الوزراء (البريطاني) ما هي التعديلات التي ترغبها بريطانيا في اتفاقية سايكس ـ بيكو فرد : « الموصل (أي نقل الموصل من سوريا الى العراق) فقلت : حلال عليك ! أي طلبات أخرى قال : فلسطين .. ؟! ... قلت : هي لكم ايضا ! » ...

انظر : الملك حسين ومملكة الحجاز صفحة ١٥٦ .

٥ م ـ القصص حول أسباب انضمام خالد بن لؤي للسعوديين لا حد لها ، من اعتداء عبد الله بن الحسين على أخيه ، الى لطمه هو شخصيا بيده ، إلى رواية عجيبة أضافها « راندل » وهي أن الامير عبد الله ضربه « بالجزمة » على فمه . وكلها مجرد روايات فخالد لم يكن بالذي يغير موقفه من أجل لطمة ، أو كما قيل « رب لطمة أضاعت عرشا » كعادة العرب في اطلاق الأمثال لحبك الأسطورة . والأحرى أن يقتل خالد الأمير عبد الله لو لطمه . والذين يبحثون عن تفسير ينسون أن عائلة لؤي « دينت » من أيام سعود الكبير ، وأن أهل خرمة كانوا وهابيين ، وأعفاهم سعود الكبير من الضرائب .

٦ م ـ أرسل الشريف محمد بن عون ، ابن عمه عبد الله بن لؤي إلى فيصل بن تركي يطلب الصلح فقال ابن لؤي لفيصل : « إن الشريف يريد واحداً من إخوانك يركب إليه ، وهدية معه تكسر عنه ظاهر الفشل » .

ولكنه يعود فيخطيء التقدير فيرفض الهدية ويسعى للقتال ، ثم يجبن ويداخله الرعب ، فيرسل لؤي مرة أخرى ، يطلب « ورقة تشرف الشريف ولا تضر الامام » فيكتب له « إن لك عندنا الاجلال والسماحة والاحتمال ، وقولك مقبول ، وما طلبت فهو مبذول بشروط أن ليس لك في رعيتنا نهي ولا أمر ، لا في القصيم ، ولا في العربان ولا غيرهم . وأنك تدفع الينا ما وصل اليك من مراسلات أهل نجد وخطوطهم ... فأعطاه ما أراد » !!

٧ م ـ وقد بلغ من عمق الهزيمة أن أحد الحمالين ، توجه بعدها ، إلى الملك حسين يطلب سداد كمبيالة بمبلغ مائة وخمسين جنيها أعطيت له من قائد الجيوش الشرقية الهاشمية ، فقال له الملك « الله يعوض عليك وعلينا يابني . خسرنا كل شيء » .

وقد غسل الملك عبد الله يديه من دم الجيش الشريفي في تربة ، ووضعها ـ كالعادة ـ في عنق والده ، فقال إن المعتمد البريطاني في جدة ، حذره من متابعة الحرب ضد الوهابيين (وهو ما لا يتفق مع ما قدمناه من تقارير) .

ولكن والده قال له « إن معك من القوة ما لو قاتلت به كل العرب لتغلبت عليهم »

ربما .. إلا الاخوان ! .. وهذا ما أقر به عبد الله نفسه وإن كان بلهجة المستشرقين الذين لا يصدقون : « الجندي الوهابي حريص على الجنة وحسب عقيدته أنه اذا قتل دخلها ؟! » .

وما الغرابة في ذلك .. وماذا كان قادة جيشك يقولون لجنودهم لتحريضهم على القتال .. الى سقر وبئس المستقر ؟!

ويزعم أنه طلب من أبيه مرة اخرى أن يمنع هذه الغزو ، فهدده باعتزال الملك « وهكذا لم تفلح نصائحي وكان ما أراده الله » .

٨ م ـ وقد استمرت العداوة من جانب الاشراف ، والحذر والتخوف مما تدبره بريطانيا من خلالهم حتى وفاة الملك عبد العزيز .

وقد نشر الملك عبد الله مذكراته في القدس بالعربية ١٩٤٦ ـ ١٣٦٥هـ وفي لندن بالانجليزية ١٩٥٠ ـ ١٣٩٦هـ ؛ وتقول اليزابيث مونرو « إن من « المواضيع الروتينية في مجلس الملك عبد العزيز ، ازدراؤه لمذكرات الأمير عبد الله » .

وقال وهبة :

« لقد ورث عبد الله عن والده وأسلافه كراهية آل سعود ، والملك عبد العزيز بخاصة ، فقد ذاق عبد الله مرارة الهزيمة في تربة سنة ١٩١٩ ـ ١٣٣٧هـ ، تلك الهزيمة التي كسرت العمود الفقري للجيش الهاشمي » . وقال :

« كان عبد الله كثيرا ما يتعرض لشخص الملك عبد العزيز بالقول والكتابة ، فرماه في مذكراته بالكفر ووصفه بأنه نهاب سلاب ، وقال إن الناشر الانجليزي مستر جرايفر رفض نشر السباب ولكن فيلبي نقله في كتابه ، خمسون عاما من حكم الملك عبد العزيز » .

ويمكن أن نضيف نحن بعدا جديدا لهذه المذكرات التي كانت أكثر الأعمال ايلاما للملك عبد العزيز وذلك نقلا من تقرير المفوضية الأميركية في جدة عقب زيارة الملك عبد العزيز لمصر ، وما تتطوع به من مجاملة للأمير عبد الله حرصا على التضامن العربي ، وقضية فلسطين الساخنة ، والجامعة العربية الوليدة ، ولكن القنصل الامريكي قال : « قد ساد الارتياح دوائر المؤمنين بالجامعة العربية للتصريحات الودية التي تبادلها الملك عبد العزيز والأمير عبد الله خلال الزيارة ، ولكن هذه الآمال قد تذروها الرياح بنشر مذكرات الأمير عبد الله قريبا حيث عرف أنها تحتوي على نقد لاذع لعبد العزيز وكل أعماله ، ويبدو أن هذا الامير يتلذذ باستخدام عبقريته في الحماقة » تقرير بتاريخ

١٩٤٦/٢/٧ ـ ١٣٦٥ هـ ـ فالمذكرات كانت عملا سياسيا مدبرا وموقوتا ومعروف النتائج سلفا لدى اصدقاء اسرائيل ، وهي نسف التضامن العربي ، وغل يد عبد العزيز عن العمل الفلسطيني .
وقد حدث بالضبط ما توقعه المفوض الاميركي فقال يوم ٩ مارس ١٩٤٦ ـ ١٣٦٥هـ :
« استقبلني الملك عبد العزيز على انفراد وتكلم بعنف على الشتائم التي نشرها الأمير عبد الله في مذكراته . وكرر نفوره من البريطانيين لأنهم يزودون عبد الله بالقوات المدربة والسلاح بينما يبقون السعودية عزلاء .
وقد عثرنا على تقريرين : أحدهما كتبه القنصل الاميركي في عمان والثاني أبلغه الملك عبد العزيز شخصيا للوزير المفوض الاميركي في السعودية ، عن محادثة جرت بين الملك عبد الله وزعماء اسرائيل وعدهم فيها بالتنازل لهم في فلسطين اذا ساعدوه على استرداد الحجاز .
وقرر العطار : « أن أشد أعداء الملك ابن سعود من الأسرة الهاشمية ، هو الملك عبد الله بن الحسين . أما أخوه الأصغر الأمير زيد فمن الطبيعي أن يكون عدوا هو أيضا » . وان كان يزعم أن عداوة عبد الله انتهت بعد أن قابل ابن سعود وهو غير صحيح .
ويقول وهبة إن العراق لم يجامل العائلة السعودية يوم وفاة الملك العظيم « عبد العزيز » . وكان أول من قام بالتعزية الحكومة المصرية ، قام الرئيس « عبد الناصر » على رأس وفد ، لتقديم التعزية للملك سعود ، فكانت مجاملة كريمة » . مع أن الملك عبد العزيز عزى في وفاة « الملك » عبد الله ونهر من أبدى فرحا في مصرعه .

٩ م ـ ظل الملك حسين مطمئنا إلى الدعم البريطاني ، حتى آخر لحظة ، عندما وقع وثيقة التنازل عن العرش ، وكان يعتبر هذا الدعم فريضة يتقاضاها نظير خدماته في الحرب العالمية الأولى ، بموجب اعتبارات الشرف والوفاء ، وعزز أوهامه تدخل الانجليز ضد عبد العزيز ، أو بالأحرى الاخوان ، في العراق وشرق الأردن ، وبعدما تم ضرب الاخوان في شرق الاردن ، وصدهم عن عمان ، وقد أوشكوا أن يرفعوا فوقها راية التوحيد ، كتب في جريدة القبلة (اغسطس ١٩٢٤ ـ محرم ١٣٤٣هـ) « نحن نشكر كمالات حكومة بريطانيا العظمي ، على ما أظهرته من الحمية في الشرق العربي . ولكننا مع ذلك لا نتنازل عن حق من حقوقنا . إن سورية جزء من البلاد العربية وان فلسطين للعرب . ولا توقع معاهدة فيها ما ينفي هذا القول بل هذا الحق ... ومن أعرف منا بالبدو وبالمتدينة (الاخوان) ؟ قنبلة من مدفع تبددهم ، وطيارة واحدة تشتت شملهم ، والبرهان في الشرق العربي » !

١٠ م ـ قال الملك حسين على ظهر الباخرة متجها للمنفى لوكيله عبد الملك الخطيب : « أنا لم أكن أرغب في الخلافة ، وهذه كانت غلطة ، ولكن عرب سوريا والأردن طالبوني بذلك . وعبد الله ظل يلح علي في قبولها لأنها ستؤدي الى الضغط على بريطانيا » .
ولو كان عبد الناصر أتيحت له فرصة الحديث على باخرة لقال نفس الكلام مع استبدال الوحدة بالخلافة ، وعبد الحميد بعبد الله وأمريكا ببريطانيا !

١١ م ـ بينما تهاوى الملك علي ورجاله على الوسطاء واستبشروا خيرا بوصول انجليزي أحمر اللون . جاء الرد من ابن سعود صفعة ليس فقط لفيلبي بل ولبريطانيا لأنه : « كما ترى فان موضوع الحجاز قضية إسلامية ومن ثم فان وساطة غير المسلمين غير مطلوبة ولا مستحبة » .
فغادر فيلبي جدة فوراً ..

١٢ م ـ يبدو أن الريحاني قد فقد توازنة وسط السوريين والفلسطينيين ، وجماعات القوميين الذين

تجمعوا في بلاط الشريف علي ، الذي خضع بدوره « للأستاذ » وتوجيهاته . فكتب لابن سعود خطابا غير لائق يدعي فيه أن الجيش الشريفي متحمس للقتال ، وأنه تدخل لمنعهم من الزحف على السعوديين فجاءه الرد أو الصفعة :

« أما ما ذكرت في الملحق عن تحمس الجنود لما بلغهم منزلنا حداء وإغارة بعض الرايات عليهم ، وأنك طلبت منهم أن يتأخروا فلا نقول الا كما قال الله سبحانه : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ؛ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » . ونقول أيضا : مالك يوم الدين ، اياك نعبد واياك نستعين ، وأما رجاؤك أنهم يتأخرون فكما قال الشاعر :

اذا كنت لا تدري فتلك مصيبة

وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم »

ولم يتركها لفهم الأستاذ بل زادها شرحا أو قل تقريعا :

« إن كنت تعرف الحقيقة ، كما تظن أنك تعرفها عن القوم ، وعنا وتتجاهلها فتلك مصيبة . وان كنت لا تعرف الحال ، والقوم يتهكمون عليك فالمصيبة أعظم » .

فجعله ما بين كاذب مضلل .. أو جاهل مخدوع !

« ولكن رجاءك لتوقيفهم عن الزحف علينا ، فلا نرى لجنابك فيه فضلا ، وإنما نرجوك أن ترخص لهم ، كما نرجوك أن تبلغ الأمير أنه بلغني أنه يستحرمنا حرمة الحرم . وأننا إذا لم نخرج منه يقاتلنا فيه ، وليس بذلك حرج ، أما نحن فقد خرجنا ، فالرجا فيه أن الكريم إذا قال وفى ، ونرجو من الله تعالى أن ينصر جند الرحمن على جند الشيطان . والسلام على من اتبع الهدى » .

وقد فهم الريحاني وهو لبيب ، معنى هذه الرسالة القاسية ، التي حرمه فيها عبد العزيز حتى من السلام ، إذ قصره على من اتبع الهدى ! فبادر الى مغادرة السفينة الغارقة ، وانتقل الى مصر (٣ فبراير ١٩٢٥ ـ ٢٧ رجب ١٣٤٣ هـ) .

١٣ م ـ يفهم من قصة الريحاني أن مصر كانت ضد ملك الحجاز من الأشراف ، السابق واللاحق الشريف حسين وابنه ، الملك علي ، الذي كان يحقد على المصريين وورث هذا الموقف عن أبيه ، وكان يتهم المصريين بالعمل لحساب ابن سعود ، ويشك فيهم ، ويبعدهم عنه ، ويبقيهم كالمنبوذين في جدة ، لا يدعو أحداً منهم إلى طعامه ، ولا يسمح لهم بالخروج من جدة لأداء مهمتهم خوفا من الاتصال بابن سعود والكيد له مع السعوديين ، ويفهم من حديث الريحاني أن مصر كانت البلد العربي الوحيد الذي وقف حكومة وشعباً مع ابن سعود ضد الهاشميين حتى الاستيلاء على جدة . أي أنه لو انتصر الهاشميون لما كان للمصريين من نصيب ولا مكان في مملكة الأشراف ، فلما قامت دولة السعوديين تدهورت العلاقات معهم ، وانفسح المجال للجنسيات التي كانت تقاتل مع الهاشميين بالسيف والقلم ! ..

هل هو حظ مصر العجيب .. فهي دائما ضد المتولي .. أو حكومتها التي لا تفكر أبداً في مصلحة المصريين بالأسلوب الذي تخدم به الحكومات الشقيقة رعاياها ؟!

حظوظ !! ....

١٤ م ـ ورواية وهبة عن سبب امتناع الملك مرتبكة ، ورواية العطار المنقولة عن وهبة « بتحيز » أشد ارتباكا .. ولكن يمكن حل رموزهما كالآتي : فقد أرسلت الدعوة من مشيخة الأزهر في مصر إلى الملك وعدد من الشخصيات في الحجاز .. واستاء الملك من ذلك ، وله الحق ، ولكن يقال إن القائمين على المؤتمر ليسوا حكومة ، ولا هي دعوة موجهة من الملك فؤاد حتى توجه للملك عبد العزيز وحده ، وإنما

هي من شيخ الأزهر بوصفه رئيس المؤتمر الاسلامي العام للخلافة ، ومن ثم فمن حقه إن لم نقل من واجبه ، دعوة حكام المسلمين وأهل الحل والعقد ، وكل من يعتبره شخصية عامة بارزة لها أن تبدي رأيها في هذه القضية الاسلامية الكبرى . وربما كان الأفضل لو سلمت الدعوات لوزارة الخارجية السعودية ، أقصد البلاط ليوزعها بنفسه ، ولكن يرد على ذلك بأن مصر كانت تريد أن تنفي عن المؤتمر الصبغة الحكومية .. والسعودية بدورها دعت هيئات غير حكومية ؛ أو سمحت لها بالاشتراك في مؤتمرها الاسلامي الأول .

المهم غضب الملك فكتب حافظ وهبة إلى فضيلة الشيخ حسين والي بسكرتارية المؤتمر ينبهه إلى استياء الملك من تعدد الرسائل فرد عليه حسين : « وعلمنا بما أشرتم اليه في كتابكم فبعثنا إلى جلالته كتابا تجدون صورته ملحقة بهذا الخطاب ، وباطلاع فضيلتكم عليها ، تعلمون وجهة النظر متصلة ، ولا أراكم بعد الاطلاع عليها إلا راضين ، ومقتنعين بحسن النية ، فجزاكم الله عنا وعن المسلمين أفضل الجزاء » .

فخطاب الاعتذار هذا كان بناء على طلب واقتراح حافظ وهبة ، وليس هو الذي وزع ، كما التبس الأمر على وهبة ، ونقل العطار بافاضة ، إلا اذا كان المقصود « بآخرين » هو وهبة نفسه .

١٥ م ــ أشار حافظ وهبة الى الدساسين في بلاط الملك عبد العزيز الذين كان همهم هو الوقيعة بين الرياض والقاهرة ، والذين ظلوا يمارسون هذه المهمة بدأب لا ينقطع وجهد يثير الدهشة ، طوال نصف قرن .. وهم دائما من منطقة معينة في الوطن العربي ، وقد يكون لذلك عوامل عنصرية أو ارتباطات غير معلنة أو لمجرد التزاحم على المال السعودي .

وإذا سلمنا بأن الاستراتيجية المعادية للعرب والاسلام تتطلب عدم التقاء الرياض والقاهرة ، فلابد أن نفترض أن أصحاب هذه الاستراتيجية لن يكتفوا بالعمل من جانب واحد ، بل ينسفون كل جسر من طرفيه .

ولا مجال للتعريض بمصرية حافظ وهبة ، فقد أخلص كل الاخلاص للملك عبد العزيز ، وهو المستشار الوحيد الذي امتحن ، فوقف ضد حكومته الى جانب سيده ، وهاجم الملك فؤاد ، ووصفه بأنه ألباني ، واتهم عند الملك فؤاد بأنه أفسد عليه مشاريعه في الخلافة والحجاز .

وكان عبد العزيز يعرف إخلاصة فيكتب له بصراحة ، رأيه في الملك فؤاد : « وأنت ترى احتقار فؤاد لنا ، حتى الجواب ما يرده لنا ، وهو والحمد الله ما هو على شيء من القادرين ، إلا ما يكون تشنيعا ، أو منع الحج أو مثله » .



عندما زار الأمير سعود القاهرة في عام ١٩٢١ ـ ١٣٤٦ حرص سعد زغلول زعيم الأمة على الظهور على جانبه والاحتفاء به تحديا للملك فؤاد وتعبيرا عن المشاعر الشعبية نحو النظام السعودي الجديد .

الاخوان ـــــــــــــــ ٦

« .. إن حركة الاخوان ، هي أنقى
حركة دينية معاصرة » ...

عبد العزيز آل سعود

« ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين »

صدق الله العظيم

لو سئلت :

ما هو أعظم إنجاز حققه ابن سعود ، وما هو أكبر فشل في تجربته ، وما هو العنصر الأساسي الذي قامت عليه انتصاراته . وما هو العنصر الاكبر في مأساة محاولته للحل الاسلامي ، وما هي أكبر ظاهرة في تجربته تستحق اهتمام الدارسين ، والمهتمين بمستقبل العرب والحل الاسلامي ؟ وما هي القضية التي تعرضت لاهمال المؤرخين ، ولاكبر حملة تشويه في تاريخ السعودية .

لأجبت على ذلك كله بكلمة واحدة :

« الهجر » أو معسكرات الاخوان !

فاذا كان محمد بن عبد الوهاب ، بدعوته واستجابة آل سعود قد نقل نجداً من هامش التاريخ لتصبح مركز الأحداث في الجزيرة العربية ، فان حركة الهجر أو الاخوان ، هي التي بعثت الوهابية ، بعدما نسيت ، وتوقع الخبراء البريطانيون زوالها نهائيا ، هي التي أثبتت حيويتها الحركية ، وقدرتها على تفجير الطاقة الروحية ، أكثر من مرة ، وأزالت عنها آثار الهزيمة الأولى ..

بحركة الاخوان طرح الحل الاسلامي مجددا ، بايجابياته من خلال انتصارات الاخوان الخلقية والعسكرية ، بالمجتمع العجيب الذي أقاموه ، وكأنه من صنع الخيال ، بانتصارهم على جميع القوى التي اصطدموا بها .

وأيضا طرحت معهم سلبيات الحل ، عندما ما انتهوا إلى النهاية المؤلمة التي انتهوا اليها حتى نسيت إيجابياتهم وبقيت الطرف التي تروي عن تخلفهم أو تعصبهم !

وقد وصلتنا شذرات متفرقة عن الاخوان والهجر ، ولكن ما من دراسة جادة قد اتيحت ، عن تلك الحركة العبقرية ، والظاهرة التي لم تتكرر ، منذ عصر النبوة ، وإن كانت جذورها موجودة في المنهاج الاسلامي ، وفي تجربة الوهابية الاولى ، وبقدر ما كانت كتابات المعاصرين للظاهرة ، اقرب للحقيقة ، وأغزر معلومات نسبيا ، فاننا نلاحظ أن الكتابات المتأخرة ، أغفلت ظاهرة « الاخوان »* أو بمعنى أصح حاولت

---

* فحتى عام ١٩٨٠ قال محمد المانع الذي كان يعمل مترجما ومرافقا للملك عبدالعزيز خلال أحداث الاخوان أنه قرر أن يسد « الثغرة » التي لاحظها في الكتابة عن « الاخوان وفقر المعلومات عنهم في الكتابات الأجنبية » .. وسنرى أنه زاد الثغرة اتساعا ، ولم يخفف كثيرا من فقر المعلومات . وإن كانت أفضل دراسة بلا جدال ، هي دراسة جون حبيب التي حصل بها على شهادة الدكتوراه من جامعة ميتشيجان ، ولكنها لأمر ما لم تنشر فبقيت في أرشيف الجامعة مجرد أطروحة منسوخة على الآلة الكاتبة .

التقليل من شأنها ، والتحامل في نقدها .. حتى شوهت الظاهرة تماما ، وأصبح من الصعب ، إن لم نقل من المستحيل ان يصل المواطن العربي اليوم إلى صورة صادقة عنها ، بعدما شاع بين المعلقين العرب ومن نقلوا عنهم ، ونقلوا منهم ... أنها حركة توطين للبدو ، فشلت بسبب أطماع قادتها ، وتحت هذا الزعم ، دفنت الحقيقة التاريخية ، وتقزمت الفكرة العملاقة ، وظلم عبد العزيز المبدع والاخوان المؤمنون .

ولكن كما في الاساطير ، فان روح القتيل تظل تطوف جول الجثة ، وتطارد المشوهين لها ، حتى يعاد دفنها بالتكريم اللائق بها . كذلك التاريخ ، لا يمكن إنكاره ولا تشويهه طوال الوقت ، بل لابد أن تثأر روحه ، وغالبا ما يظهر الشبح في صور مفزعة ، مشوهة ، بل حتى أكثر تشويها من عملية التزييف التي يمارسها الأحياء ...

ولقد شاعت فرية « التوطين » في المؤلفات العربية ، عن حركة الاخوان لعدة أسباب هي بعكس أهميتها :

ـ السطحية والخفة أو الاستعجال التي يتناول بها الكتاب العرب ، قضايانا ، وخاصة اذا ما كان الطابع التجاري يسيطر على مؤلفاتهم ، ومن ثم يستسهلون التعريف الشائع الذي يتيح لهم مدح عبد العزيز دون التعرض لمخاطر التحليل !

ـ التأثر بشعارات توطين البدو التي طرحها الاميركيون في الاربعينات ، ثم علا صوتها في الخمسينات ممتزجة بأصداء الحديث عن توطين اللاجئين . ومشروعات تعمير الصحراء ، ومديرية التحرير ... وتمليك عمال التراحيل ، أوبدو الريف المصري ... !!

فلماذا لا يكون عبد العزيز رائد زراعة الصحراء ! وفيصل الدويش أول فلاح متملك !

ـ وهناك عنصر اكثر خطورة ، وهو الذي كتم المعرفة في صدور العارفين ، ألا وهو التحرج من الحديث عن الجانب « الثوري » في التجربة السعودية . ولم يكن ذلك مجرد موقف طبيعي من ثورة تحولت الى نظام ، بل أساسا كردة فعل من جانب السعوديين للنشاط « الثوري » المخرب الذي اجتاح المنطقة منذ الخمسينات ، مما خلق نفورا عاما من كل ما ينسب للثورة والثورية والثوار . فلم يكن من المقبول تسمية الوهابية « بالثورة » أو الحديث عن حركة « التحرر » التي تمثلها الظاهرة السعودية في فترات تألقها ، ولا حتى عن الجانب العروبي . في تلك الحركة الوهابية ـ السعودية التي أنجزت أول ثورة ، وأول استقلال عربي ثم كانت أول حركة تحقق الوحدة القطرية ، وتتمثل الوحدة العربية في تشكيلاتها حتى مرت فترة لم يكن لها سفير واحدمن أصل سعودي !

ومع ذلك كانت العروبة والتحرر والثورة* ، ألفاظا مشبوهة ، مكروهة ، مستنكرة في قاموس إعلام الدول التي أطلق عليها « المحافظة » أو « التقليدية » ، وهي الدول التي نجت من محنة العسكر « الثوريين » « القوميين » . وتجلى هذا في الاعلام السعودي ،

---

* لاحظ مثلا أنه قبل ظهور الوباء العسكري « الثوري » ظهر في القصيم كتاب بعنوان « الثورة الوهابية » عام ١٩٣٦ ـ ١٣٥٥هـ ولم يثر اعتراضا .

حيث كانت السعودية هي التي تحمل العبء الاكبر في التصدي « للثوريين » في المنطقة ، الذين جلبوا لشعوبها الخراب ولبلدانها الذلة والخضوع والتجزئة ، بل التمزق والتشرذم . وكان « الثوريون » يحاربون الاسلام ، ويروجون عنه أنه باعتباره دينا ، فلابد أن يكون رجعيا ، وخاصة اذا كان هذا الدين هو الاسلام ! تلك المعادلة التي وضعت في مخابرات الاستعماريات . ولكن للأسف صدقها الكثير من المسلمين ، فلعنوا الثورة* والثورية وتبرأوا منها . وما كانوا على استعداد لسماع أي حديث عن الثورية . حتى ولو كان محاولة للتمييز بين الثورة الحقيقية التي جسدها كفاح السعوديين على مدى قرنين لتحرير وتوحيد العرب ، الا فترات النكسات ، وبين الثورية الزائفة التي يكتب برنامجها في قصر لعبة الامم ، وينحت شعاراتها وينفذها رجال المخابرات الاجنبية ، والتي استهدفت تمزيق العرب وتمكين المغتصب في ارضهم !

وهكذا اختار الاعلام السعودي ، والخاطبون وده ، والمؤمنون به** ، الحل الاسهل ، أو قل الهروب ، برفض الثورية ، والتبرؤ من كل ما يمت لها بصلة ، وطمس كل آثارها في التاريخ ! ولما كانت « الهجر » أو « اليثربيات »*** المناطق المحررة ، أو المستعمرات الاخوانية ، التي ابتدعها عبد العزيز هي التجسيد لروح الثورة الوهابية ، وهي التي اكتشفت الحل العبقري والثوري لمشكلة الثغرة بين تخلف المسلمين ، وتفوق الكافرين تكنولوجيا ، تلك الثغرة التي كانت العنصر البارز ، وإن لم يكن الأساسي في هزيمة الشرق الاسلامي ابتداء من القرن الثامن عشر خلال جميع مواجهاته مع الغرب المسيحي ، حتى اكتشف عبد العزيز الحل الثوري ، فعبر عليه الثغرة من الناحية العسكرية في الجزيرة ، وإن تقطعت به السبل فلم يقدم الحل الشامل لأزمة العالم الاسلامي .

ومن هنا تفادى الكتاب في تلك الفترة الحديث عن هذه التجربة حتى لا « يتهموا » عبد العزيز « بالثورية » والعياذ بالله !

ـ ولما كانت تجربة عبد العزيز هي التطبيق العملي الوحيد لشعار الثورة المسلحة في تاريخ المنطقة ، حتى منتصف القرن العشرين أي إلى قيام الثورة الجزائرية ، ومنظمة التحرير الفلسطينية (فتح) . وان كانت التجربة السعودية ، تتميز عليهما ، ليس

---

* لم تكن الدول « المحافظة » هي وحدها التي تتحرج من « الثورية » بل حتى حركة ٢٣ يوليو ظل « قائدها » مدة يحذف كلمة ثورة ، ويسميها « نهضة » أو الحركة المباركة . والعقائديون في الشمال اعجبوا بتعبير انقلاب وانقلابي . حتى فاحت رائحة الانقلابات فانتقلوا الى تعبير ثوري وثوريين ...الخ

** معظمهم من اللاجئين في المملكة هربوا من « ثورات » في بلادهم ، ويحملون تهمة الرجعية ، فدافعوا عن « الرجعية » وحرصوا على « تطهير » التاريخ العربي وخاصة السعودي من « الثورية » .

*** نسبة الى « يثرب » أو المدينة المنورة التي كانت أول أرض محررة في التاريخ جرى فيها إعداد المؤمنين لتحرير بقية الوطن .

بالأسبقية والأصالة وحدهما ، بل وبأنها اتبعت أسلوب الأرض المحررة ، والقواعد الثابتة مع حرب العصابات . وهو الأسلوب الذي سيطبقه ماوتسي تونغ بعد عبد العزيز بحوالي عشرين عاماً والفيتناميون بعد أربعين سنة . لذا كانت هناك محاولات واعية ، لطمس الجانب « الثوري » أو « الحركي » من عملية « الهجر » ، وتحويلها إلى عملية إصلاح اجتماعي .. توطين البدو ، تحويلهم من شراسة البداوة الى وداعة الفلاحين ، الطيبيين ، وزيادة محصول البلاد من الشعير !!

والهدف طبعا هو حرمان الشعوب العربية والاسلامية من دروس التجربة حتى لا تتكرر عملية التحرير ، وحتى لا تشتعل الأرض بجيش التحرير العربي الذي يصفي الاستعمار القديم والوافد* .. بل يمكن ان تنتشر التجربة في العالم الاسلامي ، فيتحرر هلال النفط ، قلب العالم الثالث .

— ثم نصل إلى العنصر ، الذي كان السبب المباشر لعمليات التعتيم والتشويه لتجربة الاخوان ، وهو التطور المؤسف الذي حدث للحركة ، والذي أدى الى الاصطدامات المعروفة ، تلك الاصطدامات التي قضت على الحركة ، والتي ثارت بسبب الخلاف الاستراتيجي بين الدولة السعودية وقيادات الاخوان ، مما سنشرحه بالتفصيل . ولكن المهم هو أن هذا الخلاف الذي حسم « بالحافر وصنع الكافر »** جعل من المستحيل لفترة طويلة ، الحديث بموضوعية عن معسكرات الاخوان ، أو مستعمراتهم ، أو حتى عن الظاهرة كلها ، وضاعف من هذا المحذور تدهور الفكرة عبر السنين ، كما يحدث لكل الظواهر التي انتهت تاريخيا ، فزادت الحساسية بين النظم من ناحية ، ومن يدعون وراثة التجربة أو الفكرة ، هؤلاء الورثة المزعومون الذين لم يضيفوا للفكرة جديداً ، بل تحولت في ممارستهم إلى طقوس وشكليات ، وأهداف غائمة غير واضحة المعالم ، مفزعة في تخلفها ، ونفورها من مجتمعها ...

هذه هي الأسباب التي فرضت التجاهل ، أو التزوير والتشويه على كتابات الكثيرين ممن عالجوا موضوع الاخوان .

وأمامي على سبيل المثال ، دراسة نالت جائزة الملك فيصل ، وادعت أنها تنفرد بدراسة الشعب أو المجتمع كبطل ، وهي في نفس الوقت تطفح بكل الأخطاء والتشويهات والافتراءات على حركة الاخوان ، بل وابن سعود معا !

تبدأ الدراسة*** بالبحث عن مصدر تسمية الاخوان ، فتستعرض كل التفسيرات

---

* ورغم ذلك كان للتجربة ولازال جذورها العميقة في الضمير الاسلامي الحركي ، والدليل هو حمل كل الحركات اسم « الاخوان » بل والحديث عن « الهجرة » . وقد تكونت في العشرينات « هجرة » في صحراء سيناء ، كان فيها عدد من زعماء البعثيين في ما بعد . ومن الثابت ان « اخوان عبد العزيز » كان لهم نشاطهم في بدو سيناء وجنوب فلسطين كما سنرى .

** الحافر هو الفرس ، وصنع الكافر هو الأسلحة النارية ، وهو قول في نجد يعني حسم الأمر بقوة السلاح .

*** لن نتعرض هنا للتشويهات والأخطاء التى تتعلق بقضايا أخرى .

التي وردت في شتى المصادر ، إلا التفسير الوحيد المعقول وهو أنها مشتقة من قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها* » ... وهي الآية التي كان عبد العزيز يرددها دائما ، كلما خاطب الاخوان ، ومن عليهم بأن الله قد هداهم على يديه ، فلا لغز ، ولا سر وراء التسمية ، ولا حاجة بالمؤلف للاستعانة بالسيد جورج خير الله لينقل عنه قوله :« ان التسمية أخذت من قول السلفيين الاوائل : « نحن عباد الله إخوان لمن يطيعه[1] » !

« والأخ » الذي حدث فيلبي لخص المفهوم الصحيح لأصل الاشتقاق أو قل البديهي عندما قال له : « قبل أن نصبح مسلمين ـ مشيرا الى البعث الوهابي في عام** ١٩١٠ ـ ١٣٢٨هـ ـ وما تلاه من السنين ـ كنا دائما نتحارب ، ولكن الآن والشكر لله وابن سعود استتب السلام بيننا لسنوات طويلة والحمد لله[2] » .

- أما « الهجر » فهي مشتقة باجماع المصادر (المتزنة) من الهجرة ، اقتداء بهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعروف تأصل مبدأ الهجرة في التصور الاسلامي . لما جاء في القرآن*** والأحاديث من حث عليها ، والاشادة بالمهاجرين . ولما حققته للاسلام من انتصارات وانتشار . حتى إننا نذهب إلى القول ، بأن المفهوم الخاطيء للهجرة في عصور التخلف ، هو أحد أسباب انقراض المسلمين من البلدان التي تتعرض لغزو عنصري أو طائفي ، اذ يفضل المسلمون « الهجرة »**** !

ولا ينتبهون الى ان هذا هو « الادبار » وليست الهجرة الثورية التي بدأها الرسول واصحابه بالانتقال من مكة الى المدينة .. أي إلى الارض المحررة في قلب الوطن ..

ومبدأ الهجرة موجود في الحركة الوهابية***** ، وهناك رسالة « لمحمد بن عبد الوهاب » يتحدث فيها عن الذين هاجروا اليه بحريمهم وأولادهم « فلا جاءوا ولا شحذوا » . ولا شك أن نسبة كبيرة من « المجاهدين » في جيش السعوديين على عهدمحمد عبد الوهاب وسعود الكبير كانت من هؤلاء المهاجرين الذين انضموا

---

* سورة آل عمران .

** تحديد عام ١٩١٠ ـ ١٣٢٨ كبداية لتاريخ « الهجر » موضع نقاش .

*** وردت الهجرة والمهاجرون في ٢٤ موضعا من القرآن . بل واعتبرت مكملة للايمان : « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا » الانفال .

**** خاصة وأن الفقه الاسلامي الذي وضعت أصوله في عصور القوة لا يتضمن أحكام خضوع المسلمين لسلطة غير إسلامية باعتبارها حالة مستحيلة الحدوث ، كما لا يدرس في مدارس امريكا الآن ماذا تفعل في ظل احتلال أجنبي مثلا .

***** وقد جاء في كتاب الأصول الثلاثة للشيخ أن الهجرة قائمة الى قيام الساعة ، وهو بالطبع يشير الى الهجرة الثورية ، أي اقامة منطقة محررة في قلب الوطن ، وليس اللجوء . وقد أخطأت تلميذة فاتيكوس فزعمت أنه بعد فتح مكة أصبح واجبا الهجرة الى المدينة ! ونسيت هي واستاذها حديث : « لا هجرة بعد الفتح » .

للحركة . ولكن المعلومات قليلة عن أسلوب تجميعهم وتنظيمهم ، وأغلب الظن أنهم كانوا يتجمعون حيث يوجد الامام ، أو يأتون عند الدعوة للجهاد ، ولم تكن هناك مستوطنات ثابتة ومتعددة !

فالهجرة في التجربة الوهابية الأولى والثانية ، هي الهجرة بالتصور الاسلامي الصحيح ، الهجرة من دار الشرك ، من التعلق بالمجتمع المشرك ، من كل ارتباط ، وكل القيود التي تربط المهاجر بالمجتمع المرفوض ، فيحمل ايمانه ، وينطلق خفيفا فرحا مؤمنا متحررا إلى الله ورسوله .. الى « يثرب » الجديدة إلى أرض الايمان .. الى دار الهجرة .. إلى الأرض المحررة إلى الجهاد .. إلى « الهجر » .. ومنها ينطلق إلى تحرير العالم ونشر تصوره للمجتمع المثالي الذي يحقق خير الدنيا والآخرة .

والريحاني الذي سمع من عبد العزيز ، ذهب هذا المذهب أو قريبا منه في تفسير الاسم ، فقال : « الهجر جمع هجرة ، والهجرة في القاموس ، ترك الوطن الذي بيد الكفار والانتقال إلى دار الاسلام . أما وطن البدو فالبادية ، والبادية مهد الشرك ، فالهجرة منها إذن هي الهجرة إلى الله والتوحيد » .

وهو نص صادق الوصف للحالة التي رآها ، ولكنه يغفل عنصر الحركية ، فهذه الهجرة ليست فراراً من دار الشرك إلى أمن دار الأسلام ، بل « خروجا » بالمعنى الثوري ، رفضا لدار الشرك والتحول الى موقع أفضل لتحرير دار الشرك هذه .

أما « عطار » فقد استبعد منها البعد الديني . وطرح تعريفا يتفق مع قانون تحديد الملكية ! فقال : « الهجرة هنا أرض يخططها الحاكم للبدو ، ويقطعم إياها للسكنى والعمارة ، حتى تكون كالقرى والمدن الثابتة . ومعنى الهجرة الانتقال من أرض الى أرض **أما*** في الاسلام ، فالانتقال من بلد الشرك إلى بلد الاسلام . ويجوز هنا حمل المعنى على الاصطلاح اللغوي ، فقد نقل هؤلاء البدو الى أرض يستوطنونها ، بأسرهم ، تكون لهم بمثابة المدن للمتحضرين ! » !

وقد وفر علينا مئونة التعليق اذ أشفع قوله هذا بعلامة تعجب بنط ١٦ ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ! وإن كان يعز علينا أنه اعتبرها ظاهرة لا علاقة لها بالاسلام والتفسير الاسلامي للكلمة !

أما أطرف تفسير فذلك الذي وصل اليه « ديكسون » على طريقة القول بأن شكسبير هو « الشيخ زبير » ! .. فلأن الأحساء كانت تعرف قديما باسم « هجر** » لذلك قال إن عبد العزيز اشتق اسمها من « الاحساء » !

---

* لا حول ولا قوة إلا بالله .. « أما » هذه ، أخرجت المشروع كله من دائرة الاسلام !
** ذكر نيبور الرحالة الأحساء وقال « أنها تعرف ايضا « بهجر » وتصدر الحمير والجمال[3] » .
وقال والين في كتابه « رحلات في الجزيرة العربية » أن « الهجر » Alhagara تمتد من الدهناء للعراق[4] » .

ولست أستسيغ الاطالة في بحث معنى « الهجر » فهي الهجرة الاسلامية ، اقتداء بالهجرة الاولى لرسول الله والمهاجرين معه . ولعل هذا يوضح أهدافها ، كما يوضح ، أيضا ، لماذا يحاول البعض تفادي المفهوم واختراع تفاسير أخرى !

أما البحث عن مصدر الفكرة فقد ناقشناه بالتفصيل في مكانه ، واذا كنا نميل الآن ، بعد تنقيب وتمحيص إلى أن الهجر ، ظهرت براعمها تلقائيا كما هو الحال في كل الارهاصات الكبرى في التاريخ ، إلا أن أية دراسة علمية تستحق هذه الصفة ، لا يمكن أن تتحدث عن « حركة » الاخوان الا بنسبتها لعبد العزيز ، فهو الذي أعطاها شكلها ومضمونها ، وهو الذي غير بها التاريخ ، وأدخلها التاريخ ، ومن ثم فكل الجدل حول من كان أولا « الاخوان » أو عبد العزيز هو جدل اكاديمي ، مثل الاجتهادات التي تحاول اكتشاف مخترع مغمور سبق المشاهير* ، أو إثبات وجود الماركسية قبل ماركس ، والجدلية قبل هيغل ، وكل هذا ممكن ، ولكن لا يعني تخطئة اقترانها باسم من طرحها عالميا . خاصة وأن الفكرة ، كما قلنا ، من صميم التراث الاسلامي ، فالفضل لمن أعطاها قوة الدفع . وإذا كانت كل الكتابات قد خلت من أية إشارة إلى تطور الفكرة أو إلى حوار مع عبد العزيز يوضح هذه النقطة ، وكأن هناك سرا يتعمد الجميع اخفاءه ! .. وربما ننفرد نحن بأول رواية منسوبة المصدر لحوار حول هذه النقطة وهي الرواية التي حصلنا عليها من الأمير مساعد بن عبد الرحمن (أخو الملك عبد العزيز) .

ومن هنا فنحن نؤيد موقف المؤرخين الذين نسبوا الحركة الى عبد العزيز فلولاه ما كانت ، أو على الاقل ما كانت بهذا الشكل الذي عرفه التاريخ والذي نتناوله بالدراسة .

وقد اختلف في تاريخ أول هجرة ، وهي الأرطاوية ، فذهب فيلبي إلى أن الحركة بدأت سنة ١٩١٢ ــ ١٣٣٠ هـ ، وذلك في معرض تعليقه على ما كتبه س . م . زويمر في كتابه « الجزيرة ــ مهد الاسلام » ، قال فيلبي : « في سنة ١٩١٢ ــ ١٣٣٠ هـ ، كتب زويمر يقول : « إن الوهابية تندثر الآن ، وإلى الابد ، وأصبحت نجد على اتصال بالعالم عبر التجارة » ، ولكن والكلام لفيلبي ــ في هذه السنة بالذات ، كانت الوهابية قد بدأت تقف على قدميها من جديد ، فمستوطنة الاخوان في الأرطاوية انشئت في هذه

---

* ويظن البعض أنه باثبات اسبقية وجود الفكرة على تبني عبد العزيز ينتقص من قدره . بل ويذهبون إلى القول بأن الحركة نمت الى حد تخويف عبد العزيز : «مما وضعه أمام خيارين : إما ان يقضي عليها أو يصبح زعيما لها ، وبالتالي تتاح له فرصة استغلال حماسة أتباعها لتدعيم نفوذه في الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربي . وقد اختار ابن سعود الأمر الثاني رغم تحذيرات عبد الله بن جلوي حاكم الأحساء الذي نصحه بالتخلي عن هذه الحركة التي شبهها بنار تلتهم كل شيء . وفي عام ١٩١٦ ــ ١٣٣٤هـ ، أصدر ابن سعود أمره بانخراط جميع القبائل في نجد في صفوف الحركة الجديدة ، وأن يدفعوا له الزكاة بصفته إمامهم الشرعي[٥] » . وهو تفسير هزلي لا يشرح لنا لماذا تقبلت هذه الحركة التي « تضخمت » ، إمامة عبد العزيز بهذه السهولة !

السنة بالذات ، وبعد ١٢ سنة سيصبح سلطان وهابي سيدا لمكة مرة ثانية* » .
وقال كينث وليامز[٧] .. ان ابن سعود أدرك أنه اذا اراد لحكمه البقاء ، فلا بد له من انشاء نظام جديد لم تعرفه الجزيرة من قبل . ويدأ يتساءل : لماذا لا يعلم اولئك البدو الدين والولاء .. لماذا لا يلهب حماسهم الديني ، ويحوله الى طاقات مفيدة نافعة ؟ وفي سنة ١٩١٢ ـ ١٣٣٠ هـ قام بذلك الاجراء الهام وذلك بتأسيس حركة الاخوان الشهيرة** » .

وقال « جلوب » انها انشئت عام ١٩١٢ (١٣٣٠ هـ) وقال عنها « انها من ابتكارات عبد العزيز ، فهي وان كانت قد اعتمدت على احياء التعاليم الوهابية ، الا أن انشاء وحدات الاخوان في الهجر كانت من ابتكارات عبد العزيز » . ويقول : « بمساعدة رجال الدين في الحركة ، شكل القبائل البدوية الموالية له في جماعات دينية أطلق عليها « الاخوان » حيث حرمت الموسيقى والدخان ولبس الحرير[٨] » .

وقد نقل الزركلي « بتصرف » مقالا نشر في مجلة « لغة العرب » ببغداد ، جمادى الآخر ١٣٣١ ـ مايو ـ يونيه ١٩١٣ عن هجرة الأرطاوية جاء فيه : « منذ بضعة أشهر ، باعت احدى عشائر نجد ، خيلها وجمالها ، وما عندها من العروض والأموال في سوق الكويت وغيره ، وهبطت وادي « الأرطاوية » فبنت فيه الدور ، وشرعت تعني بأمرين لا غيرهما ، الزراعة والعلم ، وقد أهمل أفرادها كل شيء سواهما ، والعشيرة اسمها العريمات ، وشيخها « قويعد الصريمة » وهي قسم من قبيلة حرب » . وهذا يتفق مع ما قاله فؤاد حمزة « حول انشاء الأرطاوية على يد قبيلة حرب ، قبل الدويش والمطيرية ، وان اختلفا في الشيخ والسنة . فقد قال فؤاد حمزه : « أنشئت الهجرة الأولى على آبار الأرطاوية الواقعة على الطريق بين الزلفى والكويت عام ١٣٣٠ (١٩١٢) وسكنها سعد بن مثيب (من حرب) ثم أعطيت لفيصل الدويش وجماعته من مطير***» .
وقال محمد المانع[١٠] المترجم بديوان ابن سعود : « في سنة ١٩١٢ ـ ١٣٣٠ هـ وكجزء من محاولة حل مشاكله قام ابن سعود باحياء مبادىء التطهر التي في الحركة

---

* المرة الاولى كانت في عهد سعود الكبير . ولعل نبؤة زويمر الخاطئة ، تكون بشيرا لما سيلحق بنبؤة أو شماته غلوب . الذي قال : « مر نصف قرن على ثورة الاخوان وأصبحت السعودية من أغنى دول العالم ، اما أولاد الاخوان الشرسين فقد أصبحوا عمالا صناعيين في حقول النفط . والصحراء العذراء قد درست وخططت ورسمت في الخرائط . واخترقتها أنابيب النفط والسيارات . لقد تغير الزمان وتغير معه الرجال[٦] » .
ولكن الليالي حبالى ياجلوب . ولكل زمان رجاله . وليست الشراسة هي شرط الايمان ، ولا الجهل بالصناعة !

** وقال أيضا أن فكرة انشاء الهجر مازالت تعتبر من أعظم وأبرز أعمال ابن سعود التي كانت لها آثارها البعيدة المدى[٩] .

*** وان كان هذا لا ينقص من دور الدويش بالنسبة للأرطاوية ، فقد اقترنت به وهو مؤسسها الحقيقي مهما اكتشف المؤرخون من شيوخ سكنوها قبله !

الدينية التي بدأها عبد الوهاب في القرن الثامن عشر . وهدف الحركة هو توحيد القبائل في خدمة الله . وكانت فكرة الأمير العظيمة هي تشجيعهم على انشاء مستوطنات دائمة . ومن هذا الاحياء لتعاليم الوهابية ، انبثقت الحركة الدينية المعروفة بالاخوان . التي قدمت الصفوة من المحاربين المتعصبين المستعدين للقتال في سبيل الله والامام ضد المشركين . ويمكن القول انه خلال سنة واحدة من ميلاد الاخوان ، وجد ابن سعود نفسه مع جيش قوي مقدام من رجال يعتبرونه رسول العناية الالهية . ويمكنه أن يعتمد على اخلاصهم والتفافهم حوله كلما دعاهم للقتال » وقال ان أول قرية انشئت كانت الأرطاوية سنة ١٩١٣ (١٣٣١ هـ) ، وأن سكانها هم أول من تسمى بالاخوان[١١] .

لكنه أيضا جعلها مشروعاً زراعياً حيث « يمكن للبدو زراعة محاصيل منتظمة وفي المستوطنات كان ابن سعود يأمل أن يزرع العقيدة الوهابية » ! ولم يفرق لنا بين زراعة العقيدة وزراعة الشعير !

أما حافظ وهبة فقال ان أول هجرة هي الأرطاوية وانها بنيت سنة ١٣٣٠ ــ ١٩١١ . وأيد مفهوم الهجرة بالمعنى الحركي الثوري ، على الأقل في ذهن أصحابها ، مهما تحفظ الشيخ فذلك موقفه هو ، قال :

« أخذت الهجر تنتشر بسرعة ، وأخذت العشائر تقلد بعضها .. بعضا في ترك حياة البادية التي أصبحت **تسمى عندهم بالجاهلية** ، كما **يسمون الحياة الجديدة بالاسلام** . وقد غالى فريق كبير من عتيبة في كره الجاهلية ، أو حياة البادية ، فرأوا أن من آية الاخلاص لله ودينه ، وآية الايمان الصحيح : التخلص من كل ما يشتم منه رائحة الجاهلية ، فأخذوا يبيعون ابلهم وأغنامهم ، وينقطعون في « الهجر » للعبادة وسماع السيرة النبوية ، وغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتاريخ انتشار الاسلام في جزيرة العرب ، فوجدوا أن حياتهم تشبه في كثير من الوجوه حياة الجاهلية ، كما أن حياتهم الأخيرة تشبه حالة الاسلام في أيامه الأولى ، فعكف أكثرهم على تعلم مبادىء القراءة وحفظ شيء من القرآن والحديث ، غير أن هذا الانقلاب كان خطيرا وعنيفا جداً .

ويقول فيلبي ان المشروع بدأ بارسال دعاة أو مطوعين* ليطوفوا في القبائل يدعون للهجرة ، فتجمع سنة ١٩١٢ (١٣٣٠ هـ) عدد من حرمه بالقرب من مجمعه للتفقه في الدين . وهكذا ظهر الاخوان حوالي خمسين رجلا وعائلاتهم وقرروا الهجرة الى الأرطاوية بين الكويت والقصيم ، فأصبحت مستعمرة أو معسكراً للمتدينين المقاتلين ، وانتشرت الفكرة في طول البلاد وعرضها ، وابن سعود الذي بدأ حركة البعث بواسطة دعاته ، وفر لهذه المستعمرات كل احتياجاتها من المال والأدوات الزراعية والمعلمين

---

* المطوع والمطوعين مقتبسة من الآية : « الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم . »

الدينيين والسلاح والذخيرة للدفاع عن العقيدة ، التي كان البند الأول فيها هو التخلي عن العادات الجاهلية ، والقبلية ، والتآخي بين كل الذين يقبلون النظام الجديد بصرف النظر عن قبائلهم وأصولهم الاجتماعية ، وهكذا وجه النزعة القتالية عند العرب الى خدمة الرب وخليفته في الأرض ، وحرمت عليهم الغارات القبلية وأعمال النهب وشرب الدخان وكل خطايا الحياة القديمة . وقبل نهاية السنة وجد ابن سعود نفسه قائدا لجيش من المتطوعين* يستطيع الاعتماد عليهم حتى الموت . وهذه القوات هي التي كفلت التفوق لابن سعود على أعدائه ، وستصبح بالمئات خلال السنوات التالية ، وهي التي أعطت ابن سعود القوة التي ستمتحن عما قريب في حملات المرحلة الثانية من زحفه للسيطرة على الجزيرة ، والقول بأنه يدين لهؤلاء الاخوان بالكثير من انتصاراته ، هو قول لا مبالغة فيه ، وان كانوا سيشكلون تحديا خطيرا لاستقرار دولته ، عندما بدأت الالتزامات الدولية للحاكم تتعارض مع قناعات الرعايا » .

ويفهم من عرض فيلبي ، وتأكيده على أنها بعث للحركة الوهابية ، التي لم تكن بحال من الأحوال ثورة زراعية ! أن فكرة التوطين والاصلاح الزراعي أو الاجتماعي فكرة مضحكة بلهاء ، وخاصة وكل حديثه يدور حول النتائج العسكرية للمشروع ، وكيف كفل التفوق لابن سعود على أعدائه ، ولم يعرف عن ابن سعود أنه حارب أحداً من أعدائه اقتصاديا** !

والقوى المعاصرة للحركة لم تنظر اليها أبدا كحركة تمدين وتوطين وتحسين لأخلاق البدو ، بل فهمتها على الفور على أنها « حركة » ثورية تهدد كل تركيبة المنطقة . ومؤلف الاصلاح الزراعي نفسه ينقل عن ديكسون أن الحركة كانت تخيف الانجليز والخديوية ! ولا ندري ما الذي كان يخيف الخديوية منها ، اذا كان يعني خديوي مصر ، فلا أظن أنه سمع بها قبل ١٩١٤ ــ ١٣٣٢ هـ ، وقبل هذا التاريخ كان الخديوي مشغولا عما يجري في نجد ، بهمومه الداخلية ، وعلاقته المتدهورة مع الانجليز ، التي ستنتهي بخلعه عام ١٩١٤ (١٣٣٢ هـ) ، فهو كان في شغل بنفسه عن الاهتمام بالأرطاوية ، وبينه وبينها الحجاز والأشراف والأسطول البريطاني والمعتمد ...! أما بعد ١٩١٤ (١٣٣٢ هـ) فلم يعد في مصر خديوية ، بل سلطنة !.. ما علينا !

كيف يفسر لنا الفائز بالجائزة تخوف الانجليز من الحركة ، اذا كانت حقا حركة توطين للبدو الذين يتحولون الى فلاحين يزرعون الحب ويشكرون الرب !.. لقد كان الأحرى بهم أن يمولوا المشروع ، الذي يكفل تدجين هؤلاء العصاة المتمردين ، الثائرين أبدا ، اما في شكل مجاهدين أو قراصنة ، أو عصابات نهب وسطو .. وها هو عبد العزيز يحولهم الى فلاحين مسالمين ، مثل فلاحي الهند التي حكمها الانجليز ثلاثة قرون بأقل من أربعين ألف عسكري ، أو مصر التي لم يزد جيش الاحتلال فيها عن

---

* قال فيلبي من البدو الذين تحولوا الى Yeomen وتعني نوعا من التشكيلات العسكرية الخاصة .

** باستثناء فرض المقاطعة على الكويت . وهذه كان « الاخوان » ضدها !

عشرة آلاف عسكري .. فلماذا التخوف ، مادام المؤلف يصر على انها حركة توطين للبدو وتحسين أحوالهم الاقتصادية ؟ ويقول ان عبد العزيز « أوجد فكرة اجتماعية واقتصادية بالاضافة الى الفكرة الدينية السياسية ، وذلك في تأسيس حركة الاخوان على أسس دينية عسكرية اجتماعية » .

والى هنا نطمع في اسلامه ، أو فهمه للحركة ، ولكنه كما قلنا قد التزم منذ البداية بمفهوم معين ، لذلك يكمل العبارة بقوله : « كانت تهدف الى توطين البدو وتحسين أحوالهم الاقتصادية والثقافية[١٢] » .

فمن أين تأتيهم الاهداف العسكرية ؟ ولماذا يحتاج الزراع الى أسس دينية غير التي يحتاجها الرعاة ! هل نزل الاسلام على أهل القرى وحدهم ؟!

في مواجهة هذا السؤال ينزلق الكاتب الى القول بأن عبد العزيز استغل سذاجة البدو ، وسهولة انقيادهم للدين ! فهو يستعرض لنا عوامل نجاح المشروع في عشرة أسباب تبدأ هكذا حرفيا :

أولا : سذاجة البدو !

تخيلوا دراسة عن أهم ظاهرة في تجربة عبد العزيز ، تجعل العنصر الأول لنجاحها ، « السذاجة » الغفلة !.. لا والله ليست سذاجة البدو التي ساعدت على نجاح حركة الاخوان وانتصارهم قوة واقتدارا على القوى العالمية والمحلية ، بل الساذج حقاً من ينطلي عليه هذا القول !.

يقول : « أولا : سذاجة البدو وعاطفتهم ، حيث أنهم يصدقون كل شيء ويندفعون في سبيل تحقيق ما يعتقدونه اندفاعا قويا ، وهذا ساعد على نجاح مشروع الملك عبد العزيز الذي استفاد من طبيعة البدو هذه ، فاستخدمها لتحقيق أهدافه في تأسيس دولته الكبيرة في الجزيرة العربية » .

وهكذا يطمس التاريخ ، بل ويهال عليه التراب والسخام .. وماذا قال الذين احتلوا المسجد الحرام أكثر من ذلك ؟ طالب ملك ماكر لا يتورع عن استغلال الدين وسذاجة البدو لبناء دولته الكبرى .. ومن الطبيعي وقد بنى دولته أن يصفيهم !

« ثانيا ــ يقول المؤلف ــ « ان الحماس الديني الموجود عند البدو البسطاء ، كان عاملا قويا في نجاح المشروع ، فالبدو لا يهتمون بالسياسة وانما لديهم احساس عميق بالأمور الدينية ، ومما يدل على هذا العمق الديني ، أن القبائل البدوية الكبيرة ظلت متمسكة بالفكرة حتى بعد قضاء ابن سعود على الثورة التي قام بها زعماء الاخوان وقبائلهم ، وظلوا يحبون أن يطلق عليهم لقب اخوان ، مع أن تعصبهم الديني خفت حدته نسبيا » !

والغريب أنه لا يكتشف تناقضه ، فلو كانت حركة توطين للبدو ، لكان من الطبيعي أن يزداد تمسكهم بها بعد القضاء على الثورة ، ولكن لأنه يعرف أنها لم تكن حركة زراعية ، بل حركة دينية ، ثورية ، فهو يستغرب استمرار التعلق بها ، بعدما قضى على الثورة .. وهذا يكشف السبب الحقيقي للخطأ الذي يتردى فيه هو وأمثاله : أعني

اتخاذ موقف مسبق ضد الاخوان ، البدء بهدف مهاجمة الاخوان والظن أنه بمهاجمتهم وتتفيه دوافعهم ، واتهامهم بالسذاجة والبداوة البسيطة ، وجهل السياسة ، والتعصب الديني ، والاصرار على الفكرة ، حتى بعدما تمت « تصفيتهم » .. فهؤلاء الكتاب لا يكتفون بوهم مناصرة الدولة ضد « انحراف » حركة الاخوان ، بل يصرون في ظنهم على منافقة الدولة ضد الفكرة ، وضد الجهود التي بذلك لبناء هذه الدولة ، فاذا بهم يسيئون للدولة بأكثر مما يسيئون للفكرة ، فهو يدلل على سذاجة البدو وبساطتهم ، بأنهم ظلوا متمسكين بالفكرة ، حتى بعد قضاء ابن سعود على الثورة ، وكأنه يريد أن يقول : ظلوا يصدقون أو تنطلي عليهم الحيلة ، حتى بعدما انكشف الأمر ! وصحيح أنهم شفوا من التعصب الديني قليلا ، الا أن السذاجة مازالت مستمرة ، بدليل تعلقهم بلقب اخوان !

وهكذا نرى خطة بارعة ماكرة ، استغل فيها عبد العزيز سذاجة وبساطة البدو وتدينهم ، فلما قضى منهم حاجته ضربهم وصفاهم ، الا أن القضية مستعصية ، فلم ينجح في استئصالها ، لا ضرب الثورة ، ولا خفة حدة التعصب* الديني ..!

هؤلاء الكتاب يرون الأمر كله مكر طالب مالك ، فلا عقيدة ، ولا حركة كان يمكن أن تغير وجه المنطقة كلها ، ومن ثم فهم عندما يتشبثون بفكرة « التوطين » انما يحاولون الحصول على الانسجام الفكري !..

---

* معظم كتابات المستشرقين ، ومن نقلوا عنهم استهوتهم فكرة عبد العزيز الداهية الذي غرر بالاخوان فأنشأ حركتهم لخدمة أهدافه السياسية ، فلما قضى حاجته منهم قضى عليهم . ومن هؤلاء جون حبيب الذي قال ان عبد العزيز : « ضربهم عندما حققوا الهدف الذي أنشأهم من أجله » ص ٧٧ .

مستندا الى أن عبد العزيز كان يتحدث دائما عن ملك أجداده ! وكأنه كان يتوقع أن يطالب بالأحساء أو الحجاز من الأتراك والانجليز باسم الدين ! فحتى سعود الكبير حاور الوالي التركي في العراق حول ما هو تابع للروم ، وما هو خارج ملك الروم ! ولكن هذا لا ينفي ايمان عبد العزيز وقيادته لحركة كان يرجوها أن تستمر في نشر رسالة السماء الى ما شاء الله .

وكل هذه الدراسات تركز على « خداع » عبد العزيز للبدو أو اغرائه لهم « بالجنة » وكأنه اخترعها ، أو كأنها جنة الحسن الصباح ! والا لما حرصوا على وصفها لنا وكأنها بدعة حديثة ، مع أنها موصوفة في القرآن والأحاديث منذ ١٣ قرنا قبل ابن سعود ! ومع أن الوعاظ والمشايخ لم يملوا أبدا من الحديث عن الجنة وحور العين وأنهار العسل واللبن ولكنهم لم يحركوا عاطفة ولا استثاروا همة ، بل جعلوا بعض المغفلين يقولون ان الحديث عن الجنة جعل المسلمين لا يبالون بالسيادة في الدنيا ؟! فلماذا نجح حديث الجنة عند عبد العزيز ؟. لأنه طرح « الجهاد » أعطاهم دورا أو رسالة يعيشون من أجلها ويموتون في سبيلها . وقد ثبت دائما أن الايمان بالآخرة أو الاستشهاد في سبيل عقيدة لا يتجلى ولا يقوى الا بربطه بهدف دنيوي . فقد استشهد المسلمون لكي تكون العزة في هذه الدنيا لله ورسوله . وأوروبا لم تزدهر مسيحيتها الا من خلال قتالها ضد المسلمين .

ومصدر الخطأ في تفسيرات هؤلاء وحرصهم على اكتشاف مخطط خبيث تآمري غرر بالاخوان ، أو أطماع شهوانية سواء في الدنيا « الغنيمة » او الآخرة : « الجنة وحور العين » . هو أن هذه الدراسات تنطلق من قناعة بأن الاسلام عقيدة مادية غير سماوية ! وبالتالي فالايمان به والاستشهاد في

←

ثم يقول : « أجبر الملك عبد العزيز البدو ، باستثناء العجمان* على اعتناق مبادىء الدعوة السلفية والاعتراف به اماما شرعيا لهم وما أن جاءت سنة ١٩٢٠ (١٣٣٨ هـ) الا وكان معظم السكان البدو قد دخلوا في حركة الاخوان وقبلوا .. فكرة التوطين » !

مرة أخرى التوطين !

حتى العلاقة بين اعتناق الدعوة السلفية ، وقبول الهجرة ، تشوه . فالاعتناق ، كما هو معروف وبديهي سابق على الهجرة وشرط حدوثها . فالذي يهاجر هو المؤمن الذي يريد الهجرة من الجاهلية الى الاسلام ، ومن الخطأ الحديث وكأن سيف عبد العزيز كان الحجة الوحيدة لديه في ادخال البدو « ملكوت الله » ..! بل الأصح أن يقال ان الدعوة التي ينتسب اليها ويلتزم بتعاليمها كانت أقوى حجة في تطوير البدو وتوحيدهم . وقد تدينت قبائل بعيدة عن نفوذ عبد العزيز أو قدرته على الاجبار . بل بالعكس جر عليها « تدينها » انتقام وبطش خصومه الذين كانوا أقرب لهم ولكن تهمة الأخذ بالسيف تلاحق الدعوة الاسلامية منذ عصر النبوة . والذين طبقوا شعار : « أجبروهم على الدخول في ملكوت الله . » يتهمون الاسلام بأنه دين القوة ! وعندما جاءت جموع الصليبيين الى بيت المقدس كان تبريرهم : « ما أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ » !

وليست هناك قوة في العالم تستطيع اجبار البدوي على ترك الصحراء والاقامة في موقع محدد تحت سلطة حكومة مركزية لا يريدها ، فقد قيل في تفسير أنفة البدوي ، انه

سبيله يحتاج لمبرر مادي ! فهم يقبلون ادعاء « زويمر » أنه يعمل في سبيل كلمة المسيح ، وهو يكتب التقارير لمخابراته ويمهد لأساطيل المستعمرين ، لاحتلال بلاد من « يهديهم » . أما البدوي الذي يفخر بأنه خرج بالاسلام من الجهل الى النور والذي يفضل الموت على الحياة بعكس كل القوانين البيولوجية والذي ينادي بتحرير الانسان في حضارة لم تعرف الاستعمار . هذا البدوي المسلم لا بد أن هناك شهوة جسدية تحركه وتدفعه الى التضحية بالجسد كله !!

وقد سقط جون حبيب مرتين في هذا الخطأ عند حديثه عن « خطط » عبد العزيز وتفسيره انتشار الحركة بقناعة شيوخ القبائل بأنه رجل المستقبل وطريق الغنى والثروة ! وأن مصلحتهم المادية هي في الارتباط به » ص ٨٤ .

وقد هبط بتفسيره الى الحضيض عندما قال « ان الاخوان هم الذين فتحوا الحجاز ولكن لم ينالوا مجدا ولا اعترف لهم بالفضل . فلو كانوا قد فشلوا لكان بوسع عبد العزيز الذي ظل في الرياض ، أن يدعي أنهم هاجموا الطايف ومكة بدون اذنه وبدون معرفته ولذا عاقبهم الله بالخذلان وهو عذر مقبول لدى أصدقائه الانجليز » ص ٢١١

وهو قول سخيف ، فان الاخوان لم يتحركوا للحجاز الا بعد مؤتمر عام عقد برئاسة الامام عبد الرحمن الفيصل وخطب فيه عبد العزيز ، وسئل هل هناك حكمة سياسية في عدم التوجه للحجاز وازالة سلطة الشريف فنفى ذلك معطيا الاذن ومتحملا المسئولية الكاملة بغزو الحجاز ، وكبار مستشاريه كانوا في الحملة .

وأي انجليز هؤلاء الذين كانوا سيصدقون مثل هذا العذر الذي لم يخطر ببال ؟!

* هذا غير صحيح فالعجمان كانت لهم هجرهم ومنها السرار .

غير مجبر على قبول ذل الحاكمين ، اذ يقوض خيامه ويركب ناقته ويمضي !

ويستمر في تعداد أسباب نجاح المشروع فنصل الى : « رابعا : لقد نجح الملك عبد العزيز آل سعود في ارساء فكرة بيع القبائل لجمالها التي هي رمز البداوة ، وأن تعتمد على الزراعة بدلا من الرعي ، وتكون مجتمعا زراعيا مستقرا بدلا من مجتمع رعوي متنقل ، وساعده في ارساء فكرته هذه ، جماعته الذين يشرفون على تثقيف البدو وتعليمهم[١٣] » وهي منقولة عن « الخواجة » جون الذي بعد « مقابلة العرب » على طريقة : « طرازان يقابل ملك السود » !. قد فهم بيع الجمال على أنها رغبة في التخلص من البداوة ، وللاعتماد على الزراعة بدلا من الرعي ، وتكوين مجتمع زراعي مستقر ! الا أن الذين عاصروا التجربة ، وانتصروا بسيوفها ، أو اكتووا بنار هذه السيوف قد فهموا بيع الجمال على نحو مخالف تماما ، الا أنه هو الصواب . فلو كان الهدف هو تحويل البدوي الى فلاح ، لما اشترط الملك حسين لمصالحة عبد العزيز ، واستتباب السلام ، أن يكف عبد العزيز عن تحريض البدو على بيع جمالهم ، ولما طالبه بتسريح أهل الهجر واعادتهم الى البادية ، بل على العكس كان الأحرى أن يشترط عليه التوسع في مشروعات « التوطين » لأن الفلاح المستقر « الذي نسى الغزو وباع أداة القتال الأساسية في الصحراء وهي الجمل ، » لا يخشى بأسه ولا يحسب حسابه ، ولا حساب أميره أو سلطانه ، ولا يشكل خطرا عسكريا على الشريف ودولته .. ولا يمكن أن يكون أداة نابليون أو بسمارك « نجد » في بناء امبراطوريته ، كما يصورون عبد العزيز !

الذين عاصروا التجربة ، وكانوا يفهمون التاريخ ، أو حتى لديهم الحس بتفسير الواقع ، روعهم بيع الجمال ، لا لأنهم خافوا من « ثورة زراعية » في نجد !! بل لأنهم أدركوا الطاقة التي تفجرت بالايمان وجعلت البدوي يقبل هذه التضحية . وأن ذلك يعني وضع الجميع على خط المساواة ، بالغاء الخلفيات الاجتماعية المتباينة ، وتحرير المهاجر من قيود الملكية ، لينتمي للمجتمع الجديد انتماء كاملا ، ويربط مصيره به وبقيادته ، التي انتمى اليها عقائديا . واذا كان الجمل رمز البداوة ، فلماذا يبيع الدواب والغنم والخيل ؟ ألا تصلح للمزارع الجديدة ؟!

وهذه الظاهرة ، معروفة في كل التجارب المماثلة ، فالفلاح الصيني كان يتنازل عن كل ما يملك للكوميون ، ونفس الشيء لليهودي في بداية الكيبوتزات . وكلها صور متشابهة في الشكل ، فهي معاهد لتفريخ المقاتلين العقائدين ، ولا علاقة لها بالتوطين أو مشاريع مديرية التحرير ..

أما الشيخ حمد الجاسر ، شيخ المحققين السعوديين الذي عرف التجربة مباشرة ، فقد فهم طبيعتها ودورها أفضل بالطبع من المستشرقين والذين يحرفون الكلام عن مواضعه . قال الشيخ حمد الجاسر :

« والواقع ان هجرهم لم تكن هجراً زراعية بالمعنى الحقيقي ، وانما هي على شكل وحدات سكنية بناها البدو حول بئر ماء وبجانبه مسجد ، وكان جل اعتماد البدو على

عطايا الدولة .. »

وهو تعليق كان كافيا لتنبيه من أراد أن ينتبه ، ولكن المؤلف يحمله فوق ما حمل من أسفار ! لينتقل الى الحديث عن سأم البدو من حالة الترحال التى استمرت أكثر من مائة ألف سنة . أي منذ سكن الانسان الصحراء ، الى أن اصابهم الملل فجأة عام ١٩١٠ - ١٣٢٨ هـ أو ١٩١٣ - ١٣٣١ هـ !!

وجوهر الخلاف أن الحديث حول مشروعات توطين ، وتحويل البدو من مرحلة الرعى الى مرحلة الزراعة ، هو عملية تحول حضارية ، تتجه للاستقرار والتخلي عن الصفات الحربية ، أما مشروع الهجر فكان مشروعا عقائديا عسكريا لخلق مقاتل عقائدي ، حتى ولو مارس الزراعة في فترات السلم وبصفة مؤقتة . ولكن ما من عاقل يقول ان فيصل الدويش تحول الى فلاح آمن مستقر مسالم في الأرطاوية ! وقد استمر يزرع الرعب عشرين عاما في كل المنطقة ..

لنسمع آراء المعاصرين ، الذين كانت الحركة « تعنيهم بالدرجة الأولى :

ربما تكون أول اشارة « للاخوان » في تقارير الانجليز هي تلك التي وردت في تقرير بتاريخ ٢٣ ديسمبر ١٩١٧ - ١٣٣٦ هـ وهي برقية من السير وينغت المندوب السامي في القاهرة ، ردا على برقية السير برسي كوكس رئيس الخليج جاء فيها ما يلي بالحرف الواحد :

« أنباء الداخل في الجزيرة مثيرة ، وتحتاج الى تنسيق دقيق في سياستنا اذا أردنا منع وقوع مصادمة بين أصدقائنا* العرب .

« فسياسة الشريف في تقوية علاقته ونفوذه مع « عتيبة وعنزه » أقلقت ابن سعود الذي يطلب ضمانات ومساعدات عسكرية ضده . ويبدو أن سياسة الشريف هي دعم اتصالاته بجيرانه في انتظار زوال التهديد التركي للحجاز ، وتقدم فيصل (ابنه) في الشمال . وابن سعود يتخوف من نتائج هذه السياسة ، التى لو نجحت يمكن أن تضعه في مركز حرج ، **والأنباء التي وصلت حديثا من مصادر مستقلة عن حركة احياء للوهابية ، ربما كانت هذه الحركة تتم بتشجيع منه لمواجهة توسعات الشريف**** .

« **والشريف قلق** - عن حق - من الحركة الوهابية ، التى يمكن في ظروف معينة أن تشكل تهديدا للحجاز .

واذا كان من الصعب المقارنة الآن بين نفوذ الشريف والتعصب الوهابي ، **فانني أسلم بأن الاتجاهات التوحيدية*** في الحركة الثانية (الوهابية) تجعلها أكثر**

---

* وترجمتها الأدق « الذين تحت حمايتنا » Proteges

** يبدو أنه كانت هناك منافسة حادة على زراعة الأرز في خرمة وتربة !!

*** قال وينغت : Iconoclastic tendencies وترجمتها رفض عبادة الايقونات وهي تعني هنا رفض الوساطات أو مظاهر الوثنية أي التوحيد .

خطرا في الظروف الحالية ، كما أن السيطرة عليها أقل احتمالا من السيطرة على الطموحات العلمانية للشريف . ونحن لا يمكن أن نسمح بوقوع خلافات بين العرب بالقرب من الأماكن المقدسة ، تلك الخلافات التى يمكن أن تثور بسبب حركة البعث الوهابي . ومن الناحية الأخرى فان وضع الحجاز الجغرافي ، واعتماد الشريف على معونتنا ، **يجعلنا أقدر على منعه من القيام بعمل عدواني** . »

« ابن رشيد فقد سمعته في نظر العرب ، ومع انهيار قوة تركيا ، سيختفى نفوذه الشخصي ، وفي هذه الحالة ، واذا نجح فيصل (ابن الشريف) في الشمال ، فيمكن أن نقبل ممثلا للشريف مكان ابن رشيد ولا أعتقد أننا نستطيع الاعتراض على ذلك نظرا الى روح مباحثاتنا مع الشريف . « وانني اذ أقدر أهمية ابقاء ابن سعود الى جانبنا ، واعطائه مساعدة مالية ومواد عسكرية الى الحد الذي نراه ضروريا في العراق ، ولكن أريد أن اقول ان دعمه الى الحد المقترح الآن قد يكون خطيرا ، لأن قوة مجهزة تجهيزا حسنا من ١٥ ألف نجدي مع حشد من المتعصبين الوهابيين ، يمكنهم أن يجتاحوا الحجاز ، ويخلقوا اضطرابا في سياستنا العربية والاسلامية » !

أليس من العار أن يكون وينغت في سنة ١٩١٧ (١٣٣٦ هـ) أكثر فهما « للهجر » من بعضهم بعد خمسين سنة ! أم يا ترى كانت بريطانيا تخاف من المنافسة الزراعية للأرطاوية .

والتقرير في حد ذاته يثير نقطة مهمة ، وهي كيف استطاع عبد العزيز أن يكتم « الحركة » خمس سنوات ، إن أخذنا بالروايات التي حددت تاريخها بعام ١٩١٢ (١٣٣٠ هـ) .. كيف أخفى أمرها على بريطانيا ؟.. كيف لم يشر شكسبير اليها ، ان كان الاخوان قد قاتلوا فعلا في معركة « جراب » ؟! كيف لم يشر كوكس اليها ؟ هل بدأت كحركة سرية ككل حركات التحرير ؟.. حتى جاء هذا المصدر « المستقل » أو « المحايد » الذي يشير اليه وينغت ، والذي نرجح أنه الكولونيل هاملتون (لورد بلهافن فيما بعد) فقد ذكر فيلبي في الفقرة ١٤ من تقريره الجامع المانع ما يلي* :

« في اكتوبر ١٩١٧ (١٫٣٣٦ هـ) سنحت للكولونيل هاملتون خلال رحلته في الرياض ، الفرصة ليقضي يوما في الأرطاوية ، أحد مراكز الحركة الوهابية الجديدة ، التى عرفت باسم « الاخوان » وقد تأثر بما سمع من عقائديات هذه الفئة المتعصبة** ، وبدون تحريات ، صدق ما سمعه هناك عن أن الأرطاوية تعدادها ٣٥ ألف نسمة ، ولقد شاهدت المدينة ، ولا أظن أن سكانها يتجاوزون الـ ١٢ ألف نسمة .

« وعندما وصلت الى جدة والقاهرة ، كان تقرير كولونيل هاملتون قد نشر ووزع وأثار فزعا ليس بقليل*** ، مما دفع بالمسئولين عن الشئون العربية الى اعطاء أهمية

---

* زعم فيلبي ان الهجر أسست عام ١٩١٠ – ١٣٢٨ هـ وسماها مستعمرات أو مخيمات : Colony أو Cantonment .

** واضح أنه لم يهتم بالتين والعنب والرمان الذي يزرعونه !

*** الى هذا الحد تفزع بريطانيا من زراعة الصحراء وتوطين البدو !! شر البلية ما يضحك !

أكثر من اللازم بالنسبة للحقائق . وأطلقت التقارير من المصادر المتحيزة والمتحاملة حول نمو وأهداف البعث الاسلامي ـ كما جاء في ـ تقرير كتبه ليوتاننت كولونيل ت . أى . لورنس ، وقصد به التعبير عن آراء الشريف فيصل ، ونشر في النشرة العربية* رقم ٧٤ من عام ١٩١٧ (١٣٣٦) وكذلك لاقت آراء الشريف عبدالله نفس الاهتمام ، وقد ركزت هذه الدعاية الشريفية على أن بعث الوهابية يشكل خطراً داهماً على الأمن والسلام في الجزيرة العربية . وطالب أبناء الشريف بقمع الحركة في مهدها ، وأن ابن سعود ينظمها لخدمة طموحاته السياسية . »**

« ومن هنا يمكن القول بأن الخوف من انبعاث الوهابية*** ، أصبح يلعب دوراً بارزاً في جعل حكومة صاحب الجلالة تنظر بعدم ارتياح لأي اقتراح يؤدي لزيادة قوة ابن سعود العسكرية**** . » وبقية الفقرة تتضمن فلسفة فيلبي ، وقل أيضا دفاعه عن عبد العزيز ، الذي جعله يوصف بأنه غير محايد من جانب حكومته ، قال فيلبي في تفسير لجوء عبد العزيز لبعث الوهابية ، أي الهجر :

« مشكلتان واجهتا ، منذ زمن سحيق ، كل من حاول حكم الجزيرة ، الأولى هي عادات البدو ، والثانية هي فقدان الهدف المشترك ، الذي يشكل المركز الذي يلتف حوله . وقد استطاع بيت الرشيد ـ الى حد ما ـ أن يتخطى هذه المصاعب ، بفضل الصفة الخاصة لقبيلة شمر ، التي تدعمت وحدتها بامتلاك عاصمة وحاكم من دمهم . ولكن الوضع مختلف مع بيت « سعود » ، فهم لا يحكمون استنادا الى عصبية قبلية ، بل يعتمدون في مركزهم الذي صنعوه لأنفسهم ، على اتحاد قبائل ، مستعد في أية لحظة للتطويح بحكمهم اذا ما فقد مبرره . »*****

---

* وهي النشرة التي تصدرها القيادة العسكرية البريطانية في القاهرة . ولاحظ العداء بين فيلبي ولورنس . وقد اشرنا لرأي الأمير فيصل في فصل الاشراف .

** كتب الملك حسين إلى الوكيل البريطاني في جدة : « إن ما يعنيني بالدرجة الأولى هو أن تجبر حكومة صاحب الجلالة (البريطانية) الأمير المذكور على إلغاء ما يسميه بالاخوان وهي الجمعية السياسية التي تتستر برداء الدين » .
١٨/٩/١٩١٨ (١٣٣٦ هـ)

*** كتب وينغت الى بلفور في ٣/١٠/١٩١٨ – ١٣٣٦ هـ ، « إن خبرتي في السودان عرفتني خطر هذا النوع من التنظيمات السرية التي تعمل تحت ستار الدين في وسط شعب مسلم بدائي . فهم يصبحون على استعداد للاشتعال فور أول شرارة تعصب ، فاذا وجدوا قيادة ، أصبحوا قوة يصعب السيطرة عليها » .

**** قال الكولونيل ولسن : « مهما قيل عن اعتدال وصداقة عبد العزيز فهو رئيس حركة اسلامية متعصبة وهي حركة الاخوان فأي مساعدة تقدم لابن سعود تقدم في الحقيقة لحركة الاخوان »
رسالة الكولونيل ولسن الى ماجور ونغ ٩/١١/١٩١٩ (١٣٣٨ هـ)

***** وقال جون حبيب نفس الرأي وهو أن أهل المدن وإن كانوا محل ثقة إلا أنهم في شغل بتجارتهم وزراعتهم . والبدو لا يمكن الركون إليهم في مشروع بحجم أهداف ابن سعود ولذلك كان لابد من مقاتل من نوع ثالث .

ويقول فيلبي ان ابن سعود واجه هذا الوضع بأن مزج بين سياسة ابن رشيد ، وسياسة أحد أسلافه (سعود) .

ثم يحلل حركة الأخوان كالآتي :

١ ــ الحركة قاصرة على البدو الذين هم اسميا من أتباع المذهب الحنبلي ، وحيث للدين نفوذ قوي على الرأي العام .

٢ ــ المطوعة ، وهؤلاء يعينهم علماء المدن لادارة الشئون الدينية عند البدو وشرح العقيدة الوهابية البسيطة ، وحثهم على الحياة طبقا لسنة النبي وادانة العادات السيئة للمجتمع الصحراوي . وتحديثهم عن الجنة والاستشهاد .

٣ ــ وهكذا تحطم الطابع الأساسي للمجتمع البدوي ، وأعدت مستوطنات دائمة ، وبرز عدد من المدن والقرى في الخمس أو الست سنوات الأخيرة في أجزاء مختلفة من نجد ، وأبرز قسماتها أن رابطة الدين حلت محل روابط العائلة ، فالمطيري الأخ يلتزم بروابط مع المطيرين ، ولكنه أيضا يلتزم بكل روابط والتزامات ومزايا الأخوة الدينية مع الأخ من قبيلة أخرى كانت معادية لمطير .

٤ ــ الاخوان الذين تجمعوا في مراكز ملائمة والمتحمسون للعقيدة الجديدة ، سرعان ما عبروا عن رغبة في قطع علاقاتهم القديمة بقبائلهم التى لم تؤمن ، ولكن ابن سعود بفطنة سياسية نادرة* ، لم يشجع هذا الاتجاه . وهكذا صاغ رابطة قوية بين مصالح القطاعات المهمة لكل القبائل العظمى في نجد ، وعلى هذا الأساس بنى ابن سعود صرح قوته السياسية ، معتمدا على العناصر البدوية في مستوطناته الجديدة ، وبنفس القوة على المدن القديمة ، التى أصبح الآن قادرا على تحريرها ، من الالتزامات المزعجة التى كانت تجبرهم على خوض حروب حكامهم** . وجعل عبد العزيز هؤلاء الاخوان الذين لا يقاتلون الا دفاعاً عن العقيدة ، أو دفاعاً عن النفس ، نواة جيشه الدائم ، فعليهم وحدهم يوزع السلاح والذخيرة ، وعليهم اعتمد في تكوين العمود الفقري لجيشه في زمن الحرب ، فهم يجمعون بين سطوة البدو وثبات الحضر ، كما خدمت مصالح الاقتصاد دون خسارة الكفاءة . ويمكن القول بأن هدف ابن سعود من حركة الاخوان ، هو زيادة قوته العسكرية بتوزيع أعباء الخدمة العسكرية ، على عدد أكبر من رعاياه ! وبتقليل عناصر الضعف الموروثة في دولة بدوية ، وجيش بدوي ، وأيضا التوفير في نفقاته ، باحلال الأمل في الآخرة ، محل المغريات التي يطلبها المرتزقة . « ان هدف ابن سعود هو انشاء قوة دائمة قوية ، في مواجهة أي عدوان

---

* هذه نخالف فيها فيلبي ، اذ يبدو أن الحركة لم تنجح فعلا في قطع الروابط القبلية ، وسنرى أن هذه الروابط لعبت دوراً أساسيا في أحداث الحرب الأهلية . ولم يكن عدم تشجيع قطع هذه الروابط فطنة سياسية من ابن سعود ، بل غلطة قاتلة إن كان حقا قد فعلها عن وعي ..

** لاحظ أن فيلبي يعتبر تخصص المستوطنات في القتال ، قد حرر المدن من أعباء الحرب ، فتفرغت بالطبع للانتاج وبناء الحياة المدنية . وهذا المفهوم وإن كان عكس الفكرة الرائجة ، إلا أنه الأقرب للصواب ودليل تفهم فيلبي للحركة وأهدافها .

أجنبي في المستقبل ، مع رغبة في اعادة اخضاع جبل شمر لآل سعود . أما عن القول بطموحه في توحيد الجزيرة مرة أخرى تحت النفوذ الوهابي ، فلا يمكن أن أقول في هذا الموضوع أكثر من أن ابن سعود ، يعتبر بريطانيا هي عقبة دائمة ، لا سبيل لتخطيها ، تعترض تحقيق هذا الحلم ، وهو مهيأ لقبول هذا الأمر الواقع* » .

« أما عن السؤال الثاني ، وهو هل هناك ضمانة لقدرة ابن سعود على ضبط الحركة ؟ . فيمكن القول إن عش الزنابير الوهابي يمكن أن يبقى هادئا ، مالم يزعجه استفزاز خارجي** » .

ومهما حاول فيلبي أن يهدىء من روع المسؤولين ، فقد عاد من تجربته في نجد ، إلى اجتماعات مخططي السياسة العربية الانجليز ، بانطباع يتحدى جميع الحسابات ، والتقارير ، والمعلومات ، والقوانين التي تحكم حركة الأحداث والقوى في العالم العربي . اذا أصبح يتحدى خبراء الامبراطورية ، باصرار مثير على أن « إخوان » ابن سعود هم أقوى قدرة عسكرية في الجزيرة ، وأنه يستطيع أن يفتح بهم ما شاء ، ويهزم من يشاء .

كان لدى فيلبي أسبابه ، لهذه القناعة التي ملأت نفسه ، لأنه عاش ظاهرة ، وإن كانت ظلالا للتجربة الكبرى والأصل ، في يثرب ، إلا أنها تحمل قبسا من نورها ، الذي بهر العالم ومازال إلى اليوم. التجربة التي عاشها فيلبي كانت شبيهة بتلك التي سيعيشها « ادغارسنو » بعده بعشر سنوات في الصين ، حيث سيخرج الكاتب الامريكي بنفس الانطباع ، عن القوة التي لن تقهر .. لقد عاش فيلبي وسنو في مصنع عقائدي يخرج جيشا لا شبيه له ، رجالا يولدون من جديد بعد مرورهم في تيار أيدلوجي ، يعيد تشكيل فكرهم وسلوكهم ، فيتحركون ويتكلمون ويتعاملون ويحيون ويموتون بملامح فوق بشرية*** !

أما توينبي المؤرخ البريطاني الشهير ، الذي بنى شهرته على نظرية الاستجابة للتحدي ، وتعتبر دراسته لمجتمع البدو ركنا أساسيا في هذه الدراسة ، إذ تحدث عن تفوق التحدي على قدرة الانسان للمقاومة ، وكان خليقا لو رأى إنسان عبد العزيز ، يحقق المعجزة ، ويحول الصحراء الى مزارع ، وعبد العزيز ينجح في تحويل البدوي إلى

---

* هذه ترد على من يتهمون عبد العزيز بصداقة بريطانيا . أما قبول ابن سعود للأمر الواقع ، فذلك صحيح ولكن إلى حد ما ، فمنذ كتب فيلبي تقريره هذا وحد ابن سعود اكبر مساحة ممكنة في الجزيرة : شمر وعسير والحجاز . فضلا عن نجد التي كانت معظمها معه في عام ١٩١٧ ـ ١٣٣٥هـ .

** ولو أن « عش الزنابير » هذا كان يتحرك حتى بدون استفزاز ، إلا أن الانجليز اعتمدوا على هذه الفكرة في إثارته عام ١٩٢٨ ـ ١٣٤٧/٤٦هـ .

*** وفي إجتماع القاهرة ٢٣ مارس ١٩١٨ ـ ١٣٣٦ هـ (في عنفوان الهجوم الألماني) قال السير برسي كوكس « ان ابن سعود يجتهد في توسيع نطاق حركة الاخوان لتكون دعامته القوية في دفع كل عدوان خارجي على بلاده »

وأعتقد أن دفع العدوان الخارجي يتم بالسلاح وليس بالمحراث !!

فلاح ، حسب النظرية الفاسدة ، لو رأى ذلك لأفرغ لها المجلدات ، ولكنه على العكس من ذلك لم ير في حركة « الاخوان » إلا اعادة للزحف الاسلامي الاول ، « فكتب خلال الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٤ ـ ١٣٤٠ إلى ١٣٤٢هـ ، عدة مقالات عن حركة الاخوان ، وتنبأ بأنها إذا ما استمرت تنمو بمعدلها الحالي ، فستسيطر حالا على كل الجزيرة ، وما وراءها بل وربما تعيد تاريخ الاسلام* الأول بالانتشار في الدول الاسيوية وشمال إفريقيا** » .

أعتقد أنه صار من حقنا أن ننقل حكاية « التوطين » الزراعي الى الملاحق[٢] م ،

---

* وقد ساد العالم الغربي كله الفزع من عودة الزحف الاسلامي .. إما بالغزو الاخواني او بانتشار دعوتهم وأسلوبهم او بكونهم جزء من حركة بعث أسلامية عامة ، ففي يوليو ١٩٢٢ ـ ١٣٤٠هـ تحدث القنصل البريطاني عن نشاط « الدعاة » الاخوان في دمشق . وفي اغسطس ١٩٢٢ ـ ١٣٤٠هـ ، طلب ونستون تشرشل وزير الدولة لشئون المستعمرات من وزارة الخارجية أن تستعلم من محافظة سيناء عن انتشار حركة الاخوان في سيناء . ورد اللنبي في ١٢ سبتمبر أن قوة من ١٥٠٠ وهابي موجودة بالقرب من العقبة وتتقدم شمالا وأنه اصدر أمره للقوات البريطانية والمصرية بالتدخل إذ لزم الأمر » .

ولكن الصحف التركية قالت « لا يتوقع شن هجوم سعودي على مصر ، ولكن قد يبعث ابن سعود بمبشرين إلى عرب سيناء المصريين لحثهم على مهاجمة فلسطين »

٢٣/١٠/١٩٢٤ ـ ١٣٤٢هـ

وأبدى « صمويل » المندوب السامي البريطاني في فلسطين قلقه من انتشار الدعاية الاخوانية في شرق الاردن .

وكتب القنصل الايطالي في جدة « كافالير برنابي » : « إن حركة الاخوان تشكل تهديدا خطيرا على الاسلام ، ومصالح الدول الأوروبية التي لها رعايا مسلمون تقتضي احتواء هذه الحركة . واقترح القيام بحملة صليبية مشتركة من فرنسا وإيطاليا وبريطانيا تغزو نجدا من البصرة وجدة لتدمير الاخوان » .

تقرير ولسون عن محادثاته مع برنابي
١٨/١/١٩١٩ ـ ١٣٣٨هـ

والقنصل الالماني كان يهتم بتتبع أخبار ابن بجاد (برقية وينفت) والمخابرات الفرنسية رصدت نشاط الاخوان « التبشيري » في سوريا (تقرير للجيش الفرنسي) بتاريخ ٣١/٩/١٩٢٩ ـ ١٣٤٨هـ .

والقنصل الامريكي في اسطمبول توقع ان « يوحد ابن سعود المنطقة من الأردن الى فارس ، وأن الانتداب البريطاني في فلسطين والأردن والعراق يتعرض لامتحان خطير » .
(٢٣/١٠/١٩٢٤ ـ ١٣٤٣ هـ) .

** وقد علق محمد المانع على هذه الفقرة بقوله : « ولكن ذلك لم يتحقق ، لانه بدلا من استخدام قوتهم ضد المشركين الاجانب ، أصبح الاخوان منتشين بخمر قوتهم ، حتى انهم تحولوا إلى الداخل ، وثاروا ضد سلطة حاكمهم ابن سعود[١٤] » ...

وفي تفسيرنا نحن ـ كما سنرى ـ نذهب إلى العكس ، فنقول « لأن » ذلك لم يتحقق فقد جروا جرا إلى الصدام الداخلي .

ونقول كلمة في البدو والعقيدة والمشروع :

البدو ككل ظاهرة فريدة من نوعها تتأرجح بين النقيضين المتطرفين ، فهي لم تصل بعد إلى حالة التعادل ، التي تهبط بها من القلق أو الشذوذ العبقري المتفرد إلى استقرار ورتابة النمطية .. فالبدوي إما حالة فردية مطلقة ، تهبط به الى مجرد كائن حي يصارع من أجل البقاء ، أو ينطلق في شموخ إلى المستوى فوق الانساني بالتضحية من أجل هدف غير مادي ، يتخطى كل الحدود التي طوقت حركة هذا الانسان الذي اعتصم في أكثر بقاع العالم تحدياً للانسان ، الذي ـ كما يقول توينبي ـ قد خضع هو والاسكيمو وزنجي خط الاستواء للتحدي ، لأن هذا التحدي من جانب البيئة كان أكبر من أن يقاوم فضلا عن أن يقهر ، فتكيف الانسان لشروط البيئة ، ولم يغير البيئة ، أو يكيفها لاحتياجاته ، لأن ذلك كان فوق طاقة الانسان .. وهذه النظرية قد تكون صحيحة بالنسبة للاسكيمو والزنوج ، ومن ثم لم تكن لهم حضارة ولا ثقافة خارج صراعهم من أجل البقاء ، ككائنات بيولوجية ، ولعل السبب الأساسي لم يكن قسوة البيئة أو المناخ فحسب ، بل تضافر عليهم ، أو نتج من ظروف البيئة ، عنصر آخر هو العزلة عن العالم الخارجي ، فاستحال على الانسان في خط الاستواء أو القطب المتجمد الخروج من أسر بيئته القاسية ، فاجتر نفسه وأفكاره ، أما البدوي في الصحراء العربية ، فقد ظل على اتصال دائم بالعالم الخارجي ، سواء بغزواته ورحلاته ، أو لأن العالم الخارجي كان مضطراً للعبور في أراضيه* ، وهكذا فقد استطاع أن يحتفظ بشخصيته واستقلاليته ، واستفاد قدر الامكان ، والظروف ، من خبرات وثقافات وعادات الحضارات التي احتك بها أو احتكت به ، فالبدوي قهر التحدي ، وخرج إلى العالم ، بل وقهر العالم .. وأوضح مثال على ذلك هو الخروج الاسلامي الذي حمل البدوي من جنوب فرنسا الى الصين .

هذا الخروج ، كما قيل أو كما يتفق الجميع ، لا يتحقق إلا بالدين ، وليس هذا عن سذاجة أو تخلف ، بل لأن البدوي ، كما قلنا ظاهرة فريدة ، ليس لديه شعور بالوطنية لأنه بلا وطن ، وطنه خيمته ، إذا ما أحس بالقهر ، طوى خيمته ورحل ، فهو لا يصبر على الضيم ، وأيضا لا يصمد لمقاومته .. بل يرحل !.. ولا مصالح اقتصادية ثابتة تجبره على البقاء والدفاع عنها . ومن ثم فلا تبقى له إلا عصبية القبيلة ، كاطار يحتمي داخله من عوامل الفناء ، ولكن العصبية القبلية تتضمن عنصرين سلبيين : الأول هو أن الولاء للقبيلة ، يتضمن رفض القبائل الأخرى ، سواء أكان ذلك في شكل عدائها أو محالفتها أو مهادنتها . المهم عدم الشعور بالانتماء لهذه القبائل وتأكيد الانفصال عنها ، ومن ثم لا يمكن تصور تحرك جماعي ضد عدو خارجي ، إلا في حالات نادرة ،

---

* وأيضا لأن الزنجي أو الاسكيمو استطاع ان يكفي حاجاته البيولوجية في الغابة أو القطب ولكن البدوي لو ظل حبيس واحته يموت ، بتغير المناخ والجفاف ، وقلة الموارد ، فهو لابد له من الحصول على إنتاج العالم الخارجي إما بالتجارة الحرة أو بالقهر والغزو .

اعتبرت كنبؤة بالتغيير الحاسم القادم .

والثاني : أن الولاء للقبيلة مرتبط بالمصالح المباشرة ، مثل الدفاع عن الحياة ، وموارد العيش ، أو الحصول على هذه المقومات بالنهب والسلب ، ومن هنا يتحرك البدوي للغزو فهو الوسيلة الأساسية لانتزاع حق الحياة ، وهو اذا تحرك في ظل شعارات قد تبدو غير مادية ، إلا أنها مرتبطة بحفظ النوع ، مثل الثأر والشرف وحفظ الجار والمستجير .. الخ . وكل فضائل البدوي ورذائله ، مرتبطة بهذا التضخم في غريزة حب البقاء ، نظراً للأخطار الهائلة التي تهدد هذا البقاء . فكرم الضيافة مثلا ، شرط ضروري للبقاء في الصحراء ، إذ تتوقف الحياة على « كرم » أول خيمة يصل اليها ذلك المسافر في الصحراء ، حيث لا ماء ولا زرع ولا أسواق تبيع الطعام ، ولا فنادق .. لا شيء إلا وحشة الطبيعة ، ونبل الانسان .. ونفس الشيء بالنسبة لنظرتهم للمال ، واعتبار النهب حقاً مشروعا لحفظ الحياة ، أو حتى نوعاً من الرياضة العنيفة كالصيد والقنص عند نبلاء أوروبا ـ كما قيل ـ فهو ينطلق من قاعدة تقديم حق الحياة على حق المقيم على المال* .. فهو بلغة البدو « المال مال الله يوم لي ويوم لك » أو « خالتك عريانة اخلع ثيابك »[١٥] لتكسوها ولو غصباً ! (وخالتك هنا هي زوجة البدوي الغاصب ولا صلة لها بالطبع بالمنهوبة ثيابه ، إلا حق الصحراء ونسب الحياة !

من هنا كان الدين ، وحده ، الذي يطرح هدفا أسمى من غريزة البقاء الحيوانية ، أو قل الذي يربط حب البقاء الذي يحكم سلوك الفرد ، بهدف جماعي انساني ، هو وحده القادر على إبراز الوجه الآخر أو النقيض : السمو في التضحية ، التفوق في البذل والعطاء .

والسلوك الانساني هو معادلة بين الغرائز والقيم . ولكن البدوي ، كما قلنا ، في حالاته العادية ، عندما يخرج من التاريخ الانساني ، تتضخم غرائزه الى حدّ اخفاء ملامحه الانسانية ، فيصبح كائنا حيوانيا فرديا ، يسخر كل شيء ، ويضحي بأي شيء في سبيل الحفاظ على حياته** . هذا البدوي ، عندما يفرج الدين عن قيمه ، تكون الطاقة المتفجرة ، بقوة كبتها عبر مئات السنين ، ومن هنا هذا التجرد والسمو والطاقة التي بلا حدود ، التي يتألق بها البدوي المسلم ، فيذهل الدنيا ، ويغير شكل العالم من حوله لعدة قرون تالية ، حتى وإن عاد هو الى عالم النسيان والانحطاط الفردي .. ولكنه يترك بصماته على العالم ، ومفردات ومعاني بيئته وحياته على حضارات وعوالم لم تر الصحراء في حياتها ولكنها ستظل تردد الأسماء التي أطلقها بدوي في ليلة « بعدما بين طرفيها » ، على نجوم السماء ، فتعرف بها موقع السفينة المنطلقة للمريخ !

---

* انظر حادثة عمر مع البدو الذين اغتصبوا الطعام والماء من الذين رفضوا استضافتهم . فرفض عمر معاقبتهم وقال : ابن السبيل أحق بالمال من **المقيم عليه** ، ورفض حتى أن يقول من « مالكه » فلا ملكية بالمفهوم الرأسمالي في البادية (انظر أبو ذر والحق المر ـ تأليف جلال كشك) .

** تأمل قتلهم أولادهم لكي لا يزاحموهم على القوت ! والسهولة التي تنتقل بها المرأة من المهزوم الى المنتصر حفظاً على حياتها .

فالدين يخلق هدفاً سامياً ، عاما ، يذيب الحساسيات القبلية ، يخلق مواطنية تتخطى الحدود ، يجمع هذه الذرات المتنافرة في وحدة تتضاعف محصلتها ملايين المرات .

والبدوي ليس وحده الذي يتأثر بالعقيدة ، أو الايديولوجية ، وإن يكن نموذجاً خاصاً ، فالانسان لا يضحي ولا يستشهد إلا في ظل قناعة عقائدية ، وليس في التاريخ حركة تغيير أو بعث أمة من الأمم ، نجحت ، إلا باسم عقيدة ، حيث اقتنع الناس في الزمان والمكان المعينين بأن الموت في سبيلها أفضل من حياتهم الحالية ، بل هو السبيل الوحيد لتحسين حقيقي في حياتهم . وعبرة التاريخ تؤكد ، أن أي مواجهة متكافئة من الناحية المادية بين ، قوتين متصارعتين ، تنتهي بانتصار صاحب العقيدة الأقوى . وأيضا فان التاريخ حافل بالأمثلة ، على قدرة العقيدة وحدها على قهر العوامل المادية ، وتغطية الفارق التكنولوجي . والنموذج الاسلامي هو خير دليل على ذلك ، فالذين لا يملكون ، هزموا المالكين الذين كان لديهم ما يجعلهم أكثر حرصاً على النصر، لو كان الأمر يتعلق بالمصالح الاقتصادية . والحفاة العراة ، هزموا الحضارات السائدة والمتفوقة تكنولوجيا . والبدو الذين لا تربطهم أرض ، ولا وطنية ، ولا مصالح اقتصادية ، ولا تركيبة علوية معقدة ، أثبتوا أنهم أكثر تضامنا ، وأخوة ، وترابطاً ، من كل الأمم حولهم . فلم يسجل العصر الاسلامي الأول ، حالة واحدة ، خان فيها أعرابي جيش المسلمين ، أو سلم حصنا ، أو حتى حاول النجاة بنفسه* ، بينما كانت شعوب بأكملها ، أعرق حضارة ، وأكثر تطوراً من الناحية المادية ، تتخلى عن دينها وتاريخها ولغتها ، وتدخل في حضارة ودين وثقافة ولغة « البدو » .

وقد رأينا نماذج قريبة الشبه ، في العصر الحديث ، في الصين والجزائر وفيتنام ، وفي كل مكان انتصر فيه شعب متخلف ، مسلح بالعقيدة ، ضد عدو متقدم تكنولوجياً فارغ الروح بلا عقيدة . وقد قلنا مرة إنه عندما تواجه العقيدة الفاسدة ، من لا عقيدة لهم ، ينتصر أصحاب العقيدة الفاسدة ، ورأينا نموذجا لذلك في الغزوة الصهيونية ، فقد قاتل البولندي والأمريكي والروسي ، الذين لا تربطهم أية رابطة مادية بهذه الأرض ، قاتلوا وماتوا من أجل الاستيلاء عليها ، بدافع عقائدي . كذلك هزمت الجيوش العربية الأكثر عدداً وعدة ، والأعرق ارتباطاً بالأرض ، بل والتي تقاتل فوق أرضها ، لأنها افتقدت العقيدة الصحيحة .. فالقضية ليست « حجم » ما تخسره أو تكسبه ، ولا كما يزعمون قضية مصالح وملكية ، بل عقيدة . ولا أظن أن أحداً يقول إن تمسك أهل الخليج اليوم بأرضهم واستعدادهم للدفاع عنها أكبر من استعداد وتضحية وتعصب أجدادهم لأن بلادهم أصبحت أغنى !!

---

* يدعى ديكسون ويقلده كالقرد غلوب أن كلا منهما كان له جاسوس واحد في الاخوان ، ولكن ما من دليل على نفع هذا الجاسوس ، فقد فاجأ الاخوان الكويت والعراق أكثر من مرة في غفلة من ديكسون وغلوبه . وقد اعترف غلوب بأن الاخوان هم الذي نجحوا في رصد تحركات البريطانيين وعملائهم .

أدرك عبد العزيز دور العقيدة ، سواء عن تفكير ودراسة ، أو بالحس المتوارث* ، واستقراء تجارب صدر الاسلام ، والتجربة الوهابية الأولى ، عندما حولت « الحركة » البدو ، الى مقاتلين من الطراز الأول ، وحدوا الجزيرة ، وأرعبوا الدولة العثمانية ، ودقوا ناقوس الخطر بالبعث الاسلامي في أوروبا .. وظل الرعب منهم كامناً في أضابير الامبراطورية البريطانية ، فما أن وصل نبأ بعث عبد العزيز للمارد حتى انبعث الذعر من الأرطاوية في مكاتب وإدارات الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ، ليس خوفاً من إنتاجها الزراعي ، بل من الطاقة الروحية التي يعرفون جيداً احتمالاتها .

كانت بذرة الفكرة موجودة بالكامل في حركة « محمد بن عبد الوهاب » وان كان المؤرخون كالعادة ، لم يهتموا بتقصي هذه الحقيقة** ، إلا أن هناك اشارات متفرقة ، تؤكد أنه دعا المؤمنين الى الهجرة اليه ، بلا مال ولا متاع ، وهناك جرى تحويلهم الى عقائديين ، أو مقاتلين محترفين ودعاة يعيشون للمجتمع الجديد وعلى نفقته .. ومحمد بن عبد الوهاب ، وضع الفلسفة ، والشعارات ، والطابع « الحركي » ولكن الهيكل التنظيمي كان مفقودا ، أو ربما ضاعت منا آثاره بسبب اهتمام المؤرخين المعاصرين بتسجيل تحركات « الجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة » .. ثم تفرغ المؤرخون المحدثون لتسجيل فتوحات ومعارك البيت السعودي ، ولم تقم أية دراسة عن طبيعة « الحركة » .. إلى أن سقطوا في مستنقع « التوطين » ولا يعقل أن يفكر من سقط في هذا المستنقع بالبحث عن جذور الفكرة في الحركة الوهابية !..

وفيلبي على حق تماما ــ ولا شك أنه أعمق من كتب عن عبد العزيز ــ عندما يقول : إن حركة « الهجر أو الاخوان التي تفتقت عنها عبقرية عبد العزيز ، كانت في جانبها الفكري ، بعثاً للوهابية ، ولكن في جانبها التنظيمي ، فكرة جديدة تماماً تدين بوجودها ونجاحها ونهايتها الى عبد العزيز » .

فقط نحن نضيف تحفظاً هو أننا لا تتوفر لنا المعلومات عن نوعية التنظيم الذي قام في المرحلة الأولى ، وإن كنا نجزم باستحالة انتشار الحركة وانتصارها على نحو ما جرى بدون تنظيم . فليس من العدل أن نقرر بسهولة انعدام التنظيم في المرحلة الوهابية الأولى .

ومن هنا كان الخطأ الفاحش ، في تقزيم تلك الفكرة العملاقة بتصويرها كمشروع زراعي أو اصلاح اجتماعي يهدف الى تدجين البدو أو توطين البدو بتحويلهم الى مزارعين . وإنما هي تشكيل عقائدي ، جيش تحرير توجهه عقيدة ، مستعمرات يبنيها

---

* أشار عبد العزيز الى هذا التحول الكيفي في المجتمع البدوي عندما يحدث فيه التغيير عندما قال للكولونيل هاملتون ، أول انجليزي عرف الاخوان : « نحن كالوديان . وادي الرمة مثلاً يمتلأ مرتين أو ثلاث مرات كل قرن . ولكنه إذا امتلأ يكتسح أمامه كل شيء حتى المساكن » .

** بالطبع رفض كل أنصار « التوطين » و « الاصلاح الاجتماعي » فكرة « بعث » الوهابية ، أو الاعتراف بجذور حركة ابن سعود في الوهابية . من ناحية لأن محمد بن عبد الوهاب لم يقم بثورة زراعية ، ومن ناحية لظنهم أنهم يمجدون ابن سعود بنسبة الاكتشاف الزراعي اليه وحده !

عقائديون ، فيخلقون ويعيشون ، في مجتمع جديد .. جديد في قيمه ، في مسلكياته ، في علاقاته . حر من سيطرة المجتمع المعادي ، آمن من بطشه ، ومن تأثير قيمه المعادية .. هي أرض محررة ، أو مستعمرة ، حسب موقعك من الأرض والحركة ، وأول نموذج — كما قلنا — هو يثرب ، حيث أقام المسلمون مجتمعا حراً ، انطلقوا منه لتحرير بقية الأرض قدر ما وسعهم .

فالهجرة التي اشتقت منها المستوطنات السعودية اسمها ، ليست مشتقة من هجر ، اسم الأحساء ! ولا من الهجرة من حياة البدو إلى حياة الزراعة ، فتلك الهجرة معروفة في تاريخ البدو ، عندما هاجر عرب الجزيرة الى حيث الماء في صعيد مصر ، أو ما بين النهرين ، وسهول الشام ، بل حتى تونس وأطراف المغرب ، يقبلون كالاعصار بنقاوة وجفاء وقسوة الصحراء ، ولكنهم سرعان ما يتشبعون بماء الحضارة الزراعية ، فيطرى عودهم ، وتترطب أخلاقهم ، ويفقدون طهارتهم وخشونتهم في السهول والمستنقعات ، وما بين الترع والقنوات ، ويشربون ماء ذل الارتباط بالأرض .

ولا هي حتى كتلك الهجرة التي تمت بعد الفتح الاسلامي الأول ، حيث انتقل المسلمون من الجزيرة الى اراضي السواد ومصر من أجل أهداف عقائدية ودفاعية ، وللتمتع بما أفاء الله عليهم من نعيم الدنيا باستثمار الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين ، والسكنى في مساكن الذين ظلموا* ... الخ .

وإنما هي هجرة تشبه وتستوحي الهجرة الأولى ، التي انتسب اليها تاريخنا كله ، يثربيات مثل يثرب الخالدة . هجرة بالمعنى الديني الذي توحي به عبارة : « احمل كفنك واتبعني » أي احمل تحديك للسلطة المرفوضة ، احمل قرار استشهادك مسئولية اختيارك . ولا تنظر خلفك إلا بغضب ورفض . هي هجرة الصحابة من مكة الى المدينة ، وكلاهما كان مجتمعاً مدنياً ، بل لعل مكة كانت أكثر غنى وتحضراً ، وأقل بداوة ، فهي لم تكن أبداً هجرة من البادية الى الحضر . ولم يكن عبد الرحمن بن عوف أو أبو بكر وعمر بدوا رحلا جرى توطينهم في المدينة . بل هي عملية انسلاخ من كل ارتباط بالمجتمع القائم ، إلغاء كل الارتباطات التي تشد الفرد لهذا المجتمع . رفضه ، نبذه ، الخروج منه من أجل وبسبب الخروج عليه . الهجرة لله ورسوله ، أما الهجرة من أجل تجارة أو زراعة أو زوجة .. « فهي وما هاجرله » .. هذه أشبه برحلتي قريش في الشتاء والصيف ، أما الهجرة العقائدية التي تشكل الحركة التاريخية ، فهي أولا موقف : هجرة عقلية أولا ، واختيار كامل المسئولية .

وهذا ما فهمه عبد العزيز ، ولذلك أمرهم « بع ماشيتك وإبلك ودورك واتبعني » اتبعني الى العالم الجديد ، الذي فتح الايمان أبوابه ، فاربط مصيرك به ، ففيه وحده مستقبلك في هذه الدنيا والآخرة ، ولو كانت عملية توطين بدو ، لأمرهم أن يأتوا بكل ما يملكون ، لزيادة ثروة « المشروع الزراعي » .

---

* العراق بستان قريش .

في هذا المعسكر العقائدي ، يولد ويربي المجاهدون ، المؤمنون ، أو المقاتلون المتعصبون ، حسب موقعك من ضرباتهم . وفي هذه المستوطنات يقوم المجتمع النموذجي ، الذي سيعطي بناته الشعور بالاستعلاء ويؤكد حقهم في إقلاق العالم لفرض نظامهم الأكمل ، وهو أيضا الذي سيجذب أفئدة الثائرين والمقهورين والمستضعفين في الأرض ، من أجل التحرير أو الاستعمار والغزو حسب موقعك أيضا ، من التجربة* .

هو مجتمع يعيش للرسالة ولقهر المجتمع المرفوض ، أما الزراعة أو التجارة أو التعليم ، فليست إلا مجرد وسائل لزيادة القدرة القتالية لهذه المعسكرات ، فالزراعة والبناء في المستوطنة اليهودية ، أو كميونة ماوتسي تونغ ، ليست إلا إحدى وسائل الهدف الأساسي ، وهو قهر المجتمع المعادي ، وتمكين المستوطنة من التغلب على حصار المحيط المعادي** .

وعندما تحدث الريحاني عن الاخوان الذين يزرعون في شقرا ، وصفهم كالآتي : « وألف من الاخوان المجاهدين ، يحرثون في أيام السلم ، الأرض ، ويتعاطون التجارة » .

وهذه صورة طبيعية عن جيش التحرير الشعبي ، الذي لا يعيش متبطلا في زمن

---

* فبينما كان ابن سعود يرى في « الهجر » أداة توحيد الجزيرة ، وتحقيق السلام القائم على الحق والعدل ، كتب الشريف حسين ، وهو الطرف الآخر المعني في القضية : « فالأصل الأصيل الذي لا يمكن قبله تقرر عمل ، هو تفريق سكان الغطغط والأرطاوية والفروني وفريثان ، ونحوهم من المنازل ، التي تسكنها الزمرة الموسومة بالاخوان ، الحادثة من سنتين ، والتي هي عبارة **عن معسكرات** ، وقبل تنفيذ هذا والتعهد به ، أي بتفريق سكنة تلك المنازل . وأن كل شخص يذهب الى قبيلته المنسوب اليها ، فلا ثمرة لأي عمل كان ، كما أشير برقيمنا بتاريخ ١٢ ذي الحجة ١٣٣٦ ــ ١٩ / ٩ / ١٩١٨ » .

وبعد أن اقترح دستورا طويلا عريضا للاتحاد الفيدرالي ختمة بالعبارة التالية التي كانت أذكى من كل ما سبقها اذ قال : « وعلى أي حال فان مسألة تفريق سكان الغطغط والأرطاوية والقرى المذكورات أعلاه ، هي من أمهات المواد المتعلقة بقبول البقاء في رياسة البلاد » .

والرسالة بتاريخ ١٧ صفر ١٣٣٧ ــ نوفمبر ١٩١٨ .

ومهما قيل ضد الملك حسين ، فلم يعرف عنه كراهية الزراعة وتوطين البدو إلى حد رفض رئاسة الجزيرة العربية ودخول ابن سعود تحت طاعته ، إذا ما استمر « الاصلاح الاجتماعي » . والحسين هو أحق عربي بتعريف « الهجر » فعلى يد سكانها فقد ملكه ، وهو لم ير فيها إلا « معسكرات » وكان ذلك أصدق وصف لها ..

** وعرف فيلبي الهجر بأنها « مستعمرات من المحاربين العقائديين ، على استعداد لتلبية نداء ابن سعود . وقد تمكن بحماستهم من طرد الترك من الحسا قبل أربع سنوات[١٦] » . وقال محمد المانع :

« أصبحت حركة الاخوان سلاحا في يد عبد العزيز يستطيع إذا شاء أن يطلقهم ضد عدوه . فالاخوان لا يخافون الموت في القتال . لأن الموت في المعركة هو الطريق المضمون للجنة ، حيث يؤمنون بوجود أنهار باردة ونسيم عليل ، ونساء جميلات وكل ما يشتهيه قلب البدوي[١٧] » !

ولم يقل لنا سعادته ما الذي يشتهيه قلب الحضري الذي ترك خدمة عبد العزيز الى خدمة أرامكو ؟! فحتى هذا المسلم يصف لنا الجنة وما يشتهيه البدوي !

السلم ، مترفعا عن الأعمال اليدوية . متربصاً بالفلاح الحذر منه ، وإنما هم مجاهدون ، بلا تمييز بين جندي وفلاح ، يزرعون ويحصدون في الفترة ما بين « الجهادين » ، فهو في الأصل مجاهد* . وفي الحالات المؤقتة ، منتج متواضع الكفاءة والانتاج[3]م .

ومن المؤكد أن سلوك الاخوان ، لم يكن يشجع أبداً على تصورهم بصورة زراع ، أو أولئك الذين يغنون في الاذاعة : « نفوت على الصحراء تخضر** » فقد روى فلبي أن الأهالي في البتراء ، قالوا له « إنها كانت واحة نخيل خضراء حتى جاء الاخوان وأقاموا مستوطنة فريثان ، فقطعوا كل عرق أخضر فيها[18] » .

وكل الذين عاشوا في « هجرات » عبد العزيز حدثونا عن قيم الرجال وتدينهم وسلوكهم وشجاعتهم وكفاءتهم القتالية ، وما من مصدر واحد أشار ولو سهواً إلى طريقة زراعتهم أو محاصيلهم .

وكما استطاع المهاجرون الأوائل الى يثرب الكبرى والأولى ، أن يطوروا التكنولوجيا العسكرية ، فاخترعوا قتال الصفوف ، بدلا من « الغارة » الفردية ، التي يمارسها البدوي ، يهجم فرداً وينهزم فرداً ، كذلك أدخلوا فكرة الخندق للدفاع عن المدن المحاصرة ، حتى أن قريشاً لما رأته تعجبت وقالت : « ليس هذا من فعل العرب » كما أدخلت لأول مرة فكرة حصة الدولة أو المجتمع في الغنائم ، ونظام الضرائب ، وكلها مستحدثات لم يعرفها المجتمع العربي القديم . كذلك فان فكرة « الهجر » عند عبد العزيز طرحت لأول مرة فكرة جيش التحرير ، حيث الشعب كله ، قادر على حمل السلاح ، مع وجود نواة جاهزة ، أو مستعدة بصفة دائمة للقتال ، وبدلا من المركزية المفترضة في أول جيش دائم في الجزيرة*** . قام جيش الاخوان على نظام الوحدات القتالية ، القادرة على الاكتفاء الذاتي في الدفاع ، وإرهاق العدو بأسلوب حرب العصابات الذي استخدم لأول مرة في العالم العربي ، إن لم نقل في العالم كله . لم يكن جيش عبد العزيز ، جيشاً نظامياً على الطراز التركي ، أو ما عرفته الدول العربية فيما بعد .. العسكر الذين يرهقون الدولة ، ويتحولون الى طبقة منفصلة عن الشعب ، متميزة عن غالبيته ، ترغب في كل امتيازات الحرب ، وتتهرب من الحرب ، وتتحول في النهاية الى أداة كبت للشعب في يد الحاكم ، ثم مصدر رعب للحاكم ذاته . ولا استمرت

---

* كان ابن سعود اذا ضبط جنديا يدخن منعه من الجهاد معه ، الا اذا تاب وكسر السبيلة (الغليون) .

** « رأينا بعض مدن الاخوان ولكن زراعتهم هي من أسوأ ما رأيت في حياتي » .
Dame: Four Months in Nejd pp.357.

*** وهذه هي الفكرة التي قام عليها جيش الدفاع الاسرائيلي بعد ثلاثين سنة ، وإن قيل إن مستعمرة « ميتولا » الصهيونية تشكلت عام ١٨٩٦ ـ ١٣١٣ هـ وبدأ روتشيلد اقامة المستعمرات من ١٨٩٧ ـ ١٣١٤ هـ . إلا أن أول مستعمرة عقائدية ـ عسكرية في العالم الثالث ، هي بلا شك التي أقامها عبد العزيز . فلم يطرح القتال بشكل سافر في البرنامج الصهيوني إلا بعد وعد بلفور .

قوته العسكرية ، معتمدة على « الفزعة » البدوية التي تهرع اليه وفقا لقوانين الصحراء ، فهم معه مادام النصر حليفه ، فان لاحت بوادر الهزيمة ، كانوا هم أول من يطعنه من الخلف وينهبون معسكره ، بحجة أنه مادام منهوباً فأصدقاؤه أولى !.. هذه الفزعة لا يمكن أن تكون الأساس لخطة استراتيجية بطموح الدعوة الوهابية ، والبيت السعودي الذي يرأسه مثل عبد العزيز ، لانها عشوائية عفوية ، لا سبيل الى حسابها مقدما .

وهكذا بالنظام الجديد ، استطاع عبد العزيز إخضاع كل القبائل التي استمرت تقاتل بالأسلوب البدوي . وهزم جيش الأتراك النظامي والدائم ، وكذلك جيش الملك حسين رغم مدافعه وطائراته وخبرائه من الروس والشوام . وأقنع بريطانيا بتجنب مواجهته وجعله يفخر بقوله : إن ورائي ما لا يقل عن « أربعمائة الف مقاتل . إن بكيت بكوا ، وإن فرحت فرحوا . وإن أمرت نزلوا على إرادتي وأمري . وإن نهيت انتهوا . وهؤلاء هم جنود التوحيد إخوان من أطاع الله[١٩] » . ومعروف أن هتافات الاخوان هي : خيال التوحيد .. أهل التوحيد .. خيال التوحيد .. أخو من أطاع الله .

هبت هبوب الجنة .. وين أنت يا بغيها ..

يا ويل عدو الشريعة منا ..

وقد أورد الريحاني تقسيمات الجند أو المجاهدين في الهجر . « فهناك الجهاد ، والجهاد مثنى ، والنفير .. فالذين يلبون الدعوة للجهاد هم دائما مسلحون وعندهم مطايا وشيء من الذخيرة ، (أي أنهم القوة الدائمة) والجهاد مثنى ، هو أن يجيء كل مجاهد بآخر يردفه ذلوله (أي الاحتياطي المباشر) أما القسم الثالث من الذكور فهم الذين يبقون في أيام الحرب في الهجر ليداوموا أعمال التجارة والزراعة (غير المقاتلين) ولا يدعون للحرب إلا اذا اضطر صاحب البلاد الى الاستنفار العام » .

وكان المعسكر كله ، مهما بلغ حجمه منضبطا ، إذ في كل مسجد كشف بأسماء المصلين فيه ، أي مجموع الذكور البالغين في المنطقة المحيطة به ، واذا عرفنا أن هذا الكشف يراجع خمس مرات في النهار لاثبات الحضور والغياب ، أدركنا أيضا أن ابن سعود ، اكتشف أسرع وسيلة لاستدعاء الاحتياطي ، تفوق كل الأساطير التي تقال عن عملية التعبئة الاسرائيلية ، إذ يمكن استدعاء الاحتياطي السعودي ، خمس مرات في النهار على الأقل .

وقد زعم الريحاني أن من حق الامام وحده الدعوة إلى الجهاد والجهاد مثنى ، أما الاستنفار العام الذي لا يكون إلا للدفاع عن الوطن ، فهو حق العلماء ، ولكن السلطان يكتب اليهم معلنا حاجة البلاد الى الدفاع ، فيبادرون الى استنفار الناس أجمعين ، البدو الحضر والمهاجرين[٢٠] .

وإذا صحت رواية الريحاني ، فهي جديرة بالدراسة ، لأنها تبدو عكس ما تقرره الدساتير الحديثة ، التي تجعل من حق رئيس الدولة إعلان الحرب الدفاعية ، بينما تشترط موافقة السلطة التشريعية على إعلان الحرب الهجومية . ولكن الدولة

الاسلامية ، دولة مجاهدة أصلاً ، ولذلك فمن مهام الامام الطبيعية ندب الناس للجهاد ، وهارون الرشيد كان يحج سنة ويغزو سنة بارادته .. أما إعلان النفير العام ، أو الجهاد الذي هو « فرض عين » كما يقول الفقهاء ، فانه يعطي الامام صلاحيات ، وسلطات في الداخل وعلى المواطنين تشمل دمهم ومالهم وأحيانا حرياتهم . ومن ثم لابد من موافقة ممثلي الأمة .

وقد تحدث عبد العزيز نفسه عن الهجر فلم يشر من قريب ولا بعيد لمشروعات الزراعة ، أو بناء المدن ، بل شرح طبيعتهم التطوعية أو الفدائية قال : « يجيئوننا في السلم فنعطيهم كل ما يحتاجون إليه من كسوة ورزق ومال ، ولكنهم في أيام الحرب ، لا يطلبون منا شيئاً . في أيام الحرب يتزنر الواحد منهم ببيت الخرطوش ، ويبادر الى البندق ، ثم يركب الذلول إلى الحرب ومعه شيء من المال والتمر . القليل عندنا يقوم مقام الكثير عند غيرنا .. كنا نمشي ثلاثة أيام بدون أكل ، يأخذ الواحد منا ثمرة من حين إلى حين يرطب بها فمه .. نعم كانت الحاضرة أثبت قدماً وأشد بأساً من البادية ، أما الآن فالبادية المتحضرون ، أهل الهجر هم في القتال أثبت من الحاضرة وأسبقهم الى الاستشهاد [٢١] » .

فهو جيش من نوع خاص ، علاقته بالدولة تختلف تماما ، عن تلك التي تسود في الدول التي تسترضي جيشها في الحرب ، وتنساه في السلم . أما هؤلاء ، فتتكفل بهم الدولة في السلم* ، ويتكفلون هم بالدولة والوطن في زمن الحرب . كما أن الملك يعتبرهم حالة ثالثة ، فهم لا بدو ولا حضر ، « أهل الهجر » وحتى إذا كان استخدام تعبير : « البادية المتحضرون » ــ الذي نعتقد أنه من انشاء الريحاني** ــ فقد شهد أنهم أكثر قوة وثباتا من الحضر والبدو معاً ، أي أنهم حالة ثالثة .

---

* لأنهم غير منتجين .

** أو لأن الملك كما جاء في احد التقارير كان يتحاشى ــ قدر الامكان ــ الحديث عن « الاخوان » مع الريحاني .

في سنوات الأزمة العامة للعالم الاسلامي (١٩٠٨ ـ ١٩١٣ = ١٣٢٦ ـ ١٣٣١ هـ) والدولة العثمانية تنهار كالعهن المنفوش تحت ضربات الدول والايالات المسيحية ، والعالم العربي كالغنم في اليوم المطير ، قد جرد من كل وسائل الدفاع ، فكر عبد العزيز في الحل الوحيد وهو بناء قوة ذاتية ، تقهر كل القوى المحلية ، وتكفل القدرة على مقاومة الضغوط الخارجية ، وإقناعها بالنزول على إرادته ، والتكيف مع الواقع الذي يفرضه ، وإلا كان عليها المخاطرة بمقاتلة قوته هذه .

فتش عبد العزيز في ترسانته ، بل لعله تأمل كل الترسانة العربية والاسلامية ، فلم يجد إلا الاسلام ، رسالة البيت السعودي ، وسبب مجده ، ومبرر حكمه ، فكانت الهجر والاخوان الذين فأجأ بهم الأتراك في الأحساء ، ولو أن المشاركة الاخوانية كانت بسيطة نظراً لحداثة سن التجربة* . ولكن الروح الجديدة ، يمكن استشفافها فيما جرى من خطب وحوار قبيل الهجوم على الأحساء، ثم روع بها البعثة البريطانية في ١٩١٧ ـ ١٣٣٥ هـ لتصبح الحقيقة الأولى في الجزيرة العربية خلال السنوات الخمس عشر التالية .

ورغم أنه ما من دراسة كاملة ، قد أتيحت لنا عن الحياة داخل « هجرة » من هذه « الهجرات » .. إلا أن بعض المعاصرين قد تركوا انطباعاتهم من خلال مقابلاتهم مع الاخوان ، وان كانت كلها من طرف واحد ، وبانطباع شخصي غير محايد ، بل معاد في الغالب .. إلا أنه يمكن استشفاف ملامح هذه الظاهرة ، وهذا الانسان الجديد الذي شكله الايمان** .

---

* على أية حال : راندال باكر قال عن الاخوان : « وهابيون متعصبون وهبوا أنفسهم لنصرة الدين بالكلمة والسيف ، وجعل تاريخ الحركة سنة ١٩٠٨ ـ ١٣٢٦ هـ وهو يعزز القول بأن لهم دوراً في فتح الأحساء . اما الأرطاوية فقد اتفق مع الرأي السائد بأنها أسست عام ١٩١٢ ـ ١٣٣٠ هـ[٢٢] »

** من المؤسف بالطبع أنه لم تتح لنا الدراسة الوافية عن الحياة في ذلك المجتمع النموذجي الفريد من نوعه ولكن الأخبار المتناثرة تؤكد حالة عقائدية من اللواتي تغير مجرى التاريخ ، وقد وصف هاريسون الرياض عام ١٩١٨ ـ ١٣٣٦ هـ فقال : « هذه المدينة يعيش سكانها للعالم الآخر . المئات يدرسون في المساجد ليتخرجوا وعاظا يتوجهون لهداية القبائل البدوية . إنها مركز نظام تعليمي ديني يمتد إلى كل قرية في وسط الجزيرة ، ويقدم التعليم للجانب الأكبر من ذكور المدن والذي يتغيب عن الصلاة يضرب . ومن الممكن القول بأنه ما من مدينة يهتم رجالها بالعالم الآخر اكثر من اهتمامهم بهذا العالم مثل الرياض . وهم لا يعرفون العشاء المتأخر . بل يأكلون الوجبة الأخيرة قبل الغروب بساعة ليكون لديهم الوقت الكافي للقراءة والعبادة قبل النوم . وهذا هو البرنامج المعتاد حتى في بيت عبد العزيز نفسه » .

PAUL HARRISON - Al Riadh capital of Nejd. in Moslem World 8)1918) pp. 418-19.

وقد عرف الريحاني الاخوان بقوله : « الاخوان هم الفئة المحاربـة ، الفئة المتعصبة ، الفئة المدينة (دين أي تمذهب بمذهب الوهابية في اصطلاح نجد) جديدا في الوهابية . الاخوان هم جنود عبد العزيز بن سعود الذين كانوا بالأمس من العرب الرحل ، من البدو الجاهلين ، فدينوا ، أي دانوا بدين التوحيد فصاروا مسلمين » .

والريحاني شاهد الاخوان ، في عصر الفتوحات ، والزخم العقائدي ، الذي يتسم « بالترفع » أو استعلاء المؤمن الذي هو أرضية الاستشهاد والبطولة ، والريحاني لم يحب الاخوان ، لأسباب مفهومة ، فهو المسيحي اللبناني الذي هاجر للولايات المتحدة لأسباب دينية ، الذي احتج على ثورة الشريف « العلمانية » لاستشهادها بسورة البقرة . رأى نفسه وسط حركة تحاول أن تعيش وأن تعيد حرفيات تاريخ صدر الاسلام ، بالاضافة إلى أنه تعرض لمعاملة قاسية من بعضهم ، ومع ذلك فقد كان له من شرف الكلمة ، الحد الذي جعله ينقل لنا الكثير من الحقائق ، والانطباعات الصادقة بغض النظر عن مشاعره ، وتفسيراته .

وصف سلوك « أخ » من قاع المجتمع ، رافقهم في رحلة ، فكان رافضاً لمسلكية الجميع : اللبناني الأمريكي المسيحي ، والنجديين من غير الاخوان على السواء مما يجعل سلوكه موقفا عقائدياً وليس عنصرياً ولا طائفياً ..

قال الريحاني : «إن الاخوان قد روى عنهم الموالون، والمعادون*، أخبار البطولة والشجاعة التي اشتهروا بها ، قالوا إنهم أبطال المسلمين ، وقالوا إنهم شياطين الدين ، فلا الحجاز ينساهم ، ولا الكويت يذكرهم بالخير ، ولا العراق يحسن بهم الظن ، ولا الجوف ولا الجبل ، ولا القصيم يكبر في ساحة الوغي سواهم . ويردد خوفاً وإعجاباً غير اسمهم . الاخوان زرعوا الهول في كل مكان . الإخوان يحاربون مستبسلين مستشهدين . وما كانت البطولة بغير الايمان الحي ، والثبات في الجهاد ، لولا ذلك ما كان الاخوان ، وما كان ملك ابن سعود ، هبت هبوب الجنة ، أين أنت يا باغيها ؟ وكل يبغيها .. لذلك يحاربون وقلما ينهزمون . الجنة أمامكم والنار وراءكم فمن منهم يتقهقر ؟ ومن منهم يولي مدبرا ؟ وهم شوكة ابن سعود أيام الحرب ، وهم أيام السلم الشوك في غصن الدين ، يحملون سلم التوحيد بالعرض ، ويزعجون أحيانا حتى سلطانهم العزيز . حدثت كثيرين منهم ، فما وجدت وراء اللسان غير قلب فيه أتون

---

* وقد اعترف ديكسون في أواخر حياته ، وبعدما زال خطر الاخوان على الامبراطورية .. اعترف بانّ اشاعات القسوة عنهم كانت من تدبير الأجهزة فقال « رغم أن الكثير قد كتب عن قسوة الاخوان وإرهابهم . إلا أنني يجب أن أقول **اليوم** : إن هذه الصورة قد بولغ فيها **عن قصد وتصميم لخدمة أهداف سياسية في ذلك الوقت** فقد خامرني شعور الاعجاب بالاخوان ، وربما كان ذلك للسحر الخاص في الرجال المؤمنين حقا بالله المخلصين لايمانهم (من أي دين) ، الذين يعتقدون أنهم مكلفون بتطهير الدين من الرجس . وأنا أعترف بأنني عندما تعرفت على بعض الاخوان ، وجدت فارقاً قليلا بينهم وبين البدو الطيبين العاديين ، لقد كانوا محبين لنسائهم ، عطوفين على أطفالهم وجمالهم وخيولهم كالآخرين » . (الكويت وجيرانها) .

من الايمان ، فلا يهاب صاحبه الموت ، ولا يخاف غير الله . ولكنك تسألني : أمن روح هناك فيها شيء من الحنان ؟ أم من عقل فيه ذرة من البرهان ؟* » .

ثم يقدم لنا قصة هذا الأعرابي نوار ..

« وما نوار غير راعي بعير .. اكتراه منه شاب كان في خدمة السلطان ليسافر معه الى القصيم ، وطلب أن يرافقنا » . واكتشف نوار أن خادم السلطان يدخن ويغني « فيتلو » نوار إذ ذاك التعويذتين**. وعندما رآه لأول مرة يشعل السبيل*** كاد يجن ، فوثب فجأة الى الأرض كأن ناراً اشتعلت تحته وهو يردد بصوت عال : أعوذ برب الفلق من شر ما خلق .. أجرنا الله من النار .. أجرنا الله من النار .. والربع كلهم يضحكون .

« كان الأخ نوار مع ذلك لطيفا وذا مروءة تشكر ، فيعاون الخدم ، ويرعى الركائب عند المراح ، ويجمع الحطب ويشب النار ، ولا يأكل الا قليلا ، رافقنا هذا البشر الغريب ، أخانا ، كرها ، عشرة أيام وما من مرة سلم علي أو كلمني أو رد سلامي . مرضت أثناء السفر بالحمى فكنت ذات يوم على الفراش في خيمتي ونوار واقف اتفاقا في الباب ، فقلت مازحاً ، بل كنت أضايقه عمداً : يا نوار أنا « مصخن » (مريض) فمال بوجهه إلي هاتفا : والحمد لله ! » .

فرماه الريحاني بعصاه ظاناً أنها وقاحة أو وحشية ، ثم قام اليه مستعطفاً أن يصلي من أجله ويذكره في صلاته ليشفى . ومن الطبيعي أن يبتعد « الأخ » عنه « متأففاً » من هذا المفهوم المخالف للاسلام ، فهو يصلي عليه اذا مات مسلماً ، أما أن يصلي من أجله ، فليس ذلك من ديننا في شيء ، فلا أحد يصلي لأحد ! ولا أحد صلاته أفضل من صلاة الانسان لنفسه .

« وبعد تهديده بالذبح ، وهو وحيد بين « خمسة عشر كلنا ندخن ونغني » » : قبل أن يدعو الله : « الله يجيرنا وإياك من النار » . وهذا منتهى التساهل منه ، لم يطلب لي الشفاء ، كلا بل اشركني من فضله ، بالاستجارة من النار ، نار الجحيم . كل الاخوان المدينين جديداً ، هذا الرجل . كلهم نوار[23] » .

ثم يحدثنا عن المطوعة : « أما العمامة البيضاء الشبيهة بالضمادة ، فان هي إلا نصف ذراع من الخام يلفه المطوع فوق الغترة على رأسه ويشكر الله ثم يحمل عصاً من الشوحط أو قضيباً من الخيزران ، ويجوب البلاد في سبيل التوحيد .. المطوعة يعلمون الناس الدين ، والعلماء يعلمون المطوعة ، وكلهم يوم الجهاد « خيال التوحيد أخو من

---

* عن الحنان هناك روايات أخرى تؤكد أنهم كانوا يقتدون بالصحابة الذين قال فيهم عز وجل : رحماء فيما بينهم ، أشداء على الكافرين . ويعملون بقوله تعالى « وليجدوا فيكم غلظة » « وأغلظ عليهم » .

أما البرهان فهو مسألة نسبية ويمكن الجدل حوله الى ما لا نهاية في كل عقيدة .

** صحتها « المعوذتين » .

*** الغليون الذي كان يدخنون به .

أطاع الله » وكلهم في أيام السلم فلاسفة في التقشف والقناعة ، في الشدة والصبر ، في الفقر والتقوى ، ترى الأخ في الطريق حافياً لا يحمل غير عصاه ، ينفخ الهواء في أطماره فيكشف عريه ، وقد يكون مشى يومين أو ثلاثة دون أن يذوق الخبز أو التمر فتسأله بعد السلام : كيف أنت ؟.. فيجيبك بصوت عريض ، وقلب وطيد كأنه يمثل دوراً في رواية : بخير ونعمة والحمد لله !.. وقلما تسمع كلمة منهم في اليأس والشكوى[٢٤] » .

لا شك أن اللبناني الأمريكي ، الذي جاء من نيويورك ، ليوحد الملوك والأمراء العرب ، قد أحس بالقهر أمام عزة « راعي البعير » هذا والمطوع الذي يلبس جلبابا فوق جلده العاري ولا يملك إلا ايمانه وهذه العصا في يده ، ويهتف بصوت مرتفع : « الحمد الله »[٤م] !

ولكن هذه العزة « المعنوية » هي كلمة السر في كل الثورات والحروب التحريرية ، فلا شيء تعطيه الثورة للشعوب المتخلفة المقهورة ، أقوى من هذه العزة .. عندما يقتنع الفلاح الصيني الأمي المنهوك القوى بالأفيون ، بأنه محرك التاريخ ، ورسول التقدم للجنس البشري ضد الامبريالية أو الشيطان ، ضد حضارة متفسخة لا مستقبل لها ، منهارة ، مليئة بالشر والانحلال .. نفس الشيء لزارع الأرز الفيتنامي* ، وقبل ذلك كله راعي البعير في صدر الاسلام ، الذي بلا شك أثار أعصاب القياصرة والأكاسرة باعتبارهم نجساً ومشركين عبدة أوثان متخلفين .. عندما كان يخفق الهواء في جلبابه فيكشف عريه ، وهو يصرخ مستنكراً « أتريدها قيصرية أو كسروية ؟ » موقنا أنه جاء بالنظام الأفضل من الكسروية والقيصرية ، وأنه أسمى وأرقى من أن يحكم كما حكم الرومان والفرس .. لولا هذه العزة لما كان من الممكن أن يقهر راعي الابل ، هؤلاء القياصرة والأكاسرة . ويتفوق على حضارتهم وتكنولوجيتهم المتقدمة .. ولا كان الصيني سيقهر القوى الأجنبية ويتخلص من الأفيون والأمية بل وقبل الاثنين ، أما كان الروماني يطلق على العالم كله : « البرابرة » وهو وحده المتحضر !.. ثم الفيتنامي ، الذي انتصر على الولايات المتحدة بهذا الاعتزاز ، ولن ينتصر على محاولة الروس استعباده إلا اذا انطلقت في قلبه شرارة استعلاء جديدة ، تجعله يرفض النموذج الروسي كمثل أعلى !.. هذه القناعة ، التي تعطيه قوة الصبر ، على المستوى المتدهور ، ليس صبر العاجز ، بل صبر المقاتل من أجل تغييره جماعياً ، وليس من خلال حل فردي .. هذه « الرواية » التي اندمج فيها الجميع ، هي رواية تغيير التاريخ ، والذي يعيش خارجها هو وحده الذي يستطيع أن يلاحظ حالة التقمص ، ويرى فيها ظواهر غير بشرية ، أما أبطالها فهم يعيشونها حقيقة ، ويفرضونها على التاريخ بايمانهم . وبعد فكلنا نمثل في رواية ، بعضنا لا تعلو آماله عن دور الكومبارس في رواية عالمية ، أبطالها من حضارات أجنبية ، يستذلون أمته ، ويحتقرون حضارته ، وقلة تجبر التاريخ على أن يلعب دوراً ترسمه هي في روايتها الخاصة ، وأولئك تفوز أمتهم بالمجد والتحرر

---

* نفس الشيء نجده في كتابات الغربيين عندما يصفون الحكم السيء بأنه « شرقي » .

والقوة !

أما رفض التدخين ، وهو موقف وهابي قديم ، فانه في الحقيقة موقف وطني منذ أن حرض جمال الدين الافغاني ، مفتي إيران على اصدار فتواه بتحريمه ، فكان أول صدام مع الاحتكارات البريطانية التي كانت تحتكر تجارة التبغ ، وقاتلت لفرض بيعه على حساب صحة ومدخرات الايرانيين تماما كما قاتل الأسطول البريطاني ضد « المتخلفين المتعصبين الصينيين » الذين حاولوا منع بيع الأفيون البريطاني لمواطنيهم الصينيين البؤساء ، فقيل فيهم ما قيل في تعصب الاخوان ضد التبغ . وما تنفقه أوروبا وأمريكا الآن على محاربة التدخين ، بل واضطرار الشركات تحت ضغط الرأي العام ، والحكومات المنافقة لكتابة : «احترس هذا الدخان الذي نبيعك إياه خطـر على صحتك » ! ورغم ذلك يسمح ببيع « هذا الخطر الأكيد » لأن الحكومات عاجزة عن مواجهة الشركات ، أو الاستغناء عن الدخول الهائلة المتحققة ، من إحراق صحة رعاياها ، ونشر السرطان في صدورهم ، أو عاجزة عن إقناع مواطنيها . أو الأخس من ذلك أن يكتب هذا التحذير داخل بلادهم ، ويحذف من الدخان المعد للتصدير في البلدان المتخلفة العاجزة عن حماية رعاياها ! لو تأملنا ذلك كله ، لاسترحمنا واستغفرنا لذلك المطوع النجدي الذي استطاع ان يجعل راعي البعير « نوار » يفر مستعيذاً بالله ، إذا ما شم رائحة التبغ ، أو رآه يشعل .. فحمى صدره ورصيد بلاده من العملة الصعبة !

أما حسن أخلاق « نوار » وخدمته للجماعة ، وتطوعه بالعمل .. الخ . وهو ما يشهد به الريحاني فهي صفات المؤمن ، صفات صاحب القضية ، أو العقائدي الذي يعرف أن سلوكه محسوب على القضية .

ورفضه الدعاء له بالشفاء ، هو مزيج من عدة اعتبارات وقيم : فهو يعرف أن الدعاء أو الشفاعة أو حتى الاستغفار لم يقبل من رسول الله في المشركين ، وهو كما قلنا ، لا يفهم معنى أن يصلي رجل لرجل ! لماذا لا يصلي الريحاني لنفسه ؟.. وان كان يؤمن بأن صلاة « نوار » أكثر فعالية ،فلماذا لا يدين بدين نوار ؟! الأحرى أنه يسخر منه . لقد دعا نوار له ولنفسه بدعاء مقبول ومنسجم مع مفاهيمه .

غير أن الريحاني أحس بتفوق راعي البعير ، وسجل للتاريخ أن هذا التطور ، قد حدث لكل الاخوان الجدد .. وهذا هو السر في كل ما سجله عن تفوق الاخوان وانتصاراتهم وشجاعتهم وبطولتهم . أما أن القادم من أرض كان يجري تمزيقها ، ورسم حدودها وتحديد جنسيات سكانها في باريس ولندن لا يجد ذرة من الحنان في هذه الروح أو شيئا من البرهان في هذا العقل فتلك مشكلته وحده .

وبنفس المنطلق الناقد ، روى « حافظ وهبه » قصة رفيق آخر من مكانة أعلى : فقد قال إن علماء نجد ، قد انخفض مستواهم العلمي عن علماء عصر محمد بن عبد الوهاب ، ومن ثم فقد ضاق أفقهم ، وليثبت ذلك روى الآتي :

« في سنة ١٣٤٦ (١٩٢٨) كنت مع الشيخ عبد الله بن حسن* كبير علماء نجد ورئيس القضاء الآن ، في زيارة للتفتيش في المدينة المنورة ، فنزلنا على ماء في وسط الطريق ، وهناك التقينا بمستر فيلبي (قبل إسلامه) وكان آتيا من ينبع فبعد التحية دعوته للأكل معنا ، فعندما جلس معنا الى المائدة ، سأل الشيخ : من هذا الرجل ؟.. فقلت له : هذا فيلبي .. فقال أهو نصراني ؟ قلت له : نعم . فقال أعوذ بالله . أتقوم للنصراني** وتصافحه وتهش في وجهه وتدعوه للأكل معنا ؟.. هذا كثير !.. فلما سمع مستر فيلبي ذلك قام منعا للمشاحنة ثم أخذ الشيخ يؤنبني على عملي .. ».

وقد دافع حافظ وهبه عن نفسه بنقطتين ، الأولى وقد « فوتها » الشيخ وهي : « أنه يطمع في اسلام الرجل » ! والثانية ، وهي مصرية أزهرية ، أن الملك عبد العزيز يقوم لفيلبي ولغيره تأليفاً لهم ودفعاً لشرهم وكثيراً ما يدعوهم لمائدته ، وقد رفض الشيخ هذا الدفاع قائلا : « الملك قد يفعل الشيء لمصلحة يراها ، وهو غير حجة في عمله وتصرفاته ، وكثيراً ما أنكرنا عليه هذا وأمثاله[٢٥] » .

ولكن حافظ وهبه شهد مع ذلك ، بأن الشيخ كان نعم الرفيق المواسي ، أثناء مرضي ، فقد كان لا يرضى الا أن يسقيني الدواء بنفسه : « مما يدل على ما فطر عليه هؤلاء من الاخلاص وطيبة القلب ، لا يحملون حقداً لأحد .. ولا يبغضون إلا حيث يعتقدون أن منكراً أقترف أو أن حقاً من حقوق الله قد أضيع أو أهمل[٢٦] » . وهي نفس شهادة الريحاني لراعي البعير « نوار » .

ألسنا أمام حركة عقائدية من الطراز الأول ، استطاعت أن تعيد صياغة أفرادها ، أو أن تغسل مخهم ، اذا شئت ، بحيث أصبح رئيس القضاة ، وراعي البعير ، يمتلكان نفس العقلية ، ونفس الأخلاق ، ونفس السلوك والمنطق والمفاهيم .. وأهم من ذلك نفس العزة والاستعلاء المؤمن في مواجهة الأجنبي ؟!..

نعود لفيلبي ... الذي عاش أياماً قاسية خلال مهمته في بلاد ابن سعود ، أذاقه الاخوان فيها ذل الكافرين على يد المؤمنين ، حتى وإن كان الكافر ممثل بريطانيا العظمى ، والذي يدفع الاعانة الشهرية لحكومتهم « عن يد وهم صاغرون » ! ويلح في طلب الحملة على ابن رشيد . ومع ذلك فقد سمعهم يتناقشون في جلساته ؛ ما رأيكم دام فضلكم في جواز السلام .. ليس على الكافر .. فهذه مفروغ منها ، بل على من يتعاملون معه من موظفي الحكومة ؟!..

« مرة كان اثنان من الاخوان يمران امام الخيمة ، فرأيا « مناورا » (مرافقه) جالسا .. فسأل أحدهما الآخر .. هل يجوز السلام عليه ؟٥م . فرد الثاني : لا .. حول وجهك الناحية الأخرى ؛ إنه من جماعة الانجليزي . وهكذا مرا دون أن ينظرا اليه . ومرة أخرى مر « مناور » بخيمة إخوان فطلب جرعة ماء فقيل له : لا .. أنت مشرك

---

* والد الشيخ حسن آل الشيخ وزير التعليم العالي .

** لاحظ ان فيلبي يفهم العربية وتلقى الصفعة علنا وفي وجهه حتى أنه قام ولم يأكل !

وخادم مشرك .. قال مناور : لم أحضر هنا لمناقشة هذا الأمر .. أطلب جرعة ماء .. أعطوني جرعة ماء » ولان الاخوان بحنان المسلم ، وربما تذكروا حديث الكلب ، فأعطوه الماء ليشرب ، ولكن فيلبي يزعم أن خادمه كان فاجراً ، فما أن شرب حتى هتف بهم : « لقد شربت من إبريقكم ، وأنا قادم لتوي من حيث كنت قد غمست يدي في نفس طبق الأرز مع الأنجليزي ، فيحسن بكم أن تكسروا الأبريق لأنه نجس » وانطلق هارباً تطارده لعناتهم !

هكذا في العقد الثاني من القرن العشرين أعلن « اخوان » عبد العزيز أن المندوب السامي البريطاني نجس ، بل وتنتقل النجاسة منه الى من يؤاكله الذي ينقلها بدوره .. الخ . مما يحتم كسر الزير والأبريق اذا لمسه من آكل ممثل بريطانيا العظمى ! في وقت كان باشاوات مصر والعراق يحلمون بمصافحة المندوب السامي ، ويعتبرون قمة المجد سماحة لهم بمؤاكلته .. وبعد أربعين سنة ، اعتبر من انتصارات القومية العربية بعد « نصر » السويس ، قبول المومسات الانجليزيات ، المرخص لهن بالبغاء الرسمي في مشيخات الخليج ، ممارسة البغاء مع الرجال العرب ! الذين لم يكونوا ممنوعين فقط من دخول أندية الانجليز ، بل حتى المومسات المالطيات او الانجليزيات كن يأنفن من لمس العربي .. بل إن شيخ الكويت السابق كان يفخر في كل مجلس بأن في عروقه دماً انجليزياً نقل اليه خلال عملية جراحية ، وأن المعتمد البريطاني ، قرين فيلبي ولكن بعد أربعين سنة ، أصلح له وضع العباءة مرة ، ولو فعلها فيلبي لنوار لغسل عباءته سبع مرات !..

والمرء حيث يضع نفسه !

أولئك جنود عبد العزيز .. فلا تسل عن مكانة قائدهم !؟م .

مسكين فيلبي ، ذهب الى المكان الخطأ ، فلم يكن له حظ لورنس الذي حمل لقب صانع الملوك ، ولا غلوب الذي وصف نفسه بأنه كان المربية لأصحاب الجلالة ، ولا كوكس أو بل ، حيث كان الموظف الانجليزي ، يضع حذاءه في وجه صاحب الجلالة الملك فيصل الهاشمي الشريف ! ولا عند ابن صباح حيث أمضى « الشيخ نصف نهار الى وسطه في الماء يدفع سفينة الكولونيل بيلي » ، أو حيث طلب مبارك الكبير « حزاما يتحزم به ليصبح ضابطا في جيش الامبراطورية ! » .

مسكين فيلبي ، كان حظه « مناور » ، والاخوان الذين يتحاشونه وكأنه مجذوم بني اسرائيل فيهتفون : « لا مساس » !

أم لعله الانجليزي السعيد الحظ ، في آخر جيل امبراطوري ، فهو وحده الذي عرف أن الانجليزي ليس أكثر من إنسان ، وأن بقية شعوب العالم هم أيضا بشر ، بل وفيهم من يتصرف عن قناعة بأنه أفضل من الانجليزي !

« رئيس الوفد المرافق له يرفض أن يأكل معه لأنه نجس » .

ومعظم رجال ابن سعود كانت عواطفهم ضد فيلبي ووجوده ، فحيثما تجول وحيداً كانوا يعبرون له عن ضيقهم بوجوده معهم ، فلا أحد من الاخوان يرد عليه سلامه ،

وبعضهم كان يغطي وجهه ، لكي لا تقع عيناه عليه ، وأحدهم جز على أسنانه وقال له : أشهد الله على كراهيتي لك » .

« وسمع اثنين يتحدثان عنه قال أحدهما : أين هو ؟ أنا لم أر أحداً ببرنيطة » .

« فرد الثاني : انه يلبس كالعرب » .

ولما اقتربا من إحدى الخيام صاح أحدهما : ليش تجيب ها الكافر يمنا ، فرد أحد كبار الموظفين :

« اذكر الله » .

« ولكن الأخ لم يخف بل صاح : لا إله إلا الله ! »

« ولم يكن أمامي إلا أحد حلين : إما تجاهل الأمر تماما ، أو إثارة أزمة كبيرة بابلاغ الأمر لابن سعود شخصيا . وقد فضلت لأسباب وجيهة الحل الأول [٢٧] » .

« بل لقد حاول بعضهم قتله ، أو على الأقل ترويعه » .

« ودخل خيمة فيلبي ، أخ دون أن يدري ، وظل يتحدث مع مرافقه العربي ، فلما خرج ، وأحاط به الاخوان يسألونه لماذا دخل خيمة الانجليزي ؟ لم يجد ما يكفر به عن خطأه ، إلا أن استدار وبصق في اتجاه فيلبي[٢٨] » .

« وكثيراً ما كان الاخوان يطوفون حول خيمته ، وخيمة معاونيه ليلا ونهاراً ليضبطوا واحداً من هؤلاء المعاونين يدخن* » .

وهذا تفسير فيلبي الفكه الذي يروج في الغرب ، ولكني أعتقد أن الطواف ، أو المراقبة ، كانت تستهدف ما هو أخطر من التدخين إنه الحذر الثوري الذي ضرب فيلبي مثالا آخر عليه**

فقال إن أحدهم رأى فيلبي يصور ويكتب فجاء ووقف ببندقيته فوقه . وحاول المرافق أن يلاطفه بمجاذبته أطراف الحديث (ربما ليعجم عوده أو يرشيه) ولكن « الأخ » يجيب إجابات « الكادر الثوري » ، الذي لا يرغب في التبسط حتى لا ينفذ اليه مكر العدو :

« ــ منين الأخ ؟

□ من قريب !

ــ من الاخوان ؟

□ إذا أراد الله !

فبادر فيلبي وصاحبه بالهرب ليعترضهما آخر سائلا : « من أنت وماذا

---

* مع أن فيلبي كما سنرى أخلص في خدمة عبد العزيز إلى حد خيانة حكومته خيانة صريحة ، وقد استخدمه عبد العزيز في كتابة التقارير الى الأمريكيين للحصول على اعترافهم وموازنة الضغط البريطاني . انظر تقارير القنصليات الأمريكية في عدن ومصر والقدس .

** لو كان لدينا هذا الحذر الثوري هل كانت تصور مطاراتنا أو كانت الافلام المعادية لنا تصور في قلب بلادنا ؟!

تكتب »[29] ؟!

وحذر المؤمنين من فيلبي ، حذر وطني بالدرجة الأولى ، وإن اتخذ اشكالا أقل وعياً في التعبير ، فقد روي حافظ وهبه أن الملك أخبره في شعبان ١٣٥١ ـ ديسمبر ١٩٣٢ . أن بعض رجال الدين ، حضروا عنده سنة ١٩٣١ ـ ١٣٥٠ هـ ـ لما علموا بعزمه على إنشاء محطات لاسلكية في الرياض ، وبعض المدن الكبيرة في نجد .. فقالوا يا طويل العمر ، لقد غشك من أشار عليك باستعمال التلغراف ، وإدخاله في بلادنا . وأن فيلبي سيجر علينا المصائب ، ونخشى أن يسلم بلادنا للانجليز » فقال لهم الملك : « لقد أخطأتم فلم يغشنا أحد ، ولست بقصير النظر لأخدع بخداع المخادعين . وما « فيلبي » إلا تاجر ـ وكان الوسيط في هذه الصفقة ـ وإن بلادنا عزيزة علينا ، لا نسلمها لأحد إلا بالثمن الذي استلمناها به* » . « مسألتان لا أسمع فيهما كلام أحد لظهور فائدتهما لي ولبلادي . وليس هناك من دليل أو سنة عن رسول الله يمنع من إحداث اللاسلكي والسيارات » .

ورغم أن فتوى « الامام » صحيحة ، إلا أن معظم المؤرخين للمملكة ، استهوتهم هذه الأقاصيص ، ولم يملوا من تكرارها ، مع الحرص لنسبتها للعلماء للزعم بأن الدين عاقهم عن التقدم . ولم يحاول أحد أن ينفذ وراء تلك القشرة الفكهة حيث ثبت دائما ، ومن روايات حافظ وهبه نفسه ، أن البدوي أو الانسان المسلم عموما ، أقدر على التعامل مع الحقائق العلمية ، فما أن يفهم سرها ، حتى يتقبلها بيسر وسهولة ، وذلك للعقلية العلمية التي يتميز بها الاسلام : « وجعلنا لكل شيء سبباً » والألفة التي يعيش بها المسلم مع الكون ، وللايمان بعدم محدودية القدرة الالهية ، وبما أن كل شيء بإرادة الله ، فلا حدود لما يمكن أن يعلمه الله للانسان** ، وهذا الرفض للمخترعات قبل فهم سرها ، يدل على عقلية أكثر علمية ، وأكثر احتراما للنفس ، من المتخلف الذي يتعاطى هذه المخترعات ، دون أي انفعال ، رغم مخالفتها لكل قوانين عالمه ، وجهله المطلق بفكرتها تماما كتعامل القردة مع الآلات . إن الخوف من المجهول هو أول درجات العلم . أما لماذا المعارضة في هذا النوع من التكنولوجيا ؟ مادام المشايخ من عهد فيصل بن تركي ، يتقبلون طلمبات الماء الميكانيكية ، وهي تعمل كالشيطان ، وتسحب كمية من الماء تفوق قدرة أي انسان ، على النتح من الآبار . وهم جميعا يستخدمون البندقية ، مع إقرارهم بأنها من صنع « الكافر » وما أتيحت لهم فرصة لاستخدام المدافع إلا وابتهلوها ، وفي كل بلدان العالم الثالث سمعنا عن تحطيم أعمدة التلغراف ، وتخريب السكة الحديد ، حتى من قبل الهنود الحمر في أمريكا . والحقيقة ، لمن يمعن النظر ،

---

* أي بالسيف ..

** وهذا ما لاحظه توتشل مؤلف « العربية السعودية » عندما حاول هو وجماعة من الأمريكيين ترويع البدو في شركة أرامكو بادعاء أن الراديو بداخله طائر ، فلم ينجحوا وقال « إن المسلم المؤمن يتقبل كل شيء على أساس أن إرادة الله قادرة على كل شيء . ولذلك من النادر أن يدهش[30] » .

هي وجود دافع وطني ، هو الرغبة في الاحتماء خلف أسرار التخلف . خوفاً من أن تسهل هذه المخترعات للأجنبي ـ وهي فعلا تسهل ـ غزو بلادهم ، فالأجنبي هو مخترعها ومالكها ومستخدمها ضدهم . ولذلك فهم ضد هذه المخترعات ، لأنها تأتي بالعدو ، ولأنها أيضا تأتي في شكل امتيازات وإدارات أجنبية ، وكل هذا يفتح الباب للتدخل الأجنبي ، ويحمل خطر الارتباط فالتبعية ، وكل المنطقة فقدت استقلالها ، وكانت البداية امتيازاً حصل عليه خواجا مثل فيلبي . وحتى اليوم ، مازلنا نتخوف عن حق ، من عقد صفقة سلاح مع دولة كبرى ، أو منح امتياز لشركة أجنبية مهما كانت قناعتنا بجدوى المشروع . ومن الهند الى مصر ، في القرن التاسع عشر والى منتصف القرن العشرين ، كانت هناك « الشركة » التي يتمثل فيها الاستعمار ، ويتمركز الكفاح الوطني في مقاومتها ، ويتهم الوطنيون بالتعصب من شركة قناة السويس الى شركة ماكنزي للخمور وغيرها في البحرين الى شركة الهند الشرقية ، الى شركة ماركوني التي يمثلها فيلبي الذي كان الى عهد قريب ممثل بريطانيا العظمى ، العدو الديني والتاريخي والسياسي .. الخ .. فكيف لا يتخوف علماء نجد ؟!

إن الوطنية تتخذ أشكالا شديدة التعقيد في التعبير عن نفسها ، ولا يجوز أن نقف عند الشكل ، وننسى الجوهر . وإلا فماذا نقول عن الطلبة المصريين الذين أحرقوا كتب اللغة الانجليزية في الأربعينات لكي لا يتعلموا لغة المستعمر والصينيين الذين حطموا تماثيل فينوس ، والروس الذين حذروا من الموسيقى الكلاسيكية .. الخ ؟.

هذه المعاناة التي صبر عليها فيلبي لأسباب مختلفة ، لم تمنعه ـ كما قلنا ـ من تسجيل بعض الأحداث والملاحظات المهمة عن ظاهرة الاخوان .

فخلال الحملة « الوهمية » على حايل ، عندما كان هو وعبد العزيز يتبادلان الخداع ، فيتظاهران بالاهتمام بابن رشيد ، وانتباههما مركز على الشريف وأولاده .. رأى فيلبي منظراً غريباً ، ليس على الجزيرة وحدها ، بل في العالم الاسلامي كله .

عقد ابن سعود مجلساً حربياً ، وتكلم فيصل الدويش عن الاخوان :

« لقد جئنا لحرب ابن رشيد ، فدعنا ننهي أمره » فيرد ابن سعود « لقد سررت من نصائحكم وحماستكم ، ولكن يجب أن تعرفوا أننا مقدمون على أمر خطير ، فمن أراد الشهادة فليتبعنا ، ومن شاء فليعد الى زوجته . فتعالى بكاء* الاخوان ، وأقسموا على الموت ، وبدأوا يستعدون للشهادة ، بالتوبة عن المعاصي ، ثم كتب كل منهم وصيته ، وجرى جمع الأوراق التي كتبت فيها الوصايا ، وأرسلت الى بيت كل منهم »[31].

« وجاء جندي يسلم إلى عبد العزيز مائتي جنيه ذهباً أخذها غنيمة ، فسأله عبد العزيز من رآك تأخذها . رد الرجل : الله وحده » .

---

* بكاء الاخوان الكثير كان عملا بالآية الكريمة « وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن ، خروا سجداً وبكياً » .

ويقول فيلبي : « كان واضحاً أن الاخوان غير مرتاحين* بهذه الحملة على شمر « الوهابيين » ، ويخشون أن تكون هذه الحملة على ابن رشيد هي ثمرة لعبة سياسية لا يرتاحون إليها ، وقال فيصل الدويش في حوار عنيف مع ابن سعود : « لم نفعل شيئاً لمساعدة إخواننا في خرمة ، المهددين بقوات الأشراف ، ولا شيء لمواجهة اعتداءات العجمان في الشرق ، لا نريد إلا السماح لنا بمهاجمة أعداء الدين : اصدر أمرك يا إمام وسنتبعك ضد الأشراف أو العجمان » فكل الشواهد كانت تؤكد ـ والكلام لفيلبي ـ تعرض إخوانهم للعدوان من قوى تدعمها بريطانيا معنويا وماليا .. فهل يمكن أن يكون تحركهم بعيداً عن هؤلاء المعتدين ، وبالحاح بريطاني (أي بالاتجاه نحو حايل بناء على طلب الانجليز) إلا سقوطاً في مخطط الاعداء ؟! وقد أكد فيلبي أن « إلحاحه من أجل الحملة على ابن رشيد ضاعف شكوكهم ومخاوفهم » .

ولذلك شن ابن سعود حملة توعية لتبرير الهجوم على ابن رشيد وتأجيل تصفية الاشراف ، وتأديب ابن صباح وهذا بعض مما نقله فيلبي من أحاديث ابن سعود :

« أنتم جيشي الذي أعتمد عليه . أيام الجاهلية ، والنهب والسلب ، كنتم جيشي ، والآن وقد هداكم الله لنعمة الاسلام والتوحيد أنتم جيشي الذي عليه أعتمد بعد الله . لا تظنوني غافلا عما يلزم . ولكن بالنسبة للشريف لا تشغلوا بالكم به ، فاما أن يوقف الانجليز عدوانه على خرمة ، وإلا فاني أعدكم ، بأنني سأهاجمه ، ولكن تذكروا أن هذا الأمر ليس من شئونكم . إذا امتلكت حائل ، فسيسلم الانجليز بحكمي على كل قبائل الصحراء ، وعندها لن نواجه متاعب من هؤلاء المتربصين على حدودنا » .

« ثم جاء علماء الوشم ، وأفتوا أن ابن رشيد هو العدو ، عندها أجهش الاخوان بالبكاء ، على عادتهم عندما يتبينون خطأهم ، واستغفروا الله على شكهم في الامام[32] » . ويقول فيلبي إنه في عام ١٩١٨ ـ ١٣٣٦ هـ « كان الشعور في أوساط الاخوان أن تعاون عبد العزيز مع بريطانيا يحيد به عن طريق الاسلام[33] » .

وبعد الحملة « الاستعراضية » التي شنها ابن سعود لترضية « فيلبي » والتي وصلت الى أسوار حايل ، عقد ابن سعود مجلساً حربياً لبحث الخطوة التالية ، وهل يفرض الحصار حول حايل حتى تستسلم ؟ ولكن « المسلمين ما رأوا ذلك » وقالوا ليس بيننا وبين ابن رشيد عداوة خاصة . وقد حصلنا على ما نريد (الغنائم) فلنعد الى بيوتنا . وكان هذا قرار المجلس .

---

* وقال أرمسترونغ « حتى أبوه عبد الرحمن الفيصل كان ضد التوجه الى حايل ونصح (عبد العزيز) بمتابعة الهجوم على الشريف حسين ولكنه رفض وعقد اجتماعا عاما للاخوان أقنعهم فيه بالهجوم على حايل » .

وعلق فيلبي مغتاظاً : « إن ابن سعود والمجلس بهذا القرار ، أضاعا الفرصة التي أتيحت للقضاء على ابن رشيد نهائياً من الساحة العربية ، ولم تسنح هذه الفرصة مرة أخرى إلا في عام ١٩٢١ ــ ١٣٣٩ هــ .

وقد شرحنا فلسفة ابن سعود في هذا الأمر ، في الفصول السابقة . ولكن ما يعنينا هنا ، هو هذا الجيش الواعي سياسيا ، الذي يطلب ويحصل على تفسير سياسي لأهداف قيادته ، ويناقش بحرية كاملة أسباب ونتائج التحرك العسكري ، بل ويصوت على الاستمرار في الحرب أو الانسحاب . والذي يتحرق شوقاً لمقاتلة عملاء بريطانيا* ، في نفس الوقت الذي كان فيه جنرالات الجيش العثماني من العرب مثل نوري السعيد يقاتلون تحت إمرة الضباط الانجليز لفتح بلادهم للاستعمار البريطاني ، ولم يفكروا في السؤال مجرد السؤال عن مصلحتهم في هذه الحرب التي أعلن الحلفاء ونشروا برنامجهم لتقسيم أوطان هؤلاء العرب بعد كسبها ..

الاخواني في نجد ، فيصل الدويش البدوي ، رفض أن يفتح حايل ، إذا كان ذلك يتفق ومصلحة بريطانيا ، حتى وإن كانت راية التوحيد سترتفع فوق حايل .

وقد سجل فيلبي خلال تلك الحملة ، بعض رسائل أهل خرمة لحث ابن سعود على التقدم لمساعدتهم ضد غزوات الأشراف .. وأورد نموذجاً من رسالة وردت بعد مقتل الشريف « محسن بن تركي » أحد زعماء خرمة ، المنشقين على الأشراف ، والذين انضموا الى ابن سعود مع خالد بن لؤي : « وكانت الرسالة تتضمن تقريعا عنيفا لابن سعود لتقاعسه عن نجدة إخوانه : « فاذا كان عرض الدنيا هو ما يمنعك عن نصرتنا ، فأخبرنا يا عبد العزيز لنلتمس العذر لك . لقد فشل رسلنا من الرجال في إثارة همتك ، فسنبعث بنسائنا في المرة القادمة ، لاثارة حمية أهل نجد » . ومع الرسالة بعث أمير خرمة ، بأصول ثلاث رسائل كان قد بعث بها الشريف عبد الله بن الحسين ينذر بها أهل « الهجر » في خرمة . كما بعثوا بمدفعين غنموهما من الأشراف ، والأمر المحير حقا ، هو هزيمة جيش الأشراف الجيد التسلح ، مرتين في شهر واحد ، ضد حفنة من القرويين والبدو[٣٥] » .

والجواب على حيرة فيلبي ، موجود في رسالة أهل خرمة : المواطنون الأحرار الذين يستطيعون مخاطبة إمامهم بهذه اللهجة ، هم الجند القادر على صنع النصر . وهم قد نالوا حق المخاطبة والنقد ، لأنهم لا يطلبون الاستسلام ، بل الحرب والمزيد من الحرب . وعلى هؤلاء كان ابن سعود يعتمد عندما قال لفيلبي عشية معركة تربة ، وعندما قرر الانجليز إغلاق الملف السعودي ، ودعم الكيان الشمري بزعامة ابن

---

* قال فيلبي « إن الاخوان كانوا يفسرون رؤية الحية في الحلم بأنها الشريف حسين[٣٤] » .

رشيد ، أو تسليم الجبل وحايل لأحد أولاد الشريف* ..! قال ابن سعود :

« يوما ما ستندمون على سياستكم الخاطئة . أنا لا أريد أن أتدخل في شئون الحجاز ، ولكن يجب أن تعرف ، أنني بمجرد أن أطلق الصيحة ستهب مستجيبة ، كل القوى من بيشة الى نجران ومن رانية الى تثليث ، ليس فيهم من لا يؤمن بأن الموت خير من الحياة . ليس فيهم من لا يتمنى الموت من أجل الفوز الأعظم ، ليس فيهم من لا يؤمن أن من يولي دبره للعدو أو يتراجع ، فانما يتراجع للنار[٣٦] » !

ولكن بريطانيا لم تأخذ هذا الانذار على محمل الجد ، كانت أجهزتها ، رغم احساسها بالخطر المستقبلي الذي تمثله فكرة بعث « الحركية » الوهابية أعجز من أن تدرك أن هذا الخطر قد أصبح حقيقة واقعة ، كانت بريطانيا بحاجة الى قارعة ...

وسرعان ما جاءت القارعة !

---

* أشرنا الى ذلك في موضعه ونضيف هنا كتاب حكومة الهند الى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٧ يناير ١٩١٨ ـ ١٣٣٦ هـ والذي جاء فيه : « ان ابن رشيد الآن ، في وضع لا يمكنه من ايقاع أي ضرر بنا وهو في نفس الوقت يشكل شاغلا لابن سعود . وإزالته نهائيا من السياسة العربية قد تسبب ازعاجا لنا ، لأن وجوده يشكل عنصر توازن بين ابن سعود والشريف (حسين) ولذا فقد أوصينا كوكس بأن يبقي ابن سعود في اللعبة بتقديم المال له ، ولكن لا يعطي السلاح إلا بكميات هزيلة . نحن نقر تماما بمسئولياتنا نحو ابن سعود ، ولا ننوي أن نظلمه ولكن لا نريد أن يؤدي كرمنا نحوه الى وضعه في مركز يخل بتوازن الجزير العربية » .

وفي برقية من اللنبي بتاريخ ١٩١٩/٦/٩ ـ ١٣٣٨ هـ « أن الانجليز رتبوا تحالفا بين ابن رشيد والشريف حسين لموازنة ابن سعود ، وأبدوا استعدادهم لمساعدة ابن رشيد » جون خبيب ص ١٩٤

ولكن ابن سعود أنهى اللعبة ودخل حايل ضد إرادة بريطانيا وبعد ما أصبحت حايل حجرا في اللعبة البريطانية .

ظهرت قوة أصيلة ..
ليست من تلفيقاتنا !

الكولونيل فيكري

جلس « جهابذة » الامبراطورية يحللون فشل حملة « ابن سعود » على حايل ، ودبج كوكس تقريره مذكراً برأيه القديم عن عدم كفاءة ابن سعود العسكرية ! وانتشى مكتب القاهرة بصدق فراسته في تفوق الأشراف ، وثبوت أنه لا أهمية لعبد العزيز والسعوديين عموما ، ولكن قبل أن تصل التقارير الى لندن ، كانت البرقيات تنقل أنباء محمومة عن كارثة نزلت بالأشراف ، وبالاستراتيجية البريطانية ، وتعلن ظهور قوة غير قابلة للهزيمة !

كانت أنباء تربة قد وصلت الى جدة ، ومنها طارت الى القاهرة ولندن وبغداد ودلهي ... الخ ..

وقد كتبت مجلدات في معركة تربة التي غيرت تاريخ الجزيرة العربية ، ووضعت بيت آل سعود على قمة الأحداث العربية ، ولكني لا أعتقد أن هناك صورة أبلغ تعبيراً عما جرى في تربة من تلك التي نقلها الريحاني على لسان الشريف عون بن هاشم « وكان يوم شاهد تربة ، عمره خمس عشرة سنة » ، قال يحدثني عن هول ذلك اليوم :

« رأيت الدم في تربة يجري كالنهر بين النخيل ، وبقيت سنتين عندما أرى الماء الجارية أظنها والله حمراء . ورأيت جثث القتلى في الحصن متراكمة قبل أن طحت من الشباك . ومن أعجب ما رأيت يا أستاذ ، رأيت الاخوان أثناء المعركة يدخلون الجامع ليصلوا ثم يعودون للقتال[٣٧] » ! ونقل عن الملك عبد الله أنه كان يحكي في عمان ، بعد ما أصبح أميراً لشرق الأردن ، وبعد سنوات من ليلة تربة ، قال : « مازال يرن في سمعي صوت المغيرين ليلة تربة : الجنة .. الجنة .. الجنة[٣٨] » . وكعادته تنصل من الليلة وما جرى فيها فقال : « وما كنت أريد ذلك الزحف على الشرق لولا أن جلالة والدي أمرني وأصر حتى كاد يتهمني بالعصيان » .

واذا رجعنا لرسائل عبد الله عشية تربة ، سنجد ان لهجتها لا تعزز روايته هذه أبداً !

ولم تكن معركة « تربة » اجتياحا تتريا تفوقت فيه الكثرة العددية على الكفاءة ، ولا التخلف على الحضارة ، أو العصبية على التخطيط ، كما يبدو في كثير من الكتابات ، بل كانت عملا عسكريا متكاملا ، زاد من روعته الحماسة الدينية ، واستعلاء المؤمن ،

وثقته في النصر ، لأنه لا يسمح لنفسه بالهزيمة ، فاما الشهادة أو النصر ..

وقد شاهد فيلبي بعد ١٣ سنة من المعركة « هياكل القتلى متناثرة في كل مكان حول قلعة المدينة التي كانت تبدو وكأن زلزالا قد ضربها » . « ويبدو أن عبد الله وأركان حربه ، قد ولوا الأدبار عند أول طلقة ، وتركوا جيشهم للذبح وليس للقتال . وكانت بقايا المعسكر تشير إلى أنه رتب وفقاً للقواعد العسكرية التي تدرس في الأكاديمية العسكرية باسطمبول لصدأى هجوم للبرابرة المتوحشين ، ويقال إن امرأة حذرت عبد الله من وجود إخوان ذوي نظرات مشبوهة في الوادي* ، وأنه كان قلقاً يريد الانسحاب الى مكان أكثر أمنا ، ولكن صبري باشا رئيس أركانه ، عارض هجرة معسكره النموذجي التسلح والدفاع ، والجاهز لتلقين الاخوان درساً إذا بلغت بهم الحماقة حد المجازفة ، بالهجوم عليه ، ولم يكن من الممكن الاعتماد على ولاء السكان ، حيث أن عبد الله كان قد شنق اثنين من زعمائهم بتهمة الاتصال بالعدو . وقد ذهب أقاربهما الى خرمة لاطلاع خالد بن لؤي على عورات معسكر الأشراف . على أية حال لم يكن هناك مصدر للقلق إلا النوم ... وهذا عين ما حدث ! وقد أراني دليلي خيم عبد الله وشاكر وحامد بن زيد ، القادة الأشراف الثلاثة . وفي خيمة عبد الله عثر مرافقي على قدم امرأة ، وهيكل عظمي لمدفعجي من الأشراف وقد مزق إرباً ، وهو يعد مدفعه . وقد تم تطويق المعسكر من الأمام والخلف ، في حركة زحف خلال ليلة ١٩ مايو (١٩١٩ — ١٣٣٧ هـ) ، وبدأ الهجوم المفاجىء في الواحدة صباحاً ، وقد بدأت المعركة وانتهت في الظلام[٣٩] » .

وقال فيلبي « وصلت أنباء الكارثة في تربة الى هوايتهول ، تدحض آراء جهابذة السياسة والحرب الذين قبل شهرين فقط ، كانوا قد قرروا أن الوهابيين الهمج ، ليس لديهم أي أمل في التصدي للقوات المدربة والحسنة التجهيز** التي حاربت مع لورنس » .

ولكن عمر الامبراطورية البريطانية قد طال كما قيل — ليس لأنها كانت تعترف بالأمر الواقع وتتعامل معه ، بل وأيضا لأنها كانت تصر على استراتيجيتها الى النفس الأخير ، وهذا يفسر غضب الانجليز لهذه الضربة التي خالفت كل الحسابات والخطط التي تدور حول إطلاق يد الشريف ، وتحجيم ابن سعود ، ويقول حافظ وهبه إن عبد العزيز رتب عملية تربة ، أو على حد قوله كان له يد فيها . وإذا كان الانفعال البريطاني ولهجة الانذار وحشد الطائرات في جدة ، كل ذلك أقنع ابن سعود بأن جرعة تربة كافية — في الوقت الحالي — على الجبهة الغربية ، فقد رأى أيضا أن الجبهة الشرقية بحاجة الى

---

* كان الجيش الاخواني يمارس نظام مخابرات شديد التفوق ، وقد روي غلوب أن الاخوان كانوا إذا أرادوا الاغارة على موقع أرسلوا أخاً يعيش متنكراً بين أهل الموقع ، حتى إذا حانت ساعة الصفر هرب تحت جنح الظلام وقابل الحملة القادمة وزودها بآخر المعلومات عن الوضع .

** أي قوات الأشراف .

درس آخر يقنع بريطانيا بأنها لا تستطيع « نكرزة » ابن سعود بواسطة أعوانها العرب ، وأن عليها أن تضرب إذا أرادت مباشرة ، أو تقبل سياسته في تجنب المواجهة وترك القوى المحلية تحسم الصراع على مستقبل الجزيرة ..

كان الدرس الثاني في الكويت ، وصحيح أن الملك حسين كان هو نجم الاستراتيجية البريطانية ، وهو فعليا تحت حماية بريطانيا ، إلا أنه اسميا ، يعتبر مستقلاً وتستطيع بريطانيا ، وقت الحاجة ، أن تدعي الحياد ، وقد فعلت ، أما الكويت فهي محمية رسمية ، والصدام معها صدام مباشر مع بريطانيا ، ومن هنا كان هذا الدرس ، أكثر خطورة ، حتى ولو كانت هزيمة الكويتيين أسهل بكثير من دحر الجيش الذي فتح دمشق ! ولكن ابن سعود ، كان يعرف أنه لابد مما ليس منه بد ، ويعرف أنه بجيش الاخوان قادر على المخاطرة .. ولذلك أعطى فيصل الدويش الاشارة على طريقة : لاآمركم ولاأنهاكم » وقال وهبه مفتي السعوديين : « إن الملك ابن سعود ، وإن لم يرغب في الاعتداءات على البلاد المجاورة ، المشمولة بالنفوذ الانجليزي أو يشجع عليها ، فانه لم يكره ذلك ..» !

وقد كان الدرس الذي لقن لابن صباح قاسياً ، موجعاً ، مذلا .. ولعله هو الذي خلق السمعة المرعبة للاخوان التي كفت ابن سعود شر الكثير من المعارك ، وحقنت دماء أكثر ..

في خريف ١٩٢٠ - ١٣٣٩/٣٨ هـ بعدما بلغ التحرش ، أو بمعنى أصح « المناكفة » الكويتية مرحلة لا يمكن السكوت عليها ، تحرك فيصل الدويش ، ليضع حداً للعب الصبية ، استعداداً لمواجهة الكبار ..

وجاء فيصل الدويش ، هذا البدوي قاطع الطريق ، الذي هزمه عبد العزيز أكثر من مرة في « الجاهلية » .. ثم استطاع أن يكسبه الى الاسلام* .. الى الحركة الوهابية ، فكان رائداً في حركة الاخوان ، وزعيمها الأول بلا نزاع** ، وبطل الجزيرة الأسطوري خلال ١٥ سنة ، وستظل ذكراه حية ، ومرتبطة بقضية الحل الاسلامي ، ما شاء الله ، وما وعى التاريخ .. فهو المثل الكامل لقدرة تعاليم الاسلام على تغيير الانسان العربي ، أو صنع البطل العقائدي ، من الفردية البدوية ..

فيصل الدويش الذي يتهم بأنه ابن حرام !! أصبح بالاسلام يطلب من عبد العزيز عندما زاره في الأرطاوية أن يقصر ثوبه لأنه أطول من الشرع ، وفعلا يؤتي بالمقص ، ويقص ثوب السلطان وهو لابسه ! ليتفق مع تفسير ابن الدويش للسنة[40] !

إن قراءة في تاريخ فيصل الدويش ، الذي لم يكتب ، بل ورغم كل التشويهات التي

---

* قال محمد المانع إن ابن سعود هزم الدويش في مايو ١٩٠٧ ـ ١٣٢٥ هـ في معركة المجمعة وأسره ثم عفا عنه ليعود فيحاربه في معركة قرب البريدة ، ويأسره عبد العزيز ويعفو عنه مرة ثانية .
وهذا يؤكد أنه كان يحرص على كسبه لدعوته .

* * ولو بحكم الشهرة وإن كنا نعتقد ان ابن بجاد لا يقل عنه شجاعة واخلاصاً .

قيلت ضده ، وافتريت على تاريخه ، تقنعنا بأنه لا مبالغة في كل ما سمعناه عن التحول الأسطوري في الشخصيات في عصر النبوة ...

كان فيصل الدويش أحد الذين هزموا تحت قيادة مبارك الصباح في موقعة الصريف ، ولكنه في اكتوبر ١٩٢٠ ـ ١٣٣٩ هـ جاء يقهر ابن صباح .. جاء بالايمان وخيالة التوحيد في تلك المعركة التي ظلت تبعث الرعب في نفوس الكويتيين كلما ذكر اسمها ، الى ان تقرر جعلها عيداً قومياً في الكويت بعدما محا النفط التاريخ والذكريات .

معركة الجهره .. حيث هزمت البنادق الانجليزية ، وتحطمت الحصون ، أمام السيل العقائدي الزاحف .. ولم تكن هزيمة ساحقة من الناحية العسكرية وحدها ، بل من الناحية الأخلاقية ، فان شيخ الكويت سالم بن مبارك الصباح ، أظهر طاعة الاخوان ، بل والايمان بالله لينجو من الموت !..

فعندما حاصره الدويش ودعاه للاسلام ؛ رد : « وهل من يرفض مثل هذه النعمة إلا الأحمق ؟ إني والله منكم . ولكن أمهلوني يومين » وموعدنا في الصبيحة !

وقد كان .

انخدع الاخوان . واعتذر الدويش عن ذلك ـ فيما بعد ـ بقول عمر : « من خدعنا بالله .. انخدعنا له » . وطلب ابن صباح نجدة الانجليز وحمايتهم ، فجاءت البوارج والطائرات ، وبدلا من محاورة الاخوان بواسطة الفقهاء ، وعلى لسان عبد العزيز الرشيد « الحنبلي السلفي » كما كان الموعد محدداً ، جلس الماجور « مور » يتكلم باسم الكويت ويوجه الانذار للاخوان !

ولكن القصة أظرف وأكثر إمتاعاو عبرة ، كما جاءت في تاريخ الكويت لعبد العزيز الرشيد ، المعاصر والمحاور .. ولكن أيضا ، لابد أن يتحلى المرء بالصبر وروح النكتة ومعرفة العقلية أو النفسية الكويتية ، لفهم ما كتبه عبد العزيز الرشيد عن تلك المعركة !

قال مؤرخ الكويت :

« في إثر الاجتماع الذي حصل بين كوكس وابن سعود في العقير أمر ابن سعود قائده المشهور فيصل الدويش بمهاجمة الجهرى . فهجم عليها صبيحة الأحد ٢٦ محرم ١٣٣٩ (١١ اكتوبر ١٩٢٠) بنحو أربعة الآف من الاخوان ، ولم يكن في الجهرى إذ ذاك إلا نحو ألف وخمسمائة مقاتل* . أما الاخوان فقد أصيبوا في هجومهم ذلك بما أضاع رشدهم وتركهم حائرين وسط الميدان** ، فأسرعوا الى جهة من القرية ظنوها خلوا من المقاتلين ولكنهم وجدوا رجالا أشداء اشتركوا وإياهم بمعركة تشيب لها الولدان كان الاخوان يتساقطون فيها بلا عدد ولا حساب وكاد يقضى عليهم لولا نفاذ ذخيرة الكويتيين الأمر الذي جعلهم يركنون الى الفرار*** » .

---

* قدرهم الريحاني بضعف هذا الرقم أي ثلاثة آلاف !

** أي هزموا وتركوا حائرين وسط الميدان ولكن لا بأس فقد خرجوا من حيرتهم .

*** وهذا العرض للمعركة يؤكد أن « أحمد سعيد » من أصل كويتي !

ولنقرأ وصف المؤرخ لجانب من المعركة اشترك فيه هو شخصيا :

« أما أنا فكنت مع « ثلة » من الأصحاب وأمامنا « فرقة » من الاخوان* ، صبغنا الأرض من سواد جثثهم ولم يبق منهم ألا افراد يعدون على الأصابع ، أطلقوا لأنفسهم عنان الهرب ، فحصل لنا إذ ذاك فصل قصير من الراحة . كنا نتساءل فيه عن حقيقة الواقعة** . وفيما نحن كذلك . وإذا بعبد الكريم بن سعيد أمير الجهرى قد أقبل علينا ، وليس عليه من اللباس إلا سرواله***، وعلائم الدهشة والاستماتة ظاهرة في وجهه فسألناه عما وراءه فقال قضي الأمر ، ودخل الاخوان القرية وانتشروا في شوارعها وبساتينها فانجوا بأنفسكم » .

وهرع « المنتصرون » يقفزون فوق جثث الاخوان التي ملأت البر يقول : « وهناك طفقنا نعدو الى القصر الأحمر لا يلوي أحد على أحد ، وكنت وحدي أقفز من جدار الى آخر ومن بستان الى سواه ، حتى أبصرت في أحد البساتين رجلا أصيب برجله وهو يقوم ويسقط ، فنبهني الى وجود أحد الاخوان في ذلك البستان**** » . ووصل الى القصر الأحمر : « فوجدته مكتظاً بالرجال والنساء والأطفال وعلى وجوه الكل إمارات الخوف ودلائل الذعر ، وهم بحالة تفطر الأكباد وتذيب الفؤاد فمن واضع يديه على خديه ، ومن ماسح دموعه بيديه ، ومن متضرج بدمائه أو معلق يده المكسورة على عنقه ، مشهد مريع ، أيقن الجميع بعده بالهلاك العاجل » . وقدر عدد من بالقصر بما يزيد عن ألف نسمة ، مما يجعل تقدير الريحاني للجيش الكويتي أكثر تشريفا ، اذ لا يعقل فرار ثلثي الجيش !

ولكن شيخ المؤرخين الكويتيين الخفيف الظل لا يبقينا في « دراما » القصر الأحمر ، بل يخرج بنا الى هذه النكتة : « وخرجت بعد الصلح وجملة من الأصحاب لنشاهد بقية المعارك الشاسعة ، فذهبنا الى الموضع الذي حطمنا***** فيه تلك الفرقة من الاخوان ، كما قصصت أمرها آنفا . فلم نجد أثراً لقتلاها هناك (!!) فقلت سبحان الله أكانت عيوني إذ ذاك ترى ما لا حقيقة له من جراء الهول الشديد !****** » ..

---

* وكم من « ثلة » صغيرة هزمت « فرقة » كبيرة !..

** ولماذا السؤال وقد صبغت الأرض بجثثهم !.. وهو فارس البيان فما بالك بما سيفعله فرسان السيف والطعن والنزال ..؟!

*** ان صح انه احتفظ بسرواله فهو والله فارس !!

**** ولكن نظراً لأن هذا الاخواني « يعتصم بما يقيه ويلات عدوه » ، فقد عفا عنه واستمر يجري !

***** يا جبار !

****** وهذا يثبت أن الكويت أصل العرب فأبو لمعة أيضا كويتي !..

ولولا ان رواية الكويتي غير موثوق بها لحق لنا القول بل حملتهم الملائكة أو حمتهم الدبر من عبث الضالين ! ونستغفر الله الأعلم بخلقه ..

صدقت وسلمت عيناك !

نعود للمفاوضات .

اعتصم ابن صباح بالقصر ، ورفض حتى الخروج لنجدة الكويتيين ، بل قال : « اتركوهم سيدافعون عن أنفسهم بأنفسهم » ولم يكن في أرض المعركة ما يعزز هذه الثقة !

وبدأت عملية كسب الوقت . وفي الصباح وصل فقيه الاخوان ، عثمان بن سليمان أو القوميسير السياسي لجيش الاخوان . فانفرد به ابن صباح والشيخ علي آل خليفة ، ومؤرخ الكويت الذي يزعم أنه جادل ابن سليمان وأوشك أن يفحمه . وقد عرفنا قبسا من دقته في رواية معارك السلاح من حكاية الجثث المختفية ، فما بالك بتأريخه لمعارك الكلام* ؟!..

إلا أن ابن صباح كان أحكم وأعلم بمدى قدرته على منازلة الاخوان سواء بالسيف أو بالحجة والقرآن . لذلك اتبع التقية ، فتهالك على ممثل الاخوان وقال وبراءة الأطفال في عينيه : « لماذا هذا القتال بيننا ، وكلنا مسلمون موحدون ، وأمامنا عدو لدود يريد القضاء علينا جميعا** . هيا بنا لنرمي الضغائن والأحقاد ، ونكون يداً واحدة عليه » .

ويبدو أن سالماً قال ما هو أكثر من ذلك تزلفا ، لأن مؤرخهم قال : « وأكثر سالم من القول هناك بما لا أحب ذكره الآن » ووصف هذا الذي لم يذكره بأنه « يدل على السذاجة والبساطة » « وما كان يليق قوله في مواجهة العدو » .

وقد روى نفس المؤرخ مثالا لانضباطية الاخوان وطاعتهم النموذجية لقيادتهم على نحو لم تشهده الجزيرة خلال الألف سنة التي سبقت ظهورهم ، فقال إن ابن سليمان أو المسئول السياسي في جيش التحرير الاخواني ، بعد أن أشهر ابن صباح إسلامه ، رفع طرف عباءته وقال : « أيها الاخوان . مال الكويت حرام عليكم » فاذا بالجنود يلقون ما كانوا قد جمعوه من الغنائم ، وعلى الفور !.. ويعلق مؤرخ الكويت مذهولا : « فقلت في نفسي : ما أعظم وزرك يا ابن سليمان ، وما أثقل حملك يوم القيامة في استطاعتك منع الاخوان عن الاعتداء بطرف عباءتك ثم لا تفعل ! »

ومن الناس من يؤمن بلا معجزة ، ومنهم من يرى المعجزة فيزداد كفراً ..

ولنتابع الشيخ المؤرخ « التقي » الذي يتحدث عن « أوزار » ابن سليمان ، ولكنه يؤرخ وصول « الكفار » لنجدة ابن صباح ، فلا يطرف له ضمير وطني أو حس ديني .. ولا يألم للذي اختار رعي الخنازير*** عند الماجور « جي . سي . مور » ، بدلا من رعي الابل .. بل أخوة الاسلام عند خيال التوحيد ابن سليمان يقول :

---

* غفر الله له فقد دخل بعد ذلك في خدمة ابن سعود وبعثه في مهمة إسلامية الى اندونيسيا .

** لو كنت في شبابي لقلت أدفع عمري لمن يدلني على عدو مشترك بين ابن صباح وفيصل الدويش عام ١٩٢٠ ـ ١٣٣٨ هـ .

*** اشارة الى كلمة ابن عباد : أرعى الابل عند ابن تاشفين ، ولا أرعى الخنازير عند الفونس .

« اضطر سالم الى الاستنجاد بالحكومة (هكذا بدون تعريف ، وهي غنية عن التعريف ، فهي وحدها « الحكومة ») وطلب معونتها وقد أجابته ولم تتأخر ، فأرسلت الى مياه الكويت المدمرتين لورنس واسبيكل ، وطيارتين من العراق ، وقد حلقت احدى الطيارتين على الاخوان ، فرمت عليهم منشورا تنذرهم فيه بالضرب إذا اعتدوا على الكويت مرة أخرى . وتأمرهم بالارتحال ، فارتحلوا بعد هذا الانذار من الصبيحة ، وبذلك سكنت الزوبعة في الكويت* واطمأن الناس ، وعلى كل فحادثة الجهري لنا وعلينا » .

ولكنه ـ غفر الله له ـ سجل الذي عليهم وحرمنا من تعريفنا بالذي كان لهم فيها ..!!

ولعل قصيدة ابن عثيمين تعطي صورة لانطباع الناس وقتها ، ولما أطلقته حركة الاخوان من رعب في المهزومين ، وأثارته من قوة وعزة في نفوس السعوديين :

سلم على فيصل** واذكر مآثره	وقل له هكذا فلتفعل النجب
سيف الامام الذي بالكف قائمة	ماضي المضارب ما في حده لعب
الساكنين بأرطاوية نصحوا	للدين بالصدق ما في نصحهم خلب
كذاك إخوانهم لا تنس فضلهم	هم نصرة الحق صدقا أينما ذهبوا
أعني بهم عصبة الاسلام من سكنوا	مبايضا ولحرب المارق انتدبوا
هم أهل قرية اخوان لهم قدم	في الصالحات التي ترجى بها القرب
صب الاله على أهل الكويت بهم	سوط العذاب الذي في طيه الغضب
تفاءلوا باسمه المنحوس طالعه	بسالم فاذا في سالم العطب
هذا نكال إمام المسلمين بكم	فان رجعتم والا استؤصل العقب

وقد اعترف مؤرخ الكويت بأن التحرش والعدوان كان من جانب الكويت ، وذلك طبعا في إطار مخطط مؤتمر القاهرة الذي قرر خنق ابن سعود ، إذ يقول : « وبعدها أمرت الحكومة سالما (ابن صباح) بايقاف الحركات العدائية ضد ابن سعود ، وأن لا يجعل في الجهرى قوة زائدة عما يحفظها » .

وبعد استئذان الانجليز ذهب وفد المفاوضة برئاسة ولي العهد الشيخ أحمد الجابر ، وأنقذ سالم الموقف بنفس طريقة أبيه .. إذ مات أثناء المفاوضات ، فقال ابن سعود للشيخ أحمد نفس ما قاله لأبيه جابر عندما وصل نبأ وفاة مبارك ما معناه : محا الموت أسباب العداوة بيننا ..

وعلقت تايمس أوف إنديا على انتصار الاخوان قائلة*** : « ان انتشار حركة الاخوان ، هي أهم ما يستلفت النظر العميق في الأحداث الجارية في بلاد العرب هذه الايام » .

---

* إن كانت الكويت فنجانا فهي حقاً زوبعة !

** فيصل الدويش طبعاً !

*** في ١٥ نوفمبر ١٩٢٠ .

وبأسلوب الريحاني الرشيق أرخ وفاة سالم في ذلك العام الذي « نكب فيه سالم ودين* واحتمى بالانكليز[٤١] » .

المهم اقتنع الانجليز بأن التحرش بابن سعود لعب بالنار ، فأمروا محمياتهم بالكف والتزام الأدب ، ومن ثم تفرغ ابن سعود للجبهات الأخرى ، فأنهى حايلا وجمد عسيراً واقتربت ساعة المواجهة مع الشريف في الحجاز ، وولداه يطوقان ابن سعود من العراق والأردن ، فكيف يعطيهما ظهره ، ويتوجه لضرب أبيهما ؟!

بالرعب .. بالاخوان .

يقول وهبه : « إذا اذكر الاخوان على حدود العراق أو شرق الأردن أو الكويت ، استولى الرعب على قلوب السكان ، وهب البدو يطوون الصحراء** لائذين بالبلاد القريبة منهم ، يحتمون بجدرانها وأبراجها فهم رسل الذعر والهلع في بلاد العرب[٤٢] » .

يقول غلوب : « في خريف عام ١٩٢٢ ـ ١٣٤١ هـ كان وضع عبد العزيز كالآتي :

١ ـ استطاع هزيمة منافسه ابن رشيد ، وذلك أساسا ، بفضل الحماس الديني الذي استطاع ابن سعود شخصياً إثارته ، وأصبح الحاكم الأوحد لوسط الجزيرة .

٢ ـ أعلن أتباعه المتعصبون أن واجبهم الديني هو إخضاع العالم كله للوهابية . ولم يكن لديهم أي استعداد للوقوف عند حدود سياسية ، رسمها شخص ما على الخريطة .

٣ ـ أما عبد العزيز نفسه فكان رجلا ألمعيا ويعي الى حد ما قوة وموارد الدول الأوروبية ، ولذا كان حريصاً على تجنب أي صدام مع بريطانيا ، ولكنه كان غير قادر على إقناع أتباعه بذلك ، فقد ظل عشر سنوات يغذي حماستهم ، وأصبح عاجزاً عن أكل كلماته[٤٣] » .

ولخص جلوب استراتيجية عبد العزيز في شل التدخلات البريطانية والهاشمية بالاخوان فقال : « خلال حربه مع ابن رشيد ، انشأ ابن سعود وطور استراتيجية « الاخوان » على نحو لم يجعل لرعاة العراق حيلة معها ، فقد أصبحت القبائل الوهابية قادرة على تركيز قوات غزو تتكون كل منها من ثلاثة الى أربعة الآف راكب جمل . يظلون متربصين حتى يكتشف جواسيسهم هدفا مناسبا ، وعندها يتحركون قبيل الغروب***

---

* قوله دين إشارة الى قبوله دعوة الاخوان الى أن وصلت النجدة البريطانية .

** وها أنت ترى أن مشروع الهجر كان « يوطن » البدو على الجانبين !!

*** ويبدو أن الاخوان كأي جيش تحرير شعبي اعتمدوا على إيمان الشعب ، وتعاطف الجماهير المسلمة في صفوف العدو فقد روى مؤرخ الكويت أن حملة سالم بن مبارك الصباح حاكم الكويت سنة ١٣٣٨ ـ ١٩١٩ ـ ١٩٢٠) فشلت لأنه « بينما كان الجيش سائراً ، انفلت أحد الموالين للاخوان خفية وذهب نذيراً لابن شقير وقومه ، وبذلك علم الجيش الكويتي ، الصعوبة التي سيلاقيها فرجع أدراجه » . وقد أجمع المؤرخون على أن الحركة كانت قد تفشت في « شمر » مما سهل غزو حايل ، ←

ويستمرون في السير طوال الليل ، فيقطعون حوالي سبعين ميلا ليفاجئوا خيمتهم بهجوم وحشي عند الفجر » .

« ولم يكن مسموحا لطيراننا بعبور الحدود العراقية ـ النجدية للبحث عن الغزاة ، والنيتجة أن الاخوان أصبح في وسعهم اختراق الحدود عند الغسق والوصول الى هدف يقع على بعد سبعين ميلا داخل العراق عند الفجر . وبالتالي يستحيل وصول الطائرات لحماية الرعاة في حزام السبعين ميلاً هذا .

« وهذه الغزوات كانت مذابح ، فالاخوان يقتلون بدم بارد كل الذكور حتى الأولاد والأطفال الرضع من الذكور ، ولكن النساء لا يقتلن ، ولذا فان كل ما يبقى من هذه الغارات ، هن النساء النائحات* ، والفتيات المنهكات اللاتي يكون عليهن شق طريق العودة على أقدامهن مائة ميل أو أكثر » ويصف كيف قضى هو نفسه أربعة أيام من الرعب في انتظار هجوم الدويش ، ويقول إنه حتى في معارك فرنسا ضد الألمان كان يمكن أن يتوقع النجاة أو الأسر ، « ولكن الاخوان لا يأخذون أسرى ، فاما أن تقتل في المعركة ، أو يقبض عليك ليبطحك أرضا ثلاثة رجال ويذبحك الرابع[٤٤] » !

ويصف بأسلوب « مؤثر » قبيلة هاربة من الاخوان ، ليبرر ما فعله الانجليز ، فيقول إنه في ديسمبر ١٩٢٤ ـ ١٣٤٣ هـ « كانت جموع المنهزمين هائمة ، لا يسمع منها رد على أسئلة القوات المسلمة بقيادة غلوب ، إلا كلمات : الاخوان .. الدويش .. » ورغم مرور خمسين سنة ، فان غلوب لا يفوته أن يدس بين الوهابية والشيعة فيزعم أنه مازال يتذكر ـ رغم أنه وصل الى أرذل العمر ـ « منظر النسوة وهن ينظرن خلفهن في هلع هاتفات : يا الله .. يا محمد .. يا علي** » .

وقد نجحت استراتيجية ابن سعود نجاحا فاق كل الحسابات ، واعترف بذلك غلوب فقال : « شهد خريف وشتاء ١٩٢٤ ـ ١٣٤٣ هـ غارات متكررة وضربات عنيفة من الاخوان على بدو الصحراء العراقية ، ولذلك تحول هؤلاء البدو اللاجئون من نجد ، الى

فقد كانت جماهير حايل متعاطفة مع عبد العزيز ودعوته التي أثارت ذكريات الوهابية الأولى ، وشمر لم تتنكر قط للوهابية . وكان للاخوان عناصر في مستويات عليا في جبهة العدو ، اذ يقول غلوب : « إن الاخوان الذين كانوا يمتلكون جهاز مخابرات قوي بين قبائلنا (لاحظ قبائلنا أي قبائل الخواجه غلوب !) سرعان ما عرفوا بقرار حظر الطيران عند الحدود . فنقلوا مخيماتهم شمالا الى مسافة أميال قليلة من قبائلنا (ثاني !) في المنطقة المحايدة . وقد ساعدنا هذا على دس جواسيسنا في معسكراتهم » . صفحة ١٨١ من كتاب غلوب .

المهم أن قرار حظر الطيران لا يمكن أن يبلغ للأفراد العاديين مما يدل على أن أعوان الاخوان ، أو العاطفين عليهم كانوا في مستويات عليا . وهذا غير مستبعد من العناصر الوطنية العراقية التي كانت ترى في الاخوان سيف الله المنتقم من الانجليز والحكم العميل في بغداد .

* لا حاجة للحديث عن كذب غلوب الذي تسمم بكراهية السعوديين ، وإلا فلماذا يقتل الاخوان الأطفال الذكور الرضع وكيف تتاح الفرصة في المعركة لتمييز الرضيعة من الرضيع !

** ربما الملك علي بن الحسين !

موقف المدافع المذعور « حتى إنهم تنفسوا الصعداء عندما أعلن ابن سعود الحرب على الملك حسين ووجه قواته غربا في ربيع ١٩٢٥ ـ ١٣٤٣ هـ » . ولكن الرعب بقي ، وإن توجه الاخوان غربا .. « فقد كان هذا الربيع مأساة لقبائل العراق ، لقد كان حزام الصحراء الواقع شمال الحدود العراقية ـ النجدية بسبعين ميلا مزدهرا بالحشائش العالية ، والأزهار البرية ، ولكنهم لم يجرءوا على الاقتراب منه ، بل ظلوا حول مركز الحراسة في « أبي الغار » .. حيث تتساقط جثث أغنامهم وحميرهم وجمالهم من الجوع .. وهو منظر يقطع القلب حقا[٤٥] » .

الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه ، لم يتقطع قلب غلوب ، ولكن هذا الرعب ، هو الذي أمن ظهر ابن سعود ، وأطلق يده في تصفية الأشراف في الحجاز ، فلولا « الاخوان » لما اكتفت قبائل العراق ، أو اللاجئة من نجد برعي الحشائش ، واستنشاق عبير الأزهار البرية ، بل لبادروا باستغلال انشغال القوة الرئيسية في الحجاز ، لطعن السعوديين من الخلف وذبح أطفالهم وسبي نساءهم . ونفس الشيء بالنسبة للأردن ، فقد قال فيلبي : إنه على ضوء ما رآه بنفسه فان « الاخوان قادرون على الاستيلاء على الجوف باسم ابن سعود متى أراد ، ولا شيء أقل من حملة بريطانية يستطيع منعهم[٤٦] » .

« وانتشر الذعر في شرق الأردن حتى عمان ، لدرجة أن فيلبي رأى علامة على حائط ، فاستدل بها على أن بعض الاخوان مروا من هنا ، وسرعان ما جاءهم الخبر بأن الاخوان قد ضربوا ضربتهم في قريتين على بعد عشرة أميال فقط من عمان .. وعندما ذهبوا الى القرية كانت جثث بني صخر متناثرة في كل مكان[٤٧] » .

وبذلك فرض ابن سعود السلام الوهابي* ، وبهذه القوة التي لا تقهر استطاع أن يأمن مؤامرات الانجليز . تلك القوة التي انتشرت حول الحدود ، ونشرت معها حاجزا الكيترونيا ، ولكنه من الايمان وليس من التكنولوجيا .. حاجز الرعب ، رعب المأجور من المؤمن ، رعب المرتزقة من الذين اشتروا الآخرة بالدنيا ..

أرعب الاخوان هؤلاء المرتزقة والعملاء ، فمنعوهم من لعب دور مخلب القط في إزعاج السعوديين ، أو فتح ثغرة في دولتهم للأصابع الأجنبية ، وأصبح على القط

---

* لم يقتصر الأمر على تأمين الدولة من اعتداءات العملاء من الخارج ، بل إن هذه القوة استطاعت أن تحقق السلام والأمن في الداخل فكما قال فيلبي في مقال له عام ١٩٢٩ ـ ١٣٤٨ هـ « إن إنجاز الاخوان في السلم كان أكبر منه في الحرب فالجزيرة يسودها الآن سلام لم تعرفه في تاريخها ، إذ يستطيع الانسان أن يتجول فيها بسيارة أو بجمل دون مخاطرة ، وحتى الحجاز الذي كان أكثر المناطق مخافة وأخطاراً ، أمن فيه الحجاج على حياتهم وأموالهم . ومع ذلك يصعب أن ترى قوات أمن أو شرطة مما اعتدنا رؤيتهم في البلاد التي تتمتع بهذا الأمن بل بالعكس هدمت القلاع القديمة التي كانت تحرس الطرق » . ويلاحظ أنه منذ معركة تربة لم تتمرد قبيلة واحدة في دولة ابن سعود ، فانقطع بذلك حبل التآمر الذي كان الانجليز يجيدون اللعب به للضغط على حكام الجزيرة .

الأجنبي أن يتعامل مع عبد العزيز بما يقبله ، أو يجرد خمسين ألف جندي كما قرر لورنس حجم الحملة اللازمة لهزيمة ابن سعود والاخوان !

ويقول فيلبي إن « عبد العزيز قد أرسل قوة للعراق لمجرد استعراض عضلاته أمام فيصل ليمنعه من اتخاذ أي اجراء خلال حربه مع أبيه (الملك حسين) كما أرسل قوة مماثلة تغلغلت في شرق الأردن[٤٨] » .

ولقد وصل الاخوان في يونيه ١٩٢٢ ــ ١٣٤٠ هــ الى مسافة ١٥ ميلا من عمان عاصمة الأمير عبد الله في شرق الأردن ، واضطر سلاح الطيران البريطاني للتدخل مدعوما ، أو داعما للمدرعات البريطانية حتى أمكن منع دخول عمان في ملك ابن سعود .

وفي نوفمبر ١٩٢٢ ــ ١٣٤١ هــ في اجتماع الجمعية الآسيوية ، أعلن الكولونيل فيكري ، وهو من أعمدة الاستراتيجية التي كان شعارها : « مصالح الحسين هي مصالح بريطانيا » أعلن عن ظهور قوة الاخوان بقوله : « **لقد شاهدت قوة جديدة نامية في الجزيرة ، قوة أصيلة ليست من تلفيقاتنا .. قوة ستزيل تلك البيوتات التي أيدناها علنا وبافراط . إن الوصاية على الحرمين اليوم يتولاها الشريف ، ولكنني أعتقد ان السلام لن يحل على الاسلام إلا اذا أصبحت مكة مرة أخرى تحت سيطرة أمة تجمع بين الروح والقوة**[٤٩] » .

والانجليز كما قلنا هم أساتذة التعامل مع الحقائق الجديدة ، لذلك نبـذت الاستراتيجية القديمة التي تتمركز حول دعم الحسين ضد ابن سعود ، وأعلنت بريطانيا الحياد فيما وصفته بأنه خلاف « فقهى » بين الرياض وجدة !! بينما عكف خبراؤها على وضع خطة تطويق وسحق هذه القوى الجديدة التي توقعوا أنها اذا لم تعالج ، فقد تواجه العالم بحالة شبيهة بما جابهه في القرن السابع الميلادي بالزحف الاسلامي الأول .. أو على الأقل ربما كانت قادرة على تفجير حركة تحرر ووحدة عربية ..

ولعل أخطر ما قيل في حركة الاخوان « **انها أصيلة وليست من تلفيقاتنا** » ! وعبر تاريخ الاستعمار كله ، لم يكن يثير رعبه وحقده الا القوة « الأصيلة » مهما قيل عن تخلفها أو حجمها أو اعتدالها يمينيتها أو يساريتها ! فالمهم هو الأصالة ، وما عدا ذلك يعالج ..

زحف الاخوان على الحجاز ، وذاب الجيش الهاشمي ، التهمه الاخوان ، وكانت معركة الطائف التي ، كما قلنا ، لعبت رويتر والمقطم ، وتايمس أوف انديا ، وأجهزة الاعلام البريطانية والهاشمية دورا كبيرا في ما أثير حولها ، ونقلته كتابات المؤرخين دون تمحيص ، حتى بدت وكأنها غزوة تترية .. وقد سبق أن اشرنا الى اجماع المصادر على أن جميع قتلى « غزوة » الطائف لا يتجاوزون الثلاثمائة داخل وخارج المدينة ، وهو أقل بكثير من ضحايا موقعة البكيرية مثلا .

وقد قال مؤلف كتاب « توحيد الجزيرة » : « أخبرني أمير الطائف نفسه أنه لم يذبح في المدينة الا الحامية ، وبعض أهل المدينة الذين حاولوا المقاومة . أما القصص المرعبة ، فقد روجها رجال الشريف[٥٠] » ولعل جون حبيب كان شديد التوفيق عندما قال : « مهما قيل عن فظائع الاخوان فلم يسجل تاريخهم حرق مدينة واحدة أو تدميرها » وقد استلفت نظري من روى فيما قصص عن الطائف روايتان : الأولى تنفي تهمة الغزوة التترية ، التي رسمتها دعاية الانجليز والأشراف ، ورواها الزركلي عن شاهد عيان قال : « أخبرني أحد شهود المعركة أن بعض المهاجمين للطائف ، دخلوا منزلا فيه مكتبة ، فأخذوا كتب الحديث والتفسير كلها ، وتركوا كتب النحو والأدب والفقه[٥١] » .

فهل يستقيم هذا الخبر في اطار الصورة التي تناقلتها المراجع والمعلقون ، عن غارة تترية ، لا تبقي ولا تذر ، هل نستطيع تصور مدينة يجرى نهبها وحرقها ، ويذبح نساؤها وأطفالها ، وبعض هذا الجند يقلب في المكتبة ويراجع الفهارس ، فيختار كتب الحديث ، وينحي جانبا كتب النحو ؟! وكيف نجا هذا البيت من الاعصار ؟! أو هل يمكن تصور عملية الذبح والنهب تدور في المنزل ، بينما وقف هؤلاء الجند المثقفون ، يتقبون ويفحصون الكتب ، وكأننا في فيلم كوميدي !

والحكاية الأخرى التي أوردها الريحاني كتشنيعة ، ولكنها تثبت عقائدية « الغزاة » ومسلكيتهم المنضبطة بقواعد دقيقة ، واحساسهم بالتفوق العقائدي ، وقد رأينا كيف رفع ابن سليمان عباءته ، فتوقف سلب الكويت في لحظة واحدة ! وهو ما لا مثيل له ولا حتى في الجيوش الأوروبية !

الحكاية أن الشيخ « عبد القادر الشيبي » سادن الكعبة ، أسقط في يده ، عندما دخل الاخوان الطائف ، وكان هناك ، واستل أحدهم السيف ليقطع عنق المشرك عندما بكى الشيخ وأجهش بالبكاء .. فسأله الأخ وسيفه معلق فوق عنق الشيخ : « وليش تبتسى يا تسافر » أى « ولماذا تبكى يا كافر »* ؟! فأجابه الشيخ الأريب : « أبكي والله من شدة الفرح . أبكي يا اخوان لأني قضيت حياتي كلها في الشرك والكفر ، ولم يشأ الله أن أموت الا مؤمنا موحدا . الله أكبر ولا اله الا الله . » « وأثر هذا الكلام في الاخوان ، فبكوا لبكاء الشيخ ثم طفقوا يقبلونه ويهنئونه بالاسلام[٥٢] . » فهذا جيش عقائدي ، تحكم العقيدة تصرفاته وعواطفه وانفعالاته ، ولذا ينقلب من قسوة الاعدام الى رقة البكاء والرحمة في لحظة بمجرد انتقال العدو من خانة المخالفة العقائدية الى الايمان .. ولذلك فاني أرجح أن القتل كان صاعقا ، كما هو أسلوب الحرب العقائدية ، الضربة المروعة التي تشل العدو ، وتفقده الرغبة في المقاومة ، بقية الحرب ، فتحقن دماء كثيرة ، بما يبدو أنه قسوة .. ولكن لا غزوة تترية . وعلى أية حال فتلك الصورة

---

* كما ترجمها الريحاني ، وايراده النص النجدي يدل على الرغبة في الاغراب والفكاهة . والسؤال حقا عجيب ؟ الا اذا كان « الأخ » قد استغرب أن يخاف شيخ كبير وقور من الموت !

التي روجوها عن الاخوان هي التي ألصقوها بكل شعب حاول التخلص من نيرهم .. فالجزائري والفلسطيني .. ارهابي متوحش لأنه يقتل الغاصب .

وعندما توجه الاخوان لفتح مكة ، تخوف بعض قادتهم من احتمال كمين من المشركين أوقريش ! فطلبوا فتوى من العلماء بجواز الدفاع عن أنفسهم اذا ما هوجموا في مكة ، رغم دخولهم بملابس الاحرام ، وبنادقهم منكسة . الا أن القيادة الدينية رفضت ، وأفتت بعدم جواز دخول الحرم بنية القتال .

وكان ..

أطاع الجند المؤمن وانتصروا

ربما بسبب الرعب الذي أصبح يسبقهم بمسيرة شهر كما قيل في السلف الصالح ! وربما بسبب هذه الفتوى التي أكدت لأهل مكة تقوى القادمين ، واحترامهم لحرمة البيت والبلد الحرام .

لقد كانوا خير جند عرفته الجزيرة منذ أيام محمد بن عبد الوهاب .. وهم وسلفهم أسطورة أو حلم رآه العالم الاسلامي الغافي يحلم بعصر كل حقائقه فاقت أغرب الأحلام .. عصر خالد وأسامة والمثنى وأبو عبيدة وعمرو .

وغفر الله لذلك الشاعر العربي الذي اكتشف الديالكتيك قبل هيغل فقال : لكل شيء اذا ما تم نقصان !

فقد كان فتح مكة هو نقطة الذروة في حلم جند التوحيد والحل الاسلامي ... وبدأ العد العكسي .

... الثورة أو الدولة ؟

قلنا ان النهاية المؤسفة لحركة « الاخوان » ، قد حالت دون تقييم التجربة بموضوعية ، ومن باب أولى ، لم يكن من الممكن مناقشة أسباب الخلاف ، فالصدام .. ومن ثم النهاية .. فجميع الكتابات المعاصرة والحديثة ـ باستثناء محمد أسد* ـ أخذت بالطبع جانب ابن سعود ، ولا لوم عليها في ذلك ، ولكنها ، وبالذات الحديثة منها ، تلام لأنها رغم مرور السنين وزوال حدة الصدام ، مازالت تتجافى للظاهرة ، وترفض بحثها موضوعيا ، والتاريخ يحب العدل ، وما لم تنصف ظاهرة الاخوان ، والهجر ، فسيظل التاريخ يطالب بهذا الانصاف في أشكال عديدة ، ومفاجآت غير محسوبة ..

والذين تبذلوا في التقليل من شأن « الهجر » فجعلوها مشروعا زراعيا ، لتوطين البدو وتدجينهم ، كان من الطبيعي أن يفشلوا أكثر في تحليل انهيارها .. فصاحب الجائزة الذي فاق جميع المشوهين والمفترين ، نسب نجاح عبد العزيز في التغلب على التمرد الاخواني ، الى مساعدة بريطانيا العظمى له ، كما سنرى .. وقال في أسباب الفشل :

« ان بعض أدعياء العلم ثقفوهم بتعاليم دينية ناقصة ، كانت من أهم الاسباب المعرقلة للمشروع ، فلقنوهم أن غير الاخوان كفرة ، **وغرسوا في نفوسهم حب الامام**** ، وقالوا لهم ان لبس العقال حرام ، ويجب لبس العمامة ، والتزام البساطة في الأكل والملبس وعليهم دفع الزكاة للامام[٥٣] » .

هل حب الامام من أسباب فشل المشروع ، بل من أهم أسباب فشله ، كما يقول ؟!..

كيف يمكن وصف هذه التعاليم بأنها ناقصة ، وصادرة عن أدعياء العلم ؟! وباستثناء لبس العقال والعمامة ، وهي مجرد تشنيعة ، ففى كل عقيدة قضايا تبدو شكلية من هذا الطراز . والاخوان لم يكونوا أسخف من كمال أتاتورك الذي اعتقد أن لبس العمامة أو الطربوش يسبب التخلف ، ولبس القبعة يحقق التقدم والتمدن ، ويحول تركيا الى دولة أوروبية !!

فباستثناء هذه النكتة .. ما الخطأ في تلك التعاليم ؟!

---

* وبالطبع أولئك الذين حملوا عبد العزيز مسئولية التغرير بالاخوان ثم تصفيتهم بمساعدة الانجليز وهم في هذا يلتقون مع مؤلف « الاصلاح الاجتماعي » .

** ؟!!

تعليمهم أن غير الاخوان كفرة ؟!

نعم !

والا فبأى حق يستحل دمهم ومالهم ، ويجندون لقتالهم ؟! وكيف يستشهد الأخ ، خيال « التوحيد » الا في قتال الكفرة والمشركين .. هل لو علموهم أن غير « الاخوان » مسلمون وهم يعرفون : أن « القاتل والمقتول في النار » ؟! وكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل .. « وكن في الفتنة كابن لبون لا ضرعا فيحلب ولا ظهرا فيركب » ... أكان يقوم جيش الاخوان أو تتحرر وتقوم مملكة ابن سعود ، وتخصص جائزة الملك فيصل ويفوز بها من يأسف على تعليمهم الجهاد ؟!.. ألم يتساءل الاخوان .. ان كان أهل الكويت كفارا فلماذا لا نقاتهلم ، وان كانوا مسلمين ، فلماذا نقاطعهم ؟!..

وما الخطأ في غرس حب الامام في نفوسهم ؟!

أليس هو القائد ومؤسس ورمز الحركة ؟.. هل حبه يفسد المشروع ؟!

ربما ! اذا كان الهدف ، هو تحويل البدوى المقاتل الى فلاح مسالم ، وزيادة انتاج الحبوب .. لأن حب الامام ، فعلا ، قد عطلهم عن الزرع والحصاد اذ شغلهم الامام المحبوب بالجهاد عن الزراعة ، وضللهم العلماء فصوروا لهم المشروع جهادا في سبيل الله ضد الطاغوت ، والتمزق ، والنفوذ الدخيل ، بينما الهدف الحقيقي هو زيادة الانتاج الزراعي في مزرعة عبد العزيز ! ونتيجة هذا الخطأ تحولت مشيخة عبد العزيز الى مملكة ، وأول الدول العربية استقلالا ووحدة .

ومع هذا لا يمكن لعاقل القول بأن سبب الثورة وفشل التجربة ، هو حب الامام .. لأنهم ثاروا على هذا الامام وحاربوه .. عندما ظنوا خروجه عن الدعوة ، فهم قد أثبتوا أنهم يحبون الدعوة أكثر من الامام !

وما الخطأ في دفع الزكاة للامام أو البساطة في الأكل والملبس .. ويا ترى لو كان العلماء بدلا « من أدعياء العلم » قد علموهم التعليم الدينية « الكاملة » وليست « الناقصة » .. وقالوا لهم « ان التأنق في المأكل والملبس من الاسلام » أكانوا يصلحون للجهاد ، وبناء الدولة التي لا يحب ضيوفها وقصادها البساطة في العيش ، وان رضوا بالسذاجة في تفسير التاريخ ؟!

وفقدان الموضوعية في تحليل أسباب انهيار تجربة عبد العزيز ، لا تشمل تجربته وحدها ، بل تنسحب ذيولها حتى على التجربة الأولى ، ولذا نرى التحليل التوطيني ينسب قصور التجربة الى الدعاة الاوائل في بداية الحركة الوهابية ، فالاخوان وأسلافهم : « لا يثقون البتة بالافرنج المسيحيين ، وهذا يفسر انغلاق نجد أمام الافرنج ، الا فيما ندر . والسلفيون والاخوان يكنون كرها شديدا للافرنج » وهذه منقولة عن ديكسون ، ولكنه يعززها بقوله : « وقد لمست بنفسي اثناء اقامتى في السعودية ، كره السعوديين بخاصة المتقدمين في السن منهم ، للأجانب

المسيحيين* » .

« التعصب الديني الشديد الذى تميز به الاخوان ، كان يماثله التشدد الديني عند السلفيين القدامى ، ويفسر هذا اعتبار كل من هو ليس بأخ أو كل من هو ليس بسلفى ، كافرا يحل قتله واخذ أمواله ، وأن الشدة القاسية التى عامل بها السلفيون الأوائل السكان في العراق وبلاد الشام أثناء غزواتهم الأولى تتشابه الى حد كبير مع القسوة التى عامل بها الاخوان سكان نفس المناطق على اعتبارهم ليسوا سلفيين أو اخوانا٥٤ » .

اذا فالداء قديم ، وهذه العصا من تلك العصية ! والحركة تحمل الخطأ منذ ميلادها في عصر عبد الوهاب ؟!

والغريب أنه في الجزء الذي أثنى فيه على المشروع الزراعي ، لم يشر بحرف الى أصله الوهابي ، فلما انتقل الى الذم نسبه اليها ، فالوهابية كما قيل : « في مدحهم منسية ، وفي ذمهم مدعوة » !

أين هذا التجني على حركة الاخوان ، والتطاول على الحركة السلفية أو الوهابية ، التى بدأت الدعوة ؟ أين هذا من كلام عبد العزيز الذي عانى ما عانى من حركة الاخوان ولكنه يقول : « ان السلفية القديمة متحدة بحماسة الاخوان ، تشكل أصفى وأنقى الحركات الدينية٥٥ في العالم » وروى عنه أيضا قوله : « ان الاخوان مهما فعلوا فيجب احتمالهم ، وأنا لا أنسى أعمالهم وأعتقد أنهم حسنوا النية ، أما هذه العصبية والشدة ، فالزمن كفيل بتخفيف حدتها٥٦ . »

ومعروف أن عبد العزيز كان لا يسمح لأحد بأن يتطاول على الاخوان في مجلسه الى أن مات . وقيل في تفسير الحدة في مسلكية الاخوان ان الحركة نشأت في ظل الاحساس بالحصار من المشركين : الروم** والانجليز والأشراف ، فظل هذا الاحساس ملازما للحركة وزعمائها .

فلنقذف اذن بكل تطاول الى مزبلة التاريخ ، ونحن نتفق مع رأى عبد العزيز تمام الاتفاق ، فحركة « الاخوان » منذ مولدها على يد عبد العزيز الى قضائه عليها ، عندما اخطأت الاجتهاد ، كانت أنقى حركة دينية في العالم المعاصر لها . ومن لديه اعتراض فليتقدم !

أما حافظ وهبة الذي تعود أن يلعب الدور المزدوج ، الوطني عدو الانجليز في مصر ،

---

* وحتى في هذه جانبه التوفيق في التشنيع على الاخوان ، والحركة السلفية ـ أي الوهابية . فقد سجل والين من أكثر من قرن دهشته من تسامح الوهابيين مع المسيحيين ، وتشددهم مع المسلمين المخالفين ، وعاد فيلبي فسجل نفس الظاهرة ، على لسان ابن سعود في الحوار الذي أجراه معه في صيف ١٩١٨ ـ ١٣٣٦ هـ .. فقد قال ابن سعود : « اذا قدمت أنت الانجليزي ابنتك لي كزوجة ، سأتزوجها ، ولا أشترط إلا أن يكون أولادي مسلمين ، ولكني لا أتزوج ابنة الشريف ، ولا بنات أهل مكة ، ولا غيرهم من المسلمين الذين نعتبرهم مشركين ، آكل اللحم الذي ذبحه المسيحيون دون تردد ، ولكن المشرك الذي يعبد مع الله إلها آخر فهذا هو ما نبغضه » .

** الأتراك ..

والدبلوماسي المؤمن بصداقة بريطانيا في بلاط عبد العزيز ، فنراه حائرا ما بين إدانة « الاخوان » لتمردهم على عبد العزيز ، وتخلفهم ، وتعنتهم في قضايا شكلية ، وبين اعجابه بهذه النماذج ، التى أثبتت صحة ما آمن به في شبابه ، أى قدرة الايمان ، قدرة الاسلام على اعادة صياغة البدوى ، ليتحول الى سوبرمان ، الى جيش الخلاص الذي حلم به هو وأستاذه محمد عبده وأستاذ الأساتذة جمال الدين الأفغاني ، فهو يشهد بالانقلاب الذي حدث ويقول انه رأى الأم تودع ابنها : « جمعنا الله واياك في الجنة » وكلمة الحرب هي : « هبت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها » وعند الهجوم : « اياك نعبد واياك نستعين » . « وقد شهدت بعض وقائعهم الحربية ، فوجدتهم يقذفون بأنفسهم الى الموت قذفا ، ويتقدمون الى أعدائهم صفا صفا ، ولا يفكر أحدهم في شيء الا هزيمة العدو وقتله . ولكنه يعود فيقول : « غير أن هذا الانقلاب كان خطيرا وعنيفا جدا » :

« لقد تشرب هؤلاء كثيرا من المبادىء والتعاليم الناقصة ، حتى اعتقدوا أنها هي الدين ، وما سواها ضلالة ، كما أساءوا الظن بغيرهم من حضر نجد ، بل بولى أمرهم الامام عبد العزيز . أصبحوا يعتقدون أن لبس العمامة هي السنة ، وأن العقال من البدع المنكرة ، بل غالى بعضهم فجعله من لباس الكفار ويجب مقاطعة لابسيه ، وكان كثير منهم يعتقد أن لا اسلام لمن لم يسكن الهجرة* ، مهما كان عليه من الاسلام . ومن لم يترك شرور البادية وعوائدها ؛ فلا يبدأون غيرهم من هؤلاء بسلام ، ولا يردون عليهم السلام ، ولا يأكلون ذبائحهم . وذنب هؤلاء عندهم هو عدم سكن الهجرة .

« وكان فريق منهم يعتقد أن المشايخ مقصرون مداهنون لابن سعود ، أو كتموا الحق عنه . »

« وكانوا يعتقدون أن الحضر ضالون وأن غزو المجاورين واجب ، وأنه القى عليهم هذا الواجب من قبل الله .

« وقد نال بعضهم من الامام عبد العزيز فرموه بموالاة الكفار والتساهل في الدين ، وأنكروا عليه تطويل الثياب والشارب ولبس العقال ... وان سريان هذه الروح المتمردة يرجع الى هؤلاء الجهلة وأنصاف المتعلمين الذين انتشروا في قرى الاخوان باسم العلم ، ولقنوهم هذه التعاليم ، وحببوا اليهم التعصب الذميم » .٥٧

ونقل عن أهل مكة أنهم كانوا يقولون في أنديتهم : « لولا غلظة الاخوان ، وخشونتهم وقسوتهم ، لكان عهد ابن سعود في استتباب الأمن ، والضرب على أيدي المفسدين ، والقضاء على البدع والمنكرات لا يعادله الا عهد الصحابة والتابعين » ويقول « ان الاخوان على العموم قلوبهم لا تعرف الرحمة على الأعداء ، ولا يفلت من

---

* وهذا بالطبع فهم متشدد لآيات الهجرة وأحاديثها ، ولكن يبرره فهمهم لمعنى الهجر كتحول عقائدي ومراكز جهاد . ولكنه يغدو مضحكا في ظل مفهوم التوطين ، اذ لم يقل أحد ان الاسلام لأهل الزراعة وليس لأهل الرعي !

تحت يدهم أحد ، فهم رسل الموت أينما حلوا[58] » . ولا يقول لنا الشيخ ، كيف يمكن « الضرب » على أيدي المفسدين بحنان ؟! ولا كيف كان من الممكن ازالة السلطة المفسدة ، لولا هذه الشدة وهذه الخشونة* .. وهل نسى الشيخ أن هذه هي صفات المجاهدين أو المقاتلين العقائدين في كل زمان ومكان ، هل نسى وصف الله سبحانه وتعالى لنبي الرحمة وصحابته : « محمد رسول الله والذين معه ، أشداء على الكفار رحماء بينهم » . ولا أحد ينكر ، أن الاخوان كانوا يبالغون في التراحم فيما بينهم ، بل وأتحفنا الشيخ نفسه بنماذج من هذا التراحم . فالشدة كانت على الأعداء .. والتاريخ لا يكتب بمداد الرحمة وحده ، بل وبسيف العدل ..

وماذا يفعلون يا شيخنا وقد أمرهم الله : « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » . أليس تطبيقها هو بالضبط غزو « المجاورين » والغلظة عليهم . أما عن أنه لا أحد يفلت من سيفهم في المعركة .. ألم يقل الله سبحانة وتعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » . هذا هو الجيش الذي منذ أول هزيمة أنزلها بنا الصليبيون ، ومشايخنا يدعون الناس ليكونوه .. هو الجيش الذي تمناه أهل الاندلس قبل أن يبادوا ، وتمناه الجبرتي ليمنع نابليون من دخول الأزهر بخيوله ، وتمناه الجزائريون ليحول دون جيش « الثورة » الفرنسية ، ورفع الصليب على المسجد الكبير في الجزائر ، وتحويله الى كنيسة ، وتمناه الشيخ وهبة ليخرج الانجليز من مصر ، ويمنع فتك الايطاليين بأمة القرآن « الأمة الملعونة » كما تغنوا في كباريهات روما ومواخيرها !

هو الجيش الذى تمناه الشيخ في كهولته ، وهو يرى نقيضه اليهودي ، يهزم سبع دول ، وهو الجيش الذي افترس نفسه لأن الشيخ وتلاميذه ، بل وأساتذته لم يستطيعوا أن يوجدوا التعاليم أو النظرية أو التفسير الذي يجمع بين هذه النصوص الخالدة ، وبين ضرورات الحياة المعاصرة ، ومازلنا نعيش في مأساة القدرة على تحضير الجان ، والعجز عن توجيهه .. فلا تحملوا القوم أوزار عجزنا .. كفاهم شهادتكم بأنهم أقوى جيش اسلامي ظهر في العالم منذ انهيار الانكشارية حتى اليوم .

ولعل الزركلي اقترب شيئا ما من المشكلة ، وان لم يمس جوهرها عندما قال ان تخلف نجد ، وليس تخلف المشايخ ، هو المسئول عن بعض التشنجات الاخوانية ، وخاصة معارضة المخترعات الحديثة . أما عن « العطار » فحدث ولا حرج ، فهذا الذي رأيناه موضوعيا يثني على ابن رشيد ، ومتعاطفا مع الهاشميين ، أفاض في سب الاخوان ، ورميهم بكل نقيصة تخطر على البال ، فوصفهم بأن « أكثرهم كانوا جامدين يعيشون فيما يشبه الجب لا يبرحونه ، وبلغوا من الشدة والعنف والجهل أن حرموا ما

---

* القسوة كانت ، بل والبعض يعتقد أنها لاتزال الوسيلة الوحيدة لحفظ الأمن ، فابن جلوى حمى الشيعة من قسوة الاخوان ، بالقسوة في الاجراءات ضد الاخوان حتى سمى « جبار آل سعود » .. والدعوة ترتفع في الدول الغربية مطالبة باعادة العقوبات الشديدة لتحقيق الأمن .

أحل الله ،وأفتوا بغير ما أنزل . وكفروا المسلمين ، وأعلنوا الحرب على كل ما أنتجته الحضارة ، وأنكروا على المصلحين صلاحهم . » وقال « ان أتباع فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن حثلين يعيشون عيشة بدوية فظة غليظة . فان ابن سعود لم يكن مثلهم ، بل كان على نقيضهم[٥٩] . »

ولا أحد يقول إن ابن سعود كان نقيضا لفيصل الدويش في لذيذ العيش ولينه ، بل في الثقافة والتصور الاسلامي ، والا فالروايات تؤكد* أن الدويش كان ينال كل ما يطلب ، وكان يعيش حياة لا تختلف كثيرا عن مستوى « رفاهية » سلطانه !

وينفعل العطار كعادته ، فما تكاد الصفحة تنتهى حتى يصبح الاخوان : « الذين هم تحت امرة فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وابن حثلين وأشباهم الغلاظ الشداد أعداء الحضارة والمدنية ، فقد كانوا مثل رؤسائهم في الجلف والشدة والنقمة العارمة على المتمدنين والمدنية وكانوا جميعا وحوشا ضارية مفترسة »! ثم « غرائزهم المتوحشة » وعداءهم لابن سعود مبعثه « الحقد والنقمة والعداوة والبغضاء الصادرة عن أطماعهم ، فهم عبيد دنيا وأسرى مظاهر » « المتمردون الموتورون » « طمعا في الكسب الحرام » . ثم نرى « سلطان بن بجاد » : « لقب نفسه بسلطان الدين وكان **سفاحا قاتلا** » (!!) بل تفتح الدفاتر القديمة ، ويستعار من الاعلام الهاشمي فيتهم سلطان بن بجاد ، بأنه عند فتح الطائف « قتل هو وجماعته الأبرياء من سكان الطائف والمصطافين من أهل مكة المكرمة ، ونهبوا الأموال » ![٦٠]

ونسى تماما أنهم الجيش الذي أقام الدولة التي يتمتع بجنسيتها .. وقد قاموا بكل هذه الاعمال باسم عبد العزيز !...

بل تعاد كتابة التاريخ ، فنجد أن الدويش لم يكن بطل الفتوح ولا قائدها ، بل « اشترك في كثير من حروب ابن سعود ، كما كان مع الجيش السعودي الذي حاصر المدينة حتى استسلمت للأمير محمد بن عبد العزيز » ويكاد يقول انه كان مع الجيش السعودي كمراسل حربي ! أو كمرافق أو نديم للأمير محمد !

وفجأة يقول ان « الدويش كانت له مكانة عند ابن سعود جعلته يلبي كل مطالبه » ! لماذا ؟!

أما مؤتمر الأرطاوية والاتهامات التي وجهت للقيادة فقد لخصت على أساس أن الدويش زار ذات يوم ابن بجاد في مقر امارته بهجرة الغطغط « وتكاشفا فقررا الثورة .. ولكسب الانصار اتهموا ابن سعود «بترك الجهاد وقتال المشركين، والمشركون في نظرهم ، من لم يكونوا من الاخوان . وهناك أسباب اخرى ، ولكن الجهاد كان أعظمها ، فهم يريدون ابن سعود أن يجعل سيفه دائم الاصلات على رقاب العباد ، ولكنه أغمده ، بل حوله الى « محراث » يعمر الأرض » !! وهذه أول مرة يكشف لنا

---

* ومنها العطار نفسه ، بعد صفحتين وليس أكثر عندما قال إن الدويش كان يتزود من خزانة الدولة بالمال الكثير كما كانت له ولأولاده وزوجاته مخصصات ضخمة شهرية وسنوية .

العطار أن سيف ابن سعود كان مصلتا على رقاب العباد قبل أن يغمده ، وهذه أيضا أول وآخر مرة نعرف أن ابن سعود حول سيفه لمحراث ، لأنه سيحارب بعد ذلك الاخوان وابن رفادة واليمن !

بل حتى مفهوم الاخوان عن الجهاد خاطىء ويستحق النقد .. لماذا ؟ وهم الذين جاهدوا على جميع الجبهات أكثر من ١٥ سنة ؟!

لأن مفهومهم مخالف لما قاله العطار في كتابه « انسانية الاسلام » !

ورحم الله مؤلفا عرف قدر نفسه ..!

« محمد أسد » تفرد بنقد عبد العزيز وحمله مسئولية ما جرى ، وان كان في نفس الوقت ــ كما سنرى ــ قد هاجم الاخوان وشكك في نواياهم ، وأثبت لعبد العزيز تعاونهم مع الانجليز ، واشترك في الحملة الاعلامية ضدهم !

قال : « ان ابن سعود قد ضاق ذرعا بتقلب البدو وخاصة مطير بزعامة الدويش ، وتقلبهم بينه وبين ابن رشيد ، ففكر في خطة لعله لم يقصد منها بادىء الأمر سوى أن تكون مناورة سياسية ، الا أنه قدر لها في ما بعد أن تنقلب الى فكرة عظيمة ، استطاعت أن تبدل وجه شبه الجزيرة كله ، وهي خطة توطين القبائل الرحل . فقد كان واضحا أن البدو ، متى استقروا ، لابد وأن يقلعوا عن لعبتهم المزدوجة بين الفريقين ، ذلك أنه كان من السهل عليهم ، في حياتهم البدوية غير المستقرة ، أن يطووا بيوتهم الشعرية في لحظة ، وأن يسيروا بقطعانهم من جهة الى أخرى ومن جانب الى جانب ، ولكن حياة الاستقرار ، لابد أن تجعل ذلك مستحيلا عليهم ، اذ أن انتقالهم الى محالفة العدو لابد أن يجلب معه خطر فقدان بيوتهم ومزارعهم ، وليس أعز على قلب البدوي مما تملك يداه . »

ورغم اقراره بأنها كانت خطة عسكرية وسياسية ، الا أن تفسيره لظهورها وتدهورها غير دقيق ، فهي فكرة عظيمة من البداية ، ولكن نتائجها هي التي فاقت أي توقع . وهكذا الثورات والعقائد لا يمكن التنبؤ بحجم تأثيرها في البداية ، ورغم اقراره بأنها كانت خطة عسكرية وسياسية ، الا أنه أخطأ ايضا في تفسير حجر الزاوية فيها ، فربط البدوي بالملكية ، أي تنمية غريزة التملك فيه ، لا تكون بدايته ، اقناعه ببيع ابله ، لاثبات تحرره من حب الملكية ! وما دمنا في مجال الحديث عن قلب البدوي ، فالابل هي أعز ما يملك ، ورغم زرع « حب الملكية » ما يقرب من عشرين سنة في قلوب الاخوان ، فانهم عندما ظنوا في الدولة الخروج عن العقيدة ، لا اهتموا بالملكية ولا بالأرض ولا بالبيوت ولا المزارع .. بل طووا بيوتهم الشعرية ، ووقفوا ضد السلطة ، ورأوا « مستوطناتهم » تدك دكا كما حدث في الغطغط .. فليست الملكية هي التي أوقفت ترددهم بين ابن سعود وخصومه ، ولكن الرباط العقائدي ، فما كان الدويش ليترك « الامام » وينحاز لابن صباح مثلا .. لأن ذلك في مفهومه الجديد يعني الردة ، والانحياز الى المشركين .. فالعقيدة هي الرباط الحقيقي الذي يصر الجميع على انكاره ، لكي يجردوا الاخوان من شرف المبدأية ، ويحولوهم الى مرتزقة انضموا لعبد العزيز

مقابل ما منحهم من أملاك ! حتى ليوبولد الذي ترك وطنه وعائلته في النمسا وحملته العقيدة الى صحراء العرب ، يتحدث عن رابط الملكية !.. وكأن « الهجرات » لم تكن تدرس حديث « من كانت هجرته لله ورسوله ... » الخ حتى يقال ان الاخوان هاجروا من أجل تجارة أو زراعة وليس من أجل جنات الخلد !..

ولكن محمد أسد يصبح أكثر وضوحا في الفقرة التالية :

« وقد جعل ابن سعود توطين البدو أهم نقطة في برنامجه ، وقد ساعدته في ذلك إلى حد كبير تعاليم الاسلام التي تؤكد دائماً فضل الحضارة على البداوة . وأرسل الملك المعلمين الدينيين يفقهون البدو في الدين ، ويبشرون بالفكرة الجديدة التي لاقت نجاحاً لم يكن يتوقعه أحد ، وبرزت مؤسسة « الاخوان » كما أخذ البدو المتحضرون يسمون أنفسهم . وأول هجرة « مستقر » للاخوان كانت هجرة مطير ، قبيلة الدويش . » .

« وأصبحت حماسة الاخوان الدينية وقوتهم الحربية أداة فعالة في يدي ابن سعود . ومن ذلك الحين فصاعداً اتخذت حروبه مظهرا جديدا . ذلك أنها بعد أن حمل لواءها الاخوان بحميتهم الدينية ، تخلت عن صفتها السابقة كنزاع عائلي على السلطة ، وأصبحت جهادا دينيا . وفي نظر الاخوان ، على الأقل . (لماذا هذا التحفظ يا أسد . وقد شهدت في أكثر من موضع بعمق إيمان عبد العزيز !) .

« كان هذا التجدد الديني يتضمن أكثر من معنى شخصي . ففي تمسلكهم تمسكاً لا يعرف اللين أو المهاودة بتعاليم المصالح العظيم في القرن الثامن عشر ، محمد بن عبد الوهاب ، فان الاخوان ، كثيرا ما كان يستحوذ عليهم شعور مغالى فيه من التقى والورع الشخصيين ، إلا أن ما كان يرغب فيه معظمهم قبل أي شيء آخر ، لم يكن التقى الشخصي فقط ، بل اقامة مجتمع جديد يمكن أن يدعى إسلاميا بحق . صحيح إن كثيراً من مفاهيمهم كانت بدائية ، وأن حماستهم الدينية كثيراً ما قاربت الغلو ، ولكنهم لو أتيح لهم ارشاد وتعليم صحيحان ، فان ورعهم الديني العميق كان خليقاً به أن يمكنهم من توسيع أفقهم ، وأن يصبحوا مع الزمن النواة لانبعاث جزيرة العرب كلها انبعاثاً صحيحاً ، اجتماعياً وروحيا **إلا أن ابن سعود ، لسوء الحظ ، قد أخفق في إدراك الأهمية الكبرى لمثل هذا التطور ، وبقي قانعا بتعريف الاخوان إلى أبسط مبادىء الثقافة الدينية والدنيوية والحق أنه لم يعرفهم إلى شيء من هذا إلا بالمقدار الذي بدا ضروريا للحفاظ على حماستهم وغيرتهم . بكلمة أخرى ، لم ير ابن سعود في حركة الاخوان إلا وسيلة لبلوغه القوة واستتباب الحكم* . وفي السنوات التي تلت ، كان من المقدر لهذا الاخفاق أن يرتد وينكص على سياسته هو بالذات ، وأن يهدد في الصميم وجود المملكة التي بناها بيديه . ولعل هذا الاخفاق قد أعطى أيضاً الدليل الأول على أنه كان يفتقر إلى العظمة الداخلية التي أصبح شعبه**

---

* لاحظ أن هذا الكلام مترجم ويباع في المكتبات ويقرأه الشباب بدون حوار أو رأي معارض ، إلا زبد النفاق التافه الذي يدعم أدعاء أسد !

يتوقعها منه . ولكن خيبة أمل الاخوان في الملك ، وخيبة أمل الملك في الاخوان ، لم تتضح الا بعد سنوات طويلة[٦١] . »

وكما أخطأ محمد أسد في الثناء على « مكر » ابن سعود السياسي ، فقد أخطأ أكثر في اتهامه بالتقصير الديني والأيديولوجي ، أو حكاية الافتقار للعظمة الداخلية !

والحقيقة هي أن ابن سعود وصل إلى الهجرات والاخوان . انطلاقا من ثقافته وتاريخه ، من استيعابه لتاريخ الاسلام ، وتاريخ أسرته* . فهو كان يعرف من تاريخ الاسلام ، ومن تجربة أسرته الخاصة ، قدرة العقيدة على تفجير الطاقة . وكل ما أراده عبد العزيز هو تجديد هذه الروح ، تجنيد المؤمنين ، التحول من طالب ملك إلى قائد حركة ، أي اتخاذ وضعه الطبيعي كأمير عظيم من أمراء البيت السعودي ، فهو بيت رسالة ، كما قال مرة ، وعظيم هذا البيت لابد أن يكون قائد حركة ، وإلا فليقبل دور عبد الله الفيصل وسعود الفيصل وغيرهما ! والتحديات التي تثيرها هذه الحركة داخليا وخارجيا ، لا يمكن مواجهتها بالأساليب المعتادة ، بل لابد من مؤمنين بمستوى الدعوة ، وهكذا تكونت « الهجر » لا مشروعا زراعياً ، ولا خطة سياسية ماكرة ! بل تطبيقاً عبقرياً لمفهوم الجهاد الاسلامي ، وتطويراً لدور تحمله هذا البيت الذي أصبح عبد العزيز عميده .

ولم يكن الاخوان وحدهم الذين أرادوا إقامة المجتمع الاسلامي الصحيح ، بل أراد ذلك عبد العزيز بكل قواه ، وأراده أولا ، ومن ثم جند الاخوان وأقنعهم بالاستشهاد في سبيل إقامته ، ثم حاول جاهدا أن يقيمه بهم ، تماماً كما أراد محمد أسد ، وكما توقع هو وغيره من عبد العزيز .. ولم يخفق عبد العزيز أبداً في إدراك أهمية بناء المجتمع الاسلامي الصحيح ، ولا كان يرفض أن يعطيه هذا المجتمع ما أعطاه المجتمع القديم في عصر الخلفاء الراشدين ، من مجد وعزة وخلود للجزيرة العربية وأبطالها .. وما من واقعة واحدة ، وردت ولو على لسان عدو ، توحي بأنه شخصياً كان يتناقض مع هذا المجتمع المنشود .. ولا كان سبب الفشل ، أنه يفتقر إلى العظمة الداخلية ، إلا اذا كنا نعني بها تلك الصفات المطلوبة في « المهدي المنتظر » الذي سيحل لغز أبي الهول ويعيد لنا « إرم ذات العماد » التي لم يخلق مثلها في البلاد .

ومنذ ابن سعود ، بل وقبله بألف سنة ، وها نحن ندخل القرن الثاني منذ ولد عبد العزيز ، ومازلنا نفتقر جميعا بما فينا المؤلف الناقد لتلك العظمة الداخلية أو الخارجية التي تمكننا من اكتشاف السر في بناء المجتمع الاسلامي الصحيح .

أما خيبة الأمل المزدوجة ، فهي المأساة الناجمة عن الخطيئة الأولى ، أعني عجزنا جميعا عن ايجاد المعادلة الصحيحة التي يمكن أن تتم بها عملية البعث الاسلامي .

---

* والأدلة متوفرة على الاستيعاب في الاثنين ، من تفسيراته ومناقشاته ، وتحليلاته لأخطاء أسلافه ، والتعليق على تصرفاتهم مثل سعود الكبير وعبد الله بن فيصل . وإشارته إلى معاهدات ومواقف تكاد تكون مجهولة .

وسامح الله محمد أسد ، فقد ضن علينا وعلى عبد العزيز والاخوان والباكستانيين ، بالتعاليم التي يرى أنها كانت كافية لخلق هذا المجتمع ، وتطوير الاخوان ، فلا يضلون بعدها أبداً .. والتي يعتقد ــ خطأ وظلما ــ أن الملك « أوكى عليها » (كما في حديث علي عن أبي ذر رضي الله عنهما) أي كتمها عن الاخوان !

فلنؤجل حديث خيبة الأمل* ..

المهم أن جميع المعاصرين ، قد رأوا في حركة الاخوان ملامح هذا الحدث الأسطوري الذي تم في القرن الأول الهجري ، ورجوا له أو توجسوا منه أن يكرر نفس النتائج ، رغم علمهم بمدى الفارق الهائل في التكنولوجيا بين نجد وأوروبا في هذه المرحلة مما يؤكد قناعة الطرفين بصحة النظرية ، وهي قدرة الايمان على عبور فارق التقدم .

وإذا كنا نسلم مقدماً بالعجز عن تقديم الحل الذي كان يجب أن يتبع لتنجح التجربة ، إذ لو كنا نعلم الغيب ، لاستكثرنا من الخير ، أو لفتحنا نحن الكنز ، وركبنا الدواء الذي يشفي بنت السلطان .. ويقيم المجتمع الموعود . فلنقنع إذا بشرح كيف ولماذا فشلت التجربة ..

---

* وها هو قد غادر الساحة كلها واعتكف في طنجة ! فلماذا التجني على الذين اجتهدوا وجاهدوا وإن اختلفوا فقد كان خلافهم في ساحة العمل وليس في برج التأمل !

كما كانت فكرة الاخوان من عبقرية عبد العزيز وحده ، فان تصفيتهم كانت مهمة مستحيلة إلا على عبد العزيز .. أو كما قيل « من يحضر الجان يعرف كيف يصرفه » . وكما كانت الظاهرة محيرة ، وفوق قدرة التفسير بالمنطق العادي .. فان انشقاق الحركة ، وتمردها ، ثم انهيارها السريع ، عسير على الفهم ، يفوق القدرة على التفسير ، إذا ما استعان المفسر بالمنطق الجاري ، والروايات التي تستظرف الأخبار ، أو تتجنب المواجهة الموضوعية ، أو محاولة البحث عن أسباب في نقص خلقي ، أو سوء نية في أحد الطرفين أو هما معا .. مع أن قناعتنا هي أنه ما من طرف في القضية يستحق الادانة بمسئولية ما حدث ! أو تسيء الحقيقة إليه .. بل كل مضى إلى مصيره المحتوم ، وكل لعب الدور الذي يفترض فيه أن يلعبه ، ويتوقع منه ..

وليس ما جرى في السعودية هو الأول من نوعه ، ولا كان الأخير .. وفي صدر الاسلام ، اضطر رئيس الدولة الى عزل قائد الجيش سيف الله المسلول الذي لم يهزم قط ، ولا حتى في أحد ! وإذا كان الأمر لم يحتج وقتها إلى معركة ، ولا إجراءات أمن خاصة ، فلأن السلطان كان عمر بن الخطاب ، والقائد خالد بن الوليد والجند صحابة رسول الله . وهيهات أن يتكرروا . كذلك تقاتل المسلمون الأوائل قبل مرور ثلاثين عاما على هجرتهم ! وقال شاعر الأمويين : واللؤم تحت عمائم الأنصار قبل أن ينقرض جيل الأنصار .

وكل الجيوش التي كانت لها مهمة سياسية من خلال تربية عقائدية ، لابد عقب النصر من دخولها في مواجهة مع القيادة المدنية ، فاما أن يتولى العسكر السلطة ، ويصبح الجيش هو الطريق إلى الحكم . أو تصفي القيادة السياسية ، العسكر المنتصر .. حدث ذلك في الصين وفي اسرائيل وفي جيش التحرير الجزائري وفي روسيا .. وقبل ذلك في السعودية ..

وفي كل الثورات ، فان الخلاف يبدأ عندما يصل الخط البياني إلى نقطة الذروة ، عندها يحدث الانشقاق ، ويبدأ الانفراج الذي يظل يتسع بانحداره من القمة إلى القاعدة حتى يتحول الى صدع .

والثورات التي تتصدع أو تموت بسبب انحرافات أو أخطاء كان يمكن تفاديها ، لا تشكل ظاهرة ، ولا تستحق اهتمام المنشغلين بفلسفة التاريخ . أما حركة عبد العزيز ، فقد فشلت بسبب الخلاف القدري أو المحتوم ، الذي لم يكن هناك من سبيل لتفاديه . ومن ثم تفرعت عنه كل الخلافات الأخرى ، التي قد تبدو للبعض أنها أهم ، ولكنها مجرد نتائج للسبب الحقيقي ، وهذا السبب الذي يشكل ـ كما قلنا أكثر من مرة ـ عقدة الحل الاسلامي ، ومن ثم يحتاج الى كل جهد وصبر وموضوعية في فهمه .

وقد أشرنا إليه في تجربة سعود الكبير ، عندما عجز عن الخروج من رحم الجزيرة العربية ، فاختنقت الدولة والثورة معا ، وقد أشار إليه . « غلوب » على سبيل السخرية والتشفي ، دون أن يفهم أبعاده بالطبع . فهي أعمق وأكثر تعقيداً من فهم هذا الجلف الذي لم تؤثر السنون على مستواه الثقافي أو فهمه للأحداث ، فظل يفكر في السبعينات بعقلية موظفي الامبراطورية في الهند ونيجيريا في العشرينات !

قال غلوب في تقرير أحداث ١٩٢٢ ـ ١٣٤١/٤٠ هـ : « أعتقد الاخوان أن مهمتهم هي إخضاع العالم للوهابية ، ولم يكن لديهم أي استعداد للوقوف عند حدود سياسية رسمها شخص على الخريطة ولذلك شرعوا في إدخال العراق في مملكة ابن سعود أو في دين الله كما فعلوا في حايل ! »

وقال فيلبي : « لو استطاع ابن سعود وخلفاؤه أن يقودوا سفينة الوهابية ، ببراعة ، ويتفادوا صخور السياسة ، فلربما استطاعوا أن يعيدوا الامبراطورية العربية ، ويملأوا الفراغ الذي أحدثه سقوط الترك[٦٢] . » ويضيف فيلبي إلى عوامل نجاح هذا الاحتمال « أنه لا توجد قوة شرقية يهمها أو قادرة على التدخل باسم الاسلام ضدهم كما حدث في المرة الأولى ، عندما استولى الوهابيون على مكة* »

وتوقع الريحاني انتهاء مهمة « الهجر » بتحقيقها الوحدة العربية : « السائرة البلاد نحوها . فهذه الوحدة ستضيق مجال الغزو ، ثم تزيله في النهاية تماما ، فلا يجد العرب إذذاك أعداء من العرب ، أو عرباً مشركين ، للغزو والجهاد فيهم[٦٣] » وتوقع كلايتون أنه لو سار ابن سعود والاخوان بالمعدلَ الذي حققوه حتى عام ١٩٢٧ (١٣٤٥/٤٦ هـ) لأعادوا « امبراطورية » العرب الأولى .

وعبد العزيز نفسه توقع : « لو وفق الله أبنائي ، كما وفقني فسيملكون مقدرات مائة مليون مسلم . » ..

فكل الأطراف كانت ترى أنّ مهمة وقدرة الاخوان أكبر من أن تحتويها الجزيرة ، فضلاً عن مملكة ابن سعود .

ولكن فيلبي وغلوب اتفقا على أن بريطانيا هي العقبة في وجه أي محاولة لتجاوز حدود مملكة ابن سعود .. قال فيلبي : « إن عبد العزيز يدرك تماماً أن بريطانيا هي العقبة الكؤود في وجه أية محاولة لاعادة روح الجهاد عبر الحدود » . وقال غلوب : « لولا الانتداب البريطاني لكان من الممكن أن يغزو ابن سعود العراق ، ويلقي به في الفوضى[٦٤] »

رأى ابن سعود أن طاقة جيله انتهت بتوحيد ما وحدته وأنه لا يستطيع محاربة بريطانيا في العراق والكويت وعدن .. الخ ربما لأن شعوب هذه البلاد لم تكن ناضجة للتحرير ... وهكذا اختلفت الدولة مع الثورة . وكان خلافا محتوما ، وخيار كل فريق

---

* هذا صحيح .. ولكن القوى الغربية كانت أكثر اهتماماً وأكثر فعالية في مقاومة البعث الوهابي الثاني .

كأنه القدر المكتوب ، أو الدراما الاغريقية .. ابن سعود أراد فترة بناء بعد حروب دامت ثلاثين عاما ، أراد إقامة دولة نموذج تكون قاعدة لكل النشاط الاسلامي ، سواء باحتضان الثائرين أو بدعمهم بالمال والسلاح وربما المتطوعين ولكن دون اللجؤ الى الفتح أو الاصطدام المباشر مع بريطانيا وفرنسا .

الاخوان اختاروا الثورة ، وما كان لهم أن يختاروا غيرها ، بحكم تربيتهم وعقيدتهم وتكوينهم كمؤسسة عسكرية . اختاروا استمرار الثورة ، استمرار تحرير الوطن الاسلامي من حولهم .. وهل يمكن القول بأن الاخوان أرادوا استمرار الثورة ، حتى ولو كان الثمن تعريض الدولة السعودية للخطر أم الأحرى القول بأنهم رأوا أنه لا معنى ولا إمكانية لاستمرار « السعودية » إذا لم تستمر الثورة ، فليست القصيم بأعز على الاسلام من بغداد ودمشق والقاهرة ؟!.. وأنه إذا ما انحصرت الثورة في الدولة السعودية ، جفت الدولة ، وذوت الثورة في الصحراء ، كما حدث في تجربة سعود الكبير . ويمكن القول إنهم كانوا على حق نظريا ، فقد كانت سنوات جفاف شديد ومن الناحية العلمية لم يكن للدولة من موارد إلا الفتح ، أو التساهل وقبول المكوس حتى على الدخان . ولولا مصادفة جيولوجية ما كانت في حسبان أحد وهو ظهور النفط لذوت الدولة .. فهي ضربة حظ جعلت ابن سعود يربح المراهنة ، وأيضاً كان « الاخوان » يعتقدون أنهم لو اتخذوا خطة الدفاع فلن يتركهم المشركون ، بل سيزحفون عليهم كما فعلوا مع التجربة الوهابية الأولى ، فكان شعارهم « أغزوهم قبل أن يغزوكم » .

عبد العزيز اختار الدولة ، وما كان له أن يختار غيرها ، لأنه لا الظروف الموضوعية ، ولا الذاتية ، كانت تسمح له بتصور انتصار اسلامي عالمي ، أو تهاوي بريطانيا وفرنسا كما تهاوت امبراطوريتي الروم والفرس* . فاختار بناء المجتمع الاسلامي في بلد واحد ، ليكون نموذجا وحافزاً ، لتجدد الثورة ، وانتشارها ، عندما تأتي اللحظة المناسبة . ومن ثم كان عليه أن يعترف بالحدود ، والكيانات ، والسيادات ، لأنه لا يملك القدرة على إزالتها ، ولأن استمرار الثورة ، يعرض « حصن الاسلام » للخطر ، بل للزوال ! ولأنه بدأ رجل دولة ، فاذا كانت « العظمة الداخلية » المطلوبة هي تلك التي أقنعت عرب الجزيرة الأوائل بفتح العالم بالقرآن ، فاننا جميعا نفتقر إلى هذه العظمة ، ونسأل الله أن ينعم بها علينا أو على جيل من بعدنا .

الخلاف في جميع الثورات هو :

الثورة الدائمة .. أم بناء دولة الثورة ؟! ولا أستطيع أن أتذكر حالة واحدة انتصر فيها تيار الثورة الدائمة .. وبقيت الثورة أو الدولة ..! فاذا شئنا أن نجلس في مقاعد

---

* وهذا واضح عندما قال له كلايتون إنه لو استمر له الفتح بنفس المعدل فقد يقيم امبراطورية مثل الامبراطورية البريطانية فكان رد عبد العزيز « هذه وإن كانت أمنية العرب ، ولكنني لا أعتقد في نفسي القدرة على تحقيق ذلك » .

القضاة ، فيمكننا القول إن رأي الاخوان كان يعني ضياع الدولة والثورة معا .. أما موقف عبد العزيز فكان المتفق مع كل الخيارات التي سبقته وان كانت التطورات حالت دون تنفيذ ما أراده .

هذا هو الخلاف الأساسي .. أما كيف تفجر عند السطح وما هي الأشكال التي اتخذها ؛قد تكون أقل أهمية ولكنها جديرة بالدراسة والتسجيل ..

نجم الخلاف تحت أسوار جدة ، والحق أنه منذ أن دخل « الاخوان » الحجاز تفجر التناقض ، وبدأت الأزمة ، فطالما ظلوا شرق الحجاز ، لم يكن هناك فارق أساسي في أسلوب الحياة بينهم وبين « المشركين » ، ولكن في الحجاز ، تتجمع شتى الحضارات والثقافات والتقاليد من مختلف المجتمعات الاسلامية ، فبدأ التنافر على الفور بين البدو المسلمين المتطهرين الذين يريدون الاسلام في أكثر صوره تجريداً ، ويرون في أبسط الطقوس مظهراً من مظاهر الوثنية ، وبين المجتمع الحجازي المدني ، الشديد الاهتمام بالطقوس ، مع ما يبدو من عدم اهتمام أو حتى لا مبالاة أو عدم تقدير لعظمة المكان الذي يعيشون فيه ، والذي يسافر إليه الحاج من جاوة أو نجد في لهفة وشوق وافتتان لرؤية المشاعر ، فيصدم بأن مطوفه المكي لا يكاد يلقي نظرة على المسجد الحرام ، أو الكعبة ، وقل أن يشرب من زمزم ، (اذ يستحيل عليه أن يشرب مع كل حاج طبعاً) وقد كان هذا الحاج يغبط هؤلاء السعداء الذين يعيشون بجانب هذه المشاعر ، ويتمنى — وكثيراً ما يفعل — أن يجاور ما بقي من عمره ، ليفجع بأن هؤلاء المحظوظين لا يقدرون النعمة التي هم فيها ، بل ويبنون بيوتهم خارج الحرمين ، ليتجنبوا ازدحام الحجاج ! والقادم من الخارج ، يتوقع ، من أهل الحرمين والحجاز عموما ، سلوك أولياء الله الصالحين ، حديثهم تلاوة وذكر ، وحياتهم عبادة وزهد في الدنيا ... وبيعهم وشراؤهم ، كما في الأسطورة ، بالصلاة على النبي ، وليس بالريالات .. ! ومن ثم يصدم عندما يكتشف اهتمامهم بشئون الحياة ، بل وتكسبهم من المناسك ، وهو سلوك طبيعي ، معروف عن كل الذين يعيشون حول الأماكن المقدسة في كل الديانات ، فهذه هي حياتهم ومصدر رزقهم بل يعتبرون أن الله اكرمهم بهذه المناسك ليتعيشوا منها .. وإن كان إيمانهم لا يقل عن الحاج .. إلا أنهم يعيشون دنياهم حولها ، وهو جاء ليبدأ آخرته ..

جاء الاخوان بشعور الحاج مضاعفاً الآف المرات ، فهم المهاجرون والأنصار معاً ! وهؤلاء قريش وأحابيشها ، يمارسون الشرك ويرتكبون المنكرات في البلد الحرام . وقد اضطر ابن سعود للتدخل أكثر من مرة ليمنع الاخوان من التعبير — بأساليبهم — عن سخطهم على أهل مكة . واستطاع الحكم السعودي أن يطمئن المكيين والحجازيين ، بل والمسلمين عموما ، بتدخله للحد من تشدد الاخوان ، ولكن على حساب علاقته مع هؤلاء ، بل استطاع الحجازيون بخبرة أهل المدن أن يدقوا إسفيناً بين الثورة والدولة ابتداء من طلبهم التسليم لأمير سعودي وليس لقائد اخواني ، معلنين بذلك ثقتهم

وقبولهم للدولة ، وشكهم في الثورة أور رفضهم لها* ..

وظهر الخلاف على السطح تحت أسوار جدة . عندما فرضت سياسة « الدولة » والمستشارين ، اختيار الحصار والمفاوضة ، بدلا من اقتحام البلد باعصار الاخوان ، الذي كان قادراً ومتحفزاً ، ونافذ الصبر لتنفيذ هذا الاجتياح ، ولعل الاخوان ، أو قياداتهم ، كانت تخشى أن تتكرر غلطة سعود الكبير ، عندما تباطأ في غزو جدة ، والسيطرة على الساحل ، فكانت ثغرة خطيرة . ولعل الاخوان كانوا قد سمعوا بمحاولات بعض أعيان جدة في الحصول على الانتداب البريطاني أو الحماية . وقد سجل الريحاني اجتماع ٤ جمادى الثانية ١٣٤٣ ــ ٣٠ ديسمبر ١٩٢٤ . الذي طالب فيه زعماء الاخوان بالهجوم على جدة . وتجرأوا على مخاطبة عبد العزيز بألفاظ قاسية وهو في قمة نصره :

قال الريحاني : « وعقد في الشهداء مجلس حربي (٤ جمادى الثانية ١٣٤٣) حضره جمع من القواد والاخوان : فتكلم أبو حميد ابن بجاد مخاطبا الامام عبد العزيز :

« إننا نعلم أن لا صلاح في أمر دين ودنيا للمسلمين عموما ، ولهذا البيت وأهله خصوصاً ، بوجود الحسين وأولاده في الحجاز . فاذا كان هذا ثابتاً عندنا ، ونعتقده دينا ، فما المانع من الزحف عليهم وقتالهم ؟ فان كنت تخاف على أحد من رعايا الأجانب أو أحد من أهل جدة ، فلك منا العهد والميثاق أننا لا نمسهم بشر ، إلا من برز منهم لقتالنا أو بلانا بنفسه ، ونحن كما تعلم نتجنب ما تأمرنا بتجنبه .. والآن فلابد لنا من أحد أمرين : الأول أن تعلمنا الطريق الذي يجب أن نسير فيه ، ونحن نكفيك مؤونة الأمر .

الثاني : اذا كنت لا توافق في الزحف لما تراه من الأمور التي أنت أعلم بها منا ، فلا يجوز أن نظل بعيدين عن أعداء الله هذا البعد . بل يجب أن نقترب منهم ونضيق عليهم الخناق حتى يحكم الله بيننا وبينهم . أما الأمر الأول فهو مرادنا . وأما الثاني ، فليس الا مرضاة لخاطركم ياالامام . لأن الله أوجب علينا طاعتك . »

والانشقاقات تبدأ دائما بالمزايدة على القيادة السياسية ، وقد طرح خالد بن لؤى المزايدة بصريح العبارة ، فقال في نفس الاجتماع ، عندما تكلم بعد ابن بجاد :

« يا عبد العزيز إني أقول كلمة وان كانت تغيظك . كنا نتحدث فيما بيننا ونقول : قد بدل عبد العزيز الشجاعة بالجبانة . وكنا قبل قدومه نتمنى قدومه . أما اليوم فصرنا

---

* وكان ابن سعود يعرف مدى التناقض بين مفاهيم الاخوان ومسلكهم ، وبين الحياة في الحجاز ، وخاصة في جدة التي مازال بقايا هذا الجيل العجيب يسميها بلاد « الكفرية » أو الكفار . وقد ذكر « الصبان » أنه بعد انتهاء حرب اليمن التي كسبها الاخوان (المعتدلون ــ فقد كان ذلك بعد القضاء على الجناح المتشدد) تحت قيادة سعود وفيصل ، ناداه الملك وقال له : « أحضروا السيارات في جدة ، بمجرد وصول الاخوان والجيش ، من البحر ، انقلوهم في السيارات ، ولا بأس من أن يعتمروا ، واذا أدوا العمرة ، فعليهم أن يذهبوا حالا إلى بلادهم لئلا يكون منهم على المدن بعض ما لا يجسن[٦٥] » .

هذا عن المعتدلين وبعد ٤ سنوات من تحطيم الجناح المتطرف فما بالك بالمتشددين ؟!

نقول ، ليته ظل في بلده بعيداً عنا ، فان كان هناك دليل شرعي يؤخرنا عن القوم فبينه لنا حتى نتبعه ، وما نحن إلا خدام الشرع . وإذا كان لا قصد لك غير الشح بأنفسنا عن الموت فما من أحد يموت قبل يومه . وما نتمنى والله أن نموت إلا شهداء . فأي قتال تراه أفضل من قتال الحسين وأولاده ؟ وأي عمل جاء فيه الضرر للاسلام والمسلمين أكثر من عمل الحسين وأولاده . »

وخالد بن لؤى كما نعرف ، من الأشراف ، وتولى مفاوضة عبد العزيز ، وتبادلا الاعجاب في قضية سعد بن عبد الرحمن ، وعندما ستنشب الثورة المضادة بعد سنوات ، لن يشترك فيها خالد ، وهذه العناصر هي دائما الأكثر تطرفاً في المؤتمرات ! ولكن ابن بجاد وابن لؤى كان يعبران عن شعور « الاخوان » .. لماذا نتوقف عن إحراز نصر أكيد ..؟ لماذا المساومة .. لماذا نترك المجال لبقايا الأشراف يدعمون مواقفهم ؟.. والانجليز يستثمرون الموقف .

وحجة الاخوان وقتها ، أو على صفحات التاريخ ، هي أن حصار جدة ، قد أتاح الفرصة للانجليز للمساومة ، واقتطاع أجزاء كان يفترض أن تضم للوطن .. فلو تم الاجتياح العاصف ، وقد كان ممكناً ، لأسقط في يد الجميع ، ولا أتيحت فرصة للانجليز للتفاوض على حدود الأردن ، واقتطاع العقبة ومعان ... الخ .

وحجة الدولة .. أن دخول الاخوان ، ربما أدى إلى أحداث مشابهة لما جرى في الطائف ، والتي بالغت الدعاية المعادية في ترويجها واستغلالها ، وأخطر من ذلك : أن جدة بلد القناصل والجاليات الأجنبية ، ويزعم حافظ وهبة ، أن أحد مستشاري الملك استخدم حادثة قتل السردار في القاهرة ، والعقوبات البريطانية التي فرضت وقتها على مصر من إسقاط الوزارة المنتخبة وحل البرلمان ، وطرد مصر من السودان ، وزيادة المساحة المزروعة قطناً ! ونصف مليون جنيه ... الخ استغل المستشار هذه الحادثة ليروع عبد العزيز من مخاطر الاعتداء على حياة الاجانب . وربما كان عبد العزيز يخشى ــ وله الحق ــ من تدخل بريطاني أو أوروبي مشترك بحجة حماية الأرواح والممتلكات ، خاصة وأن الوفود كانت تتدفق من البلاد العربية والاسلامية وكلها ترفع شعار حقن الدماء ، والسوريون والفلسطينيون يثيرون العالم العربي لمنع سقوط جدة أو على الأقل أخذها بالسيف . وكان السلطان يعرف أن مصير الحرب قد حسم نهائياً ، فلماذا المخاطرة ، وتحدي العالم للاسلام والعرب ، وما عليه إن كبح جماح فرسانه وأخذ جدة بالمفاوضات ؟

وقد أضاف « محمد المانع » في كتابه « توحيد الجزيرة* » رواية جديدة عما جرى في حصار جدة : « سقطت المدينة في ديسمبر ١٩٢٥ ــ ١٣٤٤ هـ ، بينما لم يبد على « جدة » علامات التسليم وبدا للدويش أن ابن سعود في حاجة ماسة لدعمه . ولذلك فكر

---

* الصادر في ١٩٨٠ ــ ١٤٠٠ هـ

قائد الاخوان الماكر في استغلال الموقف لصالحه ، فذهب لمقابلة ابن بجاد الذي كان يعسكر خارج مكة في منطقة اسمها « المعابدة » حيث يعيش جزء من قبيلة عتيبة . وهناك اقترح على ابن بجاد أن يتقدما لابن سعود بطلب تعيينهما أميرين على مكة والمدينة على الترتيب ، مقابل استمرار دعمهما له في الحرب ضد الحجازيين . وقد وافق ابن بجاد على الفور على الاقتراح . ولم يبدد الرئيسان وقتا في طلب لقاء مع ابن سعود في خيمته بالرغامة* ، حيث طرحا اقتراحهما أمامه ، والذي رفض على الفور ، فحتى لو خسر دعم مطير وعتيبة فذلك أفضل من أن يعطي مثل هذين الرجلين الطموحين النفعيين* ، مراكز قوة في الحجاز ، لأن ذلك معناه زرع ثورة في المستقبل . وبمرارة انسحب القائدان بقواتهما على الفور إلى نجد ولم يساهما بعد ذلك بأي شيء في الصراع . » وعاد فكرر نفس القول : « بداية الثورة عندما رفض ابن سعود تعيين ابن بجاد والدويش حاكمين على مكة والمدينة . وانسحب الرجلان إلى قلب نجد وبدآ العمل على قلب[66] ابن سعود » . والانسحاب حقيقة ولكن كل ما نسجه سيادة المؤلف حول المطالب والتآمر لا أساس له . وإن كان الخلاف قد ظهر ، وقادة الاخوان أحسوا بتضخم حجمهم .

وقد روى حافظ وهبة واقعة أخرى من أحداث تلك الثورة التي كانت تتجمع خلال حصار جدة فقال إنه في أول عيد الفطر في مكة سنة ١٣٤٣ ــ ٢٥ ابريل ١٩٢٥ :

« زرت الشريف « خالد بن لؤى » أنا والدكتور عبد الله الدملوجي ، وكان لديه فيصل الدويش وجماعة من الاخوان ، اجتمعوا هنالك بعد صلاة العيد للمعايدة على بعضهم ، فخطب الحضور ، فيصل الدويش وهذه عادة من عادات الاخوان ، لا تخلو مجالسهم من نصيحة أو عظة . فقال مخاطباً خالدا وجماعته : « نحمد الله يا خالد ، ويا الاخوان .. على نعمته ، فقد دخلنا بلد الله الحرام ، وطردنا الشريف من هذا البيت . إننا جند الله وخدم دينه ، لا نريد إلا أن تكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر ، ولا نريد إلا رفع المظالم ، وإزالة البدع والمنكرات . وإن هذا السيف وهذا الجند سيعمل هذا العمل في كل من يسير في طريق الشريف ، ويعمل عمله . « فأمن الاخوان كلهم على كلامه » !

وعلق مستشار الملك : « فكان هذا في الحقيقة أول إنذار من أحد قادة الاخوان ، ولم تمض سنة على هذه الخطبة حتى سمعنا أن هناك مؤتمرا عقد في الأرطاويه حضره رؤساء الاخوان من مطير وعتيبة والعجمان ، تعاهدوا فيه على نصرة دين الله والجهاد في سبيله وأعلنوا اعتراضاتهم في ٨ نقاط هي :

ــ استخدام السيارات والتلغرافات والتليفون وهي من أعمال السحر .
ــ دخول المحمل المصري الى مكة مسلحاً .

---

* نفس الموقع الذي ذكره الريحاني .
** هكذا يصفهما مترجم أرامكو !!

ـ إرسال سعود إلى مصر وفيصل إلى لندن وهما من بلاد الشرك .
ـطلب تفسير لمنع التجارة مع الكويت . فان كانوا مسلمين تعاملنا معهم ، وإن كانوا مشركين حاربناهم .
ـ المكوس والضرائب في الحجاز ونجد والتشريعات الوضعية .
ـ لماذا السكوت عن شيعة الأحساء والقطيف والتغاضي عن إدخالهم في دين الجماعة .
ـ لماذا السماح لبادية العراق وشرق الأردن بالرعي في مراعي المسلمين ؟
ـ هدم القبور .

ولكن لنعد إلى أسوار جدة ، فسواء انسحب الدويش وابن بجاد ، أو بقيا فقد اتضح الخلاف بين رئيس الدولة ، وقادة الثورة .. ولم تكن قضية حصار جدة هي وحدها نقطة الخلاف ، بل بدأت تتجمع المياه خلف السد ، من تعدد اللقاءات بين عبد العزيز والانجليز ، التي انتهت بعقد معاهدة مع بريطانيا ، وتخطيط الحدود ، إلى المؤتمر الاسلامي ، حيث رأى الاخوان وفود مصر وايران تأتي لتقرير مصير الحجاز الذي فتحوه .. والدولة تلتقي بهم وتعاملهم كمسلمين ، وهم الذين احتجوا على سفر سعود إلى مصر للعلاج ، بل وسمعوا أن ملك مصر حفيد محمد علي هو الذي سيتولى الدعوة لهذا المؤتمر الذي سيقرر مصير الحجاز !! ورأوا المحمل يدخل « بعوايده المنكرة » ـ كما قال سعود الكبير ـ بالطبل والزمر والسلاح تحت سمع وبصر عبد العزيز ، فلما هجموا يحطمون الصنم الذي يعبده أتباع المقوقس* منعهم عبد العزيز ..!

وقد ساعدت المطالب « الجماهيرية** » والاشتباكات « العقائدية*** » على زيادة نفوذ القيادات الاخوانية ، وإملاء شروطهم على الملك ، فمنعوه من استخدام التلغراف خلال حرب الحجاز وفي أثناء حصار جدة لم يستطع الملك أن يمد التليفون من مكة الى معسكره ، واضطر عام ١٩٢٦م ـ ١٣٤٥/٤٤ هـ إلى إلغاء تلغراف المدينة ، وكان الاخوان يقطعون أسلاك التليفون لأنه منكر يجب إزالته ، وهذا يعني اتهام الدولة ، وتحديها**** ..

وكما كان قرار محاصرة جدة أول صدع بين الحركة والدولة ، فقد كان جمرك جدة

---

* حاكم مصر في زمن النبي صلوات الله عليه .
** مثل هدم القبور وفرض الاسلام على المخالفين .
*** حادثة المحمل .
**** ويبدو أن أنباء أخرى مثيرة وصلت للاخوان ، عن دخول مسيحيين في مكة ، وهم إن صحت الروايات الفنيون الذين مدوا أسلاك التليفون والتلغراف ، ولكن التقارير الأميركية ، بل حتى التقارير التي كتبها الريحاني إلى الأجهزة الأميركية للدفاع عن نظام ابن سعود ونفي تهمة التعصب عنه ، ركزت على هذا الوجود المسيحي واعتبرته ظاهرة تقدم . مع أن الثابت قطعاً أن الملك عبد العزيز رفض استقبال فيلبي والريحاني نفسه في مكة عندما جاءا أثناء الحصار بحجة الوساطة بين الملك علي وعبد العزيز ..

عندما استسلمت ، أول صدع بين الشعارات والممارسة . فقد أصدر الملك أمره بحرق الدخان الموجود في مخازن « جدة » « ولم يكن هناك ظل من الشك في جدية القرار . ولكن تجار التمباك قرروا أنه لا يأس مع الحياة ، فتوجهوا للملك الذي كما يقول فيلبي « فزع عندما أخبروه بأن مخازن جدة بها تمباك بمائة ألف جنيه » وهو فزع مفهوم ، من ملك أعطى امتياز نفط المنطقة الشرقية كلها بألفي جنيه فقط .. واستفظع الملك ومستشاروه أن يكبدوا رعاياهم في أول عهدهم خسارة هذا المبلغ ، فسمح لهم ببيعه على ألا يستوردوا غيره ، وبيعه يعني تدخينه ، فلما لان الجو ، تشجع التجار ، وهم موجهوا السياسة في كل زمان ومكان ، فتحدثوا عن إيرادات الحكومة من الدخان ، والضرائب المستحقة لحكومة الملك علي ، والتي أصبحت الآن من حق الامام ... وتبين أنها تشكل مورداً رئيسياً من موارد الدولة . لذلك أفتى بعضهم ، بأن الدخان مكروه ولكنه ليس من الكبائر[٦٧] » وشرب الدخان في جدة لتمويل الهجر في نجد .. أو لدعم ميزانية الدولة التي بناها راعي البعير « نوار » الذي كان كلما رأى الدخان في يد مشرك .. تلا : قل أعوذ برب الفلق !..

وقد حاول ابن سعود تطويق الثورة ، على طريقته ، بطرحها في نقاش مفتوح في مؤتمر دعا إليه في ٢٥ رجب ١٣٤٥ ـ يناير ١٩٢٧ وحضره كل زعماء الاخوان* ، ما عدا ابن بجاد وقد استمر الى ٨ شعبان . وكل التطورات التي وقعت حتى نشوب القتال تؤكد أن ابن سعود حاول بكل قواه منع هذا القتال وكسب الاخوان ، مما ينفي التفسيرات الساذجة والقصص البوليسية عن أنه انشأ الحركة ثم قرر تصفيتها !

ولعل حضور زعماء الاخوان كان له أثره في قرارات المؤتمر أو بالأحرى في الفتوى الصادرة عنه ، إذ تضمنت اقرار معظم المطالب تقريباً باستثناء اللاسلكي وحتى هذا تجنبت الفتوى إباحته ، بل قالت : « أما مسألة البرق ، وهي أمر حادث في آخر هذا الزمان ، ولا نص فيه ، ولا نعلم حقيقته ، فتوقفنا في مسألته » ؛

وقرروا

ـ هدم مسجد أبي رشيد وحمزة فورا .
ـ إلغاء كل القوانين الموجودة في الحجاز ، ولا يحكم إلا بالشرع .
ـ منع دخول المحمل المسجد الحرام ، ومنع دخول الحاج المصري بالسلاح في مكة .
ـ إلزام الرافضة بالبيعة على الاسلام ، ومنعهم من إظهار شعائر دينهم الباطل ،

ويحتمل أن هذه كانت إشاعات تروج عن قصد لاستفزاز الاخوان ويضاف إلى ذلك حادثة المبشرين اللذين اعتقلا وهما يحاولان التبشير في الحجاز .. والآخر الذي قتل على حدود الكويت ، والضجة التي أقامها الامريكيون والتقرير الذي أعده المبشر الأمريكي السيء السمعة الشديد العداوة للاسلام « زويمر » حول « القدسية المزعومة للحجاز » والذي أكد فيه ضرورة السماح بالتبشير في الحجاز ، وما قيل عن اشتراط الحكومة الأمريكية السماح بالتبشير مقابل الاعتراف بالنظام الجديد[٧م] .

* قال جون حبيب إن المؤتمر حضره ثلاثة آلاف عضو قيادي وقيادات الاخوان كلها بما فيهم الدويش وابن بجاد ... الخ ص ٢٢٤ .

وعلى الامام أن يلزم نائبه في الأحساء ، أن يحضرهم عند الشيخ ابن بشر[8]م ويبايعوه على دين الله ورسوله ، وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم وترك سائر البدع من اجتماعهم على مآتمهم وغيرها مما يقيمون به شعائر مذهبهم الباطل ويمنعون من زيارة المشاهد وكذلك يلزمون بالاجتماع على الصلوات الخمس هم ، وغيرهم ، في المساجد ، ويرتب فيهم أئمة ومؤذنون ونواب من أهل السنة . ويلزمون بتعليم الأصول ، وكذلك إن كان لهم محال مبنية لاقامة البدع تهدم ، ويمنعون من إقامة البدع في المساجد وغيرها . ومن أبى قبول ما ذكر ينفى من بلاد المسلمين . وأما الرافضة من أهل القطيف ، فيلزم الامام ـ أيده الله ـ الشيخ ابن بشر أن يسافر ويلزمهم بما ذكرنا .

ـ أما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين ، فأفتينا الأمام بكفهم عن الدخول في مراتع المسلمين وأرضهم .
ـ وأما المكوس ، فأفتينا بأنها من المحرمات الظاهرة ، فان تركها فهو الواجب عليه . وإن امتنع فلا يجوز شق عصا الطاعة ، والخروج عن طاعته من أجلها .
أما الجهاد فهو محول إلى نظر الامام ، وعليه أن يراعي ما هو الأصلح للاسلام والمسلمين ، على حسب ما تقتضيه الشريعة الغراء .

وقال وهبة إنه إزاء هذه الفتوى اضطر الملك إلى عدم قبول المحمل ، كما اضطر إلى هدم مسجد حمزة ، وتعطيل التلغراف واللاسلكي فعمل بذلك على تلافي الفتنة أو تأجيلها ، وعالجت الدولة قضية المكوس بالقول بأن الضرائب هي المصدر الوحيد للدخل . أما الشيعة فقد كان ابن جلوى هناك يحميهم بمنع « الاخوان » من ممارسة أي نشاط في إمارته ، بل كان يجبرهم على خلع عمامتهم ، وهي رمزهم ، اذا دخلوا الأحساء لأي سبب . »

واستناداً إلى فتوى منع رافضة العراق عن الدخول في مراتع المسلمين ، هجم الدويش على « مخفر البصية » في أكتوبر ١٩٢٧ ـ ١٣٤٦ هـ .

وكما هي العادة في كل الانقسامات الأيديولوجية ، اختلف الفريقيان في تفسير قرارات المؤتمر . فقال الجانب الملكي إن « أعظم ما أسفر عنه الاجتماع ، هو إبطال ما كان يدعيه الغلاة من حق الجهاد بغير إذن الامام ، وأصبح المخالف له حلال الدم والمال » . وصيغة الفتوى لا تسمح بهذا الادعاء بل قالت « حول إلى نظر الامام » وفي نفس الوقت قالت « منع رافضة العراق من الدخول في مراتع المسلمين » وقد استند إليها تفسير الثائرين بأنهم خولوا تنفيذ هذا المنع ، فهم أهل الثغور ... ومن ثم فقد زعموا أن « جهادهم » في العراق هو في إطار قرارات المؤتمر .. وبالجهاد « الشعبي » في العراق تفاقم الموقف ، ودخلت فيه قوى خارجية ، وحاول الملك تهدئة الموقف مرة أخرى كما يقول وهبة : « عقد الملك مؤتمر بريده في إبريل ١٩٢٨ ـ ١٣٤٦ هـ ـ لتهدئة ثائرة الاخوان ، وإفهامهم أنه يشاركهم الرأي في سخطه على بناء المخافر على الحدود ،

ولكنه يفضل حلها بالمفاوضات* » .

ولذلك اتفق على تأجيل مؤتمر بريده في انتظار نتيجة مفاوضاته مع الانجليز ، فلما فشلت هذه المفاوضات ؟** ودعا الى جمعية عمومية*** هي مؤتمر الرياض****الذي حضره ما بين ١٢ ألف و ١٦ ألف مندوب ، واختير للتحدث باسمهم ثمانمائة ولكنه لم يكن مؤتمراً حزبياً إذ اعتبر الاخوان إحدى الجماعات ، مثل التجار والعلماء وأهل المدن والبدو .. والاخوان وبذلك تجنب ابن سعود أن يطرح النزاع بينه وبين الاخوان وحدهم .

وقد قاطع زعماء الاخوان المؤتمر ، استناداً إلى أن مؤتمر الرياض فيه الكفاية ، وقد ثبت رفض الانجليز هدم المخافر وبالتالي أصبح على الامام أن يشن الجهاد أو ينتدب المسلمون أنفسهم للجهاد . أو ربما كانت المقاطعة تحت تأثير الانباء التي وصلت عن رفض الانجليز الاستجابة لمطالبه ، مما أعطى انطباعاً بأن مركزه ضعيف .

وقد ناب عن الدويش ابنه ، ولكن الصوت الاخواني في المؤتمر لم يكن ضعيفاً بأية حال ، وقد نشرت أم القرى ملخصاً وافياً برأي الاخوان ، وهو ما تحاشاه مؤرخو « ولا تقربوا الصلاة » فيما بعد .. رغم أن الحوار وحيويته وصراحته يشكل صفحة مشرفة للتجربة السعودية ، ولا نجد له مثيلا إلا في المؤتمرات الحزبية في أعرق الدول في العمل الجماهيري الثوري ، وهو على أية حال ظاهرة غريبة على العالم العربي ولا نذهب بعيداً إذا قلنا إنها لم تتكرر حتى اليوم .

قال ممثلو الاخوان في المؤتمر « إن مسألة القصور (الحصون) هي أهم المسائل وهم يسألون هل يجيز الدين إقامة حدود في بلاد كانت لهم ولآبائهم وأجدادهم مئات السنين ؟ وإذا كان الامام قد سمح للمسيحيين بتقسيم أراضي المسلمين بالحدود ، فكيف يسمح لهم بخرق ذات المعاهدة التي وقعها معهم حول بناء القصور على الآبار ؟! إن المرأة في خبائها تطالب بتفسير لهذا السكوت . وهم سامعون مطيعون للامام فيما يراه في هذا الأمر على شرط :

---

* ويقول جون حبيب إن « ابن سعود كان يحتج لدى البريطانيين على بناء المخافر ويبعث في نفس الوقت للاخوان يهددهم ويتوعدهم لأنهم يهاجمون هذه الحصون . ومرة أخرى يبعث للانجليز يهدئهم ويقبل احتجاجهم ويعد بضبط الاخوان ، بينما يرسل سراً يعبر للاخوان عن سروره بغاراتهم ويفسر هذا السلوك بأن عبد العزيز كان يريد الضغط على حكومة العراق دون التورط في مواجهة مع بريطانيا ، وتجنب انفجار الاخوان دون أن يطلق لهم الحبل على الغارب » ص ٢٢٨ وهذا تفسير صحيح .

** الاجتماع مع سير جلبرت كلايتون كان في جدة من ٧ مايو ١٩٢٨ إلى ١٧ مايو ١٩٢٨ (ذو القعدة ١٣٤٦ هـ)

*** كما سمتها أم القرى .

**** قال وهبه إنه إنعقد في ١٩ اكتوبر ١٩٢٨ (جماد أول ـ ١٣٤٧ هـ) وقال جون حبيب ٥ نوفمبر ١٩٢٨ (جماد ثاني ـ ١٣٤٧ هـ) بعد ساعتين من طلوع الفجر .

ـ أن تصدر فتوى من العلماء بأن سكوتهم عن هذا الأمر إن تسبب عنه ضرر للدين والمسلمين فذمتهم بريئة أمام الله .

ـ أن يتعهد الامام شخصياً بأنه لا أذى سيصل إليهم ولا لدينهم أو بلادهم نتيجة هذه القصور . فان لم يكن بوسعه التعهد بذلك ، فانهم ، باذن الله ، لن يسمحوا باستمرارها مادام في أخ واحد عرق ينبض أو نفس يتردد . لأننا نفضل أن نموت جميعاً عن أن نسكت على خطر يهدد ديننا أو بلادنا .

ـ أن يسمعوا تفسيراً من الامام عن الاسباب التي جعلته يمنع المسلمين من الجهاد ونشر كلمة الله ؟..

وقد طلب عبد العزيز المزيد من الأسئلة ، وكرر ذلك ثلاث مرات ، فردوا عليه بأنهم قد قالوا كل ما عندهم ..

وهنا قال ابن سعود إن الحصون قامت نتيجة لاعتداءات الاخوان ، والبريطانيون يتهمون الدويش وأتباعه بقتل رجال البوليس « وأنا عبد العزيز لم أفعل ذلك وهم يقولون إنهم بنوا القصور خوفا منكم » .

فتعالت الأصوات من المؤتمر تتبرأ من الدويش وتعلن الاستعداد لقتاله إذا ما تعهد عبد العزيز بأمرين :

أ ـ هدم المخافر التي لا مساومة فيها ، والتي تزداد قوة كل يوم « إننا نقولها ، صراحة .. إن ديننا وحياتنا في خطر ، والانكليز هم البادئون بالشر » .

ب ـ أن لا يتدخل الانكليز بينهم وبين من يريدون معاقبته مثل يوسف السعدون العراقي .

وفي ظل هذا المناخ « الوطني » و« الجهادي » الذي أثاره الاخوان ، أفتى العلماء بأن « القصور تشكل خطرا على المسلمين ، وبالذات مسلمي نجد ، وأن الامام مطالب ببذل كل ما في طاقته لازالتها ، وأن هذا الجهد ليس جهاداً ، بل دفاعاً عن الدين » .

ومعروف أن الفتاوى السابقة ، جعلت « الجهاد » من حق الامام وحده ، أما الدفاع ففرض عين على كل مسلم . وهذه الفتوى بالطبع برأت موقف الاخوان من شق عصا الطاعة ، بل جعلت غاراتهم على الحصون دفاعا عن الاسلام وبيضة الاسلام . ولا تحتاج لاذن الامام . ولعل هذه هي القاعدة الشرعية التي استند اليها الاخوان فيما بعد في هجومهم وغزواتهم ضد العراق والكويت ، وهي أيضاً التي جعلت ابن سعود يمتنع عن قتالهم ، بسبب هذه الهجمات وينتظر حتى تحركوا خارج دائرة الفتوى ، وقتلوا المسلمين من أهل القصيم .

هذه الفتوى كانت أيضاً انتصاراً كبيراً للاخوان في هذا المؤتمر ، ولذا كان من الطبيعي أن يقفوا هاتفين « الله أكبر .. هل سمعت يا الامام ما قاله العلماء .. نسألك بالله أن تقول رأيك فيما قاله العلماء » !

وقد تبين أن الجو كله ضد الانجليز وضد هذه المخافر .. وقد رد عبد العزيز : « أقول بأن ما قاله العلماء صحيح ، وأعاهدكم على أن أعالج هذا الأمر . أما عن

موضوع الجهاد فأريد أن أتحدث فيه في مختصر .. »

وطلب من الحاضرين اختيار خمسين شخصا ليخبرهم برأيه في موضوع الجهاد وعندها يمكن أن يصلوا إلى قرارات لمعالجة القضية* »

وختم كلمته قائلا : « أقول لكم جميعاً إنه لا حياة لنا إلا بالاسلام الذي يضمن حقنا الكامل في الدفاع عن حقوقنا ، فاما النصر أو الشهادة دفاعا عن ديننا وأمتنا وألزم نفسي بذلك أمام الله » .

ولا مصادر متاحة عما قاله عبد العزيز في الاجتماع الضيق للقيادات ، ولكن من الواضح أن المؤتمر تمخض عن اتجاهين ..

ـ الاتجاه الاخواني العام وهؤلاء هم الذين سمعوا فتوى العلماء وسمعوا تعهد ابن سعود بازالة المخافر** ، ومن ثم استمروا في قناعتهم بصوابية موقفهم ، واستأنفوا الهجوم ثم التمرد .

ـ اتجاه الاغلبية من غير الاخوان وبعض قيادات الاخوان التي اقتنعت بتفسيرات عبد العزيز ، والتي رأت أن الالتفاف حول الامام أضمن لمصالح الدين والأمة .

ويروي محمد المانع جوا غريباً ، لم تشر إليه المصادر الأخرى ، ساد الرياض خلال تلك الفترة ، حيث سيطر « الاخوان » على الشارع ، وعزلوا السلطة الرسمية فيقول : « لم يكن الاخوان على استعداد للمساومة ، وحول ابن بجاد اسمه إلى سلطان الدين ، ومشى أتباعه في شوارع الرياض يتباهون : قام سلطان جديد في سبيل العقيدة ، مما صدم مشاعر أهل المدينة ، وجعلهم يقولون لهم « أنتم تدعون أنكم مسلمون مؤمنون ، ولكن الاسلام ينهي عن الكبرياء ، فكان يرددون : المسلم القوي خير من المسلم الضعيف » .

« لم يكن من غير المألوف رؤية جماعات كبيرة من الاخوان المسلحين داخل وخارج الرياض يستعرضون علناً قوتهم ، وعدم اعترافهم بسلطة الملك ، وأصبح نفوذهم يحسه كل فرد في المملكة في حياته الخاصة ، حتى رئيس الديوان نفسه جلد علناً بواسطة الاخوان لمجرد الشك في أنه لم يحضر صلاة الجماعة*** . وكانت جماعات الاخوان تطوف في الشوارع كبوليس ديني ذاتي ، ويضربون أي شخص لا يخضع لتعاليمهم . أما هم فكانوا مضرب المثل في التقشف ، وتجنب أية ملذات ، أو متع ، مهما كانت تافهة . ولا يلبسون إلا الخشن من الثياب ، ويحرمون الذهب والمجوهرات ،

---

* أم القرى العدد رقم ٢٠٨ .

** جاء في تقرير المقيم البريطاني بالكويت أن ابن سعود أكد في هذا المؤتمر للاخوان «بأنه إذا لم يستطع إزالة الحصون العراقية بالمفاوضات فسيقودهم في هجومهم على العراق » ١٩٢٨/١٢/١٤ (رجب ١٣٤٧ هـ) من كتاب كرستين .

*** قال مصدر آخر إنهم أرادوا حتى جلد الزعيم الاسلامي والثوري الكبير السيد أحمد السنوسي لأنه اعترض على هدم قبر السيدة خديجة . ولكن الملك منعهم .

حتى خيوط الذهب في العباءة كانوا يقصونها » ثم روى حكاية قص الدويش لثوب عبد العزيز لأنه جاوز الكعبين . وبالطبع كان للحادثة أثرها الدعائي عن تقوى الدويش ، و « رفاهية » ابن سعود أو الملك ، وشجاعة الدويش في قول الحق عند إمام طال ثوبه حتى جاوز الكعبين ، وما جاوز الكعبين في النار !!

وبينما كان الطرفان .. الاخوان والدولة يندفعان بقوة الاحداث والفعل ورد الفعل ، إلى الصدام ، دون تخطيط أو تصميم ، بل لعل المخلصين في الجانبين كانوا يرجون تفادي هذا الصدام ، والطيبون كانوا يظنون أنه مدبر ومفتعل بين الملك ورفاق السلاح لكي يخدعوا الانجليز ، كان هؤلاء ـ أي الانجليز ـ يتوقعون هذا التطور ، ويسعون إليه ، بل ويتعجلونه . لأن الانجليز يقرأون التاريخ ويدرسون الاسلام ، ويعرفون أن تلك الطاقة الجبارة التي فجرها عبد العزيز ، والتي تحولت إلى هذا الجيش « فوق البشري » لا يمكن أن تتوقف عند حدود مملكته ، بل ستعتبر هذه المملكة ، مجرد نقطة انطلاق أو قاعدة لنشر الاسلام وتحرير المسلمين الذين تخضع غالبيتهم العظمى لحكم بريطانيا .. **خاصة وأن موجة الآمال التي أثارتها حركتهم في العالم العربي ، بل والاسلامي ، كانت تغري بالتحرك ، وتستصرخ السعوديين لمواصلة الجهاد وتحرير المسلمين ، بعد أن سقطت كل الرايات ، وارتفعت راية السعوديين وحدها . بعدما جربت كل النظريات والشعارات والمعادلات ، فانتهت بالحماية والانتداب .. وانفرد السعوديون بالاستقلال ، فكانوا أول دولة عربية كاملة الاستقلال ، وأصبح في مقدمة مسئولياتها تحرير الأشقاء .**

كانت بريطانيا تعرف أنه مادامت قوة الاخوان قائمة وملتفة حول ابن سعود فانها لن تستطيع حكم العراق ، وقهر الحركة الوطنية فيه ، مستعينة بملك مستورد ، توجته امرأة انكليزية على صندوق بيرة .. ولا قهر الاسلام في أرض العباسيين ، حيث استشهد الحسين سيد شباب أهل الجنة : ولا كان في وسع بريطانيا أن تستمر في إذلال مشيخات وسلطنات الخليج من الكويت إلى لحج .. إذا ما ظلت سيوف السعوديين مستعدة للجهاد ومنح العزة للمؤمنين . ويقول ج . هـ . جانس في كتابه « الاسلام الحركي » إن الثورة الوطنية التي اجتاحت العراق بعد فرض الانتداب عليه ، كانت لها دوافعها الاسلامية ، وإرشاداتها ، وبين قياداتها كان رجال الدين الشيعة في النجف وكربلاء الذين نشروا فتوى بفرض الجهاد على المسلمين . وقد كتب أحد البريطانيين المعاصرين لأحداث هذه الثورة يقول : « لو توفر قادة مقدامون لتوجيه وتنظيم هؤلاء الثوار الجيدي التسلح وإثارة تعصبهم لخضع العراق لسيطرة عصبة من المتعصبين لا يقلون ضراوة عن الوهابيين . »

بل ويذهب فيلبي وغيره إلى أن العراقيين ، بعدما جربوا الاحتلال البريطاني وعملائه الأشراف ، حنوا لأيام الترك ، ولم يكن إخضاع الثورة المصرية وضرب ثورة العراق ، إلا مزيداً من التأكيد على أن الحل الوهابي هو الحل الوحيد الناجح .. وأصبحت ضربات فيصل الدويش على حدود العراق والأردن حيث بريطانيا العظمى تحكم وتحرس

المخافر ، وتقاتل ، أسطورة يتناقل المجاهدون أخبارها من طرابلس الغرب إلى الهند *. وقد بدأ بعض مشايخ القبائل المحسوبة على العراق بالانضمام إلى « الاخوان » فتدين شيخ الضفير ، ولبس العمامة ، واستنجد بالاخوان في صيف سنة ١٩٢٣ ـ ١٣٤١ هـ فهاجموا العراق[٦٨] ، وفتكوا بالسعدون الذي كان الملك فيصل قد عينه قائداً للجبهة الجنوبية** . »

شكل الانجليز في العراق وحدة مخابرات خاصة للاخوان ، ساهمت بدون شك في صنع الفتنة ، فالمخابرات البريطانية لم تكن تقتصر نشاطها على جمع المعلومات عن الأحداث ، بل كانت تصنعها . و « غلوب » الذي عين ـ كما يفخر ـ مسئولا عن « وحدة المخابرات الخاصة بالدفاع ضد الاخوان » في أكتوبر ١٩٢٤ ـ ربيع أول ١٣٤٣ يقول « إن مهمته بدأت بالاتصال بالقبائل لكسب ثقتها[٦٩] »

ولكن قبل أن ننتقل إلى دور الانجليز نقف لحظة عند تهمة الدوافع الشخصية لزعماء الاخوان .. فجميع المصادر ركزت على غضب الدويش وابن بجاد من استثنائهما من التعيينات بعد فتح الحجاز .. وقد سمعنا رواية بن مانع وحافظ وهبة وبقي أن نسمع رواية محمد أسد أو بالأصح فلسفته !

فقد تحدث عن أسباب الثورة ، فأشار إلى « إهمال ابن سعود لقيادات المجاهدين ، عندما جاء الدور في توزيع المناصب ، إذ اختص البيت المالك بالامارة ، كما هو العرف في الجزيرة وبعكس آل الشيخ ، الذين اعتبروا الامارة حقا مشروعاً للبيت السعودي ، لا ينازعون فيه . فان رؤساء قبائل ومقاتلين من طراز ابن بجاد وابن الدويش ، لم يكن من السهل إقناعهم ، بأن الوضع الطبيعي ،أو الأصح إسلامياً (!) أن يفتح الدويش مدينة حايل « فيعين الملك عليها « ابن مساعد » ابن عمه . ويحاصر الدويش المدينة ويجبرها على التسليم ، ولكنه لم يكن هو الذي عين أميراً عليها » ويقول : « إنه لم يعرف طعم الراحة بسبب عدم تحقق رغبته الملحة الجامحة في الحكم . وقال في ذات نفسه : إذا كان ابن سعود من قبيلة عنزة ، فأنا من قبيلة مطير ، فنحن متساوون في شرف المحتد ، فلماذا أعترف أنا بسلطة ابن سعود .. مثل هذا التفكير كان ومايزال لعنة التاريخ العربي ، فليس من أحد يقر بأن هناك من يفضله »[٧٠] . وهو ينسب نفس التفكير لان بجاد[٩]م (الذي تلقب بسلطان الدين ، ليكون

---

* تأمل اقتداء مصر بالسعودية ، ففي عام ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩/١٣٤٦ ـ ١٣٤٧ هـ بدأ حسن البنا حركة « الاخوان المسلمين » بنفس التفكير ولكن مع خلافات أشرنا إليها . وفي سيناء حاول بعض الشباب العرب بناء « هجرة » . وجاء في تقرير القنصل الأمريكي في بغداد « أن المعلومات المتوفرة تفيد أن سلطان الدويش زعيم الاخوان المتمردين ينوي بعد الانتهاء من ابن سعود توجيه قواته إلى فلسطين . وقد سمعت من ضابط في سلاح الطيران البريطاني أن الدويش سيحاول نصر القضية العربية في فلسطين » روبرت برون ٥ ـ ١٠ ـ ١٩٢٩/.جماد أول ١٣٤٨ هـ .

** بل حتى في الكويت انتشر لبس العمامة ، وإن كانت التقارير البريطانية قالت إنه « عن خوف وليس عن تدين » .

أعظم من سلطان الدنيا سلطان نجد) .

غفر الله لمحمد أسد .. فلا أحد يعلم إلا الله ما قال فيصل الدويش « لذات نفسه* » وما من أساس ، ولا واقعة تجعلنا نصدق أن الدويش كان يرى نفسه مساوياً لعبد العزيز بالمقاييس الجاهلية ، فهذا ابن الملوك لسابع جد كما يقولون ، وفيصل سواء أصدقت التشنيعة بأنه ابن الشقحاء أو لم تصدق لا يمكن أن يعتبر نفسه مساويا لكبير البيت السعودي ، وقد قبل قيادته وإمامته .. ولكن ابن الدويش قد يعتبر نفسه ندا ، بل وأفضل من عبد العزيز بالمقاييس الاسلامية ، ليس لعبد العزيز من فضل عليه إلا بحقوق الامامة ، فان لم يقم بحقها فالدويش أفضل وليس أبدا على أساس مطير١٠م وعنيزة ! .. أما أن زعماء الاخوان انتقدوا تقريب الملك لأهل بيته ، وخصهم بالمناصب ، فقد نقم من هم خير منهم ، على من هو أفضل من عبد العزيز ، الصحابة في عهد عثمان ، والطرفان نسبا موقفهما للصالح العام وليس لأهداف شخصية ، وكانت لعثمان وجهة نظره ، في من ولاهم ، ويمكن القول : إنه قد ثبتت صحتها ، عندما سادت الفوضى في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم استقر الأمر لما تولاه الذين عينهم هو . وحقيقة اختلاف المسلمين حول سياسة عثمان ، قبل انقضاء ربع قرن على الهجرة ، تؤكد أن خلاف السعوديين ، لم يكن ظاهرة شاذة ، ولا تشين أي طرف من أطرافها .. ومهما تكن دوافع الدويش وأصحابه** ، فقد رأوا ــ عن حق ــ أن وقف الجهاد ينهي دورهم ، الروحي ، والسياسي ، والعسكري ، والشخصي .. وهم يربطون بين وقف الجهاد ، واستئثار القيادة « بمكاسب » جهادهم .

وكل الثورات التي تتحول إلى نظم ، يصبح عليها تصفية قيادة جيش التحرير ، وكل قادة جيوش التحرير تبدأ متاعبهم فور تحقق الهدف واستقرار السلام ، والدخول في مرحلة العلاقات العادية مع العالم ، بل وحتى مع خصوم الأمس ، وبينما ترى الدولة أن التعامل مع هؤلاء الأعداء القدامى ، هو نوع من الاعتراف بشرعية النظام الثوري وتأكيد انتصاره . فالصين مثلا ، أكثر سعادة باعتراف الولايات المتحدة واليابان والتعامل معهما ، منها بالتأييد الأخوي من كمبوديا وألبانيا !.. والجزائر اعتبرت استقلالها قد تم بتبادل السفراء مع فرنسا ، ورفع العلم الجزائري فوق السفارة الجزائرية في باريس ، بل لعل الجزائريين كانوا أكثر زهوا برفع العلم الفرنسي على « سفارة » فرنسا في الجزائر ..!

كذلك كان موقف الدولة السعودية من التعامل مع الأشراف الحاكمين في العراق

---

* قلنا مرة إن معظم الكتابات عن التجربة السعودية إتخذت شكل سيناريو !

** ونحن لا ننكر عنصر « البغلات البيض » فقد روى أن زوجة عبد الله بن عمر طلبت منه أن ينصر ابن الزبير الذي يقاتل الخليفة نصرة للدين ، فرد عليها .. هل رأيت البغلات البيض التي حج عليها معاوية ؟ والله ما يقاتل ابن الزبير إلا عليها » ...

لا ننكر الدافع الشخصي ، ولكن هذا لا يعني إهمال الموقف الأيديولوجي للمتصارعين .

والأردن ، ومع الانجليز من فوقهم .. ليس عن تغير في النظرة إليهم ، بل لأن هذا التعامل يشكل اعترافاً من هؤلاء بمكاسب الثورة الاسلامية . أما « قدامـى » المجاهدين ، فهم يرون في هذا التعامل خيانة لدم الشهداء ، وللثورة والجهاد ، ولا ينتبهون إلى كلمة « قدامى » التي أصبحت تلحق بلقبهم دلالة على أن عهدهم قد ولى ، وولى معه فكرهم ومكانتهم .

وبناء الدولة يحتاج لكفاءات تختلف تماماً عن مواصفات « المجاهدين » كفاءات توجد في الذين كانوا يديرون « الدولة » التي سقطت !.. وإذا كان الصحابة والتابعون قد روعوا عندما رأوا من ذمهم القرآن واهدر النبي دمهم ، يتولون الامارة على الذين قاتلوهم حتى أدخلوهم في الاسلام ! فمن السهل أن نفهم نفسية الاخوان . ولكن الناقمين ينسون أن بناء الدولة يتطلب إنهاء ذكريات مرحلة الثورة وخلافاتها ...

ومن ثم لا يبقى أمام قدامى المجاهدين .. لكي يستمروا على مسرح الأحداث ، إلا الاستمرار في الجهاد ، أو إطلاق الصيحة باتهام القيادة بخيانة الثورة .. وقد اختار الاخوان ، استئناف الجهاد ضد الأشراف الخاضعين لحماية الكفار الانكليز بالهجوم على الأردن والعراق . ويمكن القول إنهم أرادوا جر عبد العزيز إلى الجهاد ، وليس كما يقول مترجم الديوان الملكي « كان الاخوان يأملون بأن تصدق السلطات البريطانية في العراق والأردن أن هذه الغارات موجهة من ابن سعود نفسه ومن ثم تتخذ إجراءات لخلعه[٧١] » . فهذا التفكير الشديد التآمر لم يعرف عن الاخوان ، فضلا عن أنه لا يستقيم مع السذاجة الواضحة في مثل هذا المخطط ، لأن قلب ابن سعود لن يتم الا على جثة الاخوان .. أو هل نتهم الأخوان بأنهم كانو يخططون للتعاون مع الانجليز في قلبه ؟!..

لو زحف الانجليز لقلب ابن سعود لكان موقف الاخوان هو نفس موقف معاوية عندما كتب إليه ملك الروم يعرض عليه مساعدته ضد علي بن أبي طالب . فقال له إنه إذا كرر ذلك « فسآتيك بجيش من قبله ، فأملكه ما تحت قدميك » . ولو تدخل الانجليز لضرب الاخوان لقابلهم ابن سعود بنفس القوة .

لنفهم ما حدث في تلك السنوات الحاسمة ، من ١٩٢٧ ــ ١٣٤٥/١٩٣٠ ــ ١٣٤٩ ، سنحاول أن نحدد مواقف واستراتيجية وتاكتيكات كل من القوى الثلاث التي صنعت أحداث تلك الفترة :

بريطانيا ..

الاخوان ..

الملك ــ الامام عبد العزيز .

وكما قلنا ، جرت عملية تشويه فظيعة لموقف ودوافع ومسلكية الاخوان ، ولكن هذه الدراسات ، التى كالت التهم للاخوان ، وان ادعت أنها فعلت ذلك للدفاع عن الملك ، الا أنها في الحقيقة ، رمت الملك بأشنع التهم ، بل بأفظع من كل ما قالت ضد الاخوان .. لأن الخطأ لا يثمر الا الخطيئة . اذ زعمت أن الملك لم ينتصر على الاخوان الا بدعم من الانجليز وبفضل مساندتهم له !..

وهذا ما يقوله الفائز بجائزة الملك فيصل :

« ساعدت بريطانيا الملك عبد العزيز في ضرب فرق الاخوان بقنابل طائراتها » . « كما أن القائد الانجليزي السير جون غلوب قائد الجيش في شرقي الأردن ، قدم خدمات عسكرية لحكومته وللعراق والسعودية ضد الاخوان . والسير همفري أرسل « شكرا للسيد جون غلوب لموقفه هذا » (!) كما وأن بريطانيا اتفقت مع ابن سعود على محاصرة الثوار من الحدود الكويتية والعراقية . ولما دخل الثوار حدود العراق مستسلمين ، سلمتهم بريطانيا للملك عبد العزيز عن طريق الكولونيل بيسكو رئيس قناصل الخليج ، وديكسون الوكيل البريطاني في البحرين في ١٩ يناير ١٩٣٠ (شعبان ١٣٤٨) . هذا وأن بريطانيا ارسلت رسالة تهنئة للملك بعد نجاحه في القضاء على ثورة الاخوان . » !! هذه هي الأدلة التي سمح المؤلف لنفسه بأن يستنتج منها :

« والواقع أن ثورة الاخوان كادت تعصف بحكم الملك عبد العزيز لولا مساندة بريطانيا* له باستخدامها قواتها الجوية ، ووضعها قوة كبيرة على الحدود الكويتية ، وابقائها للكويت والعراق على الحياد ، وهذا كله أجبر الثوار على الاستسلام . ولولا هذه الأعمال لما تمكن الملك من سحق الثورة بهذه السهولة ، ولتعرض البيت السعودي لأخطر النتائج ، وبهذا استطاع الملك عبد العزيز آل سعود أن يتخلص من ثورة الاخوان التى دوخته[٧٢] » .

---

* سنرى ان غلوب نفسه لم يجرؤ على هذا الادعاء ، بل اعترف بأن سياسة بريطانيا في البداية أدت الى نمو قوة المعارضة الاخوانية وعرضت ملك ابن سعود للدمار . كما لا ندري كيف يفهم أو يستدل الكاتب من شكر بريطاني لبريطاني على أن غلوب ساعد عبد العزيز ! الذي نعرفه أن عبد العزيز لم يكره انجليزيا حتى عام ١٩٣٠ ــ ١٣٤٩ مثلما كره غلوب وبيسكو !

هذه دراسة تستحق جائزة الملكة اليزابث لا الملك فيصل (ابن) عبد العزيز آل سعود !

فبمفهوم وصريح عبارة تلك الدراسة ، نعرف أن الملك عبد العزيز يدين بعرشه للطائرات البريطانية ، بل البيت السعودي كله ، يدين للانجليز بتدخلهم وضربهم مواطنيهم ، في سبيل انقاذ حكم آل سعود ..!

ان هذا القول ليس فقط غير لائق ، بل الأهم طبعا ، هو أنه يخالف الحقيقة مائة وثمانين درجة كاملة ، ولكن الجهل والادعاء اذا اجتمعا مع التزييف كان الناتج مرعباً حقاً ، فجميع الوقائع تؤكد العكس تماما ..

بريطانيا أرادت الفتنة ، وساعدت عليها بكل السبل : فهي التي فجرتها ببناء الحصون ، وهي تعرف مسبقا معارضة الاخوان لها ، وهي التي شجعتهم على مهاجمة هذه المخافر وتسجيل انتصارات في المرحلة الأولى لاعطائهم الشعبية ، واغرائهم بمعارضة أوامر الملك ، ثم هي التي ضربتهم ، أو بالأحرى قبائلهم بالطائرات ، رغم احتجاج الملك ، ومحاولته منع ذلك ، مؤكداً أن هذا العمل من جانب بريطانيا يؤجج الثورة ولا يخمدها ، ويضعف مركزه ولا يقوي حكمه ـ كما يدعي مؤلف الجائزة ـ فلما صدق ظن الملك ، ونشبت الثورة ضده ، ساعدت بريطانيا والحكومات الموالية لها ، الثوار بالمال والسلاح ، طارحة كعادة السياسة البريطانية كل الاحتمالات : فاما أن ينتصر الاخوان ، وبذلك تتمزق وحدة البلاد ، وتقام مجموعة دويلات في الأحساء وشمال نجد وجنوبها* . واما أن يمزق المتحاربون بعضهم بعضا فتفرض هي هيمنتها وشروطها على الجميع . واذا انتصر ابن سعود ، فقد كان تصور بريطانيا أن هذا النصر لن يتم الا بعد معارك طاحنة ، يفقد فيها عبد العزيز قدراته العسكرية لزمن طويل ، وهذا على ضوء سمعة الاخوان القتالية . كذلك كان في حساباتها أن حركة ابن سعود ستتحول الى دولة فقيرة ، بل الى أفقر دولة عربية . فينشغل بهموم تدبير قوت هذه المملكة

---

* وهذا ليس استنتاجا نطرحه دفاعا عن عبد العزيز ، بل من الوثائق : قال غلوب : « ان الملك فيصل أعرب لهربرت يونغ المندوب السامي في العراق عن اعتقاده بأن الاخوان سينجحون في قلب السلطة السعودية » وقد صدق يونغ فكتب لوزارة المستعمرات « اذا نجح الثوار في القضاء على جيش ابن سعود كما توقع الملك فيصل فمن المؤكد أن « شمر » ستلقي بثقلها مع الثوار ، وتعود الى نجد لأخذ حصتها ، ولا أعتقد أنه من الممكن منعهم من ذلك ولا أستطيع أن أجزم بطبيعة الاتفاق الذي تم بين الشيخ عقاب بن عقيل رئيس شمر وفيصل الدويش بمباركة الملك فيصل حول تسليم حايل لشمر في حالة انتصار الثورة . ولكني أعتقد أن ذلك يوافق مخطط الملك فيصل . ولن أدهش اذا ما كانت هناك اتفاقية من هذا النوع . »

(٢١/١٠/١٩٢٩ ـ ١٣٤٨)

وقال جون حبيب ان الدوائر الهاشمية في العراق والأردن وآل الصباح في الكويت كانوا يأملون في اقامة الدويش أميرا على « منى ـ امارة » او امارة « جيب » على الحدود بين نجد والعراق والكويت . صفحة ٢٧١ . وكتب غلوب في ١٧/١١/١٩٢٨ ـ ١٣٤٧ يقول ان مصادره داخل الاخوان تؤكد أن ابن سعود لا يستطيع هزيمة الاخوان .

عن طموح تحرير العالم العربي والبعث الاسلامي .

ويمكن ان نلخص الاستراتيجية البريطانية خلال أزمة الاخوان على النحو التالي :

أ ـ مرحلة تفجير الثورة :

الهدف : جر الاخوان الى مهاجمة العراق لتقوية شعبيتهم في الداخل . وتصعيد الصدام بينهم وبين ابن سعود ، واظهار الدولة بمظهر العاجز عن السيطرة على الاخوان . أو المعارضة للجهاد .

الأسلوب : بناء المخافر لاستفزازهم ، واعطاء التعليمات لسلاح الطيران بعدم ضربهم أو تعقبهم ، وترك المخافر بلا حراسة كافية لاغرائهم بالهجوم وتصعيد عملياتهم .

ب ـ مرحلة اسقاط هيبة ابن سعود :

الهدف : لما تحقق الهدف الأول وانشق الاخوان ، واستمروا في عملياتهم ضد العراق .. بدأ الانجليز تنفيذ المرحلة الثانية ، وهدفها اضعاف هيبة الدولة والحط من شأنها ، وتفجير سخط الاخوان على حكومتهم العاجزة ، ونسف جهود ابن سعود للسيطرة على الموقف بالحوار من خلال المؤتمرات .

الأسلوب : ادعاء أن ابن سعود لا يسيطر على رعاياه ، وعدم الاعتراف من جانبها بسيادته على أراضيه ، باختراق مجاله الجوي ، والاغارة على القبائل وقتل النساء والأطفال وهدم المساجد .. مع اعطاء حق اللجوء للهاربين من السعودية وتسليحهم ودفعهم لاختراق الحدود والاعتداء على المواطنين السعوديين .

فلما نجح الهدفان الأول والثاني ، واشتعلت الثورة انتقلت الأجهزة البريطانية الى الهدف الثالث وهو :

ج ـ القضاء على الدولة السعودية :

الأسلوب : تشجيع ودعم « الإخوان » ، ليس الى الحد الذي يمكنهم من اقامة دولة الاسلام ، بل الى الحد الذي يمكنهم من احداث أكبر قدر من التدمير للدولة السعودية ، ولمكانة ابن سعود ، وفي سمعتهم كقوى وطنية . وذلك بتزويدهم بالسلاح والمال ، وتنظيم اتصالات معهم ، ورفض اغلاق الحدود ، في وجه تحركاتهم ، ورفض الاتفاق على تسليمهم ، وتحريض العملاء في الكويت والعراق على استقبالهم وتشجيعهم ودعمهم .

مع الاستعداد للتدخل اذا كان الموقف يغري بالمراهنة ، وذلك في حالة انزال الاخوان هزيمة واضحة بابن سعود .

وهذه الأهداف ، وعاها عبد العزيز ، وحاول افشالها واحدا تلو الآخر .. فقد احتج على بناء المخافر وطالب بهدمها ، واحتج بكل قوة على ضرب الطيران البريطاني للمواطنين العزل ، فالغارة على اللصافة لم تكن أبدا لتؤثر في القدرة العسكرية للاخوان ، بل كانت تزيدها ، باثارة حماسة ونخوة النجديين بمناظر وأخبار القتلى من الأطفال والنساء . وقد عبر عبد العزيز عن وعيه بخطورة المؤامرة البريطانية ، بالحملة

الاعلامية التى شنها ضد بريطانيا »* ، وأيضا بالتعبئة الشاملة التى خرج بها على نحو يفوق الحاجة لضرب الاخوان بل يوحي بالاستعداد لمواجهة شتى الاحتمالات .

وقد هزم الاخوان ، بالقوة السعودية وحدها ، وبسهولة مدهشة ، فعلا ، ولكن دون أية مساعدة خارجية . ولم يحدث قط أن ضربت الطائرات البريطانية الاخوان خلال الصدام المسلح بين جيش عبد العزيز وقوات الاخوان ، وكنا نتمنى لو أشار المؤلف المذكور ومن يرددون زعمه ، الى واقعة واحدة توحد الله . بل على العكس ، كان الضرب قبل الحرب ، وجاء كعنصر مفجر للثورة ، وليس كعامل مساعد في القضاء عليها ! وقد احتج عبد العزيز عليه بأعلى نبرة ممكنة** .. الا اذا كان ذلك على سبيل المناورة ولاحكام التضليل ! واحتج عليه أصدقاء عبد العزيز في مجلس العموم البريطاني ، وردت الحكومة البريطانية ردا يتسم بالعداء الشديد والتحدي لعبد العزيز . وغلوب يعترف بأن سياسة بريطانيا هي التي دعمت الاخوان ، وقوت مركزهم ضد ابن سعود .

فلما سحقت قوات عبد العزيز ، الاخوان ، وبسرعة ، لم تترك مجالا للمناورة ، بل قلبت كل الخطط ، سارعت بريطانيا بدورها الى التلاؤم مع الواقع السعودي الجديد ، وتصرفت بالخسة البريطانية ، التي تضع المصالح فوق الأخلاق ، فسلمت الذين لجأوا اليها ، اطمئنانا لما لمسوه من دعمها . ووعودها المباشرة أو غير المباشرة بالحماية . وذلك بعد أن اعتصرت ورقتهم ، وساومت على تسليمهم ، واستفادت من نتائج الوضع الذي ساعدت على خلقه .

فالأقرب للحقيقة هو القول : لولا دسائس بريطانيا ، ومساعداتها هي والحكومات الخاضعة لها ، لما اتخذت ثورة الاخوان هذا البعد الخاص .

هذا تحليلنا ، وسوف نثبته بالوقائع والمستندات على لسان العدو*** .

من الجانب الآخر كانت خطة الاخوان ، أو استراتيجيتهم ، ان صح التعبير ، أو قل

---

* قال جون حبيب « ان ابن سعود طلب من جريدته أم القرى مهاجمة الغارات الجوية البريطانية على رعاياه ووصفها بانها جزء من مؤامرة امبريالية ضد حكومته » صفحة ٢٢٥ .

وقالت كريستين لهمز : « اضطرب عبد العزيز وغضب لقيام الانجليز بقصف القبائل بالطائرات ، هذا العمل الذي قتل أناسا ابرياء **ولم يكن له أي تأثير على الاخوان** . ورفض عبد العزيز منطق بريطانيا المزدوج ، فهو ممنوع من مطاردة الذين يغيرون على نجد اذا لجأوا الى العراق ، أما بريطانيا فتعبر الحدود وتقصف رعاياه بالقنابل وتحط من قدر قيادته أمام شعب الجزيرة . صفحة ٢٣٥ .

** قال عبد العزيز في برقيته للمقيم البريطاني في البحرين : « ان ارسال الطائرات الى داخل أراضينا لمعاقبة رعايانا مبدأ لا يمكن قبوله » ١٩٢٨/١/٢١ ــ رجب ١٣٤٦

*** بقي أن نقول : ان تعبير الثورة « **التي دوخته** » تعبير غير لائق ، لا بعبد العزيز ، ولا ببحث علمي ، ولا بجائزة ابن عبد العزيز .. لأن عبد العزيز « دوخ » كل القوى ، كذلك لا يجوز القول : ان ثورة الاخوان : « علمت عبد العزيز الحنكة السياسية » فالحنكة السياسية ، لا تعلم ، بل هي موهبة من الله ، قد تصقل وتنمى ، ولكنها لا تعلم ، تماما كحسن التعبير ، لا يكتسب ولا يصطنع مهما حمل الكاتب من القاب وجوائز فانه سيبقى بأفق راعي البذور !..

←

منطق الأحداث ، ان لم نشأ تكريمهم بتصور وجود استراتيجية أو خطة لهم ! المهم أن تطور الاحداث ، وضع الاخوان أمام اختيار واحد : هو استئناف « الجهاد » فاما أن يستجيب عبد العزيز ، فتتحقق وحدة المسلمين ، وتعود الأيام الخوالي .. أو يتخلف مع « القاعدين » فيكون للمجاهدين ، عليه درجة ، واما ــ والعياذ بالله ــ أن يسقط في خطيئة ضربهم من الخلف ، فيتحالف مع أعداء الله ، وبذلك تحل مقاتلته شرعا ، وتسقط امامته ..!

وهكذا التقت رغبة الانجليز مع تحرك الاخوان ، رغم اختلاف الدوافع والأهداف ، بل ومع انتفاء أي احتمال لاتصال مسبق ، فضلا عن التنسيق ، فنحن نؤكد ــ مرة اخرى ــ أن الانجليز أو المخابرات البريطانية ، لم تخلق ثورة الاخوان ، ولا صنعت تمردهم ، ولكنها استثمرته ، وساعدت في تفجيره ، وتطويره ، أما التمرد أو الثورة ، فكانت لها أسبابها الموضوعية والذاتية ، التى لا دخل مباشر لبريطانيا فيها ، فالاستعمار لا يخلق ثورات ، بل يستغل الثورات غير الناضجة ، فيجهضها أو يحرفها ، أو يمزقها .. أو حتى يستفيد منها في تقويض نظام يعترض خططه ومشاريعه .

وقد بذلت حكومة العراق كل جهد لاستفزاز الاخوان والتحرش بهم ، واعترف غلوب بأن بعض اللاجئين من السعودية ، الى العراق : « لم يفوزوا فقط بحق اللجوء ، بل سمح لهم بشن غارات على رعايا ابن سعود[٧٣] » . ويعترف ايضا بأن :

« الملك فيصل (ملك العراق) كان يشجع غارات السطو على نجد ، خلال عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٥/١٣٤٢ ــ ١٣٤٣ وكان الملك والاخوان يحاربون بعيدا في الحجاز ولكن في بداية عام ١٩٢٦/١٣٤٤ انتهت حرب الحجاز ورجع الاخوان الى نجد » ، ويقول « ان انتصار الاخوان وكسبهم الحرب في الحجاز ، لم يحقق الا فتح شهيتهم من أجل المزيد من الانتصارات . وأسوأ من هذا كانت قبائل مطير وعتيبة يعتقدون أنهم هم الذين فتحوا الحجاز وليس ابن سعود ، الذي لم يكن لديه جيش نظامي ، والذي كان يعتمد على قبائله لشن حروبه . وقد أصبح رؤساء هذه القبائل متعالين لدرجة رفض

ولو كان عبد العزيز قد انتظر حتى يتعلم الحنكة السياسية من ثورة الاخوان ، لما انتصر عليهم .
وعن علي بن أبي طالب : « تعلموا قبل أن تسودوا » ! ويا ويل من يتعلم يوم القتال أو في المعركة الحاسمة ، فلا أحد يتعلم في الامتحان ، أو يتعلم التاريخ بالتأليف في تحليله !

لقد كانت معالجة عبد العزيز لثورة الاخوان دليل الأستاذية في الحنكة السياسية ، أما المؤتمرات والنقاش المفتوح فهو أسلوب مارسه عبد العزيز قبل ثورة الاخوان بسنوات ، بل يمكن القول منذ فتح الرياض ، ورأينا نماذج منه أكثر وضوحا عند الاعداد لفتح الحجاز ... بل ذكرنا أن حملة حايل ألغيت في مؤتمر « عندما لم ير المسلمون ذلك » !

وأخيرا نقول ان « الخطر العسكري » لثورة الاخوان ، كان أقل العناصر أهمية ، فقد تغلب عليهم ابن سعود ، « بسهولة » مازالت تثير دهشة المعلقين الى اليوم . كما أثارت حنق المراهنين عليهم وقتها .

الانصياع لأوامر ابن سعود . وهناك قليل من الشك في أنهم قرروا خلع ابن سعود وتقسيم الجزيرة بينهم » .

ويقول غلوب ؛ ان الاخوان عرفوا : « أنهم لو ثاروا ضد ابن سعود مباشرة ، لانضمت بقية القبائل في نجد للملك . ولكن اذا أغاروا على المشركين في العراق فان كل قبيلة في نجد ستعطف عليهم . ولذا فان الهدف الحقيقي من هجومهم على العراق ، كان خلع ابن سعود »[٧٤] . وقد هاجم الدويش قبائل الكويت عند الجهرة في ٤ ديسمبر ١٩٢٧ ـ جماد ثاني ١٣٤٦ والمنطقة المحايدة .

وهذا يثبت أن الانجليز كانوا على وعي تام بالمأزق الذي يواجه ابن سعود بهجوم الاخوان على العراق . ولذلك حرصوا على استفزازهم ، واغرائهم معا ، بشن هذه الهجمات . فكان بناء المخافر ، أو القصور ـ كما يسميها البدو ـ وهي تعني : « الحصون الأمامية عند الحدود » ـ كما عرفها « والين » قبل مائة سنة استناداً للبدو ـ . والبدو ضد الحدود التي تقسم الصحراء ، لأن هذا التقسيم يخالف الطبيعة ، ويعارض حق البدوي المقدس في أرضه التى اختص بها ، ويصبر على شظفها ، ويتمسك بها لأنها بلا حواجز تقيد حركته . ولكن عندما أجبرت الاوضاع الجديدة ، حكام الصحراء على تقسيمها ، نص على حق البدو في الوصول الى آبار الماء بصرف النظر عن خطوط الحدود ، باعتبار ان الماء حق مقدس لكل صحراوي لا يجوز منعه ، ويحل القتال عليه .. ولتأكيد هذا الحق ، تقرر منع اقامة أية حصون حول الماء لكي لا تستخدم في الدفاع عن البئر ، أو بمعنى أصح في منع البدو من الانتفاع منه ، من أية جهة جاءوا .. والبدوي « الأخ » يتبنى نفس الموقف ، وان كان بتعبير أكثر سموا ، فهو لا يعترف بتقسيم « أرض المسلمين » ، ولا يقبل أن يقام حاجز في وجهه . وبريطانيا تحاول منذ ظهور الخطر الاخواني اقامة حاجز في وجه السعوديين ، سواء بدويلة تحت الحماية ، أو بتقسيم الصحراء[٧٥] . وقد قضى ابن سعود على المحاولة الأولى بسيفه ، ورفض اقرار الثانية . ووافقه الانجليز على عدم اقامة عراقيل ، أو سد الطريق على « تلك النزوحات الضرورية » . أي حرية انتقال البدو . وأنه يجب « ألا تقام استحكامات من أي نوع على كل من جانبي الحدود النجدية ـ العراقية* . »

« الا أنه في صيف عام ١٩٢٧ ـ ١٣٤٦ بنت الحكومة العراقية ، الخاضعة للادارة البريطانية ، وحصنت قلعة في جوار آبار** الحدود عند « بصية » وأعلنت رسميا

---

* بروتوكول العقير .

** أثار بعض المؤلفين الغربيين صخبا حول مسألة الحدود ، وقالوا ان بريطانيا علمت المسلمين قبول الحدود الدولية بالمفهوم الغربي ، وأن ابن سعود أجبر بعد ثورة الاخوان على تبنى هذا المفهوم الذي رفضه الاخوان . والحقيقة أن القضية ليست قضية حدود ، فهذه موجودة ومعروفة في الحضارة الاسلامية منذ القرن الأول ، مهما جهل صبية الغرب ومؤرخوه ، والا فما معنى كل ما ألف في الغرب عن دار الاسلام ودار الحرب ؟ وعمر بن الخطاب عرف حدود مصر وعمرو بن العاص ايضا ، والا فما ←

عزمها على بناء قلاع أخرى على طول الحدود ، وسرت موجة من القلق بين أفراد القبائل في شمالي نجد ، اذ وجدوا أنفسهم مهددين في صميم وجودهم . معزولين عن الآبار التي كانوا يعتمدون عليها الاعتماد كله . واحتج ابن سعود على هذا الخرق المكشوف للاتفاقات ، ولكنه لم يتلق بعد أشهر ، سوى اجابة مراوغة من المندوب البريطاني في العراق » بل استفزازية ! ففي ١٧ نوفمبر ١٩٢٧ ـ ٢٢ جمادى الاول ١٣٤٦ أبرق المندوب السامي للملك يقول : وصلني كتابكم المؤرخ ٥ أيلول فتعجبت من احتجاجكم على بناء نقطة « بصية » من قبل حكومة العراق . اذ تبعد بصية خمسين ميلا من المنطقة المحايدة ، وخمسة وسبعين ميلا من الحدود النجدية . فمن الواضح أن المادة الثالثة١١م من ملحق العقير ، لا تشمل هذه المسألة . « وزعم أن الشرطة كانوا هناك من ديسمبر ١٩٢٦ ـ جماد ثاني ١٣٤٥ وأكد حافظ وهبة أن الملك اعتبر هذه المخافر حصوناأمامية في الصحراء لتكون مراكز لغزو بلاده في المستقبل[٧٦] . »

ولعل احساس المحيطين بالملك بضيقه ومعارضته بل وتخوفه من هذه القصور جعل رجال البلاط* « لا يصدقون أن غارات الدويش على هذه المخافر ، ليست بعلم الملك ورضاه ، وكانوا يظنون أنه يخطط لضم العراق . ولما هاجمت الصحف العراقية النجديين وذكرتهم بهزيمتهم من قبل أمام العراقيين قال الملك : دعوا بريطانيا تقف على الحياد ، ونحن نرى من ينتصر[٧٧] » .

وقال محمد أسد : « ان فيصل الدويش فكر في أنه ، قد لا يكون مناسباً للملك أن يبدأ نزاعا مع البريطانيين ولكني أنا سأجترى عليهم »[٧٨] » .

بمعنى أن يكرر الدويش قصة تربة في عام ١٩١٩ ـ ١٣٣٧ . والتي انتهت بانتصار ساحق ، فوقتها كان الملك يعارض تحركات الأشراف أي ملك الحجاز .. ولكنه أيضا كان يعلن رفضه لأية مبادرة اخوانية ضد هذه التحركات . وينصحهم بالهدوء ، وانتظار مفاوضاته مع الانجليز ، وينذر الاخوان بمضاعفات الوضع لو استفزوا الانجليز . ولكن الاخوان حسموا الموقف بالهجوم الصاعق على « تربة » . وحتى عندما جاء الانذار البريطاني ، كان الهدف قد تحقق والامام في غاية السعادة ..!

فلماذا لا يكررها الدويش ؟ مع نفس الأعداء ؟.. لماذا لا يكرر التاريخ نفسه ؟!

معنى رسالة عمر « ان كنت قد دخلت أرض مصر .. الخ » . القضية أعمق من ذلك وهي دولة أم حركة ؟ رسالة تمتد حيث وطأت خيول الله أم حركة وطنية محصورة داخل اطار وطني أو اقليمي ؟.. فالجهاد ليس عن جهل بفكرة الحدود ، بل عن رفض لها . والمسلم لا يعترف بحدود قومية داخل ديار المسلمين ، ولكنه يقبل الحدود بين ديار الاسلام وديار الشرك . ويقبل التقسيمات الادارية داخل دار الاسلام . وكل حركة تحرير عربية كان تصورها يتخطى الحدود المصطنعة ، وليس الدويش بل ابن بلهيد الذي اقترح تحرير الجزيرة العربية . وبعد خمسين سنة سيرفع زعماء العروبة شعار الغاء الحدود . فالمفهوم مختلف تماما عما تردده تلميذة الدعى فاتيكوس .

* انظر محمد المانع : العربية تتوحد .

خاصة والدويش لا يعرف الحكمة « الكافرة » السخيفة ، التي تقول ان التاريخ اذا كرر نفسه ، ففي الأولى كانجاز عبقري ، وفي الثانية كتقليد هزلي . وكيف ذاك والدويش يعتبر نفسه الحجة القاطعة على امكانية تكرار التاريخ ، أو اجباره على تكرار نفسه ، ألم يعد هو وأصحابه عهد الفتوح في صدر الاسلام ، ويجددوا دعوة التوحيد ؟!

واذا تمشينا مع هذا التفسير ، واستعرنا بلاغة محمد أسد نقول ان الدويش « حدث ذات نفسه » : « نغزو العراق ، ونهدم الحصن الذي بناه المشركون الانجليز وأعوانهم ، فاذا استجاب الامام ، وبعث من خلفنا البعوث ، فتحنا العراق ، وقضينا على الفرس في القادسية الثانية ، وانطلق ابن لؤى من الحجاز الى الشام لطرد « الدولة القيصرية البهية* » وعمالها من الغساسنة .. وهبي يا رياح الجنة .. وازحفي يا خيل وابل الله المنصورة ، ولا بأس من بعض المصفحات ..! حتى يتسلم الامام مفاتيح القدس ، ويستسلم المقوقس في قصر بابليون أو عابدين سيان !

وان لم يستجب الامام ، نتراجع ، ونكون قد أنجزنا المهمة .. هدمنا الحصن ، وأكدنا رفضنا لاقرار المبدأ .. وأثبتنا للمنافقين في العراق ، أن الانجليز لا يحمونهم من سيوف التوحيد .. وسيعتب الامام علينا أمام الناس ثم يعفو ..

وسارت الأمور في البداية ، وفق هذا التصور ، ففي سبتمبر ١٩٢٧ ـ ربيع أول ١٣٤٦ أرسلت حكومة العراق فرقة من اثنى عشر عاملا في حراسة سبعة من رجال البوليس ! لبناء مخفر « بصية » . وواضح من الارقام أنهم أرسلوا للذبح ، والا لما غفل الانجليز عن ارسال مصفحة معهم . وكان ذلك كافيا لصد الهجوم ..

وفعلا في ليلة خمسة على ستة نوفمبر ١٩٢٧ ـ جماد أول ١٣٤٦** على طريقة البلاغات العراقية بعد ثلاثين سنة ـ هجم الاخوان وهدموا الحصن ، وقتلوا من فيه . وحملوا ما وجدوه من الفيء*** .

« وظهرت الطائرات البريطانية فوق مسرح الحادثة ، فاستطلعت ثم انسحبت خلافا لعادتها ، دون أن تلقي قنبلة واحدة . ولقد كان من السهل عليهم أن يصدوا الغارة ، وهو عمل كان من حقهم بموجب معاهدتهم مع ابن سعود ، ثم ينهوا مشكلة الحدود عن طريق المفاوضات الدبلوماسية ، ولكن ـ يتساءل محمد أسد ـ هل كانت الحكومة البريطانية ـ العراقية تهتم حقا بايجاد حل سلمي سريع للخلاف[79] ؟! » .

وتدفقت القبائل تطلب الاذن بالجهاد ، « وفتح » العراق . ولكن ابن سعود « رفض

---

* لقب بريطانيا في مخاطباتها مع البدو .

** هذا في رواية غلوب . اما بقية المصادر فجعلتها في اكتوبر١٢ م.

*** حتى اليوم يعتقد أولاد الاخوان أن الحملة على العراق كانت بعلم ابن سعود . في مقابلة جرت في شتاء عام ١٩٧٩ ـ ١٣٩٩ بالرياض مع ابن عم الدويش ، قال لي : « ان الخبر المتواتر يؤكد أن الملك عبد العزيز كان راضيا عن هذا العمل . وأخذ خمس غنائم المعركة باعتباره الامام . وهذا دليل مباركته للعملية » .

بقوة كل تلك المطالب وأعلن عصيان الدويش ، وأصدر أمره إلى أمير حايل* بأن يسهر على مراقبة الحدود ، ثم أوقف مرتبات الاخوان في القبائل التي تحت سيطرة الدويش ، الذي وضعه تحت الاقامة الجبرية في الارطاوية في انتظار قضاء الملك ، وأحيطت حكومة العراق علما بهذه الاجراءات ، كما أعلمت بأن الدويش سيلقي أشد العقاب » . ويفسر غلوب على عادته موقف الملك بأن « ابن سعود كان قد حقق كل ما اعتقد أنه يمكن تحقيقه . والعراق والأردن كانتا تحت الانتداب البريطاني ولم تكن به رغبة في محاربة[80] بريطانيا » .

وهذا صحيح ، إلى حد بعيد ، وهو يعزز رأينا بأنه لم يكن هناك تنسيق بين تحرك الدويش ومخططات الملك ، الذي مهما يكن استياؤه من المخافر ، فهو يفضل حل الأمر بنفسه ، وبأساليبه ، وكان يدرك خطورة الهجوم الاخواني سواء نجح أو فشل . وأكدت الأحداث مخاوفه ، وأيضا وعيه ..

المهم نجح الانجليز في إشعال الفتيل .. وقد حاول ابن سعود نزع هذا الفتيل ، وبالحاح كبير من جانبه ، وافقت بريطانيا على إرسال السير « جلبرت كلايتون » للاجتماع به في جدة ، وبين الرجلين احترام متبادل في حدود إخلاص كل منهما لسياسة بلاده ومصالحها . وخلال اجتماعاتهما ــ يقول غلوب ــ حاول عبد العزيز ــ عبثا ــ اقناع الجانب الانجليزي بهدم المخفر في بصية** بأمل أن يرجع إلى الاخوان قائلا : « انظروا بالدبلوماسية وحدها حققت ما فشلتم أنتم في إنجازه بالقوة ، فاتركوا لي معالجة الأمور مع العراق . ولكننا لم نقتنع بأن ذلك سيجدي في إخضاع الاخوان الذين كانو قد صمموا على خلعه .. وهكذا بعد أسبوع واحد من مباحثات لا طائل وراءها عدنا للعراق[81] » .

لو كانت بريطانيا تريد مساعدة عبد العزيز ، أو حريصة على حكمه لأعطته هذا الذي فهمه الوفد البريطاني جيدا ، فليس من المعقول أن عبد العزيز قال للانجليز : « اهدموا المخافر لكي أرجع فأقول للاخوان : انظروا ... الخ » ولكن الطرفين بدأ المفاوضات وقطعاها ، وهما يعرفان تمام المعرفة ، أنه اذا فشل عبد العزيز في الوصول إلى حل سلمي ، حول قضية المخافر ، يقبله الاخوان ، فان هيبة الدولة ستسقط وحجة الثورة ضده ستقوى . وهو ما كان ابن سعود يخشاه ، والمفاوض البريطاني يتمناه ، ولذلك استحال الاتفاق وانفض الاجتماع بما يخدم التمرد ودعاية الرافضين .

ولزيادة اغراء الاخوان واستدارجهم للاعتداء على العراق صدرت الأوامر بمنع

---

* وهنا تأكدت حكمة الملك في تعيين الأمراء . فلو كان الدويش أميراً لحايل لانفصل بالامارة ، ووجدها الانجليز أو غيرهم فرصة ــ ربما ــ للاعتراف به ! فهذا حلمهم القديم ... أما الان فان الدويش ليس أكثر من شيخ قبيلة متمرد .

** في خطاب الملك عبد العزيز للمندوب السامي البريطاني بالعراق سماها « بصوة » وفي رد المندوب السامي سماها « بصية » وبعض المصادر العربية تسميها « بسية » وهي واقعة في أراضي العراق تجاه الحدود مع السعودية .

سلاح الطيران البريطاني من العمل فوق الحدود . يقول غلوب : « في نوفمبر ١٩٢٨ جماد أول/ثاني ١٣٤٧ أعلن المتمردون الاخوان من قبائل مطير وعتيبة والعجمان ، أنهم سيهاجمون العراق ، شاء ابن سعود أم أبى* ، فأسرعت الى بغداد ، لاعداد الترتيبات النهائية مع الجيش العراقي والسلاح الجوي الملكي البريطاني . وقد تقدم الجيش العراقي لمساعدتنا بنبل** ، وكانت قواته موجودة بالفعل في بصية وسلمان وشبيشة . ووافق السلاح الجوي البريطاني على القيام بطلعات استطلاعية ... **ولكن ... في تلك اللحظات الحرجة ، أصدرت الحكومة البريطانية فجأة أمراً للسلاح الجوي بأن يبقى بعيدا عن الحدود مسافة عشرين ميلا** . لقد فشلت الحكومة البريطانية*** في تقدير الموقف ، إذ ظنت أنها تتخذ هذا القرار مجاملة لابن سعود ، **وفي الحقيقة ربما كانت تقضي عليه بهذا القرار ، لأن الاخوان المتمردين ، كانوا يهاجمون العراق ضد أوامر ابن سعود ، ولو عادوا منتصرين يحملون الغنائم والأسلاب لانضمت اليهم القبائل الاخرى ، وسقط ابن سعود** . والعكس صحيح ، لو هزم المتمردون فستبقى القبائل الاخرى على إخلاصها مما يمكنه من هزيمة المتمردين » .

وشهادة أخرى يعترف فيها غلوب ، بأن جميع الاجراءات قد اتخذت لتشجيع أو إغراء الاخوان بالهجوم وإحراز نصر : « فقد صدرت الأوامر للطيران البريطاني بمنع التحليق فوق الحدود . بل وإلى مسافة سبعين ميلا منها . كما سحبت السيارات المسلحة والمدافع الميكانيكية من قوات غلوب المتقدمة . وحظر عليه دخول الكويت لتعقب أو ضرب الاخوان الذين أغاروا على قبائل بني مالك العراقية في الكويت في فجر يوم ٢١ يناير ٨٢١٩٢٩ » . فقد اكتشف الانجليز فجأة أن معاهدة العقير تمنعهم من حشد قوات عند الحدود ! بينما رفضوا الاعتراف بالنص الخاص بعدم بناء الحصون ! ..

ولا أحد يطالبنا بأن نفترض تفوق غلوب ، على الحكومة البريطانية في تقدير الموقف ، أو الذكاء وبعد النظر الاستراتيجي ، والوعي بمصلحة بريطانيا ! بل يحق لنا أن نقول بكل اطمئنان إن بريطانيا كانت تريد بالضبط هذا الذي يدعي « غلوب » أنها لم تقدره ، أعني تشجيع الاخوان على الهجوم وإغراء المترددين من القبائل للانضمام اليهم ، وبذلك يسقط ابن سعود ، ويقضى عليه . وغلوب الذي اصبح مؤلفا في عام ١٩٨٠ (١٤٠٠) والذي تضخم في الأردن ، لم يكن في هذا الوقت الذي يكتب عنه ، أكثر

---

* بعد فشل المفاوضات ، أي حدث بالضبط ما توقعه عبد العزيز وأراده الانجليز .

** تأمل ! مع أن الهجوم وقع على الأراضي العراقية ، ولكن غلوب يعتبر اشتراك الجيش العراقي ، مساعدة نبيلة للانجليزي !؟

*** هذا تواضع من غلوب !! اذ يعتبر نفسه أذكى من الحكومة البريطانية . أو محاولة منه لتزييف التاريخ مفضلا اتهام بريطانيا بالغفلة ، عن إثبات تهمة التآمر من جانبها !

من ضابط حدود لا يفهم ولا يحاط علما بالاستراتيجية العليا التي توضع في دار المندوب السامي البريطاني بالعراق ، فضلا عن لندن .. والحكومة البريطانية التي دبرت اغتيال أكبر ضابط بريطاني في الجيش المصري لتنفذ خطتها في الاطاحة بالحكومة الدستورية في مصر* ، لم تكن بالتي تهتم بأزمة ضابط حدود يرتعد رعبا من الاخوان ، ويريد حماية حياته ، وهيبته ، بالطائرات والمصفحات . كان الاهم في نظر مخططي السياسة البريطانية ، هو إتاحة الفرصة للاخوان ، لكي ينفذوا « ما صمموا عليه » وهو : « خلع ابن سعود » بألفاظ التقارير البريطانية وقتها .

وهكذا نرى أنه في هذه المرحلة ، « امتنع » الطيران البريطاني عن ضرب الاخوان ، ضد مصلحة ابن سعود ، وليس كما يفترى الفائز بجائزة ابنه .. « أنه ضرب الاخوان لمساعدة ابن سعود » ... وها هي شهادة ثالثة من غلوب :

« في ١٥ فبراير ١٩٢٩ ــ رمضان ١٣٤٧ تلقيت معلومات بأن الدويش ومعه عشر رايات (عشرة الآف من الاخوان**) قد تحرك منذ يومين لمهاجمتنا في مغيزل، وباستشارة مساعدي من فرقة الهجانة ، حددنا موعد الهجوم في فجر يوم ١٩ فبراير .. وبعثت بموعد الغزو إلى بغداد ، وطلبت معونة المدرعات التابعة للسلاح الجوي الملكي البريطاني ، وسيارات مصفحة ، ولكني لم أتلق ردا . وكانت لنا تجمعات هائلة في بصية ، من السيارات المدرعة التابعة للطيران البريطاني ، والمدفعية الآلية للجيش العراقي ، ولو اشتركت هذه الاسلحة في رد غارات الدويش لأنزلت بهم إصابات كانت كفيلة بانهاء غارات الاخوان إلى الابد ، **ولو تم ذلك لانهار التمرد واستعاد ابن سعود سلطاته ومع ذلك كنت أشك في أن تساعدنا هذه القوات*** حتى لو هوجمنا (!!).**

« وكل ما أتصوره هو أن هذا الموقف غير المتعاون** إنما يعود للحكومة البريطانية** التي كانت تعتبرنا نوعا ما من مؤيدي الاشراف ، نحارب ابن سعود لهذا السبب ، مع أن الحقيقة هي أن هزيمتنا للاخوان ــ لو تمت ــ كانت ستنقذ عرش ابن سعود[٨٣] »

فالحقيقة المتفق عليها هي ان سلوك بريطانيا في هذه المرحلة ، كان يساعد على تقوية الاخوان وانتشار التمرد . وأن بريطانيا لو صدت هذه الغارة ، داخل الاراضي التي تسيطر عليها ــ أي بدون تعقيدات دولية ولا اعتداء على السيادة السعودية لو فعلت ذلك في فبراير ، لانهار التمرد تماما ، في رأي غلوب ، ولاتجه التاريخ اتجاها آخر في اعتقادنا . ولكنها لم تفعل ، ولم تنقذ عرش ابن سعود ، بل إن هذا الموقف باعتراف

---

* حادثة اغتيال السيرلي ستاك سنة ١٩٢٤ ــ ١٣٤٣ وسقوط حكومة سعد زغلول

** لاحظ أن الدويش كان أقدر على تجميع « المجاهدين » للقتال ضد الانجليز منه في تجميع الثائرين ضد عبد العزيز فقوات الاخوان في معركة السبيلة كانت ثلاث الآف فقط .

*** البريطانية .

**** من الجيش البريطاني .

غلوب نفسه ، ساعد على تهديد عرش ابن سعود .

والحقيقة الثانية التي يسجلها اعتراف غلوب ، وسط اعترافه بعجزة عن فهم دوافع موقف لندن ، ومحاولته استنتاج الاسباب . اعترف ايضا ، بأن الانجليز الصغار في العراق والأردن ، كانوا معروفين في لندن ، بعداوتهم لابن سعود ، وتصورهم أن ضرب الاخوان هو ضربة لابن سعود . ودعم للسلطة الشريفية . فالانجليز في المنطقة والذين في لندن ، مجتمعة إرادتهم على ضرب ابن سعود والاضرار به والعداوة والكيد له .. ولكن دهاقنة الامبراطورية في لندن ، كانوا أكثر خبثا وأعمق غورا ، وأطول نفسا ..

وقال فيلبي إن « فيصل الدويش والعجمان ساعدتهم عناصر في الكويت والعراق* تكره ابن سعود وتتمنى له أي ازعاج »[٨٤] ، وقال أيضا : « كان الثوار يتلقون الامدادات من الكويت لدعم تمردهم »[٨٥] وتساءل الزركلي : « الا يمكن القول بأن الجهة العراقية ، وهي تابعة يومئذ ، لتوجيه السياسة البريطانية ، ومن مصلحة بريطانيا إزعاج عبد العزيز ، ولذلك كان إقدامها على بناء المخافر ــ خلافا لبروتوكول العقير ؟[٨٧] » .

وأرسل الملك مذكرة بتاريخ ٢٤ ربيع أول ١٣٤٦ ــ اكتوبر ١٩٢٧ قال فيها إن شيوع أخبار تحصين الحكومة العراقية للحدود وإقامة المخافر والمواقع العسكرية عليها ، قد أوجب قلق القبائل النجدية** وهياجها هياجا لا يمكن إخماده ، إلا باقناعها بحسن نية الحكومة*** العراقية[٨٨] .

ولما بدا أن الملك قد استطاع تطويق الفتيل ، بتحديد إقامة الدويش ، والدعوة الى حوار فكري واسع .. بادرت بريطانيا بتنفيذ مخطط المرحلة الثانية ، مرحلة تحطيم هيبة ابن سعود ، واستفزاز القبائل للثورة ضده ، أو على الأقل ، الانضمام لمقاوميه ، دعاة الحرب ضد الانجليز .. وهكذا انقلب الموقف البريطاني رأسا على عقب ، من منع الطيران من حماية الأراضي العراقية ذاتها ، أو التعرض « للمقاتلين » السعوديين داخل الأراضي العراقية مسافة سبعين ميلا ... إلى ضرب الأرطاوية ، واللصافة داخل الأراضي السعودية ، وقتل النساء والاطفال وتهديم المنازل والآبار ..

---

* وقال مؤلف Arabia Unified : « يجدر القول بأنه لا الكويتيون ولا العراقيون كان لهم من الأمر شيء ، لان بلديهما تحت حكم بريطانيا[٨٦] » .

** هناك نماذج عديدة لأسلوب تفجير الثورات ، للوصول إلى ضربها أو ضرب قوة معادية لها ، مثل إفساح المجال لثورة المهدي في السودان ، ومنع الحكومة المصرية من مواجهتها في البداية ، بل وإجبارها على إخلاء السودان ، حتى لا تتوحد بقايا الثورة العرابية مع الثورة السودانية ، تحت قيادة أكثر وعيا بما يدور في العالم . وبذلك أصبح السودان كله تحت سيطرة المهديين . ومثل ضربها محافظة الاسماعيلية في ٢٥ يناير لاجهاض الحركة الوطنية ، والاطاحة بحكومة الوفد من خلال انفجار غير ناضج . ومثل دورها في الحركة الوطنية بالبحرين عام ١٩٥٦ ــ ١٣٧٥ .

*** وقد اعترف غلوب لكرستين هلمز بأن الملك فيصل قد منح حق اللجوء للاخوان المتمردين على ابن سعود ليس عن شهامة عربية ، بل لتفجير الوضع في نجد كراهية لابن سعود » . ←

وهكذا بعد أن أعلن الملك قراراته ، وظن أن الموقف قد هدأ ، وأن السلطة في الرياض قادرة على معالجة أمر الدويش ، فاما أن يدخل في الطاعة ، أو يعزل عن قواعده ، التي بدأ الملك حملة توعية بينها .. بادر الانجليز بتسخين الموقف ، باستفزاز الاخوان ، وتحدي سيادة الدولة السعودية ، وإظهار أن موقف ابن سعود لا ينبعث من قوة الحكمة ، بل من حكمة الضعف أو حتى الخوف ، فبعد أن سيطر ابن سعود على الوضع فوجيء بانذار بريطاني من المندوب السامي بالعراق بأنه « سيرسل فرقة جوية لمعاقبة الاخوان من قبيلة « الدويش » ، « لاجبارهم على طاعة مليكهم » !

وقد أدرك عبد العزيز على الفور ، أهداف تلك المظاهرة ، وما يمكن أن يترتب عليها من نتائج ، فرفضه في الحال ، وبعث برسول خاص إلى البحرين لارسال برقية برفض الانذار* إلى بغداد .

وقال الملك إنه لا يحتاج لأية مساعدة بريطانية لفرض سلطته على الدويش ، وأن مثل هذا العمل الذي يشير اليه الانذار سيكون خرقا للمعاهدة وأكد أن أي إجراء حربي جوي بريطاني « سيحدث رد فعل عظيم بين الاخوان » ولأن هذا بالذات هو هدف الانجليز ، فقد قامت الطائرات في أواخر يناير ١٩٢٨ ـ ١٣٤٦هـ « بغارة جوية داخل الاراضي السعودية فوق خيام المطيرين وقتلت دون تمييز ، الرجال النساء والأطفال والمواشي » « ثم أعادوا بناء قلعة بصية ، كما بنوا قلعتين أخريين[٨٩] » .

وهذه هي البرقية التي بعث بها عبد العزيز بواسطة حافظ وهبة من البحرين وهي توضح أن تدخل الطيران البريطاني كان عاملا مساعدا للثورة وليس لابن سعود .

« الحالة مضطربة في نجد . لان العهود نقضت من قبل العراق . الطائرات ضربت الحدود في الشرق والغرب . الانسانية لم تحترم . الحالة خطرة جدا . والهمة مبذولة لتسكين الاحوال ، والنتيجة مجهولة »** !

وكتب المندوب السامي البريطاني في العراق إلى وزير المستعمرات : « في مثل هذه الظروف يصعب على رجل بأخلاق الملك فيصل (!!) أن يتخذ موقفا محايدا من ثورة الاخوان . وليس لدي شك في أنه أرسل رسلا برسائل تشجيعة للمتمردين الاخوان . واعدا بالمساعدة . ولا أشك في أن أحد أسباب زيارة الامير عبد الله للعراق ، هي أن يبحث مع أخيه في تنسيق التعجيل باسقاط ابن سعود ، وتنظيم الاستفادة من هذا السقوط » . ١٩٢٩/١٠/٢١ جمادي الثاني ١٣٤٩هـ .

وأبلغ احمد الجابر بن صباح ديكسون أن على شوير بات رسول الملك فيصل أبلغه أن هذا الاخير استدعى زعماء شمر اللاجئين في العراق وأنبهم على جبنهم لأنهم لا يزحفون للاستيلاء على حايل ، وأنهم إذا لم يتحركوا الان فانهم يستحقون العبودية للأبد . فلما أبدى شيوخ شمر تخوفهم من الدويش رد عليهم الملك فيصل « لا تخافون .. الدويش عندي » !(من ديكسون الى رئيس الخليج ١٩٢٩/٩/٢٦ ـ ربيع أول ١٣٤٦هـ) .

* لأن الاخوان كانوا قد منعوه من إقامة « طائر الهواء » في نجد ، وطائر الهواء هي تسمية الامام يحيى للاسلكي !

** وتاريخها فبراير ١٩٢٨ ـ ١٣٤٦ هـ .

وفي ٢٥ نوفمبر ١٩٢٧ الموافق ١٠ جمادي الاولى سنة ١٣٤٦ كتب الملك للمندوب السامي البريطاني في العراق يحتج على عمليات الاستعراض الاستفزازية التي تقوم بها الطائرات والسيارات البريطانية داخل الاراضي السعودية . ويحذر من احتمال اعتداء أهل البادية عليها .

وفي ١٣ شعبان ١٣٤٦ ـ فبراير ١٩٢٨ ، احتج الملك لدى رئيس الخليج على إلقاء المنشورات ، وضرب الطائرات للاخوان وقال : « فبعد أن وصلنا إلى هذه النتائج (عزل الدويش) ولم يبق من أنواع التأديب التي لم نعملها معه إلا تسيير حملة عليه* ، واستتب الامن لم نشعر إلا بالطيارات تنذر قومنا في ديارنا ، بأنهم سيكونون عرضة لنيران الطيارات ، ثم لم نشعر بعد ذلك الا بأن الطيارات تجاوزت حدودنا وضربت الآمنين في ديارنا . لذلك كان لهذا الحادث أثره العظيم في نجد . بعد ذلك الهدوء الذي ساد البلاد ، فقد أهاج عمل موظفي العراق بضربهم لديارنا ، سائر أهل نجد ، وأوجد في نجد حالة لا نستطيع أن نقدر ما ينتج عنها ، وإنا لنلقي تبعة كل ما حدث ويحدث على عاتق أولئك الموظفين الذين أتوا فعلتهم الشنعاء النكراء** بغير تبصر بالعواقب ولذلك نحتج بشدة على ما يأتي :

١ ـ تعدي الطيارات حدودنا وإلقائها إنذارات*** على عرباننا .

٢ ـ اعتداء الطيارات على الآمنين من رعايانا في ديارنا مما لا يقره قانون دولي .

وأحب أن يتأكد للحكومة البريطانية أن هذا أبلغ سهم أصيبت به العلاقات الودية بين نجد والعراق . وأن نتيجته التهيج الذي حصل في نجد ، مما يخشى أن يولد أحداثا جساما من بعده ، لسنا بمسئولين عن شيء منها ، وإنما يسأل عنها من اعتدى من غير سبب وحرك الفتنة بعد سكونها » .

وهي وثيقة لا تحتاج لشرح ، لتبيان أن عبد العزيز يتهم بريطانيا بالعربي الفصيح ، بتفجير الثورة ، وإعادة تأجيج نار التمرد ، بعدما أمكن السيطرة عليه . ولكن كل هذه الوثائق مجرد مؤامرة محبوكة لخداع مؤلف « الاصلاح الاجتماعي » وغيره ممن نحوا نحوه ، باخفاء تعاون بريطانيا مع عبد العزيز ، ولكن هيهات أن تنطلي عليهم الحيلة .. ألم يشكر السير همفري السير جون جلوب ! وهنأت الحكومة البريطانية ابن سعود بالقضاء على ثورة الاخوان ؟

---

* فحتى هذا الوقت لم يكن ابن سعود يطرح احتمال الحرب مع الاخوان ، ولكن بريطانيا هي التي كانت تدفع الأحداث في هذا الاتجاه .

** ابن سعود يصف القصف الجوي البريطاني بالفعلة النكراء الشنعاء ، ومؤلف الجائزة يقول إنه شكر بريطانيا لانقاذها ملكه بهذا الضرب !!

*** « كان هنري دوبس المندوب السامي قد اقترح فرض حصار على السعودية ، ولكن وزارة المستعمرات لم توافق على هذا الاقتراح ، ووافقت على اقتراح آخر وهو إلقاء المنشورات على البدو ، تتضمن إنذارا بالابتعاد مسافة ٤٠٠ ميل وإلا ضربوا بالقنابل[٩٠] » .

في ١٦ رمضان ١٣٤٦ مارس ١٩٢٨ . بعث عبد العزيز بمذكرة إلى المجر برت .. ينفي فيها ادعاء بريطانيا أن : « الدويش خرج عن الطاعة ، أو أنه أعلن العصيان علينا ، والحقيقة أن الدويش مع نفر من مطير ، أتوا في العراق أعمالا ليست بأمرنا ولا نقرهم عليها ، أما الدويش في أراضينا فهو تحت أمرنا وقهرنا في كل وقت وحين » .

كما رفض ادعاء بريطانيا « بمشروعية مطاردة أو مجازاة رعايا نجد داخل أراضي نجد من قبل موظفي العراق ، أو أي جهة في العالم غير نجدية » .

كما يبلغه أنه سحب الجند السعودي من منطقة الحدود ، لكي لا يقع صدام مع البريطانيين الذين يجتازون الحدود .

ويعلق حماية الحدود على ٤ شروط هي :

ـ هدم القصر المشئوم في « بصية » ولا يبنى غيره على الحدود .
ـ منع إيواء المجرمين .
ـ منع اختلاط الموظفين العراقيين والانجليز بعرباننا .
ـ محاسبة بريطانيا للمسئولين عن الحوادث التي وقعت على حدود العراق »[٩١] .

ويفهم من الرسالة أن ابن سعود كان يخوض حربا ضد بريطانيا خلال أزمته مع الدويش ، وأن بريطانيا حاولت ادعاء قيام حالة فوضى أو عصيان في نجد ، فقدت فيها السلطة المركزية سيطرتها على الاخوان ، ومن ثم أصبح لها الحق في القيام بعمليات عسكرية بوليسية في أرض « السيب » ، أو التي لا مالك لها ، ويسيطر عليها المتمردون ...

وهذا ما رفضه ابن سعود بكل شدة ، مؤكداً أن الدويش حتى هذه اللحظة (ربيع ١٣٤٦ ـ ١٩٢٨) تحت الطاعة ، وأن أعماله العسكرية ، التي لم تكن بأمر السلطة المركزية ، إلا أنها موجهة ضد الانجليز أو العراق ، وليست ضد السلطة الشرعية في الرياض . وأن الواقع هو عكس ادعاء بريطانيا ، فضرب الطائرات يؤدي الى فقدان الحكومة المركزية السيطرة على قبائل نجد .. كما تجدر الاشارة الى مطلب منع « اختلاط الموظفين العراقيين والانجليز بعرباننا » ويبدو أن هؤلاء لم يكونوا يتجسسون على الاخوان فقط ، كما يقول غلوب ، بل ويساهمون بأكثر من طريقة في التحريض على الثورة .

ونجح مخطط المرحلة الثانية ، وأصبحت الحرب أو المواجهة المسلحة بين الملك والثوار محتومة . اقتنع عبد العزيز بأنه لا يستطيع حماية « الدولة » أو فرض هيبتها إلا بادخال الدويش وابن بجاد في الطاعة أو حسم الموقف معهما .. وشك الاخوان ، في ان ابن سعود يبغي الدنيا ، ويوالي من حاد الله ورسوله .. وأيضا لن يسمح لهم بعد اليوم بالتصرف كقوة مستقلة ..

إما أن تنتصر « الدولة » وتطوي صفحة الحركة والثورة ، أو بمعنى أصح أن تأخذ الحركة والثورة مكانها في خدمة « الدولة » وضمن أجهزتها ، كما حدث للثورة والحزب في روسيا والصين ، وقبلهما في فرنسا نابليون ، وكما حدث للتنظيمات الصهيونية

والكيبوتزات بعد قيام دولة اسرائيل . أو ينتصر الجناح المتطرف فتنهار الدولة والثورة والحركة معا .. وكلا النتيجتين لمصلحة بريطانيا ، وهي إذا كانت تفضل الاحتمال الثاني ، إلا أنها على استعداد للتعايش مع الاحتمال الأول .. ولذلك نشطت في توسيع الخرق ، وتحويله الى صدع . وفي مواجهة الاستراتيجية البريطانية وضع عبد العزيز استراتيجية مضادة من ٣ نقاط :

ـ ضرب التمرد الاخواني قبل أن تتاح فرصة استثماره من الخارج .

ـ منع التدخل البريطاني المباشر أو غير المباشر .

ـ اختيار الأرضية المناسبة التي يدور القتال عليها لتصفية الثائرين .

واقتنع باستحالة الوصول الى اتفاق مع البريطانيين ، لسببين :

السبب الأول هو رغبة بريطانيا في تهيئة المناخ الذي يضمن انتشار التمرد وتصاعده .

والسبب الثاني أن الانجليز كانوا قليلي الثقة في قدرة ابن سعود على مواجهة « قوته » التي اعتمد عليها خلال سنوات زحفه من الرياض الى جدة* .. والتي انتصرت في كل ميدان وضد كل القوى .. فكيف سيقهرهم عبد العزيز وبمن ؟! خاصة وأن الانجليز عندهم قناعة فاسدة من أيام معركة « جراب » بعدم كفاءة عبد العزيز العسكرية !

وقد روي حافظ وهبه انه سئل « كما سئل غيره من قبل بعض ضباط المخابرات في بغداد والبصرة ومصر وسواها من المدن العربية . وكان السؤال هو : هل يستطيع ابن سعود أن يتغلب على عشائر مطير وعتيبة والعجمان ؟ إن هذه العشائر هي أقوى عشائر الجزيرة ، وهم يقطنون شرقي الجزيرة وغربيها ووسطها[٩٢] » .

وقد عكست مجلة « لغة العرب » العراقية تفكير الانجليز والقصر عندما قالت : « فيصل الدويش هو الذي يقلق اليوم ابن سعود ويكاد يعرض حكمه في ربوع نجد للبوار[٩٣] » .

وقال « كنيث وليامز » الصحفي والمؤلف البريطاني ، إن اساتذته في جامعة اكسفورد : « كانوا يتوقعون تغييراً سريعاً في السعودية يؤدي الى سقوط عبد العزيز » .

وليس من سياسة بريطانيا ، الارتباط مع قوة تتوقع سقوطها ، لذلك كان تحقيق الهدف الأول هو شرط الوصول للهدف الثاني .. أي بضرب التمرد ، واثبات عجزه عن الاطاحة بالنظام ، عندها تفقد بريطانيا القدرة على المناورة ، وتضطر للتعامل مع ابن سعود . ولكن الهدف الأول لم يكن ممكنا ، إلا بتحقيق الهدف الثالث .. أي تجريد « التمرد » من مبرره العقائدي ، باسقاط طابع الجهاد عنه . وتأكيد طابعه الانشقاقي ، أي تحويلها من « ثورة » الى « فتنة » ، من حركة « وطنية » الى « حرب

---

* جاء في منشور بريطاني « ان بريطانيا تريد مساعدة ابن سعود ولكنها لا تريد أن تكون في الجانب الخاسر » !

أهلية » أي تحويل الاخوان من « مجاهدين » الى خوارج .. ولتحقيق هذا قام بعملين : تجديد البيعة في مؤتمر الرياض .. ثم استغلال حادثة القصيم ..

في مؤتمر الرياض ، أو الجمعية العمومية ـ التي أشرنا اليها ـ طرح عبد العزيز الثقة بنفسه ، وحصل عليها مجدداً ، وقد زعم مترجم الديوان الملكي أنها كانت حركة ، أو « بلفة » رائعة[٩٤] ، استطاع بها الملك السيطرة على المؤتمر ، فنسيت مطالب الاخوان ، في حمى إعلان الولاء للملك من المجتمعين ولم يهتم أحد بمناقشتها . ويقول إن « العلماء والأمراء ، رجعوا من المؤتمر مثقلين بالهدايا بما في ذلك مجوهرات لنسائهم » من هدايا الملك !*

وسواء صحت الروايات على أن الملك بدأ الاجتماع بطرح الاستقالة ، أو أصر على مناقشة الاستقالة قبل مناقشة الاتهامات الاخوانية ، فان تفسير ذلك أعمق من « شطارة » المترجم ..

ففي تفسيرنا أنها كانت خطوة تدل على الوعي السياسي ، وليس مجرد البراعة السياسية .. لأنه لو سمح بمناقشة الاتهامات أولا ، لسقطت هيبة القيادة ، وامتزج النقد بالنقمة ، وأصبح من الطبيعي أن تنتهي المناقشة بادانة ابن سعود أو تبرئته ، ولكنه سيظل طوال المؤتمر في وضع المتهم ، حتى يصدر القرار ، وهذا يفتح المجال ، للتطلعات وتنشيط القوى الانتهازية ، وتخويف المترددين ، والقائد أو رئيس الدولة ، لا يقبل المثول أمام محلفين في انتظار قرارهم : « مذنب أو غير مذنب » ، بل يطرح الثقة به : يقود أو لا يقود !.. فاذا كانت قيادته مرفوضة ، وتقرر خلعه عندها ترى الأمة أو القيادة ما تراه في شأن محاكمته أو معاقبته ، بعدما أصبح فرداً عادياً . أما لو قررت استمرار الثقة في قيادته ، عندها يمكن مناقشة « مطالب » المعارضة لا « اتهاماتها » .

وهذا ما جرى بالضبط . طرح عبد العزيز الثقة بشخصه وليس بالبيت السعودي ، فالملك في البيت السعودي قضية مفروغ منها ، أما الفرد الحاكم من هذا البيت فيمكن أن يخطىء ، ويحاسب ، ويعزل .. وابن سعود هو عميد بيت ، وليس « شمشون » ليدك البيت فوق رأس الجميع .. ولذلك اشترط ابن سعود اختيار بديل من البيت السعودي . فلما استعاذ الحاضرون بالله من خلع الامام .. انتقل المؤتمر لمناقشة المطالب .. أو نسيت في تفسير ابن مانع !

وفي رأي حافظ وهبه أن الاستقالة لم تكن واردة لا عرضاً ولا قبولا ، فالملك في نظر وهبه لم يكن ينوي الاستقالة : « فهو في الحقيقة لم يكن يرمي من هذا المؤتمر إلا جمع كلمة النجديين ، وإثارة حميتهم ضد الاخوان المتطرفين ، فالاستقالة لم تكن واردة . والمؤتمرون لم يقبلوها بالطبع لأنهم يعلمون أن ابن سعود لم يصل الى ما وصل اليه إلا بمعونة الله ثم بسيفه » يقصد أن المجتمعين لم ينتخبوا ولا عينوا ابن سعود ، وبالتالي

---

* كما زعم أن الملك دعاهم لمبايعة أي شخص . وهو قول خاطىء تماما فقد اشترط أن يكون البديل من آل سعود .

فلا يملكون حق عزله ولا قبول استقالته . وقد يكون هذا تفسيراً ذكياً ولكنه خاوي العقيدة وقد رأينا كيف كانت حجة الاخوان قوية في المؤتمر ، الأمر الذي اضطر الملك الى عقد اجتماع ضيق ليشرح وجهة نظره بعيداً عن المزايدات التي تسيطر على الاجتماعات الموسعة ، وقد دعمت موقف الاخوان جثث ضحايا الطيران المتناثرة في خيام المطيرين ، والدولة عاجزة عن حمايتهم ، أو حماية سيادتها على أراضيها ، بل وتريد محاكمة الذين يصدون عدوان الانجليز !

وليس صحيحاً أن وجهة نظر الاخوان قد أخمدت في المؤتمر بالاستقالة الملكية ، فقد دافعوا عن وجهة نظرهم بافاضة واستحثهم الملك على الحديث والنقد ، ونشرت أم القرى أقوالهم كاملة تقريبا ، ولكن الذي أخمدها هم المؤرخون إياهم الذين ركزوا على قضية الأتيال والسيارات* .. الخ وحذفوا الجزء الخاص بالجهاد والحصون ظنا منهم أنه يحرج تاريخ عبد العزيز !

والحقيقة أن المعارضة كانت تنطلق من نقطة صحيحة نظريا ، ولكن في الاتجاه الخاطىء الذي سيجعلها تسقط ، في النهاية ، في كل ما حاولت أن تتهم به الملك ، فهم الذين ضبطوا متلبسين بالدعم البريطاني وليس الملك ..

ومن المعلومات التي تجمعت عن « ثورتهم » لابد أن نتصور أن منطقهم كان قوياً وحجتهم مقبولة لدى قواعدهم . فالمؤرخون يجمعون على أنها أخطر أزمة واجهت الدولة ، وأن النظام كان مهدداً تهديداً جدياً .. ويرى وهبه أنها « كانت من أشد السنين في نجد إذ كادت أن تقع فتنة بين الاخوان من جهة ، وبين الحكومة والحضر من جهة اخرى » !٩٥

« ومحمد أسد » يقدم صورة ثورة عامة : « كان بر نجد الفسيح يطن الآن كقفير النحل ، وكان الرسل يتنقلون في الخفاء على هجنهم السريعة من قبيلة الى أخرى ، وكانت الاجتماعات السرية ، بين الزعماء ، تعقد عند الآبار القصية ، وأخيراً انفجر الهياج ضد ابن سعود الى ثورة علنية ضمت كثيراً من القبائل الأخرى ، الى جانب قبيلتي مطير وعتيبة . واعتصم الملك بالصبر ، وحاول أن يتفهم الأمور ، فأرسل الرسل الى زعماء القبائل المعارضين ، وجرب أن يناقشهم بالمنطق والحجة ، ولكن دون جدوى ، وهكذا أصبحت أواسط الجزيرة العربية وقسمها الشمالي مسرحاً لحرب عصابات واسعة ، واضطرب حبل الأمن العام المثالي ، الذي كان يسود البلاد ، وحلت محله الفوضى العامة في أنحاء نجد ، واكتسحته عصابات الاخوان الثائرين ، في جميع الجهات ، مهاجمة القرى والقوافل والعشائر التي بقيت على إخلاصها للملك » .

ويقول مؤلف « توحيد الجزيرة » إن الملك اطمأن على تطويق الحركة فتوجه للحجاز ، ولكن ما أن أدار ظهره حتى استؤنفت الغارات الاخوانية على العراق ، وتبعتها غارات الانجليز ، فاضطر للعودة الى الرياض شبه متسلل بسبب الثورة العامة

---

* كما زعم محمد المانع ..

في المنطقة ما بين الحجاز الى نجد .. بل وبحثت في أوساط الاخوان خطة لغزو الرياض ذاتها .. ويروي أنه في بعض المناطق التي وصل إليها الملك كان استقباله فاتراً ، لأن الأهالي كانوا مع الاخوان أو يخشون الاخوان !..

اعتمدت الثورة على عنصرين :

منطلق صحيح مقبول لدى الجماهير العريضة ، أقنع هذه الجماهير بأن عقيدتها في خطر ، وحركتها مهددة من الناحية المسلكية . ومن ثم فقد أقتنعت بأن « الخروج » مشروع . والثورة واجبة فرضا .

ولا يجوز الظن أو اتهام كل هؤلاء الذين خرجوا خلف الدويش وابن بجاد ، بالغفلة أو الأحقاد أو الأطماع الشخصية ، وهم الذين شكلوا بشهادة عبد العزيز « أنقى الحركات الاسلامية » ولم يبخلوا بدمهم لحظة واحدة في طاعة الامام .

هؤلاء المجاهدون ، لا يمكن أن يشقوا عصا الطاعة على إمامهم ، إلا لسبب قوي ، أخذوا بظاهره ، وخفيت عنهم أبعاده الأخرى ، أو كما قلنا ، رفضوا الاقرار بوجود هذه الأبعاد . ولعل أصدق وصف هو ما قاله الملك الذي حاربهم وحاربوه « فئة تتعبد عن جهل » .

إن الخلاف في جوهره ، هو رفض الاخوان أن تقوم دولة عصرية بسيوف المؤمنين ، تمسكهم بحرفيات التجربة الأولى ، ومن الجانب الآخر عجز عبد العزيز والعلماء والفكر الاسلامي عن تجسيد هذه الشعارات وتلك المسلكية في قوانين ومؤسسات عصرية .. وهكذا بقدر ما كان الشعار الاخواني صحيحاً من الناحية النظرية بقدر ما كان يبدو مضحكاً وغريباً من الناحية العملية ، كذلك كانت مسلكية دولة عبد العزيز ، فهي من ناحية تبدو ابتعاداً عن حرفية النصوص ، ومن ناحية أخرى تبدو التطبيق الوحيد الممكن للمحافظة على دولة منتمية لهذه النصوص .. وهكذا اتفق النقيضان واصطدما في نفس الوقت . فعلى سبيل المثال اتفق الاخوان وعبد العزيز على استنكار المكوس أو الضرائب والجمارك من الناحية النظرية . وهذه الضرائب ظاهرة حديثة ، قد تكون لها ضرورياتها ، بل ومن الممكن تلمس فتوى بمشروعيتها ، وهو ما أخذت به الدولة ، ولكن لا سبيل الى إنكار قوة حجة الذين رأوا فيها مخالفة لنظرة وقيم المجتمع الاسلامي ، القائم على حرية العمل ، حرية التملك ، حرية التجارة .. فمادام المالك أو التاجر يؤدي الزكاة أو حق المال ، وما دام المستهلك يؤدي حق المجتمع ، وهو العمل للقادر عليه ، فليس للسلطة أن تتدخل بينهما بالمكوس .. والتحكم في الأسعار مرفوض أيضا أو قل مكروه ، أو غريب عن الفكر الاسلامي ، والنظام الاسلامي ، والدولة السعودية لم تحاول فلسفة الأمر ، أو الزعم باسلاميته ، بل أوردته تحت باب الضرورات التي تبيح المحظورات ، وفعلا بعد أن تفجر النفط ، ألغت الدولة المكوس والضرائب .

رأي الاخوان لم يكن خطأ في النص ، بل في التطبيق ، إذ كان يستحيل قيام دولة بدون موارد ، أو من زكاة الشعب السعودي « وقتها » . وموقف الدولة لم يكن خروجاً أو رفضاً للنص ، ولكنه قبول وضع جديد يحتاج الى « اجتهاد » أو قبول مالا ينطبق

على النص الشائع ، ولكنه ضروري لقيام الدولة المسلمة .. والحل الاخواني معروف وهو ان الدولة لا تحتاج لمثل هذه الموارد إذا استمرت في حالة الجهاد ، فالفيء من غنائم الفتوحات يكفيها دخلاً ، والمجاهدون لا يرهقونها إنفاقاً .. أي أننا نعود لنقطة البدء : استمرار الثورة .. أم التوقف لبناء الدولة المسلمة ؟

عبد العزيز رأى أن طاقة جيله قد وصلت الى غايتها في هذه المرحلة ، وأن الطوق البريطاني من حوله لا يمكن مواجهته بغارات الاخوان العادية مثلما حدث مع الهاشميين وحايل وبريدة .. فهذه امبراطورية عظمى تملك البحر والجو والبر والله سبحانه وتعالى قال وأعدوا لهم .. وقال ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة .. فهو بحاجة الى وقفة لاعادة تشكيل قواته ، وإعداد ما يستطيع .. تطوير حركة الاخوان الى ما يتفق ومتطلبات المرحلة الجديدة .. فهو لم يكن راغبا في تصفية الثورة ولا التخلص من الاخوان ، بل في حماية مكاسب الثورة المرحلية ، باكتشاف حلول إسلامية لمتطلبات تلك المرحلة .

ونفس الخلاف نجده في حكاية التجارة مع الكويت ، فسنجد نفس التناقض بين صحة النص وخطأ التطبيق . فالاخوان تساءلوا عندما منعت حكومتهم التجارة مع الكويت ، لأن حكومة الكويت كانت تستأثر بالضرائب التي يتحملها في النهاية المستهلكون في نجد . قال الاخوان : إذا كان أهل الكويت كفاراً وجبت مقاتلتهم . وإذا كانوا مسلمين فلماذا نقاطعهم ؟..

وهو سؤال سليم ومحرج بمفهوم دار الاسلام ودار الحرب . ولكن نقطة الخطأ فيه ، هو رفضه « المنزلة بين المنزلتين »*، رفضه الدخول في علاقات مع العالم الاسلامي ، وضرورة التعامل مع دول إسلامية لا تسلك السلوك الاسلامي الصحيح ، ولكن لا يمكن غزوها . والسعودية إذا كانت تريد البقاء كدولة ، لا تستطيع أن تحارب جميع « الكفار » ولا كل من « يليها من المشركين » .

وهكذا نعود الى نفس النقطة ، هل المطلوب قيام الدولة واستمرارها ومن ثم عليها أن تقبل قواعد المجتمع الدولي الكافر ، أو استمرار الثورة ، برفض القوانين الدولية والحدود .. الخ واستمرار زحف جند الله المنصورة والخيل العتاق المشهورة حتى تصل الى المحيط الذي لا تعلم أن وراءه أرضا ؟ وعندئذ لا يبالي أمير المؤمنين أين ستمطر السحابة فسيأتيه خراجها ؟!

ونفس الشيء عن رفض السفر الى بريطانيا أو مصر .. هل تستمر الثورة في الهجوم لنشر قيمها على مساحات جديدة من الأرض والسكان ، أي أن تبقى في حالة هجوم مستمرة ، كأفضل وسيلة للدفاع عن نفسها ، ضد من يحاولون خنقها في مهدها ، أو

---

* انظر هذه الحيرة في أوضح صورها في رسالة الدويش الى الأمير سعود بن عبد العزيز : « وهكذا أصبحنا لا مسلمين نحارب الكفار ولا عربا بدوا يغير بعضنا على بعض ونعيش على ما ينهبه كل منا من الآخر فمنعتنا من ديننا ودنيانا » !

كما قال تشرشل « كسر البيض الثوري ، في موطنه قبل أن يفقس وتنتشر أفراخه في كل مكان .. هل تستمر الثورة ، فتجدد نفسها ، وتكتشف الحل الثوري أو الاسلامي لمشكلة التكنولوجيا وغيرها ؟.. هل تستمر الحالة الثورية ، لكي لا تتحول الثورة الى نظام ودولة وجهاز قمع داخلي .. أو ملك عضوض ؟!

أم يكتفي ببناء النظام الثوري في بلد واحد ، وتفويت الفرصة على العدو الذي يريد استدراجها في معارك تنهكها وتستنزفها ..؟

هو خلاف قديم إذن ، وفي كل مرة كان يحسم لصالح الحضارة التي تختار بناء الدولة في إطار السيادة التي حققتها الحالة الثورية . أما حجم تلك السيادة ، ونسبة ما تحتفظ به من مبادىء الثورة ، فتختلف ، باختلاف الطاقة التي أتت بها الثورة ، ونوعية القيادة .. وبالتالي حجم النصر الذي تحقق أثناء الثورة .. وظروف هذا النصر .. وما يتبقى من « العظمة الداخلية » !

أما عن معارضة الاخوان لمرور الطائرات البريطانية في سماء السعودية ، فهو مطلب « ثوري » حتى يومنا هذا ، وإن كان تعنتنا في ذلك الوقت ، لأن الاخوان لم يفرقوا بين الطيران الحربي والمدني .. وأني لهم أن يعرفوا الفرق بين « آياتا » والسلاح الجوي الملكي البريطاني* !

أما معارضتهم لبناء الحصون على حدود العراق ، فقد أوضحنا أن الملك شاركهم الرأي ، في مخالفة ذلك للمعاهدات ، وخطره على أمن السعودية ، ولكن اختلفا على أسلوب المعالجة .. الدويش والاخوان عالجوه على طريقة من رأى منكم منكراً فليغيره .. وباعتبارهم أصحاب « أقوى الايمان » فقد غيروه بالسيف ! ودعوا لحسم الموقف باجتياح العراق وتحريره من حكم الكفرة والمرتدين .. أما الملك فتصرف بعقلية رجل الدولة المسئول الذي يعرف مقدار الفارق بين قدراته العسكرية ، وقدرات بريطانيا ، ومن ثم فمن الخطأ القول بأنه : « كان على الملك أن يوازن بين تطرف الاخوان والعلاقة مع بريطانيا ، وإخراج دولته من الحيز الاقليمي الى المجال الدولي »** .

هذا اللغو من المستضعفين معناه أن الملك اختار بريطانيا وصداقتها ، والأبهة الدولية*** على الاخوان ، لو كان هذا هو الخيار لاختار عبد العزيز الاخوان بالطبع ، ولكن الخيار كان أكبر وأعمق وأخطر ، كان في أبسط صوره مواجهة الاخوان أو الحرب مع بريطانيا وليس صداقتها أو خسارة هذه الصداقة .. وفي العمق كان :

الثورة أم الدولة ..

من يحكم ؟ جيش الثورة الدائمة .. أم الاطارات القادرة على بناء الدولة ؟!

---

* وبعد نصف قرن ستتهم مصر ، السعودية بأنها سمحت للطيران الروسي بعبور أجوائها فترد الرياض على « الاخوان » في القاهرة بأنه طيران مدني !

** كتاب « الاصلاح الاجتماعي » ..

*** بالعكس ! عبد العزيز رفض الانضمام الى عصبة الأمم !

من يقرر ؟
الذين يعتمدون على تفسيرات جزئية لنصوص تفقد قيمتها ، اذا لم تنطلق من وعي اسلامي ناضج ومناخ إسلامي صحيح ، تفسيرات تعرض كل مكاسب المرحلة للضياع بطرحها في مغامرات محتومة الخسارة ضد عدو ساحق التفوق ، وقبل امتلاك الوسائل المادية لمواجهته ، ودون دليل على توفر الطاقة الروحية القادرة على قهر هذا التفوق ..

وعلماء هربوا من مسئولية الاجتهاد ، ودراسة حقائق العصر ، فاحتموا ، أو دفنوا رؤوسهم في رمل « سد الذريعة » أي تحريم ما لا يعرفون إن كان ضاراً أو مفيداً ، لأن منع الضرر المحتمل مقدم على الفائدة المرجوه . وهي فلسفة عاجزة من عصور التخلف والانكماش ولا تصلح لبعث حضارة أو بناء أمة ..

أو أن يثيروا أعصاب المسلمين بحصر المطالب والاصلاح في « التوحيد » وكأنهم اكتشفوا الاسلام* ..

هل تترك الدولة لهؤلاء أم يقرر مصيرها ، الذين يطرحون اجتهادات وإن باعد التطبيق بينها وبين الصورة المثالية للمجتمع الاسلامي ، أو لتصور الحركة الاسلامية ، إلا أنها على الأقل تعطي العرب والمسلمين أول دولة تلتزم قانونيا وفلسفيا بالاسلام .. وتسأل الله أن يمن عليها بعلماء يشرعون الاسلام في قوانين تنظم الحرب وحركة المرور ! فيبقى الباب مفتوحاً لاجتهاد آخر أكبر وربما أكثر نجاحاً ؟!

ربما لو لم يكن هناك العنصر البريطاني الذي كان يتعجل الانفجار ، ربما أمكن الحوار داخلياً ، حتى ولو بعنف ، ولكن في إطار الوحدة ، ومع بقاء كل الأطراف ، وإن تعدلت أحجامها ونسبة تأثيرها في صنع القرار .

على أية حال ليس من حقنا نحن الذين لم نساهم في الثورة ، ولا شاركنا في مسئولية القرار التاريخي بتصفيتها ، لا يجوز لنا أن نوزع الأحكام والاتهامات ، وندين رجالا لأنهم أرادوا الاستمرار في الجهاد ، ولأنهم تخوفوا من تحول الرسالة الى ملك ، وغفر الله لمحمد أسد ، فقد بعثه الملك ليرصد موارد هؤلاء المتمردين ، ولمس بنفسه كيف كان الانجليز يقدمون الدعم لقيادتهم ، ولكنه لم يستطع أن يخفي حسرته على قواعدهم ، وهو يسمع تسبيحهم وتكبيرهم في الليل مقتنعين بأنهم يموتون في سبيل الله ، وضد الانحراف في الدعوة .

إنهم على اسوأ الأحوال مثل الخوارج ، الذين كانوا من أتقى الناس وأكثرهم عبادة ، حتى قيل إنه ما من خارجي قتله أو صلبه الامام الاوزيبيه الصلاة في جبهته . ولكنهم اخطأوا الاجتهاد فنالهم سيف الدولة الاسلامية . ولا يجوز أن نحرم هذا الجيل الخالد في تاريخ العرب ، من النعمة التي منحها لنا الاسلام ، وهي : للمجتهد إن اخطأ

---

* والغريب أن هذه الفكرة قد « تحنطت » وفقدت مفهومها فرددها الاخوان في مصر وباكستان : « الحاكمية لله » حتى قضى عليهم الحاكمون ، وتمزقت وحدة الباكستانيين وهم يدعونهم لفهم معنى « لا إله إلا الله » !

أجر وإن أصاب أجران ، ولا نملك أن نحرمه .

لقد كانت فتنة بين طائفتين من المؤمنين ، لم يجدا من يصلح بينهما ، فعسى أن تكون إحداهما قد فازت بأجر ، وفازت الأخرى بالأجرين* ..

فالعنصر الأول الذي سبب انفجار الثورة وشمولها ، هو منطلقاتها التي ـ كما قلنا ـ صحيحة نظريا ، خاطئة ، أو على الأقل قاصرة ، في التطبيق .

أما العنصر الثاني ، فهو القناعة بالزعماء .. ومن المخزي طبعاً أن تنهال الأقلام التي حاولت أن تكون موضوعية مع عبد العزيز ابن رشيد ، والشريف حسين بل والأدريسي ... تنهال تجريحاً على أبطال الوحدة السعودية ، وزعماء هذا البعث الحلم ، الذي مازالت قوى عديدة تحاول إعادته عبثاً !..

حافظ وهبه حضر حفل تسليم فيصل الدويش المهزوم الأسير ، وسجل الفارق بين دخوله القصر الملكي ، يوم كان قائداً من أكبر قادة جيش التحرير السعودي ، يحيط به حرس من مائة وخمسين مسلحاً ، له منزلة عظمى في نفوس أهل الرياض ، وعلمائها وسلطان نجد على رأسهم .. وبين دخوله أسيراً في حراسة الكفار الذين لجأ اليهم فسلموه ، وهو ما لم يفت الدويش أن يسجله فقال في رده على عتاب الملك : « لقد فررنا من وجهك الى الكفار ، فحملونا اليك في طيارة من طياراتهم** » .

والفارق بين الحالتين ، لا يحتاج لبلاغة في تصويره ، ولا عبقرية في تفسيره ، ولكن وهبه يتناسى السؤال ؛ وهو لماذا كان الملك والعلماء وأهل الرياض ينزلون فيصل الدويش ، هذه المنزلة الخاصة ؟! هل كان ذلك خوفاً منه ..؟ وقد ثار عليهم ، فما خافوه ، بل جاءوا به أو جيء به اليهم مكبلا بعدما هزموه ؟..

وما هو بالملك ولا الأمير .. إنما كانت منزلته لجهاده ، ومكانته في خدمة الدعوة ، وبناء الدولة ، فلما خرج عن الطاعة ، فقد مزاياها ، ولعل بعضهم يقول إن « فيصل الدويش » بدلا من أن يقرع على ترك هذا « النعيم » .. أجدر أن يعجب به ، او يؤسف له إذ ضحى واعيا بكل هذه المكانة ، وبكل ما كان يناله ، في سبيل الموقف الذي آمن به .

واذا كنا قد عجزنا عن التضحية ، فلا معنى للحقد على من استطاعوها ، فنغمطهم حقهم ، ونكون كالذين قيل فيهم ؛ لا يعملون ويكرهون أن يعمل الناس .

ولكن الشيخ وهبه ، لا يتعفف عن شق الصدور للكشف عن القلوب ، فيتطوع

---

* لم نفهم ولا نقبل اختيار مؤلف « الجزيرة تتوحد » الآية الكريمة : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » ليضعها على رأس فصل « معركة السبله » .

لا والله ما كان في موقعة السبلة ، من يجوز رميه بالكفر .. وإنما هم كما قال الله سبحانه وتعالى واستشهد علي رضي الله عنه بعد موقعة الجمل : « ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » سورة الحجر .

ولاحظ أن جريدة أم القرى فيما أذاعته عن الموقعة لم تستخدم كلمة الكفر أو الكفرة . ولا الملك قالها في أي بيان له . ولو حكم عليهم بالردة لما أعفاهم من الموت .

** وأخيرا تعامل الدويش مع تكنولوجيا الغرب في أحدث صورها !

بالشهادة ، بأن « كل من يعرف الدويش في الجاهلية ، ويعرف أخلاقه الشخصية يجزم بأنه منافق في دينه ، وأن ما يظهره من الشدة والغو مصطنع[٩٦] » !

لا حول ولا قوة الا بالله ، هكذا يزل العلماء ! وما الاسلام يا شيخنا إن لم يكن لهداية هؤلاء وتغيير أخلاق الجاهلية ، فيئد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابنته في الجاهلية ، ويبكي لبكاء طفل مجهول من أطفال المسلمين .. هل يمكن أن يحكم بنفاق المسلم ، استناداً الى تاريخه في الجاهلية ؟!..

وماذا على فيصل الدويش ، إن كان كما نقل الزركلي عن مخطوطه خالد الفرج « أنه عندما يسب يقال له يا ابن الشقحاء ، وهي أمه من آل حثيلين* ، من العجمان . كانت زوجة راكان بن حثيلين . فقبض عليه الأتراك ، وحبسوه في الاستانة . فتزوجها في غيابه سلطان الدويش فأولدها فيصلا ، وهذه الزيجة كانت شائعة ومألوفة عند البدو ، لا يأنفون منها قبل انتشار الدين فيهم[٩٧] » .

ولكن انتشار الدين في الحضر ، لم يجعلهم يأنفون من التنابذ بالألقاب وذكر الجاهلية !.. وهذا داء قديم فعندما انحاز عمرو بن العاص الى معاوية ، اتهم بأن أمه قالت « أتاني عشرة ليلتها ، فغلب عليه شبه العاص بن وائل فنسب اليه .. الخ » ما على عمرو فاتح مصر إن كان هذا سلوك أمه في الجاهلية ، ولا على فيصل الدويش ، فالاسلام يحكم بطلاق الغائب زوجها غيبة منقطعة ، وأي غيبة أبعد أملا من ذلك البدوي المسجون في اسطمبول التي لا يعود منها الأئمة !..

بل أمتد تشهير خالد الفرج الى القبيلة كلها فقال : « إن قبائل مطير (قبيلة الدويش) كانوا دائما أعداء آل سعود ، هم أول من تلقى طوسون باشا في الحجاز ، ونقل حملته الى القصيم ، وانضموا الى حملة ابراهيم باشا على الدرعية ، وقاتلوا في صفوفه . ثم انضموا لخورشيد باشا ، وأخيراً انضموا الى ابن رشيد الى أن ضربهم ابن سعود في وقعة جو لبن[٩٨] » .

أما نحن فنقول إنه مهما قيل في الدويش وبطولات الدويش ، وجهاده في سبيل الحركة ، وبناء الدولة السعودية ، وهيبته التي أرعبت الاعداء ، وأعزت المؤمنين ، وجعلت فيلبي يسجل مفتخراً فوزه بمقابلته « فيصل بن الدويش الاخواني المهاب ، قائد الأرطاوية ، الذي أراه الآن لأول مرة منذ أن قدموني له في ديسمبر الماضي . وكذلك فيصل بن حشر » ويقول : « فيصل بن حشر يأتي في المرتبة الثانية بعد فيصل الجبار (الدويش) وكان على قدر كبير من الفهم والدبلوماسية ، وكان ابن سعود يتبسط أمامه

---

* حثلين معناه كرشين أو بطنين دلالة على ضخامة البطن ، وربما كان من الدلائل على عظمة التغيير الذي أحدثه ابن سعود في هؤلاء البدو ، تأمل أسماءهم ومدى الجفوة فيها وبعدها عن الاسماء الاسلامية . ولا عجب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يغير أسماءهم بعد الاسلام ، ويوصيهم بأن يحسنوا تسمية أبناءهم .. وهذا بعض من اسماء زعمائهم : خنيفر بن طويلة . خميس بن منيخر . مشل بن برغش . ضيدان بن حثيلين وهو زعيم العجمان في موقعة السبلة وبعده جاء « أبي الكلاب » بن حثيلين .

ويشرح أفكاره التي لا يفهمها « فيصل الدويش » . وهذا يفسر استمرار فيصل بن حشر على ولائه لابن سعود عندما وقعت الفتنة » .

وهو فيصل الدويش الذي عندما جاء الى معسكر ابن سعود عشية معركة السبلة يقول مترجم الملك الذي تطوع بنعته بالكفر* ، يقول : « كان كل شخص في معسكر الملك ، حريصا على إلقاء نظرة على الرجل العظيم ، فرغم أن الدويش كان عدونا ، إلا أنه كان له سحره الخاص ، الذي لا يفوقه إلا سحر الملك شخصياً ، فشجاعته وصبره وجلده كانت أسطورية١٣م وفدائيته كانت تثير حماسة لا نظير لها بين جنوده٩٩ » .

هو فيصل الدويش الذي قيلت في مدحه القصائد ، وسمي وزير الامام .. قال بن عثيمين في فتح حائل ١٣٤٠ ـ ١٩٢١ :

« وما أنسى لا أنس ابن سلطان فيصلا ... له ما بقي مني الثناء المنمنم
أخا الحرب إن عضت به الحرب لم يكن ... جزوعا ولا من مسها يتألم
وزير إمام المسلمين الذي له .. ... مشاهد فيها معطس الفسق يرغم
إذا ناكث أو مارق مرقت به ... عن الدين نفس للشقاوة ترأم
سما مشمعلا فيصل نحو داره ... يخوض بحارا بعض خلجانها دم
بأمر امام المسلمين ورأيه ... ولا عز إلا بالامامة يعصم »**

وهذا الذي هرب طفلا من مكة فزعاً من جيش التوحيد الذي يقوده الاخوان هل يحق له أن يصف الدويش « بالمجرم » ؟! ورأس البلاء والشر والفتنة .. يا للعار !

مهما قيل في مجد الدويش الاسلامي ، فلن يكون ذلك فوق حقه ، وبنفس اليقين لا يمكن أن نتهم بالمغالاة ، إذا قلنا إنه يدين بذلك كله للدعوة ، فبدونها وبدون الانضمام للحركة تحت راية عبد العزيز ، لم يكن لفيصل الدويش من حظ في التاريخ أكثر من عشرات « فيصل الدويش » الذين عبروا في حياة مطير ونجد وبنفس الاسم ومن نفس العائلة ، لا يكادون يذكرون الا بفضل فيصل هذا الذي « دين » . فقد قاتل فيصل الدويش عبد العزيز أكثر من مرة قبل أن ينضم الى « الهجر » فهزمه عبد العزيز ..

أبطال التاريخ، هم الرجال الأفذاذ، الذين تتجلى عبقريتهم في القدرة على اكتشاف اتجاه التاريخ ، ومن ثم يربطون مصيرهم بالتيار الصاعد ، فيحملهم الى القمة ، اذ

---

* إذ لا يعقل أنه كان يقصد جيش الملك !

** والبيت الأخير يدل على أن التوجس من تضخم نفوذ الدويش كان وارداً ولذلك حرص الشاعر على تأكيد طاعة الامام وأن مصدر العزة منه . وبعد ٩ سنوات لا أكثر ، سيقول نفس الشاعر مهنئا الملك بالقضاء على الدويش وأصحابه :

« هم بدلوا نعماك كفراً وبوءوا ... نفوسهم دار البوار فما أغبى !
فمن سل سيف البغى فاجعله نسكه ... ومن شب ناراً فارمه وسط ما شبا
ومن تاب منهم فاعف عنه تفضلا ... فحسبهم ما قد لقوا منكم حسبا .

تتجلى قيم الحركة في سلوكهم ، وتتألق مزاياهم في نور الحركة ومبادئها .. خياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام .. نعم إذا اسلموا ذكرت فضائلهم في الجاهلية ..

وربما كان هناك من يفوقهم في الصفات الفردية ، ولكنه يخطىء موقعه من حركة التاريخ ، فيهوي مع القوى الزائلة ويدفن تحت أنقاضها ..

وفي صفحات ابن بشر أكثر من فيصل الدويش ، بعضهم قاتل مع الأئمة وبعضهم قاتل الأئمة ، ولكن فيصلا هذا وحده جاء في اللحظة المناسبة ، وتعلق براية ابن سعود فلمع وتألق ، ثم اصطدم به فاحترق ، كما تحترق الشهب باصطدامها بالكواكب أو الشموس .

ولا ننفي الدوافع الشخصية لهذا البدوي ، وهي في حد ذاتها ليست عيباً ، والنبي صلوات الله عليه ، وعد سراقة بأساور كسرى .. والله سبحانه وتعالى يمن على الذين استضعفوا ويجعلهم الوارثين .. المهم أن تكون هذه الدوافع مرتبطة بهدف صالح وغاية عامة .

أما ابن بجاد فقد أجمعت كل الروايات المتزنة على صلاحه وتقواه* ، وبعده عن التطلعات الشخصية ، وهو الذي حمل القسط الأكبر في ما جرى فهو الذي انسحب من حصار جدة ، وقاد الحملة ضد عبد العزيز ، وهو الذي أثار الحرب باعلانه الجهاد ضد العراق ، وغارته على أهالي القصيم ، وهو الذي ورط الدويش في القتال كما يقول آل

---

* قال لي الأمير مساعد بن عبد الرحمن أخو الملك عبد العزيز « ابن حميد رجل مخلص لمبدئه ، ولما يؤمن به . وربما كان الدويش له اطماعه ولكن ليس الى الحد الذي يطمع فيه بالملك ، والدويش كان لا يفي بوعوده . وأنا لا أبرىء ابن بجاد من مسئولية ما حدث ولكن كان تصرفه عن عقيدة ومبدأ ، ولا أؤيد من يتهمه بالتطلع للملك وربما استغله أولاد عمه والمنتفعون منه ، أما هو فكان خالص العقيدة لا يكف عن تلاوة القرآن طوال سجنه ، ولما جيء بالدويش الى السجن رفض أن يتحدث معه لأن الدويش تعامل أو لجأ الى الانجليز .

وفسر الأمير قسوة الملك أو بالأحرى رفضه العفو عن ابن بجاد كما فعل مع الدويش الجريح ، بأن ابن بجاد هو الزعيم الحقيقي ، وهو الذي يتزعم أكبر قوة وهي قبيلة عتيبة ، والغطغط أقوى وأهم من الأرطاوية . ولذلك كان الملك لا يخشى انتقاض الدويش ولكنه يحسب حساب ابن بجاد وعتيبة ومن هنا كانت سلامة الدولة تتطلب سجن ابن بجاد .

لقاء مع الأمير بقصره في الرياض ١٠ آيار (مايو) ١٩٨١ ـ ٧ رجب ١٤٠١ .

أما « محمد المانع » مترجم الملك وأرامكو فقد أعطي القضية نكهة انتهازية خاصة إذ قال : « إن الملك طلب من إبن بجاد أن يقابله في شقرا .. وتوجه الملك الى هناك وانتظرنا لنرى اذا كان سيأتي فعلا . وابن بجاد من ناحية الأتباع أقوى بكثير من الدويش ، ولكن الملك كان يعتبر الدويش أخطر بكثير لأنه كان متوقد الذكاء على نحو غير عادي . فرغم شجاعة وصلابة ابن بجاد التي لا جدال فيهما . فانه لم يعرف عنه الذكاء . ولذا سقط ابن بجاد في الشرك (!) وجاء الى شقرا بخمسين من رجاله متوقعاً نفس المعاملة التي لاقاها الدويش ، ولكن الملك لم يكن محاصراً هذه المرة (سنرى تفسير ذلك) فقال له الملك : أنت لا تساوي شيئاً .. الدويش هو صاحب الرأي والذكاء ثم أرسل به في الأغلال

الدويش اليوم ، ولكنه ما أن وقعت الهزيمة الأولى ، حتى خرج من الحرب ، وطلب الاستسلام من الامام ، فأمره بأن يتوجه الى شقرا ويسلم نفسه ، فانصاع لما أمر به وكأنه فلاح مطلوب للتجنيد ، مؤثرا بذلك إنهاء المأساة عند هذا الحد ، فلا يتورط أي جانب في أخطاء أكثر . والله أعلم بالنوايا ، ولكن الحقيقة المؤكدة أن ابن بجاد باستسلامه هذا نجا من المشاركة في الفتنة الثانية ، وأهم من ذلك نجا من شبهة التعاون مع المشركين والانجليز ، ولا عار عليه أن استسلم للامام ، فذلك أشرف لدينه ودنياه من أن يلجأ الى الانجليز فيأتون به مخفورا ..

كان عبد العزيز يعرف صلابة ابن بجاد ، ومكانته ، ومن ثم رأى أن المصلحة العليا تتطلب الاجراء الذي اتخذه ضده[١٤]م .

وقبل أن ننتقل الى مأساة هاملت نجد ، يجب أن نذكر موقف عبد العزيز الذي عانى وحده ، كل أبعاد المأساة .. وكان مهدداً في ملكه وحياته ، وكل ما بناه . ومع ذلك كان يمنع ـ كما أشرنا ـ مهاجمة الاخوان في مجلسه . فليت الذين يخيل لهم أنهم يتقربون لعبد العزيز بسبب الاخوان ، يتأملون موقف ابن سعود ، ويعرفون أنهم بأسلوبهم هذا يشككون في أسس التجربة كلها ، ويسدون الطريق أمام أية محاولة للبحث عن الحل الاسلامي . وهذه إحدى رسائل عبد العزيز كتبها في عنفوان الحرب بعد معركة السبلة ، والدماء لم تجف بعد ، ولكن نلاحظ فيها محاولته حصر الاعتراض في القيادات الثائرة .. وتلمس العذر « للذين يتعبدون عن جهل » .. فلعل الذين « يتقربون عن

الى الرياض »[١٠٠] .

وهي رواية تجرد الملك من فضل العفو عن الدويش في المرة الأولى ، إذ زعم أنه عفا عنه لأنه كان محاصراً من فرسان الدويش !

كما أنها تخالف المنطق ، فالخطر لم يكن من ذكاء الدويش ، بل من أتباع ابن بجاد وهذا ما جعل رجل الدولة لا يخاطر بالافراج عنه .

ونقل جون حبيب عن ماجد بن خثيلة وعبد الرحمن بن عبد الله آل سعود إن ابن بجاد كان يحركه الوازع الديني ، وكان قلقاً من الاتجاه الى « التحديث » والارتباط بالنصارى أما الدويش فكانت له أهدافه السياسية وطموحاته في السلطة .

وقد قالت أم القرى « إن الملك خاف على حياة ابن بجاد إذا دخل المعسكر الملكي ، ولذلك أمره بالتوجه الى الرياض أو شقرا .. » ١٢/٤/١٩٢٩ ـ شوال ١٣٤٧ . أما عن خالد بن لؤي ، فقد كان همه الأكبر هو القضاء على عرش الحسين واخراجه هو وأولاده من الحجاز . ويمكن القول إن علاقات آله مع آل سعود اعرق واوثق ، كما أن اتصاله بالعالم الخارجي ، كان أكبر . ولذلك كان أكثر اقتناعا بمنطق الدولة . فظل على ولائه وإخلاصه وطاعته حتى النهاية . ولم ينضم لرفاق السلاح ، رغم حدة معارضته في حصار جدة كما أشرنا في موقعه .

وقد توفي تحت راية عبد العزيز في أبها في نهاية عام ١٩٣٢ ـ ١٣٥١ . وقال عنه فيلبي « كان رجلا عظيما بكل معنى الكلمة ، فهو متزمت متعصب ، خادم مخلص لمولاه » وقد تولى ابنه بعده إمارة خرمة .

جهل » يتعظون . قال* : « وبعد ، فنعرفكم أنه من مدة ثلاث سنين ، وبعض هؤلاء الاخوان وخاصة أهل الغطغط والدويش ، **وقسم من الغلاة الذين يتشددون بالدين** ، ويصير معهم تعصبات وأمور مخالفة لأمر الشرع ، وقد كانوا مغرورين ، **ومعهم بعض المهاجرين من البادية ، وهم يرون أن أمرهم حق لأجل محبتهم للدين** . ولكن والحمد لله انكشف الغطاء عن كثير من المسلمين ، ورأوا أن هذه الجماعة بين فرقتين : **إحداهما تتعبد عن جهل** ، والأخرى لها بعض المقاصد السيئة كطمع وغيره ، وتجعل الدين لها حجة ، وبهذه الأيام بعد رجوعنا جمعت أهل نجد مع علمائهم وقرروا ما قد بلغكم . والقصد من ذلك الكشف عن الحقيقة لأغلب الناس ، وتبين أن **هؤلاء الغلاة ليسوا على حق** ..

ثم بعد ذلك أكثرنا لهم النصائح والدعوة لأجل براءة الذمة عند الله ، ثم النصح للرعية ، ولكن ، لم يفد ذلك ، فاجتمعوا هذه الأيام ، وأشاعوا **عند أهل نجد أنهم غازون ، وأن قصدهم القصور وأهل القصور التي في حدود العراق ، يريدون بذلك خديعة أهل الحق** ، وبعد ذلك تبين أمرهم أنه فاسد ، وأخذوا بعض الرعايا ، فلما تحقق ذلك عند المسلمين وثبوا وثبة رجل واحد ، جزعاً من أمرهم ، واجتمعوا لوضع حد حازم لهذه الأمور ، فلما تكامل جمعهم ، دعوناهم لتحكيم الشريعة في جميع أفعالهم . وأبوا عن ذلك .

ثم بعد ذلك أرسلنا لهم الشيخ عبد الله العنقري ، والشيخ أبا حبيب ودعوهم فلم يقبلوا ، فلما رأينا ما بهم من الفساد وعدم الإمتثال للشريعة والولاية ، استعنا بالله عليهم ، وأمرنا المسلمين يمشون اليهم ، والحمد لله أخذهم الله وقتل منهم جملة ، والمسلمون من فضل الله لم يصابوا إلا بخسارة قليلة جداً تعد بالأصابع ، وبعد ذلك رجعوا وطلبوا العفو ، **وتبين للقوم الذين معهم أنهم ضلوا الطريق** ، وجميع من كان معهم وسلم من القتل عفونا عنه إلا الدويش وابن حميد ما أعطيناهم إلا بتحكيم الشريعة فيهما لأنهما أساس الفساد ، والدويش جريح ، الله أعلم أنه يموت أو يحيا ، وأيضا قبلوا تحكيم الشريعة فيهم لأجل أمرين : الأول الحمد لله ، تركهم الناس ، لأن منهم من قتل ومنهم من زبن المسلمين وعفونا عنه ، والثاني أنهم ليس لهم ملجأ . **والحقيقة أننا ما كنا نحب أن يصير بين المسلمين قتل رجل واحد** ، ولكن امتثالا لأمر الله في قتال الباغين والسعي وراء راحة المسلمين أجبرنا على ذلك والعاقبة من فضل الله حميدة للاسلام والمسلمين .

الآن والحمد لله أهل نجد مسرورون ومرتاحون ، العارف منهم استراح ، وحصل له

---

* أصل هذه الرسالة أثبته حافظ وهبه عن كتاب موجه له شخصياً من الملك عبد العزيز ولكن « أمانة » المؤرخين العرب ، اقتضت حذف الاشارة الى حافظ وهبه . الذي حال « تواضعه » بدوره دون تعريفنا هل كانت كتابا دوريا كما يقول حاسدوه ، أم اختصه بها ابن سعود ؟!

مقصوده ، والجاهل ، ذل وبطل مقصوده ، وبموجب ذلك أحببنا تعريفكم[١٠١] .
٢٢ شوال ١٣٤٧ ـ ابريل ١٩٢٩ .

والرسالة وإن كانت متأثرة بالطبع ، بالظرف الساخن ، حيث الحرب مستمرة ، ولم تنته كما يطمئن ابن سعود سفراءه ، أو كما كان الظن باصابة الدويش . إلا أنها تؤكد :

ـ الطبيعة العقائدية للخلاف ، الذي أثاره جناح متطرف « من الغلاة المتشددين في الدين الذين يتعبدون عن جهل » .

ـ القواعد انضمت عن « جهل » وتدين أو محبة في الدين .

ـ ولأنه خلاف أيدلوجي يعتمد على اثارة عاطفة أو تدين الجماهير فقد حرصت القيادة على الحوار والتوعية .

ـ أراد زعماء التمرد أن يعطوا الحركة طابع الجهاد بالمناداة بغزو العراق وهدم القصور هناك . ولكن ابن سعود أثبت عليهم تهمة « الخروج » بغارة ابن حميد على أهل القصيم « فأخذوا بعض الرعايا » . وهذا ما فعله علي بن أبي طالب مع الخوارج ، امتنع عن قتالهم ، حتى قطعوا الطريق وقتلوا مسلما وزوجته فقاتلهم .

والتقى الصفان

ارتكب الاخوان الخطيئة المحتومة ، التي ينتظرها ابن سعود ، اذ نهبوا تجار القصيم*كما هاجموا قوات ابن جلوى . وكانت تلك هي الاشارة التي ينتظرها ابن سعود ، لأن غزوات ابن بجاد والدويش ضد الكفار الانجليز ، الحاكمين والمتحكمين في العراق والكويت** كانت في نظر الاخوان عملا اسلاميا وطنيا يصعب رفضه أو ادانته من الذين حاربوا حفيد النبي . مع أن الحجاز كان مستقلا ، فلماذا يمنعون من مقاتلة ابنه في العراق ، الذي ولته أمرأة انجليزية على العرش ؟! ولماذا يمنعون من مهاجمة الكويت .. وحكامها هم من تعرفهم البادية وسيطرة الانجليز عليهم لا تحتاج الى دليل ؟! وفوق هذا كله ، فالانجليز هم الذين بدأوا التحرش ، وهم الذين لم يحترموا معاهدتهم مع عبد العزيز ، وهم الذين لم يحترموا سيادته ولا حرمة بلاده ، فضربوا « الهجر » بالقنابل وهدموا المساجد*** ... الخ .

اذا كان عبد العزيز يراعي الانجليز ، فان الاخوان لا يخافون الا الله ، بل وقهروا الانجليز . ألم يدمروا المخفر في بصية ؟ ألم يسقطوا طائرة ؟! اياك نعبد واياك نستعين وليدبر ابن سعود أمور الدنيا ، وليترك الجهاد للذين شموا « هبوب الجنة » .. واذا كانت هناك اعتبارات دولية تقيد حركة ابن سعود ، فانهم لا يطالبونه لا باعلان التأييد ولا الدعم ، فقط يترك « جند الله » « يجاهدون » الذين يلونهم من الكفار في سبيل الله والوطن ! فاما الشهادة ، واما النصر الذي سيضيف الى ملك ابن سعود . أما هم فلا يبغون الا الجنة التي هبت هبوبها من ناحية المنتفق والبصية والكويت ..

ومثل هذا المنطق كان موجودا حتى داخل بلاط الملك ، وان اتخذ تعبيرات غامضة ،

---

* قافلة ابن شريدة وكانت في طريقها من بريدة الى دمشق ، وقتلوا رجال القافلة ونهبوها . وكان الملك على أهبة السفر للحجاز ، بعد مؤتمر الرياض المشهور « فألغى السفر وبدأ الاعداد للحرب »[١٠٢] .

** هنا يحاول غلوب أن يدعي مساعدة ابن سعود ، بشكل غير مباشر ، فحتى غلوب على فجوره لم يستطع أن يبلغ في الادعاء حد الزعم بانقاذ عرش ابن سعود بالدعم العسكري الجوي !.. بل كل ما قاله هو : « ومن هنا نستطيع ادعاء **أننا بشكل غير مباشر قد ساعدنا ابن سعود في كشف أهداف الاخوان** ، عندما منعناهم من غزو العراق ، فاضطروا الى مهاجمة قبائل نجد ، مما جردهم من الدافع الديني[١٠٣] » .

*** في الهجوم على اللصافة دمرت الطائرات البريطانية «الهجرة» هناك والمسجد وعدة بيوت[١٠٤] .

ولو سارع عبد العزيز بضرب الاخوان من الخلف وهم « يغزون » في بلاد الكفرية « العراق « .. لبقت تلك الاسئلة حية في ضمير التاريخ ومسامعه . ولذلك لم يفعل . بل انتظر حتى هاجموا « المتدينة » من تجار القصيم وبدو الدولة التي ينتمون اليها ، فأصبحوا الخوارج الذين يكفرون المسلمين ، ويشقون عصا الجماعة ، ويحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً بلغة أهل الدين . ومتمردين يشعلون حربا أهلية لا تخدم الا العدو المتربص بالدولة الحديثة التكوين بمصطلحات المستشارين وأهل البلاط « والمتنورين » في الدولة والمجتمع .

وهنا تحرك ابن سعود لضربهم ، بعدما خسروا أرضية الجهاد التي حاولوا جر عبد العزيز اليها ، وفي اعتقادي أن هذا هو العنصر الأول الذي يفسر تباطؤ عبد العزيز في التحرك ، وتعمده كسب الوقت ، وليس لأنه كان يريد أولا تعهداً « بريطانيا » بأنه اذا ما حاربهم وانتصر عليهم ، وظلوا أحياء رغم الهزيمة وتمكنوا من الفرار واللجوء الى العراق أو الكويت أو شرق الاردن .. فان .. نعم ! فان بريطانيا تتعهد بتسليمهم* !

قد تبدو هذه وجهة نظر بعيدة جدا في حساب المستقبل ، والاطمئنان لنتائجه ، ولكنها في الحقيقة قصر نظر . فلم يكن ابن سعود يملك سلاحا يهدد به بريطانيا فاما أن تتعهد أو ... ماذا ؟. أو لا أحاربهم ؟! كأنه تجريدة بريطانية أو كأنها حملة فيلبي على حايل ؟!

لقد مارس ابن سعود التهديد الوحيد الذي تفهمه بريطانيا ، عندما قال : اذا لجأوا سأطاردهم في الأرض الواقعة تحت حمايتكم .. وأتى هذا التهديد بمفعوله ، ولكن بعدما « هزم » الاخوان . أما المطاولة فكانت لنزع الصفة الجهادية عن المتمردين . وأيضا لأن شيوع طلبه من الانجليز التعهد بتسليمهم يوحي بالثقة في النصر ، ويجعل الانجليز يبدون في صورة المدافع عن المتمردين ، فهم يرفضون تسليمهم ، ثم يرضخون لقوة ابن سعود ..

لقد استخدم ابن سعود قانون « الرحم الصحراوي » ضد المتمردين ، اذا استحال عليهم الخروج الى العالم برسالتهم وسيوفهم ، بسبب تفوق التكنولوجيا البريطانية ، وعدم اتاحة الفرصة لامتحان قدرة « الايمان » على اكتشاف الحل المضاد للطائرات ! كما اكتشف المسلمون الاوائل حل مشكلة الفيلة في القادسية .. ولذلك ارتد الاخوان للداخل يحاولون الرجوع الى الرحم الصحراوي الذي أنجبهم فاختنقوا .

والتقى الصفان .. أو نقول وكانت معركة « الجمل » ..؟! والله لا يستحي أن يضرب مثلا جناح بعوضه ..؟!

---

* قال الزركلي ان عبد العزيز تريث في ضرب الاخوان ، حتى يحصل على تعهد بريطاني بعدم السماح لهم باللجوء الى الكويت أو العراق أو شرق الأردن ، وأن التريث طال حتى توهم بعض الناس أن عبد العزيز راض عما يسميه الدويش وأعوانه جهادا .

وقد أشرنا الى وجود نفس الاعتقاد في حاشية الملك كما جاء في كتاب « توحيد الجزيرة »[١٠٥] .

عشية المعركة جاء الدويش الى معسكر ابن سعود .. وقد روى مترجم الديوان الملكي الذي حضر الواقعة، وقال ان خيمته كانت بقرب خيمة الملك، رواية تخالف جميع الروايات التي وردت في سائر الكتب والمراجع .. وخاصة فيما يتعلق بمبيت الدويش في معسكر ابن سعود .. قال : « في زلفى وصل عبد العزيز بن فيصل الدويش وماجد بن حثيلين برسالة من معسكر الاخوان مضمونها : « نحن لا نريد الحرب ونطلب العفو ، ومستعدون بارجاع ما نهب من ابن شريدة » فكان رد الملك « نجلس أمام محكمة الشرع » .

وكان واضحا أن الملك يريد تجنب الحرب بأية وسيلة ، بل ويمكن أن نقول نفس الشيء عن الدويش ، الا أن المتطرفين كانوا موجودين على الجانبين .

يقول المؤلف ان عبد المحسن الفرم رئيس حرب علق على رسالة الاخوان : « يا الامام ، هؤلاء يريدون خديعتك ولا بد من الحرب ! » ولكن الملك وافق على أن يرسل لهم عبدالله العنقري من كبار رجال الدين. وجرى حوار حول أين تعقد محكمة الشرع، فاقترحوا أن تكون في خيمتهم . وبالطبع رفض الملك الاقتراح ، فاقترحوا خيمة محايدة ، تقام في منتصف المسافة بين المعسكرين ، فرفض هذا الاقتراح أيضا ..

وموقف الملك هنا طبيعي ومفهوم ، فهما ليسا طرفين متساويين والنزاع ليس معروضا للتحكيم ، بل هي الدولة ازاء متهمين بالخروج على القانون ، فلا بد من « وطء البساط » أو المثول أمام عدالة الدولة ...

وأخيرا تم الاتفاق على أن يأتي عنهم ممثل لخيمة الملك فجاء الدويش نفسه ...

« جاء غير مسلح الا بثمانية محاربين من مطير ، فيهم ابن عمه فيصل بن شبلان ، وكان الدويش قد اشترط أن تكون خيمة الملك خالية الا من الملك نفسه ، وكانت خيمتي* قريبة من الملك مما أتاح لي فرصة رؤية الاجراءات . كانت خيمة الملك بها ٤ فتحات ، فجاء اثنان من حرس الدويش ، ورفعوا جميع الاطراف ، للتأكد من أن الاجراءات المتفق عليها اتخذت ، وكان الملك وحده في الخيمة ، وأقسم هو والدويش على الا يضرا بعضهما . واستغرقت المفاوضات ساعة وبعدها خرج الدويش وأمر حرسه بتسليم سلاحهم . فقد عقدت هدنة . ثم دعي للعشاء مع الملك حيث عومل معاملة ضيف شرف** . وأجريت عرضة لتكريم الضيف وأيضا لتذكيره بقوة الملك وبدأ الفرسان يغنون نشيدا حربيا كان قد ألفه عبد المحسن الفرم : أنا أخو من أطاع الله ! يا ويل عدو الشريعة منا*** .. وتقدم أحدهم من فيصل بن شبلان وصاح في وجهه : أنت المقصود » .

---

* أي محمد المانع مؤلف Arabia Unified .

** ويبدو أنه كان عشاء فاخرا فهناك رواية مصدرها وهبة أن الدويش لما عاد قال أبشروا جئت من عند حضري ليس حوله الا طبابيخ (طباخين) ولا يعرفون النوم الا على الدواشح . أي المراتب وهذه تعزز رواية مبيته والا فكيف عرف أسلوب نومهم ؟!

*** هذا الهتاف سابق على المعركة التي يرويها بسنوات طويلة . بل هو من أيام الدرعية .

وقال المؤلف « ان الدويش صلى مع الملك ، وبات في خيمة مجاورة للملك وأن ذلك كان لحمايته ومراقبته . واستمرت المحادثات في اليوم الثاني . وقال الدويش انه سينقل الأمر الى ابن بجاد ولكن اذا لم يحضر فهذا يعني الحرب »[١٠٦] .

ولما لم يعد في اليوم التالي ٣٠ مارس ١٩٢٩ ـ شوال ١٣٤٧ لبس الملك لأمة الحرب .. أما بقية الروايات ، فقالت انه طلب المبيت ، ولكن الملك رفض ، كما فسر المؤرخون لأنه عرف أنها خدعة ، وقال له « اذهب ونم عند أهلك ، وموعدكم شروق الشمس ، فان كنت صادقا ، فتنح عنهم » .

ورغم أن صاحب رواية مبيت الدويش شاهد عيان ، الا اننا كنا أميل لتصديق وهبة ومعظم المؤرخين الذين أخذوا بروايته ، ولكن في مقابلة مع الأمير مساعد بن عبد الرحمن حسم الأمر اذ أكد هو بدوره أن الدويش بات في معسكر الملك ، حيث كان الأمير مساعد نفسه هناك ومعه سعود بن سعد ، وعبد العزيز بن سعود بن رشيد .

وفسر التناقض الذي أورده جون حبيب* بأن الدويش بات ليلة ثم رجع الى جماعته وفي اليوم الثالث هجم الملك على معسكر الاخوان .

على أية حال مبيت الدويش في معسكر الملك ، أو سماح الملك له بالعودة ، كلها تدل على أن القتال لم يكن مرغوبا فيه من الطرفين الى آخر لحظة . وكان الأمل في تفاديه لايزال يسيطر على تصرفات المسئولين . ولكن كما حدث في موقعة الجمل ، بينما المساعي تدور ، فجأة انطلقت الأسهم ووقع القتال .

وبصرف النظر عن تعهد الامام بسلامة الدويش ، فلم تكن هناك فائدة في احتجازه ، فهو اما صادق في قناعته بالسلم ، ومن ثم فلا خطر في اعادته الى معسكر الأعداء لأنه سيدافع عن قناعته هذه .

أو أنه صادق في قناعته بانحراف الامام ، ومشروعية القتال ضده ، ومن ثم فوجوده في معسكر الملك يشكل مخاطرة ..

ولكن الدويش** لم يكن صلبا في قناعته ، كان حائرا بين ضميره وعقله ، بين الحس الديني الذي صاغ شخصيته وحوله من قاطع طريق الى سيف من سيوف الحل الاسلامي وبين المنطق السياسي ، الذي يفرض التسليم بالواقع ، والتعامل مع

---

* أكد غلوب أيضا مبيت الدويش ولكن جون حبيب رفض ذلك ورجح رواية وهبة مستدلا على ذلك بأن « المعركة نشبت في صباح اليوم التالي وكان الدويش على رأسها » صفحة ٢٦٤ .

** قال لنا ابن عم الدويش ، ان فيصل الدويش كان عازفا عن القتال ، ولكن ابن حميد (سلطان بن بجاد) وهو صديقه وصهره لجأ اليه (لأنه هو الذي هاجم قافلة ابن شريدة . وطلبه ابن سعود من الدويش ليرد ما سلبه من أهل القصيم . فقال الدويش أنا أدفع عنه الدية . ولكن عبد العزيز قال لا بد أن ابن حميد يجلس للشرع . وعاهد الدويش على ألا يحارب ابن سعود على شرط ألا يمس ابن حميد الا بالشرع . ووافق عبد العزيز . وعقد ابن سعود مجلس الشرع بحضور المشايخ ، ولكن ابن حميد ←

ضروراته ، مع ما في هذا التعامل من محذورات .. بين ولاءاته القبلية ، وقيم وتقاليد هذه الولاءات ، وبين طاعته وحبه للامام الذي هداه .. وأعطاه مجد الدنيا ، وصلاح الآخرة .. فلماذا يقاتله اليوم ؟!

حائر بين قبول « البدع » في ظل طاعة الامام ، أو السقوط في « معصية » شق عصا الجماعة والخروج على ولي الأمر ، واذلال السلطان .

بين التزاماته نحو ابن حميد وبيعة في عنقه للامام عبد العزيز ؟!

ومثل هذه الشخصية التي تمزقها الحيرة ، تتمنى أن يخلصها البطل من حيرتها .. بارغامها على اتخاذ موقف .. وسنجد رسائله بعد ذلك تستصرخ عبد العزيز « يا الامام لا تدفعنا الى الكفر » ، وستوجد في خيمته مسودات رسائل لم ترسل أبدا الى « الكفار » يطلب دعمهم .. وسيحمل جريحا للامام يتمنى أن يريحه فيقتله أو يبقيه في أسره ولكن الامام كما في أساطير العذاب سيعيده الى الأرطاوية حيث يشفى ويجبر على القتال مرة أخرى .

وسواء بات الدويش في معسكر الامام أو لم يبت فقد خرج سليما وما أن اقترب من معسكره ، وأحاط به الثوار أو المتمردون ، حتى تقمصته الشخصية الثانية ، فكانت تلك الرواية التى أشرنا اليها عن الامام الحضري المحاط بطباخين لا يعرفون النوم الا على المراتب !..

لقد نجح المنشقون في اشعال الثورة ،.المحتومة ، للأسباب التي ذكرناها ، ولكن في المعركة لم يثبتوا أنهم الفئة القليلة ، وشككوا في الاعتقاد الذي كان سائداً بأنهم العامل الوحيد في صنع الانتصارات السعودية ، فقد هزموا بسهولة غريبة ، وسقط فيصل الدويش جريحا ، واستسلم ابن بجاد ..

وانتصار الملك في معركة السبلة هذه ، فسر بأنه يرجع للتفوق الساحق لجيش الملك في العدد والعتاد* ، فالروايات تختلف عن نسبة القوات ما بين ثلاثة وخمسة أضعاف لصالح الملك ، كما كان الملك يمتلك سيارات ومصفحات . الا أن السبب الحقيقي

رفض الحضور، وطلب الدويش مهلة لاقناعه بالحضور فأمر ابن سعود بالهجوم»! وهذا يتفق مع رواية الأمير مساعد بن عبد الرحمن ، في أن المعركة لم تكن صباح يوم زيارة الدويش لمعسكر ابن سعود بل كانت هناك فترة زمنية هي اليوم الذي انتظر فيه عبد العزيز رد الاخوان فلم يصل. وتكذب مزاعم ديكسون عن هجوم غادر وقع على الاخوان وهم يحضرون طعام الافطار اطمئنانا لسير المفاوضات !..

ان الزحف الملكي بعشرات السيارات كفيل بافساد أي افطار !.. ولا يمكن أن يكون مفاجأة .

* وكأن عبد العزيز كان يقرأ التاريخ ، ويعرف أن أحدهم سيفتري يوما خرافة مساعدة الطيران البريطاني في قمع ثورة الاخوان ، فأراد أن يتقي الشبهات . فلم يقدم على استخدام طيرانه هو « فقد كان لدى عبد العزيز ٤ طائرات دي. اتش. ٩ بطواقمها الانكليز ، وكانت في الأحساء في نهاية عام ١٩٢٩ ــ ١٣٤٨ ولكنه لم يستخدمها ضد الثوار »[١٠٧] .

للهزيمة ، هو أن المنشقين كانوا يخوضون معركة ضد التاريخ ، وفقدوا أرضية الجهاد ، وخامر الكثيرين منهم الشك في صحة ما يقاتلون عليه .

« وكانت هذه هي المرة الأولى التي يهزم فيها الاخوان هزيمة عسكرية منذ ظهور حركتهم* » أما نحن فنقول كانت هزيمة سياسية لهم ، ونكسة لتجربة الحل الاسلامي ..

وينفرد محمد المانع برواية استسلام الدويش الجريح على هذا النحو :

« في الليل دخل فيصل بن شبلان ابن عم الدويش وقد أخفى وجهه تماما في حزمة هائلة من الحشيش زعم أنها لخيول الأمير « سعود بن عبد العزيز » فلما دخل خيمة الأمير كشف وجهه وأعلن شخصيته ، ووضع نفسه في حماية الأمير طالبا السماح له بمقابلة « الامام » . فلما تمكن من المقابلة قال للملك ان حريم الدويش قادمين غدا لمعسكر الملك . »

وقال ان الملك كان قد توجه لاقتحام الأرطاوية ، ولكن عبد العزيز بن فيصل الدويش رجاه ألا يدخل الأرطاوية لكي لا تقع فيها مذبحة ، واعدا بالحضور هو وأبوه غدا لمعسكر الملك . فوافق الملك وأمر بمحاصرتها وانتقل الى زبدة .

وجيء بالدويش محمولا ، ولم يكن قد عرف أنه مجروح ، وكشف عليه متطبب سوري وأعلن أنه لن يعيش !.. ووسط بكاء النساء والأطفال** ، وبعد أن اغتسل الملك من أي أثر للعطور أو الطيب حسب عادة البدو ، أو بناء على طلب عبد العزيز بن الدويش .. التقى الملك المنتصر والثائر الجريح .. وقال الملك :

ـ « هذا فعلك بنفسك »..

فرد الدويش : « يا الامام ان عاقبت فبذنوبنا . وان عفوت فأنت أهل للعفو .. »

رد الامام وكأننا في مسرحية من كتاب « الأغاني »

ـ « قد عفوت ! »

ويضيف مؤلف « العربية تتوحد » ان الملك سمح له بأن يتوجه حيث شاء « فطلب

وقال تقرير أمريكي بتاريخ ٢٧ فبراير ١٩٣٠ ـ رمضان ١٣٤٨ « تفيد المعلومات الوثيقة أن ابن سعود اشترى ٤ طائرات مطاردة بريطانية ، ومن المعتقد أن ابن سعود طلب هذه الطائرات بأمل استخدامها لمطاردة قائد المتمردين فيصل الدويش والعناصر النجدية العاصية ولكن من المعروف أن هذه الطائرات وصلت القطيف متأخرة جدا مما حال دون استخدامها في حملة نجد » .

القنصلية الامريكية في عدن .

* محمد المانع .

** قالت أم القرى : « عندما رأى الملك النساء يبكين ، بكى وبكى كل الحاضرين لهذا الموقف المحزن ، ورق قلب الملك وقلوب الجيش كله وهكذا وافق على شفاعة النساء » .

١٢/٤/١٩٢٩ ـ ذو القعدة ١٣٤٧

عن جون حبيب

التوجه للكويت ، وطلب نقوداً ، وقرب مياه ،وسلاحا ، وآلات حفر مياه* . فوافق الملك على كل هذه المطالب وكتب لوكيله عبد الله النفيسي لتوفير كل ما طلب ، بل وأكرمه بتسليمه الخطاب الموجه للنفيسي . » وانفرد نفس المؤلف بتفسير خاص لموقف الملك الشديد الكرم من الدويش اذ يقول « انه عرف من ابن فيصل الشعلان ، بعد ذلك بسنوات أنه خلال هذه المقابلة كان هناك خمسة آلاف محارب من مطير ، يحاصرون معسكر الملك » .

والسؤال لماذا لم يشتركوا في المعركة قبل أن يجرح وبعض الروايات جعلت كل جيش الدويش في معركة السبلة لا يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة ؟!

أما الروايات الاخرى فزعمت أن العفو كان بناء على تقرير المتطبب السوري الذي توقع الوفاة العاجلة ، فترك الدويش يموت بين أهله . ونحن نعتقد أن السبب الأساسي هو المكانة التي كانت للدويش في نفس عبد العزيز ، وعاطفة عبد العزيز نحو الاخوان وان اضطر الى قتالهم .. وأنه بدون ابن بجاد ، بدون عتيبة لا يخشى بأس الدويش ..

عاد الدويش الى الأرطاوية ويشاء حظ عبد العزيز وسوء حظ أنصار الحل الاسلامي ، بل وسوء حظ الانسان العربي المفجوع في أبطاله ، أن يشفى الدويش ، ولو مات لتحول الى أسطورة ، ولما وجدت ثغرة في سلوكه أو حياته فقد آمن واجتهد فأبلى أحسن البلاء .. ثم آمن واجتهد وقتل على ايمانه ..

ولكنه يشفى ، ليواجه نظرات نسائه ، وعتاب أو شماتة المطرية ، وتساؤلات المؤمنين من أنصاره .. هل باع القضية ، هل خان رفيق السلاح ، فقبل أن يفوز هو بالعفو والهدايا ، ويبقى ابن حميد (ابن بجاد) في السجن**؟!.. وتنهال عليه الاغراءات من شتى الاتجاهات ، وتتنبه كل القوى التي فاجأتها معركة السبلة ، وفاجأتها أكثر نهايتها السريعة والسعيدة !.. ويبدأ الانجليز في تنفيذ المرحلة الثالثة ، مرحلة الدعم المكشوف فتتجدد الثورة ، بل وعلى حجم أكبر وأخطر .

وهنا يركز ابن سعود على وقف التدخل البريطاني ، وفي نفس الوقت ينشط هذا التدخل ، مستغلاً إحساس المتمردين باليأس ، مع ضعف أو اختفاء القيادات التي كانت تتعفف عن قبول مساعدة الانجليز ، وانتشار عملاء النظام العراقي ، بل وعودة الذين كانوا قد هربوا من نجد فراراً من الاخوان ، عادوا الآن ، وانضموا الى الاخوان .. فنشط التعامل بين الانجليز والمتمردين ، وربما كان لهذا التصعيد في الدعم البريطاني المباشر ، أثره في الانتعاش السريع للتمرد بعد هزيمة السبله ، وأيضا في التلاشي الأسرع للحركة ، عندما تبينت القواعد ، هذه الصلة المتعارضة مع

---

* وهذه تعزز حجة انصار « التوطين » والمشروع الزراعي اذ يبدو أن الدويش كان متجها لبناء مشروع زراعي في الكويت !!!

** مع انه لو وفى بتعهده لشفع لابن بجاد ، ولكن نقضه العهد وعودته لمحاربة ابن سعود قضت على أي أمل في إطلاق سراح ابن بجاد .

الأهداف .. والتي نؤكد مرة أخرى انها ـ أي الصلة مع الانجليز ـ لم تكن تعبر عن رغبة أصيلة لدى الدويش .. ولكن جر إليها أو اضطر اليها كما سنوضح ..

وقد أفادت مخابرات ابن سعود ، أن الامدادات ، تتدفق على المتمردين من الكويت والعراق ، وعبد العزيز يعرف أن الحكم في الكويت أو العراق ، لا يغامر بتحديه إلا بموافقة وتحريض الانجليز ، أو كما قال : « نحن لا يهمنا الكويت ولا من فيه ، وإنما يهمنا الانجليز وموقفهم » ولذلك اعتبر موقف الكويت والعراق موقفاً بريطانياً ، فاستعد لمواجهته ، مؤكداً بكل التصرفات أنه يعتبر بريطانيا ، كما قيل في الموت : « لا تتمنوا لقاءه ، ولكن لا تهربوا منه » فهو يسعى لتجنب الحرب مع بريطانيا بكل وسيلة ممكنة ، ومنها التأكيد لها أنه مستعد للقتال إذا حاولت التدخل في شئون مملكته الداخلية ، أو الاعتداء على سيادته . ولذا فاستعدادات ابن سعود بعد معركة السبلة لم تكن لمواجهة الاخوان وحدهم ، فقد تحطم العمود الفقري لحركتهم ، وتحول الدويش الى ثائر مكسيكي ينهب البدو باسم البدو ، ويضرب ويجري في انتظار الاعدام .. حتى هزمته العوازم !

ولا كانت حشود ابن سعود بقصد مواجهة « جيش » الكويت أو « العراق » بل لمواجهة بريطانيا إذا أرادت منازلته في الصحراء ، وجهاً لوجه أو بواسطة العملاء .. وهكذا قلب الطاولة على الانجليز والدويش ، فبدلا من أن يضعه الدويش في موقع المتعاون أو حتى المعرقل للجهاد ضد بريطانيا ، جعل هو الدويش يقاتل وظهره لبريطانيا .. وعبد العزيز يواجه بريطانيا كما بدا واضحاً للجميع .. فالسيل الذي تجمع في السبلة وأوشك أن يغرق البلاد والناس ، سرعان ما تسرب في الرمال وكأنه لم يكن عندما سحبه ابن سعود من قاعدة الجهاد الصلدة الى رمال المناورات السياسية الخادعة .

هذه المواجهة مع بريطانيا ، أو لتجنب المواجهة مع بريطانيا ، كان ابن سعود بحاجة الى حملة اعلامية ، تكشف تورط بريطانيا ، في الصحافة العالمية والعربية ، وقد اختار « محمد أسد » لهذه المهمة ..

يقول محمد أسد :

« تبادر السؤال الى الأذهان : من أين يأتي الدويش بالمال الذي هو ، حتى في جزيرة العرب ، ضروري لشن الحرب ؟ ومن أين أسلحته وذخائره ؟ وجاءت تقارير غامضة تقول ، إن ذلك الثائر الذي سبق أن انتقد بعنف إقدام ابن سعود على عقد معاهدات مع الكفرة ، كان هو نفسه يتعامل الآن مع البريطانيين ، وسرت شائعات مفادها أنه يقوم بزيارة الكويت باستمرار ، فأخذ الناس يتساءلون هل يمكن أن يفعل الدويش ذلك دون علم السلطات البريطانية ؟ ألم يكن من مصلحة هذه السلطات ، على الأصح ، أن يسود الشغب والفوضى أرض ابن سعود* ؟

---

* هذا هو فهم المعاصرين والمقربين لابن سعود .

وهكذا في صيف عام ١٩٢٩ ـ ١٣٤٨ انتزع محمد أسد من فراشه ليقابل « الشيوخ » فوراً ..

« وفي القصر كان ابن سعود في انتظاري في جناحه الخاص ، جالساً القرفصاء على الديوان ومن حوله أكوام الصحف العربية ، وفي يده جريدة تصدر في القاهرة ، وقد رد الملك على تحيتي باقتضاب ومن غير أن يتوقف عن القراءة ، ثم أشار إلي بالجلوس إلى جانبه على الديوان ، وبعد هنيهة رفع بصره ونظر الى العبد الذي كان واقفاً عند الباب ، ودلل بحركة من يده على رغبته في الانفراد بي ، وما أن أقفل العبد ، الباب وراءه ، حتى وضع الملك الجريدة من يده فنظر إلي برهة من وراء نظارتيه البراقتين ، كأنما لم يرني منذ وقت طويل رغم أنني كنت قد أمضيت معه ساعات ذلك الصباح نفسه » .

ثم قال الملك : « لعلك تحب أن تكتب عن هذه الثورة ، وعما تنذر به من سوء » لقد كان في صوته أثر الانفعال عندما تابع كلامه : « إن الأشراف يكرهونني ، وأبناء الحسين الذين يحكمون الآن في العراق وشرق الأردن سيظلون يكرهونني دائما ، ذلك أنهم لا يستطيعون نسيان أنني أخذت منهم الحجاز ، إنهم يحبون أن ينهار ملكي ، فعندئذ يسهل عليهم أن يعودوا الى الحجاز . وأصدقاؤهم الذين يدعون صداقتي أيضا ، قد لا يكرهون ذلك ، إنهم لم يبنوا تلك القلع* إلا بهدف** ، لقد أرادوا خلق المتاعب لي ، وأن يبعدوني عن الحدود لقد كنت أفكر ، شأن كل واحد غيري ، في الأسلحة والذخائر الموجودة في حوزة الدويش ، إن لديه كثيراً منها ، وكثيراً من المال أيضا ، كما تقول التقارير الواردة إلي ، وإنني لأتساءل عما إذا كنت ترغب في الكتابة عن هذه الأمور ، أعني تلك المصادر الخفية لذخائر الدويش . إن عندي ظنوني الخاصة ، ولعلها أكثر من ظنون . ولكني أحب أن تجد بنفسك كل ما تستطيع ، فقد أكون على خطأ . أريدك يا ولدي أن تجد بنفسك ، أقول بنفسك ، من أين يأتي الدويش ببنادقه وذخائره ، وأمواله التي ينثرها بمثل هذا السخاء ؟ إني أكاد أكون على ثقة تامة ، ولكني أحب أن يتأتى لشخص مثلك أنت ـ لا علاقة مباشرة له بالأمر ـ أن يخبر العالم عن الحقيقة الملتوية وراء ثورة الدويش . وأعتقد أن باستطاعتك أن تكشف الحقيقة » .

ويروي أسد أنه فكر في هذه الساعة في « مشروع بريطاني لمد خط سكة حديد من حيفا الى البصرة لحماية طريق النفط ودعم المواصلات الامبراطورية مع الهند ، وأن هذا المشروع يحتاج الى دويلة تقتطع من أرض السعوديين ليمر بها الخط ، وربما كان الدويش هو أداة في تنفيذ هذا المشروع »*** .

وفعلا توجه محمد أسد ، ومرافقه زيد الى الكويت ، وفي الطريق ، رأوا كتائب المتمردين ، وعرفوهم من ترديد : « لا إله إلا الله » : « الجملة التي كان الاخوان

---

* الحصون أو المخافر ..

** هذا رأي عبد العزيز في الانجليز فبأي حق يدعى بعضهم أنهم أنقذوا عرشه أو ساعدوه ؟!

*** وهذا يعني أنه قام باستطلاعه برأي مسبق فلزم التنويه .

يستعيضون بها عادة عن أناشيد السفر الصحراوية المعروفة التي يغنيها البدو « الضالون » وكان على رأس كل منهم عمامة بيضاء على عادة الاخوان ، فوق كوفية منقطة باللونين الأحمر والأبيض ، وعلى صدره منطقتان جلديتان ، كما تدلت فوق غزالة الشداد وراءه ، بندقية . ركب مهيب وقور ، يتأرجح فوق الراحلات الى الامام والى الوراء ، بتناغم مع خطوات الهجن ، ومع تلك الكلمات العظيمة : لا إله إلا الله .

« كان المنظر مؤثراً ومحزنا في الوقت نفسه . فها هنا رجال إيمانهم يفوق أي اهتمام لهم في الحياة . كانوا يعتقدون أنهم يجاهدون في سبيل الاسلام ، ولاعلاء كلمة الله ، غير واعين أن حميتهم وشوقهم ، إنما كانا يستغلان »*.

« وهمس زيد** : « إنهم كالجن ، لا يعرفون متع الحياة ، ولا خوف الممات . إنهم شجعان ، وأقوياء الايمان ، وما من أحد يستطيع أن ينكر ذلك ، ولكن كل ما يحلمون به هو الدم والموت والجنة » و « كأنما أراد زيد أن يتحدى غلو الاخوان فأخذ ينشد بصوت منخفض أنشودة سورية ذائعة : « آه يا أسمر اللون » !! » .

وقد نشر أسد تحقيقه الصحفي ، أو العسكري هذا ، ويفهم منه أنه رأى ريالات « ماري تريزا » الحديثة السك بغزارة مع جماعة الدويش ، **كما عرف من تاجر سلاح** ، أن الدويش كف عن شراء السلاح المهرب من الأردن ، لأنه « يحصل عليه الآن بثمن لا يمكن لمثلي أن يبيعه به***. إنه يحصل عليه في صناديق من وراء البحار ، بنادق انكليزية تكاد تكون جديدة لم تمس ، ويدفع عشرة ريالات في كل بندقية معها ٢٠٠ طلقة » . بل وأضاف هذا المهرب القادم من شمر ؛ « إن الدويش يتلقى المال في الصناديق » بل زعم أسد ، أن المهرب توقع أن يكون الدويش أميراً في شمال نجد . كما عرف بوجود فرحان بن مشهور****. وهو قريب نوري الشعلان الذي عمل مع لورنس رجل المخابرات البريطانية . وكان فرحان « مشهوراً بالعربدة والفسق في دمشق . ثم اختلف مع عمه نوري الشعلان ، فلجأ الى نجد ودين ولبس عمامة الاخوان . وهو الذي يشرف الآن على تسلم الصناديق التي تحملها السفن وفيها السلاح والمال . ويدخل

---

* بعد ذلك سب في الدويش حذفناه ، فقد وضحنا رأي محمد أسد في موضع آخر .

** مرافقه ..

*** ومع ذلك كتب محمد المانع أن الملك كانت لديه ميزة الحصول على المساعدات البريطانية وللتدليل على ذلك قدم دليلا عجيبا إذ قال « أراد الملك شراء السلاح من بريطانيا فطلبت ثمنا فادحا حتى أن الملك شك في الأمر » . ونقل عنه قوله : « أستطيع أن أحصل على كل السلاح الذي أريده وأشحنه من جدة الى المنطقة الشرقية على أربعمائة جمل ويظل ثمنه أقل من هذا » ! فاذا كان هذا هو الدليل الوحيد الذي قدمه مترجم الديوان ، على « مساعدة » بريطانيا لابن سعود فلابد أن هناك خطأ في الترجمة !

والثابت أن بريطانيا ضيقت على ابن سعود في السلاح حتى أنه اشترى في مطلع عام ١٩٣٠ – ١٣٤٨ سلاحا من بولندا ..

**** كانت السلطات العراقية قد سمحت له باللجوء على أساس أنه « سوري » ثم سلحته وأعادته للقتال مرة أخرى ضد ابن سعود على أساس أنه من الاخوان !

ويخرج في قصر ابن صباح الذي يقال إنه يحبه حباً عظيماً .

ولكنه لم يعثر على الدويش* في الكويت . وقد أشار أسد في مقالاته الى الفكرة التي خرج بها من الرياض ، وهي أن الدويش تسانده دولة أوروبية كبرى لارجاع حدود ابن سعود الى الجنوب واقامة ولاية مستقلة بين السعودية والعراق . كذلك فان الفوضى في دولة ابن سعود ، تهدف الى اضعاف مقاومته لمطلبين بريطانيين ، هما الحصول على قاعدة في ميناء رابغ ، والسيطرة على قسم من خط سكة حديد الحجاز** . وان هزيمة ابن سعود على يد الدويش ، يمكن أن تحقق الهدفين ، وقد نشرت هذه المقالات في الصحف الأوروبية والعربية ، المصرية منها بصورة خاصة »[١٠٨] .

تسلح عبد العزيز بالأدلة التي جمعتها مخابراته ، وبالرأي العام العربي والعالمي الذي تعاطف معه ، لأسباب عديدة ، منها الموجة المعادية لبريطانيا في أوروبا ، والاعجاب الذي ساد بابن سعود الملك العملاق . وقناعة العرب بسوء ما تدبره بريطانيا ضد أمتهم ودينهم .

ولعب ابن سعود أوراقه بكل المهارة الممكنة . فأنذر بريطانيا دون استفزازها ، وخاطب الحكومة البريطانية رأساً ، مكتفياً باحاطة مندوبيها في المنطقة . واستعرض كل الوقائع التي تدين بريطانيا ، ثم ترك لها الباب مفتوحاً للتراجع بأن امتنع عن توجيه الاتهام صراحة ، مكتفياً بأن يعرفها بأنه يعرف تورطها ..

ففي رسالته الى الحكومة البريطانية ، بدأ بالتذكير بالوعد الذي قدمته بريطانيا بمنع استخدام الكويت أو العراق كقاعدة « للعصاة » أو مصدر تموين .. وهو التعهد الذي لم ينفذ ، ثم وجه شكره « لسائر الموظفين البريطانيين سواء المقيمين في العراق أو في الكويت . وخاصة مجموع الأنباء التي وصلتنا عن مستر دكسن » .

والانجليز يعلمون أن ذلك غير صحيح*** ولكنها دبلوماسية ضرورية تحفظ ماء الوجه وتتيح فرصة للتراجع وتمنع التصعيد الذي لا يرغب فيه الملك في هذه الظروف . ولواتهم بريطانيا وموظفيها مباشرة وبصراحة ، لشاع ذلك ولكان له أثره في النفوس الضعيفة ، وبعد عشر سنوات تقريباً ستكشف رسالة الملك الى الحكومة البريطانية أنه

---

* أما رأي ابن صباح في الدويش كما قاله لديكسون فهو « كلب ابن كلب له عقل حضري وهو العقل المدبر للحركة المضادة لابن سعود » .

** ويمكن أن نضيف سبباً ، وهو إلغاء ابن سعود لامتياز نفط الأحساء الذي كان قد منحه عام ١٩٢٣ ـ ١٣٤٠ لشركة بريطانية ، ولم يحس المراقبون وقتها بأهميته ، فلم تكن لديهم معلومات الحكومة البريطانية عن احتمالات النفط في المنطقة .

*** لأن اتصالات «ديكسون» بالاخوان وعروضه عليهم شائعة ومتوارثة ، وقد أخبر ابن عم الدويش وشيخ الأرطاوية الحالي ، مؤلف هذا الكتاب : « أن ديكسون تحدث مع الدويش وقال له تسمح لنا ندخل ونحمي الحدود « قال له الدويش .. لا الكفر ما يدخل بين الاسلام » . وقال أيضا إن السلاح الانجليزي الذي وجد مع الدويش والاخوان هو مما نهبوه « لما استحلوا مركز البصية » !.. (وذلك في لقاء معه بفندق انتركونتننتال بالرياض عام ١٩٨٠ ـ ١٤٠٠) .

كان على علم تام بالتدخل . بل إن هذه الرسالة ذاتها التي شكر فيها ابن سعود الموظفين الانجليز ، بما عددته في نفس الوقت من أدلة التدخل العراقي والكويتي هي وثيقة اتهام ضد بريطانيا المسئولة عن البلدين وقتها :

فقبل شكر الموظفين البريطانيين تقول المذكرة :

« وقد حدث شيء جديد نحب أن نعرف رأي الحكومة البريطانية فيه ، حتى لا يقع شيء من المشاكل في المستقبل بسبب سوء تفاهم ، أو بأي سبب من الأسباب ، وقبل إيراد هذا الأمر نرى أنه من المفيد جداً أن نعرض على الحكومة البريطانية مجمل الحوادث التي وقعت مما يخالف تعهد الحكومة البريطانية ، ونعتقد اعتقادا جازما بأنها وقعت بغير رضائها » ..

مجرد صيغة دبلوماسية .. وتهديد مبطن ، واتهام صريح ، دون تجريح .. أو دخول في جدل ، وحرب مذكرات ...

ـ وصل بعض الذين أحرقوا سيارات الدولة الى الكويت فأنزلوا فيها وكرموا ..

ـ وفي ٥ المحرم ١٣٤٨ ـ ٢٩/٦/١٤ سافر من بغداد الى الكويت رسول من قبل الملك فيصل ، مكلف بمهمة ، وعاد يحمل كتابا من العصاة للملك فيصل .

ـ مساعدات مالية دفعت من العراق في صفر .

ـ ٢٠ محرم ١٣٤٨ (٢٩ يونيه ١٩٢٩) وصل وفد من العراق بعد اجتماعه بالملك فيصل ، الى الكويت للاجتماع مع الدويش وابن مشهور وابن حثلين .

ـ وقد عاد الوفد في ١٤ صفر ـ يوليو ١٩٢٩ ـ بنتائج اجتماعه مع الدويش .

ـ في آخر محرم ١٣٤٨ ـ يونيو ١٩٢٩ عقد اجتماع بين الرسل القادمين من بغداد والعصاة .

ومازال العصاة ورسلهم يترددون بين بغداد والكويت ، على مرأى ومشهد من الناس جميعا .

ـ في ١٧ صفر ١٣٤٨ ـ ١٥ يوليو ١٩٢٩ سافر من بغداد الى الكويت وفد ومعهم قريب لأحد خدم الملك فيصل بستة أفراس قدموها للعصاة .

ـ شخير بن طواله المقيم على صفوان ، على اتصال دائم بالعصاة ، ويحمل أخبارهم الى بلاط بغداد ويقوم بالخفارة بين الملك فيصل والعصاة ويقدم في الشهر مرتين أو ثلاثا على بغداد .

ـ الرسل المشجعة من الملك فيصل للدويش وابن مشهور والعجمان لم تنقطع . **وهم يخبرونهم أن الملك فيصل يقول بأن الحكومة البريطانية ستساعدهم متى وجدت منهم أعمالا حربية فعالة ضد ابن سعود »** .

ـ تشويق من بالعراق لهؤلاء العصاة الذين أعلنوا أن الشريف فيصل مؤيد لهم وأنه أرسل أخاه (الشريف علي) ليهاجم الحجاز من جهة شرق الأردن وأنه هو مستعد للسير على نجد من جهة العراق إذا رآهم قاموا علينا في داخلية بلادنا .

ـ تمرد العتبان تم بتحريض بعض من كانوا يعيشون في كنف الملك فيصل في

العراق .
ـ في مايو ويونيه نزل المتمردون « ضيوفاً على ابن صباح واشتروا جميع ما أدركوا من سلاح وفشك .
ـ ابن صباح خصص لكبارهم أعطيات من العيش والتمر وأعطاهم ما يقرب من ستة الآف ريال .
ـ اشتروا عشرين فرساً من الكويت ، منها عشرة بيعت لهم بأمر « صباح الناصر الصباح » ومن خيوله .
ـ في يونيه (١٩٢٩) خرج « عبد الله الجابر » لاستقبال مجموعة من العصاة بامارة سحمان . فأكرم وفادتهم .
ـ في يونيه أرسل ابن صباح للدويش ألف ريال هدية .
ـ في يوليو شوهد بعض زعماء العصاة في الكويت .
ـ في أوائل ربيع الأول (اغسطس) أرسل سحمان الى الكويت يبشر بانتصاره .
(واضح أن الملك استفاد كثيراً من رحلة الاستخبار التي قام بها « محمد أسد » في تجميع الـ ١٨ نقطة التي تقدم بها في مذكرته هذه . وإن كان لم يسمح له الا بنشر العموميات والتحليلات السياسية في الصحف ، أو في كتابه « الطريق الى الاسلام » . مفضلا الاحتفاظ بالوقائع المحددة لاستخدامها في الدبلوماسية السرية ، كما لا شك في أن الملك كان يملك جهاز مخابرات قوي ساهم بقسط كبير في تجميع هذه المعلومات . وهي في الأصل بالاسم والتاريخ ، والتفاصيل التي أعفينا منها القراء*) .
ثم ننتقل للجزء السياسي من المذكرة .. الذي يقول :
« وهذا نموذج من الأعمال التي وقعت من الكويت ، ومن الملك فيصل عرضناه على أنظار الحكومة البريطانية لتتبين صحة شكوانا بالسابق من الأشراف ، ولن يمتنعوا عن العمل الذي يؤدي بالاضرار بنا ، ويؤدي لسوء العلاقات بيننا وبين البلاد المجاورة ، **ويؤدي أيضا لتعكير العلاقات بيننا وبين الحكومة البريطانية** . وليس هذا الذي ذكرنا في الدرجة الأولى من الأهمية لأننا على يقين بحول الله وقوته أن هذه الدسائس لن تؤثر على موقفنا في شيء ، والأشراف كانوا عاجزين عن مقاومتنا يوم كانوا في حولهم وطولهم في الحجاز ، فالذي نصرنا عليهم يوم بأسهم وقوتهم ، هو الكفيل لنا بالقضاء على دسائسهم ، وهذا لا يهمنا كثيراً .. **والذي يهمنا هو علاقتنا مع الحكومة البريطانية** التي نحب أن نكون معها على تفاهم في سائر الشئون ، **حتى لا يقع بيننا وبينها أي تصادم** في الحاضر ولا في المستقبل » .
لذلك نحب بعد هذه المقدمة أن نبين الموقف الذي أشكل علينا ، والذي نحب أن نعرف رأي الحكومة البريطانية فيه .
ثم يورد قائمة بالمخالفات الكويتية من ٦ نقاط (باعتبار الكويت محمية بريطانية

---

* يمكن الرجوع إليها في وثائق الخارجية السعودية . وفي صقر الجزيرة الجزء الثاني ..

مباشرة) ويعلق :

فمن هذا يتبين للحكومة البريطانية ، أن التعهد الذي نلناه من الحكومة البريطانية في منع التجاء العصاة الى أراضي الكويت ، لم تف به حكومة الكويت . وهؤلاء العصاة قد حملوا أموالهم ونساءهم وما يخافون عليه ووضعوه في مأمن من أراضي الكويت ، وخرج أهل السلاح والكفاح منهم لأراضي نجد ، ليعيثوا فيها فساداً ، وكانت الحكومة البريطانية وعدت أنه في حين التجائهم ستطردهم بالقوة ، وها هم جلسوا آمنين ! **ونحن على أهبة المسير إليهم، ولا يهمنا أمر الكويت ولا من فيه**.. وإنما المهم في نظرنا هو موقف الحكومة البريطانية ، إذا بقي هؤلاء في أراضي الكويت وأردنا الهجوم عليهم ، فهل لدى الحكومة البريطانية مانع من هذا ؟ وان كان عندها مانع فما التدبير الذي تراه للايقاع بهؤلاء الاشقياء .. هذا أولا .. وثانيا : فان التشجيع لايزال يتوالى على الدويش ومن معه ، من ملك العراق ، وآخر اقتراح قدم للثوار من الملك فيصل أن يسير الدويش بمن معه لدخول أراضي العراق ، والسير منها الى أراضي سورية ، ونحن كنا أعددنا قوة للوقوف في وجه الدويش إذا أراد الفرار لسورية ، وجعلنا تلك القوة تحت إمارة أميرنا ابن مساعد وقد خيم بجنوده من مدة بعيدة على « **أقبة** » فما موقف الحكومة البريطانية إذا أراد هؤلاء الأشقياء أن يفروا الى سورية عن طريق العراق ؟

« وإننا نخشى جداً أن ينفذ الوعد الذي تداوله العصاة بينهم بأن حكومة العراق أو الملك فيصل وعدهم أنهم إذا قصدوا ذلك فانه يسحب القوة العراقية من طريقهم ليمروا ، ثم يذاع أنهم مروا من الأراضي العراقية خلسة ، بغير علم أحدبهم ، وترى الحكومة البريطانية أنه إذا وقع هذا يضر بمصالحنا ومصالح العراق معاً .

« ومما يقوي هذه الشبهة ويؤيد هذا الاحتمال ، ما أخبرنا به المندوب السامي في العراق ، وما أخبرت الخارجية سعادة المعتمد في جدة عن سفر ابن مشهور الى بغداد لتأمين هذه الغاية ، فهل ترى الحكومة البريطانية مانعاً من أن نرسل قوة تقف بالقرب من حدود العراق تترقب فرار هؤلاء الأشرار ؟ حتى إذا علمت بهم أوقعت بهم حيث يكونون ، ثم لو فرضنا أن تمكن هؤلاء من الفرار والوصول الى سورية ، فهل ترى الحكومة البريطانية مانعاً من اجتياز الأراضي التي يجري عليها النفوذ البريطاني لنصل اليهم ؟

« إن هذه أمور محتملة الوقوع بعد مسيرنا الى العصاة ، لأننا عازمون بحول الله وقوته على تعقبهم حيث يكونون ، حتى نأتي على آخرهم بحول الله وقوته . فنحب أن نعرف آراء الحكومة البريطانية بصراحة ووضوح إزاء هذه الاحتمالات مثل الالتجاء الواقع في حدود الكويت* . وما هو محتمل الوقوع كفرار الذين سيفرون الى الأراضي السورية عن طريق العراق .

---

* وقال مترجم الديوان الملكي : « وكان الملك مستاء من الكويتيين أيضا لأنه وجدت خطابات في معسكر الدويش تثبت أن الثوار قد تسلموا تموينا وأسلحة من الكويت[١٠٩] » .

هذا ما ننتظر الجواب عنه من الحكومة البريطانية .

٢٢ ربيع الثاني ١٣٤٨ ـ ٢٦ سبتمبر ١٩٢٩ » .

وسيكشف ابن سعود القناع ، ويصفع بريطانيا بالحقائق التي كتمها الطرفان في عام ١٩٢٩ ـ ١٣٤٨ . فبعد عشر سنوات تقريباً ، عندما اتهمته بريطانيا في مذكرة رسمية بأنه يساعد ثوار فلسطين ، رد عليها بمذكرة رسمية بتاريخ ٢١ ربيع الآخر ١٣٥٧ ـ يونيه ١٩٣٨ وجاء فيها :

« وتذكر الحكومة البريطانية أنه في الأعمال السابقة التي وقعت في بلادنا ولم تكن موجهة لطرف من أطرافنا ، بل كانت موجهة لشخصنا مباشرة ولأساس ملكنا ، كنا نخبر الحكومة البريطانية بما يصلنا عنها من أخبار وأقوال ، سواء أيام حركات الدويش واجتماعاته ببعض الموظفين البريطانيين ، وسواء يوم خروج ابن رفادة من العقبة في رابعة النهار بين سمع الموظفين هناك وبصرهم » .

قذف ابن سعود الكرة في ملعب الانكليز ، أو أوقعهم كما نقول في « حيص بيص » فهو ببساطة شديدة يطلب الاذن بدخول الكويت والعراق !.. نظراً لايوائهما وتآمرهما مع المتمردين عليه ، وعدم التزام الحكومة البريطانية بتعهداتها .. ما يهدد العلاقات بين الرياض ولندن ..!

ولما كان من عادة ابن سعود أن يشفع القول بالعمل ، فان الحشود التي حشدها ، والحملة الاعلامية التي شنها في أوروبا والعالم الغربي ، أقنعت بريطانيا بأنه جاد كل الجد في تنفيذ إنذاره . ومستعد للمخاطرة بصدام علني مكشوف معها . وفي نفس الوقت أكدت معركة السبلة ، وما تلاها من مناوشات أن الجن يرعبون كل الكائنات إلا سليمان ! وأعلن ابن سعود أنه سيطارد الدويش حتى قصر ابن صباح إذا ما استمرت الكويت* تفتح أبوابها للمتمردين ، وأيقنت بريطانيا أن اللعبة انتهت .. فنهت ابن صباح وفيصل العراق فانتهيا !

وبانسحاب الدعم البريطاني ، وظهور ابن سعود في الصحراء تبخر جيش المتمردين .

أحس الدويش بالدنيا تضيق من حوله : أبواب الكفر كلها مفتوحة أمامه ، أما باب الايمان ، باب الامام ، باب الأيام المجيدة ، فهو وحده الموصد ، وكل يوم تزداد الأقفال عليه عدداً وغلظة . والدويش مؤمن بأنه ليس هو المسئول عن بقائه خارج الباب ، وأنه ليس هو الذي ابتعد ، ولكنه أيضا غير مؤمن بقناعة الآخرين بأن الامام هو الذي أوصد الباب ، وهو يريد أن يبري ذمته ، ويعلقها برقبة الامام .. فهو الذي أقام الباب ، وهو

---

* كان الملك قد قدم احتجاجا على بيع السلاح للمتمردين عليه ، وكذا على نشاطهم في الكويت . فرفضت بريطانيا الاحتجاج بزعم أن الكويت مشيخة مستقلة وأن معاهداتها مع ابن سعود تفرض عليهما منع النشاط المعادي في « أراضيها » .. و « الكويت لا يمكن أن تسمى « أرضا بريطانية » ! وهكذا تبين من التفسير الانجليزي أن ابن سعود عندما وقع المعاهدة ، كان يتحفظ على النشاط المعادي له في هيدبارك وترافلجار سكوير !!

الذي يرفض أن يزيله ، وهو الذي يضغط عليهم ويدفعهم الى الكفر !

هو ممزق النفس ، حائر لا يرى ما هو الصواب ولا أين الطريق .. فليلجأ للامام لعل من الحوار معه يعرف الحقيقة ، وهكذا يكتب لامامه معاتباً ، مهدداً ، مستعطفاً ، باكياً ، شاكياً ..

وللأسف ، فان رغبة الكتاب والمؤرخين في تحطيم الدويش ، امتدت إلى رسائله للامام ، ولو أمكن الحفاظ عليها ونشرها كاملة ، لشكلت تراجيديا تاريخية ومادة للدراسات والأشعار والمسرحيات ، وفصلا هاما في ملحمة الحل الاسلامي . وذلك على ضوء الرسالة الوحيدة الكاملة والناضجة التي بعث بها إلى الأمير سعود بن عبد العزيز والتي حفظت في المحفوظات البريطانية . أما رسائله لعبد العزيز في المصادر العربية فلم يصلنا إلا رسالة ونصف رسالة وموجز رسالة ثالثة ؛ وفيها نرى الدويش يتقمص شخصية البطل الاغريقي ، فخروجه كان مكتوبا .. قدراً مقدوراً .. ومن كتبت عليه خطى مشاها .. ثم إعلان الضعف والعجز وطلب الرحمة حتى لا يضطر إلى الدخول في الكفر* ! فيرد الامام بقسوة ، ولكنه يعطيه العفو ويفتح له باب الايمان ، ولكن الدويش لا يريد أن يعبر من باب الامام ، ربما لأنه شك .. ربما لأنه مثقل بالذنب ، فيعود للمراسلة ، الحوار عنده كان أهم من الموقف .. كان يريد أن يسمع وأن يقول ، أن يدافع عن موقفه ، ولو بينه وبين إمامه وحدهما ..

إن لم يكن للتاريخ فلضميره ولذكريات الامام .. وهكذا جاءت رسائلة مناجاة !

« من فيصل بن صلطان الدويش إلى جناب الامام المكرم عبد العزيز عبد الرحمن الفيصل سلمه الله تعالى . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام . بعد ذلك خطك وصل وما عرفت كان معلوم من جميع الأمور . ولكنا حنا إلى ها الحين ، ما طاب خاطرنا منك والظن فيك يا بوتركي غير ما ذكرت لنا . وهذا واصلك صلطان بن مهيلب . ونبيك إن شاء الله تؤمنا أمان ما فيه تفتيش . وباقي الجواب من رأسه أبلغ . هذا ما لزم تعريفه مع ابلاغ السلام العيال والمشايخ . ومن هنانا الاخوان يسلمـون والسلام[١١٠] »

٤ رجب ١٣٤٨ .

أما « ملحق الخير » الذي اعتاد أهل الجزيرة إرفاقه بالرسالة ، وهو ــ كما يقال ــ أهم دائما من الرسالة ذاتها ، فقد جاء فيه :

« بقي بالخاطر سلمك الله . تذكر في خطك أن الدروب مسدودة علينا وأنه ما بقي لنا حيلة وأنا مضطرين اليك . هنا سلمك الله بخلاف ذلك بحول الله وقوته . ولولا غلاك ورفقتك كان كل أمر نبيه مدركينه ، **وكل يجذبنا** وأي طريق نبيه نضربه ما لنا معارض . ولكن مثل ما قلت ، **وغلاك ورفقتك ولاودنا بمداخل الكفر** . ويكون عندك معلوم ويتقرر في عقلك ولا تشكك أني **لولا بغضي للكفار ولاودي أدخل حدر ولايتهم كان ماكريت لك**

---

* رسالته بتاريخ ٤ رجب ١٣٤٨ ــ ديسمبر ١٩٢٩

جميع مركوب ولكن ماودي في ذلك وأدرأني في ذلك صادق ومعنى خطك اللي جاني منك في وفي أركايبي . وأنت تخبرني ماني راعي مكر ولا تلواسات . اليوم أدخل على الله . لا تحدنا على الكفر . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والله خير كافي ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[111] » ...

الذين لا يعرفون علاقة فيصل وعبد العزيز ، أو لا يفهمون معنى التحول الذي حققته دعوة عبد العزيز في نفسيه فيصل ، قد لا يفهمون هذه الرسالة بل إن المؤرخ سيحتاج الى طبيب نفساني لتفسير رسالة ثائر متمرد ، وزعيم رهيب السمعة ، يكتب للحاكم الذي يحاربه : « ولولا غلاوتك عندي » ! وترجمة ملحق الخير هي :

بقي شيء بالخاطر ، سلمك الله . ذكرت في رسالتك أن المسالك سدت علينا ، ولولا أنه ما بقي لنا منفذ ولا حيلة ، لما جئنا اليك ، فأنت ترى أن لجوءنا إليك لجوء المضطرين . ولكن سلمك الله نحن وضعنا خلاف ذلك بحول الله وقوته ، ولولا غلاوتك عندنا ، وما كان لنا من رفقة ، فان كل ما نطلبه ندركه . وكل القوى تجذبنا إليها ، وأي طريق نختار مفتوح لنا . ولكن كما قلت لك غلاوتك ورفقتك وأننا لا نريد أن ندخل في الكفر . وليكن معلوما عندك ، ولا يجوز أن تشك أنه لولا بغضي للكفار ، وأنني أرفض الدخول في حمايتهم أو سيادتهم ، ما كنت قد أرسلت لك رسولاً . ولكن لا أرغب في ذلك . وأنت تعلم أنني صادق ، ولا أمارس التضليل والخداع . اليوم أدخل على الله (أي موشك على الموت ومقابلة الله ــ على ما أعتقد) لا تدفع بنا إلى الكفر .

والرسالة الثانية : ٦ رجب ١٣٤٨ ــ ديسمبر ١٩٢٩ :

« والله لوحنا مشتهين حجى غير حجى الاسلام . إن كل باب مفتح لنا ، مثل ما انفتح لناس غيرنا من قومك خاصة ، ولكن يا عبد العزيز اتق الله في المسلمين ، ولا تردهم للكفر بعدما ذاقوا طعم الاسلام ، وحناني من الله ثم منك يا بوتركي إنك تدفن ما فات بيننا وبين أهل نجد من الدماء والأموال ترى ما عندنا زايد . الزيادة عندكم » .

وقد أكتفى الناقل بهذا النص وترجمته هي :

« لو كنا نشتهي غير الاسلام ، فكل الأبواب مفتوحة لنا ، مثل ما فتحت الأبواب لغيرنا من قومك خاصة ولكن يا عبد العزيز اتق الله في المسلمين ولا تردهم للكفر بعدما ذاقوا طعم الاسلام . وحنانيك يا بوتركي .. الخ »

لقد كان يحلو لهذا « الربع » من الاخوان تقمص دور الصحابة ، والاقتداء بسلوكهم ، كأنهم ــ كما وصفهم الريحاني ــ يشتركون في تمثيلية عن صدر الاسلام ، ويبدو أن الدويش كان في هذه المرحلة يمثل اولئك الذين قال فيهم المولى عز وجل : « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا » .

وهذا نص رسالة الدويش إلى الأمير سعود* :

---

* من وثائق الخارجية البريطانية عام ١٩٢٩ ــ ١٣٤٨/٤٧
Mss Vol 13736 No 3457: From The Ikhwan Movement of Najd P. 317. جون حبيب .

بسم الله الرحمن الرحيم

من فيصل بن سلطان الدويش إلى الأخ المحترم الأمير سعود بن الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل .

خطابك وصل وما فيه عرف . بحصوص نصحك لي بأن أخضع لأوامر أبيك الامام . فلابد أن تتأكد أن عين مطلوبي هو تلبية أمرك وخاصة بعد عطف أبيك نحوي بعد معركة السبلة .

وبالله فأنا راغب في تقديم مالي وما أملك لارضائه لولا أمرين يجعلان هذا الأمر صعبا علي وفوق طاقتي .

أولهما : إجباري على رد المنهوبات .

وثانيهما وهو الأصعب :

ـ لقد غزونا المشركين والناكثين للعهود الذين بنوا القصور ، وحرضوا رعاياكم على التمرد عليكم . ولقد عرفت أباك بكل هذا . وهذا هو خلاف الاخوان ضد أبيك . أما ما عدا ذلك فكل مسالككم مقبولة منا حفظكم الله .

ـ المنهوبات ضاعت وليس لدي منها شيء ، وقد خطر ببالي ، كما أدخل الناس في روعي أن هذا المطلب ليس إلا شرك للايقاع بي ، وأنكم إما ستقتلونني أو تسجونني ..

يا سعود .. لقد تركت البادية ومشيختي وضحيت بثروتي في طلب عطايا الله ومحاربة المشركين . فاذا كنت تريد أن تكفنا عن محاربة الكفار ، واذا ما ارتكب أحدنا هفوة ، قتلته أو سجنته ، فهذا هو الظلم والذل لرعاياك الذين قد ينفضون من حولك ويشكون في إيمانك ، ويجزمون أنك تعارضهم في دينهم وتدهن مع النصارى . والنصارى وتابعهم فيصل ما قصروا قدر جهدهم في الكيد لكم ، فكل من ذهب إليهم من أهل نجد قووه وأكرموه وحثوه على شق عصا الطاعة على آل سعود ، ومنوه بأنه سيعطى كذا وكذا . ومنذ العام الماضي وأبو حنيك* ينصحني وغيري . وقد بلغتكم ذلك في وقته . وأكبر دليل أنك تعرف أن ابن صباح لا يساوي جناح بعوضة لا عند النصارى و لا عند العرب . ومع ذلك أعطى ابن مشهور أسلحة وذخائر وأموالا . واتصل بالعجمان وأخبرهم أن لهم ما شاءوا ، ووعد بتلبية طلباتهم. وأخبرهم أن يذهبوا الى «وفرة» وفي حالة مطاردة سعود لهم فان أرضه مفتوحة لهم ليدخلوها وانه سيخاطب النصارى لمصلحتهم .

ويجب أن يكون في علمك وخاطرك أن النصارى إن لم يكونوا يخادعونك ولا يريدون فتنة رعيتك لكي يظهروا عليك لما جرؤ « بتاع »** الكويت على معارضتهم بل لأنه يخضع لأمرهم وأنا أتسلم في هذه الأيام وعوداً مغرية من العراق والكويت إذا ما

---

* أبو حنيك هو الجنرال غلوب . وهذه تفضح كل إدعاء لغلوب وتثبت اتصاله بهم ونصحه لهم بالعمل ضد ابن سعود

** ترجمة : Man of Kuwit

انفصلت عنك .

وقد منعتني أيضا من غزو البدو . وهكذا أصبحنا لا مسلمين نحارب الكفار ولا أعرابا بدوا يغير بعضنا على البعض ونعيش على ما ينهبه كل منا من الآخر فمنعتنا من ديننا ودنيانا .

حقا لقد فعلت ما بوسعك من أجلي وعشيرتي .. ولكن ماذا عن قبائلي .. أين يذهبون ؟ إنهم سيهلكون* ، وكيف سترضى بذلك .. في الماضي كنت تصفح عن مسيئنا ، ولكنك الآن تعاملنا بالسيف وتعفو عن النصارى ، تغمض عن كفرهم وعن القلاع التي بنوها لتدميرك . ولذا أصبحت خائفاً وغادرت الأرطاوية الى اللصافة . فان أردت أن نبقى في طاعتك فانظر في أمورنا .

نريد منك ثلاثة أشياء يعدنا بها أبوك في العفو إذا وافق الشيوخ** ، وتتعهد أنت بها يا سعود .

أولا : أن ننسى الماضي .

ثانياً : إطلاق سراح السجناء من الجانبين .

ثالثاً : السماح لنا بمقاتلة الكفار على أن يرافقنا واحد منكم يا أولاد عبد العزيز . فسنواصل طاعتكم فاذا قتلنا لا نبالي ، ولو انتصرنا كان ذلك لكم . كما فتح إخواننا من أهل الغطغط الحجاز فأصبح لكم وباسمكم .

فاذا رضيت بهذه الأمور فأنا أعدك بأن أكون خادمك وعبدك ونطلق يدك في مالنا ودمنا . وسيعدك إخواننا السجناء بنفس الوعد . قومك هم أهل نجد فلا يخدعك من حولك .

أما عن البدو فانهم عندما يرون معاملتك لنا ويرون كيف يستقبل الكفار هؤلاء الذين يهربون منك ، فوالله لن يبقى منهم أحد حولك . وأنت تعلم أن خيرهم دينا وأقربهم اليك . هم أولئك الذين قتلتهم وسجنتهم .

فاذا كنت راغباً فينا فابعث الينا أحد العلماء المعروفين . وأطلق سراح السجناء في الرياض . وأقسم بالله أنه في هذا الاجتماع بين العجمان ومطير وغيرهم أننا سنهاجم المشركين قبل أن نأتي اليك .

مازالت آملا فيكم . وأعرف حب أبيك لرعاياه ، وحبه لمسامحتهم فهو حكيمنا نحن العرب . فأعطنا أمانا خاصا يضمن سلامة العجمان وابن مشهور وكل الذين معه وانس الماضي .

نسألك بالله أن لا تصدنا أو تبعدنا خائبي الرجاء أو تحرمنا من ودك ونعمة الاسلام وتجبرنا على التوجه للنصارى الذين نبغضهم ويبغضوننا .

فاذا وافقت يمكنك اختيارنا لأي عمل وسترى ما نفعل . وإن وقعت حادثة أخرى ،

---

* كانت سنوات جفاف قاتلة .

** أي عبد العزيز .

فافعل ما شئت .
بالله لقد تركنا عشائرنا تبكي .. النساء يبكين ونحن نبكي ..
سعود يا أخي لا تسلم محبيك لاعدائك .
واذا سمحت فارسل الرد سريعاً ، وتنبه لأمر واحد ، أن أعداء دينك لن يساعدوك .
عبد العزيز يرسل تحياته .
والسلام رجاء للشيوخ وأولاده .
فيصل الدويش .

ويفهم من الرسائل الآتي :
١ ــ الاعتراف بامامه عبد العزيز . فالدويش لم يخلع البيعة إلى آخر لحظة .. ولعل هذا يفسر لماذا لم يقتلهم عبد العزيز عندما ألقى القبض عليهم .
٢ ــ الاعتراف بوجود اتصالات مع أكثر من جهة ، وكلها تحاول جذب أو كسب الاخوان .
٣ ــ ومع ذلك فكل هذه الجهات هي « الكفر » و « الاسلام » في السعودية وحدها سواء في المعسكرين المتقاتلين أو بنسبة متفاوتة بين المعسكرين ، ولكن التحالف مع القوى الأخرى يعني التخلي عن الاسلام والدخول في الكفر ، وهو لا يريد ذلك اعتزازا بالاسلام ، واعزازاً لرفقة الجهاد مع عبد العزيز الذي بضغطه ورفضه (ماذا ؟!) قد يدفع الدويش والمسلمين الذين معه إلى الدخول فيما يكرهون من الكفر . فلا تدفعونا إلى الكفر بقبول حمايتهم أو مساعدتهم .. وإن فعلنا فلن نكون أول من فعل ، فقد لجأ أقاربك إلى الشريف حسين ، والد الملك الذي يدعونا اليوم للجوء اليه ...
٤ ــ المشكلة الكبرى هي البحث عن هوية .. فاذا لم نكن مسلمين نحارب الكفار فهل نحن أعراب نمارس الغارات والنهب ؟ أما ماذا ؟..
٥ ــ إدراكه أن كل اتصالات النصارى وأعوانهم معهم وتشجيعهم على الثورة والتمرد ، هو للكيد لابن سعود وتدمير دولته .
٦ ــ رأيه لم يتغير في ابن صباح منذ غزوة الجهرى ، فهو عنده لا يساوي جناح بعوضة ، وهو يعرف أنه لا يملك من أمره شيئاً ولا يساوي عند الانجليز جناح بعوضة ، وهذا يفند زعم تلميذة فاتيكوس أن الدويش عرض على ابن صباح رئاسة الاخوان إذا سمح لهم بالرعي في آبار الصبيحية !.. ونسبت ذلك إلى رسالة بتاريخ ٩ محرم ١٣٤٨ ــ ١٧ ــ ٦ ــ ١٩٢٩ . ولكن في النص الذي قدمته لم نجد شيئاً يعزز دعواها ، بالعكس إن الدويش الذي عرض الاسلام على عمه قبل عشر سنوات يوجه إليه نفس اللطمة بدعوته للاسلام فيقول :
« أولا قبل كل شيء نتمنى أن تؤمن بما نؤمن بتعاليم الاسلام ونحن ندعوك لتكون إمام الجيش العظيم الذي ساقه الله إليك وتكون واسطة بيننا وبين الحكومة الانجليزية كما كان ابن سعود بالنسبة لنا » .
فلا مجال للافتراء بأنه عرض عليه رئاسة الاخوان اذا ما سمح لهم بالرعي ، بل

عرض عليه الاسلام . ومن الطبيعي أن يصبح الامام في حالة تدينه !
ـ الحيرة والاضطراب فهو ما بين طلب إعفائه من رد المنهوبات ، والتفاخر بالاصرار على السماح له بغزو المشركين .

ولقد ظل الامام حتى آخر لحظة يتمنى عودة الدويش ودخوله باب الطاعة ، ليموت تحت الراية التي لا ينكر إلا جاحد جهوده في نصرها ونشرها . والتي أذاقته « طعم الاسلام » على حد تعبيره . ولكن الدويش كان أعجز من أن يتخذ هذا القرار ، ولذلك ظل يتدهور ، تحت تأثير بعض الذين انضموا إلى الثورة بأحقاد الجاهلية ، والاحن البدرية ، فلما قتل « عزيز » ابنه أمر بقرب الماء أن تفرغ ، كما أحرق طارق بن زياد السفن ، ولكن هيهات .. فقد هزم .. هزيمة منكرة على يد العوازم ، وهم من أهون القبائل شأنا في معايير القتال ! .. وهذا الصقر الذي لا تغمض له عين ، هوجم وهو نائم ، وهزمته حرب وظفير ففر إلى الكويت .
واقترب الدويش من باب الكفر ..
هذا الشامخ الذي كان جنوده يرفضون إلقاء السلام على ممثل بريطانيا في بلاط ابن سعود ، وكان اسمه يبعث الرعب كالاعصار والزلازل مسافة أميال . وجد نفسه يجلس في خيمته يكتب خطابات الى غلوب .. الضابط البريطاني الذي أطار الدويش النوم من عينيه شهوراً وغرس في قلبه الحقد الذي لا يبرأ !..
وكان قد عثر في اوراق الدويش ، على مسودة رسالتين ؛ قيل إنهما من إملائه ، بهدف إرسالهما إلى فيصل ملك العراق ، وغلوب المفتش الاداري البريطاني عند الحدود العراقية . ولكن ما من مصدر أثبت أنهما أرسلا فعلا ، وما من دليل على أنهما من إملاء الدويش وليس أحد رفاقه مثلا .. وهذا نصهما :

« من فيصل بن صلطان الدويش إلى جناب المكرم المحترم فيصل الشريف صلطان العرب سلمه الله تعالى . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وموجب الخط ابلاغ السلام والتحية والاحترام وبعد ذلك ألفوا علينا رجاجيلنا اللى جو منك في قرعة مديرس شمال الحضر ، ومن طرف العربان أسفلهم العجمان في مهزول وفوقيهم حنا إلى ابرق الحباري وإلى عذيبة ، والرحيل . ومن طرف حنا في ها لحدود ونجد فيها فرصة لحرب ابن سعود ولكن حنا أوذونا سرقان الضفير رعية الحكومة بالسرق . واليوم بارك الله فيك تدري أننا ما نقدر نضرهم بسبب الحكومة وحنا نبيك تكفينا عن الحكومة ورعاياها ولأجل نتفرغ لنجد وحربها وهم يسوقوننا في طيارات وتنابيل ويقولون ارجعو لابن سعود ، والا شملوا مع الحجرة ، حدود ابن سعود ردية ، ولا ندري وش مرامهم في ذلك ، وأنت سنعنا إما خذلنا أمان الحكومة ، والا سنعنا على سنع بين . »

والثانية :
« من فيصل بن صلطان الدويش إلى جناب عالي الجناب كبت قلاب ، بعد التحية ،

والاحترام . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته* : بعد ذلك تعلم ويتقرر في فكرك ويكون عندك معلوم إنا أهل صدق ناخذه ونعطيه ، ولا نعرف الغدر والخيانة وتعلم مماشينا مع ابن سعود في السابق وأنه ما وصل ها لمواصيل الا بسببنا . ولما رأينا غدره وخيانته فينا خاصة ، وبالناس عامة ، فارقناه واليوم أحببنا إننا نصير رعية لكم ومواميرلكم ونصير حدر يديكم وجند لكم ولا نعصي أمركم وباقي الجواب من راس الطارش** أبلغ . هذا ما لزم تعريف جنابكم الشريف ودمتم . حرر في ١٣ رجب ١٣٤٨ من عندنا علي بن عشوان وجاسر بن لامي ، وفيصل بن شبلان وابن جربوع وعلي بوشويربات ، وصنيتان المريخي ، وابن حنايا يبلغون السلام[١١٢] » .

وعندما جاء الانجليز بالدويش أسيراً ، عاتبه الملك ، فأشار الى رسالة الدويش الى غلوب ، ولكن المصادر المعاصرة ، لم تسجل رداً مباشر للدويش على موضوع الرسالة . واذا كان ما أورده وهبة صحيحاً عن الحوار ، بين الملك والأسير ، فان الدويش إما أنه لم يسمع اشارة الملك ، أو حاول أن يرد رداً عاماً ..

« قال الملك : ألا تخاف الله حينما تكتب لغلوب إنك تريد الهجرة للعراق . وانك تحب أن تكون تابعاً له ؟ فهل تظن أنك كنت ستكون في منزلة أعلى من منزلتك التي كنت عندي فيها ؟ »

« فقال الدويش : يعلم الله يا عبد العزيز أنك لم تقصر معنا ، وقد فعلت كل ما يبيض وجهك ، وقد قابلنا معروفك بالاساءة ، لقد فررنا من وجهك إلى الكفار . فحملونا اليك في طيارة من طياراتهم ، ويكفي ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الاخوان بعدما كنت عزيزاً محترماً . قاتل الله الشيطان ! لقد أغرانا وزين لنا سوء أعمالنا . فأوصلنا إلى ما أصبحنا فيه الآن »[١١٣] !..

فهل كانت هذه الرسائل مجرد محاورة داخل هاملت الممزق ، أو انتصر فعلا « هايد » المطيري على جيكل الاخواني ؟!

لا أدري ....

ولا أريد أن أعرف !

وتزعم إحدى الروايات أن الدويش عندما توجه للكويت وطلب اللجؤ من القنصل البريطاني الكولونيل ديكسون ، رفض ديكسون في البداية ، ولكن الدويش خلع « عمامته » (عمامة الاخوان) ووضعها على رأس ديكسون ، وهي عادة قديمة عند العرب معناها التسليم الكامل وطلب الحماية ، فوافق ديكسون ، واعتنت زوجته بنساء الدويش الجائعات »[١١٤] !

ثم لا تقتصر المأساة على هذه المذلة ، بل يصدق عليه المثل القائل :

---

* أشك شكا كبيرا أن يكون فيصل الدويش هو موجه هذا السلام الى « الكافر » الانجليزي . ورسوله رفض القاء السلام على الامام عبد العزيز !

** أي الرسول حامل الخطاب . الذي لم يذهب .

وكان الغبـن لو ذلـــوا فنالوا   فكيف بهم وقد ذلوا وخابوا ..؟!

إذ خاب ظنه في شرف « الحكومة » التي بدأت تساوم عليه عبد العزيز ، حيث جرت مفاوضات قاسية ، وتبادل الاتهامات وطلب تغيير المتفاوضين ، « واقترح الانجليز حبس الدويش في العراق ، أو إرساله إلى الهند ، أو إبقائه في سفينة في الخليج ، فأصر الملك على تسليمه وهددهم قائلاً : ستتحملون كل العواقب ، إذا لم تتصرفوا التصرف الصحيح » ..

وخضع الانجليز وجاءوا به مقيداً* وقال له عبد العزيز : ظننت أنك تنجوا باللجؤ إلى الانجليز ؟! » .

وسجل التاريخ مأساة أخرى من مآسي التاريخ العربي .. تخيل لو أن هوشي منه عاش ، وعقب النصر جيء بالجنرال جياب مقيد اليدين على طائرة أمريكية ، حيث جرى تسليمه بعد ثورة فاشلة ضد قائده وزعيمه .. انتهت باستسلامه في تايلاند أو سيغون ؟!

ولكن ذلك هو قدر العربي !

---

* قال ابن مانع ان الدويش حبس في سجن الرياض مع المجرمين العادين (وهل كان في الرياض سجن سياسي عام ١٩٣٠ ـ ١٣٤٩ ؟!) الذين كانوا يسرقون منه الطعام فلم يعش طويلا ، ومات خلال ستة شهور (معظم الروايات تقول سنة فقد مات عام ١٩٣١ ـ ١٣٥٠ وكان تسليمه في خبارى وضحا من يناير ١٩٣٠ ـ ١٣٤٩ بالسكتة القلبية . والبعض قال بانكسار القلب[١١٥] ..

كذلك انتقد ديكسون الملك عبد العزيز لأنه في زعمه عامل زعماء الأخوان بقسوة بينما كانت الفروسية العربية تكفي . ولا ندري أين هي القسوة في سجن ثائر عفت عنه الدولة بعد حرب دامية . فعاد إلى القتال من جديد وهدد الدولة في صميم وجودها .. ما هي الرحمة أو الفروسية التي عاملت بها الامبراطورية الثوار البريطانيين من طراز الدويش ؟!

عبد العزيز لا قتل ولا صلب ولا عذب كما تجمع كل الروايات . وقد مات الدويش في السجن بسرعة لم تتح الفرصة لامتحان عفوه عندما تستقر الأحوال . أما ابن بجاد فقد عاش بالسجن خمس سنوات وموقف الملك منه معروف .

ويمكن القول بأن الانجليز أرادوا ثورة الاخوان وساعدوا على تأزمها وانفجارها . وجرها إلى المصير الذي انتهت اليه ، ولكنهم بالطبع لم يخترعوها ، فكما قلنا ، لا الانجليز ولا أية قوة ، مهما كان تفوقها أو نفوذها ، تستطيع اختراع ثورة . أو تفجير ثورة في بلد ليست حبلى بها بالفعل ، فالعقيم لا تجهض ، أو لا حاجة لاجهاضها . فما كانت بريطانيا بالتي تطمئن على مستعمراتها وعملائها ، إذا ما ظل عبد العزيز يقود تلك الحركة سواء قادها للجهاد المباشر بعد فتح الحجاز ، أو اعتمد أسلوب تصدير الثورة ، بالافكار والدعاة والمتطوعين مع تطوير الحركة وافكارها داخل السعودية . ولذلك كان لابد من المواجهة ، وقد لجأ الانجليز لأسلوبهم المفضل ، وهو تفجير القوة المضادة من داخلها . فلما كشفهم عبد العزيز ، وتمكن من سحق مقاومة المتمردين ، في المواجهة العسكرية التي لم تكن أبدأ بحجم أو شراسة ما كان يفترض في هذا الصدام . وأيضاً بالمواجهة العقائدية التي سحبت قواعد الاخوان من حول الدويش التي رأت الطريق الخاطىء الذي يسير إليه المتمردون ، فعادت إلى طاعة الملك ، ولو بتحفظاتها . وقد رأينا غلبة العناصر غير الاخوانية بجيش الدويش ، في المواجهة الثانية بعد السبلة . عندها وجدت بريطانيا أن الهدف الرئيسي قد تحقق وهو تفجير قنبلة الاخوان داخل نجد وليس خارجها وتخلصت بذلك من سيفهم المعلق فوق امبراطوريتها في جزيرة العرب وما حولها . وأنه لا سبيل إلى عبد العزيز الذي خرج أقوى من الناحية العسكرية داخل الجزيرة .

زال خطر « الحركة » السعودية » ، ولكن بقيت « الدولة » وكان على بريطانيا أن تقبل أهون الشرين ، مادامت قد عجزت عن تحقيق الهدف كله وهو القضاء على الحركة والدولة معا . على الاخوان وآل سعود . والمجتمع الدولي يفضل التعامل مع « الدولة » على التعايش مع « الحركة » . فالدولة قوة مادية ، وكل ما ينتمي إلى عالم الماديات ، يمكن حساب طاقاته ودراسة إمكانياته ، ومن ثم تحديدها داخل إطار المعادلات الاقليمية والدولية ، والحدود الدولية الملتزمة بها أو المطوقة لها . أما « الحركة » فهي طاقة غير مادية ، حافلة بالمفاجآت ، صعبة التقييم ، لايمكن حصرها داخل حدود ، ولا داخل معادلة ثابتة ، لها قدرتها على الانتشار والتفجير المتسلسل أو نظرية الدومينو . في منطقة كانت قد بدأت تعود بعنف للمطالبة بالحل الاسلامي ، بعدما انهارت أسطورة الهاشميين وسقطت الأماني والأوهام في الحل الأوروبي ، وهزم الوفد بعلمانيته في

مصر .. وبدأت حركة الاخوان في مصر ، والقسام في فلسطين .

لذلك قبلت بريطانيا تلك النتيجة على مضض ، واستمرت في عداوتها لعبد العزيز خلال وفي أعقاب احتفالات تسليم زعماء الثوار . والذي يرويه « غلوب » وغيره عن المناخ الذي دارت فيه مفاوضات التسليم ، لا يوحي أبداً بصداقة أو تعاون ، فضلاً عن نصر مشترك أو امتنان سعودي لدعم بريطاني مزعوم[١١٦] .

فالكلولونيل بيسكو رئيس الخليج ، الذي جاء بنفسه ليسلم الدويش ، ما أن عاد الى مقره ، حتى رفض الاذن للملك بالنزول في البحرين ، عندما حالت عاصفة بحرية دون نزوله في رأس التنورة بالسعودية . ولكن شعب البحرين وشيوخها آحبطوا المؤامرة واستقبلوا الملك على الميناء . وقد ذكر وهبه أن الملك غضب من إهانة بيسكو هذه ، وظل ممتنعاً عن السماح له بمقابلته الى أن أجبرت الحكومة البريطانية بيسكو على الاعتذار للملك .

وفي البحرين لم يحاول الملك إخفاء الخلاف أو دور الانجليز بل قال صراحة لحبيبه القديم الشيخ عيسى : « لقد حاولوا إحباط عزمي على النزول ، ولكن يأبى الله إلا ما أراد ، ولا راد لأمره ، لقد أراد الله أن أنزل الى البحرين وأن تقر عيني برؤيتك ، فالحمد لله على ذلك[١١٧] » . ورد الشيخ العجوز الذي كان قد خلع ، بعدما تجرع من كؤوس الذل البريطاني ، ما جعله يرى في عبد العزيز الانتقام العربي ، أو انتصار الحق العربي على الظلم البريطاني . قال « الآن وقد رأيت عبد العزيز في هذه الحالة ، أموت راضيا » !..

ومن مذكرات غلوب ، لا نستطيع أن نشتم رائحة ود أو تعاون كذلك الذي يحدثنا عنه مؤلف الجائزة .. يقول غلوب : « في الخامس من يناير ١٩٣٠ ــ رجب ١٣٤٨ وصل جيش ابن سعود الى مواجهة معسكرنا . وبعث الينا بوفد يحمل خطابا يسأل ما هي الخطوات التي ستتخذها الحكومة البريطانية لاجلاء العصاة من الكويت . أما رئيس الوفد فقد ألقى خطبة عنيفة ضد الحكومة البريطانية . وقد رددت بأني خادم الحكومة العراقية ، ولذا فليس لي الحق في الكلام بصفة رسمية باسم الحكومة البريطانية أو شيخ الكويت !

« وخلال الأيام الثلاثة التالية ، كان الوفد يذهب ويجيء بين ابن سعود وخيمتنا . بينما أنفق رئيس الوفد وقتا طيبا في إدانة حكومات الانجليز والعراق والكويت بعنف[١١٨] » .

وقد طلبت بريطانيا تغيير رئيس وفد المفاوضات ، « وتجاهل ابن سعود الطلب »[١١٩] وبعد أن انتهت المفاوضات ، طلب السير فرنسيس همفري من الملك عبد العزيز الموافقة على طلب من غلوب بالسلام عليه ، فرفض عبد العزيز باصرار لأن غلوب هو الذي أعطي المعلومات عن تجمعات القبائل ، مما مكن السلاح الجوي البريطاني من القيام بغاراته

داخل الأراضي السعودية* . كما كان الملك يرى أن غلوب يمارس تأثيرا سيئا على العراقيين وأنه يعمل ضد مصالح العرب ويحارب تطلعهم للاستقلال »[١٢٠] .

ولكن السير فرنسيس كان خبيثاً ، فنجح في استفزاز غريزة العدل عند الملك إذ قال : « كيف تحكم على الرجل ، دون أن تراه وتسمع حجته ؟!.. » وهكذا سمح لغلوب بمقابلة الملك ، وتحادث معه بعض الوقت . ولكني لا أعتقد أنهما تجاوزا حدود المجاملات الرسمية ، وأجزم بأنه لم يقم بينهما أي تفاهم[١٢١] .

وكانت السنوات التالية هي سنوات الجذر في العلاقات البريطانية ـ السعودية والتربص المشترك ، فقد اختلت المعادلات ، اذ سقطت كل التوازنات ، وأصبح ابن سعودوجها لوجه مع بريطانيا ، ولذلك تشهد تلك السنوات أيضا ، سعياً حثيثا ونشاطا دائباً من قبل ابن سعود في البحث عن قوة موازنة لبريطانيا .. وقد جرت اتصالات مع الروس والطليان ، ولكن عبد العزيز لا يراهن على جواد خاسر فقد استطاع أن يوجه أكبر ضربة للمصالح البريطانية ، بل وللوجود البريطاني ليس فقط في الجزيرة والخليج ، بل وفي العالم العربي كله .. بادخاله القوة الوحيدة القادرة على مواجهة بريطانيا وتصفيتها .. الأمريكيين .. وذلك بامتياز شركة الزيت العربي ـ الأمريكية** .

ومادامت سيرة النفط قد فتحت ، فما يضيرنا أن نتذكر أن امتياز هولمز[١٦]م البريطاني ألغي عام ١٩٢٨ ـ ١٣٤٧ وهو نفس العام الذي وقعت فيه اتفاقية الخط الأحمر .. ونال الأمريكيون امتيازهم عام ١٩٣٣ ـ ١٣٥٢ ..

وثورة الاخوان تقع بين التاريخين .

---

* قارن بين موقف ابن سعود وكراهيته لغلوب بسبب الغارات الجوية ، وبين ما يكتب الآن ، عن حبه وشكره لغلوب بسبب هذه الغارات ، التي يزعم الكاتبون أنها قد أنقذت عرشه[١٥]م !.. عجبي !!

** ويتحسر « غلوب » على امتياز الأحساء فيقول بأسلوب من لا يحمد على مكروه سواه .. « اكتب بعد خمسين عاما من تلك الأحداث ، ومن المثير أن نفكر في النتائج البعيدة المدى لاحداث ١٩٢٩ ـ ١٣٤٨/٤٧ . فلو انتصر الاخوان على ابن سعود ، لعادت السعودية ، الى الفوضى القبلية ، ولما وجدت الحكومة المستقرة التي يمكنها إعطاء شركات النفط امتيازات » !.. ويكاد يصرخ من بين أسنانه ، « ولما نال الامريكيون الامتياز » !

ويمكن أن نلخص ملاحظاتنا على حركة الاخوان وأسباب انهيارها في الآتي :

١ ـ ذكر لنا الامير مساعد بن عبد الرحمن* واقعة على جانب كبير من الأهمية ، لم تذكر ولا طرحت في أية دراسة . قال إنه لما ظهرت حركة الاخوان كردة فعل طبيعية للمناخ الحركي الذي أثارته عودة البيت السعودي الى نجد ، والجذور المتأصلة للحركة الوهابية في تربة نجد ، فبدأت جماعات من العظيمات من حرب وبني عبد الله من مطير تهاجر الى منطقة ما بين حايل والقصيم ، وشجعهم عبد العزيز ، ثم عقد اجتماعا حضره الامام عبد الرحمن بن فيصل والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف والشيخ حمد بن فارس وعبد العزيز بالطبع . جرى فيه بحث هذه الحركة وامكانيات تطويرها . وقد اقترح الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف ، ألا يترك هؤلاء في « هجر » خاصة معزولة في البادية ، بل أن يشجعوا على سكنى القرى والمدن .

ويقول الأمير مساعد « إن نظرة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف كانت أكثر بعداً ، إذ خشي أن تصبح لهم عصبية خاصة ، ولكن المجتمعين لم يأخذوا بوجهة نظره التي ثبتت صحتها فيما بعد » .

وهذه الرواية تدعم تحليلنا ، فالحركة حتى وإن كانت قد بدأت كتيار وهابي إلا أنها تدين في وجودها بهذا الشكل الخاص الذي عرفت به الى عبد العزيز ، فهو الذي احتضنها ووجهها وأعطاها ملامحها ودورها الخاص . وهو لهذا يتحمل مسئولية سلوكها وأمجادها .

ووجهة نظر الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف توحي بأنه كان يفكر في حركة بعث عامة ، بتطعيم القرى والمدن بتلك العناصر المؤمنة لتكوين أمة مؤمنة . فالمهاجرون في عصر الرسول لم يقيموا « هجرة » معزولة في البادية ، لم يقيموا المدينة الفاضلة في جزيرة منعزلة ، بل حولوا أهل يثرب الى أنصار ، وتلاحموا معهم في تشكيل مجتمع جديد . فالتفاعل بين الصفوة التي اكتشفت حقيقة أفضل وبين الجماهير التي تتطلع لحياة أفضل ، هو الذي سيخلق واقعاً أفضل ، تصبح الصفوة فيه أكثر خبرة بالواقع ، والجماهير أكثر سمواً .. يصبحون ملح الجماهير ، لا طائفة معزولة عن الجماهير وعن الحضارة القائمة . معزولة بقيمها عن تلك المجتمعات ، فتنمو العزلة وتتحول الى جفوة مع الأيام .

ولكن عبد العزيز كان يخشى على تلك الفئة المؤمنة الطاهرة الاخلاص من تأثيرات القرى والنزاعات القبلية والتيارات المتصارعة في المنطقة ، ولم يكن في وضع يسمح له بالدخول في معركة مع جماهيره من أجل إحداث هذا الانقلاب وما لابد أن يثيره من رفض وجدل بين تلك الجماهير ، في الوقت الذي كان فيه عبد العزيز محاصراً ما بين ابن

---

* في لقاء معه في قصره بالرياض مايو ١٩٨١ ـ رجب ١٣٤١ .

الرشيد والأتراك والأشراف ومن فوقهم ومن تحتهم الانجليز . ففضل أن يبقي هؤلاء قوة عسكرية ـ عقائدية مستقلة خاضعة لقيادته وتوجهياته مباشرة مكتفياً بأن يفرض بهم التحرير والحكم الاسلامي ، تاركاً للزمن تشكيل المجتمع الاسلامي من خلال ذلك التفاعل المطلوب .

ولا نستطيع القول بأن وجهة نظر الشيخ عبد الله كانت هي الصواب . فتلك مراهنة أو حتى مقامرة على خطأ الاجابة الأولى . فلا أحد يعرف ما هي النتائج التي كانت ستحدث لو شجع هؤلاء الاخوان على سكنى المدن والقرى في مرحلة التكوين . ربما ذابوا أو تحولوا الى مطاوعة ينادون في الأسواق بالصلاة ، ثم لا شيء ، ولوئدت التجربة قبل أن ترى النور .. فلا المجتمع كان متقدماً مستقراً ، ولا الدعاة كانوا على المستوى المطلوب لتغيير المجتمع جذريا .

فنحن على يقين من حقيقة واحدة ، هي أن الاخوان لأنهم عاشوا في معسكرات لم يستطيعوا إقامة مجتمع صدر الاسلام ولم تنبت لهم جذور في هذا المجتمع ، فما أن هزموا في المعركة حتى تلاشوا .. ولكننا لا نعرف ماذا كان سيحدث إذا ما أخذ بالرأي المعارض لعبد العزيز .

ـ وقال الأمير مساعد أيضا إن الخلاف بين الاخوان وعبد العزيز لم يكن خطة مدبرة من أحد الطرفين للتخلص من الطرف الآخر . ولكن العقلية الغربية عقلية تآمرية شريرة ، تفتش دائماً عن مؤامرة أو السر الذي لم يعلن خلف أحداث التاريخ ، فالمنهاج العلمي في الغرب يقوم على الشك .

ونحن نؤيد هذا الرأي ، فالاخوان ظلوا الى آخر لحظة يتمنون استمرارهم تحت قيادة الامام ليواصل بهم الفتوحات . أما عبد العزيز فكان يعرف أنهم شوكته ويحرص عليهم ليس فقط تقديراً وامتناناً لما قاموا به ، بل وإدراكا لأهمية الدور الذي يمكن أن يلعبوه في المستقبل .

ـ وإذا كنا قد أفضنا في شرح الخلاف بين المنطلقين : استمرار الثورة ، استمرار الجهاد لنشر الاسلام أو بناء دولة الاسلام . فاننا لا نتهم عبد العزيز بأنه اختار الدولة على الثورة ، بمعنى التخلي عن الثورة .. وإنما نذهب الى القول بأنه رفض نظرية حرق المراحل . أراد فترة هدنة تستجمع فيها الثورة قواها ، ويشتد عودها بالدولة الجديدة . وتكتشف صيغة جديدة للانتشار ، ربما بالقيام بدور تونس والمغرب بالنسبة للثورة الجزائرية . أو دور الاتحاد السوفياتي بالنسبة للشيوعيين ، قبل أن ينتقل السوفيات لمرحلة الغزو المباشر .. وقد حدث فعلا في السنوات التالية أن أصبحت السعودية ملجأ لكل زعماء الحركات الوطنية في العالم الاسلامي ، فلو كانت تنظيمات الاخوان موجودة ، لأمكن لها أن تلعب دوراً كبيراً في دعم هذه الثورات ، ولربما تغير الموقف في فلسطين . دون حاجة لمواجهة رسمية مباشرة مع قوات الامبراطورية البريطانية .

فالحقيقة التي يمكن الاطمئنان إليها هي أن عبد العزيز اختار الدولة من أجل الثورة

أو الرسالة .. بينما اختيار الاخوان أضاع الثورة ، وهدد الدولة ذاتها .

ـ تحدد مصير التجربة بظهورها في أقل البلدان العربية ، امكانيات ، ومن ثم لم يكن البعث الحضاري يلوح في الأفق ، ولا كانت الدعوة لحمل عبء تحرير الأمة العربية تجد ما يدعمها من قدرات البلاد بعدما وصلت الحركة الى المرحلة التي يتحتم فيها على الايمان أن يتسلح بالتكنولوجيا إذا أراد استمرار المسيرة .

ـ لم يكن العالم الاسلامي ناضجاً ، لا على مستوى علمائه ، ولا على مستوى جماهيره ، لاعلان الثورة الاسلامية ، أو اكتشاف الحل الاسلامي . ولذلك انقسموا ما بين منتقد لعصبية الاخوان ، وبين معجب بايمانهم وتطهرهم مستدلا بهم على صواب الاسلام . ولو استطاع العلماء أو المثقفون طرح برنامج الحل الاسلامي ، وهرعوا للتفاعل مع هذه الحركة . ولو تجاوبت الجماهير في العالم الاسلامي ، ولو حتى في الدول المحيطة بابن سعود والاخوان ، لما أحس السعوديون بالحصار ، ولما نجحت مؤامرات الانجليز وأعوانهم إذ كانوا سينشغلون في إطفاء الحريق في دارهم ، عن اشعاله في مملكة عبد العزيز .

ـ وأخيراً غياب المؤسسات التي تنظم العلاقة بين الامام والقيادات ، غياب التقاليد التي تنظم الحوار وتمنعه من الصدام .. ولقد حاول عبد العزيز أن يجتهد ومارس الحوار على كافة المستويات ، من المؤتمرات العامة الموسعة والمحدودة الى ارسال مندوبين للمحاورة في داخل كل معسكر إخواني الى نشر محاضر المؤتمرات بأمانة لم تتكرر من حكومة بعده . ولكن جهوده لم تنجح في تطوير أسلوب حل الخلاف عما حدث في عهدي عثمان وعلي ..

وهذه هي القضية الرئيسية في اعتقادنا .. إذ لابد لمن يريدون الحل الاسلامي ، أن يطرحوا مسبقاً تصورهم للمؤسسات والضوابط التي تضمن عدم تكرار التاريخ لنفسه . فقد ثبت أننا لا نملك عظمة هؤلاء الأسلاف التي استطاعت أن تغطي أخطاءهم بل وتحولها الى تجارب غنية أثرت تاريخ البشرية .. لسنا مثلهم ومن ثم سنسقط وسقطنا كل مرة في أخطاء التاريخ دون أن ننجح في إعادة التاريخ ذاته ..

ولقد كان مخلصا واعيا شديد الوعي ، ذلك الرجل الذي سأل الامام علياً ابن أبي طالب : « لماذا اختلف الناس عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر » واجابة الامام أصابت كبد الحقيقة حيث قال : « لأنهم كانوا خلفاء على مثلي وأنا خليفة على مثلك .. »

صحيح وهي إجابة حكيم ولكنها ظلت ناقصة ، إذ كان المفروض اكتشاف صيغة تجعل حكم « مثل » هذا الرجل ممكنا مادام يستحيل أن نجد أمة كلها في مثل علي بن ابي طالب . وأصبح اليم مستحيلا أكثر أن نجد حكاما في مثل العمرين ، **فلم يبق امامنا إلا أن نكتشف الصيغة التي تجعل من الممكن قيام حكم اسلامي مستقر ومزدهر بين حكام ومحكومين من البشر العاديين .**

ولمثل ذلك يفتح باب الاجتهاد ..

وفي ١٢ جمادي الأولى ١٣٥١ الموافق العاشر من اغسطس ١٩٣٢ : « اجتمع في الطائف لفيف من كبار الوطنيين ، واتفقوا على أن يرفعوا القرار التالي الى عبد العزيز :

« الحمد لله وحده ، إنه لما كان في هذا اليوم الثاني عشر من شهر جمادي الأولى من العام الحادي والخمسين والثلاثمائة والألف من هجرة صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، اجتمع الموقعون أدناه للبحث والمذاكرة في أمر فيه عز ومنعة وشرف وألفة ، ووضع قرار يرفعونه الى سدة حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، نصره الله وأيد ملكه » .

وبعد أن أثنوا على شعب الجزيرة ، وأكدوا وحدة عنصره العربي « لا فرق بين من أتهم منهم (سكن تهامه) ومن أنجد (أهل نجد) ومن أحجز (الحجاز) ومن أيمن (جنوب السعودية من جهة اليمن) وربما كانوا يعنون اليمن ويضعونها في آمالهم التوحيدية ، وهو ما رفضه عبد العزيز .

قالوا :

« ولما كان اسمها الحاضر هو : « المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها » لا يعبر عن الوحدة العنصرية والحكومية والشعبية ، الواجب إظهارها ، ولا يدل إلا على مسميات لأصقاع جغرافية لبعض أقطار العرب ، تقصر عن الاشادة بالحقيقة الواقعة المشار اليها آنفاً ، ولا يرمز الى الاماني التي تختلج في صدور أبناء هذه الأمة للاتحاد والائتلاف بين جميع الناطقين بالضاد ، على اختلاف اقطارهم وتباعد أمصارهم* .

فان المجتمعين يرفعون بكمال الخضوع الى سدة صاحب الجلالة ، أمنيتهم الأكيدة في أن يتكرم باصدار الارادة السنية ، بالموافقة على تبديل اسم المملكة الحالي الى اسم يكون أكثر انطباقا على الحقيقة ، وأوضح اشارة الى الأماني المقبلة ، وأبين في الاشادة بذكر من كان السبب في هذا الاتحاد والأصل في جمع الكلمة وحصول الوحدة ، وهو شخص جلالة الملك المفدي ، وذلك بتحويل اسم « المملكة الحجازيـة النجديـة وملحقاتها » الى اسم « المملكة العربية السعودية » الذي يدل على البلاد التي يقطنها العرب ، ممن وفق الله جلالة الملك « عبد العزيز آل سعود » الى توحيد شملهم وضم

---

* قد يستند الى هذا القول في تفسير لفظه « العربية » في اسم المملكة بأنه يشير للوحدة العربية العتيدة . ولكن الحقيقة المشار اليها آنفا تتحدث عن أبناء الجزيرة فقط من « أتهم » منهم ومن « أنجد » .. الخ ولم تقل من « اشأم » منهم ومن « أمصر » . وقد شرحنا معنى « العربية » في اسم المملكة .

شعثهم » .
وقد كان اختيار التسمية أكثر توفيقاً من الحيثيات ، فهم لم يقترحوا : « المملكة العربية العزيزية » حتى يقال إن التسمية « أبين في الاشادة بذكر من كان السبب في هذا الاتحاد ، والأصل في جمع الكلمة وحصول الوحدة وهو شخص جلالة الملك » . بل سميت السعودية ، نسبة الى البيت السعودي ، وهو الأحق بأن يوصف بأنه « السبب في هذا الاتحاد .. » الخ . ليس في هذه المرة ، بل منذ أن توحدت لأول مرة ، بعد العصر النبوي ، ولعلنا لا نذهب بعيدا إذا قلنا إن نسبة المملكة الى البيت الموحد لها ، أو المنشيء لها ، ربما تكون قد استوحت تاريخ الدولة « العثمانية » التي نسبت الى عثمان رئيس تلك القبيلة المجهولة الصغيرة التي استطاعت بفضل « عثمانها » هذا ، وبفضل تصديها للدفاع عن الاسلام أن تفرض وجودها أكثر من خمسة قرون ، واستحق بذلك أن تسمى باسمه ، مملكة تمتد من فيينا الى خط الاستواء ومن بغداد الى بلغراد وأن يصبح اسمه جنسية الملايين العديدة التي شكلت الامبراطورية العثمانية .. فلعلهم تفاءلوا بأن تعيش الدولة السعودية عمر الدولة العثمانية ... وأن تتفادى أخطاءها ، فلذلك تضمنت العريضة ذاتها مطلبين أخرين : « سن نظام خاص بالحكم وتوارث العرش » .

وقد استجاب الملك ـ كعادته ـ وأصدر مرسوماً في ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ ـ الخميس ٢١ جمادي الأولى ١٣٥١ باتخاذ التسمية المقترحة : « المملكة العربية السعودية » وأيضا : « بتكليف مجلس وكلائنا الحالي ، **الشروع حالا في وضع نظام أساسي للمملكة** (أي الدستور فالنظام الأساسي كان المصطلح الشائع في العالم العربي ، والدولة العثمانية في الحديث عن الدستور) ونظام لتوارث العرش ، ونظام لتشكيلات الحكومة وعرضها علينا لاستصدار أوامرنا فيها »[١٢٢] .

ونشرت أم القرى في عددها الصادر يوم ٢٣/٩/١٩٣٢ ـ ٢٢ جمادي الأولى ١٣٥١ أن المرسوم الملكي رقم ٢٧١٦ يتضمن :

تشكيل جمعية مندوبين قريبا لوضع النظام الأساسي للمملكة ونظام توارث العرش .

وسيضم الى جمعية المندوبين أي شخص أو أشخاص يمكن أن يفيدوا خلال إعداد الدستور والقوانين .

ولو نفذ هذا الأمر « حالا » كما كانت رغبة الملك ونص مرسومه ، لربما كنا قد شاهدنا نموذجا هو الأول من نوعه ، أعني قيام المؤسسات الحديثة في ظل المفهوم الاسلامي . ولتجنبت التجربة الكثير من الالتواءات ، ولربما تغير مجرى الفكر الاسلامي ، ذلك أنه وقد خرج الاخوان من الساحة ، وانتهى الدور الحركي ، وبدأت محاولة بناء دولة تقوم على مبادىء الرسالة ، وبنية صادقة من معظم الاطراف في إقامة أقرب مجتمع للتصور الاسلامي ، إلا أن هذا المجتمع الجديد ، افتقد لعنصر الوازع الشخصي ، أو ضمانة الضمائر التي كان الاخوان يشكلونها بسلوكهم أو بعصيهم التي يضربون بها المنحرفين ، نفس المشكلة التي واجهت المسلمين باختفاء جيل الصحابة

والبدء في بناء الدولة الاسلامية ، والقياس مع الفارق الكبير .

المهم كانت الحاجة ماسة للضمانات الدستورية المتعارف عليها في الدول الحديثة ، وكذلك المؤسسات والتنظيمات التي تحدد الحقوق والواجبات ، وتفصل بين المال العام والمال الخاص ، وتحدد أساليب الرقابة البشرية ، وتضمن الاستمرارية ، وتحجيم خسائر انحراف الأفراد .. على الأقل كنا سنجرب مرحلة جديدة في « الحل الاسلامي » لو أطاع الوكلاء أمر الملك فوضعوا النظام الأساسي ، ونظام توارث العرش ، ونظام تشكيلات الحكومة .

ولكن المجلس اكتفى في اجتمعه يوم ١١ مايو ١٩٣٣ الموافق ١٦ محرم ١٣٥٢ بمبايعة أكبر أولاد عبد العزيز ولياً للعهد ..

ولم يعرف السبب حتى اليوم في عدم التنفيذ ...

الملاحق

الاخوان

١ م ــ من الطبيعي في مثل ظروف حركة الاخوان ، وفقدان المصادر أن تثور عدة اسئلة حول نشأتها ، تاريخا وفكرة .. وقد طرح ديكسون الحاكم البريطاني للكويت أثناء أزمة الاخوان ، ومؤلف كتاب الكويت وجيرانها حكاية أن المؤسس الحقيقي للاخوان هو شخص يدعى « عبد الكريم المغربي » . معتمداً في ذلك على رواية لبلغرايف قال فيها « إنه شهد حركة بعث وهابي عام ١٨٥٥ ، واكتشافه حركة إحياء منظمة يقودها حوالي العشرين من المتزمتين ، وأن هذه الحركة تحرم الدخان ولبس الحرير والذهب والآلات الموسيقية وكافة الملهيات . وأن قيادتهم متعصبة لها حق توقيع العقوبات البدنية على المخالفين ، وقد تحدث بلغرايف عن أحد هؤلاء القادة ، فقال إن اسمه عبد الكرين (احتمال الخطأ بين الــ M و N في اللغة الانجليزية ممكن جداً) ابن ابراهيم الذي تحالف بالمصاهرة مع العائلة الوهابية* وهو وهابي يمثل كل رذائل هذه الطائفة وقد لعب دوراً بارزاً في المجموعة الأولى التي تأسست سنة ١٨٥٥ ــ ١٢٧١** .

وأكمل ديكسون أن « عبد الكريم المغربي كان رئيس العلماء عند المرحوم فالح باشا السعدون رئيس قبائل المنتفق ثم هاجر الى نجد حيث عمل كمعلم ديني لمركز الأرطاوية الذي لم يكن وقتها أكثر من خلية وهابية . وهناك رواية تقول إن سيده السعدون خلال عام ١٨٩٩ رجع عبر نجد وزار الأرطاوية وبدلا من أن يرحب به صديقه القديم طرده عبد الكريم كمشرك وكافر » ونقل جورج لبسكي ــ في رأي حبيب ــ عن ديكسون فقال : « شجع عبد العزيز نمو مستعمرات الاخوان الوهابية التي قامت في نهاية القرن التاسع عشر في الأرطاوية على يد مصلح اسمه عبد الكريم .

Saudi Arabia طبع عام ١٩٥٩ صفحة ١٢ .

وقد اهتم « جون حبيب » في دراسته الجيدة عن الاخوان بهذه القضية وبذل جهداً كبيراً في نفي وجود مؤسس قبل عبد العزيز ، ولكنه اصطدم بوجود شخصية حقيقية هي عبد الكريم المغربي ، وحاول أن يصلها بعبد الكريم الذي تحدث عنه بلغرايف ..فقال إنه يحتمل أن يكون عمره ثلاثون سنة عندما رآه بلغرايف عام ١٨٥٥ ــ ١٢٧١ ولذا فعمره في عام ١٩١٢ ــ ١٣٣٠ هو ٨٧ سنة « وهو سن شائع بين البدو » ! وكان جون حبيب قد قابل حفيد عبد الكريم المغربي هذا الذي قال له إن جده هاجر للأرطاوية بعدما تأسست الهجرة فيها ، وأنه يعتقد أن ديكسون قد خلط بين عبد الكريم هذا وآخر اسمه عبد المحسن بن عبد الكريم أحد المؤسسين الأوائل للأرطاوية . وتحدث هذا الحفيد عن جده كدرويش*** . اما سلطان الدويش فقد أشار ايضا الى « عبد الكريم » ولكنه عبد الله بن عبد الكريم التميمي الذي جاء مع ثلاثين رجلا الى الأرطاوية وأسسوها . أما ماجد بن حثيلة فأخذ برواية عبد الكريم المغربي هذا فقال إنه هاجر من شمال افريقيا في ١٩١٨ ــ ١٣٣٦ وزار مكة والمدينة وسكن الأرطاوية !..

وكما قلنا ، بذل « جون حبيب » جهداً فائقا في إثبات أن عبد العزيز هو المؤسس وطلب شهادة الجنرال غلوب الذي قال له في رسالة خاصة « أنا ايضا أعتقد أن عبد العزيز بدأ حركة الاخوان » .

وحاول ان يثبت تناقضا بين تقارير ديكسون وهو في الخدمة ، وكتابه بعد التقاعد . فاستشهد بما

---

* كله عند الفرنجة لابد أن يصاهر آل الشيخ .

** وهو بريطاني تحول الى قسيس جزويتي William Gufford Palgrave

*** كل مغربي درويش .

كتبه « في زيارتي الأخيرة للأحساء ٩ فبراير ١٩٢٠ ـ جماد أول ١٣٣٨ عانيت الأمرين في محاولة اكتشاف أكبر قدر ممكن من المعلومات عن حركة الاخوان ، ولكن حيثما سألت كنت أقابل بنظرات الشك ، وبدا واضحاً لي ان الناس قد تلقوا إشارة من شخص مسئول بأن يختصروا الحديث قدر الامكان . ولا يمكن للمرء إلا أن يستنتج ان ابن سعود نفسه خلف الموضوع . وأعتقد أنه أعطى أمراً بأن يقال أقل ما يمكن عن الحركة الجديدة للأغراب وأنه لا يريد أن يعرف أنه هو خلف القصة كلها . وأنه يغذي الحركة ويوجهها لخدمة أهدافه » !

ويتعجب بعد ذلك أن يقول ديكسون إن عبد الكريم المغربي هو مؤسسها !

وصحيح أن ابن سعود كان خلف الاخوان والسعوديين والحركة الوهابية وكل شيء في نجد والأحساء عام ١٩٢٠ ـ ١٣٣٨ .. ولكن ذلك لا يعطي جون حبيب الحجة القاطعة . فيعود ليقول لو كانت الأرطاوية موجودة هل كان من المعقول أن يمر شكسبير بها دون أن يلاحظها ؟ وهو سؤال مردود لأن شكسبير قتل عام ١٩١٥ ـ ١٣٣٣ وأكثر الروايات تأخراً عن إنشاء الأرطاوية جعلتها عام ١٩١٣ ـ ١٣٣٢ أي أن شكسبير مر ولم يلاحظ على أية حال ، وقد رأينا كيف عانى ديكسون ليعرف شيئا عن الحركة ، وكيف استحال على فيلبي دخول الأرطاوية .. فشهادة أو جهل شكسبير ليس حجة سواء أكانت الأرطاوية موجودة من ١٨٩٩ ـ ١٣١٧ كتجمع صغير ، أو « خلية وهابية » لا أهمية لها ، أو معسكر حركي بعد ١٩١٣ ـ ١٣٣٢ .. أو ١٩١٢ ـ ١٣٣١ كما قرر جون حبيب .

وينفي زعم ديكسون أن عبد العزيز نفسه قال له « لا دخل لي في قيام حركة الاخوان » ، ينفيه بقول ديكسون أيضا إن ابن سعود قال له في عام ١٩٢٠ ـ ١٣٣٨ « أنا الاخوان » . وأن عبد العزيز لو كان حقاً قد تبرأ من تأسيس الاخوان ، فلأنه « حاول أن يخفي مسئوليته عن حركة تزعج الحكومة البريطانية » وهو كلام لا يستقيم !.. لأن عبد العزيز عندما يقول « أنا الاخوان » فهو يتحمل مسئولية سلوكهم كاملة ، وما يزعج بريطانيا هو سلوك الاخوان بقيادة ابن سعود ، وليس البحث عن المؤسس ! وحتى ديكسون المشكك زعم « أن الحركة بدأت متعصبة جداً ولكن تحت قيادة ابن سعود فقدت الكثير من تعصبها الأعمى » .

وفي اعتقادنا أنه لا يمكن وصف إحدى هذه الروايات بالكذب المتعمد ، ولكنها كلها تتضمن جزءاً من الحقيقة ، وكما قلنا هناك دائما هواية البحث عن مؤسس سابق للمؤسس المشهور في التاريخ ، ولكن أيضا هناك حقيقة أنه ما من شيء ينبثق من الفراغ ، ونستغفر من مثل نوره سبحانه وتعالى بالمشكاة والمصباح ، لنقول إنه حتى في البعثة النبوية كان هناك أكثر من متعبد موحد ينتظر الرسالة ، ولكن غار حراء دخل التاريخ بنزول الوحي على محمد بن عبد الله .

ولا يعقل أن نجداً قد خلت من خلايا الوهابية أو تجمعات المتدينين ، وربما انتعشت هذه الحركات في أواخر القرن التاسع عشر مع الهجمة الصليبية ، وظهور حركات المهدية والسنوسية ، وقد قال هوجارت في كتابه الصادر عام ١٩٠٤ ـ ١٣٢٢ : « رغم حالة الانهيار التي وصفها بلغرايف منذ أربعين سنة ، فان الوهابية لم تمت بعد ، بل لاتزال قوة يبحث خبراء الشرق الأدنى حساب انبعاثها من جديد وربما سكن بعض هؤلاء الأرطاوية فموقعها يمكن من الحياة والعزلة معا ، وربما جاءهم هذا الدرويش من المغرب يحمل آراء صوفية ، ولعله كان يحاول إقامة زاوية أو طريقة كما حدث في عسير على يد الأدارسة . ولكن طبيعة نجد تتعارض مع الصوفية ، وترفض إسلام الزوايا والتكايا .. ولا تعرف الا الاسلام الحركي الثائر المغير . ولذلك بقيت هذه المجموعات كنبات الفقع كامنة في الرمال في انتظار سعودي يعيد إليها الحياة ، ويعطيها الحركية .. الجهاد .. ومن هنا فابن سعود هو مؤسس « حركة الاخوان » التي نتحدث عنها ، والتي عرفت في التاريخ ، تماما كما أن ماوتسي تونغ هو مؤسس الجيش الأحمر ولو أن الثورة وتمرد الفلاحين ظواهر سابقة عليه . فهو ابن سعود الذي أعطاها شكلها وتنظيمها وأهدافها .. هو الذي أوجدها هو الذي حول « السديم » الوهابي الذي كان

يطوف في أذهان النجديين ، الى نجوم وشموس وكواكب الى مادة صلبة . ومن ثم فكل جدل حول من أنشأ الاخوان هو جدل عقيم ولا يخدم حقيقة تاريخية أو علمية .. حسمه ابن سعود بكلمتين كان ومازال فيهما فصل الخطاب : « أنا الاخوان » !

٢ م ـ وعلى طريقة عنزة ولو طارت ، أو بالمصري : « تقول ثور يقولوا احلبوه » ! يعود حافظ وهبه فيقول إن حركة الاخوان الأخيرة (التمرد والحرب الأهلية) عاقت تقدم المشروع الأصلي وهو تحضير البادية ، فاننا لم نسمع منذ سنة ١٩٣٠ ـ ١٣٤٩ أن قبيلة من القبائل رغبت في سكنى جهة من الجهات . على أن حركة « وعظ » البادية وإرشادهم لمبادىء الدين ومكارم الاخلاق ، لاتزال سائرة في طريقها ، وبذلك يعمل الملك عبد العزيز لاستئصال شرور البادية بالسيف من جهة ، والعلم من جهة أخرى » !.

الحمد لله لم يقل بالمحراث !..

المفروض إذا كان المشروع الأصلي هو الزراعة والتحضير ، أن تخدمه حركة الاخوان الأخيرة ، ولا تعوقه ، إذ ينشط الناس من أجل التعمير والزراعة والتوطن عندما يستتب السلام ، ويزول العنصر القتالي ، الذي هو عنصر ثانوي بموجب هذه التفسيرات ، فيبقى الأصل وهو الزراعة والتحضير ، وهوما لم يحدث ، لأنه لم تكن كذلك أبداً بل معسكرات مجاهدين ، فلما زال الهدف انتفت الحاجة الى المشروع وانتهت الرغبة في التطوع له .

وقال الزركلي في تعداد مفاخر عبد العزيز في محاربة البداوة !

« والثالثة وهي من مفاخر عبد العزيز البارزة : الهجر جمع هجرة وهي في عرفهم الانتقال من البداوة الى الحضارة ، فحيثما وجد الماء في قلب الجزيرة ، كان على أقرب قبيلة بدوية منه أن تهجر بيوت الشعر ، وأن تبني الى جوار الماء ، وتقتني الماشية وتزرع وتحصد ، وتستقر ، ولها من بيت المال المساعدة على البناء وعلى الزراعة ، ومصيرها أن تتحضر » .

إلا أنه يوافق فؤاد حمزة على أن الهجر « من حيث الحرب والسياسة ، معسكرات في أنحاء البادية ، والاخوان جند هذه المعسكرات ، يسيرون بأمر القائد الأعظم عبد العزيز ابن سعود في أي وقت شاء » .

و « جورج انطونيوس » المترجم في السفارة البريطانية[1] قال « إن برنامج ابن سعود الرامي الى الاصلاح[2] الاجتماعي والاقتصادي الذي اختمر في ذهنه من زمن بعيد ، وهو يرتكز على نقطة واحدة هي استقرار العرب الرحل على الأرض ، وكان قد بدأ بتطبيق فكرة الهجر في نجد عام ١٣٢٨ هـ (١٩١٠) وسار المشروع بعد ذلك خطوات سريعة » .

وقال إن ابن سعود كان يريد استخراج الغريزة الحضرية من أعماق نفسية البدوي الذي على ما يبدو أصبح بدوياً نتيجة عقدة نفسية !

وسنجد فكرة التوطين في أكثر صورها سوقية في ذلك الذي اقترفه المدعو « أحمد عسه » :

« ولكن الشيء المعجز حقاً أن يتحدى شاب ـ لم يتجاوز الثلاثين من العمر ولم يكتب له أن يعكف لا على الدراسات الاجتماعية ولا غير الاجتماعية ـ الى محاولة جذرية في تبديل أسس الحياة الاقتصادية والاجتماعية في محيطه ، وعلى نحو لم يسبق له مثيل في بلده عبر العصور والأجيال الطويلة (يخيل لك أن عبد العزيز اكتشف الزراعة ، أو أنه حول السعودية الى العراق أو مصر .. وبعد أربعين سنة من انشاء أول هجرة لم يكن هناك أي تبدل في الحياة الاقتصادية للمملكة ، ولكن التبدل حدث في الناس .. وظلت الحياة الاقتصادية كما هي الى أن ظهر النفط) .. ثم يحدثنا عن « مشروع اجتماعي

---

(١) في كتابه المنشور عام ١٩٣٨ ـ ١٣٥٧ The Arab Awakening . ونعتقد أنه هو المصدر الذي نقل عنه معظم كتاب التوطين .
(٢) وقد اقتبس التعبير مؤلف « الاصلاح الاجتماعي » .. وفاز بالجائزة !

واقتصادي جبار هو الأول من نوعه ، ومن غير أن يكون مجهزا بأي خبير ، بل حتى بملاكات فنية ولو أولية تعينه على إنجاز محاولته الطموح » .

ويلبس عسه عمامة الماركسية فيحدثنا عن قرار ابن سعود بنقل المجتمع في نجد من طور الرعي والارتحال ليدخل طور الزراعة والاستقرار ، « وأن يكون ارتباطه بالأرض ، بدل أن يكون الرحيل للتفتيش عن العشب والماء ديدنه ومحرك خطواته وموجهها . وأن يكون له مورد رسمي ثابت من جهده في معالجة التربة وزرعها وإنباتها . بدل أن يكون رزقه من جهد الغزوات ، وما يرافقها من دماء وتدمير ويتم ونهب وسلب » .

لا والله لا كان ذلك في مقدور عبد العزيز ، ولا حاوله ، فضلا عن أن تتهمه بتنفيذه ، فان تحويل سكان نجد من الرعي الى الزراعة لم يتم ، ولا كان يمكن أن يتم من خلال هجرة الأرطاوية ، بل بوسائل مادية لا دخل فيها للخطط والعبقريات .. باكتشاف وسيلة لتوفير ماء دائم يكفي لزراعة تسد احتياجات هؤلاء السكان .. وهو ما لم يكن في طاقة حاكم ولا في طموح عبد العزيز .

ونصل الى الفكاهة عندما يقول إنه من « دواعي الاكبار والاجلال ، أن يكون عبد العزيز قد فكر هذا التفكير الطموح البناء الحضاري ، وهو مايزال بعد يخوض معارك القتال ويتابع حروب التحرير » !!

وهي تساوي تماما القول بأنه من الغريب أن يفكر عبد العزيز بتكوين مقاتلين وهو لايزال يخوض معارك القتال ؟!.. ولكن مع نظرية التحضير والتدجين والزراعة يصبح التساؤل معقولا والدهشة الغبية مفهومة ؟!!.

على أية حال لم يقدم لنا مرتكب « المعجزة » أي رقم اقتصادي ، أو إحصائية زراعية أو أي مظهر من مظاهر التطور الاجتماعي ، أو أي دليل يشير الى انتقال نجد من مرحلة الرعي الى مرحلة الزراعة ، كل ما فعله هو نقل احصائيات الريحاني عن عدد المقاتلين في الهجر ، وهم « المحصول » الوحيد الذي كان ينبت في الهجر .

وهو يزعم أن بيع الابل قبل الانضمام الى الهجر كان : « لكي لا يجدوا ما يعينهم على الانتقال للغزو إذا صادفوا المصاعب وقل الرزق بين أيديهم » ! مع ان « سيدنا وسيد الجميع » الحسين بن علي استدل من بيع الابل على نية الغزو وتفرغهم له ! والدويش أكد في رسالته للأمير سعود أن الغزو هو مورد رزقه الوحيد فاما أن يغزو المشركين ويأكل من الغنيمة ، أو يغزو القبائل من حوله ويعيش على النهب ولم يشر للزراعة !

ولو أحسن النقل من الريحاني ، بدلا من السطو عليه والقول : « أحصي عدد الهجر » مبنية للمجهول ! لوجد أن عبد العزيز يتحدث عن كيف أخرجت الهجر أفضل المقاتلين وليس أفضل المزارعين . والهجر أخرجت لحسن الحظ أو سوء الحظ فيصل الدويش ، وفيصل بن حشر وابن بجاد ، ولم تخرج « شاخت » .

ويكفي للدلالة على مستوى هذه الكتابات ، ونظرتها لفهم من تكتب لهم ، أنه يعدد من عبقريات ابن سعود ، حرصه عند اختيار أماكن الهجر أن يقيم كل هجرة ، على بئر أو نبع ماء لأنه لا حياة ولا زراعة بغير ماء !!

وهذه بالطبع من عبقرية المؤلف . لأن الأميبيا اكتشفت أنه لا حياة بدون ماء منذ بضعة مليارات من السنين قبل كتاب المعجزة . والله سبحانه وتعالى يقول : وجعلنا من الماء كل شيء حي ..

ولكنه نوع من النفاق السوقي المبتذل ..

كأن عبقرية عبد العزيز لا تكتمل إلا إذا عرف ان المية تروي العطشان* .

---

* مع الاعتذار لعبد الوهاب المغني ..!

كيف تقام الهجرة بدون ماء ؟ وأين يوجد الماء إلا في الآبار والعيون ؟.. أم ترى كان سيقطر لهم ماء البحر ويشتري جبل جليد في وقت لم يكن قد ظهر فيه لا النفط ولا عسة !

والقارىء لهذه الكتابات يخيل إليه أن عبد العزيز قام بنقل القبائل من الصحراء الى المدن الجديدة او « الهجر » أو حتى حول موطن القبيلة الى « هجر » كبيرة تضمها ، وهذه صور خاطئة تماما . فقد ظلت القبائل في أماكنها المتوارثة ، بحياتها وتقاليدها ، الى حد ما ، ولكن أصبحت لكل قبيلة هجرة ، أو هجرة لعدد من القبائل ، يتوجه اليها المتحمسون المؤمنون الراغبون في التفرغ للجهاد والعبادة . فيقال إن الأرطاوية هجرة مطير ، والغطغط هجرة عتيبة ، ولكن هذا لا يعني أن قبيلة مطير انتقلت الى الأرطاوية التي لم يزد تعدادها عن عشرين ألف في قمة تألقها ، أو أن عتيبة المنتشرة من الحجاز الى نجد ، قد انتقلت فجأة الى الغطغط .. كما أن الاخوان لم يكونوا داخل الهجر فقط ، بل انتشروا داخل القبائل وسائر المدن ، وتميزوا بالعمامة وبسلوكهم الخاص .

والآن حان وقت الفكاهة والترويح عن النفس ، فننتقل الى بنوا ميشان أكذب وأغبى من كتب عن عبد العزيز ! قال فض فوه : إن عبد العزيز « وضع خطة جرئية ، لم يجرؤ حاكم عربي قبله على تنفيذها ، لقد قرر أن يحجز البداوة ، ويحيطها بالسدود وشيئا فشيئا بتثبيت البدو حول مواقع الماء وحضهم على حرث الأرض ، أي اعادتهم الى وضعهم الزراعي الذي كان لهم قبل ان يرغمهم التيار البشري على أن يصبحوا سكانا تائهين ، بدفعهم عبر شبه الجزيرة » !!

ثم يضع لنا نظرية التوطين :

« إن العامل المسيطر حتى الآن على حياة الصحراء ، كان ندرة مواقع الماء ، والمساحات القليلة للأراضي المزروعة ، فيما لو قورنت بحجم الناس الذين يحتاجون الى الغذاء ، وهكذا يتحقق التوازن على مراحل ، بين الطرفين ، ومن ثم تعرف الصحراء عصر الهدوء ، ولكن الواقع أيضا أن موجة جديدة قليلة جدا من المهاجرين كافية لتحطيم التناسب بينهما وخلق أزمة جديدة بزيادة السكان . وبذلك تدخل الصحراء في حالة غليان ، ويشهد العالم زيادة في العنف في المعارك التي تخوضها القبائل حول المصادر الطبيعية . ثم لا يعود التوازن إلا حين يطرد فريق من السكان نحو الشمال (وليه مش الجنوب يا خواجه ؟) أو تتم إبادته على أن يكون مساوياً في عدده للفئة الطارئة من المهاجرين » !!

وهذه على ما يبدو ، أعني حصر القادمين وإبادة عدد مساو لهم بالضبط ، مهمة تقوم بها مصلحة الاحصاء في قبيلة ربيعة بالتعاون مع إدارة الهجرة في مضر !! وشفي الله أصحاب العقول والذين ينشرون لهم !

ولحل المعادلة الصعبة ، في منطق بنوا قرر ابن سعود زيادة المساحة المزروعة ، ربما لأن تحديد النسل لم يكن معروفاً !..

والحق أنه موقف صحراوي نبيل من جانب عبد العزيز ، أن يهتم بهذه المعادلة ، ويفكر في حلها ، وهو لا يسيطر إلا على واحد بالمائة من الجزيرة ! فلماذا يشغل باله بمعادلة السكان والانتاج !

وكتاب ميشان ، هو خليط غير متجانس من المعلومات المشوهة ، والأكاذيب المتعمدة ، والاستنتاجات الخاطئة الغبية ، ولذلك نراه في الصفحة التالية يقول : « إن هذه المستعمرات لم يكن يقصد بها إنتاج الحبوب والثمار وحسب ، بل أن تكون مشاتل لانتاج الجنود .. إنها ستكون منتديات للمؤمنين ، ولكنهم المؤمنون الذين يدعون للقتال والسيوف في أيديهم ، من أجل انتصار العقيدة الحقيقية » .

لماذا لم يقل إن عبد العزيز فكر في الأسلوبين لحل معادلة السكان والصحراء .. زرع ليزيد الأكل ، وحصد الرؤوس بالحرب ليقل عدد الآكلين !.. فاتته هذه النكتة لشدة غبائه ، ولأن الرب قسا قلبه !..

وقد انفرد بنوا ميشان ، برواية مناقشة عبد العزيز مع العلماء حول « الهجر » وقد أوردها في صيغة مسرحية ، حافلة بتظرفه الموجع ، وشروحه الصبيانية ، ولكنه لم يذكر مصدرا ولا سببا معقولا

لزعمه برفض العلماء للمشروع ، مما يجعلنا نستبعد القصة تماما ..

قال ميشان بعد المقدمة التي لا بد وأن تحتوي على خطأ تاريخي ، وهو الزعم بأن « جوهرة » هي حفيدة عبد الوهاب وام « تركي وسعود وفيصل ومحمد » !!.. قال ان عبد العزيز عرض مشروع الهجر على العلماء :

« وأصغى العلماء اليه بهيئة مهيبة وقور ولكنها غير مؤيدة ... وهز الفقهاء رؤوسهم متساطين الى أين يقودهم هذا « العبد العزيز » بأفكاره الغريبة المتطورة . هكذا تفحصوا عرض الملك ، وقلبوه على وجوهه كلها ، وتذاكروا خلال ساعات ثم أصدروا قرارهم : ان الخطة التي عرضت عليهم لا يمكن أن تجد التأييد المطلوب لأنها ليست متوافقة مع تعاليم القرآن وأوامره . » ..!!

وبعد أن ينفث ميشان ، عدو الاسلام ، غيظه وحقده على « علماء الشريعة » بحجة الدفاع عن عبد العزيز ، ويصفهم بضيق الافق ، وضعف الخيال والتفسير الجامد ، ويزعم أن عبد العزيز تمنى لو استطاع جمعهم في مسجد ونسف المسجد بهم !.. يعرفنا أنه من حسن الحظ أن تدخل « عبد الرحمن العجوز » ! (يقصد الامام عبد الرحمن والد الملك) . فمنع الانفجار وهدأ ولده .. الذي بدأ « يتملق نفوس العلماء » « واستمرت المناقشة أسبوعا كاملا فكشف عن الأهمية والفوائد العميقة التي يمكن أن يخرجوا بها من وجود فيلق وهابي ، تخصص جهوده لنشر عقيدتهم .. أي العمل على تنمية تأثيرهم في البلاد » .

لا علينا من اعترافه بأن المشروع هو لتكوين « فيلق وهابي » وليس مدرسة مشتهر الزراعية . ولكن تأمل كيف ينفث حقده ويشوه دوافع الجميع وينفي ايمانهم ، من حاكم يحتال على العلماء ويتمنى أن ينسفهم وفي مسجد بالذات ! الى علماء يرشون باغراء « زيادة نفوذهم في البلاد » . فوافقوا !..

واتهام اخلاص المشايخ ، ورشوة ابن سعود لهم ، لم ينفرد به بنوا ميشان ، بل ردده الفائز بجائزة الملك فيصل فقد نقل من مجلة العالم الاسلامي[١] : « لقد استطاع الملك عبد العزيز اقناع رؤساء القبائل بالحضور الى الرياض والدراسة في مسجدها الكبير للأمور الدينية على مشايخ أعدهم لهذه الغاية ، وقد أغرى الشيوخ بالهدايا والعطايا ، اذ أصدر أمره باعطاء شيوخ القبائل بيوتا في الرياض ، وشكل منهم الرئاسة العسكرية ، وبهذا استطاع الملك أن يستقطب الجميع لقبول مشروعه » .

فالخطة محبوكة بين عبد العزيز والمشايخ ورؤساء القبائل : الملك يدفع للعلماء والرؤساء ، لحقن الجماهير بألافيون المعروف في كتب الماركسيين !..

واذا كان هاريسون يصف الاخوان كما رآهم رأى العين ، بأنهم أناس يعيشون للآخرة فما عليك !.. الجماهير تعيش للآخرة ، والقيادة تتقاسم الدنيا وتضحك في كمها من سذاجة البدو !..

الحمد لله !.. شهادة هذا البريطاني الذي زار الرياض عام ١٩١٨ ـ ١٣٣٦ وبالتالي لم تكن تساوره أية آمال حول تسويق كتابه بالمملكة ، ولا واجهته محاذير الكتابة عن « الهجرات » فجاء وصفه مطابق لنظرتنا ، اذ رأى « الناس يعيشون للعالم الآخر ، مئات يدرسون في المساجد ، ليكونوا معلمين دينيين للبدو بين القبائل » أي « دعاة » بالاصطلاح الاسلامي ، أو أطرأ باصطلاح جيش التحرير الجزائري أو « كادرات » بالاصطلاح الشائع في روسيا ومن اتبعها .

صحيح أنه كمسيحي غربي التبس عليه الأمر فبدت له نوعا من الأديرة ، تخرج رهبانا ، وليست مراكز اسلامية تخرج رهبان الليل ، وفرسان النهار . ولم يعرف أن المسلم يعيش لآخرته ، كأنه يموت غدا ، ويعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا .. الا أنه على أية حال لم يجد مجتمعا زراعيا ، وتحولا

---

(١) The Moslem World 101: 22/1932 - Wahabism and Ibn Saud, by W. F. Smally p.22.

اجتماعيا ، أو انتقال من الرعي الى الزراعة ، بل شاهد تجمعا عقائديا .

ويستمر انحطاط الفكرة مع المؤلف ، أقصد المجمع ، فهو يلتقط من كل كتاب فقرة ، ويتبناها بدون مناقشة ، فنرى الاخوان بالنقل من ديكسون يتحولون الى عمال التراحيل في مصر أو السخرة قبل الانجليز ! « كان الملك عبد العزيز مرنا اذ سمح لكل قبيلة كبيرة أن تبقى قسما من أفرادها في الصحراء يعملون في الرعي ، أما الباقون فيرسلون الى الهجر للقيام بالأعمال الزراعية ، فكانت مرونة النظام وسهولته من العوامل المشجعة للبدو على قبول المشروع » !

٣ م ـ وقد وصفت دائرة المعارف البريطانية « الهجر » بالمستعمرات ، وإن كان الزركلي قد وضعها بين مزدوجين ! .

وقالت إنه بعد مقتل ابن رشيد سنة ١٩٠٦ ـ ١٣٢٤ عدو ابن سعود الاكبر ، شرع ابن سعود في إقامة الأسس لبناء عظمته في المستقبل . بوضع خطة جديرة بالاعجاب ، نمت عن جرأة وبراعة ، فقد بسط يده بقوة على مكان « الغلو » في نفوس رجاله ليستخرج منها عنصرا بعيدا عن عنصر القبيلة ، أو أقل ما يمكن من تلك العصبية ، راميا إلى دمج الكتل العشائرية بعضها ببعض لتظهر بعد ذلك في مظهر الشعب المتجانس ، وكان بناء « المستعمرة » الاولى للاخوان ـ الأرطاوية ـ عام ١٣٣٠ (١٩١٢) أول خطوة لتنفيذ برنامجه الحازم للقضاء على نظام العشيرة ، وتحويله الى المصلحة القومية ، وكان مثل هذا الهدف يعتبر خروجا عن حدود السياسة العملية ، قبل أن يتبناه ابن سعود .

« وتكونت من كل قرية فرقة من الجيش الوهابي الجديد الذي كان أول اختبار له عام ١٣٣١ (١٩١٣) » .

وقد وصف « جون حبيب » الهجر بأنها « تنظيم شبه عسكري » وقال : « باعتبارهم تنظيما شبه عسكري يتطلب الاستعداد التعبئة للحرب في أية لحظة فان ذلك يمنع انشغالهم في مهنة اخرى مثل الزراعة او التجارة . ولذا فان مساعدة الحكومة لهم ، ولو كانت في شكل إعانة إلا أنها ليست إعانة تبطل بل لخدمة أهداف حيوية للدولة ، وهي الاستعداد العسكري واستبقاء حالة التعبئة العامة » . ص ٧٨ .

« وهم كبدو يحتقرون الزراعة ، وكاخوان يعتقدون أن الانشغال بالدنيا لا يتفق مع مفهومهم للاسلام » . ص ١٥٤ .

وشرح بتفصيل اكبر استنادا الى دراسته الميدانية كيف كانت المهن تالية للاحتراف الديني ـ السياسي ـ العسكري فقال :

« في البداية تفرغ المهاجرون في الهجر للعبادة ، وتجنبوا العمل أو الزراعة وحمدوا الله أنهم أصبحوا إخوانا وتخلوا عن مشاغل الدنيا . وكان هذا الموقف يرجع الى الكسل وإلى جهلهم لأية مهنة ضرورية لحياة الجماعة . ولكن السبب الأساسي هو قناعتهم أن الاهتمام بجمع المال يتعارض مع تفرغهم لله والعبادة فتحرك ابن سعود بسرعة لتصحيح موقفهم بارسال رجال الدين الذين أقنعوهم بأن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن الله يحب يد العامل ، والمسلم القوي خير من المسلم الضعيف ، وعندها فقط بدأت الهجر تأخذ طابع المستوطنات فأصبح هناك المزارع والتاجر والراعي ورجل الدين . الكل يساهم في خدمة المجموع في ظل ابن سعود الذي كان على استعداد دائم لمساعدة الاخوان بأية مساعدة مادية يحتاجونها » .

وقال : « الحياة الدينية في الهجر كانت مطابقة لمثيلاتها في أي تجمع ديني متطهر ، حياة مكرسة للصلاة والتأمل ، اذا لم تقطعها غارة . الحياة اليومية لا تتوقف الا بوصول رسول يحمل أنباء من الرياض ، أو بتعليق بنديرة الحرب في ميدان المدينة وهي تعني إعلان التعبئة . وليس في المدينة

---

(١) وهذه تعزز رواية راندل باكر في جعل تاريخ الحركة ١٩٠٨ ـ ١٣٢٦ ، والنص من ترجمة الزركلي .

موسيقى ولا رقص ولا رياضة ، وحتى لعب الأطفال لم يكن يشجع » . ص ١١٤ .

وخلاصة فكرة جون حبيب أنها بدأت كنوع من التكايا بفكرة التفرغ للعبادة ، على أن يتفرغ الآخرون لاطعامهم ، ثم تحولت بفضل التوعية الى مستوطنة دينية ـ عسكرية ، تسد احتياجاتها بنفسها أو الاكتفاء الذاتي ، فلا مجال للحديث عن مشروع زراعي .

وقد فند فيلبي أيضا فكرة الاصلاح الزراعي ، وقال « لو كان المشروع اجتماعيا حضاريا لحرص ابن سعود على الحديث عنه مع زواره الأجانب ودعاهم لمشاهدته ولكنه على العكس من ذلك حرص على كتمانه وكان يتحاشى قدر الامكان الحديث عنه حتى مع الريحاني . وقال إن خلق حركة الاخوان قام على أساس طموحات ابن سعود السياسية ـ العسكرية في الجزيرة ، ومن هنا كانت رغبته في إخفاء هذا التطور عن الانجليز أطول مدة ممكنة بسبب تأييد الانجليز للملك حسين » .

٤ م ـ قدم الريحاني صورة للتعاليم أو التربية التي كانت تجري في كل مكان في نجد ، وفي المساجد ، وفي الهجر وحول الآبار ، ومع القوافل ، وذلك في مالقنه .. « هذلول » لقافلة الريحاني عن الايمان أو مباديء الحركة قال الريحاني : « أخذ هذلول » يعلمنا دين التوحيد : يجب على كل مسلم أن يكون عالما بثلاثة أصول : من أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النار .. ثانيا : إن الله لا يرضى أن تشرك معه في عبادته أحدا ، لا ملكا مقربا ، ولا نبيا مرسلا . ثالثا : أن من أطاع الرسول ووحد الله ، لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله » .

كيف يجد الاستعماريون الذين حادوا الله ورسوله ، متعاونا من الاخوان ، أو عميلا ، وهذه هي التعاليم التي يتلقنها منذ اليوم الاول لانضمامه للمشروع .

٥ م ـ وقد أورد الريحاني أيضا قصة ثلاثة من البدو كانوا في طريقهم للرياض ، فلما قابلوهم في الطريق سلموا عليهم .. ولكن بعد التعارف ، شكوا في الريحاني ورفضوا ادعاء مرافقه بأنه سوري جاء يتاجر في الابل ، معتقدين أنه « انكليزي كافر » وعليه أصروا على أن يستردوا سلامهم!.. وانتهت الأزمة بأن أعلن المرافق : « سلامكم رد لكم » ! واطمأنوا وانصرفوا وكأنهم استردوا سلاحهم الذي وضعوه جانبا بالقاء كلمة السلام ، التي لا يجوز أن تعطى « لانكليزي كافر » .

هذه هي التربية التي تؤهلهم لقتال الانجليز ، والتي أرعبت المسئولين البريطانيين من لورنس إلى وينغت .

ويقول وهبة إن « عبد الله بن جلوي وغيره من آل سعود ، وكبار آل الشيخ كانوا ينصحون الملك عبد العزيز بالتبصر في غلو الاخوان وخروجهم عن حدودهم » .

٦ م ـ كتب هاملتون المقيم السياسي في الكويت . في ديسمبر ١٩١٨ ـ ربيع أول ١٣٣٧ : « كان الجميع ضد ذهابنا الى الأرطاوية ، التي كما قيل لنا تشكل مركزا متقدا للطهر المحمدي ، وحيث لا يرحب ليس فقط بالأجانب ، بل كل الغرباء يوضعون في الحجز لفترات متفاوتة حتى تمتحن سلفيتهم » . وأضاف جون حبيب إن حاكم الأرطاوية الحالي اخبره أن القادمين من الكويت بالذات كانوا يوضعون في هذا الحجر العقائدي قبل السماح لهم بدخول المدينة . بل وحتى أهل الارطاوية الذين يذهبون الى الكويت كانوا يوضعون في الحجر حتى يثبت أنهم لم يتدنسوا بزيارة الكويت » (الذي يبدو أنه كان يعتبر بلدا موبوء !!) .

« حتى فيلبي لم يسمح له بزيارة الارطاوية فاكتفى بمشاهدتها بالتلسكوب قائلا إنه لم يشأ المخاطرة بجلده بالذهاب للأرطاوية . وقال عنها إنها كانت علامة فاصلة في التاريخ ، فحتى في هذا الوقت المبكر (١٩١٨ ـ ١٣٣٧) كانت مرهوبة في طول البلاد وعرضها » (فيلبي في بلاد الوهابيين) .

وتشهد تقارير هذه الفترة تيارين ، تيار يتخوف عن حق ان تكون هذه الحركة هي شرارة ثورة كبرى ، وتيار يحاول نفي الأصالة عنها باتهامها بالشيوعية والانتماء لمؤامرة عالمية ..

فقد كتب القنصل الامريكي في اسطمبول (١٧/١٢/١٩٢١ ـ ١٣٣٩) إلى حكومته يقول : « لا توجد معلومات عن البعث الوهابي في الجزيرة وما إذا كانت لهم علاقة بالانتعاشة السنوسية في افريقيا ؟ والحركة الوطنية في الاناضول (انتفاضة الاتراك والمسلمين من غير الترك ضد الغزو الاوروبي لتركيا بعد الحرب العالـمية الأولى) وبصيغة أخرى هل هي جزء من حركة إصلاح اسلامية عامة ؟ » .

والقنصل يشير إلى الدور الذي لعبه السيد أحمد السنوسي في إثارة المقاومة الوطنية بالأناضول تحت قيادة مصطفى كمال قبل ان يشهر هذا عداءه للاسلام وقد التحق السيد احمد بعد ذلك بخدمة ابن سعود . وكان له دوره في دعم عمر المختار) .

وفي ٢٤/١٠/١٩٢٤ ـربيع أول ١٣٤٣ قالت صحيفة اسطمبول التي كانت قد تنكرت للخلافة : « توجد نفحة اشتراكية في الوهابية لأن محمد عبد الوهاب يركز على اقتسام الثروة » . وقال تقرير القنصل الامريكي ان السعوديين ينتوون تحرير كل الشعوب العربية » . (٢/٦/١٩٢٤ ـ شوال ١٣٤٢) .

وقال تقرير بريطاني إنها قد تكون مدفوعة من الأتراك » ٢٥/٩/١٩١٨ ـ ٢ آخر ذي الحجة ١٣٣٧ ، وأفتى المندوب السامي البريطاني في العراق بأنها « حركة اشتراكية حيث يقتسم الأغنياء ثروتهم مع العامة . وقد حدثت عدة وقائع منح فيها شيـخ القبيلـة جمالـه لاتباعـه » . (١٢/٥/١٩١٩ ـ شعبان ١٣٣٧) .

أما الملك فيصل ملك العراق فقد رفع النفحة الاشتراكية الى الشيوعية فوشى للانجليز بأن « الوهابية مرتبطة بالشيوعية ، وأن الوهابيين يجب قتلهم فهذه هي الوسيلة الفعالة » (مخطوطات الخارجية البريطانية) .

وأضاف إنها « جزء من مخطط عالمي هو الذي حرك الثورة في أفغانستان ومصر والهند وتساءل « لماذا لا تكون هذه الحركة الوهابية جزءاً من هذا المخطط ؟ أو على الأقل يمكن أن تجذب انتباه منظمي تلك المؤامرة الذين سيستخدمونها كاداة للدعاية وكجسر للوصول الى حرم الاسلام لكي يحققوا أهدافهم . فنحن نرى النار ولكن اليد المحركة لاتزال خافية . فاذا كان العالم الغربي يعتبر البلشفية كمرض اجتماعي يهدد الحضارة .. فلماذا لا ينظر إلى الحركة الوهابية في الشرق الادنى نفس النظرة ؟ على الاقل مادامت يحركها نفس الجهل والتعصب » ؟! (رسالة فيصل الى جنرال اللـنبي ١٩١٩ ـ ١٣٣٧) .

ومن أنبأك ان الغرب لم يفعل أيها الملك الشريف العالم المتسامح جدا ؟ ..

وقد غنى فيصل ورد عليه وينغت فقال « للملك حسين الحق في الاعتقاد ببلشفية الوهابية وفي وجود دعاية سرية معادية لنا وله » .

وكتب ماجور كورتني في تقرير لمدير المخابرات الحربية البريطانية بتاريخ ٣/٩/١٩١٩ ـ ذي الحجة ١٣٣٧ . إن أحد مصادره الاسلامية ، قالت له « إن أفضل وسيلة لنشر البلشفية في البلاد الاسلامية هي نشر الوهابية التي تعتبر صيغة منقحة للاسلام البلشفي أو البلشفية المسلمة (!) والتي ستنتشر أكثر من البلشفية » !

وكتب القائم بالاعمال البريطاني في جده يقول « إن الملك حسين يردد أن الاخوان هم مثل البلشفيك إذا لم نقمعهم الآن فقد نضطر إلى القتال في الجزيرة العربية كلها التي ستحترق وتزول منها كل آثار التقدم » .

وهذه التشنيعات ، كانت تستند الى حقيقة ، ثورية الحركة ، طابعها التحريري المعادي للمصالح

الغربية والاستعمار الغربي ، روح الأخوة التي سميت اشتراكية .
وقال « الن دلاس » إياه في مذكرة لوزارة الخارجية الامريكية « إن الاسلام اليوم أكثر خصوبة وتعصبا في السعودية منه في أي مكان أخر ، وليس لدينا من مصادر للمعلومات عن هذا الجانب من العالم إلا الاعتماد الكلي على البريطانيين » . ١٩٢٢/١١/١٦ ــ ربيع أول ١٣٤١ .

٧ م ــ قال تقرير القنصلية الامريكية في القدس بتاريخ ١٩٢٨/٢/١٣ ــ شعبان ١٣٤٦ : « ألقي القبض على الريفرنس جورج بريدن والريفرنس وليم سمالي اللذين يعملان مع بعثة الحدود العربية التابعة لهيئة التبشير المسيحي المتحد (٢٦٠ وست شارع نيويورك نيويورك) وكانا قد قاما برحلة الى الحجاز في نوفمبر ١٩٢٧ ــ ربيع ثاني ١٣٤٦ ، عن طريق معان والعقبة بهدف بحث إمكانيات بدء نشاط تبشيري وتعليمي في البلاد . وقد ألقى القبض عليهما ورحلا عبر جدة ، مع وضع تأشيرة على جوازاتهما بمنع دخولهما الحجاز أو نجد ويبدو أن المستر فيلبي هو الذي نصح بالافراج عنهما وتحرير خطاب للمفوضية الامريكية لتحذيرها من إرسال مبشرين إلى نجد والحجاز مرة أخرى » .
وقد تصرف الأمير فيصل بحزم وكتب باسم وزارة الخارجية في مكة ٨ ديسمبر ١٩٢٧ ــ جمادي ثاني ١٣٤٦ ، إلى القنصلية الأمريكية في القاهرة : « إن الحكومة لن تسمح أبدا مهما كانت الأسباب لأي شخص بأن يمارس التبشير بالمسيحية في الحجاز ، والحكومة لا تتحمل أية مسئولية عن مصير أي مبشر يدخل البلاد بدون علم وإذن منها » .
وقال المبشران في تقريرهما الذي يطفح جهلا وتعصبا : « إن الامير فيصل هو المسئول عن كل ما نزل بنا من نكد وأصابنا من متاعب » .
وجاء في التقرير إنهما حاولا تبشير الجندي الذي رافقهما فكان رده « أقسم بالله لولا هذا البحر الذي يحجزنا لذهبنا إلى الغرب وأدخلناكم جميعا في الدين الصحيح » ، فسألته كيف ؟ قال بالسيف وهكذا دلت إجابته على روح الاسلام الأول » !!
وقال نيافته إنه حينما سمح له بالبقاء ومعاملة الناس كانوا يحبونه فقد كانت هذه هي أول مرة يقابلون فيها من يعرف عيسى المسيح » !
أي والله ! نيافته هو هذا الرجل الاول ، أما العرب الذين يقرأون سورة مريم ، ويصلون على المسيح عيسى بن مريم من ١٤ قرنا فلم يعرفوه .
وزعم أن حارسا أسود طلب منهم نسخة من الانجيل !
ربما ليقرأ فيها لعنة نوح على ابنه حام وإقرار عبودية الأسود إلى أبد الآبدين !
وقال إنه يأمل أن تقرأ الاناجيل التي صادروها منهم في مكة والمدينة !
وأكد أنه لابد من توجه ميشرين آخرين ، لأن « أي بلد مغلق في وجه رسل الانجيل يجب أن يشكل إغراء للذين يتبعون القائل : « إن هذا الانجيل سيكون شاهدا على جميع الامم » .
إن كان يقصد المسيح صلوات الله عليه ، فلابد أنه يتحدث عن إنجيل آخر لأن الأناجيل التي صادرتها السلطات السعودية كتبت بعد اختفاء المسيح من هذا العالم بثمانين سنة ! ..
وقد كتب الدكتور س . م زويمر الرئيس الميداني لجمعية الأدبيات الامريكية المسيحية للمسلمين The American Christian Literature Society for Moslems تقريرا للمفوضية الامريكية في القاهرة ١٩٢٨/١٢/١٧ ــ رجب ١٣٤٧ ، وقد عرفته المفوضية بأنه من أكثر المبشرين المسيحيين العاملين في العالم الاسلامي حماسة وصلابة » (هذه حماسة وصلابة أما عند المسلمين فهي تعصب) وقالت إنه يعتقد بوجوب السماح للجمعيات التبشيرية المسيحية بانشاء المدارس ومراكز الانجيل والقيام بكل النشاط الذي تمارسه الان في أراضي المسلمين الاخرى . وأن الدكتور ج . ر . الكسندر المتحدث باسم المبشرين في مصر يؤيد آراء الدكتور زويمر ويرحب بأية فرصة لانشاء معهد تبشيري في جدة . ولا يعتقد

أن ما يسمى بقدسية الحجاز سيشكل عقبة لايمكن تخطيها بل يري أن بداية صغيرة في جدة يجري تمويلها من الوطن (امريكا) إذا ما أديرت بحكمة فان السلطات الحجازية سترحب بانشاء مدرسة أمريكية في جدة ومن هذه البداية فان التنظيم التبشيري الأمريكي القائم الان في مصر يمكن أن يقوم مثله في الجزيرة .

« وقد عرضت هذه الآراء على وزارة الخارجية حتى تضع في اعتبارها عندما تبحث قضية الاعتراف بحكومة ابن سعود أن أحد العوامل التي تجعل هذه الحكومة تتردد في الاعتراف هو عدم سماح الحكومة (السعودية) للنشاط الامريكي المسيحي التبشيري » .

وقال زويمر في تقريره « لا أعتقد أن هناك أية سلطة دينية أو قانونية تدعي قدسية كل الحجاز بمعنى منع التبشير المسيحي من أداء واجبه » .

وبالطبع فشل زويمر وأمثاله ، ووقفت لهم الحكومة السعودية بالمرصاد ، حتى اقتنع الامريكيون بأن زيت المحركات أجدى عليهم من زيت التعميد فاعترفوا بالمملكة . ولكن هذه النشاطات كانت تصل للاخوان مضخمة بفعل فاعل أو حتى بمجرد عادة المبالغة في النقل .

٨ م ـ ولذلك ليس من الانصاف اتهام عبد العزيز أو آل سعود باضطهاد الشيعة ، فالصحيح أن عبد العزيز هو الذي حماهم ، وواليه ابن جلوى الذي كان يلقب بجبار آل سعود كان يحظر دخول الاخوان الأحساء . ولولا النظام السعودي لفتك الاخوان « برافضة » القطيف كما كانوا يسمونهم عن خطأ بالطبع . أما التفرقة والاتهامات المتبادلة ، فهي ظاهرة مؤسفة عمرها سابق على النظام السعودي بألف سنة ، وليس موقف المجتمع السعودي منها بأسوأ من أي نظام آخر في المنطقة كلها ..

٩ م ـ وقال أسد عن ابن بجاد

هو « شيخ قبيلة عتيبة وصهر الدويش ، الذي فتح الطائف ومكة عام ١٩٢٤ ـ ١٣٤٣ . فلماذا في نظره يجب ان يقنع بمنصب أمير الغطغط فحسب . لماذا لم يعين هو ، بل أحد أبناء الملك أميرا على المدينة ؟ لماذا لم يعين أميرا على الطائف على الأقل » .

ولكن محمد أسد ، يعرف ان تعيين الأمير محمد بن عبد العزيز كان أحد شروط تسليم المدينة . إذ اشترط أهلها أن يسلموا لأحد أبناء الملك ليأمنوا ما جرى في الطائف التي لم يكن من المعقول تعيين ابن بجاد عليها بعد ما جرى فيها أو حتى بعدما أشيع . كذلك لم يكن من الحكمة تولية « الاخوان » على مدن الحجاز ولم يتم فتحه بعد ، لأن ذلك كان سيخلق شعورا متوجسا ومعاديا لصالح الهاشميين .

وقد نسب العطار للاخوان كل فضل فتح الحجاز فقال إن « الملك عبد العزيز لم يكن يفكر في غزو الحجاز أو احتلال مكة ، بل كان سيترك الطائف ويعود إلى نجد ، وربحه السلم بين الحجاز ونجد ، وحج النجديين وحسن العلاقات والجوار الذي يثمر التبادل التجاري والاقتصادي بين الشعبين والبلدين فلم يكن في ذهن ابن سعود غزو الحجاز واحتلال مكة وتهديد حسين في عرشه . ولكن الله شاء ما لم يشأه ابن سعود فدخل جيش الاخوان مكة ، واحتلوها دون أن يعلم ابن سعود ذلك الا باخرة . وما كان دخول مكة إلا بتصرف خالد بن لؤي خارج أمر ابن سعود ، وكان غنم ابن سعود من احتلال مكة عظيما ، فقد مهد له السبيل لاحتلال الحجاز كله وحكمه » .

فاذا كان هذا رأي مؤرخ صقر الجزيرة ، في دور الصقر ، والاخوان في فتح الحجاز .. أليس من حق الاخوان أن يحسوا بالغبن لأنهم ساقوا « ملك الحجاز » إلى ابن سعود ضد مشيئته .. فاستأثر به دونهم ؟!!

١٠ م ـ قال بعض المعاصرين إن « فيصل الدويش » كان مؤمنا صادقا ، ولكن نقطة ضعفه هي ابنه

عبد العزيز أو عزيز ، الذي لم يكن متدينا بل ومتهوراً . له أطماعه في الحكم والنفوذ . وهو الذي أفسد على أبيه أمره . بالاضافة إلى دخول كثير من المرتزقة وأصحاب الأغراض إلى الحركة بعد أن انتصرت وتوسعت الدولة ، ورجحت كفتها ... » .

وهذا الجزء الأخير صحيح جداً فان الذين ينضمون بعد النصر يكونون أكثر تطرفا ومغالاة ، وتدفعهم الرغبة في لعب دور أي دور ، وكذلك تسيطر عليهم روح التحدي للمؤسسين والتقليل من شأن انجازهم .

ذلك هو ما يسمى بجبل الثورة ، الذي لم يثر ! ..

١١ م ــ اعتبرت السعودية بناء المخافر مخالفا للمادة الثالثة من بروتوكول العقير التي تقول : « تتعهد الحكومتان ، كل من قبلها بألا تستخدم الآبار الموجودة على أطراف الحدود لأي غرض حربي ، كوضع قلاع عليها ، وألا تعبيء الجند في أطرافها » . ولكن الانجليز ردوا بأن المقصود بأطراف الحدود هو مسافة رمية بندقية .

١٢ م ــ وقد اورد غلوب قائمة بالهجمات الاخوانية وهي « بالفاظه » :

١ ــ ٥ نوفمبر ١٩٢٧ ــ جماد أول ١٣٤٦ ، أغار المطيريون وذبحوا العاملين في بناء قلعة بصية .

٢ ــ ٩ ديسمبر ذبح الدويش الرعاة العراقيين في المنطقة المحايدة . وكانت الطائرات البريطانية تحلق فوق أرض المعركة ، خلال المذبحة ، ولكنها لم تتبين ماذا يجري !

٣ ــ الدويش لم يرجع الى مقره ، بل اتجه غربا نحو رعاة زياد في ١٩ ديسمبر .

٤ ــ ٤ ديسمبر ١٩٢٧ ــ جماد ثاني ١٣٤٦ ، أغار ابن شقير على قبائل الكويتيين .

٥ ــ ٢٧ يناير ١٩٢٨ ــ رجب ١٣٤٦ ، أغار ابن عشوان على قبائل الكويت عند أم الرويصات في الكويت .

٦ ــ في ١٩ فبراير ١٩٢٨ ــ شعبان ١٣٤٦ ، أغار الدويش على منطقة تبعد خمسين ميلا من القاعدة البريطانية الجوية في شعيبة . وقد جرى ضرب المهاجمين بالطائرات في ١٩ و ٢٠ و ٢١ فبراير . وسقطت طائرة واحدة ، أصيبت بطلقة من الاخوان .

٧ ــ في يناير ١٩٢٨ ــ رجب ٢٣٤٦ ، أرسلت سيارة مصفحة تابعة للسلاح الجوي (البريطاني) إلى بصية لحراسة العاملين هناك .

١٣ م ــ ومنذ عام ١٩١٨ ــ ١٣٣٦ ، ادعى فيلبي أن الرقم القياسي لعدد القتلى الذين قتلهم شخص واحد بيديه كان ٩٩ ، قتلهم فيصل الدويش .

ومع تحفظنا على قصص فيلبي وأرقامه ، وخاصة ما كتب لتسلية القاريء الاوروبي عن عجائب المخلوقات الشرقية . إلا ان الرواية تدل على أن سمعة فيصل الدويش كانت ذائعة ، ومرعبة للذين كفروا ، ومنذ عام ١٩١٨/ ١٣٣٦ ...

١٤ م ــ ابن بجاد سلطان الدين قضى في السجن حوالي ٥ سنوات . ولم يترك إلا ابنة باعت كل ما ورثته عنه في الغطغط .

وشيخ الغطغط الجديدة ، لأن القديمة دمرت تماما ، هو الشيخ محمد بن ماجد بن خثيلة ، وقد التقيت به ، وهو مستقيل من منصبه ، يعاني من حساسية في يديه ، لذا يلبس القفازات صيفا وشتاء ، وهو يدخن ، ومن خدمه « وليم » و « جون » ، ولما سألته ، إذا كان يستخدم المسيحيين في الغطغط ؟ رد قائلا .. ياريت ! هؤلاء مجوس ! هنود !..

وقد نفى بشدة أن تكون هناك أية اتصالات مع الانجليز . وقال إن الملك علمهم أن الانجليز كفار ، فكرهوا كل تعامل معهم ، وقال إن اباه قاتل مع ابن بجاد وجرح في معركة السبلة . وفسر الازمة بأن الملك هو المسئول لأنه علمهم أن المسلم لابد له من محاربة الكفار ، فلما جاءت مرحلة التعايش مع الكفار لم يستطع تغييرهم .

وفسر هزيمتهم بأنهم كانوا يقاتلون بالايمان وحكمة عبد العزيز ، فلما تخلت عنهم حكمته تمزقوا وهزموا .

وهو بالطبع يأخذ الموقف المضاد تماما لحفيد الدويش ، فيقول : « إن الدويش هو الذي حرضهم على القتال والوالد نصحهم بعدم القتال » .

ورأيه في الدويش أنه مسلم أخطأ وقاد الناس إلى الخطأ واستنكر فرية الدعم الجوي لعبد العزيز ، وقال إن الطيران البريطاني اشترك في معركة القصور ولكنه لم يساهم مع عبد العزيز في المعركة .

وقال إن عبد العزيز قبل وفاته بستة شهور ، سمح باعادة الغطغط والسكن فيها ، « فجاء الوالد وأحياها » . وهي تضم الان عشرة الآف نسمة ، وبها مدارس ابتدائي ومتوسط وبنات ، ولكن الكبار في السن مازالوا يلبسون العمامة « الوالد ظل يلبسها إلى أن مات » أما هو فخلعها .

وقال إن أباه كان لاجئا في الهند بعد أن قتل حفيد قاتل جد جده وكان يشرب الدخان وتزوج ٤٥ زوجة ، وعاش ١٢٥ سنة ، وانجب ستين لم يعش منهم الا ١٤ . وهو شخصيا له ابن أمريكي لا يعرفه ! ... وما جد هذا هو الذي دخل على عبد العزيز فلم يلق عليه السلام عشية معركة السبلة وقد طابت صحبته بعد ذلك مع عبد العزيز واصطحبه معه عند اجتماعه بالرئيس روزفلت !

وعن الهجر « قال إنها مشتقة من هجرة الرسول » من بلاد المعصية إلى بلاد الطاعة » . « من حياة الأعراب الذين لا يعرفون لماذا خلقهم الله إلى حيث كان عبد العزيز يقول لهم : « إن الله خلقكم لتعرفوه » وأكبر مزرعة لم تكن تتعدى ٢٥٠٠ مترا مربعا ، وأكبر مزارع كانت « ابن بجاد والوالد » ومزرعة ابن بجاد بيعت بـ ٣ آلاف ريال وهي الان تساوي ٣ ملايين .

وقال إن المشروع لم يكن زراعيا ، ولكن بعد معركة تربة حصلوا على ذهب ومنهوبات فتجمع لديهم رأس مال فتوسعوا في الزراعة .

وقال عن أراضي الغطغط القديمة ، إنها اراضي شهداء ، فلا مالك لها ! .. (لقاء معه في الغطغط عام ١٩٧٩ ـ ١٣٩٩) .

١٥ م ـ ونستطيع أن نستشف سرور بريطانيا بزوال الاخوان ، شوكة ابن سعود ، من الشماتة التي ظلت تفترس قلب غلوب نصف قرن ، حتى طفحت في كتابه الصادر منذ عام ، اذ يسجل شماتته في الاخوان قائلا :

« وبعد ثماني سنوات من الرعب ، كان منظرا مثيرا أن أرى الاخوان العصاة يلتمسون حمايتنا » .

« في ٢٨ ديسمبر هاجمت حرب الموالية لابن سعود قبيلة مطير ففر هؤلاء بدون قتال ، تماما كما كان الرعاة العراقيين يفعلون في الماضي ، ما أروع سقوط الجبار* « وضعت شروطا لمنح حق اللجوء ، وهو استسلام مشايخ القبائل ، ونزع سلاح قبائلهم وتجميعهم في مكان واحد ، ووافقت بغداد على الشروط (اي القيادة البريطانية في بغداد) .

وفي يوم أول يناير ١٩٣٠ ـ رجب ١٣٤٨ ، جاء إلى معسكرنا فيصل الدويش ونايف بن حثيلان ، فأبلغا بالشروط . فطلبا مهلة ١٢ ساعة حتى يستشيرا قبائلهما في هذه الشروط . وذهبا فلم يعودا » .

---

* وما أبشع شماتة [illegible] المتآمر

« ولكن في الخامس من يناير دب الذعر فجأة في جموع الثائرين ، وانطلقوا هائمين في الصحراء تاركين خلفهم متاعهم وماشيتهم . وكم رأيت مثل هذا الذعر يجتاح قبائل العراق على يد هؤلاء الاخوان الذين لا رحمة في قلوبهم .. حتى دار الزمان » !

أما السطور التالية لغلوب ، فيصعب التعليق عليها :

« وأخيرا انقلبت الأدوار ، وأصبح الاخوان هم المشردون ، الذين خلفوا قطعانهم وراءهم . وقد أمطرت الحكومة العراقية بسيل من الرسائل أطلب فيها السماح لنا بنهب الاخوان الهاربين لتقديم تعويض رمزي* لضحايا غاراتهم عندنا ، أو اشتراط إجلائهم من الكويت مقابل تعهد ابن سعود بالتعويض عن غاراتهم خلال السنوات الست الماضية ، ولكني لم أتلق إلا موافقة مترددة من الحكومة على أن أقوم بمصادرة جمال الاخوان التي أجدها في الأراضي العراقية ، وأوزعها بين ضحاياهم » .

١٦ م ــ أورد الريحاني قصة امتياز هولمز هذا ، فقال في تقرير سري كتبه لوزارة الخارجية الامريكية : « كان الماجور فرانك هولمز موجودا في مؤتمر العقير وهو ضابط سابق في الاسطول البريطاني ، ويعمل لحساب « جنرال ايسترن سنديكات ليمتد » في لندن . وهو مهندس عمل قبل الحرب مع هربرت هوفر في أستراليا والصين ، وله علاقة مع هافميرز بنيويورك وهو يتكلم ويتصرف كامريكي اكثر منه كانجليزي . ويطوف شبه الجزيرة العربية باحثا عن النفط وامتيازات النفط . وهناك عقد في جزيرة فرسان يدرسه الأدريسي ، وآخر مع سلطان لحج ، وثالث مع شيخ الكويت . وقد جاء هولمز إلى نجد مع ممثل ابن سعود في لندن بطلب من « سنديكات » لامتياز في اقليم الحسا . وكان العقد قد كتب ووقع عندما وصلت أنا ، مع أني قابلت هولمز على الباخرة القادمة من البصرة إلى البحرين ، الذي اخبرني أنه متوجه للاستشفاء في الأحساء ! وقد عرفت مرضه عندما طلب مني السلطان أن اقرأ عقد الامتياز وأقول رأيي فيه كما طلب مني الاشتراك في مناقشة العقد ، وبعد تعديلات أضفتها نصحت بقبوله .

« ولكن شركة النفط الانجلو ــ ايرانية التي تمتلك الحكومة البريطانية سبعين بالمائة من أسهمها اعتبرت هولمز مزاحما لها . وقد أخذ السير برسي كوكس جانب الشركة باعتباره يمثل الحكومة البريطانية . وتجح في جعل السلطان يؤجل إعطاء الامتياز لهولمز حتى يتصل كوكس بالحكومة في لندن وقد استجاب السلطان لرغبة كوكس » .

وبالطبع استند كوكس على معاهدة ١٩١٥ ــ ١٣٣٣ ، التي تمنع ابن سعود من اعطاء الامتيازات . ولكن عبد العزيز كان مصمما على ألا يرى الشركة الأنجلو ــ ايرانية تعمل في بلاده ، وتجر عليها ما جرته على ايران . وكان يفضل التعامل مع شركات مستقلة حتى وإن اضطر إلى الاختيار داخل الاطار البريطاني . وإذا كانت المعاهدة قد حرمت إعطاء امتيازات إلا للانجليز فانها لم تذكر « الحكومة البريطانية » . وشركة هولمز إنجليزية ومن ثم ليس لها حق الاعتراض . وقد زعم الريحاني أن هذه هي فتواه للسلطان ، ولكن لا نظن أن ابن سعود قد غاب ذلك عن فطنته وقد أصر السير برسي كوكس على أن يكون الامتياز للشركة الأنجلو ــ ايرانية حتى صرخ هولمز : « حكومتي تعمل ضدي » !

ولكن السلطان عبد العزيز وقع العقد مع هولمز في ١١ مايو ١٩٢٣ ــ رمضان ١٣٤١ .

وكان أهم شرط فيه أن شركة هولمز هذه لا تتنازل ولا تبيع ولا تحول الامتياز أو جزءا منه إلى الشركة الأنجلو ــ ايرانية » .

---

* الأحرى ان يقول « تنكيل » رمزي



مفجّر الثورة العربية الكبرى الملك الحسين بن على

التعليق للعطار والتعجب من عندنا (!!)

« مؤلفون »

هذه بعض ملاحظات على اشهر المؤلفين المعاصرين لابن سعود لم يتسع المجال لسردها في صلب الكتاب ، وهي مجرد اجتهادات ، ولا تقلل من قيمة أعمال بعضهم ، وليست الا قطرات من بحر اخطاء البعض الآخر . أما « بنواميشان » فقد أضيف اليهم للعبرة !

أمين الريحاني

الكتب التي وردت اشارات اليها في كتابنا هذا هي :

١ ـ **تاريخ نجد الحديث وملحقاته : ١٩٢٧ ـ ١٣٤٥**
طبعة دار الريحاني
الطبعة الثانية : ١٩٥٤ ـ ١٣٧٣

٢ ـ **ملوك العرب ـ الجزء الأول ١٩٢٤ ـ ١٣٤٣**
طبعة دار الريحاني ـ الثالثة ـ ١٩٥١ ـ ١٣٧٠

٣ ـ **ملوك العرب ـ الجزء الثاني**
الطبعة الرابعة ـ ١٩٦٠ ـ ١٣٨٠

الريحاني هو صاحب أقدم وأشهر مؤلف عن عبد العزيز ، وقد كتب الجانب المتعلق بعبد العزيز في كتابيه نجد وملوك العرب ، بترتيب خاص من ابن سعود ، وتحت اشرافه ، ان لم نقل املائه ، ومن هنا استمد أهميته . وأيضا كان للنقاط التي لم يستوعبها الريحاني ، أو التي عجز عن استقصاء حقيقتها ، أو لعبت عواطفه دورا في تلوينها ، أثرها في كل ما كتب بعد ذلك عن تاريخ عبد العزيز ..

وأمين الريحاني مسيحي ، لبناني الأصل ، من « الفريكة » هاجر من لبنان وعمره ١٢ سنة ، وقد نقل لنا فيما كتبه عن نفسه صورة من المفاهيم « العروبية » الرائجة بين العائلات المسيحية في جبل لبنان ، أثبت فيها أن الحنين الى فرنسا كان سابقا بكثير على الغزو الفرنسي ..

قال الريحاني : عندما سافرت للمرة الأولى للولايات المتحدة لم أكن أعرف غير الشيء اليسير من اللغتين العربية والافرنسية ، وما كان في ذهني من العرب وأخبارهم غير ما كانت تسمعه الأمهات في لبنان لصغارهن : « هس ، جاالبدوي ! » ـ والبدوي والأعرابي واحد ـ اذا رامت الأم « بعبعا » تخوف به أولادها . « هجرت وطني ، وفي صدري الخوف ممن أتكلم لغتهم ، والبغض لمن في عروقي شيء* من دمهم . والبغض

* !!

والخوف هما توأما الجهل » .

« اما الأمة الافرنسية فما كنت أعرف من أمم الأرض سواها . ولكنها معرفة مطوسة كانت المدارس تنشر أذنابها في لبنان : ان فرنسا لأعظم أمم الأرض ، هي أشهرها ، وأغناها ، وأرقاها ، بل هي قطب المدنية ، وعاصمة النور والجمال ، هي الطاووس بين الأمم . كذلك كانت مدارسنا مثل أمهاتنا تسقينا كأس التمويه . الا أن في كأس المدارس حلاوة زادتنا كرها « لبعبع » الأمهات هي كأس الجهل في الحالين ، الجهل الذي يولد الخوف والبغض ، والجهل الذي يولد الحب والاعجاب . »

ولكن الريحاني شفى في أمريكا من داء الافتتان بفرنسا ، هذا الداء الذي كان يسقى في المدارس اللبنانية والسورية تحت سمع وبصر السلطة العثمانية . وبالطبع كانت نقطة البدء في كراهية العرب هي بغض الاسلام ، أما تغذيتها فكانت في مخطط الاعداد لضم سوريا للامبراطورية الفرنسية . وحتى الريحاني يقول ان فيه « بعض » الدم العربي وليس كل دمه !

وفي أمريكا وصل الريحاني الى فهم التاريخ العربي عبر المترجمات ، وكانت البداية ، هي الاعجاب برسول الله ، بمنطق غربي ، من خلال كتاب « كرليل » وهذا هو المدخل الطبيعي ، فان الوفاق مع الاسلام ، هو شرط الايمان بالعروبة ، أما اذا كان المدخل هو البحث عن مقتل للاسلام أو مبرر للتخلي عنه ، وستر عداوته ، فان العروبة ، أو ادعاء العروبة سرعان ما يتمزق عن عنصرية بغيضة ، وقد ظل الريحاني طوال رحلته العربية ، هذه ، يحس بمسيحيته ، ويتوجس من مخاوف الطفولة ، ولكنه تعمق في الثقافة العربية ، والتاريخ الاسلامي ، مما خفف حدة تعصبه ، كما أتاحت له خبرته وحياته في مجتمع يقوم على تعدد الطوائف ، ويمارس في نفس الوقت تمييزا عنصريا بارزا ، أن يكون موضوعيا ، الى حد كبير ، مع استمرار عقد الطفولة ، والتصور السياسي الخاص ، وهو فتح العالم العربي للحضارة الغربية ..

وقومية الريحاني العربية ، بسيطة وسهلة ، هي اخراج الأتراك من بلاد العرب ، وفتح هذه البلاد للحضارة الغربية من خلال الوجود الأوروبي فيها !. ولذا فهو لا يستطيع فهم موقف العرب من الحرب الايطالية الفاجرة ضد تركيا أثناء غزو ليبيا . بل على العكس لا يجد الريحاني موقفا يحمده للادريسي ، بعد ما سخر من عقيدته ودمه وأصله ، لم يجد ما يمدحه به الا موقفه اللا عروبي ، بل المتسم بالنذالة خلال الغزو الايطالي لليبيا .

يقول :

« كلما جئت على ذكر الأتراك في البلاد العربية أراني مكبراً السيد محمد الادريسي وثباته في مبدئه ، وجهاده ، فقد كان الامام يحيى عدو الأتراك ، فصار صديقهم في الحرب العظمى ، وكذلك كان سلطان لحج السلطان أحمد بن فضل ، فتحول في الحرب الايطالية ـ التركية ، عن سياسته ومبادئه ، كأنه لم يسع سرا وجهرا في تقويض السيادة التركية في البلاد العربية . وقد كان من أمراء العرب الذين ساعدوا الدولة

بالمال . » « فهو أول من سعى على ما أعلم في سبيل الوحدة العربية . لكنه غير موقفه تغييرا سريعا مدهشا بعد الحرب التركية ــ الايطالية » .

ولا مجال للدهشة أو اللوم ، فالعرب ، المخلصون ، كانوا يقاتلون الترك في سبيل استقلال البلاد العربية ، لا لأي هدف آخر ، فاذا تبين أن « الاستقلال » أو معاداة الترك ، يعنيان احتلال أوروبا لبلادهم . عندها لا يصبح من الوطنية ، ولا من الحكمة محاربة الترك ، فان كان ولا بد أن تأكل أوروبا العرب ، فليكن غصبا ، لا أن يشوى العربي نفسه للأوروبي ليسهل أكله .. بل ويطلب منه أن يتأوه شاكرا !

ولكن لا مجال للاتفاق مع الريحاني في هذه النقطة ، فالريحاني من المدرسة التي حاربت الترك لأنهم كانوا يمثلون سلطة « اسلامية » ومن ثم فالاحتلال الأوروبي « المسيحي » « نعمة » لا يجوز رفضها ، بل يجب « شرعا » القتال في سبيل الحصول عليه !.. ولا بد من ادانة من يرفض ذلك ومدح من وقف مع ايطاليا لدعم غزوها وابادتها للشعب العربي في ليبيا .. أما من رفض .. فقد تنكر للأماني العربية !..

ومن هنا كانت عاطفة الريحاني ، مع الملك حسين لأن : « المسيحيين السوريين كانوا ركن نهضته العربية* » . وان عتب عليه وعلى حركته أن بيانها استند الى سورة البقرة ، وأنه منعه من دخول مكة ، ووصف ذلك بأنه « تقليد عقيم » .

وقد جاء امين الريحاني الى العالم العربي من نيويورك ، في اطار الحملة الاستكشافية ، التي قام بها الامريكيون ، على اثر التناقض الذي ثار بين مبادىء ويلسون ، وسياسة العزلة التي كان الكونغرس يحبذها كما يربط البعض بين رحلة الريحاني وأطماع الانجليز والفرنسيين ، وشركات النفط الأمريكية في المنطقة . وقد جاء الريحاني يحمل « كتاب تعريف من وزارة الخارجية الأمريكية** » . وان كان قد قال

---

* فضلا عن المصالح التي اكتشفها مبكرا جدا في نشاط المسيحيين في جزيرة العرب .

** كشفت الوثائق التي نشرت حديثا أن الريحاني كان يكتب تقاريره لحكومته ويسلمها للقنصلية الامريكية في بيروت ، فقد جاء في هذه الوثائق التي جمعها ونشرها ابراهيم رشيد ما يلي « تقرير القنصل الأمريكي في بيروت مستر ادوارد غروث بتاريخ ٢٧/١٠/١٩٢٣ ــ ربيع أول ١٣٤٣ ما يلي : « أرسل نص تقرير طلب السيد أمين الريحاني نقله لوزارة الخارجية عن الوضع في الجزيرة العربية ، وهو حامل باسبور رقم ١٠٢٤١٢ صادر من وشنطن بتاريخ الثالث من ديسمبر ١٩٢١ ــ ربيع ثاني ١٣٤٠ » وجاء في تقرير آخر للمستر ب . كنابنشو نائب القنصل الامريكي في بيروت في ٢٣/٩/١٩٢٥ ــ ربيع أول ١٣٤٤ : « لي الشرف أن ارفع مع هذا تقريرا كتبه بناء على طلبي لمعلومات الوزارة الخاصة المستر أمين الريحاني يستعرض جهوده لاحلال السلام بين ابن سعود سلطان نجد والأمير على ملك الحجاز ، وهو أمريكي بالتجنيس والى حد ما كاتب معروف ، وهو معروف لقسم شئون الشرق الادنى في الوزارة ، وعندما عاد المستر ريحاني الى بيروت في فبراير الماضي جاء لمقابلتي وأخبرني بمهمته في جدة » . ولكن يمكن القول ان كل الصحفيين والسياح والمستشرقين والمبشرين الامريكيين والغربيين عموما يكتبون التقارير لحكوماتهم ونسبة هائلة منهم تعمل مباشرة وبصراحة في أجهزة المخابرات . فالريحاني ليس بحالة شاذة ، وما اطلعنا عليه من تقارير ليس فيها ما يعتبر معاديا للعرب ، وان كل موقفه من الهاشميين غير المعلن في كتبه والواضح التحيز في تقاريره السرية يدعو للتساؤل .

للمندوب البريطاني في عدن ، « ان الأمة الأمريكية لا تهتم باليمن ولا أطماع لها في بلاد العرب ، وأنه لن يتردد في نصح العرب بالاستعانة بالانجليز » . والذي شاع عنه أنه كان يمثل المصالح البريطانية أكثر ، ويقول وهبة ان مساعي الريحاني هي التي جعلت « هولمز » البريطاني يفوز بامتياز نفط الاحساء والبحرين » . وقد لاحقت الاشاعات الريحاني حتى وصلت الى عدن ، والى بلاط الملك عبد العزيز في الرياض ، وهي كما لخصها الريحاني ، وكما سيسمعها من السلطان عبد العزيز ، الحسن الاطلاع دائما : يقولون « اني قادم من أمريكا من قبل بعض الشركات المالية ، أو رسولا سريا لشركة من شركات النفط ابغي امتيازات ، والبرهان على ذلك اهتمام القنصل الأمريكي بأمري . » ويرد الريحاني ـ على نفسه ـ نافيا هذا الاتهام بقوله : « فان كان ذلك فكيف يأذن الانجليز لي بالسفر الى صنعاء وهم المنافسون للامريكان ، فان كانت هناك من امتيازات ، فهم يبغونها لأنفسهم . » وعندما أراد السفر مع المندوب السامي البريطاني حدث نفسه : « لم يهمني أني في عملي هذا ، أثبت التهمة على نفسي ، فيقول المخدوعون من الأصدقاء والأعداء : ألا ترونه مسافرا مع المندوب السامي ؟ فكيف لا يكون في خدمة الانكليز . »

وهو يعترف بأنه قدم للانجليز خدمات في اليمن وعسير « ولكن الانجليز لا يعترفون رسميا بخدمات تقدم لهم مجانا ، قد يشكرون وبعد ذلك لا يذكرون » .

وقال له ابن سعود عندما قابلة أول مرة : « قالوا لنا انك أميركي جئت تنشر الدين المسيحي في البلاد العربية ، وقالوا انك تمثل بعض الشركات وجئت تبغى الامتيازات وقالوا انك قادم من الحجاز وأنك شريفي تسعى لتحقيق دعوة الشريف » . ورغم المهمة السامية ، التي جاء بها الريحاني ، والأخرى غير المعروفة ، فقد كان صحفيا لبنانيا تمخضت مهمته في النهاية عن مقالات وكتب .. وهدايا ، فقد أعلن أنه ، يرفض الرتب والألقاب « ويقبل كل ما يجيئه من الهدايا* » . وقد شرح الريحاني مهمته « السياسية » قائلا :

« رغبت في خدمة الامام بتقريب قضيته من فهم الانجليز ومصلحتهم ، وبتقريب الانجليز من عقلية الامام ، وبتمهيد السبيل الي الصلح بينه وبين الادريسي ، فاقترحت أن يعقد مؤتمر يتبادل هو وخصومه ، فيه ، الآراء ، ويتعارفون ويتفقون ، فأبى حضرته لأسباب أدركها ولا سبيل الى تداركها . ان الامام طامع بالاستيلاء على اليمن كلها ، وهو طامع كذلك على ما أظن باللقب الذي لا يعترف به للملك حسين .

« ورغبت في خدمة الملك حسين بعقد معاهدتين تربطان الحجاز واليمن وعسير في البداءة ، ولو بخيط من حرير لاعتقادي أن جلالته يمثل فكرة عربية قومية شريفة . فلم يوقع واحدة ، منهما ، ولا أظنه استحسنها لأسباب أدركها ولا سبيل الى تداركها . لم يعترف الامام يحيى ولا السيد الادريسي بأن جلالة الملك حسين هو ملك العرب .

---

* وهذا يثبت على الأقل أنه لم يكن موظفا رسميا !

ولكنهما مدا اليه يد الولاء والمؤازرة فرفضها ، من هو اذن حجر العثرة في سبيل النهضة ؟ »

ولاحظ أن كل هذا الجهد كان موجها ضد استراتيجية عبد العزيز ، ولكنه وحده الذي استفاد الأكثر من الريحاني ، عندما أدخله في فلكه بوضعه في الموضع الصحيح . ويصل « التواضع » ، بالريحاني حد القول بأن الملك حسين لو وقع المعاهدتين اللتين اقترحهما عليه مع الادريسي والامام يحيى : « لما نكب تلك النكبة في خريف سنة ١٩٢٤ » .

وهكذا تبدد دم عرش الحسين ، فلا نعرف اذا كان سبب ضياعه ، هو رفضه توقيع المعاهدة مع الانجليز أو مع الريحاني ؟!

نجح الريحاني في احاطة رحلته بسحابة من الأماني القومية ، أو قل جعل لها هدفا قوميا ، وهو الدعوة للوحدة بين ملوك وحكام الجزيرة العربية . والوحدة العربية لها اطارات متعددة ، ومفاهيم تختلف باختلاف الموقع الجيوبولتيكي أو الديني للداعية . ووحدة أمين الريحاني التي طاف بمشروعها الجزيرة ، كانت قاصرة على أمراء الجزيرة .. اما بعقد محالفة بين حسين والادريسي ويحيى ، ثم ابن سعود . أو باتحاد كونفدرالي يرأسه الحسين « ملك العرب » . وهو لا ينسى في طوافه دعوتهم لفتح الأبواب للشركات الأجنبية ، بل ويسجل من دلائل اعجابه بعبد العزيز قبل أن يراه* أنه أعطى امتياز الأحساء لشركة أجنبية . وقد وضع الريحاني عن الجزيرة العربية كتابين : « ملوك العرب » في ٢٧ أيار ١٩٢٤ ـ ٢٣ شوال ١٣٤٣ في جزئين ثم « نجد الحديث وملحقاته وسيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود ـ ملك الحجاز ونجد وملحقاتها » في يناير ١٩٢٧ رجب ١٣٤٥ . وكان عبد العزيز بفراسته في الرجال ، ووعيه الاعلامي المدهش قد أدرك الدور الذي يصلح له الريحاني في الحرب الاعلامية ، التي كانت على أشدها بين الرياض ومكة في بداية العشرينات وحتى سقوط عرش الأشراف في الحجاز ، وكان الريحاني قد بدأ جولته من الحجاز بواسطة صديقه قسطنطين يني الذي كان في خدمة « الشريف » الملك حسين ، اذ ما أن عرف الريحاني أن قسطنطين في خدمة الملك الهاشمي حتى كتب اليه يستأذن في الزيارة ، ورؤية الكعبة ، ومقابلة بقية ملوك العرب ، وقد رد الملك حسين بقبول الزيارة ، واعتذر عن الكعبة ، ونصح بالاقتصار على مقابلته هو فكل الصيد في جوف الفرا . وفعلا وصل الى جدة يوم ٢٥ شباط ١٩٢٢ (٨ رجب ١٣٤٠) . وقابل الملك حسين ، وجمع ما شاء من

---

* كان هو الوسيط في ذلك في رواية حافظ وهبة . وهذا يتناقض مع قوله « قبل أن أراه » ! وفي تقريره لوزارة الخارجية الأمريكية قال انه هو الذي نصح السلطان باعطاء الامتياز لهولمز ضد رغبة المندوب السامي البريطاني . وقد برر ذلك للمسئولين الأمريكيين بأن هولمز « يبدو أمريكيا اكثر منه بريطانيا » . ولكن المصادر الأخرى تؤكد أن هولمز سعى الى عبد العزيز وحصل على مسودة الامتياز قبل علم الريحاني ، مما يدل على أن عبد العزيز هو صاحب فكرة تجنب الشركة التي تساهم فيها الحكومة البريطانية .

الطرف والنوادر التي مازالت تضحك وتبكي ، والتي كان رصيده منها يتضاعف ، كلما أوغل في الجزيرة ، تلك النوادر التي ظلت تنقل عن كتبه لاضحاك « المتنورين » ، على العرب المتخلفين ، الى أن جاء النفط فأنست نوادره ، طرف الريحاني .

وقد قرر الريحاني زيارة سلطان نجد ، في نفس الوقت الذي كان السلطان ، المتتبع لأخبار غريمه ملك الحجاز ، تتبع الصائد للفريسة ، قد قرر استدعاء الريحاني « ليملي » عليه ، وجهة النظر السعودية ، في الأحداث العربية ، وما يجري في الجزيرة .

وكما هو الحال في « أجهزة » الدول العصرية ، وجد الريحاني نفسه يساق سوقا الى الرياض ..

في البصرة ، فوجىء بضيف يدخل عليه ، هو « السيد هاشم ابن السيد أحمد الرفاعي » . كويتي ولكنه في خدمة ابن سعود ويقول الزائر للريحاني : « ان السلطان يقرأ مقالاتك في الجرائد التي تصله أسبوعيا ، وهو متشوق الى مشاهدتكم وينتظركم في الأحساء » ويذهل الأمريكي اللبناني ، فهو يصارع الانجليز منذ شهور ، محاولا الحصول على اذن بالسفر الى نجد بأمل اللقاء بالسلطان ، فاذا السلطان ، يعرفه ، ويقرأ له ، ويرسل له من يستدعيه للمقابلة ! ويرد الرسول مؤكدا : « نعم ! السلطان عبد العزيز يحب الاجتماع بكل أديب عربي مخلص لبلاده » ويقول الريحاني « انه أوشك أن يقبل السيد الرفاعي ! » . ومنذ تلك اللحظة وضع الريحاني تحت « رعاية » وكلاء ابن سعود : « فمن حسن الاتفاق أن السيد هاشم كان رفيقي في الباخرة » وفي البحرين لحقه كرم ابن سعود ، فقد نزل ضيفا على « القصيبي » وكيل السلطان . الذي كان يعرف « سماحة » الأديب اللبناني في قبول « كل الهدايا » وقال الريحاني : « ليست البحرين من بلاد نجد على أن ضيافة ابن سعود ومكارمه تبادر الزائر اليها لترحب به وتحييه باسم سيد العرب في بلاد العرب . جاءني القصيبي بكسوة وبخياط يوم وصلت فأصبحت في اليوم الثاني وأنا عربي نجدي في ما تحت وما فوق الزبون* » وحيثما تحرك الريحاني في البحرين ، سيجد مندوبا أو صديقا أو عينا أو محبا لابن سعود ، وهو الذي جاء من الحجاز والعراق بهذه المعلومات عن ابن سعود : « ابن سعود بدوي جاهل ، ابن سعود جلف ، لا قلب له ولا دين ، هو من الخوارج بل من الذين يخدعون وينافقون باسم الدين ، والاخوان رجاله ذئاب تعصب ضارية يذبحون ويحمدون الله . يسلبون وينهبون ... الخ » .

ولكن الوقت لم يكن كافيا لوكلاء ابن سعود لغسل مخه ، وهكذا ذهب للسلطان مشوش الفكر ، بالاضافة الى رداء العظمة الذي لم يفلح خياط القصيبي في اخفائه فهو يريد أن يكون « أستاذا » للبدو يعلمهم السياسة والوحدة ! لم يعد طفل الفريكة يخاف العربي ، بل يسخر من جهله ويأخذ بيده الى التقدم !

---

* القباء أو القنباز كما شرح هو .

وفور لقائه بسلطان نجد ، أخذت الريحاني الصاعقة ، فخلع رداء الأستاذية ونسى مشروعه ، وجلس القرفصاء بين يدى ابن سعود ، الذي يملي عليه ، ويسهر الاستاذ الأديب طوال الليل يدبج ، ليعود في الصباح فيصحح له أستاذ التاريخ والعروبة !

وجاءت مقدمة الكتاب تسبيحا بحمد « الملك عبد العزيز المعظم » ، رفعه فيها الى مرتبة عمر الثاني . وبدأ حديثه عنه هكذا : « ان في الرجل ضميراً حياً كحلمه ، وسرعة خاطر تقارن التيقظ في ذهنه ، يبدد بكلمة غيوم الانقباض في مجلسه ، خفيف الروح ، حلو النكتة ، لطيف التهكم ، كان يحضر مجلسه أحد الثقلاء المتعجرفين ، وهو من بيت معروف في نجد فقال السلطان يصفه يوما : هو « ربع الدنيا » ثم أردف : « الخالي » !

« وعندما نصبت الخيام للمؤتمر في العقير ، كان نصفها معدا للمندوب السامي ووفد العراق ، وهي من الخيام الكبيرة الجميلة ، وكانت في معزل عن خيامنا وفيها فسطاط للاستقبال ، وآخر للأكل تناولنا فيه الشاى يوم وصولنا ، فقال سموه : هذا شاى متمدين ، وكان قد صب مع الحليب في فناجين كبيرة بدل أن يكون صرفا في الأقداح كما هي العادة في نجد والحجاز .

شاى متمدن ! وسلطان يتهكم ويسر ، كان عندما ينتقل من الجهة العربية الى تلك الجهة الاوروبية يقول لي : تعال يا استاذ نسافر الى البلاد المتمدنة ! لا تظننا بعيدين كثيرا عنها ، عشر خطوات فقط .. وها نحن في المدنية ــ مدنية العقير ــ هات الشاى يا غلام ! ثم يجلس على الكرسي قائلا لنتمدن قليلا . تفضل يا أستاذ شاركنا في التمدن . وهو يشير الى كرسي آخر . »

« شديد الحافظة ، متيقظ دائما ، عليه الصغيرة والكبيرة ، وله اليد الصالحة المصلحة في الاثنتين . »

وقد فتن ابن سعود « الأستاذ » في العقير ، ليس فقط بالسخرية من « تمدين » العراقيين ، واصراره على اللباس العربي (هو والريحاني) وسط الانجليز اللابسين السموكنغ ، والقرود العربية التي تقلدهم ، بل خلع السلطان نعله ، وفعل مثله فيلسوف الفريكة القادم من نيويورك ، وسارا على الرمال حفاة متشابكى الايدي .. يناقشان اوضاع العالم العربي .. وفي تلك الليلة كتب الريحاني في مذكراته :

« مهما قيل في ابن سعود ، فهو رجل قبل كل شيء ، رجل كبير القلب والنفس والوجدان ، عربي تجسمت فيه فضائل العرب الى حد يندر في غير الملوك الذين زينت آثارهم شعرنا وتاريخنا » ..

جاء يقنعه بالتقدم الغربي فأقنعه « بتاريخنا » العربي ، « وفضائلنا » العربية ، بهره باطلاعه ، وبأرشيفه ، فخلال حديثه عن موقف الاشراف ، نادى على أحد كتاب « ديوانه » فأمره أن يحضر بعض أعداد من جريدة القبلة ، فأطلعني فيها على قصيدة تثبت كلامه الأخير « وفي عدد آخر مقالات كلها طعن في ابن سعود الجلف الخارجي » .

وحدثه عن الصحفيين المسترزقين* ، وميز بين مقال كتبه الشريف حسين بدون توقيع ، وما يكتبه هؤلاء المسترزقون . وليثبت قوله نادى كاتب ديوانه : « هات آخر كتاب جاءنا من مكة » . وفي جميع القضايا التي أثارها الريحاني تفوق عليه السلطان ، وأقنعه ، ورغم كل اعتراضات الريحاني ، النابعة من رواسب تكوينه الفكري والتي ناقشناها في مواضعها في كتابنا هذا ، فقد شهد لابن سعود أو للنظام الوهابي بالعدل والأمن ، فقال : « ليس في البلاد العربية اليوم غير حكم واحد عادل ، هو حكم ابن سعود » . ولم تنته رحلته في سبيل الوحدة بين ملوك الجزيرة العربية الأربعة حتى كان قد وصل الى هذه القناعة التي طرحها في شكل سؤال :

« في البلاد العربية اليوم أربعة ملوك كبار :

« رعية الملك حسين تطيعه وتخافه .

« رعية الامام يحيى تطيعه دون حب ودون خوف .

« رعية الملك فيصل لا تخاف ولا تحب ، ولا تطيع الا مكرهة .

« رعية ابن سعود تطيعه وتحبه .

« فمن من الملوك المذكورين في شبه الجزيرة يستحق أن يسود العرب ؟ »

واضح انه طرح الجواب قبل السؤال .. وهو آخر سطر في الجزء الثاني من ملوك العرب . كتبه الريحاني في الفريكة في ١٤ ايلول سنة ١٩٢٤ ـ ١٥ صفر ١٣٤٣ .

وقد يقال انه كتب بعد أن دخلت قوات عبد العزيز الحجاز وقصمت ظهر الدولة الهاشمية في معركة الطائف (٧ سبتمبر ١٩٢٤ ـ صفر ١٣٤٣) وحسم مستقبل الزعامة والسيادة على العرب .. ولكن القناعة كانت قد ولدت منذ أول لقاء وأول انبهار .. وان ظلت عاطفة الريحاني مع الهاشميين وبذل جهدا صادقا في انقاذ عرشهم ، كما اعترف في تقاريره ، وكما حاول أن يهول الأمر على ابن سعود** .

وقد ناشد الريحاني ابن سعود فتح المدارس لأنها تمهد السبيل الى الوحدة العربية الشاملة والثابتة ، الوحدة العزيزة الوثيقة العرى . ولقد فتحت مدارس كثيرة في شتى

---

* حتى في هذا الوقت المبكر ؟! يبدو أنها أقدم مهنة عربية !

** جاء في تقرير الريحاني الثاني وكان رقم جوازه قد أصبح ٣٥٤٥٣٦ . أنه توجه للوساطة بناء على طلب الأمير عبدالله حاكم شرق الأردن . وقال انه كتب لابن سعود يسأله اذا كان يبايع الملك حسين بالخلافة مقابل اعتراف الحسين به زعيما سياسيا للجزيرة فرد عليه عبد العزيز بعد شهرين « ان الخلافة سيقررها العالم الاسلامي » ١٠ صفر ١٣٤٣ ـ ١٩٢٤/٩/١١ . كتبت لقائديه في مكة ابن موسى وابن بجاد أطلب مقابلتهما في الحرم فلم يردا على خطابي ، كتبت مرة أخرى الى ابن بجاد فلم يسمح لرسولي بالعودة الى جدة . ثم بدأ يخوف عبد العزيز : « ان جدة هي الميناء الوحيد الذي لم يخضع للنفوذ الاجنبي هي وموانى الحجاز بالطبع ، واذا دخل جيشك المدينة فسيكون ذلك مبررا للتدخل الاجنبي . وتوجد حاليا أساطيل ثلاث دول في مياه جدة . وسيكون من المؤسف والمؤلم لي أن يقال ان ابن سعود كان سببا في احتلال أحد موانى الجزيرة العربية . » بل زاد في الترويع « ان

←

البلدان العربية منذ كتب الريحاني مقدمة كتابه ، ومازال التاريخ يؤكد أن « الهجر » التى أقامها عبد العزيز ، هي وحدها التي أقامت الوحدة الثابتة .. بينما كانت مدارسنا وجامعاتنا ، ليست فقط رموز الانفصالية ، بل وأدواتها .

وقد ساير الملك حسين والادريسي ، الريحاني في أوهام الوحدة العربية ، وأصر الادريسي على النص على محالفة بريطانيا في المعاهدة ، والريحاني يحاول عبثا افهامه أن هذا يسيء الى الفكرة ، وان كان الاتفاق تاما على أن بريطانيا هي الوصية المطلوبة . أما يحيى حميد الدين وابن سعود ، فكان موقفهما مختلفا وحاسما . الأول أنكر تماما امكانية الوحدة العربية ، أما ابن سعود فقد عجز الريحاني رغم طول المعاشرة عن أن يكتشف فيه أكثر الناس واقعية في عصره . رأس كما قال تشرشل عن ستالين : « بارد عميق لا مجال للأوهام فيه » وان تميز بقلب حار وايمان صادق يزلزل الجبال . ولكنه لا تحركه الشعارات ولا ترهبه ، لم يكن يحقد على العرب ، ولا يزدريهم كما فعل امام اليمن ، ولا كان يمن عليهم ويستغرب عقوقهم ورفضهم الدخول في طاعته كما كان الملك حسين يفعل ! بل كان يقدر ظروفهم وامكانياتهم ، ومن ثم فقد حصر أهدافه في الممكن والضروري . وسواء«أكان شعاره تلك الفلسفة الألمانية القائلة بأن « كل ما هو ضروري ممكن » ، أو تلك الحكمة الروسية : « السياسة هي فن الممكن » . فقد اكتفى بمهمة توحيد الأجزاء غير الخاضعة للاستعمار في الجزيرة العربية ، لبناء أول كيان عربي مستقل الى جانب الكيان اليمني الأزلي ؛ ومن ثم كان منطقه واضحا وحاسما ، أقنع الريحاني بأن يتحول من نبى الوحدة العربية الى مؤرخ سلطنة نجد ! وقد روى الريحاني أنه كتب كتابه هذا « نجد الحديث وملحقاته » خلال ستة أسابيع عاشها في الرياض كان ابن سعود يملي عليه ، أو يتذكر أمامه « ساعة واحدة كل ليلة » فنتعاون أنا والسيد هاشم في التدوين ، وكنت أستوقف عظمته في بادىء الأمر مرارا ، لأفهم معنى لفظة من الفاظه أو عبارة نجدية الاصطلاح ، وكنا فوق ذلك ، رغبة في التدقيق والتحقيق ، نقرأ قبل أن نباشر الكتابة ما كتب الليلة السابقة ، فيصلح عظمته ما قد يكون فيها من الخطأ . »

ومن هذا يتضح أنه لم تكن هناك مناقشة ، بل تسجيل للسرد الذي رواه الملك عن

الحجاز معترف بها من الحلفاء ، ولكن الحلفاء يريدون تصفيه كل الدول الإسلامية المستقلة ، وسيسعد انجلترا وفرنسا انتهاء استقلال الحجاز ، فهل تساعد دولة أجنبية على الانتقاص من استقلال دولة عربية . ان سقوط حكومة الحجاز يعني انهيار احدى دعائم الحركة العربية ، كما سيختفي الأمل في قيام اتحاد عربي تحت قيادتك » وأكد له أن المسلمين في « سوريا وفلسطين يؤيدون الملك علي وليس من الحكمة ولا العدل ولا بعد النظر تجاهل المسلمين في هذين البلدين » . والخطاب من ١٥ نقطة أغفلها كلها عبد العزيز ورد فقط على حكاية أنه يمنع جيش الملك علي من الزحف . وواضح أن ابن سعود استشف من الخطاب مدى تعلق الريحاني بقشة الهاشميين ، فبدأ يعامله بالحيطة وكسب الوقت ، ان لم نقل راح يضلله لتضليل الملك علي . أما رسول الريحاني الذي حمل الرسالة لعبد العزيز فقد دين ورفض العودة الى جدة .

تاريخ الأسرة وتاريخه هو شخصيا ، والمناقشة والتصحيح كانت حول الألفاظ التي استعجمت على الريحاني ، ثم رجع الريحاني لكتاب ابن بشر .

ولاشك أن معاصرة الريحاني للأحداث وثقافته ، واتصالاته ،واملاء عبد العزيز ، جعلت لكتابه قيمة خاصة ، باقية حتى اليوم ، حتى وان غلب عليه طابع أدب الرحلات ، أو السرد ، واستغرقته القصص ، والأساطير المثيرة ، منذ خروج ابن سعود من الكويت الى دخوله جدة على البحر الأحمر ، عبر رحلة دامت ربع قرن حافلة بالتفاصيل والانتصارات والمفاجآت المثيرة التي تنسي القارىء الحاجة الى التفسير والتحليل ، فهي بخصوبتها وحيويتها ، تزيل أية رغبة في التوقف أو السؤال فضلا عن التمحيص .

وقد ناقشنا ، كما قلنا ، في أجزاء متفرقة من كتابنا هذا بعض آراء الريحاني ، ونسجل هنا بعض ملاحظات ..مثل رأيه الشديد السوء في الثورة الوطنية العراقية ، التي انفجرت ضد الاحتلال البريطاني بعد الحرب ، بعدما عرف أمر « الانتداب » ، وجيء بالشريف فيصل ليتوج على العراقيين ملكا ، ببيعة « أهل الحل والعقد » في وزارة المستعمرات البريطانية ، والمكتب العربي (البريطاني) بالقاهرة . وكان العراقيون قد أبلوا بلاء حسنا في صد الغزو البريطاني الى جانب القوات العثمانية ، وها هم يثورون بعدما سقطت تركيا ، ولكن الريحاني يعلق على بيان الحزب الوطني العراقي الذي طالب فيه بوقف التدخل البريطاني ، وتشكيل حكومة تتمتع بثقة الأمة ، وعدم توقيع معاهدة قبل تأليف المجلس النيابي ذلك البيان الذي قال : « اننا نحتج على سياسة الحكومة البريطانية الاستعمارية ، وعلى الانتداب ، وأنصاره المقوتين في البلاد . »

يعلق الريحاني : « والغريب العجيب أن أمة استعبدت ألف سنة ظلت حية سليمة الحواس تشكو استعباد سنة واحدة في هذا الزمان ، ولم يسمع لها في الألف سنة التي مضت لا صوت ولا صدى » .

سامحه الله ! غلبت مخاوف الطفولة ، عروبة الرجولة !.. على أية حال الريحاني لم يكتم رأيه في تأييد احتلال البلاد العربية ، من جانب بريطانيا لتطويرها . ولعل ذلك أنساه أن بغداد كانت مركز العالم ، وأقوى عاصمة مستقلة زهاء ثلاثة قرون . والريحاني يشيد بجهود « جاد غاوي » وهو « سوري من يافا » ذكر في التقارير البريطانية بأنه « أحد سوريينا (!!) المقتدرين المخلصين » وهذا « المقتدر » ساهم في تحطيم ثورة العراق ، واقناع المشايخ بهدم الحصون التي كانت تقاوم الانجليز ، فهدم منها ما يقرب من الألفين خدمة للاستعمار البريطاني ، ولذلك استحق اشارة الريحاني الذي أخذ على الثورة ، أنها « لا تخلو من نزعة دينية » .

ومع ذلك فان « غروترودبل » سيدة العراق الانجليزية ، رفضت الاعتراف بجوازه الامريكي وقبعته النيويوركية ، فذكرته بأصله العثماني أو الشامي ونادته « يا أمين افندي » !

كذلك لا يفوتنا أن نشير الى موقفه من قضية اللون والأجناس ، اذ يبدو أنه تعلم في

أمريكا العنصرية واحتقار الجنس الأسود ، والايمان بخرافة تفوق الجنس الأبيض ، أو على الأقل انحطاط الجنس الأسود ، فعندما رأى الادريسي « عبدا أسود يسود مليونا من العرب ، وقر التقزز لأول وهلة في نفسي » !*

كان على الأستاذ القادم من تحت تمثال الحرية ، أن يقضي وقتا أطول في خيام البدو ليتعلم المساواة .

ولم يستطع الريحاني أن يغوص في أعماق « التعصب » العربي في الجزيرة ضد « النصارى » ، فلم يفهم أنه موجه أساسا ضد الانجليز ، ضد الأجانب ، ضد الغزو الأوروبي .. ومن ثم فقد وقار الأستاذية ، واندفع يعذب المرضى الذين لجأوا اليه يطلبون طب الحضارة ، فذكرهم بأن ذلك من اختراع « النصارى الخنازير » وان كان لم يفته عند طبع الكتاب أن يضيف : « الذين تعلموا الطب من أجدادكم يا أجهل العرب » .

---

* أشار الزركلي أيضا الى ذلك عندما قال انه لما رآهم أول مرة ظن أنهم وفد النجاشي !

حافظ وهبة

١ ـ جزيرة العرب في القرن العشرين : ١٩٣٥ ـ ١٣٥٤
الطبعة الثالثة : ١٩٥٦ ـ ١٣٧٥

٢ ـ خمسون عاما في جزيرة العرب
الطبعة الاولى : ١٩٦٠ ـ ١٣٧٩

الشيخ حافظ وهبة مصري قاهري قح من بولاق ، من « علوة الحجاج » احدى قلاع أولاد البلد الذين لا ينطقون حرف القاف أبداً ، ولذلك فهم لا يسمون مدينتهم بالقاهرة بل « مصر » .. ولد عام ١٨٨٩* ـ ١٣٠٦ فهو أصغر من عبد العزيز بما بين تسع سنوات واثنتى عشرة سنة وفقا للخلاف على تاريخ مولد ابن سعود .

جاء الشيخ ومصر تودع تاريخها كبلد مستقل وتبدأ في التكيف كمستعمرة بريطانية وشهد التحول من الجلوس على الارض إلى دكة خشبية ! ورغم تأفف الشيخ من التعليم المتخلف ، فقد أتم حفظ القرآن وتجويده وأجاد القراءة والكتابة والحساب بالقواعد الاربع والكسور العشرية ! ولو طال به العمر وسعد برؤية التعليم يتقدم في بلاده ، لرأى أنه لا أحد يتم حفظ القرآن وأيضا لا أحد يجيد القراءة والكتابة عند التخرج من الجامعة ! وليس الكتاب ، وفضائح الأمية في المدارس الابتدائية معروفة ، ولكن الشيخ كان من ذلك الجيل المهزوم الساخط . ثقافته اسلامية ولكنه ساخط على رجال الدين ، يريد التجديد ، ولا يعرف كيف ؟ ولا ضد من يشن مطلبه ؟! هذا الجيل الذي حمل اليه الشيخ محمد عبده ، كل سلبيات الثورة العرابية المهزومة ، حيث تقزمت الشعارات فأصبح الامام العادل ، هو المستبد العادل ، وقبول تكنولوجيا الغرب لقهره ، هي قبول وصاية الاستعمار الغربي للفوز باصلاحاته ! والثورة على جمود رجال الدين ، تحولت الى تساهل كبير فيما يعتبره البعض أساسيات . والى قفش الطرائف أو القشور للدلالة على تخلف المسلمين ، مثل استنكاره قراءة البخاري نصرة للاسطول العثماني . وكأن هذه القراءة هي سبب التخلف ، أو كأن صبية وعميان الأزهر ، يمكنهم المساهمة في القوة البحرية بأفضل من الدعاء ! ومثل كره الازهر ، والدراسة في الأزهر ، وهي من

---

* وبالرغم من أن الشيخ من مواليد علوة الحجاج ، وفي عام ١٨٨٩ فقد استطاع تحديد مولده باليوم والشهر والسنة فقال إنه ١٨٨٩/٧/١٥ ـ ذو القعدة ١٣٠٦ .

آثار« محمد عبده » الذي عاش غير محبوب من الازهر ، ومات وفي قلبه حرقة من الأزهر ، ولكن الشيخ وهبة ، الذي حمل من محمد عبده ، فكرة الاعجاب بالانجليز ، والاحتماء « بتقدمهم » ضد الطغيان الوطني الجاهل المتخلف ، عاش أيضا فترة عودة الروح في مصر التي توجت وانحسرت بثورة ١٩١٩ ـ ١٣٣٧ . ومن ثم كان يحن « للوطنية » ولكن مع قناعة متزايدة « بالواقعية » وترديد أنه لا جدوى من محاربة الانجليز ، بل ولا مصلحة . وقد عزز هذه القناعة ، زيارته للاستانة ، حيث رأى التخلف في أحلك صوره . وسمع الولاة الأتراك « يحسدون مصر على احتلالها . من قبل الانكليز ، ويتمنون لو أن الانجليز احتلوا تركيا ، فخلقوا منها بلدا متمدينا ، كما خلقوا من الهند بلدا عظيما » . وسافر الشيخ من تركيا إلى الهند بعد أن خلع عثمانيته ، وهجر الشيخ عبد العزيز جاويش وجريدته . وتدركه الحرب في الهند ، بعد أن وطد صداقته مع شوكت علي ، وهي صداقة ستفيد ابن سعود في كسب المسلمين الهنود ، بعدما يصبح شوكت علي رئيس جمعية الخلافة . وفي الكويت نظم مع الشيخ يوسف بن عيسى القناعي المدرسة المباركية ، وهي لا علاقة لها بالشيخ مبارك الصباح الذي أدرك وهبة أواخر عهده ، ثم تعرف على أولاد الحكام بالتتابع ، جابر وسالم ثم أحمد وعبد الله السالم . وكانت له محاورات معهم ، ومشاكل* .

وفي الكويت تعرف لأول مرة بعبد العزيز عام ١٩١٦ ـ ١٣٣٤ ، عندما جاء ابن سعود للكويت معزيا في وفاة مبارك الصباح ، حيث ألقى ابن سعود خطابه الشهير الذي حمل فيه بعنف على الأتراك « لو كان في بدني قطرة دم تميل للأتراك لأخرجتها » ! ولم يغضب ذلك القول الشيخ وهبة وإن كان هو الذي قال « إن أهل الكويت استاءوا من هذه التصريحات » . ويقول وهبة إن ابن سعود رحب به وحاول ان يعطيه مالا لمعارضته سياسة مبارك في دعم العجمان ضد ابن سعود ، مع أن ابن سعود قاتلهم وفقد شقيقه (سعدا) في حربهم استجابة لاستغاثة مبارك ! ..

ويقول وهبة إنه انتقد معاهدة ١٩١٥ ـ ١٣٣٣ بين ابن سعود والانجليز ، وسمع منه عبد العزيز ولم يقتنع ، ولكنه لم يغضب ، فلما ضاق الحال بالشيخ في البحرين تحرش بعبد العزيز على طريقة المشايخ أو النفاق الشرقي ، وأعني تقديم طلب توظف ، او استجداء ، ولكن في شكل موعظة او نصيحة تدعي أن الدافع اليها هو مصلحة قومية او دينية وليس الحاجة للوظيفة ! بل الصالح العام ومصلحة الحاكم ، الذي يفهم المقصود عادة ، ويتصرف وفقا لمعلوماته واحتياجاته . وكان عبد العزيز الذي قابل الشيخ ، يعرفه ، ويعرف مواهبه ، بل لا نذهب بعيداً » إذا قلنا إنه أوحى للشيخ بكتابة

---

* وقد اضطر الشيخ للهجرة للهند بعد حادثة المظاهرات الكويتية ضد الانجليز ولكن في عام ١٩١٨ ـ ١٣٣٦ كتبت حكومة الهند إلى المندوب السامي في القاهرة : « ليس من المرغوب فيه عودة الشيخ وهبة للخليج الفارسي أو بقاؤه في الهند ونقترح ترحيله إلى مصر الا إذا كان هناك مانع خطير ! فوافقت السلطات البريطانية في القاهرة على ترحيله إليها » . F/o. 371/3397-8 May 1918.

خطابه هذا ، دون أن يدري الشيخ .. فقد ذكر وهبة أن القصيبي وكيل عبد العزيز في البحرين ، هو الذي شجعه على الكتابة للسلطان ، عندما رأي سوء وضع الشيخ في البحرين . وكان عبد العزيز بحاجة الى فقيه أزهري سني مصري للعمل في بلاطه ، وساعة الحسم مع الأشراف ، تقترب .

وهكذا التقت الرغبتان .. وهبة يريد العمل في خدمة الأمير العربي المستقل .. الوحيد ... والسلطان يريد وهبة ، ولا بأس من حفظ ماء الوجه ، فتدور الرسائل المتبادلة حول « غيرتكم الدينية ، وحميتكم القومية ، وعظيم اعتقادكم بنا ، فجزاك الله عنا وعن الامة العربية خاصة والمسلمين عامة خير جزاء » . « وأنا كما ذكرته حضرتكم ، في حاجة الى رجال عمل ، فهل تتمكن حضرتكم من القدوم الينا » .

وقد استجاب الله لدعاء ابن سعود ، فجزي وهبة خير الجزاء ، إذ أصبح جزءاً لا ينفصم من تاريخ ابن سعود ، ورسوله الى ملك مصر ، وسفيره في بلاط سانت جيمس ما يقرب من ثلاثين عاما ! ووضع لنا تاريخه الذي ضم كثيراً من الوثائق النادرة ، والوقائع التي يعتبر هو شاهدها الوحيد ، وإن جاء تاريخه على طريقة كتب السلف : من كل بستان وردة ، وبلا مراجع ، ولا شرح للعبارات والأسماء ، وكأن المؤلف افترض أن القراء هم فقط الذين عاصروا الأحداث التي كتب عنها ! ومن ثم فهم لا يحتاجون لشرح ، فالعارف لا يعرف ! وهكذا ضاعت معلومات كثيرة ، لأن حافظ وهبة لم يهتم بتفسير اشارته ، فلم نعرف مثلا من هو « هاشم الذي تاجر بأسرار عبد العزيز » ، ولا من هو الرافعي الذي طبع الكتاب الأخضر ، ولا ما هو خط عبد العزيز للقصيبي ، ولا من هو المستشار الذي كان يخوف الملك من فتح الحجاز ، فكدنا ألا نعرف الكتاب الا أماني ! ... ومع ذلك فقد بقي هو المرجع الاسلامي المعاصر الوحيد عن عبد العزيز وقد أصابت الكتاب لعنة المصريين في تحريف الأسماء* والأخطاء المطبعية ، وسوء الطباعة ، ويبدو أنه الكتاب الوحيد من نوعه الذي لم يدخل في ميزانية إعلامية ، ولذلك جاء أكثرها تواضعا من ناحية الشكل ، وإن كان أهمها من ناحية المضمون .

وكان سعي الشيخ إلى خدمة عبد العزيز ، يقوم على قناعة مبدئية فعبد العزيز كان يجسد كل الأحلام ، ويحرك كل الاماني التي كبتت أو تناساها المخلصون تحت وطأة الهزائم المتتابعة ، والشيخ معجب بالتجربة اليابانية ، أو التقدم الذي حققه هذا البلد الشرقي . والحل الوهابي من بعض النواحي هو أقرب الحلول للنموذج الياباني ، أعني التقدم في ظل الحفاظ على التراث والطابع القومي . أخذ تكنولوجية الغرب مع استبقاء الثقافة الشرقية وهو بالطبع ضد الصوفية ، والدروشة ، ويقول إنه سمع مدح محمد بن عبد الوهاب من شيخه محمد عبده . والتقت وجهة نظره مع ابن سعود في تحليل وضع الاتراك .

واذا لم نتهم وهبة بالتزوير ، فان ما أورده من وقائع ورسائل تدل على انه كان

---

(١) مثل فزعل عن خزعل ومسعود عن سعود .

مستشارا متميزا ، إن لم نقل إنه هو الوحيد الذي عارض وخالف بل وتصرف أحيانا من جانبه في اطار ما يعتقد أنه مصلحة سيده . وكان عبد العزيز يقدر فيه هذه الاستقلالية ، ويعرف فيه هذا الاخلاص ، ويضيق في نفس الوقت بغروره ، فهو تاره يصفه بأنه « محل الروح » .

« **إن ما رأيتم المبادرة بتكذيب التهم ، بتلغراف باسم فيصل* ، أرسلتموه لجرائد الهند ومصر وسورية وفلسطين . وأرسلتم لنا صورة ذلك التلغراف ،** حسنا فعلتم ، ولا شك أنكم محل الروح ، ورأيكم فوق كل شيء . جعلكم الله موفقين لما فيه الخير » .

وهذه الرسالة تدل على أن وهبة كان يتصرف من تلقاء نفسه بواقع مسئوليته وبحكم الثقة فيه ، وكان يحرر البيانات باسم الأمير فيصل بن عبد العزيز ، ثم يطلع السلطان عليها . وأن ابن سعود كبناة الدول كان يؤيد هذا العمل ، ولا يقبل من مستشاريه دور « البوسطجي » أو المنتظر لتعليمات القيادة .

وبقية الرسالة تفيد أن وهبة ، هو الذي اقترح صيغة الرد الواجب ارساله للحكومة البريطانية ردا على احتجاجها لمقتل أحد رعاياها في الطائف . ولكن الملك عدل في الرد المقترح . ومع ذلك فهو لا يرسله قبل اطلاع وهبة عليه :

« ورأيكم بصيغة الجواب (على الحكومة البريطانية) صار معلوما ، وفي الحال حررنا لهم جوابا كما ذكرتم وزدنا عليه ، ولابد أنكم تطلعون عليه من الأخ عبد الله بن جلوى قبل إرساله . وفي اطلاعكم عليه كفاية » .

وردا على إلحاح وهبة بضرورة حضور الملك للحجاز كتب له الملك :

« وأما ما اشرتم إليه من الرغبة في قدومنا ، فكما عرفناكم بالخط الذي قبل هذا ، نحن عازمون على القدوم لو لم يحصل هذا الامر ، وضرورة نظرنا لنتيجة الأحوال ، ولابد إن شاء الله بعد عشرة أيام ، تبين لنا الحقائق المسرة ، ويأتيكم منا خبر بعزمنا إن شاء الله . ولهذا يلزمكم ألا تتحركوا من محلكم والانتظار لازم، يكون معلوما »**.

وهي تؤيد دعوى وهبة ، في أنه كان يلح على الملك في غزو الحجاز ، وأن الملك كان يتحسب النتائج خاصة بعد فتح الطائف ، وينتظر ردة الفعل لما أشيع عن « مذبحة » الاخوان . والرسالة التالية تؤكد اقتراح وهبة الاحتياط لعدم وقوع اعتداءات يستغلها الاعداء ، وتتضمن نقداً للرسالة التي استحق عليها لقب « محل الروح » . وسواء أكان ذلك بعد القراءة الثانية لبرقية وهبة ، أو بدس أحد المستشارين ، كما يقول وهبة ، بسوء الظن المزمن لدى البيروقراطي المصري . المهم أن الملك تخوف واعترض من تطوع وهبة بتعويض ضحايا الطائف فقال :

---

* فلا معنى اذن لنرفزة الاستاذ عطار وإصراره على إن الأمير فيصل (١٨ سنة وقتها) هو الذي كتب التكذيب من نجد فها هي رسالة عبد العزيز لا تترك مجالا لاتهام حافظ وهبة بالادعاء !

** ٤ ربيع أول سنة ١٣٤٣ ــ نوفمبر ١٩٢٤ .

« والحقيقة أن التكذيب والنفي جائز ، وحسنا فعلتم ، غير أني ـ سلمك الله ـ ما كنت أود انكم تتعهدون بأننا مستعدون لتعويض كل من حصل له ضرر في دمه أو ماله » ، فلهذا أود أنكم لا تتعهدون باستعدادنا للتعويض ، ولو راجعتمونا بذلك لبينا لكم الذي نراه ، ولكن حضرتك ـ سلمك الله ـ تحب المبادرة بنفي الاشاعات الملفقة ، وأنا أحب من جنابك الا تجعل بها شيئا يوجب تقييدنا بشيء تجاه العالم ، أردت أن أبين لك رأيي في ذلك ، ولا تظن أن لكتبه شيئا في نفسي ، لا بل أحب أنك دائما تواصل عملك بما تراه مفيداً ونافيا عنا تهم الأعداء ، وانما أريد منع الشيء الذي تتعهد به اذا رأيت فيه تمسكا علينا لو تراجعنا فيه .

« هذا رأي محبكم . والله أسأل أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير والصلاح حفظك الله » .

وهي تؤكد المكانة الخاصة التي لوهبة عند الملك ، والصلاحيات التي أعطاها وهبة لنفسه !

وخطابات الملك لوهبة خلال ازمة المؤتمر الاسلامي ، تتفق كلها مع « ادعاءات » وهبة ، ومع ما ذهبنا اليه من مكانة خاصة ، كانت لهذا المستشار ، فليس فيما كتب عن عبد العزيز رسائل تشهد بنقد الملك إلا رسائل وهبة ، وان كانت المعارضة العالية الصوت معروفة من أكثر من مستشار ، ووردت عنها إشارات هنا وهناك إلا أن وهبة انفرد باقرار الملك ذلك في رسائله الرسمية .

« أما ما بينت لي من نصحك وحميتك الدينية العربية ، فأنا أشهد لك بذلك ، والدليل على شهادتي وثوقي بالله ثم بك ، واعتمادي على الله ثم عليك . أعظم مما اعتمده على نفسي* ، ولكن الذي جعلني أعتب عليك أمران : الأول أنك نقدتني بالخطأ بخصوص فؤاد ومصر ، وأنت ترى احتقار فؤاد لنا ، حتى الجواب ما يرده لنا ، وهو والحمد لله ما هو على شيء من القادرين إلا ما يكون تشنيعا أو منع حج أو مثله . وكنا قائمين بحقوق المصريين في كل ما يلزم .

وجميع ما صنعت أنت لأجلهم أجبناك إليه وشيء تراه أنت بعينك ، وقد أحدث بعض القلق وهو مسئلة المؤتمر . وقد كتبت لك مكتوبا فيه بعض الشدة . ولكن منعت نفسي وتركته . ثم بعد ذلك جاءت حكاية هذا المصري المارق الذي أمسك بواحد من كبار المسلمين يضربه ويلعن دينه وحكومته ، وتطالب بمسامحته . فالحقيقة أن هذه أزعجتني كثيرا ، وحكيت من غير وعي ، لأنني أجزم في نفسي أنه لو كان الأمر يتعلق بنفسك أو ولدك . لكان الفداء له نفسي وحكومتي ، هذا هو أملي وظني ، وتعرف يا حافظ ياأخي أن الرجل الذي لا يجزع على حكومته ورعيته ما فيه خير . والحمد لله رب العالمين . الحق مبذول للخاص والعام والحقيقة عندك . ومثل ما قالت العامة : « العقل

---

* لا مجال امام خصوم وهبة إذا أرادوا انكار مكانته ، إلا الطعن بتزوير رسائل عبد العزيز أو انتقاد عبد العزيز نفسه !!

مكذب الألسن » وأما حقك وواجبك علينا . فهذا إن شاء الله تجده ونحن محافظون حتى على اسمك ومن ينتسب اليك ان شاء الله* .

وإذا كان وهبة قد نشرها لاثبات علو مكانته ، فقد نجح في ذلك ، ولكنه ايضا أثبت عظمة ابن سعود ، وارتقائه مكانة لم تعرف في حاكم عربي من بعده ولا قبله لمئات السنين في أسلوب التعامل مع مستشاريه ، معاملتهم كبشر ، وليس كأدوات أو خدم !

وأزمة المؤتمر الاسلامي مع حافظ وهبة ، حكايتها أن الشيخ كان في القاهرة يحاول اقناع الملك فؤاد بحضور المؤتمر العتيد الذي سيبحث مستقبل الحجاز ، وينتخب حاكمه ، فاذا بوكالة رويتر تنقل خبر مبايعة ابن سعود ملكا . ولأن حافظ وهبة كان يحترم نفسه ومنصبه ، ولم يكن مرتزقا ، بل يخلص النصح لسيده ولو آلمه . ولانه ـ كما اعتذر بعد وفاة الملك ـ أملت حرارة الشباب على خطابه بعد الحدة ، فقد كتب للملك عبد العزيز خطابا قل أن يكتبه موظف لمليكه ، ولكنه أصبح وثيقة تاريخية شاهدة بعظمة الملك ، وإخلاص المستشار . ولا مجال لمناقشة صوابية قرار الملك وخطأ انفعال المستشار ، فقد شرحنا ذلك في موضعه بما فيه الكفاية . ولكن هذه ليست القضية ، وإنما صدق المستشار وإخلاصه يتضحان في المجاهرة بالمخالفة ، مادام يرى أن قرار الملك يضر بمصالح الدولة والملك ، وعظمة الملك هي في سماحه بالاعتراض ، وتأمين المستشار في حق القول ، ثم مخالفته والعمل بما يرى أنه الصواب .. فهكذا تبنى الدول وتصان مصالحها ، وهكذا يكون الملك والمستشارون ، ولا أدل على الانحطاط الذي هوينا إليه بعد عصر عبد العزيز و« حافظ وهبة » ، ان مؤرخا ينهال طعنا وتجريحا في « حافظ وهبة » ويحاول أن يجد له دافعا شخصيا لرسالته هذه ، مع نزعة إقليمية ، لأنه لا يصدق أن مستشارا يمكن ان يعترض قرار الملك لمجرد القناعة أو الاخلاص ! بل ويعرض به وبالملك إذ يزعم أن الملك « عفا » عن الشيخ ، لأن الشيخ « تهالك على يديه تقبيلا ولثما » . وإذا كان الشيخ قد فعل حقا ، فذلك يزيد من قدره ، ومن عظمة موقفه ، فهو لم يعترض تحديا ، ولا جهلا بقدر مليكه ، وانما لقناعته بان الاجراء ضد مصلحة سيده ، وها هو عندما تبين خطأه ، يقبل يده وليس في ذلك ما يستحق أن يوصف « بالتهالك » بل الشرف الذي لم ينله الناقد وإلا لافتخر به في كل صفحة . لقد كان عبد العزيز لهم أكثر من ملك وأكثر من والد وقائد وملهم .. وقد روى عبد الرحمن عزام أن يوسف ياسين جلس معهم على أرض السيارة يدلك قدمي عبد العزيز .

خير لنا إن عجزنا عن الارتفاع الى مستوى عبد العزيز وعصره ورجاله ، أن نكتفي بتلاوة تاريخهم ، لا أن نمنح أنفسنا مقاعد النقاد في زمن لا نصل فيه إلى مستوى متفرجيه .

---

* شوال ١٣٤٤ ـ ١٩٢٦

وقد تكررت استقالة وهبة ، ورفض ابن سعود لها ، كما تكرر تقريعه له وتوبيخه أحيانا على طريقته الجافة في إعطاء النصائح : « هل تخفق المفاوضات ، لانك لا تريد الاشتراك فيها ؟ » ! .. فيتراجع وهبة « لم يبلغ بي الغرور هذا المبلغ » .

ويضطر الملك أحيانا ، إلى أن يصدر اليه أمرا بتسليم مذكرة ، « كما هي » . ولكن السفير المشاغب يغادر مقر عمله لكي لا يسلم مذكرة لا يقرها ! وأحيانا يتهمه الملك بأنه « أفسد سياسته مع الانجليز* » .

وكما قلنا إن مستشاري عبد العزيز ، كانوا يتحلون بصفات ممتازة ، ليس منها التواضع ، ولا « أحبوا بعضكم بعضا » . ولذلك نجد وهبة يحمل على « فؤاد حمزة » ويتهمه بأنه كان عميلا لموسوليني ويقبض منه ، بل واستقال من منصبه احتجاجا على تعيين فؤاد حمزة في الوفد السعودي لمؤتمر فلسطين عام ١٩٣٩ ــ ١٣٥٨ . وتناول فيلبي في اكثر من موضع ، مع أن فيلبي يقول إنه كان أقرب المستشارين اليه ، كما أشار الى « زميل » كان من دأبه الدس عند الملك . ويصعب أن نجد كلمة خير قالها مستشار في مستشار ، باستثناء ما تبادله البعض من « تطويب » وهم عادة ــ أي هذا البعض ــ من جنسية واحدة معينة .

أما عن التواضع فقال وهبة في مقدمة كتابه ، إنه تردد كثيرا في نشره : « لأن اسمي مقترن فيه بكثير من الأحداث ، التي كان لي شرف معالجتها ، أو الاشتراك فيها وهي مشكلة لم تشغل بال المؤرخين الاخرين ، لقلة إشاراتهم لوهبة ! حتى يمكن القول استنادا لمؤلفاتهم ، إنه لو لم يكن وهبة موجودا لما تغير شيء ..

ويؤخذ على وهبة نقطتان :

الاولى شخصية ، وهي حب الاستعراض ، فهو الذي ألح على عبد العزيز بفتح الحجاز ، وهو الذي منع عبد العزيز من التقرب إلى الالمان ، وحل أزمة الدكتور جروبا ، وأصلح خطأه في التفاوض مع مستوى أقل لما يجب ، وهو الذي نصح بعدم دخول جدة ، وإن كان قد أشار إلى ما ترتب على ذلك من سلبيات ، وهو الذي طرح فكرة تدويل الحجاز والمؤتمر الاسلامي .. الخ حتى يخيل لك أحيانا أن الوهابية مشتقة من « وهبة » وليس من محمد بن عبد الوهاب ! ..

النقطة الثانية : أنه بالغ في الثقة بالبريطانيين والمراهنة على صداقتهم ، وكسفير لدى بريطانيا ، اعتقد أن نجاح مهمته هو في تحسين موقف الانجليز ، وإن كان هو قد أحس بالانتقاد الذي يمكن أن يوجه له ، فاعتذر بأنه وطني ضد الانجليز في مصر ، ولكنه كممثل لعبد العزيز المطوق بالانجليز واجبه يحتم عليه تحسين علاقته مع الانجليز ولكن حتى لو قبل هذا العذر ، فهو لا يبرر دفاعه عن سلوكهم في البحرين والزعم بأن سبب عزل الانجليز للشيخ عيسى أنه كان « لا يحب التغيير ويكره كل جديد » أو وصف معاهدة الحماية بأنها « معاهدة تعاون » ! وقبول الادعاء البريطاني بأن هدف

---

* شوال ١٣٤٤ ــ ١٩٢٦ .

بريطانيا كان مكافحة القرصنة ! أو القول بأن « الواقف على المراسلات التي كانت تدور بين الملك حسين وبين الحكومة البريطانية في هذا الموضوع لا يرى موقفا أشرف من موقفها للتوفيق بين الجارين المسلمين العربيين » !

على أية حال ، لقد ساهم كتاب وهبة ، وخاصة الثاني في توضيح جوانب هامة من حياة عبد العزيز ، ما كانت لتعرف ، لولا ما كتبه الشيخ في السبعين من عمره ، فان كان قد أخطأ التعبير أحيانا ، أو خانته الذاكرة ، فحفظ الواقعة ، وتبدلت عليه الكلمات ، أو قل إن عجزنا بمقاييس الأقزام أن نفهم حوار جيل العمالقة ، فلا يجوز أن نتهمهم هم بالشذوذ أو الكذب .

كان ملكا عظيما يحيط به رجال أحرار .. وكان مستشاراً مخلصا له رأيه ، ولعله أحد القلائل من ذلك الجيل الذي انتقد السياسة المالية في مرحلة النفط

فيلبي

الكتب التي ورد فيها ذكره هنا هي :

١ ــ قلب الجزيرة Arabian Highlands
تأليف ج . ب . فيلبي By H. St. J. B. Philby
سبتمبر ١٩٥١ ــ ١٣٧٠ DA Cupo Press
طبعة نيويورك ١٩٧٦ ــ ١٣٩٦

٢ ــ فيلبي العرب Philby of Arabia
تأليف اليزابيث مونرو By Elizabeth Monroe
Faber and Faber ١٩٧٣ ــ ١٣٩٣

٣ ــ العربية الوهابية Arabia of the Wahhabis ١٩٢٨ ــ ١٣٤٧
تأليف فيلبي By Philby
١٩٢٨

٤ ــ العربية السعودية Saudi Arabia
فيلبي By Philby

« جون » الذي أصبح « عبد الله » هو أشهر انجليزي في تاريخ ابن سعود ، وان كان شكسبير قد لعب دوراً أكثر أهمية وكان أذكى وأشرف من فيلبي ، الا أن المنية عاجلته فأنهت دوره مبكرا جدا .. وفيلبي يقترن اسمه عادة بلورنس ، باعتبار المعاصرة ، التقيا في الزمان والمكان ، واختلفا في التاريخ ، فراهن لورنس على الهاشميين ، وراهن فيلبي على ابن سعود والاخوان ..

لورنس كان أديبا ، عالما ، مدعوما الى آخر لحظة بكل جهاز الاستشراق البريطاني ، المراهن على الأشراف ، ولذلك استطاع ان يخترع أسطورة من لا شيء .. أما فيلبي

فكان كاتب حسابات ، هنديا أبيض البشرة* ، بلا خيال ، تحركه المصالح المادية وحدها ، فاستحق عن جداره ما اطلقه عليه السعوديون ، عندما أسلم وسمى نفسه عبد الله ، اذ قالوا ان الأجدر به أن يسمي نفسه « عبد القرش** » . ومع ذلك فان وهج التجربة السعودية ، فجر الصخر في قلب فيلبي ، ورفعته الموجة التاريخية معها .

لورنس كان أكثر ذكاء ، صحيح ، ولكن الهوى ، جعله يرى الفجر الكاذب ، فتعلق بالمحال ، مضحيا بذكائه في سبيل الاستراتيجية الامبراطورية*** ، أما فيلبي فلم يشعر بكثير من الولاء للامبراطورية ، لا هو ولا أولاده**** ولا كان يؤمن بشيء ، الا أن ينجح في فرض الاعتراف به كجنتلمان بريطاني ، وأن يذكر اسمه في الجمعية الجغرافية الملكية ، وأن يجمع أكبر قدر ممكن من المال . ولو ولد في ظروف مخالفة لكان مرابيا ، أو رجل اعمال متوسط النجاح . ولعل هذا الحس التجاري فيه ، هو الذي جعله يستشف صعود نجم ابن سعود ، فتعلق به من اللحظة الأولى ، وفور أن رآه أصابته ضربة الشمس العزيزية ، أو سحر الاساطير ، فأصبح مأخوذا يتبعه أينما ذهب ! ويؤيده في جميع المواقف والقضايا ، حتى انتهى به الحال الى الخروج من خدمة الامبراطورية البريطانية . وجلس على باب ابن سعود ، وفي النهاية رحل من الجزيرة ، لأنه يقوم بدعاية مضادة لبريطانيا لدى ابن سعود ، وهو الذي تعرف عليه في منصب ممثل بريطانيا في بلاطه !

وكتابات فيلبي ، شأن معظم ما كتب عن ابن سعود ، تصلح تحت عنوان : « أنا وعبد العزيز » ! ويمتاز هو بالثرثرة المزعجة ، حتى ان القارىء يحتاج لجهد خارق للوصول الى نبذة عن ابن سعود تحت أكوام هائلة من التفاصيل والحكايات ، والمعلومات الجغرافية ، والأثرية . فهو يتركنا على أبواب « بريدة » ليحدثنا في أربع صفحات عن حصان ثم ينتقل الى تاريخ الخيول وتربيتها . ويقطع الحديث عن الأشراف وابن رشيد بعدة صفحات يشغلها بوصف ولادة الجمل وخروج الخلاص من رحم الناقة . كتبه ثقيلة الحمل ، فادحة الثمن ، كثيرة الثرثرة ، ورغم ذلك فهو المرجع الرئيسي الأجنبي ويرجح أي مرجع عربي ، ذلك انه بعقليته الغربية كان واعيا أنه يعيش عملية صنع التاريخ ، فحرص على جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات ، بالاضافة الى

---

* وان كان بملابسه العربية ولحيته البيضاء شديد الشبه بأحد شيوخ الخليج .

** القرش عملة تركية الأصل وجمعها قروش .

*** مؤلف « العربية تتوحد » قال : « انه لا يعتقد ان فيلبي كان جاسوسا على الملك لأنه كان مدفوعا باحترامه وتقديره للملك الذي كان يثير الاخلاص والولاء في كل من حوله . ولو أنه لا مجال للشك في اخلاص فيلبي للملك الا أنه كان يعمل أيضا في سبيل مصالح بلاده » .
ويصعب حصر وقائع تثبت أن فيلبي كان يعمل لمصلحة بلاده بعد عودته للسعودية عام ١٩٢٥ ـ ١٣٤٣ .

**** بل ولا أجداده ان صدقنا فيلبي فجده لأمه كان جنديا في الجيش البريطاني خلال حرب الاستقلال الامريكية ، ولكنه كان يتمنى انتصار الأمريكان !

تكوينه المخابراتي كعامل في الجهاز الامبراطوري ، الذي أتاح له أيضا فرصة الحصول على المعلومات من الداخل ، والاطلاع على التقارير ، وتكوين صورة صحيحة الى حد كبير عن موقف الانجليز من ابن سعود وهذه الناحية هي أهم ما يستفاد من كتب فيلبي .. وهو على سبيل المثال خير من فهم ظاهرة الاخوان وهو الأشد نفورا منها في حاشية عبد العزيز .

وفيلبي ـ كما قلنا ـ لم يؤمن بشيء ، الا بعظمة عبد العزيز وحتمية نجاحه ، فاسلامه كان عملية تجارية بحتة ، وهو لا ينكر ذلك في كتبه ، ولا في ما كتب عنه ، بل يمكن القول انه الوحيد في تلك المجموعة التي أحاطت بابن سعود ، الذي لم يكن يؤمن لا بالاسلام ولا بالوهابية ، ولم تكن لديه أية نزعات تحررية ، ولا يؤمن بأمة عربية فهو القائل :

« أستطيع القول ان مصالح الدول العربية المختلفة التي تكون العالم العربي ، متعارضة ، كتعارض أقاليم الهند المختلفة ، ولذا فهي غير قادرة على التجمع في كيان سياسي الا تحت نفوذ وسيطرة أجنبية قوية قادرة على حفظ السلام بين الأجناس والطوائف المتناحرة وذات المصالح المتعارضة » ودافع حتى عن مذبحة دنشواي متعصب للحضارة الغربية ، مع الروس ضد اليابان . شهد الطاغوت البريطاني ومارسه في ذروة الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ، سافر الى الهند يبحث عن عمل يساعد به أمه ، ورغم مركزه في أسفل السلم البريطاني ، فقد كان من سلطاته سجن الهنود حتى رتبة المهراجات ، وأصبح عضوا في نواد يحرم على الهنود دخولها ! تمنى أن يعين حاكما على دمشق « عندما نفتحها » !

لم يدخل الكنيسة الا يوم تزوج ، ومات والكأس في يده ، ورغم اعترافه بتفوق الاسلام من الناحية الاجتماعية ، ودخوله فيه من باب الجنس ، فقد كان شديد الشبق*، واعترف بأن الاسلام هو الذي أوجد أفضل حل للمسألة الجنسية ، وتقول مؤلفة تاريخ حياته ، انه في عام ١٩٢٨ ـ ١٣٤٧ عندما تدهور وضع الشركة « الشرقية » التي كان يديرها في جده ، كتب الى زوجته عن الفوائد التي يمكن أن تعود على تجارته لو أصبح مسلما : « سأستطيع الحصول على الامتيازات التي أتطلع اليها . » وتقول ان فيلبي « استمر يتطلع الى التحول للاسلام لسببين ، الأول هو السبب المادي ، أي تسهيل وصوله للملك لتسيير اعماله التجارية** ، والتجول في الجزيرة العربية . والثاني أن يصبح جزءا من المجتمع السعودي » .

ولم تكن هناك عقبة دينية من ناحيته ، فمنذ أيام الجامعة : « كان قد اعلن موت

* حاول لورنس الذي أقل نجمه أن ينال من فيلبي ، فجاء الى زوجته وقال لها على رؤوس الاشهاد أن تنصح فيلبي زوجها بأن يلم روحه مشيرا الى فضائح فيلبي مع النساء ، فردت عليه ردا موجعا مشيرة الى فضائح لورنس مع غير النساء !

** حصل فور اسلامه على عقد لشركة ماركوني بتركيب ١١ محطة لاسلكية ثابتة و ٤ متحركة وارتفع ربح الشركة الشرقية من ٣٠٠ جنيها عام ١٩٢٩ ـ ١٣٤٨ الى ١٠٠٠ عام ١٩٣٠ ـ ١٣٤٩ .

الاله » .

وقد كتب لابن سعود عام ١٩٢٨ ـ ١٣٤٧ يطلب اشهار اسلامه ، فأبلغ أن الملك مشغول ، ولم يكن من المعقول أن ينشغل الملك باسلام فيلبي عن انشقاق ابن بجاد وابن الدويش ، أو أن يجمع على الاخوان محنة اللاسلكي واسلام فيلبي معا !.

فعاد وكتب سنة ١٩٣٠ ـ ١٣٤٩ فوافق الملك . وتتساءل اليزابيث مونرو : « هل صدقه ابن سعود » وتجيب هي : « هذا سؤال لن نعرف الجواب عنه أبدا* .. ولكن الثابت أن قليلين جدا من العرب صدقوا اسلامه . لقد نظروا اليه كغربي يمارس الاسلام بينهم ، فاذا عاد الى مجتمعه خلع الاسلام . كذلك لم يأخذه الغربيون على محمل الجد ، فمن الصعب تصديق رجل أنكر الله في عام ١٩٠٧ ـ ١٣٢٥ يدخل دينا تدور تعاليمه حول وحدانية الله ، وهو بدوره لم يحاول أبدا أن يقول لأصدقائه الأوروبيين انه مسلم عن ايمان** » .

وواضح من اصراره على استئذان الملك في اشهار اسلامه ، حرصه على جانب « الاعلان » وفعلا في صيف عام ١٩٣٠ ـ ١٣٤٩ استدعاه الملك للطائف ، على أن يقوم بالعمرة أولا .. وأرسل اليه « عبد الله بن سليمان وفؤاد حمزة*** لتوجيهه للاسلام ، فأبلغ فيلبي كاتبه أنه متوجه لتوقيع عقد ماركوني » (!) ولا تفوت فيلبي المناسبة فيدعي أنه دخل مكة في مولد النبي !

ومن مكة الى الطائف رأسا لتوقيع عقد ماركوني ! وتقول المؤلفة ان الملك كان يحس بنفور وشكوك رجال البلاط ، لذلك ألقى خطابا بمناسبة تسمية الملك لفيلبي باسم اسلامي هو عبد الله**** ، فشرح الملك الخدمات التي أداها فيلبي للجزيرة ، اذا اختلف مع حكومته واستقال من منصبه في عمان ، لأن الحكومة البريطانية رفضت تأييد ابن سعود ، واضاف الملك ان فيلبي لم يقبض مرتبا أبدا من أجل خدماته للعرب***** . وطلب من فيلبي أن يكتب مقالا في أم القرى يشرح فيه للناس لماذا

---

* ولكنه لا يشكل لغزا ولا تساؤلا عن موقف الملك ، فهو كمسلم مطالب بأن يأخذ الناس بعلانيتهم ويترك القلوب للخالق ، وكملك لم يتخذ أي اجراء يوحي بافراطه في الثقة بفيلبي أو الاعتماد على اسلامه . بل استخدمه لمصلحة الدولة مطمئنا الى اخلاصه لأن مصالحة الشخصية ارتبطت بمصلحة الدولة السعودية . فهو كما قيل « لك قوته وعليه فجوره » .

** يقول محمد المانع : ان فيلبي أسلم ، تجارة وسياسة كما ينفرد برواية ان فيلبي قد تم ختانه عند اسلامه .

*** درزي لبناني أوصى بأن يدفن في مقابر السنة .

**** هناك رواية شائعة تقول ان فيلبي سمى نفسه محمدا ، ولكن الملك سأله عندما وصل للطائف ماذا تسميت فلما قال محمدا رد الملك : « لا .. أنت محمد ما تسوى .. انت عبد الله ..! » وقد كان .

***** نسب محمد المانع الى الملك عبد العزيز قوله : « اثنان لم يطالباه أبدا بأية خدمة : عبد الرحمن السباعي وكيل الملك في شقرا وفيلبي » !

فماذا عن توكيلات ماركوني وفورد ؟ ألا يعتبرها المانع خدمات ؟!

أسلم ، وفعلا كتب فيلبي مقالا بدأه هكذا : « لقد شرح الله صدري للاسلام » .
أما زوجته في لندن فيقول محمد المانع ان « الملك اقترح عليه أن يدفع لها ١٤٠ ألف جنيه تعويضا عن اسلامه (!!) واستنتج من ذلك « مدى تقدير الملك لنصائح وخدمات فيلبي* » !

الا أن كاتبة سيرته قالت ان زوجته لم يهمها شيء ، الا الخوف من أن يستخدم حقه الاسلامي في الزوجة الثانية . فينجب وريثا اضافيا ! أما الزواج في حد ذاته فلم تهتم به ، وكذلك تخوفها من ردة فعل المجتمع البريطاني المعتز بمسيحيته ، أو بمعنى أصح بانتماء مواطنيه .. وقد أسعد مدام فيلبي عندما زارت زوجها في جدة بعد « الاسلام » انها هربت له الويسكي وكان يشربه بسعادة** « كما حرصت خلال حملته الانتخابية الفاشلة على التردد على الكنيسة « لتأكيد أننا لسنا مسلمين » .

وكان فيلبي يقرأ العربية ، ويتكلمها بصعوبة ، وأحيانا يصعب عليه فهم محدثيه ، مما أوقعه في تفسيرات وأحيانا روايات خاطئة ، وهو على العموم كان يكتب للأوروبيين فلم يكن يدقق كثيرا ، مثل زعمه أن القرآن قال : « اركب وارم ولكني أفضل أن ترمي » ! ويكتبها بالفاظ لاهوتية*** كأنها نص منقول ! وعندما حدث الملك عن عروض ويزمان ، صرخ فيه عبد العزيز بما معناه : اخرس . او سد فمك .. ففهمها ــ ان كان حسن النية ــ على أنها تعني « اكتم هذا السر بيننا ! » ..

جاء فيلبي الى الرياض ممثل « دولة عظمى » كما وصف نفسه ، جاء لمقابلة شيخ من شيوخ الصحراء ، وليمنع هذا الشيخ أو الأمير من افساد مشاريع بريطانيا الحربية ، اذا ما استمرت المواجهة مع الشريف حسين ، ومن ثم كانت الخطة اقناع ابن سعود بأن يولى وجهه شطر حايل مقابل خمسة آلاف جنيه شهريا ، ووعود بسلاح .. الخ .

وفور وصول فيلبي الى الرياض أصيب بالضربة العزيزية ، وأيقن بأن مستقبله مربوط بصعود نجم هذا الأمير ، الذي لا يحتاج لمساعدة أحد . وقضية فيلبي مع عبد العزيز ، هي قصة الفشل السعيد الحظ ، فلو وفق فيلبي في عمله بالعراق ، لما ذكر اسمه في التاريخ ، ولكن تدهور علاقته مع حكومته ، من ناحية بسبب سلوكه ، والشبهات التي حاقت بتصرفاته المالية ، فقد اتهم باساءة التصرف في ميزانية المعونة للأردن التي وضعت بذمته « لولا أنه سبق لجنة التحقيق التي جاءت الى عمان لفصله ، فبادر بتقديم استقالته . »

---

* هذه من نخعات المانع ، فلا فيلبي ولا الملك ولا هما معا كانا يمتلكان هذا المبلغ وقتها لدفعه لمدام فيلبي !

** وهي التي اشتكت قبل ذلك ١٩٢٧ ــ ١٣٤٦ من ادمانه على الخمر لنسيان خسائره المالية . ولكنها هذه المرة حملت له الخمر وكانت سعيدة مرتين ، مرة لأنه يسكر فهو ليس مسلما ، ومرة لأنه يربح بالاسلام !

*** Quran says : Ride and shoot , but I prefer that ye shoot !

ومن ناحية لأنه ـ كما قلنا ـ اكتشف تفوق ابن سعود على الهاشميين ، واذا كان قد قرر المراهنة على ابن سعود ، فلا مجال للقول بأنه كان أذكى من الادارة البريطانية ، لأنه لا مصلحة لبريطانيا كامبراطورية استعمارية ، في صعود نجم ابن سعود . فالانجليز لم يخطئوا في اصرارهم على دعم الهاشميين الى آخر لحظة . وفيلبي شخصيا كسب كسبا هائلا بمعاداة الهاشميين ، وحكومته ، ايمانا بنجاح ابن سعود .

وقد تحددت علاقتهما منذ اللحظة الأولى، بتحديد الأحجام. فالمشاغب الذي أثار المتاعب في العراق ، ومع الأمير عبد الله في الأردن ، جابه في الرياض ، عملاقا ، جعله يستجدي ليل نهار ، فتح حايل ! وكأنها مدينة المانية لا مصلحة لابن سعود في الاستيلاء عليها ! ثم غادر الرياض شبه مطرود ، مع انذار : « اذا لم تغير حكومتك موقفها فلا تعد للرياض » . وذلك بعد أن استكتبه تقارير ، أشرنا اليها ، لا يكتبها موظف في البلاط السعودي ! ولم تغير بريطانيا موقفها ، ولم يعد فيلبي . ومرت الأيام ووصل ابن سعود الى أسوار جدة ، وهرع فيلبي يبحث عن دور ، فوصل الى جدة حيث حاول أن يلعب دور الوسيط ، فنهره ابن سعود في حزم ! أما الملك علي فرغم ترحيبه ، الا أنه كان يشك فيه ، ويعتقد أنه يسرب أسرار « جدة » العسكرية لابن سعود* وهددته وزارة الخارجية البريطانية بقطع تقاعده اذا حاول السفر الى ابن سعود »**.

ومن ثم يمكن القول بأن فيلبي اختار السعودية « اعجابا بابن سعود والصحراء » وليس لأي دافع فكري أو عقائدي أو سياسي ، بشرط أن نفسر نحن هذا الاعجاب بأنه كان مرتبطا بمستقبل ابن سعود كملك وليس برسالته كامام . لأن فيلبي قرر « أن مستقبله الشخصي مرتبط بمستقبل ابن سعود والسعودية » .

وقد استطاع عبد العزيز ، كعادته ، استخدام فيلبي في المجالات التي يفيد فيها سياسة عبد العزيز وخططه ، ولا أحد يعرف نوعية الخدمات السرية*** التي قدمها هذا الانجليزي المارق ، الذي تجري في عائلته تقاليد عريقة من العمل ضد حكومة بريطانيا ، ولكن جهود فيلبي المعروفة سواء في مقالاته وكتبه ومحاضراته المنشورة أو تقاريره السرية كلها لصالح ابن سعود ، من الهجوم على الأشراف ، الى التهوين من الخطر الوهابي على المصالح البريطانية ، الى انتقاد الحكومة العراقية ـ البريطانية لبنائها المخافر على الحدود ، وكانت الحكومة البريطانية تعتقد أن فيلبي يكمن بطريقة ما خلف كل المصاعب التي تواجه مفاوضاتهم مع ابن سعود . وأن مقالاته ودراساته حول منع معاهدة العقير لأقامة المخافر كانت السبب في اصرار الملك على هدمها ، الى حد

---

* انظر تقرير بولارد القنصل البريطاني في جدة .

** Pro. F.O. 686,118 Folio 30 Telegram No 45 November 1924

*** يلمح المانع لذلك في قوله « ولا أعرف ماذا كان يدور بين الملك وفيلبي في اجتماعاتهما على انفراد » ولكن التقارير المنشورة حديثا عن الأرشيف الامريكي تشير الى الدور الذي لعبه لحساب الملك لدى الامريكيين ضد البريطانيين .

أن « فؤاد حمزة » قال له ان حماسه الزائد لابن سعود ، يجعل الناس ، « يتهمونه بأنه يستر عمله في المخابرات البريطانية » ، وبصرف النظر عن فؤاد حمزة ، وهو قصة وحده ، الا أن الناس لم يعتادوا رؤية موظف بريطاني ، ينحاز بهذا الشكل لدولة عربية ، ولكن ابن سعود بالطبع حالة خاصة .

ولما نشبت الحرب العالمية ، حاول أن يدعم مركزه عند ابن سعود فطلب التعيين في المخابرات البريطانية ، ولكنهم رفضوا ، فشن حملة الدعاية المعروفة ضد بريطانيا حتى طلبت رسميا من ابن سعود اخراجه من السعودية ، وقام موظفوها بتفتيشه تفتيشا ذاتيا في جمرك البحرين ، في طريقه الى منفاه بالهند .. وقد أعطى الملك فيلبي ، ثمنه ، مرة في شكل السماح له بالتجوال في الصحراء ، حيث تتاح له الفرصة ليضم اسمه الى جانب المستكشفين الأوروبيين ، فلا يخرج من التاريخ مجرد وكيل سيارات فورد . ولكن رحلة فيلبي الى الحدود السعودية مع المحميات البريطانية فيما يعرف الآن باسم اليمن الجنوبية ، أدت الى انتزاع بريطانيا منطقة جديدة ، زعم فيلبي أنها أرض « سيب » لا مالك لها ، مما جعل موظف بريطاني يقول : « أعتقد ان فيلبي مفيد لنا »* .

وعلى الاثر حظر عليه الملك التجول في الصحراء ، ونذكر هنا حكاية انتباه الملك من اغفاءته في أواخر ايامه عندما سمع فيلبي يتحدث عن اعتزامه القيام برحلة في الصحراء ، فانتبه رجل الدولة في غفوة الجسد ليصيح : « لا ... لا ... » !

والصيغة الثانية التي دفع بها الملك لفيلبي ثمن « محبته » هي التوكيلات والأعمال التجارية ، حتى ليمكن القول بأن فيلبي هو الرائد في طابور « الوكلاء » والسماسرة الذين استفادوا من علاقاتهم السياسية في التجارة .

وكان أول اجراء اتخذه فيلبي فور عودته الى جدة بعد الفتح ، هو انشاء شركة جدة للتوكيلات ، وحصل على توكيل سيارات فورد في المملكة ، بعد أن استأجرته فورد ليقوم برحلة استعراضية باحدى سياراتها عبر الجزيرة ! وقد حقق دخلا ممتازا ، وان كان نحسه قد سيطر على معظم مشاريعه ، أو قل طمعه الذي جعله يحارب في أكثر من جبهة ، فلم يفز في احداها فوزا بارزا ، ولكن ما كان له أن يشكو فان أعلى مرتب وصل اليه في خدمة الامبراطورية هو ٢٥٠٠ جنيه في السنة !.. فاذا به يحصل على توكيلات وعقود من شق الطرق الى توريد خيام للجيش السعودي حتى أصبحت هناك خيمة خاصة اسمها « فيلبي » الى اللاسلكي الى السلاح .. الى بناء القصور . وكانت معظم ــ ان لم نقل كل توكيلاته ــ امريكية . فكان يمثل ستاندرد أويل اوف نيويورك ، وفورد ، وسينغر ، واطارات أمريكا الشمالية ، وفرانكلين .. وكلها امريكية .

والى جانب الخدمات السياسية والاعلامية التي قدمها فيلبي للملك ، فقد ساهم

---

* P.R.O.F.O. 371,20776
E 2152,206,91. Foreign office to Colonial office March 31st 1937
وقد ضمت بريطانيا ٧٠ ألف ميل مربع .

أيضا ، بطريقة ما ، في أكبر خدمة اقتصادية للسعودية وأكبر ضربة للمصالح البريطانية الاقتصادية ، بل والوجود السياسي البريطاني في المنطقة ، بالدور الذي لعبه في منح الامريكيين امتياز النفط السعودي .

وقد استخدمه الملك كما أشرنا في فتح حوار مع الامريكيين ، وفي التأثير على وزارة الخارجية الامريكية من خلال تقاريره للاعتراف بابن سعود . وقد كتب ـ على سبيل المثال ـ للقنصلية الأمريكية في عدن يقترح الاعتراف ويقول : « انني أعتقد ان مملكة الحجاز ونجد وجدت لتبقى وأنها ستمثل يوماً في العالم الاسلامي نفس المركز القيادي الذي كان لتركيا وتخلت عنه » .

أما مدى تأثير فيلبي على الملك والمحيطين به ، فقضية يمكن الاستنارة فيها بأقوال معاصريه .

قال فيلبي ان حافظ وهبة كان صديقه الوحيد من بين مستشاري الملك .. وقال حافظ وهبة : « مستر فيلبي او عبد الله فيلبي ، رجل غريب الاطوار وأكثر كتبه لا تخلو من الحط من أحد مرافقيه . وفي خريف ١٩٢٥ ـ ١٣٤٤ وفد على الحجاز من طريق رابغ ، فقابله الملك عبد العزيز في الشميس ، فكان كل هم فيلبي أن يعده الملك عبد العزيز بمساعدته في أعماله التجارية في المستقبل فوعده الملك بذلك ، وقد وفى جلالته بوعده ، بل تجاوز جلالته الوعد بتعصب جلالته لبعض مشروعات فيلبي . كما ساعده في تحمل جميع نفقات رحلاته في جزيرة العرب ، من رجال وابل وزاد . »

« كان فيلبي يذيع في بعض البيئات البريطانية التجارية ، أنه مستشار سياسي ومالي ، لابن سعود ، ولقد رددت على الصحف التي كانت تصف فيلبي بهذا الوصف . ففيلبي لم يكن الا تاجرا مستغلا عطف ابن سعود عليه ، لرواج سلعه ، واتساع تجارته ، ومع ذلك فان فيلبي لم يكن موفقا في أي مشروع تجاري كانت له يد فيه . ورحلاته خلقت لنا المشاكل مع الانجليز ، لقد كانت الجزيرة سعيدة حينما كانت مجهولة للعالم الأوروبي .

وعن كتابه « اليوبيل الذهبي » قال وهبة انه « يصدق عليه القول ، عدو عاقل خير من صديق جاهل » . وعلق على ما جاء فيه عن ويزمان وعرضه : « كبرت كلمة تخرج من فيك يا فيلبي ، ان الملك عبد العزيز قد خاف عليك يا أحمق ، من بطش الناس بك » « هل تظن يا فيلبي أن الملك عبد العزيز ضعيف الايمان مثلك ، فيساوم في دينه ووطنه . »

واعتبر وهبة هذا الزعم من فيلبي مجرد افتراء ، وصدق فيه القول : « اتق شر من أحسنت اليه » وهو يقصد لقاء فيلبي بويزمان ، الذي عرض عشرين مليون جنيه على ابن سعود مقابل قبول الوطن اليهودي في فلسطين . وقد ذكر فيلبي العرض في مجلس الملك فصرخ فيه اسكت !.. فكتب فيلبي ان الملك أراد كتمان الأمر بينهما .

وقد كذبت جميع المصادر السعودية ـ في حينه ـ أن يكون الاتصال بعلم الملك ، ورفض عبد العزيز دعوة أمريكية للاجتماع بويزمان ، لأنه أساء اليه بهذا العرض

المالي .

وقد زعم فيلبي أن الملك قال لمجلس مستشاريه : ان اجتماعاتنا هذه تشبه البرلمان ، مع فارق أنني أتكلم وحدي ، بينما تجلسون جميعا كأن على رؤوسكم الطير ، ما عدا فيلبي الذي يمثل المعارضة ، وأكد هذا القول محمد المانع عندما قال : « ان الملك كان يجد فيه ظاهرة مسلية لأنه وجده كان يعارض بعكس بقية المستشارين » .

ولم يحفظ لنا التاريخ كثيرا من معارضات فيلبي ، وان كان لدينا الكثير من معارضات وهبة مثلا ، الا أن الثابت أن الملك كان يصرخ فيه « اسكت » وكان يشك في نصائحه ، مثل قوله لجلسائه ساخرا متعجبا « فيلبي ينصحني بأن لا أعلم أولادي » ! ولم يكن محل ثقته ، ففي أكثر من مرة كان فيلبي يقتحم المجلس ، فيغير الملك ومستشاروه العرب ، الحديث ، الى أي موضوع يخطر على البال حتى ولو كان الاحتلام* ولعل أهم ما يقال عن مدى تأثير فيلبي على الملك هو الاشارة الى تقرير بريطاني قال : « انه يشكل ازعاجا غير ضار ، لأننا على قناعة بأن الملك وان كان يحبه ويعجب به ، الا أنه قل ما يأخذه على محمل الجد »** .

أما حكاية سب فيلبي لكل من رافقه في رحلاته ، ومرارته المتميزة ضد رئيس التشريفات ابراهيم بن جميعة ، فيرجع لعاملين : المناخ الاخواني المعادي ، ولأن فيلبي كان يحس أنهم رقباء عليه وليسوا مرافقين ! وقد اختلف فيلبي مرة واحدة في حياة الملك عبد العزيز ، مع سياسة المملكة ، وكان ذلك حول اليهود واسرائيل .. ولم تكن حكاية ويزمان هي البداية .

كما ظل يتخذ صورا شتى من ادعاء « دور الوسيط بين العرب واليهود » أو « وضع مشروع لحل مشكلة فلسطين » .. وقد جاهر بمخالفة سياسة المملكة ، عندما نشر مقالات في صحف أوروبا يدافع فيها عن تقسيم فلسطين صيف عام ١٩٣٧ ــ ١٣٥٦ مما « جعل الملك يطلب من سفارتيه في القاهرة ولندن اصدار بيان باسمه يؤكد فيه أن فيلبي لا يمثل سياسته ، وأن العلاقة معه هي شخصية وتجارية . وذلك في يوليو ١٩٣٧ ــ ١٣٥٦ » . ولكن فيلبي يحيرنا بتأييده لهتلر وتوقعه انتصاره في الحرب العالمية الثانية ؟!

وعندما طلب بن غوريون من حافظ وهبة أن ينظم له لقاء مع الملك عبد العزيز ، ورفض وهبة بالطبع ، احتج بن غوريون بأنه أي بن غوريون صديق فيلبي !..فهذا الفيلبي ، بريطاني ، نازي ، صهيوني ... يترجم القرآن بتكليف من الشربتلي ، ويحضر كحكم في مسابقة جمال لبنان بالكازينو !..

وعندما تغيرت الدنيا وحبست عنه العقود ، حاول أن يبتز السعودية ،

---

* قلب الجزيرة .

** P.R.O. F.O.,371,13010

E 484,484,91 — Jidda Report for December 1928.

اعلاميا ، فغير موقفه مائة وثمانين درجة ، من مشكلة « البوريمي » وبدأ يكتب سلسلة مقالات ضد السعودية بعنوان : « كشف الغطاء » ثمن المقال : خمسون جنيها . وكتب لزوجته أنه لن يتوقف الا اذا دفعوا له مليون جنيه . ولكن حسين العويني أقنعه بأقل من ذلك واصطحبه الى المملكة حيث يزعم أنه لم يحصل الا على عشرين الف ريال ، حوالي ١٨٥٠ جنيها انجليزيا أي اقل مما طلب بمبلغ : ٩٩٨١٥٠ جنيها فقط !!

ولذلك يجب التحفظ الشديد ازاء انتقادات فيلبي للمجتمع السعودي بعد النفط ، فهي لم تكن لوجه الله ، ولا خوفا على انهيار المجتمع القديم فهو الذي قال عن السعوديين عام ١٩١٨ ـ ١٣٣٦ وقبل النفط : « يجب أن نعرف أن غالبية السكان يقضون نصف يومهم في الصلاة ، ولا يمكن التعامل معهم ككائنات عاقلة ، فرؤياهم محدودة بشكل ميئس ، ونفوسهم مشربة بالتعصب »*.

* من تقرير فيلبي الى بغداد ٢٧ أغسطس ١٩١٨ ـ ذي القعدة ١٣٣٦ .

محمد أسد
الطريق إلى مكة
١٩٣٢ ـ ١٣٥١

وترجم إلى العربية بعنوان.
« الطريق الى الاسلام »
الطبعة الرابعة ١٩٧٦ ـ ١٣٩٧

محمد أسد أو « ليوبولد » أحد الذين جذبهم نور الحل الاسلامي إلى مملكة ابن سعود ، ولذا فهو أيضا أحد الذين شعروا بالحيرة وخيبة الأمل . لقصور التجربة ، فحملوا عبد العزيز مسئولية ذلك !

كان عبد العزيز يحبه ، ويثق باسلامه ، بعكس فيلبي الذي كان محل شك في جميع الأوساط ، وإن كان ديننا يأمرنا بقبول ما يعلنه الانسان ...

ولكن هذا « اليهودي » النمساوي ، الذي هجر العالم الغربي ، ولم يثبت ارتباطه بأية دولة ولا شركة ، كان يشغل بال المسئولين من حول عبد العزيز ، ولهم الحق ، بدليل الحلم الذي رآه الأمير سعود ...

فقد روى محمد أسد : « قال لي الامير سعود ضاحكا : لقد أبدى لي أحدهم بعض الشك فيك يامحمد ، إذ قال إنه يشك أنك جاسوس انجليزي وأنك تدعي الاسلام إدعاء . ولكن لا تقلق . لقد استطعت أن اؤكد له أنك مسلم بحق » . فقلت : « لقد كان هذا لطفا منك ، أيها الامير ، ولكن كيف قدرت أن تكون واثقا من صحة اسلامي الى هذا الحد ؟ أليس الله وحده هو الذي يعلم ما في القلوب ؟ » .

فأجاب الامير سعود : « هذا صحيح ، ولكنني في هذه الحالة بالذات قد أعطيت فراسة خاصة .. إن حلما رأيته في الأسبوع الماضي هو الذي أعطاني هذه الفراسة ، لقد رأيت نفسي واقفا أمام أحد المساجد ، أتطلع إلى مئذنته ، وفجأة ظهر في المئذنة رجل وأذن حتى أكمل الأذان وقال لا إله إلا الله ، وعندما أمعنت النظر في الرجل وجدت أنه أنت ، وعندما استيقظت أيقنت ، بالرغم من أنني ما شككت في ذلك قط ، أنك مسلم صحيح الاسلام ، ذلك أن الحلم الذي يذكر فيه اسم الله لا يمكن أن يكون غير صحيح » . وقد تدخل الملك عبد العزيز في الحديث مؤكداً صحة الاستدلال بالأحلام وسأل « محمد أسد إذا كان قد رأى حلما من هذا النوع فأجاب محمد أسد بأنه عندما

كان في التاسعة عشرة من عمره وهو في بيت والده في فيينا رأى نفسه في رحلة طويلة ونفق مظلم وتفاصيل عديدة أوردها ويمكن الرجوع اليها* ، وانتهت بركوبه على ظهر هجين خلف رجل يرتدي عباءة مخططه باللونين الابيض والبني ذات كمين قصيرين ، وكوفيته مسدلة على وجهه ، واستمرت الرحلة زمن الاحلام غير المحدود حتى وصل إلى باب يتدفق منه النور وصاح صائح : هذه مدينة أقصى الغرب » .

وهتف الملك عبد العزيز : « سبحان الله ! أولم ينبئك هذا الحلم بأنه كان مقدراً لك أن تعتنق الاسلام » ؟

واستمر ابن سعود يفسر حلم ليوبولد .. فالهجين هو الهداية « للضالين » والراكب هو رسول الله . فقد كان يحب ان يلبس عباءة ذات كمين قصيرين ، وهو يظهر في الحلم مغطي الوجه لمن لم يسلموا بعد .

فيتساءل محمد أسد : ولكن الاسلام لم يقدني إلى الغرب ، بل بعيداً عن الغرب ، وسكت ابن سعود قليلاً يبحث عن جواب لهذا المعضل ثم : « رفع رأسه وابتسم تلك الابتسامة العذبة التي احببتها وقال : « ألا يمكن أن تكون قد عنت يامحمد ، أن بلوغك الاسلام سيكون « أقصى نقطة في الغرب » في حياتك !

وهنا قص الملك بدوره قصة حلم رآه في الكويت وهو في السابعة عشرة من عمره ، عندما كان يلح على أبيه : « قاتل ، ياأبي ، واطرد آل الرشيد فان أحدا ليس أحق منك بعرش الرياض . ولكن والدي ، عليه رحمة الله ، كان لا يصغي إلى التماساتي الحارة وينعتها بالأوهام والتخيلات ، وكان يذكرني بأن محمد بن رشيد كان أقوى سلطان ، في بلاد العرب ، وأنه كان المسيطر على المملكة التي كانت ممتدة من صحراء سوريا في الشمال إلى رمال الربع الخالي في الجنوب ، وأن كل قبائل البدو كانت ترتجف هلعا أمام قبضته الحديدية » .

وفي العام الذي توفى فيه محمد بن رشيد رأى عبد العزيز حلما اطفأ فيه مصباح ابن رشيد ١٨٩٧ ـ ١٣١٥ .

« ومحمد أسد » هو صيحة رفض ضد الحضارة الغربية ، التي تعرت في الحرب العالمية الاولى وما أعقبها من أزمات ، وفراغ روحي ونفسي ، وانهيار لكل الثوابت ، عندما كانت الثروات تتجمع والمستعمرات تنهب ، والجوع يفتك بالطبقات الفقيرة وتكشف زيف كل ما ظل يقال لأكثر من قرنين عن الحرية والاخاء والمساواة والعلمانية فكشفت الحضارة المسيحية الغربية عن العداء الدفين لكل مخالف ، وخاصة اليهود .. وكان ليوبولد » من عائلة شديدة التمسك بيهوديتها ، وان كانت قليلة الايمان من ناحية الاب : ولان الدين ليهود أوروبا كان قضية « بقاء » فان ليوبولد أتم دراسة العبرانية وهو في الثالثة عشرة من عمره ، قراءة وكتابة وحديثا .. ودرس العهد القديم في الاصل ، « وأصبح نص التلمود وشروحه مألوفين لدي ، وأصبحت قادرا على أن

---

* في كتابه المذكور

أناقش الفروق بين تلمود بابل وتلمود القدس ، وانهمكت في شروح الكتاب المقدس المسماة « تارغوم » تماما كما لو كان مقدرا على أن أصبح حاخاما » .

ولكن ليوبولد تخطى اليهودية ، بفضل تعمقه في دراستها ، وفي عصر كانت شوفينية الآخرين تطحن « اليهود » كان الموقف العقلاني هو رفض شوفينية التلمود « خطر لي أن الله في التلمود والعهد القديم ، كان منشغل البال ، بصورة غريبة ، بمصائر أمة واحدة بعينها » . ولكن الوصول للاسلام لم يكن سهلا ، بسبب الموقف المتحيز للثقافة الغربية ، التي تحجب حقيقته ، حتى اكتشف هو الحقيقة من قراءاته وجولاته في العالم الاسلامي ، واستطاع أن ينفذ من قشرة التخلف التي تغلف المجتمع الاسلامي ، إلى روح الدين الانساني « القرآن بشموله وأنبيائه الذين لا حصر لهم » ولعل اخلص ملاحظاته التي تدل على قناعة راسخة ، أنه لاحظ في القدس أن العربي البدوي أقرب لاشخاص للتوراة في زمن ابراهيم وداود وجالوت من اليهود المعاصرين .

وهو كيهودي يمكن الحكم عليه من موقفه من اسرائيل ، وقد رأينا ان لورنس وفيلبي وكل الذين « تعربوا » في تلك السنوات ، بل وحتى أشهروا إسلامهم ، كان المحك الذي يكشف موقفهم هو تأييدهم لاسرائيل ، الا « محمد أسد » فقد رفض اسرائيل جملة وتفصيلا .

« إن فلسطين كانت بلدا عربيا أكثر منه يهوديا الى درجة بعيدة جداً .

« لقد شعرت منذ البداية أن فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين فكرة مصطنعة من أساسها . وأنها وهذا ما كان أدهى وأمر ، كانت تهدد بنقل جميع مشاكل الحياة الاوروبية وتعقيداتها غير القابلة للحل إلى بلد كان يمكن أن ينعم بقدر أكبر من السعادة بدونها . إن اليهود لم يكونوا — في الحق — يأتون إلى فلسطين كما يعود المرء إلى وطنه ، ولكنهم كانوا مصممين على قلبها وطنا يهوديا على النمط الاوروبي وذا أهداف يهودية . وبالاختصار كانوا أعداء داخل الاسوار . وهكذا فانني لم اجد أي خطأ أو جور في عزم العرب على مقاومة فكرة الوطن اليهودي في صميم بلادهم ، بل على العكس ، أدركت أن العرب هم الذين كانوا يخدعون ، وأنهم كانوا على حق بدفاعهم عن انفسهم ضد هذه الخديعة » .

ووصف وعد بلفور بأنه « مناورة سياسية ظالمة » « ورغم أنني من أصل يهودي ، فقد كنت أحمل منذ البداءة مقاومة شديدة للصهيونية » .

وله مناقشة ممتازة مع حاييم ويزمان حول : « وماذا عن العرب » يجب الرجوع إليها لمن أراد أن يتعرف على محمد أسد .. ولماذا اضطر للانزواء في جبال طنجه حيث يعيش الآن .

وقد قتل صديقه المعارض للصهيونية « برصاص الارهابيين الصهيونيين » ومن رفضه للصهيونية ، وعطفه على العرب ، حاول أن يفهم دين هؤلاء المقهورين .

ولنختصر القصة ، كانت الآية التي فجرت إيمانه هي « ألهكم التكاثر » ومن غرائب الصدف أن ينتهي به المطاف في الجزيرة العربية وأن يعمر حتى يرى « التكاثر » الذي

رفضه في المجتمع الصناعي الاوروبي ، يزحف على المجتمع العربي البدوي ، فيفر مرة أخرى من « التكاثر « ..

ومحمد أسد فسر حديث الدجال بأنها تكنولوجيا الغرب المضللة غير المؤمنة . فالدجال يتمتع بقدرات لا حد لها ولكنه أعور لا يرى إلا جانبا واحد من الحقيقة ، وقد أعجب هذا التفسير الشيخ بن بليهد .

وهو ضد الاعجاب بأتاتورك « كيف حدث أن أتاتورك ذلك الذي ينكر على الاسلام كل قيمه ، قد أصبح في نظركم أنتم المسلمين رمز الانبعاث الاسلامي » ؟! « كيف دفعتم النساء الى مؤخرة حياتكم ، مع أن النساء حول النبي وصحابته اشتركن ذلك الاشتراك الرائع الأخاذ في حياة رجالهن ، كيف حدث أن قليلاً منكم يعرفون مجرد القراءة والكتابة ، مع أن نبيكم أعلن أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

ورغم أن « محمد أسد » قد أكد أنه جاء للاسلام دون أية صورة خادعة عن حال المسلمين ، الا أنه عجز عن فهم القوى التي حاصرت تجربة عبد العزيز وفرضت عليها المسار الذي اتخذته .

وقد قابل الملك لأول مرة في مكة في أوائل عام ١٩٢٧ ـ ١٣٤٥ بعد أشهر قليلة من اعتناقه الاسلام ، رسميا ، لأنه كان مسلما عقليا قبل ذلك بسنوات ، كما اكتشف الامير الافغاني . وكان اللقاء بعد فاجعة « محمد أسد » في زوجته التي أحبها اكثر من أية انسانة ، ولعل هذا يفسر لنا ، لماذا آثره القلب الكبير ، وأستاذ كسب الرجال ، عبد العزيز ، بقصة حبه « لجوهرة » فهو يكاد يكون المرجع الوحيد لقصص حب ابن سعود لجوهره ، وأشعاره فيها ، واستلهام صورتها في الشدائد .. هل لأن جرح « محمد أسد » حرك أشجان عبد العزيز ، أو أراد عبد العزيز أن يخفف عنه .. أو للسببين معا ؟!

وقد أجاد عبد العزيز استخدامه في الدعاية في صحافة أوروبا الوسطي ، وخاصة خلال أزمة الاخوان ، كما أشرنا في فصل الاخوان ، كما قام بنقل رسائل بين زعماء السنوسية اللاجئين في السعودية ، والشهيد عمر المختار خلال السنوات الاخيرة من المقاومة الليبية ضد الطليان . وقد رددنا على انتقاده لابن سعود في مواضعه كما أخذنا عليه تحيزه ضد الاخوان .. وعجزة عن تفسير فشل التجربة ، فاختص عبد العزيز بالادانة ! .. رغم حبه الشديد له ، أو افتنانه به ... !

وكان محمد أسد كمعظم المستشرقين ، يحب أن تبقى الجزيرة في « عفة » التخلف والبدوي في « شموخ » الفقر ولذا كان يخشى ما سوف تجره سياسة الملك على البدو والحياة في السعودية ، بعدما سمع أنه « ينوي أن يفتح صدر بلاده « للفرنج » ، كيما يربح منهم الأموال . وأنه سيسمح لهم بالتنقيب عن الزيت في الاحساء ، وعن الذهب في الحجاز .. والله وحده يعلم ما سيجره هذا على البدو .. إن هذه البلاد لن تكون هي نفسها » .

« الجزيرة العربية تتوحد » Arabia Unified

صورة لابن سعود
A Portrait of Ibn Saud

محمد المانع
١٩٨٠ ـ ١٤٠٠

يمكن القول بأنه آخر كتاب صدر عن الملك عبد العزيز ، ومؤلفه عمل مترجما لدى الملك من عام ١٩٢٦ ـ ١٣٤٤ الى عام ١٩٣٥ ـ ١٣٥٤ . من مواليد الزبير ولكن والده كان أصلا من نجد وتربى محمد في الهند ورجع إلى البصرة فاشتغل في جريدة اسمها « بصرة تايمس » يديرها انجليزي وذلك بعد الاحتلال البريطاني طبعا . ثم فقد الوظيفة ، فقعد يصلي يطلب من الله عملا ، فدخل عليه « الملاك » في شكل ضيف أخبره بوجود اثنين من رجال البلاط السعودي هما عبد الله الدملوجي وحافظ وهبة ، فذهب لاجراء حديث صحفي معهما ، انتهى بترشيحه للعمل في الديوان وسافر إلى مكة في ٢٦ مايو ١٩٢٦ ـ ذو القعدة ١٣٤٥ ، وترك خدمة الملك بعد النفط ليعمل في أرامكو .

قال إنه ألف كتابه استجابة لطلب « أصدقائه » الانجليز الذين أبدوا ضيقهم من الكتب التي « يكتبها زوار لبلادنا يقضون فيها أقل من اسبوعين ، ثم يعينون أنفسهم خبراء في شئوننا .. وقالوا إنهم بحاجة إلى كتاب بقلم وطني باللغة الانجليزية . وقد اعتذر بأنه ترك البلاد منذ اكثر من أربعين سنة ولذلك فان ذاكرته لم تعد كما كانت ولكنه أراد بكتابه هذا أن يسد الثغرات في تاريخ السعودية وخاصة عن الاخوان ، ويبدو أن مسألة الذاكرة فيها شك ، فقد أورد روايات مخالفة تماما لكل ما أجمع عليه المؤرخون ، وقد أشرنا الى ذلك في موضعه أما في وقائع اخرى تعتبر أكثر من مشهورة فاننا نثبت هنا خطأ المؤلف الى حد يشكك كثيرا في بقية مارواه ..

ـ جعل الشريف حسين تنازل في جدة بعد بدء حصارها . والشريف تنازل في مكة وقبل الحصار .

ـ وزعم انه هرب إلى العقبة ومن هناك « ذهب » الى قبرص . والحقيقة أنه حمل حملا إلى قبرص .

ـ جعل الشريف حسين هو الذي أسر سعد بن عبد الرحمن والحقيقة أنه تسلمه من الذين أسروه .

ـ جعل عبد العزيز هو الذي قال عن أمير الرياض « أرنبة محجرة » والعكس

صحيح .

ـ نسى الزيارة الرسمية الوحيدة التي قام بها الملك عبد العزيز وهي زيارته إلى مصر عام ١٩٤٦ ـ ١٣٦٥ . فعدد زيارات الملك هكذا « قام الملك بثلاث رحلات للخارج خلال حياته . واحدة للبصرة عام ١٩١٦ ـ ١٣٣٤ ، بدعوة من البريطانيين والثانية للكويت والبحرين بعد اجتماعه بالملك فيصل في الخليج سنة ١٩٣٠ ـ ١٣٤٩ . وفي النهاية زيارة لمصر لمقابلة روزفلت وتشرشل وفاروق سنة ١٩٤٥ ـ ١٣٦٤ » .

ـ فسر إلغاء حملة ابن رشيد عام ١٩١٩ ـ ١٣٣٧ ، بأنها بسبب تغيب فيلبي عن الرياض ! فلم يكن لبريطانيا ممثل يجري الترتيبات اللازمة فلم يصل السلاح ، وعندما وصل ممثل بريطاني آخر بدلا من فيلبي كان الأتراك قد هزموا ، ولم يعد الانجليز بحاجة الى مساعدة من نجد » .

ومعروف أن فيلبي كان في الرياض وهو الذي تلقى شخصيا خبر إلغاء صفقة السلاح . ولم نسمع عن ممثل لبريطانيا جاء بعد فيلبي ! ..

ـ معرفته المحدودة بالقرآن رغم أنه قد حرص على تحلية كل فصل من فصول الكتاب بآية قرآنية بالعربية والانجليزية ! .. وبدأ الكتاب بتلبية الحج ووصفها بأنها « صلاة كل مسلم » ! على وزن صلاة المسيحيين : « أبانا الذي .. » !! وترجم « في بضع سنين » « within ten years » ...

ويبدو أنه لم يسمع بآية المحرمات من النساء ، ولا عرف أن زواج الاخت من الرضاع محرم .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

« حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم **وأخواتكم من الرضاعة** »* .

أما المؤلف فجعلها عادة عربية : « في المجتمع العربي يعتبر الطفلين اللذين رضعا من أم واحدة كأخ وأخت ولا يمكنهما التزاوج » !

وهذا من عيوب ترك البلاد أربعين سنة !

* سورة النساء .

صقر الجزيرة
أحمد عبد الغفور عطار

في مجلدين
الطبعة الأولى : ١٩٤٦ ــ ١٣٦٥
الطبعة الخامسة : ١٩٧٩ ــ ١٣٩٩

اذا كان الكاتب الغزير الانتاج ، المتعدد الاختصاصات ، الأستاذ « أحمد عبد الغفور عطار » لم يفز في كتابه هذا بصفة المؤرخ ، اذ جاء كتابه بلا مراجع ولا أسانيد ، ولا مصادر حتى للنصوص التي اهتم بوضعها بين مزدوجتين ، ولا اشارة للمصادر التي اقتبس منها ، بل عاملها كلها ، كأنها فولكلور مباح الاقتباس والنقل . واذا كان عطار قد غلب عليه « لؤم الحرفة » فخاض كل معارك الاعلام السعودي ، فغوى مع غزية ، ما غوت ، ليس في الحاضر فحسب ، بل وسحب ذلك على الماضي ، فجعل خصوم هذا الاعلام في الخمسينات والستينات من هذا القرن ، هم خصوم النظام السعودي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر !.. مما أفقد كتابه أية موضوعية أو جدية ، الا أنه تميز بميزة واحدة ، هي الاخلاص للأشراف الذين ولد في ظل دولتهم ، وأشرب حبهم ، وكان لديه من الشجاعة ما جعله يتجسر ــ في كل مناسبة ــ على زوال ملكهم في الحجاز ، وذلك في سفره هذا الذي طبع خمس مرات في دولة السعوديين ، الذين أزالوا هذا الملك !

ووجهة نظر عطار هي أن الحرب بين عبد العزيز والأشراف لم يكن لها ما يبررها ، وأنها نتيجة أخطاء لو أمكن تجنبها ، لما أصاب العرب والمسلمين « ما أصابهم » وما « يعانون منه الى اليوم » ! وهو يعني بتلك ، المصيبة التي يعاني منها العرب ، الى اليوم : استيلاء السعوديين على الحجاز واقامة المملكة العربية السعودية !!..

ويمكن أن نلخص رأيه في فقرة واحدة ، يصعب أن نصدق صدورها من مؤرخ سعودي :

انتقد العطار موقف الحزب الوطني الحجازي في مطالبته بتنازل الحسين عن العرش بعد هزيمة الطائف وقال : « وقد ظن الحزب أن تنازل الحسين ومغادرته البلاد يجعلان

الطريق سهلا الى ابن سعود ، وحينئذ يمكن التفاهم معه ، فيأمر بجلاء قواته التي احتلت مفاتيح الحجاز ومكة . ولكن الحزب كان خاطئا فيما ذهب اليه ، وكل ما عمله الحزب كان هدما لآماله ودفعا بالحجاز كله الى يد ابن سعود في زمن قصير وبثمن بخس » !!

ثمن بخس ؟!

لا والله !.. بل بكفاح ودم وعرق سبعة أجيال سعودية !!

ويعود فيكرر نفس النقد لاجبار الحسين على التنازل عن العرش فيقول :

« على أي حال ، لقد نزل الحسين عن العرش ، وتسلمه منه ابنه الملك علي ، الذي كانت الظروف كلها ضده ، ومن كانوا معه من المسئولين الحجازيين لم يكونوا — ولن يكونوا — في مستوى خصمهم ابن سعود في قوة الشخصية وبعد النظر والدهاء والبراعة السياسية مما جعله المتفرد المسيطر . ومن هذه السيطرة أن الحزب الوطني الحجازي كان واقعا تحت سلطان شخصية ابن سعود القوية فأجبر الحسين العظيم القوي ، على النزول ليتسلم اعضاؤه الحكم وهم ليسوا أهلا له » .

والحقيقة ان « الملك علي » أثبت قدرة على البقاء اكثر من أبيه الحسين وليس كما يقول .

ولكن يبدو أن تنازل الحسين قد ترك جرحا في قلب العطار لا يندمل ، فهو لا يفتأ ينهال بالتقريع والشماتة في من أجبروه على التنازل ، جاعلا تنازله هو سبب انتصار ابن سعود !:

« يجب أن نقول كلمة للتاريخ : هل أخطأ الحزب الوطني أو أصاب في طلب تنازل الحسين ؟ أما أنا فأرى أنه أخطأ في ذلك ، فقد أثر تنازله في نفسية الجيش الهاشمي فانتحر أقوى أمل يهجس في قلبه ، كما قضى على روحه المعنوية بسقوط الشرفاء ، فهم كانوا أعون بعملهم هذا لخصومهم لا لأنصارهم . وقد خدم الحظ ابن سعود خدمة مرموقة ، فقد تنازل الحسين ، قبل أن يقوم ابن سعود من مقامه بالرياض تحت اجبار الحزب اياه ، وهذا نصر مؤزر يحرزه ولكن على يد خصومه » .

وهو تفسير خاطيء نرفضه ، وسرد غير صحيح للوقائع التي تكذبه ..

الحسين سقط بافناء جيشه في موقعتي الطائف والهدى ، وصحيح قبل أن يقوم ابن سعود من مقامه في الرياض ، ولكن ذلك السقوط لم يحدث على يد الحزب اياه ، بل حزب الله الذي هزم الحسين قبل ٥ سنوات من ظهور الحزب الحجازي ! ولماذا يفترض عطار أن الحزب اياه نادم على ما حصل ؟ وكل رجاله خدموا ابن سعود ، فيما بعد ، واعترفوا بأن حكمه أفضل للحجاز وشاركهم في هذا الاقرار كل من حارب ابن سعود عن قناعة الا عطار !

يقول « كان للحسين نفوذ وكلمة مسموعة عند الدول ، وكان له بين عظماء الانكليز أصدقاء ، فلو بقى في الملك واتصل بغير القناصل الموجودين كالمندوب السامي في مصر

مثلا لاستطاع مساجلة الخصوم* الانتصار ولكن علي لادالة له على دولة أو على أحد الا بأبيه » .

ولا أدرى ما هو وجه الأسف والتقريع ، لموقف الحزب الوطني الذي جنب الحجاز ، والجزيرة ، خطر الاستعانة بالمندوب السامي البريطاني ! وان كان التاريخ يؤكد أن كل مساعي الحسين لاستخدام دالته على الانجليز قد فشلت ومنها اتصالات وكيله في مصر بالمندوب السامي ، فقناصل بريطانيا في جدة لم تكن لهم سياسة خاصة !

ولكن العطار يستمر في تقريع الذين خلعوا الحسين وسلموا الحجاز « للخصوم » بثمن بخس فيتساءل : « ثم ما النفع الذي حصلوا عليه باكراه الحسين على النزول عن العرش ؟.. لا شيء غير المزيد من الخسائر والهزائم » .. « ويتهم » الحزب بأنه أراد « الوفاق مع **الغزاة** ؟! »

والعطار معذور ، فهو رغم تنعمه في ظل الدولة السعودية ، وتفانيه ، بل وأحيانا حدته في خوض معارك النظام السعودي ، المعاصرة ، الا أن ذكريات الطفولة يصعب نسيانها ، والعطار قضى فترة عصيبة ، خلال فتح جيش ابن سعود للحجاز فهو يقول ان « خاله تلظى بفاجعة الطائف » .

وجاء اليهم يحمل رعب اللاجئين ، ينصحهم بالهرب من جيش التتار ؛ « فاكترينا حمرا » ومشى الشبان ، أما نحن الأطفال فقد ركبنا من حسن حظنا ، ورحلنا في الصباح ، وكان طريق جدة كالمحشر ، أطفال ونساء ورجال وصبيان يحملون الطعام والنقود وما غلا ثمنه وخف وزنا ، وكلهم يغذ السير الى جدة .

« وصلنا الشميسي فسمعنا أن الاخوان دخلوا مكة ، وكان ذلك في ٩ ربيع الأول سنة ١٣٤٢ ونهبوها ، وها هم أولاء يتعقبون الفارين فشددنا الرحيل الى بحرة ، فسمعنا الاشاعات بأن « المدينة » السعوديين نهبوا الشميسي وهم سائرون الينا ، فنهضنا الى « أم السلم » ووجدنا جوها مزدحما بالاشاعات أيضا . فلم ننزل بها وواصلنا السير حتى بلغنا جدة في منتصف الليل ، غير أن الاشاعات كالبرق في السرعة فقد سبقتنا اليها فسمعنا بفظائع الاخوان وقضينا أياما في قلق واضطراب حتى جاءنا كتاب من أبي **يبشرنا** بأن الاخوان لم يدخلوا مكة . فرجعت أنا وأحد اخوتي الى أبي لأنه رغب أن نكون معه ، ووجدنا مكة كالمقبرة في الصمت الرهيب ، والسكون الشامل . ولم تطمئن مكة المكرمة بعد معارك الطائف والهدى ، بل كانت قلقة تطحنها الآلام ! فهي تنتظر **البلاء والفاجعة** بين الفينة والفينة مستسلمة للقضاء والقدر » .

فلا لوم على من عاش تلك المشاعر في صباه أن يستمر أسفه لانتصار « الاخوان » حتى في شيخوخته .. فيثبت هذه الواقعة بمثل هذا التحيز :

وكان بعض الأعراب** من الغطغط في الأسواق يسألون أهل مكة : أين بيت « أبي

---

* يقصد هنا بالخصوم السعوديين !

** يقصد « الاخوان » من هجرة الغطغط الشهيرة جيش ابن سعود !

خيشة » ولكن المكيين لا يعرفون أحدا يكنى هذه الكنية ، وأخيرا عرفوا أن هؤلاء الأجلاف سموا الحسين « أبا خيشة » ولكنهم أجلاف وكفى » !

الوفاء حلو ! واحترام الملك حسين من قبل « رعاياه » مقبول ، ولكن التطرف الى حد وصف جيش السعوديين موحد الجزيرة بانهم « أجلاف وكفى » وتكرار ذلك فهو كثير .. وكفى !..

من حق العطار أن يزين كتابه بصورة الملك حسين بن على ويكتب تحتها « مفجر الثورة العربية الكبرى الملك الحسين بن علي » .

ومن حقه أن يقول ان الشريف استفتح عهده « بأخلاق السلف الصالح وكان هو نفسه عالما جليلا ، وذا خلق عظيم ، وذكاء خارق ، ورغبة صادقة في الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل كان يحكم بهما ، وكان شديد التواضع ، ولين الجانب ، بعيدا عن التكبر والترف ، ويعيش في بيته عيشة أهل التقوى والصلاح ، وكانت مائدته متواضعة كنفسه . »

ولكن ليس من حقه كمؤرخ أن يقول « وما كان الحسين ـ رحمه الله ـ يضمر لآل سعود شرا كأسلافه » .

فالحقائق التي أجمع عليها المؤرخون والمعاصرون تنفي ذلك تماما ، وقد اعترف الملك فيصل بن الحسين في مجال الاعتذار عن عداوتهم لابن سعود ، بأنهم اتخذوا هذا الموقف منذ لحظة وصولهم للحجاز وان زعم أن ذلك كان بناء على نصيحة خالد بن لؤى !.

بل العطار نفسه شهد بتأصل العداوة ، في موقع آخر من كتابه ، في غمرة أساه على خطيئة الحزب الوطني باجبار الحسين على التنازل ، ينسى ما قاله عن الشر واضماره في صفحة ٥٨٠ من المجلد الأول ، فاذا به يقول في المجلد الثاني « فالأسرتان في تنافس وخصومه وحرب منذ بدء الدعوة الوهابية حتى يومهم ذلك ، وما تنطفىء نارها بل يشعلها الزمن » .

ذلك أن كتاب العطار ليس تاريخا ، ولا حتى كتابا ، بل مجموعة مقالات كل منها وضعت لتناسب موقفا خاصا ، ومن ثم لها منطقها و « حقائقها » التى تلائم ظروف كتابتها ، فليس العجب تناقضها وتعارضها .. بل العجب ألا يكون ذلك !

وليس من حق عطار أن يقول :

« وكاد النصر يحالف الجيش الهاشمي ، لولا أن البدو الذين كانوا معه في الصفوف الأمامية ، **خانوا** وانضموا الى الاخوان ، حتى اضطر الجيش النظامي المدافع الى التقهقر ، ليقف عند أسوار الطائف يدافع باستبسال وحماسة واستماتة » ! بل ويدعي أنه لولا الليل « لانتصر جيش الأمير على بن الحسين في موقعة الهدى » !

وهو كلام لا يوجد له سند في أي مصدر ، بل المتواتر الثابت أن اعصار الاخوان اجتاح تلك الخشب المسندة ، أو الخليط الذي بلا رابط ولا عقيدة ، ففروا كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة !

وتأمل وصفه لدخول الاخوان الطائف : « وانتهز **الذؤبان الآدميون الضراة** فقدان السلطة من البلدة وانتشار الاضطراب فيها فراحوا يقضون الليل **في السلب والنهب والقتل ، فلا رادع من دين أو ضمير أو سلطان** ، وهاجموا البيوت وحطموا الأبواب ودخلوا على الأبرياء ومزقوهم بالسيف وأطلقوا عليهم الرصاص ، واستلبوا كل ما وجدوا من غال ورخيص » « ودخل سلطان الدين ـ أي سلطان بن بجاد ـ البلدة وأخلاها من المدنيين ، وحشرهم كلهم في حدائق شبرا وقصرها العتيد ، وكان النساء سافرات لأول مرة في هذه البلاد وكن مع الرجال ... » « ونهب سلطان ومن معه كل ما في البدة المنكوبة » .

وبعد هذه الصورة الدامية ، يتفضل فيقول « وأنا كمؤرخ أبرىء ابن سعود من مسئولية مذبحة الطائف » !..

ليتها لم تزن ولم تتصدق ! فقد جرد جيش ابن سعود من أي التزام عقائدي أو منهجية اسلامية ..

ومن حق العطار أن يغضب على الملك فؤاد ، والزعيم المصري سعد زغلول ، لأنهما رفضا اعطاء الملك حسين حق اللجوء الى مصر ، وهو موقف اتخذ مجاملة ومراعاة ، وتعبيرا عن التأييد للسعوديين ، أو حتى استجابة لنصيحة بريطانية للملك فؤاد ، أو كما قال العطار « لأن الملك فؤاد كان يحلم بمجد الحسين ، بالخلافة التى بويع بها الحسين » !..

ضعف الطالب والمطلوب ..

أما التجاوز والاستجابة غير المعقولة للعاطفة ، فهو في تفسير موقف سعد باشا ، بأنه رفض استضافة الحسين ، لأن « سعد زغلول ، كان « ملحدا* » رقيق الدين ولهذا أبى أن يسمح للحسين بالاقامة في مصر ، لأن الحسين من أكبر الشخصيات الاسلامية ، بل كان في عصره أكبر شخصية اسلامية على الاطلاق** » !...

رمي سعد باشا بالالحاد لأنه رفض لجوء كبير المسلمين ، تهمة كبيرة ، وتفسير شديد الأفتراء ، وقد رفض ولدا الحسين ايواءه ، في ظل عرشيهما في بغداد وعمان !.. وخاف الانجليز من اقامته في العقبة .

ولو كان سعد زغلول يخشى تأثير « اسلاميته » لما حرص على استقبال الأمير « سعود » والظهور معه في الصور ، والاحتفاء به ، على نحو شهد جميع المؤرخين المعاصرين ، بأنه كان فوق أي توقع ، والذي لا يخاف ولا يكره اسلام ابن سعود ، لا يتوجس من اسلام الشريف !

وهذا التجني على سعود زغلول يفسره ، الى جانب الحماسة للحسين ، أن سب مصر

---

* الأقواس من العطار ـ ولا ندري كيف يكون المرء ملحدا ورقيق الدين ، الا اذا جاز القول عن مؤرخ أنه « هاشمي رقيق السعودية » !

** لا .. ابن سعود كان أكبر بشهادة الجميع .. في لحظة سقوط الحسين وطلبه اللجوء على الأقل !

وزعماء مصر وتاريخ مصر ، كان في تصور بعض الكتاب ، هو الاتجاه المطلوب في الستينات ! وقد انعكس هذا التصور في حملته « الاقليمية » على حافظ وهبة المستشار « المصري » لابن سعود ، والذي استحق رضا وثناء ابن سعود أكثر من مرة ، وفي أكثر من وثيقة . والذي تجمع كل المصادر على اخلاصه ، وتفانيه في خدمة مولاه ، وان كان في نفس الوقت له أخطاؤه . كما أن بعض رواياته ، تبدو مستحيلة الوقوع ، وهي في الحقيقة مستحيلة الفهم ، لأن جيل التحول التاريخي ، له مقاييسه الخاصة ، وتعامله الخاص ، فابن وهبة عندما يكتب أنه رد على ابن سعود ، أو رفض له رأيا ، يستحيل على العطار فهم ذلك أو قبوله .. بسبب الفارق بين الجيلين والمناخين ، وبسبب الفارق بين الشخصيتين ، من ناحية التكوين ، والعلاقة النفسية مع النظام . وبعض المؤرخين يرتعدون ، الآن ، رعبا ، وهم يقرأون كلمات ابن بجاد أو خالد بن لؤى لعبد العزيز آل سعود . ولكنها في عصرهم كانت مقبولة ، بل كانت شرط نجاح الثورة ، وتوفر ذلك المناخ الصحي الذي تنبت وتزدهر فيه العظمة ، وينمو العمالقة .. وينجزون المستحيل .

وستجد هذا الذهول في الأجيال التالية ، في كل مراحل التاريخ الحاسمة ، ألم يسأل التابعي الصحابي « أكنتم تردون على رسول الله القول » ؟!.. فيرد الصحابي مندهشا أكثر من السائل : « بلى والله .. وكان يسمع لنا » !

والقياس مع الفارق . ولكن لنا في رسول الله قدوة حسنة .

ومن الطبيعي في مثل بلاط عبد العزيز ، ألا يكون هناك مستشار واحد يعرف كل الحقائق ، ومن عظمة القائد القدرة على توزيع الأدوار بين أعوانه ، وتكاملهم . ولذلك من الممكن أن يعرف المستشار جزئية واحدة ، ومن ثم يبني عليها حكما ويستخرج نتائجه ، ويكون صادقا ، ولكنه مخطىء في نفس الوقت . وكان عبد العزيز يستمزج رأي وهبة ويستخرج معلوماته عن موقف الانجليز ، بطرح السؤال في شكل شكوك ومخاوف ، مما جعل وهبة يتصور أنه هو الذي يشجع الملك على فتح الحجاز !. ونقطة الخطأ في فهم وهبة ، هي تحديد موقف ابن سعود من الحجاز ، هل كان مصمما على فتحه وتوحيده أم حدث ذلك مصادفة أو حتى رغما عنه ؟ وهنا لا نرى فرقا بين موقف وهبة ، وموقف العطار ، بل العطار يمضي أبعد في الخطأ ، فيزعم أن فتح الحجاز لم يكن على بال ابن سعود أو مخططه : « ولم يكن في برنامج ابن سعود احتلال مكة حرسها الله ، بل لم يكن في ذهنه فكرة غزو الحجاز وانتزاع حكمه من الحسين » .

ان صح هذا الزعم ، فان ادعاء وهبة له ما يبرره ، ومن ثم فهو لا يستحق كل هذا التقريع ..ووهبة لم يصل الى مثل هذا الزعم بل قال ان الملك كان متخوفا من احتمالات التدخل البريطاني .

ولا تناقض بين ما قاله وهبة عام ١٩٣٥ ــ ١٣٥٤ في كتابه « جزيرة العرب » وبين ما قاله في الستينات في كتابه « خمسون عاما في جزيرة العرب » . بالعكس قالها حافظ وهبة في كتابه الأول بكل وضوح ، وفي حياة الملك الذي يرتعد الجبابرة من الكذب عليه ، وما عرفنا أنه أنكر عليه قوله ، ولا كلف أحداً بتصحيح قوله .. ولكن وهبة قالها بحدود

الأدب اللائق ، والتواضع المفروض في موظف مازال في الخدمة .

وقد نقل العطار عن كتاب وهبة الأول ما ظن أنه يثبت افتراءه في الثاني وهو غير صحيح ، فقد ذكر وهبة أن السلطان « لم يصغ الى ما أشار به مستشاروه من الهجوم على الحجاز » « ثم قنع أخيرا بفكرة الهجوم على الطائف والاستيلاء عليه فقط ليساوم الملك حسينا عليه » « لقد كنت موقنا بأن الاخوان سيتغلبون على قوة الشريف وموقنا بأن انكلترا ستقف على الحياد . » وقال وهبة فيما نقله عنه العطار « وكان الملك (عبد العزيز) يساوره بعض القلق » من موقف الدول ولذلك استبشر بمذكرة القناصل عن الحياد .

حافظ وهبة اذن عرض الموقف كاملا .. في كتابه عام ١٩٣٥ ــ ١٣٥٤ ، ولكن التواضع يغدو بلا معنى عندما يتحول الموظف الى مؤرخ يختم حياته ، وبعدما مات « سليمان » فان الجن ينطلقون ولو في الحديث ، قال وهبة نفس الشيء ولكن بتوسع وتفاصيل تثير الغيظ حقا ، ولكن لا يمكن وصفها بالكذب والادعاء .. أو أن يعلق عليها العطار الذي كان وقتها يهرب من مدينة الى مدينة خوفا من « الأجلاف » جيش ابن سعود الذي كان وهبة أبرز المسئولين السياسيين فيه ، بدليل تعيينه في مكة ، واشرافه على الاتصالات الخارجية . يقول العطار : « ومن المؤسف أن يدعي حافظ وهبة أمجاد ابن سعود بعد موته ، ويسلبه مفاخره وعبقريته ليبدو عبقريا وما هو بشيء من ذلك فنحن نعرف طاقته وثقافته وعلمه ، وكلنا نعرف أنه « جامد » الذهن !. »

ولا ندري أيهما افضل الذهن الجامد أم السائل ؟! وان صح ما نقله عن يوسف ياسين بان مستشاري عبد العزيز لم يكونوا أكثر من « بوسطجية » فهو قول لا يشرف عبد العزيز ، ولا شأن لنا بقائله .. فعبد العزيز ما كان بالذي يستعين بالبوسطجية .. وان فعل غيره ..

أما قوله بأن « حافظ وهبة لا يذكر مع يوسف ياسين ، ولا فؤاد حمزة ، ولا يأتي معهما في صف واحد ، بل يتخلف عنهما كثيرا ، ويزداد فضلهما ، أنهما صادقان وهو مدع وغير صادق » .

فالرد عليه هو : « لك يا منازل في القلوب منازل » !

لقد حللنا موقف الملك ووهبة ، في غير هذا الموضع ، ولكن نعود لحديث الاقليمية ، فنرى « العطار » يعير حافظ وهبة بمصريته فيقول : كان حمزة غوث يتكلم بصفة كونه سعوديا خالصا ، أما حافظ وهبة فكان يتكلم بصفة كونه مصريا يعمل في بلاط ابن سعود ، ولم يكن السيد حمزة راضيا عن « ازدواج » حافظ ، وهذا سبب الخلاف الأساسي الذي تفرعت منه ضروب أخر من الخلاف الذي حقد حافظ بسببه على السيد حمزة غوث » . أما النصوص التي استدل بها العطار على « مصرية » وهبة وازدواج ولائه ، فهي تشهد بعبقرية القائل : اذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود .. فهي : « يقول حافظ وهبة في كتابه خمسون عاما في « الجزيرة العربية » صبحة ٨٤ ــ ٨٥ ــ ما نصه ــ والكلام موجه من حافظ للسير جلبرت كلايتون في

مفاوضات بحرة : « أنا مصري كما تعلم ، وأنتم محتلون لبلادنا ، ومن واجب كل مصري التخلص من احتلالكم » . ويقول : « أنا في مصر وطني قد أكون متطرفا أو معتدلا ، أما هنا فأنا أمين على ما يكله الى الملك عبد العزيز ، لا أنظر الا لمصلحته فقط ، وأن مصلحته تقضي أن يكون صديقا لكم ، فأنتم محيطون به من كل جانب » .

ما الخطأ في ذلك ؟! انه قمة الاخلاص لسيده ..

وحافظ وهبة هو المستشار العربي الوحيد الذي وقف الى جانب ابن سعود ، ضد حكومته ، حتى وان قيل ان معظم المستشارين الآخرين لم تكن لهم حكومة ، ومن ثم لم يمتحنوا فهذا لا ينقص من قدر الذي امتحن وصبر . ومع شديد الاحترام للسيد « حمزة غوث » الذي نفتقر بشدة الى معلومات عنه ، الا أننا نقول بكل ثقة انه مع « سعوديته الخالصة » لم ولن يكون له في تاريخ السعودية ، ما كان لحافظ وهبة « المزدوج » ، والذي لن يستطيع مادح له أو قادح فيه أن يقول فوق ما قاله ابن سعود ، أو يقلل من شأن ما قال : « أنت محل الروح » !.. ولو لم يكن في تاريخه الا أن عبد العزيز وضعه « محل الروح » لكفاه !..

ان حافظ وهبة وغيره من المصريين الذين أتيحت لهم فرصة لبس العقـال والدشداشة ، وحمل الجواز السعودي ، لم يفكر أحدهم في استثمار الجنسيـة السعودية . بينما فعل من هو أقل مكانة عند عبد العزيز ، حتى أصبح أولادهم أغنى من بعض أبناء عبد العزيز ، ولكني لا أظن أن وهبة قد اشترى أرضا ، أو جاء بعقد ، ولا أعرف مليونيرا أو ملياديرا يعيث فسادا في أوروبا وامريكا اسمه آل وهبة !

على أية حال ، ان هذه الدعوة الاقليمية ، باحصاء من كان سعوديا خالصا ، ومن لم يكن ، هي دعوة لا تصدر عادة ، الا من سعودي غير خالص* !

لقد كان من عظمة ابن سعود ، أنه أول وآخر ملك عربي أحاط نفسه بمستشارين من كل شعوب الأمة العربية ، ولم يفرق أبدا بين عربي وعربي ، والحمد لله أن توفاه الله قبل أن يرى كتاب دولته يعيرون مستشاريه بجنسياتهم .

وأظرف ما كتبه عطار في الحملة على وهبة هو سؤاله : « ان كان وهبة عبقريا ، فأين ذهبت عبقريته بعد موت ابن سعود » ؟!

وهو سؤال معجز .. قد يلجئنا للاستعانة برد الامام علي ولكن بمفهوم المخالفة !

وانظر كيف تفسد البراغيث ، ما زرعته المردة ! في تعليق عطار على واحد من أنبل واشجع مواقف النخوة العربية ، وأعني قبول لجوء رشيد عالي الكيلاني ضد ارادة بريطانيا العظمى ، وحكومة العراق ، ورغم تهمة التعاون مع المحور ، وطلب محاكمته كمجرم حرب .. الخ انظر كيف يشوهها عطار بالمن والحسد ، والتركيز على أتفه جانب

---

* ونحن آخر من يخوض في الأصول والانساب ، مع شديد اعتزازنا بأصولنا وأنسابنا ، لأن ديننا ينهى عن ذلك ، ولكن باعتبارها سيرة وانفتحت ، يلزم القول بأن عطاراً هندي الأصل ، ومن أمثلة الحجاز : احذر الهندي اذا استعرب .

في الموضوع !

يقول ان الملك قرر لرشيد عالي الكيلاني : « مرتبا ضخما ، ومنحه خدما وحشما ، وعاش في مستوى أعلى مما يعيشه من هو أكبر منه* في العراق » . « وبقى في القاهرة أربع سنوات وهو يعيش على فضل ابن سعود وبره » الفضل لله .. ولابن سعود الذي لو قرأ هذا الكلام لأدب صاحبه ، والحمد لله أنه لم يصدر من أي سعودي ، والا لقيل : صدقة يتبعها أذى !

ولا أظن أن ابن سعود كان يرضيه ، ولا التاريخ العربي ، يشرفه أن يقال ان سبب انشقاق الحركة التونسية بين بورقيبة وصالح بن يوسف ، هو الذهب السعودي !.. أو الخلاف على توزيع عشرة آلاف جنيه ، أعطاها ابن سعود للحركة الوطنية التونسية ، فاقترح ابن يوسف تقسيمها على : « أقطاب الحركة ليصلحوا بها حالهم » بينما رفض بورقيبة ، وقرر الاحتفاظ بالمبلغ للحركة ، لأن مال ابن سعود « بركة » . « ومن هنا بدأ الخلاف بين صالح بن يوسف والحبيب بورقيبة ، حتى انتهى الى ما تعلمون » .

ان كان المصمودي قد قال ذلك للعطار ، فقد عاقبه الله بذنب بن يوسف ، اذ لقى من سيده نفس الجزاء** .

وأخيرا فقد أعطى العطار للأجيال درسا في التواضع ، وسعة المعرفة ، من خلال تأكيد سعوديته .. قال لا فض فوه ..

« كنت في ١٣٥٩ (١٩٣٩) بمجلس (ابن سعود) العامر بمكة المكرمة حرسها الله ، وسأل سؤال من يريد أن يتعلم (!!) وقال يا اخوان أريد أن افهم ما الشيوعية ؟ فتحدث سوري وأطال وأمل . ولم يكن على علم بها كما فهمت من حديثه ، ولكنه أراد الظهور أمام الملك فتعالم ، فقلت : يا طويل العمر ، ان الشيوعية أخطر مذهب وألأمه ظهر في هذه الأرض ، فهو ينكر وجود الله ، ويجحد رسالات الرسل جميعا ، وبنوا مذهبهم على زعمهم أن لا اله الا المادة ، وينكرون كل الغيبيات ، ويمنعون أن يتملك الانسان ، كل شيء في المجتمع ملك الدولة ، وللشيوعيين فلسفة معقدة في « العائلة » وفي الدين وفي الأخلاق ، وطبقوا مذهبهم بالقوة والبطش والارهاب ، وهم يشترطون في الاصلاح الذي ينشدونه على العنف والثورة ، وصاحب المذهب الأساسي هو كارل ماركس من يهود المانيا ، وسيرته تدل على لؤمه وخسته وغدره وحقارته .

« فسر عبد العزيز لسببين : الأول ، لأني لخصت له المذهب في عمومياته في جمل مختصرة ، والثاني ، لأنه يتلقى الجواب من سعودي » !

أفادكم الله !..

---

* رشيد عالي كان رئيسا للوزراء في العراق ، فهل كان يعيش في السعودية في مستوى أعلى من ملك العراق ؟!

** وان كانت تهمته هو وصلت الى عشرة ملايين دينار ليبي . وهذا طبيعي اذا وضع في الاعتبار عامل التضخم وتدهور سعر العملة بين ١٩٥٤ ـ ١٣٧٣ و ١٩٧٦ ـ ١٣٩٦ (!!)

« ابن سعود »

كتاب يطفح جهلا ... !

تأليف : بنواميشان
طبعة : دار أسود للنشر
ترجمة : رمضان لاوند

الجديد في هذا الكتاب أنه قديم ! نعم من ربع قرن صدر ، ومازال يترجم ويروج ويباع بأعلى سعر بيع به كتاب عربي في ضعف حجمه .. دون أن يعترض أحد ، أو يحتج قارىء أو معقب ، رغم أنني لا أذكر فيما قرأت ، كتابا حفل بالاخطاء والتزوير والتشويه والجهل الفاضح ، مثلما حفل به هذا الكتاب ، ابتداء من عنوانه : « ابن سعود » وهو لقب طرحه الغربيون ، وكان الملك الراحل عبد العزيز لا يحبه ، وينهى عن استخدامه ، بل أمر يوسف ياسين ، أن يتعقبه في كتاب الزركلي فيمحوه حيثما وجده ، ليضع بدلا منه « آل سعود » ... إلى آخر صفحة من ذلك الكتاب ، حيث وضع شجرة العائلة السعودية الفادحة الاخطاء ، وتخيل أن الامير متعب أصبح اسمه بالعربية : « متآب » إلى غير ذلك من المضحكات المبكيات في الترجمة مثل « تربة » التي ستصبح « ترباي » « وخرمة » التي تحولت إلى كرمه !

وحسبك من كتاب منسوب لمؤرخ ومحقق وعالم بالشئون العربية يقسم تاريخ الجزيرة إلى مرحلتين ، من عام خمسة آلاف قبل الميلاد إلى عام ١٨٨٠ بعد الميلاد (مولد الملك عبد العزيز) ثم من ١٨٨٠ إلى ١٩٥٣ عام وفاته .. لتدرك مدى الجدية في الدراسة ، أو مدى استخفافه بعقولنا .. ! ..

والكتاب ينتهي بحدث مزعوم ، ينسبه زورا وبهتانا للملك عبد العزيز ، محادثة دارت بين الملك والله سبحانه وتعالى ! صفحة ٥٩٧ .. كبرت كلمة تخرج من فرنسي خاسيء ، والله لو أدركك عبد العزيز بكتابك هذا ، لما قبل لك توبة .. ولأمر المطوعة فبلغوا فيك وفي أمثالك ما نحب ..

ولست أريد أن أبدأ بعرض تطاوله على الاسلام والنبي صلوات الله عليه ، بل أبدأ بكشف جهله ، حتى يتبين القارىء أن نقده أو تحليله للاسلام لا ينطلق ولا حتى من علم منحرف .. بل عن جهل مضاعف .. وكلما قلبت صفحات الكتاب ، وضبطت ما به من

أخطاء وجدتني أتساءل : هل هذا هو مستوى خبراء الغرب في الشئون العربية ؟ .. وإن كان هذا يفسر سقوط الغرب وزوال سيطرته وأفول حضارته .. فعلى ماذا يدل زوال عادة القراءة في العالم العربي .. وإلا فكيف جاز أن يبقى هذا الكتاب ربع قرن بكل هذه الأخطاء ، دون أن يتصدى له من يكشف جهله ؟! بل وأن تعاد ترجمته ويعاد طبعه من غير مترجم ، وغير دار نشر ؟! حتى أهدي لي كمرجع عن عبد العزيز !!

فلنؤجل الحديث عن المائة وثلاثين صفحة الأولى .. لنبدأ في حصر الاخطاء التي تتعلق مباشرة بتاريخ الملك عبد العزيز والمملكة السعودية .. ففي صفحة ١٣٩ يخبرنا أن سعوداً الكبير : « **جمع لنفسه لقب أمير نجد وإمام الوهابيين** » « **باعتباره حفيدا لمحمد من قبل أبيه وحفيدا لابن عبد الوهاب من قبل أمه** » وهي عبارة خاطئة التفسير ، خاطئة الوقائع .. وقد تلقب محمد بن سعود جد سعود الكبير بالامامة منذ عام ١٧٥٣م ــ ١١٦٦هــ لأن الامامة في الاسلام هي القيادة ولا تنحدر بالنسب حتى وإن صحت الرواية الضعيفة عن مصاهرة البيتين .

وفي صفحة ١٤٠ نجد أن « **سعوداً الكبير استولى على صنعاء عنوة واقتدارا** » وهو مالم يسجله أي مصدر تاريخي ، ولا صحة له على الاطلاق . بل يتجمس المؤلف فيدخل سعوداً الكبير مدينة « **حلب** » !.. ويجعله « **يطل على الاستانة** » صفحة ١٤٣ . وهي أخطاء تكفي لتجريد الكتاب من أية صفة تاريخية ، وتفرض علينا الشك في ما « انفرد » هو باثباته من وقائع أقل شهرة ، وأصعب تحقيقا من إدخال الجيش السعودي حلب وصنعاء ! مثل الزعم بتحالف سعود مع نابليون ، والقول بوجود اتفاق مكتوب تم التوقيع عليه ، دون أن يشير إلى مصدر أو دليل على هذا الاتفاق .

ويقول بنواميشان :

« **وبعد التوقيع على الاتفاق أصدر سعود أمره لقواته بالاستعداد للمعركة ، وبدأ الهجوم عند نهاية عام ١٨١٢ ــ ١٢٢٧ ، وفي غمرة حماسة عامة ، فتوغل الفرسان الوهابيون في ارض العراق حيث اجتاحوا مدينة كربلاء ، ثم هاجموا مدينة حلب ، واستولوا على هذا الموقع القوي ، وأرغموا سكانها على أن يدفعوا جزية لهم** (هل حلب في العراق ؟!) **وهكذا رأى الوهابيون أنفسهم يمشون نحو القسطنطينية** » . صفحة ١٤٣ ! ولم تقع غزوات بهذا الحجم للشام والعراق عام ١٨١٢ ــ ١٢٢٧ ، فقد كان الجيش السعودي في شغل بمقاومة جيش السلطان العثماني الذي استولى على جدة والمدينة ومكة والطائف .. وفي صفحة ١٤٤ يقتل « بنوا » الامام سعود « **بحادث عارض تحت أسوار الطائف ديسمبر (كانون أول) ١٨١٤ ــ ذو الحجة ١٢٢٨** » ! ولم يقل لنا ماذا كان يفعل تحت أسوار الطائف التي احتلها محمد علي قبل سنتين .. وإذا كانت الرويات مختلفة حول مكان وفاته ، فالاجماع على أنه توفي بعلة ولم يقتل ...

في الصفحة التالية ١٤٥ يفاجئنا المؤرخ الفرنسي وخبير الشئون العربية وصاحب المؤلفات المتتالية عن الأسرة السعودية ، يفاجئنا بأن الملك انتقل من « **سعود الكبير إلى**

عمه **عبد الله** » .. وعبد الله بن محمد هذا لم يحكم قط ، وإنما عبد الله الذي حكم هو عبد الله بن سعود ولكن الابن أصبح عماً لأبيه !.. وهي ليست غلطة مطبعية لأنه يعود في صفحة ١٤٦ فيصف « **فيصل بن تركي بن عبد الله** » بأنه « **حفيد الرجل المعذب الذي قتل في الآستانه** » .. فهو يخلط بين عبد الله بن سعود الذي عذب وأعدم فعلا في الاستانه ، وبين عبد الله والد تركي الذي لا حكم ولا رأي « اسطمبول » في حياته ! ..

وقد انفرد هو باعلان أن ميلاد عبد العزيز كان في شهر فبراير ١٨٨١ ـ ربيع أول ـ ١٢٩٨ ، وليس هناك أي مرجع آخر يعزز روايته لأن مولد الملك تنقسم حوله الروايات ، إلى رواية عليها شبه إجماع يؤكدها الملك نفسه وهي ديسمبر ١٨٨٠ ـ محرم ١٢٩٨ ورواية الأقلية وهي ١٨٧٦ ـ ١٢٩٣ .. ثم يزوج بنوا الملك من جوهره ويقول إن سنه كان ١٥ سنة وذلك في عام ١٨٩٥ ـ ١٣١٣/١٢ (!) ويجعلها حفيدة لعبد الوهاب !

والحقيقة أن أول زوجة لعبد العزيز ليست جوهره ، ولا هي حفيدة لعبد الوهاب (الشيخ محمد بن عبد الوهاب) بل هي أعرابية من الكويت .. أما والدة تركي والملك الأسبق سعود فهي وضحه من بنات شيوخ بني خالد .. وحفيدة الشيخ ، رضي الله عنه ، فهي طرفه ، والدة الملك فيصل وهي ثالثة زوجاته ، وتزوجها بعد فتح الرياض .. ولكن يتعب نفسه من يحاول تصحيح هذا السفر النادر في مجموع أخطائه ! كذلك العرض الذي لا رأس له ولا ذنب لصراع أولاد فيصل الذي أسقط منهم « سعود » وانتهى « بقتل » عبد الله ومحمد .. وهو مالم يحدث . وليته تفضل علينا بالمصدر الذي نقل عنه حكاية ضرب الامام عبد الرحمن للرسول التركي بالسوط ، وإهدار السلطان دمه وإدراجه في اللائحة السوداء صفحة ١٦٧ فالمعروف أن الامام وإن اعتذر عن قبول الحماية التركية إلا أنه كان يتقاضى مرتبا شهريا من خزينة السلطنة ، أو على الاقل كان مدرجا على لائحة الميزانية ، وإن لم يصله شيء .. وليس اللائحة السوداء !

وفي صفحة ١٧٢ نجد أسطورة ملفقة عن رؤيا الملك عبد العزيز لمحمد صلوات الله عليه ، مصحوبا بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ! .. ولا حاجة لنفي صدور ذلك القول عن الملك الراحل ، فالكاتب نفسه لم يجرؤ على نسبتها لأي مصدر إلا لخياله السقيم وتصوره لسذاجه قرائه .. ونفس الشيء عن زعمه بأن « مبارك الصباح » علم عبد العزيز ، التاريخ والجغرافيا والحساب وقليلا من اللغة الانجليزية » !

وفي صفحة ١٩٤ نجد فرية سياسية هي الزعم بأن عبد العزيز : « توجه نحو الانجليز فاتصل بعملاء من القنصلية البريطانية وسألهم تقديم العون له » . وليس هناك من مصدر يعتمد عليه يشير إلى هذا الاتصال ، وكل الروايات تؤكد أنه لم يقع أي أتصال بين عبد العزيز والانجليز خلال اقامته في الكويت .. حيث لم يكن أكثر من ابن حاكم مخلوع لاجيء .. وكل جهود عبد العزيز ، في تلك الفترة ، انحصرت في الضغط على والده لطلب مساعدة « ابن صباح » لتزويده بالجمال والسلاح . والذي يملك من الوعي السياسي ، ما يجعله يتطلع إلى محالفة بريطانيا العظمى ، لابد أنه كان يمتلك من الحكمة ، القدر الذي يقنعه بأنه لا يملك ما يقدمه ثمنا لهذا التحالف .. وما كان عبد

العزيز يحتاج لاتصال بعملاء القنصلية ، وهو كل ليلة في بيت ابن صباح الحسن الاتصال بالانجليز وقتها .

ثم نقرأ صورة هزلية مأخوذة من افلام هوليود عن تنصيب ريتشارد قلب الأسد لروبن هود فارسا ! ..

يقول : « **وتم الاحتفال بتنصيب عبد العزيز في اليوم التالي في ميدان المدينة الكبير (الروايات الاخرى تقول إن البيعة تمت في المسجد وهو الاعقل) وعلى ملأ عظيم من الناس ، قدم عبد الرحمن لولده عبد العزيز سيف عمه سعود الكبير ، ذلك السيف الذي يتوارثه السعوديون جيلا بعد جيل ، ذلك أن سعوداً الكبير نفسه كان قد ورثه عن أبيه عبد العزيز ، الذي تلقاه بدوره عن محمد بن سعود ، وهو الذي انتهى إليه من قبل ابن عبد الوهاب تلقاه شخصيا عن آبائه التميميين .. فرنده من فولاذ دمشق وقبضته من الذهب الخالص . وكان يقال ان البركة قد نزلت عليه منذ أصبح في حوزة ابن عبد الوهاب ، إن فيه دفقا من القداسة جديراً بأن يعطي حامله ، الرفاه والسعادة والنصر** » صفحة ٢١٥ .

لو أدركك الشيخ رضي الله عنه ، وقرأ إفكك هذا لأمر بأن يقام عليك الحد جزاء وفاقا على هذا الزعم المتهتك المخالف لصميم دعوة ابن عبد الوهاب ..

« **ركع عبد العزيز أمام والده وقبل فرند السيف « أي حده » ثم نهض بعد تبتل قصير وأمسك السيف من قبضته فرفعه إلى السماء وحمداً لله وشكراً ، ثم خفضه ببطء مشيرا نحو الجهات الأربع وأقسم أن أي عدو لن يجتاز سور المدينة ، مادام قائم هذا السيف في يده . وهكذا أصبح عبد العزيز أميرا لمدينة الرياض** » ! صفحة ٢١٦

وفاته أن يقول على لسان الامام عبد الرحمن : قم فأنت فارس !!

ولابد لمن تم تتويجه على هذا النحو ، أن يقتل « عبيدا » بهذا الاستعراض مع أنه كان أسيرا (!) ..

قال له (عبد العزيز) من فوق راحلته : **أهذا أنت عبيد الذي قتل عمي محمدا قبل اليوم ؟ ثم قفز إلى الارض وأخرج سيفه من قرابه وراح يروز حده في مهابة بين يديه ، وهز فولاذ السيف في عين الشمس بمعصمه ثم ضرب عبيداً ثلاث مرات بسرعة البرق الخاطف .. أما في الاولى فقد قطع وركه ، مرغما أياه على الانحناء إلى الامام ، وأما في الثانية فقد غرس حد السيف في رقبته ، وأما في الثالثة فقد شق صدره من أدنى إلى أعلى بذؤابة سيفه ، وأخرج قلبه الذي سقط ينبض في الرمال . وبقي ولد عبد الرحمن يحدق فيه صامتا (أي القلب) ثم رفع سيفه إلى السماء وقبل فرنده الذي يسيل منه الدماء** » ! صفحة ٢٢٠

وجب علي العتق والكفارة ، إن كان عبد العزيز قد فعل ذلك ، أو أنه فقد اصبعا من أصابعه في المعركة مع الأتراك صفحة ٢٢٣ .. وكل الذين حظوا بملامسة يده رأوها كاملة الاصابع ، وإن كان واحدا قد كسر ولم « ينتزع » وأغلب الروايات أنه أصيب في

فتح الرياض التي لم يسكنها الترك !! والمؤرخ الكبير « **السن** » .. لابد أن يقدم لنا خلفية عالمية لتاريخ عبد العزيز فيحدثنا « في **القاهرة** ودمشق وسالونيك ومنستير فان الثورة (ضد الأتراك) تحت الرماد لا تنتظر غير الفرصة الملائمة للخروج إلى ضوء الشمس » .. صفحة ٢٣٢

في القاهرة لم تكن هناك ثورة ضد الأتراك لا تحت الرماد ولا فوقه .. لأن القاهرة ـ ياجاهل ـ كانت حبلى بالثورة على الانجليز ، الذين احتلوها منذ أكثر من ربع قرن ! .. والحزب الوطني في مصر كان زعماؤه يتبارون في إثبات تبعية مصر للسلطان العثماني لاسقاط شرعية الاحتلال البريطاني .. وزعيم الحزب فخور برتبة الباشاوية من الباب العالي ، وخليفته محمد فريد يؤلف في تاريخ « الدولة العلية » . ولكن مع مؤرخ من طراز ميشان لا فرق بين القاهرة وسالونيك !

وفي صفحة ٢٣٧ يعرفنا أنه بعد مقتل ابن رشيد و « **على أثر ذلك تمت تسمية أمير الرياض ، من قبل أبيه ، ملكا على نجد وإماما للوهابيين بحضور قدماء الاخوان** » . وهو « وله » كما يقول المحققون القدامى ، فعبد العزيز لم يلقب بالملك إلا بعد ذلك بعشرين عاما وبعد فتح الحجاز ، ولم يلقب من قبل أبيه ، بل من قبل ممثلي الشعب ..

صفحة ٢٣٨ يقول « **ومنذ ذلك اليوم اتخذ عبد العزيز اسم « ابن سعود » بصورة رسمية** » وقد سبق تفنيد هذه التسمية الرائجة عند الغربيين ، والتي كان عبد العزيز لا يحبها ، وإنما خاتمه الذي يحمل اسمه الرسمي هو : عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل فاذا وقع بيده كتب : المتوكل على الودود عبد العزيز آل سعود ، وكل من حكم من آل سعود اسمه ابن سعود عند الغربيين . والكتاب حافل بخطب وتصريحات للملك الراحل ، بلا مصدر ، وبلغة لا يمكن نسبتها لعبد العزيز ولو مترجمة عن الصينية إلى اللغة السواحلية ! .. تصوروا عبد العزيز يخطب في جنده قائلا : « **اذا تبعتموني فسأجعل منكم شعبا عظيما ، وستستمتعون برفاهية هي أكبر كثيرا من تلك التي عرفها أجدادكم ، ستنتشرون في كل مكان نقاوة عقيدتنا تبعا لدعوة سيدنا محمد بن عبد الوهاب (!) .. فالى الامام ! مع الله ! من أجل إصلاح العقيدة وغزو الجزيرة العربية** » والكلام موضوع بين اقواس دلالة على أنه منقول حرفيا .. ولكن من أين ؟ لا يقول ... ولا يردعه رقيب ! فهذا أول كتاب تاريخ يكاد يكون بلا مراجع ولا ثبت مصادر !

ويعرفنا أن شوارع الرياض وميادينها (عام ١٩٠٥ ـ ١٣٢٣) حفلت بالغناء والرقص وهتافات « إلى الامام مع الله .. من أجل إصلاح العقيدة وغزو الجزيرة العربية » ص ٢٤٠ .. وهي هتافات غريبة على « ميادين » الرياض قبل ٧٥ سنة ! إذ كان جنود عبد العزيز يهتفون : خيال التوحيد .. هبت هبوب الجنة .. وينك ياباغيها » ! ولم تكن تحركهم الرغبة في الرفاهية ، بل إذا تأخر القائد في الهجوم لضرورة عسكرية قال الشيخ لابنه : عبد العزيز يدور (يريد) الدنيا وحنا (نحن) نبي

الآخرة ويدفع ابنه الشهادة في سبيل الله .

ومادام المصدر غير معروف ، والراوية مشكوك في إحاطته بأبسط الحقائق والمعلومات ، فلا يمكن التعلل بأن الامانة التاريخية هي التي فرضت عليه هذه الصورة الوحشية لغزوات أو جهاد جيش عبد العزيز بل والحرص على نسبة الفعل إليه ، ومعروف أن كل التجاوزات التي تمت في اماكن محددة ، كان سببها استفزازات الوضع ، وعصبية الاخوان الذين تصرفوا بعيدا عن وجود عبد العزيز أو حتى أحد أولاده .. ولكن ميشان يقول :

« توغل ابن سعود في أراضيهم ، وأحرق قراهم حتى حدود الكويت ، وشنق زعماءهم ، وكان عليه تصفية بعض الحسابات « الشخصية » معهم ، فدمر أراضيهم بطريقة منظمة (!) وارسل قوتين تأديبيتين إلى قريتي القطين والحوطة ، وأمرهما باجتياحهما بعد ابادة السكان فيهما ، لقد أمر رؤساء المفرزتين قائلا : يجب الا يبقى حجر على حجر لا شيء يجب أن يدل على موقع هاتين المدينتين . وتم تنفيذ هذه الاوامر بدقة » صفحة ٢٥١ .

من المعقول ان يطبع هذا في فرنسا ، في حمى العداء بين فرنسا والعرب ، وخلال حملة الدعاية الفرنسية ضد المملكة بتهمة تمويل الثورة الجزائرية ودعم الحركة الاستقلالية في المغرب وتونس (١٩٥٥ ــ ١٣٧٤) .. أما أن يترجم ويطبع ويوزع في المملكة إلى اليوم . فدليل جديد على عالم اللامعقول الذي نعيشه !

وجهل المؤرخ الفرنسي لا يقتصر على تاريخ السعودية ، بل يفيض على تاريخ المنطقة كلها ، فهو يعرفنا : **« في عام ١٩٠٦ ــ ١٣٢٤ ، وجهت حكومة لندن ، نحو الأتراك في العقبة ضربة أخرى مكررة بذلك حادث الكويت كلمة كلمة وسطرا سطرا ... والعقبة هي مرفأ يطل على البحر الاحمر ويقع قريبا من السويس (!!) حيث أرغم السلطان على سحب قواته منها بعد مظاهرة قام بها الأسطول البريطاني » . صفحة ٢٥٤**

على الأقل ، إذا كنا قد خسرنا التاريخ والجغرافيا ، فقد عرفنا لماذا تحتم سقوط الامبراطورية الفرنسية بعد ظهور مثل هذا الخبير ! ... فالعبارة خاطئة سطرا سطرا وكلمة كلمة !

لم يكن في العقبة أو سيناء حاكم يريد الاستقلال عن الدولة العثمانية وطلب حماية البوارج البريطانية . بل على العكس كان المصريون وفي مقدمتهم الخديوي مع السلطان في مطالبته بالعقبة . والانجليز لم يجبروا الأتراك على الخروج من العقبة ابدا بل الأتراك هم الذين أخرجوا مصر التابعة لبريطانيا من العقبة ، ودخلوها هم في ١٣ أبريل ١٨٩٢ ــ رمضان ١٣٠٩ ، أي قبل أزمة ١٩٠٦ ــ ١٣٢٤ بأربعة عشر عاما !

عمر عروس تتزوج وتنجب قارئا لبنواميشان ! ..

وظلت العقبة ملحقة بالحجاز ، والأتراك بها إلى أن خرجوا منها في غزوة لورنس ، وفصلها الانجليز عشية سقوط عرش الحسين بن علي . أما في عام ١٩٠٦ ــ ١٣٢٤ فقد

دخل الاتراك رفح المصرية ، فأجبرهم الانجليز على الانسحاب .. ولكن ما حيلتنا وهذا علم المؤرخ والمترجم — ! ثم يزعم أن عبد العزيز استأذن الانجليز أو تحسس رأيهم بواسطة ابن صباح ليهاجم الأتراك عام ١٩١١ — ١٣٢٩ فأعطوه الضوء الاخضر صفحة ٢٥٥ . « وابن سعود » لم يهاجم الاتراك في عام ١٩١١ — ١٣٢٩ بل بعد ذلك بعامين ، وفاجأ الانجليز ولم يأبه بانذاراتهم ! ...

في صفحة ٢٧٢ تجد أن كلا من تركي وسعود وفيصل ومحمد أشقاء وأمهم هي جوهره حفيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

وهو خطأ أكبر من أن يحتاج لتنبيه .

صفحة ٢٨٥ : علماء الدين « **ذوي الأمزجة النكدة الكئيبة ، وبوجوهم ذات اللون الضجر التي لم تكن تبتسم أبداً** » !!

ثم يعدد خطايا ابن سعود : « سمح للعنيزيين بالتدخين العلني ، وصداقته لمبارك في حياته الخاصة وافتقاده للتقى (!)

لا يوجد أي مرجع يشير إلى وجود علاقة بين عبد العزيز وابن صباح في حياة الأخير الخاصة . وقد غادر عبد العزيز الكويت ، وهو دون سن العشرين ، ويفارق في السن لا يسمح له بمشاركة ابن صباح حياته الخاصة . وكان شديد الحرص على الترفع عن الدنية ، إلى حد أنه غادر مجلس الملك فيصل الاول ملك العراق عندما أشعل هذا سيجاره قائلا : « تريد أن تقول إنك دخنت في حضور عبد العزيز » !

صفحة ٢٥٩ « أفكار العلماء الخبيثة » !

صفحة ٢٨٧ : ماذا يفعل عبد العزيز للتخلص من خطر العلماء ؟! « قدر أن خير وسيلة لاسكات هؤلاء العلماء هي أن يجعل من نفسه سيد المدينتين المقدستين : المدينة ، ومكة .. وسأضع خطواتي على خطوات النبي !« أو ليس أن محمداً قد بدأ من هناك » ؟! « وكلما بالغ في التفكير زادت العملية إغراء له » صفحة ٢٨٧

وهكذا نجد عبد العزيز يفكر في فتح الحجاز سنة ١٩١٤ — ١٣٣٢ .. ولماذا ؟ لاسكات « العلماء » ورفع خطرهم عنه أي عن عبد العزيز ، هذا الخطر الذي يصفه ابن ميشان « **بالخطر الماكر** » .. **لولا ان الانفجار العالمي أخذه — ابن سعود — على غرة** » !

وحكاية الصراع مع العلماء على إقامة الهجر ، « وافكارهم الخبيثة » ملفقة تماما ، كتلفيق موضع الأرطاوية التي نقلها من شمال الرياض ووضعها بين نجد والاحساء .. فقد كان عبد العزيز على وفاق تام مع العلماء يتبادل معهم الرأي والاحترام في الحدود الواضحة لنظام الامامة الاسلامي .

ويدعي أن شكسبير أنذر عبد العزيز « بلهجة جافة » صفحة ٢٩٣ ! ثم دفاع متهافت عن معاهدة ١٩١٥ — ١٣٣٣ ... دفاع لا يحتاجه التاريخ ، أو كما قيل : ليتها لم تزن لم تتصدق ! .. خاصة وأنه عاد في صفحة ٢٩٩ فوصف عبد العزيز بأنه بتوقيع

المعاهدة : « استسلم للخداع كطفل ساذج » .. والحقيقة مخالفة لكلا الاجتهادين .. فلا عبد العزيز « حصل على كل ما يرغب فيه » ولا كان طفلا ساذجا ..

في صفحة ٣٠٧ ينقل على لسان الحسين بن علي قوله في وصف الوهابيين : « **هذه الذرية من الخنازير المدودة** » ومهما قيل في الشريف حسين ، ورغم أنه فعلا استخدم بعض العبارات التي لا تليق ، إلا أن هذا التعبير بالذات غريب ولا يرد على لسان عربي ، وإنما هو جدير ببائع بسطرمة أو مرتدلة في قبرص ! .. تعبير غريب كغربة التفسير العنصري الذي ينسبه ابن ميشان للامام عبد العزيز ، إذ يزعم أنه استنكر أن يتحدث الشريف باسم العرب ، وهو : « **زوج لامرأة تركية وابن لأم شركسية** » . صفحة ٣٠٣

حاشا الله ، عبد العزيز يعلم أنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .. ثم نصل إلى نكتة الكتاب ، وهي تسفير عبد العزيز الى القاهرة ، فيزعم أنه قد عقد في القاهرة مؤتمرا عام ١٩١٨ ـ ١٣٣٦ استدعى له ملك نجد وذهب إليه ثم غادره غاضبا عائدا للرياض واستدعي مرة أخرى وذهب للقاهرة ! وقد ورد ذلك في اكثر من موضع : « **لقد عقدوا مؤتمرا في القاهرة دعوا إليه ملك نجد صفحة ٣٢٢** « **وهكذا وجهوا الدعوة الى ابن سعود للمثول أمامهم (في القاهرة) وأفهموه بلهجة متعالية** » . صفحة ٣٢٢

وسافر عبد العزيز على بساط ابن ميشان إلى القاهرة « **وعاد إلى الرياض** » صفحة ٣٢٤ وعملا بالمثل القائل : من شرب من ماء النيل فلابد أن يعود اليه . فان ابن سعود الذي أرسله ابن ميشان إلى مصر المحروسة رغم أنف التاريخ ، عاد إلى القاهرة مرة ثانية !

« **وهنا تستدعي السلطات الانجليزية ملك نجد للمرة الثانية إلى القاهرة لتسأله تفسيرا للموقف** » صفحة ٣٤٢ ولا مجال لاي اعتذار لحضرة المؤرخ ، فهو يروي تفاصيل اجتماع القاهرة الذي اشترك فيه عبد العزيز ، وكأنه قد شهد ! المستشارون متهيجون لتقدم الاخوان « **ولذلك التمسوا منه الا يستجيب لهذه الدعوة . لكن ابن سعود شديد الحذر ، وعلى ذلك قبل ان يحضر مؤتمر القاهرة ، وأن يفاوض المندوبين البريطانيين ، ولكن حادثة أدت بابن سعود إلى قطع المفاوضات والعودة إلى شقرا . أما الانجليز فقد انذروه رسميا بالعودة إلى المؤتمر ، فأخذ ابن سعود طريقه إلى « القاهرة » مستسلما** » . ثم يروي لنا كيف أهانوه ـ أي الانجليز ـ في مؤتمر القاهرة المزعوم هذا .. وكيف غادر ابن سعود قاعة المؤتمر (بمبنى جامعة الدول العربية بجوار الهيلتون ـ دي من عندي أنا بقى ولا حرج في مثل هذا التاريخ !) ونتابع مع بنواميشان : (**غادر ابن سعود قاعة المؤتمر دون ان يضيف كلمة واحدة متلفعا بعباءته الكبيرة البيضاء) . صفحة ٣٤٤**

(موسيقى تصويرية !)

ولأنه خواجا ولأن كتابه يباع بستين ريالا ولأن دقته تصل إلى حد تسجيل لون عباءة

ابن سعود وحجمها ، ولأن الذين اختشوا ماتوا ، فلابد أن يكون ابن سعود قد توجه للقاهرة ثلاث مرات ! قبل زيارته التي يعرفها الناس بأكثر من عشرين عاما ، وكتم الأمر عن الجميع حتى كشفه بنواميشان .. وسبحان من هو كل يوم في شأن !

وعلى ذكر القاهرة والزيارات السرية ، فان المؤلف لا يحرمها من تجديد تاريخها ، فمصر الوسطى عندما فتحها عمرو بن العاص « كان يحكمها في غموض ظاهر (حلوة قوي غموض ظاهر تماما كالعمى المبصر) حاكم **قبطي باسم البطالسة** » صفحة ٧٦ وبفتح ابن العاص لمصر « **أبيد سلطان البطالسة** » . وطلبة الأولى اعدادي يعرفون أنه عندما فتح ابن العاص مصركان حكم البطالسة قد انقضى منذ اكثر من ستة قرون ... ألم نقل لكم اننا في سيرة سيف اليزل ! ..

ولا بأس من أن نورد نبذة عن معلوماته عن التاريخ الاسلامي ، خاصة وهو يتصدى لنقد الاسلام .. قال :

« **بعد وفاة علي وقع صراع شديد بين المرشحين للخلافة (الصراع انتهي بوفاة علي أو على الأصح بمقتله) . وأحدثت اضطرابات خطيرة في شبه الجزيرة كلها ، فاضطر قائد نشيط باسم الحجاج للاستعانة بأقسى الأساليب للحفاظ على وحدة الامبراطورية . وتم القضاء دون شفقة على الثورة التي سادت لفترة من الزمن مدينة مكة ولم يتردد الحجاج لانقاذ الامبراطورية من أن يبيد آخر مجموعة من الثوار ... الخ . وقد اعترضت هذه الاضطرابات مسيرة الفتوح ، لمدة ثلاثين عاما (٦٧٥ ـ ٥٥١هـ ـ ٧٠٥/٨٦هـ) ولم تعد هذه الفتوح سيرتها الاولى إلا بعد أن حل معاوية مؤسس الاسرة الأموية » صفحة ٧٨**

الخلاف جاء بعد علي ، والحجاج قبل معاوية والوليد هو الذي« **نقل عاصمة بلاده إلى دمشق** » ! صفحة ٧٩ .. ! وهذا صحيح مادام « الوليد حكم سنة ٧٠٥ ـ ٨٦ » مع معاوية !!

نعود لتأريخه لمصر فنجد أن الملك فؤاد هو الذي ألغي الحماية وأعلن استقلال مصر في ١٥ مارس ـ آذار ١٩٢٢ ـ صفر ١٣٤١ (صفحة ٣٤٦) والصحيح أن بريطانيا هي التي ألغت الحماية ، وأعلنت استقلال مصر في تصريح ٢٨ فبراير . وحتى حريق القاهرة الذي اشتهر تاريخه إلى حد أن بنات الهوى في البيغال يعرفن أنه في ٢٦ يناير ١٩٥٢ ـ جماد أول ١٣٧٢ .. يؤرخه المؤرخ الفرنسي في العاشر من ديسمبر ١٩٥١ ـ ربيع أول ١٣٧٢ ، بل إن الشهور المتفق عالميا على ترتيبها يعاد توزيعها في هذا الكتاب الأعجوبة فيأتي نوفمبر بعد ديسمبر (صفحة ٥٧٩) وكأننا في كراسة الطالب الفرعوني المشهور الذي بكي لأن الصيف جاء في موعد الشتاء !

وهو يوزع هباته يمينا ويسارا ! ..

صفحة ٣٥١ .. الملك علي بن الحسين يجري تخفيض رتبته من أكبر أولاد الملك حسين إلى أصغر أولاده . وهو « **صبي شجاع دون ريب ولكنه لم يكن قد مارس أية قيادة من قبل** » وصور الصبي بلحيته ، مشهورة ، وكان قد جاوز الاربعين ، وسيتولى

العرش بعد شهور من الواقعة التي يتحدث عنها المؤرخ المهرج ! وعلى بساط بنوا « أبو خطوة » سينتقل ابن سعود من الطائف التي لم يكن فيها إلى الرياض حيث كان بالفعل ، ليعيده مرة أخرى إلى مكة صفحة ٣٥٦ .

ونستمع لابن سعود وكأنه تحول إلى مستشرق .. ولا تؤاخذنا ياإمام بما ترجم السفهاء !

تخيل الملك عبد العزيز يناجي ربه هكذا :

يا إلهي .. هذه أرضك « **المقدسة** »

من دخل بيتك كان آمنا .

وهذا « المعبد » هو بيتك ومقامك وحرمك

إنه مقام السلام

يا إلهي

انقذني من نيران جحيمك الخالدة .

« **ثم** « **ركع** » **بكل بساطة ، كما يفعل أكثر المؤمنين تواضعا** (كل المسلمين يركعون) **ونثر على جبهته حفنة من الغبار** » (!) صفحة ٣٥٩ . ويصف عبد العزيز قائد أكبر ثورات القرن العشرين التحررية والتوحيدية بأن « روح الثورة عنده مجهولة تماما » لماذا ؟ لأنه « من دين يعني اسمه الخضوع والاستسلام » بل وسيصبح امام الوهابيين .. « صوفياً » صفحة ٣٦٢ . وسيوقع معاهدة مع اليمن تنص المادة الأولى فيها على الاتي بذمة بنواميشان :

١ ـ « تتبع صنعاء في السياسة الخارجية منذ ذلك اليوم الخط الذي تتبعه الرياض »

٢ ـ « **يسمح للوعاظ الوهابيين بالتعليم بحرية في طول البلاد وعرضها** » (أي اليمن) ويعلق : « **وهكذا يكون الامام يحيي قد عري من ملكيته للبلاد رغم المظاهر المخالفة لذلك** » صفحة ٣٨٣

بالتأكيد هي معاهدة سرية غير معاهدة الطائف التي وقعت بين الدولتين ، معاهدة لم يسمع بها لا ابن سعود ولا ابن حميد الدين ، ودون كل ذي علم أفاق أثيم .. !

صفحة ٣٨٩ ـ يصبح الامير عبد الله بن عبد العزيز اكبر سنا من محمد وخالد وفهد .. !

صفحة ٣٩٠ ـ الامام عبد العزيز يتحدث عن ابي بكر الصديق فيصفه بالوارث الأول لمحمد عليه السلام ! ..

صحفة ٣٨٦ ـ سنسمع عن جمعية عمومية عقدت في الرياض في خريف عام ١٩٢٨ ـ ١٣٤٧ يعرض فيها عبد العزيز استقالته وتنتهي باعلان الدولة « **العربية السعودية** » وهو غير صحيح فقد اعلنت التسمية بعد ذلك بأربع سنوات !

صفحة ٤٠٠ تحس أن عدة صفحات قد سقطت ، ولذلك جاء المؤتمر الاسلامي فجأة

وبلا تمهيد ..

صفحة ٤٠٥ « شجرة الدر أول ملكة أجنبية اعتنقت الاسلام » وشجرة الدر اعتنقت الاسلام وهي جارية وقبل أن تصبح ملكة .

صحفة ٤٢٦ حادثة المطاف التي وقعت في مارس ١٩٣٥ ـ ٥٣/١٣٥٤ جعلها في عام ١٩٣٤ ـ ١٣٥٢ وكأنما يستحيل عليه أن يذكر واقعة صحيحة ، أو كأن قارىء الكتاب يدخل في مباراة معرفة : « أين الخطأ » ؟

صفحة ٥٦٧ ينقل عن مصدر أن « ابن سعود وزع خمسمائة مليون ليرة سورية عام ١٩٥٠ ـ ١٣٦٩ ليحول دون انتصار الاحزاب الموالية للهاشميين فلم يحصل على النتيجة المأمولة » وكل دخل السعودية في ذلك العام لم يكن ليصل إلى نصف مليار ليرة سورية !

كتب فصلا عن انقلابات سوريا حاول فيه أن يجعل دبلوماسية المملكة مجرد ملف في أرشيف شركة التابلاين !

ويظل المؤرخ المفتري يطارد بجهله سيرة الملك حتى بعد وفاته فيزعم أن جسده الطاهر : « **لف في سبعة أكفان وبساط للصلاة** » ! وأن « **كبار رجال المملكة ورجال الدين ، أرادوا أن يقيموا له جنازة عظيمة** » صفحة ٦٠٠

وعن الاسلام والعرب

لقد أجلنا الحديث عن تطاوله على الاسلام ، لأننا ـ كما قلت ـ لو طرحنا السؤال حول ما هي المصلحة في ترجمة ونشر كتاب يتهجم على الاسلام ويشوه العقلية العربية ، والحياة العربية ، على هذا النحو ، لشهر في وجهنا سيف : « حرية الفكر ، واعرف ما يقوله الأعداء .. وتعصبنا وحاجتنا للموضوعية » إلى آخر هذه المعزوفة المعروفة المصدر والهدف .. ولذلك فضلنا أن نثبت أولا جهله ، وأنه لا يستحق أن يلقب بالمؤرخ ، لأنه غير عالم ، وغير أمين ، وأنه عالج موضوعا من أهم موضوعات النصف الاول من القرن العشرين بكل خفة واستهتار ، ولم يكلف نفسه عناء ضبط ولا حتى التواريخ الشائعة والمعروفة ، وبالتالي لا قيمة لكتابه ، ولا عذر في نشر هذا التشويه ، فضلا عن تبنيه .. فاذا كانت حرية الفكر هي مناقشة العالمين المتعصبين فان استمرار هذه الحرية يتطلب استبعاد الجاهلين .

وإذا كان المؤلف يعتذر بأن كتابه هذا ، كان أول محاولة له في الكتابة عن العرب .. خسئت هل تتعلم الكتابة في تاريخ أهم ظاهرة عربية ؟! وأنه كتبه في عصر : « كنت أعرف فيه العالم العربي واستوعب تعاليم الاسلام بقدر أقل كثيرا مما أعرف واستوعب منه اليوم » ، فليس هذا بعذر ، بل هو العذر الأقبح من الذنب ، فما دمت قد عرفت فلماذا لم تصحح ما جهلت ، في الطبعة التي تصدر بعد ربع قرن من تأليف هذا الجهل .. وكان الأجدر بالمترجم والناشر أن لا يختارا لنا كتابا هو ثمرة نقص المعرفة

ونقص الفهم باعتراف مؤلفه ! أم يظن الجميع أن معرفتنا بعالمنا العربي ، واستيعابنا لتعاليم الاسلام أقل مما أوتي « بنوا » منذ ثلاثين سنة ؟! لقد حاول المترجم ، وهو خريج الأزهر أن يتدارك بالتعليق ـ في الهامش ـ بعض افتراءات المؤلف على الاسلام ، حتى استحق الكتاب أن يقال عنه : « شرح ابن لاوند على متن ميشان » أو بالاحرى اعتذار ابن لاوند عن خطايا بن ميشان ! ولكن كان الأجدر به والأكثر أمانة ، أن يشير إلى هذه الأخطاء في المقدمة التي وضعها للكتاب ، حتى يقرأه من أراد على بينة ، خاصة وأنه عن ملل أو كلل لم يستطع أن يعلق على كل الافتراءات والتخرصات مثل :

صفحة ٥٣ : الوحي ليس من السماء بل حمله الرجال معهم من الصحراء نتيجة « **اندفاع شديد غير عقلاني** » !

صفحة ٥٤ : النبوة .. جنون أو تشنجات أو ضعف .. « **ويظهر النبي مترنحا منهوكا ، بأثر من الجهد الداخلي أو من أثر تقشفه** » !

صفحة ٥٥ : ورقة بن نوفل ، عثمان بن الحويرث ، عبيد الله ، زيد بن عمرو .. كلهم أنبياء !

صفحة ٥٦ : الله في الاسلام « **عربي بصورة منفردة** »

صفحة ٥٦ : محمد (صلوات الله عليه) **أنشأ** القرآن وقد تكرر ذلك القول في نفس الصفحة .

٥٧ : لم يكن هدف النبي : « **أن يقدم إلى البشرية أخلاقا أرفع من اخلاق الانجيل ، بل كان هدفه أن يحمل إلى البدو ، عقيدة قادرة على إحداث حركة كبيرة للوحدة القومية ، ان هذه الفكرة ، التي كانت شاغله الرئيسي ، لا تشيع في القرآن وحسب ، ولكنها تشيع أيضا في كل تصرفاته** » !

صفحة ٥٧ : « كان النبي في غار حراء يدير فكره حول مصائر **وطنه** »

صفحة ٥٨ : الدين كله لم يكن سوى خطة ذكية من قبل النبي لتحقيق الوحدة والقومية العربية !

صفحة ٥٩ : يردد كلام السوقة من كتاب الغرب ، حول العقلية العربية ، وعجز العرب عن فهم الميتافيزيق ! وهم ينسون أن الدين كله أو الميتافزيق ، وفي أرقى صورة ظهر عندنا وتطور عندنا .

صفحة ٦٠ : ويفتي ابن ميشان بأنه في الاسلام « كل حرب مقدسة إذا كانت تهدف لنشر الدين ولذلك كان على الجميع أن يشاركوا في القتال حتى العمي والمقعدين منهم » ! ...

صدق الله العظيم : « ليس على الأعمى حرج » ..

صفحة ٦٠ ـ ٩٣ : نداء المسلمين للتجمع هو : « الجنة أمامكم والجحيم وراءكم » وتفسيره : « **الجنة هي البلاد التي تفتحونها أما الجحيم فهو جزيرة العرب أو الصحراء التي جاءوا منها** » !

صفحة ٦٣ : **محمد بالنسبة للقرشيين : مغامر لا ماضي له ، وبصورة خاصة كان دون تراث من التقاليد »** .

وهو ــ كما عرفنا ــ أوسطهم حسبا وأشرفهم نسبا ... الأمين صلوات الله عليه .

صفحة ٦٦ : محمد استغل نقض صلح الحديبية للاستيلاء على مكة والاقامة فيها « **بصورة دائمة** » وهو تفسير خاطيء ، وتاريخ كاذب .. فالنبي لم يقم في مكة بصفة دائمة ، بل عاد الى المدينة بعد الفتح وتوفي بها بأبي هو وأمي ..

صفحة ٧٢ : **عمر دخل بيت المقدس في احتفال بالغ ، ووضع حجر الأساس لبناء مسجد جامع ، وهكذا أقام الاسلام عند قبر المسيح »** .

وعمر رضي الله عنه دخل المدينة ممسكا بزمام الدابة التي كان يركبها مملوكه ، إذ تصادف أنها نوبته في اقتسام الطريق ، فلم يعرف الناس الخليفة من عبده ! وعمر رفض أن يصلي في الكنيسة في القصة المشهورة . ولكنه هنا يقيم الاسلام عند قبر المسيح !

صفحة ٧٢ : محمد « **أمر** » بتمزيق ملك كسرى .

والصحيح أنه **دعا** الله ولم يأمر ! ..

صفحة ٧٥ : سخرية من أهداف الجهاد والفتوحات .

صفحة ٨٣ : يرسم صورة بشعة للمجاهدين في صدر الاسلام هكذا : « **تفرق المحاربون المسلمون في أرجاء السور بحثا عن رؤوس يقطعونها ، وبطون يبقرونها ، في عاصفة من الموت ، والغنيمة ، وقد زاغت أبصارهم ، وجحظت عيونهم ، وصرخت شفاههم ، وانقبضت ايديهم المتشنجة على سيوف عريضة معقوفة دامية ، أو على قصبات رماحهم التي كانت تتدلى منها مزق من اللحم »** !

أمن يكتب هذا الدس ، ويفرز حقده هذا السم على أصحاب محمد بن عبد الله يؤتمن في الكتابة على حركة عبد العزيز وتلاميذ محمد بن عبد الوهاب ؟!

صفحة ٨٤ : « موسى بن نصير قرر الاستيلاء على الأندلس **لان المسافرين كانوا يمتدحون ثراء مدنها » !**

صفحة ٩٠ : وصف لا أساس له إلا الحقد والشماتة في هزيمة العرب في بواتيه .. تلك الهزيمة التي اعتبرها المؤرخون الشرفاء الغربيون ، على اختلاف مذاهبهم السياسية ، اعتبروها حادثة سوداء في تاريخ أوروبا لأنها أبقت أوروبا ثمانية قرون أخرى في التخلف . إذ حرمتها من الحضارة الاسلامية المتألقة وقتها .

صفحة ٩١ : الخليفة « **الصورة الالهية على الأرض** »

صفحة ٩٢ ــ ٩٣ : صورة هازئة بالجنة يزعم أنها مستمدة من القرآن .

صفحة ١٠٦ : وصف خمارة في حي البيغال ويزعم أنها مجلس أمير المؤمنين هارون الرشيد ، والمأمون ! مما أثار احتجاج المترجم نفسه .

صفحة ١٠٦ : السكارى يصلون وهم يترنحون في مجلس أمير المؤمنين .

صفحة ١٢٨ : « **لعنة الله تحلق فوق الجزيرة العربية** » ! خسئت ما من أرض

باركها الله وأغدق عليها مثل الجزيرة العربية .. حتى سخر لها البغال والحمير من المؤرخين يتقربون إلى أهلها على ما في قلوبهم من حقد .

صفحة ١٣٣ : « محمد بن عبد الوهاب » نبياً ، ومهما حاول المترجم أن يعتذر عن معنى كلمة نبي ، فلا جدال في أنّ المؤلف قد استخدمها في التعريف بمحمد بن عبد الله ومحمد بن عبد الوهاب .

صفحة ٥٣٥ : تعليق وقح على تطبيق الشرع في السعودية ، وهو ما كرره بعد ذلك في كتابه عن الربيع اللاتيني وحديثه إلى مجلة لبنانية في ديسمبر ١٩٧٩ ــ ١٣٩٩ .

وهذا نص الحديث كما نشر في مجلة النهار العربية الدولية :

النهار : في كتابك « ربيع عربي » فصل عن لبنان تميز فيه بوضوح بين قساوة الاسلام في الخليج واللطافة اللاتينية في لبنان ، لماذا ؟

بنواميشان : **قساوة الاسلام هنا هي قساوته في العربية السعودية** ، بينما هو في لبنان ملطف وأكثر انفتاحا بحيث تشعر أن لبنان واحة في قلب العالم العربي .

النهار : في كتابك عن « فيصل عاهل السعودية » تحدثت عن العدالة السعودية والاعدامات فما هو شعورك ؟

ميشان : شاهدت تطبيق العدالة في السعودية . إنها قاسية جدا . لم استطيع مشاهدة الاعدامات حتى النهاية . فقد أمرضتني . في رأيي يجب ألا نحاكم الآخرين ، بل نترك المحاكمة النهائية الى الله وحده » .

وهو كلام رقعاء أعمى التعصب بصيرتهم ، فهل ياترى الاعدام بالمقصلة ــ وهي سكين حادة تقطع الرأس تماما كالسيف ــ هل المقصلة أمتع من الاعدام بالسيف . ولماذا لا ينصح حكومته بالغاء المحاكم وترك المحاكمة لله وحده !!

صفحة ٤٠٦ : يصف الحج فيقول : « في عرفه يزدحم ستون أو ثمانون ألفا من الناس مع حيوانات ومضارب ومؤن ، بالاضافة إلى حاجات تقضى ، ونفايات بشرية ، أنهكت بسفر طويل ، وأثيرت أعصابها بالانفعالات الدينية » .

وإذا كانت هذه الصورة مفتراة وكاذبة عن جموع الحجيج حيث تغمرهم المحبة والتجرد والسكينة ، فانها تصلح لوصف هذه النفاية التي سماها كتابا ، والتي صدرت عن أعصاب أتلفها الحقد والانفعال الديني المتعصب ...

اما العجب العجب فهو سكوت العرب !

المراجع

تمهيد

١	King Husain and the Kingdom of Hejaz. By Randall Baker. 1979
٢	تقرير السفارة البريطانية في اسطمبول بتاريخ ١٧ فبراير ١٩٠٥
٣	« شبه الجزيرة في عهد عبد العزيز » تأليف خير الدين الزركلي الطبعة الثانية ١٩٧٧
٤	أمين الريحاني : « تاريخ نجد الحديث وملحقاته » ــ ١٩٢٧ ــ طبعة ١٩٥٤
٥ ــ ٦	« خمسون عاما في جزيرة العرب » حافظ وهبة ــ ١٩٦٠ ــ
٧	« ملوك العرب » للريحاني الطبعة الرابعة ١٩٦٠
٨	« شبه الجزيرة في عهد عبد العزيز » نقلاً عن دائرة المعارف البريطانية الجزء ١٢ صفحة ٣٦ طبعة ١٩٦٤
٩	الريحاني
١٠	Arabian Adventures. by John Glubb. 1979
١١ ــ ١٢	الزركلي
١٣ ــ ١٤	« الطريق إلى مكة » : محمد أسد
١٥	حافظ وهبة ،
١٦ ــ ١٧	من خطاب الملك عبد العزيز أمام الحجاج ٨ ذي الحجة سنة ١٣٤٨ ــ ١٩٣٠ م
١٨ ــ ١٩	الامام العادل
٢٠	« صقر الجزيرة احمد عبد الغفور عطار
٢١	« الملك عبد العزيز » فؤاد شاكر
٢٢	الريحاني
٢٣	Arabia of the Wahhabis فيلبي .
٢٤	« الامام العادل »
٢٥	رسالة الملك عبد العزيز إلى حافظ وهبه ــ رمضان ١٣٤٧ ــ يناير ١٩٢٩
٢٦	« جزيرة العرب في القرن العشرين » حافظ وهبه
٢٧	فؤاد شاكر
٢٨	الزركلي عن تاريخ الشعوب الاسلامية
٢٩	فؤاد شاكر
٣٠	خطاب الملك عبد العزيز في عشاء للحجاج عام ١٣٤٨ ــ ١٩٣٠
٣١	خطاب الملك عبد العزيز أمام المؤتمر الوطني الأول ــ الثلاثاء ١٥ محرم ١٣٥٠ ــ يونيه ١٩٣١
٣٢	الامام العادل
٣٣	الزركلي عن الصحف السعودية ٢٦ ــ ٩ ــ ١٣٧١ هــ ــ يوليو ١٩٥٢

٣٤ ـ ٣٦ الزركلي
٣٧ ـ ٣٨ الريحاني
٣٩ Philby of Arabia-by Elezabith Monroe
٤٠ ـ ٤١ « العربية السعودية » : فيلبي
٤٢ فؤاد شاكر
٤٣ الأهرام ٦ صفر ١٣٦٥ الخميس ١٠ يناير ١٩٤٦
٤٤ فيلبي
٤٥ ـ ٤٦ الريحاني
٤٧ محمد أسد
٤٨ الزركلي
٤٩ محمد أسد
٥٠ فيلبي
٥١ « ديوان ابن عثيمين » شاعر الملك عبد العزيز ـ مطبوعات دارة الملك عبد العزيز تأليف أحمد أبو الفضل عوض الله
٥٢ برقيات الملك إلى السديري التي أشرنا إليها .
٥٣ الزركلي نقلا عن الملك عبد العزيز مباشرة
٥٤ « نبذة عن تاريخ نجد » أملاها ضاري بن الرشيد
٥٥ Elezabith Monroe
٥٦ فؤاد شاكر
٥٧ الزركلي
٥٨ محمد المانع
٥٩ ـ ٦٠ الطريق إلى مكة
٦١ فيلبي
٦٢ ـ ٦٣ Saudi Arabia by: K.S. Tuitchell
٦٤ ـ ٦٥ وهبة
٦٦ اليزابث مونرو
٦٧ وهبة
٦٨ فيلبي : « العربية السعودية »

المحاولة الاولى

١ نقلا عن الدرر السنية والتحف الوهابية جمع ابن سحمان
٢ ـ ٣ رسالة إلى محمد بن عباد عن « سيرة الامام الشيخ محمد عبد الوهاب » تأليف أمين سعيد
٤ ـ ٨ رسالته إلى علماء سدير
٩ « عنوان المجد في تاريخ أهل نجد » لابن بشر
١٠ رسالته إلى عبد الله بن سحيم
١١ أمين سعيد
١٢ اعتراف عبد الله بن سحيم
١٣ ـ ١٥ رسالته إلى أهل سدير

١٦ ـ ١٧	رسالته إلى الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف
١٨	رسالته إلى الشيخ عبد الرحمن السويدي
١٩ ـ ٢٠	رسالته إلى أهل العيينة
٢١	رسالة إلى عبد الله بن عيسى
٢٢	رسالة إلى أهل سدير
٢٣	رسالة إلى عبد الوهاب بن عبد الله
٢٤	في مبايعة محمد بن سعود
٢٥	من « كتاب اكتشاف جزيرة العرب » وهي عن كارستن نيبور الذي زار الجزيرة عام ١٧٦٢ م
٢٦	من كتاب المقامات لحفيد الشيخ حاشية صفحة ١١٥ من تحقيق الحفيد لكتاب ابن بشر
٢٧ ـ ٢٨	ابن بشر
٢٩	حاشية ابن بشر
٣٠	في رد الشيخ على ابن فيروز
٣١	أمين سعيد
٣٢	ابن بشر
٣٣	مطلع السعود في أخبار الوالي الودود
٣٤ ـ ٣٥	ابن بشر
٣٦	لمع الشهاب نقلا عن مجلة الدارة
٣٧	وثيقة ترجمها من التركية إلى العربية الاستاذ محمد امين التميمي ـ مجلة الدارة يونيو ١٩٧٥
٣٨	ابن بشر
٣٩	انظر : « ودخلت الخيل الأزهر » عن كتاب « بونابرت في مصر » تأليف كريستوفر هيرولد
٤٠ ـ ٤١	اكتشاف جزيرة العرب
٤٢	الزركلي
٤٣	مخطوطة خالد الفرج عن الزركلي
٤٤	ابن بشر
٤٥	الريحاني
٤٦	Notes on the Bedouins Vol. ii P. 112-113
٤٧ ـ ٤٨	طبعة ١٩٧٩ Travel in Arabia : by G. A. Wallin (1845-1848)
٤٩	عهد سعود الكبير ـ العجلاني
٥٠	ابن بشر
٥١	Diary of A journey across Arabia
٥٢	الريحاني
٥٣	الزركلي
٥٤	عهد سعود الكبير
٥٥	رحلة كابتن سادلير
٥٦ ـ ٥٩	تاريخ نجد تأليف فيلبي . منشورات المكتبة الاهلية

٦٠ صفحة ٨٣ من الجزء الثاني عشر من الخطط
٦١ ـ ٧٠ عصر محمد علي للرافعي
٧١ حياة محمد بن عبد الوهاب تأليف حسين خلف الشيخ خزعل
٧٢ ـ ٧٦ الجبرتي
٧٧ ـ ٨١ عصر محمد علي
٨٢ سادلير
٨٣ ابن بشر
٨٤ ـ ٩٥ الجبرتي
٩٦ ابن بشر
٩٧ ـ ٩٩ سادلير
١٠٠ من رسائل سعود الكبير
١٠١ من السفير البريطاني في اسطمبول السير اوكونور إلى الماركيز لانسدون ٢٤ مايو ١٩٠٤
١٠٢ رحلة والين
١٠٣ سادلير
١٠٤ ص ٢٤٦ اكتشاف جزيرة العرب
١٠٥ ابن بشر
١٠٦ ـ ١٠٧ سادلير
١٠٨ فيلبي : العربية السعودية
١٠٩ Report on A journey to Riyadh Leuis Pelly (1825-1895) والرحلة تمت عام ١٨٦٥ والنسخة المعتمدة هنا طبعة ١٩٧٨

ابن رشيد

١ ضاري بن الرشيد
٢ من اوكونور الى لانسدون ١٩٠٤/٥/٢٤
٣ الريحاني
٤ من السفير البريطاني في اسطمبول السير اوكونور الى الماركيز لانسدون ـ ٢٤ مايو ١٩٠٤
٥ « رحلة في بلاد نجد » ، آن بلنت
٦ ابن بشر الجزء الثامن
٧ ـ ٨ آن بلنت
٩ ـ ١٠ والـين
١١ آن بلنت
١٢ : ١٤ ضاري بن الرشيد
١٥ ـ ١٦ من اوكونور الى لانسدون ١٩٠٤/٥/٢٤
١٧ تقرير شكسبير الى الشعبة السياسية في وزارة الهند ١٩١٥/٦/١٦
١٨ من المكتب السياسي البريطاني في بغداد الى المكتب العربي (البريطاني) في القاهرة ١٩١٧/٨/٣

١٩	الزركلي
٢٠	العربية السعودية
٢١ ـ ٢٢	من تقرير السير برسي كوكس الى اللجنة العسكرية العليا البريطانية بالقاهرة بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٩١٧
٢٣	من رسالة المندوب السامي (البريطاني) في مصر بتاريخ ٥ نوفمبر ١٩١٩
٢٤	تقرير برسي كوكس الى ستورز بتاريخ ١٥/٩/١٩١٧
٢٥	من شيم عبد العزيز . فهد المارق
٢٦	راندال باكر

ابن صباح

١	تاريخ الكويت تأليف عبد العزيز الرشيد طبعة ١٩٧٨ ـ وتاريخ التأليف ١٩٢٩
٢ ـ ٣	حافظ وهبة « جزيرة العرب في القرن العشرين »
٤	صقر الجزيرة
٥ ـ ٦	الريحاني
٧	مقدمة « تاريخ الكويت » لعبد الرزاق البصير
٨	تاريخ الكويت
٩	خطاب لسير برسي كوكسي هن شيخ المجمرة أول ابريل ١٩١٥
١٠	تاريخ الكويت
١١	الريحاني
١٢	تاريخ الكويت
١٣ ـ ١٤	الريحاني
١٥ : ١٧	تاريخ الكويت
١٨	الريحاني
١٩	الزركلي
٢٠	فهد المارق
٢١	تاريخ الكويت
٢٢	الريحاني
٢٣	تاريخ الكويت
٢٤	محمد المانع
٢٥	تاريخ الكويت
٢٦ : ٢٨	الريحاني
٢٩ : ٣١	تاريخ الكويت
٣٢ : ٣٣	فيلبي
٣٤	تاريخ الكويت
٣٥ : ٣٩	فيلبي
٤٠	من وزارة الهند الى وزارة الخارجية وتاريخ التقرير ديسمبر ١٩٣٠ ـ ١٣٢١ .
٤١	من مساعد رئيس الخليج الى حكومة الهند في ١٢/٤/١٩٠٦

٤٢ من القنصل في جدة الى وزارة الخارجية ١٩ ـ ٦ ـ ١٩٠٦
٤٣ من مستر اوكنور الى سير ادوارد غراى ١٩٠٦/١/٣٠
٤٤ من نوكس المقيم بالكويت الى كوكس رئيس الخليج حول التحقيق مع ابن صباح عن اجتماع صفوان . مارس ١٩٠٥
٤٥ رسالة ابن صباح الى الوكيل السياسي البريطاني من الكويت ٦ جمادي الآخر ـ أول مايو ١٩١٤
٤٦ من المقيم السياسي الى سكرتارية حكومة الهند ١٩١٤/٨/٢٤
٤٧ الفقرة ٨ من تقرير المقيم السياسي من الكويت الى حكومة الهند ١٩١٥/٦/١٦
٤٨ من كابتن تروفر نائب رئيس الخليج الى سكرتير حكومة الهند ١٩٠٦/٤/١٢
٤٩ تاريخ الكويت

الانجليز

١ الرسالة بتوقيع اللورد رسل بتاريخ ٦ ـ ١ ـ ١٩٠٤
وضمن الملف رسالة الشيخ الحساوي . ووصلت لوزارة الخارجية البريطانية في ٤ فبراير ١٩٠٤ .
٢ حافظ وهبة .
٣ تقرير السفارة البريطانية في اسطمبول ١٩٠٤/٢/٢٦
٤ من كامبل رئيس الخليج إلى سكرتير حكومة الهند بتاريخ ١٩٠٤/٣/٢٤ .
٥ تقرير شامل من حكومة الهند إلى وزير الهند بالحكومة البريطانية « جون برودريك » بتاريخ ١٩٠٤/٣/٢٤ .
٦ من السفير البريطاني في اسطمبول إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٩٠٤/٥/٤ .
٧ مذكرة من القنصل البريطاني في جدة بتاريخ ٣ ديسمبر ١٩٠٤
٨ من القائم باعمال القنصل في البصرة الى السفير البريطاني في اسطمبول بتاريخ ٩ يونيه ١٩٠٤ .
٩ من القنصل في جدة إلى السفارة في اسطمبول ١٩٠٤/١١/٥
١٠ من وزارة الخارجية الى وزارة شئون الهند ١٩٠٤/١٢/١٦
١١ من وزير الخارجية الى نائب الملك في الهند ١٩٠٤/٥/٢٤
١٢ تقرير لنائب الملك بالهند بتاريخ ١٩٠٤/٥/٢٩
١٣ تقرير من القنصلية البريطانية في بغداد الى السفير البريطاني في تركيا في العاشر من اغسطس ١٩٠٤ .
١٤ من رئيس الخليج كوكس إلى حكومة الهند بتاريخ ١٩٠٤/٩/٥ .
١٥/١٦ من ماجور نيومارش القنصل في بغداد الى السفارة في اسطمبول بتاريخ ١٩٠٤/١١/٩ .
١٧ مذكرة السفارة البريطانية في اسطمبول ١٩٠٤/١١/١٦
١٨ تقرير نائب القنصل البريطاني في البصرة ١٩٠٥/٢/١٨
١٩ من وزارة الخارجية إلى وزارة شئون الهند ١٩٠٤/١٢/١٦

٢٠ من نائب قنصل البصرة الى وزارة الخارجية ١٩٠٥/٣/١١
٢١ كنيث وليامز
٢٢ حافظ وهبة
٢٣ رسالة بيلي إلى الشيخ عيسى بن علي (عن مجلة الدارة)
٢٤ تقرير أعده المكتب السياسي الملحق بالحملة الهندية في ١٩١٧/١/٢١ تحت عنوان العلاقات البريطانية مع ابن سعود.
٢٥* أما تقرير شكسبير المشار إليه هنا فكان في الثامن من أبريل عام ١٩١١ ن . م .
٢٨/٢٧/٢٦ تقرير فيلبي
٢٩ من كوكس إلى حكومة الهند ١٩١٣/٦/٢
٣١/٣٠ تقرير شكسبير : كتب في الكويت ١٩١٣/٥/١٥ واستلم في ١٩١٣/٦/٢
٣٢ فيلبي
٣٣ برسي كوكس ــ بوشهر ــ ١٩١٣/٥/٢٦
٣٤ رسالة عبد العزيز آل سعود إلى سير برسي كوكس في ٨ رجب ١٣٣١ ــ ١٩١٣/٦/١٣
٣٥ الريحاني
٣٦ من السفير البريطاني في اسطمبول إلى وزير الخارجية البريطانية بتاريخ ١٩١٣/٧/٩
٣٨/٣٧ تقرير نائب الملك في الهند بتاريخ ١٩١٣/٨/٢
٣٩ رسالة ابن سعود إلى سير برسي كوكس ٨ رجب ١٣٣١ ــ ١٩١٣/٦/١٣
٤٠ من وزارة شئون الهند إلى وزارة الخارجية ١٩١٣/٧/٩
٤١ من وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٩١٣/٧/٢
٤٢ فيلبي
٤٣ من السفير البريطاني في اسطمبول بتاريخ ١٢ مايو ١٩١٤
٤٥/٤٤ من برسي كوكس إلى نائب الملك بتاريخ ١٩١٣/٨/٧ ومن نائب الملك في الهند إلى وزارة الخارجية البريطانية ١٩١٣/٨/١١
٤٦ ورد ضمن رسالة من نائب الملك . وهي رد على رسالة من ابن سعود كتبها قبل شهرين ١٩١٣/٧/٩ والرد كتب في ٥ سبتمبر ١٩١٣ .
٤٧ من القنصل البريطاني في البصرة إلى السفير في اسطمبول ١٩١٣/٦/٢٥
٤٨ تقرير شكسبير ١٩١٤/٦/٢٦
٤٩ من المستر كراو القنصل البريطاني في البصرة إلى السفير البريطاني في اسطمبول بتاريخ ٢ مايو ١٩١٤
٥١/٥٠ من الماجور تريفور المقيم بالبحرين إلى نوكس رئيس الخليج ٦ أبريل ١٩١٤
٥٢ رسالة ابن سعود إلى الماجور تريفور في ٦ جمادى الأولى ١٣٣٢ (٢ ابريل ١٩١٤)

٥٣ من تريفور الى نوكس في ٦ أبريل ١٩١٤ ــ ١٠ جمادى الأولى ١٣٣٢ هـ

٥٤/٥٥/٥٦ رسالة الكولونيل غراي المقيم بالكويت إلى رئيس الخليج ١٩١٤/٤/٢٩ ــ ٣ جمادى الثانية ١٣٣٢ هـ

٥٧ أمين الريحاني

٥٨/٥٩ من الكولونيل غراي إلى رئيس الخليج ٦ مايو ١٩١٤

٦٠ من نوكس إلى كوكس ٢٨ يونيه ١٩١٤

٦١ برقية السير مالت السفير البريطاني في اسطمبول بتاريخ ١٩١٤/٦/٢٣

٦٢ تقرير شكسبير ٢٩ يناير ١٩١٥

٦٣ الريحاني

٦٤ حافظ وهبة

٦٥ أحمد عبد الغفور عطار

٦٦ عن حافظ وهبة نفسه عن مؤتمر القاهرة ٢٣ مارس ١٩١٨

٦٧ تقرير شكسبير ٤ يناير ١٩١٥ وبعث به من مخيم ابن سعود

٦٨ تقرير نائب الملك بالهند إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٢ فبراير ١٩١٥

٦٩ تقرير كوكس إلى حكومة الهند بتاريخ ٢٠ يونيه ١٩١٥ وانظر ١٠ م بالملاحق بقية تعليق كوكس

٧٠ فيلبي

٧١ غلوب

٧٢ حافظ وهبة

٧٣ الريحاني

٧٤/٧٥ اليزابيث مونرو عن فيلبي

٧٦ « مغامرات عربية »

٧٧ من رئيس الخليج (بوشهر) إلى سكرتير حكومة الهند (سملا) بتاريخ ١٩١٤/٨/٢٠

٧٨ من وزارة شئون الهند إلى شكسبير بتاريخ ٥ أكتوبر ١٩١٤

٧٩ من حكومة الهند إلى وزارة الخارجية ١٩١٤/١١/٢٥

٨٠/٨٢ اليزابث مونرو

٨٣ جون فيلبي

٨٤/٨٥ اليزابث مونرو

٨٦ برقية فيلبي إلى بغداد في ٨ أغسطس ١٩١٨

٨٧/٨٨ فيلبي

٨٩ صقر الجزيرة

٩٠/٩١ اليزابث مونرو وتاريخ المحادثة ٢٥ يوليو ١٩١٨

٩٢/٩٣ فيلبي

٩٤ ملوك العرب

٩٥ مغامرات عربية

٩٦ فيلبي.
٩٧ خمسون عاما في جزيرة العرب : وهبة
٩٨ ملوك العرب
٩٩ الزركلي
١٠٠/١٠٢ الريحاني . ملوك العرب
١٠٣ F.O. 2893-372-2665
١٠٤ قلب جزيرة العرب
١٠٥/١٠٦ F.O.E. 4522-1930
١٠٧ F.O. 371/12238
١٠٩/١١٢ حافظ وهبة
١١٣ الزركلي

الأتراك

١ الريحاني
٢ الزركلي
٣ ـ ٥ الريحاني
٦ الزركلي
٧ برو : عن توفيق بك العظم : مجموعة آثار توفيق بك العظم ـ الجامعة العثمانية والعصبية التركية .
٨ أرج الطيب في مآثر النقيب صفحة ٢٣ .
٩ صحيفة « الجريدة » المصرية ٣١ أغسطس ١٩٠٨ (١٣٢٦ هـ).
١٠ الزركلي .
١١ حافظ وهبة
١٢ From: The Caliph's Last Heritage. London 1915 P: 120
١٣ برو : عن شكيب أرسلان .
١٤ برو : عن الطاهر الزاوي ـ الأهرام ١٩/١١/١٩١١ (١٣٢٩ هـ)
١٥ عن جريدة الأهرام .
١٦ توفيق برو : عن محمود فؤاد شكري .
١٧ عن المؤيد : ٢٩/١٠/١٩١١ (١٣٢٩ هـ)
١٨ الرأي العام : ٣١/٧/١٩١٢ (١٣٣٠ هـ)
١٩ الطاهر الزاوي .
٢٠ الأهرام : ١٢/١٠/١٩١٢ (١٣٣٠ هـ)
٢١ تقرير شكسبير : ١٩١٣ (١٣٣١ هـ)
٢٢ عن الزركلي
٢٣ من نوكس إلى رئيس الخليج إلى حكومة الهند ١٨/٨/١٩١٤ (١٣٣٢ هـ) وجاء في تقرير شكسبير أيضا أن «النقيب يقبض مرتبا من ابن سعود»
٢٤ الريحاني .
٢٥ فيلبي .

٢٦ ـ ٢٧	الزركلي .
٢٨	حافظ وهبة .
٢٩	أحمد عبد الغفور عطار .
٣٠	تقرير قنصل البصرة ١٩١٦/١/٥ (١٣٣٤ هـ)
٣١	تقرير شكسبير ١٩١٥/١/٤ (١٣٣٣ هـ)
٣٢	من كتاب راندال باكر .
٣٣	رشيد رضا عن الزركلي .
٣٤	تاريخ الكويت .
٣٥	حافظ وهبة .

الأشراف

١	كتاب الملك حسين ومملكة الحجاز ـ راندال باكر
٢	الريحاني
٣	« الحسين ومملكة الحجاز »
٤ ـ ٥	حافظ وهبة
٦	الريحاني
٧	فيلبي
٨	الريحاني
٩	أحمد عبد الغفور عطار
١٠	« الملك حسين ومملكة الحجاز » عن ماضي الحجاز وحاضرة ، لمحمد نصيف ونشر في عام ١٩٣١ (١٣٥٠هـ) .
١١	الحسين ومملكة الحجاز
١٢	تقرير نائب الملك ١٩١٥/٢/٢ (١٣٣٣هـ)
١٣ ـ ١٤	رسالة الشريف حسين الى نائب الملك في القاهرة ٢١ ذي القعدة ١٣٣٦ ـ ٢٨ أغسطس ١٩١٨
١٥	أمين سعيد : أسرار الثورة العربية ومأساة الشريف حسين
١٦ ـ ١٧	« الملك حسين ومملكة الحجاز »
١٨	الزركلي
١٩	« الملك حسين ومملكة الحجاز »
٢٠	ابن بشر
٢١	الريحاني
٢٢	أحمد عبد الغفور عطار
٢٣	من برسي كوكس الى استورز بتاريخ ١٩١٧/٩/١٥ (١٣٣٥هـ)
٢٤	من تقرير فيلبي إلى حكومته ١٩١٨ (١٣٣٦هـ)
٢٥	اليزابيث مونرو
٢٦	الريحاني : نجد الحديث وملحقاته
٢٧	فيلبي « العربية السعودية »
٢٨	الزركلي « شبه الجزيرة »
٢٩	رسالة وينجت إلى الملك حسين ، النسخة المرسلة الى

آرثر جيمس بلفور القاهرة ٥ نوفمبر ١٩١٨ (١٣٣٧هـ)

٣٠ تقرير فيلبي ١٩١٨

٣١ رسالة وينجت المشار اليها

٣٢ برقية برقم ١٠٤٣٢ بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩١٨ ـ بغداد

٣٣ تقرير المكتب الهندي بتاريخ ١٩١٩/٢/٧ (١٣٣٧هـ)

٣٤ ـ ٣٥ باكر ـ فيلبي

٣٦ ديوان ابن عثيمين

٣٧ « الملك حسين ومملكة الحجاز »

٣٨ الريحاني : نجد الحديث

٣٩ الريحاني عن كتاب « ملوك العرب » بقلم الكولونيل جاكوب

٤٠ ن .م

٤١ الريحاني « ملوك العرب »

٤٢ ـ ٤٣ راندال باكر

٤٤ ـ ٤٥ الريحاني « نجد الحديث »

٤٦ الريحاني « ملوك العرب »

٤٧ ـ ٤٨ راندال باكر

٤٩ ن ـ م : (٢٨ مارس ١٩٢٢ ـ ١٣٤٠هـ) ـ PRO/Fo. 686

٥٠ فيلبي

٥١ اليزابيث مونرو

٥٢ الريحاني

٥٣ « الملك حسين ومملكة الحجاز »

٥٤ تقرير فيلبي

٥٥ اليزابيث مونرو في كتابها عن « فيلبي العرب »

٥٦ حافظ وهبه

٥٧ باكر عن : « ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ـ ١٣٤٠هـ/PRO/FO/86

٥٨ حافظ وهبة

٥٩ الريحاني

٦٠ أحمد عبد الغفور عطار

٦١ التايمس اللندنية ١٩٢٤/١٠/٣ (١٣٤٣هـ)

٦٢ الريحاني

٦٣ راندال باكر

٦٤ حافظ وهبة

٦٥ الريحاني « نجد الحديث »

٦٦ : ٦٨ راندال باكر « الملك حسين ومملكة الحجاز »

٦٩ الريحاني

٧٠ : ٧٢ أحمد عبد الغفور عطار

٧٣ باكر عن : PRO/Fo/68
بتاريخ (١٩٢٤/١٢/١٠ ـ ١٣٤٣هـ).

٧٤ صقر الجزيرة

٧٥ حافظ وهبة
٧٦ باكر عن : PRO/Fo/686
بتاريخ ١١/١٠/١٩٢٤ ـ ١٣٤٣هـ
٧٧ حافظ وهبة
٧٨ أحمد عبد الغفور عطار
٧٩ شبه الجزيرة
٨٠ الريحاني
٨١ حافظ وهبة « جزيرة العرب »
٨٢ حافظ وهبة « خمسون عاما »
٨٣ فيلبي
٨٤ الريحاني
٨٥ : ٨٧ حافظ وهبة
٨٨ شبة الجزيرة
٨٩ اليزابيث مونرو عن فيلبي

الاخوان

١ كتاب « الاصلاح الاجتماعي » لمؤلفه : الدكتور عبد الفتاح حسن ابو عليه ١٩٧٦ ـ ١٣٩٧ .
١ فيلبي Arabian Highlands
٣ اكتشاف جزيرة العرب .
٤ والين : رحلات في الجزيرة العربية .
٥ الخليج العربي : للدكتور كمال زكريا ـ الطبعة الأولى .
٦ غلوب « مغامرات عربية » .
٧ ابن سعود الملك الصالح . الناشر جوناثان كاب ليمتد طبع ١٩٣٣
٨ غلوب : مغامرات عربية .
٩ كنيث وليامز .
١٠ ـ ١١ في كتابه « الجزيرة تتوحد » الصادر سنة ١٩٨٠ ـ ١٤٠٠ .
١٢ الاصلاح الاجتماعي
١٣ وهي منقولة من : Vanees John: Meet the Arab p.83
١٤ ابن مانع
١٥ حافظ وهبه « الجزيرة العربية في القرن العشرين »
١٦ اليزابيث مونرو
١٧ محمد المانع
١٨ فيلبي
١٩ ابن مانع
٢٠ ـ ٢١ الريحاني
٢٢ راندال باكر : الملك حسين ومملكة الحجاز
٢٣ ـ ٢٤ الريحاني
٢٥ ـ ٢٦ حافظ وهبه « الجزيرة العربية في القرن العشرين » .

٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ فيلبي
٣٠ توتشل : العربية السعودية
٣١ ـ ٣٦ فيلبي
٣٧ الريحاني
٣٨ العجلاني
٣٩ فيلبي
٤٠ محمد المانع
٤١ الريحاني
٤٢ حافظ وهبه « جزيرة العرب في القرن العشرين »
٤٣ ـ ٤٥ غلوب : مغامرات عربية
٤٦ ـ ٤٧ مونرو
٤٨ فيلبي
٤٩ Vickery C. E. Arabia and the Hejaz.
عن راندال باكر
٥٠ محمد المانع « الجزيرة تتوحد »
٥١ الزركلي « شبه الجزيرة »
٥٢ الريحاني « نجد الحديث وملحقاته »
٥٣ ـ ٥٤ الاصلاح الاجتماعي
٥٥ عن ديكسون
٥٦ : ٥٨ حافظ وهبه « جزيرة العرب في القرن العشرين »
٥٩ ـ ٦٠ أحمد عبد الغفور عطار « صقر الجزيرة »
٦١ محمد أسد : الطريق الى مكة
٦٢ فيلبي
٦٣ الريحاني « نجد الحديث وملحقاته »
٦٤ غلوب « مغامرات عربية »
٦٥ فؤاد شاكر
٦٦ محمد المانع
٦٧ فيلبي
٦٨ حافظ وهبه « جزيرة العرب في القرن العشرين »
٦٩ غلوب « مغامرات عربية »
٧٠ محمد أسد : الطريق الى مكة
٧١ محمد المانع
٧٢ الاصلاح الاجتماعي
٧٣ ـ ٤ غلوب « مغامرات عربية »
٧٥ محمد أسد : الطريق الى مكة
٧٦ حافظ وهبه « خمسون عاما في جزيرة العرب »
٧٧ محمد المانع
٧٨ ـ محمد أسد : الطريق الى الاسلام
٨٠ ـ غلوب

٨٤ ـ ٨٥ فيلبي

٨٦ محمد المانع

٨٧ الزركلي

٨٨ حافظ وهبه « خمسون عاما في جزيرة العرب »

٨٩ محمد أسد

٩٠ : ٩٢ حافظ وهبه « خمسون عاما في جزيرة العرب »

٩٣ عن الزركلي والمقال نشر في عام ١٣٤٦ ـ ١٩٢٨

٩٤ محمد المانع

٩٥ ـ ٩٦ حافظ وهبه « جزيرة العرب في القرن العشرين »

٩٧ ـ ٩٨ الزركلي

٩٩ ـ ١٠٠ محمد المانع

١٠١ حافظ وهبه « خمسون عاما في جزيرة العرب »

١٠٢ محمد المانع

١٠٣ غلوب « مغامرات عربية »

١٠٤ ـ ١٠٥ الزركلي

١٠٦ محمد المانع

١٠٧ فيلبي

١٠٨ محمد أسد

١٠٩ محمد المانع

١١٠ : ١١٢ عن أحمد عبد الغفور عطار

١١٣ حافظ وهبه « خمسون عاما في جزيرة العرب »

١١٤ ـ ١١٥ محمد المانع

١١٦ انظر جون غلوب في مغامرات عربية

١١٧ حافظ وهبه : خمسون عاما في جزيرة العرب

١١٨ غلوب

١١٩ ـ ١٢٠ محمد المانع

١٢١ الزركلي

فهرس الاعلام

ز

س

ش

ملحوظة : لا يتضمن هذا الحصر الاسماء الاساسية التي تشكل مادة الدراسة لتعدد ذكرها بما لا يحقق فائدة من الحصر .

فهرس الموضوعات

صدر للمؤلف

مصريون لا طوائف	١٩٥٠
الجبهة الشعبية	١٩٥١
قانون الأحزاب	١٩٥٢
روسي وأمريكي في اليمن	١٩٥٧
شرف المهنة	١٩٦٠
الغزو الفكري	١٩٦٤
الماركسية والغزو الفكري	١٩٦٥
القومية والغزو الفكري	١٩٦٦
أبو ذر والحق المر	١٩٦٦
دراسة في فكر منحل	١٩٦٧
الطريق إلى مجتمع عصري	١٩٦٧
أخطر من النكسة	١٩٦٧
النكسة والغزو الفكري	١٩٦٨
ماذا يريد الطلبة المصريون	١٩٦٨
إيلي كوهين من جديد	١٩٦٩
الجهاد ثورتنا الدائمة	١٩٦٩
الثورة الفلسطينية	١٩٧٠
طريق المسلمين للثورة الصناعية	١٩٧٠
ماذا يريد الشعب المصري	١٩٧٠
ودخلت الخيل الأزهر	١٩٧٠
النابالم الفكري	١٩٧١
كلام لمصر	١٩٧٤
مغربية الصحراء	١٩٧٥
وقيل الحمد لله	١٩٧٥
منابع ثورة مايو	١٩٧٦